پلوتارخ

السِّيَر

الجزء الثالث



ترجمة: جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر

منشورات الجمل

پلوتارخ



الجزء الثالث

ترجمة: جرجيس فتح الله

منشورات الجمل

دار آراس للطباعة والنشر

بلوتارخ: السِّيَر، الجزء الثالث، ترجمة: جرجيس فتح الله

الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان ـ أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت – بغداد
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

الإسكندر

ALEXANDER

٣٥٦-٣٢٣ ق.م

لمّا صحّت نيّتي على كتابة سيرة حياة الملك الإسكندر وقيصر الذي انتصر على پومپي وجدت أن وقائعهما المجيدة تشمل فضاءً واسعاً، إن لم أبادر معتذراً إلى تنبيه قارئي بأني سأفضّل الاختصار على الإسهاب في كلّ واقعة أو حادثة خاصّة فسأقع تحت طائلة الانتقاد والمؤاخذة. وليكن معلوماً أيضاً بأن هدفي ليس تدوين التاريخ بل كتابة السِّيَر. وأعظم المآثر وأجلّها شأناً لا تزوّدنا دائماً بأوضح المعلومات عن الفضائل والرذائل البشرية. فأحياناً تجد في أحدوثة صغيرة قليلة الأهمية، كعبارة أو نكتة من النكات، خيرَ دليل على الأخلاق والميول لا تعدله أعظم وقائع الحصار المشهورة وأشدّ المعارك هولاً، وأضخم التجريدات العسكرية وما إلى ذلك. لقد كان رسّامو الصور دوماً أدقّ في رسم خطوط الوجه وملامحه من رسم سائر الأجزاء الأخرى من الجسم، لأن خُلق المرء يبدو على أساريره. لذلك أرجو أن يُسمح لي بصرف جُلّ اهتمامي إلى ما تستدلّ به على النفوس من علامات وإشارات، وفي الوقت الذي سأعمل جهدي في رسم صور حياتهم بواسطة ذلك، تاركاً أموراً تبدو أكثر أهمية، ومسقطاً عن بحثي سرد معارك حربية عظيمة، تاركاً معالجتها لغيري.

اتفق الكتّاب جميعاً على أن الإسكندر انحدر من ناحية أبيه من هركليس عن كارانوس Caranus ومن ناحية أمّه من أياكوس Æacus عن نيوپطليموس. وقد كان ابوه فيليب يقطن ساموثراكي وهو شاب يافع، عندما وقع في حُبّ أوليمپياس Olympias التي كان قد كُرّس معها دينياً في احتفالات البلاد، ومات عنها أبوها وأمّها بعد ذلك بوقتٍ وجيز. فتزوّجها بموافقة أخيها أريمباس Arymbas. وفي الليلة السابقة لزفافهما حلمت بأن صاعقة انقضّت على جسدها فأشعلت ناراً عظيمة تفرّقت ألسنتها فيما حواليها ثم خمدت. وبعد مرور زمن على الزواج رأى فيليب في الحلم أنه ختم على جسد امرأته بختم خُيّل له أن النقش المحفور عليه يمثل صورة أسدٍ. وقد فسّر بعض العرّافين هذا الحلم بأنه تحذير لفيليب ليشتدّ في مراقبة زوجه. إلاّ أن أريستاندر

Aristander التلمسوسي Telmessus أكد أن حلمه يعني أن الملكة قد حبلت بجنين ذكر سيكون في مستقبل الأيام قوياً شجاعاً كالأسد الضرغام. وقد توصّل إلى تفسيره هذا بعد أن تبيّن وجه استحالة ختم شيء فارغ.

فضلاً عن هذا، فقد شوهدت مرة أفعى مستلقية في الفراش مع أوليمپياس وهي نائمة. فكان هذا أهمّ عاملٍ في خمود عاطفة فيليب نحوها. وسواء في ذلك أكان مأتى برود عاطفته خوفه منها بوصفها ساحرةً، أو ظنّه بأن لها علاقة باحد الآلهة فعدّ نفسه غير مرغوبٍ فيه، فإن رغبته في مكالمتها قلّت.

وقال آخرون بأن النساء في بلادها كنّ شديدات التمسّك بممارسة الطقوس الأورفيّه Arphic[1] المتعصّبة، وعبادة باخوس المتطرفة (ولهذا السبب سُمّين كلودونس Clodones وميمالونس Mimalones) مقلّدات في أمور كثيرة ما تمارسه النساء الإيدونيات Edonians والثراقيّات قريباً من جبل هايموس Haemus. ومن هذا يبدو أن كلمة ترسكووين Threskeuein قد اشتُقّت فصارت تعبيراً يُطلق على السطحي والغريب جداً من العبادات. أن أوليمپياس التي كانت شديدة التمسّك بهذه الطقوس والعبادات المتعصّبة الجنونية كانت تمارس الرقص الذي هو جزءٌ من تلك الطقوس، بعد أن تلفّ أفاعي عظيمة مدجّنة على جسدها كما تفرضه تلك العبادات، فتخلف في الناظر أثراً مرعباً متوحشا. كانت تلك الافاعي تلتفّ أحياناً حول الرماح المقدّسة وأكاليل الرؤوس فلا يقوى الرجال على ادامة النظر خوفاً.

بعد هذا الحلم بعث فيليب خيارون Chaeron الميغابوليسي ليستشير عرّافة أپوللو في دلفي. فورد الأمر بأن يقدّم قرباناً وأن يخصّ من الآن فصاعداً الإله أمون من بين سائر الآلهة بأكبر التعظيم والتكريم. وأُنذر بأنه سيفقد يوماً ما تلك العين التي خُيّل له بأنه اختلس النظر بها من شقّ الباب فرأى الإله وهو على شكل حيّة مع زوجته. ويقول إيراتستينوس Eratosthemos بأن أوليمپياس عندما رافقت الإسكندر وهو في طريقه للانضمام إلى الجيش والمشاركة في أول قتال له، كشفت له عن سِرّ ولادته وطلبت منه أن يتحلّى بالشجاعة والإقدام الجديرين بأصله الإلهي. ويؤكد آخرون أيضاً أنها نفت نفياً قاطعاً أيّ ادّعاءٍ من هذا القبيل وكانت تردّد دائماً قولها شاكية:

(١) نسبة إلى أورفيوس الذي ورد ذكره في أسطورة إغريقية تقول إنه كان موسيقياً لحق بامرأته يوريديس إلى عالم الأموات. وقد سحر پلوتر بألحانه فأجاز له إخراج امرأته من ذلك العالم شريطة أن لا ينظر خلفه عند خروجه إلاّ أنه فعل ذلك في آخر لحظة ففقدها.

- متى يكفّ الإسكندر عن الافتراء عليّ عند جونو؟

ولِد الإسكندر في السادس من شهر هيكاتومبيوس الشهر الذي يسمّيه المقدونيون لوس Lous. وهو يتفق واليوم الذي احترق هيكل ديانا في أفسس. وهي مناسبة تافهة يجعلها هيگسياس Hegesias المغنيزي سبباً لوقف النار وانطفائها، إذ يقول إن النار شبّت في المعبد فاحترق، أثناء غياب سيدته التي ذهبت لمساعدة أوليمپياس أثناء المخاض بالإسكندر. إن العرّافين الشرقيين الذين صادف وجودهم في أفسس أثناء الحريق اتفقوا كلهم على أن خراب الهيكل ما هو إلاّ مقدّمة لمصيبة أخرى، فأخذوا يتراكضون في أنحاء المدينة وهم يلطمون ويصرخون قائلين إن أمراً جللاً سيتمخّض به هذا اليوم وسيكون فيه القضاء والدمار لآسيا كُلّها.

ما إن استولى فيليب على پوتيديا Potidæa حتى تسلّم رسائل ثلاثاً في آن واحدٍ. الأولى تعلمه بأن پارمينيو Parmenio قد هزم الألليريين في معركة عظيمة. والثانية تنبئه بأن حصانه قد خرج فائزاً في سباق الألعاب الأولمبية. والثالثة تبشّره بولادة الإسكندر. فكان اغتباطه عظيماً بطبيعة الحال. وقد زاد في سروره أن العرّافين أكدوا له أن ابناً صادفت ولادته مثل هذه البشائر الثلاث هو بلا شكّ جبّار لا يُغلب.

إن أقرب التماثيل شبهاً بالإسكندر هي بلا جدال التماثيل التي صنعها له ليسيپّوس Lysippus بأذنٍ خاصٍ منه. وإنّ تلك المميّزات غير المألوفة حاول كثيرٌ من خلفائه وأصدقائه محاكاتها فيما بعد، مثل ميلان رأسه قليلاً إلى جانبٍ من جهة كتفه اليسرى، وعينه الناعسة مما بلغ النحّات في تصويره غايةَ الدقّة والإتقان. إلاّ أن أپيلليس Apelles الذي صوّره ممسكاً بيده صاعقةً جعل بشرته أكثر اسمراراً ودكنةً مما هي في الواقع، إذ كان أشقر أبيض البشرة مع شيء من الحمرة في الوجه والصدر منه. ويحدثنا أرسطوكزينس في مذكراته بأن أطيب ريح كانت تفوح من جلده وأن انفاسه وجسده كانت معطرة بصورة طبيعية حتى أنها كانت تُعطِّر الثياب التي تلي بشرته. ولعلّ سبب ذلك يعود إلى مزاجه الحارّ الناريّ. فالرائحة الزكية على قول ثيوفراستوس تتأتّى من تآلف الأخلاط الأربعة[٢] الرطبة مع الحرارة. وهذا هو السبب في أنّ تلك الأجزاء التي هي أكثر جفافاً وتعرّضاً لحرارة الشمس من العالم تنتج أحسن التوابل وأكثرها، لأن حرارة الشمس تستنزف كل الرطوبة الخارجية التي تكسو سطح الأجسام تلك الرطوبة التي من شأنها أن تحدث الفساد والعفونة. إن هذا التركيب الحارّ قد يكون السبب في

(٢) في الطبّ القديم: الأخلاط الأربعة هي الدم والبلغم والسوداء والصفراء.

إدمان الإسكندر شرب الخمر، وفي سرعة غضبه. أما اعتداله فيما يتعلق بملذّات الجسد فقد وضح فيه منذ نعومة أظفاره. فقد كان يصعب جداً إثارته من هذه الناحية، وظلّ يمارسها أبداً بكثير من الاعتدال. أمّا في الأمور الأخرى فقد كان شديد التطرّف والحرارة. لقد أظهر في حبّه المجد وفي جدّه ومتابعته له جلداً وثباتاً تمازجه روح عالية وشهامة أكبر بكثير من عُمره. فلم يتطلّبها أو يؤثرها في كل مناسبةٍ تتفق له كما كان يفعل أبوه فيليب. (كان ينتهز كل فرصة لإظهار فصاحة لسانه إلى حدّ الحذلقة، وكان يعمد إلى نقش صور عجلات سباقه في الألعاب الأولمبية على سكّته)، فعندما سأله أحد أصحابه هل سيدخل في سباق الألعاب الأولمبية بوصفه عدّاءً سريعاً، أجابه بقوله إنه سيفعل ذلك لو كان المتسابقون معه ملوكاً مثله. والواقع أنه كان يبدو عموماً عديم الاكتراث بالرياضيين المحترفين إن لم يكن يكرههم. وكثيراً ما كان يضع جوائز لا ليتنافس عليها الممثلون والموسيقيون والزمّارون واللاعبون على القيثار وحدهم، بل لشعراء الحماسة أيضاً. وكان يهوى كل أنواع الصيد، والمبارزة بالعصيّ إلاّ أنه لم يكن يشجّع أي نزال ملاكمة أو مصارعة حُرّة.

وكان وهو في مطلع شبابه يستقبل السفراء القادمين من ملك الفرس في غياب أبيه. ويدخل معهم في مناقشات كثيرة فينال احترامهم بدماثته وطيب مجلسه، وكانوا يُعجبون كثيراً بأسئلته التي تسمو عن الفهاهة والصبيانية. فمثلاً يستفسر منهم عن احوال الطرق وطبيعة المسالك إلى داخل آسيا، وعن عادات ملكهم وكيف يواجه أعداءه في الحرب وكم هي القوات التي يستطيع الزجّ بها في ساحة القتال. فيمتلئون إعجاباً به فيعدّون كفاءة فيليب المشهورة التي طبقت شهرتها الآفاق لا شيء بالمقارنة إلى النضوج المبكر الذي بدا في ابنه في المبدأ، وفي شرف الأغراض التي يتوخّاها.

وبدل أن يداخل الإسكندر الابتهاج عند سماعه نبأ استيلاء أبيه على مدينة هامّة أو نال نصراً مؤزّراً، تراه يشكو لرفاقه قائلاً إن أباه سيستولي على كلّ شيء ولن يترك لهم وله أية فرصة لتحقيق مأثرة عظيمة أو عملٍ مجيد. ولأنه كان أكثر ميلاً للمجد والعمل من الثروة والمسرّات، تراه يعتبر ما سيرثه من أبيه تافه القيمة ومانعاً يعيقه عن اطّلاب المجد في المستقبل. وكان يفضّل أن يرث مملكةً تسوها الفوضى وتتجاذبها الحروب لتتيح له أكبر الفرص في إظهار شجاعته واستخدامها لتكون ميداناً فسيحاً لمآثر وعظائم الأعمال، على أن يجلس على عرش مملكة وطيدة الأركان مزدهرة، فيرث حياةً هادئة خالية من النشاط، يحفّ بها الترف والثروة.

ولقد أُنيط أمر تعليمه كما هو مفروض بكثير من الخدم والمدرّبين والمعلّمين، في

مقدّمتهم ليونيداس. وهو من أقرب أقرباء أوليمپياس، رجل صارم الخلق لم يفرض هو نفسه عنواناً لمنصبٍ كان في الواقع مشرفاً ورفيعاً، إلا أن وقاره ومهابته ودرجة قرابته على العموم أكسبته لقب الأب التربوي للإسكندر من دون سائر الآخرين. إلاّ أن ليسيماخوس الأكرناني Acrnanian هو الذي احتلّ الصدارة في تهذيبه، فقد رسم ووضع منهاج تعليمه، ومع أنه لم يتميّز بميزة خاصة تؤهّله لهذا المركز فإن ميله إلى تلقيب نفسه بـ«فيونكس» وتسميته الإسكندر بـ«أخيل» وإطلاقه اسم پليوس Pelleus على فيليب كانت سبباً في الحظوة التي نالها ليلي ليونيداس في هذا المنصب.

أقبل فيلونيكوس Philonicum التسالي على فيليب وساومه على شراء الحصان المسمّى بوكيفالوس Bucephalus بمبلغ ثلاثة عشر تالنتاً. فأُخِذ إلى ميدان الطرد لتجربته، فتبيّن أنه شرسٌ للغاية، جموح لا يسلس قياده، نفور لا يتحمّل صوت أي خادم من خدم فيليب، فأبى شراءه. وفيما كانوا يخرجونه قال الإسكندر الذي كان بين الواقفين:

– أسفاً على هذا الحصان الممتاز. لقد خسروه لأن الجرأة والبراعة في ترويضه تنقصهم.

في مبدأ الأمر لم يأبه فيليب بملاحظة ابنه، ولكنه أصاخ سمعه عندما راح الإسكندر يردّد ذلك مرّات، وهو متميّز غيظاً، فابتدره قائلاً:

– أتنتقد أولئك الذين يكبرونك سِنّاً، كأنك أفهم منهم، وكأنك أقدر على ترويضه؟

فأجابه الإسكندر بقوله:

– أي نعم، إن بوسعي معالجة أمر هذا الجواد بشكل يفضل عن الآخرين.

قال فيليب:

– فإن عجزت عن ذلك، فما هي الغرامة التي تدفعها جزاء تهوّرك واندفاعك؟

أجاب الإسكندر:

– إني أدفع ثمن الجواد برمّته.

فضحك كل الحاضرين. وتمّ الرهان بين الأب والابن. وأعيد الحصان فأسرع إليه الإسكندر وأمسك بلجامه وادار رأسه باتجاه الشمس إذ لاحظ – كما يظهر – أن الحيوان مضطرب وجِلٌ من حركة ظِلّه. وبعد ذلك تركه يسير إلى أمام قليلاً وهو ممسك بالأعِنّة، يربّت على جسمه ربتات رفيقة هيّنة كلّما وجد أمارات القلَق والجموح تراوده. ثم ترك معطفه الخارجي يسقط عنه بهدوء وبقفزة واحدة رشيقة اعتلى ظهره وشدّ ساقيه

شداً محكماً عليه. وما إن استقرّ على صهوته حتى راح يجذب الأعِنّة إليه رويداً رويداً حتى شكمه دون أن يحتاج إلى ضربه أو حثّه. وعندما تبيّن له أن كل أثر للهياج قد زال منه، وأن قلقه قد قُضي عليه، أطلق له العنان فجرى بأقصى ما وسعه، وهو يحثّه بين الفينة والفينة بصوت آمرٍ ويحثّه همزاً بكعب قدمه. وكان فيليب وأصحابه ينظرون إلى النتيجة بقلقٍ صامتين، حتى إذا رأوه يستدير عند نهاية الميدان ويعود أدراجه فرحاً ظافراً لما حققه، انطلقت الحناجر تهتف استحساناً وتصرخ إعجاباً. وقيل إن أباه بكى فرحاً وعانقه بعد أن ترجّل. وابتدره وهو في نشوة حبوره:

- مرحى لك عن مملكة جديرة بك ولائقة.

بعد هذه الحادثة اقتنع فيليب بأن خُلق ابنه ومعدنه يستوجب أن يستخدم العقل والمنطق، لا القوة والإكراه، فكان دائماً يقدّم أسلوب الإقناع على أسلوب الإرغام والأمر. كذلك تبيّن له أن تهذيب وتعليم هذا الابن الشابّ أصعب وأهمّ من أن يناط بمعلّمين للموسيقى والشعر والمألوف من العلوم المدرسية عاديين، وإنما يقتضي له «اللجام والمقود معاً».

على حَدّ قول سوفوكليس، أرسل يستقدم أرسطاطاليس أثقف وأشهر فلاسفة عصره. وأغدق عليه العطايا بسخاءٍ يوازي ويناسب العناية التي بذلها في مهمّة تعليم ابنه. فمن ذلك أنه أعاد الحياة إلى ستاگرا Stagira مسقط رأس الفيلسوف وكان قد دكّها قبل زمن قصير، وأعاد إليها كل سكانها الذين كان قد نفاهم أو باعهم عبيداً. وخصّص هيكل الحوريات Nympha المجاور لمدينة ميزا Mieza ليكون محلاً للدراسة والتدريب. والناس في يومنا هذا يدلّونك على مقاعد أرسطاطاليس الحجرية التي كان يجلس عليها، والممرّات الظليلة التي كان يرتادها.

وقد يخيّل للمرء أن الإسكندر أخذ عن هذا الفيلسوف مبادئه في الأخلاق والسياسة فضلاً عن جانبٍ من تلك النظريات الأكثر عمقاً وغموضاً، التي يدّعي أولئك الفلاسفة (كما تدلّ الأسماء التي يطلقونها عليها) بأنهم يدّخرونها للحوار الشفوي للمبتدئين، ولايسمحون لسواد الناس بالتعرّف عليها بنشرها كتابةً. وعندما كان الإسكندر في آسيا سمع أن أرسطاطاليس نشر رسائل من هذا النوع فكتب إليه رسالته التالية مستخدماً أبسط لغة فلسفية:

«من الإسكندر إلى أرسطاطاليس، تحيةً. لقد أسأت صُنعاً في نشرك كتبك حول المبادئ الشفوية. ماذا بقي لنا بعد هذا لنمتاز به عن الآخرين في هذه الأمور التي تثقفنا بها بصورة خصوصية، عندما صارت متاحةً للجميع؟ وأنا

أؤكد لك من جهتي أني أفضل أن أمتاز عن الآخرين في معرفة ما هو رفيع سام، على أن أكون في طليعة الآخرين في توسيع سلطاني وآفاق حكمي. والسلام».

ويتكلّم أرسطاطاليس عن هذه المبادئ مخفّفاً من شدّة شغف الإسكندر بالمحافظة على تلكم المبادئ، فيقول:

«إنها منشورة وغير منشورة في الوقت نفسه». وإن تحرينا الواقع فكتبه عن الميتافيزيقا كتبت بأسلوب تبدو فيه وهي معدومة الفائدة للتعليم الاعتيادي، كما تبدو مفيدة كمذكرات لأولئك الذين ضربوا بسهم وافرٍ في هذه العلوم.

مما لا شك فيه أيضاً أن الإسكندر مدين أيضاً لأرسطاطاليس بميوله، لا في العلوم الطبية النظرية وحدها، بل في الطبّ التطبيقي العمليّ. وكنت تجده - عندما يصاب صديق له بداءٍ - ينظّم له الحِمْيَة، ويصف له الدواء الأصلح، كما تجد ذلك واضحاً في رسائله. وكان بطبعه من أعظم محبّي كل أنواع المطالعات والبحوث العلمية. ويحدثنا أونيسقريطوس Onesicritus بأن الإسكندر كان يحتفظ دائماً بالنسخة التي صحّحها أرسطو من إلياذة هوميرس المعروفة بـ«النسخة المعلّبة» تحت وسادة سريره مع خنجره. وهو يصفها قائلاً إنه يعدّها كنزاً مغنياً سهل الحمل والنقل - جمعت كلّ الفضائل العسكرية ومعارفها. وكان وطابه خالياً من الكتب وهو في آسيا الشمالية فأمر هارپالوس Harpalus بإرسال طائفة منها إليه. فزوّده بتاريخ فيلستوس Philistus وبعدد جدّ كبير من تمثيليات يوربيدس، وسوفوكليس وأسخيلوس، وببعض الملاحم الشعرية الحماسية من نظم تيلستس Telestes وفيلوكزينيس Philoxenus. وقد ظل زمناً مولعاً شغوفاً بأرسطاطاليس وأنزله منزلة لا تقلّ عن أبيه في نفسه، كما كان يصرّح هو نفسه، معلّلاً ذلك بأن أحدهما منحه الحياة، وثانيهما علّمه كيف يعيش أفضل حياة. إلاّ أن علاقتهما الصميمة وتوادّهما العميق أخذا يفتران فيما بعد، بسبب شكّ ساور الإسكندر فيه ولم يكن هذا الشكّ من الخطورة بحيث يدفعه إلى أذيّته. وعلى أية حال فقد خبت نار تلك العاطفة حتى أدّت إلى القطيعة. على أن توقانه الشديد وشغفه بالعلم ظلاّ في نموّ مطّردٍ بعد أن رسخت جذورهما فيه، ولم تخب شرارتهما مطلقاً. ويدلّ على هذا تكريمه لأناكسارخوس، وإعطاؤه هدية مالية لكزينوقريطس قدرها خمسون تالنتاً، وعنايته الخاصة وإكرامه لكلّ من دانداميس Dandamis وكالانوس Calanus.

عندما جرّد فيليب حملته على البيزنطيين عيّن الإسكندر نائبه في مقدونيا وهو لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً وفوّض إليه ختمه. فلم يركن الإسكندر إلى العطالة وجرّد

حملة على الميدي Maedi الثائرين وأخضعهم. واستولى على مدينتهم الكبرى عنوةً وطرد سكانها البرابرة، وأسكن في محلّهم مستعمرين من عدّة قوميّات. وأعاد تسمية المدينة باسمه: إسكندروپوليس. وفي موقعة خيرونيا التي خاضها أبوه ضدّ الإغريق قيل إنه كان أول جندي في الجيش هجم على «العصبة الثيبية المقدسة». وعلى ما أذكر إن شجرة بلّوط بالقرب من نهر كفيسبوس يطلق الناس عليها اسم «بلّوطة الإسكندر»، كانت قد أظلّت خيمته التي ضُربت تحتها في حينه. ويرى المشاهد على مسافة منها قبور المقدونيين الذين خرّوا صرعى في تلك المعركة. هذه البسالة التي أبداها الإسكندر وهو في مقتبل عمره زادت من محبّة فيليب له. فلم يكن يسرّه شيء قدر سماعه رعاياه يمدحون قائدهم «فيليب» وينادون ابنه الإسكندر ملكهم.

إلاّ أن الشقاق الذي حصل في الأسرة، وسببه الرئيس تعدُّد زيجات فيليب وارتباطاته بالمصاهرة، أثارت أنواع الخلافات والأحقاد فيما بينهما، اتباعاً للقول المأثور: إن المشاكل التي تبدأ في حجرات النساء تنتهي بالانتشار إلى سائر أنحاء المملكة. وقد زاد من هذه الخلافات حدّة «الطبع الحادّ العنيد الذي تمتاز به أوليمپياس وكانت امرأة شديدة الغيرة والحقد. فقد أخذت تدفع بابنها الإسكندر وتحرّضه ضد أبيه. والحادثة التالية تُعتبر في مقدّمة الأسباب التي أدت إلى القطيعة.

وقع فيليب في حُبّ كليوپاترا، وكانت أصغر منه بكثير، فتزوّجها. وفي ليلة العرس راح عمّها أتالوس في مجلس الشراب يبتهل إلى الآلهة حتى تمنّ على المقدونيين بوارث شرعي لمملكتهم، ثمرةً من أحشاء بنت أخيه. فتميّز الإسكندر غيظاً وتناول قدحاً وقذف به أتالوس فشجّ رأسه وهو يصيح به محتدّاً:

- أأنا نغل إذن؟ تبّاً لك أيها النذل.

وعندها نهض فيليب ليتخذ جانب أتالوس وكاد يفتك بابنه لو لم يعمل حُسن الصدف عمله فقد شاء أن يعثر فيسقط على الأرض، إما بكثرة ما عبَّ من الخمر وإما للعجلة المتأتّية من هياجه. فوقف الإسكندر يسخر منه بشكل مهين قائلاً: «انظروا إلى الرجل الذي يستعدّ للعبور من أوروبا إلى آسيا كيف هوى على الأرض عندما أراد الانتقال من مقعدٍ إلى آخر؟».

بعد هذه الفضيحة انفصل الإسكندر هو وأمّه عن فيليب ورحلا عنه. فاستقرت هي في إپيروس وانسحب هو إلى الليريا.

في ذلك الزمان، أقبل ديماراتوس الكورنثي على فيليب زائراً. وكان صديقاً للأسرة

جدّ مقرّب، له حرية مطلقة في قول ما يريد دون أن يخشى بأساً. وبعد التمهيد والعناق والسلام والتحايا، بادره فيليب سائلاً:

- ما حال الإغريق؟ أهم على صفاء ووئام بعضهم مع بعض؟

فأجاب ديماراتوس بقوله:

- لا أرى من حقك أن تهتمّ بأحوال الإغريق مطلقاً. وقد ورّطت بيتك في هذه المآسي والخصومات.

فوقع كلامه هذا في نفس فيليب وأدرك أصالة اللوم الذي تضمّنه فأرسل فوراً يستدعي ابنه، وتوسّط ديماراتوس فنجح في إقناع الابن بالعودة إلى أبيه. إلاّ أن هذا الصلح لم يدم طويلاً فقد بدأ الخصام ثانية، عندما أرسل بكسودوروس Pixodorus نائب ملك كاريا Caria رسوله أرستوقريطس للتوسّط في عقد زواج ابنته الكبرى على أريديوس Arrhidæus ابن فيليب مؤمّلاً أن يضمن من هذه المصاهرة معونة الملك المقدوني وقت الضرورة. فبادرت أم الإسكندر وبعض المتظاهرين بالصداقة يملأون رأس الإسكندر بحكايات وتخرّصات تدور كلها حول هذا:

إن فيليب بهذه المصاهرة الممتازة والتحالف الهام إنما يرمي إلى تمهيد الطريق لاستخلاف أريديوس على عرشه وحرمان بكره. ودفع به الخوف من ذلك إلى أن بعث بتيسّالوس Thessalus التراجيدي إلى كاريا لتشويه سُمعة بكودوروس وتحقير أريديوس كليهما بوصفهما ابني سِفاحٍ وأحمقين. كما خوّله أن يحاول إقناع الأول منهما بقبوله زوجاً لابنته. فتمّ له ما أراد لأن العرض الثاني كان أفضل بكثير من الأول. وما إن علم فيليب بما يجري حتى قصد مسكن ابنه الإسكندر يرافقه فيلوطاس ابن أرمينو من أخلص أصدقاء ابنه وعشرائه، وهناك اشتد في توبيخه وتقريعه، وقسا في تعنيفه قائلاً:

«إن حِطّة الخلق بلغت به غاية التدنّي، فهو والحالة هذه غير جدير بالسلطة التي سيخلّفها له طالما رغب في مصاهرة كاريّ وضيع المنبت، لايزيد عن عبد لأمير بربري». حتى هذا لم يطفئ سورة غضب فيليب، فكتب يأمر القورنثيين بأن يرسلوا إليه ثيسالوس مصفّداً بالاغلال، وأمر بنفي هاريالوس وينارخوس وبطليموس وإيريجيوس Erigyuis أصفياء الإسكندر وعشرائه، إلاّ أن هذا أعادهم فيما بعد ورفعهم إلى أعلى المناصب وأكرمهم غاية الإكرام.

وبعد هذا بقليل وقع على پاوسانياس Pausanias اعتداءٌ بتحريض أتاليوس وكليوپاطرا. ولما وجّد نفسه عاجزاً عن الانتصاف لنفسه من ذلك العار الذي أصابه على يد فيليب، أخذ يتربّص به حتى تمكن منه وقتله. وقد حُمّلت أوليمپياس معظم

وزر هذه الجريمة إذ أشيع أنها حرّضت واستفزت في نفس الفتى الغاضب روح الانتقام. وقد حام شيء من الشكّ حتى على الإسكندر نفسه، إذ قيل إنه عندما أقبل عليه پاوسانياس شاكياً ما لحقه من غدرٍ، ردّد على مسامعه مقطعاً من مسرحية ميديا Medæ ليورپيدس: «على الزوج، وعلى الأب، وعلى العروس»

وعلى أية حال فإن الإسكندر بذل الجهود لاكتشاف شركاء القاتل في مؤامرته وعاقبهم بصرامة؛ وكان شديد الغضب من أمّه لأنها عاملت كليوپاطرا زوج أبيه معاملة قاسية لا إنسانية في أثناء غيابه.

كان للإسكندر من العمر عشرون سنةً عندما قُتل أبوه وخلفه في حكم المملكة التي كانت تكتنفها المخاطر العظيمة وتمزّقها الفوضى ومكائد الأعداء الحاقدين. ومن ذلك أن الشعوب البربرية التي كانت تحادّ مقدونيا أبت أن يحكمها إلاّ أميرٌ من أمرائها. ومع أن فيليب حقق انتصاراته الحاسمة على الإغريق فإن الوقت لم يتسع له لإكمال فتوحه وتعويد تلك الشعوب طاعته والخضوع لسطانه، ولهذا نزل تلك الشعوب وهي في حالٍ لاتوصف من الفوضى والغليان، وكانت تلك الفترة بالنسبة للمقدونيين أحرج فترةٍ. وودّ بعضهم لو تمكنوا من إقناع الإسكندر بالتخلّي عن فكرة إبقاء الإغريق تحت سلطانه، ونصحوه باتباع سياسة اللين والرقة لكسب ولاء العشائر التي كانت تنوي الثورة عليه. وأشاروا عليه بتجربة أسلوب العفو والغفران لوقف أولى بوادر الثورة. لكنه رفض تلك النصائح بوصفها من دلائل الاستخذاء والضعف. وكان يرى خلاف ذلك أنه من بُعد النظر والحكمة تثبيت سلطانه بالعزم والصرامة والمثابرة لأنها خير من الإذعان والاستكانة لأنهما يشجّعان الجميع على الانتقاض والثورة. وبتطبيق فكرته هذه تمكّن من القضاء على ثورة البرابرة. وبدّد كل فكرة قد تراودهم بشنّ حرب، فقد قاد حملة مفاجئة على بلادهم ووصل بها إلى ضفاف الدانوب وأوقع هزيمة نكراء بسيمروس Symrus ملك التريباليين Triballians في معركة فاصلة. ولما وردته أنباء قيام الثيبيين بثورة عليه زحف عليهم باتفاق مع الأثينيين من مضيق ترموپيلي قائلاً قولته المأثورة:

- لقد سمّاني ديموستينس «طفلاً» عندما كنت في «الليريا» وفي بلاد «تريباليا». وسمّاني «شاباً» عندما كنت في «تساليا». ولكني سأبدو له رجلاً عند وصولي أسوار أثينا!

وصل الإسكندر إلى ثيبه وأراد إظهار مبلغ رغبته في الصفح عن أهاليها وقبول دخالتهم بعدما فعلوا. ولم يطلب منهم غير فيونيكس Phoenex وپروثيتوس Prothytes وهما الرجلان اللذان تزعّما العصيان. وأعلن أيضاً العفو العام عن كل من

ينضمّ إليه. إلاّ أن الثيبيين ردّوا على بيانه هذا ببيان آخر طالبوه فيه بتسليم كلٍ من فيلوطاس وأنيتباطر. وأعلنوا من جانبهم الدعوة لكلّ من يؤيّد حرية اليونان واستقلاله بأن ينضمّ إليهم، وهنا لم يسع الإسكندر إلاّ أن يمارس معهم أمرّ وأقسى جانبٍ من الحرب. والواقع أن الثيبيين دافعوا عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً وأبلوا أحسن البلاء. لكن عندما كرّت عليهم الحامية المقدونية من القلعة وجدوا أنفسهم مطوّقين من كل جهة بحيث إن القسم الأعظم منهم خرّ صريعاً في ساحة القتال. وتم فتح المدينة عنوةً ونُهبت ثم دُكّت دكّاً. وكان الإسكندر بهذا يريد أن يضرب مثلاً لإرهاب بقية شعوب الإغريق وإرغامهم على الرضوح لحكمه بمثل هذا العقاب الصارم، كما كان يريد أيضاً شفاء غليل حلفائه الفينقيين والبلاتانيين Plataens من أعدائهم المقهورين. وهكذا لم يبق من سكانها البالغ تعدادهم ثلاثين ألفاً غير الكهنة ونفر قليل ظلوا على صداقتهم وعلاقتهم مع المقدونيين، وأسرة الشاعر پندار وأولئك الذين عُرفوا بمعارضتهم الحرب أثناء التصويت العام عليها. وهكذا بيع جميع السكان في سوق العبيد وقُضي على ستة آلاف بحدّ السيف.

ومن البلايا الأخرى التي انصبّت على المدينة أن بعض الجنود الثراقيين اقتحموا بيت واحدة من عقائل المدينة، عُرفت بالخلق العالي وكرامة المحتد، تدعى تيموكليا Timoclea وبعد أن اغتصبها قائد الجنود، طلب منها إرضاءً لجشعه، بعد إرضاء شهوته، أن تدلّه على مكان مالٍ مخفيّ فأسرعت تقول إنها تعلم بوجود مالٍ. وطلبت منه أن يتبعها إلى الحديقة حيث أرشدته إلى بئر وقالت له إنها قد ألقت في أعماق البئر بأثمن ما في حوزتها عندما هوجمت المدينة. فانحنى الثراقي الجشع ليتفحّص الموضع الذي توهّم وجود الكنز منه فتقدّمت منه ودفعته إلى أعماق البئر ثم راحت تقذف بأحجار كبيرة فوقه حتى قضت عليه. فقادها الجنود وهي موثقة إلى الإسكندر. وسرعان ما أثبتت له شجاعتها وثبات قدمها في سيرها أنها امرأة ذات منزلة وعقل راجح لا يسمح بأيّ أمارة للخوف أو الاندهاش. وسألها الملك عمّن تكون فأجابته قائلة:

- أنا أخت ثايجنيس Theagenes الذي خاض غمار معركة خيرونيا مع أبيك فيليب وخرّ صريعاً في سبيل حرية بلاد الإغريق.

فكان عجب الإسكندر شديداً مما قالته وما فعلته، فلم يسعه إلاّ أن يمنحها هي وأولادها الحرية والأمان بالتوجّه أنّى شاءت.

ثم إنه قبِل ندامة الأثينيين، وبالغ في إكرامهم مع أنهم ساهموا مساهمة كبيرة في نكبة ثيبا. وعلى سبيل التفكير والتعبير عن أسفهم لما وقع ألغوا الاحتفالات بعيد

الأسرار. وأكرموا وفادة أولئك الذين سلمت أرواحهم. وعاملوهم أفضل معاملة إنسانية. ولسنا ندري أكان الإسكندر كذلك الأسد الذي خمدت سورة غضبه بعد أن ارتوت نفسه، أو أنه أراد أن يبدو رفيقاً رحيماً بعد أن ضرب هذا المثل المتناهي في الصرامة. وعلى أية حال فقد كان تبدّله هذا من حسن حظّ الأثينيين. ولم يكتف بالصفح عن زلاتهم الماضية، بل توجّه إليهم ناصحاً بأن يعالجوا شؤونهم بالحكمة واليقظة، متذكراً بأنه أن أخفق في أعماله فإن الأثينيين على أغلب الاحتمال سيكونون بمثابة الوسطاء للإغريق. ومن الثابت كذلك أنه ندم كثيراً على ما فرّط منه من قسوة بحق الثيبيين. وكان لأسفه هذا أثره الشديد على خُلقه، فقد بات أقلّ شدّة وصرامة من الآخرين. أُلصقت به أيضاً تهمة قتل كليتوس Clitus، في مجلس شراب. كما أن إباء المقدونيين إطاعة أمره بالزحف لقتال الهنود، وتهديد مشاريعه بالفشل ومجده بالزوال، كان من أثر سخط وانتقام باخوس حامي ثيبه. وقد لوحظ أنه كان يُغضي الطرف عن أيّ ثيبي نجا من الموت، ويحقق له كل سؤله وينيله مطلوبه ولا يردّ لهم طلباً مهما كان.

بعد هذا كله أجتمع الإغريق في الأسموس وأعلنوا اعتزامهم الانضمام إلى الإسكندر في حربه مع الفرس كما أمّروه قائداً عاماً لهم. وأقبل عليه أثناء وجوده هناك عدد كبير من عظماء الكهنة والفلاسفة وتقاطروا من شتّى الأرجاء لزيارته وتهنئته بمنصب القائد العام. إلاّ أن ديوجينس السينوبي الذي كان يقطن في كورنث لم يأبه به ولم يحتف بمقدمه خلافاً لما كان الإسكندر يتوقّعه. ولم يتحرك قيد أنملةٍ من ضاحية كرانيوس حيث وجده الإسكندر مستلقياً في أشعة الشمس. وعندما وجد هذا الفيلسوف الحشدَ العظيم بالقرب منه رفع نفسه قليلاً وتنازل بالنظر إلى الإسكندر فسأله هذا بلطفٍ عمّا إذا كان يريد أن يحقق له حاجةً فأجابه الفيلسوف قائلاً:

- أجل لي حاجة لديك، إنك تحجب الشمس عنيّ فأريدك أن تتنحّى قليلاً.

فأصيب الإسكندر بصدمة وذُهِل من هذا الطلب ولم يسعه إلاّ الإعجاب بعظمة هذا الرجل الذي لم يلحظ حتى وجوده، وما كان منه إلاّ أن التفت إلى أتباعه وهو عائد وكانوا يتضاحكون من نكد مزاح الفيلسوف، وقال لهم: «لو لم أكن الإسكندر لاخترت أن أكون ديوجينس». ثم إنه قصد دلفي لاستخارة أپوللو حول نجاح الحرب التي باشرها. واتفق أنه وصل في أحد الأيام المحرقة، التي لم يكن من المناسب أن تتنبأ العرّافة فيها، فأرسل يطلب من الكاهنة مباشرة المراسم المعتادة فرفضت معتذرة بالمحظور الشرعيّ، فذهب إليها هو بنفسه وراح يجذبها بقوة إلى الهيكل وهي تنازعه حتى أدركها التعب وغلبها إصراره فقالت:

- إنك لا تُغلب يا بنيَّ.

فتمسّك الإسكندر بقولها. وصرّح بأنه ظفر بالجواب الذي جاء دلفي لأجله ولم تعد به حاجة إلى استخارة الإله.

ومن بين الخوارق التي صاحبت مسيرة جيشه أن صورة أورفيوس في ليبثرا Libethra التي كانت قد نُحتت من خشب السرو بدت وهي تتصبّب عرقاً غزيراً، وهذا مما ولّد القلق الشديد في نفوس الكثيرين. إلاّ أن أريستاندر قال له إن هذه ليست مطلقاً دليل شؤم وإنما تشير إلى أنه سيحقق أعمالاً عظيمة وأمجاداً بحيث يتغنّى بها الشعراء وينشدها الموسيقيون في العصور القادمة وهم مجهدون ينضح العرق من جسومهم أثناء قيامهم بوصف تلك المآثر والاحتفال بذكراها.

واختلف الناس في تقدير عدد جيشه فأولئك الذين مالوا إلى التقليل منه قالوا إنه كان يتألف من ثلاثين ألفاً من الرجّالة وأربعة آلاف من الخيّالة. أمّا أولئك الذين بالغوا في رفع عدده فقد قالوا إنه كان في حدود أربعة وثلاثين ألفاً من الرجّالة وثلاثة آلاف خيّال. ويقول أرسطوبولس إن الإسكندر لم يكن لديه مالٌ لدفع مرتّبات جنوده أكثر من سبعين تالنتاً. ولم يكن لديه من الأرزاق ما يكفيهم لأكثر من ثلاثين يوماً لو أننا صدّقنا أقوال دوريس. لكن أرسطوقريطس يحدّثنا بأن الإسكندر كان مديناً بمئتي تالنت. ومهما بدت مقدّمات تلك الفتوحات العظيمة صغيرة محدودة غير متكافئة مع الاستعدادات فالواقع هو أن الإسكندر لم يخرج بجيشه للقتال إلاّ بعد أن تأكد بنفسه أن أصدقاءه الذين رافقوه قد ضمنت كل حاجة لهم واستجيبت مطالبهم. وفي هذا السبيل منح بعضهم مزارع وأقطع آخرين قرى أو غلّات قرى أو عوائد مرفأ بلدة وهكذا حتى أنه أقطع ومنح وأوقف كل الأملاك العائدة للتاج المقدوني مما دفع پيرديكاس للقول:

- ماذا ستُبقي إذن لنفسك؟

فأجابه الإسكندر:

- آمالي.

فردّ پيرديكاس عليه بقوله:

- غذن سيكون جنودك شركاء لك في ذلك.

ورفض أن يقبل ضيعة أقطعها له الإسكندر. وتبعه في ذلك أصدقاء آخرون في رفضه. أما أولئك الذين كانوا راغبين في عطائه فقد كان معهم سخيّاً، بقدر ما استنفد كل الأملاك التي ورثها في مقدونيا فقد ذهب معظمها في هذا السبيل.

بهذه العزيمة الثابتة وبتلك الفكرة الرضيّة عبر الإسكندر المضايق. وفي طروادة

ضحّى لمنيرڤا وأكرم ذكرى الأبطال الذين ثوت رُفاتهم هناك، بسكب قرابين الخمر في احتفال رسمي، وخصّ قدم أخيل بالإكرام فدهن شاهده بالزيت. وطوّف هو وأصدقاؤه حول القبر راكضين وهم عُراة، وضفر أكاليل الزهر عليه وصرح قائلاً: «إن ساكن القبر يُعتبر من أسعد الناس لأنه كان يملك صديقاً بمثل هذا الإخلاص في حياته، ولأنه بعد مماته قُيّض له شاعر بمثل هذه الشهرة لتمجيد أعماله». وفيما كان يجول متفرّجاً على الآثار والمرابع التاريخية في تلك المواضع قيل له إن بإمكانه أن يرى قيثارة پاريس Paris لو رغب. فأجاب أنه لا يعتبرها مما يستحق المشاهدة، لكنه سيكون مسروراً لو شاهد قيثارة أخيل التي كان يعزف عليه أثناء تغنّيه بالأعمال العظيمة التي أنجزها صناديد الرجال.

وفي الوقت نفسه كان قادة جيوش داريوس قد حشدوا قوّات ضخمة وعسكروا على الضفة الشرقية لنهر غرانيقوس Granicus وكان من الضروري والحالة هذه القتال على تخوم آسيا لأجل اقتحامها والنفوذ إلى أراضيها. وكان عُمق النهر وعدم استواء الضفة المقابلة وصعوبة ارتقاء مرتفعاتها من الأسباب التي تجعل الاستيلاء عليها مستحيلاً إلاّ باستخدام القوة الرئيسة من الجيش، وهذا ما أدى إلى إحجام معظم ذوي الرأي عن القتال، فقال فريق إن الوقت غير ملائم للاشتباك مع العدوّ لأن ملوك مقدونيا لم يتعوّدوا الشروع في حملاتهم العسكرية خلال شهر دياسيوس Daesius. إلاّ أن الإسكندر تخطّى هذه الاعراف وتجاهلها بقوله:

- يمكنكم أن تطلقوا على هذا الشهر اسم أرتيموسيوس الثاني Artemosius.

ونصحه پارمينيو بأن لايحاول أمراً في ذلك اليوم بالذات لأن النهار قد تقدّم فردّ عليه بقوله:

- إني سأُلحق العار بالهللسپونت إن خفتُ من نهر غرانيقوس.

وهكذا تفادى الحديث الكثير وتمكّن من الاستيلاء على النهر فوراً بثلاثة عشر رعيلاً من الخيّالة. إذ تقدّم نحوه مواجهاً وابلاً من الرماح المقذوفة عليه من الجهة المقابلة المرتفعة الشديدة الانحدار التي كانت تعجّ بقوّات لا تحصى من خيّالة العدوّ ورجّالته. ولم يبال بعوائق الأرض وسرعة تيار النهر ولذلك غلب على القتال الحماسة والاستماتة والاستبسال، أكثر مما بدأ فيه من الخدمة والمهارة. وتشبّث بكلّ عنادٍ لأجل الاستيلاء على نقطة عبورٍ. وأخيراً تمكن بعد لأيٍ من شقّ طريقه إلى أعالي الضفاف وكانت موحله زلقةً للغاية. واضطرّ أن يخوض فوراً معركة اليد باليد مع العدوّ امتازت بالاضطراب الشديد وفقدان النظام، قبل أن ينجح في تنظيم صفوف رجاله الذين كانوا

مستمرين في عبور النهر. وكان العدوّ يكرّ عليه بهجمات متتالية وهو يطلق صيحات الحرب داويةً تشقّ عنان السماء ثم تهجم الخيّالة على الخيّالة بالرماح المشرعة. وبعد أن تتكسّر تلك الرماح ولا يعود فيها نفع يلجأ المقاتلون إلى السيوف. وكان الإسكندر يسهل تمييزه بترسه ونجمتين كبيرتين من الريش الأبيض على جانبي خوذته. ولقد هوجم شخصه من كل جانب إلاّ أنه لم يُصب بجرح، وإن كان قد ثُقِب درعه من أحد المفاصل بطعنة رمح. وكرّ عليه القائدان ريوساكيس Rhaesaces وسپيثريداتس Spithridates معاً، فحاد عن ثانيهما ووجّه إلى أولهما طعنةً نجلاء بلغت من القوة أن رمحه انكسر في يده بسبب مناعة درعه وجودته. ولذلك لم يعد للإسكندر إلاّ سيفه فجرّده لمواجهة سپيثريداتس الذي شدّ عليه من جانب أثناء ما كان منشغلاً مع الأول. فأنهض نفسه فوق سرج حصانه وأهوى على خوذته بفأسه الحربية مودعاً في ضربته كل ما فيه من قوة فأطاحت بعُرف الخوذة وضبّة من ضبّتي الريش، ولم ينقذه من الهلاك إلاّ صلابة تلك الخوذة فقد مست شفرة الفأس شعر رأسه عندما فلقتها. وفيما كان مهاجمه يهمّ بتكرار الضربة تصدّى له كليتوس المعروف بـ«كليتوس الأسود» واخترق جسمه بطعنة نجلاء من رمحه. وفي الوقت نفسه تمكن الإسكندر من غريمه الآخر ريوساكيس وأراده قتيلاً بسيفه. وفيما كانت الخيّالة مشتبكةً في قتال خطير أتمّ الفلانكس المقدوني عبور النهر وتقدّمت المشاة من كل جهة للمشاركة في المعركة. إلاّ أن العدوّ الذي لم يتمكن من صدّ أول كرّة إلاّ بشق الأنفس، ما لبث أن زحزح عن مواقعه ثم انكفأ على أعقابه لا يلوي، باستثناء المرتزقة الإغريق الذين صمدوا في رابيةٍ فقد رغبوا في التسليم، إلاّ أن الإسكندر غلبت عليه عاطفة الحنق وترك التروّي جانباً، فرفض طلبهم وكرّ عليهم بنفسه أولاً فقُتل تحته حصانه (حصان آخر غير بوكيفالس المارّ ذكره). ولقد كلّفه عناده وإصراره على إبادة هؤلاء المقاتلين المجرمين اليائسين أرواحَ عددٍ من رجاله يفوق ما كلّفه كلُّ القتال الذي جرى قبل ذلك، دعك من الجرحى. وفقد الفُرس في هذه الوقعة عشرين ألف راجل وألفين وخمسمائة من الخيّالة. ومن جانب الإسكندر يقول أرسطوپولس إنه لم يفقد أكثر من ثلاثة وأربعين، تسعة منهم مشاة. وأمر الإسكندر تخليداً لهم، بنصب عدد من التماثيل النحاسية من صنع المثال ليسيپوس. ولأجل إشراك الإغريق في شرف النصر الذي حازه أرسل إليهم جانباً من الأسلاب. وخصّ الاثينيين بثلاثمائة درع نقش عليها العبارة التالية:

«إن الإسكندر ابن فيليب والإغريق ما عدا اللقيديميين هم الذين غنموا هذا من البرابرة سكان آسيا».

وأرسل لأمّه على سبيل الهدية كل الصِّحاف والحُلل الأرجوانية وما جرى مجراها، التي غنمها من الفرس، ولم يستبق لنفسه إلاّ مقداراً ضئيلاً.

سرعان ما أحدثت هذه المعركة تغييّرات عظيمة لصالح الإسكندر. فقد استسلمت له سارديس تلك القلعة العظيمة التي ارتكزت فيها قوة البرابرة وسيطروا منها على سائر الأقاليم البحرية، إضافة إلى كثير من المواقع الهامة الأخرى، باستثناء هاليكارناسوس وميليتس فقد امتنعتا عليه فاستولى عليهما عنوة مع كل البلاد التي تتاخمهما. وبعد هذا أدركه قليل من التردّد بخصوص خططه المقبلة، فكان أحياناً يرى الأحرى أن يتعقّب داريوس بأسرع ما يمكن ويغامر بكلّ شيء في معركة. وكان يرى آناً أن يعمل على إخضاع السواحل ولا يتعقّب العدوّ حتى يوّطد سلطانه فيها ويؤمّن لنفسه الأرزاق والموارد من تلكم الأقاليم. وفي أثناء ما كان يقلّب وجوه الرأي هكذا اتفق أن غدير ماءٍ بالقرب من مدينة كسانتوس في ليكيا فاضت مياهه على الجانبين بشكل آنيّ تلقائي وطرحت على الضفة صحفة من النحاس نُقش حول حوافّها كتابة قديمة تفيد بأن الزمن سيأتي حين يقوم الإغريق بالقضاء على إمبراطورية الفرس. فشجّعته هذه الصدفة الغريبة وباشر بإخضاع الأجزاء الساحليّة من كيلكيا وفينقيا. وزحف بجيشه على طول ساحل البحر في پامفيليا بسلسلةٍ من الحملات العسكرية دفعت كثيراً من المؤرّخين إلى وصفها وتعظيم شأنها بأبلغ عبارات الإعجاب والاطراء وأنزلوها منزلة المعجزات أو المآثر الفائقة للعادة وعزوها إلى حظوته لدى العناية الإلهية. وكمثل لذلك ليس أبلغ من تلك الأمواج التي تُقبل من صدر البحر صاخبة متلاطمة فلا تخلّف غير ساحل ضيّق، ما تلبث أن تنكشف عن الجرف المتكسر في أي وقت وتنسحب على حين غرّة لتؤمّن له طريق مرور! ولقد أشار ميناندر في إحدى كوميدياته إلى هذه المعجزة فقال:

«أنال الإسكندر حظوةً إلهية أكثر من هذا؟ أهناك حظوة أعظم من أن ألقى على باب داري من أتمنّى رؤيته من الناس؟ وأن أطلب عبوراً من خلال البحر، فلا أشك بأن البحر لن يفسح طريقاً إكراماً لي».

على أن الإسكندر نفسه في رسائله لا يذكر شيئاً غير اعتيادي عند سرده هذه الوقائع، بل يقول إنه سار من فاسِليس Phaselis واخترق ما يطلقون عليه اسم «السلالم». وفي فاسليس مكث قليلاً وعثر على تمثال ثيودكتس Theodectes وكان مواطناً من أهل المدينة توفّي منذ زمن. فبادر إلى نصب التمثال في الساحة العامة. وبعد أن تعشّى وشرب مقداراً غير قليل من الخمر خرج ورقص حول التمثال وتوجّه

بقلائد الزهر. وهكذا أكرم برياضته هذه ذكرى فيلسوف كان قد استمتع بمحاوراته عندما كان متتلمذاً على أرسطو.

وبعد ذلك أخضع الإسكندر البيسيدين Pisidans الذين انقضّوا عليه. ثم قهر الفريجيين وفي عاصمتهم گورديوم Gordium، التي قيل إنها كانت عاصمة ميداس الغابر، وجد العجلة الشهيرة التي كانت تُشدّ بحبالٍ مصنوعة من لِحاء شجرة القرانيا. وكانت التقاليد المتناقلة عن المدينة تقول إن من يقوى على حلّها يدين له العالم بالطاعة. ويقصّ معظم الكتّاب الحكاية التالية حول هذه العجلة: وجد الإسكندر نفسه عاجزاً عن حلّ عُقدة الحبال لأن النهايتين عُقدتا بطريقة سرّية وأخفيتا تماماً، فلم يكن منه إلاّ أن قطعها بحدّ سيفه. على أن أرسطوبولس يحدّثنا بقوله إنه حلّها سهُل عليه بقلعِه المسمار من المحور الذي رُبط به النير، ثم إنه قام بفكّ النير نفسه من تحت.

وتقدّم زاحفاً إلى پاومفلاگونيا Pamphlagonia وكبادوكيا وسرعان ما أخضع هذين البلدين. ثم سمع بموت ممنون Memnon خير قوّاد داريوس على ساحل البحر. ولو عاش هذا القائد لكان كما يقدّرون قميناً بوضع كثير من العراقيل والمصاعب في طريق تقدّم جيش الإسكندر. إن هذا الحدث شجّعه على نقل الحرب إلى أقاليم آسيا العليا.

كان داريوس في أثناء ذلك يتقدّم بجيوشه من سوسه وهو عظيم الثقة، لا بعدد مقاتليه الذين بلغوا ستمائة ألف، بل كذلك بحُلم له فسّره المشعبِذون الفرس مجاملة له وتملّقاً تفسيراً طيّباً أكثر مما فسّروه وفقاً للطوارئ الطبيعية. حلم داريوس بأنه رأى الفلانكس المقدوني وقد التهمته النيران كما رأى خصمه الإسكندر وهو يقوم على خدمته مرتدياً عين الثوب الذي كان هو نفسه يرتديه عندما كان واحداً من سُعاة الملك الذي سبقه على العرش، ورآه بعد ذلك يتوجّه إلى هيكل بيلوس Belus ثم ما لبث أن توارى عن أبصاره. كان يجب أن يفهم الحلم بأنه دليل من السماء على الأعمال العظيمة التي قُدّر للمقدونيين اصطناعها، وأن يرى فيه نذيراً يعلمه بأن الإسكندر سيرتفع مثلما ارتفع هو من مركز ساع بسيط إلى عرش ملك وسيغدو سيّداً لآسيا، وأنه لن يعيش طويلاً بعد فتوحاته تلك، وسينهي حياته بالسؤدد والمجد. وزادت ثقة داريوس بنفسه لأن الإسكندر تسكّع طويلاً في كيليكيا، الأمر الذي عزاه إلى جُبن فيه وإحجام، على أن الحقيقة هي غير ذلك فقد أعاقه المرض الذي عزاه بعضهم إلى الإرهاق، وعزاه آخرون إلى سباحته في نهر قدنوس Cydinus الذي كانت مياهه في منتهى البرودة. على أية حالٍ سقط الإسكندر مريضاً ولم يقدم أيّ طبيب من أطبائه على معالجته بالدواء

فقد خيّل لهم أن داءه عياء ولا أمل في شفائه، وأدركهم رعب وفَرَق من شك المقدونيين فيهم وما سينتظرهم منهم إن هم أخفقوا في شفائه. حتى قرّر فيليب الأكارنياني Acarnian أن يستخدم آخر مجهود منه بعد أن تبيّن خطورة حالته، معتمداً على عُرى الصداقة الوثيقة المشهورة التي تشدّ فيما بينهما، مفضلاً المخاطرة بسُمعته وحياته على أن يترك صديقه يموت دون علاج. وبادر إلى ممارسة طبّه فيه بثقة نفس وشجّعه على تناول الدواء من دون تردّد إن أراد الإسكندر الشفاء العاجل ومواصلة الحرب. وفي عين هذا الوقت أرسل پارمينيو Parmino الذي كان في المعسكر رسالة إلى الإسكندر يطلب منه أن يحذر من فيليب الطبيب لأنه هو الشخص الذي أرشاه داريوس بمبلغ كبير من المال ووعده بتزويجه بنته إن هو أفلح في قتله. بعد أن قرأ الإسكندر الكتاب وضعه تحت المخدّة دون أن يريه لأحدٍ من أصدقائه حتى المقرّبين. وأقبل فيليب الطبيب حاملاً جرعة الدواء فتناولها الإسكندر منه بثقةٍ واستبشار لا نهاية لهما، وبادر إلى إعطائه رسالة پارمينيو وطلب منه قراءتها. إنه والحق يقال لموقف يستحق المشاهدة. ترى الإسكندر يتناول جرعة الدواء وترى فيليب يقرأ الكتاب ثم تراهما يلتفت أحدهما إلى الآخر ويتبادلان النظرات بمشاعر مختلفة، ذلك لأن نظرات الإسكندر كانت نظرات الاستبشار والصراحة التي يريد بها إظهار مدى عطفه على الطبيب ومبلغ ثقته فيه. أما نظرات الآخر فقد كانت تعبّر بمجموعها عن الدهشة والخوف من التهمة وكان فيها ضراعة إلى الآلهة واستنجاد بها لتشهد على براءته مما ألصق به. فكان حيناً يرفع يديه إلى السماوات، وكان حيناً يرمي بنفسه إلى الأرض بالقرب من فراش المريض مناشداً إياه أن يلقي جانباً بكلّ خوف قد يساوره، وأن يتابع تطبيق تعليمات دون تردد.

وكان أول تأثير للدواء من القوة بحيث دفع كل قوى الإسكندر البشرية إلى الأحشاء الباطنية على حَدّ ما يعبّرون عنه - فقد نطق وراح في غشية وتلاشى نبضه وفقد شعوره. ومهما يكن من أمرٍ فإن صحّته وقواه ما لبثت أن عادتا كالسابق بفضل عناية فيليب. وظهر للملأ من المقدونيين سليماً معافى وكانوا في خوف مستمر وفي حالٍ من الأسى، فسكن قلقهم.

في ذلك الزمان كان في جيش داريوس لاجئ مقدوني يدعى أمينتاس Amyntas، على معرفة تامة بأخلاق الإسكندر. وما إن أدرك نيّة داريوس في مباغتة الإسكندر بالهجوم من ناحية المضايق والشِّعَب الجبلية حتى راح يلجّ في نصحه بألاّ يفعل، وبأن يظلّ في السهول المترامية الفسيحة والأرض المنفتحة، لأن أفضلية الجيش اللَّجِب

الكثير العدد هي في إحراز الميدان الفسيح الكافي عند اشتباكه في قتال مع عدوّ أصغر منه عدداً. فلم ترق لداريوس الفكرة وقال لأمينتاس: «أخشى أن يلوذ العدوّ بالفرار وينجو الإسكندر من يدي». فأجاب أمينتاس:

- لا مبرّر ثمّ لهذا الخوف. كن متأكداً أنه ينوي خلاف ما تعتقده، لن يتحاشاك بل سيسرع إليك ويعمل جهده لملاقاتك، ومن المحتمل أنه يزحف عليك الآن.

وهكذا ذهبت نصيحة أمينتاس أدراج الرياح. فقد أمر داريوس فرفع معسكره فوراً وزحف داخل كليكيا. وفي الوقت نفسه تقدّم الإسكندر إلى سورية ودخلها لملاقاته. وفقد كلاهما أثر بعضهما بعضاً ليلاً وانكفآ على عقبيهما. وقد سرّ الإسكندر بهذا الحدث سروراً عظيماً وبذل جهده لأجل أن يحصل الاشتباك في الشِّعب. وبذل داريوس جهده للعودة إلى مواضعه السابقة وسحب جيشه من هذه المواقع غير الملائمة. فقد بدأ يدرك خطأه في اختياره ميداناً للقتال هذه الأراضي البعيدة جداً، حيث البحر والجبال ونهر بيناروس Pinarus الذي يجرى في وسطها. وهذه الموانع قد تضطره إلى تجزئة قوّاته، وتجعل خيّالته غير نافعة تقريباً. مواضع سيكون من شأنها أن تزيد من مناعة عدوّه وتغطي ضعفه وتحميه ليس إلاّ. وما كان «الحظّ» بقادرٍ على أن يؤاتي الإسكندر أكثر من هذا ولا أكثر رعاية له في جعله لمنفعة. فهو أقل من خصمه عدداً إلى الحدّ الذي لم يكن ليسمح لنفسه بالتعرّض لخطر التطويق. ولذلك فإنه مدّ ميمنته مدّاً أبعد بكثير مما مدّ العدوّ من ميسرته وقاتل بشخصه في هذا الموقع متصدّراً الصفوف الأولى وأوقع الهزيمة بالبرابرة. وأصيب بجرح في فخذه بيد داريوس على ما يدّعيه خاريس Chares إذ إنهما اشتبكا معاً إلاّ أن الإسكندر، في الرواية التي حكاها لأنتيباطر عن المعركة، أيّد إصابته بجرح غير خطرٍ في فخذه إلاّ أنه لم يتثبّت من هويّة الشخص الذي جرحه.

لم يكن يعوز الإسكندر لإكمال نصره الذي هزم فيه أكثر من مائة وعشرة آلاف من جنود عدوّه غير أسر داريوس الذي أفلح في النجاة بالفرار بشقّ الأنفس. ولم يطارده الإسكندر بل قنع بالعودة بعد أن غنم منه عجلته وقوسه. فوجد رجاله ينهبون معسكر البرابرة، وكان يحوي الكثير جداً من النفائس مع أنهم تركوا معظم الأثقال في دمشق محاولة منهم التخفيف من أحمالهم. وأبقوا من النهب خيمة داريوس لتكون من نصب الإسكندر وكانت مكتظة بالأثاث الفاخر وبمقادير كبيرة من الذهب والفضة. نزع الإسكندر شِكّة سلاحه وقصد الحمّام وهو يقول:

- ألا فلنزل عن أجسامنا مشاقّ الحرب في حمّام داريوس.

فردّ عليه أحد أتباعه:

- ليس الأمر كما تقول، فالحمّام هو حمّام الإسكندر، لأن ما ملكه المغلوب يجب أن يدعى ملكاً للغالب.

ووقعت أنظاره على أوعية الاستحمام وقدور الماء وصناديق الأدهان والأحواض وكلها من الذهب العجيب الصياغة. وشمّ الروائح الزاكية التي كان ريحها يضوع في جوانب الحمّام بصورة جذّابة. ومن هناك دخل مقصورة واسعة جداً مرتفعة السقف حيث الطنافس والمقاعد والموائد بالغة الفخامة وكأنها مهيّئة لإقامة مأدبة. فالتفت إلى المتحلّقين به وقال:

- تلك هي مظاهر الملكيّة على ما يبدو.

وفيما كان يهمّ بالعشاء، أُبلغ بأن أمّ داريوس وزوجه وبِنتَيه الباكرتين اللاتي كن بين الأسرى قد غشيهن كرب عظيم وحزن أليم لمّا شاهدن عجلته الحربية وقوسه فتوهّمْنَ أنه قُتِل. فظلّ برهة ساكتاً وقد غلب تأثير حزنهن فيه على تأثير نصره. وأرسل إليهن ليوناتس Leunatus يعلمهنّ بأن داريوس ما زال حياً ولا حاجة تدعو إلى الخوف من أيّ أذى يُلحقه الإسكندر بهنّ، لأنه لم يشنّ الحرب على وليهنّ إلاّ لغرض فتح الأمصار. وأمر أن يُعطَين كل ما اعتدنَ الاستمتاع به عند داريوس. ولم يسع السيّدات الأسيرات إلاّ أن يرحّبن بهذه الرسالة أجمل ترحيب لاسيما بعد اقترانها بأعمال أخرى لا تقلّ عنها إنسانية وكرماً. فقد يستخدمن لهذه المناسبة ما اخترن من الثياب والأشياء الأخرى التي يجدنها مناسبة للمقام والظرف من بين الغنائم. ولم يعمد إلى إنقاص عدد بِطانتهنّ وخدمهنّ ولا تقليل الاحترام الذي كن يتمتعن بّه. وزاد في النفقات التي كانت تُجرى لهن سابقاً. على أن أشرف وأنبل تصرّف خليق بالملوك قام به تجاههن هو أنه عامل تانك السيدات العظيمات حسب مقتضى مقامهنّ وأخلاقهنّ. فمنع أن يسمعن أو يُنلْنَ أو يجابَهن بأيّ شيء غير لائق. فبدا لهنّ وكأنهنّ لا يعشن في معسكر عدوٌ بل في هيكل أو في حُجرات مقدسة مخصصة للعذارى حيث يستمتعن بخلواتهنّ المصانة المحرّمة. وكانت زوج داريوس تُعدّ أجمل أميرات زمانها كما كان زوجها أطول وأجمل رجال زمانه، ولم تكن بنتاهما بأقل من والديهما أوصافاً وميزات.

إلاّ أن الإسكندر الذي وجد الأليق بالملوك أن يشكموا أنفسهم من أن يذلّوا أعداءهم لم يحاول مطلقاً مطارحة أية واحدة منها الحبّ. بل لم يعمد إلى الاجتماع بأية امرأة قبل الزواج، خلا بارسينة Barsina أرملة ممنون Memnon التي أُخذت أسيرة في دمشق. كانت بارسينة هذه قد ضربت بسهم وافرٍ في العلوم الإغريقية،

وعُرفت بلين العريكة ولطف الخلق، وبأنها سليلة الملوك حيث إن أباها كان أرطبازاً. وقد زاد من رغبته فيها تشيّع وتوسّط وتشجيع پارمينيو على حدّ ما يخبرنا به أرسطوبولس، فقد كانت بارزة الشخصية لطيفة المعشر حقاً. ولم يظهر اهتماماً قطّ ببقية الأسيرات الفارسيات، مع جمالهن الباهر، ورشاقتهن واستواء أعضائهن وتناسقها، أكثر من قوله مازحاً: إن الفارسيات هُنّ قذى للعين فظيع، مقارناً ذلك بمظهر جمال خلقه وفرط ضبط نفسه. وقد أمر بأخذهن بعيداً عنه كما ترفع من امامه الكثير من التماثيل والصورة الجامدة الخالية من الحياة.

عندما كتب إليه قائده فيلوكزينوس Philoxenus على جميع الساحل يستمزج رأيه في الموافقة على أن يشتري له ولدين صغيرين في نهاية الحسن والظرف يريد صاحبهما المدعو ثيودوروس بيعهما، شعر الإسكندر بوقع الإهانة، إلى درجة أنه راح يردد بين أصدقائه متسائلاً:

- أيّ خِسّة ودناءة وجد فيلوكزينوس فيّ، ليقدّم لي مثل هذا العرض الحقير.

ثم بادر إلى كتابة ردّ شديد قال فيه: «ألا فليذهب ثيودوروس وبضاعته إلى سقر مشيّعاً بتمنيّاتي الطيبة».

ولم يكن مع هاغنون بأقل من ذلك صرامة. فقد بعث إليه يقول إنه سيبتاع له شاباً كورنثياً اسمه كروبيلوس Crobulos ويقدّمه هدية. وسمع بأن دامون Damon وطيموثيوس Timotheus وهما جنديان من جنود پارمينيو المقدونيين قد اعتديا على زوجات بعض الأجانب المرتزقة في جيشه، فكتب إلى پارمينيو يطلب منه بشكل لا مردّ له أن ينفذ فيهما حكم الموت أن وجدهما مذنبين كما ينفّذ الحكم في أي حيوانين مفترسين لم يخلقا إلاّ لإثارة المتاعب والفوضى للبشرية. وأضاف يقول في رسالته هذه بأنه لم يكن قطّ ليرى أو ليريد أن يرى زوج داريوس كلاّ، ولا أن يسمح لأي أحد أن يتكلم عن جمالها بمحضر منه. كان يريد القول إن النوم والعمل الجنسي يجعلانه يشعر بأنه بشر فانٍ قبل كل شيء، مثلما لو قيل إن التعب واللذة يصدران عن حيوانية وضعف في الطبيعة البشرية.

كان في طعامه وشرابه معتدلاً كما يبدو مما قاله لآدا Ada التي اتخذها أمّاً قانونية له، ثم جعلها فيما بعد ملكةً على كاريا Caria ومما يذكر عنها - بعد إسقاط الكثير - أن الحنان كان يدفعها إلى أن ترسل له يومياً الكثير من أصناف الطعام النادرة، ومن الحلوى وتبعث إليه بطهاة وحلوانية ممن تجد فيهم البراعة والتفنّن في الصناعة، فيرفض ما ترسله قائلاً إن مدرّبه الخاص ليونيداس يقدّم له خير ما يصبو اليه، وهو مسيرة ليليّة

تهيُّؤاً للفطور، وفطور بسيط جداً ليخلق فيه شهيّة للعشاء. ويضيف قائلاً إن ليونيداس تعوّد فتح الصناديق والخزائن والقماطر وتفتيش الأثاث في غرفته ليتثبّت من أن أمّه لم تترك له شيئاً فيه طابع الرقّة والخنوثة. وكان أقل حبّاً بالخمر مما عُرف عنه. والعلّة التي دفعت الناس إلى الاعتقاد بأنه أليف الخمر هي أنه كان وقت فراغه يؤثر الجلوس الطويل إلى مائدة الشراب ومبادلة الأحاديث، وكان يطيل الكلام كثيراً خلال شربه كأساً واحدة.

وبعكس ما اعتاده القادة الآخرون لم تكن الخمر أو النوم أو اللهو أو مطارحة الحبّ أو أيّ عارضٍ آخر ليؤخّره عن عملٍ عندما يتطلّب منه ذلك. وليس ثمّ دليل أقوى من تحقيقه هذه المآثر العظيمة والكثيرة في مثل هذا الزمن القصير. لقد اعتاد في الأوقات الاعتيادية الاستيقاظ مبكراً والتضحية للآلهة. ثم يتناول الفطور. ويقضي بقية النهار في الصيد والقنص، أو في كتابة المذكّرات أو إصدار القرارات في الأمور العسكرية، أو في المطالعة. وتراه في التجريدات الحربية التي تتّسم بطابع العجلة والسرعة لا يني يتدرّب على الرمي أو يركب عجلة ويترجّل منها وهي تجري بأقصى سرعتها، ويخبرنا في يومياته أنه كان أحياناً يصطاد الثعالب أو الطيور لأجل التريض فحسب. وبعد عودته مساء يغتسل ويدهن جسمه ثم يدعو خبّازيه ورؤساء طُهاته ليتأكد من أن عشاءه جاهز ولا يتناوله إلاّ بعد أن ينصرم جانب من المساء ويسود الظلام. وكان كثير الحفاوة والاهتمام بضيوفه ويوجب أن يُخدَم كل من يتكئ معه مثلما يُخدَم هو، وان يتلقى الرعاية والاحترام اللذين يقدّمان له. وكما ذكرنا آنفا كان غرامه بالنقاش والحديث يجعلانه مجالساً مطيلاً في مجلس الشراب. وكان ثمّ هَنة واحدة تشوب مجلسه وهي انسياقه في مجال الغلوّ والادّعاء والمباهاة الحربية، مما يتيح للمتزلّفين فرصة عظيمة لامتطائه والتأثير عليه. وهذا ما يجعل أصدقاءه المخلصين في نهاية الضجر والضيق. ولولا ذلك لكان مجلسه لا يضاهيه مجلس أي ملك من الملوك مهما ارتفع شأنه. كان أصدقاؤه يجدون من الحطّة والدناءة أن يتسابقوا إلى التزلف إليه، إلاّ أنهم كانوا مع ذلك يجدون من الخطر أن يمسكوا عن التزلّف، وبين الخطر والعار تجدهم في أصعب موقفٍ حول سلوكهم.

بعد أن يرفَضّ المجلس يجد الإسكندر طريقه إلى الحمّام حيث يغتسل ثم يؤوب إلى فراشه ولا يستيقظ حتى الظهيرة، وقد ينام النهار بطوله.

كان قليل الطعام بعيداً عن النهم. فإن أُرسلت إليه سمكة مثلاً أو فاكهة نادرة فرّقها على أصحابه، وفي أغلب الأحيان تراه لا يحتفظ بشيء ما منها لنفسه. ومع ذلك فإن مصاريف سماطه كانت تزداد بارتفاع شأنه وسطوع نجمه حتى بلغ ما يصرف عليه يومياً

عشرة آلاف دراخما. ووقفت عند هذا الحَدّ ولم تزد النفقات. ولم يقبل أن تزيد نفقة أية مأدبة يقيمها له الآخرون عن هذا الحدّ.

بعد فوزه في موقعة إيسوس أرسل إلى دمشق من نفّذ أوامره بوضع اليد على كل ما يعود للفرس من أموال وأثقال وزوجات وأولاد. وفاز الخيّالة التساليون بأعظم الأنصبة متفقة مع شجاعتهم. وحصلت بقية الجيش على نصيب وافر من الأسلاب أيضاً مما أغناهم جميعاً، وأتيح للمقدونيين بذلك أول فرصة لهم لتذوّق الترف الفارسي، ومعاشرة النساء الفارسيّات، والاستمتاع بلذّة العيش البربري، مما شجّعهم وبثّ فيهم روح الحماسة للمضيّ في نهجهم بالسرعة التي يعدو بها الكلب السلاقي وراء رائحة القنيصة.

قبل أن يستأنف الإسكندر زحفه وجد من الضروري أن يتأكد من سلامة الساحل. فضمّ حكام جزيرة قبرص إلى أتباعه واستسلمت له بلاد الفنيقيين كلّها ما عدا صور، فألقى الحصار عليها سبعة أشهر وبنى تلولاً ترابية ونصب آلات الحصار والهدم إلى جانب محاصرتها بمائتي بارجة من جهة البحر. وفي أثناء ذلك حلم بأنه رأى هرقل فوق الأسوار ماداً إليه يديه يستدعيه، كما تخيّل كثير من أهالي صور أنهم رأوا في نومهم أپوللو الذي أخبرهم بأنه ليس براضٍ عن أعمالهم وأنه لم يلبث أن يترك جانبهم وينحاز إلى الإسكندر. وعندئذ ما كان منهم إلاّ أن قبضوا عليه بشخص تمثاله، كأنّ الإله جندي هارب من الخدمة، وربطوه بالحبال وسمّروه في القاعدة. وأخذوا يلقون عليه الملام لمشايعته الإسكندر. ورأى الإسكندر في المنام - بمناسبة أخرى - أنه شاهد عن كثب مسخاً (ساتيراً) يسخر به فهمّ بإمساكه فهرب وأفلت ولم يتمكن منه إلاّ بعد مطاردة طويلة ومناورات عديدة. وفصل المشعبذون لفظة ساتيروس إلى كلمتين وهم بصدد تفسير الحلم وأكدوا له، أن صور ستسقط بين يديه. ويعرض أهالي المدينة إلى يومنا هذا على الزائر نبع ماءٍ قائلين إن الإسكندر نام قربه عندما رأى الساتيروس في منامه.

وفيما كان معظم الجيش أمام صور قام الإسكندر بشنّ حربٍ على العرب الساكنين جبال «أنتي لبنان» وتعرّضت حياته لخطر أكيد، عندما قام بإنقاذ معلّمه ليسيماخوس الذي شاء وأصرّ أن يصحبه في حملته هذه قائلاً إنه ليس بأكبر عمراً ولا بأقلّ شجاعة من فيونكس وصيّ أخيل. فعندما تركوا خيولهم بدأوا يتوقّلون الجبال مشياً على الأقدام فسبقتهم بقية القطعات وأضحت المسافة بين الصنفين كبيرة، وأقبل الليل وكان العدوّ قريباً. واضطر الإسكندر إلى التخلّف في المؤخّرة وقتاً لبثّ روح الشجاعة في جنوده

المتعبين والمتقدمين في السنّ، ومد يدّ العون للمتسكّعين. وهكذا وقبل أن يفطن إلى تأزّم الوضع وجد نفسه بعيداً عن بقية القطعات مع عدد قليل من الأتباع. واضطر إلى قضاء ليلة شديدة البرد، والعتمة، وفي موضع غير مريح مطلقاً. وشاهد وهو على هذه الحال نيراناً عديدة كبيرة للعدوّ منتشرة في رقعة واسعة من الأرض. فوضع ثقته في خفّة حركة جسمه، وفي طول معاناته المشاقّ والمصاعب، مستهدفاً زرع الثقة في جنوده ومعاونتهم في المآزق والشدائد، واتجه رأساً إلى أقرب نارٍ وأردى بخنجره اثنين من البرابرة كانا جالسين يصطليان. واختطف مشعلاً ملتهباً وعاد به إلى رجاله فأوقد به ناراً عظيمة أوقعت الرعب في قلوب العدوّ وهرب معظمهم أما الذين ثبتوا للقتال منهم فقد هُزموا، وأمِن الرجال من هجوم مباغت طوال الليل. هذا ما كتبه خاريس حول الموضوع.

ونعود إلى حصار صور. لقد كانت نتيجته كما يلي: شاء الإسكندر أن يريح جيشه بعد الإرهاق الذي أصابه جرّاء الهجمات السابقة. وقاد بجزءٍ يسير منه هجوماً على الأسوار قاصداً إشغال العدوّ بصورة متواصلة وعدم ترك مجال للراحة له. واتفق أن أريستاندر المشعبِذ بعد أن ضحّى وفحص أحشاء الأضحية أكد للواقفين قربه أن المدينة ستفتح أبوابها للغازي في غضون هذا الشهر. فكان ثمّ ضحك وشيء من التعليقات الساخرة بين الجنود لأن يوم النبوءة كان آخر يوم في الشهر! ورآه الملك حائراً، وكان معتاداً أنْ يخفّ لنجدة النبوءات فأسرع يصدر أمراً بأن لا يعتبروا هذا اليوم الثلاثين من الشهر بل الثالث والعشرين. وأمر بنفخ الأبواق وهجم على الأسوار هجمة صادقة شديدة. وألهب زخم الهجوم وحماسته بقية قواته فتركت معسكرها وهي غير قادرة على ضبط نفسها عن التقدم لدعم الهجوم الشديد الذي أجبر الصوريين على التراجع. وتم الاستيلاء على المدينة في اليوم نفسه. وكانت غزة المدينة الثانية التي ألقى الإسكندر الحصار عليها، وهي واحدة من أكبر مدن سورية. فحصلت له أثناء الحصار الحادثة التالية: بينما كان طير يحلّق فوقه سقطت منه قطعة تراب فوقعت على كتفه، ثم حطّ الطائر على آلة من آلات الحصار فاشتبكت أطرافه حالاً في الشبكة المصنوعة من أوتار شُدّت لحماية الحبال التي تعمل بها تلك الآلات. وكان هذا طبق ما تنبّأ به أريستاندر وملخّص نبوءته هو أن الإسكندر سيصاب بجرح، وأن المدينة ستسقط.

ومن هناك بعث بجزء كبير من الغنائم إلى أصدقائه دون استثناء ومنهم ليونيداس معلّمه، الذي أصابه ما زنته خمسمائة تالنتٍ من البخور، وما زنته مائة تالنت من المرّ، تذكيراً له بالآمال التي عقدها عليه وأشاد بها مرّة أثناء ما كان الإسكندر صبياً. إذ يقال

إن ليونيداس كان يقف قريباً منه أثناء قيامه بالتضحية مرّة، فرآه يتناول ملء كفّيه من البخور ويقذف بها إلى النار فقال له: «قمين بك أن تكون أشد حرصاً في تقدماتك وأن لا تكون كثير البذل إلى أن تغدو سيّد تلك البلاد التي ترد منها هذه التوابل واللُّبان الزاكي الرائحة»، فتذكر الإسكندر هذا وكتب إليه يقول:

«لقد بعثنا إليك بالكثير من المرّ والبخور، لكيلا تكون في المستقبل بخيلاً على الآلهة»

ومن بين الكنوز وغير ذلك من الأسلاب التي غنمها في خيمة داريوس وجد صندوقاً ثميناً جداً اختصّ به لغرابته وندرته. وسأل من كان يحيط به عن أفضل شيء يودَع فيه فأدلى كل برأي، ولكنه قال إنه سيضع فيه إلياذة هوميرس. لقد أيّد هذه الحكاية ورواه ثِقات. وإذا كان أولئك الكتّاب الإسكندرانيون المعتمدون على هيراقليدس صادقين فيما يروون فإن هوميرس لم يكن مزاملاً كسلان للإسكندر أو محدّثاً لا فائدة فيه. فحينما أصبح سيّد مصر فكر في استحداث مستعمرة إغريقية، وقرّر بناء مدينة واسعة الأرجاء كثيرة السكان يطلق عليها اسمه. فقاس الأرض وحدّدها بمشورة أفضل المعمارين، ثم اتفق في ليلة ما أن رأى في نومه رؤيا عجيبة، رأى رجلاً هرِماً أشيب الشعر ذا سيماء مهيبة يقف جنبه وينشد هذه الأبيات:

«هناك جزيرة تدعى فاروس Pharos حيث زمجرة الموج عالية صاخبة على الساحل المصري».

ونهض الإسكندر في الحال وذهب إلى فاروس، وكانت في ذلك الزمن تقع فوق الفم القينوبي Conobie من نهر النيل بشيء قليل، وإن كانت اليوم قد اتصلت بالأرض الرئيسة بلسان أرضي. وما إن شاهد حالة الموضع ومناسبته، وهو عُنق طويلة من الأرض تمتد كالبرزخ بين البحيرات الواسعة، مياه ضحلة من جانب والبحر من جانب وهو في نهايتها، يصلح لميناء واسع، حتى قال:

- كان هوميروس إلى جانب عبقرياته الأخرى مهندساً معمارياً مجيداً.

ثم أمر أن يخطط تصميم المدينة بشكل يلائم هيئة الموقع. ولافتقاره إلى الطباشير لأن التربة كانت سوداء فقد تعوّض عنه بدقيق القمح، مثباً قطعة أرض وسطية على هيئة منقلة [نصف دائرة] وأخذ يرسم في داخل هذا النصف خطوطاً مستقيمة متساوية من كل نهاية، وهكذا اعطاها هيئة شبيهة بالمعطف، أو القلنسوة. وفيما هو يمتع نفسه بتصميمه هذا خرج فجأة من أعماق النهر والبحيرة عدد لا يُحصى من الطيور الكبيرة المختلفة أنواعها، وانتشر مثل سحابة سوداء افترست كلّ الدقيق الذي استُعمل لرسم خطوط

المدينة. واضطرب على هذا النذير حتى الإسكندر نفسه إلى أن أعاد الكهنة العرّافون إلى نفسه الاطمئنان، إذ قالوا إن ذلك هو الإشارة إل أن المدينة التي يزمع بناءها ستكون ذات خير عميم، فضلاً عن كونها ستطعم وتعين كثيراً من المدن. فأمر العمّال بمباشرة البناء، بينما ذهب هو لزيارة معبد آمون.

وكانت رحلة طويلة شاقّة، وخطرة من جهتين: فلو أنهم فقدوا مختزنهم من الماء، لأن الحصول عليه كان متعذراً عدة أيام، ولو هبّت ريح الجنوب العنيفة عليهم وهم في رحلتهم يجوسون الصحراء الواسعة برمالها السميكة، كما جرى عندما قاد قمبيز جيشه في هذا الطريق، تدفع الرمال أكداساً وأكواماً وترفع الصحراء كلها إلى الأعلى مثل بحر، فتسفيه عليهم حتى ابتلعت منهم خمسين ألفاً وقضت عليهم. لقد وزنت كل هذه المصاعب وشرحت له إلا أن الإسكندر لم يكن من أولئك الذين ينثنون عمّا اعتزموه بسهولة، لأن الخطر حتى ذلك الزمن كان إلى جانبه في كل ما يعتزمه مما جعله رجلاً قويّ الإرادة ثابت العزم في كل آرائه. وإقدامه كان يدفع نوعاً من العاطفة فيه لاقتحام الصعاب والتغلب عليها، كأن لم يكن يكفيه أن يكون منتصراً دائماً في ميدان القتال، بل يريد أن تخضع لإرادته البلاد والفصول والطبيعة. وفي رحلته كانت الراحة والرعاية التي أسبغتها عليه الآلهة وهو في مأزقه أكثر ظهوراً وإثباتاً من النبوءات التي أُبلغ بها فيما بعد والتي كانت على أية حال قد أُنهيت إليه فيما بعد، والتي كانت على أية حالٍ قد ثُمّنت وقُدّرت أكثر بسبب هذه الظواهر التي تلتها، فأولاً إن الأمطار الغزيرة التي سقطت صانتهم من خشية الهلاك عطشاً وبلّلت جفاف الرمال المحرقة، فآضت رطبة متماسكة صالحة للسير، ونقّت الجوّ وطهّرته. فضلاً عن ذلك، عندما كانوا يسيرون على غير هدى متحيّرين بين الشمال واليمين لا يدرون وجهتهم الصحيحة لافتقارهم إلى علامات واضحة ترشد الأدلاء، فاضطربت أحكامهم وضلّوا سواء السبيل، إذ بهم فجأة يهتدون إليها بسرب من الغربان كانت تطير أمامهم وهم يسيرون، تنتظرهم عندما يقفون أو يتباطأون في سيرهم. وأعظم الخوارق التي صادفتهم على ما يخبرنا كالليستينس Callisthenes هو أن هذه الغربان عندما تضلّ سريّةٌ سبيلَها وتنقطع عن القسم الأكبر من الجيش ليلاً تثير ضجة وتنعق نعيقاً عالياً إلى أن تعود الوحدة الضالّة وتنضمّ إلى البقيّة.

وبعد أن قطع الإسكندر تلك المجاهل بلغ موضعاً حيث رحبّ به الكاهن الأكبر عند أول السلام ترحيباً صادراً عن أبيه أمون. وسأله هل بقي أحدٌ من قتلة أبيه فيليب بمنجى من العقاب بعد، فطلب أن تكون لهجة كلامه عن أبيه أكثر احتراماً لأن أباه لم

يكن من البشر الفاني. فغيّر الإسكندر من لهجته وطلب منه أن يعرّفه إذا كان قد بقي واحد من أولئك الذين قتلوا فيليب دون عقاب حتى الآن، وبخصوص السلطة هل أن سيادة العالم قد حُفِظت له؟

فأجاب الإله قائلاً إنه سيملك العالم وإن مقتل فيليب قد تمّ أخذ ثأره كاملاً. ففرح الإسكندر بذلك فرحاً عظيماً دفعه إلى تقديم أُعطيات فاخرة جداً لجوپتر ومنح الكهنة هدايا ثمينة. هذا ما كتبه معظم الكتّاب عن النبوءات. إلاّ أن الإسكندر بعث رسالة إلى والدته قال فيها إنه كانت ثمّ أجوبة سرّية من الإله سيكشفها لها وحدها عند عودته. ويقول آخرون إن الكاهن رغب في مخاطبته بالإغريقية عن طريق المجاملة والحفاوة ولما أراد أن يقول «يا پايديون» Paidion زلّ به اللسان وعوضاً عن لفظه حرف النون لفظ حرف السين فقال «يا پايديوس»، وكانت عثرة لسان سُرّ لها الإسكندر كثيراً. وشاع القول إن النبوءة هي التي قصدت دعوته بهذا.

من بين الحكم المأثورة قول للفيلسوف پسامون Psammon الذي سمع الإسكندر في مصر عنه ووثق به: إن كلّ الناس مسيّرون بأمر الله، ذلك لأن كل ما هو رأس وكل آمرٍ ناهٍ هو إلهي. إلاّ أن ما فاه به الإسكندر حول الموضوع نفسه كان أقرب إلى قول الفيلسوف. قال: «إن الله هو أب كلّنا بدون استثناء، لكنه بصورة خاصة أبو خيرنا، وهو أفضلنا».

وكان يعامل البرابرة بترفّع وأنفة. أما الإغريق فيظهر لهم اللطف والاعتدال وبأقل ما يمكن من التظاهر بالألوهية، خلا مرّة واحدة عند الكتابة إلى الأثينيين حول ساموس. فقد قال لهم إنه لن يمنحهم تلك المدينة المجيدة الحرّة: «إنكم حزتموها بفضلٍ من ذلك الذي كان يُدعى بسيدي وأبي» يقصد فيليب. ومهما يكن فبعد أن جرحه السهم وشعر بالألم الشديد التفت إلى من كان معه وقال لهم:

- هذا يا أصدقائي هو دم حقيقي يجري مني وليس إيخور Ichor[٣] الذي اعتادت الآلهة سفكه.

وفي مرّة أخرى أرعدت الدنيا إرعاداً عظيماً حتى دبّ الخوف في قلب كل إنسان فسأله أناكسارخوس المتصوّف هل يمكنه بوصفه ابناً لجوبتر أن يفعل شيئاً كهذا؟ فأجاب الإسكندر ضاحكاً:

---

(٣) في الاساطير اليونانية أن الإيخور هو السائل الأثيري الذي يجري في عروق الآلهة بديلاً من الدم البشري.

– كلا، لا رغبة لي في أن أبدو جبّاراً في أعين أصدقائي. كما ستجدونني، باستصغاركم مائدتي لوجود السمك فيها، وليس رؤوس حكام الأقاليم.

في الواقع إنه روى ما عُدّ حادثاً حقيقياً، فإن أناكسارخوس عندما رأى هدية تتألف من أسماك صغيرة الحجم أرسلها الملك هيفايستيون Hephaestion استخدم هذا التعبير بشكل من أشكال السخر والتنكيت والاستخفاف بأولئك الذين يتكبّدون العناء الكبير ويركبون المخاطر والاهوال في سبيل الفاخر من الأشياء التي لا تمنحهم من المسرّة والسعادة أكثر مما أحرزه الآخرون منهما. ومما بيّنت حول هذا الموضوع يبدو أن الإسكندر لم يكن من الغباء بحيث يتوهّم، ولا من التيه والمكابرة بحيث يظن نفسه إلهاً حقيقياً وإنما كان يستخدم هذا الادّعاء بالألوهية كوسيلة للاحتفاظ بعامل التفوّق والسيادة على الآخرين ليس إلاّ.

على إثر عودة الإسكندر إلى فينيقيا من مصر ضحّى للآلهة، ونظم مواكب دينية عديدة مضيفاً إليها مشاهد من الرقص الغنائي وتراجيديات تستهوي اللُّبَّ بفخامة إخراجها وروعته فضلاً عن المنافسة الشديدة بين من تولّى عرضها وإخراجها. كان ملوك قبرص يعرضون بعين الطريقة التي اعتادها أولئك الذين يتمّ اختيارهم بالاقتراع بين القبائل وهكذا اشتد التنافس فيما بينهم إلى أقصى درجة احدهم يريد سبق الآخر. ويُذكر بصورة خاصة نيكوكريون Nicoreon ملك سلاميس، وپاسيكروتس Pasicrotes السولي Soli اللذان قاما بتهيئة الجوق ودفع مصاريف أشهر الممثلين وهما أثينودوروس Athenodorus وثيسالوس Thessalus فقد مثّل الأول لأجل پاسيكروتس، والثاني لأجل نيكوكريون. وغلّب الإسكندر ثيسالوس، ولم يظهر تفضيله إلاّ بعد أن أعلن عن فوز أثينودوروس بأغلبية أصوات المحكّمين. فقال وهو يغادر المحل: «المحكّمون يستحقون التهنئة لقرارهم. إلاّ اني لأفضّل أن أتنازل مختاراً عن جزءٍ من مملكتي على مشاهدة «ثيسالوس مغلوباً».

ومهما يكن فإن الإسكندر دفع لأثينودوروس مبلغاً كافياً من المال عندما علم أن الاثينيين فرضوا عليه غرامة لغيابه في أعياد باخوس لتسديدها بعد أن رفضوا استجابة طلب إلغائها بكتاب توسّط بعث به إليهم. ومرّة اتفق أن ليكون Lycon السكرافياني Scraphia لقي استحساناً عظيماً في تمثيله وسأل الإسكندر – في شعر ألقاه ضمن دوره الهزلي – هِبَةً قدرُها عشرة تالنتات، فضحك الإسكندر وأمر له بها.

وكتب إليه داريوس رسالة وأرسل أصدقاء له للقيام بدور الوساطة في قبول ألف تالنت فدية للأسرى ومبادلة الصداقة بالصداقة، وضمّ كل البلاد التي هي في هذه الجهة

من نهر الفرات في حلف معه، وإعطائه إحدى بناته زوجة. فعرض الإسكندر هذه الشروط على أعوانه وخُلصائه. وعندما قال له پارمينيو إنه ليقبل بها لو كان في محلّه، أجاب:

- كذلك أنا، لو كنتُ پارمينيو.

وكان جوابه على مقترحات داريوس هذه هو أنه لو جاء عارضاً الخضوع والاستسلام فسيعامله بأكبر عطف وحفاوة وإن لم يفعل فإنه، أي الإسكندر، مصرّ على أن يطارده ويجدّ في طلبه.

على أن وفاة زوج داريوس في الأسر أثناء وضعها جعله يندم ويأسف على جزءٍ من ردّه على الأقلّ. وبدا كاسف البال متألماً لأن الحادث حرمه من فرصة لإظهار لطفه وطيب نفسه اللذين ظهراً جلياً بالتشييع العظيم الفخم الذي أمر به للمتوفّاة.

كان ثمّ شخص من بين الخِصيان الذين أُخذوا أسرى مع النساء في خدمة الملكة يدعى تيريوس Tireus. هذا الخادم تمكن من ترك المعسكر والهروب على ظهر جواد إلى داريوس ليخبره بوفاة زوجه ومثل أمامه. وما إن أسمعه القصة حتى ضرب داريوس رأسه بيده وانفجر باكياً نادباً وصاح:

- وا أسفا! ما أعظم النكبة التي مُني بها الفُرس. ألا يكفي أن تقع زوج ملكهم وأخته أسيرتين لتدفن الأولى دفنة حقيرة كما يُدفن رعاع القوم ونكِراتهم؟

فقال له الخادم:

- أما عن موضوع جنازتها أيها الملك، وعن الاحترام والتكريم اللذين لقيتهما، فليس ثمّ ما يدعوك إلى ندب سوء حظ بلادك. فعلى مدى معرفتي لم تكن الملكة زوجك ولا ولدك في حاجة إلى شيء وهم في حياتهم السالفة السعيدة معك، غير نور وجهك الذي لا أشكّ في أن الإله أهورمزدا سيعيده إلى مجده السالف. وإني أؤكد لك أنها حظيت بعد موتها بكل ما هو جدير بمقامها من مظاهر التكريم فضلاً عن أنها أُكرمت أيضاً بدموع أعدائك أنفسهم. فإن الإسكندر، إن كنت لا تدري، رقيق القلب بعد النصر قدر ما هو مخيف في ميدان القتال.

وزاد داريوس حزناً وأسى بعد هذا الكلمة إلى الحدّ الذي وصل به إلى أعظم الشك في أقوال الخادم فأخذه إلى ناحية قصيّة من خيمته بعيداً عن الفضوليين وشرع يستجوبه بقوله:

- لعلّك تخلّيت أنت أيضاً عني كما تخلّى عني حسن حظي وأصبحت مقدونياً في سِرّك. أما إنْ كنت باقياً على ولائك لسيّدك داريوس فإني آمرك بأن تصارحني،

وأستحلفك بحرمة نور ميثرا وبحرمة هذه اليد اليمنى التي يمدها اليك ملك، أن تصارحني القول هل أقلّل من بكائي وحزني على سوء مصير ستاتيرا أم تراني أُصِبت بعارٍ وحزن بسببها أثناء حياتها يزيد عمّا أصابني الآن؟ هل لا كنت شقياً بأقل العار لو أني لقيت عدوّاً أكثر قسوة من الإسكندر وأقلّ منه إنسانية؟ إني لأعجب كيف يمكن لشابٍ مثله أن يحيط زوج خصمه بهذه الرعاية السامية ويضعها في هذا المقام العظيم لو لم يدفعه دافع من شأنه أن يصيبني بالعار؟

فألقى تيريوس بنفسه عند قدميه وشرع يتوسّل إليه أن لا يخطئ بحق الإسكندر، ولا بحق زوجه وأخته إلى هذا الحدّ، بإبدائه مثل هذه الشكوك التي من شأنها أن تحرمه من أعظم عزاءٍ تبقّى له وهو في محنته الراهنة. إنه اعتقاد يجب أن يتغلّب عليه بفضل رجل رفعته فضائله إلى ما فوق الطبيعة البشرية، وإن عليه أن ينظر إلى الإسكندر نظرة مختلفة، وأن يحمل نفسه على حبّه والإعجاب به بعد أن قدّم كل الدلائل على احترامه لعقائل الفرس قدر ما أظهره من الدلائل على شجاعته بين الرجال. وأكدّ الخادم كل ما قاله في السابق ووثّقه بأغلظ الأيمان وأهولها. وراح يُطنب ويُسهب في وصف سماحة الإسكندر واعتداله وعظمته في مناسبات أخرى. وإذ بداريوس يتركه فجأة ويقصد الزاوية الأخرى من الخيمة حيث كانت الحاشية والأتباع، ورفع يده إلى السماء ونطق بالدعاء التالي:

- يا آلهة أسرتي ومملكتي! لو شئتم فإني أضرع إليكم جميعاً بأن تعيدوا مجد بلاد الفرس الآفل وأن أترك الدنيا وهي بعين الازدهار والعظمة التي وجدتها بها حين تسلّمتُ الملك. وأن تمنحوني الفرصة على ردّ جميل الإسكندر ورعايته رداً مناسباً لائقاً لقاء ما أظهره من طيبة وانا في محنتي لأعزّ الناس إليّ. أمّا إذا حكم القدر، وحلّ الوقت الذي ستتخلّى فيه أسرة ملوك الفرس عن الحكم لفترة من الزمن، وإن كان دمارنا هو الدّيْنْ الذي يجب دفعه إلى الغضب الإلهي وصروف الدهر وأهوائه، فإني أضرع إليكم أن تقضوا بألاّ يجلس على عرش كورش رجل آخر غير الإسكندر.

تلكم هي الحكاية التي أوردها معظم المؤرّخين في هذا الصدد. ولنعد إلى الإسكندر. فبعد أن أخضع آسيا برمّتها الواقعة على الجانب الغربي من الفرات تقدّم نحو داريوس الذي كان يزحف نحوه على رأس مليون مقاتل. وفي أثناء تقدّمه وقعت حادثة سخيفة. وهي أن الخدم الذين لحقوا بالمعسكر عمدوا على سبيل التسلية والمزاح إلى أن يجعلوا من أنفسهم فريقين أطلقوا على قائد الفريق الأول اسم الإسكندر وعلى الفريق الثاني اسم داريوس. وراحوا في مبدأ الأمر يضرب أحدهم الآخر بقطع

الطين، ثم انقلبت الحال وانتقلوا إلى التلاحم بالأيدي، وبالأخير بعد أن حمِيَ وطيس المعركة الزائفة تطوّر الأمر إلى قتال جدّي بالحجارة والهراوات، ولم يتمّ التفريق فيما بينهما إلاّ بعد الجهد الجهيد. وأُبلغ الإسكندر بالأخير رئيسي الفريقين بأن يقررا نتيجة معركة فريقيهما بمبارزة فردية يخوضاتها. وقام هو نفسه بتسليح الرئيس الذي اتخذ اسمه. في حين قام فيلوطاس بنفس العمل لقائد الفريق الذي اتخذ اسم داريوس. وخرج الجيش كله لمشاهدة هذا النزال والكلّ يريد أن يستخلص فألاً لنجاتهم المقبل. وبعد أن تقابل الخصمان وحمِيَ وطيس النزال بينهما، ما لبث أن استظهر ذلك الذي يحمل فريقه اسم الإسكندر، فمنحه مكافأة اثنتي عشرة ضيعة مع امتياز ارتدائه الثياب الفارسية. هذا ما حدثنا به إيراتستينوس.

على أن أعظم المعارك التي خاضها الإسكندر ضدّ داريوس لم تكن في مدينة أربيلا مثلما ادّعى معظم الكتاب، بل في گوگميلا Gaugamela. وهذه الكلمة في لغتهم معناها «مناخ الجمل». وقد سُمّي الوضع بهذا الاسم لحادثة وقعت فيه وهي أن أحد ملوك الفرس القدماء نجا من مطاردة أعدائه على ظهر جمل سريع. فاعترافاً بفضل هذا الحيوان أسكنه هنا وأوقف قرى وريع مسقّفات للعناية به. وقد اتفق أنه في هذا الشهر المسمّى بويدروميون Boedromion، بمبدأ عيد الأسرار على وجه التقريب في اثينا، أن حدث خسوف. وبعد الليلة الحادية عشرة من هذا الخسوف أصبح الجيشان على مرأى أحدهما من الآخر. وأبقى داريوس رجاله شاكّي السلاح وفي حال تأهُّب واستعرضهم على ضوء المشاعل. في حين قضى الإسكندر تلك الليلة أمام خيمته مجتمعاً بعرّافه أريستاندر مباشرَين طقوساً سرّية معيّنة ومضحّيان لإله الخوف. في حين كان جنوده يغطّون في نومهم. وشاهد أقدم قوّاده ولاسيما پارمينيو السهلَ جميعه ما بين جبلي نيفاتس Niphates وگورديان Gordyaean وهما يشعّان بالنيران العظيمة التي أوقدها البرابرة، وسمعوا الأصوات والأصداء المضطربة الآتية من معسكرهم مثل بحر هدير خِضَمّ آتٍ من بعيد، فادركهم الذهول والعجب عند التفكير بهذا الحشد العظيم. وبعد مداولة فيما بينهم توصّلوا إلى أن الاشتباك بالعدوّ المتفوّق عليهم تفوّقاً ساحقاً لهو أمر عسير محفوف بالمخاطر. والتقوا بالملك وهو راجع بعد تقديمه القرابين وراحوا يلحّون عليه بأن يهاجم داريوس ليلاً قائلين ربما حجب الظلام أخطار المعركة فردّ عليهم بجوابه المشهور:

- إنّي لا أسرق النصر!

قول حسبه بعضهم في حينه قولاً صبيانياً ينطوي على تسرّع وعدم شعور

بالمسؤولية، حتى لكأنّ صاحبه يلعب بالخطر لعباً إلاّ فريقاً اتخذه دليلاً على ثقة الإسكندر بالوضع الراهن، وإصابته في حسابه. وفسّروا قراره بأنه في حالة هزيمة داريوس لا تبقى له فرصة أخرى لتجربة حظّه ثانية، الحظّ الذي افترض أنه يقف إلى جانبه بأن يعزو هزيمته إلى عامل الليل الذي كان ضدّه كما عزاها من قبل عندما هُزم في الجبال والشّعاب الضيّقة والبحر.

ففي الوقت الذي كان يوجد تحت تصرّفه هذا القدر العظيم من القوات، والممالك الواسعة، ولايشكو نقصاً لا في الرجال ولا في السلاح يتعلل به لرفض الاشتباك، لا يكون سبب الإحجام غير الافتقار إلى الشجاعة وفقدان المعنويات والإيقان بالهزيمة مسبقاً.

بعد أن أجاب الإسكندر قوّاده بهذا الجواب انصرفوا عنه. فاضطجع في خيمته ونام بقية الليل نوماً أهدأ وأعمق من المعتاد، الأمر الذي عجب له القادة حين أقبلوا عليه صباح اليوم الباكر وهم يريدون منه إعطاء الأمر بإفطار الجنود. ولم يسمح لهم الوقت بالانتظار فتقدم پارمينيو من سريره وناداه باسمه مرّتين أو ثلاثاً حتى استيقظ وسأله كيف أمكنه أن ينام هذا النوم العميق كأنه نوم غبّ نصرٍ، في حين أنه مزمعٌ أن يخوض أعظم معركة له؟ فأجاب الإسكندر باسماً:

- أوَلَسنا كذلك في الواقع؟ لاسيما بعد أن تخلّصنا من متاعب مطاردة داريوس في بلاد واسعة جرداء مؤمّلين عبثاً أن يقاتلنا؟

بدت عظمته للعيان لا قبيل المعركة فقط بل عندما بلغ الخطرُ أقصاه. وظهر مقدار ضبط النفس المتناسب مع بُعد النظر والثقة. فلقد ظلّت المعركة مدّة طويلة غامضة، لا ترجح كفّة جانب على آخر. واشتد هجوم خيّالة البختيارية Bacrtia على الميسرة التي كانت بإمرة پارمينيو إلى الحدّ الذي دبّ الخلل في صفوفها فاضطر إلى التقهقر قليلاً. وفي الوقت عينه أرسل مازيوس Mazaeus وحدة للالتفاف ومباغتة القائمين على حراسة الأثقال من الخلف مما أقلق پارمينيو فأرسل سُعاة إلى الإسكندر يُعلمه بالخطر الذي يهدد الأثقال في المؤخرة، وأنها مهدّدة بالضياع إذا لم ينقذها بنجدات قوية يتمّ سحبها من الجبهة الامامية. وصلت الإسكندر هذه الرسالة وهو يعطي إشارة الهجوم لأعوانه القريبين منه، فأمر السعاة بالعودة حالاً إلى پارمينيو والقول له لا شكّ أنه فقد رجاحة عقله وهو في وسط قلقه. كيف ينسى بأن انتصار الجيش يجعله سيّداً لأثقال العدوّ وأن هزيمته تحتّم عليه فحسب القتال ببسالة والموت بشرف لا الاهتمام بما يمتلك من مال أو عبيد. قال هذا واعتمر بلأمتِه وتقلّد بقيّة سلاحة قبل خروجه من

الخيمة وهو بجُملته زرَدٌ صقليّ الصنع وحزام جلدي مشدود حوله شداً، وفوق ذلك صدار كتّاني مقصّب ثمين كانت من الأسلاب التي غنمها في موقعه إيسوس. واللأمة التي هي من صنع ثيوفيلي وإن كانت من الحديد فهي مصبوبة ومطروقة طرقاً جيداً بحيث بريقها لم يكن بأقل من بريق الفضة. وأكمل شِكّة سلاحه بواقية عُنق من المعدن نفسه مكفّتة بالأحجار الكريمة. وكان سيفه الذي يحمله عادة في القتال هدية ملك الكتيانيين ويمتاز بخفّته العجيبة، ومعدنه الرائع. والحزام الذي يتمنطق به في كل المعارك كان من أبدع ما أخرجته يد الصناع، ويستظهر على كل قِطع سلاحه الأخرى، وهو من عمل هيلقون Helicon السالف ذكره قدّمه الروديون Rodians دليلاً على الاحترام الذي يكنّونه له.

ترك حصانه المفضل بوكيفالس أثناء تفتيشه الصفوف وتنظيمها والانتقال بينهما لإعطاء الأوامر وتعيين الاتجاهات واستعراض الرجال، فهذا الجواد كان متقدّماً في السنّ. على أنه أرسل في طلبه عند بدء الهجوم وامتطاه حين بدأ القتال.

في هذا اليوم المشهود ألقى أطول خطبة له في الشساليين وغيرهم من الإغريق، فردّوا عليه بصياح وهتاف عظيمين، طالبين أن يتقدمهم إلى الأمام ضدّ البرابرة. وعندها نقل رمحه إلى يسراه ورفع يمناه إلى السماء راجياً من الآلهة على قول كالليتسنيس «إن كنتُ ابن جوپتر حقاً فمن الواجب أن تساعد الإغريق وتشدّ أزرهم». في الوقت نفسه تقدّم العرّاف أريستاندر راكباً مُشتمِلاً بعباءة بيضاء وعلى رأسه تاج ذهبي. وأظهر للجنود صقراً أطلقه فحلق فوق الإسكندر واتجه نحو العدوّ فدبّت في الناظرين حماسة عظيمة. وبعد استنهاض هِمَم بعضهم بعضاً وتشجيعهم هجمت الخيّالة بأقصى السرعة وتبعها فلانكس المشاة جميعه كتلة متراصّة واحدة. لكن البرابرة انكفأوا إلى الخلف قبل الاشتباك بين الصفوف الأمامية فجدّ الإسكندر في أثرهم ودفع بأولئك المنهزمين من أمامه إلى وسط المعركة حيث كان داريوس، ولمحه الإسكندر من بعيد على رأس الصفوف الأمامية يحيط به حرسه الخاص، وكان رجلاً فارع الطول وسيماً، يقود عجلة فخمة يحميها عدد كبير من أفضل الفرسان من كل جانب وهم في أبدع نظام وأتمّ الاستعداد لاستقبال هجمة العدوّ. إلاّ أن تقدّم الإسكندر كان مخيفاً ساحقاً بحيث أجبر المتقهقرين على الارتماء فوق أولئك الذين ظلوا ثابتين في مواضعهم وهكذا هزمهم وفرّقهم شذَر مذَر. وحاولت قلّة الصمود وهي نخبة من أشجعهم فقُتلوا عن آخرهم بمشهد من ملكهم. كانوا يتساقطون أكداساً واحدهم فوق الآخر وهم يحاولون أثناء احتضارهم الإمساك بالخيل المتقدمة لوقفها. واتضح لداريوس أن كل شيء قد ضاع وأن

أولئك الذين وُضِعوا في الصفوف الأمامية لحمايته قد انكسروا ودُفعوا إلى الخلف عليه. ووجد أن الاستدارة متعذرة ولم تتخلّص عجلته إلاّ بعد الجهد الجهيد لأن عجلاتها اشتبكت وتعثرت بجثث القتلى التي كانت مكدّسة أكداساً شيء فوق شيء فأوقفت الخيل بل غطّتها فأجفلت وانكفأت إلى الخلف وجمحت، ما أسقط في يد سائق العجلة ولم يعد بوسعه السيطرة عليها واهتبل فرصته وهو في هذا المأزق بترك عجلته وأسلحته وامتطاء مُهرة أخذت من فَلْوِها (على ما قيل) وبهذه الوسيلة نجا. على أن النجاة كانت بعيدة عن متناول يده لو لم يرسل پارمينيو سعاة آخرين إلى الإسكند مطلب إنجاده ضدّ أعداد كبيرة من الأعداء الذين ما زالوا صامدين في مواضعهم. في ال إن پارمينيو كان في هذه المعركة هدفاً لانتقاد الجميع فقد بدا متراخياً لا خير فيه ما لأن كبر السنّ أحدث اثره في إقدامه وشجاعته، أو كان - على حدّ قول كاللتسينوس - يكره في سرّه تنامي عظمة الإسكندر ويحسده عليها. إن الإسكندر لم يدركه أقل السخط لاستدعائه، واضطراره إلى التخلّي عن استكمال نصره، إلاّ أنه أخفى السبب الحقيقي عن رجاله وأمر بضرب بوق الوقوف، كأنما تأخُّر الوقت بهم لمتابعة النصر هو السبب، واتجه إلى ناحية الخطر من المعركة ولكنه أُبلغ بنبأ هزيمة العدوّ وهو في طريقه.

أما وقد انتهت المعركة بهذه النتيجة فقد بدا وكأنها وضعت نهاية محتومة لإمبراطورية الفرس. وقام الإسكندر الذي أُعلن ملكاً على آسيا بتقديم شكره للآلهة بقرابين فخمة. وأغدق على أصدقائه وأعوانه المكافآت المالية، ومنحهم الأراضي وأمّرهم على الممالك والأقاليم. ودفعته رغبته في كسب احترام الإغريق وثقتهم إلى الكتابة إليهم بعهد قطعه على نفسه وهو قيامه بإلغاء كل حكومات الطغاة والمستبدّين، ويمنّيهم بالعيش في ظلّ الحرية وبحماية قوانينهم، وذكر بصورة خاصة البلاتيان Platians. ووعدهم بأن يبني مدينتهم لأن مواطنيهم كانوا في غابر من الزمن قد سمحوا أن يجعلوا من بلدهم مركزاً لإدارة الحرب عندما نشب القتال مع البرابرة دفاعاً عن حريتهم المشتركة. وبعث أيضاً بجزءٍ من الغنائم إلى إيطاليا للكروتونياتيين Crotoniats تكريماً لشجاعة وحَمِيّة مواطنهم فايالوس Phayllus المصارع الذي انضمّ إلى الأسطول في سلاميس ليكون له سهم في المخاطر والأهوال بسفنه التي سيّرها على حسابه الخاص ومشاركته في الحروب الميدية، في الوقت الذي تنكّرت لأصلها المستعمرات الإغريقية الأخرى في إيطاليا وتخلّت عن بلاد اليونان. كان الإسكندر شديد التعلّق بكل أنواع الفضائل، وكان أيضاً يهتمّ كثيراً بحفظ ذكرى الأعمال والمآثر الجديرة بالثناء التي يقوم بها الغير.

ومن هناك زحف إلى بلاد البابليين ودخلها وسرعان ما دانت له بالولاء. وفي أكيتانا أدركه شديد العجب لمنظر النار الدائمة الصادرة من نبع مثل نبع ماءٍ لا ينقطع مجراه ينبط من باطن الأرض. ومسيل النفط وهو لايبعد كثيراً عن تلك البقعة يتدفق بكمّية كبيرة جداً حتى أنه يؤلّف ما يُشبه البحيرة. إن هذا النفط وهو من بعض النواحي يماثل الزفت سريع الاتقاد بحيث تراه يتّقد بملامسة الضوء قبل وصول اللهب إليه. وكثيراً ما يشعل الهواء المتوسط أيضاً. ولكي يظهر البرابرة قوّته وطبيعة عمله فقد رشّوا الشارع المؤدّي إلى مسكن الملك بقليل من قطراته وعندما حل المساء وقفوا عند إحدى نهايتي الخط وبيدهم المشاعل ثم قرّبوها من النفط المرشوش وما إن تسلّمت النار حتى كان الخط كله ناراً من طرف إلى طرف في ومضة عين، وبدا الشارع وكأن النيران قد التهمته. وكان ثمّ شخصٍ يُدعى أثينوفانس Athenophanes وهو مواطن أثيني يقف بخدمة الملك وانتهاز المناسبات لتسليته عند اغتساله، ويدهن جسمه بالزيت، طلب منه الإسكندر أن يجري تجربة على أستفانوس بالنفط، وهو شاب قبيح الطلعة وجهه يُضحك الثكلى بارع في الغناء كان يقف منتظراً في مواضع الاستحمام عنده، قائلاً:

- لو أنها (أي النار) اشتعلت فيه بدون أن تُطفأ فلا بدّ أنها ذات قوة لا تقهر.

فبادر الشاب يعطي موافقته على التجربة فدهن جسمه بالنفط وما إن فرك جلده حتى اشتعلت النار فيه فاستولى القلق والاضطراب الشديد على الإسكندر، ولولا جمع قريب من الناس بادروا بالماء وصبّوها عليه لحسن الحظ لانتهت حياته وأتت عليه النيران. على أن جسمه أصيب بحروق كثيرة ومرّت مدة طويلة حتى اندملت وتماثل للشفاء. وهكذا فإنه لم يكن خالياً من العذر المقبول اجتهاد القائلين إن النفط هو العقار الذي ذكرت التراجيديات أنّ ميديا Medea دهنت به التاج والخِمار اللذين أعطتهما لابنة كريون Creon. فلا الأشياء بذات نفسها ولا النار نفسها بقادرة على الاتّقاد ذاتياً، وإنما يتمّ ذلك بنقعها بالنفط فلا ترى نفسها إلاّ وهي تنجذب إلى النار وتشتعل دون وسيط عندما يتفق أن يقرب منها لهب. إن إشعاع وفيض وانبثاق اللهب من بعيد لا أثر له على بعض الأجسام أكثر من إعطائها حرارة أو ضوء. ولكن في بعضها الآخر حيث تصادف جفافاً فيه تيار هوائي، وكذلك رطوبة غنية كافية، فإنها تتجمّع إلى نفسها وما تلبث أن تلتهب وتُحدث التحوّل المنشود. وعلى أية حالٍ فإن طريق استخراج النفط يطلق عنان الفكر في دروب مختلفة من الآراء. هل أن هذه المادة السائلة التي تغذّي اللهب تصدر من التربة التي هي زيتية القوام ومولّدة للنار، مثل إقليم بابل حيث الأرض على درجة حرارة عالية جداً بحيث إن حبّة الشعير في أغلب الأحيان تقفز احياناً من قشرة سُنبلتها

وتنقذف إلى الخارج، وكان اللهيب العنيف قد جعل الأرض تخفق خفقاناً. عندما تصل درجة الحرارة أقصاها هناك يعمد الناس إلى النوم على جربان مملوءة ماءً. إن هرپالوس Harpalus الذي تركه الإسكندر حاكماً لهذه البلاد، وكان ولوعاً بتزيين حدائق القصر ومما يشبه أنبتة إغريقية، نجح في استنبات كل ما غرسه عدا اللبلاب الذي لم تكن التربة تتحمّله بل وقتلته فوراً لأنه من النبتات التي تحبّ التربة الباردة ومزاج هذه الأرض الحارّة النارية لم يناسبها. (إن أمثال هذه الاستطرادات التي أوردها قد يكون القارئ النافد الصبر أكثر ميلاً إلى غفرانها لو بقيت مقصورة ضمن دائرة معتدلة).

عند الاستيلاء على سوسة وجد الإسكندر في القصر الملكي أربعين ألف تالنت نقداً مسكوكاً إلى جانب ما يقصر عنه الكلام وما يتعذّر تحديد مقداره من الأثاث والكنوز من بين ذلك ما تبلغ قيمته خمسة آلاف تالنت من الارجوان الهرميوني ظل مكنوناً هناك زهاء مائة وتسعين عاماً وما زال محافظاً على لونه جديداً قشيباً، ويقال إن السبب في ذلك يعود إلى استعمالهم العسل في صبغ الأرجوان كما يستعملون الزيت الأبيض وكلاهما يحافظان على تألّق القماش ومرونته بعد مرور هذه الحقبة من الزمن. ويحدّثنا دينون Dinon أيضاً أن ملوك الفرس كانوا يجلبون ماءً من نهري النيل والدانوب ويختزنونه عندهم استشهاداً بعظمة سلطانهم وسعة إمبراطوريتهم.

كان دخوله بلاد الفرس من أراض وعِرة جداً يسهر عليها أنبل الفرس، وقد لجأ إليها داريوس نفسه. على أن الصدف هدت الإسكندر إلى دليل تتفق أوصافه تماماً مع ما تنبّأت به پيثيا في طفولة الإسكندر، وهو أن ليقوسيّاً سيقوده إلى بلاد فارس. وبمعونة شخصٍ أبوه ليقي وأمّه فارسية يتكلم اللغتين، دخل البلاد بطريق غير مباشرة ولكن دون كثيرٍ من اللفّ والدوران. وفي هذا الموضع وضع السيف في رقاب كثير من الأسرى، كما أقرّ هو نفسه بذلك أعني أنه أمر بقتلهم معتقداً أن في ذلك مصلحة. وادّعى أن الأموال المنقولة والنفائس كثيرة هناك ووضع يده على ما يربو على عشرة آلاف زوج من البغال وخمسة آلاف جمل أخذها عنوة. ووجد تمثالاً كبيراً لزركسيس ملقى بإهمال بسبب ما عمّ من الفوضى والاضطراب اللذين أثارهما الجمّ الغفير من الجنود المتدافعين نحو القصر، فوقف ساكناً وبادره بالكلام كما لو كان بشراً حيّاً:

– أتتوقّع أن نمرّ بك مروراً عابراً وأنت ملقى على الأرض لأنك غزوت يوماً ما بلاد اليونان؟ أم ترانا نقيمك على قاعدتك مقدّرين عظمة عقلك وفضائلك الأخرى؟

وبعد أن فكّر ملياً مقلّباً الأمر من شتّى وجوهه واصل سيره دون أن يعيره أكثر من ذلك اهتماماً. واتخذ من هذا الموضع مقرّاً شتوياً له ومكث أربعة أشهر لإراحة جنوده.

ومما أُثر عنه أنه عندما جلس لأول مرّة على عرش ملوك الفرس تحت مظلّة من ذهبٍ ما كان من ديماراتوس Demaratus الكورنثي، وهو أحد أقرب خلصائه وواحد من أصدقاء أبيه، إلاّ أن انفجر باكياً بكاء الرجال المتقدّمين بالعمر، وراح يندب سوء حظ أولئك الإغريق الذين حرمهم الموت من لذّة رؤية الإسكندر جالساً على عرش داريوس.

وقرر أن يبدأ زحفه على داريوس. وقبل أن يباشر ذلك راح يسلّي نفسه وقوّاده بحفلات شرب وغير ذلك من وسائل قضاء الوقت وانغمسوا في ذلك إلى الحدّ الذي سمح فيه لكلّ محظية بأن يجلس إلى جنب صاحبها وتساقيه. وكانت تاييس Thais الأثينية محظية بطليموس ملك مصر المقبل أشهرهنّ. هذه المرأة نطقت بقول موجّه إلى الإسكندر يمتاز بالبراعة من جهة، وبالفكاهة وسرعة البديهة من جهة أخرى، أثناء ما كانت كؤوس الراح تُترع وتُدار فلعبت الخمر برأسها إلى الحدّ الذي فاهت معه بكلام لا يمكن اعتباره غير جدير بطبائع موطنها وكان ررفع بكثير من مكانتها وصفتها. قالت:

- إن قيامي اليوم بالخدمة، وبإمكاني أن أشتم ملوك الفرس في قصرهم، فيه بعض تعويض عمّا كابدته من المتاعب والمشاقّ بمتابعة الجيش في تنقّلاته في أرجاء آسيا. لكن قد يزيد في سروري كثيراً لو يسمح لي - على سبيل العبث والتسلية لا غير - بأن أشعل النار بيدي في قصر زركسيس الذي أحال مدينة أثينا إلى رماد، والإسكندر ينظر إلى المشهد. وهكذا سيسجّل للأجيال القادمة أن المرأة التي تبعته قد ثأرت من الفرس للمآسي والإهانات التي تلقّاها الإغريق منهم، وهو انتقام أشدّ وأنكى من أي انتقام ناله القوّاد العسكريون منهم بحراً أو براً.

واستقبلت كلماتها بارتياح عام وغمغمة استحسان دليلاً على تشجيع المحتفلين وتحبيذهم حتى أن الملك نفسه لم يسعه غير الموافقة مع الإجماع. فنهض من مجلسه وعلى رأسه أكليل الزهر وبيده مشعل متّقد، وسار على رأس الجمع وهم في أثره محدثين ضوضاء وضجّة والكل يرقص ويهتف فينادي بأعلى صوته فترجع أجواء القصر أصداءها. وبمشاهدة المقدونيين الموكب استخفّهم الطرب وراحوا يتراكضون هنا وهناك وبأيديهم المشاعل وكانوا يتوقّعون حرق وتدمير القصر الملكي متخذين من شوق الإسكندر إلى الوطن وعزوفه عن السكنى بين البرابرة دليلاً.

هذا ما سجّله بعض الكتّاب حول الحادث في حين ذكر آخرون أن مباشرة الحريق كان متعمّداً وليس عفوياً. إلاّ أن الفريقين يتفقان بأن ندم الإسكندر كان سريعاً آنيّاً فأصدر أمره بإخماد النار فوراً.

كان الإسكندر بطبيعة حاله جواداً معطاءً. يزداد سخاء كلّما سما به حظه. وكان يقرن هباته بضروب لطيفة من المجاملة وحُسن التصرّف واللباقة وهي أمور ضرورية جداً لتجعل أية منحة فضلاً مشكوراً لا تعويضاً. وسأورد بعض الأمثلة على ذلك:

فتك أريسطون قائد الپايونيين Paeonians بمقاتل من الأعداء وحمل رأسه إلى الإسكندر قائلاً إن هدية كهذه تُعوَّض في عُرف بلاده بكوبٍ من الذهب الخالص فردّ الإسكندر باسماً:

- بكوب خالٍ من الخمر. ولكني أشرب نخبك بهذا الكوب الذي أقدّمه إليك مُترعاً!

في مناسبة ثانية كان أحد الجنود يسوق بغلاً محمّلاً بأموال تعود للملك فأدرك الحيوان النَّصَب. فبادر الجندي إلى نقل الحمل إلى عاتقه وسار يستاق البغل المتعب خلفه. فشاهده الملك ينوء تحت ثقل ما يحمل فسأله عمّا حدا به إلى ذلك، فأجابه وهو يهمّ بإنزال حمله من فرط التعب، فقال له الإسكندر:

- لا تهن الآن وتماسكْ وأكمل رحلتك وخذ ما تحمله إلى خيمتك فهو ملك حلال لك.

وكانت نَفْرته وانزعاجه من رافضي هباته أكثر ممن يستجدونها منه. ولذلك كتب إلى فوكيون Phocion يقول: «إني لن أعتبرك في عِداد أصدقائي إن ظللتَ ترفض قبول عطاياي».

ولسيراپيون وهو أحد الشبّان الذين كان يلاعبهم بالكرة لم يعط شيئاً لأنه لم يطلب منه. وفي يوم ما جاء دور الشابّ في قذف الكرة فراح يتوجّه بقذفاته إلى اللاعبين الآخرين متجاهلاً الإسكندر فسأله هذا عمّا يحدوه إلى ذلك، فأجاب الشاب قائلاً:

- لأنك لم تطلب مني.

فسرّته الإجابة وانبسطت يده له غاية الانبساط.

وكان ثمّ آخر اسمه پروتياس Proteas وهو رجل لطيف خفيف الظلّ ضاحك الثغر مزّاح شِرّيب خمرٍ، كان قد أغضبه يوماً لسبب ما، فدفع إليه بأصدقاء متوسّطاً مستشفعاً طالباً عفوه وهو باكٍ حتى نجحت المساعي، وصرّح الإسكندر أن قلبه قد صفا له وانه عاد إلى ودّه. فقال پروتياس:

- لا يسعني تصديق ذلك ما لم تعطني عهداً.

ففهم الملك قصده وأمر فوراً بمنحه خمسة تالنتات.

وتبدو روعة أخلاقه وسموّه في إغناء أتباعه والواقفين على خدمته من رسالة كتبتها

له أولمپياس أوصته فيها بان يقبض يده قليلاً في مكافأة المحيطين به معلّلة ذلك بقولها:

- إنك الآن تساويهم بالملوك فتمنحهم السلطة، وتتيح لهم الفرصة في أن يجمعوا حواليهم حاشية من الأصدقاء ويختصّون بهم في حين ينفض من حولك الأصدقاء.

وكثيراً ما كانت تكتب إليه حول ذلك. ولكنه لم يكشف عن محتويات تلك الرسالة إلى أحدٍ خلا رسالة واحدة فضّها وهيفايستيون Hephaestion واقف معه فأجاز له مطالعتها معه كما تقضي به العادة. وبعد أن فرغ هيفايستيون من القراءة أسرع الإسكندر فخلع خاتمه ووضع ختمه على شفتي صديقه!

كان لمازيوس Mazaeus أكبر الأشخاص مقاماً في بلاط داريوس ابن قُلّد وظيفة حاكم إقليم. فجعله الإسكندر حاكماً على إقليم آخر أفضل من الأول. فرفض ذلك على كلٍ تواضعاً منه وقال له إنه بدل داريوس واحد يخلق عدة نسخ من الإسكندر. ومنح پارمينيو فنزل بغواس Bagoas فوجد المالك الجديد فيه مستودعاً من الثياب والحلل ما تربو قيمته على ألف تالنت. وكتب إلى أنتيپاطر يأمره أن يتّخذ لنفسه حرساً خاصاً دائمياً للمحافظة على حياته من المتآمرين. وأرسل إلى أمّه الكثير من الهدايا إلا أنه لم يمنحها أيّ مجالٍ للتدخّل في أمور السياسة والحرب ولا أن تستخدم ميلها إلى التدخّل، ولا أن تتّبع فضولها. وعندما نشب الخلاف بينهما بهذا الخصوص تحمَّل حدّة طبعها بكل صبرٍ وأناة، بل ارتفع حِلْمُه معها إلى الحَدّ الذي قال معه بعد أن قرأ رسالة اتهام لأنتيپاطر طويلة ضدّها حرّرها له أنتيپاطر:

- إن أنتيپاطر لا يدرى أن دمعةً واحدة تذرفها عين أمّ تمحو ألف رسالة كهذه.

لكن عندما تبيّن أن خلصاءه غرقوا في أسباب الترف وتمادوا في الإسراف والبذخ، حتى أن هاگنون Hagnon التاياني خصف أحذيته بمسامير من الفضّة، وليوناتسي أرسل العديد من الجمال لحمل التراب الدقيق من مصر وفرشه على أرض المصارعة، وأن فيلوطاس أصبح لديه من شِباك الصيد ما يبلغ طوله مائة فرلنك، وأن الكثيرين يستخدمون أدهاناً وأطياباً غالية الثمن بدل الزيت الاعتيادي عند الاستحمام، وأنهم يصحبون الخدم والحشم حيثما انتقلوا وسافروا لتدليكهم والقيام عليهم في حجراتهم - عندما تبيّن كل ذلك بدأ يعنّفهم بلهجة رقيقة معتدلة فيقول لهم مثلاً:

- إني لأعجب منكم، أنتم الذين خاضوا غِمار المعارك والنزال الفردي الكثير، كيف لم تعلّمكم التجارب بأن المرهقين من عمل اليوم ينامون أهنأ النوم وأعمقه، لا كأولئك الذين يعمل الآخرون من أجلهم. كيف عميت بصيرتكم عن الرؤية، فما عدتم تقارنون طراز العيش الفارسي بطرز عيشتكم. إن أبغض شيء وأحقره هو أن يكون

المرء شهوانياً، على أن أنبل حالة من حالات البشر وأسماها هي في أن يعاني الألم ويتمرّس في الآفات.

وناقشهم أيضاً في ادّعاء المرء بأنه جندي ولكنه لا يُعنى بحصانه أو ينظّف شِكّة سلاحه ويصقلها دوماً لتكون دائماً في حالة جيدة، فإن الجندي هو ذلك الذي يهتمّ بالدرجة الأولى بأن تكون يداه نافعتين لأقرب الأشياء إليه وهو جسده وكيانه. وقال أخيراً:

- أبحاجة أنتم إلى أن تتعلّموا أن نهاية انتصاراتنا وكمالها يتحققان في اجتناب رذائل ونقائص مَن استظهرنا عليهم؟

ولدعم حُجّته بالبرهان الحسيّ انصرف إلى الصيد والقنص انصرافاً مضاعفاً، وخرج كثيراً في تجريدات عسكرية مهتبلاً كل الفرص لتعريض نفسه للمشاقّ والأخطار، حتى اتفق أن اللقيديميين الذين كانوا قد وفدوا عليه في سفارة حضروا منازلة بينه وبين أسدٍ ضخم فتمكن منه وصرعه. فقالوا إنه قاتلَ الحيوانَ الضاري ببسالة فأيّ الاثنين يجب أن يكون الملك؟ وقام كراتيروس Craterus بعمل نقش بارز لهذه المنازلة ظهر فيه الأسد والكلاب والملك وهو يصارع الوحش وهو نفسه قادم لمعونته - وكان النقش على النحاس بتماثيل بعضها من صنع ليسيبوس Lysippus وبعضها من صنع ليوخارس Leochares فهو يعرّض نفسه للمهالك والأخطار قاصداً تعويد نفسه عليها وحثّ غيره على الأعمال النبيلة والإقدام.

إلاّ أن أتباعه الذين اغتنوا وأتربوا وأدركتهم الخيلاء بسبب ذلك، مالوا إلى الانغماس في الملذّات وألِفوا حياة الخمول والكسل، وبدأوا يضيقون ذرعاً بالمسيرات والحملات العسكرية، وتمادوا إلى الحد الذي أمسكوا معه عن الحديث الطيّب عنه وراحوا يغتابونه. في بادئ الأمر تحمّل منهم ذلك متحلّياً بالصبر الجميل وقال:

- تلك هي العادة، مهما أحسن الملوك عملاً فإن ألسنة السوء تنالهم بالقدح.

ومع ذلك لم يكفّ عن عطفه عليهم فينتهز أقلّ مناسبة لإبدائه لهم. وإن دلائل رقّته واحترامه لهم لا تُحصى. سمع مرّة أن پيوكستس Peucistes قد عضّه دبّ فكتب اليه يقول:

- إني لا أقبل أن أسمع من الآخرين هذا النبأ، بل أريد أن تخبرني به أنت، لكن ما دام الأمر قد حصل فدعني أعرف كيف أنت، وإن كان قد تنكّر لك أيّ صاحب من أصحابك ساعة الخطر حتى أُنزل به العقاب.

وأرسل إلى هيفايستيون - الذي كان قد سافر لمهمةٍ - رسالة يذكّره فيها كيف أن

رمح پيردكّاس Perdeccas اخترق فخذي كراتيروس بمحض الصدفة أثناء ما كانا يصارعان نِمْساً ضارياً على سبيل التسلية. وعند شفاء پيوكستس من مرض ألمّ به أرسل كتاب شكر لطبيبه ألكسيپوس Alexippus. وعندما لازم كراتيروس الفراش مرّة رأى حُلماً في نومه فقام على أثره بتقديم القرابين لأجل شفائه وطلب منه أن يفعل المثل. وكتب أيضاً إلى پاوسانياس Pausanias الطبيب الذي كان يهمّ بتطهير أحشاء كراتيروس بالخربق، شعوراً منه بالقلق الشديد عليه من ناحية، وتذكرة له بأن يكون حذراً باستعماله هذا العقار السامّ من جهة أخرى.

وكان رفيقاً وغيوراً على سُمعة أصدقائه إلى الحدّ الذي عمد فيه إلى إيداع كل من إيفيالتس Ephialtes وكيسّوس Cissus السجن لأنهما كانا أول من أخبراه بهرب هارپالوس Harpalus من خدمته؛ خشية أن تكون تهمة مزيّفة. وعندما أعاد العجزة وكبيري السنّ إلى الوطن عمد يوريلوخوس Eurylochus، وهو مواطن إيجي، إلى تسجيل اسمه في قائمة العاجزين في حين كانت صحّته على ما يرام. ولما افتُضح أمره اعترف بأنه يحبّ فتاة اسمها تيليسپّا Telesippa وقد أراد أن يلحق بها إلى الساحل. فاستخبر الإسكندر عن وليّ أمر الفتاة فقيل له إنها محظيّة حرّة بالولادة. فقال ليوريلوخوس الجندي:

- سأعينك في حبّك هذا، إن أمكن الفوز بمعشوقتك بالهدايا أو بالوساطة. ولكن علينا الا نستخدم وسائل أخرى لأنها حُرّة.

إنه لمن الغريب حقاً أن يتعنّى الإسكندر كتابةَ الرسائل وتوجيهها في قضايا بسيطة تافهة خدمةً لأصدقائه. ككتابته رسالة حول البحث عن فتىً مفقود يعود لسلوقس هرب إلى كيليكيا، وتوجيهه رسالة شكر وتقدير إلى پيوكستس لقبضه على نيقون خادم كراتيروس. وكتابته رسالة لميگابيزوس Megabyzus حول عبد لجأ إلى معبدٍ لائذاً. فأصدر تعليمات تقضي بعدم التعرّض له ما دام هو في الداخل، ولكن إن استطاع سيّده حَمْلَه على الخروج بوسائل مشروعة فلا بأس من القبض عليه.

وقد أثروا عنه أنه لمّا جلس مجلس القضاء للمرة الأولى في قضايا تتضمّن أحكام موتٍ وضع يداً على أُذن عندما أخذ المدّعي يعرض دعواه، لإبقائها حرّة غير منحازة لسماع المدّعى عليه. لكنه فقد عطفه ورقّته هذه عندما كثُر عرضُ القضايا الجنائية عليه وكان معظم التهم صحيحاً ولمّا كانت أحكامه خاطئة ظالمة أحياناً. وأخذ يميل إلى تصديق الزائف من التهم أيضاً، ولاسيما عندما يتعرّض أحد لشخصه بالغيبة فإنه ينسى نفسه ويغدو قاسياً لا يعرف للرحمة معنى، مفضّلاً مجده وشهرته على حياته ومملكته.

كما قلنا سابقاً، انطلق الإسكندر وراء داريوس متوقّعاً إرغامه على الدخول في معركة أخرى. وسمع أن بسوس تمكن من القبض عليه وحبسه. وما إن سمع بذلك حتى بادر بإعادة التساليين إلى ديارهم ومنحهم هِبة قدرُها ألفا تالنت، عِلاوة على ما يستحقّونه من أعطيات. وتعب جنوده من مطاردته داريوس (قطع في أحد عشر يوماً ثلاثة آلاف وثلاثمائة فرلنغ) وغدا معظمهم على أتمّ الاستعداد للانثناء عنه بسبب قلّة الماء. وبينما هم في محنتهم هذه اتفق أن وحدة من المقدونيين الذين جاؤوا بماءٍ في أجرِبة على بغالهم من نهر صادفوه وصلوا حوالي الظهر إلى الموضع الذي عسكر فيه الإسكندر فوجدوه يكاد يموت عطشاً فبادروا إلى ملء لأمة وتقديمها له. فسألهم لمن يحملون الماء فقالوا لأولادهم. وأضافوا قائلين إن ما يهمهم حياته فحسب فلو سلمت لكان فيها الكفاية ولو هلكوا هم جميعاً، إذ سيكونون قادرين على تعويض الخسارة. فتناول اللأمة وتلفّت فرأى أعناق القريبين منه تمتدّ متلهّفة للماء، فأعاد الوعاء شاكراً دون أن يشرب قطرةً واحدة وقال:

- إن أصبتُ أنا وحدي من مائكم فستنهار معنويات الباقين.

ما إن تبيّن الجنود عظمة تصرّفه حتى أخذت الحماسة مأخذها منهم فهتفوا هتاف رجل واحدٍ وطلبوا منه أن يتقدّمهم وبدأوا يسوطون خيولهم. وقالوا: مادام ملكنا بهذه الصفة، فنحن نتحدّى التعب والعطش. وإننا لنعدّ أنفسنا كائنات لا تقلّ كثيراً عن مستوى الآلهة الخالدين. لكن ومع هذه الرغبة والاستبشار فإن عدد الذين قدروا على متابعة الزحف على ما قيل لم يكن يزيد عن ستين فارساً، هجموا على معسكر الأعداء في غفلة منهم ووضعوا أيديهم على كميات لا تقدّر من الذهب والفضّة كانت مبعثرة هنا وهناك. ومرّوا بعددد كبير من العجلات ممتلئة بالنساء ومتفرّقة في رقعة واسعة وليس فيها سائقون. وجدّوا في إدراك أول الهاربين أملاً في العثور على داريوس معهم. وقد عثروا عليه فعلاً بعد كثير من الجهد. وكان ملقى في عجلةٍ مثخناً بالجراح على شفا الموت. فطلب من آسريه شُربة ماء. وعندما نال قليلاً من الماء البارد قال لساقيه پوليستراتوس Polystratus إنه بلغ آخر درجة من الشقاء وسوء الحظ عند قبوله هذه الحسنة وعجزه عن ردّها وأضاف:

- لكنّ الإسكندر الذي أرجو من الآلهة أن تكافئه لعطفه على أمي وزوجي وأولادي سيشكرك دون شكّ لإنسانيّتك معي. فقل له عنيّ إني أمدّ إليه يدي اليمنى دليلاً على شكري وتقديري.

وقبض على يد پوليستراتوس ولفظ آخر أنفاسه.

وظهر الحزن العميق على الإسكندر عند وصوله إليه، ونزع معطفه وألقاه على جسده. وبعد مرور فترة من الزمن أسر بيسّوس فأمر به أن يمزّق شلواً على الوجه التالي: شدّوه إلى شجرتين متقابلتين بعد أن أحنوا جذعيهما وضمّوهما إلى بعض بقوة عظيمة ثم أطلقوهما فعادتا إلى وضعهما وقد نالت كل واحدة منهما جزءاً من الجسد المشدود إليها. وسُجّي جسد داريوس في نعش مكشوف وأُرسل إلى أمّه بأبّهة تليق بمقامه. وجعل أخاه اكساثريس Exathres واحداً من أخلص أصدقائه وأقربهم. وزحف بزهرة جيشه نحو هرقانيا Hyrcania فوجد أمامه ساحلاً واسعاً وبحراً مفتوحاً لا تقلّ سعته عن بحر قزوين Euxaine ماؤه أعذب من المياه الأخرى. إلاّ أنه لم يتحقق منه. وبدا له أن كل الاحتمالات تشير إلى كونه ذراعاً صادراً من بحيرة ميوتس Moeatis. على أن علماء الطبيعة قبله كانوا أخبر منه فقد توصّلوا إلى الحقيقة قبل حملته بعدة سنين فأثبتوا أنه من الخلجان الأربعة التي تدخل إلى القارة من البحر الرئيس عند هذا الخليج الذي لا يُعرف بغير اسم «قزوين» ويقع في اقصى الشمال كالبحر الهرقاني. التقى البرابرة بنفر كانوا يقودون جواده الخاص بوكيفالوس فأخذوهم أسرى ووضعوا أيديهم على الحصان فاستشاط غضباً وأرسل إليهم منادياً يهدّدهم ويطلب إعادته أو سيضع السيف في رقابهم جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً دون أن تداخله فيهم أية رحمة. على أنه عاملهم معاملة لطيفة عندما أعلنوا الطاعة وسلّموا له مدنهم وزاد في لطفه بأن افتدى حصانه ممن نهبه.

ومن هنا زحف إلى پارثيا. ووجد نفسه هناك عاطلاً لا عمل لديه فأشغل نفسه بأمور ثيابه كلبسه الزيّ البربري. ولعلّه اقدم على ذلك للتقرّب من قلوبهم وليسهّل مهمة تحضيرهم. إذ ليس ثمّ ما يجذب قلوب الناس كتبنّي عاداتهم وكالتخلّق بطباعهم أو ربما كانت منه أول محاولة يستنتج منها مدى استعداد المقدونيين لعبادة شخصه كما يعبد البرابرة ملوكهم بتعويدهم شيئاً فشيئاً على التغيير الطارئ في حكمه وأسلوب حياته وغير ذلك من الأمور. وعلى أية حالٍ فإنه لم يتخذ الزيّ الميدي لباساً فقد كان بنظر مواطنيه أجنبياً تماماً وغير مألوف، فاقتبس بعضه ولم يتخذ السراويل ولا الصدار ذا الأكمام ولا القلنسوة، أعني أنه اختار الطريق الوسط بين الزيّ الفارسي والمقدوني، واهتمّ بحيث لا تكون زاهية صارخة الألوان كالأولى ولا فخمة فاخرة كالثانية. وكان في مبدأ الأمر لا يرتدي زيّه الجديد هذا إلاّ عند اجتماعه بالبرابرة أو عندما يكون في خلوة بين أتباعه وأعوانه الأقربين. إلا أنه ظهر بها فيما بعد وكان منظره بها يحزن المقدونيين إلاّ أنهم كانوا يسكتون عنها ويتجاوزون بسبب فضائله وحُسن أخلاقه إلى

الحدّ الذي يشعرون معه بأن من العدالة أن يُترك وشأنه يرضي أهواءه وميله إلى المجد والظهور، بعدما عرّض نفسه للمخاطر والأهوال. ومن العوارض الخطيرة التي أصيب بها مؤخّراً أن سهماً اخترق ساقه فغتّت عظم القصبة وأخرجت منها شظايا. كذلك أصيب في مؤخّر عنقه بضربة حجرٍ عنيفة جداً أضعفت باصرتَيْه وغدا ضعيف الرؤية مدة طويلة. ولم يمنعه كلّ ذلك من تعريض نفسه للمزيد من الأخطار باستهتار عجيب فقد عبر نهر أوركزارتس Orexartes الذي حسبه نهر تانايس وهزم الصيثيين وطاردهم زهاء مائة فرلنگ وهو يعاني طوال ذلك من الاسهال الشديد.

ويؤكد الكثيرون أنه في هذه البلاد حظيَ بزيارة الأمازونات. هذا ما يزعمه كليتارخوس Clitarchus وبوليكلتيوس Polyiclitus وأونيسكريتوس Onesicritus وأنتيگينس Antigenes وإستر Ister. إلاّ أن كلاً من أرسطبولس وخاريس اللذين أشغلا وظيفة المبلّغين عن الالتماسات والعرائض، وبطليموس وأنتقليدس Anticlidis وفيلون وتيبان Theban وفيليب التيانجيلي Theangela، وهيكاتيوس Hecatæus الإرترياني Eretrian وفيليب الخلقيدوني، ودوريس الساميانى Samian، يقولون إن الحكاية كلها هي من نسج الخيال. والواقع أن الإسكندر نفسه يؤيّد الرأي الأخير إذ إنه يقصّ في رسالة موجّهة إلى أنتيپاطر تفاصيل ما حصل خلال الحملة. فيخبره أن ملك الصيثيين عرض ابنته عليه زوجاً. ولا يذكر شيئاً عن التقائه بالأمازونات. وبعد عدة سنين كان أونيسكرتريس يقرأ هذه الحكاية في كتابه الرابع إلى ليسيماخوس الذي كان ملكاً آنذاك فضحك ليسيماخوس ضحكة هادئة وعقّب قائلاً:

- أين كنت في ذلك الوقت يا ترى؟

ولو سلّمنا جدلاً بصحّة الحكاية فأية فائدة في ذلك للإسكندر؟ ومن المؤكد أنه بعد أن أدركه الملل من متابعة الحرب ترك القسم الأكبر في مقرّاته بهرقانية، واحتفظ بنخبة من الرجال يبلغ عددهم عشرين ألفاً من الرجّالة، وثلاثة آلاف من الخيّالة، وتوجّه إليهم بهذه الخطبة:

- إنكم حتى هذه الساعة لم تروا البرابرة إلاّ في أحلامكم. فإن كنتم تعلّلون أنفسكم بالعودة دون أن تفعلوا شيئاً بعد أكثر من إرهاصكم آسيا دون الاستيلاء عليها، فإن أعداءكم سينقضّون عليكم كما ينقضّون على نساءٍ. إني لن استبقي أحداً رغم أنفه، وبإمكانكم أن تذهبوا حيث شئتم، فليس لي غير رفع صوتي بالاحتجاج على المقدونيين والرثاء لهم، لأني تُركت وحدي مع حفنة من الأتباع والمقطوعين، وأنا في سبيلي أن أجعل منهم سادة الدنيا.

ذلك هو طبق ما دونه أنتيپاطر حرفاً بحرفٍ. وأضاف يقول إنه حين خاطبهم بهذا الكلام صاحوا قائلين: سنتبعك حيثما شئت أن تقودنا. وبعد نجاحه هذا لم يكن من الصعب أن يستميل القسم الأكبر الذين انضمّوا إلى النخبة. والآن أيضاً روّض نفسه على العيش كالمواطنين المحلّيين وحاول تقريبهم إلى مدنيّة المقدونيين قدر الإمكان، (وهو منشغل في حملة كانت ستقذف به إلى مسافة بعيدة) مفكراً بدراية وبُعد نظر أنه زيادة في الحكمة يجب الاعتماد على حُسن النيّة المتأتّية من الاختلاط والامتزاج بينهما وهما الوسيلتان الفعالتان للتوصّل إلى الهدوء والاستقرار، دون اللجوء إلى وسيلتي القوة والاكراه، ولذلك اختار ثلاثين ألفاً من الصبيان وأسلمهم إلى مربّين لتعليمهم لسان الإغريق وتدريبهم على استعمال السلاح على أصول الضبط والربط المقدونيين. وأما عن زواجه بروكسانا Roxana التي سحرته بفتوّتها وجمالها في حفلة شرب، حيث وقع نظره عليها لأول مرة وهي ترقص، فكانت مسألة حبّ لا غير. ومع هذا فقد بدت القضية وكأنها جزء من الخطة التي يتولّى أمر تحقيقها. إذ إنه لممّا يرضي الشعب المغلوب أن يختار الغالب زوجه منهم فيشعرهم بأشدّ الميل له. فالحب وهو العاطفة الوحيدة التي تمكنت منه واستقوت عليه، وهو أرقّ الناس وألطفهم جعله يتجمّل بالصبر والتأنّي حتى يحصل على روكسانا بطريق شرعية شريفة.

وتبيّن أن هيفايستيون كان أكثر أصدقائه وخلصائه موافقة له على تصرّفاته وأسرعهم إلى محاكاته في تغيير زيّه، في حين بقي كراتيروس أميناً على عادات بلاده وتقاليدها. فعمد الإسكندر إلى استخدام اولهما عند تعامله مع الفرس، والاعتماد على الثاني عند تعامله مع الإغريق والمقدونيين. وكان على العموم يظهر لهيفايستيون أكثر الحبّ والإعزاز ويظهر لكراتيروس أكثر الاحترام والاكبار. لأن هيفايستيون (كما يقول) هو صديق الإسكندر، في حين أن كراتيروس هو صديق الملك. ولذلك حقد أحدهما على الآخر وكان الخلاف ينشب بينهما بين فترة وفترة حتى بلغ الخلاف بهما حدّاً في الهند أن همّا بالاشتباك بالسلاح وقد أشهراه وكادا يلتحمان. وانحاز إلى كل واحد أصدقاؤه يشجّعونه ويدفعونه للنزال. فأسرع الإسكندر يحثّ مطيّته إليهما وراح يعنّف هيفايستيون علانيةً ووصفه بالرقاعة والجنون. ونسيانه أنه لم يكن شيئاً مذكوراً لولا فضله، ووبّخ كراتيروس في السِرّ. ثمّ أجبرهما على المصالحة مقسماً بالإله أمون وبقيّة الآلهة أنه يحبّهما حباً لا يعدله حبّه للبقية ولكن إنْ علم أنهما عادا إلى الخلاف والتنابز فسيقتلهما أو سيقتل المعتدي منهما على الأقلّ. وتحاشى أحدهما إثارة الآخر أو إزعاجه بالقول أو الفعل حتى على سبيل المزاح.

ولم يكن أحدٌ يداني فيلوطاس ابن پارمينيو في مكانته السامية عند المقدونيين، فإلى جانب شجاعته ومقدرته على احتمال متاعب الحرب ومشاقها، كان يأتي بعد الإسكندر في السخاء وبسط اليد، والتعلّق بأصدقائه. سأله أحدهم مالاً فأمر وكيله بأن يعطيه. فأخبره بأنه لايوجد فقال:

- أما عندكم صحفة أو ثياب لي؟ اذهب معه وأعطه.

الاّ أنه بلغ حدّ الإفراط في غطرسته وكبريائه وتظاهره بالفن إلى حدّ الادّعاء الكاذب غير اللائق بالإنسان السويّ. كان يبدي كل مظاهر الترفّع والأنفة غير مفلح في إظهار رقّة العظمة وجمالها. بهذا التعاظم المغلوط الزائف نال القدر الكبير من الحسد والحفائظ. وكان پارمينيو ينذره أحياناً بقوله:

- من الأفضل يا بُنيّ أن لا يكون البشر متعاظماً إلى هذا الحدّ.

رُفع أمره إلى الإسكندر منذ زمن وأُلصقت به التهم وبصورة خاصة عند هزيمة داريوس في كيليكيا، والاستيلاء في دمشق على كميات هائلة من الغنائم. وكان من بين الأسرى الذين جيء بهم إلى المعسكر أنتيگون الپدنية Pydna الفائقة الجمال التي وقعت من نصيب فيلوطاس. فجعلها محظية له. وفي يوم ما قال لها وهو في مجلس شراب إن كل الأعمال العظيمة إنما حقّقها هو وأبوه، وبها نال ذاك الصبيّ الإسكندر المجد وجنى الفائدة إلى جانب لقب الملك. ولم تستطع كتْم ذلك فأفضت بما سمعت إلى أحد معارفها، وكما جرت العادة نقله هذا إلى ثالث حتى وصلت الحكاية أذن كراتيروس الذي أخذ المرأة إلى الإسكندر سرّاً. وبعد أن سمع منها ما جاءت للإفضاء به أمرها بالاستمرار في الإنصات إلى ما يتفوّه به فيلوطاس ونقله إليه.

هكذا سقط فيلوطاس في الفخ بغفلة منه. كان يطلق لنفسه العنان إرضاء لنوبة غضبٍ تجتاحه، وانسياقاً بحبّه للزهو والخيلاء، فينطق بالعبارات الحمقاء الطائشة ضدّ الملك في محضر من أنتيگون فما تلبث أن تبلغ الإسكندر. ومع أنه بدا مقتنعاً بهذه الدلائل القوية فإنه لم يأبه بها ولم يتخذ أي إجراء سواء في ذلك بسبب وثوقه من حب پارمينيو وإخلاصه أو خوفاً من نفوذهما وعلوّ شأنهما في الجيش. ولكن في حدود هذا الزمن بدأ شخص من خلاسترا Chalastra يدعى لمنوس Limnus بالتآمر على حياة الإسكندر، وأفضى بنيّته هذه إلى شاب كان مولعاً به اسمه نيقوماخس لعلّه ينضمّ إليه. فرفض نيقوماخس وكشف الأمر لأخيه بالينوس Balinus الذي بادر فوراً بالطلب من فيلوطاس أن يأخذهما إلى الإسكندر فلديهما شيء بالغ الأهمية يريدان أن يفضيا به إليه فلم يعرهما اذناً صاغية. وألحّا عليه مرة أخرى دون جدوى فقصدا غيره وتمكنا عن

طريقه من الوصول إلى الإسكندر فكشفا له مؤامرة لمنوس وأظهرا في سياق ذلك إهمال فيلوطاس وكيف أنه رفض إيصالهما إليه مرتين. وهناك استشاط الإسكندر غضباً وزاد انزعاجاً لمّا علم أن لمنوس دافع عن نفسه وقتل بيد الجندي الذي أُرسل لاعتقاله لأنه فقد بموته الوسيلة الوحيدة للكشف عن خيوط الدسيسة. وما إن أخذ استياؤه من فيلوطاس يبدو حتى هبّ أعداء هذا الشاب وراحوا يسلقونه بألسنة حِداد قائلين إن الملك سهل الاستغفال إذ كيف يتصوّر أن شخصاً تافهاً لا وزن له كلمنوس يُقدم بنفسه وبتدبيره الخاص على مثل هذه العملية الضخمة؟ وأن أقرب الاحتمالات هو أنه لا يزيد عن أداة يحرّكها لولب كبير، وأنه يجب أن يحقق مع كل من له مصلحة في التآمر على حياة الإسكندر تحقيقاً دقيقاً. وهكذا ملأوا أسماع الملك بمثل هذا الدسّ ثم شرعوا يظهرون ألف سبب وسبب للشك في فيلوطاس حتى نجحوا في حمل الملك على اعتقاله وتسليمه للتعذيب. فجرى ذلك أمام كبار الضباط، وجلس الإسكندر نفسه وراء ستارة يستمع إلى ما يجرى. وأصغى إلى اللهجة الذليلة والخنوع اللذين كان فيلوطاس يتوجّه بهما إلى هيفايستيون وقيل إنه هتف من مجلسه:

- ما أجبنك وأخسّ نفسك يا فيلوطاس. ومع ذلك تجد في نفسك القدرة على المشاركة في مثل هذه المؤامرة الخطيرة.

وبعد موته أرسل إلى ميديا يأمر بقتل ابيه پارمينيو ذلك القائد التي أتى بضروب من الشجاعة والإقدام تحت إمرة فيليب وكان الرجل الوحيد من أصدقائه القدامى ومستشاريه الذين شجّعوا الإسكندر على غزو آسيا. كان لپارمينيو ثلاثة أبناء في الجيش. فقدَ منهم اثنين قبلاً وها هو الآن يموت من ثالثهم.

هذه التصرّفات جعلت الإسكندر مصدر رعب كثير من أصدقائه، ولاسيما أنتيپاطر الذي أخذ يجمع من حوله الأنصار ويقوي نفسه بإرسال موفدين إلى الياتوليين Aetolions في السرّ، توخياً لعقد حلف معهم، وكانوا ممن يهاب الإسكندر، لأنهم دمّروا مدينة أونيادي Oeniade. وعندما أُخبر الإسكندر بذلك قال هازئاً: ليسوا بحاجة إلى الثأر لحرب والدهم، فسأتولى عنهم أنا شخصياً إنزال العقاب بالياتوليين. ولم يمر طويل زمن على هذا حتى كانت مأساة كليتوس المؤلمة. وهي حادثة قد تبدو لمن سمع منها طرفا بسيطاً أقسى وأبعد عن الإنسانية من حادثة فيلوطاس، أما لو تدبّرناها بظروفها ودرسناها بدوافعها الآنيّة ووزنّا العلة والمعلول، لوجدنا أنها كانت مجرّد سوء طالع صادفه الملك الذي أفسح غضبه الناري وإفراطه في الشرب المجال لظهور الروح الشرير في كليتوس.

جاءت الإسكندر من ساحل البحر فاكهة يونانية على سبيل الهدية فأُعجب بجمالها وطراوتها فبعث يستدعي كليتوس ليراها وليقاسمه اياها. كان كليتوس وقتئذ يضحّي للآلهة، فترك قربانه فوراً وأقبل متبوعاً بثلاث شياه كان قد صبّ عليها الخمر تمهيداً لتضحيتها. وعندما أنبئ الإسكندر بهذا سأل عرّافيه أريستاندر وكليوماتس Cleomantes اللقيديمي عمّا يعني هذا فأكدا له أنه فال سيّئ. فأمرهما أن يعجّلا بتقديم قرابين لأجل سلامة كليتوس فقد رأى فضلاً عن ذلك حلماً غريباً قبل ثلاثة أيام عن كليتوس. رآه في ثياب الحداد جالساً مع أبناء پارمينيو المائتين. وعلى كل فان كليتوس لم يمكث لإنهاء تضحية، وإنما أقبل رأساً لتناول العشاء مع الملك الذي قام بالتضحية لكلّ من كاستور وپوللوكس. وعندما أفرطا في الشرب باشر بعض الجالسين بغناء أشعار المدعوّ برانيخوس Pranichus أو پيريون Pierion على حَدّ زعم آخرين. نُظمت تلك القصائد بهجاء وتحقير أولئك الضباط الذين هزمهم البرابرة مؤخراً فجرحت مشاعر أكبر الحاضرين سنّاً ووبّخوا الناظم ومنشدي قصائده توبيخاً شديداً، في حين كان الإسكندر والشباب الآخرون المحيطون به في أقصى درجة من الاستمتاع بها وشجّعوا المنشدين على الاستمرار، إلى أن خرج كليتوس عن طوره ولم يقوَ على ضبط نفسه، وكان قد شرب كثيراً، وهو بالأصل ذو مزاج حادّ عنيد لا يسلس له قياد. نهض وقال:

- ليس من اللائق فضح المقدونيين أمام البرابرة وأعدائهم، إذ مع شقائهم بهزيمتهم فما أكثر الرجال الذين يفضلون الهازئين بهم.

فعقب الإسكندر قائلاً إن كليتوس إنما يدافع عن نفسه بهذه الأقوال، مسمّياً الجبن سوء حظ.

فعاد كليتوس يصيح قائلاً:

- هذا الشيء الذي اخترت تسميته بالجبن أنقذ حياة ابن الآلهة عند هروبه وحسام سپيثريداتس Spithridates يتعقّبه، وكانت نجاته على حساب الدم المقدوني. بهذه الجراح ارتفعت إلى هذا المقام الذي مكّنك من بنوّتك لفيليب وتسمية نفسك بابن أمون.

فصاح الإسكندر وهو في أشدّ حالات الغضب:

- أيها الحقير، أتظن بأنك ستظلّ تنطق بهذه الأمور في كل مكان عنّي، وتحرّض المقدونيين على العصيان، وأنت في منجى من العقاب؟

فأجاب كليتوس:

- لقد نلنا من العقاب ما نستحقّ، إذا كان هذا ما كافأته عن جهودنا وتعبنا. ما

أسعد أولئك الذين ماتوا لكي لا يروا اليوم مواطنيهم يُجلدون بسياط ميديّة. ويضطرون إلى الرجاء من الفُرس للسماح لهم بمقابلة الملك.

وراح يتكلم على هذه الشاكلة دون ضابط أو رادع فأنهض أقرب الرجال من الإسكندر وراحوا يشتمونه. وعمل كبار السنّ كل ما في وسعهم لتسكين الهياج. والتفت الإسكندر إلى كل من كزينودوخوس Xenodochus الپاردي Pardion وأريتميوس Aretemius الكولوفوني Colophonian وسألهما: ألا يعتقدان أن الإغريق إذا قورنوا بالمقدونيين قد تصرّفوا ككثير من أنصاف الآلهة تجاه هؤلاء الأخيرين؟ لكن كليتوس مع هذا لم تهدأ ثائرته، وسأل الإسكندر ألديه ما يضيفه إلى أقواله السابقة؟ وإلاّ لماذا يدعو إلى طعامه رجالاً أحراراً بالولادة اعتادوا أن ينطقوا بما يجول في رؤوسهم دون قيد ولا خوف. خير له أن يعيش ويتحدث إلى البرابرة والعبيد فلا مانع لدى هؤلاء من الركوع لزنّاره وجلبابه الفارسيين.

بهذا استفزّ الإسكندر إلى الحدّ الذي عجز معه عن ضبط نفسه وكظم غيظه فتناول تفاحة من فوق المائدة وقذف بها كليتوس فأصابته ثم دار ببصره يريد سيفه. إلاّ أن أريستوفانس أحد أفراد حرسه الخاص كان قد أبعد عنه سلاحه. وقام إليه آخرون وأخذوا يتوسّلون إليه عبثاً، فقد انفلت منهم وصاح بصوت عالٍ منادياً حرسه باللغة المقدونية، وتلك إشارة أكيدة إلى أنه يعاني أعظم الاضطراب. وأمر نافخ بوقه بالنفخ مسدّداً إليه لكمة بقبضة يده، فلم يطعه فوراً وتلكّأ (وقد نال هذا الرجال شكره وتقديره فيما بعد لعصيانه أمراً كاد يوقع فتنة في صفوف الجيش) وتكبّد أصدقاء كليتوس كثيراً من العناء بإخراجه من القاعة وهو ما زال مصرّاً على موقفه وعناده. فقد عاد ثانية من باب آخر وهو ينشد شعر يوريپدس عن لسان أندروماك بثقة نفس واستهتار في اليونان:
واأسفي إلى أي درك تردّت الأحوال!

وعندها اختطف الإسكندر رمحاً من أحد الجنود واعترض كليتوس وهو يتقدم حتى أصبح أمام الستارة المرخاة على الباب ودفن الرمح في جسمه فسقط على الأرض في الحال ولم تصدر منه غير صرخة وأنّة. وتلاشى غضب الملك وعاد إلى حالته الطبيعية في الحال، ولمّا شاهد أصدقاءه حوله يخيّم عليهم الوجوم والصمت العميق نزع الرمح من الجسد الهامد وهمّ بدفنه في عنقه وكاد ينجح لو لم يقبض الحرس على يديه، وينقلوه رغم أنفه إلى غرفته الخاصّة حيث ظلّ يبكي طوال الليل والنهار الذي تلاه بكاءً مرّاً. ولمّا أنهكه الندب والعويل انطرح بدون كلام خلا تنهّدات عميقة.

وخشي أصدقاؤه من ضررٍ يلحق صحّته فاقتحموا الغرفة عليه إلا أنه لم يلتفت إلى

أقوالهم ولم يعبأ بوجودهم. حتى تمكن أريستاندر من تحويل اهتمامه إلى الرؤيا التي يشاهدها عن كليتوس والظاهرة العجيبة التي تلتها. يريد أن كل ما حصل كان مكتوباً ومسطّراً في لوح القدر ولا مردّ له. وعندها بدأ حزنه يخفّ وجاؤوه بكاللستينوس الفيلسوف صديق أرسطو المقرّب، وأناكسارخوس الأبديري. واستخدم أولهما لغة الأخلاق ووسائل تسكين رقيقة مؤمّلاً أن يجد سبيله إلى الكلام المعقول والنجاح في السيطرة على العاطفة. إلاّ أن أناكسارخوس الذي كان لا يحيد مطلقاً عن طريقته في الفلسفة، مع اشتهاره باحتقار معاصريه والتقليل من شأنهم، صاح فور وصوله:

- أهذا هو ذاك الإسكندر الذي تنظر إليه الدنيا كلّها؟

مستلقٍ هنا يبكي كالعبد خوفاً من لوم الناس وانتقادهم. وهو قانونهم وميزان العدالة لهم، أن استعمل الحق الذي منحته إياه فتوحاته بوصفه السيّد الأعلى والحاكم على الجميع، يجب أن لا يكون ضحيّة للرأي الخطل. ألا تدري أن جوپتر يرسم بيدين: الواحدة منهما تحمل العدل والثانية ترفع القانون تعبيراً عن قانونية وعدالة أعمال الفاتح كلها.

بهذه وأمثالها من الأفكار تمكن أناكسارخوس أن يهدّئ الملك ويزيل عنه الألم. على أنه أفسد خُلقه من ناحية أخرى فقد زادته تهوّراً واجتراءً على القانون. ولم يتوان هذا الفيلسوف بمثل هذا الكلام عن التقرب منه والتسلل إلى قلبه، وجعل صحبة كاللستينوس (وهي صحبة لم تكن قط بالشيء المرغوب فيه) ثقيلة مكروهة بسبب تزمّته.

واتفق أن هذين الفيلسوفين التقيا في حفلة دارت المناقشة فيها على موضوع المناخ ودرجة حرارة الجوّ، فانضم كاللستينوس إلى القائلين بأن تلك البلاد أبرد جواً من بلاد اليونان، وشتاؤها أقسى من شتائه. ولم يقبل أناكسارخوس بهذا القول مطلقاً وناقشه بشيء من الحدة. فقال كاللستينوس:

- بالتأكيد، ليس بوسعك إلاّ الإقرار بأن هذه البلاد أشدّ برداً من بلاد اليونان. فهناك اعتدت أن لا تلبس غير عباءة منسلّة الخيوط لتداري عنك أقسى شتاء، وهنا ترتدي ثلاث عباءات سميكة واحدة فوق الأخرى!

هذه المزحة أزعجت أناكسارخوس وغيره من أدعياء المعرفة. ولم يستطع جماعة المتملّقين أن يتحملوا رؤية كاللستينوس موضع الإعجاب الشديد ومؤيّداً من الشبان والشيوخ على حدٍ سواء بسبب حياته المثالية واتزانه وقناعته بحاله، وتأكيده أنه ما قام بزيارة الإسكندر إلاّ ليتوسّط لإعادة مواطنيه المنفيين وبناء المدينة وتأهيلها من جديد.

وفضلاً عن الحسد الذي تسبّبه له سُمعته الحميدة فان تصرفاته الشخصيّة تفسح السبيل لسيّئي النيّة للإضرار به. كان يرفض في معظم الأوقات حضور الحفلات العامة وإذا حضر أحدها أفسد المجلس بتعاليه الذي يدلّ على عدم موافقته على ما يسمع ويرى. وقال الإسكندر يقصده:

هذا الادّعاء الكاذب بالحكمة. . . إني أمقته حين يعمى المرء عن رؤية مصلحته.

كان في حفلة عشاء أقامها الملك. والمدعوون كثيرون. فطلب منه عند وصول الكأس إليه أن يرتجل خطبة في تقريظ المقدونيين ففعل وبلغ الذروة في بلاغته وحسن تعبيره. حتى أن الحاضرين نهضوا جميعاً لتحيّته والتصفيق له وإلقاء أكاليل الزهر عليه. إلاّ الإسكندر فقد أنشد أبيات يوريبدس:

«لست بمستغربٍ لأنك أجدت القول إلى هذا الحدّ فليس أسهل على المرء من أن يكون بليغاً في المواضيع السهلة».

وعقّبها بقوله: «لذلك، فإن أنت أظهرت قوّة عارضتك بمصارحة مقدونيّي بأخطائهم وتعداد نقائصهم فلعلّهم يتلافونها عندما تذكر لهم.

فأطاعه كاللستينوس في الحال وبادر إلى نقض كل ما قاله فيهم مندّداً بهم دون ضابط. وختم أقواله بهذا:

- إن السبب الرئيس في نجاح فيليب واتساع سلطانه هو تفرُّق الإغريق.

ودعم قوله هذا بالبيت الآتي:

«في المنافسة السلميّة يشتهر حتى الأنذال».

وهو ما جرح مشاعر المقدونيين إلى الحدّ الذي أصبح ممقوتاً منهم. وقال الإسكندر إنه عوضاً عن إظهار قوة عارضته فيما تكلم أظهر سوء نيّته فحسب. ويؤكد لنا هرميبوس Hermippus أن المدعوّ ستروبوس Stroebus (خادم لكاللستينوس كان يقرأ له) أنهى بكلّ هذه التفاصيل إلى أرسطو فيما بعد وأنه عندما أدرك أن كره الملك له يزداد ردّد هذه الأبيات مرتين أو ثلاثاً قبل سفره:

«أدرك الموت أخيراً باتروكلس العظيم أيضاً
وإن كان أرفع منك فضائل بكثير».

ولم يكن اعتباطاً منه أن يصف شخص كاللستينوس بقوله إنه خطيب مُصقِع ولكنه خَطِل الرأي، ومن المؤكد أنه وضع الفيلسوف في مكانه الصحيح عند رفضه عبادة الإسكندر. والكلام علانية ضدّ ذلك الرجل الذي لم يكن يجرؤ أعظم المقدونيين وأعلاهم مكانةً على الشكوى من تصرّفاته إلاّ في السرّ. لقد أنقذ الإغريق والإسكندر

نفسه من أكبر العار عندما أبطل ممارسة هذه العبادة إلاّ أنه دمّر نفسه لأنه لم يكن لبقاً وآثر استخدام أسلوبٍ خشنٍ فظ كأنه يريد إرغام الملك على ذلك، في حين كان ينبغي له أن يسلك سبيل العقل والمحاجّة. ويكتب خاريس وميتلين أن الإسكندر في مجلس شراب له قدّم كأسه إلى أحد أصدقائه بعد أن شرب منها، فما إن تسلّمها هذا حتى نهض متوجهاً إلى مذبح في البيت. وبعد أن شرب سجد للإسكندر أولاً ثم قبله وعاد إلى مجلسه مع الباقين الذين أخذوا يقومون بالعمل نفسه تباعاً. إلى أن جاءت نوبة كاللستينوس الذي تناول الكأس وشرب في حين كان الإسكندر غافلاً عنه، منشغلاً بمحادثة هيفايستيون. ثم تقدم يريد تقبيله فتدخل ديمتريوس الملقب بـ«فيدون» قائلاً:

- مولاي! لا تدعه يقبّلك فهو الوحيد بيننا الذي رفض عبادتك. فرفض الملك القبلة. وكان كل ما أظهره كاللستينوس من اهتمام هو قوله بصوت مرتفع:

- فأنا إذن أعود ناقصاً عن الآخرين قبلة.

إن الاستياء الذي أحدثه بهذا العمل رفع من قدر تصريح هيفايستيون الذي قال إنه رجع عن تعهّده أن لا يقدّم للملك نفس العبارة التي يقدّمها الآخرون بعد أن تعهّد أن يفعل ذلك مخلصاً.

ولأجل أن يكمل دماره تقدّم عدد من الرجال كليسماخوس وهاگنون Hagnon يؤكدون أن هذا الفيلسوف السوفسطائي يتجوّل في كل مكان متباهياً بوقوفه في وجه السلطة المستبدّة وأن الشباب جميعاً يتبعونه ويكرمونه بوصفه الوحيد بين الآلاف المؤلّفة الذي ملك من الشجاعة ما حافظ به على حريته. ولذلك فحينما اكتشفت مؤامرة هرمولاوس Hermolaus سهُل تصديق التهم التي ألصقها به خصومه ولاسيما عندما سأله الشاب عن الوسيلة التي تمكّنه من أن يصير أشهر رجل على وجه البسيطة؟

فأجابه أن أضمن وأسرع سبيل إلى ذلك هو القضاء على ذلك الذي سبق له فحاز هذه الصفة. ولأجل حثّه على تنفيذ العمل أوصاه بألاّ تروعه أريكة الذهب وأن يتذكر ان الإسكندر هو إنسان ضعيف عُرضة للموت مثل سائر الناس. على أن شركاء هرمولاموس لم يذكروا أن كاللستينوس كان بين المساهمين في المؤامرة لا من قريبٍ ولا من بعيد. والإسكندر نفسه في رسائله التي كتبها بعدها مباشرة لكل من كراتيروس وأتالّوس وألكتياس Alcetas يذكر أن الشبان الذي عُذّبوا أقرّوا بأنهم انضمّوا إلى المؤامرة من تلقاء أنفسهم، دون دفع أو تحريضٍ من أحدٍ، وليس ثمّ مذنب غيرهم. ومع هذا ففي رسالة كتبها لأنتيباطر نجده يتهم كاللستينوس حين يقول:

«تولّى المقدونيون رجمَ الشبان حتى الموت. أما السوفسطائي (يقصد

كاللستينوس) فأنا مُزمع معاقبته أيضاً مع أولئك الذين بعثوا به إليّ وأولئك الذين آووا في مدنهم كل من تآمر على حياتي».

وفي العبارة الأخيرة إشارة لا لبس فيها إلى أرسطو الذي كان كاللستينوس قد ربي في بيته لقرابة بينهما. فهو ابن بنت هيرو Hero أخت أرسطو. واختلف الرواة في أسباب موت الفيلسوف. فقال بعضهم إنه شنق بأمر من الإسكندر. وقال آخرون إنه مات في السجن بمرض ألمّ به. على أن خاريس يكتب بهذا الصدد أنه أُبقي مكبّلاً بالأغلال سبعة أشهر بعد إلقاء القبض عليه تمهيداً لمحاكمة أمام مجلس قضاء كامل وبحضور أرسطو. فأفرط في البدانة، وأصيب بمرض طفيليّ مات به هناك وقت أصيب الإسكندر بجرحه الخطير في إقليم مالي أوكسيدراكي Malli Oxydracae بالهند. وسنأتي إلى تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

ولأجل أن نواصل السرد بالترتيب الزمني نقول إن ديماراتوس الكورنثي - الذي غدا شيخاً في أراذل العمر - كان في حدود ذلك الزمن قد بذل أقصى الجهود ليحظى برؤية الإسكندر. ولما نال بُغيته ابتدره قائلاً إنه ليأسف لسوء حظّ أولئك الإغريق الذين ماتوا قبل أن يروا الإسكندر جالساً على عرش داريوس. ولم يتمتع ديماراتوس بالنعم التي حباه بها الملك فسرعان ما ركبه المرض وتوفّي فشيّع تشييعاً فخماً ورفع له الجيش نصباً تذكارياً من التراب ارتفاعه ثمانون كيوبتيا ومحيطه في غاية السعة. ونُقل رماده في عجلة فخمة تجرّها أربعة جياد حتى الساحل.

وقرّ عزم الإسكندر على الشروع في حملته الهندية. وكان يدري أن جنوده قد أُتخموا بالغنائم وأُثقلوا بها وأنها تُعرقل المسير. فعمد في فجر يوم الحركة وفور تحميل العربات أثقال الجيش إلى إشعال النار في سهمه من الغنائم، ثم إحراق ما يعود منها لأصدقائه، ثم أمر بإحراق ما يعود منها إلى أفراد الجيش الباقين. وهو عمل يبدو عند التفكير بالإقدام عليه أكثر خطورة وأصعب إجراءً مما بدا عند تنفيذه.

فلم يشكُ منه غير قلّةٍ. وأطلق معظم الجنود - كأنّ وحياً نزل عليهم - هتاف الموافقة وصيحات القتال وتزوّدوا بما هو ضروري فقط وأحرقوا وأتلفوا كل ما هو كمالي. فكان منظراً فريداً ضاعف من حماسة الإسكندر ومن عزمه على المضيّ في الخطة التي رسمها. في الحقيقة إنه غدا في تلك الأيام صارماً قاسياً إلى أبعد الحدود، عنيداً لا ينثني في إنزال العقاب بمن يقدم على أي خطأ مهما صغُر. فقتل ميناندز أحد أصدقائه لأنه أخلى قلعة كان قد استأمنه عليها. وقتل برمية سهم من يده أورسوداتس Orsodates أحد البرابرة عندما شقّ عليه عصا الطاعة.

وفي ذلك الزمن اتفق أن نعجةً ولدت حملاً بهيئة ولون قلنسوة على الرأس وبخصيتين على كل جانبٍ. وهي النبوءة التي تطيّر منها الإسكندر إلى الحدّ الذي أمر كهنة البابليين بتطهيره (كانت عادته أن يأخذ هؤلاء الكهنة معه لمثل هذه الأغراض). وقال لأصدقائه إن اهتمامه بالموضوع لايعود إلى شخصه بل إليهم فهو يخشى أن تعمد القوى السماوية إلى نقل إمبراطوريته بعد موته إلى شخص عاجزٍ فاسدٍ. لكن سرعان ما تبدد خوفه هذا بأمر عجيب حصل بعدها بوقت قصير اعتبره بشير خير. وتفصيله أن پروكسينس Proxinus المقدوني الذي كان رئيس المشرفين على بيت الملك كان يحفر في الأرض قرب نهر أموداريا Oxus لإقامة الفسطاط للملك، فإذا به يكتشف نبعاً يخرج منه سائل ثخين زيتيّ القوام، بعد أن أزيل ما يعلوه أخذ يجري زيتاً نقياً لايختلف عن الزيت العادي مذاقاً ورائحة ونعومة وصفاءً في بلاد لاينمو فيها شجر الزيتون على الإطلاق. ولقد قيل والشيء بالشيء يذكر إن مياه نهر أموداريا بدرجة من النعومة والرقّة لا تعدلها مياه أي نهر آخر، ويذكر أنه يترك لمعةً على بشرة من يستحمّ به. وأياً كان السبب فمن المؤكد أن الإسكندر سُرّ بهذا الاتفاق غاية السرور، كما يتضح ذلك من رسائله إلى أنتيپاطر فقد وصف الحدث بأنه أروع من كل البشائر والفأل الحسن التي خصّه الله بها. ثمّ إن العرّافين فسّروا له الأمر بقولهم إنه يشير إلى المجد الذي سيناله من حملته العسكرية ومكانها في التاريخ، على أنها ستحفل بالمشاقّ والصعاب. فالزيت على حدّ تفسيرهم هو هِبة إلهية للبشر ينعش أجسادهم من متاعبها ويرطّب أمزجتهم.

ولم يكونوا في حكمهم هذا مخطئين. فقد تعرّض الإسكندر لكثير من المخاطر في المعارك التي خاضها وأصيب بجراح بليغة جداً. على أن أعظم خسارة حاقت بجشيه، إنما كانت بسبب فساد الهواء وشحّ الأرزاق. وكان الإسكندر كالعهد به دوماً يُقدم على الخطر فيركبه ويجتازه بعزمه ومتانة خلقه مهما عانته. فهو يرى أن لا شيء مستحيل أمام الشجاعة الحقة ولا شيء ثابت أو مضمون أمام الجبن وخور العزيمة. ويقال إنه في حصار سيسيميثريتس Sisimithres الذي صمد كالصخرة المنيعة في وجهه حتى أدركه اليأس من التغلب عليه، وأخذ يدبّ في جنوده سأل أوكسيارتس Oxyertes هل إن سيسيمثريتس هو رجل شجاع؟ فأكد له أنه أجبن الأحياء طرّاً فقال الإسكندر:

- إذن قل لي إن الموضع يسهل اقتحامه مادام المدافع عنه ضعيفاً.

وشدّ الخناق على سيسيمثريتس وفي وقت وجيز تمّ له الاستيلاء على الموقع. وفي هجوم شنّه على موقع منيع مثله بقسم من جنوده المقدونيين نادى سَمياً له بين أفراد الجيش قائلاً لا سبيل لك إلاّ البلاء الحسن والإقدام إن لم يكن لشيء فللاسم

الذي تتسمّى به. فقاتل الشاب ببسالة حتى قُتل. وقد آلمه ذلك جداً. وفي مناسبة أخرى لاحظ أن جنوده يتباطأون في سيرهم، ويتقاعسون عن حصار موقع يدعى نيسا Nysa بسبب النهر العميق الذي يصدّهم عن المدينة. فتقدم الإسكندر حتى الضفاف وقال:

- ما أشقاني من رجل لأني لم أتعلّم السباحة!

وحيل بينه وبين محاولته العبور على ترسه بكل صعوبة. وبعد نهاية هذا الهجوم أقبل عليه سفراء المدن العديدة التي ألقى عليها الحصار يعلنون الطاعة ويرغبون في الصلح، وعجبوا حين رأوه بكامل شِكّة سلاحه ودروعه وليس ثمّ خادم أو حارس يقف بين يديه. أخيراً جيء له بوسادة فأجلس عليها أكوفيس Acophis أكبرهم سِنّاً. فذهل الشيخ لهذا التصرّف النبيل والحفاوة وسأله: ماذا ينبغي لمواطنيه أن يعملوا ليستحقوا صداقته؟ فأجاب الإسكندر:

- أريدهم أن يختاروك حاكماً عليهم وأن يرسلوا مائة من وجهائهم وأعلاهم مقاماً لأبقيهم رهائن عندي.

فضحك أكوفيس وقال:

- سيكون حكمي لهم أسهل بكثير لو أرسلت لك مثل هذا العدد من أردئهم لا من أفاضلهم!

من المعروف أن رقعة الأرض التي امتد إليها حكم الملك تاكسيلس Taxiles تساوي مساحة أرض مصر، وهي كثيرة المراعي حسنتها، يخرج منها أفضل الفاكهة. وقد اشتهر ملكها هذا بالحكمة فقد كان كلامه للإسكندر عند أول لقاء ما يأتي:

- أي غاية نتوخّى من قتال بعضنا بعضاً، إن لم يكن غرضك من القدوم إلينا سرقة مائنا أو طعامنا الضروري، وهما الشيئان الوحيدان اللذان يدفعان عقلاء الرجال إلى القتال في سبيلها. وأما بخصوص متاع الدنيا الأخرى كما يُعتبر في أعين الناس، فإن كنت أحرز الأكثر منه فها أنا على استعداد لمقاسمتك إيّاه. ما تعطيني منه شاكراً.

وكان سرور الإسكندر بهذا القول عظيماً بحيث وثب عليه وعانقه قائلاً:

- أتعتقد أن كلماتك الرقيقة ومسلكك الحميد لن تلقى صنوها، أستبقى دون مقابل؟ كلا إنك لن تهرب مني. وسأنافسك وأدخل معك في معركة لا تستطيع أن تهزمني فيها مهما بلغت من اللطف والكرم.

وبعد أن قبل بعض الهدايا منه أتحفه بهدايا أثمن وأعلى قيمةً. وزاد عليها فمنحه

ألفي تالنت من النقود المصكوكة. فأثار بذلك استياء أصدقائه القدماء، ولكنه كسب بها قلوب البرابرة.

لقد تولّى الدفاع عن المدن الهندية أفضل المقاتلين الهنود وقاتلوا قتالاً شديداً وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما أتعب الإسكندر ووضعه في مواقف خطيرة، وبالأخير عند استسلامهم وفتح مدنهم أعمل السيف في رقابهم جميعاً أثناء انسحابهم فلم ينجُ منهم أحد. وكان هذا حنثاً بالعهد الذي قطعه لهم وسجّل له لطخة سوداء، في حين مآثره الحربية كانت تمتاز بالنبل والعدالة وبها أصبح ملكاً. ولم يكن أقل غيظاً من الفلاسفة الهنود الذين ندّدوا تنديداً بمن حالفه من أمراء الهند، ودعوا الشعوب غير المغلوبة إلى مقاومته، فاعتقل عدداً منهم وقتلهم.

ويورد الإسكندر تفاصيل حربه مع پوروس Porus في رسائله الخاصّة. يقول إن نهر هيداسپس Hydaspes كان يفصل ما بين الجيشين، وعلى إحدى ضفّتيه كان پوروس قد جرّد فيالقه وهيّأها ووجّهها نحو الضفة المقابلة للحيلولة دون عبور العدوّ. أما الإسكندر فقد أمر بمواصلة إحداث الضوضاء والضجة في معسكره لتبديد مخاوف البرابرة من هجوم مباغت عليهم. ثم انتهز فرصة في يوم مظلم مليء بالعواصف فسار مستتراً مسافةً عن الموضع الذي عسكر فيه العدوّ وعبر النهر إلى جزيرة صغيرة بجزءٍ من رجّالته ونخبة من خيّالته. وهبّت أشدّ وأعنف عاصفة مطرية مصحوبة ببروق وزوابع رعدية، وسقط أمامه بعض رجاله مصعوقين. ثم ترك الجزيرة مباشراً العبور إلى ضفّة العدوّ. وكان النهر بعد العاصفة قد فاض وزادت سرعة جريانه بحيث أحدث له ثغرة في الضفاف تدفّق منها ماؤه وأغرق مساحات شاسعة من الأرض ولذلك عجز عن تثبيت أقدامه بعد عبوره، لأن الأرض غدت موحلة زلقة معرّضة لقوة التيار من الجهتين. في هذا الموقف يؤثر عنه أنه قال:

- أيها الأثينيون! إنكم لن تصدّقوا الحديث عن الأخطار التي أتعرّض لها لأستحقّ رضاكم.

هذه الرواية أوردها أرنسكريتُس على كل حالٍ. ويتابع الإسكندر وصفه ليقول: هنا ترك الرجال قواربهم وعبروا الفتحة بسلاحهم وكان الماء يغطيهم حتى الصدور. وزحف بخياله حوالي عشرين فرلنگ تاركاً المشاة خلفه، معتقداً أن العدوّ لو هاجمه بخيّالته لكن متفوقاً عليهم، وإذا هاجمه بمشاته فإن جنوده المشاة سيدركونه في الوقت المناسب لإسناده. وكان مصيباً في تقديره فقد هاجمه العدوّ بألفٍ من الخيّالة وستين عجلة حربية مجهّزة بالسلاح تعرّضت له قبل أن يتعرّض له القسم الأكبر، فاستولى على جميع

العجلات، وفتك بأربعمائة من الخيّالة في الموقع نفسه. وقد قدّر پوروس في الوقت نفسه أن الإسكندر عبر النهر بشخصه فتقدّم بكامل جيشه عدا وحدةٍ تركها لمشاغلة المقدونيين الذين لم يعبروا وايهامهم في حالة إقدامهم على العبور. وخشي الإسكندر من تفوّق خصمه العددي. فلأجل أن يتحاشى صدمة فِيَلتهم، قسّم قوّاته وهاجم ميسرتهم بنفسه، وأمر كوينوس Coenus بالهجوم على ميمنتهم ففعل بنجاح كبير. وبهذه الخطة انكسر الجناحان، فانكفأ العدوّ على أعقابه في القلب وتحاشدت جموعه حول فِيَلته. وهناك لمّ العدوّ شعثه وبدأوا قتال اليد باليد، ولم تتمّ هزيمتهم الكاملة إلاّ في الساعة الثامنة نهاراً. هذا الوصف تركه لنا الفاتح نفسه في رسائله الخاصة.

ويكاد جميع المؤرّخين يتفقون على القول بأن پوروس كان رجلاً فارع الطول يبلغ طوله أربع كيوبتات وسپاناً واحداً. وأنه حين يعلو ظهر فيله يبدو جسمه متناسباً مع هيكل الفيل. حتى لكأنه ممتطٍ جواداً، مع أن فيله الخاص كان من أضخم الفيلة. قدّم هذا الحيوان أثناء المعركة العديد من الدلائل على حكمته وذكائه، ولاسيما رعايته للملك الذي كان يدافع عنه بكلّ شجاعة ما دام هو قادر على مواصلة القتال فتراه يدفع إلى الوراء بهيكله أولئك الذين يطبقون عليه. ولما أدرك أن سيّده عجز عن القتال لكثرة الجراح التي أصابته من الرماح حال دون سقوطه عن ظهره بركوعه بكلّ لطف ونزع الرماح من جسمه بخرطومه. ولما وقع پوروس في الأسر سأله الإسكندر ماذا توقّع أن تكون معاملته أجاب:

- كملك.

كانت الجملة المقتضبة جامعة وقد كررها عندما ألقي عليه السؤال نفسه. ولم يكتف الإسكندر بإبقائه على عرشه في مملكته لكن تحت سلطانه بل ضمّ إلى حكمه أقاليم مختلف القبائل المجاورة التي تم إخضاعها، أقاليم قيل إنها تؤوي خمسة عشر شعباً وخمسة آلاف بلدة عامرة فضلاً عمّا لا يُحصى من القرى. وعيّن فيليب أحد أصدقائه حاكماً لمملكة أخرى تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف الأولى.

بعيد المعركة نفق جواد الإسكندر المسمّى بوكيفالس كم يذكر معظم المراجع متأثراً بجراحه. أو كما يقول أونيسكريتوس بسبب الإرهاق وكبر السنّ فقد بلغ الثلاثين. وتألّم الإسكندر لموته كألمه لموت رفيق قديم أو صديق مقرّب. وبنى مدينة سماها بوكيفاليا تخليداً له، على ضفة نهر هيداسبس. وقيل أيضاً إنه بنى مدينة أخرى وسمّاها باسم كلب أثير على قلبه اسمه پريتاس Peritas كان قد ربّاه بنفسه. ويؤكد سوتيون Sotion أنه سمع هذا من پوتامون Potamon وليسبون Lesbon. لكن هذه المعركة

الأخيرة مع پوروس فلّت من غُراب شجاعة المقدونيين وجلدهم، وحالت دون تقدّم آخر لهم داخل الهند. فقد وجدوا من الصعوبة بمكان أن يدحروا عدوّاً لم يستخدم في المعركة أكثر من عشرين ألفاً من المشاة وألفين من الخيّالة. فحكموا أن لديهم سبباً وجيهاً في معارضة قرار الملك الذي كان يقضي بعبور نهر الگانج فقد قيل لهم إن عرضه اثنان وثلاثمون فرلنگ وعمقه مائة فاتوم[٤] وإن جيشاً لجِباً يحمي ضفّيته. وقيل لهم إن ملوك القندريتان Gandasitan والپريزيان Praesian ينتظرونهم هناك بحشد من العجلات الحربية يبلغ ثمانية آلاف، فضلاً عن ستة آلاف فيل مقاتل، ولم يكن بالخبر الكاذب أو المبالغ فيه أذيع لتخويفهم. فأندروكوتوس Androcottus الذي ما عاد اليوم يحكم تلك الأقاليم أهدى فوراً سلوقوس خمسمائة فيل، وأخضع الهند بجيش قوامه ستمائة ألفٍ. غضب الإسكندر وتألم في بادئ الأمر لتردّد جنوده فحبس نفسه في خيمته وألقى بنفسه على الأرض وصاح قائلاً:

- إن لم تعبروا الگانج فإني لست مديناً لكم، ولا بالشكر عن أي شيء عملتموه. إن الانسحاب الآن يعني الاعتراف الصريح بانكساري وخذلاني.

إلاّ أن الحجج الدامغة ووسائل الإقناع المنطقية التي حاولها معه أصدقاؤه، وصيحات جنوده الذين كانوا يتجمّعون أمام مدخل الخيمة بهيئة المتضرّعين المستوكفين، نجحت أخيراً في حمله على التفكير بالعودة. على أنه لم يتمالك نفسه من أن يترك خلفه عدداً من أنصاب النصر الزائفة تخليداً لحملته، وتضخيماً لمجده، فخلّف صور أسلحة أكبر حجماً مما يُستخدم عادةً، ومعالف للخيول بلُجم وشكائم أكبر من العادية، أقامها في عدة مواضع. كما بنى أيضاً مذابح للآلهة ظلّ يحترمها ملوك الپريزيان إلى يومنا هذا حين عبورهم النهر، ويقرّبون الأضاحي عليها بالطريقة الإغريقية.

كان أندروكوتس صبياً آنذاك حين وقعت عينه على الإسكندر. وكثير ما قيل فيما بعد أنه سُمع وهو يقول:

- لم يخطئ الإسكندر في جعل نفسه سيّداً على كل هذه البلاد إلاّ بقدر يسير. فملكها الذي كان يحكم إذذاك عُرف بحياته الفاسدة ووضاعة المنبت، وكان مبغضاً محتقراً.

وهزَّ الشوق الإسكندر لرؤية البحر المحيط. فأمر ببناء أطواف وقوارب مقطورة

---

(٤) قامة. مقياس للأعماق مقداره ست أقدام.

وزوارق كبيرة يرسلها تجوب الأنهار على هدفه وتمضية لوقت فراغه. على أن مِلاحته لم تخل من فائدةٍ. فقد كان ينزل الضفاف بين الفينة والفينة فيستولي على مدن محصّنة وعلى الأراضي الواقعة فيما يلي ضفّتيها. وتعرّضت حياته لأعظم الخطر عند حصاره عاصمة الماليين Mallians الذين اشتهروا بأنهم أشجع شعوب الهند. فبعد أن دحر المدافعين بإمطارهم بوابل من السهام، تقدم الجميع واعتلى السور بسلّم الا أن السلم انكسر بعد وصوله مباشرة وتركه وحيداً معرّضاً للمقذوف من الرماح التي كان يوجّهها إليه البرابرة من أسفل السور، وتحاشاها بخير ما أمكنه ثم قفز إلى الأسفل ليجد نفسه وسط أعدائه. وشاءت الصدف أن يهبط على رجليه، وأن يوهم بريقُ سلاحِه وقعقعتها البرابرة بأنهم يرون أشعة ضوئية أو شبحاً ساطع النور يتراقص أمام جسده، فأخافهم فتفرّقوا من حوله وهربوا. حتى إذا التفتوا ووجدوه وحيداً إلاّ من حارسين له كرّوا عليه والتحموا معه، وحاول بعضهم تسديد طعنة إليه من خلال مفاصل دروعه بسيوفهم ورماحهم، ورشقه أحدهم بسهم صائب من مسافة قريبة، فوجد له منفذاً واستقر في ضلع ما تحت الصدر. كانت إصابته شديدة بحيث أجبرته على التراجع وإسناد ركبته إلى الارض، وأسرع الرامي نحوه وسيفه مشرع يريد القضاء عليه وكاد أن يفعل لولا تدخل پيوكستس ولمينوس Limnaeus وكان كلاهما جريحين مثله. لمينوس كان جرحه قتالاً، أما پيوكستس فقد ثبت في موضعه بينما وُفّق الإسكندر في قتل البربري. على أن الخطرّ ظلّ يحوم حوله، فالى جانب الجراح الكثيرة التي أصيب بها نزلت على عنقه ضربة دبوّس ثقيل فاضطر إلى إسناد ظهره إلى الحائط وظلّ مواجهاً للعدوّ. وبهذا الموقف الحرج شق المقدونيون لهم طريقاً إلى الداخل والتفّوا حوله، ورفعوه إلى أعلى السور وقد بدأ يفقد وعيه، ولم يعد يحسّ بما يجرى حوله. ثم حُمل إلى خيمته، وانتشر خبر موته في المعسكر كله. وأمكنهم بعد لأي وبعد كثير من الآلام فصل قصبة الرمح الخشبية بالمنشار، وتكبّدوا نفس العناء في نزع درعه، وبعدها بدأوا بقطع النصل وكان بعرض ثلاثة أصابع وطول أربعة. وهو نافذ في العظم لصيق به. وراح في غيبوبة الاحتضار أثناء العملية، لكنه رجع إلى وعيه بعد إخراجه. ومع أن كل خطر زال عنه فقد بقي أياماً في خيمته تحت الرقابة الصارمة حتى إذا سمع يوماً هتاف المقدونيين خارج خيمته وقد برّح بهم الشوق إلى رؤيته، اشتمل بجبتّه وخرج إليهم. وبعد أن ضحّى للآلهة ركب السفينة وانطلق لإخضاع البلاد الواقعة على الضفاف وعدد لا يستهان به من كبيرات المدن.

في أثناء هذه الرحلة قبض على عشرة من فلاسفة الهند وكانوا أكثر زملائهم نشاطاً

في تحريض سبّاس Sabbas على الثورة فأذاقوا المقدونيين الأمرّين جرّاء ذلك. هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم السوفسطائيين التجريديين Gymno Sophist عُرفوا بسرعة البديهة وإحكام الإجابة. فقام الإسكندر بالتحقيق من هذا بتوجيه أصعب الاسئلة إليهم، وأنذرهم بأنه سيقتل من لا تتفق إجابته مع السؤال، وجعل أكبرهم سنّاً حكماً في ذلك. سُئل أوّلهم:

- أيهما أكثر عدداً في رأيك، الأحياء من البشر أم الأموات؟

فأجاب: الأحياء. لأن الموتى ما عاد لهم وجود مطلقاً.

وطلب من الثاني أن يعلمه أيهما مصدر أكبر الوحوش، البرّ أم البحر؟ فأجابه:

- البرّ لأن البحر جزءٌ من البرّ.

كان سؤاله للثالث: أي من الحيوانات أشدّ ذكاءً؟

فأجاب: تلك التي لم يعرفها الإنسان بعد.

وطلب من الرابع أن يخبره بالوسيلة التي استخدمها لإقناع سبّاس بالثورة عليه.

فأجابه: قلت له عليك أن تختار بين العيش والموت ميتةً شريفة.

وسأل الخامس: أيهما أقدم النهار أم الليل؟

فأجاب الفيلسوف: النهار أقدم، بنهارٍ واحدٍ على الأقل.

وأدرك أن الإسكندر لم يقنع بإجابته فاسترسل قائلاً: عليك أن لا تستغرب. فالأسئلة الغريبة تلقى اجوبة غريبة مثلها.

ثم توجّه إلى السادس منهم بالسؤال التالي: ماذا يفعل المرء ليكون محبوباً غاية الحب؟

فأجاب: أن يكون عظيم السلطان، دون أن يجعل نفسه مصدر خوف.

وسأل السابع: كيف يغدو المرء إلهاً؟

فأجاب: بإتيانه أعمالاً تقصر عنها طاقة البشر السويّ.

وسأل الثامن: أيهما أقوى؟ الموت أم الحياة؟

فأجاب: الحياة أقوى من الموت لأنها تتغلّب على الكثير من الرزايا والبلايا.

وسأل الأخير: كم يناسب المرء أن يعيش من السنين في رأيك؟

فأجابه: حتى يبدو له الموت أطيب من الحياة.

ومن ثمّ التفت الإسكندر إلى العاشر الذي جعله حكماً وطلب منه أن يصدر قراراً. فقال:

- كل ما يمكنني الحكم به هو أن كلّ إجابة كانت أسوأ من الأخرى. فقال الملك:

- إذن فستكون أول من يموت لإعطائك مثل هذا الحكم. فردّ الفيلسوف قائلاً:

- قولك هذا ليس بصحيح، والأجدر أن تقول كاذباً: إن ذلك الذي كان أسوأ لجميع إجابة يجب أن يكون أول الموتى.

بعد هذا حمّلهم الهدايا الكثيرة وأطلقهم.

على أنه بعث أونيسكراتس أحد تلاميذ ديوجينس الساخر إلى فريق الفلاسفة الذين تمتّعوا بأعظم السمعة وطلّقوا الحياة العامة، طالباً قدومهم. وقيل إن كلانوس Calanus أمر الإسكندر بكلّ فظاظة وصلافة أن ينضو عنه ثيابه ويصغي لأقواله وهو عارٍ والاّ فإنه لن ينبس أمامه ببنت شفة وإن كان من نسل جوبتر نفسه. إلاّ أن داندامس Dandamis كان لطيفاً فأسمعه الرسول طرفاً من محاورات سقراط وفيثاغوراس وديوجينس، فقال الفيلسوف الهندي إنه يراهم رجالاً ذوي مواهب عظيمة، ولا يجد علّةً في آرائهم سوى احترامهم الفائق الحدّ لقوانين بلادهم وعُرفها. ويقول آخرون إن داندامس سأله لماذا تكبّد الإسكندر عناء مثل هذه الرحلة الطويلة إلى بلاده. ومهما يكن فقد تمكن تاكسيلس من إقناع كالانوس بأن يبقى عند الإسكندر. وكالانوس ليس اسمه الحقيقي وإنما هو سفينس. وقد غلب عليه اللقب الأول لكثرة ترديده لفظة «كاله» وهي شكل من أشكال التحيّة باللسان الهندي كان يلقيها على كل من يصادفه، فلقبّه الإغريق بـ«كالانوس». وقيل إنه أوضح للإسكندر المقصود بالحكم بالتجربة التالية.

جاء بجلد متغضّن غير مدبوغ وبسطه على الأرض ووطئ حافته فارتفع في موضع. وهكذا كلما وطئ جزءاً، ارتفع جزءٌ. ثم وضع قدمه فوق مركز القطعة فاستقرت القطعة على الأرض دون أن يرتفع منها شيء. وقد قصد من هذا أنه يجب أن يسكن في وسط إمبراطوريته وأن لا يقضي وقتاً طويلاً في حدودها.

امتدت رحلاته النهرية سبعة أشهر. وعندما بلغ البحر أبحر إلى جزيرة سمّاها سكليستوس Scillestus وسمّاها آخرون پسلتُيس Psiltucis، وفيها ضحّى للآلهة وأدى ما تيسّر له من المراسم الدينية، بسبب طبيعة البر وساحله غير المأمونة. وبعد أن التمس من الآلهة بأن لاتدع رجلاً غيره يتعدّى حدود مملكته التي فتحها بجيشه أمر أسطوله بالعودة. وعيّن نيارخوس أميرالاً، وأونسكريتوس رئيس الملاحة، ومخر العباب وساحل الهند عن يمينه. أما هو فعاد عن طريق البرّ ماراً ببلاد أوريتيس Orites وعانى مشقة كبيرة من جيش قوامه مائة وعشرون ألفاً من الرجال، وخمسة عشر ألفاً من

الخيّالة، ولم يعد من الهند إلاّ الربع وقد فقده بسبب الأمراض وسوء الطعام والحرارة المحرقة، وبالأخص الجوّع. كانت مسيرتهم عبر أراض بور سكانها فقراء يعيشون عيشة ضنك ولا يملكون إلاّ النزر اليسير من الأغنام التي هي من أردأ الأنواع ولحمها عفِن غير صحي لأنها تقتات على السمك البحري.

بعد ستين يوماً من السير بلغ الإسكندر گدروسيا Gedrisia حيث وجد الوفير من كل شيء هيّأه له ملوك البلاد وحكام الأقاليم المجاورة حال سماعهم بمقدمه. فأراح جيشه هنا ثم واصل السير في كرمان وهو يأدب ويحتفل طول الطريق زهاء سبعة أيام متواصلة. وشاركه أصدقاؤه فراحوا هم أيضاً يقيمون المآدب والحفلات ويقصفون ويشربون آناء الليل وأطراف النهار، فوق منصّةٍ نُصبت على صقالة ضخمة تجرّها ثمانية من الخيل جرّاً بطيئاً، ويسير خلفها عدد كبيرٌ من العجلات غطّي بعضها بالأرجوان والمظلات المطرّزة وبعضها زُيّن بالأغصان الخضراء التي كانت تُستبدل باستمرار قبل أن تذوي وفيها بقية أصدقائه وقوّاده يشربون تتوّج هاماتهم أكاليل الزهر. فما عدت ترى أثراً لدرع أو ترس أو خوذة أو رمح. بل تجد بدل الدرع الكأس والطاس وأوعية الشراب التركلينية Thericlan التي كانوا يغطسونها طول الطريق في الجرار الكبيرة والقصاع، ثم يشرب بعضهم نخب صحة الآخر، بعض راكب وبعض راجل، والجو كله يُرجع أصداء المزمار والسرناي والأغاني وأوتار القيثار. والنسوة يرقصن كأنهن في صلاة لباخوس. هذه المسيرة المضطربة والفوضى إلى جانب الشراب وكل ما نتصوّره من المزاح واللعب والعربدة الباخوسيّة كأن الإله نفسه قد حضر لتصدُّر الاحتفال وتشجيعه.

وفور وصول الإسكندر القصر الملكي في گدروسيا أراح نفسه وأمر بالمآدب والحفلات لجيشه. وفي يومٍ ما بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر، قيل إنه خرج لرؤية مسابقة في الرقص نال باغواس Bagoas فيها المرتبة الأولى فاجتاز المرسح وهو في ثياب الرقص وجلس إلى جانب الملك، مما سُرّ له المقدونيون حتى بدأوا يهتفون ويصيحون طالبين منه معانقة باغواس ولم يتوقفوا عن التصفيق والهتاف حتى أحاط الإسكندر عنقه بذراعيه وقبله.

هنا جاءه أميراله نيارخوس وأشاع السرور في نفسه عندما قصّ عليه رحلته البحرية. حتى أنه قرر إكمال رحلته بحراً حتى فم الفرات بأسطول كبير يدور به حول جزيرة العرب وأفريقيا ثم يدخل به البحر المتوسط في أعمدة هرقل. ولأجل ذلك أمر ببناء مختلف أنواع السفن في تباسقوس وجمع كميات كبيرة من الأرزاق والبحارة والملاحين من كل مكان. لكن أنباء المصاعب التي عاناها في حملته الهندية والمخاطر

التي تعرّض لها شخصياً على يد الماليين والخسائر الفادحة التي مُني بها جيشه والشك العام بخصوص سلامته، فسحت المجال للثورة بين كثيرٍ من الشعوب المغلوبة ولأعمال الظلم الفادح والاستغلال والإهانات التي كان حكام الأقاليم والقادة يصبّونها على رؤوسهم. لذلك فقد بدأ التملل يذرّ قرنَه وروح الثورة تستفز بين كثير من الشعوب المقهورة. وبدا الميل العام إلى التغيير واضحاً حتى في الوطن نفسه. فقد ألّبت أولمپياس وكليوپاطرا حزباً ضدّ أنتيپاطر وقسمتا رقعة حكمه فيما بينهما. فحازت الأولى إپيروس و استأثرت الثانية بمقدونيا. وعندما أبلغ الإسكندر بذلك قال إن أمّه اختارت أحسن الإقليمين لأن المقدونيين لا يحتملون قط حكم امرأة. وعلى إثر ذلك أرسل نيارخوس ثانية إلى الأسطول وأمره بشنّ الحرب على بلاد الساحل. وكان في أثناء مسيرته البريّة يُنزل العقوبات بالقادة والحكام الذين أساؤوا التصرف، ولاسيّما أوكسيارتس Oxyartus أحد أبناء أبوليتس Abuletes، فقد قتله بطعنة رمح وعندما قدّم له هذا ثلاثة آلاف تالنت من النقد المصكوك بدلاً من الأرزاق التي كان ينتظرها منه. ألقاها إلى الخيول وقال:

- أيّ نفع ترى في هذه الأرزاق.

ثم أودعه السجن.

بلغ الإسكندر بلاد فارس، فوزّع النقود على النساء جرياً على عادة ملوكهنّ عند قدومهم هذه البلاد في زيارة. إذ يمنحون كل أنثى بالغ قطعة واحدة من الذهب. وبسبب هذه العادة قيل إن بعض هؤلاء الملوك ما كان يزور هذه البلاد إلا لماماً بسبب هذه العادة. وكان أوخوس Ockus أحد ملوكهم بخيلاً طمّاعاً فلم يزر مسقط رأسه طوال فترة حكمه لئلا يضطر إلى تطبيق هذه العادة.

ووجد الإسكندر قبر كورش مفتوحاً ومسروقاً فأمر بقتل الفاعل پوليماخوس Polymachus وكان مواطناً مقدونياً من پللا Pella له مكانته وشهرته. وبعد أن قرأ النقش على الضريح أمر بأن تُنقش الكتبة التالية في الأسفل، باللغة اليونانية:

«أيها الإنسان كائناً من كنت، ومهما كان موطنك (لأني أعرف من أين جئت)، أقول لك أنا كورش مؤسّس إمبراطورية الفرس، لا تحسدني على هذه القطعة الصغيرة من الأرض التي تغطي جسدي».

وقد هزّت هذه العبارة مشاعر الإسكندر ومسّت أوتار قلبه وملأته بالقلق والكآبة والإيمان بعد أن استقرّ رأيه في احوال البشر. وكان الفيلسوف كالانوس يشكو إذذاك من مرض في المثانة شعر به لفترة قصيرة من الزمن فرجا الملك أن تقام له محرقة،

فأقبل حيث نصبت وهو ممتطٍ حصاناً. وبعد أن تلا صلاة ورشّ نفسه بالماء وقطع خصلةً من شعره وقذفه إلى النار قبل صعوده إليها، عانق المقدونيين الموجودين عناق الوداع الأخير واستأذنهم، وطلب منهم أن يقضوا ذلك اليوم في لهو وانشراح وأن يسودهم روح الألفة والمحبّة لملكهم الذي لا يشك في أنه سيلقاه ثانية وبعد زمن قصير في بابل! وبعد أن فرغ من قوله استلقى فوق المحرقة وغطّى وجهه ولم يأتِ بحركةٍ عندما اقترب اللهب منه وظلّ ساكناً حتى خرجت روحه، مضحياً بنفسه على عادة فلاسفة هذه البلاد القديمة. وقد أقدم هندي آخر على هذا العمل بعدها بسنوات عديدة في أثينا حيث جلبه القيصر معه. وما زال الناس حتى يومنا هذا يشيرون إلى «نصب الهندي» هناك.

بعد عودة الإسكندر من المحرقة دعا عدداً كبيراً من أصدقائه وكبار ضباطه للعشاء واقترح مباراة في شراب الخمر يقدّم فيها للفائز تاجٌ. فشرب پروماخوس Promachus اثني عشر غالوناً من الخمر وربح الجائزة. وكانت تالتاً واحداً. لكنه مات بها بعد ثلاثة أيام. ولحق به على ما يقول خاريس واحد وأربعون بسبب إفراطهم في الشرب. وحَلّ بردٌ شديد جداً بعدها بقليل.

في سوسه تزوّج الإسكندر من ستاتيرا Statira بنت داريوس. واحتفل كذلك بزواج أصدقائه، مانحاً أنبل السيّدات الفارسيات لأفضل المستحقين منهم. وجعل ذلك مناسبة لتكريم المقدونيين الآخرين الذين سبقوا أقرانهم في الزواج. ذُكر أن عدد المدعوين الذين حضروا هذه الوليمة كان زهاء تسعة آلاف، أعطى لكلّ واحد منهم كأس ذهب للقرابين. وبتجاوزنا المناسبات الأخرى التي أظهر فيها أعماله العجيبة، نذكر أنه دفع ديون أفراد جيشه التي بلغت تسعة آلاف تالنت وثمانمائة وسبعين من جيبه الخاص. إلاّ أن أنتيگينس الذي فقد إحدى عينيه لم يكن مديناً لأحد لكنه سجّل نفسه في قائمتهم وأتى بشخصٍ زعم أنه دائنه وأنه أمّده بالمال من المصرف، فتسلّم المال. ومالبثت حيلته أن انكشفت فتميّز الإسكندر غيظاً وطرده من البلاد وجرّده من رتبة القيادة مع أنه كان جندياً ممتازاً وشجاعته لا تُنكر. ففي زمن شبابه كان تحت إمرة فيليب في حصار پيرنتوس Perinthus فأصابه سهم منجنيق في عينه، فأبى أن ينزع ولم يترك ميدان القتال حتى صدّ هجوم العدوّ وأرغمه على التراجع والدخول إلى المدينة. لذلك لم يكن في وسعه تحمّل الذلّ والعار بأي قدرٍ من الصبر، وكان متوقعاً أن الحزن واليأس سيدفعانه إلى قتل نفسه، فخشي الملك هذه العاقبة ولم يكتف بالعفو عنه وإنما تركه يستمتع بالمال الذي عاد إليه من حيلته.

وشاع السرور العظيم في نفسه للتقدم الذي أحرزه الصبيان الثلاثون ألفاً الذين تركهم وراءه بين أيدي المدرّبين والمعلّمين، فقد اشتدت سواعدهم وحسنت وجوههم، وصاروا يؤدّون تمارينهم ببراعة وخفّة مدهشتين. فاغتمّ المقدونيين للاهتمام الذين أبداه الملك بهم وخافوا أن يصبحوا لديه ثانويين. وعندما شرع في إعادة الزُّمَّن والعجزة والمشوّهين من الجنود إلى الوطن بحراً احتجوا قائلين: إن هذه المعاملة خلت من العدالة والتقدير، فبعد أن نالت منهم الخدمة العسكرية ما نالت في تلك الظروف الصعبة ها إنهم يعاملون بزراية واحتقار فينتقلون إلى الوطن ليعيشوا بين أقربائهم وأصدقائهم عيشة أسوأ مما كانوا يعيشونها قبل مغادرتهم إياه. لذلك فخير له أن يستغني عنهم جميعاً وان يعتبر مواطنيه المقدونيين سقط متاع لا يرجى منهم نفع بعد أن أصبح لديه عدد كافٍ من الراقصين الصبيان، بإمكانه إن شاء أن يقودهم لفتح الدنيا.

فوبّخهم أشدّ توبيخ ثم طردهم من حضرته وأسلم واجب الحراسة للفرس واختار منهم الحجّاب والحرس. وتلاشت معنويات المقدونيين عندما وجدوا أنفسهم منبوذين مجلّلين بالعار، وملكهم يصاحب هؤلاء الرجال. وبلغت الغيرة والحقد بهم حَدّ الخبال. ثم أدركهم الندم وقصدوا خيمة الإسكندر عُزّلاً وليس عليهم غير ثيابهم الداخلية يبكون ويصرخون طالبين منه أن يعاملهم المعاملة التي تستحقها وضاعتهم وجحودهم، فلم يفدهم ذلك. على أن غضبه انفثأ بعض الشيء. لكنه أبى استقبالهم فلم يتفرّقوا وظلوا حيث هم يومين وليلتين كوامل يتباكون ويتنادبون ويتوسّلون إليه أن تداخله الرحمة منهم. وفي اليوم الثالث خرج إليهم وتبيّن حالة الذلّ فيهم فبكى ملياً ثم شرع يلومهم برقّة، وبعدها أخذ يحادثهم بلطف. ثم إنه سرّح من لم يعد صالحاً للخدمة مزوّداً بعطايا كثيرة، وموصياً أنتيباطر أن يكرم مثواهم عند عودتهم إلى الوطن فيخصص لهم أحسن المقاعد وأقربها عند حضورهم الاحتفالات العامة والمسارح، وأن يتوّجوا بأكاليل الزهر وغير ذلك من ضروب التكريم. وأمر أن يُصرف للصبيان الذين فُقِد آباءهم في الحرب رواتب آبائهم بانتظام.

بعد وصوله أكبتانا وإنجازه الأعمال العاجلة انصرف إلى تسلية نفسه باقامة الحفلات العامة وضروب النشاط الفني وحشد لذلك ثلاثة آلاف فنّان وممثل استقدمهم من اليونان، ولكن منهاجه هذا قُطع فجأة بمرض هيفايستيون بالحمّى. كان هيفايستيون جندياً وشاباً فلم يسعه تقييد نفسه بأصول العلاج والحِمْية. وانتهز فرصة ذهاب طبيبه گلاوكوس Glaucus إلى المرسح فأكل دجاجة وشرب مقداراً كبيراً من الخمر، فتفاقم المرض وساءت حالته وتوفي بعد قليل. وبلغ الحزن بالإسكندر مبلغاً عظيماً حتى خرج

به عن طوره. وإظهاراً لمدى حزنه أمر بقطع أعراف وذيول كل خيله وبغاله وبهدم أسوار كل المدن المجاورة. وصلب الطبيب المسكين. ومنع النفخ بالناي والضرب على أية آلة طرب في المعسكر لفترة طويلة. إلى أن جاءته نبوءة عرّاف أمون التي فرضت عليه إكرام هيفايستيون والتضحية له كما يُضحّى للأبطال، وتراءى له أيضاً أن الحرب قد تصرف عنه أحزانه فانطلق إلى قنص الرجال ومطاردتهم وأوقع بالكوسينين Cossaeans وأفناهم بحدّ السيف وسمّيت وقعته معهم «بالتضحية لخيال هيفايستيون» واعتزم أن ينفق على بناء ضريحه ونصبه التذكاري عشرة آلاف تالنت. وقرّر أن تكون روعة التصميم وجمال الصنع مما يزيد عن نفقاته. واختار من بين النحّاتين ستاسكراتيس Stasicrates لأنه كان يخرج دائماً بشيء جديد غير مسبوق في تصاميمه. التقيا مرة فقال النحّات له: إن جبل أتوس في تراقيا هو أصلح كل الجبال التي عرفها لنحته وتهذيبه ليكون على شكل إنسان، فإن أعجبه المشروع فبإمكانه أن يجعل من هذا الجبل أجمل وأبقى تمثال بشر في العالم، يمسك بيده اليمنى مدينة نفوسها عشرة آلاف ويخرج من يسراه نهر غزير المياه ليصبّ في البحر. وقد رفض الإسكندر مشروعه، إلاّ أنه صار يصرف جُلّ أوقاته مع النحاتين والصنّاع لاستنباط تصاميم وأبنية أكثر فخامة وروعة.

وكان في طريقه إلى بابل عندما وصل نيارخوس مصبّ نهر الفرات، فأنبأه بأن بعض العرّافين الكلدانيين الذين التقى بهم حذّروه من ذهاب الإسكندر إلى بابل. إلاّ أنه لم يأبه واستمر حتى إذا بلغ أسوار المدينة شاهد أعداداً كبيرة من الغربان يقاتل أحدها الآخر في الجوّ، وسقط بعضها بالقرب منه. وأسرّ إليه أحدهم أن أپوللودوروس Appollodorus حاكم بابل قدم قرباناً ليعرف ما سيكون مصير الإسكندر. فأرسل يستقدم الكاهن فيتاغوراس فأكد له صحة الخبر فسأله: بأية حال وجد الأضحية؟ فقال: كانت شحمة الكبد معيبة. فقال الإسكندر:

- بشير خير عظيم دون شك!

ولم يتعرّض للعرّاف بسوء، إلاّ أن الأسف أدركه لأنه أهمل تحذير نيارخوس. وأنفق جُلّ وقته خارج المدينة، ينقل سرادقه من موضع إلى آخر، ويمخر عباب الفرات جيئة وذهاباً. وصارت تقلقه ظواهر طبيعية أخرى منها أن حماراً مروّضاً هجم على أكبر وأجمل أسد فقتله برفسه من رجله. ونزع ثيابه ذات يوم ليدهن جسمه وكان يلعب بالكرة ولما راحوا لجلب ثيابه لمح الشبان اللاعبون رجلاً مرتدياً ثياب الملك وتاجه على رأسه يجلس ساكناً على عرشه. فتقدّموا منه وسألوه عمّن يكون فظلّ برهة لا

يجيب ثم أفاق من استغراقه وقال إن اسمه ديونيسيوس وإنه من مسينيا، وقد جيء به من الساحل لجريمة اتهم بها وله في السجن مدة طويلة، حتى ظهر له سيرابيس وحرّره من أغلاله وقاده إلى هذا المكان وأمره أن يشتمل برداء الملك ويعتمر بتاجه ويجلس حيث وجدوه ولا يتفوّه بكلمة. عندما سمع الإسكندر بهذا أمر به فقُتل بعد استشارة العرّافين.

وعلته الكآبة وفقد ثقته بحماية الآلهة ومعنويتها وزاد شكّه في أصدقائه. وكان أعظم مخاوفه متأتياً من أنتيپاطر وأولاده، وأحدهم إيولاوس Iolaus هو رئيس سُقاته والآخر كساندر كان قد رُبّي تربيةً إغريقية صِرفة. رأى لأول مرة البرابرة يقدّمون فروض العبادة للملك فلم يتمالك نفسه من الضحك عليهم بصوت مسموع فأغضب الإسكندر الذي أمسك به من شعره بكلتا يديه وأخذ يضرب الحائط برأسه. وفي مناسبة أخرى قال كساندر شيئاً في معرض الدفاع عن أنتيپاطر في وجه متهميه فقاطعه الإسكندر قائلاً:

- ما هذا الذي تقوله؟ أوَتظن الناس يتكبّدون عناء مثل هذه الرحلة للافتراء على أبيك إن لم يصابوا بأذىً؟

فأجابه كساندر: إن سفرهم الطويل الذي أبعدهم عن دليل الإثبات، لهو شهادة بزيف التهم.

فابتسم الإسكندر وقال: ذلكم هو شيء من سوفسطائية أرسطو فهو قول يصلح لطرفي القضية.

ثم أضاف يقول: سأنزل بك وبوالدك أشدّ العقاب إذا ثبت ارتكابكما أقل الظلّم بحق الشاكين.

أحدث هذا التهديد أثراً من الرعب في كساندر لم يقوَ الزمن على ازالته. فبعد مرور سنين عديدة وصيرورته ملكاً على مقدونيا وسيّد اليونان كان يتمشّى يوماً في دلفي ويتأمل التماثيل فيه، وما إن وقعت عيناه على تمثال الإسكندر حتى استبدّ به القلق الشديد وراح جسمه يرتجف من أعلى إلى اسفل وزاغت عيناه ودارت به الأرض. ولم يعد إلى وضعه الطبيعي إلاّ بعد زمنٍ.

ما إن ركبت الإسكندر المخاوف من سلطان ما وراء الطبيعة حتى غمّ على عقله وأصبح ينزعج لأتفه الحوادث إذ كان يرى فيه نذيراً أو بشيراً. واكتظّ بلاطه بالعرّافين والكهّان الذين لم يعد لديهم عمل غير التضحية والتطهير وكشف المستقبل. ما أقبح الشّك والاستخفاف بالقوى الإلهية. وما أقبح الإيمان بالخرافات فهو كالماء المنخفض المستوى، يندفع ولا يقف في جريانه ليملأ العفو بالمخاوف التافهة والحماقات. تلك كانت حالة الإسكندر. لكن أجوبة معيّنة وردته من العرّاف بخصوص هيفايستيون. فنبذ

أحزانه جانباً وعاد إلى معاقرة الخمر وتقديم الأضاحي. بعد أن انتهى من مأدبته الفخمة التي أدبها لينارخوس، واستحمّ كعادته قبل أن يأوي إلى فراشه، خرج ليتعشّى مع ميديوس Mesius بناء على إلحاحه في الرجاء. واستمر يشرب الراح لديه حتى اليوم التالي وأصيب بالحمّى التي لازمته حتى وفاته. ولم يكن سببها شربه من وعاء هرقل كما كتب بعضهم، ولم يشعر بأي ألم فجائي في ظهره كما لو كان قد أصيب بطعنة رمح. فكل هذا في مستنبطات بعض المؤلفين الذين توهّموا أن الواجب يقضي عليهم حشر عظيم الأحداث في الفصل الأخير من عمر الإسكندر، محرّكاً للعواطف مأساوياً. ويحدّثنا أرسطوبولس أن سُعار الحمّى زاد في عطشه فشرب غالوناً من الخمر وراح على أثرها يهذي. وتوفي في الثالث عشر من شهر دايسيوس Daesius.

إلاّ أن المدوّنات التي وصلتنا تفصّل الأمر بالشكل التالي:

في الثامن عشر من الشهر نام في حمّامه بسبب الحمّى. وفي اليوم التالي استحّم ونُقل إلى غرفته الخاصّة وقضى وقته يلاعب ميديوس الشطرنج. وعند المساء استحمّ ثانية وصحا وأكل ما رغب في أكله ولازمته الحمّى طوال الليل. وفي العشرين أكمل التضحيات المعتادة واستحمّ واستلقى في الحمّام مستمعاً إلى تقرير نيارخوس عن رحلته وعن أرصاده في البحر الأعظم. وقضى اليوم الحادي والعشرين كذلك، وكانت حرارته في صعود. وتألّم كثيراً أثناء الليل. وفي اليوم التالي بلغت الحمّى أوجها فرُفع ونُقل إلى سريره القريب من الحمّام الكبير. واجتمع بكبار ضبّاطه وتداول معهم حول انتقاء رجال ملائمين لملء الشواغر في الجيش. وساءت حاله جداً في اليوم التالي (الرابع والعشرين) ونُقل من سريره للمشاركة في التضحية، وأصدر أمراً بأن يبقى جنرالاته في حالة إنذار في البلاط، وأن يقوم صغار الضباط بالخفارة خارج القصر. وفي اليوم الخامس والعشرين نُقل إلى قصره على الضفة الأخرى من النهر، ولم ينم إلاّ يسيراً، على أن حرارته بقيت كما هي. وعندما دخل قوّاده إلى غرفته وجدوه هامداً لا يقوى على الكلام. وظلّ كذلك طول اليوم التالي. وظنّ المقدونيون أنه قضى نحبه فاندفعوا بصياح عظيم إلى مداخل القصر، وهدّدوا أصدقاءه حتى اضطر هؤلاء إلى إخلاء الطريق لهم وأدخلوهم جميعاً وهم عُزّل حتى فراشه. وفي اليوم نفسه أرسل پيتون Python وسلوقوس إلى هيكل سيراپيس للاستفسار عمّا إذا كان يجب أن ينقل الإسكندر إليه، فأجابهم بالنفي. وفي مساء الثامن والعشرين لفظ آخر أنفاسه. معظم هذه الرواية منقولة حرفاً بحرف من اليوميات.

في حينه لم يقم أيّ شك حول تسميمه. ولكن قُل بعد ستّ سنين واستناداً إلى

بعض الإشاعات إن أولمپياس قتلت كثيرين وذرّت رماد بقايا أيولاووس الذي كان قد مات، كأنها تنفّذ فيه حكم الموت. لكنّ أولئك الذين يؤكدون أن أرسطو نصح أنتيپاطر بأن يُقدِم على دسّ السمّ، وأن السمّ جيء به عن طريقه، يوردون اسم هاگنوتيميوس Hagnothemius مرجعاً لهم، ويقولون إنه سمع أنتيغونس الملك يرويها ويضيف أن السمّ كان سائلاً بارداً كالثلج استقطر من صخرة في ناحية نوناكريس Nonacris وجُمع كما تُجمع قطرات الندى الرقيق القوام وحُفِظ في حافر جحشٍ لكونه شديد البرودة يخترق كل إناءٍ يحتويه غير هذا. ومهما يكن فالغالبية ترى أنها حكاية موضوعة. إن الجسد بقي طريّاً نقيّ البشرة طوال فترة النزاع الذي نشب بين ضباطه واستمر عدة أيام. ولم يظهر عليه أي أثرٍ للتفسّخ والفساد مثلاً مع أنه ظلّ مسجّى في موضع صغير شديد الحرارة والرطوبة. هذا يقوم دليلاً لايستهان به على كذب الرواية.

كانت روكسانا حاملاً. ولهذا السبب حباها المقدونيون بالتكريم. وكانت تغار من ستاتيرا فبعثت تستقدمها برسالة مزيّفة من الإسكندر كأنّه ما يزال حيّاً وعندما وقعت في قبضتها قتلتها هي وأختها وألقت بجثتيهما في بئر وأهالوا التراب عليهما. وكان پرديكاس يعينها في ذلك، وقد مارس سلطاناً عظيماً بعد موت الإسكندر ملقّباً نفسه بأريدايوس Arrhidaeus، ولم يكن في حياته غير حارس شخصي. أما أريدايوس ابن فيليب من امرأة خاملة النشأة اسمها فيلينّا Philinna فقد كان ضعيف العقل، لا بسبب عاهة في عقله أو بدنه (بالعكس فقد تميّز في طفولته بالخلقة السليمة، والعقل السوّي) بل بسبب حالة مرضيّة على إثر تناوله أدوية كانت أولمپياس تسقيها له فأتلفت صحّته وعقله.



کلودیوس (حوالی ٤١ ق.م)

يوليوس قيصر

CAESAR

(Gaius Julius)

١٠١–٤٤ ق.م



قیصر

۱۳۹۰

بعد أن استتبّ الأمر لسيلّلا رغب في حمل قيصر على طلاق زوجه كورنيليا بنت جنّا Cinna آخر حاكم مطلق على جميع الإمبراطورية الرومانية. لكنه عجز عن تحقيق ذلك سواء باستخدام الوعد أو الوعيد فقنع بعد ذلك بمصادرة مهرها.

وأصل العداء بين سيلّلا وقيصر هو قرابة أخيرهما لماريوس. فماريوس الأب كان بعلاً ليوليا عمّة قيصر وقد أنجبت له ماريوس الأصغر الذي هو والحالة هذه ابن عمّته. في مبدأ الأمر أغفل سيلّلا قيصراً وتجاوزه من العديد الذين فتك بهم بسبب المشاغل والاهتمامات الأخرى التي ألهته عنه. لكن قيصر بقي يلفت الأنظار بنشاطه. إذ قدّم نفسه للشعب مرشّحاً لرتبة الكهانة مع صغر سِنّه. فلم يُقدِم سيلّلا على معارضته بصورة مكشوفة وإنما عمد إلى اتخاذ تدابير لإسقاطه. ثم شاور أعوانه في القضاء عليه، فألحّوا عليه بالعدول عن ذلك قائلين «إن قتل صبيّ ليس شيئاً مهماً» فقال ماريوس:

- إن الذين لا يرون في الفتى قيصر أكثر من ماريوس واحد هم جهلة لا يعرفون شيئاً.

ولما بلغ ذلك قيصر سارع إلى الاختفاء متحاشياً الظهور برحيله إلى أراضي «السبين» حيث مكث مدة طويلة كان أثناءها يغيّر مخبأة كثيراً، حتى وقع في إحدى الليالي - أثناء انتقاله من بيت إلى آخر بسبب سوء صحّته - في أيدي جنود سيلّلا الذين كانوا يقومون بالتفتيش في تلك الأنحاء للقبض على من أفلت من المذبحة، وأفلح قيصر مع الضابط كورنيليوس فأخلى سبيله برشوة قدرها تالنتان، وركب البحر متجهاً نحو بيثينيا. وبعد مكوثه هناك ضيفاً على الملك نيقوميدس عاد أدراجه، إلاّ أن القرصان اعترضه في البحر قرب جزيرة فارماكوزا Pharmacosa وكان هؤلاء في تلك الفترة قد دوّخوا البحار في كل مكان بأساطيل كثيرة من السفن الكبيرة وما لا يُحصى من السفن الصغيرة.

ضحك قيصر من القرصان عندما حدّدوا فديته بعشرين تالنتاً وهزئ بهم قائلاً إنهم

لم يقدّروا قيمة أسيرهم تقديراً صائباً وتعهّد لهم من تلقاء نفسه أن يرفع الفدية إلى الخمسين. وأرسل في الحال بعضهم إلى عدّة اماكن لجمع مال الفدية. وتُرك بين يدي جماعة من القرصان الكيليكيّن، أحطّ خلق الله، وأكثرهم تعطشاً للدم، وليس معه غير ضَلٍ واحدٍ وخادمين. وكان يحتقر آسريه ولا يأبه بهم حتى أنه كان وقت نومه يرسل إليهم أمراً بألاّ يُحدثوا صوتاً. وظل يسرح ويمرح بينهم زهاء ثمانية وثلاثين يوماً، ويروّح عن نفسه بمشاركتهم في ألعابهم وتمارينهم كأنهم ليسوا آسريه بل حراساً له. وكان ينظم القصائد ويكتب الخطب ويُسمعهم إياها. ويصيح في وجه من لا يبدي إعجابه بها بأنه جاهل بربريّ، وكثيراً ما كان يهدّدهم بالشنق على سبيل المزاح. ويعزون انطلاقاته هذه في الحديث إلى نوع من السذاجة والجرأة الصبيانية. ووردت فديته من ميليتس Miletus فدفعها وأُطلق سراحه. فشرع فوراً في إعداد بعض السفن في ميناء ميلتيس وانطلق يطارد القرصان وباغتهم مع سفنهم وهم بعدُ في الجزيرة وأسر معظمهم واستولى على أموالهم وأودع الأسرى سجن برغاموس. وراجع جونيوس Junius الذي كان وقتذاك حاكم آسيا لتحديد عقوبتهم بمقتضى صلاحيّته باعتباره بريتوراً. ولطمع جونيوس بالمال (وكان كبيراً) أخذ يماطل في تقرير مصير السجناء، فما كان من قيصر إلاّ أن عاد إلى برغاموس وأمر بإخراج القرصان من السجن وصلبهم - عقوبة طالما كان يهددهم بها لمّا كان أسيراً عندهم فلا يحلمون بأنه كان جاداً.

في الوقت نفسه بدأ سلطان سيلّلا ينتابه الضعف فنصحه أصدقاؤه بالعودة إلى روما. إلاّ أنه سافر إلى رودوس وانتمى إلى مدرسة أپولّونيوس ابن مولون Molon معلّم البلاغة والبيان الشهير. وكان رجلاً معروفاً بالعلم والفضل ومن تلاميذه شيشرون.

قيل إن قيصر خُلِق ليكوْن رجل دولة وخطيباً في الوقت نفسه، فقد زوّدته الطبيعة بكلّ مقوّماتهما وحكمت عليه أن يتكبّد العناء ويركب الصعاب في صقل مواهبه فيحوز المرتبة الثانية بلا شكّ في الخطابة. ولكنّ هدفه لم يكن هذا بل اختار الكفاح لأجل أن يكون الأول بين رجال الحرب والسياسة. فلم يرتفع إلى مقام البلاغة التي كانت سترفعه الطبيعة إليها.

واستأثرت باهتمامه تلك الحملات والخطط التي ربح بها الإمبراطورية فيما بعد. فتجده في جوابه على رسالة التقريظ التي كتبها شيشرون بحق كاتو، يطلب من قارئه أن لا يقارن كتابة الجندي البسيطة ببلاغة الخطيب الذي زاد على موهبته الجميلة أنه أوقف حياته كلها على دراستها وصقلها.

عند عودة قيصر إلى روما، اتّهم دولابلّلا Dolabella بسوء الإدارة. وأقبلت وفود

من مدن إغريقية عديدة لتعزيز اتهامه لكن دولابلّلا بُرّئ. وقابل قيصر هذه المساندة التي نالها من الإغريق بمساندتهم في اتهامهم پوبليوس أنطونيوس بفساد الإدارة أمام ماركوس لوكوللوس پريتور مقدونيا. ونجح في هذه القضية نجاحاً ألجأ المتهم إلى استيناف حكمه أمام تريبونات روما زاعماً أنه لا يمكن أن ينال محاكمة عادلة في اليونان. وفي مرافعته بروما نال قيصر ببلاغته وقوة عارضته تقديراً كبيراً ومكانة سامية. ولم يكن نصره هذا بأقل أثراً من انعطاف قلوب الجماهير نحوه، بسبب دماثته ولطف حديثه الذي كان يستبطن اللباقة وحُسن التقدير لمشاعر الآخرين مما لا يُتوقّع صدوره من شخص في مثل عمره. وكان بيته مفتوحاً في وجوه قصّاده، لا تنقطع فيه المآدب والحفلات، ويتجلّى فيه طراز الحياة العالي التي يحياها. كل ذلك ساهم بالتدريج في خلق نفوذه السياسي وازدياده. واستخفّ خصومه بتنامي سلطانه في مبدأ الأمر مقدّرين أنه ما يلبث أن يتلاشى عندما يخلو وفاضه من المال، في حين كان آنذاك يزداد قدراً ومكانة عند العامة، حتى ثبّت نفوذه ولم يعد في الإمكان إزاحته. فمال بصورة مكشوفة إلى تغيير نظام الحكم كلّه وجاء إدراكهم متأخراً بأن ليس ثمّ بداية تعدّ تافهة عندما يقبل بها صاحب الهِمّة والدأب المتواصل إلى أعلى درجة. وأن الاستهانة بالخطر في البداية ستجعله في النهاية ماحِقاً تتعذّر مقاومته. وكان شيشرون أول من داخله الشك في غايته وهدفه وهو الاستيلاء على السلطة، وتبيّن مزاج قيصر التآمري من خلال تنكّره برقّة الحاشية ولين العريكة مثله مثل الملاّح الذي يتوقّع هبوب العاصفة عندما يكون البحر في أهدأ وأصفى حالاته. ولقد قال في هذا:

«لقد تحسّست بطموحه إلى السلطان المطلق في كل ما أقدم عليه من أعمال. لكنني عندما أرى شعره مصففاً بعناية كبيرة، وعندما أتابعه وهو يسوّي خصلاته بإصبع واحدةٍ، لايسعني التخيّل بأن في رأس هذا الرجل أفكاراً ستؤدّي إلى تقويض نظام الحكم الروماني».

وسنعود إلى ذلك بمزيد من التفصيل فيما بعد.

وكان فوزه بمنصب التريبون العسكري في عملية الاقتراح أول دليل على تعلّق الناس به. وقد جاء اسمه بين الفائزين قبل اسم كايوس پوبليوس نفسه. وثمّ دليل آخر على تعلّق الجمهور به أقوى من هذا هو أنه ألقى خطبة ممتازةً في تأبين عمّته جوليا امرأة ماريوس من الفوروم، وبلغ من الجرأة في تشييع جنازتها أن جلب صور ماريوس وأبرزها للملأ. أمرٌ لم يُقدِم أحدٌ عليه منذ أن تفرّد سيلّلا بالسلطة وإعلانه أن أعضاء حزب ماريوس هم أعداء الدولة. فبدأ بعض الحاضرين يستنكر ذلك ويؤلّب الخواطر

ضدّه فردّ الجمهور عليهم بصيحات تشجيع مدوّية وتصفيق ينمّ عن عجبه وسروره لإخراجه أمجاد ماريوس من القبر بعد أن طُردت هذه الفترة الطويلة.

جرت العادة في روما أن تُلقى خُطب تأبين في جنازات النساء الشهرات المتقدمات في السنّ. ولم تكن ثمّ سابقة في تأبين امرأة صغيرة السنّ حتى بدأها قيصر بتأبين امرأته الراحلة وهذا ما زاد في شعبيّته أيضاً. فلقد اجتذب مشاعر العامة إليه بإظهاره محبّته لها بهذه الطريقة، وراح الناس ينظرون رجلاً عامر القلب بالحنان والرقّة. وبعد أن وارى زوجه في التراب رحل إلى إسبانيا بمنصب كويستور تحت إمرة بريتور اسمه ڤيتوس Vetus ظل يذكره بالخير ويعزّه إلى الأخير.

وعندما تقلّد هو منصب البريتور بادر إلى ترفيع ابن رئيسه السابق إلى نفس الوظيفة التي كان يتقلّدها عند أبيه. وبعد ختام مدّته في إسبانيا عقد قرانه على بومپيا زوجه الثالثة وكان له من كورنيليا زوجه الأولى بنت أعطاها لبومپي الأكبر. وقد أُثر عنه التبذير الشديد وسعة الإنفاق، حتى بلغت ديونه ألفاً وثلاثمائة تالنت. وكان من رأي الكثيرين أن الإنفاق الكثير سعياً وراء كسب حبّ الناس ما هو إلاّ استبدال الثابت الجيّد بما قد لايكون أكثر من بديل غير مؤكد. والواقع أنه كان يبتاع بالثمن الزهيد ما لا يمكن تحديد قيمته. وعُيّن مشرفاً عاماً على طريق أپيا Appia فلم يقف في صرفه عليه عند المبالغ المخصّصة له من الخزينة العامة بل أنفق عليه من جيبه الخاص مبلغاً كبيراً. وفي أثناء تولّيه منصب الإيديل جلب عدداً كبيراً من المصارعين وأتحف الجمهور بثلاثمائة وعشرين مبارزة. وأمّا إغراقه ولجاجته في إقامة الحفلات والمهرجانات العامة وتمثيل المسرحيات فقد طمس به كلّ ما عمله أسلافه في هذا المجال. وكان تعلّق الناس به لا يمكن وصفه إلاّ بشدة رغبتهم وتسابقهم في اقتراح المناصب والإنعامات الجديدة له.

كان في روما آنذاك حزبان سياسيان: حزب لسيلّلا وهو الحزب القوي المسيطر، وحزب لماريوس الراحل وهو في أشدّ حالات الضعف والانهيار. فاعتزم قيصر إحياء هذا الحزب واتخاذه حزباً له. وانتهز فرصة إعجاب الناس به، وسُمعته الصاعدة بالحفلات التي يقيمها بصفته إيديلا، فأمر - تحقيقاً لمطلبه هذا - أن تنقل خفيةً صور ماريوس وتماثيل النصر وهي حاملة تذكارات الحرب، فتمّ نقلها ليلاً ونُصبت في الكاپيتول. وشاهد بعضهم في صبيحة اليوم التالي هذه التماثيل وهي تتوهّج وتختال بجمالها وبالكتابات التي خلّدت انتصارات ماريوس على الكمبري. فأدركهم العجب لجرأة مَن نصبها. ولم يكن من الصعب التكهّن بهويّته. وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم وقامت الضجة الكبرى وجرت الاجتماعات العامة، واحتجّ بعضهم قائلاً إنها

محاولة مكشوفة لقلب نظام الحكم بإحياء أمجاد طوتها قوانين مجلس الشيوخ ومراسيمه، وإن قيصر ما أقدم عليها إلاّ ليجسّ نبض الشعب وليتأكد من مدى استعداده، بعد إعداده لهذه النهاية وترويضه ترويضاً كافياً لإطاعة نزواته، وأن يتقبل بهدوءٍ ما يطلع به عليهم قيصر من مخططاتٍ. ودبّت الشجاعة من الجهة الثانية بمشايعي ماريوس وأعضاء حزبه. وكان عجيباً حقاً أن يجد لماريوس مثل هذا العدد الهائل من الأتباع بعد أن أخرجهم هذا العمل من مكامنهم. فقد تدفّقوا حشوداً إلى الكاپيتول هاتفين، وصار بعضهم يصرخ كالمجانين عند رؤيته صور ماريوس. وارتفع قدر قيصر كثيراً لأنه كان القريب الوحيد الجدير بانتمائه لماريوس من بين أقربائه الآخرين. وعلى أثر هذه الفعلة اجتمع مجلس الشيوخ ونهض كاتالوس لوتاتيوس Catalus Lutatius وهو من أكبر الرومان قدراً وهاجم قيصر، وختم خطبته قائلاً: «إن قيصر لا يحفر ألغاماً لنسف الجمهورية وإنما ينصب آلات هدمٍ لتقويض صرحِها». ولما اعتذر قيصر وأرضى مجلس الشيوخ راح أشدّ المعجبين به يشجّعونه ويقوّون من عزيمته ونصحوه بألاّ ينكص على أعقابه ولا يتراجع عمّا انتواه بتأثير من الغير ما دام واثقاً أنه سينتصر على الجميع بعد زمن يسير بفضل منزلته الشعبية فيكون الرجل الأول في الجمهورية.

في ذلك الزمان توفّي ميتللوس الكاهن الأكبر وتنافس على المنصب الشاغر كلّ من كاتالوس وإيساوريكوس Isauricus وكلاهما من ذوي المكانة الرفيعة، والنفوذ الكبير في مجلس الشيوخ. إلاّ أن قيصر لم يتركهما في الميدان وحيدين وتقدّم إلى الشعب مرشّحاً نفسه للمنصب. وبدت الآراء والأحزاب في الظاهر منقسمة بصورة متساوية على المرشحين لا ترجّح الواحد منهم على الآخر. وكان كاتالوس أكثرهم تخوّفاً من النتيجة، ففي حالة فشله ستكون خسارته في مكانته وسمعته أكثر من المرشّحين الآخرين، فبعث لقيصر، يريد شراءه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال فكان جواب قيصر:

- إني على استعداد لاستدانة مبلغ أكبر مما عرضته حتى أواصل معركة الانتخاب.

وفي اليوم المعيّن للاقتراع قال لأمّه التي رافقته باكيةً حتى باب الدار:

- يا أمُّ! هذا اليوم سيراني أحد رجلين، إمّا منفيٌّ، وإما كاهن أعظم.

وخاض معركة انتخابية حامية. وبفرز الأصوات فاز قيصر، فأحدث فوزه موجة قلق في نفوس الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ وخافوا أن يدفع العامة إلى كل نوع من أنواع الاعتداء والشرّ. وأنحى كاتالوس وپيزو باللائمة على شيشرون لأنه أتاح له فرصة

النجاة في مؤامرة كاتيلين بعد أن أتاح هو نفسه للحكومة أعظم الفرص لإدانة قيصر. وتفصيل الأمر هو أن كاتيلين لم يكن ينوي من مؤامرته إحداث انقلاب كامل في الوضع السياسي فحسب، بل كان يرمي فضلاً عن ذلك إلى بسط سلطانه المطلق على الإمبراطورية ويقضي على الجميع. وقد هرب قبل أن تتجمّع الأدلة الكافية ضده، وقبل انكشاف أهدافه النهائية انكشافاً تاماً. على أنه ترك لنتولوس وكثيگوس Cethegus في المدينة لينوبا عنه في العمل. ولم يكن ثمّ ما يعزّز الشكّ في أنهما حظيا بتشجيع قيصر ومعاونته من طرف خفيّ. وكل ما في الأمر أن مجلس الشيوخ أدان هذين الشخصين بالإجماع. ثم طلب شيشرون من أعضاء المجلس أن يحدّدوا شكل العقوبة، فارتأى الأعضاء الذين أدلوا بأصواتهم قبل قيصر أن تفرض عليهما عقوبة الموت، وحان دور قيصر فألقى خطبة معدّة جاء فيها: إنه ليرى من الظلم أن تنتزع حياة شخصين كريمي المحتد لهما هذه المكانة الرفيعة قبل أن يحاكما محاكمة عادلة. وهو أمر غير مسبوق إلاّ إذا كانت هناك ضرورة ملحّة. وهو يقترح أن يُحتجزا في أية مدينة إيطالية يختارها شيشرون حتى تتم هزيمة كاتيلين وعندئذ سيتاح للمجلس في الظروف السليمة أن يقرّر بأناة ورويّة ما هو مناسب بحقهما.

وكانت عباراته تحمل كثيراً من المعاني الإنسانية، وزاد من وقعها في نفوس سامعيها صياغتها البليغة، فتبنّى رأيه هذا كل من تلاه، وخفّ الذين سبقوه إلى العدول عن رأيهم الأول والموافقة على اقتراحه، ثم جاء دور كاتالوس وكاتو، للكلام فعارضا الرأي وسفّهاه بشدة. وأثار كاتو في خطابه الشكّ حول قيصر نفسه وألحّ في وجوب تسليم المجرمين إلى نطع الجلّاد إلحاحاً شديداً. وبينما كان قيصر يهمّ بالخروج من مجلس الشيوخ لحق به جمّ غفير من الشبان القائمين على حراسة شيشرون آنذاك، وجرّدوا سيوفهم وأطبقوا عليه، إلاّ أن كيوريو Curio ألقى رداءه فوقه وقاده بعيداً عنهم - على ما قيل. وشيشرون نفسه عندما التفت إليه الشباب ينتظرون قضاءه في قيصر أبدى لهم إشارة الكفّ عنه، إمّا لخوفه من العامّة، وإما لأنه كان يجد في القتل عملاً غير شرعي. إن صحّ هذا فلا يسعني إلاّ العجب لإغفال شيشرون ذكر الحادث في كتابه عن قنصليّته. وعلى أية حال فقد تعرّض للّوم فيما بعد، لأنه لم يستفد من تلك الفرصة الذهبيّة ويتخلّص من قيصر وتركها تفلت من يده خوفاً من العامة المتعلقين بقيصر والمنحازين إليه انحيازاً ظاهراً.

وبعد زمن نهض في المجلس يريد تبرئة نفسه من الشكوك التي تحوم حوله، فارتفع الضجيج ودوّت صيحات الاستنكار ضدّه ودامت الجلسة أكثر من المعتاد بسبب

ذلك. واحتشد الجمهور في الخارج ثم صعدوا إلى دار المجلس بحشودٍ عظيمة وأحدقوا به وصاحوا يريدون قيصر ويطلبون إسقاط التهم عنه. وخشي كاتو من ثورة تسري بين الفقراء من المواطنين أول موقدٍ للّهب بين الشعب، كما خشي أن يضعوا كل آمالهم في قيصر. فأقنع مجلس الشيوخ بالاقتراع على منحهم علاوة شهرية من القمح. وكان هذا وجهاً من وجوه الصرف وضع الخزينة في حالة عجزٍ كبير قدره سبعة ملايين وخمسمائة ألف درهم سنوياً. الا أن نجاحه في إزالة خطر الثورة كان عظيماً. وأضعف نفوذ قيصر إلى درجة كبيرة، وكان في ذلك الحين يوشك أن يتسلّم منصب الپريتور ليغدو أكثر منعة وقوة بحكم منصبه.

على أن فترة پريتوريّته انقضت دون أن يحدث ما يكدّر، خلا ما لقيه من سوء حظّ في أموره العائلية. وكان پوبليوس كلوديوس من طبقة الأشراف مشهوراً بغناه، وذلاقة لسانه، على أنه سبق أشهر فسّاق زمانه بتهتّكه وخلاعته. وقد وقع في غرام پومپيا زوج قيصر ولم يجد منها صدوداً. وفُرضت رقابة شديدة على مثواها. ولازمتها والدة قيصر أوريليا وهي امرأة صارمة، ولم تفارقها لحظة واحدة مما جعل أيّ وصال بين الاثنين يتّسم بالخطورة والصعوبة. وكان الرومان يتعبّدون لإلهة أنثى يطلقون عليها اسم بونا Bona وهي التي يسمّيها الإغريق غينياكيا Gynaecea. والفريجيون الذين ينادونها باسم غريب يدّعون أنها أمّ ميداس ويقول الرومان إنها واحدة من الـ«درايد» Drydes تزوّجت فاونس Faunus. ويؤكد الإغريق أنها والدة باخوس الذي يحبّ ألاّ ينطق باسمها. ولهذا السبب فإن النسوة اللاتي يحتفلن بعيدها يعمدن إلى تغطية الخِيَم بأغصان الكرم. وتمشياً مع الخرافة توضع حيّة مقدّسة إلى جانب صورة الإلهة. ويحظر على الرجل أن يكون قريباً أو أن يكون في البيت عندما تقام الشعائر الدينية بهذه المناسبة. فالنسوة وحدهنّ يقمنَ بها ويقال إن المراسم لا تختلف عن تلك التي تقام في عيد أورفيوس Orpheus. بحلول يوم العيد يترك الزوج الذي يكون إما قنصلاً أو پريتوراً بيته مع كل الذكور الموجودين فيه، فتنوب الزوج منابه في الإشراف عليه. وتقام المراسم ليلاً، وتتلهّى النسوة فيما بينهنّ باللعب عند تولّيهن الخفارة وتصدح أنغام الموسيقى في أرجاء الدار دون انقطاع. وأراد كلوديوس أن ينتهز فرصة احتفال پومپيا بهذا العيد، فخيّل له أنه يستطيع الدخول إلى دارها دون أن يُفتضَح أمره، فتنكر بثياب مغنّية وتزيّن بحليّها وحُللها فبدا وكأنه فتاة لأن لحيته لم تنبت بعد. وأقبل ليجد الأبواب مفتوحة وخادم پومپيا بانتظاره فأدخلته في الحال. وأسرعت لإبلاغ سيّدتها، لكنها تأخرت، فداخله القلق، وترك موضعه وأخذ يتجوّل في الدار من غرفة إلى غرفة متحاشياً النور، والتقت

به أَمةُ أوريليا ودعته للعزف معها، جرياً على عادة النسوة. فأبى فدفعته أمامها وسألته من يكون ومن أين جاء. فقال إنه ينتظر أبرا Abra خادم پومپيا، وهو اسمها الحقيقي. ففضحه صوته الخشن فصرخت الخادم وهربت حيث النساء مجتمعات وأخبرتهن بوجود رجل في الدار. فأخذ الرعب مأخذه من سائرهن وغطّت أوريليا الأشياء المقدّسة وأوقفت الطقوس والمراسم وأمرت بإغلاق الأبواب. وانطلقت دون نورٍ تبحث عن كلوديوس الذي كان قد التجأ إلى غرفة خادم پومپيا وكبسته هناك. وتعرّفت عليه النسوة ودفعنه خارج الدار. ثم أدلين بالحكاية إلى أزواجهن. وفي الصباح تبيّن أن الخبر منتشر في أرجاء المدينة، والناس كلهم يتحدثون بمحاولة كلوديوس السافلة ويطالبون بإنزال العقاب به لأنه مجرم تجاه الأشخاص الذين ثلم شرفهم وتجاه الرأي العام والآلهة جميعاً. فرفع أحد التريبونات الشكوى ضده واتهمه بتدنيس الشعائر الدينية.

واتفقت كلمة طائفة من الشيوخ عليه، وأدلوا بشهادات ضده واتهموه بعدد من الجرائم المخزية، منها مواقعة أخته، التي هي زوج لوكوللوس. إلاّ أن الجمهور وقف ضدّ هذا الاتهام ودافعوا عن كلوديوس، مما كان له أثره الكبير في نفوس القضاة، فقد ذعروا وخافوا سوء العاقبة إن هم جرحوا مشاعر العامة. وأسرع قيصر فطلّق پومپيا لكنه دُعِي كشاهد إثبات ضد كلوديوس فقال إنه لا يتهمه بشيء. وبدا هذا تناقضاً منه فسأله رافع الشكوى:

- إذن ما الذي دعاك إلى طلاق زوجك؟

فأجاب قيصر:

- لا أريد أن تكون زوجي أكثر من مظنونة.

قال بعضهم إن جواب قيصر كان واقع ما يشعر به فعلاً، وقال آخرون إنما أجاب بذلك إرضاء للعامة الذين عقدوا النيّة على إنقاذ كلوديوس. وعلى أية حال فقد بُرّئ، لأن القضاء أعطى رأيه مكتوباً بشكل تتعذّر قراءته، وقد تعمّدوا ذلك حتى يكونوا بمأمن من العامة، ولكي لا يصيبهم عار أمام الأشراف بإخلائهم سبيله.

وعُيّن قيصر حاكماً لإقليم إسبانيا بمقتضى منصب الپريتور الذي يتقلده. إلاّ أن أوضاعه المالية كانت في غاية الارتباك مع دائنيه الذين تكالبوا عليه قبيل سفره وهم يلحّون ويُلحفون، فلم ير بدّاً من مراجعة كراسوس أغنى أغنياء روما. وكان هذا بحاجة إلى عزم قيصر الفتي لإسناد المعارضة التي يتزعّمها كراسوس ضدّ پومپي فتعهّد له بإرضاء أكثر الدائنين إلحافاً، وسداد جميع الديون التي لم تعد تحتمل التأجيل ودفع عنه

مبلغاً قدره ثمانمائة وثلاثون تالنتاً. ولم يبق عائق أمام سفر قيصر فانطلق إلى إسبانيا مجتازاً الألب. ومرّ بقرية بربرية صغيرة فيها قلّة من الناس الفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً. وأخذ ضباطه يمزحون فيما بينهم بقولهم «أيوجد هنا مُنافسة على الأصوات الانتخابية؟ أو نزاع حول المنصب الأول؟ أو ثارات بين كبار القوم؟».

وأجاب قيصر على هذا وهو في غاية الجدّ:

- أنا شخصياً أفضّل أن أكون الرجل الأول بين هؤلاء القوم على أن أكون الرجل الثاني في روما.

وقيل إنه كان يقضي أوقات فراغه في إسبانيا بمطالعة تاريخ الإسكندر، وفي إحدى المرّات دمعت عيناه وبكى بعد فراغه من قراءة جزءٍ فعجب أصحابه وسألوه عمّا أبكاه فقال:

- أما ترونه سبباً وجيهاً للبكاء عندما أفكر بأن الإسكندر أخضع مثل هذا العدد من الشعوب والأمم وهو في مثل عمري في حين أني لم أُنجز عملاً مذكوراً حتى الآن؟

وأظهر نشاطاً جمّاً حال مباشرته حكم إسبانيا. فأضاف عشر كتائب جديدة إلى العشرين الموجودة. وزحف بها على الكالايچي Calaici واللوزيتاني Lusetani وأخضعهما، ثم تقدّم حتى بلغ المحيط، باسطاً سلطان روما على تلك القبائل التي لم تدخل في طاعتها من قبل. وكان نجاحه العسكري الطيب يوازى نجاحه في المسائل المدنية. فقد اهتمّ بإحلال المودّة والتفاهم بين عدّة دول إقليمية تابعة. وأزال الخلافات المحتدمة بين الدائن والمدينين فأصدر قراراً يقضى بأن يتسلّم الدائن ثلثي دخل المدين السنوي وترك المدين حر التصرّف في الثلث الآخر حتى يتم تسديد الدين كله. كل هذا جعله لا يترك إقليمه إلاّ وقد خلّف وراءه اسماً طيباً وسُمعة حسنة. وقد اغتنى وأغنى جنوده فكافأوه بأن خلعوا عليه لقب إمبراطور.

يقضي القانون الروماني على القائد المنتصر المطالب بموكب نصر أن يبقى خارج أسوار المدينة منتظراً الموافقة. ويقضي قانون آخر بأنّ على من يرشّح نفسه للمنصب القنصلي أن يحضر بشخصه محلّ الاقتراع. وكان قيصر قد بلغ مشارف روما أثناء موعد الانتخاب القنصلي فوقع بين نارين وتحيّر بين القانونين. وبعث يطلب من مجلس الشيوخ أن يُسمح له بإنابة أصحابه في ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لاضطراره إلى البقاء خارج روما. في بادئ الأمر عارض كاتو الطلب وكان القانون في جانبه. ولكن عندما تبيّن أن أغلبية المجلس تؤيّد ترشيح قيصر دون اعتبار لصراحة القانون، حاول جهده لكسب الوقت وراح يبدّد اليوم بالكلام والخطب، ففضّل قيصر أن يصرف النظر

عن موكب النصر وأن يتابع ترشيحه للقنصلية فدخل المدينة معلناً عن ترشيحه لنفسه، ومستعيناً بحيلة انطلت على الجميع خلا كاتو. فقد نجح مسعاه في مصالحة كراسوس مع پومپي وكانا أقوى شخصيتين في روما، وبينهما خلاف شديد نجح قيصر في إزالته. فقوّى نفسه بقوّتيهما المتحدتين. وأحدث انقلاباً في الحكم تحت ستار العمل الطيب.

إذ لم يكن الخلاف بين قيصر وپومپي سبب تسعير نار الحرب الأهلية، بل بالأحرى اتحادهما وتآمرهما من المبدأ على تدمير الأرستوقراطية ولهذا نشب النزاع فيما بينهما بعدئذ. وكاتو الذي تنبأ أكثر من مرة بما ستكون عاقبة هذا التحالف بدا وقتئذ رجلاً مناكداً فضولياً. ولكنه خرج بالأخير قنصلاً حكيماً بعيد النظر، إلاّ أنه فاشل.

وهكذا تضاعف دعم قيصر بنفوذي كراسوس وپومپي فتسنّم منصب القنصلية مع كالپورينوس بيبولوس Calpurinius Bibulus وحال مباشرته مهام منصبه أصدر لوائح ومراسيم لا تصدر عادة من القنصل بل من أشدّ التريبونات جراءة، منها اقتراحه اقامة مستعمرات (مستوطنات) وتقسيم الأراضي، إرضاء للعامة ليس إلاّ. وعارض اللائحة أفضل الشيوخ وأكثرهم شرفاً. فاهتبل قيصر الفرصة التي كان ينتظرها منذ وقت الطويل وتسلح بهذه الذريعة الخادعة واحتجّ بأعلى صوته قائلاً إنه ليكره أن يرغم على طلب العون من الشعب، وإن سلوك المجلس القاسي المهين لم يبقِ له غير سبيل واحدة وهي أن يوقف نفسه على رعاية مصلحة العامة وتبنّي مشاكلهم.

وأسرع بالخروج من المجلس وتقدّم من الجمهور وهو بين كراسوس وپومپي وسألهم: «أتوافقون على اللوائح التي اقترحتها؟» فأجابوا: «إننا موافقون». وعندئذ طلب منهم أن يساندوه ضد أولئك الذين هدّدوه بسيوفهم، فردوا قائلين إنهم معه. وأردف پومپي قائلاً: إنه سيلقى سيوفهم بسيف وترسٍ أيضاً. وامتعض الأشراف من هذا القول امتعاضاً شديداً. إذ لم يكن يليق بوقاره، ولا بالتوقير الواجب لمجلس الشيوخ، وكان بالأحرى أشبه بحماسة صبي أو هذيان مجنون. لكنه وقع موقعاً حسناً لدى العامة.

وحكم قيصر قبضته على پومپي بتزويجه ابنته جوليا التي كان معقوداً عليها لسرڤيليوس كيپيو Servilius Caepio. وأرضى هذا الخطيب بأن أعطاه ابنة پومپي التي كانت بدورها مخطوبة لفاوستوس Faustus ابن سيلّلا وبعد فترةٍ تزوّج قيصر كالپورنيا Calpurnia بنت پيزو Piso وظفر لأبيها بمنصب القنصل للسنة التالية. فتعالى صوت كاتو بالاحتجاج والسخط وقال بكثير من الحرارة:

- إنه لمما لا يمكن التسامح فيه قط أن تُستقْحب الحكومة عن طريق الزواج، وأن

يدفع الفاعلون أحدهما الآخر إلى قيادات الجيوش وحكم الأقاليم وغير ذلك من المناصب الكبيرة عن طريق النساء.

ولزم بيبولوس، زميل قيصر في القنصلية، داره يعدّ ما بقي له من أيام قنصليته، بعد أن عجز عن معارضة قراراته ومراسيمه الا إذا شاء أن يُقتل في الفوروم. وحذا كاتو حذوه للسبب عينه. وبعد تمام زواج پومپي بادر إلى ملء الفوروم بالجنود. وأعان الجمهور في ابرام القوانين الجديدة، وأمن لقيصر حكم كل بلاد الغال، أعني الجزء الواقع جنوب جبال الألب والقسم الذي يقع ما وراءها، إلى جانب إيلليريكوم. وأمّره على خمس فرقٍ لمدة خمس سنوات. ويدر من كاتو بعض المحاولات لإحباط هذه الإجراءات فاعتقله قيصر واقتاده إلى السجن بنفسه، وكان يتوقّع منه أن يراجع التريبونات متظلّماً. لكنه وجد أن كاتو يسير معه إلى السجن طائعاً دون أن ينبس بحرف وأن الاستهجان لم يقتصر على الأشراف بل تعدّاه إلى العامّة. إذ راحوا يتبعون خطى كاتو صامتين مكتئبين إجلالاً لمقام السجين وإكباراً لفضائله. وتمنّى قيصر في تلك الساعة أن يخفّ أحد التريبونات لنزع كاتو من يده. ومنذ ذلك الحين لم يعد يحضر المجلس إلاّ قلّة من الشيوخ، وأضرب عنه الباقون وقد امتلأت أنفسهم قرفاً واشمئزازاً من الوضع. وانتهز كونسيديوس Considius وهو شيخ عجوز في آخر العمر فرصة يوماً ما فقال لقيصر:

- إن الشيوخ لايحضرون المجلس خوفاً من جنودك.

فسأله قيصر:

- ولِمَ لا تلازم بيتك أنت أيضاً؟ مدفوعاً بذات الخوف؟

فأجابه كونسيديوس:

- إن عمري يعصمني من الخوف. والقليل الباقي منه لا يستأهل الكثير من الحذر.

وأكبر الفضائح التي وقعت في فترة قنصليته هي معاونته لكلوديوس في حصوله على منصب التريبيون، وهو عين كلوديوس الذي حاول النيل من عفّة زوجه فاقتحم بيته ودنّس العبادات السرّية. لقد عاونه لكي يضمن سقوط شيشرون فلم يغادر قيصر المدينة لقيادة جيشه إلاّ بعد أن تغلّب على شيشرون وطرده من إيطاليا.

نقف عند هذا الحدّ في تتبّعنا مساعي القيصر وأعماله قبل نشوب الحروب الغالية. فها هو ذا الآن يعود إلى سلوك السبيل الذي اختطّه لنفسه ليبدأ حياةً جديدة ويباشر أعمالاً جديدة. لقد برز في هذه الحروب والحملات العديدة التي أخضع بها الغاليين

جندياً وقائداً لا يقلّ بأي حال عن أعظم من ظهر من القادة، وأكثر من قادوا الجيوش استدراراً للإعجاب. فإن نحن قارناه بالقوّاد الذين أنجبتهم أُسَر آل فابي وآل ميتيلي وآل سكيپيو، أو بأولئك الذين عاصرهم أو سبقوه بقليل مثل سيلّلا وماريوس ولوكوللوس الأول والثاني، أو حتى پومپي الذي ارتفعت به أمجاده إلى السماكَيْن لما أبداه من براعة في حروبه، فسنجد أن قيصر فاقهم جميعاً. وقد جاء تفوّقه هذا من عدّة جهات. منها وعورة الأرض التي كانت ميداناً لحروبه، ومنها مساحة الأراضي التي استولى عليها، وعدد العدوّ الذي دحره وقوّته، وشراسة القبائل وأساليبها الغادرة. تلك الطبيعة التي تمكّن بلطفه وملكاته من التغلّب عليها واسترضائها. ومنها إنسانيته ورأفته بالعدوّ المغلوب. ويقول آخرون إن تفوّقه على القادة الذين سبقوه إنما يعود إلى عطفه على جنوده وعطاياه ومكافأته لهم. والجميع يتفقون على أن تفوّقه العتيد متأتٍّ من عدد المعارك التي خاضها وكثرة الأعداء الذين أهلكهم. فقد خاض حرباً متواصلة في بلاد الغال دامت عشر سنوات كوامل وفتح عنوةً ما يربو على ثمانمائة مدينة وقوّض ثلاثمائة حكومة ومن الملايين الثلاثة من المقاتلين الذين قاتلهم عدّة مرات أهلك مليوناً وأسر مثل هذا العدد.

كان قيصر عطوفاً رقيقاً حسن النيّة تجاه جنوده وكان بارعاً في إظهار طبعه هذا بإسداء كل خدمة يريدونها. حتى أن الرجال العاديين يُبدون تحت إمرته من الإقدام والاستماتة ما لا يمكن الوقوف في وجهه أو التغلّب عليه. ولاسيما عندما تعنّ لهم الأخطار وتُحدق بهم. وكمثلٍ على ذلك أچيليوس Acilius الذي بترت يده اليمنى ضربةُ سيفٍ أثناء القتال البحري قرب مارسيليا فلم يُلقِ ترسه وبقي في يده اليمنى يضرب به وجوه الأعداء المهاجمين، حتى دفع بهم إلى الوراء واستولى على سفينتهم، وثمّ كاسيوس سكيڤا Cassius Scæva الذي رُشِق بسهم فأصاب إحدى عينيه في أثناء القتال بالقرب من داركيوم ثم أصيبت ذراعه بطعنة رمح، ثم اصيب فخذه بطعنة أخرى، ورُشقت درقتُه بمائة وثلاثين رمحاً خفيفاً، فنادى العدوّ كأنه يريد أن يستسلم، ولما تقدّم منه اثنان قطع كتف أحدهما بضربة من سيفه وأهوى بضربة على وجه الآخر فأجبره على الانسحاب، حتى كتبت له النجاة عندما خفّ إليه أصحابه. وفي إيطاليا وجد بعض ضباط الطليعة المتقدمة من جيشه أنفسهم في مستنقع كثير المياه، وفيما هم يفكرون بطريقة للخروج هاجمهم العدوّ، فقذف جندي بسيط نفسه في وسطهم - والقيصر واقف ينظر إلى المشهد - وأبدى ضروباً عجيبة من الشجاعة حتى تيسّر له إنقاذ الضباط وهزم البرابرة. وعصي هذه الجندي في الطين بالأخير، وبعد كثير من الجهد خرج

سابحاً آناً وخائضاً آناً، ولكنه فقد ترسه. وكان قيصر وضباطه يتابعونه بأنظارهم موجبين، ثم توجهوا للقائه مبتهجين. لكن الجندي الذي كان شديد الحزن لفقدانه ترسه ألقى بنفسه عند قدمي قيصر طالباً المغفرة لهذه الهفوة. ومرّة أخرى استولى سكيپيو في أفريقيا على سفينة كان فيها خرانيوس پترو Garnius Petro المعيّن حديثاً بمنصب كويستور. فوزّع سكيپيو ركاب السفينة على جنوده كغنائم حرب، ولكنه وجد من حُسن الذوق أن يعتق الكويستور ويهبه حياته لكن هذا قال: «ليس من المعتاد أن يتقبّل جنود قيصر الرحمة، بل أن يمنحوها». وانتضى سيفه وسقط عليه فمات.

ونفخ في جنوده روح التفوّق، وتشرّبوا حبّه للمجد. وبتوزيعه المال والعطايا عليهم دون حساب برهن لهم أنه لا يكدّس الثروة التي غنمها لنفسه ولا لأجل أن يمتّع بها شخصه، بل إن ما كسبه هو ملك عام مخصّص لمكافأة وتشجيع البسالة والإقدام وأنه يعتبر زيادةً في غناه كلَّ المنح التي أعطاها للمستحقين من جنوده. زد على ذلك أنه ما كان ليتردّد قط في تعريض نفسه لشتّى الأخطار من غير تعلّل أو إحجام أو شعور بالتعب. ولم يكن جنوده يستغربون منه استهانته بالخطر لأنهم كانوا على إدراك تام بمدى حبّه للشهرة إلاّ أن مصدر عجبهم كان همّته التي لا تتناسب مطلقاً مع قابليّته الجسدية وتكوينه الطبيعي. فقد كان هزيلاً أبيض البشرة ناعمها، يشكو من الصرع لعلّةٍ في رأسه، قيل إنها أصابته في قرطبة. لكنه لم يتخذ من نحوله ورقّة بدنه سبباً للخلود إلى الراحة وترف العيش، بل اتخذ من الحرب علاجاً لانحراف صحّته. وكافح داءه المزمن وحصّن جسمه ضد كل انتكاسة بسفرات طويلة شاقّة، وطعامٍ خشن ونوم في العراء وتمارين مجهدة مستمرة. وكان عادة ينام إمّا في عربة أو فوق مَحمل يسيران به وهو يتعقّب العدوّ. وكان يُنقل على هذه الشاكلة إلى القلاع والحاميات والمعسكرات ومعه خادم واحدٌ يدوّن ما يمليه عليه وعربته تسير به بينما كان يقف وراءه جندي بيده سيف مجرّد. وكان يسوق عربته بسرعة لا تصدّق. حتى أنه بلغ نهر الرون في ثمانية أيام عند رحيله عن روما لأول مرة. وبرع في ركوب الخيل منذ طفولته وكان من أهون الأمور عنده أن يعلو ظهر حصانه ويداه معقودتان وراء ظهره مطلقاً لمركوبه العنان بأقصى سرعته. وأتاحت له الحرب ترويض نفسه على إملاء رسالة وهو على ظهر جواده، وأن يصدر أوامره إلى كاتبين يدوّنان ملاحظات عنها في الوقت نفسه. ويقول أوپيوس Oppius بل كان يملي أوامره على أكثر من اثنين أحياناً.

والمعتقد أنه أول من استنبط وسائل الاتصال الجفرية بأصحابه وأعوانه، إذ كان زخم العمل أو سعة المدينة لا يدعان له وقتاً للمداولة حول الأمور الملحّة العاجلة.

ومن الحكاية التالية يظهر كم كان قليل الاهتمام بطعامه. دعاه ڤاليريوس ليو Valerius Leo إلى العشاء في ميلان. وعند جلوس المدعوين وُضِع أمام قيصر طبق فيه هليون، صُبّ عليه سائل حلو المذاق بدل الزيت، فأكل منه قيصر دون أن تبدو عليه علائم قرفٍ أو تردّد. وعنّف أصحابه لأنهم عابوا الطعام بقوله:

- حسبكم أن لا تأكلوا ما لا تحبّون أكله. لكن من يصِم الآخرين بسوء التربية وقلّة الذوق يبرهن على أنه يفتقر إليهما بالأحرى.

وألجأته العاصفة يوماً وهو في الطريق إلى كوخٍ صغير لم يجد فيه غير غرفة واحدة لا تتسع لأكثر من شخصٍ واحدٍ فالتفت إلى مرافقيه وقال لهم:

- إن مواضع الشرف يجب أن تخصّص لعظماء الرجال، ووسائل الراحة الضرورية يجب أن تُعطى للأضعف.

وأمر أن يؤخذ أرپيوس إلى الغرفة لأنه كان مريضاً. أما هو وبقيّة أصحابه فقد باتوا ليلتهم في العراء تحت سقيفة عند الباب.

كان أول اشتباكه في بلاد الغال مع الهلڤيتيين Helvetian والتيكوريني Tigurini، هؤلاء أحرقوا مدنهم الاثنتي عشرة وقراهم الأربعمائة، وتقدموا من خلال ذلك الجزء الغاليّ الذي يدخل في الإقليم الروماني، مثلما فعل الكمبري والتيوتون من قبلهم، ولم يكونوا بأقل من أسلافهم هؤلاء شجاعة ولا عدداً فهم يبلغون ثلاثمائة ألف بينهم مائة وتسعون ألفاً من المقاتلين. واشتبك معهم لابينوس Labienus، ولكن تحت إشراف وتوجيه قيصر، فهزمهم قرب نهر آرار Arar. وباغت الهلڤيتيون قيصر من حيث لا يتوقّع وهجموا عليه وهو يقود قطعات جيشه نحو مدينة صديقة، على أنه نجح في الانسحاب إلى موقع منيع. وبعد أن نظم صفوفه واستعرض رجاله جيء له بجواده فقال:

- عندما أكسب المعركة سأستخدم جوادي لمطاردة العدوّ. أما الآن فلنتعرّض للعدوّ راجلين.

وهاجمهم راجلاً. وبعد معركة عنيفة طويلة الأمد دارت الدائرة على الجيش الرئيس وطردهم من ساحة القتال. ولكنّ أصعب صفحة في هذه المعركة هي القتال عند موقع العجلات وأمام المتاريس فقد صمد العدوّ في القتال وشاركت النسوة والأطفال في الدفاع إلى أن مُزّقوا إرباً. ولم تنته المعركة إلاّ عند متنصف الليل، وتوّجها بعملٍ مجيد يفوق نصره فيها. فقد جمع كل البرابرة الناجين وكانوا يزيدون على مائة ألف وأجبرهم على العودة إلى مواطنهم التي تركوها ومدنهم التي أحرقوها. فعل

ذلك خوفاً من أن يُقدم الجرمان على احتلالها واستيطانها بعد خلوّها من سكانها.

وكانت حربه الثانية حرب الدفاع عن الغاليين الذين يهدّدهم الجرمان. وقبلها كان قيصر قد بذل جهده في روما على أن يعترفوا بملكهم أريوفستوس Ariovistus حليفاً. إلاّ أن جيرتهم ما كانت تطاق بالنسبة إلى الشعوب الخاضعة للرومان. وكان محتملاً أن يتهزوا أول فرصةٍ تعنّ لهم ليتحلّلوا من التسوية التي تمّت، وليزحفوا على بلاد الغال. ووجد قيصر ضباطه يُحجمون عن التعرّض للعدوّ، ولاسيما الشبان الأشراف الذين انضووا إلى قيادته أملاً في اتخاذ الحرب وسيلة من وسائل الترويح والتسلية والربح المالي المادّي. فجمعهم ونصحهم بأن يعودوا إلى الوطن، وبأن لا يتعرّضوا لمخاطر معركة لا يرغبون فيها ما داموا خائري العزيمة، مفتقرين إلى مقوّمات الرجولة. وقال إنه سيزحف على البرابرة بالفرقة التاسعة لأنه لا يتوقّع أن يجد في عدوّه قوة المراس التي كانت عند الكمبري وأنهم لن يجدوا فيه جنرالاً أقلّ حنكة من ماريوس. فأنابت الفرقةُ التاسعة وفداً ليقدّم له الشكر والتقدير لحسن ظنّه فيهم، وانهالت الفرق الأخرى باللوم والتقريع على ضباطها. وتبعه الجيش كله بحماسة في مسيرة امتدّت عدة أيام حتى عسكر على بعد مائتي فرلنگ من العدوّ. وخان أريوفستوس بعض شجاعته عند اقتراب العدوّ. إذ لم يكن يتوقع من الرومان مهاجمة الجرمان. ولم يكن يفكر بأنهم سينبرون للدفاع عن رعاياهم على أبعد الاحتمالات. ولذلك زادت دهشته من تصرّف قيصر. وسادت جيشه حالة من الرعب زادت منها نبوءات عرّافاتهم اللاتي كنّ يُصدرن نبوءاتهنّ بعد مراقبة تيارات النهر واستقراء الإشارات من أصوات الغدران ومنعطفاتها. فقد أنذرتهم بألا يشتبكوا في قتال مع العدوّ قبل ظهور الهلال الجديد. وكان قيصر قد علم بذلك، ورأى الجرمان قاعدين لا يأتون بحركة تنمّ عن نيّة قتال، ففكر بأن الظرف مناسب له وهم تحت تأثير تلك المخاوف والمحاذير. ووجد من خطل الرأي أن يظل هو قابعاً في معسكره ينتظر ساعة هجومهم فتقدّم من تحكيماتهم ومرتفعاتهم المنيعة حيث عسكروا، فأثارهم عمله واستفزّهم ولم يتمالكوا أنفسهم فانحدروا إليه بعنفٍ وضراوة. فهزمهم ونال نصراً كاملاً وأنشأ يطاردهم إلى مسافة أربعمائة فرلنگ حتى بلغ ضفاف الراين وكان الطريق كلّه مفروشاً بالغنائم وجثث القتلى. ولقي أريوفستوس الأمرّين في عبوره النهر بفلول صغيرة من جيشه. وقيل إن قتلاه بلغوا ثمانين ألفاً.

بعد هذه المعركة ترك قيصر جيشه في مقرّاته الشتوية ببلاد سيكواني Sequani. وقصد الجزء الواقع على نهر پو من بلاد الغال، ويقع ضمن حدود حكمه، لأن نهر روبيكون يفصل بلاد الغال التي هي في الجهة الجنوبية عن باقي إيطاليا. وكان سبب

قدومه الإشراف من موضعه على شؤون معيّنة في روما. فاستقر هناك وعمل على كسب ودّ الناس، وكانت جماعات كثيرة تتقاطر إليه باستمرار فيقضي حاجاتهم ولا يردّ منهم سائلاً. ولم يُصرف واحدٌ من حضرته إلاّ وعهدٌ بالعون في اليد، وأمل بأكثر منه في الغد. ولم يتبيّن پومپي خلال فترة حروب قيصر الغاليّة كيف يستخدم هذا سلاح روما لتحقيق انتصاراته من جهة، وكيف يعمل على خطب ودّ الرومان ويضمن ولاءهم له بالثروة التي يغنمها من تلك الانتصارات.

ولم يطل المقام بقيصر فقد وردت الأنباء تقول إن البلجي - وهم أقوى المفاليين سكنة الجزء الثالث من البلاد - قد شقّوا عصا الطاعة وأعلنوا الثورة وحشدوا الآلاف المؤلّفة من المقاتلين. فأنطلق نحوهم بجيش لجِب وأطبق عليهم وهزم أكبر وحداتهم وأكثرها تراصّاً. كان عددهم كبيراً إلاّ أن أسلوب دفاعهم اتّسم بالضعف. وقد سهّلت على مشاة الرومان عبور المستنقعات والأنهار العميقة أكداسُ الجثث التي تركها العدوّ. وممن ثار عليه جميع القبائل التي تسكن ساحل الأطلنطي، لكنها استسلمت دون قتال فساق جيشه نحو النرڤي Nervii أشرس وأشدّ القبائل عتوّاً في تلك الأنحاء، وبلادهم تغطيها الغابات تماماً. فوضعوا أولادهم ومقتناهم في أحشاء تلك الغابات بعيداً عن متناول العدوّ، وباغتوا قيصر بستين ألفاً وهو غير مستعدّ لهم أثناء ما كان يضرب خيامه، فهزموا خيّالته وطوّقوا فرقتَيه السابعة والثامنة عشرة وقتلوا جميع ضباطهما. ولو لم يختطف قيصر ترساً ويشقّ لنفسه طريقاً بين رجاله أنفسهم للوصول إلى البرابرة، ولولا انحدار الفرقة العاشرة من رؤوس التلال عند إدراكها الخطر فتخترق صفوف العدوّ لإنقاذه، لما سَلِم ذلك اليوم رومانيّ واحدٌ. إلاّ أن المثل الذي ضربه لهم قيصر من جرأته جعلهم يخوضون المعركة بما يفوق الطاقة البشرية من الشجاعة - على حدّ ما مأثور القول - لكنهم لم يستطيعوا رغم هذا زحزحة العدوّ من ميدان المعركة، بل أعملوا فيهم تقتيلاً وتمزيقاً وأولئك يقاتلون قتال دفاع. وذُكر أنه لم يبق من الستين ألفاً الذين دخلوا المعركة غير خمسمائة، ومن أربعمائة من شيوخهم غير ثلاثة.

عندما أُبلغ مجلس الشيوخ الروماني بهذه الانتصارات اقترعوا على أن تقام الأعياد العامة لمدة خمسة عشر يوماً مستمرة وان تُنحر خلالها القرابين مع التشديد على تطبيق ذلك بدقة. وكانت فترة عيد رسمي لم يُتح أطول منها لأيّ نصر روماني سابق. لقد كان ثمّ شعور عظيم بالخطر الذي يهدّد روما جرّاء عصيان وثورة هذا العدد الكبير من الشعوب والأمم دفعةً واحدة. وأعطى تعلّق الجمهور بقيصر هذا النصرَ رونقاً وجمالاً آخر بسبب النجاح الذي حققه.

وعاد إلى مشتاه على نهر بو بعد توطيد الأمن وتثبيت الوضع في بلاد الغال. وقضى الفصل كله يتابع الأحداث في روما وهو في مكمنه. وطلب جميع المرشحين للمناصب العامة معاونته فمدّهم بالمال لتخريب الذمم وشراء الأصوات، وليكونوا بعد فوزهم أدوات طيّعة له يفعلون ما يشاء لهم لأجل زيادة نفوذه. والأنكى من هذا كله أن أبرز وأقوى الشخصيات في روما راحت تنقاد له وترحل إليه زائرة في ليوكا Lueca وعلى رأسهم بومبي وكراسوس وإپيوس، وحاكم سردينيا، ونيپوس Nepus پروقنصل إسبانيا، ووجِد في وقت واحدٍ ومحل واحدٍ مائة وعشرون ليكتوراً، وأكثر من مائتي شيخ. وبنتيجة المداولة التي جرت في مقرّه رسم أن يتولّى بومبي وكراسوس منصب القنصل للمرة الثانية للسنة القادمة وأن يصرف لقيصر مبلغ آخر من المال، وأن تجدّد قيادته خمس سنوات آخر. ولا يسع أيّ عاقل أن يُقرّ بأن من السفاهة والإسراف العظيم أن يُقدِم أولئك الذين منحهم قيصر الأموال الطائلة على إقناع مجلس الشيوخ بمنحه مالاً أكثر هو غنيّ عنه. وفي الواقع إن الموافقة على ذلك تمّت جبراً عنهم وبعد احتجاج وتذمُّرٍ، لا بالإقناع. ولم يكن كاتو هناك فقد أزاحوه في الوقت المناسب بإرساله إلى قبرص. إلاّ أن فافونيوس Favonius المقلّد المتحمّس لكاتو ترك المجلس بعد أن يئس من جرّ المجلس إلى معارضة القرار، وخرج يخطب في الناس بأعلى صوته منّدداً بتلك الإجراءات الشاذّة، فلم يُصغِ إليه أحد. بعضهم ازدراه احتراماً لكراسوس وبومبي والأغلبية استخفّت به إرضاء لقيصر الذي كان معقد آمالهم.

بعد ذلك عاد قيصر إلى قوّاته المعسكرة في بلاد الغال فوجد الحرب قائمة. إذ عبر مؤخراً شعبان من الشعوب الجرمانية نهر الراين. أحدهما يُعرف بـ «أوسيپس» Usipes والآخر «تنتريتاي» Tenteritæ. وذكر قيصر في تعليقاته حربه مع هؤلاء، فقال إن البرابرة أرسلوا سفراء لعقد معاهدة معه ولكنهم هاجموا جيشه والمفاوضات قائمة وتغلّب ثمانمائة منهم على خمسة آلاف من خيّالته فهزموهم. ثم عادوا يرسلون وفداً ثانياً يريدون تكرار الخدعة فقبض قيصر على مندوبيهم وسجنهم وساق جيشه عليهم. فقد وجد من السذاجة أن يركن إلى عهد يقطعه هؤلاء بعد نقضهم المعاهدة الأولى. إلاّ أن تانوسيوس Tanusius يقول: عندما أعلن مجلس الشيوخ أعياد النصر وأمر بنحر الذبائح صرّح كاتو بأنه يرى وجوب تسليم قيصر إلى البرابرة وبذلك يكفرّ عن جريمة نقض العهد التي تقع على عاتق الدولة بنقلها إلى المسبّب المسؤول. وكان من مجموع الذين عبروا الراين أربعمائة ألف تمّ القضاء عليهم إلاّ فلولاً قليلة نجت ولاذت بحمى السوگمبري Sugambri وهو شعب جرماني. وأخضع قيصر هذا الإقليم ليبدأ منه غزو

الجرمان طامعاً في الوقت نفسه بأن يكون أول قائد روماني يعبر الراين على رأس جيشه. فقام بإنشاء جسرٍ فوقه رغم كونه عريضاً جداً، وتيّاره في البقعة التي اختارها كان عنيفاً دفّاقاً تنحدر مياهه حاملة جذوع الأشجار وغيرها من الأخشاب فتصطدم بأُسس الجسر وتهزّه هزّاً. فما كان منه إلاّ أن دقّ دعامات خشبية ضخمة في أعماق النهر قبل الجسر بمسافة لإيقاف وحبس هذه الكتل الطافية المنحدرة مع التيار. وبهذه الوسيلة ألجم المجرى وأكمل الجسر، كذلك لا يصدّق من رآه أنه مجهود عشرة أيام لا غير، ومرّ الجيش فوقه بدون عائق. ففرّ السيوفي Suevi من أمامه وهم أشدّ المقاتلين الجرمان تهوّراً وإقداماً حاملين معهم كل مقتناهم ولاذوا بأكثف الوديان شجراً. فأحرق بلادهم وساعد الموالين للحكم الروماني ثم قفل راجعاً إلى بلاد الغال. ولم يمكث في جرمانيا غير ثمانية عشر يوماً.

على أن غزوة بريطانيا كانت أعظم دليل على شجاعته. وبذلك يكون أول من أنزل أسطولاً في المحيط الغربي وأول من مخر عباب الأطلنطي بجيش. لقد غزا جزيرة جعلت المعلومات القليلة عنها أمرَ وجودها موضع أخذٍ وردّ بين المؤرّخين. وكان الكثيرون يتساءلون أهي مجرّد اسم وخيال أم هي حقيقة. ويمكن القول إنه وسّع رقعة الإمبراطورية وجعلها تمتدّ إلى ما وراء حدود العالم المعروف. لقد عبر إليها مرّتين. واتخذ لوصوله الساحل المقابل لها من بلاد الغال. وفي المعارك العديدة التي خاضها مع أهل الجزيرة كانت الخسارة التي أنزلها أكثر من الخدمة التي اسداها لنفسه، فسكان الجزيرة في حال يرثى لها من الفقر ولا يملكون ما يصلح للسلب والغنيمة. وهكذا وجد نفسه عاجزاً عن وضع خاتمة لهذه الحرب تتفق وأهدافه. واكتفى بأخذ رهائن من ملكها وفرض جزية عليه وغادر الجزيرة. وعند وصوله بلاد الغال كانت تنتظره رسائل عديدة من أصحابه معدّة لإرسالها إليه عبر البحر. وعلم منها بوفاة ابنته وهي تضع مولودها من پومپي، فكان حزنه وحزن پومپي عليها بالغاً. ولم يكن أشياعهما بأقل حزناً واضطراباً فقد شعروا أن في موتها القضاء على حلفٍ أبقى الإمبراطورية الرومانية العليلة حتى تلك الساعة في حالة من السلام والهدوء.

وحمل الجمهور نعش يوليا، رغم معارضة التريبونات، إلى حقل مارس، وهناك أقيمت مراسم التشييع وفي أرضه دُفنت.

تضخّم جيش قيصر إلى درجة كبيرة حتى اضطر إلى توزيعه على عدّة معسكرات ومقرّات شتوية. سافر هو إلى إيطاليا كعادته. وفي أثناء غيابه اجتاحت بلاد الغال ثورة

عامة، وزحفت من سائر الأرجاء جيوش كثيرة على المقرّات الرومانية وحاولت الاستيلاء على القلاع التي اعتصموا فيها. وتمكنت أقوى وأكبر مجموعة من المغيرين بقيادة أبريوريكس Abriorix من القضاء على كوتا Cotta وتيتوريوس Titorius مع كل رجالهما. وحاصرت قوات من المحاربين الأشداء تناهز ستين ألفاً الفرقة التي يقودها شيشرون وكادوا يقتحمون معسكرها عنوة، ولم يبقَ جندي روماني فيها إلاّ وهو جريح منهوك القوى إلى حدّ العجز. لقد ظلوا يدافعون عنها دفاع المستميت وكان قيصر بعيداً عنهم بمسافة طويلة، على أنه أسرع بجمع سبعة آلاف جندي وخفّ لنجدة المحصورين. وعلم الأعداء بقدومه فخفّوا لاعتراض سبيله وهم على ثقة من سهولة قهر هذه الحفنة من الرجال. وأراد قيصر أن يضاعف ثقتهم هذه فأوهمهم بأنه يتحاشى القتال وهو في الوقت نفسه يواصل سيره، حتى وجد موضعاً يصلح لاشتباك قليل من الرجال مع العديد منهم، فضرب معسكره فيه وأصدر أمراً قاطعاً لجنوده بعدم التعرّض للعدوّ. وأمرهم بإقامة متاريس أعلى من المعتاد، وتقوية الأبواب. وتلك مظاهر ضعف قصدوا بها استهانة العدوّ بهم. ولحق بهم العدوّ وهو على أتمّ الاطمئنان وبدون نظام فباشروا هجومهم فخرج إليهم قيصر وهزمهم بعد أن ألحق بهم خسارة جسيمة. وأطفأت هذه المعركة معظمَ الثورة في تلك الأقسام من بلاد الغال. وقام قيصر خلال فصل الشتاء بزيارة كلّ جزءٍ من البلاد، متخذاً الاحتياطات لإحباط المكائد بكثير من الحزم واليقظة. ووردته ثلاث فِرق لتسدّ مسدّ ما فقده اثنتان منها زوّده بها پومپي من الجيش الذي يقوده، والثالثة تمّ تشكيلها في بلاد الغال التي تقع على الپو. ولكن ما مرّ حين من الوقت إلاّ وأخرجت بذور الحرب شطأها - تلك البذور التي زُرعت خفية منذ زمن طويل - فانتشرت على يد أقوى وأشجع رجال تلك الشعوب المحاربة، وأسفرت عن نفسها فإذا بها أخطر وأعظم ما شاهدته تلك الأصقاع من حروب سواء بعدد الرجال الذين شاركوا فيها وكلهم في شرخ الشباب وبأحسن العُدّة والسلاح والمال الذي جُمع لضمان مواصلة الحرب، أو بمناعة المدن، أو بوعورة البلاد التي جرت المعارك على أرضها. كان الوقت شتاء والأنهار متجمّدة، والغابات مغطاة بالثلوج، والماء يسيح فوق الأراضي المنخفضة ويخفي معالم الطرق في بعض المواقع تحت طبقة كثيفة من الثلج، وفي مواقع أخرى جعلت المستنقعات الغارقة بالماء والمجاري العديدة كلَّ سبيلٍ ضائعاً أو غير واضح. بدا قيصر أمام كل هذه العقبات حائراً، فمن المتعذّر وغير العملي أن يحاول الانقضاض على العُصاة في مثل هذه الظروف. لقد ثارت عدة قبائل بصورة جماعية بزعامة قبيلتي أرڤرني Arverni وكارنوتيني Carnutini. وكان القائد الأعلى

لهذا الاتحاد ڤرجنتوريكس Vergentorix الذي قتل الغاليّون اباه لشكّهم في أنه كان يطمح إلى السلطة المطلقة.

قسم هذا القائد الغاليّ جيشه إلى عدّة وحدات ونصّب عليها القوّاد والآمرين واجتذب إلى صفّه كل ما جاوره من البلدان إلى الأقاليم التي تتاخم نهر «أرار». وكانت قد بلغته أنباء المعارضة التي يلقاها قيصر في روما فرأى أن يزجّ بكل بلاد الغال في هذه الحرب. ولو تأخّر في تنفيذ خطته هذه قليلاً وباشرها عند انشغال قيصر بالحرب الأهليّة لكانت إيطاليا ستتعرّض إلى عين الخطر الذي جاءها من غارة الكمبري الكاسحة. لكنّ قيصر الذي فاق الرجال جميعاً بموهبته حُسن استخدام كل ما يمتّ إلى الحرب بصلة، ولاسيما اختياره وقت المعركة المناسب، قفل عائداً من حيث أتى حال علمِه بنبأ الثورة. فبرهن للبرابرة أن جيشاً يتقدّم نحوهم في هذا الفصل القاسي وبمثل هذه السرعة، هو جيش لا يُقهر. لم يكونوا ليتوقّعوا أن يصل إليهم ساعٍ أو عدّاء برسالة منه، وها هوذا الآن بلحمه ودمه مع كامل جيشه يدوّخ بلادهم ويدمّر قِلاعهم ويُخضع مدنهم ويبسط حمايته على الموالين له. وانداحت الثورة حتى شملت الإيدوي Edui الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حتى ساعة الثورة إخواناً للرومان فانضمّوا إلى العُصاة، مما أضرّ كثيراً بمعنويات جنوده. فتحرّك نحوهم واجتاز بلاد ليگونيس Ligones قاصداً الوصول إلى حدود سيكواني حلفائه الذين كانوا أشبه بحصن أو سدّ يحمى إيطاليا من قبائل الغال الأخرى. وهنا أطبق عليه العدوّ وطوّقه بالألوف المؤلّفة. ولم يكن هو أيضاً بالراغب عن القتال. وبعد معركة طاحنة ووقوع كثير من القتلى فاز بالنصر الكامل، وإن أُصيب في بدء المعركة ببعض النكسات على ما يبدو. ويريك الأروڤيني Aruvini سيفاً قصيراً معلّقاً في الهيكل يزعمون أنه أُخذ من قيصر. وقد رآه قيصر فيما بعد فابتسم. وعندما أشار أصحابه عليه برفعه لم يقبل فقد اعتبره مكرّساً للآلهة.

بعد هذه الهزيمة هرب عدد كبير من البرابرة مع ملكهم إلى مدينة تسمّى أليسيا Alesia فألقى قيصر عليها الحصار وكان ارتفاع أسوارها وعدد الرجال المدافعين عنها كبيراً حتى بدا وكأن اقتحامها متعذّر. ثم جوبه خارج أسوارها بخطر لم يتصوّره. فقد جمع الغاليّون من كل قبيلة نُخبةً من رجالها زوّدوهم بأحسن السلاح وتقدموا لرفع الحصار عن المدينة وكان عددهم ثلاثمائة ألف والمدافعون داخل المدينة لا يقلون عن مائة وسبعين ألفاً. وهكذا وجد قيصر نفسه محصوراً بين الجيشين فاضطرّ إلى حماية نفسه بجدارين أقامهما بمواجهة المدينة وبمواجهة الجيش المنقذ، مدركاً أن اتحاد القوّتين معناه دماره التام. إن الخطر الذي أحدق به أمام آليسيا رفع من صيته وشهرته

من وجوه عدّة وأتاح له فرصة ضرب أمثلة عملية لبسالته وبراعته القيادية، فرصة لم تُتحها له أية حرب أخرى. إن المرء ليعجب حقاً كيف اشتبك وتغلّب على هذه الألوف العديدة من الرجال خارج المدينة دون أن ينتبه له المدافعون عنها، بل الأنكى من هذا أن الرومان الذين كانوا يحرسون جدارهم المقابل للمدينة ظلّوا يجهلون ما حصل ولم يدروا بالنصر الذي أحرزوه حتى سمعوا صيحات الرجال وولولة النساء في المدينة، وفي تلك اللحظة بدأوا يرون إخوانهم من بعيد وهم يعودون إلى معسكرهم محمّلين بأكداس من التروس المكفّتة بالذهب والفضة، ومثلها من الدروع الملطّخة بالدماء، فضلاً عن الكؤوس والخيام المصنوعة على الطرز الغالي. بهذه السرعة المذهلة انحلّ هذا الجيش العرمرم وتلاشى مثل حلم أو خيال، وقُتل معظم رجاله في ميدان القتال. أمّا المدافعون عن أليسيا فلم يروا بدّاً من الاستسلام لقيصر بعد معاناتهم الأمرَّين. ولبس ڤرچنتوريكي اللولب المحرّك لكل هذه الحروب خير ما لديه من دروع وتقلّد أحسن السلاح وزيّن حصانه وخرج من باب المدينة متجهاً نحو قيصر. وكان هذا جالساً فترجّل بالقرب منه ونزع درعه واقتعد الأرض عند قدميه صامتاً حتى اقتيد واحتُفِظ به لموكب النصر.

كان قيصر قد قرّر منذ أمد بعيد إسقاط پومپي، كما كان پومپي قد اعتزم أن يفعل المثل بقيصر. ذلك لأن الخوف من كراسوس الذي كان عامل الصفاء والتهادن فيما بينهما لم يعد له وجود بعد أن قُتل هذا في بلاد الپارثيين.

فلم يكن لمن يريد أن يجعل نفسه سيّد روما بلا منازع إلاّ أن يتغلّب على منافسه فحسب. وكانت الضمانة الوحيدة لبقاء الواحد هو أن يسبق الآخر في إزاحة ذلك الذي يخشاه. ولم يكن پومپي يشعر بتلك المخاوف إذ ظلّ حتى الزمن القريب يستهين بقيصر ويستصغره لاعتقاده أنه قادر على التطويح به بالسهولة التي رفعه بها. إلاّ أن قيصر الذي لم يحد عن خطته الأولى ضد منافسه انسحب إلى خلوةٍ كالمصارع الحاذق، ليعدّ نفسه للنزال جاعلاً الحروب الغاليّة ميدان تمرينه. فحقق التقدم المنشود في قابليّاته العسكرية كما ضاعف مجده بأعماله العظيمة حتى عُدّ صِنْوَ پومپي عند المقارنة. ولم تعنّ له فرصة إلاّ انتهزها، سواء أتلك التي يتيحها له پومپي أم التي تُتحفه بها أحداث الزمان، أو فساد الحكم في روما. فقد بلغت الحالة حدّاً صرتَ معه تجد كل المرشحين لمناصب الدولة بدون استثناء ينفقون الأموال الطائلة لرشوة الناس علانية وبدون حياء. فيأخذ الناخبون ما قُسِم لهم، ولا يكتفون بإسناد راشيهم عن طريق إعطائه أصواتهم بل يدعمونه بأقواسهم وسيوفهم ومقاليعهم إذا اقتضى الأمر. وهكذا فبعد أن لطّخوا ميادين

الاقتراع عدّة مرّات بدماء الناخبين تركوا المدينة دون حكومة، لتهتزّ كسفينة دون ملّاح يقبض على سكّانها ويديره. ومن كان يملك شيئاً من العقل تراه شاكراً حامداً لو انتهى عهد الفوضى الجاهلية العاصف بما لا أسوأ من الحكم الملكي المطلق. وبلغت الجرأة ببعضهم إلى التصريح بأن العلاج الناجع للحكم هو النظام الملكي، وأن عليهم أن يتقبّلوا هذا العلاج من يد أرقّ وأرحم الأطباء، يقصدون پومپي، الذي تظاهر بالرفض لكنه بذل في الواقع أقصى الجهود حتى يُنصَّب دكتاتوراً. وأدرك كاتو ما يجول في رأسه فأقنع مجلس الشيوخ بإعلانه قنصلاً أوحد، فلعلّ عرض نوع من الملكية المقيّدة بالقانون يصرف نظره عن اطّلاب الدكتاتورية. وزادوا على ذلك فصوّتوا على استمراره في حكم إقليمَيه إسبانيا وأفريقيا، فحكمهما عنه نوّاب له. واقترعوا أيضاً على الاستمرار في الإنفاق على جيوشه من الخزينة العامة وخصّصوا له ألف تالنت سنوياً.

فما كان من قيصر إلاّأن وطلب من مجلس الشيوخ منصب القنصلية مع تمديد حاكميّته على الأقاليم الغاليّة. ولم يتدخل پومپي في الطلب بادئ ذي بدءٍ. إلاّ أن مارچللوس ولنتولوس عارضا الطلب وكانا من أشدّ مبغضي قيصر لا يتورّعان عن اللائق وغير اللائق إذا كان في ذلك إهانته وتحقيره. فقد ألغيا امتياز المواطنة الرومانية الممنوح لأهالي كوميوم الجديدة Comun وهي مستوطنة أسّسها قيصر في بلاد الغال. وأمر مارچللوس الذي كان وقتئذ بمنصب القنصل أن يحضروا أحد شيوخ تلك المستوطنة أثناء وجوده في روما فجُلد. وقال له إنه أحدث فيه العلامة كدليل على أنه ليس مواطناً رومانياً، وأشار عليه أن يكشف عن آثار الجلد لقيصر عند عودته.

وبعد انتهاء مدة قنصليّة مارچللوس بدأ قيصر يُمطر هداياه على كل ذوي الوظائف العامة من الغنائم الحربية. وأنقذ كيوريو التريبيون من ديونه الكثيرة، وأعطى پاولوس الذي كان قنصلاً ألفاً وخمسمائة تالنت فبنى بها دار القضاء الفخمة الملاصقة للفوروم، وحلّت محلّ الصرح المشهور باسم فولڤيان Fulvian. فأدرك القلق پومپي من هذه التمهيدات وبادر إلى اتخاذ الخطوات الضرورية بصورة مكشوفة، بنفسه أو عن طريق أصحابه، لاختيار خلفٍ لقيصر. وأرسل يطلب منه إعادة الجنود الذين استعارهم منه لمواصلة الحرب في بلاد الغال. فلبّى قيصر طلبه ومنح كل جندي هبة قدرها مائتان وخمسون درهماً. ولم يكن ما أشاعه الضابط الذي عاد بالجنود إلى پومپي بالمنصف أو الجميل، وأخذ يتزلّف إلى پومپي باختراع الأكاذيب كقوله إن جيش قيصر يكنّ له الحب والتقدير وهو طوع بنانه. وإن كانت أموره في روما ليست على ما يرام بفعل بعض الحسّاد وحالة الحكومة التاعسة، فحسب الجنود أن يصلوا إلى إيطاليا فإنهم سيعلنون

ولاءهم له في الحال. إن قيصر أرهقهم بحملاته المتعددة فأصبح وضعهم لا يُطاق كما أنهم يتوجّسون خيفة من طموح قيصر إلى حَدّ تهيئة نفسه للعرش الملكي.

فاختال پومپي بنفسه زهواً وترك جانباً استعداداته العسكرية اطمئناناً منه إلى هذه الأنباء المكذوبة، وبدا وكأنه لا يحسّ ولا يخشى خطراً. واقتصر في محاربته على الخطب وأصوات الناخبين وهو ما لم يكن يهتمّ به قيصر. وأُثر عن ضابط له أرسله إلى روما أنه وقف أمام مجلس الشيوخ يوماً. وعندما ذكروا أمامه أن الشيوخ لن يمددوا حكم قيصر ضرب غِمد سيفه بيده وقال:

- هذا سيمدّده.

على أن المطالب التي عرضها قيصر كانت معقولة، تفوح منها رائحة الاعتدال واللطف. فقد اقترح أن يضع سلاحه جانباً وأن يحذو پومپي حذوه فيعودا مواطنين عاديين، ويرجع كلاهما إلى الشعب لإصدار حكمه فيهما. وقال إن أولئك الذين اقترحوا أن ينزعوا سلاحه وأن يثبّتوا پومپي في سلطاته التي يتقلّدها الآن إنما يثبّتون شخصاً واحداً في سلطة لا حدود لها، تلك السلطة التي اتهموا الشخص الآخر بأنه يريدها لنفسه.

وعندما وضع كيوريو باسم قيصر هذه المقترحات أمام الشعب ارتفع له الهتاف عالياً ورمى بعضهم قلائد الزهر إليه وشيّعوه متوّجاً بالزهر كما يشيّعون المصارعين الفائزين. وأبرز أنطوني، وكان آنذاك تريبوناً، رسالة من قيصر بهذا المآل وتلاها، وعارضها القنصلان بشدّة. إلاّ أن سكيپيو حمو پومپي أقترح على الشيوخ ما يلي:

«إن لم يضع قيصر سلاحه في غضون فترة زمنية محدّدة فإنه يُعتبَر عدوّاً لروما»

ووضع القنصلان الاقتراحين التاليين في المناقشة:

«هل يسرّح پومپي جنوده؟» ثم «هل يسرّح قيصر جنوده؟»

لم توافق على المقترح الأول غير قلّة فسقط. ولكن حصل شِبه إجماع على المقترح الثاني. على أن أنطوني قابل ذلك باقتراح آخر وهو: «أن يتخلّى كلاهما عن منصبَيهما». فوافق الجميع عليه إلاّ فئة قليلة.

وبدا سكيپيو عنيفاً للغاية. بينما تعالى صوت القنصل لنتولوس يقول:

«إنكم لستم بحاجة إلى الاقتراع حول لصّ، وإنما بحاجة إلى سلاح».

وتأجّل الاجتماع في ذلك اليوم. وظهر الشيوخ في ثياب حِداد إشارة إلى ما يشعرون به من حزن بسبب تفرّق كلمتهم.

ووردت رسائل أخرى من قيصر أكثر اعتدالاً وتنازلاً. اقترح فيها أن يستعفي من كل منصبٍ ويحتفظ ببلاد الغال التي هي داخل جبال الألب، مع إيلليريكوم وفرقتين عسكريتين إلى أن يحين موعد الانتخابات القنصلية فعندئذ يرشّح نفسه. وحاول شيشرون جهده (وكان قد عاد من صقلية) إصلاح ذات البَين وإلانة قناة پومپي، وكان هذا يميل إلى الموافقة على مقترحات قيصر خلا طلبه قيادة فرقتين. أخيراً استخدم شيشرون وسائل إقناعه مع أصحاب قيصر ليقبل بحكم الإقليمين مع الاحتفاظ بستة آلاف جندي فقط، لكي تتمّ تسوية النزاع، ومال پومپي إلى الموافقة. إلاّ أن لنتولوس القنصل رفض الإصغاء إلى هذه التسوية وطرد أنطوني وكيوريو من القاعة مشيّعين بالإهانات. فزوّد قيصر بالذرائع الكافية والمقبولة ليطلع على جنوده فوراً فيثيرهم ويهيج مشاعرهم. فهاهما شخصان حسنا السُّمعة وصاحبا نفوذٍ اضطرا إلى الهروب بعربة أجرة وثياب العبيد تنكّرا بها حتى خرجا من روما.

لم يكن في حوزة قيصرٍ آنذاك غير ثلاثمائة من الخيّالة وخمسة آلاف من المشاة، لأن القسم الأكبر من جيشه قد تخلّف وراءه شمال الألب. وكان من المقرّر أن يأتي به ضباط تلقّوا منه تعليمات خاصّة بهذا الشأن. وقد وجد أن الخطوة العملية الاولى التي سيخطوها نحو هدفه المرسوم لا تتطلّب منه قوّات كثيره، وأن ما يحتاج إليه هو المفاجأة لتصيب جرأته أعداءه بالذهول، وأن من الأفضل له بث الذعر في نفوسهم بإقدامه على عملٍ لا يتوقّعونه، لا محاولة التغلب عليهم بشكل اعتيادي، فإن الاستعداد لذلك سيوقظهم من سُباتهم. فأمر قوّاده وضبّاطه بأن يتوجّهوا إلى أرمينوم Arminum بسيوفهم فقط وبلا سلاح آخر، وأن يحتلوها بأقل ما يمكن من الضجّة وسفك الدماء. وأرمينوم مدينة غاليّة كبيرة. أناب هورتنيوس Hortenius عنه في هذه العملية وقضى يومه مختلطاً مع الناس متسكّعاً أو متفرّجاً على المصارعين وهم يقومون بتمارينهم. وقبل أن يجنّ الليل بقليل اختلى بنفسه وبعدها عاد إلى المجلس في القاعة وتحدّث مع مدعوّيه للعشاء. وعندما انتشر الظلام ترك المائدة معتذراً من المدعوّين، وطلب منهم أن يبقوا حتى يعود (كان قبل قيامه قد نبّه قلّةً من أصحابه بأن يتبعوه متسلّلين واحداً بعد الآخر وأن يسلكوا طُرقاً مختلفة). وركب هو عربة أُجرة مضت به في الطريقِ مسافةً، وبعدها ألوى عِنان جيادها إلى أرمينوم. وبوصوله إلى نهر روبيكون الذي يفصل جزءي بلاد الغال الألبيّة عن الإيطالية. توقف وراحت به الهواجس والأفكار شتّى المذاهب. ها هو الآن يركب الخطر الفعلي ويبدأ طريقاً لا يمكن النكوص عنه. وزاد اضطرابه وهو يفكر في عواقب المغامرة التي سيُقدِم عليها وفي نتائجها الخطرة. تثبّت من الطريق

ثم تريّث وأخذت الآراء المختلفة تصطرع في نفسه، مرّة يقرّر كذا، ومرّة يقرّر كذا، دون أن ينطق لسانه بكلمة. كان يصاب بالجنون عندما تصل به الحيرة وتقلّب الغايات حدّهما الأقصى. ثم طفق يبحث الأمر مع أصدقائه، ومنهم أسنيوس پوليو Asinius Pollio، وتساءل كم سيجرّ عبوره النهر من مصائب على البشر، وأيّ آثارٍ ونتائج له ستحمّلها الأجيال القادمة؟

أخيراً نفض عن رأسه هذه الأفكار، وهو منفعل، واستسلم للقدر مستخدماً المثل الذي تجده متحيّراً على شفتي أولئك الذين يستعدّون لقذف أنفسهم في مغامرة خطيرة جريئة: «لقد أُلقِيَ الزّهر».

وبهذه العبارة توجّه إلى النهر وعبره وأسرع إلى أرمينوم فبلغها قبل أن يطلع النهار ودخلها. وقيل إنه حلم في الليلة السابقة لدخولها حُلماً دنِساً، فقد رأى نفسه وهو يواقع أمّه.

بعد استيلائه على أرمينوم فُتحت الأبواب على آخر مصاريعها - كما يقول المثل - لاستقبال الحرب في كل بقعة وزاوية من الأرض والماء. وديست حدود الأقاليم مثلما ديست حدود القوانين والشرائع. وما كان لأحد أن يتصوّر فرار الرجال والنساء في إيطاليا من مدينة إلى أخرى مذعورين كما حدث في الأزمان الغابرة، وتسود الفوضى قاطبة البلاد حتى لكأنّ المدينة تترك موقعها لتلوذ بالمدينة الأخرى. وتدفّقت سيول اللاجئين على روما فأصبحت تموج بهم. وعجز القضاء والحكّام عن القيام بواجباتهم وتمشية أمور الدولة ولم تفد بلاغة أفصح الخطباء في تهدئة الحال. كانت المدينة أشبه بحطام سفينة بائسة الحظّ، حطّمها عُنف العاصفة. وثارت الخواطر في الناس وتضاربت الآراء وانكشفت خفايا الضمائر عن النزوات المتطرّفة. فلم يعد التائقون إلى أي محاولة تغيير يخفون مشاعرهم إن هم تلاقوا في هذه المدينة الكبيرة بأفراد الحزب المناوئ القلق الحزين، فيثيرون الجدال والشحناء بالإفصاح عن ثقتهم التامة بنتائج الأحداث الجارية. وزاد پومپي اضطراباً على اضطرابٍ وقلقاً على قلق من إلحاح الآخرين وثرثرتهم. بعضهم يقول له إنه يستأهل كل ما يعانيه الآن، لأنه سلّح قيصر ضد الحكومة وضدّ نفسه. وآخرون يلومونه لأنه تغاضى عن لنتولوس عند إهانته قيصر بعد أن عرض هذا التنازلات الكثيرة وتقدّم بالمقترحات المعتدلة لحسم النزاع وإنهاء الخلاف. وطلب منه فاڤونيوس أن يدقّ الأرض بقدمه! (مذكراً إياه بزهوه في مجلس الشيوخ، حين طلب منهم أن لا يشغلوا بالهم بالاستعداد للحرب لأنه قادر بخبطة واحدة من قدمه أن يملأ إيطاليا كلها بالجنود). والواقع أن پومپي كان آنذاك يملك من

الجنود ما يزيد على قوات قيصر. إلاّ أن التقارير الكاذبة والإنذارات المُبالغ فيها حالت بينه وبين عمل ما يريد. فقد أُنبئ بأن العدوّ سيداهمه وشيكاً بعد أن سحق كل مقاومة اعترضته، فوهى عزمه وترك نفسه تنساق وراء الصيحة العامة وأصدر بياناً أعلن فيه أن المدينة في حالة فوضى شاملة. ثم غادرها بعد أن أمر الشيوخ بتركها واللحاق به، وأن لا يبقى أحدٌ ممن لا يفضّل الاستبداد على الوطن والحرية.

وفرّ القنصلان بسرعة، من غير أن يقدّما القرابين المعتادة في مثل هذه الظروف. واقتفى أثرهما معظم الشيوخ، حملوا معهم أموالهم ومقتناهم وخفّوا مسرعين إلى ترك المدينة، مثل سارق جاره. وجرّ التيّار العام عدداً من مساندي قيصر، فنبذوا جانباً مشاعرهم الخاصّة وسط الذعر الشامل وهربوا مع الهاربين. إنه لممّا يثير الحزن أن ترى تلك المدينة وقد عمّتها الفوضى وسادها الاضطراب مثل السفينة التي أسقط في يد ملاّحيها فتركوها تسير على هواها لتصطدم كما شاء لها القدر بأية صخرة تعترضها. مع هذا كلّه ورغم الحالة المؤلمة كنت ترى الناس الهاربين لا يفرّقون بين مسقط رأسهم المتروك ومنفاهم الذي أُجبروا عليه، فهربوا من روما كأنهم يهربون من معسكر لقيصر، كلّ ذلك ثقةً منهم بپومپي وإكراماً له. حتى أن لابينوس Labinus الذي كان من أخلص أصدقاء قيصر، وأحد قوّاده الكبار الذين حاربوا معه بتفانٍ في بلاد الغال، تخلّى عنه والتحق بپومپي. وبادر قيصر فألقى الحصار على كورفينيوم Corfineuim التي كانت تحميها ثلاثون كتيبة بإمرة دوميتيوس. هذا القائد أدركه اليأس من جدوى الصمود والاحتفاظ بمدينته فطلب من طبيب في حاشيته أن يسقيه سُمّاً، فناوله جرعة وكان يؤمّل أن يقضي بها على نفسه. وما إن استقرّت الجرعة في جوفه حتى أقبل من يخبره مؤكداً أن قيصر أظهر منتهى الرحمة وصفح عن كل الأسرى الذين وقعوا في يده، فطفق القائد يندب سوء حظه ويلوم تسرّعه في قراره، فطيّب الطبيب خاطره قائلاً إنه أعطاه عقاراً منوّماً ولم يعطه سُمّاً. فكان فرحه عظيماً وهبّ من سريره وقصد قيصر وأعطاه عهد الإخلاص. على أنه انحاز إلى جانب پومپي فيما بعد. إن هذه الأنباء هدّأت من رَوع الباقين في روما وجعلتهم يعدلون عن تركها، وأعاد إليها بعض مَن غادرها.

وضمّ قيصر إلى جيشه جنود دوميتيوس. وكان هذا ديدنه في كل مدينة يفتحها، فتزيد قوّاته على حساب قوّات پومپي. حتى إذا شعر بأنه يمتلك القوة الكافية للتعرض تقدّم يريد پومپي فلم يشأ هذا، وانسحب إلى برونديزيوم بعد أن أرسل القنصلين مع عدد من الجنود قبله إلى ديراكيوم. وركب پومپي متن البحر عندما علم باقتراب قيصر كما ورد ذلك في سيرته مفصّلاً. ولو كان قيصر يملك سفناً لما تردّد في ملاحقته، إلاّ

نه قفل راجعاً إلى روما وقد أصبح سيّد إيطاليا بلا منازع ومن دون أن يريق قطرة دمٍ في غضون ستين يوماً فقط، فوجد المدينة هادئة خلافاً لما توقّع. وكان فيها عدد كبيرٌ من شيوخ فواجههم بكلّ احترام وخاطبهم باللهجة اللائقة. وطلب منهم أن يبعثوا باقتراحه تالي إلى پومپي: أنه يرضى بأية شروط معقولة لحسم النزاع وإجراء الصلح، فلم يشاؤوا ذلك إما خوفاً من پومپي الذي تخلّوا عنه، وإما لأنهم لا يعتقدون بأن قيصر جادٌّ في عروضه، وإنما قصد أن يظهر أمامهم شخصاً معتدلاً معقولاً.

وحاول ميتيللوس التريبون منعه من سحب المال من الخزينة العامة، مستنداً إلى نصوص القوانين التي تمنع ذلك، فقال قيصر:

«للقانون زمان وللسلاح زمان. إن كنتُ لا أعجبك فانصرف من هنا، الحرب لا تسمح بحرية الكلام. فإن وضعت سلاحي جانباً وحققت السلم فتعال واخطب ما شاءت لك الخطابة».

وأردف يقول:

«واسمع هذا منيّ، إنك تريد أن تحدّ من حقيّ المشروع. وأنت في الواقع وكلّ من وقف ضدي، وهم الآن في قبضتي، قد يعاملون المعاملة التي أرتئيها أنا».

ثم توجّه إلى الخزينة يريد فتحها فلم يجد مفاتيحها فاستقدم الحدّادين وأمرهم بكسر الأقفال. فعاد ميتيللوس يعارض في ذلك وراح بعضهم يشجعه. فارتفع صوت القيصر منذراً ومهدّداً إياه بالموت إن بدر منه ما يزعجه وقال: «واسمع منيّ. لعلّك لا تعلم أيها الشاب أن القول لأكرهُ عندي من الفعل».

فما كان من ميتيللوس إلاّ أن انسحب خوفاً. وراح بعد ذلك ينفّذ كلّ أوامر قيصر في تأمين نفقات الحرب.

وزحف نحو إسبانيا، عازماً قبل كل شيء على سحق أفرانيوس Afranius وڤارو Varro نائبي پومپي. وكان يرمي من ذلك إلى الاستيلاء على الجيوش التي يقودانها وانتزاع الأقاليم التي يحكمانها. وبذلك يكون في وضعٍ جدّ ملائم لمنازلة پومپي دون أن يخشى عدوّاً خلفه. في هذه الحملة تعرّض شخصُ قيصر لمخاطر كثيرة بسبب الكمائن التي نُصِبت له، كما تعرّض جيشه للجوع بسبب نقص الأقوات، لكنه ظلّ يتعقّب عدوّه ويستفزّه للقتال، ويحاصر استحكاماته ويدكّ قلاعه، حتى وفّق أخيراً إلى الاستيلاء على المعسكرات وعلى الجيش ولم يسلم غير القادة الذين فرّوا والتحقوا بپومپي.

وعند عودته إلى روما نصحه حَمِيّه بيزو بإرسال وفد الي پومپي للمفاوضة في الصلح، إلاّ أن إيساوريكوس Isauricus ثناه عن ذلك لأجل أن ينال لديه حظوة. وبعد هذا أعلنه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ومنحه الصلاحيات اللازمة لممارسة هذا المنصب. فدعا المبعدين إلى العودة، وردّ حقوق المواطنة إلى أولاد أولئك الذين وقعوا تحت طائلة سيلّلا وخفّف عن كاهل المثقلين بالديون بإصداره قانوناً يخصم به جزءاً من الفوائد المتراكمة، وأصدر قوانين أخرى بمثل هذه الروح السمحاء ولم تكن بالكثيرة. ثم استقال من منصب الدكتاتور بعد أحد عشر يوماً من تولّيه واكتفى بإعلان نفسه قنصلاً مع سرڤيليوس إساوريكوس. ثم ترك روما إلى ميدان القتال. وأغذّ السير تاركاً جيشه وراءه، مصطحباً ستمائة فارس منتخبين وخمس فرقٍ فقط. وبهذه القوة الصغيرة أبحر في أوائل شهر كانون الثاني (الذي يوافق تقريباً الشهر الأثيني المسمّى پوسيديون) وبعد اجتيازه البحر الأيوني استولى على أوريكوم Oricum وأپولّونيا Apollonia. ثم أرسل سفنه إلى برندبزيوم لتنقل بقيّة جيشه المتخلّف في المسيرة. إن رجال هذا الجيش لم تعد في أجسامهم حيوية الشباب واندفاعه، كما أن الملل قد شاع في نفوسهم من الحروب المتواصلة، فلم يسعهم وهم في سيرهم إلاّ أن يشكوا من الحال ومن قيصر فيقولون:

– أين؟ ومتى سيدعنا قيصر هذا نعيش في دعة وسلام؟ إنه لينقلنا من موضع إلى موضع، ويستخدمنا كأننا غير قابلين للعطب والتلف، وهو لا يملك شعوراً بالإرهاق والتعب. إن حديدنا نفسه قد فسد من كثرة الضرب والقراع. ألا فليداخلنا بعض الرفق بدروعنا وصفائحنا التي كادت تبلى من كثرة الاستعمال. وجراحنا ولا نذكر غيرها يجب أن تحمله على التفكير بأن من يقودهم هم كائنات حيّة لا فرق بينهم وبين سائر البشر في تعرّضهم للألم وإحساسهم بالعناء. إن الآلهة نفسها لا تقوى على ايقاف فصل الشتاء، ولا أن تمنع هبوب العواصف في اوقاتها المقررة. ومع هذا فهو يدفعنا دفعاً إلى الأمام كأننا لا نتعقّب العدوّ بل نفرّ من وجهه!

بهذا كانوا يتحدثون وهم يسيرون متثاقلين نحو برنديزيوم، حتى إذا بلغوها ووجدوا قيصر قد سبقهم إلى الإبحار انقلبت مشاعرهم رأساً على عقب وراحوا يلومون أنفسهم قائلين إنهم خانوا جنرالهم. وعاقبوا ضبّاطهم لتباطئهم في السير، وصعدوا إلى المرتفعات المشرفة على البحر باتجاه إيپيروس وطفقوا يراقبون ظهور السفن التي ستقلّهم إلى قيصر بعين لا تطرف.

في تلك الأثناء كان قيصر قد اختار أپوللونيا مقرّاً له، إلاّ أنه لم يكن قادراً على

التعرّض للعدوّ لافتقاره إلى القوّات الكافة. وزاد قلقه لتأخّر وصول قوّاته الأخرى من برنديزيوم وأدركته الحيرة وبات متوتّر الأعصاب. أخيراً أقدم على مغامرة جنونية، فاستقلّ البحر وحده دون أن يُعلم أحداً، ونزل قارباً ذا اثني عشر مجذافاً متوجّهاً إلى برنديزيوم. كان البحر آنذاك مشحوناً بأسطول العدوّ الضخم ولكنه صعد القارب متنكراً بزيّ العبيد وألقى بنفسه في قعره، نكرةً من النكرات. وكان نهر أينوس Anius هو واسطة الوصول بهم إلى عرض البحر. وفي تلك البقعة بالذات كانت تهبّ عادةً ريح خفيفة كل صباح من اليابسة إلى البحر فتجعل مصب النهر هادئاً خالياً من التيارات، بدفعها الأمواج إلى الأمام. الا أن ريحاً قويّة هبّت من البحر في تلك الليلة فشلّت عمل الريح الخفيفة المتجهة إلى البحر. فزادت مقاومة الأمواج البحرية عند مصبّ النهر وهاج هائجها وأخذ تيارها الشديد يدفع ماء النهر من حيث أتى بعنفٍ وضراوة أعجزا القبطان عن الخروج به إلى عرض البحر، ولم يجد سبيلاً غير الرجوع. فأمر بحّارته بالاستدارة والعودة. فما كان من قيصر إلا أن كشف عن هويّته ممسكاً بيد القبطان المشدوه وقائلاً:

- إمض في طريقك يا صاح ولا تخش شيئاً، فأنت تُقلّ قيصر ومستقبله.

لم يعد البحارة يكترثون بالعاصفة بعد سماعهم هذا القول، وانحنوا على مجاذيفهم يضربون بها بأقصى قوةٍ. وبذلوا كلّ ما في طوقهم للوصول إلى البحر، حتى أعياهم الأمر ودخل القارب كثير من الماء. وأدرك قيصر ما يُحدق به من خطر وهو في مصبّ النهر، فسمح للقبطان بالعودة كارهاً. وعند نزوله اليابسة استقبلته جموع من جنوده باللوم والتأنيب. وكانوا ساخطين منه لقلّة إيمانه بمقدرتهم، ولشعوره بالضعف عن نيل نصرٍ بهم وحدهم. فأزعج نفسه وعرّض حياته للتهلكة بسبب الغائبين، كأنه فقد الثقة بالحاضرين.

وبعد هذا بقليل وصل أنطوني بالقوات من برنديزيوم فشجّع ذلك قيصر على منازلة پومپي، وإن كان هذا قد اختار لقواته أفضل المواقع، وموردُه من الأقوات والمهمات لا ينقطع برّاً أو بحراً على السواء. أما قيصر فكان يشكو في البداية قلّة الأرزاق وكان في النهاية يفتقر إلى الحدّ الأدنى من الضرورات. وكادت المجاعة تتفشّى في الجيش حتى اضطر جنوده إلى الحفر عن نوع من الجذور تنمو هناك فينقعونها بالحليب لتكون مستساغة. وكانوا أحياناً يعملون منها خبزهم، ويتقدمون إلى ربايا العدوّ الأمامية ويقذفون إلى جنوده ببعض من هذه الأرغفة وهم يقولون «ما دامت الأرض تنتج مثل هذه الجذور فلن نرفع الحصار عنكم». وكان پومپي شديد الحرص على أن لا تصل

هذه الأرغفة والكلام التي يرافقها إلى جنوده وكانت معنوياتهم قد هبطت وارتخت مفاصلهم للرهبة التي داخلتهم من شراسة أعدائهم واعتيادهم الخشونة وصاروا ينظرون إليهم نظرتهم إلى ضوارٍ.

واستمرّت المناوشات على مشارف واستحكامات بومبي الأمامية وكان النصر فيها جميعاً لقيصر، عدا واحدة. فقد أجبر العدوّ رجاله على الفرار بشكل هدد معسكره كله حتى كاد يفقده. فقد صال عليهم بومبي صولةَ قوية فلم يصمد أمامه رجل واحدٌ ومُلئت الخنادق بالقتلى وسقط العديد على متاريسهم واستحكاماتهم بعد أن دفعهم العدوّ إليها. واعترض قيصر طريق فرارهم وحاول إرجاعهم إلى ميدان القتال فلم يفلح. وعندما ذهب ليمسك بالألوية رماها حاملوها على الأرض فغنم العدوّ اثنين وثلاثين لواءً، ولم ينجُ قيصر إلاّ بأعجوبة. فقد تشبّث بأحد الجنود، وكان ضخم الجثة متين الألواح، وأخذ يعدو معه ويصيح به أن يقف ويصمد فشهر سيفه وقد امتلأ خوفاً من الخطر الذي يلاحقه كأنه يهمّ بطعن قيصر، إلاّ أن حامل درعه أهوى على يده بضربة فقطعها. وبلغت حالة قيصر درجة لا توصف. لكن بومبي إما زيادةً في الحذر، أو لسوء حظٍ، لم يبادر إلى إنزال الضربة القاضية بعد نجاحه العظيم، وإنما تراجع بعد أن تعقّب العدوّ المندحر إلى معسكره. وقال قيصر وهو يتابع انسحاب بومبي بأنظاره:

- كان النصر اليوم حليف العدوّ لو حظوا بجنرال يعرف كيف يناله.

وانسحب إلى خيمته واستلقى على فراشه يريد النوم فعزّ عليه وقضى ليلة ليلاء لم يقض مثلها من قبل، تتناهبه الأفكار وتتقاذفه الهواجس، ويقلّب وجوه الرأي في حاله، إلى أن انتهى أخيراً إلى نتيجة واحدة، وهي أنه لم يُحسن إدارة دفّة الحرب. ها هنا أمامه بلاد خصبة وجميع مُدن مقدونيا وتساليا الغنية فلم يُعرها بالاً ولم يجرّ الحرب إلى تلك الأصقاع، بعد أن جثم قرب الساحل حيث يتمتّع أعداؤه بأفضلية أسطول قوي. إنه والحالة هذه مُحاصَر بافتقاره إلى المهمات والأقوات، وليس محاصِراً الآخرين بالسلاح.

في خضمّ محنته هذه اهتدى إلى الحلّ المنشود. فرفع معسكره صباح اليوم التالي وسار معتزماً مهاجمة سكيپيو الذي كان معسكراً في مقدونيا، وبذلك سيحقق أحد أمرين إمّا أن يُرغم بومبي على السير نحو بلادٍ بعيدة عن ساحل البحر فيفقد ميزته الحالية ويصعب عليه إمداد قوّاته بالأرزاق عن طريق البحر، وإما أن يتسنّى له التغلّب على سكيپيو إن آثر بومبي البقاء حيث هو.

إن رفع قيصر معسكره والابتعاد عن جيش بومبي جعلهم يستنتجون أنه ينهزم من

أمامه، فقوّى ذلك من عزماتهم وألهب حماستهم لتعقيبه، إلاّ أن پومپي كان يخشى المجازفة في معركة يتوقف عليها الكثير. ولأنه كان حسن التجهيز وافر القوت مهما امتد به الزمن، فقد ارتأت خطّته إنهاك جيش قيصر وإضعاف معنوياته التي لم يكن يقدّر أنها ستصمد طويلاً. صحيح أن قيصر يملك خيرة الرجال، مقاتلين حنّكتهم الحرب وعجمت عودَهم وشجاعتهم لا يقف أمامها شيء في أية معركة، إلاّ أن مسيراتهم الطويلة العديدة، وسهرهم في الحراسة، هدّت من قواهم وأرهقتهم، وهم ما عادوا فتياناً، ولم تعد أجسامهم تتحمّل الجهد، وتبعاً لذلك لم تعد شجاعتهم تُغني. فضلاً عن ذلك فقد تفشّى فيهم - على ما قيل - مرض سارٍ بسبب طعامهم غير الصحّي، وأكثر من ذلك أن قيصر كان خالي الوفاض لا مال لديه ولا أقوات. ولهذا قدّر پومپي أن قيصر سينتهي أمره وتذهب ريحه بوقت قصير. فلم يشأ تعقيبه والتعرّض له. لم يؤيّده أو يشكره على هذا القرار غير كاتو فقد شاع السرور في نفسه لقرار فيه اقتصاد لأرواح مواطنيه. عندما شاهد جثث القتلى الذين سقطوا من جيش قيصر في آخر معركة، وكان عددهم ألفاً واحدة، أدار ظهره وغطّى وجهه وأجهش بالبكاء. لكنّ الجميع راحوا يلومون پومپي لتردّده في قطف ثمرة نصره وإحجامه عن القتال. وحاولوا غمز قناته وإخراجه عن طوره بالتشبيهات والألقاب. فأطلقوا عليه اسم «أغاممنون» ولقّبوه بـ«ملك الملوك» كأنما يريد الاستمساك بسلطاته الملكية الحالية، بل مستمتعٌ برؤية هذا العدد الكبير من القادة رهن إشارته، وتحت إمرته، وأمام خيمته. وشكا فامثونيوس (وهو الرجل الذي يقلّد كاتو في الصراحة) شكوى مرّة من هذا القرار، وقال إنه سيُحرَم من أكل تين توسكولوم Tusculum هذه السنة أيضاً، لأن پومپي مغرم بالقيادة العامة. وأما أفرانيوس الذي كان قد عاد مؤخراً من إسبانيا، فبسبب الهزيمة الشنعاء التي مُنِيَ بها هناك، ولكونه كان موضع شكٍّ في أنه أخذ من قيصر رشوة ليسلّمه جيشه، فقد أراد تبديد هذا الشكّ بتساؤله: «لا أدري لماذا لا تحاربون شاري الأقاليم هذا؟».

هذه الأقوال أرغمت پومپي على المعركة، فانطلق جاداً في أثر القيصر، وكان هذا لا يقوم من عقبة إلاّ ليسقط في أخرى. ففي مسيرته هذه لم يمرّ ببلد قابل بتموينه، بعد أن هوت سمعته إلى الحضيض بسبب الهزيمة الأخيرة. على أن بعض التحسّن طرأ عليه عند وصوله گومفي Gomphi المدينة التسالية. فقد وجد أرزاقاً كافية لجيشه، فضلاً عن كماليات أخرى مثل الخمر فقد وجدوا كميات كبيرة منها. فشربوا حتى ارتووا، وسرت حُميّاها في جسومهم فراحوا يلهون ويعبثون ويعربدون على الطريقة الباخوسية وهم

سائرون. وشفوا من أمراضهم وارتاحت أبدانهم وشعروا كأنهم خُلقوا من جديد.

لمّا وصل الجيشان فرساليا Pharsalia وعسكرا عادت خطة پومپي الأصلية تداعب فكره، وصمّم على تحاشي الاشتباك بعد حصول بعض الخوارق، وبسبب رؤيا رآها. إلاّ أن أتباعه كانوا على درجة من الثقة بالنجاح حتى أن الخلاف نشب بين دوميتيوس، وسبنثر، وسكيپيو، على من يخلّف قيصر في القيادة منهم. وبعث كثيرون إلى روما لاكتراء بيوت ملائمة لسكن القناصل والپريتورين يدفعهم إيمان قوي بأن هذه المناصب ستُسنَد إليهم بعد انتهاء المعركة.

كان صنف الخيّالة بصورة خاصة مصرّاً على القتال. فالفرسان مجهّزون بأحسن السلاح وأفضل الخيل، يختالون بجمال منظرهم ويعتدّون بشجاعتهم، ويعتمدون فضلاً عن ذلك على تفوّقهم العددي، خمسة آلاف مقابل ألفٍ واحدة هي كل ما يملك قيصر. وكان الفرق بين مشاة الجيشين كبيراً أيضاً فجيش پومپي يبلغ ٤٥ ألفاً في حين أن جيش قيصر لا يزيد عن ٢٢ ألفاً.

جمع قيصر جنوده وخطب فيهم قائلاً:

- إن كورفينيوس Carfinius قادم بفرقتين للانضمام إلينا. وهناك خمس عشرة كتيبة تحت إمرة كالينوس معسكرة في ميغارا وأثينا. هل تفضّلون التريّث حتى تلتحق بنا هذه القطعات أم أن نجازف بدخول المعركة؟

فهتف الجميع بما يفيد أنهم يرفضون التريّث. وطلبوا منه الإسراع جهده للتعرّض للعدوّ وإرغامه على المعركة. فضحّى لتطهير جيشه، وبعد فحص الأضحية الأولى قال له الكاهن إنه سيدخل معركة فاصلة خلال ثلاثة أيام. فسأله قيصر هل وجد في الأحشاء بشير خير؟ فأجاب الكاهن:

- هذا ما عليك أن تجيب أنت عنه. لأن الآلهة تشير إلى قُرب حصول تغيير عظيم في مجرى الأمور. فإن كنت تجد نفسك الآن حسنَ الحال فعليك أن تستعدّ لسوء حظٍ. وإن كنت الآن سيّئ الحال فلك أن تأمل حُسن الحظ.

في الليلة السابقة للمعركة، عندما كان [قيصر] يقوم بدورة منتصف الليل في المعسكر، شوهد نور في السماء باهر، خرج منه لهب وبدا وكأنه يمرق فوق معسكر قيصر ثم يسقط في معسكر پومپي. وتبيّن جنود المناوبة الذين جاؤوا صباحاً لتسلّم الحراسة من خفراء الليل موجةً من الفوضى والقلق ناجمة عن الخوف تجتاح جنود العدوّ. ومهما يكن فإن قيصراً لم يكن ليتوقع أن تنشب المعركة في ذلك اليوم بالذات. فقوّض معسكره وأمر بالسير نحو سكوتوزا Scotosa وعلى أثر رفع المضارب هرع

كشّافته إليه قائلين إن العدوّ يستعدّ للمعركة، فطار فرحاً بالنبأ. وبعد أن صلّى للآلهة نظم جيشه في نسق المواجهة وقسمه إلى ثلاثة أقسام: القلب، أناط قيادته بدوميتيوس كالڤينوس Domituis Calvunus، وأمّر أنطوني على الميسرة، واحتفظ هو بالميمنة معتزماً دخول المعركة وهو على رأس الفرقة العاشرة. لكن ما إن تبيّن أن خيّالة العدوّ تتخذ مواضعها قبالته بمظهرها البديع وعددها الكبير حتى أصدر أوامره سِرّاً بأن تتقدم ستّ كتائب من احتياط المؤخرة وتنضمّ إليه خلف قطعاته، وأفهمها واجبها الذي ستنجزه عندما تبدأ خيّالة العدوّ هجمتها. ووضع پومپي نفسه في الميمنة، وأناط الميسرة بدرميتيوس، وأمّر حميّه سكيپيو على القلب، وجمع ثقل الخيّالة كلها في ميسرته بقصد تطويق ميمنة العدوّ وسحق هذا الجناح الذي يقوده قيصر. وكان الاعتقاد يسود جيش پومپي بأنه لم يخلق بعد ذلك الفلانكس الذي يستطيع الصمود أمام الهجمة الكاسحة الطريقة، ولا شك أنه سيتكسّر ويتمزّق فلولاً عندما تصكّه قوة من الخيّالة بهذه الضخامة. وعندما كملت استعدادات الجانبين وأعطيت إشارة الهجوم كان مشاة پومپي في المقدمة، فأمرهم بالثبات في مواضعهم وتلقّي الهجمة الأولى بهدوءٍ ومن غير أن يحدثوا خللاً في صفوفهم، إلى أن يصبح العدوّ وهو على رمية رمح.

يلوم قيصر پومپي لاتخاذه هذه الخطة. فيقول: «بدا لي پومپي وكأنه لا يدري كيف أن مُستهلّ الهجمة الأولى يكون على شكل اندفاع عظيم ويتمّ بهرولةٍ، يعطيان زخماً وقوة لضربات الجنود، ويلهبان نفوس الرجال بنار الحماسة التي يجعلها الاصطدام الفعلي ناراً متّقدة».

وقد لاحظ قيصر عند تحريكه الجنود إلى الأمام أحد أمراء سراياه، وهو عسكري مجرّب مقدام، يحثّ جنوده ويحمّسهم على بذل كل ما في طوقهم. فناداه قيصر باسمه:

- كايوس كراسينيوس Caius Crasinius! أي آمال لنا، وأي دافع للتشجيع؟

فبسط كراسينيوس يده ورفعها عالياً وصاح بصوت جهوري:

- سنفوز بنصرٍ باهرٍ، وسأستحق اليوم ثناءك، حيّاً كنت أم ميتاً.

قال هذا واندفع إلى الأمام وكان أول رجل يشتبك مع العدوّ، فتبعه جنوده المائة والعشرون. فاخترق بهم الصفوف الأولى وظلّ يضغط على العدو ويعمل فيه تقتيلاً حتى اخترق فمه حدُّ سيف بلغ من القوة أن خرجت ذبابته من قذاله.

وفيما كانت معركة المشاة الرئيسة محتدمة تقدّمت خيّالة پومپي بكل ثقة من الميمنة، ونشرت صفوفها إلى مسافة واسعة جداً تريد الإحاطة وإكمال عملية التطويق.

ولكنّ كتائب قيصر الكامنة اندفعت إليهم وهاجمتهم قبل الالتحام. وأمسكوا عن قذفها بالرماح عن بُعدٍ ولم يوجّهوا طعناتهم إلى الأرجل والأفخاذ كما جرت العادة في قتال الخيّالة عند الاشتباك القريب، وإنما سدّدوا الأسِنّة إلى وجوه الراكبين المتقدمين كما أوصاهم قيصر، متوقعاً أن أولئك السادة الشبان الذين لم يدخلوا معركة من قبل ولم يعرفوا للجراح طعماً، وإنما جاؤوا بشعورهم الطويلة وهم في زهرة أعمارهم وأوج وسامتهم، لا يهتمّون بالخطر الآنيّ ولا بالعار القادم، وصدق وصحّ ما توقّع. فألووا ليكونوا في نجوة من طعنات الرماح، التي لم يطيقوا حتى التطلع إليها وداروا على أعقابهم وغطوا أوجههم وقايةً لها. وما إن عمّتهم الفوضى المحتومة حتى انكفأوا على أعقابهم هاربين فأتلف عملهم هذا كلّ شيء. إذ أسرع المنتصرون إلى الإحاطة بالمشاة ووقعوا على المؤخّرة فمزّقوها إرباً. وعندما تطلع پومپي وهو على رأس الجناح الآخر، وشاهد خيالته مكسورة مدحورة فارقته ثقته بنفسه، ونسي أنه پومپي الأكبر، ووجد نفسه رجلاً جرّدته الآلهة من ملكاته العقلية، فانسحب إلى خيمته دون أن يلفظ كلمةً. وجلس فيها ينتظر النتيجة. حتى دارت الدائرة على الجيش كلّه وظهرت طلائع العدوّ عند العوارض والمتاريس المثبتة أمام المعسكر والتحمت مع المدافعين عنها. وإذ ذاك أفاق من ذهوله وقيل إنه نطق بالجملة التالية:

- ماذا؟ أفي المعسكر أيضاً؟

ونزع ثيات القائد المميّزة له، وارتدى الثوب المناسب للفرار، وخرج من المعسكر متسلّلاً. وقد اتينا إلى ما صادفه من أمور وإلى كيفية التجائه إلى مصر، ومصرعه هناك.

عندما دخل قيصر معسكر پومپي ورأى جثث بعض خصومه على الأرض وشاهد بعضهم الآخر يعاني سكرات الموت، قال متنهداً:

- هذا ما كُتب لهم في لوح القدر، لقد ألجأوني إلى هذه الضرورة. أنا كايوس قيصر بعد نجاحي في الحروب العديدة التي خضتها، أأدان إن لم أسرّح جيشي؟

يقول پوليو Polio هذه العبارة نطقها قيصر باللاتينية، إلاّ أنه دوّنها بقلمه فيما بعد باليونانية وأضاف إليها قوله:

«معظم من قُتل عند الاستيلاء على المعسكر كانوا خدماً، ولم يسقط من القتلى أكثر من ستة آلاف».

وألحق معظم المشاة الأسرى بفرقه، وعفا عن كثير من الشخصيات البارزة ومنهم بروتوس أحد الشركاء في مؤامرة اغتياله. لم يظهر أثر لبروتوس فور انتهاء المعركة الأمر الذي قلق له قيصر وكانت فرحته أعظم من قلقه عندما رآه يدنو منه حيّاً سليماً.

سبق هذا النصر عدد من الخوارق وأبرزها - كما قيل لنا - المعجزة التي حصلت في تراليس Tralles. كان ثمّ تمثال لقيصر مستقرّ على أرض صلبة، كما أن مادة التمثال كانت من أقوى وأصلب المرمر، إلاّ أن نخلةً نبتت عند قاعدة التمثال. وفي مدينة پادوا كان شخص يدعى كايوس كورنيلوس عُرف بالعِرافة الجيدة، وهو صديق للمؤرخ ليڤي وابن مدينته. اتفق لهذا العرّاف أنه كان يقوم بشعبذات معيّنة فإذا به - على ما يخبرنا ليڤي - يحدّد ساعة المعركة، قائلاً للذين كانوا يراقبونه: «الآن بدأت المعركة وتلاحمت الأيدي». ثم نظر مرة ثانيةً في الإشارات وقفز كأن وحياً هبط عليه وصاح: «قيصر! أنت منصور».

وأصيب الحاضرون بدهشة عظيمة. إلاّ أنه نزع إكليل الزهر الذي كان يحيط برأسه وحلف أنه لن يضعه ثانية حتى يتبيّن صحّة نبوءته ويؤكد ليڤي بصورة قاطعة أن ما يريده هو الحقيقة بعينها.

وخلّد قيصر نصره هذا بإعطاء التساليين حرّيتهم. ثم جدّ في أثر پومپي وعند عبوره إلى آسيا حرّر الكنيديين Cnidians ومنحهم حق الاقتراع وحوّل ثُلث جِزْيتهم عن كاهلهم إلى أهالي إقليم آسيا، كل ذلك في سبيل إكرام ذكرى ثيومپوپوس مؤلف مجموعة أساطير. وبوصوله الإسكندرية أُنهي إليه نبأ مصرع پومپي. لكنه لم ينظر إلى ثيودوتس الذي قدّم له رأس الصريع، وإنما قبل أن يأخذ ختمه وهو يبكي. وبادر بإطلاق سراح كل من اعتقله ملك مصر أثناء ما كانوا يهيمون على وجوههم في تلك الأنحاء، وقرّبهم منه. وفي رسالة بعث بها إلى أصدقائه بروما صرّح لهم أن أكبر فرحة أتاحها له انتصاره هي استطاعته إنقاذ حياة مواطنيه الذين حاربوا ضده.

وأما عن الحرب في مصر، فبعضهم يقول إنها لم تكن مشرّفة لسُمعة قيصر ولم تكن ضرورية، وإنما كانت بسبب غرامه بكليوپاترا فحسب. ويلوم آخرون وزراء الملك ولاسيّما الخصيّ بوثينوس Pothinus وزيره الأول، وهو الذي قتل پومپي ونفى كليوپاترا. فقد راح هذا يتآمر على قيصر سِرّاً (فاتخذ قيصر لنفسه الحيطة بقضاء لياليه ساهراً، مدّعياً أنه يشرب الخمر) ولم يكن قيصر يطيقه للإهانات القولية والفعلية التي لا يفتأ يوجّهها إليه. كان يكيل لجنود قيصر قمحاً عفِناً فاسداً، ويقول لهم:

- عليكم أن تقنعوا به لأنكم تأكلون على حساب الآخرين.

وأمر أن يؤتى بطعام قيصر بأطباق من الخشب والفخّار، متعلّلاً بأن قيصر نهب كل الأواني الذهبية والفضية تحت زعم المطالبة بالمتأخّر من الدين. (إن والد الملك الحالي

كان مديناً لقيصر بمليون وسبعمائة وخمسين ألف قطعة نقدٍ فخصم قيصر منها لأولاده سبعمائة وخمسين ألفاً ورأى من حقه المطالبة ببقية الدين وقتذاك لسدّ نفقات جيشه).
وقال له بوثينوس حريّ به أن يبارح الآن مصر ويهتمّ بأمور أكثر خطورة من البقاء هنا، ويتسلّم ماله فيما بعد مع الشكر. فأجابه قيصر أنه لا يرغب أن يتخذ المصريين ناصحين ومستشارين له. وبادر حالاً إلى استقدام كليوپاترا من منفاها. فاستقلّت قارباً صغيراً وليس معها غير پللودوروس الصقلي محلّ ثقتها. وأرسى بها القارب في عتمة الليل بالقرب من القصر. وأدركتها الحيرة ولم تدرِ كيف تدخل القصر خلسة، حتى اهتدت إلى حيلة، فلفّت نفسها بلحاف وقام أپللودوروس بربطه عليها بالحبال وحملها على ظهره كالصرّة ودخل بها القصر حتى جناح قيصر. في البدء كان قيصر مأخوذاً بحضور ذهن كليوپاترا وذكائها المفرط. وبالأخير افتتن بصحبتها إلى الحدّ الذي أجبر أخاها على مصالحتها في مشاركته بالحكم. وأقيم حفل كبير بمناسبة الصلح. وفي أثناء هذا الحفل اكتشف حلاّق قيصر المؤامرة التي حيكت لاغتياله. كان هذا الحلاّق فضولياً مغرماً بتقصّي الأحاديث، جعله جُبنه المفرط يدسّ أنفه ويتتبّع كلّ محادثة. وكانت المؤامرة بتدبير أخيلاس قائد قوات الملك، وپوثينوس الخصيّ. فبادر قيصر حال علمه بوضع حرس في القاعة وقتل پوثينوس، لكنّ أخيلاس أفلت ولجأ إلى الجيش وأثار حرباً على قيصر؛ حرب أتعبته وأورثته كثيراً من الصداع، صعب عليه إدارتها بالفئة القليلة من الجنود الذين جاء بهم مقابل قوات كبيرة جداً. ومما لاقاه من صعاب قلة الماء، فقد حوّل خصمه مجرى الأقنية عنه. ومنها أنه اضطر إلى إحراق سفنه كلها لمّا حاول خصمه قطع خطوط مواصلاته البحرية فتحاشى ذلك بهذه الخسارة، ولكن اللهيب امتدّ إلى الأرصفة ثم إلى المكتبة العظيمة فالتهمها. وفي أثناء معركةٍ بالقرب من فاروس قفز من حاجز المرفأ إلى قارب صغير لمعونة جنودٍ له وقعوا في مأزق. فشدّ عليه المصريون من جميع الجهات فقذف بنفسه إلى البحر ونجا سابحاً بعد لأي. ويُروى أنه كان يمسك بعدد من الرقوق المخطوطة وكانت هدفاً تسدّد إليه الرماح المقذوفة بلا انقطاع. فكان يضطر من البلل أن يبقى يده مرفوعة بينما يستعمل اليد الأخرى فقط للسباحة. وقد غرق قاربه أيضاً.

بالأخير انضمّ الملك إلى أخيلاس. إلاّ أن قيصر هاجمهما وحقق الغلبة عليهما وسقط عدد كبير من القتلى في تلك المعركة ولم يُر الملك بعدها. فترك قيصر كليوپاترا ملكة على مصر وولدت له بعد قليل ابناً سمّاه الإسكندرانيون «قيصاريون». ورحل هو إلى سوريا ومنها إلى آسيا. وهناك أُنبئ أن فارناكيس Pharnacis ابن ميثريداتس قد

تغلّب على دوميتيوس الذي هرب إلى الپونتس بحفنة من الرجال، وأن فارناكيس يستغلّ نصره هذا بكلّ ما فيه من نشاط وعزم، فقد أخضع بيثينيا وكبدوكيا وهو في سبيله للاستيلاء على أرمينيا السفلى، وأرسل أيضاً يدعو جميع الملوك والحكام للثورة على الرومان. فأسرع قيصر في أثره بثلاث فرق ونازله بالقرب من زيلا Zela وطرده من الپونتس، وهزم جيشه هزيمة تامةً. روى قيصر لصديقه أمانتيوس Amantius تفاصيل هذه الحرب بعد رجوعه إلى روما، واستخدم ثلاث كلمات للتعبير عن السرعة والحزم اللذين أخذهما بهما فقال: «جئت، رأيت، انتصرت!» ولهذه الكلمات في اللاتينية قافية واحدة فيكون وقعها على الأذن موسيقياً فضلاً عن إيجازها البليغ.

وركب البحر إلى إيطاليا. ودخل روما في نهاية السنة، ولذلك جدّد انتخابه دكتاتوراً. وهو منصب لم يستقم لغيره سنة كاملة. وانتُخب قنصلاً للسنة الثانية. وأخذت ألسنةُ السوء تناله بعد حادثة عصيان بعض الجنود ومثلهم الپريتورَيْن كوسكونيس Cosconis، وگالبا Galba. ولم يكن عقابه لهما أكثر من تأنيب ناداهما فيه «بالمواطنين» بدلاً من مناداتهم «بإخواني الجنود». ومنح كلّ واحدٍ منهم ألف درهم، فضلاً عن قطعة أرض في ناحيةٍ من إيطاليا. كذلك أخذ الناس يغتابونه لإسراف دوللابلاّ وفجور أنطوني وتبذير كورڤينيوس الذي هدم دار پومپي ليبني مكانه داراً أفضل منه، فكان البناء الثاني أدنى مستوى من الأول. كل هذه الأمور أثارت استياء الرومان وسخطهم. لكنّ قيصراً لم يكن بالذي يجهل أخلاق أصحابه، ولا بالأعمى عن تصرّفاتهم، ولم يكن ليقرّها لولا أنه كان مضطراً إلى استخدام هؤلاء لأجل تسيير دفّة الحكم بالشكل الذي يرتضيه.

بعد معركة ڤرساليا هرب كاتو وسكيپيو إلى أفريقيا، وحشدا هناك قوّات كبيرة بمساعدة جوبا الملك. فقرّر قيصر قتالهم وعبر الخليج إلى صقلية في حدود انقلاب الشتاء. ولأجل أن يزيل من رؤوس ضباطه أي أملٍ بالتريّث والبقاء عسكر على ساحل البحر. وما إن هبّت ريح مؤاتية حتى ترك هذه القوة في سواحل أفريقيا وكرّ راجعاً خفية وقد ساورته المخاوف على القسم الأكبر لكن مخاوفه زالت عندما التقى به في عُرض البحر فقادهم بنفسه إلى المعسكر. وأنبئ أن الأعداء يستخدمون على نطاق واسع تلك النبوءة الغابرة القائلة «بأن أسرة سكيپيو ستكون أبداً منصورةً في أفريقيا». وكان يوجد في جيشه شخص خامل الشأن وضيع الشخصية من أسرة «أفريقيا» اسمه سكيپيو ساللوتير Sallutio فجاء به ووضعه على رأس جيشه (يصعب القول: هل أراد قيصر بذلك السخرية من سكيپيو الذي كان يقود جيش العدوّ، أم أنه كان جاداً مؤمناً بالنبوءة

يسعى لأن تكون في صالحه؟) وهكذا بدا الرجل الخامل الشأن كالجنرال في كل المعارك العديدة التي خاضها قيصر إلى النهاية.

كان قيصر مفتقراً إلى الأقوات لإطعام جنوده وعلف حيواناته، حتى اضطر إلى إطعام خيله الأعشاب البحرية بعد غسلها غسلاً تاماً لإزالة الملح منها، وخلطها بقليل من العشب الأخضر ليكون مذاقاً مستساغاً.

كان النوميديون بكثرة عددهم وأصالة خيولهم سادة الميدان بلا جدال. فأينما ذهب قيصر تعقّبوه وأدركوه وبسطوا سيطرتهم على الأرض. ومرة كانت خيّالة قيصر في غفلة. لم يكن لديهم واجب يشغلهم فوقفوا يستمتعون بمشاهدة أحد الأفارقة وهو يرقص رقصاً عجيباً وينفخ في المزمار في الوقت نفسه، وفيما هم منصرفون إليه وكلهم راجلون وقد أسلموا أعِنّة خيولهم إلى بعض الصبيان، أحدق العدوّ بهم من كل جانب فقتل بعضهم وتعقّب الفارّين حتى معسكرهم فكرّ عليهم. ولو لم يخفّ قيصر وأسينيوس پوليو لمعونتهم ووقف فرارهم لانتهت الحرب.

وفي اشتباك آخر أيضاً كان العدوّ مستظهراً فأمسك قيصر بعنق أحد حملة الأعلام وهو مُمعِن في الهرب وألوى وجهه نحو العدوّ بقوة وقال:

- انظر! هذا هو سبيلك إلى العدوّ.

انتفخ سكيپيو زهواً بهذا النصر. وراودته فكرة الاشتباك في معركة فاصلة. فترك أفرانيوس وجوبا كلاً مع قطعاته المنفصلة والمتقاربة في عين الوقت وتقدم بنفسه نحو تاپسوس Thapsus. وهناك شرع يقيم معسكراً مستحكماً على بحيرة يتخذها محوراً للعمليات الحربية، وملاذاً يلجأون إليه في عين الوقت. وفيما كان سكيپيو منهمكاً في إعداد معسكره سار إليه قيصر بسرعة لا تصدّق فاجتاز غابات كثيفة وأراضي لم يسبق لأحدٍ أن اجتازها لصعوبتها، وحاصر قسماً من جيش العدوّ وهاجم القسم الثاني هجوماً جبهياً فهزمه. ولم يتريّث بل واصل استغلال حُسن حظّه واجتاح في هجوم آخر معسكر أفرانيوس ونهب معسكر النوميديين. واعتبر جوبا نفسه سعيداً لأنه نجح في الفرار. وهكذا بساعات قلائل من يوم واحدٍ تمكن قيصر من الاستيلاء على ثلاثة معسكرات وقتل خمسين ألفاً، ولم يخسر غير خمسين رجلاً.

تلك هي تفاصيل هذه الحرب كما رُويت. ويقول بعضهم أن قيصر لم يكن موجوداً أثناء المعركة، فقد فاجأته إحدى النوبات الاعتيادية من الصرع وهو يشرف على تنظيم صفوفه وشعر بقدومها وقبل أن تتمكن منه وتفقده وعيه، وفيما كانت أوصاله تهتز وترتعش انسحب إلى القلعة المجاورة ورقد.

وقبض على عدد ممن كانوا حائزين مناصب القنصلية والپريتورية فقتلهم. أما بعضهم فقد سبقوه وبخعوا أنفسهم.

واضطلع كاتو بمهمة الدفاع عن أوتيكا Utica فلم يكن في المعركة، وكانت رغبة قيصر في أخذه حيّاً هي التي دفعته إلى الزحف على المدينة. وفيما هو جادّ بسيره أتاه من يخبره بأن كاتو بخع نفسه. فتألم كثيراً. ولم يُتّفق على سبب ألمه ولكن من المؤكد أنه نطق بالعبارة الآتية عندما بلغه النبأ:

– أي كاتو إن حقدي عليك لموتك كان يساوي حقدك عليّ لو منحتني شرف إنقاذ حياتك.

غير أن الرسالة التي كتبها ضد كاتو بعد ذلك ليس فيها دليل على عطفه، ولا يظهر فيها ميل إلى مصافاته والعفو عنه. كيف يكون متسامحاً معه وهو حيّ، في حين يظهر حقداً واضحاً عليه وهو ميت؟ لكن بوسع المرء أن يستنتج ما يُستنتج من عفوه عن شيشرون وبروتوس وكثير غيرهم ممن عادوه وحاربوه. لم يكتب قيصر رسالته هذه بسبب عدائه لكاتو بل دفاعاً عن نفسه وتبريراً لأعماله. كان شيشرون قد كتب رسالة ثناء بحق كاتو وجعل اسمه عنواناً لها. وكان مقدّراً لهذه الرسالة المدوّنة بيد أستاذ عظيم في موضوع ممتاز أن تتداولها كل الأيدي. وهذا ما أثار قيصر الذي اعتبر إطراء خصومه شيئاً أشبه بالذمّ له. ولذلك نراه يجمع في رسالته «ضد كاتو» كل ما قيل في ثلمه وانتقاص من قدره. ولكلّ من الرسالتين معجبون، كما لكلّ من شخصيتي قيصر وكاتو.

عند عودة قيصر إلى روما لم ينسَ أن يقدّم للناس تفاصيل رائعة لانتصاراته. ومما قاله لهم إنه أخضع بلاداً تدرّ عليهم سنوياً مائتي ألف بوشل[٥] يوناني قمحاً، وثلاثة ملايين پاوند من الزيت. وأُجيز بالسير في ثلاثة مواكب نصر: لمصر، وللپونتس، ولأفريقيا، ولم يكن الموكب الثالث تخليداً لنصره على سكيپيو بل على جوبا الملك كما أعلن عن ذلك. وقد شوهد في هذا الموكب جوبا الصغير. وكان أسعد أسير حظّاً. فقد بلغ هذا البربري النوميدي مصاف أعاظم مؤرّخي الإغريق.

وبعد هذا وزّع قيصر العطايا والمكافآت على جنوده ونظم للجمهور الحفلات والمسارح. ودعا أهالي روما كلهم إلى وليمة جماعية واحدة، فنُصِبَ اثنان وعشرون متّكأ ومائدة. وأمر بعرض للمصارعين والمعارك البحرية تكريماً لابنته يوليا، مع أنها ماتت منذ زمن. وأجرى إحصاءً عاماً لأهالي روما بعد هذه الاحتفالات فظهر أن

(٥) مكيال للحبوب يساوي ٨ غالونات أو ٣٢,٥ ليتراً.

السكان نقصوا إلى مائة وخمسين ألفاً بعد أن كانوا ثلاثمائة وعشرين، وهي الخسارة التي انزلتها الحرب الأهلية بها. ولا نذكر ما حَلّ ببقية إيطاليا والأقاليم الأخرى.

انتُخب قيصر قُنصلاً للمرة الرابعة. وخرج إلى إسبانيا لقتال ابني پومپي وكانا صغيري السنّ، إلاّ أنهما جمعا حولهما جيشاً لجباً وأظهرا من الحذق والشجاعة ما أهّلهما لقيادته. وأحسّ قيصر أنه مُقدم على مجازفة كبيرة. وجرت الوقعة الكبرى قرب مدينة موندا. ولاحظ قيصر أن جنوده يعانون ضغطاً شديداً وان مقاومتهم تضعف.

فأسرع إلى الأمام يشق الصفوف وصاح بين الجنود:

- ألا تخجلون من تسليمي إلى صبيّين؟

بعد أهوال من القتال واستماتة تمكّن من دحر العدوّ وقتل ثلاثين ألفاً منه، بخسارة ألف من جنوده. وعند عودته من المعركة قال لأصحابه:

- قاتلت كثيراً لأجل إحراز النصر. ولم أقاتل لأنقذ نفسي إلاّ في هذه المرّة.

انتصر في عيد باخوس. وهو يوافق يوم إعلان پومپي الحرب عليه قبل أربع سنوات. ونجا من الموت أصغر ابني پومپي، إلاّ أن ديديوس Didius جاء برأس أكبرهما بعد مضيّ أيام. وبهذه المعركة كانت خاتمة حروب قيصر.

كان استياء الرومان من موكب نصره بهذا المناسبة لا يُحدّ ولا يوصف. وقالوا إنه لم يتغلب على قادة أجانب أو على ملوك البرابرة وإنما قضى على أولاد وأسرة رجل من أعظم الرومان وإن كان الحظّ قد خانه. ولذلك لم يكن من المستساغ أو اللائق أن يحتفل قيصر بمصائب بلاده، ويعلن الأفراح في أمور لا مجال له في تقديم أي اعتذار عنها سواء للآلهة ام للبشر، عدا قوله إنها كانت لضرورة ملجئة. ثم إنه ظلّ ساكتاً عن أعماله الحربية هناك حتى عودته فلم يبعث إلى الوطن برسالة أو بنبأ عن نصرٍ حازه. بل بدا خجله من ذلك أكثر من توقعه مجداً منه.

نزل مواطنو قيصر عن الكلّ له. وقبلوا باليسير الممنوح لهم، مؤمّلين أن حكومة الفرد ستفسح لهم مجالاً لالتقاط أنفاسهم بعد كثير من الحروب الأهلية والمصائب الوطنية، فنصّبوه دكتاتوراً مدى الحياة. وهذا في الواقع حكم الطغاة والاستبداد الصريح الذي لا مواربة فيه، فلم يكن مطلقاً بل كان دائمياً أيضاً. وتقدم شيشرون بأول المقترحات إلى المجلس لتكريم قيصر. ولم يكن فيها إسراف وإنما كانت تناسب أيّ إنسان معتدل. إلاّ أن الآخرين تسابقوا على الأكثر وارتفعوا إلى حَدّ جعل من قيصر شخصاً بغيضاً لدى أكثر الناس اعتدالاً، وأبعدهم عن الاكتراث بمثل هذه الأمور. ويُعتقد أن لأعدائه سهماً في ذلك بقدر ما لمتملّقيه لأن هذا يخدم أغراضهم ويهيّئ لهم

الذرائع للعمل عنده، ولتبرير أية محاولة ترمي إلى إسقاطه. إذ لم يكن لديهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها ما يتهمونه به فقد بنوا هيكلاً لإلهة الرفق «كليمنسي» اعترافاً بامتنانهم له لأنه استغلّ نصره للرحمة والعفو، فلم يكتف بالعفو عن العديد ممن حاربوه بل منح طائفة منهم أرفع المناصب وخلع عليهم. ونخصّ بالذكر بروتوس وكاسيوس وكلاهما كان پريتوراً. كذلك أعاد تماثيل پومپي إلى مكانها وكانت قد رفعت. فعقّب شيشرون على هذا العمل بقوله إنه «ركّز تماثيله بنصب تماثيل پومپي». وعندما نصحه أصحابه باتخاذ حرس شخصي لنفسه وعرض العديد منهم أنفسهم لذلك، رفض رفضاً باتاً وقال:

- إنه لخير للمرء أن يموت مرّةً من أن يحيا في خوفٍ مستدام منه.

وعَدّ حبّ الجمهور وتعلّقه به أفضل وأضمن من أيّ حرسٍ وأقام للمرة الثانية مهرجانات عامة للتسلية، وأمر بتوزيع القمح، وكافأ أفراد جيشه بتأسيس المستوطنات لهم في عدة مناطق من جملتها مستوطنتا قرطاجنة وكورنث اللتان دمّرتا في وقت سابق فأعادهما إلى سابق عهديهما وأعمرهما بالمستوطنين.

وكثرت عهوده ووعوده للأشراف وعلية القوم بالمناصب القنصلية والپريتورية في المستقبل. وأرضى فريقاً بوظائف ومناصب. ولم يئد لأحدٍ أملاً، بما كان يبديه من اهتمام مفرطٍ في أن يظهر للملأ حاكماً عدلاً لا يُضمر غير حسن النيّة. فمثلاً عند موت مكسيموس القنصل قبل انتهاء فترته بيوم واحدٍ بادر إلى نصب كانينيوس رڤيليوس Caninius Revilius قنصلاً لليوم الواحد المتبقي. وأخذ الناس يتقاطرون لتهنئة القنصل الجديد فقال شيشرون.

- فلنسرع لئلا تنتهي فترته قبل وصولنا إليه!

وُلِد قيصر لعظائم الأمور، ولم يكن ليستقرّ له قرار في اطّلاب المجد، ولم تُغْرِه الأعمال العظيمة التي أنجزها بالجلوس وقطف ثمار أتعابه. بل كانت محرّضة له ومشجّعة على المضيّ في هذا السبيل، ومثيرة في نفسه أفكاراً ومشاريع لأعمال أعظم منها ورغبة في أمجاد جديدة كأن الحاضر بالنسبة إليه منتهٍ وهو يتطلع إلى الآتي. في الواقع كان ثمّ صراع عنيف بينه وبين نفسه، وكأنه شخصان مختلفان. فتراه يُعمِل الفكر للتفوّق على ما مضى بما هو آت. ولهذا قرّر أن يشنّ حرباً على الپارثيين ثم التوجّه إلى هركانيا بعد إخضاعهم. ومن هرقانيا إلى بحر قزوين وجبال القفقاس ثم يسير بمحاذاة البحر الأسود، ويدخل بلاد الصيثيين، ويجتاح كل البلاد المتاخمة لجرمانيا ويدوّخ جرمانيا نفسها، ثم يعود إلى إيطاليا ماراً ببلاد الغال. وبعد إكماله دائرةً لإمبراطوريته

وجعل حدودها الماء من كل الجهات، وفيما بدأت الاستعدادات لذلك، اقترح أن يُحفر البرزخ الذي تقوم عليه كورنث وعيّن أنينوس Anienus للإشراف على العمل. وفكّر أيضاً في تغيير مجرى التيبر، وتحويله بقناة عميقة مباشرة من روما إلى چرچيي Circeii ثم إلى البحر بالقرب من تارّاكينا Tarracina ليكون سبيلاً سهلاً مأموناً لكل التجار المتعاملين مع روما. واعتزم أيضاً تجفيف كل المستنقعات القريبة من پومنتيوم Pomentium وسيتيا Setia واستصلاح أراض واسعة للزراعة بعد استخلاصها من المياه. واقترح عمل تلال كبيرة في أقرب ساحل بحري إلى روما ليمنع طغيان مياه البحر على اليابسة ثمّة، وتنظيف الساحل قرب أوستيا Ostia من كل الصخور والرمال الضحضاحة التي تجعل رسوّ السفن هناك غير مأمون، وإنشاء مرافئ وموانئ صالحة لاستقبال العدد الكبير من السفن.

هذه المشاريع تمّ تخطيطها وإقرارها إلاّ أنها لم تُنفّذ. غير أن إصلاحه التقويم السنوي لتصحيح الخلل في الوقت، وقد أتمّه بشكل علمي دقيق بارع برهنَ على فائدته العظمى. منذ العهود الغابرة كان الرومان بحاجةٍ إلى مبدأ معيّن وقاعدة ثابتة تحكم تتابع الأشهر ضمن السنة دون زيادة أو نقصان حتى لا تتحوّل أعيادهم وأيام قرابينهم بالتدريج حتى تقع بالأخير في الفصول التي لاتستقيم مطلقاً مع طبيعة تلك الأعياد. ولم يكن لدى الناس حتى ذلك الحين قاعدة لحساب السنة الشمسية. ولم يكن يعرف حساب الوقت غيرُ الكهنة، وهم كما شاءت أهواؤهم وأمزجتهم يدخلون الناس دون سابق إنذار في الشهر الكبيس الذي يسمّونه مركيدونيوس Mercedonius، ونوما هو الذي أدخل هذا الشهر في السنة. إلاّ أن محاولته لم تكن ناجحة لإصلاح الأخطاء الناجمة عن تعاقُب الدورات السنوية كما بيّنا ذلك في سيرته. ولذلك استدعى قيصر خير فلاسفة وحاسبي عصره لتسوية المشكلة. واستخرج من النظام الذي قُدّم إليه قاعدة جديدة أكثر دقّة لإصلاح التقويم. فثبت الرومان عليه حتى يومنا هذا. وظهر أنهم أنجح من أي شعب آخر في تحاشي الأغلاط الناجمة عن عدم انتظام الدورة السنوية. هذا العمل الجليل أغاظ أيضاً أولئك الذين ينظرون إلى إنجازاته نظرة سوداء، ويشعرون بالضيق والحرج من سلطته. اتفق مرّة أن أحد أصدقاء شيشرون قال:

- ستشرق ليرا Lyra(٦) صباح اليوم التالي.

فردّ شيشرون:

(٦) كوكبة القيثارة. النسر الواقع.

- أجل ستُشرق، حسب أحكام المرسوم!
كأنّ المسألة إرغام قانوني.

الاّ أن السخط الأعظم الذي انصبّ عليه من الجمهور هو رغبته في الملكية. كان هذا فاتحة انفصام العلاقة الطيّبة بينه وبين العامة، وكان فضلاً عن هذا ذريعة معقولة لأعدائه في السِرّ زعم الذين أرادوه ملكاً أن كتب السيبل Siyle تنبأت بأن الرومان لن يستظهروا على الپارثيين إلاّ عندما يكون ملك على رأسهم وليس قبل ذلك بأي حالٍ. وفي ذات يوم بينما كان قيصر نازلاً من ألبا إلى روما تجرّأ بعضهم فحيّاه بتحيّة الملوك. ولحظ أن الناس المتجمهرين لم يرقهم الأمر فأظهر الامتعاض من التحيّة، وقال إن اسمه «قيصر» وليس «ملكاً». وعندها ساد سكون عام ومرّ بين الناس دون أن تظهر عليه علائم الارتياح أو الرضا. ومرة أخرى عندما أغرقه المجلس بضروب من التكريم والامتيازات اتفق أن تسلّم قرارهم بذلك وهو جالس على كرسي الخطابة «روسترا» Rostra حيث كان القناصل والپريتوريين وكل أعضاء مجلس الشيوخ واقفين إجلالاً له. فلم ينهض لهم وعاملهم كأنهم من عامة الناس. ثم قال إن ما خلعوه عليه من تكريم وامتياز يحتاج بالأحرى إلى حماية لا إلى زيادة. هذا الموقف جرح مشاعر الشيوخ والعامة معاً. فالأخيرون عدّوا إهانة المجلس إهانةً تسري على جميع الشعب. ولم يُستأذن بالانصراف، بل تفرّق الحضور وكلّهم ألمٌ. وأدرك قيصر هفوته فآب إلى منزله واستلقى كاشفاً عن رقبته وخاطب أصحابه قائلاً:

- إني مستعد لتقديم هذه لكلّ من يريد أن يسدّد لها طعنة.

واعتذر عن خشونته بالمرض زاعماً أن المصابين يفقدون حضور ذهنهم إن هم تكلموا طويلاً في حالة الوقوف، فيصابون بدوار ثم بتشنّج ثم يفقدون الوعي تماماً. على أن الواقع لم يكن كذلك، فقد كان يهمّ بالوقوف احتراماً للمجلس عندما انحنى إليه كورنيليوس بالبوس أحد أصحابه، بل أحد المتزلّفين، وهمس في اذنه:

- ألا تتذكر أنّك قيصر وأنك لا تأخذ إلاّ ما يستحقه مقامك؟

وأتاح فرصة أخرى للحاقدين بإهانته التريبيونات. كان يحتفل حينذاك بعيد لوبركاليا وهو عيد الرعاة بالأصل، كما يقول بعض الكتاب، وله بعض صلة بليقية الأركادية. وفيه ترى الفتيان الأشراف والحكام يركضون في شوارع المدينة ذهاباً وإياباً وقد نضوا عنهم الجزء الأعلى من أرديتهم يضربون كل من صادفوه بسوطٍ من الجلد على سبيل التفكهة والمزاح. وتعترض نساء كثيرات من ذوي الوجاهة والمقام سبيلهم وهنّ رافعات الأكف لتلقّي ضربة السوط كما يفعل معلّم المدرسة بتلاميذه عقاباً،

معتقدات أن ذلك يسهّل للحامل وضع وليدها ويجعل العاقر ولوداً. وجلس قيصر على كرسي من الذهب متوشّحاً برداء النصر في الروسترا، يرقب الاحتفال. وكان أنطوني القنصل إذ ذاك أحد الراكضين فعند وصوله الفوروم أفسح الناس له، فصعد وقدّم لقيصر تاجاً مزداناً بالغار، وندّ من بين الجمهور هتاف ضعيف، من قلّةٍ كانت قد جُمعت لهذا الغرض. وعندما رفض قيصر التاج تعالى الهتاف مجلجلاً عاماً. وقُدّم إليه ثانية فلقي العمل هتافاً أضعف من الأول، وعاد إلى رفضه فارتفع الهتاف يشقّ عنان السماء. فأيقن قيصر أن اللعبة مقضيّ عليها ونهض وأمر أن يؤخذ التاج إلى الكابيتول. ثم بدت تماثيل قيصر وعلى رؤوسها التاج الملكي. فذهب التريبيونان الشعبيان فلافيوس Flavius وماروللوس Marullus حيث تقوم التماثيل وانتزعوا التيجان عن هاماتها واعتقلا أول من حيّا قيصر بالملكية وأودعاهم السجن، فسار الجمهور خلفهما مشيّعاً بهتاف الاستحسان والتشجيع وأطلقوا عليهما لقب «بروتوس» لأن بروتوس كان أول من أنهى التعاقب الملكي في الدولة الرومانية ونقل السلطة إلى مجلس الشيوخ والعامة بعد أن كانت مركّزة في يد شخص واحد. فاغتاظ قيصر وعزل التريبيون، واستهان بمشاعر الأهالي بإصراره على اتهامهما. ولقّب الرجلين أكثر من مرة بـ«بروتي» Bruti و«كيوماي» Cumaei.

هذا ما جعل الجمهور يتطلع بأنظاره إلى ماركوس بروتوس سليل بروتوس الأول من جهة أبيه على أرجح الأقوال، وسليل الأسرة النبيلة المشهورة سرڤيلي من جهة أمه، وابن أخت كاتو ختنه. إلاّ أن الامتيازات والمناصب التي خلعها عليه قيصر أخمدت فيه أية فكرة قد تساوره في الإطاحة بحكومة الفرد. عفا عنه قيصر في فرساليا بعد هزيمة پومپي. وسعى هو بعد ذلك إلى نيل العفو عن كثير من أصحابه، كما كان موضع ثقة قيصر الخاصّة، وكان يتقلّد في ذلك الحين أرفع پريتورية. ورسم له قيصر أن يتسنّم منصب القنصلية بعد أربع سنوات مقدّماً إياه على كاسيوس منافسه فيها. وعندما سئل قيصر عن هذا التفضيل قال:

- كاسيوس أحقّ بها، لكني لا أستطيع إغفال بروتوس.

ولم يُصغِ لمن اغتاب بروتوس بعد أن قطعت مؤامرة اغتياله شوطاً بل وضع يده على جسمه وقال للنمّام:

- بروتوس سينتظر جلدي هذا.

يعني أنه جدير بتسلّم الحكم لما يتحلّى به من خُلق. لكنه لن يكون سافلاً ولا ناكر جميل إلى الحدّ الذي يعمد لأخذه غصباً. ولم يجرؤ على مفاتحة بروتوس بالمؤامرة

أحد ممن كانوا يطمحون إلى التغيير وينظرون إليه بوصفه الشخص الوحيد - أو الأنسب على الأقل بتحقق هذا التغيير. على أنهم كانوا يأتون ليلاً فيصفّون على كرسيه، الذي اعتاد الجلوس عليه عند فضّ الدعاوى والنظر في الظلامات، أوراقاً فيها مثل هذه العبارات:

«أنت نائم يا بروتوس». «لم تعد بروتوس بعد».

وعندما أحسّ كاسيوس أن الطموح بدأ يتمخّض فيه سارع في إذكائه. وكان كاسيوس يحقد على قيصر حقداً شخصياً لأسبابٍ كثيرة سنأتي إلى ذكرها في سيرة بروتوس.

ولم يكن قيصر يخلو من شك في نوايا كاسيوس فلقد قال مرة لأصحابه:

- ما رأيكم فيما يهدف إليه كاسيوس؟ إني لا أحبه، إنه يبدو شديد الشحوب.

ولما قيل له إن أنطوني ودولابلاّ شريكان في المؤامرة أجاب:

- إني لا أخشى مثل هذين الميدنيين المترفين. لكن أخشى ذينك الرجلين الضعيفين الشاحبي الوجه.

يعني كاسيوس وبروتوس.

ومهما يكن من أمرٍ فالقدر - كما تدلّ الظواهر - هو محتوم أكثر مما هو غير متوقّع. ولقد قيل إن خوارق عديدة وظواهر طبيعية لوحظت قبل تنفيذ المؤامرة. ونحن لا نرى ما يستأهل الذكر في أنوار إضاءت السماء وأصوات سُمعت في الليل وطيور حطّت في الفوروم. فهناك مثلاً ما أورده الفيلسوف سترابو حول مشاهدة عدد من الرجال بدوا وكأنهم سخنوا بالنار يجادلون بعضهم بعضاً. وخروج حزمة نار من يد خادمٍ لأحد الجنود، حتى خيّل للحاضرين أنها احترقت في حين ظلّت سليمة لم يلحقها ضررٌ. وهناك معجزة أخرى رواها كثيرون وهي أن عرّافاً طلب من قيصر أن يحذر خطراً عظيماً سيتعرّض له بعد منتصف آذار Ides[(٧)]. وعند حلول ذلك اليوم لقي قيصر العرّاف بالصدفة أثناء ما هو داخل مجلس الشيوخ فطفق يمازحه قائلاً:

- لقد حَلّ منتصف آذار.

فأجابه العرّاف بهدوء:

- أجل حلّ ولكنه لم ينته بعد.

---

(٧) في التقويم الروماني كلمة Ides تشير إلى الخامس عشر من آذار أو من تشرين الثاني من الأيام السبعة التي تليه.

وفي اليوم الذي سبق اغتياله تعشّى مع ماركوس ليبيدرس. وفيما هو يوقّع بعض الرسائل جرياً على عادته، أثيرت وهو متكئ على المائدة مناقشة حول أفضل ميتة فأسرع يجيب قبل أن يسبقه أحد:

- موت الفجأة.

ثم إنه عاد إلى منزله واستلقى على الفراش إلى جانب زوجه، فإذا بجميع أبواب الدار ونوافذها تنفتح معاً على مصاريعها فأجفل للصوت وبهره الضوء الذي نفذ إلى الغرفة، وجلس على سريره. وفي نور القمر وجد كالپورنيا مستغرقة في نوم عميق إلاّ أنه سمعها تهمس في حلمها بكلمات غير مفهومة وتُصعد أنيناً وآهات. لقد كَانت تحلم بأنها تبكي فوق جثة زوجها وهو مثخن بالجراح يلفظ أنفاسه بين ذراعيها. ويقول آخرون إن الحلم الذي رأته غير هذا. بل رأت البرج الذي قرر الشيوخ بناءه في سطح دار قيصر، بمثابة زخرف وكدليل على الرفعة والسؤدد، قد تداعى وخرّ، وكان هذا سبب بكائها وأنينها، على ما يخبرنا ليڤي. واستيقظت صباحاً وتوسّلت إلى قيصر ألاّ يخرج من الدار إن أمكن وأن يؤجّل اجتماع المجلس إلى موعدٍ آخر. وإن استهان بالرؤيا فحبّذا لو استخار طالعه بتقديم القرابين وأداء بعض الفرائض الأخرى. ولم يكن هو نفسه يخلو من الشكوك والمخاوف. كما أنه لم يعرف من زوجه كالپورنيا شدة إيمانها بالخرافات كغيرها من النسوة. وها هو يراها وقد استحوذ عليها القلق الشديد.

قال الكهنة إنهم نحروا عدداً من الأضاحي فوجدوها منحوسة. فقرّر أن يبعث أنطوني لفضّ المجلس.

وكان ثمّ شخص يدعي ديتيموس بروتوس Decimus Brutus ويلقّب «البينوس» وهو أحد من وثق بهم قيصر وائتمنهم بحيث جعله وريثه الثاني. لكنه كان من الشركاء في المؤامرة. فخشي إن تأجل الاجتماع أن ينكشف السرّ. فأخذ يندّد ويسخر بالعرّافين ويلوم قيصر لأنه سيقيم الحجة على نفسه بإهانة المجلس لأنهم لم يجتمعوا إلاّ بدعوة منه. وقال أنهم على استعداد للتصويت بالاجماع على المناداة به ملكاً لكلّ الإمبراطورية خارج إيطاليا. وسيضعون على رأسه تاج الملك. فلو أرسل من يطلب منهم التفرّق في الوقت الحاضر ثم الاجتماع بعد أن يتفق لكالپورنيا أن ترى حلماً أفضل مما رأت أمس، فماذا سيقول خصومه؟ وكيف السبيل لأصحابه إلى الصبر وكظم الغيظ إن سمعوا تُهم الطغيان والتحكم تُكال له؟ ومع هذا إذا أصرّ أن هذا اليوم يوم نحس فحرّي به أن يذهب هو بنفسه إلى المجلس ويطلب التأجيل. قال هذا وأمسك بيد قيصر وسار به. ولم يمض بعيداً عن المنزل حتى تعقّبه خادم من الخدم فعجز عن اللحاق به

بسبب الازدحام، فقصد منزله وطلب من كالپورنيا متضرّعاً أن تحميه في الدار حتى عودة قيصر لأن لديه أموراً في غاية من الأهمية يريد أن يكشفها له.

وكان ثمّ معلّم يوناني اسمه أرتيمودوروس الكنيدي Artimodorus أفسحت له صناعته المجال للتصرف بيروتس فتمّ له الاطلاع على السرّ. جلب هذا المعلم لقيصر أسماء الرؤوس التي ينبغي له اجتثاثها مكتوبة على ورقة صغيرة. وكان يعلم أن قيصر اعتاد أن يسلّم الأوراق التي تقدّم له إلى أحد الخدم القريبين منه فاقترب منه غاية ما أمكنه وقال له وهو يناوله الورقة.

- اقرأ هذه يا قيصر على انفراد وبسرعة. لأنها تتضمن أمراً خطيراً يخصّك بالذات.

تسلّم قيصر الورقة وحاول قراءتها عدة مرات فأخفق بسبب تزاحم الناس لمكالمته، فأبقاها في يده وحدها حتى دخل المجلس. ويقول آخرون إن معطي الورقة هو شخص آخر، وإن أرتيمودوروس لم يستطيع الوصول إليه وبقي بعيداً عنه بسبب الازدحام.

ربما جرت هذه الأحداث بمحض الصدف والاتفاق. إلاّ أن الموضع الذي قُدّر أن يكون محلّ التنفيذ حيث كان المجلس سيعقد جلسته يومذاك هو واحدٌ من الصروح التي بناها پومپي وأوقفها مع مرسحه للنفع العام، الأمر الذي يوضح أن هناك موجّهاً للأحداث من قوى ما وراء الطبيعة، يفرض وقوعه في زمان ومكان معيّنين.

قيل إن كاسيوس وجّه نظره إلى تمثال پومپي مستمدّاً منه المعونة في سِرّه. مع أنه من معتنقي المبدأ الأبيقوري.

إلاّ أن رهبة الموقف وعِظم المطر أفقداه توازنه العقلي وملآه في تلك اللحظة بنوع من الوحي. أما أنطوني القوي العضل، الذي لم يكن يفارق قيصر، فقد أبقاه بروتوس ألبينوس خارج المجلس وشاغله بحديث طويل اخترعه لهذا الغرض. ودخل قيصر فنهض أعضاء المجلس احتراماً له. وتقدّم بعض المتآمرين فوقفوا خلف كرسيه، وآخرون وقفوا أمامه متظاهرين بمساندة تيلليوس كمبر Tillius Cimber الذي يتشفّع لأخيه المنفيّ. وأخذوا يتبعونه وهو سائر إلى مقعده بكلمات التوسط والاسترحام حتى إذا جلس رفض الاستجابة إلى الرجاء فألحوّا عليه فبدأ يعنّفهم بشدة لكثرة لجاجتهم. وعندها مسك تلليوس رداءه بكلتا يديه وجذبه إلى تحت فكشف عن عنقه وتلك هي الاشارة المتفق عليها بين المتآمرين. وأصابه كاسكا Casca بأول طعنة من خنجره ولم تكن قتّالة ولا بليغة، لأن الضارب كان شديد الاضطراب شأن كلّ بادئ بعملٍ جريء

مثل هذا. فاستدار قيصر حالاً وأمسك بالخنجر ولم يفلته وصاح الضارب والمضروب معاً. قال قيصر باللاتينية:

- كاسكا أيها الخسيس ماذا يعني هذا؟

وقال كاسكا بالإغريقية مستنجداً بأخيه:

- عونك يا أخ!

في المبدأ أصيب كل من لا علم له بالمؤامرة بما يشبه الذهول والوجوم وبلغ الرعب بهم الحدّ الذي شلّ حركتهم فلم يُقدموا على الفرار ولم يجرؤوا على مساعدة قيصر. ولم ينطقوا بكلمة. أما الذين كانوا متهيئين لها فقد شدّوا الخناق عليه من كل صوب بخناجرهم المجردة. فكان يتلقّى طعنةً أنّى توجّه ورأى سيوفهم مسدّدة إلى وجهه وعينيه. وحوصر كالوحش الضاري المكافح. كان الاتفاق فيما بينهم أن يشارك كل واحدٍ منهم بطعنة ويلطخوا أنفسهم بدمه. ولهذا سدّد بروتوس طعنة إلى ما فوق الفخذ. ويقول بعضهم إن قيصر قاوم الجميع محركاً جسمه لتحاشي الطعنات وهو يصرخ مستنجداً إلى أن رأى سيف بروتوس مسلولاً، فحينذاك غطى وجهه بطرف ردائه، وكف عن الحركة وسقط على الأرض عند قاعدة تمثال پومپي. ولا يُعلم أكان هذا مجرد صدفة أم أن قاتليه تعمّدوا دفعه إلى تلك الجهة؟ فتلطخ التمثال بدمه. وهكذا بدا وكأن پومپي نفسه قد تزعّم عملية الانتقام من خصمه فسقط تحت قدميه ولفظ آخر أنفاسه وهو مثخن بالجراح. أصيب على ما قيل بثلاث وعشرين طعنة. وجرح عدد من المتآمرين بأسلحة إخوانهم عند تسديدهم الضربات إلى الشخص الواحد.

بعد أن تم القضاء على قيصر وقف بروتوس خطيباً يشرح الأسباب التي حملتهم على قتله. لكن مجلس الشيوخ كان عازفاً عن سماعه وتسابق أعضاؤه إلى الفرار فملأوا الناس رعباً وقلقاً، فأغلقت طائفة بيوتهم عليهم وترك آخرون حوانيتهم وأماكن عملهم. وصار الجميع يتراكضون في الشوارع، بعض قاصداً موضع الجريمة، وبعض عائد من موضع الجريمة. وأفلت أنطوني وليپيدوس أصدق أصدقاء قيصر. واختفيا في دار أحد الأصدقاء. وخرج بروتوس وشركاؤه ونفوسهم مازالت متوقدة بحرارة الموقف. وتركوا المجلس كتلةً واحدة وقصدوا الكاپيتول والسيوف مشرعة في أيديهم، لا كمن يفكر بالفرار ولكن بثقةٍ واعتزاز.

وكانوا ينادون في الناس أثناء سيرهم أن يستمتعوا بالحرية. ودعوا كل من صادفوه من علية القوم للانضمام إليهم. فالتحق بهم عدد منهم وسار مع موكبهم كما لو كان شريكاً في المؤامرة، وبمقدوره الادّعاء بنصيب من شرف هذا العمل. اليك مثلاً كايوس

أوكتافيوس Gaius Octavius ولنتولوس سبنثر اللذين جوزيا شرّ جزاءٍ على حماقتهما هذه. فقد قبض عليهما أنطوني وقيصر الأصغر فضاع منهما الشرف المنشود، مع حياتيهما. إذ لم يكن أحد ليشكّ في أنهما بريئان حتى أولئك الذين تولّوا إنزال العقوبة بهما فقد كانوا متأكدين أن لا دخل لهما فيها، وإنما أُنزل بهما العقاب لما انطوى عملهما عليه من سوء نيّةٍ. وفي اليوم التالي نزل بروتوس وبقية المتآمرين من الكاپيتول وألقوا خطباً في الجمهور. فأصغى الناس إليها دون أن يظهر عليهم سخط أو رضا. لكنّ صمتهم يوضح أنهم يأسفون لما حَلّ بقيصر، ويحترمون بروتوس.

وأصدر المجلس قرار العفو العام واسدال الستار عما جرى. واتخذ التدابير لمصالحة الفئات المتخاصمة. وتقرر أن يُعبد قيصر كأحد الآلهة، وعدم إلغاء أو نقض أي قانون سُنّ أو عمل جرى أيام حكمه. ثم منحوا بروتوس وصحبه مناصب مختلفة وقيادات خارج إيطاليا حتى ظنّ الناس جميعاً أن الأمور استقرت بشكل ليس أحسن منه.

لكن عندما فُضّت وصية قيصر ووُجد أنه ترك ميراثاً لا يُستهان به لكل مواطن روماني، وعندما حُمل جثمانه إلى الميدان الكبير مثخناً بالجراح، لم يسع الجمهور المحافظة على الهدوء وأسرع المحتشدون بجمع ألواح المصاطب وقضبان الخشب والموائد وكدّسوها ثم رفعوا الجثمان إلى الكومة وأشعلوا النار فيهما. وسحب بعضهم قضبان ملتهبة وهرعوا لإحراق بيوت المتآمرين. وآخرون أخذوا يطوفون بها أرجاء المدينة لعلهم يعثرون على أحد القتلة ليمزّقوه إرباً فلم يجدوا أحداً لأن أولئك اتخذوا التدابير للمحافظة على أرواحهم.

كان ثمّ صديق لقيصر اسمه سينّا رأى في تلك الليلة التي تلت المؤامرة حلماً غريباً. خيّل له أن قيصر دعاه إلى العشاء وعند اعتذاره عن الذهاب أمسك قيصر بيده وسحبه ولكنه تراجع. عندما سمع هذا الرجل أن جثمان قيصر يُحرق في الميدان توجّه إلى الموضع احتراماً لذكراه، وإن كان الحلم قد ملأه بالمخاوف والهواجس ومع أنه كان مصاباً بالحمّى. وسأل عنه أحد المتجمهرين فأجاب شخص قريب منه إنه سينّا وانتشر بين الناس بلمح البصر أنه أحد المتآمرين. (كان ثمّ سينّا آخر بين المتآمرين في الواقع) فأمسكوا به حالاً ومزّقوه إرباً.

وشاع الرعب في نفس كاسيوس وبروتوس بسبب هذه الحادثة. وغادرا إيطاليا خلال أيامٍ قلائل. وقد ذكرنا تفاصيل أعمالهما وما صادفاه وكيفية موتهما في سيرة بروتوس.

مات قيصر وله من العمر ستّ وخمسون سنة. أي بعد موت پومپي بأربع سنوات. ولم يجن غير الشهرة الفارغة والمجد المثير للحسد من تلك الإمبراطورية التي جمع أطرافها، والسلطة التي ظلّ يطلبها طول حياته، بركوب الأخطار والأهوال. إلاّ أن الجنيّ الحارس الذي ظلّ ملازماً له طوال حياته لازمه بعد مماته منتقماً له من قتلته، متصيّداً كل ضالع في المؤامرة براً وبحراً فلم يدع أحداً منهم حيّاً، سواء في ذلك أولئك الذين أنفذوا الأمر فعلاً أم الذين كان لهم نصيب التحريض والحضّ الكلامي.

ومما يخرج عن دائرة الصدفة والاتفاق ما وقع لكاسيوس فقد بخع نفسه بعين الخنجر الذي استخدمه لقتل قيصر بعد هزيمة فيليپاي. وابرز الظواهر السماوية التي وقعت في هذه المناسبة هي ظهور مذنّب ساطع في كبد السماء طوال الليالي السبع التي عقبت مصرع قيصر، وبعدها اختفى. ومنها إظلام الشمس التي استمر قرصها شاحباً مغبرّاً طوال تلك السنة، فلا يبدو بريقها الخاطف عند بزوغها ولا تُعطي حرارة قوية كالعادة. ولذلك أصبح الجوّ رطباً معكراً لحاجته إلى أشعة أقوى تتكفّل بتبديده وتنقيته. ولم تَينع أثمار ذلك الموسم بالشكل المعتاد لعين السبب. وبدأت الفاكهة تذوي وتتساقط لقلة الحرارة، قبل وصولها مرحلة التكوين. والأهم من هذا كلّه الطيف الذي ظهر لبروتوس وهو دليل على أن الآلهة لم تكن راضية عن مقتل قيصر. وإليك الرواية:

كان بروتوس ينوي الانتقال بجيشه من إيبدوس إلى القارّة وقد استلقى ليلةً في خيمة كما هي عادته. ولم ينم وإنما راح يفكر في شؤونه وفي المتوقع من الأحداث. وقد أُثر عنه أنه أقل الناس نوماً، وأن لديه مقاومة طبيعية له وقدرة على السهر والعمل المتواصل دون شعوره بالحاجة إلى الراحة. وخيّل له وهو مستلق أنه سمع صوتاً عند باب الخيمة فأرسل نظره مستطلعاً على ضوء مصباحه الذي كاد ينطفئ. فشاهد هيئة مخيفة شبيهة برجل لكن بقامة غير اعتيادية وملامح قاسية. أدركه بعض خوف أولاً. ولكن الطيف لم يفعل شيئاً ولم يتكلم وإنما وقف صامتاً بالقرب من سريره. فسأله بروتوس عمّن يكون فأجاب الطيف:

- أنا الجنيّ الشرير يا بروتوس، وستلقاني في فيليپاي.

فأجاب بروتوس بكل شجاعة:

- حسن، سألقاك هناك.

وغاب الطيف فجأة. وعندما حان الوقت صفّ جيشه قرب فيليپاي مقابل جيش أنطوني وقيصر الصغير. ودارت الدائرة على خصومه أولاً وهزم العدوّ ونهب معسكر

قيصر. وفي الليلة التي سبقت المعركة الثانية ظهر له الطيف ثانية ولم يكلمه. فأدرك في الحال أن نهايته دنت. وعرّض نفسه لكل أنواع المخاطر في المعركة فلم يُقتل. ولما رأى رجاله يولّون الأدبار مقهورين صعد صخرة وجرد سيفه وسدّده إلى صدره العاري وبمعونة أحد أصدقائه بخع نفسه.



دينار قيصر ٤٤/ ق.م المتحف البريطاني

فوكيون

PHOCION

٤٠٢–٣١٨ ق.م

بلغ ديماديس Demades الخطيب في أثينا أوجَ سلطاته بين الاثينين باعتباره مستشاراً للدولة في شؤون العلاقة مع أنتيپاطر والمقدونيين. وكانت الضرورة تُلجئه إلى كتابة وقول ما هو دون سمعة المدينة وعطانتها. وكان يعتذر لنفسه قائلاً إنه يدير دفّة حطام سفينة لا غير. ولو طُبّق هذا القول السليط الوقح على فترة حكم فوكيون لكان أقرب إلى الحقيقة. فديماديس في الواقع كان حطام بلاده لا غير، يحيا حياةً فاسدة، ويحكم حكماً فاسداً، حتى قال عنه أنتيپاطر:

- بعد أن طعن ديماديس في السنّ صار أشبه بالأضحية. أتت النار عليها ولم تُبق منها غير الكرش واللسان.

وبخلاف ذلك فوكيون، فقد كان الفضيلة مجسّمة. لكنّ عاديات الزمن العاثر حققت الغلبة لنفسها عليه في مباراة غير متكافئة. فخمل ذكره وضاع في زوايا النسيان بسبب سوء حظّ اليونان. ولن نسمح لأنفسنا بأن نوافق سوفوكلس في إغراقه باستصغار قوة الفضيلة حين يقول:

«عندما يعثر الحظ يتخلّى العقل عَنّا أيضاً، ويذهب إلى حيث لا عودة».

ومع هذا فإن الصراعات بين أفاضل الرجال وسوء الحظّ يمكن أن تحصل في الواقع. فبدلاً من التكريم والامتنان اللذين يستحقونهما جزاءً تجدهم يقاتلون في أغلب الأحيان بسوء الظنّ والنقائص لإضعاف إيمان الآخرين بفضائلهم.

ومما هو معروف سائد أن الهيئات الشعبية هي أكثر الجهات إهانة للطيّب من الرجال وازدراءً لهم عندما يبطر الشعب بالرخاء وينتفخ زهواً بالنجاح. وكثيراً ما يحصل العكس أيضاً فالنوائب والنكبات العامة تحطّ وتفسد عقول وأمزجة الرجال، حتى تصل بهم إلى المشاكسة والحِدّة فيصعب جداً توجيه كلمة طيّبة إليهم أو إظهار عاطفة صادقة نحوهم، فإنهم يشعرون وكأنهم يُهانون، ومن يحاجّهم في أخطائهم يعتبرونه متشفّياً بسوء حظوظهم، ويؤوّلون أيّ نقاش يجري معهم بأنه استهزاء واحتقار لهم. إن العسل

يوجد في مواضع عسيرة المنال تصيب طالبها بخدوش وجروح. وأكثر النصائح اتزاناً وأوفرها حكمة هي عند العقول المريضة مغيظة مستنفزة إلاّ إذا تمّ عرضها وتقديمها بممهّدات ملطّفة رقيقة الحاشية.

والشاعر يتناول بالوصف موضوعات مقبولة بصورة عامة بكلمة معبّرة، ذات وقع لطيف مستحبّ فلا تغيظ ولا تستفزّ. إن العيون المقروحة تتطلب المحلّ المعتم لكي لا تقع الا على الألوان الغامقة، لأنها لا تتحمل الضوء الساطع، كذلك السياسة ففي الوقت العصيب، وفي أيام الذلّ والضنك، تسود الناس حساسيّة عالية ومرارة. وبقابلية تحمّل ضعيفة تجد كل نصيحة خالصة صريحة - مهما كان الموقف يتطلبها - تحتاج إلى هذه الحيطة. وعندما تكون آثار الخطأ غير قابلة للإصلاح يكون تصريف الشؤون العامة عملاً مزعجاً محفوفاً بالأخطار مهما بلغت اليد الممسكة باعنتها من الحذق والمهارة. ويبتلع الدمار التام والانهيار العام أولئك الذين يسايرون الشعب ويتطرفون له. أما أولئك الذين يحاولون قيادة الشعب إلى السبيل القويمة فإنهم يهلكون في أوّل المحاولة.

ويحدثنا الفلكيون بأن حركة الشمس ليست على تمام اتساق مع حركة الفلك بصورة عامة، كما هي ليست معاكسة له أو متقاطعة معه، ولكنها تتخذ مساراً مائلاً وتتعقّب خطاً قوسياً غريباً فتنساب بهدوءٍ وليونة لتوزع ضياءها وحرارتها أثناء دورتها السنوية ذات الفصول المختلفة المنقسمة قسمةً عادلة على الأرض. وهذا ما يحدث في عالم السياسة فان كانت حركة الحاكمين معاكسة ومضادة لأمزجة المحكومين وميولهم فإن هؤلاء سيضيقون بها ويعتبرونها قسوةً من حكامهم واستبداداً. ومن الناحية الأخرى فإن التغاضي الكثير والتشجيع - كما يحصل في أغلب الأحيان - يزيد في أخطاء المحكومين وزيغهم فيكون مليئاً بالخطر ذا عواقب وخيمة. إن السياسي الحقيقي هو الذي ينجح في إرضاء شعبه بحيث يتيح له المجال للشعور بالمصلحة العامة والثبات عليها، فعندما يكون التنازل الشعبي استجابة للطاعة الاختيارية المستمدة من ذلك الشعور عندئذ تجد المحكومين أكثر استعداداً للخدمة والطاعة - كالعبيد يمكن إرشادهم وحكمهم بالشكل الذي يصونهم ويصون مصالحهم شريطة أن لايزجروا أو يضطهدوا أو يعاملوا بقسوة.

وعلينا الإقرار أنه بقدر مما هو جميلٌ حسنٌ أن يطرأ بعض التعديل على الملاينة والمسايرة للمحافظة على سلطة الحكومة فهو صعب عسير المنال. لكن إن أمكن الوصول إلى هذا المزيج المفيد فإن التعاضد والتوافق يكونان في أحسن حالهما.

ولنعلم بأن الله نفسه يحكم العالم لا بالقوة التي لا تطاولها قوة، بل بالحكمة والعقل المقنع وبالغايات الخالدة.

إن كاتو الأصغر هو مثل شبيهٌ بالمترجَم له. لم تكن أخلاقه مقبولة، ولم يكن طبعه مَرضيّاً من الناس وقليلٌ من أحبّه. أنظر كيف تصرّف في انتخابات القنصلية. وبهذا يقول شيشرون:

– خسر المنصب لأنه كان يتصرّف وكأنه أحد مواطني «جمهورية أفلاطون» غير مدرك أنه كان يعمل بين حثالات نسل روملوس.

ويلاحظ الشيء نفسه في الفاكهة الناضجة قبل أوانها. إننا نستمتع بالنظر إليها والإعجاب بها أكثر من استمتاعنا بأكلها. فكانت فضائله وأخلاقه ذات الطابع القديم البعيدة عن روح العصر تعيش بين العادات الفاسدة التي حملها الترف والعطن إلى ذلك العصر. فبدت رائعة غريبة في ذلك الجوّ وكانت أسمى وأجود من أن تلائم متطلبات العصر أو أن تتفق مع روح الزمن واتجاهاته. ومع هذا فإنه تولّى ادارة الدفة وقد بدأت السفينة تميل إلى الغرق. كان عصر كاتو في الواقع مضطرباً تعصف به الأهواء من كل جانبٍ ومع ذلك تمكن من مدّ يده لمساعدة الملاحين (ولم يُسمح له بأن يكون واحداً منهم)، لذلك فاللوم لايقع عليه بل عليهم. على أن شجاعته ومتانة خُلقه أحبطت على الحظّ محاولته في تدمير الجمهورية رغم كلّ ما حدث. ولم تقع الواقعة أخيراً إلاّ بعد فترة طويلة وبعد التدرّج البطيء وبذل الجهود، في حين كان كاتو على قاب قوسين من النجاح.

ومن المناسب كثيراً أن نجري مقارنته بفوكيون لا لمجرد التشابه في الخصائص العامة. كقولنا إنهما شخصان طيبان وسياسيان عظيمان. مما لا شكّ فيه أن ثمّ فروقاً كبيرة بين الأخلاق ذات المنحى الواحد كالفرق مثلاً بين شجاعة ألكيبيادس وإپامنينداس، وبين حذر تميستوكلس وأريستيدس، وبين عدالة نوما وأغيسلاوس. إلاّ أن أخلاق هؤلاء الرجال مجتمعةً تتّسم بعين الطابع العام واللون والصفات بحيث لايمكن تمييز الفرق وإن تأملنا أدق نقاط الاختلاف فيما بينهما. فالمزيج متحقق بعين النِّسب بتأكدنا من شمولها على عين العناصر المكوّنة لها: ابتداء من الرفق وانتهاء بالتزمّت، لا بأقدام في موقفٍ والإحجام في موقف، بالدفاع المتطرف عن مصالح الشعب، والإهمال التام لأنفسهم، بالإقدام بميلهم المقيم إلى كل الأعمال السامية بغاية من اللطف وحرصهم على مجانبة كل ما هو تافه حقير. لذلك يلزمنا منطق سليم مقارن. وعقل حصيفٍ نافذ لاستخلاص الفوارق بين كاتو وفوكيون.

أما عن أصل كاتو فممّا لا يُنكَر أنه كان أصلاً عريقاً لامعاً كما سنفصّله فيما بعد. ولم يكن أصل فوكيون وضيعاً أو خاملاً. ولو كان ابن خرّاطٍ كما أدعى أيدومينوس Idomoneus لكان گلاوكيپوس Glaucippus ابن هيپيريدس Hyperides قد اتخذ الزعم للحطّ من شأنه، وهو الذي جمع آلاف العيوب والنقائص عنه. كذلك لم يكن بمقدور فوكيون، وأبوه بهذه الحال من الضيق المالي، أن ينال مثل ما نال من التربية والتهذيب العالي في صدر شبابه. فقد تتلمذ على أفلاطون ثم على كزينوقراطس في الأكاديمي. وأوقف نفسه منذ البداية على ممارسة أشرف الأعمال، ومتابعة أعلى الدراسات. وكانت ملامح وجهه في غاية الهدوء وقلّ أن رآه أثيني يضحك اويبكي. ويقول دوريس إنه نادراً ما عُرف عنه ارتياده الحمّامات العامة، أو شوهدت يده خارج معطفه عند ارتدائه معطفاً. وإذا كان خارج أسوار المدينة أو مخيّم يُبدي مدى احتماله قسوة الجوّ في أنه لا يرتدي إلاّ الخفيف من الثياب ولا يمشي إلاّ حافي القدمين، إلاّ عندما يكون البرد على أشدّه. وإذ ذاك يقول الجنود مازحين حين يرون فوكيون مرتدياً معطفه:

– لا شكّ أن شتاء هذه السنة سيكون قاسياً.

كانت قسمات وجهه صارمة قاسية منفّرة، في حين لم يضارعه أحد في طيبة قلبه. ولا يرى برفقةٍ أحد إلاّ إذا كان من أصدقائه الخلّص القلائل. أبدى خاريس ملحوظة على قطوبه وجهامته فأضحك بها الاثينيين، فقال فوكيون:

– إن جهامتي لم تورث أحداً منكم الحزن. إلاّ أن فكاهات هؤلاء الرجال أورثتكم من الآلام ما فيه الكفاية.

هكذا كانت أحاديث فوكيون دوماً، ملأى بالتوجيه الأدبي، مفعمة بالحِكَم الجميلة، والأقوال البليغة، لا تسمح بأي مجال للتزويق والتنميق في إطار إيجازها الجافّ الهادف. يقول زينو: على الفيلسوف ألاّ يتكلم إلاّ عندما يُشبع كلماته بالمعاني. وكذلك هي أقوال فوكيون فقد حفلت بأعظم المعاني والمفاهيم المؤدّاة بأقصر الجُمل وأوجزها. وربما كان پوليوكتس Polyeuctus السفتيوني Sphettion يقصد هذا بقوله: «إن ديموستينس كان في الواقع أعظم خطباء زمانه، إلاّ أن فوكيون كان أقوى متكلم». كانت خطبه أشبه بقطعة النقدِ الصغيرة ذات القيمة العالية، لا يمكن تقديرها بحجمها بل بقدر ما تحويه من القيمة الحقيقية.

شوهد مرة على ما يقال وهو يمشي منشغل البال خلف الملعب بعد أن امتلأ المسرح بالنظّارة. فانتبه إليه صديق فابتدره يسأل:

- أراك يا فوكيون منشغل البال.

فأجابه فوكيون:

- أجل. أنا أفكر في اختصار ما سأقوله للأثينيين.

وديموستينس نفسه الذي كان يحطّ من شأن كل خطباء زمانه، ما إن يقوم فوكيون للكلام حتى يهمس في آذان القريبين منه: إليكم سكّين تقليم عصرنا.

وعلى أكثر تقدير لا يعود هذا إلى بلاغة فوكيون قدر ما يعود إلى قوة تأثير شخصيته. فإيماءة، ولا نقول كلمة، تصدر من شخص رفيع المكانة لهي أقوى وقعاً من ألف محاورة أو عبارة مدروسة يلقيها الآخرون.

والتحق بخبرياس Chabrias الجنرال، وهو بعدُ فتى يافع وأخذ عنه الكثير في الفنّ العسكري، واكتسب ذاك منه ما ساعده على إصلاح طبعه المتقلّب غير المتوازن. فقد كان خبرياس عسكرياً مقداماً صوّالاً ينسى حاله عندما يحمى وطيس المعركة فلا يرى نفسه إلاّ وهو يتقدم الصفّ الأول، الأمر الذي كلّفه حياته بالأخير عند جزيرة خيوس فقد دفع بسفينته إلى الأمام حتى ارتطمت باليابسة.

لكن فوكيون - فضلاً عن شجاعته - كان هادئ النفس متأنياً صبوراً. لديه من البراعة ما يكفيه لدفع القائد إلى القتال عندما يأنس منه المماطلة والتسويف. ولديه من الحذق ما يمكّنه في ظرف آخر من تهدئه انفعاله ووقف اندفاعه الجائح الذي لا مبرّر له. لذلك مال إليه خبرياس الرقيق الحاشية الطيب القلب وآثره بحبه وأسند إليه القيادات وأتاح له فرص العمل وأفسح له المجال والوسائل ليجعل اسمه علماً في بلاد الإغريق. وساعده في العمليات الكبيرة، لاسيما القتال البحري في نخسوس الذي رفع صيت فوكيون إلى الأوج. فقد أناط به قيادة قِطع الميسرة واحتدمت المعركة في هذا الجناح بالذات وتركّز ثقلها عليه فبتّ مصيرها بنصر سريع. وكانت تلك أول معركة بحرية ناجحة خاضتها المدينة بقواتها الخاصة بعد أن نفضت عنها سيطرة المحتل. فاستطارت شهرة خبرياس بها وغدّ فوكيون بسببها من القادة المجيدين. واتفق أن النصر وقع في يوم الاحتفال بعيد «الأسرار الكبرى» ولذلك جعل خبرياس عادته لتخليد ذكر اليوم المجيد بتوزيع الخمر مجّاناً على الأثينيين في السادس عشر من شهر «بيودروميون» سنوياً.

أمر خبرياس فوكيون بالإبحار إلى سكان الجُزر ومطالبتهم بسهمهم من مهمات الحرب ونفقاتها وزوّده بعشرين سفينة لحراسته. فقال له فوكيون:

- إن كنت تريدني الذهاب إليهم كأعداء فهذه القوة لا يؤبه بها. وان كنت تعتبرهم أصدقاء وحلفاء فتكفيني سفينة واحدة.

وأقلع بسفينة فحسب فزار المدن وكان لقاؤه بالحكام لقاء صداقة وأخوّة وعاد بعدد من السفن، أرسلها الحلفاء إلى أثينا لنقل المهمات. وامتدت آثار صداقته لخبرياس إلى ابنه بعد وفاة هذا الجنرال، فضلاً عن سائر أقربائه. فقد حاول فوكيون جهده أن ينفعه ويرعاه. وكان شاباً غبياً عنيداً لايسلس قياده، لم يألُ فوكيون جهداً في إصلاحه وتقويمه وتغطية هفواته وزلاّته. ومرة بدا له هذا الفتى مزعجاً وقحاً في المعسكر بطرحه أسئلة سخيفة وبمقاطعة فوكيون وإقحام آرائه الفجّة ومقترحاته في كيفية وضع الخطط الحربية، فضاق به ولم يتمالك نفسه من القول:

- أي خبرياس! خبرياس، أترى إلى أي حَدّ بلغ تمسّكي بصداقتك وإظهاري الامتنان من جميلك باحتمالي ابنك هذا؟

لاحظ فوكيون عند تصريفه الشؤون المدنية العامة أن الادارة الداخلية كانت تتبع سياسة المحاباة باقتسام المغانم ما بين أعضائها وابتلاعها. فمثلاً أصبحت الأراضي نهباً مقسّماً بين العسكريين والخطباء. لا تتدخل إحدى الفئتين لصالح طرف ثالث مدّعٍ. كان الخطباء يتكلمون في الاجتماعات العامة، ويحصون الأصوات ويهيئون القراراتِ والمقترحات، من أمثال يوبولوس Eubulus وأرسطوفون Aristophon وديموستينس وليكورغوس وهيپريدس وكلهم يحصلون على ما يريدون وهم في مأمن من معارضة العسكريين أمثال ديوپيتس Diopethus ومينيتوس وليوستينس Leosthenes وخاريس فهؤلاء يجمعون ثرواتهم من الحروب والقيادات التي يتولّونها فلا يلقون أي اعتراض من الفئة الأولى. وأراد فوكيون من جهته العودة إلى النظام القديم في توزيع الأراضي وكان كاملاً مُحكَماً بحدّ ذاته، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع الصالح العام، منذ أيام پيريكلس وأريستيديس وصولون. وهكذا ظهر الساسة بالمظهر الذي ينطبق عليه قول أرخيلوخس Archiloches:

- إن أصحاب مارس والميوزات الذين أُعِدّوا للفن والسلاح، مالوا معاً إلى بعضهم بعضاً.

ولم يفته أن الآلهة الفضلى للمدينة إنما هي حامية الحكمتين: الفنيّة والعسكرية في آن واحدٍ.

بهذه الأفكار، وفي الوقت الذي كان ينصح وطنه بالإخلاد إلى الهدوء والتمسّك بأهداب السلم والابتعاد عن الحرب، تراه قد تقلّد منصب القائد الأعلى مرّات تزيد عمّا

تقلّده أي سياسيّ آخر عاصره أو سبقه. مع أنه لم يشجع إيفاد حملات عسكرية ولم يساهم في تأليف واحدة، في الوقت الذي لم يرفض أو يعتذر عندما يُنتخب للقيادة العامة بالاقتراع. لقد بات مؤكداً أنه انتُخب قائداً عاماً خمساً وأربعين مرة. ولم يؤثر عنه أنه حضر بشخصه مرة واحدة في أي انتخاب منها. وإنما كان يُستدعى بعد فوزه من خارج الجمعية ليتقلّدها. وكانت الدهشة دائماً تستولي على أولئك الذين لم يتوقّعوا أن يضع الشعب ثقته في فوكيون لأنه كان أبعد الناس عن محاولة كسب عطف الجمهور والتزلّف إليه. بل كان في خلافٍ دائم معه، لا يألو جهداً في كبح جماحه والحدّ من اندفاعه.

يعمد الأمراء والعظماء إلى دعوة بطانتهم من المتملّقين والمتزلّفين عندما يبسطون مائدة طعامهم. والمثل نفسه ينطبق على الأثينيين. فعند المناسبات التافهة تراهم يدعون متكلّميهم الفصحاء ذوي العبارات المتأنقة الطلية لتسلية أنفسهم والترويح عنها. فإذا جَدّ الجدّ وتأزم الموقف رأيتهم حذرين هادئين، قادرين على اختيار الأعقل والأرزن لتولّي مهام الدولة، مهما كان موقفه صارماً من مشاعرهم ونزواتهم. وهذا ما لم يحاول فوكيون نكرانه، عندما تُليت النبوءة الواردة من دلفي وقد جاء فيها: «إن الأثينيين كلهم على رأي واحد. ولا يتوقع الا مخالف فرد يتقدم إلى الامام غير هيّاب ولا وجِل ويقول لهم: لستم بحاجة إلى النظر أبعد مني. إنه الرجل المنشود. لا رجل إلاّ هو، ذلك الذي لم يُرضِه أي شيء فعلوه».

ومرة أعطى رأيه للمجتمعين في قضيّة فقوبل بهتاف الاستحسان بالإجماع فالتفت إلى بعض أصدقائه غير مصدّق وسأله:

- أقلت شيئاً سخيفاً دون انتباه؟

وفي مناسبة اجتماع عام احتفالاً بالعيد، طُلب منه أن يتبرّع بشيء كسائر المتبرّعين. واشتدّ إلحاح الناس. فأشار عليهم أن يتوجّهوا إلى الأغنياء، لأنه يخجل أن يقدم تبرّعاً «هنا» في حين يرى نفسه مضطراً إلى الوفاء بدين عليه «هناك». واستدار وأومأ بإصبعه إلى كالليكلس Callicles المرابي. الا أن الجمهور لم يدعه وازداد لجاجة وصخباً، فأسمعه الحكاية الآتية:

خرج امرؤ جبان إلى الحرب، فسمع الغربان تنعق فوق رأسه وهو سائر. فألقى بسلاحه وقرر الرّيث. إلاّ أنه بدّل رأيه حالاًورفع سلاحه مستأنفاً سيره. وسمع النعيق مرة أخرى فتوقف ثانيةً وخاطب الغربان قائلاً:

- إنعقي حتى تنفلقي. فلن أكون لك طعاماً.

وألحّ الأثينيون على أن يشتبك مع العدوّ وكان الظرف غير مؤاتٍ فرفض رفضاً قاطعاً، فوصموه بالجبن وخور النفس. فقال لهم :

- في هذه الساعة فقط اعملوا ما شئتم ولن أكون شجاعاً أو اعملوا ما سأعمل ولن تكونوا جبناء. ونحن على كلّ حال نعرف أنفسنا معرفة جيدة.

ومرةً اشتد سخط الأهالي عليه في ظرفٍ خطير للغاية، وطالبوه بتقديم حساب دقيق في وجوه صرف الأموال العامة وغيرها. فقال لهم:

- عليكم يا أصدقائي الأعزاء أن تتأكدوا أولاً من سلامتكم.

وبعد حربٍ كان الأثينيون خلالها طيّعين ليّني العريكة حتى تم عقد معاهدة سلم. وإذا بهم يعودون كما كانوا من الصخب والشغب والاعتداد بالنفس. وأنحوا باللوم على فوكيون، واتهموه بأنه كان سبب فشلهم في القتال. فكان جوابه الوحيد على زعمهم قوله:

- أنتم سعداء الحظّ يا أصدقائي لأن لديكم قائداً يعرفكم حق المعرفة. ولولا هذا لذهبت ريحكم منذ زمن بعيد.

ووقع نزاع حدود بينهم وبين البويوثيين، فاتفق مع هؤلاء على التسوية بالمفاوضة. فإذا بهم يلجأون إلى الاشتباك والعراك فقال لهم:

- الأجدى لكم أن تواصلوا القتال بالسلاح الذي امتزتم به وهو ألسنتكم، لا بأسلحة الحرب التي لا تتقنونها.

ومرة كان يخطب فيهم، وهم لا يريدون الإصغاء إليه ولا يدعونه مستمراً، فقال لهم:

- قد تحملونني على تنفيذ ما هو ضد رغباتي. لكنكم لن ترغموني على قول ما لا أؤمن به.

وكان ديموستينس من الخطباء الذين دأبوا على معارضته. وقد أنذره مرة بقوله:

- في يوم ما سيفتك الأثينيون بك يا فوكيون، عندما يجتاحهم الغضب.

فأجاب فوكيون:

- وسيفتكون بك أنت عندما يرتدّ إليهم صوابهم.

ومرة راح پوليؤكتوس السيفتي يحرّض الناس على قتال فيليب. وكان اليوم قائضاً وهو شحيم لحيم فأخذ يلهث وانبهرت أنفاسه بالحرّ الشديد فكان يتناول ماء بين آونة وأخرى. فقال فوكيون مشيراً إليه:

- دونكم الرجل الذي يصلح لقيادتنا في الحرب! ماذا سيكون من أمره بعد أن يشدّ

درعه ويحمل ترسه لمقارعة العدوّ؟ وها هو أمامكم يلقي عليكم الخطب المنمّقة. وقد كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة من فرط الإعياء.

ولما شرع ليكورغوس في الجمعية العمومية يبدي ملاحظاته العديدة حول سلوكه، ويؤنّبه بصورة خاصة على نصيحته بتسليم المواطنين العشرة الذين طلبهم الإسكندر من الأثينيين، أجاب فوكيون بقوله:

- كنت قد أدليت بنصيحة أنفع وأضمن ولم يؤخذ بها.

وكان ثمّ شخص يدعى أرخيبيادس Archibiades ويلقّب بـ«اللقيديموني» اعتاد إرسال لحية ضخمة والخروج بمعطف مهلهل قديم، وبسيماء صارمة جداً. ومرة تعرّض فوكيون للهجوم في الجمعية، فاستنجد فوكيون بالرجل وندبه لمعونته وشهادة بحقّه. ونهض هذا وشرع يتكلّم بما يفيد الموافقة على أقوال خصوم [فوكيون] واضعاً يده على لحيته، فقال فوكيون:

- إيه يا أرخيبيادس. لقد أزف الوقت لحلاقتك.

كان أرسطوجيتيون Aristogition المدّعي العام رجل حربٍ مخيف ضمن نطاق جلسات الجمعية العامة، همّه إثارة شعور الأهالي وتحريضهم على القتال. فلمّا أزف يوم السَّوق وتجنيد الصالحين للقتال أقبل وهو يقزل متوكّئاً على عكّاز وساقه مربوطة بلفاف. وتبيّنه فوكيون من بعيد. وما أن دنا حتى صاح فوكيون بالكاتب.

- أخرج أرسطوجيتيون أيضاً. بوصفه أَقْزَل ولا نفع يرجى منه.

لذلك كان من أغرب الأمور انّ شخصاً كفوكيون صارماً جافي الطبع في كل المناسبات يشتهر بلقب «فوكيون الطيّب». ومع ذلك فليس من الصعب في رأيي أن تكون أمزجة الرجال كالخمر - طيّبة وحِرّيفة عند المذاق في الوقت نفسه. ككثير من الأطعمة الحلوة - عندما يذوقها المرء لأول مرة، يجدها بعد التكرار كريهة مجّة ضارّة. وقد رُوي أن هيپريدس قال للناس مرةً:

- لا تسألوا أنفسكم يا رجال اثينا: أأنا مُقذِع الهجاء لاذع اللسان أم لا؟ بل سلوها أأنا مأجور لأكون كذلك أم لا؟

كأن الطمع هو العامل الوحيد الذي يجعل المزاج الحادّ كريهاً ممقوتاً بل كأنه محظور على الناس أن يعرّضوا أنفسهم للسخط العام باستخدامهم سلطاتهم ونفوذهم للتمادي في إظهار طباعهم الشخصية كالكبرياء، والغضب والاضطغان. وفوكيون لم يسمح لنفسه مطلقاً باستخدام شعور عدائه أو كرهه للإضرار بأي مواطن. في الواقع لم

يكن يعتبر أحداً عدواً له الا عندما لايجد من سبيل له غير مهاجمة المعارضين في الإجراءات المفيدة للصالح العام بكلّ عنف وبدون رحمة. في مثل هذه المعارك تجده والحق يقال خصماً عنيداً صلفاً غير مهادن. أما في حالاته الاعتيادية فهو مهذّب لطيف، متواضع للجميع دون استثناء. حتى أنه كان يحدب على خصومه السياسيين وينشد صداقتهم ويهتمّ بهم أن وقعوا في محنة. ويتبنّى قضايا من هم في أشدّ الخلاف معه، ويحميهم إن كانوا بحاجة إلى حماية. وقد لامه أصحابه مرةً لدفاعه عن رجل دي أخلاق مشبوهة. فقال إن البريء ليس بحاجة إلى من يدافع عنه.

ألحّ أرسطوجيتيون المتملّق الذليل السالف الذكر بطلب التحدث إلى فوكيون. وكان قد أُلقي في السجن بعد صدور حكم عليه. فحاول أصدقاؤه أن يثنوه عن الزيارة فقال:

- كلاّ واسمحوا لي من فضلكم. فأيّ مكان اختاره لزيارة أرسطوجيتيون خير من هذا المكان!

وكان حلفاء أثينا وأهل الجزر يحذّرون ويتوجّسون شراً من كلّ أميرالٍ يُرسل إليهم فيضعون المتاريس على المداخل. ويسدّون موانيهم في وجهه، ويجمعون مواشيهم وعبيدهم ونساءهم وأطفالهم ويغلقون دونهم أبواب قلاعهم، خلا فوكيون. فما إن يعلموا بقدومه حتى يخرجوا بزوارقهم ومراكبهم الخاصّة للقائه والترحيب به رافعين الأعلام وضافرين أكاليل الزهر. فسيتقلبونه عند نزوله البرّ بكل مظاهر الفرح والغبطة.

توغّل فيليب الملك في يوبيا Eubaea ونقل جيوشه من مقدونيا وأرسلها لإخضاع المدن مستميلاً الطغاة الذين يحكمونها. فاستجار پلوتارخ الأرتيري بالأثينيين وطلب منهم العون على إنقاذ جزيرته التي كادت تقع في أيدي المقدونيين. فأُرسل فوكيون إليها على رأس شرذمةٍ من الرجال لعلّ اليوبيين يلتفّون حولها فتكون نواة لجيش يدافع عن الجزيرة. لكنه وجد الجزيرة في حالٍ يُرثى لها من الفوضى. لقد قام عملاء فيليب وصنائعه بالمهمة خير قيام فسلّموا إليه البلاد كلها، وشعر فوكيون وكأن الأرض التي يسير عليها ملغّمة. وأحدق به خطر عظيم فما كان منه محافظة على نفسه إلاّ أن يختار نشزاً صغيراً من الأرض يفصله مجرى ماء عميق عن السهول المنبسطة المحيطة بتاميني Tamynae. فحوّط النشز وحكمه ووضع فيه الصفوة المختارة من جنوده. وأمر ضباطه بالاّ يعترضوا سبيل أولئك الثرثارين والفوضويين الأشرار من السكان إن هم خرجوا من المعسكر وعادوا من حيث أتوا. وحجّته في ذلك أنهم سيكونون عالةً لا يُرجى منها نفع ولايمكن السيطرة عليهم وسيصبحون فضلاً عن ذلك عقبة فعلية. وإنهم بإدراكهم

عجزهم عن القيام بالواجب المفروض عليهم سيكونون أقل استعداداً لإساءة تصوير عملهم وسيكذبون أو سيحرّضون الغوغاء عليهم عند العودة. ولما اقترب العدو حذّر فوكيون رجاله من الاشتباك حتى يفرغ من تقدمة القرابين. وقد تأخر كثيراً فيه إمّا بصعوبة نشأت أثناء إجراء المراسم الدينية، وإمّا كان يتعمّد ذلك ليغري العدو بالتقدم أكثر مما فعل. لكن پلوتارخ صاحب الجزيرة فسّر تلكؤه بالجبن وخور العزيمة، وهاجم العدو بمرتزقته. فلم يسع خيّالة فوكيون إلاّ أن تندفع من المعسكر، بنظام مختلّ وفوضى لا مثيل لها؛ وحلّت الهزيمة بأول المهاجمين، وسرت الهزيمه إلى البقية. وهرب پلوتارخ لا يلوي، وتقدّمت بعض وحدات من العدو تريد الاستيلاء على المعسكر متوهّمة أن نصرهم كان تاماً. في تلك الساعة كان فوكيون قد فرغ من تقديم القربان فاندفع الأثينيون من المعسكر وألقوا بأنفسهم على العدوّ وهزموه وفتكوا بالقسم الأكبر منه أمام الخندق أثناء محاولته الفرار. وبعدها أمر فوكيون مشاته بالمزيد من اليقظة في مراقبة حركات العدوّ. وبعد أن أكمل تنظيم صفوف الناجين من الهزيمة الأولى ندب نخبة من خيرة رجاله واشتبك مع العدو في معركة دموية حامية أبدى فيها الجميع بسالة وإقداماً لا مزيد عليهما. وحاز شرف ذلك اليوم تاللوس Thallus ابن كينياس Cineas وگلاوكس Glaucus البوليميدي Polymedes اللذان كانا يقاتلان إلى جنب القائد العام. وقام كليومانس بدور ممتاز في المعركة فبعد أن أصلح من وضع الخيّالة وردّ إليها معنوياتها راح يستنهض هِمَم الفرسان ويشجعهم بصيحاته الحماسية، ثم قادها لمساعدة قائده الذي كان يعاني ضيقاً شديداً فعزّز النصر الذي نالته المشاة وثبّته. وطرد فوكيون پلوتارخ من الجزيرة واحتلّ قلعة زاريترا Zaretra الهامة جداً لموقعها، كما يقال، في مخصرة الجزيرة. لأن البحر يحتضنها من الجانبين في مكان تضيق الجزيرة كضيق الخصر في الجسم.

وأطلق فوكيون سراح كلّ الإغريق الذين وقعوا في أسره، خوفاً من ألسنة خطباء أثينا التي قد تحمل الأهالي على ارتكاب عملٍ من أعمال القسوة والعنف في فورة من الغضب. وبعد أن أنجز واجبه هذا من كلّ الوجوه أقلع إلى الوطن. وكان للحلفاء أقوى سبب لأسف الأثينيين على حرمانهم تجاربه وشجاعته فإن مولوس Molossus الذي خلفه في القيادة لم ينجح إلاّ بإفلاته حياً من أيدي العدوّ. وتقدم فيليب ورأسه مفعم بالخطط والآمال الجسام فتوغّلت قواته في الهللسپونت. واحتل الخرسونيز، وپيرينثوين Preinthus. ثم حاصر بيزنطة، فجرّد الأثينيون قوة لنجدة البيزنطيين. وعمل الساسة الخطباء أقصى جهدهم لانتخاب خاريس قائداً عاماً، فلم تحقق قيادته

شيئاً جديراً بالقوات التي وُضعت تحت إمرته. كانت المدن تهتزّ رعباً منه وتأبى استقبال سفنه، جابياً الأموال من الحلفاء ومحتقراً من الأعداء.

وبلغ السخط بالأهالي مبلغه. وأثار الخطباء غضبه فأظهر ندمه على إرسال النجدة إلى البيزنطيين. فنهض فوكيون قائلاً:

- ليس حَرِياً بكم أن تحنقوا على الحلفاء لفقدانهم الثقة بكم. بل عليكم أن تحنقوا على قوّادكم لأنهم ليسوا أهلاً للثقة. إنهم يضعونكم موضع الشكّ حتى لدى أولئك الذين يعجزون عن الصمود إلاّ بمعونتكم.

وكان وقْعُ هذا الكلام شديداً على الجمعية العامة فعدلت عن قرارها الأول وأمرته في الحال أن يؤلف قوة أخرى ويقلع إلى نجدة حلفائهم في الهللسپونت. فكان هذا التعيين أكبر عاملٍ في إنقاذ بيزنطة من يد الغازي. إذ كان اسم فوكيون علماً وسُمعته داوية. وكان في مدينة بيزنطة رجل عُرف واشتهر عند البيزنطيين بفضائله يدعى ليونهو أحد رفاق فوكيون في الأكاديمي منذ أيام التلمذة. فضمن هذا الرجل سلوك فوكيون أمام المدينة ففتح أهاليها أبوابها لاستقباله ولم يسمحوا رغم ممانعته بأن يعسكر خارجها، بل دعوه هو ووحدات جيشه إلى الداخل وأقاموا لهم المآدب وأظهروا من الثقة به والاعتماد عليه ما تجلّى واضحاً في المقابلة اللطيفة السليمة. ولذلك تفانى الأثينيون في الدفاع عنهم وأظهروا أشدّ الحماسة في قتال عدوّهم ليستعيدوا الثقة المفقودة. واندحر فيليب الملك في الهللسپونت وتدنّت سُمعته إلى الحضيض - وهو الرجل الذي ظلّ يُعتدّ به إلى يومنا هذا بأنه لا يُغلب. واستولى فوكيون على عدد من سفنه واحتل بعض المواقع التي كان قد حصّنها ووضع فيها حاميات. وقام بعدة غارات وتوغّل في البلاد ونهب واجتاح، حتى أصابه العدو بجرح فأقلع عائداً إلى الوطن.

في ذلك الوقت طلب الميغاريّون سِرّاً مساعدة من الأثينيين. ولخشية فوكيون في انكشاف الأمر للبويوثيين فيحبطوا المسعى بعمل مسبق، دعا الجمعيّة العامة في فجر يومه وعرض مطلب الميغاريين للتصويت، فنال التأييد وما إن ظهرت النتيجة حتى نفخ فوكيون في نفير الحرب وقاد الأثينيين رأساً من محلّ الاجتماع إلى حيث تسلّحوا واستعدوا للسير. فاستقبلهم الميغاريون بفرح عظيم وباشر فوكيون بتحصين نيسيا Nisaea وبنى جدارين جديدين طويلين يمتدان من المدينة إلى الميناء، فربط المدينة بالبحر، ولم يعد لها ما تقلق لأجله أو تخشى هجوم للأعداء من اليابسة فوضعت ثقتها التامة بالأثينيين.

وباتت الحرب مع فيليب أمراً لامناص منه، ونصّب الأثينيون قادة عسكريين آخرين

بغياب فوكيون. فرأى هذا عند عودته من الجزر أن ينصح مواطنيه بخلاف ما استقر رأيهم عليه وقال لهم:

- ما دام فيليب قد أظهر نواياه السليمة. وبما أن الخطر الذي يتعرّضون له كبير، فالأحرى بهم أن يعقدوا معه معاهدة صلح.

وكان من معارضي فكرته هذه شخص ممن تعوّدوا الاختلاف إلى سُوح المحاكم، وكيل اتهام أو ما أشبه، فقد انبرى له وسأله:

- أتسعى إلى إقناع الأثينيين بالجنوح للسلم وها إن السلاح الآن بأيديهم؟ فقال:

- أجل. وإن كنت أعلمُ بأني سأكون آمِراً عليك عند نشوب الحرب وأنك ستكون آمِراً عليّ في زمن السلم.

ولم يُكتب لمسعاه النجاح. فقد استظهر عليه رأي ديموستينس الذي نصحهم بالحرب، على أن يكون القتال أبعد ما يمكن عن المدينة. ورأى أن يخوضوا المعركة في أتيكا.

فقال فوكيون متوجّهاً إلى الأثينيين.

- أيها الأصدقاء الطيّبين. حَرِي بنا أن لا نتساءل أين سنقاتل بل كيف سنكسب. فالنصر هو الوسيلة الوحيدة لإبعاد الحرب عنا. ولو هُزمنا فإن الحرب ستغزونا في عُقر دارنا وبأسرع مما تتصوّرون.

وحلّت بهم الهزيمة، وأراد الغوغائيون ومثيرو الفتن أن يدفعوا خاريديموس Charidemus إلى المنصّة لتنصيبه قائداً. فتملّك الخوف المواطنين الشرفاء وراحوا يتوسّلون إلى الأهالي بدموعهم أن يلقوا مقاليد الأمور إلى فوكيون. وبمعاونة المجلس الأريوباغي نجحوا في مسعاهم وتولّى فوكيون السلطة. وكان من رأيه عموماً أن يقبل الأثينيون بالشروط العادلة التي يضعها فيليب. لكن ديماديس اقترح أن المدينة يجب أن تحصل على عين شروط السلم التي نالتها سائر الدول الإغريقية. فعارض فوكيون في ذلك، وقال:

- يجب أن نعرف أولاً تفاصيل تلك الشروط التي فرضها فيليب عليها.

فلم يعمل بنصيحته، وفشل تحت ضغط قِصر الوقت. لكن ما لبث الأثينيون أن أدركهم الندم عندما وجدوا من بين الشروط التي فُرضت عليهم تزويد فيليب بالخيل والسفن. فقال فوكيون:

- خوفي من هذا هو الذي دفعني للمعارضة. وما دام الأمر قد وقع فعلينا أن نخلص في تطبيق تلك الشروط وأن لا يهن عزمنا. كان أجدادنا آمرين وكانوا مأمورين،

وبإنجازهم واجباتهم كحاكمين ومحكومين أنقذوا بلادهم مع بقية بلاد اليونان.
ولما انتشر نبأ وفاة فيليب عارض فوكيون في إقامة تظاهرة فرح عامة قائلاً:
- من الخِسّة والدناءة أن يظهر المرء أيّ نوع من التشفّي في مثل هذه المناسبة. واعلموا أن الجيش الذي حاربكم في خيرونيا لم ينقص إلاّ رجلاً واحداً.
وعندما وجّه ديموستينس مطاعنه في الإسكندر، وكان هذا يزحف لمهاجمة ثيبه، تمثل فوكيون ببيتين لهوميروس:
«يا قاصر العقل، لماذا أردفت ضربتك بأخرى
فأثرت بهذا غضبه الجائح؟»
ثم قال متسائلاً:
- لماذا تزيد من إيقاد نار شوقه إلى المجد؟ لماذا تجهد نفسك في تعريض المدينة لحريق رهيب أخذ الآن يدنو منها؟ نحن الذين قبلنا على أنفسنا مسؤولية إنقاذ أبناء وطننا لن نرضى بدمارهم مهما أرادوا هم ذلك!
وبعد أن استسلمت ثيبه وطلب الإسكندر تسليم كلّ من ديموستينس وليكورغُس، وهيپريدس، وخاريديموس اتجهت الأنظار إلى فوكيون ونادوه باسمه طالبين أن يعطي رأيه. فنهض وعرض لهم واحداً من أخلص وأحبّ أصدقائه إليه وقال:
- أنتم الذين بلغتم بالأمور إلى هذه الخاتمة لا غيركم. أما أنا فلو طلب منيّ الآن تسليم صديقي هذا فيكوكس لما تردّدت في ذلك. ولو كان في مقدوري التضحية بحياتي وبمستقبلي في سبيل سلامة الوطن فما أسعد حظّي. وأضاف يقول:
- إنه ليدمي قلبي أن أرىٰ هؤلاء الذين لجأوا إلينا هاربين من ضرائب ثيبه. ومع هذا يكفي بلاد الإغريق حزنها على ثيبه. ومن الأفضل لمصلحة الجميع أن نخفّف من غضب الفاتح ونتوسّط للأثينيين، لا أن نجازف بمعركة أخرى.
فوافق الأثينيون. وقيل إن الإسكندر رفض أول طلب للمفاوضه وقذف بالكتاب بعيداً بكلّ احتقار وأدار ظهره لأعضاء الوفد فخرجوا وهم يرتجفون رعباً. لكنه قبِل الطلب الثاني من يد فوكيون بعد أن أعلمه المقدونيون بمكانته الكبيرة عند والده. ولم يكتف بالسماح بمقابلته والإصغاء إلى عروضه وطلباته، وإنما رجاه أن ينصحه فقال له: «إن كنت تجنح للسلم فعليك أن تُبرم معاهدة صلح وسلام حالاً. وإن كنت تنشد المجد والسؤدد فعليك أن تباشر الحرب ضدّ البرابرة لا ضدّ الإغريق».
وساير مشاعر الإسكندر وغذّى طموحه بمختلف الآراء والنصائح المختارة بدقةٍ فتمكن من استمالته والتخفيف من غلوائه. حتى أنه طلب من الأثينيين أن لا ينسوا

مركزهم الرفيع. لأن السيادة الأولى ستنتقل إليهم إذا ما ناله مكروه. وأظهر لفوكيون احتراماً كبيراً ورفع من شأنه بإنعامات لم يحظ بها أحدٌ من أصحابه الملازمين له واتخذه صديقاً واحتفى به ضيفاً عزيزاً، لا كعضوٍ في وفد مفاوضة. ويحدّثنا دوريس أنه لما قويت شوكة الإسكندر ولُقّب بالكبير بعد انتصاره على داريوس أهمل كتابة عبارة «تحياتي. . .» عند تصديره رسائله. ولكنه كان يثبتها في رسائله إلى كلّ من [فوكيون] و[أنتيپاطر]. وقد ذكر خاريس ذلك أيضاً.

أمّا التكريم الذي حباه به الإسكندر فمن المعروف عنه أنه أرسل له مرة مائة تالنت. ولمّا وصلت الهدية إلى أثينا، سأل فوكيون حاملها: «لماذا اختُصّ هو وحده من دون سائر الأثينيين بهذه الهدية الكبيرة؟» فقيل له إن الإسكندر يعتبره الشخص الوحيد الشريف العظيم القدر. فقال:

- إذن فليسمح لي أن أبقى كذلك. وأن أظلّ معروفاً بمثل هذه السمعة.

وتبعه الرسل إلى داره. وشاهدوا بأعينهم حياة الكفاف البسيطة التي يحياها، كانت امرأته تعجن الخبز بيديها. وكان هو يستقي الماء ليغسل به قدميه. فعادوا يلحّون عليه بقبول الهدية. واستنكروا أن يعيش صديق الإسكندر بهذه الحالة من الفقر والإملاق. فلفت فوكيون أنظارهم إلى فقير عجوز يمرّ بهم وهو مشتمل بعباءة قذرة قديمة. وسألهم هل وجدوه في حالة أدنى من حالة هذا الرجل الفقير؟

فرجوه ألاّ يلجأ إلى مثل هذه المقارنة، فقال:

- مع هذا فإن الرجل قانع بالأقل مما لديّ. ومختصر القول إنْ أنا لن استعمل هذه النقود فأيّ جدوى لي من إحرازها؟ وإن استعملتها فسوف أكسب سُمعة سيئة لي وللإسكندر عند أبناء وطني.

فعادت الهدية الثمينة إلى مرسلها، لتبرهن للإغريق بهذا المثل الفريد أن القادر على منح مثل هذه العطية ليس أغنى من ذلك القادر على رفضها.

واستاء الإسكندر وكتب له يقول إنه لا يمكن أن يجلّ الأصدقاء الذين يرفضون مِنّته وتكريمه. ولم ينفع هذا القول في فوكيون ولم يُغره بقبول المال، إلاّ أنه رجا من الإسكندر قبول شفاعته في الصّوفي أخيكراتيدس Echecratides وفي أثينودوريس الإمبري Imbri وكذلك في ديماراتوس، وسپارتون Sparton الروديسيين، الذين كان قد سجنهم لبعض تُهم في ساردِيس. فلبّى الإسكندر طلبه على الفور وأخلى سبيلهم. وبعدها، عندما بعث الإسكندر بكراتيروس إلى مقدونيا، أمره أن يعرض على فوكيون أربع مدن آسيوية وهي كيوس Cius وإيليا Elæa وجرجيستوس Gergithus وميلاسا

Mylassa يتخيّر منها واحدة ليحكمها. وأن يلحّ في ذلك إلحاحاً شديداً ويقول له إنه سيحنق عليه أن رفض. لكن فوكيون أصرّ على موقفه ولم ينجح معه المسعى، وبعد قليل توفّي الإسكندر.

ما زال منزل فوكيون قائماً حتى يومنا هذا في ميليتا. لا زخرف فيه غير بعض الصفائح النحاسية الصغيرة، وهو بصورة عامة بسيط عادي. ولا يُعرف عن زوجتي فوكيون إلا القليل. ومن هذا القليل أن الأولى هي أخت كيفيسودوتس Cephisodotus النحّات. والثانية عُرفت بالفضيلة وبساطة العيش واشتهرت بهما كشهرة أمانة زوجها. حدث مرة أن الجمهور كان يشاهد تراجيديا جديدة، وقبل أن يدخل الممثل المرسح لتمثيل دور الملكة، طلب تزويده بعدد من النساء الحسنات الثياب ليظهرهن معه كبطانة وخدم. وغضب عندما لم يُجب طلبه وأضرب عن التمثيل وأبقى المشاهدين في الانتظار، حتى أقبل ميلانتيوس Melantius المشرف على الجوق ودفعه نحو المرسح وهو يقول:

- عجباً لك! ألا تدري أن زوج فوكيون نفسها لا تجد بين يديها أكثر من خادم واحدة؟ وأنت تريد أن تظهر بمظهر فخم لتملأ رؤوس نسائنا بالتيه والغرور؟

نطق بهذه العبارة بصوت جهوري سمعه كل من كان قريباً.

وأقبلت امرأة من أيونيا لزيارة زوج فوكيون وحلّت ضيفة وطفقت تريها حليها النفيسة من الذهب المكفّت بالجواهر، وعصائبها وقلائدها وغير ذلك. فقالت امرأة فوكيون.

- أما أنا فزوجي هو فوكيون وهو كل ما أملكه من الحليّ فهذه عشرون عاماً وهو قائد أثينا العام.

وأراد ابنه فوكس Phocus الإسهام في الألعاب أثناء العيد الكبير المخصّص لمنيرفا فأذن له بالمشاركة في سباق القفز شريطة أن لايجعل الفوز هدفه، بل التدريب على ضبط النفس والنظام اللذين يميّزان تلك الألعاب. وكان الفتى مولعاً إلى حدٍ ما بالخمر لايرعى في حياته نظاماً معيناً.

فعند فوزه في السباق، تنافس الكثيرون على شرف صحبته ودعوته للمآدب والاحتفالات بمناسبة الفوز. ورفض فوكيون كل الدعوات إلاّ واحدة. وعند وصوله شاهد الاستعداد الباذخ والمظاهر الفخمة، حتى أن الماء الذي يقدّم لغسل الأقدام مُزج بالخمر والتوابل. فأنّب ولده وتساءل لماذا سمح لصديقه بأن يلطّخ شرف نصره بمثل هذه المظاهر؟ ولأجل أن ينتزع ابنه من أسر هذه العادات وينقذه من تلك العِشرة،

أرسله إلى لقيديمون وضمّه إلى الشبان الذين كانوا يتلقّون تدريبهم وفق النظام السپارطي. فأغاظ الأثينيين بعمله هذا. واعتبروه استهانة بجدوى التهذيب في بلاده. وراح ديماديس ينددّ به علناً بقوله:

- ما رأيك يا فوكيون لو نصحنا الأثينيين بتبنّي النظم السپارطية؟

إن شئت فأنا على استعداد لتقديم مشروع قرارٍ بهذا المآل وأن أعمل على ترويجه والموافقة عليه. فأجاب فوكيون:

- صدقت يا صاح. بهذا العطر القوي الذي يفوح منك، وذاك المعطف الفاخر على كتفيك، فأنت أصلح من يتكلّم في تقريض ليكورغوس والإشادة بالطعام السپارطي.

وعندما كتب الإسكندر بطلب امداد من السفن وعارض الخطباء العموميون في ارساله. طلب فوكيون سماع رأيه في الجمعية وقال:

- أيها السادة إني أريد أن أراكم أحد اثنين، إمّا منتصرون وإمّا أصدقاء للمنتصرين.

وعنّف پيثياس Pytheas الذي كان وقتذاك يخطو أول عتبة في الخطابه وتوجيه الكلام للجمعية، عاتبه لما كان قد أظهره من الاعتزاز بالنفس والغرور:

- إن العبد الفتى الذي اشترته المدينة أمس فقط يجب أن يتحلّى بقسط من الأدب يمسك به لسانه.

ولما شقّ هرپالوس عصا الطاعة على الإسكندر وهرب من آسيا حاملاً معه مبالغ طائلة من المال استقرّ في أتيكا. وتسابق رجال الجمعية العامة العاديون إلى صرّة نقوده فوزّع عليهم مبالغ بسيطة لتكون بمثابة طُعم. لكنه عرض على فوكيون ما لا يقل عن سبعمائة تالنت، وكل ما يريد من منافع، على أن يكون تحت تصرفه وأن يأتمر بأمره. فأجاب فوكيون بكلّ حدة وصرامة: «سيندم هرپالوس إن لم يقلع فوراً عن مجهوداته في إفساد المدينة وإغوائها بالمال» فأسكته وأوقفه عن عمله. ثم إن أمر هرپالوس عُرض أمام الجمعية وراح الأثينيون يتشاورون حوله. فوجد أن من أخذ منه مالاً كان أشد المهاجمين له. فأخذوا يؤلّبون ضدّه ويبالغون في شجب أعماله. ويلحّون في اتهامه، يريدون بذلك دفع الريبة عن أنفسهم، وتغطية علاقتهم به. أما فوكيون الذي أبى أن يتسلّم منه شيئاً فقد اهتم بسلامته الشخصية بقدر ما سمحت له المصلحة العامة، وهذا ما شجع هرپالوس على بذل جهودٍ أخرى لشرائه. لكنه اقتنع بالأخير أن فوكيون أشبه بقلعة منيعة لا يمكن لوسائل الإغراء أن تجد فيها منفذاً من أية جهة. فعمد إلى التقرّب

من ختنه خاريكلس Charicles واختصّه بالصداقة ووضع فيه ثقته التامة. وكان يطلب معونته على الدوام. فبات ختن فوكيون موضع شكّ. فمثلاً ماتت پيتونيكا Pythonice محظية هرپالوس وأمّ ابنه وكان كثير الحبّ لها. فعزم أن يبني لها ضريحاً فخماً وأناط بصديقه خاريكلس مهمة الإشراف على العمل، مهمّة لا تشرّف صاحبها، وزاد من حطّة شأنها التمثال (وهي المنحوتة التي رُكّبت بعد إكمال الضريح). هذا النصب يُرى اليوم في هرميوم Hermeum وأنت خارج من أثينا إلى إليوسيس Eleusis. وليس في مظهره ما يدلّ على أن ثلاثين تالنتاً أُنفقت عليه. وهو على ما قيل الأجر الذي طلبه خاريكلس من هرپالوس لقاء أتعابه، وبعد موته من الرعاية. لكن خاريكليس حوسب على علاقته بهرپالوس. فطلب حماية حمِيّه، والتقدم للدفاع عنه في ساحة القضاء. فرفض فوكيون ذلك وقال له:

- لم أخترك لابنتي زوجاً إلاّ لتبتغي أشرف الغايات.

كان أسكليپيادس Asclepiades ابن هيپارخوس أول من حمل نبأ وفاة الإسكندر إلى أثينا. فكذّبه ديماديس وطلب من سامعيه ألاّ يصدّقوه. إذ لو كان الأمر صحيحاً فإن العالم كله سينتن بجثته قبل موته! وعندما رأى فوكيون حماسة الأثينيين للثورة الفورية أخذ يبذل قصارى جهده لتهدئتهم وكبح جماحهم واندفع عدد منهم إلى المنبر للتحريض على الثورة هاتفين بأن النبأ صحيح وأن الإسكندر قد مات. فقال فوكيون:

- إن هو اليوم ميت فسيكون كذلك غداً. وكذلك سيكون بعد غدٍ. فلا حاجة بكم والحالة هذه إلى اتخاذ قرار عاجل. تأكدوا أولاً.

قبل أن يقلع ليوسثينس Leosthenes إلى الحرب في لاميا Lamia بعد معارضة فوكيون الشديدة، أراد أن يُضحك الناس عليه فسأله هازئاً:

- ماذا كسبت الدولة من بقائك هذه السنوات الطوال قائداً عاماً؟

فأجاب فوكيون:

- ليس بالقليل أن يتاح للمواطنين الدفن في قبورهم الخاصة.

واستمرّ ليوسثينس يخطب في الجمعية العامة متباهياً مختالاً. فقال فوكيون له:

- خُطبك أيها الشاب شبيهة بشجر السرو. فهي مهيبة ممشوقة القامة، لكنها عقيمة لا تثمر.

وعندما هاجمه هيپيريدس آنذاك، وسأله ألم يحن الوقت لنصح الأثينيين بشنّ الحرب، أجاب فوكيون:

- سأنصح بها عندما أرى الشبان لا يتهرّبون من الخدمة في الجيش، والأغنياء ولا

يترددون في التبرّع بأموالهم، والخطباء يكفّون عن سرقة بيت المال.

وتعاظم الإعجاب بالقوات التي عبّأها ليوسثينس والاستعداد الحربي الذي اتخذه فسئل فوكيون عن رأيه بالمجندين الجدد فأجاب:

- في المدى القصير مناسبون جداً. لكنني أخشى السباق الطويل. لو طال أمد الحرب فإن المدينة لا تملك مالاً ولا سفناً ولا جنوداً غير ما ترون الآن.

وبرهنت الأحداث على صدق قوله: في البدء جرى كلّ شيء على ما يرام وراحت بشائر الخير تترى، ونال ليوسثينس شهرة عظيمة بانتصاره على البويوتيين ومطاردته أنتيباطر وإرغامه على الاحتماء بأسوار لاميا Lamia. وطار الأثينيون فرحاً بالانتصارات الأولى، فعيّدوا واحتفلوا وقدّموا القرابين الرسمية للآلهة. وخيّل لبعضهم أن فوكيون مقتنع الآن بخطئه في الحساب فسألوه: أما كان يتمنّى أن يكون صاحب هذه الانتصارات؟ فأجاب:

- أجل، وبكلّ سرور. لكن مع رأيي السابق.

وعندما بدأ السعاة يقبلون واحدهم إثر الآخر مؤكدين تلك الانتصارات ومبالغين فيها قال:

- تُرى متى سيصل آخرهم؟

وبعد ذلك بقليل قُتل ليوسثينس. وكان ثمّ من يخشى أن يضع فوكيون حدّاً للحرب لو سلّموه القيادة، فاتفقوا على شخص مغمور نكرة في الجمعية لينهض ويدّعي أنه صديق قديم لفوكيون وموضع ثقته، ثم يتوجّه إلى المجتمعين ويناشدهم بأن يعفوا فوكيون من هذا الواجب وأن يدّخروا الرجل الذي لا يضاهيه أحد لعمل آخر أخطر وأهمّ من هذا العمل، وأن يسندوا قيادة الجيش لأنتيفيلس Antiphilus. فوقع كلامه موقعاً حسناً وأرضى به الجمعية لكن فوكيون أوضح المسألة لهم بقوله:

- إني في الواقع لا أرتبط بأي رباط من الصداقة مع هذا الرجل كما أنه لا يوجد بيني وبينه أي نوع من الألفة والمودة. ومع ذلك فاسمح لي يا سيدي أن أضعك في عِداد أصدقائي وطالبي الخير لي، فإن نصيحتك كانت لفائدتي حقاً.

وعندما تحمّس الأثينيون لتجريد حملة على البويوثيين انبرى لمعارضتها في مبدأ الأمر فحذّره أصحابه من كون الناس سيفتكون به إن ظلّ يخالفهم في الرّاي، فقال:

- سيكون هذا ظلماً وتعدّياً منهم، إن قدّمت لهم خالص النصح. وإلاّ فمن حقهم أن يفعلوا بي ما يشاؤون.

وظلّوا يصرخون ويلحّون ليقودهم إلى الحرب، فأمر المنادي أن يعلن بيانه الذي

جاء فيه «على كل اثيني لم يبلغ الستين أن يتزوّد بما يكفيه من الزاد لستة أيام ويتبعني رأساً من هنا». فأحدث بيانه ضجة، وأجفل كبار السنّ واحتجوا عليه فسألهم.

- ما الذي يدفعكم إلى الاحتجاج؟ أنا الآن في الثمانين من العمر، على أتم استعداد لقيادتكم.

هذه المحاولة نجحت في تهدئتهم إلى حين.

ولكن ما إن بدأ ميقيون Micion بقواته الكبيرة من المقدونيين والمرتزقة يجتاح الساحل، ثم يحتل رامنوس Rhamnus ويتوغل في البلاد المجاورة، حتى زحف عليه فوكيون وأنشأ مختلف الأشخاص المدنيين يتدخّلون في إجراءاته بالإشارة عليه أن يحتل مرتفع كذا وتلّ كذا، وأن يضع الخيّالة في هذه الجهة وتلك ويهاجم العدو من تلك النقطة أو تانك، فعِيل صبره وقال:

- رحماك يا هرقل! ما أكثر ما عندنا من القادة. وما أقل ما لدينا من الجنود!

ثم وضع جيشه في نسق المعركة. ورأى جندياً يتقدم الآخرين في الصف يريد أن يُظهر شجاعته. ثم رآه يتراجع إلى مكانه في الصفّ عندما بدأ تقدّم العدوّ وقد تملّكه خوف شديد فصاح فوكيون مؤنّباً:

- أيها الشاب! يجب أن تخجل من نفسك مرتين في هذا اليوم. فأولاً تركت محلّك الذي اخترته لك. وثانياً تركت المحل الذي اخترته لنفسك.

ومهما يكن فقد وفّق فوكيون إلى هزم جيش عدوّه هزيمة تامة، وقُتل ميقيون مع كثيرين في ميدان المعركة نفسها. كذلك أحرز للجيش الإغريقي نصراً آخر في تساليا بعد وصول ليوناتس على رأس المقدونيين من آسيا للانضمام إلى أنتيپاطر. فقد قاتلهم وتغلّب عليهم وقتل ليوناتس في ساحة المعركة. وكان أنتيفيليس يقود مشاته ومينون التسالي يقود خيالته. لكن لم تمرّ فترة طويلة إلاّ وعبر كراتيروس المضيق من آسيا بقوات جرّارة وخاض معركة ضارية انكسر فيها الإغريق إلاّ أنه لم يُلحق بهم هزيمة تامة ولم يصبهم بخسارة كبيرة. لكن ما الحيلة وكيف تكون نهاية الصراع عندما يفتقر الجيش إلى الضبط والربط؟ الجنود لا يطيعون ضباطهم، والقواد شبان نزقون كثيرو التبسط مع الجنود، وأنتيپاطر ناشط في مفاوضة ومغازلة المدن الإغريقية كلاً على انفراد. كانت النتيجة انحلال الجيش الإغريقي وتسليم البلاد للفاتح تسليماً مخجلاً.

عندما وردت الأنباء بزحف أنتيپاطر الخاطف على أثينا بكلّ ما لديه من قوات هرب ديموستينس وهيپريدس من المدينة. أمّا ديمادس الذي كان قد عجز عن تأدية أي

قسط من الغرامات التي فرضتها عليه سلطة المدينة لأنه أُدين سبع مرات لتقديمه لوائح ومراسيم مخالفة للقوانين. وكان قد حُرم حق الاقتراع ولم يعد صوته يسمع في الجمعية العامة، فقد اهتبل فرصة الحصانة من تنفيذ العقوبة ليقدم اقتراحاً بإرسال سفراء مطلقي الصلاحية إلى أنتيپاطر ومفاوضته في صلح. إلاّ أن الأهالي ما عادوا يثقون به. فاتجهوا إلى فوكيون بوصفه موضع ثقتهم الوحيد، فقال لهم:

- لو أن نصائحي السابقة لقيت منكم آذاناً صاغية لما آل بنا الأمر إلى مناقشة وضعنا الحاضر مطلقاً.

ومهما يكن فقد أُخذت الأصوات وصودق على قرار المفاوضة. فأُنيب مع فوكيون آخرون لمواجهة أنتيپاطر الذي كان قد عسكر في الأراضي الثيبية وكان ينوي تقويض معسكره والزحف على أتيكا. وكان أول طلب لفوكيون هو أن يعقد الصلح بدون أن يتحرك أنتيپاطر من معسكره. فقال كراتيروس: «ليس من العدل أن نكون عبئاً ثقيلاً على بلاد أصدقائنا وحلفائنا ببقائنا فيها، بينما يكون الأحرى بنا استخدام أرض العدو لتزويد الجيش بالمؤن والأرزاق». لكن أنتيپاطر أمسك بيد فوكيون وقال:

- يجب أن نخصّ فوكيون بهذا الفضل.

وأما بخصوص الموفدين الآخرين فقد أوعز إليهم بالعودة، كلّ إلى مدينته بعد إحاطتهم علماً بأنه لا يسعه إلاّ أن يعرض عليهم عين الشروط التي عرضها عليه ليوسثينس عندما كان يحاصره في لاميا، وهي الاستسلام دون قيد أو شرط.

وعاد فوكيون ونقل لمواطنيه هذا الجواب فلم يسعهم إلاّ النزول عند حكم الضرورة وقبلوا ولم يكن لديهم الخيار في الأحسن. وعاد فوكيون إلى ثيبه ثانية مع مندوبين آخرين، بينهم كزينوقراطس الفيلسوف الذي ذاعت شهرته في كل مكان لما يتمتّع به من فضائل وحكمة، وقد قدّر أن كل من يقع نظره عليه سيمتلئ إعجاباً به واحتراماً له. ويزيل من قلبه الكبرياء والقسوة والغضب. لكن النتيجة كانت عكس ما توقع فقد بدأ أنتيپاطر خالياً من الكياسة مجرداً عن العاطفة كارهاً لأي شيء حسن. حَيّا كل فردٍ، خلا كزينوقراطس فقد أهمله وتظاهر بأنه لم يلحظ وجوده. وقيل لنا إن كزينوقراطس علّل هذا التجاهل بأن أنتيپاطر عندما قرر أن يُنزل ذلك العقاب القاسي بأثينا إنما فعل حسناً بخجله منه وعدم النظر إليه. عندما شرع في الكلام لم يصغ إليه وظلّ يقاطعه بخشونة وغلاظة حتى اضطر أخيراً إلى الصمت. وعندما أنهى إليه فوكيون الغرض من الإيفاد، أجابه باقتضاب أنه يعقد معاهدة صلح مع الأثينيين بشروطٍ غير قابلة للتبديل وهي: أنه يسلّم له ديموستينس وهيپريدس ولهم أن يحتفظوا بشكل حكومتهم

القديم شريطة أن لا يكون حق الاقتراع الا لمن ملك عقاراً وأن يقبلوا بوضع حامية في مونيخيا Munychia وأن يدفعوا مبلغاً من المال لسدّ نفقات الحرب.

كانت الشروط ملائمة مقبولة نظراً للظرف. وقبلها أعضاء الوفد خلا كزينوقراطس الذي قال: «إذا اعتبر أنتيپاطر الأثينيين عبيداً فان معاملته هذه لهم طيبة كريمة. وإن عدّهم أحراراً فإن شروطه قاسية.» وتلاه فوكيون وألحّ على رفع شرط وضع الحامية. واستخدم الكثير من الحجج والبراهين فأجابه أنتيپاطر:

- نحن يا فوكيون مستعدون لتلبية أي طلب لايكون سبباً في دمارك ودمارنا.

وأورد آخرون رواية مختلفة للمقابله، قالوا إن أنتيپاطر سأل فوكيون:

- فلنفرض أني عدلت عن إرسال الحامية إلى أثينا فهل أنت على استعداد لضمان إيفاء المدينة بشروط المعاهدة وهل تتعهد بأن أهاليها لن يثوروا عليّ؟

وتردد فوكيون وابطأ في الإجابة، فانبرى كالليميدون كرابوس Callimedon the Carabus وهو مولى من الموالى، سريع الغضب، وعدوّ لدود لكلّ المدن الحرة، وصاح قائلاً:

- وإذا استمر هكذا ينطق بالتافه من الكلام أسترضى يا أنتيپاطر أن تُستغفل فتصدّق به وتعدل عمّا انتويته؟

ورضخ الأثينيون وقبلوا بالاحتلال، وبمينللوس Menyllus حاكماً، وكان رجلاً منصفاً عادلاً ومن معارف فوكيون.

لكن هذا الإجراء بدا عملاً تعسّفياً استبدادياً للغاية بل استعراضاً حاقداً مهيناً للقوة والجبروت، أكثر مما ينطوي عليه احتلال قلعة من أهمية عسكرية. ومما زاد في حنق الأثينيين واستيائهم اختيار الظرف لدخول الحامية. فقد دخلت في العشرين من شهر بيودرميون أي يوم العيد الكبير، حيث يحمل الأثينيون أياخوس Iachus ويسيرون به بموكب ديني حافل من المدينة إلى البوسيس، فكان انتهاكاً صارخاً لحرمة المراسم الدينية راح كثيرون يستذكرون به مناسبات معيّنة قديمة وحديثة للتدخل الالهي.

ففي سالف الزمان الذي شهد أشع عهودهم وأكبر انتصاراتهم كانت الأشكال والأصوات التي تُرى وتُسمع في المواكب الدينية ضماناً لهم إذ إنها تُلقي الرعب والهلع في أنفس أعدائهم. وها إن الآلهة الآن في موعد الاحتفال بعيدها تقف بنفسها لتشهد أقسى موقف من مواقف الظلم التي ابتلي بها الإغريق، وأبعثها على الأسى. لقد دُنّس أقدس أيامهم، وغدت أعظم ذكرى لهم تاريخاً لأفظع نكبة حلّت بهم. قبل سنوات قليلة أصغوا إلى تحذير في نبوءة جاءتهم من دودونا Dodona أوصتهم أن يشددوا

الحراسة على مرتفعات ديانا لئلا يستولي عليها أغراب مستطرقون. وفي حدود ذلك الزمن تقريباً كانوا يهمّون بصبغ الشرائط والأكاليل التي تزيّن عربات الموكب ومحفّاته فتسلّموا بدلاً من لون الأرجوان المقرر لوناً أصفر باهتاً. وليكون النذير أقوى دلالةً حافظت الأشياء المصبوغة للاستعمال الديني على ألوانها الأصيلة. وبينما كان أحد المرشحين للتكريس الديني يغسل خنزيراً صغيراً في مرفأ كانثاروس Cantharus وثب عليه قرش وأنشب أنيابه فيه فقطع الأجزاء السفلى حتى بطنه وابتلعها، وتلك علامة واضحة أراد الإله أن يعلمهم بها أنهم سيفقدون الجزء الأدنى من المدينة مع ساحل البحر ولن يتبقّى لهم غير الجزء الأعلى.

كانت شخصية مينيلوس ضماناً كافياً لحسن سلوك أفراد الحامية إلاّ أن عوامل أخرى برزت فأبقت حالة التوتر على وضعها بل زادتها حدّة. فأولئك الذين حرمتهم شروط أنتيپاطر من حق الاقتراع لأنهم فقراء معدَمون بلغوا اثني عشر ألفاً. ومن بقي في المدينة شعر بالظلم والمذلة. أما الذين تركوا بيوتهم وهاجروا إلى تراقيا حيث أعطاهم أنتيپاطر مدينة ومساحات من الأراضي للسكني والفلاحة فقد عدّوا أنفسهم في مرتبة المستوطنين العبيد أو المنفيين. زد على هذا موت ديموستينس في كالاوريا Calauria وموت هيپريدس في كليوني Cleonae كما ورد ذكره في محلّ آخر. لذلك بدأ الناس يترحّمون على فيليب والإسكندر ويتمنّون لو عادت تلك الأيام. وكان حال المدينة أشبه بما حصل عقب مقتل أنتيغونس فقد عاث القتلة في البلاد فساداً وملأوها ظلماً واضطهاداً. وشوهد مواطن فريجي يواصل الحفر في الحقول فسئل عمّ يبحث فقال:

- إني أنقّب عن حسرة عميقة! أفتش عن أنتيغونس!

هكذا كان يقول مذكّرو تلك الأيام. كانوا يستعيدون ذكريات الوقائع التي خاضوها مع أولئك الملوك، فيجدونهم الآن كرماء غفّارين مهما بلغ غضبهم من العنف. وها هو ذا اليوم أنتيپاطر بتواضعه المزيّف ومظهره الذي لا يفترق به عن مظهر الرجل العادي، وطعامه البسيط، يستر حبّه الحقيقي للسلطة المطلقة، وطغيانه وقسوته وتنكيله بمن وقع تحت سلطانه.

مع ذلك كله فقد أفلح فوكيون معه في سعيه لإعادة الكثيرين من منافيهم. ونجحت شفاعته أيضاً في المطرودين، فحال دون قذفهم كالآخرين وراء نهر تيناروس Taenarus وجبال كيراونيا Ceraunia فمكثوا في بلاد الإغريق واستقروا في الپيلوپونيس ومنهم أغنونيدس Agnonidus المتزلّف. ولم يكن أقلّ انكباباً ومواظبة على تدبير الأمور داخل المدينة ملتزماً بالعدالة والمساواة مفضّلاً للخدمة العامة والأقضية بين الناس كلّ

من عُرف بحسن التهذيب وعلوّ المقام. أما الثرثارون الفضوليون مثيرو الشغب الذين وجّه إليهم ضربة قاتله بعزلهم من الوظائف ومنعهم من المشاركة في المناقشات العامة فقد نصحهم بملازمة بيوتهم وفلاحة أراضيهم. ولاحظ أن كزينوقراطس يدفع ضريبة الغريب لأنه لم يكن مواطناً أثينياً فعُرض عليه مواطنة الشرف فأبى الفيلسوف قائلاً إنه لا يستطيع قبول إعفاء عن حالة كان قد أرسل سفيراً للانتقاص منها واستظهارها.

ورغب مينيللوس أن يقبل منه فوكيون مبلغاً من المال على سبيل الهدية فشكره وقال:

- ليس مينيللوس بأعظم من الإسكندر، وليست حالتي اليوم أشدّ عسراً مما كانت عندما رفضت قبول هدية الإسكندر، لأقبلها منك الآن.

وألحّ عليه بأن يسمح لابنه فوكس بقبولها. فقال:

- إن كان ابني من ذوي العقول السليمة فسيرى أن ميراثه كافٍ. وإن لم يكن كذلك فكلّ الموارد لن تكفيه.

لكن جوابه لأنتيپاطر كان حازماً، حاداً. فقد حاول هذا تكليفه بعمل شيء لا يشرّفه فكان جوابه:

- لا يمكن لأنتيپاطر أن يتخذني صديقاً ومتزلّفاً في آن واحدٍ.

في الواقع إن أنتيپاطر كان لا يفتأ يردّد القول بأن لديه في أثينا صديقين: فوكيون وديمادس. الأول لايريد منه أية مِنّة أو عطِيّة. والثاني لا يمكن إشباع نهمه. وليس بعجيب أن يرى فوكيون الفقر فضيلة عاشها حتى غدا عجوزاً بعد أن تولّى عدة مرّات منصب القائد الأعلى، وصادق الملوك والأمراء. في حين كان ديماديس يجد أعظم متعة في إنفاق ثروته، وإن كان في وجوه تخالف العُرف والقانون مخالفة صريحة. ومن ذلك أنه كان ثمّ قانون يمنع ممارسة الأجنبي لفن الرقص في أي جوق، ويعاقب مؤجّره وعارضه بغرامة قدرها ألف درهم. فبلغ الزهو بديماديس أن عرض جوقاً كاملاً من الرواقص الأجانب ودفع عنهم مائه ألف درهم، دفعها في المرسح عدّاً ونقداً. وعندما زوّج ابنه ديمياس Demaes قال له بذاك الغرور والخيلاء:

- عندما تزوّجت أمك يا بنيّ كان زواجي من البساطة بحيث لم يشعر به جيراني الملاصقون. وها إن الملوك والأمراء يقدّمون الهدايا في حفلات زواجك.

وظلت الحامية في مونيخيا مصدراً للألم وباعثاً للغيظ الكظيم. ولم يكفّ الأثينيون عن الإلحاح على فوكيون بمفاتحة أنتيپاطر وإقناعه بسحبها، لكنه كان يرفض التدخل ولعله يئس من تحقيق ذلك. أو ربما وجد في بقائها ضمانة لهدوء الأهالي واستقرار

الشؤون العامة وانتظامها للرهبة التي يشيعها وجودها. لذلك اكتفى من أنتيپاطر بحصوله على مهلة في دفع الجزية المفروضة على المدينة. فاتجه الأهالي إلى ديماديس فأسرع بقبول مهمة الوساطة وسافر إلى مقدونيا مصطحباً ابنه. وشاءت القوى الإلهية أنه وصل حين سقط أنتيپاطر مريضاً، وغدا كساندر وكيلاً له. وتشاء الصدف أن يعثر هذا على رسالة سبق لديماديس أن وجّهها إلى أنتيغونس في آسيا، يزيّن له القدوم وامتلاك بلاد الإغريق ومقدونيا. . المعلّقة الآن بخيط بالٍ قديم (هازئاً بأنتيپاطر). فما إن رآه قادماً حتى أمسك بابنه وقتله قريباً منه حتى أن دمه لطّخ كل جسمه وثيابه. وانثنى على الأب يشتمه ويصفه بلاذع القول ويؤنّبه على خيانته ونكرانه الجميل، ثم ألحقه بابنه.

قضى أنتيپاطر نحبه بعد تسميته پوليسپيرخون Polysperchon قائداً عاماً، وكساندر قائداً للخيّالة. فباشر كساندر في الحال العمل لنفسه بجدٍّ. وأرسل نيقانور Nicanor خلفاً لميتيللوس في قيادة الحامية، وأمره بأن يتسلّم مونيخيا قبل أن يشيع نبأ وفاة أنتيپاطر، ففعل. وبعد أيام بلغ النبأ أهالي أثينا فاتهموا فوكيون بسبق العلم به، والعمل على كتمه عنهم بكل الوسائل لرعاية صداقة تربط ما بينه وبين نيقانور القائد الجديد، فلم يحفل بتخرّصاتهم، ولم يُعرها اهتماماً. وراح يزور القائد بانتظام ويتداول معه في الشؤون العامة ففاز بتحويل عطفه إلى الاثينيين وضمن لهم حُسن نيّته، وحمله على قبول ترؤسه للألعاب بما ينطوي عليه ذلك من متاعب له وإنفاق المال.

ومُنح پوليسپيرخون صلاحيات الملك. فلأجل أن يحبط تدابير كساندر تمهيداً لإزاحته بعث بكتاب إلى الأثينيين باسم ملكه يعلن فيه عن إعادة نظام الحكم الديمقراطي في أثينا، وأن الأثينيين جميعاً هم أحرارٌ في إدارة جمهوريتهم حسب شرائعهم الأولى. وكانت الغاية من هذا، القضاء على نفوذ فوكيون كما ستكشف عنه الوقائع. فپوليسپيرخون كان يخطط للاستيلاء على المدينة، وهو أمر محال ما دام فوكيون يتمتع بالثقة. فليس ثمّ طريقة فعالة لإزاحته والقضاء عليه إلاّ بملء المدينة مرّة أخرى بالناس الذين لا يملكون حق الاقتراع، وإطلاق ألسنة الغوغائيين والمدّعين العامين.

وأخذت المدينة تغلي كالمِرجل بهذا الوعد. وحاول نيقانور التحدث إليهم في اجتماع لمجلسهم في پيريوس، وأقبل وحده موكلاً أمر سلامته الشخصية بفوكيون. وعندما حاول دركيللوس Dercyllus قائد الحرس القبض عليه بإيعازٍ مسبق أفلت نيقانور ناجياً بجلده، ولم يقم شك في أنه لن يضيّع لحظةً واحدة من العمل للانتقام بسبب ما لحقه من إهانةٍ. وعوقب فوكيون لأنه أخلى له السبيل ولم يحتجزه. فقال يدافع عن نفسه إنه كبير الثقة بنيقانور لا يتوقّع منه القيام بأيّ عملٍ يهدد سلامة المدينة، وإذا ظهر

الأمر خلاف ذلك فانه يتعهد أمامهم بأن يقتبل الضرر على نفسه ولا يفعله هو. وواصل حديثه الذي كان فعلاً ينمّ عن شرف نفسٍ وعقلٍ رفيع. على أن صاحب السلطة العليا والقائد العام الذي يجازف بسلامة وطنه يصعب تبرئته من تهمة إخلاله بأقدس واجب من واجبات العدل والإنصاف، ذلك الواجب الذي يحتّمه عليه منصبه. وليس يجدي القول إنه كان يخشى توريط المدينة في حربٍ إذا ما ألقى القبض على نيقانور. وليس يجدي قولنا إنه لم يمسكه لأنه كان يأمل منه مبادلته الثقة والتعامل الشريف. لقد كانت ثقة فوكيون في حُسن نيّته وفي شرف كلمته كبيراً بحيث أعماه عن الإجراءات التي اتخذها هذا القائد. تلك الإجراءات البعيدة جداً عن حسن النية كالاستعداد للهجوم على پيريوس، وإرساله الجنود إلى سلاميس واتصاله بمختلف سكان پيريوس لاستمالتهم واجتذابهم إلى صفه. والأنكى من ذلك كله أنه لم يكن بالإمكان إقناع فوكيون بأنه مخطئ في وضع ثقته العمياء وظلّ يركب متن الشطط. حتى عندما سمّى فيلوميدس اللامپري Philomedes Lampra ففاز من الجمعية بقرار يقضي على كل الأثينين بحمل السلاح، والتأهّب للسير وراء فوكيون قائدهم، ظلّ قاعداً لايعمل شيئاً. حتى قاد نيقانور جنوده فعلاً إلى خارج مونيخيا وحفر الخنادق وحكم مواضعه حول پيريوس. وعندما أطلق فوكيون الأثينيين أخيراً راحوا يهتفون ضده ويهزأون بأوامره.

كان الإسكندر بن پوليسپيرخون على مسافة قريبة جداً من أثينا وتحت إمرته قوّات كبيرة، فأعلن عن استعداده لنجدتهم ضدّ نيقانور، على أن نيّته الحقيقية المضمرة هي مباغتة المدينة واحتلالها وهي في حالة الفوضى وأهلها منقسمون على أنفسهم. وكان قد أفسح إليها كل من طُرِد منها، وانضمّ إلى العائدين خليط من الأجانب وحشود من الأشخاص الذين حُرموا حق التصويت. من هذا الخليط انبثقت جمعية عامة - لا تعرف نظاماً ولا قانوناً - ما لبثت أن جرّدت فوكيون من كلّ سلطاته وعيّنت في محلّه قادة آخرين. ولو لم تحكم الصدفة بأن يلمح الأثينيون من فوق الأسوار اجتماعاً ثنائياً بين الإسكندر ونيقانور لوقعت المدينة في الشرك المنصوب. لقد تكررت المقابلات بين القائدين على هذه الشاكلة فلم تُبق أي مجال للشكّ. وانبرى أغنونيدس يهاجم فوكيون ويتهمه بالخيانة. وشعر كالليميدون وخاريكلس بهبوب الإعصار فهربا من المدينة خوفاً على حياتهما. وخرج فوكيون مع ثلة من أصحابه يقصدون پوليسپيرخون وأخذ معه صولون البلاتي Platæa، ودينارخوس Dinarchus الكورنثي صديقَي پوليسپيرخون الحميمين وموضع ثقته. لكن الوفد تأخّر أياماً في إيلاتي Elatae لمرضٍ ألمّ بدينارخوس. وفي أثناء ذلك أصدر الأثينيون بتحريض من أغنونيدس واقتراح من

أرخستراتس Archestratus قراراً يقضي بإرسال وفد إلى پوليسپيرخون لتوجيه الاتهام إلى فوكيون. ووصل الوفدان في وقت واحد وكان پوليسپيرخون قد خرج مع الملك إلى الريف وتوقّفا عند قرية من أعمال فوكيس Phocis تدعى فاريجي Pharygal وكانت تُعرف آنذاك باسم أكروريوم Acrurium. هناك نصب پوليسپيرخون سرادقاً مذهّباً وأجلس الملك وحاشيته فيه. وأمر فوراً بالقبض على دينارخوس وتعذيبه ثم قتله. وبعد نفاذ ذلك سمح بإدخال الأثينيين الذين ملأوا السرادق ضجيجاً ولغطاً: فريق يتهم فريقاً، وينتقصه. وتعالت الضوضاء، وتمكن أغنونيدس من التقدم إلى الأمام، راجياً أن يوضع الجميع في قفص ويُرسَلوا إلى أثينا ليقرر أهاليها ما يرون في شأنهم. فلم يتمالك الملك من الابتسام. ويظهر أن الحاشية، وكانت من المقدونيين والأجانب، استمتعت بهذه الضجة والثرثرة فراح أفرادها يحرّضون أعضاء الوفد ويشجّعونهم من طرف خفيّ للمضي في عرض قضيتهم. لكن استقبال الوفد وسماعه جرى بشكل مهين لا يتفق والأصول. إذ كثرت مقاطعة پوليسپيرخون لفوكيون فنفد صبره وضرب الأرض بعصاه وكفّ عن الكلام. وعندما قال هيگمون Hegemon إن الپوليسپيرخون نفسه يشهد على شدّة تعلّقه بالشعب، صرخ پوليسپيرخون بحدة:

«كفّ عن شتمي وإهانتي أمام الملك».

وهبّ الملك واقفاً يهمّ بأن يقضي على المتكلم بطعنة من رمحه إلاّ أن پوليسپيرخون حال دون ذلك، فانفرط عقد الاجتماع. وقُبض على فوكيون وصحبه. أما أصدقاؤه الذين لم يكونوا على مقربة منه فقد أخفوا وجوههم وهربوا عندما أبصروا ما حَلّ به. وقام كليتوس بنقل المقبوض عليهم إلى أثينا ليحاكموا. إلاّ أن الرحلة في الحقيقة كانت مؤلمة مثيرة للمشاعر. فقد وُضعوا في عربات مرّت خلال الكيراميكوس Ciramicus إلى موضع المحاكمة مباشرة. وظلوا في حراسة كليتوس حتى بدأ اجتماع الجمعية العامة، وقد فتحت الأبواب لكلّ قادم أجنبياً كان أم عبداً، وقُبل حتى أولئك الذين صدرت عليهم أحكام الحرمان من حق التصويت، وشاركت النساء أيضاً ولم تمنع أحد من اعتلاء منبر الخطابة.

وبعد تلاوة كتاب الملك وقد جاء فيه أنه مقتنع بخيانة هؤلاء الرجال، لكن لما كانوا مواطني مدينة حرة فلا يسعه إلاّ أن يؤمّن لهم حق المحاكمة والحكم بموجب الشرائع التي تسير عليها. وعلى أثر ذلك جلب كليتوس المتهمين. ولم يحتمل المواطنون الشرفاء هول الموقف فغطوا وجوههم وانحنوا إلى أمام لإخفاء دموعهم. ووجد أحدهم الشجاعته الكافية ليقول: «ما دام الملك أحال هذه القضية الخطيرة إلى

الشعب ليحكم فيها، فمن الافضل أن ينسحب كل أجنبي وكل من هو في حالة العبودية». فنفد صبر الجمهور وأخذ يصيح: «هؤلاء هم أوليقارشيون. أعداء حرية الشعب. إنهم يستحقون الرجم». وبعد هذا لم يجرؤ أحد على التفوّه بكلمة دفاعٍ عن فوكيون ولم يكن هو أيضاً قادراً على إسماع صوته بعد أن سأل:

- أتريدون قتلنا بصورة شرعية أم بشكل يخالف الشرع؟

فأجاب بعضهم:

- بل بموجب الشرع.

فقال فوكيون:

- كيف تتوقعون أن ننال محاكمة عادلة؟

فأصمّوا آذانهم، وعافوا سماعه. فتقدم بضع خطوات وقال:

- أنا شخصياً أقرّ بذنبي. وأعلن أن سياستي العامة تستحق حكم الموت. لكن لماذا يا رجال أثينا تقتلون هؤلاء، وهم أبرياء لم يرتكبوا ذنباً؟

فصاح الرعاع:

- هم أصدقاؤه، وفي هذا الكفاية.

عندئذ انسحب فوكيون وظلّ ساكتاً إلى النهاية.

وقرأ أغنونيدس مشروع القرار. وهو على الشعب أن يقرر برفع الأيدي هل هم مجرمون أم لا. وإذا وجدوهم كذلك فيجب عليهم فرض عقوبة الموت. بعد تلاوة المشروع اقترح بعضهم إضافة فقرة أخرى تتضمّن تعذيب فوكيون قبل تنفيذ الحكم، وأن تجلب المخلّعة[1] مع الجلادين. لكن غنونيدس لاحظ أن كليتوس لايرغب في ذلك، وأنه هو نفسه كان يجد ذلك عملاً وحشياً، فقال:

- يا رجال أثينا! عندما نلقي القبض على ذاك العبد كالليميدون فسنضعه على المخلّعة. إلاّ أني لن أقدّم هذا الاقتراح في قضية فوكيون.

وعقّب أحد المواطنين على هذا بقوله: لو أننا عذبنا فوكيون فماذا ترى سنفعل بك؟

وتمّت الموافقة على المشروع. وطُلب من الحاضرين رفع الأيدي فلم يبق أحد في مجلسه بل نهضوا جميعاً - وكان بعضهم قد ضفر أكاليل الزهر - وحكموا على جميع المتهمين بالموت.

---

(١) المخلّعة Rack آله تعذيب قديمة تشبه الدولاب يشدّ عليها الجسم وتُمطّ بها أعضاؤه حتى تتخلّع.

إلى جانب فوكيون حُكم كل من نيكوكلس، وثديپوس Thudippus وهيگمون، وپيثوكلس Pythocles من الحاضرين، وديمتريوس الغاليري، وكالليميدون، وخاريكلس، وآخرين من الغائبين.

وبعد أن تفرّقت الجمعية، نُقل المحكومون إلى السجن وسار خلفهم أصحابهم وأقرباؤهم يبكون ويولولون ويتشبّثون بهم. وبدا فوكيون مثلما كان يبدو عند عودته إلى منزله من الجمعية تحفّ به الحاشية والأتباع بوصفه قائداً عاماً، ولاحظ الناس بدهشه هدوءه وكبرياءه. وأقبل أعداؤه من الجانبين يهينونه ويشتمونه. وتقدّم أحدهم وبصق في وجهه. فالتفت فوكيون إلى الضباط وقال: «عليكم أن تضعوا حَدّاً لهذه البذاءة والحِطة».

وبوصولهم السجن أطلق ثديپوس العنان لعواطفه عند رؤيته الجلاد وهو يمزج السمّ ويعدّه. وراح يندب حاله ويندّد بالحكم القاسي الذي حُكم به ظلماً وهو الموت مع فوكيون. فقال له فوكيون:

– ألا يرضيك أن تموت مع فوكيون؟

وسأله أحد أصحابه الواقفين ألديه أقوال يريد إبلاغها إلى ابنه؟ فأجاب فوكيون:

– أجل حبّذا لو تفضّلت. قل له أن لا يحقد على الأثينيين.

ورجا منه نيكوكلس أعزّ وأخلص أصدقائه أن يسمح له بشرب السمّ قبله. فقال فوكيون:

– أنت يا صديقي، تسألني شيئاً أكره اعطاءه، ويحزنني أمره. لكن ولأنني ما كنت في سائر حياتي بدرجة من الأنانية أن رفضتُ لك طلباً، فعليّ أن أرضيك بهذا أيضاً.

وتناولوا السمّ جميعهم حتى لم يعد منه بقية، ولم يكن كافياً لأحداث الموت. فرفض الجلاد أن يُعدّ مقداراً آخر إلاّ إذا دفع له المحكومون اثني عشر درهماً ثمناً للجرعة الاضافية. وحصل بعض التأخير ومضى الوقت. فنادى فوكيون أحد أصدقائه قائلاً: «إن المرء في أثينا لا يستطيع أن يموت قبل أن يدفع أجرة ذلك» وطلب منه دفع المبلغ اللازم.

في الثالث عشر من شهر مونيخيون Munychion من كل سنة اعتادت المدينة أن تحتفل بموكب ديني تكريماً لجوپيتر. وكان الفرسان يمرّون مع الموكب فبلغوا السجن وقذف بعضهم بأكاليل الزهر. وبكى آخرون. وتوقف بعضهم وأخذوا يذرفون الدمع حزناً. وقال أولئك الذين لم تتلوّث عقولهم تماماً بالحقد والضغينة، وأولئك الذين احتفظوا ببقية من الإنسانية، إن تنفيذ الحكم في هذا اليوم هو مروق وخروج عن

المبادئ الدينية. لقد كان أقل الواجب يفرض أن لا ينفّذوا الحكم في ذلك اليوم بالذات لتبقى المدينة طاهرة بريئة من حكم موت وتنفيذه علناً في يوم عيد ديني.

وكأن الفوز بحياة فوكيون لم يكف خصومه فأوغلوا في حقدهم وتمادوا بمنعهم من دفنه في أي مكان من البلاد. ولم يكن بمقدور اثنين أن يرفعا محرقة لإحراق الجثة. ولا أن يجرؤ واحد من أصحابه على المغامرة بهذا الشأن. وكان ثمّ شخص يدعى كونوپيون Conopion، وهو ممن امتهن العمل، فأخذ الجثة ونقلها إلى ما وراء أليوسيس وجمع حطباً مما وراء حدود ميغارا وأنجز العمل. وكانت زوج فوكيون وخدمها حاضرات فشاركن في المراسم وأقمن ثمّ قبراً خالياً. وسكبت الخمر القربانية حسب الأصول. ثم جمعت العظام في ذيل ثوبها وعادت بها ليلاً وحفرت حفرة بالقرب من المدفأة في المنزل ووارتها وهي تقول:

- أيتها المدفأة المباركة، ها إني أودع إليك بقايا رجل طيب باسلٍ متوسّلة إليك أن تحمي وتحفظي هذه البقايا حتى يضمّها قبر آبائه عندما يعود الأثينيون إلى صوابهم.

وهكذا كان. فما مرّت فترة من الزمن قصيرة حتى أدرك الأثينيون من تجاربهم الأليمة أنهم حرموا أنفسهم من حاكم ممتاز وحام للعدل وكابحٍ للطيش والجموح لا نظير له. فرسموا أن يُصنع له تمثال من نحاس. وأن تُدفن عظامه باحتفال رسمي على نفقة الدولة.

وأما بخصوص أغنونيدس ومتهميه الآخرين فقد قبضوا عليهم ونفّذوا فيهم حكم الموت. وهرب كل من أبيتورس وديموقيليس من المدينة خوفاً، فتعقّبهما ابنه وأصاب ثأره من كليهما. ولقد قيل لنا إن ابنه كان بصورة عامة شخصاً عادياً. مرة وقع في حُبّ عاهرة كان يحتفظ بها تاجر بالعواهر. وسمع ثيودورس الملحد يناقش في ليقيوم فيقول: إن كان شراؤك حرية صديقٍ ذكرٍ عملاً حسناً فلماذا لا يكون حسناً أيضاً شراؤك حرية صديق أنثى؟ وإذا كانت هذه المِنّة لسيّد فلماذا لا تكون أيضاً لمحظيّة؟

فلقي هذا المنطق صَدى لعاطفة حبّه لتلك الأمة، وأسرع فاشترى حريتها.

إن الميتة التي ذاقها فوكيون أحيت في أذهان الإغريق ذكر ميتة سقراط(٢). فالقضيتان متشابهتان. وكلاهما راح ضحية خطأ المدينة المؤسف وحظها العاثر.

---

(٢) من المفيد أن نذكر هنا أن السّمّ الذي استُعمل لتنفيذ الحكم في هاتين الضحيتين الشهيرتين، هو العصير المستحلب من نبات الشوكران Water Hemloek.

كاتو الأصغر

CATO
(The Younger)

٩٥–٤٦ ق.م

لمعت شهرة أسرة كاتو لأول مرّة على عهد والد جدّ كاتو الأصغر، الذي كان عَلماً من أعلام الرومان بفضائله وأعماله العظام كما أوردنا في سيرته.

فقد كاتو أبويه هو وأخوه كيپيو Caepio وأخته پورشيا وأخت لأم وهي سرڤيليا Servilia، فكفلهم خالهم ليڤيوس دروسوس Livius Drusus وكان وقتئذ شخصية كبيرة النفوذ في الدولة، شهيراً بمناقبه وسموّ أخلاقه. وقيل عن كاتو إن طباعه لم تتغيّر منذ نعومه أظفاره حتى نهاية حياته. ففي تصرّفاته وأقواله وملامح وجهه كان ثمّ صلابة وثبات لا تحرّكهما أية عاطفة. ولوحظ فيه من ثبات العزم ما ينوء به عمره. إن سار قُدماً وراء شيء فليس هناك قوة تثنيه عنه. وكان خشناً فظاً مع متملّقيه وقاسياً إلى أقصى حَدّ مع الذين يتوعّدونه. يصعب جداً حمله على الضحك ونادراً ما انبسطت أساريره ولو بابتسامةٍ. ولم تكن إثارة غضبه بالأمر السهل. أما إذا هاج هائجه فمن العسير جداً تهدئته.

ظهر عليه الغباء وبطء الفهم عندما بُدئ بتعليمه. إلاّ أنه ما إن يتلقى شيئاً حتى يثبت في ذاكرته القوية. وهذا في الواقع هو سبيل الطبع الاعتيادي. فالناس من ذوي العبقريات المرهفة يمكن تذكيرهم بأسرع من لمح البصر، أما من يتلقّى الأفكار بصعوبة فذاكرتهم أقوى لأن الجديد الذي يتلقونه يحترق في أدمغتهم وينطبع كالوشم. ولعل السبب في صعوبة تعليمه يعود إلى طبعه العنيد وتعذرّ إقناعه. فلأجل أن يتعلّم المرء يجب أن يكون طائعاً. ويأتي الإقناع بصورة أسرع للأقلّ جلداً على مقاومته. لذلك تجد الشبان أسهل إقناعاً من الرجال الذين يزيدونهم سِنّاً. وتجد المرضى أسهل انقياداً من الأصحاء. وعلى الإجمال عندما يتوفر أدنى الشك والعناد فإن اقتبال الجديد أسهل. ومع هذا فقد قيل إن كاتو كان أطوع التلاميذ لمعلّمه ينفّذ كل ما يأمره به لكن بعد السؤال عن السبب والبحث في الداعي إليه. وكان معلّمه من أثقف الناس، فهو أكثر استعداداً لتعليم تلاميذه منه إلى ضربهم، وكان اسمه سارپيدون Sarpedon.

في أثناء طفولة كاتو تقدم حلفاء للرومان بطلب اعتبارهم مواطنين رومانيين أحراراً. ونزل أحد مندوبيهم پومپيديوس سيلو Pompaedius Silo ضيفاً على صديقه دروسوس.

ومضت على هذا الجندي الشجاع الذائع الصيت أيام في منزل دروسوس كسب به حبّ الأطفال وتعلّقهم. وسألهم ذات يوم:

- حسناً يا أولادي! ألا تتقدمون برجاء لخالكم حتى يساعدنا في مهمتنا؟

فأسرع كيپيو بالموافقة باسماً. إلاّ أن كاتو ظلّ ساكتاً وإنما راح يحدج الأغراب بقسوة وعين لا تطرف. فقال پومپيديوس

- وأنت يا سيّدي الصغير ما رأيك؟ ألا تتدخل إلى جانب أخيك وتتوسط لأجلنا عند خالك؟

وظلّ كاتو صامتاً لا يجيب. وبدا بسكوته هذا وصرامة وجهه أنه لا يوافق. وعلى سبيل الدعابة رفعه پومپيدوس وتقدّم به من النافذة وحمله كأنما يريد إلقاءه وطلب منه أن يوافق والاّ قذف به من حالق. قال هذا بلهجة وعيد وأخرج جسم الطفل من النافذة وراح يهزّه هزّاً شديداً. وبعد أن عانى كاتو ذلك فترة دون أن يبدو عليه خوف أو وجل أنزله پومپيدوس وهمس لأحد أصحابه قائلاً:

- رحِم اللّه روما لأنه ما زال بعد صبياً. لو كان هذا رجلاً فلا أظنّنا سنحصل من الأهالي على صوتٍ واحدٍ.

وفي مرة أخرى بمناسبة عيد ميلاد أحد أقربائه دُعي الي العشاء مع عدد من الأطفال. وانتقل بعض الأحداث صغارهم وكبارهم إلى موضع آخر من الدار ليلعبوا معاً لعبة المحاكمة. فشكّلوا محكمة ووقف أحدهم متهماً الآخر، وجاء آخر ليقود المحكوم إلى السجن. وكان بين اللاعبين طفل في غاية الجمال أوثقه صبيّ آخر وحمله إلى السجن فصاح مستنجداً بكاتو الذي ألمّ بالموقف بلحظةٍ وأسرع إلى الباب ونحّى الواقفين على حراسة الباب وأخرج الطفل. ثم ترك الحفلة إلى داره غاضباً ومعه عدد من لداته.

ما لبث كاتو أن أصبح شهيراً بين الصبيان. وعندما اعتزم سيلّلا إحياء السباق الديني المعروف باسم «طروادة» وهو سباق الفرسان الفتيان، جمع أبناء الأسر العريقة ونصب قائدين من بيتهم. فقبل الفتيان أولهما بسبب أمّه، فقد كان ابن ميتيلا عقيلة سيلّلا. أما الثاني وهو سكستوس ابن أخ پومپي فقد رفضوا أن يكون قائداً أو مدرباً.

فسألهم سيلّلا من تختارون؟ فصاحوا بصوت واحدٍ كاتو. وتنازل سكتسوس بطيبة خاطرٍ عن هذا الشرف له، مقتنعاً بأنه أجدر به.

كان سيلّلا بوصفه صديقاً للأسرة يرسل أحياناً بطلب كاتو وأخيه لرؤيتهما والتحدث إليهما، وهي التفاتة قلّما حظي بها أحد، لاسيما بعد أن استتبّ له الأمر وأصبح صاحب الأمر والنهي المطلق. وحرص سارپيدون على مرافقة كاتو لفائدة يتوخاها وشرف يناله فضلاً عن سلامة تلميذه. وكانت دار سيلّلا تبدو وكأنها موضع تنفيذ أحكام الموت لكثرة السجناء الذين يساقون منها إلى السجن والمعذّبين والمقبوض عليهم. وكان لكاتو من العمر إذ ذاك أربع عشرة سنة يرى بأمّ عينه رؤوس الشخصيات المعروفة تُجلب إلى الدار ويسمع الحسرات الخفيّة التي يطلقها الحاضرون، فسأل معلّمه:

- لماذا لا يُقدِم أحد على قتل هذا الرجل؟

فأجابه المعلم:

- لأنهم يا فتاي يخافونه أكثر مما يكرهونه.

فقال كاتو:

- لماذا لا تعطيني إذن سيفاً لأطعنه به وأحرّر بلادي من هذه العبودية.

ولحظ سارپيدون سحنة كاتو تتغيّر من فرط الحنق، وعضلات وجهه تتصلّب عزماً وتصميماً، فانتبه إليه وضاعف رقابته منذ ذلك الحين لئلا يُقدِم على محاولة طائشة.

وفي صباه كانوا يسألونه عمّن يختصّه بأعظم الحب فيجيب:

«أخي» فيسألونه «ومن يليه؟» فيجيب «أخي». ويظلّ جوابه كذلك للمرة الثالثة والرابعة وهلمّ جرّاً حتى يتعب السائل ويتخلّى عنه.

وزاد هذا الحبّ الأخوى واشتدّ كلّما تقدّم كاتو في السنّ حتى إذا ناهز العشرين ما عدت تراه يتعشّى ولا يخرج إلى ظاهر المدينة ولا إلى الفوروم إلاّ بصحبة كيپيو. لكن عندما بدأ هذا الأخ يستعمل الأدهان الثمينة ويتطيّب بالعطور النفيسة أبى كاتو أن يحذو حذوه لأنه كان متمسكاً بحياة التقشّف مغرماً ببساطة العيش. ويسمع كيپيو أحياناً كلمات الإعجاب باعتداله وضبط نفسه فيقرّ بأنه قد يكون كذلك إذا ما قورن بغيره... و«لكن عندما أقارن نفسي بكاتو أجدني أكاد لا أختلف عن سيپيوس Sippius». وهذا فتى كان يضرب به المثل السيئ لحياة الترف والخنوثة التي يحياها.

وعُيّن كاتو كاهناً لأپوللو. فانتقل إلى منزلٍ خاصٍ به. وتسلّم حصّته من ميراث أبويه، وكان يبلغ مائة وعشرين تالنتاً. وزاد من تقشّفه وبساطته. وتعرّف بالفيلسوف

الرواقي أنتيپاطر الصوري وتوثقت علاقتهما. وانصرف بكلّيته إلى الدراسة والتعمّق في العلوم الخلقية والسياسية. ومع أنه كان يميل - إن صح القول - إلى السعي نحو كل فضيلة بنوع من الوحي فإن فضيلتي الاستقامة والنزاهة كانتا تستأثران باهتمامه، وهما فضيلتان تخلّق بهما دون انحراف أو هوادة، ولم يسمح أن تتغلب عليهما الرحمة أو العطف. ودرس أيضاً فنّ الكلام والمناقشة الجماهيرية، معتقداً بأن الفلسفة السياسية هي كالمدينة الواسعة يجب أن يتوفّر لسلامتها عنصرا الحرب والعسكرية. إلاّ أنه لم يتمرن على الخطابة والمناقشه أمام ملأ ولم يُسمع عنه أنه تحدث في المجالس الخاصة باللهجة الخطابية. وكان يقول لمن يعيب عليه صمته ونزر كلامه:

- أجل إني لكذلك أؤمّل أن لا يمتدّ ذلك بي. سأبدأ في الكلام عندما أجد لديّ منه ما لا يكون الأفضل له أن يُكتم ولا يُقال.

إن قاعة پورشيا الكبرى، كما تدعى، بناها كاتو الأكبر عندما كان «إيديلاً» وأوقفها للنفع العام، وفيها كان تريبونات الشعب يمارسون واجباتهم. وقد وجد أن أسطوناً من أساطينها تعترض ترتيب مقاعد التريبونات حين جلوسهم لسماع المظلمات. فثار نقاش حولها: هل تُرفع من البناية، أو تنقل إلى موضع آخر منها؟ هذه المناسبة حملت كاتو على دخول الفوروم وهو كاره، فقد عارض التريبونات ونال من الإعجاب شيئاً غير قليل لما أبداه من إقدام ومقدرة خطابية. لم يكن في خطبته شيء من نزق الشباب وطيشه، كما كانت خالية من التكلف والعبارات المنمّقة، فقد عمد إلى الصراحة، وحشد فيها المعاني ورصّها رصّاً خشناً لا يخلو من نوع من الروعة والجمال. واسترعى الاهتمام وظهرت شخصية الخطيب المفوّه فيه حين وجد الناس في لغته الصارمة مهيّجاً لمشاعر الطرب الطبيعية والاهتمام التلقائي. كان صوته ذا صدى عميق يسمعه الجمّ الغفير دون عناء. وكانت فيه مقدرة على الاحتمال عجيبة، فلا يعتريها وهنٌ وكثيراً ما خطب يوماً كاملاً دون توقّف.

بعد أن أدى واجبه في هذه المسألة عاد إلى الدرس والاعتكاف عن الناس. وباشر رياضة شاقة عنيفة لتقوية جسمه. وعودّ نفسه على السير حاسر الرأس في أشدّ الأيام حرارة وبرداً. وعاف الركوب البتّة، وما كان يُرى الا وهو ماشٍ. وإذا خرج في سفرة مع أصحابه سار وحده تاركاً الآخرين راكبين، إلاّ أنه كان يلحق بهم واحداً تلو الآخر متحدثاً معهم طول الطريق. وكان يثير الإعجاب بصبره على المرض، وبالشدة التي يأخذ بها نفسه في العلاج والحمية عند توعّك مزاجه. وإذا داهمته البرداء اعتكف وأبى مواجهة أحدٍ حتى تفارقه الحمّى وتنصرف عنه أول نوبةٍ لها. وعند العشاء بين

لأصحاب عندما يُلقي النرد لاختيار صحفة الطعام ويخسر، فتقدم له الجماعة الحاضرة الطعام الذي يفضّله رغم خسارته، فإنه يأبى «رافضاً أن يجادل في حكم ڤينوس» على حدّ قوله. ولم يكن يشرب إلاّ مرة واحدة في اليوم بعد العشاء ثم ينصرف لطيّته. لكن تعاطيه الخمر زاد بمرور الأيام حتى بلغ الأمر به أن كان أحياناً يصل الغبوق بالصبوح. وفسّر أصحابه هذا الإدمان بقولهم إن شؤون الدولة والمشاغل العامة كانت تستغرق منه كل وقته، وبما أنه شغوف بالمعرفة والتتبّع فقد اعتاد قضاء الليل بطوله في محادثة الفلاسفة وشرب الخمر. ولذا قال المدعو مميوس Memius في ملأ من الناس إن كاتو يبدد ليالي كاملة في معاقرة الخمر. فردّ عليه شيشرون بقوله: «وعليك أن تضيف: وهو يُنفق نهارات كاملة في لعب القمار!». وبمختصر القول، كان كاتو يجد الفساد في عادات الزمن وأخلاقه وأن إصلاح الأمر هو ألزم الضرورات، وهو لذلك يجد نفسه مجبراً على مخالفة ما جرى عليه العُرف إظهاراً لفساده. فمثلاً وجد أن الأرجوان الفاتح هو موضة العصر، فاختار منه الغامق الشبيه بالأسود. وكان يخرج أغلب الأحيان بعد تناول فطوره دون حذاء وشملة. ولم يكن يبغي من هذه المخالفة اطّلاب شهرة ذائعة أو لفت النظر إليه، بل لكي يعوّد نفسه على عدم الخجل إلاّ مما يستحق الخجل، وأن يحتقر كل أنواع الصغائر والمخازي.

ورث من أحد أبناء عمومته عقاراً فباعه بمائة تالنت وجعلها نقوداً تحت متناول يده، لتكون رهن مشيئة المستدينين من أصدقائه، دون فائدة. وقد وضع مرّة أملاكه وعبيده رهناً للخزانة العامة في سبيل بعضهم.

ولما بلغ سنّ الحلم والزواج وهو لايعرف امرأة قط، عُقد له على ليپيدا Liepida المعقود لها قبله على ميتللوس سكيپيو. لكن العقد الأخير فُسخ لانسحاب الخطيب بملء رغبته فبقيت ليپيدا حرّة، لكن ما لبث سكيپيو أن ندم على ما فرط منه وحاول كل ما وسعه ليعيدها قبل تمام زواج كاتو فتكلل سعيه بالنجاح. فاستشاط كاتو غضباً وكان أول ما خطر بباله مراجعة القضاء إلاّ أن أصدقاءه نصحوه بألاّ يفعل. وعلى كل حال فقد دفعته العاطفة وتهوّر الشباب إلى كتابة عددٍ من القصائد في هجاء سكيپيو والنيل منه على أسلوب أرخيلوخوس اللاذع الساخر إلاّ أنها كانت خالية من بذاءة ذلك الشاعر وفُحشه. وبعد ذلك تزوّج أتيليا Atilia بنت سورانوس Soranus فكانت أول امرأة عرفها إلاّ أنها لم تظل الوحيدة. وهو بذلك أقلّ حظاً من ليليوس Laelius صاحب سكيپيو الذي لم يعرف طوال عمره المديد غير امرأة واحدة كانت زوجته الوحيدة.

في حرب العبيد التي عُرفت باسم زعيمهم سپارتكوس كان غيلليوس Gellius

جنرالاً. وقد تطوّع كاتو فيها بسبب أخيه الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. لم يجد كاتو فيها فرصة لإظهار نبوغ أو شجاعة بسبب أخطاء القائد العام في إدارة دفّة الحرب. إلاّ أنه رغم هذا، ومع الفوضى والاضطراب اللذين سادا الجيش، أبدى تمسّكه الشديد بالضبط والربط، وتجلّت فيه آيات من البأس والإقدام بقدر ما تطلّبه الموقف، فضلاً عن كثير من التروّي والحكمة. فبدا وهو قرين لكاتو جدّه الأعلى. وعرض عليه غيلليوس مكافآت عظيمة وهمّ بتقليده أرفع درجات الشرف العسكري إلاّ أنه أبى قبول ذلك معتذراً بأنه لم يقم بشيء يستحق هذا. وبدا برفضه هذا شخصاً شاذاً غريب الطباع. ودليل آخر على تمسّكه بالقانون أنه قد صدر قانون يمنع المرشحين أنفسهم لأيّ منصب بألاّ يستعينوا أثناء الاقتراع بملقّنين يزوّدونهم بأسماء الناخبين. وكان كاتو الوحيد بين المرشحين لمنصب التريبيون الذي طبّق القانون. وقاسى الكثير ليستظهر أسماء من يجب عليه الاتصال بهم من الناخبين لتحيّتهم. إن الذين أثنوا على موقفه هذا لم يكن ثناؤهم يخلو من الغيرة والحسد. فبقدر ما كانوا يقدّرون نُبل عمله كانوا يضيقون ذرعاً بالصعوبة التي يجدونها في احتذاء حذوه.

على إثر انتخابه تريبيوناً أُرسل إلى مقدونيا ليلتحق بجيش الجنرال روبريوس Rubruis. وقيل إن زوجه ركبها الهمّ عند رحيله وأنشأت تبكي. فقال لها أحد أصحابه المدعو موناتيوس Munatius يخفف من حزنها ويطمئنها:

- لا تقلقي يا أتيليا، فسأقوم أنا نفسي على حراسته وهذا عهد مني لك.

فأجاب كاتو:

- بكلّ سرور.

وبعد رحلة يوم كامل توقّفا، وقال له كاتو بعد أن تناولا عشاءهما:

- عليك الآن أن تفي بعهدك لأتيليا. فلا تتركني ليلاً أو نهاراً.

وأمر أن يُفرش في حجرته سريران لينام موناتيوس على أحدهما. وبقيا كذلك وتعوّد كاتو أن يتخذ من الموضوع مزحة. فكان يتأكد من وجوده هناك على الدوام. وقد رافقه في رحلته خمسة عشر عبداً ورجلان من الأحرار وأربعة من أصحابه، كلهم كانوا يسافرون على صهوات الخيل إلاّ كاتو فقد ظلّ كعادته يستخدم قدميه، لا يتأخر عنهم قط ويحادثهم جميعاً كلّ بدوره أثناء السير.

وبوصوله معسكر الجيش سلّمه الجنرال قيادة إحدى الفرق. ولم يجد في هذا أي شرف كبير، ولا الأمر الجدير بالقائد. ولأجل أن يثبت أقدامه الفريد في بابه قرّر أن

يجعل من جنود فرقته شيئاً أشبه به، لا بإرخائه الشكيمة، واستصغار هيبة المنصب، بل بمزج العقل بالسلطة. وكان يعمد إلى تدريب وإرشاد جنوده فرادى وآحاداً، ويكافئ ويعاقب حسبما يستحق كل منهم.

وأصبح جنوده على درجة عالية من الانضباط بحيث صعُب القول أَهُمْ مسالمون أكثر مما هم محاربون أم بالعكس. أَهُمْ أكثرهم إقداماً أم أكثرهم إحجاماً؟ لقد كانوا على حَدّ سواء مصدر خوف للعدو ومعين لُطفٍ للحلفاء. يُحجمون عن الدنايا ويُقدِمون على المعالي. ونال ما في ذلك من معنى. وعلا قدره عند الجميع وأحبه الجنود، لمساهمته شخصياً بكل ما كان يأمر به. وكان في كسائه وطعامه وحلّه وترحاله أقرب مظهراً إلى الجندي البسيط منه إلى قائد فرقةٍ. وسبق القادة العظام في تسامي خُلقه وحكمته. وبات موضع الإعجاب العام دون أن يدري. ذلك أن حب الفضيلة الحقيقي إنما هو جعل الودّ والاحترام اللذين يحسّ بهما المرء لمن يتولّى تلقينها للآخرين. أولئك الذين يثنون على أطايب الرجال وهم لايشعرون بحبّ لهم، إنما يحترمون سُمعتهم لكنهم في الواقع لا يُعجبون بأخلاقهم ولا يحاكونها.

في ذلك الحين كان يعيش في برغاموس الفيلسوف الرواقي الشهير أثينودورس الملقّب كورديليو Cordylio وقد بلغ من العمر عِتياً. وكان دائم الرفض لكلّ صلة صداقة أو تعارف يطمح إليها الأمراء والعظماء. ولم يكن كاتو يجهل ذلك إلاّ أنه لم ييأس. ووجد أن استمالته وخطب ودّه لا يتّمان بالكتابة إليه أو إرسال الرسل. وقرر أن يسير إليه بنفسه. وكان القانون يمنحه حق التمتع بإجازة شهرين فانطلق إلى آسيا واضعاً ثقته في أخلاقه وشخصيته معتقداً أنها لن تخيّبه. والتقى به وتحدث معه حتى نجح في إقناعه بخطل قراره الاعتكاف عن الناس. وعاد به إلى المعسكر فرحاً مزهواً بنصره، كأنه أنجز عملاً بطولياً يفوق أعمال بومبي ولوكوللوس اللذين راحاً آنذاك يدوّخان بجيوشهما البلاد المترامية ويخضعان الممالك العظيمة.

وفي فترة خدمة كاتو العسكرية ورده نبأ مرض أخيه وهو في أنيوس Aenus التراقية متجهاً إلى آسيا. ولم يُثنه هياج البحر وعدم عثوره على سفينة مناسبة، بل استقلّ مركباً تجارياً صغيراً مع اثنين من أصدقائه وثلاثة من الخدم، وأقلع من سالونيكي Thessalonica وأشرف على الغرق ولم ينج إلاّ بعد لأيٍ. ولما وصل أنيوس وجد أخاه جثة هامدة. ويُعتقد أن كاتو بدا في هذا الموقف أخاً محبّاً أكثر منه فيلسوفاً. وفضلاً عن الحزن العظيم الذي استولى عليه ووقوعه على الجثمان الهامد شمّاً وتقبيلاً وعناقاً، لم يبخل بأي مالٍ على جنازته. وأسرف إلى حَدّ السفه بالعطور الثمينة

والأقمشة الفاخرة والملحقات التي أُحرقت مع الجثمان، والضريح المرمري الثاسي Thasian الذي كلّفه وحده ثمانية تالنتات - أقامه في ساحة أنيوس العامة - هناك فريق عاب عليه ذلك قائلاً إنه لايتفق ووقاره المعروف واعتداله. هؤلاء الذين جعلوا همّهم إبداء الاعتراضات التافهة لأقل مطعن غاب عنهم أن كاتو كان ممتلئاً بالحنان الطبيعي والحبّ الأخوي مع ثبات جنانه وقلّة استجابته النفسية للفرح والخوف والحبّ الجامح.

وبالمناسبة بعث كثير من الأمراء وكبار القوم في تلك البلاد والمدن بالهدايا الثمينة تكريماً لأخيه الراحل. فلم يأخذ مالاً وردّه، مكتفياً بالعطور والتزيينات التي لم يقبلها إلاّ بعد دفعه ثمنها. ثم إنه قسم الميراث بينه وبين بنت كيبيو ولم يطالب بنفقات الجنازة من أصل التركة. مع هذا كله، فهناك بعض من يؤكد أنه وضع رماد جثمان أخيه في منخلٍ ليخرج الذهب الذائب بعد احتراق الجسم. إن مخترع هذه الأكذوبة قد يرجو الغفران لقلمه قدر ما يرجو خلاص سيفه من أي اتهام أو انتقاد.

أنهى كاتو خدمته العسكرية. وكان توديعه حافلاً بالعواطف الجائشة. لقد شيّعه الجنود بالدعوات وحُسن الثناء، بله بالدموع والعناق. وفرشوا أرديتهم عند موطئ قدميه، وراحوا يلثمون يديه أثناء مروره بهم، وهذا شرف لا يقلّده الرومان إلاّ للقلّة من الجنرالات والقواد الأعلين. وكان قد قرّر بعد تركه الجيش، وقبل الاستقرار في روما والعمل في الحقل السياسي، أن يقوم برحلة في آسيا لدراسة عادات وأخلاق وقدرة كلّ إقليم. كما كان أيضاً يكره رفض دعوة ديوتارس Diotarus ملك غلاطية، الذي كانت بينه وبين أبيه صداقة متينة، وقد تشوّق كاتو فعلاً لزيارته. واتّبع في رحلته هذه النظام التالي: في الصباح الباكر يبعث بخبّازه وطاهيه إلى الموضع الذي يكون قد قرر البيتوتة فيه، فيدخلان المدينة بكل بهدوء واحتشام. وإن لم يتفق لهما صديق أو واحد من معارف كاتو أو أسرته فإنهما يستدركان حاجته من الطعام في أحد الفنادق. ولا يُقلقان راحة أحدٍ. فإن لم يوجد فندق راجعا الحكام وطلبا المعونة في إيجاد منزل لسيّدهما. ويقبلان دون اعتراض أيّ مسكن يخصّص لهما. ولا يخرجان قطّ عن جادة الأدب أمام الحكام ولا يُحدِثان ضجّة أو يلجآ إلى تهديد. وكثيراً ما وجدا نفسيهما ضائعين لا يكترث بهما أحدٌ ويصل كاتو فلا يجد شيئاً مهيئاً، ولا يحسّن وجوده من الوضع. ويقلّ الاحتفال به عندما يُرى جالساً فوق متاعه لايتكلم فيحسبونه نكرة من النكرات يخاف أن يصدر أمراً لئلا يلقى ما يكره. وكان أحياناً يستدعي بعض الأهالي وينتمي بهم جانباً ليهمس في آذانهم:

- أيها الحمقى تخلّوا عن هذا الطبع واقروا ضيوفكم، فليسوا كلهم مثل كاتو.

كونوا لطفاء وبذلك تكسرون من حدّ القوة. هناك الكثير ممن لا يريدون إلاّ ذريعة ليستلبوا منكم ما يمكن أن تعطوه بشيء من التردد.

ووقعت له حادثة طريفة أثناء مروره بالبلاد السورية. كان يريد الدخول إلى أنطاكية فشاهد حشوداً من الناس خارج أسوار المدينة وقد انتظموا صفوفاً على جانبي الطريق: شبان بمعاطف طويلة في جانب، وصبيان بحلل قشيبة في جانبٍ، وثمّ آخرون وهم الكهّان والقضاة بأردية بيضاء وأكاليل من الزهر. وحسب كاتو إن هذا الاحتفال أقيم تكريماً له. فتملّكه غضب شديد على خدمه الذين سبقوه إلى المدينة معتقداً أنهم أذاعوا نبأ قدومه، وطلب من أصحابه وأتباعه أن يترجّلوا وسار معهم. ولم يكد يدنو من باب المدينة حتى تقدّم منه رجلٌ كبير السنّ بيده قضيب وإكليل، ربما كان رئيس الاحتفال، وابتدر كاتو دون تحية قائلاً له: «أين تركت ديمتريوس ومتى سيصل؟» كان ديمتريوس هذا خادماً لپومپي. وبما أن عيون العالمين كلها كانت شاخصة إلى پومپي فمن البديهي أن الخادم أيضاً سيتمتع بالتكريم بعد أن عُلم أنه يتمتع بحظوة ونفوذ لدى سيّده. وهنا انفجر خدم كاتو مقهقهين ولم يتمالكوا أنفسهم من القهقهة وهم يجوسون بين الجمع الحاشد. وعرا كاتو نوع من الخجل والأسف وقال:

- ما أشقاكِ أيتها المدينة!

ولم يزد. على أنه كان يضحك كلما عنّت له، أو ذكّره بها أحدٌ.

ولم يعتم پومپي أن جعل الناس يخجلون من جهلهم وصمتهم وعدم اكتراثهم بكاتو، بما أظهره له عندما زاره في أفسس. ذهب كاتو لزيارة الرجل الذي يكبره سِنّاً، والقائد العام لأعظم الجيوش، ذاك الذي طبقت شهرته الآفاق، فأبى پومپي إلاّ أن يستقبله واقفاً. وتقدّم منه مرحّباً اعترافاً منه بكبر مقامه. ومدّ يده مصافحاً وعانقه بكثير من العطف والرقّة وأطنب في مدح مناقبه بحضوره وزاد في مدحه بغيابه. وبدأ الناس جميعاً يظهرون الاحترام لكاتو ويكتشفون فيه الطبع الدمث العجيب، وسموّ الروح وتلك هي عين الطبع الذي كانوا يعيبونه عليه من قبل. إن مجاملة پومپي بدت وكأنها صادرة من شخص يجلّه أكثر مما يحبّه، وانطباع العموم هو أنه أحاط كاتو بإعجابه حينما كان معه. إلاّ أنه لم يكن آسفاً على رحيله. فقد اعتاد پومپي الإلحاح على زائريه الشبان بملازمته لكنه لم يعرض على كاتو البقاء بل أسرع بالسماح له بالرحيل، كأنما كان سلطانه مهدداً بوجوده. مع هذا فقد كان كاتو الوحيد بين الراحلين إلى روما الذي أوصاه پومپي بأولاده وزوجه، وكانت الأخيرة في الواقع قريبة لكاتو.

وبعد هذه المقابلة تنافست المدن في تكريمها لكاتو. وكانت الواحدة تلو الأخرى

تستقبله بالحفلات والمآدب المقامة على شرف مقدمه. فطلب من أصحابه أن يشتدوا عليه في الرقابة وأن يعنوا بأمره لئلا يأتي اليوم الذي يصدّق فيه قول كيوريو. وكان هذا صديقاً حميماً له يكره فيه تزمّته وتقشّفه. وقد سأله يوماً عند انتهاء خدمته في الجيش هل اعتزم زيارة آسيا؟ فأجابه كاتو:

- طبعاً. بكلّ تأكيد.

فقال كيوريو:

- نِعمَ ما تفعل. فستعود بمزاج أطيب وخُلق ألطف وبشاشة أكثر.

تلك هي العبارات التي استخدمها على وجه التقريب.

وبلغ ديوتارس من العمر عِتِيّاً. فأرسل يستقدم كاتو ليعهد إليه برعاية أطفاله وأسرته. وحمل إليه فور وصوله الهدايا من كل نوعٍ راجياً منه قبولها. واستاء كاتو لكثرة إلحاحه، ولم يبق إلاّ ليلة واحدة. ورحل في الصباح الباكر. وبعد أن قطع مسيرة يومٍ نزل في پسينوس Pessinus ليجد في انتظاره كمية أكبر من الهدايا مع رسالة من ديوتارس يستحلفه بأن يقبل ما أرسل إليه أو على الأقل أن يسمح لأصدقائه بها لأنهم يستحقون بعض المكافأة منه في حين أن إمكاناته لا تسمح له بذلك. إلاّ أن كاتو أصرّ على رفضها وإن وجد بعض أصدقائه الراغبين فيها يهمّون بالتظلّم من تزمّته. فأسرع يقول إن الفساد لا يحتاج إلى ستارٍ أو ذريعة، وإن على أصحابه أن يقاسموه ما يحرزه بشرف وبحقّ. ثم إنه أعاد الهدايا إلى ديوتارس.

وعندما استقلّ سفينة مقلعة إلى برنديزيوم حاول أصحابه إقناعه بوضع رماد أخيه في سفينة أخرى فأبى قائلاً إنه يفضّل مفارقة الحياة على مفارقة الرماد. وهكذا أقلع وقيل لنا إن الأقدار حكمت أن تكون سفرته حافلة بالأخطار الجِسام في حين لم تصادف السفن التي أبحرت معه أية متاعب ووصلت بسلام.

وفي روما قضى جُلّ أوقاته ملازماً داره أو مجالساً أثينودورس أو في الفوروم معقّباً قضايا أصحابه. وكان الوقت قد أزف ليتقدم مرشّحاً لمنصب الكويستور إلاّ أنه تريّث ولم يتقدم إلاّ بعد أن درس القوانين المتعلقة بتلك الوظيفة، وبعد الإفادة من المجرّبين فيها حتى بلغ الغاية في تفهّمه واجباته وصلاحياته. هذا الاطّلاع الواسع ساعده على القيام بإصلاحات هامة وإجراء تغيّرات كبيرة بين الموظفين ورؤساء الأقسام في بيت المال عندما تولّى المنصب. نظراً لما لهؤلاء الموظفين من الخدمة الطويلة والمِران والمعرفة التامة بالسجلات العامة والقوانين فقد كانوا موضع الاعتماد التام من كل الرؤساء الجهلة الذين يتعاقبون سنة بعد سنة، ويأتون دون خبرة سابقة ولا مؤهّلات

كافية ليتلمذوا لمرؤوسيهم، فلا يجدون بداً من إلقاء زمام الأمور إليهم. فباتوا هم أمناء الخزينة الفعليين ولم يفسحوا أي مجال لرؤسائهم لممارسة صلاحياتهم حتى جاء كاتو وهو على أتم استعداد، فتولّى الأمور بنفسه متسلّحاً لا بلقب الكويستور وحده بل بالاطلاع الواسع والمعرفة التامة. وبهذا أنزل الموظفين من عليائهم فأصبحوا وكأنهم مجرد خدمٍ وسُعاة. وكشف عن سوءاتهم وفرطِ جهلهم وفضح أعمالهم المشينة وكشف عن حِيَلهمٍ. كان هؤلاء يتّسمون بالجراءة والصفاقة فراحوا يتزلّفون إلى زملائه ويتقرّبون منهم لتنظيم كتلة مناوئة له. إلاّ أنه أسرع فأدان رئيسهم بجريمة خيانة الأمانة حول ميراث وصيّاً عليه، وطرده من وظيفته. ثم أحال موظفاً آخر إلى المحاكمة بتهمة النصب والاحتيال. فانتدب المتهم لوطاطيوس كاتالوس للدفاع عنه. وكان لوطاطيوس يمارس منصب الچنصور وهو رجل متمكن في عمله، ذو مزايا خُلقية نادرة، ويُعتبر أعقل من هم في سِنّه، وأعلاهم سُمعة. كذلك كان صديقاً حميماً لكاتو كثير الثناء على بساطة عيشه وتواضعه. أدرك لوطاطيوس أنه لم يفلح في تبرئة موكّله إذا واجه محكمة عادلة، فتقدم برجائه إلى كاتو لإسقاط التهمة. فاستنكر كاتو ذلك منه. ولكن لوطاطيوس لم ينثنِ. ثم زاد في إلحاحه فقال له كاتو:

- من المخجل يا كاتالوس أن يتعرّض الچنصور لعار الطرد من قبل ضباطنا وهو صاحب الكلمة المطلقة على أرواحنا جميعاً.

وبدا كاتالوس بعد هذه العبارة وكأنه يهمّ بقولٍ، لكنه آثر الصمت إما حياءً وإمّا غيظاً. ثم سار لطيّته وهو مكسور الخاطر. على أن التهمة لم تثبت. إذ كانت أصوات القضاة الذين حكموا ببراءته أقل بصوت واحدٍ من عدد الأصوات التي حكمت بإدانته. فلم يكن من محاميه كاتالوس إلاّ أن أرسل يستقدم ماركوس لوليوس Marcus Lollius القاضي، أحد زملاء كاتو وكان مريضاً فجيء به محمولاً على كرسي، وصوّت للبراءة. إلا أن كاتو أبى استخدام الرجل المظنون في أي عملٍ ولم يكترث للصوت الذي كان السبب في خلاصه. ولم يدفع له مرتباً. وبهذا فرض على الموظفين سلطانه وضمن احترام أوامره واستخدم السجلات بالشكل الذي وجده ملائماً للمصلحة العامة. فرفع من سُمعة الخزينة وجاوز بها سُمعةِ مجلس الشيوخ. وانتشر بين الناس هذا القول: إن كاتو رفع من شأن منصب الكويستور فجعله مساوياً لمنصب القنصل.

وجد كاتو بعد التدقيق أن كثيراً من الناس مدينون للدولة بديون قديمة، ووجد أن بيت المال نفسه مدين لعدد من الأشخاص. وكان مبدأه حماية الناس من الاعتداء ومنعهم من الاعتداء في الوقت نفسه. ولهذا راح يتعقب المدينين ويستحصل منهم

ديون الخزينة دون أن تأخذه فيهم رحمه أو هوادة. كما دفع من مال الخزينة ديون الناس على آخرها. فلهج الناس بمديحه وحبّه وزاد إكبارهم له وإعجابهم به، إذ شاهدوا بأمّ أعينهم كيف كان يجلب أولئك الذين ظنوا أنهم فازوا بغنيمة غير قابلة الردّ فيرغمهم على إعادتها، وكيف كان يدفع حقوق أولئك الذين أدركهم اليأس من وصول ديونهم إليهم. كانت ترد الخزينة صكوك دفع مزيّفة وأوامر صرف كاذبة من مجلس الشيوخ لمصلحة بعض الأشخاص من ذوي الحظوة والجاه، فتُقبل وتُصرف لهم المبالغ. ولم يكن كاتو بالذي يسكت عن هذا. وفي قضية معيّنة عندما شكّ في صحة مصادقة مجلس الشيوخ على إذن بالدفع رفض شهادة عدد كبير من الشهود الذين جيء بهم ولم يعترف بصحة الإذن حتى جاء القناصل بأنفسهم وأيّدوا الأمر بعد أن حلفوا اليمين أمامه!

وكان سيلّلا في زمانه قد اتخذ عدداً كبيراً من الوكلاء والمعتمدين لممارسة الأعمال اللاقانونية التي سادت فترة حكمه، وكان قد دفع لكلّ منهم اثني عشر ألف درهم مكافأة على اغتيالهم الخصوم وقتلهم. هؤلاء المناكيد الأشرار كانوا موضع المقت الشديد من الناس، وظلوا يسرحون ويمرحون ولا يجرؤ أحد على النيل فيهم. وباشر كاتو باستدعائهم واحداً بعد آخر ومحاسبتهم على المبالغ التي قبضوها دون وجه حقٍ، واعتبرهم واضعي اليد على أموال تخصّ الدولة، وبذلك استحصل منهم كل ما قبضوه. ولم يصرفهم بعد التأنيب والتعنيف إنما أحالهم إلى المحاكم متهمين بجرائم القتل التي ارتكبوها. وكانت الإجراءات التي اتخذها بحقهم دليلاً يُثبت إدانتهم وحكماً تمهيدياً. لذلك سهُلت إدانتهم واستوفوا حظهم من العقاب. وساد فرح عام وخيّل للناس أن الطغيان القديم قد استوصلت شأفته، وأن سيلّلا نفسه يساق إلى المحكمة لينال ما اقترفت يداه - على حَدّ قولهم.

كانت استمرارية كاتو ومعين نشاطه الذي لاينضب سبباً آخر لميل الجمهور اليه. فهو يأتي دائرته قبل كل أحد ويكون آخر الخارجين منها. ولم يغب عن أي اجتماع جماهيري مطلقاً. ولم يخطىء جلسةً واحدة لمجلس الشيوخ. فقد كان رقيباً لا تغمض له عين على أولئك الشيوخ الذين لا يبخلون بأصواتهم على هذا أو ذاك لإلغاء ديون مستحقة عليه للدولة، أو لشطب رسوم في ذمّته، يفعلون ذلك لمنفعتهم الخاصة، أو لافتقارهم إلى الشعور بمسؤولياتهم. ومجمل القول أنه حفظ بيت المال وصانه من الجواسيس بعد أن ملأه بالمال. وقدّم بذلك أكبر دليل على أن الدولة يمكن أن تكون غنية دون أن تحتاج إلى إرهاق المواطنين بالجباية. في مبدأ الأمر أثارت إجراءاته مشاعر

الكره والسخط في نفوس بعض زملائه، لكنهم أصبحوا بالتالي راضين عنه كل الرضا. فقد كان مستعداً لتحمّل المسؤولية وكل التبعات والانتقادات عندما يرفض هؤلاء الزملاء مساعدة أصدقائهم في اغتراف أموال الدولة أو يأبون إصدار قرارات لا تتفق مع مبادئ الشرف عند مراجعة حساباتهم. فإن اشتدّ عليهم ضغط ذوي الحاجات أسرعوا فوراً إلى إلقاء اللوم على كاتو بقولهم إنهم لا يستطيعون عمل شيء دون موافقته. وشيّعه جمع حاشد من الناس إلى منزله في آخر يوم له من وظيفته، تكريماً له واعترافاً بفضله. وبينما هو في طريقه أخبره أحدهم أن عدداً من أصحاب مارچللوس هم الآن في بيت المال يستخدمون نفوذهم وكل ما لديهم من حظوة ووجاهة ليحملوا زميله هذا على إلغاء دين وشطبه من السجلات العامة بعد اعتباره منحةً. وكان مارچللوس صديقاً لكاتو منذ الطفولة وهو أحد خيرة زملائه في بيت المال طالما كان كاتو بجانبه، لكنه وهو وحيد ضعيف الإرادة لا يصمد أمام رجاء ذوي الحاجات نزّاع إلى إرضاء كل من يقصده. فما كان من كاتو الا أن عاد أدراجه ودخل بيت المال ليجد مارچللوس يهّم بتلبية الرجاء وتسجيل الدين منحةً، فأمسك بالسجل وشطب القرار ومارچللوس واقف لا ينطق بكلمة. بعد أن قام كاتو بواجبه صحب مارچللوس إلى منزله، ولم يعتب عليه لا في حينه ولا بعده وظلّ مقيماً على صداقته ومحبته. ولم ينفكّ كاتو عن مراقبة سير الأمور في الخزينة بعد اعتزاله الخدمة. وكلّف خدمه بمتابعة تسجيل تفاصيل الخرج. وكان يحتفظ لنفسه بدفاتر خاصة تتضمّن حسابات الدخل منذ أيام سيلّلا حتى إنهاء خدمته، ابتاعها بخمسة تالنتات.

وكان أول القادمين إلى مجلس الشيوخ وآخر المغادرين. وكان أغلب الأحيان يجلس على مقعده ويفتح كتابه وينشغل بالقراءة ناشراً رداءه أمام كتابه ريثما ينتظم المجلس ويكمل نصابه بمجيء الأعضاء متباطئين. ولم يؤثَر عنه خروجه من المدينة قط أثناء دورات المجلس. وقد وجد پومپي وأنصاره أنهم لا يستطيعون إغراءه أو إرغامه على السير في ركابهم والموافقة على مقترحاتهم الجائرة فحاولوا إبعاده عن الاجتماعات بأن أشغلوه بتعقيب مصالح أصحابه، والدفاع عن قضاياهم والفصل في خلافاتهم وغير ذلك. لكنه سرعان ما اكتشف حيلتهم فأحبطها بإعلانه لأصدقائه ومعارفه أنه لن يتولى متابعة أية قضية خاصة لأيّ منهم ما دام المجلس في دور الانعقاد. فهو لم يدخل الحياة السياسية جرّاً لمغنم أو دفعاً لمغرم أو ابتغاء لمجدٍ أو إرضاء لهواية، أو على سبيل الصدف، بل لأنه العمل الأصلح والأشرف للرجل الأمين المخلص. فهو والحالة هذه مَسوق إلى التمسّك والمواظبة على واجباته العامة، مثل مثابرة النحلة على خليّتها.

وهذا ما حدا به إلى استخدام معارفه وأصدقائه وكل المتصلين به في كل مكان من الجمهورية لتزويده بالتقارير والبيانات والأحكام وكل الإجراءات الهامة التي تحصل في الأقاليم. ومرة نهض كلوديوس الخطيب المهيّج، وأخذ يوجّه الطعون والاتهامات إلى بعض الكهنة والكاهنات، ومنهم فابيا Fabia أخت ترنتيا Terentia زوج شيشرون التي وقعت جرّاء ذلك في خطرٍ عظيم. فتدخّل كاتو في الأمر بجراءته المعهودة، وجعل كلوديوس يبدو إنساناً متهتكاً فاجراً حتى اضطره إلى مغادرة المدينة. وقدِم شيشرون إليه ليشكره على موقفه هذا فأجابه:

- عليك أن تتوجّه بشكرك إلى الجمهورية.

الجمهورية التي أوقف نفسه لها. وبهذا كسب سُمعة عجيبة حتى ضُرب به المثل. ومن ذلك أن محامياً في قضية ليس فيها غير شاهدٍ واحدٍ كان من جملة ما قال في دفاعه مخاطباً القضاة أن عليهم أن لا يعوّلوا على شهادة شاهدٍ واحد وإن كان كاتو نفسه!

ومما جرى على ألسنة الناس عندما يريد أحد أن يؤكد حدوث شيء غير محتمل الحدوث أن يقولوا إنهم لن يصدّقوا حتى وإن جاء كاتو مؤيداً ومصدّقاً.

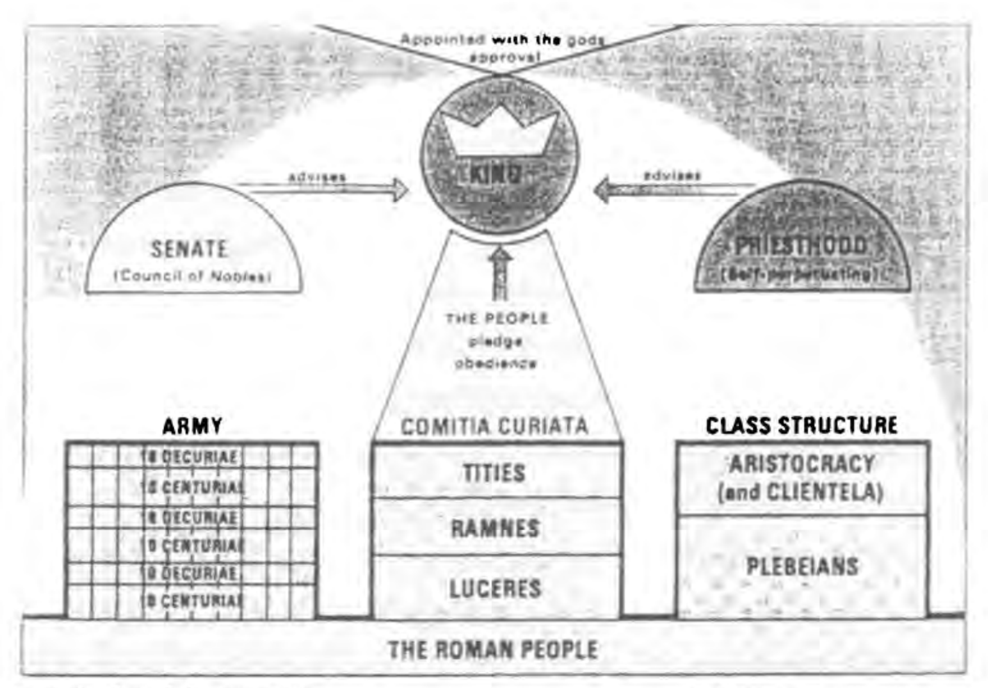
وذات يوم طفق أحد الخلعاء المشهورين ببذخهم وفجورهم يتكلم في المجلس حول ضبط أهواء النفس والتقشّف، فهبّ أنيوس Anæus من مجلسه وصاح:

- من يستطيع احتمال ذلك منك؟ أنت يا سيدي تقيم المآدب مثل كراسوس، وتبني الصروح مثل لوكوللوس، ثم تتكلم مثل كاتو!

وأطلق الناس على الفاسدين الحلفاء الذين يضفون على حديثهم طابع التزمّت والوقار اسم «كاتو» استهزاء بهم!

زيّن له أصدقاؤه ببادئ الأمر التقدم للفوز بمنصب تريبيون الشعب فلم يجد في نفسه الرغبة بادئ الأمر متعللاً بأن السلطة التي يتمتّع بها صاحب هذا اللقب عظيمة إلى الحَدّ الذي يجب ألاّ تُستخدم الا كآخر دواء عند الضرورات القصوى. ثم إنه قرر السفر إلى مغناه الريفي خارج روما حيث لديه ضيعة ليقضي فترة الإجازة بين كتبه وأصدقائه الفلاسفه. وبينما هم في طريقهم اعترضهم كثير من الخيّالة والعربات والخدم، وسألوا فقيل إن ميتيللوس نيبوس Metellus Nepos يقصد روما لترشيح نفسه لمنصب التريبيون. فوقف كاتو صامتاً برهة ثم أمر بالعودة إلى روما. فعجِب أصحابه من قراره وسألوه عمّا حدا به إلى تغيير رأيه فجأة فقال:

- إنكم لا تعلمون كم ينطوي عليه جنون ميتيللوس من خطر. إنه الآن يدخل روما



Constitution of the monarchy دستور الملكية

مسلّحاً بنفوذ بومبي وعونه، وسينقضّ كالبرق الخاطف على الدولة وينشر الفوضى والاضطراب. لم يعد الوقت وقت نزهة واسترخاء، وعلينا أن نعود لنحول بين هذا الرجل ومأربه أو أن نموت بشجاعة دفاعاً عن حرياتنا.

ولم يبقَ في مغناه الريفي الا قليلاً وعاد إلى روما مساءً. وفي صباح اليوم التالي توجّه إلى الفوروم ورشّح نفسه لمنصب التريبيون مقابل ميتيللوس.

إن واجبات هذا المنصب في الحقيقة هي واجبات رقابة لا تنفيذ أعمال معيّنة. فللتريبيون الحق في إبطال كل إجراء حكومي أو أمر صادر من مرجع رسمي بمجرد عدم موافقته، وإن كان قد حصل إجماع عليه، وفي هذا تكمن أهمية المنصب. ولم يكن لكاتو في مبدأ الأمر كثير من الأنصار، ولكن ما إن عرفت نواياه حتى تقدّم كل الناس الطيّبين وذوي المقام في المدينة مشجّعين مساعدين، ليس لأنه طالب فضلٍ منهم بل لأنه هو المتفضّل على بلاده وسكانها الطيّبين بقبوله الترشيح لمنصب رفض الترشيح له عدة مرّات حين كان ملك يمينه. لكنه الآن رضي بركوب الخطر في سبيله لعلمه أن حرّيات الشعب تُستهدف لخطر أكيد، ونظام حكمهم مهددّ بشرّ مستطير. وقيل إن الحشود التي تجمّعت حوله كانت من الكثرة بحيث اشتدّ ضغطها عليه وكادت تُزهق

أنفاسه ولم يكن قادر على السير خطوة واحدة. أخيراً فاز بالمنصب مع ميتيللوس وآخرين.

وجد كاتو بعد مباشرته وظيفته أن انتخاب القناصل أصبح سلعة تُباع وتُشرى، فأنحى على الأهالي باللوم وأنّبهم تأنيباً شديداً. وفي نهاية خطبته هدد بأنه سيسوق إلى القضاء كل من يعطي مالاً لهذا الغرض. ونفّذ قوله هذا، إلاّ في قضية سيلانوس للقرابة التي تصل فيما بينهما، فهو زوج أخته سرفيليا، ولم يُحله إلى المحاكمة وإنما اتهم زميله في القنصلية لوشيوس مورينا Lacius Morena باستعمال وسائل غير شريفة لانتخابه قنصلاً. وكان ثمّ قانون يسمح لكلّ متهم بانتداب شخص تكون مهمته مراقبة المدّعي، ليكون المتهم على علم بالوسائل التي يتّبعها هذا الأخير في تهيئة مواد الاتهام. وأخذ الشخص الذي عيّنه مورينا لمراقبة كاتو يتبعه كالظلّ أنّى توجّه ويراقبه مراقبة الصقر. إلاّ أنه لم يجده موضع شبهةٍ في التجائه إلى اساليب غير شريفة. وإنما كان يجمع مواد اتهامه بشكل صريح قانوني. فأُعجب هذا الرقيب بسموّ روح كاتو ووثق ثقةً مطلقة بنزاهته. فكان يسأله عندما يلقاه في الفوروم هل ينوي القيام بعمل حول التهمة في ذلك اليوم؟ فإذا أجابه كاتو بالنفي تركه معتمداً على كلمته. وأوكل مورينا زميله في القنصلية شيشرون للدفاع عنه. فانتهز هذا الفرصة ليتظارف ويتفكّه عند تطرّقه إلى كاتو وعلاقاته بالفلاسفة الرواقيين، و«متناقضاتهم» - كما كانت تعرف آنذاك - فأثار الضحك الشديد بين القضاة، ولم يسع كاتو إلاّ أن يلتفت إلى الحاضرين ويقول باسماً:

- أترون أيها الأصدقاء كم هم ظريف قنصلنا هذا؟

وبُرئت ساحة مورينا. وأثبت فيما بعد أنه إنسان نبيل وممّن لا يفتقر إلى الشعور الحيّ، ولا يحمل حقداً أو مَوْجدة. فقد ظلّ رغم ما حصل يستشير كاتو في الأمور الخطيرة طوال مدة قنصليّته وظلّ يحترمه ويقدّره. وكان لسلوك كاتو أيضاً تأثير على هذه العلاقة. فمع أنه صارم مرعبٌ لا تأخذه في الحق هوادة، يوم يكون في المجلس أو المحاكم، فقد كان لطيفاً إنساني المعاملة مع الناس جميعاً.

وقبل انتخابه تريبيوناً أسدى إلى شيشرون خدمة كبيرة أيام كان هذا قنصلاً، بالتعاون معه على حل مشاكل عامة كثيرة، وأهمها طرّاً مجهوداته العظيمة في خنق مؤامرة كاتالين، التي كانت تدين بنجاعتها الناجحة إلى كاتو. كان كاتالين كما ذكرنا قد دبرّ انقلاباً هائلاً ضد الدولة، بتحريضه على العصيان وإثارته حرباً أهلية ضروساً. الا أن شيشرون كشف المؤامرة وأدانه وأرغمه على الفرار.

لكن لنتولوس وكاثيگا وآخرين بقوا في المدينة للسير قُدماً في المؤامرة، واتهموا كاتالين بالجبن والتردد في التنفيذ. وواصلوا العمل لإشعال النار في المدينة وبث الفوضى تمهيداً لإسقاط الحكومة، وتحريض كل الشعوب الرومانية على الثورة، وإثارة حروب خارجية في الأقاليم. فوافق شيشرون على الخطة (كما سنورد ذلك في سيرته) ورفع الأمر إلى مجلس الشيوخ. فتكلم سيلانوس أولاً واقترح فرض أقصى عقوبة على المتآمرين. ووافق على اقتراحه هذا كل الشيوخ الذين تلوه حتى جاء دور قيصر للكلام وكان خطيباً مفوّهاً، وكان يرى أن كلّ خلل يصيب الدولة هو في مصلحته ومن شأنه أن يخدم غاياته ولذلك لم يكن همّه إطفاء الفتنة بل إشعالها. ولهذا ألقى خطبة رقيقة ملأى بالرحمة. ونفى أن يكون للمجلس الصلاحية للحكم على المتآمرين بالموت. ورأى أن يساقوا إلى المحاكم، مقترحاً بقاءهم في السجن. ومالت أكثرية المجلس تقريباً إلى رأيه خوفاً من غضبة الشعب، حتى أن سيلانوس نفسه تراجع عن موقفه وسحب اقتراحه الأول بقوله أنه لم يكن يقصد عقوبة الموت عندما مطالبته بإنزال أقصى العقوبة، وإنما يقصد السجن لأن هذا أقصى ما يمكن أن يحكم به على روماني. فتحوّل الاتجاه العام إلى فرض عقوبة أخفّ من الموت. إلى أن حان دور كاتو للكلام، فبدأ بكثير من الحماسة يؤنّب سيلانوس على تردّده في الرأي وهاجم قيصر الذي يريد القضاء على الجمهورية بالكلمات الرقيقة والخطب الشعبية، ويعمل جاهداً على القاء الخوف في قلوب أعضاء المجلس، في حين يجب عليه هو نفسه أن يخاف ويشكر الله على نجاته من العقاب والاتهام . إنه يجرؤ علنا وبكلّ صفاقة على حماية أعداء الدولة في حين لا يجد ذرّة من العطف في ضميره على مواطنيه الذين كادت صروح أمجادهم تتهدّم بفعل المخرّبين. مع هذا كلّه يجد في نفسه الجرأة على طلب الرأفة بأولئك الذين كان الأفضل لهم أن لا يولدوا. إن موتهم سينقذ الجمهورية من الدماء ومن الخراب.

هذه هي الخطبة الوحيدة التي حُفظت من بين سائر خطب كاتو. فقد قيل لنا إن شيشرون وضع كتّاباً حاذقين سريعين في عدّة اماكن من قاعة المجلس. وكان هو قد علّمهم أسلوب الاختزال برسم أشكالٍ ذات خطوط قليلة بدلاً من الكلمات الكثيرة. حتى ذلك اليوم لم تكن كتابة الاختزال معروفة، فهي والحالة هذه التجربة الأولى في هذا الفن.

نجح كاتو في مسعاه وحوّل المجلس ثانيةً إلى رأيه الأول وصدر القرار بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين.

إن كل صغير من الأمور يفيدنا في إعطاء صورة كاملة عن خُلق كاتو وإبراز

اتجاهاته العقلية. ومن ذلك ما نُقل لنا من أنه بينما كان هو وقيصر في أشد حالات الهياج والحماسة وأنظار المجلس شاخصة إليهما، سلّم أحدهم ورقة صغيرة لقيصر وشكّ كاتو في مضمونها، فصاح إن هذا عمل يثير الريبة وأصرّ على أن هناك فتنة تدبّر في الخفاء وطلب قراءة الورقة علناً. فما كان من قيصر إلاّ أن ناوله الورقة. فوجدها كاتو رسالة غرامٍ من سرڤيليا أخته إلى قيصر الذي كان قد أغواها وأفسدها. فقذف بها إليه وهو يقول:

- خذها، خذها أيّها السكّير!

ثم واصل المناقشة كأنّ شيئاً لم يحدث.

في الواقع يبدو أن كاتو كان سيّئ الحظّ من ناحية النساء. فهذه المرأة السيئة اشتهرت بسوء السمعة لعلاقتها بقيصر. وسرڤيليا الأخرى أخته الثانية كانت أسوأ من الأولى سيرة وهي بعد امرأة لوكوللوس أحد عظماء الرومان، وأم ابنه وقد اضطر إلى تطليقها فيما بعد. والأنكى من هذا كله أن زوج كاتو نفسها لم تكن خالية من المطاعن والقالة السيئة. فبعد أن ولدت له أتيليا ولدَين اضطر إلى طلاقها لسوء سلوكها. ثم تزوج مارشيا Marcia بنت فيليپس وكانت امرأة متينة الخلق حميدة السيرة، إلاّ أنها كانت سبباً ومادة لتعليقات وروايات عديدة. ولما كانت حياة كاتو أشبه بفصل دراميّ فهذا المشهد الذي نورده مليء بالغموض والمعاني الغريبة المحيرة.

والرواية هي من تراسيا Thrasea الذي أسندها إلى موناتيوس. إن كاتو اختص بنخبة أعلى مقاماً وأبرز قدراً. ومن هؤلاء كونيتوس هورتنسيوس Quintus Hortensius وهو رجل رفيع الخلق، جليل القدر، لا مطعن فيه. علِق هذا الرجل بحبّ كاتو ولكنه لم يكتف منه بالصداقة والتآلف، بل كان يطمح إلى إيجاد صلة قربى بين البيتين والأسرتين. فراح يعمل لإقناع كاتو بالزواج من ابنته پورشيا التي هي زوجة بيبلوس وأم ابنيه، معتبراً إياها أرضاً مخصبةً لا مانع من أن تثمر لكاتو أيضاً. وعلّل اقتراحه قائلاً: مع أن العرض قد يبدو غريباً لعقول الرجال إلاّ أنه صحيح بحكم الطبيعة. فمن الخير والمصلحة العامة أن لا تبقى المرأة عقيمة رحمها. وكذلك لا يجدر بها أن تزيد من أعباء رجل واحد، فتفقره بان تحمل له عدداً كبيراً من الأولاد. فضلاً عن أن الفضائل تنمو وتزدهر بارتباط نسب الأسر الراقية، وتنتشر بزيادة أنسالها. وستماسك الجمهورية ويصلب عودها بأمثال هذه الروابط. أما إذا أبى بيبولوس مفارقة زوجته مفارقة القطيعة فبإمكان كاتو إعادتها إليه حالما تلد له. وبهذه الوسيلة يتم الاتحاد بين الأسرتين!

فأجابه كاتو أنه في الحقيقة يودّ هورتنسيوس كثيراً ويتمنّى من صميم قلبه أن تتمّ صلة القربى بين البيتين، لكنه يستغرب منه اقتراحه بتزويجه ابنته وهي الآن متزوّجة من آخر. فنقل هورتنسيوس الموضوع إلى ناحية أخرى وطلب منه أن يتنازل له عن زوجته مارشيا لأنها شابة ولود، وأنها قد ولدت له كثيراً من الذرية. ولم يقدم هورتنسيوس على الطلب لاعتقاده بأن كاتو قليل الاهتمام بمارشيا إذ كانت في تلك الساعة حاملاً. وأدرك كاتو إخلاص صديقه وكان مقتنعاً بأن ليس هناك سوء قصد في الأمر فلم يرفض رجاءه وإنما اشترط موافقة والد مارشيا. فأرسل يستدعي فيليبس فجاء ليجد الموافقة قد تمّت فلم يسعه إلاّ الرضا. وتم زواج هورتنسيوس بحضور كاتو الذي ساعد في إتمامه. وقع هذا في وقتٍ متأخرٍ. ولكني ما ذكرته هنا إلاّ إكمالاً لسياق حديثي عن النساء.

ونُفّذ حكم الموت بلنتلوس وشركائه المتآمرين. لكن قيصر الذي وجد نفسه هدفاً للانتقاد وموضع الشك والاتهام في مجلس الشيوخ اضطر إلى الالتجاء للشعب وأخذ يثير أحط العناصر وأكثرها فساداً. وأدرك كاتو عاقبة ذلك، فأقنع المجلس بكسب جماهير الفقراء والمعدمين عن طريق توزيع القمح عليهم دون مقابل. وهو ما كلّف الخزينة اثني عشر ألفاً وخمسمائة تالنت. هذا العمل الإنساني المتسم بطابع الرحمة أبعد الخطر مؤقتاً. إلاّ أن ميتيللوس بعد مباشرته مهام التريبيون بدأ يعقد اجتماعات جماهيرية صاخبة، وهيّأ قراراً يقضي باستدعاء پومپي الأكبر إلى إيطاليا فوراً على رأس كل قواته للمحافظة على المدينة من عواقب مؤامرة كاتالين. كان هذا ذريعة مقبولة في ظاهرها، إلاّ أن النيّة التي كانت تكمن وراء ذلك هي وضع كلّ شيء في يد پومپي ومنحه السلطة المطلقة. فالتأم مجلس الشيوخ لمناقشة الأمر. إلاّ أن كاتو لم يعمد إلى مهاجمة ميتيللوس كعادته، وإنمّا وضع نصائحه في ألطف عبارة ممكنة. ثم انتقل إلى الرجاء وشرع يثني على أسرة ميتيللوس ويرفع من قدرها لأنها كانت تنحاز دائماً إلى جانب الأشراف. وكان تأثير هذا بميتيللوس خلافاً لما أمله كاتو فقد زاد بذاءة وتحقيراً لكاتو معتقداً بأنه خائف منه. وأطلق لوعيده العنان دون ضابط ورقيب وبوقاحة لا مثيل لها وهدد بأنه سيعمل ما يراه مناسباً رغم أنف مجلس الشيوخ.

وهنا غيّر كاتو من لهجته وصوته وموقفه. وألقى خطبة عنيفة حادّة ختمها بقوله: «إن پومپي لن يدخل المدينة مسلّحاً وأنا على قيد الحياة».

ووجد المجلس أن الخطيبين يركبان متن الشطط وانهما فقدا السيطرة على حواسهما. فاقتراح ميتيللوس هو ثورة عمياء وهيجان سببه ذلك الاضطراب العام الذي

آل بكلّ شيء إلى الفوضى والخراب. ومزايا كاتو بدت لهم آنذاك شيئاً أشبه بالجهاد الروحي في قضية شريفة عادلة.

وأقبل يوم اقتراع الشعب على القرار. وسبق ميتيللوس إلى احتلال الفوروم بالمسلّحين والمصارعين والعبيد والأجانب. كل هؤلاء كانوا يأملون حصول تغيير سياسيّ لمصلحتهم، فانتصروا لپومپي، ولم يكن عددهم بالقليل. وهم فضلاً عن ذلك كانوا يتمتعون بدعم قيصر البريتور آنذاك. ومع أن علية القوم وعقلاءهم لم يكونوا أقل شعوراً بالذلّ من كاتو فقد بدا وكأنهم مستعدون للمعاناة معه أكثر منهم استعداداً لمعاونته. واستولى على أسرة كاتو خوف وقلق عظيمين على مصيره، ولم يتبلّغ بعض أصدقائه بكسرة خبز أو بشربةٍ ماء طوال تلك الليلة حيرةً وقلقاً. وشرعت زوجه وأخواته يبكين ويندبنه. أما هو فقد ظلّ راسخ العزم، رابط الجأش، ولم تزايله ثقته بنفسه. وشرع يعزّي ويسلّي ويشجّع بأحاديثه وكلماته. ثم انسحب بعد العشاء في موعده الاعتيادي ونام نوماً عميقاً ايقظه منه صباح اليوم التالي زميله الشيخ مونيشيوس ترموس Municious Thermus. وما إن استوى على قدميه وفرك عينيه حتى انطلقا معاً إلى الفوروم وليس معهما إلاّ قلّة. إلاّ أنهما التقيا بكثير من الناس الذين أوصوهما بالتزام جانب الحذر. ولما رأى كاتو معبد كاستور وپوللوكس مطوّقاً بالجنود ودرجاته محروسة بالمصارعين، وميتيللوس وقيصر على رأس الدرج متجاورين، التفت إلى أنصاره قائلاً:

- تأمّلوا هذا الجبان الطائش! لقد جرّد لواء كاملاً من الجنود على رجل أعزل لا يحمل قطعة سلاح.

وتقدّم مع ترموس فأفسح حرس المدخل السبيل لهما فقط ومنعوا الآخرين من المرور. إلاّ أن كاتو قبض على يد موناتيوس واستلّه من الجمهور وجرّه معه. ثم توجّه الثلاثة رأساً إلى ميتيللوس وقيصر وجلس بينهما ليمنعهما من مسارّة أحدهما الآخر، فأصابهما بالذهول. وتطلع الحزب المناصر لكاتو إلى ملامحه معجبين بروحه العالية وبسالته فاقتربوا وأخذوا ينادونه مشجعين. وطفق يحمّس احدهما الآخر ويحثه على التكاتف والتعاضد، لا يفرّطون بحريتهم ولا بالمدافع عنها.

وتناول الكاتب المرسوم لتلاوته إلاّ أن كاتو منعه. فأخذه منه ميتيللوس وهمّ بقراءته الا أن كاتو انتزعه من يده. ولما كان ميتيللوس قد حفظه عن ظهر قلب فقد أنشأ يتلوه استظهاراً فكمّ ترموس فمه براحة يده وأسكته. وأدرك ميتيللوس أن خصومهم مصرّون على الوقوف في وجههم، وأن الشعب أحجم ومال إلى الكفّه الراجحة، فأرسل يستقدم من منزله بعض الرجال المسلحين فأقبلوا واندفعوا يطلقون صرخات

مرعبة ناشرين الخوف في القلوب. فتفرّق أنصار كاتو، الذي بقي ساكتاً بينما أخذ أنصار خصومه يرجمونه بالحجارة ويقذفونه بالعصيّ من فوق. حتى خفّ إليه مورينا (وهو القنصل الذي أحاله كاتو للمحاكمة) وغطاه بردائه وصاح يأمر المعتدين بالكفّ عن رمي الحجارة. ومجمل القول أنه أقنعه بالعودة وسحبه بالقوة إلى هيكل كاستور وپوللوكس. ولما وجد ميتيللوس المكان خالياً، وأن مناوئيه قد لاذوا بالفرار وتركوا الفوروم، خيّل له أن نصره أصبح سهلاً ووشيكاً، فأمر الجنود بالانسحاب من مواقعهم وشرع في إجراءات التصديق على المرسوم حسب الأصول المتبعة. إلاّ أن الحزب المناوئ ما لبث أن استفاق من الصدمة فلمّ شعثه وعاد شديد البأس يطلق أفراده صيحات شديدة، فتملّك أتباع ميتيللوس الخوف، وظنوا أن خصومهم اتحدوا بجماعة من المسلحين ففرّوا وتركوا الساحة خاليةً. ولما استتب الأمر لهؤلاء عاد كاتو فرفع من المعنويات وأنشأ يمدح موقف الشعب ويُثني على قراره، حتى أخذت الأغلبية تنادي بتنحية ميتيللوس عن منصبه. واجتمع مجلس الشيوخ وأصدر قراراً ثانياً بدعم كاتو ورفض مشروع ميتللوس معلّلاً الرفض بأنه «قد يكون سبباً في إثارة فتنة تؤدّي إلى حرب أهلية في المدينة».

على أن ميتيللوس لم ييأس وظلّ سادراً في غلوائه. ووجد مشايعيه يحجمون خوفاً من كاتو، وكانوا يجدون فيه خصماً لا يُغلب. فترك المجلس إلى الفوروم وجمع الناس وخطب فيهم خطبة ضد كاتو. وهتف بأعلى صوته أنه أُرغم على الفرار أمام طغيانه وجبروته ومن المؤامرة التي حيكت ضدّ پومپي وأنه لن يمر على المدينة طويل زمن حتى يدركها الندم لاستهانتها برجل عظيم مثله. وقال إنه سيرحل الآن إلى آسيا (معتزماً إخبار پومپي بكلّ ما لحق شخصه من إهانات وتحقير) إلخ. . .

وعظم قدر كاتو كثيراً لأنه أنقذ الحكم من تريبيونية ميتيللوس الخطرة. وتغلّب بشخص هذا إلى حَدّ ما على پومپي. وزاد قدره ارتفاعاً عندما اعترض سبيل الإجراءات الرادعة التي قرّر المجلس اتخاذها بحق ميتيللوس وعارض في قرار عزله من الوظيفة حتى جعلهم يعدلون عن رأيهم. وأكبر فيه العامة هذا العمل الدالّ على نبله وإنسانيته، لأنه لم يطأ عدوّه بعد أن تمكن فيه. وقدّر العقلاء فيه بُعد النظر والدهاء السياسي بتحاشيه إغضاب پومپي.

بعد ذلك بفترة عاد لوكوللوس من الحرب الآسيوية، بعد أن جرّده پومپي من شرف إنهائها وبذلك سلبه مجد الحرب كلها كما بدا واضحاً لكلّ منصف. وكاد لوكوللوس يخسر أيضاً موكب النصر، لأن كايوس موميوس أخذ يشهّر به أمام الشعب

ويهدّد بسوقه إلى القضاء، كل ذلك حباً بپومپي لا بغضة بلوكوللوس. لكن كاتو، وهو أخ سرڤيليا زوج لوكوللوس، انبرى لموميوس وأوقفه مقتنعاً بأنه يظلم لوكوللوس ويتهمه زوراً، فعرّض نفسه لكثير من الشتائم والتعليقات البذيئة وكاد يُطرد من منصبه بدعوى إساءته استخدام صلاحياته وتجاوزه حدودها. على أنه استظهر بالأخير وأرغم موميوس على سحب اتهامه، وترك ميدان المعركة. فأمّن بذلك موكب النصر للوكوللوس. وبقي هذا لصيقاً بكاتو فقد كان يعدّ صداقته حاجزاً دفاعياً له من نفوذ پومپي وحارساً يقظاً.

كذلك عاد پومپي من الحرب يجرّ أذيال المجد، ويتمتّع بعطف الشعب الذي ظهر جلياً في استقباله الرائع له، حتى خيّل له أنه لن يرفض له طلباً. وبعث إلى المجلس يرجو تأجيل الجلسة المخصّصة لانتخاب القنصل حتى يتسنّى له الحضور ومعاونة پيزو المرشح. ومالت الأغلبية إلى إجابة الطلب غير أن كاتو استعمل حقه في الاعتراض، لا لاعتقاده بأن في التأجيل خطورة، بل لأنه يريد أن يقطع السبيل بصورة آنية على آمال پومپي ويُحبط خططه ويحول دون فرض سلطانه على المجلس. ولم يكن هذا بالهيّن على پومپي الذي ادرك أن أكثر مشاريعه ستلقى الفشل الذريع إن لم يضمن انحياز كاتو إلى صفّه. فأرسل وراء موناتيوس صديقه الحميم.

كان لكاتو ابنتا أخٍ في سنّ الزواج، فعرض لموناتيوس أن يتزوّج هو الكبرى منهما، وأن يزوّج ابنه بالصغرى (ذكر بعضهم أنهما بنتا كاتو وليس أخيه). فعرض موناتيوس الأمر على كاتو بمحضر من امرأته وأخواته فطرن فرحاً بمصاهرة هذا الشخص العظيم. إلاّ أن كاتو اتخذ قراره فوراً دون أن يحتاج إلى كثير من التفكير والتردّد وأجاب بقوله:

- عُد من حيث جئت يا موناتيوس، عد وقل لپومپي إن كاتو لا يمكن التغلّب عليه من جهة مخدع النساء. إني في الحقيقة ممتنّ جداً لهذا الشرف الذي أسبغه عليّ وإني أعده بصداقة أمتن وأبقى من أي علاقة قربى ما استقامت أعماله وخلصت نيّته. إلاّ أني لن أقدّم لمجد پومپي رهائن على حساب سلامة الوطن.

وسخطت النسوة لهذا الجواب. وبدا في أعين أصدقائه غطريساً فظاً. إلاّ أن الأيام أيّدت صحة رأيه حين أخذ پومپي يسعى للفوز بمنصب القنصل لأحد أصدقائه. وراح يشترى أصوات الناخبين، واشتهر أمره. وعلم الخاص والعام بنبأ تلك الرشوة التي دفعها للناخبين في حدائق منزله. فتوجه إلى النسوة وذكّرهن بعرض پومپي وكيف أن سمعتهنّ كانت ستتلوّث بهذه الأعمال المنافية للشرف لو صاهرنه، فاعترفن بخطأهن

وبإصابته. ولكن لو أخذنا القضية بمفردها وتتبعنا آثارها لما وسعنا إلاّ لوم كاتو على رفضه هذا الحلف الذي أصبح من نصيب قيصر، بتلك المصاهرة التي وحّدت قوتيهما وقضت على الجمهورية بالزوال، وكادت تقضي أيضاً على الإمبراطورية. ما كان هذا يحدث مطلقاً لو سمح كاتو لنفسه بالتجاوز عن أخطاء پومپي الصغيرة، ولو لم يكن شديد التخوّف من هفواته. لم يقف كاتو لحظة ليفكر كيف اضطر پومپي إلى أن يمنح رجلاً آخر الفرصة لارتكاب أعظم الأخطاء!

أمور وقعت فيما بعد على كل حال. في أثناء ذلك كان قد نشب خلاف عظيم بين پومپي ولوكوللوس حول فرض تطبيق المراسيم والأوامر التي يُصدرانها بخصوص البونتس. ووقف كاتو إلى جانب المظلوم وكان لوكوللوس. ووجد پومپي أنه الأضعف في المجلس فالتجأ إلى العامة، ولأجل حصوله على أصوات كافية من الناخبين اقترح سنّ قانون يقضي بتوزيع الأراضي على الجنود. فعارض كاتو ورفض القانون. فانحاز پومپي إلى كلوديوس أعنف الخطباء الديماگوگيين في ذلك الوقت، كذلك خطب ودّ قيصر فبادله الودّ. وكان كاتو السبب في هذا أيضاً. فقد عاد قيصر من إسبانيا، ورغب في ترشيح نفسه للقنصلية دون أن يكون ذلك حائلاً بينه وبين موكب نصره. لأن القانون يحتّم على المرشّح لمنصب القنصل أن يحضر محلّ الاقتراع. ويحتّم على من يطلب لنفسه موكب نصر أن يبقى خارج الأسوار حتى يبتّ في طلبه. فعرض قيصر على المجلس أن يأذن لأصحابه بالنيابة عنه في الترشيح وأن يشرفوا على عملية الانتخاب بغيابه. وكان كثير من أعضاء المجلس يميلون إلى تحقيق طلبه. لكن كاتو عارض في الطلب. ولما تبيّن أن الأكثرية ستحصل بالقبول إذا جرى التصويت لجأ إلى التأخير بوقوفه خطيباً يوماً كاملاً. فلم يجد قيصر مندوحة من التخلّي عن موكب نصره والدخول إلى المدينة قبل موعد الاقتراع. واتصل بپومپي وعقد الحلف ثم تقدّم مرشّحاً لمنصب القنصل ففاز به. وتزوّج پومپي ابنته يوليا فكمل الحلف ضد الجمهورية.

واقترح قيصر سنَّ قانون يقضي بتوزيع الأراضي على الفقراء. وحضر پومپي وساند الاقتراح. وانحاز لوكوللوس وشيشرون وأنصارهما إلى القنصل الآخر بيبولوس ليصبحوا كتلة معارضة للقانون المقترح. وكان كاتو في طليعة هذه الكتلة، فقد رأى أن حلف پومپي - قيصر ينطوي على أعظم الخطر، وأن القانون المقترح وإن كان سيعود بالنفع على الأهالي فإن مقترحيه لا يريدون منه إلاّ التقرّب من الشعب وينتظرون أن يكافأوا عليه بوقته، وهذا ما يخشاه كاتو. فتمكن من حمل المجلس على رفض القانون وشايعه آخرون ممن لم يكونوا شيوخاً. وقد آلمهم أن يلجأ قيصر إلى هذا الأسلوب غير

الجدير بالقنصل في التودّد إلى الأهالي، وتملّقهم بهذا الشكل المخلّ بمبادئ الشرف، مما لا يُقدم عليه إلاّ تريبيون متهورٌ غير شاعر بالمسؤولية.

وجد قيصر وأشياعه أنهم عاجزون عن إمرار القانون بالشكل الأصولي ولجأوا إلى الإرهاب والقوة. فألقوا محتويات وعاءٍ من القاذورات على بيبولوس وهو متوجّه إلى الفوروم ثم هجموا على الحرس اللكتوري الذي يرافقه وكسروا عصيّهم. وقذفوا بعدة رماح فأصيب بعض الناس بجراح. ولاذ معارضو القانون بالفرار من الفوروم وأسرع الشيوخ بالخروج. وكان كاتو آخر الخارجين يمشي ببطء ويتلفّت بين آونة وأخرى متوعّداً بالويل والثبور.

وتمّ لقيصر ما أراد. ولكنه لم يكتف بذلك وإنما استحصل قراراً يحتّم على كل شيخ أن يقسم يمين التأييد للقانون الجديد، والدفاع عنه ضد كل محاولة لتعديله أو تغييره. وفُرضت أشدّ العقوبات على من يرفض أداء القسم. ولم يجد الأعضاء مناصاً وحلفوا اليمين متذكرين ميتيللوس في العهود الماضية، إذ رفض أن يحلف اليمين في قضية كهذه فأُرغم على ترك إيطاليا. وأبى كاتو أن يفعل ذلك، رغم بكاء زوجه وأولاده وتوسّلهم، وإلحاح أصدقائه وأُسرهم، إلى أن تمكن شيشرون من إقناعه بالنقاش والمنطق. قال له: «ربما كان موقفك غير صحيح بوصفك رجلاً عادياً تعارض ما قرره الشعب بشبه إجماع. ثم إن الأمر نفذ ولات حين مناص. ومن الحماقة والجنون أن تعرّض نفسك للخطر وأمامك فُرص عظيمة لخدمة بلادك. إنه لمن الخطل أن يتذرّع المرء بهذه الحجّة ليترك الجمهورية في محنتها، الجمهورية التي فعل لأجلها الشيء الكثير، أن يدعها تقع فريسة في أيدي أولئك الذين عقدوا الخناصر على تدميرتها ليس إلا. كأنما يسرّك أن تنقذ نفسك من أخطار الدفاع عنها». وختم كلامه بقوله:

«إن كاتو ليس بحاجة إلى روما، إلا أن روما بحاجة إلى كاتو وكلّ أصدقائه وفي مقدمتهم شيشرون» يقصد نفسه. إذ إنه كان وقتئذ هدف كلوديوس حين توعّده بأن ينقضّ عليه حالما يتقدّم مرشّحاً لمنصب التريبيون. قيل إن كاتو قنع ولان جانبه بهذه الحجج، وذهب إلى المجلس كارهاً لحلف اليمين وكان آخر من أدّاها قبل فافونيوس أحد أصدقائه الخلّص.

وسكر قيصر بخمرة نجاحه، فاقترح قانوناً آخر لتقسيم كل أراضي كامپانيا - تقريباً - على المواطنين الفقراء والمحتاجين، ولم يجرؤ أحد على معارضته غير كاتو. فصعد قيصر إليه وجرّه من مقعده وقاده إلى السجن، فلم يُحجِم كاتو عن استعمال حقه في الكلام. وواصل الكلام في معارضة القانون وهو في طريقه إلى السجن وطفق ينصح

المواطنين بعزل كل المشترعين الذين يقترحون مثله من القوانين. وسار خلفه أعضاء المجلس ونخبة من أبرز المواطنين مكتئبين محزونين معبّرين عن ألمهم وسخطهم بالسكوت. ولم يفت قيصر مبلغ سخط الأهالي، إلاّ أن العناد والمكابرة جعلاه يمضي في إنفاذ ما قرره متوقعاً أن يفوز في هذا النزال بأقل ضعف واستخذاء يظهره له كاتو أو باستئنافه القرار. فخاب فأله ولم يبدُ من سجينه أي شيء يدلّ على ضعف. فأدركه الخجل من فعلته، ومن رأي الشعب فيها، فأرسل يستقدم تريبيوناً وطلب منه التدخل في قضية كاتو وإطلاق سراحه.

مهما يكن فإن قيصر نال عطف الشعب وولاءه بتلك القوانين والإجراءات. فعُيِّن حاكماً لأيلليريكوم وكل بلاد الغال وسُلّم قيادة جيش يتألف من أربع فرق لمدة خمس سنوات. وظلّ كاتو يصيح بهم قائلاً إنهم ينصّبون طاغيةً بأصواتهم الانتخابية. ونصّب پوبليوس كلوديوس Publius Clodius وهو پاتريشي تريبيوناً للشعب خلافاً للقانون لأنه وعدهم بعمل كل ما يحسن في عيونهم شريطة أن يرسل شيشرون إلى المنفى. واختاروا لمنصب القنصلية كلاً من كالپورنيوس پيزو حميّ قيصر وأولوس غابينيوس Aulius Gabinius إحدى دُمى پومپي كما ذكر لنا أولئك الذين يعرفون سيرته وأخلاقه. واستتبّت لها الأمور، وأخضعا جانباً من المدينة بالخوف، وكسبا ولاء الجزء الآخر بالهبات والعطايا. على أنهما لبثا في خوف من كاتو يتذكران حانقين التعب والمجهود اللذين بذلاهما للتغلّب عليه، والعار والخجل اللذين لحقهما عندما اضطرا أخيراً إلى استعمال الشدّة معه. ويئس كلوديوس من إبعاد شيشرون عن إيطاليا بوجود كاتو فيها. فعمد إلى تدبير حيلةٍ، فأرسل يدعو كاتو لمقابلته فور مباشرته وظيفته. قال له إنه يعتبر كاتو أكثر الرومان أمانة ونزاهة وهو مستعدّ ليبرهن على صدق اعتقاده هذا. . . «فقد طلب كثيرون إرسالهم إلى قبرص في المهمة المتعلقة ببطليموس وتشبّثوا بالوساطات. وأعتقد أنك الوحيد لها».

فصاح كاتو مستنكراً. وقال إنها خطة حيكت لإبعاده، وإن ما يعرض ليس تكريماً بل اهانة.

فأجاب كلوديوس بكبرياء وفظاظة:

- إن لم تعتبرها فضلاً وتكريماً فستذهب وإن لم يكن ذهابك بملء اختيارك.

وقصد كلوديوس الجمعية العامة من فوره واستحصل أمراً بإرسال كاتو إلى قبرص في مهمة بطليموس. ولم يخصّصوا له سفينة، ولا جندياً ولا خادماً، خلا اثنين من أمناء السِرّ، أحدهما لصّ ووغد، والآخر من بطانة كلوديوس. وكأن مهمة قبرص لم

تكن كافية فقد أُمِر أيضاً بتسوية مشاكل اللاجئين في بيزنطيه، إذ كان كلوديوس مصمّماً على إبقائه بعيداً ما دام هو يتولى وظيفة الپريتور.

ونصح كاتو شيشرون قبل رحيله الجبري، وذكّره بأنه سيكون الهدف الثاني، وعليه أن لا يبدي أي مقاومة والاّ سحقوه أو وقعت البلاد في أتون حرب أهلية وفوضى عامة. وعليه أن يتربّص بالأيام لينقذ البلاد مرة أخرى.

وأرسل قبله إلى قبرص صديقه كانيديوس Canidius لعلّه يُقنع بطليموس بالطاعة دون اللجوء إلى القوة، فإن فعل ذلك فلا حاجة له بالمال أو الجاه لأن الرومان سيقلّدونه كهانة الإلهة پافوس Paphis. أمّا هو فقد بقي في رودوس للإشراف على بعض التدابير، منتظراً الجواب من قبرص.

في الوقت ذاته كان بطليموس ملك مصر قد أقلع من الإسكندرية متوجّهاً إلى روما لخلاف نشأ بينه وبين رعاياه ، أملاً في أن يُقنع پومپي وقيصر بإرسال قوات تعيد إليه عرشه. ورغب وهو في طريقه إلى روما بمقابلة كاتو، وأرسل من ينبئه بوصوله متوقعاً من كاتو أن يأتي إليه. وكان هذا قد تناول دواء مطهّراً للأحشاء عندما أبلغه الرسول برسالة بطليموس، فأجاب أنه يفضّل لو قدِم بطليموس إليه أن وجد ذلك ممكناً. وأقبل الملك فلم يخرج كاتو لاستقباله، ولم ينهض للترحيب به عند دخوله، بل أقرأه التحية كما يحيّي الرجل العادي واشار عليه بالجلوس. فعلا بطليموس شيء من الارتباك وعجب من السلوك الصارم المتعالي أن يصدر من شخص مظهره يدلّ على بساطةٍ وتقشّفٍ متناهيين. ولم يكن أقلّ عجباً عندما بدأ يحدثه عمّا يشغل باله من امور. فقد راعته حكمته وحصافته وتبسّطه في الحديث. انتقد كاتو مشاريعه وقال إنه سيخسر كثيراً من مقامه ومن راحته وسعادته. وأيّ إذلال ومتاعب سيواجه، وكم سيضطر إلى الرشوة إرضاء لجشع الزعماء الذين سيقابلهم في روما، أولئك الذين لا يشبعون ولو انقلبت أرض مصر كلها إلى فضّة. ثم نصحه بالعودة إلى دياره ومصالحة رعاياه وعرض عليه أن يرافقه إليها ويعاونه في تسوية الخلاف. وبهذا النصائح الخالصة بدا بطليموس وكأنه يستيقظ من نوبة جنون أو إغماءة وتبيّنت له الحقيقة، وأدرك صواب ما قاله كاتو وقرّر أن يأخذ بنصيحته. إلاّ أن أصدقاءه عادوا فأقنعوه بمواصلة السفر إلى روما والمضيّ في مشروعه. وهناك وجد نفسه مضطراً إلى الانتظار بباب أحد الحكام. فراح يلوم نفسه وحماقته في رفضه نصيحة رجل فاضل حكيم، بل نبوءة إله كما بدت له آنذاك.

من حسن حظ كاتو أن بطليموس الآخر في قبرص آثر أن يُنهي حياته بيده فشرب سُمّاً. وقد ذُكر له أنه خلّف أموالاً طائلة، فقرّر كاتو أن يتجه أولاً إلى بيزنيطوم فأرسل

إلى قبرص ابن اخته بروتوس لأن ثقته بكانيديوس لم تكن مطلقة. وبعد أن صالح اللاجئين مع أهالي بيزنطيوم ترك المدينة هادئة مستقرة وأقلع إلى قبرص. وهناك وجد كنوزاً ملكيّة من صِحاف وموائد وأحجار كريمة وأرجوان. وكان يتحتّم أن يجعل منها نقداً. فصمّم أن يتولى الأمر بكلّ دقة وانتظام وان يبيع المخلّفات بأعلى سعر ممكن. لذلك كان يحضر بنفسه صفقات البيع ويدقق حساباتها. ولم يكن يثق بأسعار السوق. وكان يشكّ في الجميع على السواء من ضباط ومنادين ومشترين، وبأصدقائه أنفسهم. وبمختصر القول كان يختلط بالمشترين ويحثهم على رفع الثمن. وبهذا الشكل باع أغلب الأشياء.

أساء كاتو بعدم ثقته هذه إلى معظم أصدقائه، ولاسيما موناتيوس أقربهم إليه وأخلصهم له. وكادت القطيعة التامة تقع بينهما. وهذا ما زوّد قيصر بأقوى وأشد نقدٍ لكاتو في الكتاب الذي صنّفه عنه. على أن موناتيوس نفسه يحدّثنا بأن أصل الخصام لم يكن بسبب قلّة ثقة كاتو بل بإهمال الأخير، وبغيرة موناتيوس نفسه من كانيديوس. وقد ألّف موناتيوس أيضاً كتاباً حول كاتو وهو الذي كان مرجع ثراسيا الأساسي. يقول موناتيوس إنه لحق بكاتو في قبرص فوجد أن المنزل الذي خُصّص له في نهاية الحقارة. فقصد منزل كاتو فمُنع من الدخول بحجة أن كاتو يعقد اجتماعاً خاصاً مع كانيديوس. فشكا الأمر إلى كاتو بأسلوب مهذّب رقيق للغاية. إلاّ أن الجواب (حسب رواية ثيوفراستس) كان في غاية الخشونة والفظاظة. قال له:

- كثيراً ما يؤدّي الحبّ الشديد إلى الكره... ولأنك تحبّني حبّاً زائداً على الحدّ فقد خيّل لك أنك لا تحظى إلاّ بالقليل من الالتفات والتكريم، فيثور بك الغضب فجأة. وإني ما استخدمت كانيديوس إلاّ لإخلاصه وتفانيه. لقد كان معي منذ البدء ووجدته أهلاً للثقة.

كان هذا الحديث الخاص الذي جرى بينهما. إلاّ أن كاتو أفضى به لكانيديوس، ولمّا علم موناتيوس أضرب عن العشاء معه. ومرّة أرسل كاتو يستدعيه لأخذ رأيه في شأن من الشؤون فرفض القدوم فهدّده كاتو بوضع الحجز على أمواله ومتاعه وهو إجراء يُتّخذ عادة بحق من يعصي الأوامر الرسمية. إلاّ أن موناتيوس لم يعبأ وشدّ الرحال إلى روما. وبقيت الجفوة قائمة بينهما. لكن مارشيا عملت على الجمع بينهما عند عودة زوجها إلى روما (وهي ما تزال حليلته بعد). وتمّ لها ذلك في دعوة عشاء أقامها رجل يدعى باركا Barco. وجاء كاتو بالأخير فوجد القوم مستلقين على أرائكهم فسأل عن مجلسه فأجاب باركا: «اجلس حيث يطيب لك». فدار بأنظاره فيما حوله وقال إنه

سيجلس بالقرب من موناتيوس وتوجّه إلى ناحيته. ولكنه لم يظهر له أي إشارة عطف أو مجاملة طوال جلوسهما إلى المائدة. وبمناسبة أخرى كتب كاتو بمسعى من مارشيا إلى موناتيوس قائلاً إنه يرغب في التحدث اليه. فجاء موناتيوس صباحاً. واستبقته مارشيا حتى انصراف الجماعة. ثم دخل كاتو وطوّق عنقه بذراعيه وقبّله بكلّ مودة، وهكذا تم الصلح بينهما. لقد أسهبتُ في التفاصيل لاعتقادي أن أخلاق الرجال وأمزجتهم أسهل انكشافاً في مثل هذه الأمور البسيطة منها في الأعمال العظيمة.

جمع كاتو ما يناهز سبعة آلاف تالنت من الفضة، وأدركه القلق على مصيرها عند نقلها في رحلة بحرية بعيدة المسافة. فأمر بصنع عدد كبير من الصناديق الحديدية يتسع كل منها لتالنتين اثنين وخمسمائة درهم. وربط كل صندوق بحبل طويل وشدّ إلى نهاية الحبل الأخرى قطعة من الفلّين. حتى إذا ما غرقت السفينة أمكن اكتشاف مواضع الصناديق في البحر حين تطفو الفلّينة على السطح، ووصلت النقود بسلام إلاّ القليل. وكان كاتو قد نظم سجلّين بكلّ الحسابات المتعلقة بمهمته، ولكن لم يسلم أحد منهما. فقد عهد بالأول إلى معتوقه فيلارگيروس Philargyrus الذي أبحر من چنكري Cenchreae وفُقِد هو والسفينة والحمولة. أما الثاني فقد كان معه حتى بلغوا كوركيرا Corcyra فنزلوا ونصبوا خيامهم في الساحة العامة. وشعر البحّارة بالبرد القارس في الليل فأوقدوا نيراناً عظيمة، سرى بعضها إلى الخيام فاحترقت وضاع فيها السجل. وقد آلمه ضياع السجل وأزعجه كثيراً. لأنه أراد أن يكون نموذجاً يحتذيه الآخرون لا دليلاً على أمانته ونزاهته ضد قالة السوء. ولِكَمّ أفواه الأعداء فقد جلب معه عدداً من وكلاء أعمال بطليموس ليشهدوا عند الحاجة على أمانته.

وسرعان ما وصلت الأنباء إلى روما بقدومه عن طريق النهر فخرج كل الحكام ومجلس الشيوخ بكامل أعضائه مع حشود من الأهالي لاستقباله. وامتلأت ضفّتا التيبر بالناس. فكان دخوله لا يقلّ روعة عن موكب نصر، لما حفل به من تكريم ومظاهر رسمية. إلاّ أن وجه الغرابة يكمن في سلوك كاتو هنا، فهو لم ينزل من سفينة عندما لاح له القناصل والپريتورون. ولم يتوقف لتحيّتهم بل واصل التجذيف صاعدا إلى صدر النهر مستقلاً بارجة ملكية ذات ستّ طبقات من المجاذيف. ولم يترجّل حتى بلغت به الرصيف. وعُدّ تصرّفه هذا شاذاً غير لائق، وكبرياء وصلافة ليستا في محلهما. وأصاب الناس الذهول وهم يتابعون قافلة الأموال الطويلة تقطع الشوارع. واجتمع مجلس الشيوخ وأعلنوا بعبارات التكريم منحه منصب پريتور شرف فوق العادة. ومُنح امتياز ارتداء ثوب ذي حاشية أرجوانية في المناسبات العامة. فاعتذر كاتو

عن قبول كل هذا التكريم وتوجّه برجاء واحدٍ إلى المجلس وهو إعطاء الحرية لنيقياس وكيل أموال بطليموس للإخلاص والتفاني اللذين أبداهما في هذه المهمة.

تولّى فيليپس والد مارشيا مهام القنصلية في تلك السنة. وبهذه الصورة قبضت يد كاتو على زمام السلطة. وكان احترام القنصل الآخر له أكثر أثراً من اعتزاز فيليپس به بسبب القربى. وعاد شيشرون من المنفى الذي أرسله إليه كلوديوس وما لبث أن استعاد نفوذه ومكانته في قلوب الشعب. وقصد الكاپيتول أثناء غياب كلوديوس وانتزع بالقوة الوثائق الخاصة بتعيينه تريبيوناً، فرفع كلوديوس شكوى من شيشرون أمام مجلس الشيوخ. واجتمع المجلس ليسمع شيشرون يطعن بحجة انتخاب كلوديوس بقوله إنه لم يكن تريبيوناً شرعياً قط وكل ما قام به من أعمال فهو باطل لا قيمة قانونية له، فانبرى كاتو يقاطعه ثم نهض ليردّ عليه بقوله:

- في الواقع إني لا أزكي ولا أقرّ أبداً الإجراءات التي قام بها كلوديوس: ولكن لمّا ارتُئي التحقيق في صحة الإجراءات التي تمت أثناء تولّيه المنصب فعليكم أيضاً أن تحققوا في صحة وشرعية إجراءاتي في قبرص، فما دام القائم بها لا يملك السلطة الشرعية فإن البعثة ليست شرعية بالأحرى. وفي رأيي أن انتخاب كلوديوس تريبيوناً تمّ بشكل قانوني لا غبار عليه. فهو پليبي بحكم القانون إذ تبنّته أسرة پليبية، وإن كان پاتريشياً بالولادة، فإن أساء استخدام وظيفته فليُستدع ليقدّم الحساب. إن سلطة الحكم لا تتأثر بأخطاء الحاكم.

استاء شيشرون من أقوال كاتو وانقطعت حبال المودّة بينهما فترةً طويلة، إلاّ أنهما تصالحا فيما بعد.

تمّ الاتفاق بين پومپي وكراسوس من جهة وبين قيصر من جهة أخرى. فاجتاز هذا الألب. وفي مقابلةٍ تعاهدا على خطة يتّم بموجبها ترشيح أولهما وثانيهما لمنصب القنصلية للمرة الثانية، وعند فوزهما يصدران مرسوماً بتحديد فترة حكم قيصر خمس سنوات أخرى. وأن يغتنما لأنفسهما حكم أكبر الأقاليم الرومانية مع الجيوش والأموال اللازمة. كانت مؤامرة صريحة للقضاء على نظام الحكومة المقرر وتوزيع الإمبراطورية بعد تقطيع أوصالها. وكان عدد من الشخصيات الرفيعة قد قرر الترشيح للمنصب القنصلي لتلك السنة، إلاّ أنهم بادروا إلى الانسحاب عندما تقدّم منافساهما العظيمان. ولكن لوشيوس دوميتيوس، زوج پورشيا أخت كاتو، لم ينسحب وبقي بتحريض وتشجيع كاتو . فقد حثّه على الصمود قائلاً إن الغرض ليس منصب القنصل وإنما إنقاذ حرية روما. في الوقت نفسه اجتمعت كلمة العقلاء النيّرين على الحيلولة دون عملية

توحيد القوى بين پومپي وكراسوس فلو تمّ ذلك لجاوزت في طغيانها كل حدٍّ وباتت مصدر خطر عظيم على الدولة، فمن الضروري أن لا يفوز واحد منهما بالقنصلية. ولهذا السبب بادروا إلى مساندة دوميتيوس وتشجيعه لمواصلة العمل مؤكدين له أن كثيرين ممن يخشون مساندته بصورة علنية سيقومون بدعمه سِرّاً. وخاف أشياع پومپي ذلك فكمنوا لديميتيوس وهو ماض إلى الساحة قبيل أن يؤذن الفجر وطرحوا حامل المشعل الذي كان يسير أمامه أرضاً ثم أجهزوا عليه وجرحوا عدداً آخر من الأتباع وهرب البقية، إلاّ كاتو الذي أمسك بدميتيوس وأبقاه مع أنه أصيب هو أيضاً بجرح في ذراعه. وطفق يصيح بالآخرين أن يصمدوا ويدافعوا عن حرياتهم ضد الطغاة حتى النفس الأخير. وقال إن الطغاة أسفروا عن وجههم الحقيقي وكشفوا عن شكل العدالة التي سيمارسون بها سلطانهم، السلطان الذين يسعون إليه بهذه الطرق العنيفة الشاذة. إلاّ أن دوميتيوس لم يسعه مواجهة الخطر فانسحب بالأخير إلى بيته، وترك الميدان خالياً لپومپي وكراسوس فأُعلن فوزهما في الانتخاب.

لم يتطرّق اليأس إلى كاتو رغم ذلك. وعزم أن يتقدّم لمنصب الپريتور، فسيعينه ذلك على مقارعتهما إلى حَدّ ما لا كرجل عادي بدون سلطة ينازل أكبر الحكام سلطة. وهذا أخشى ما كان يخشاه الحليفان إذ أدركا أن منصب الپريتور في يد كاتو معادل لمنصب القنصل في يد غيره. فدعيا المجلس في دورة استثنائية دون أن يبلغا الدعوة إلى عدد كبير من الشيوخ، وحملاه على إصدار مرسوم يقضي على الپريتور المنتخب أن يباشر وظيفته فوراً دون الانتظار لفترة التمحيص التي فرضها القانون. وهي فترة من الوقت يقضيها الپريتور الجديد منتظراً طعون الانتخاب التي قد تقدّم ضده أو توجيه تهمة شراء الأصوات إليه. وبهذا المرسوم انفسح المجال لهما لشراء أصوات الناخبين دون خوف من أن يُتّهم مرشحوهم. ثم دفعوا بأصدقائهما للترشيح ضد كاتو وفرّقا الأموال والرشاوى وأخذا يراقبان الناخبين عند الإدلاء بأصواتهم. على أن سُمعة كاتو ومكانته حققت له أوّل فوز ونصرته على كل هذه الحيل والدسائس. فقد أدرك الشعب بصورة عامة أنه لمن المخجل أن تُفرّق الأموال وتُدفع الأثمان لأجل هزيمة كاتو في حين يجب على الشعب أن يدفع المال له ليغريه بقبول المنصب. لذلك فقد أعطته القبيلة الأولى كل أصواتها. ووقع پومپي في مأزق، فأسرع ليطلق كذبة محبوكة الأطراف بصيحة:

- إنها تُرعِد.

وارفضّ الاجتماع الانتخابي حالاً. ذلك أن الرومان من الناحية الدينية يعتبرون الرعود فألاً سيئاً، فإذا حدث ذلك أوقفوا أعمالهم مهما كانت وأرجأوا البتّ فيها.

وراح خصوم كاتو قبل الاجتماع الانتخابي الثاني ينثرون المزيد من الرشاوي يمنة ويسرة ويفسدون الضمائر ويخرجون بالقوة خيرة الناخبين من مكان الاقتراع. وبهذه الوسائل أمنوا لڤاتينيوس Vatunius الفوز بالمنصب الپريتوري بدلاً من كاتو. وقيل إن الذين باعوا أصواتهم من ڤاتينيوس أسرعوا بالخروج من الميدان كأن واحداً يطاردهم. وبقي آخرون يتبادلون فيما بينهم عبارات الدهشة والاستنكار. وواصل أحد من مفوّضي الشعب الاجتماع الجماهيري. فوقف كاتو كأنما هبط عليه وحي من السماء، متنبئاً لهم بكل ما سيحلّ بالبلاء من نوائب. وحثهم على التزام جانب الحذر من پومپي وكراسوس لأنهما سيكونان أصل البلاء، وأنهما دبّرا كل هذه الخطط ولذلك خشيا من فوز كاتو. وبعد أن انتهى من خطابه شيّعه إلى منزله عدد من الناس يزيد على عدد كل الناخبين الذين صوّتوا للپريتورين الجدد.

واقترح كايوس تريبونيوس Caius Trebonius ذلك القانون الذي أسند حكم الأقاليم للقناصل، على أن يستأثر پومپي بإقليمي إسبانيا وأفريقيا، وكراسوس بمصر وسوريا، وأن يخوَّلا مطلق الصلاحيات لشنّ الحرب وإدامتها براً وبحراً حيثما وجدا ذلك مناسباً. ووُضع المشروع قيد البحث ويئس المعارضون من رفضه ولم يبد من أحدٍ قول أو فعل لمناهضته. وقبل أن تؤخذ الأصوات صعد كاتو منبر الخطابة طالباً الكلام فسُمح له بساعتين بعد كثير من الجدال. وانقضى الوقت المحدد وهو ينذر ويشرح وينبئ بأكثر ما كان سيقع. ولم يُسمح له بتجديد الوقت إلاّ أنه استمر يتكلّم غير عابئ. فصعد إليه ضابط صف وأنزله، إلاّ أنه لم يتوقف وعلا صوته ووجد كثيراً من الآذان تصغي إليه وتشاركه الرأي. فما كان من ضابط الصف إلاّ أن أمسك به وأخرجه من الفوروم بالقوة. لكنه عاد بعد أن تركه واعتلى المنبر ثانية واستنجد بالشعب ودعاه للوقوف في صفه. ولما تكرّر ذلك منه مرّات احتدم تريبونيوس غيظاً وأمر بسوقه إلى السجن إلاّ أن الجمهور سار خلفه ويصغون إلى خطبته التي ارتجلها لهم. وساور تريبونيوس الخوف وأمر بإخلاء سبيله. وانقضى اليوم ولم يتوصّل المجلس إلى رأي حول القانون بسبب كاتو. ولكن التهديد والإرهاب الذي استعمل ضد المواطنين في الأيام التالية، فضلاً عن الهبات والوعود، فرّقت الجموع المشايعة لكاتو. وأحضر أكويليوس Aquilius التريبيون وثلّة من الجند داخل بناية المجلس. وأخرج كاتو من المجلس وهو يصيح:

- إنها تُرعد!

وجُرح كثير من الناس وسقط بعض القتلى. أخيراً أبرموا القانون بالقوة، وبلغ

السخط حدّاً بالناس حتى أنهم قرّروا تحطيم تماثيل پومپي وكادوا يفعلون لو لم يخفّ إليهم كاتو ويثنيهم عن عزمهم.

واقتُرح قانون آخر يتعلق بالأقاليم التي سيحكمها قيصر وبالفرق العسكرية التي ستخصّص له. في هذه المرة لم يتوجّه كاتو إلى الشعب وإنما استنجد بپومپي نفسه. قال له:

- ألا تدري بأنك اليوم ترفع قيصراً على كتفيك. ولن يلبث أن يغدو ثقيلاً ينوء به ظهرك، وأخيراً إنك لن تستطيع إلقاءه ولن تستطيع إبقاءه. وستطوّح به وبنفسك معه كيان الجمهورية. وعندئذ ستتذكر نصيحة كاتو. إنها ليست نافعة لك فحسب بل هي صحيحة نزيهة بحدّ ذاتها.

وكثيراً ما كان ينذر پومپي بأمثال هذه النذُر فلا يعبأ بها ولا يرتدع ولا يشك في انقلاب قيصر عليه، معتمداً على قوته وحسن حظّه.

ونُصّب كاتو پريتوراً في العام التالي. ويبدو أنه لم يرفع من شأن منصبه باستقامته ونزاهته الفريدتين قدر ما انتقصه وحطّه بسلوكه الغريب. فكثيراً ما كان يأتي إلى مجلس القضاء حافياً ويتصدّر مقعد القضاء دون ثياب داخلية تستر عورته. فيُصدر الأحكام بهذه الهيئة الزرية في القضايا الكبرى، وضدّ شخصيات بارزة. قيل أيضاً إنه كان يشرب الخمر بعد تناوله الفطور مباشرة وبعدها يقصد محلّ عمله، وهذا تلفيق وكذب صُراح. كان الفساد في ذلك الحين قد استشرى بين الناس، وضربت الذمم بالرشاوى التي يدفعها ذوو الحاجات لنيل المناصب. ومعظم الناس كان يرتزق على بيع صوته للمرشحين. وكان كاتو شديداً في استئصال جذور هذا الفساد من أرض الجمهورية. فأفلح مع مجلس الشيوخ في استصدار مرسوم يحتّم على من انتُخبوا لإشغال المناصب العامة أن يراجعوا المحكمة دون حاجة إلى اتهام لتقديم بيان موثق باليمين عن سلوكهم في أثناء الانتخاب. وكان هذا الإجراء شيئاً بغيضاً للمرشحين والمنتخبين. وهو كذلك خطب فادح بالنسبة إلى بائعي الأصوات. فاجتمع جمهور كبير من الناس واعترضوا سبيل كاتو وهو متجه إلى المحكمة وأخذوا يشتمونه بأصوات عالية. ويقذفونه بالحجارة. وهرب كل من كان متسكعاً بالقرب من دار المحكمة. وأُرغم كاتو على أن يتدافع بالمناكب ويشق طريقه شقاً متحاشياً بشقّ النفس الحجارة المنثالة عليه، حتى تمكن من الوصول إلى المنصّة. فانتصب واقفاً بطلعته المكفهرّة التي لا يلوح فيها أثر للخوف والرهبة، فسيطر على الجمهور في الحال وأسكت الصراخ. ثم توجّه إليهم بكلمة تناسب المقام فأرهفت الآذان إلى ما يقول. وبذلك أخمد الفتنة بصورة تامة.

ولما أثنى مجلس الشيوخ على موقفه وحُسن تصرّفه علّق بقوله:

- لكني لا أثني عليكم لترككم بريتوركم في مأزق دون أن تسعفوه.

واحتار المرشحون في أمرهم. فكل واحدٍ منهم يخشى أن يدفع مالاً للناخبين بنفسه، ويخشى في عين الوقت أن يُقدم منافسه على الدفع... أخيراً اتفق المرشحون على أن يضع كل واحد منهم ضماناً قدره مائة وخمسة وعشرون ألف درهم، ثم يدخلون جميعاً في المعركة الانتخابية بكل نزاهة واستقامة. فإذا وجدوا واحداً منهم يلجأ إلى طريق ملتوية فإنه يفقد المبلغ الذي وضعه. وبعد أن تمّ الاتفاق اختاروا كاتو أميناً على المال، وحكماً في الموضوع. فلم يأخذ المال وإنما اكتفى من كل واحدٍ بكفيل ضامن. وفي يوم الاقتراع حضر كاتو ووقف إلى جانب التريبيون المشرف على جمع الأصوات. وراح يرقب بكلّ دقة عملية الاقتراع لا تفوته منها شاردة أو واردة. فكشف عن مخالفة واحدة. وأمر المخالف بتأدية المبلغ المقرّر للباقين، ولهج الجميع بالثناء على كاتو ولكنهم ترفّعوا عن أخذ مبلغ الضمان مكتفين بالفضيحة التي كانت عقاباً كافياً للمخالف. وزاد حاسدو كاتو حنقاً قدر ما زادت سُمعته ارتفاعاً. وسخط كثيرون عليه، لأنه أصبح يمارس فعلاً كل سلطات مجلس الشيوخ ومجلس القضاء الأعلى فضلاً عن سلطة الحكام. ليس هناك فضيلة كفضيلة العدالة يجرّ تقديرها وتزكيتها على صاحبها كثيراً من البلايا والمكاره. إنها تتطلب من قوة الارادة والسلطة على جماهير الشعب ما لا يتطلّب غيرها من الفضائل. ذلك لأن الجمهور لا يُقدّر الا ذوي البأس وذوي الحكمة. في حين يحبّون الاستقامة والنزاهة في الرجال فيضعون فيهم ثقتهم وإيمانهم المطلقين. أنهم يخافون الجرأة، ولا يثقون بالدهاء والذكاء. أضف إلى هذا أنهم ينظرون إلى الطبع والمزاج لا إلى الإرادة الطيبة والنيّة الخالصة في ممارسة تلك الفضائل. ويعتبرون البسالة قوة طبيعية من قوى العقل. ويعدّون الحكمة حِدّة ورهافة جسمانية. لذلك يكون بمقدر الإنسان أن يغدو عادلاً لو ملك الإرادة، ويستتبع ذلك أن الظلم يُعتبر أحطّ ما في الأخلاق لأنه أصعبها اغتفاراً وتبريراً.

لهذا كان كاتو موضع كره العظماء من الرجال، لأنهم يرون أنفسهم مهانين ومنتقدين فضائله. فبومبي مثلاً كان ينظر إلى ارتفاع مكانة كاتو بمثابة دمارٍ لنفوذه. لذلك دأب على إطلاق ألسنة السوء عليه للنيل منه وتجريحه، ومن بين هؤلاء كلوديوس المفتن الذي انضمّ الآن إلى بومبي. وأنشأ يذيع بأن كاتو خصّ نفسه بجزء كبير من أموال قبرص. وهو يكره بومبي لأنه رفض الاقتران بابنته. فكان جواب كاتو إنه لم يزوّد برجل أو حصان أو سفينة ومع ذلك فقد جلب لهم من قبرص وحدها ما

يزيد عن كل ما حصل عليه پومپي من أموال بعد الحروب العديدة والانتصارات على العالم الذي نهبه نهباً. وإنه لم ينشد مصاهرة پومپي مطلقاً لا لكونه غير مستحق مصاهرته، بل لاختلافهما الشديد في آرائهما حول سياسة الجمهورية... «لأني تنازلت عن حكم الأقاليم التي وُضعت تحت تصرّفي عند اعتزالي پريتوريتي. أما پومپي فقد استبقى لنفسه عدة أقاليم ومنح عدداً منها للآخرين. وقد أرسل الآن لقيصر قوات قوامها ستة آلاف جندي لتعزيز جيشه في بلاد الغال، لم يطلبها قيصر من الشعب، ولم يستحصل پومپي على موافقة الشعب بإرسالها؛ رجال وخيل وسلاح على قدر ما يتصوّر المرء باتت هدايا يتبادلها الرجال العاديون. وپومپي القائد العام والجنرال يهدي الجيوش والأقاليم لأصحابه، في حين يقعد هنا ليشرف على المعارك الانتخابية ويثير الغوغاء أثناء عملية الاقتراع. إننا لنرى بكلّ وضوح كيف يعمل لـ(الفوضى)، للوصول إلى (الملكية)»[1].

كان هذا جوابه لپومپي.

من بين أصدقاء كاتو والمعجبين به شخص اسمه فاڤونيوس وهو لكاتو مثلما كان أپوللودورس الڤاليري لسقراط في الأيام الخوالي. كانت كلمات كاتو تُسلِمه إلى حالة من الوجد والحبور وتفعل في عقله فعل الخمر القوية فتسكره إلى حدّ النشوة. رشّح نفسه لمنصب الأيديل وكاد يفشل إلاّ أن كاتو الذي حضر لمعاونته لاحظ أن الأصوات المعطاة مكتوبة بخط يدٍ واحدة فكشف الغشّ والتلاعب. وأرجع التريبيون المشرف. فقرر هذا إلغاء الانتخاب. وفاز فاڤونيوس في الانتخاب التالي. ونشط كاتو لمعاونته في مهام وظيفته. واهتمّ عنه بالإشراف على التمثيليات التي كانت تُعرض على المرسح ويمنح الممثلين تيجاناً من أغصان الزيتون البرّي لا من الذهب، كالتي تمنح للفائزين في الألعاب الأولمبية.

واعتاض عن الهدايا الثمينة التي تُمنح عادة للمتفوّقين بالبنجر، والفجل والخس والكمثرى بالنسبة للإغريق، وجرار خزفية مملوءة بالخمر، وتين، ولحم خنزير وقثاء وحزم من عصيّ خشبية صغيرة بالنسبة للرومان منهم. فسخر بعضهم من بُخل كاتو وأكبر آخرون هذا التبسّط الخلقي الرقيق، من رجل عُرف بالتزمّت والتقشّف. ومجمل القول، كان فاڤونيوس يختلط بالجمهو، ويجلس مع المشاهدين ويصفّق ويهتف لكاتو

---

(١) يوجد هنا مقابلة بديعية باللغة اللاتينية بين كلمتي [Anarchy = فوضى] و[Monarchy = الملكية المطلقة].

مع المصفّقين والهاتفين، ويطلب منه أن يُغرق المتفوّقين بالعطايا والمكافآت ويحث الناس على تكريمهم. كان فاڤونيوس قد سلّم كل سلطاته لكاتو وفي الوقت نفسه كان زميله. وقد فضّلوا ارتياد مرسح فاڤونيوس وعروضه حيث كانوا يهتفون لها استحساباً وينسجمون فيها بكلّ جوارحهم ويستمتعون بجوّها المسلّي، ويكبرون صاحبها الرجل البسيط الذي يختلط بهم كأي إنسان عادي. أما كاتو المشرف على العرض المسرحي فقد كان يفعل ذلك عن عمدٍ استهجاناً واستنكاراً للنفقات الطائلة التي يتكبّدها الآخرون. وليلقي عليهم درساً في أن التسلية يجب أن تُطلَب لنفسها ولشرح الصدور بصورة أدبية مهذّبة لا للاستعداد العظيم والتظاهر بالفخفخة وصرف الأموال الطائلة والاهتمام المستمر بالأشياء والتفاصيل التافهة.

وتقدّم سكيپيو وهپسيوس Hypsaeus وميلو Milo مرشّحين للمنصب القنصلي، ولم يكفهم استخدام ذلك الأسلوب اللاشرعي الذي أصبح معترفاً به من بذل الرشاوى وافساد الضمائر وشراء الأصوات. بل لجأوا إلى السلاح والقتل أيضاً. ودّلت الظواهر على تصميمهم التام للوصول بطيشهم وتهوّرهم إلى حَدّ إثارة حرب أهلية. لذلك اقتُرح في المجلس تخويل پومپي صلاحية الإشراف على الانتخابات العامة. فعارض كاتو في مبدأ الأمر محتجاً بقوله: «ليس على القوانين أن تطلب الحماية من پومپي بل على پومپي أن يطلب ذلك من القوانين». على أن الفوضى طالت. وأصبح الفوروم وهو محاصر بثلاثة جيوش، وليس في الأفق بادرة لاحتمال وضع حدٍ لتلك الفوضى. أخيراً وافق كاتو على أن يسلّم المجلس جميع الصلاحيات لپومپي «فهذا خير من السقوط فريسة لآخر المصائب ما دام استخدام التدبير اللاقانوني الأخفّ ضرورياً كعلاج لدفع الأعظم، بل خير للمجلس أن يقيم نظاماً ملكياً من أن يعاني انقلاباً عنيفاً سينتهي شاء أم أبى إلى عين النتيجة.».

وبناء على ذلك تقدم بيبولس صديق كاتو باقتراح نصب پومپي قنصلاً أوحد. فإما سيعيد كيان الحكومة الشرعية، وإما سيخدمون بشخصه سيّداً هو خير الأسياد!

نهض كاتو وأيّد الاقتراح لدهشة الجميع، وقال قوله المشهور:

«أيّ شكل من الحكومة هو خير من لا حكومة».

وأضاف يقول: «لا يشك في أن پومپي سيحسن التصرّف وسيرعى مصالح الجمهورية التي أوكلت إليه». وعلى أثر ذلك أُعلن پومپي قنصلاً أوحد. وأسرع يدعو كاتو لمقابلته في الضواحي وهناك حيّاه بحرارة وعانقه بشدة وشكره على الشرف الذي أسبغه عليه. وطلب منه أن لا يبخل عليه بالنصيحة والمعونة فأجابه كاتو:

- إن ما تكلمت به في المناسبات الماضية لم يكن لبُغضة أحملها لك. وما فعلت لأجلك اليوم لم يكن لحبِّ أكنّه لك، وكل ما فعلت إنما كان لمصلحة الجمهورية. ولن أتقاعس عن إسداء النصح لك في السِرّ إن طلبت ذلك. وسأبدي رأيي الصريح في العلن وإن لم تطلب مني.

وفعل مثلما قال. فعندما سنّ پومپي قوانين صارمة تتضمّن الحبس والغرامات الكبيرة لأولئك الذين أفسدوا ذمم الشعب بالعطايا والهبات نصحه كاتو بالعدول عن ذلك لأن ما فات فات، وعليه الاهتمام بما هو آت. إذ لو تعقّب الجرائم الماضية فلن يقف عند حَدّ. وإن فرض عقوبات جديدة فليس من العدالة أن يعاقب الناس بموجب قانون لم يكن له وجود حين ارتكبت تلك الجرائم ليقال إنهم خالفوا أحكامه. فلم يأخذ برأيه. وعندما أحيل إلى المحاكمة أناس بارزون فيهم أقرباء لپومپي ظهر عليه التراخي وعدم الميل إلى محاكمتهم. فلامه كاتو لوماً شديداً وألحّ عليه بأن يستمر في الإجراءات القضائية بحقهم.

وسنّ پومپي قانوناً آخر ألغى بموجبه عادة كتابة خُطب التزكية بحق المتهمين وإرسالها إلى المحكمة. مع هذا فقد دبّج هو نفسه خطبة بتزكية موناتيوس پلانكوس Munatius Plancus وبعثها وقضية المتهم قيد المرافعة. وكان كاتو أحد القضاة فما كان منه إلاّ أن وضع كفّيه فوق أذنيه وأبى سماعها عند تلاوتها فاعترض عليه پلانكوس وطلب تنحيته قبل صدور القراءة. على أنه أدين مع ذلك.

في الواقع كان كاتو مصدر حيرة بل مشكلة عظيمة لكلّ المتهمين مهما كانت تُهمهم. فهم من جهة يخشون أن يكون من بين القضاة الذين يحاكمونهم، ومن جهة أخرى لا يجسرون على طلب تنحيته. فكثير منهم حُكموا لأنهم رفضوه قاضياً لهم، وبذلك ظهروا بمظهر غير الواثق من براءتهم . وكانت سُبّة يلقيها العدوّ في وجه عدوّه حين يذكّره بأنه لم يقبل بكاتو قاضياً له.

في ذلك الوقت كان قيصر يتربّص بقوّاته في بلاد الغال، رابضاً بسلاحه على أتم الأهبة، مستخدماً في الوقت عينه هباته وعطاياه لتعزيز نفوذه في روما. فبدأت تحذيرات كاتو تنزع پومپي من أحضان التهاون الآمن لتسلِمه إلى علائم أكيدة للخطر الماثل. لكن كاتو رآه بطيئاً متردداً كارهاً اتخاذ أية تدابير وقائية ضد قيصر فقرر ترشيح نفسه للقنصلية، فمن طريقها يرغم قيصر إما على إلقاء سلاحه وإما على الكشف عن نواياه الحقيقية. وكان موقف منافسي كاتو جيداً. فأحدهما سولپيشيوس Sulpicius كان مديناً

كاتو ولسمعته ونفوذ بالكثير. وقد اعتبرت منافسته نوعاً من نكران الجميل، وظاهرة غير مستحبة. لكن كاتو لم يجد فيها معرّة. وقال:

- ليس بالأمر المستغرب أن لا يخلي رجل لآخر السبيل في ما يعدّه خير غاية وأنبلها.

وكان كاتو قد حمل المجلس على إصدار مرسوم يحتّم على المتقدمين للمناصب والوظائف العامة أن يتولّوا بث الدعوة الانتخابية بأنفسهم دون الاستعانة بالوسطاء. ومنعوا أن يصحبوا أحداً من هؤلاء في جولاتهم الانتخابية لتزكيتهم عند الناخبين وجمع الأصوات لهم. فكثر خصومه بين الناس لأنه ضيّع عليهم وسيلة ارتزاق هامّة من جهة وأفقدهم فرصة التفضل بالمنّة على الأشخاص الذين يتوسطون للمرشحين فيخسرون بذلك المال والمكانة. ثم إن كاتو لم يكن يتقن أساليب المعارك الانتخابية فهو أكثر حرصاً على وقار حياته وهيبته من الوظيفة. واتّبع وسائله الخاصة في الدعوة لنفسه وأبى الاستعانة بأصدقائه لترويج قضيته وكسب الجماهير إلى صفه، وبذلك فشل.

في مثل هذه الأحوال لا يكون الشعور بمرارة الفشل والاستكانة قاصراً على الفاشلين ولكنه يتعدّاهم إلى الأصدقاء والأقربين فتجدهم أياماً وكأنهم في حدادٍ وكآبة. ولم يبد على كاتو أي تأثير بالنتيجة. فقد دهن جسمه بالزيت، ولعب الكرة في الساحة. وبعد تناوله فطوره قصد الفوروم كعادته حافياً ومن دون وشاح، وسار مع معارفه وتحدث إليهم. وتعرّض للوم شيشرون الذي قال:

- عندما تتطلّب الضرورة قنصلاً مثلك لا تحاول أن تبذل أقل المجهود ولا تتنازل إلى مجاملة الناس. لقد فعلت كذلك عندما أهملت ترشيح نفسك للپريتورية ثانية.

فأجاب كاتو إنه لم يخسر الپريتورية أول الأمر بأصوات الناخبين بل بالعنف وإفساد الضمائر وهما الوسيلتان اللتان لجأ إليهما خصومه. أما في الانتخابات القنصلية فما كان يوجد مثل هذا التدخّل المنافي للأخلاق. فاتضح له أن الشعب غير معجب بمسلكه، وليس يجمل بالرجل المستقيم أن يغيّر مسلكه لأجل الفوز بالقنصلية. والرجل العاقل لايحاول الحصول مرة ثانية على ما فشل في نيله، وهو معرّض لعين التحامل.

كان قيصر في ذلك الوقت يقاتل عدداً كبيراً من الشعوب الهمجية المحاربة ويلاقي الأمرّين في إخضاعها. وقيل إنه انقضّ على الجرمان في وقت الهدنة وأهلك منهم ثلاثمائة ألفٍ. فاقترح بعض أصدقاء قيصر بهذه المناسبة أن يعلن المجلس عيد شكرٍ للآلهة. فردّ كاتو يشجب الاقتراح ويقول: كان من الواجب أن يسلّموا قيصر إلى الجرمان لنقضه الهدنة. وبذلك يكفّر عن ذنبه ويردّ اللعنة عن روما. وأضاف يقول:

- مع هذا، علينا أن نتوجه بالشكر للآلهة لأنها أنقذت الجمهورية ولم تصبّ جام سخطها على الجيش للحماقة التي أبداها قائده.

وعلى أثر ذلك وجّه قيصر كتاباً إلى مجلس الشيوخ قرئ علناً وكان حافلاً بالتهم والسبّ المقذع بكاتو، وبعد تلاوته نهض دون أن يظهر عليه أي تأثّر أو اهتمام. وراح بتكلم بصوت هادئ خالٍ من الحرارة، كأنه يتحدث في أمرٍ عادي. فجعل اتهامات قيصر له تبدو مجرّد شتائم رخيصة وسُباب عادي، أو بدت شيئاً أشبه بمزاح ودعابة تافهة. ثم انتقل بعدها إلى فضح نوايا قيصر السياسية وشرح ما بيّته وما عمل في سبيله (كأنه أحد شركائه في التآمر لا خصمه المقيم). وختم كلامه بالقول:

- لا تتوهّموا أن أبناء البريطون والغال هم مصدر الخطر. وعليكم أن تخشوا شرّ قيصر بالأحرى إن كنتم عقلاء.

هذه الخطبة أيقظت المجلس من سُباتٍ وأثارته إلى الحدّ الذي ندم معه أصدقاء قيصر على تلاوتهم كتابه. فقد زوّدوا كاتو بفرصته الثمينة لقول كثير مما يجب قوله، ولإيضاح الحقائق الدافعة حول قيصر. ومع هذا لم يقرر المجلس شيئاً، وإنما اتجه الميل إلى إرسال خلفٍ له. وهنا طلب أشياع قيصر أن يجرّد پومپي أيضاً من حكم أقاليمه وأن يسرّح جيشه، وإلاّ فلا سبيل لقيصر غير الاحتفاظ بالاثنين أيضاً. فصاح كاتو: «ها إن ما تنبأت به تحقّق الآن، لقد أصبح واضحاً لكم أنه يستخدم قوّاته لإرغامكم على إصدار القرار الذي يريده. إنه حوّل جيوشه التي حصل عليها بالحيلة نحو الدولة».

لم يكن لكاتو نفوذ كبير خارج المجلس. فقد هُيّئ الشعب لتعظيم قيصر. وكان المجلس يخشى الشعب رغم قناعتهم بصحة رأي كاتو.

وانقلب الوضع عندما وردت أنباء احتلال قيصر مدينة أرمينيوم وزحفه نحو روما. فقد شخصت الأنظار كلها إلى كاتو حتى پومپي نفسه، وكذلك الجمهور، لأنه الرجل الوحيد الذي تكهن بما سيحدث، والأول الذي كشف عن نوايا قيصر الحقيقية. وعلّق على هذا بقوله:

- لو صدّقتموني، ولو أخذتم بنصحي، لما آل الأمر بكم إلى الخوف من رجل واحدٍ، ولا لوضع كل آمالكم في رجل واحد.

وأقرّ پومپي بأن كاتو نطق بكلام الأنبياء. بينما تصرّف هو تصرّف الأصدقاء فجاوز به الحدود. ونصح كاتو المجلس بأن يضع كل السلطة في يد پومپي...

- لأن خير من يطفئ لهيب الشرور هم أولئك الذين يتمكنون من إحداث أعظمها.

تبيّن لپومپي أنه لا يملك القوات الكافية. وما يستطيع تعبئته ليس بالكفاءة والتدريب المطلوبين، فترك المدينة. وقرّر كاتو اللحاق به في المنفى فبعث بابنه الأوسط إلى موناتيوس، وكان صديقه هذا في بلاد بروتيوم Brutium وقتذاك. وصحب ابنه الأكبر. وقد عاد فعقد ثانية على مارشيا التي أصبحت بعد وفاة هورتنسيوس أرملة غنية. فقد ترك لها بعلها كلّ ما يملك. واتخذ قيصر هذه الحادثة فيما بعد دليلاً على جشعه وارتزاقه من وراء الزواج إذ قال:

- لو كان كاتو بحاجة إلى حليلةٍ فلماذا طلّقها؟ ولو لم يكن بحاجة فلماذا تزوّجها ثانية، اللهمّ إلا إذا كان قد أعطاها لهورتنسيوس بمثابة طُعم، أعاره إياها وهي فقيرة، ليستردها فيما بعد وهي غنية.

إن الردّ على هذا يذكرنا بقول يوريپيدس:

«عند الكلام عن الأسرار فإن أعظم الأسرار غموضاً هو بالتأكيد الجبن في هرقل».

فالشبيه بإسنادك الجبن إلى هرقل هو إسنادك الجشع إلى كاتو. والسؤال الواجب هنا هو: هل أحسن كاتو عملاً بالزواج؟

في هذا أخذٌ وردّ، فما إن عقد على مارشيا حتى عهد إليها ببيته وبناته ولحق بپومپي وقيل إنه لم يقصّ شعر رأسه، ولم يحلق لحيته، ولم يضع على رأسه إكليلاً منذ ذلك اليوم. وغدا كئيباً ساهماً كثير التفكير في النوائب التي حلّت ببلاده. بقي كذلك حتى النهاية، دون أن يفرح لنجاح يصيب حزبه أو لفشل يُمنى به عدوّه.

وأُسند إليه حكم صقلية. فأقلع إلى سيراقوزه وهناك علم أن أسينيوس پوليو Asinius Pollio قد وصل إلى مسينيا مع قوّات للعدوّ. فأرسل كاتو يسأله عن الغرض من قدومه. وطلب من پوليو بدوره أن يشرح له سبب هذه الاضطرابات العنيفة، فأبلغه أن پومپي جلا عن إيطاليا، وضرب مخيّمه في ديراكيوم. فأنشأ پوليو يبدي عجبه من غرابه وغموض الأحكام الإلهية في أحوال البشر. وقال:

كان پومپي ناجحاً ومظفراً على الدوام في أعماله التي لم تكن تنطوي على حكمة أو إخلاص للوطن. وها هو الآن مهتمّ بالحفاظ على كيان بلاده والدفاع عن حريتها، فإذا به سيّئ الحظّ على طول الخط.

وقال كاتو بخصوص أسينيوس إنه قادر على طرده من صقلية لو شاء، لكن لما كانت قواته ستعزّز بنجدة كبيرة، فهو لا يرى موجباً لإقحام الجزيرة في حرب. وإن عليه أن يتوجه بنصحه للسيراقوزيين بأن ينضموا إلى الفريق الغالب وأن يعملوا لأجل سلامهم. ثم إنه ترك الجزيرة متجهاً إلى معسكر پومپي.

نصح پومپي بتأخير القتال، إذ كان لايفتأ يأمل في إصلاح الأمور، وكان يكره أن يشتبك الغريمان في قتال لأن الخاسر هو البلاد، وسيكون عاملاً من عوامل خرابها أياً كان المنتصر في المعركة. وأقنع پومپي ومجلس الشورى بإصدار مرسوم يمنع بموجبه نهب أي مدينة خاضعة للشعب الروماني، وقتل أي مواطن روماني إلاّ في ساحة المعركة أثناء القتال. وبهذا كسب شرفاً كبيراً وتسبّب في التحاق الكثير بپومپي إلى آسيا لمساعدة القائمين على التجنيد وتهيئة السفن. وصحب أخته سرڤيليا وطفلها من لوكوللوس، فمنذ ترمّلها وهي تعيش في كنف أخيها. وقد حسن سلوكها وطابت سمعتها إذ وضعت نفسها في رعايته، وتبعته في كل تنقلاته وقاسمته شظف العيش الذي عُرف به. على أن قيصر لم يكفّ عن التعريض به عن طريقها.

وبدا أن ضباط پومپي في آسيا ما كانوا في حاجة كبيرة إلى كاتو فقفل راجعاً. إلاّ أنه حقق وهو في طريقه انضمام أهالي رودس إلى القضية. وترك أخته وطفلها هناك وانضمّ إلى پومپي الذي تمكن من جمع قوّات ضخمة في البرّ والبحر. وكشف عن نواياه الحقيقية بعملٍ لايعدله عمل آخر. كان قد اعتزم أن يسلّم كاتو قيادة الأسطول الذي يتألف من خمسمائة بارجة قتال وعدد كبير جداً من السفن الخفيفة وسفن الاستطلاع والقوارب المكشوفة. إلاّ أنه أعاد النظر في قراره، أو لعل ذلك كان بتأثير من أصدقائه. فقد تبيّن له أن هدف كاتو الوحيد هو تحرير البلاد من سلطان كل غاصبٍ. فإن هو عُقد له اللواء على كل هذه القوات العظيمة، فسيعمد فور القضاء على قيصر إلى حمل پومپي على إلقاء سلاحه وخضوعه لقوانين الجمهورية. ولذلك عدل عن رأيه وعيّن بيبولوس قائداً للأسطول مع أنه كان قد نوّه لكاتو بعزمه الأول. لم يكن لديه من سبب أو دليل يحمله على الافتراض بأن حماسة كاتو للقضية قد ضعُفت بأي شكلٍ من الأشكال. فقبيل خوض إحدى المعارك في ديراكيوم خطب پومپي في جنوده - على ما قيل - ثم طلب من ضباطه أن يحذوا حذوه، فتعاقبوا وأصغى الرجال إليهم ببرود وصمتٍ حتى تقدم كاتو بالأخير. وبلغةٍ فلسفية تناسب المقام تكلم عن الحرية والرجولة والموت والذكر الحسن. ألقى خطابه بشكل عاطفي طبيعي قوي لا تعمُّل فيه، وختمه طالباً العون من الآلهة موجّهاً إليها خطابه كأنها موجودة معهم، لتنظر نحوهم وترعاهم وهم يقاتلون في سبيل بلادهم. فأطلق الجيش كله صيحة راعدة وتملّكتهم الحماسة وهاجت أنفسهم فقادهم ضباطهم يحدوهم الأمل والثقة لمواجهة الخطر. وهُزم جيش قيصر ولاذ بالفرار. إلاّ أن حظّ كاتو الكريم استخذى لحذر پومپي وتذبذبه فجعل نصره ناقصاً. على أننا أوردنا ذلك في سيرة پومپي.

وفي الوقت الذي استبدّ الفرح بالجميع وبالغوا في تقدير نجاحهم كان كاتو وحده يندب حظّ بلاده. ويلعن ذلك الطموح القتّال الذي دفع بهذا العدد الكبير من الرومان إلى قتل بعضهم بعضاً.

وتعقّب پومپي قيصراً إلى تساليا، تاركاً في ديراكيوم مقداراً من الذخيرة والمال والمؤونة وكثيراً من خدم بيته وأقربائه، ووضع الجميع بعهدة كاتو وسلّمه قيادة خمس عشرة كتيبة فقط. كانت ثقته به كبيرة. لكنه يخشاه، فهو يدري تماماً أن كاتو هو آخر من يتركه إن غُلب، أما إذا انتصر فلن يدعه يستخدم نصره على هواه. وبقي مع كاتو في ديراكيوم كثرة من أشراف روما ووجهائها، وعندما تسرّبت أنباء هزيمة فرساليا قرر كاتو أن يعيد الموجودين معه في دراكيوم إلى إيطاليا في حالة موت پومپي. ثم يبتعد هو عن طغيان قيصر إلى أبعد مسافة ممكنه ويعيش في المنفى. أما إذا نجا فانه سيعمل على تجميع الجيش له. وبهذا القرار رحل إلى كورچيرا حيث الأسطول راسٍ، وأراد هناك أن ينزل لشيشرون عن القيادة بوصفه قنصلاً، وهو پريتور، فرفض شيشرون وأعلن اعتزامه العودة إلى إيطاليا فاحتد عليه ابن پومپي وهمَّ وهو في سَورة من الغضب بمعاقبة كل من يُزمع العودة. وبدأ بشيشرون فألقى القبض عليه. إلاّ أن كاتو انفرد به وثناه عن عزمه. وبهذا أنقذ حياة شيشرون فعلاً وانقذ آخرين من التنكيل وسوء المعاملة. ورجّح كاتو أن پومپي الأكبر هرب إلى مصر أفريقيا. فأصعد كل الرجال ظهر السفن وأقلع يريد اللحاق به . وقبل ذلك خيرّ أولئك الذين فقدوا حماستهم في الاستمرار بالقتال، وصرفهم. وبنزولهم ساحل أفريقيا التقوا بسكستوس ابن پومپي الأوسط فأنبأهم بمقتل أبيه في مصر. فاستبد بهم الحزن، وقالوا إنهم لن يتبعوا بعد پومپي قائداً غير كاتو. فملكته العاطفة إزاء هذه الشهادة المخلصة التي قدّمها جمهور من الشرفاء، ولم يسعه تركهم في بلاد بعيدة غريبة يجابهون المصاعب، الا إذا قبل العار على نفسه. وهكذا تولّى القيادة وسار إلى مدينة كيرينه Cyrene فاستقبله سكانها دون تردّد مع أنهم أغلقوا أبوابها بوجه لابينيوس قبل مدة قليلة. وهناك علم أن سكيپيو حميّ پومپي قد اتفق مع الملك جوبا Juba وأن أتيوس ڤاروس Attius Varus الذي نصّبه پومپي حاكماً لأفريقيا قد التحق بهما مع قوّاته . فقرر كاتو أن يسير إليهم براً إذ كان الوقت شتاء. وجمع عدداً من الحمير لحمل الماء. وكدّس مقادير كبيرة من الزاد والمؤن، وعدداً من العربات. وأخذ معه أيضاً عدداً من أولئك الذين يطلق عليهم اسم «پسيللي» Psylli وهم يُبرئون الملدوغ بسمّ الأفعى عن طريق مصّ السمّ بأفواههم، كما امتازوا أيضاً بعملية سحر يستطيعون بها تنويم الأفاعي وشلّ حركتها.

وساروا سبعة أيام متواصلة وكاتو كالعهد به دوماً يسير على قدميه متقدّماً جنوده ولا يستعين بعربة أو حصان. ومنذ معركة فرساليا وهو يتعمّد الجلوس إلى المائدة ولايستلقي. وهو مظهر آخر من مظاهر حداده، إذ لم يعد يستلقي إلاّ في وقت النوم.

ومَرّ الشتاء عليهم في أفريقيا وسحب كاتو جيشه الذي كان يناهز العشرة آلاف. وساءت أحوال سكيپيو ومكروس للغاية نتيجة لخلافاتها وشجارهما وخنوعهما وتزلّفهما للملك جوبا الذي لا تُطاق صلافته ولا يُحتمل زهوه بقوّته وغناه. ففي أول مرة اجتمع به كاتو للمداولة أمر بوضع كرسيه الخاص في الوسط بينه وبين سكيپيو. ولم يفت كاتو ذلك فنقل كرسيه إلى جهة سكيپيو ومنحه شرف الجلوس في الوسط مع أنهما خصمان، حيث سبق له أن نشر عنه بعض الفضائح كتابةً. هناك أناس يعدّون أمثال هذه المبادرة من التوافه، فينتقدون كاتو لأنه حريص عليها. فمرة كان يتمشّى في صقلية مع فيلوستراتوس Philostratus فأفسح له ليحتل المكان الأوسط إظهاراً لمبلغ احترامه الفلاسفة. ولا شك في أنه حطّم كبرياء جوبا الذي كان يعامل سكيپيو وڤاروس معاملة زوج من حكام الأقاليم عنده. ونجح على أثر ذلك في إحلال الوئام بينهما. وأخلى سكيپيو وڤاروس الميدان له ليترأس قيادة الجيش العامة بعد أن تحققوا من رغبة الجنود. لكنه أبى قائلاً إنه لا يريد الخروج عن القوانين التي يدافع عن حُرمتها. فهو حائز درجة الپريتور ولذلك لاحق له في القيادة بوجود البروقنصل (كان سكيپيو قد اختير پروقنصلاً). أضف إلى هذا أن الناس يتيمّنون بوجود سكيپيو على رأس الجيش في أفريقيا، فالاسم وحده يبث في نفس الجنود نسائم الأمل ويغريهم بالنجاح.

فاضطلع سكيپيو بالقيادة، وبتحريض من جوبا قرّر فوراً وضع السيف في رقاب أهالي أوتيكا Utica جميعاً، وأن يدكّ المدينة حتى يسوّيها بالقاع لأنها - حسبما زعما - قد انحازت إلى قيصر. فلم يوافق كاتو وراح يستصرخ الآلهة، ويستنكر ويحتجّ أمام مجلس الحرب. وبصعوبة عظيمة أنقذ أهالي المدينة المساكين من المصير القاسي الذي كان ينتظرهم. وأنيط به حكم المدينة باقتراح سكيپيو وطلب الأهالي، خوفاً من وقوعها في يد قيصر لأنها كانت موقعاً عظيم المناعة ذات فائدة كبيرة لكلّ من الخصمين المتحاربين. فزادها كاتو مناعة بتحكيمها واختزان المؤن فيها. فقد جلب كميات كبيرة من القمح. وأصلح الأسوار، وبنى الأبراج وحفر خنادق عميقة، وزرع حقولاً من الموانع والأسيجة حولها. ووضع شبّان المدينة في هذه الاستحكامات بعد تجريدهم من السلاح وأبقى الأهالي فيها ولم يرحّلهم ووفرّ الأمن لهم وحرص أن لايقع اعتداء أو إهانة عليهم من الرومان. وراح يبعث منها بكميات من السلاح والمال والمؤونة إلى

معسكر الجيش. ومجمل القول أنه جعلها قاعدة تموينه الرئيسة.

ونصح كاتو سكيپيو، كما نصح پومپي من قبله، بأن لا يتعجّل المعركة قطّ وبأي شكل كان مع رجل حلب من القتال أشطره وعجم عوده. وأشار عليه أن يستخدم خطة التأخير، لأن الزمن سيخضد بالتدريج من شوكة الأزمة وعنفها والعجالة هي القوة التي يعتمدها الغاضب. إلا أن سكيپيو أهمل النصيحة عجباً واستكباراً وكتب له رسالة يصمه فيها بالجبن ويقول له أن حسبه أن يقعد آمناً مطمئناً خلف الأسوار ولايمنع غيره من استخدام اصالة تفكيره بجراءة لاهتبال الفرصة المؤاتية. فرد كاتو عليه بقوله إنه سيقلع إلى إيطاليا بالمشاة والخيّالة التي أنزلها في أفريقيا، وهناك سيعمل على مشاغلة قيصر لإبعاده عنهم. فسخر سكيپيو بهذا الاقتراح كذلك. فأسف كاتو على نزوله لسكيپيو عن القيادة، مدركاً أنه لن يدير الحرب بتعقّل وحكمة، وإن هو نجح، خلافاً لكل ما تدلّ عليه الظواهر، فإنه سيسيء استخدام هذا النجاح في الوطن، بقدر ما أساء القيادة هنا. لقد اقتنع كاتو وأعلم أعوانه بقناعته هذه. قال لهم إن أمله بهؤلاء القادة كاد يتلاشى. وإن لديهم الشيء الكثير من الجسارة ولكنهم يفتقرون على الأقل إلى الحصافة. مع هذا فإن تحقق ما ليس في الحسبان، وهُزم قيصر، فهو شخصياً لن يعود إلى روما بل سيبتعد من قسوة سكيپيو وبربريته التي ظهرت بتوعّده الكثيرين بأسوأ المصير.

حصل ما توقّعه كاتو بأسرع ما كان ينتظر. ففي ساعة متأخرة من الليل وصله رسول من المعسكر بعد قطعه مسافة ثلاثة أيّام لينبئه بنشوب معركة عظيمة قرب ثايسوس وضياع كلّ شيء. واحتلال قيصر المعسكرات وهروب سكيپيو وجوبا مع فئات قليلة وتشتيت الجيش. وصلت هذه الأنباء ليلاً، والبلاد في حالة حرب، فأقلقت أهالي المدينة واستبدّ بهم الرعب حتى كادوا يفقدون صوابهم. وصعُبت السيطرة عليهم وأرادوا الخروج. إلاّ أن كاتو برز إليهم في هذه الوقت العصيب. وواجههم بكلمات تهدئة مشجّعة حتى قبض على ناصية الحال وسيطر على الموقف وأسكن روعهم وبدّد خوفهم. قال لهم: من المحتمل جداً أن الأمور لم تسؤ إلى الحد الذي يتصوّرون وربما بالغت الأنباء في وصف الحالة وساد الهدوء بصورة مؤقتة. وفي صباح اليوم التالي استدعى الثلاثمائة الذين جعلهم مجلس شورى له، وهم مواطنون رومانيون سكنوا أفريقيا لممارسة الأعمال التجارية والصرافة. وكان ثمّ معه عدد من أعضاء مجلس الشيوخ وأولادهم. وعقد الاجتماع في هيكل جوپتر. وفيما هم يكتملون، كان كاتو يتمشى بهدوء تام مستغرقاً بمطالعة كتابٍ كأن لم يحصل شيء جديد. وكان الكتاب سجلاً بحساب التجهيزات التي أعدّها للحرب من أسلحة ودروع وقمح وذخيرة وجنود.

عندما كمل عقدهم توجّه إلى الثلاثمائة أولاً، فأشاد بشجاعتهم وإخلاصهم وأثنى على خدماتهم الجليلة التي قدّموها لوطنهم من أشخاصهم وأموالهم ونصائحهم. ورجاهم أن لايتفرّقوا مهما كانت الظروف، وأن لا يتوهّموا بأن الفرد يسلم بتركه رفاقه، وإنما العكس هو الصحيح، إن ظلوا متعاضدين متكاتفين فلن يدعوا لقيصر سبباً للازدراء بهم لو وقفوا ضده، كما سيكون أكثر استعداداً للعفو عنهم إن أعلنوا ولاءهم له. فهو لذلك ينصحهم بالتشاور فيما بينهم، وسيحترم أي قرار يتخذونه. فإن فضّلوا الاستكانة لحكم الأقدار فسيعزو قرارهم وانقلابهم عليه إلى حكم الضرورة. وإذا قرروا الثبات معه في وجه الخطر دفاعاً عن الحرية فلن يكتفي بمدح شجاعتهم بل سيكون معجباً بها وقائداً ورفيقاً حتى يحققوا أقصى ما يمكن من السعادة لبلادهم التي هي ليست أوتيكا ولا أدرومنتوم Adrumentum وإنما روما. فبعظمتها المأثورة كثيراً ما خرجت سالمةً من شرّ النكبات والخطوب. هذا فضلاً عن تمتّعهم بكثير من أسباب السلامة. وفي مقدمتها أنهم يحاربون شخصاً ترغمه مشاغله على الانتقال من موضع إلى آخر. فقد رفعت إسبانيا علم الثورة بقيادة پومپي الأصغر. وروما نفسها مثل الحصان الجموح تأبى أن تُسرَج. إنها والحالة هذه على أهبة الانتفاضة، حالما يطرأ على الوضع أي تغيير. وأما عنهم فليس باللائق بهم أن ينكصوا على أعقابهم في مواجهة الخطر. وعليهم أن يتخذوا من خصمهم عبرةً ومثالاً فهو يعرّض للخطر لتحقيق شر النوايا وأبعدها عن الحق. ومع هذا فلا أمل له بنهاية سعيدة كما هم يأملون. فبصرف النظر عن تقلّبات الحرب ومفاجآتها عليهم أن يطمئنوا في النتيجة إلى فوزهم بأسعد حياة إن هم نجحوا واستظهروا، وعليهم أن يدركوا أنهم سيموتون أشرف ميتة إن هم أخفقوا. ومهما يكن من أمر فعليهم أن يتبادلوا وجهات النظر فيما بينهم ويصلوا إلى قرار، وسيشاركهم في الدعوة إلى الآلهة لتبارك قرارهم الحاضر، تعويضاً عن شجاعتهم الماضية وخلوص نيّاتهم.

بثّت أقوالُ كاتو في نفوس الكثير فيهم روح الإقدام وحرّكت مشاعرهم، وهزّت أريحيتهم، حتى أنهم نسوا الأخطار المحدقة بهم ورجوا منه أن يكون قائدهم الأوحد الذي يتحدّى الأقدار ولا يعرف للهزيمة معنى. وعرضوا أنفسهم وسلاحهم وأموالهم ليفعل بها ما يشاء. وقالوا إنهم يفضّلون أن يلاقوا حتوفهم بأتباعهم نُصحه، على أن تسلم لهم أرواحهم بغدرهم بشخص يتحلّى بمثل هذا الخلق العظيم. واقترح أحد الحاضرين إصدار قرار بتحرير العبيد. فلم يقبل كاتو لأن ذلك لايستقيم مع روح العدالة أو حكم القانون. أمّا إذا أقدم المالك بملء اختياره على ذلك فإنه سيرحّب بضم كل

لائق للخدمة من العبيد المحرّرين إلى قوّاته. ووعد كثيرون بتنفيذ ذلك فدوّن الأسماء في السجل. وفي تلك الساعة وصلته رسائل من جوبا وسكيپيو. كان جوبا قد اعتصم بالجبال مع بعض رجاله منتظراً ما يقرره كاتو وهو ينوي انتظاره هناك إذا فضّل مغادرة أوتيكا، أو أن يسير إليه لنجدته إذا ما حوصرت المدينة. وكان سكيپيو قد أصعد ما لديه من قوّات إلى السفن في موضع لا يبعد كثيراً عن أوتيكا منتظراً الجواب من كاتو حول بعض المسائل. وارتأى كاتو أن يؤخّر الرسل والردود إلى أن يتخذ الثلاثمائة قراراً. أما الشيوخ الذين كانوا معه فقد أظهروا نخوة وشهامة عظيمتين، وأعتقوا عبيدهم في الحال وسلّحوهم. ولكنّ الحماسة التي بثها كاتو في نفوس الثلاثمائة لم تلبث طويلاً وأخذت تتهافت بعد أن تركهم. ولا غرابة فهؤلاء رجال تجارة ومال، ومعظم ثرواتهم في عبيدهم. وهناك أشياء ومواد تتقبّل الحرارة بسرعة وتفقدها بسرعة عندما ترفع النار عنها، هكذا التهبت نفوس هؤلاء وارتفعت حرارة دمائهم بوجود كاتو، لكن ما إن أخذوا يقلّبون وجوه الرأي فيما بينهم بغيابه حتى تغلّب خوفهم من قيصر على احترامهم لكاتو الفاضل وراحوا يتساءلون قائلين:

- من نكون نحن؟ ومن هو ذلك الذي نأبى الخضوع له؟ ألا يمارس قيصر الآن كل سلطان روما ونفوذها؟ من منا سكيپيو، أو كاتو أو پومپي؟ في هذه الساحة عندما يفسح الناس للخوف سبيلاً للتسلل إلى كراماتهم وشرفهم، أينبغي لنا أن نقاتل في سبيل حرية روما. فنعلن ونحن في أوتيكا الحرب على قيصر ذلك الذي لم يستطع كاتو وپومپي الأكبر أن ينالا منه فتيلاً فهربا من إيطاليا؟ أنحرر العبيد، أنطلقهم ضد قيصر وهو المتحكم في حرياتنا؟ كلا، ولنعرف أنفسنا جيداً نحن المساكين، ما علينا إلاّ أن نوالي المنتصر ونرسل وفداً يطلب لنا الرحمة والغفران منه.

كان هذا رأي أكثرهم اعتدالاً إلاّ أن الأغلبية ارتأت القاء القبض على الشيوخ والاحتفاظ بهم لقيصر تهدئة لغضبه. وكان كاتو يتوقع انقلابهم عليه لكنه لم يبدُ مهتماً. وكتب لجوبا وسكيپيو يشير عليهما بأن يظلوا بعيدين عن أوتيكا لأنه لايثق بالثلاثمائة.

واتجهت نحو أوتيكا قوة كبيرة من الخيّالة كانت قد نجت من المعركة الأخيرة. وأرسلت قبل وصولها بثلاثة رُسل إلى كاتو يحمل كل واحد منهم رسالة مختلفة عن رسالة صاحبه. كانت فئة من هذه القوة ترى أن تلتحق بجوبا، وفئة تريد الانضمام إلى كاتو، وفئة تخشى دخول أوتيكا بعدما أصغى كاتو إلى الرسل. أمر ماركوس ريبيريوس Marcus Rubrius بالذهاب إلى الثلاثمائة لاستطلاع أمرهم وتدوين أسماء الذين اختاروا تحرير عبيدهم - سِرّاً دون علمٍ منهم. ثم أخذ يرجوهم بألاّ يتركوا هذا العدد

الكبير من الشيوخ الرومان هنا. وأن لا يختاروا جوبا قائداً قبل كاتو، بل أن يفكروا بالسلامة الجماعية وان يدخلوا المدينة المنيعة الكثيرة المؤن فالقمح فيها يكفيهم عدة سنين. كذلك توسّل الشيوخ إليهم للبقاء. وعاد الضباط إلى جنودهم للمشاورة. وجلس كاتو والشيوخ على قدمات الأسوار ينتظرون القرار. وفي عين الوقت أقبل روبيريوس مسرعاً وعليه علائم الاضطراب العظيم. وقال إن الثلاثمائة قد أشعلوا نار الفتنة في المدينة وهم يحرّضون الأهالي على الثورة وإحداث الشغب، فخيّم اليأس على الحاضرين وأخذوا يبكون حالهم. وحاول كاتو التسرية عنهم. وبعث إلى الثلاثمائة يطلب منهم أن يتذرّعوا بالصبر، وعاد الضباط إليه بطلبات غير معقولة. قالوا إنهم لا يرغبون في الخدمة تحت إمرة جوبا للأجر الذي يدفعه لهم، وإنهم لا يرهبون قيصر إذا ما التحقوا بكاتو، لكنهم يخشون أن يُحصروا داخل المدينة بين الأوتيكيين وهم مطبوعون على الخيانة والغدر، ومن دم قرطاجنيّ. هم الآن هادئون مسالمون ولكنهم سيتآمرون بلاشك ويخونون الرومان حال اقتراب قيصر. وإن كان كاتو يرجو أن يلتحقوا به ويعملوا تحت إمرته فما عليه إلاّ أن يخرج من المدينة، أو أن يقضي على الأوتيكيين، حتى يخلو الموضع من العدوّ والبرابرة. ووجد كاتو في مقترحاتهم قسوةً وبربرية لا يطيقها. فأجابهم بلطف أنه سيشاور الثلاثمائة بالأمر. وعاد إلى المدينة فوجد الرجال لا يختلقون أعذاراً، ولا يتظاهرون بالمسكنة والذلة كما كانوا يفعلون سابقاً احتراماً له. بل أخذوا يصرّحون على رؤوس الأشهاد بأنهم عازفون عن قتال قيصر، وأنهم عاجزون ضعفاء ولا أحد يرغمهم على ما لا قِبَل لهم به. وأطلق بعضهم آراء حول القبض على الشيوخ وتسليمهم لقيصر. وتغافل كاتو وكأنه لايسمع، وكان في الواقع ثقيل السمع نوعاً ما. وفي عين الوقت أقبل أحدهم ليخبره بأن قوة الخيّالة قد رحلت. فخوفاً من إقدام الثلاثمائة على اتخاذ قرار ضدّ الشيوخ خرج حالاً مع عدد من أصدقائه فوجد الخيّالة قد ابتعدت مسافة، فأمر بالخيل وانطلق وراءهم مسرعاً. وعندما رأوه قادماً سرّوا كثيراً واستقبلوه بكل مودّة وطلبوا منه إنقاذ نفسه معهم. قيل إن كاتو بكى في تلك اللحظة وأخذ يستعطفهم لأجل الشيوخ ومدّ إليهم يديه ضارعاً، وألوى عنان بعض خيولهم وأمسك بأسلحة راكبيها، إلى أن أفلح في تحريك عواطفهم ونجح في حملهم على البقاء يوماً واحداً فقط لتأمين إخراج الشيوخ وتسفيرهم. فعادوا ووزّعهم على المواقع. بعضهم أناط به حراسة المداخل. وبعضهم أوكل إليه احتلال الحصن وهكذا. . . فبدأ الخوف يتسرّب إلى قلوب الثلاثمائة لئلا يلقوا الجزاء على تصلُّب رأيهم فبعثوا يطلبون مقابلة كاتو. إلاّ أن الشيوخ أحاطوا به وحالوا بينه وبين

الذهاب إليهم قائلين إنهم لن يأمنوا على حاميهم ومنقذهم من الوقوع في أيدي خونة غدّارين.

لم يظهر سموّ خُلق كاتو كما ظهر الآن. كل طبقة من الناس في أوتيكا تبيّنت بأسف وإعجاب خلوّ ما يفعله من أية دوافع خاصّة أو مصلحة شخصية. هذا الذي قرّر أن يضع حَداً لحياته لا يبذل أعظم المجهودات ويشقى ويكدح إلاّ في سبيل الآخرين، يضمن حياة الآخرين ثم يقوم بإنهاء حياته. إذ كان من السهل عليهم أن يتبيّنوا أنه قرّر الموت ولو لم يفصح عن نيّته.

بعد أن هدّأ من روع الشيوخ وافق على مقابلة الثلاثمائة فشكروه بحرارة وطلبوا منه أن يستخدمهم ويثقُ بهم. ومع أنه لا وجه شبهٍ بينهم وبين كاتو ولا يستطيعون التحليق إلى عظمة فكره فهم يريدون منه أن يرحم ضعفهم. وقالوا أيضاً إنهم قرروا أن يتصلوا بقيصر ويرجوا منه قبل كل شيء العفو عن كاتو فإن أخفقوا في مسعاهم فسيرفضون عفوه عنهم. وسيقاتلون دفاعاً عنه مادام فيهم نفس يتردد. فشكر لهم كاتو حسن نواياهم ونصحهم بتأمين سلامتهم بأسرع ما يمكن. وأن لا يتشفعوا له بتاتاً فالمغلوبون يتوسّلون، والمخطئون يطلبون الصفح، أما هو فما اعترف بالهزيمة طوال حياته، بل كان يُحرز نصره كلّما وجد ذلك مناسباً. ولقد هزم قيصر في كل نزالٍ يتعلق بمبادئ الحق والعدالة، فقيصر المغلوب وليس هو. لقد أدين وحُكم بجريمة نواياه السيئة ضدّ بلاده، وظلّ يعمل لها دون انقطاع، وظلّ ينكرها باستمرار. وبعد ذلك خرج، وعندما أنبئ بتقدم قيصر على رأس جيشه قال:

- آه، إنه يتوقع أن يجدنا رجالاً شجعاناً.

ثم قصد الشيوخ وألحّ عليهم بألاّ يتأخروا عن الرحيل وأن يستعجلوا ما دامت الخيّالة في المدينة. وأمر بإغلاق جميع الأبواب إلاّ باباً واحداً يواجه البحر. وخصّص ما لديه من السفن للراحلين وزوّد بالمال والقوت من هو في حاجةٍ. وتمّ ذلك بغاية من الضبط والدقّة والتأهّب لقمح كلّ شغبٍ، وعدم الاعتداء على الأهالي.

ووصل ماركوس أوكتافيوس Marcus Octavius على رأس فرقتين من العسكر وضرب معسكره بالقرب من أوتيكا. وأرسل يسأل كاتو عن رأيه في إسناد القيادة العامة فلم يجبه كاتو وإنما قال لأصدقائه:

- أيحق لنا بعد هذا أن نعجب لما أصابنا من الفشل، حينما يظلّ حبّنا بالمناصب باقياً ونحن نشرف على الدمار التام.

في الوقت نفسه أنبئ بالخيّالة تتأهّب للرحيل وأنها تنهب مقتنيات الأهالي، فهرع

كاتو إليهم وانتزع ما في يد أول من صادفه وألقى الآخرون عنهم ما نهبوه وخرجوا صامتين خجلين. ثم جمع كل أهالي أوتيكا موصياً خيراً بالثلاثمائة راجياً منهم ألاّ يثيروا حقد قيصر عليهم بل عليهم أن يتدبّروا أمر سلامتهم جميعاً. وبعد هذا ذهب إلى الميناء لرؤية الراحلين. وعانق أصدقاءه ومعارفه وودّعهم. ولم يُشر على ابنه بالرحيل ولم يجد من المناسب إقناعه بترك أبيه. إلاّ أن هناك شخصاً يُدعى ستاتيلليوس Statyllius وهو شاب في زهرة العمر ذو روح وثّابة، شديد الولوع بالاقتداء بكاتو والتشبّه بأخلاقه، طلب منه أن يرحل لأنه عدوّ لدود لقيصر، فلم يُفلح معه، فالتفت إلى أپولونيدس الفيلسوف الرواقي وديمتريوس الفيلسوف المشائي Peripatatie. وقال لهما:

- تقع عليكما مهمة إطفاء حُمّى روح هذا الشاب وتعريفه بالصالح له.

وأمضى الليل ومعظم النهار في ترحيل أصدقائه وقضاء حاجات المراجعين له.

عُيّن لوشيوس Lucius Caesor أحد أقرباء قيصر مندوباً لمفاوضة الثلاثمائة. فجاء إلى كاتو وطلب منه أن يلقى خطبة بالثلاثمائة لإقناعهم. وأضاف يقول:

- وأما عنك، فسيشرّفني أن ألثم يديّ قيصر وأخرّ على قدميه مستشفعاً لك.

فلم يسمح له كاتو أن يُقدِم على عملٍ كهذا بأية حالٍ وأجابه:

- لو شئت المحافظة على حياتي بفضل من قيصر لذهبت إليه أنا بنفسي. إلاّ اني لا أريد أن أكون مديناً بفضل لطاغيةٍ جرّاء أعماله وطغيانه. إن إنقاذه أرواح أولئك الذين لا حقّ له في حكمهم كأنه سيّدهم الشرعي، هو محض اغتصاب... ولكن دعنا نبحث إذا سمحت في خير ما يمكن قوله عن الثلاثمائة.

وتحادثا فترة من الوقت. وعندما أزمع لوشيوس الرحيل أوصاه كاتو بابنه وببقية أصدقائه وشدّ على يديه مودّعاً. ثم عاد إلى منزله ودعا ابنه وأصدقاءه فتحدثوا في مختلف المواضيع. وحظر على ابنه العمل السياسي، لأنه متعذّر الآن بالشكل الصحيح اللائق، وبغير هذا الشكل يكون مخلاّ بالشرف. وعند المساء دخل الحمّام وفيما هو يغتسل تذكر ستاتيلليوس فنادى بصوت مرتفع:

- أپوللونيوس! هل روّضت روح ستاتيلليوس الجموح. هل ذهب دون أن يودّعنا؟

فأجاب أپوللونيوس:

- كلاّ. لقد تكلّمت معه كثيراً فلم أُفلح. إنه مصمّم، ويقول إنه قرّر الاقتداء بك.

وقيل لنا ان كاتو ابتسم وأجاب:

- هذا ما سيثبته عمّا قريب.

بعد خروجه من الحمّام ذهب للعشاء برفقة عدد كبير من أصحابه فجلس إلى المائدة منتصباً كما اعتاد منذ معركة فرساليا، فقد حرّم على نفسه الاستلقاء على ظهره إلاّ عندما ينام. وتعشّى معه جميع أصحابه وكل حكام أوتيكا.

وتسبّبت الخمر في إثارة أحاديث ممتعة. فبُحثت قضايا فلسفية عديدة، وامتد بهم الحوار إلى عقائد الرواقيين الغريبة المسمّاة بالمتناقضات. وتركز في هذا مبدأ: أن الرجل الصالح هو حرّ وحده. وكل الأشرار هم عبيد. وانبرى الفيلسوف المشّائي يعارض القول كما هو متوقع. فانقضّ عليه كاتو وناقشه بحرارة. وارتفع صوته بعض الشيء وحاول بإسهاب إثباته النقطة، مشفوعاً بحماسةٍ أدرك الجميع منها أنه قرّر وضع حدٍ لحياته وإطلاق روحه من جسده. فران سكون عميق وغشيت الكآبة الجميع. ولتبديد أي شكّ في نيّته عمد إلى قلب المناقشة متحوّلاً إلى موضوع آخر. فراح يتكلم عن امور الساعة، مبدياً قلقه على من هم الآن في عُرض البحر، وأيضاً على الآخرين المسافرين برّاً مجتازين صحراء قاحلة ماحلة.

وعندما تفرّقت الجماعة، راح يتمشّى مع أصدقائه كما هي عادته بعد العشاء. وأصدر الأوامر الضرورية إلى ضباط الخفر ثم دلف إلى حجرته، وهناك عانق ابنه وكل صديق له وبحرارة أكثر من المعتاد، مما جددّ شكّهم في نيّته على الموت. وبعدها صرفهم واستلقى وتناول كتاب محاورة أفلاطون «حول الروح». وبعد أن قرأ أكثر من نصف الكتاب رفع نظره فلم يجد سيفه (كان ابنه قد أخذه عند تناول العشاء) فنادى خادمه وسأله عمّن أخذ السيف، ولمّا لم يجب الخادم استأنف القراءة. وبعد قليل طلب السيف بلهجة تعمّد فيها إلاّ يبدو مُلحِفاً أو مستعجلاً، بل يريد أن يعرف اين هو فحسب. وانتظر برهة أنهى خلالها قراءة الكتاب فلم يجلب له السيف. فنادى خدّامه وطلب إحضار السيف بصوت أعلى من الأول، وسدّد إلى فم أحدهم لكمة قوية رضّت يده. وزاد غضبه وأخذ يصيح أن ابنه وخدمه غدروا به وأسلموه إلى العدو وهو أعزل. فأسرع ابنه وأصدقاؤه إلى الغرفة مهرولين وسقطوا على قدميه وأخذوا يبكون ويضرعون إليه. فرفع نفسه عن الفراش ونظر نظرة صاعقة وقال:

- متى؟ بل كيف أصبحت سليب العقل، مريض الرأي بحيث لا يحاول أحدٌ محاجّتي بالعقل والبرهان، أو أن يبيّن لي ما هو الأحسن إن كان يراني طائشاً؟ أيتحتّم أن أجرّد من السلاح، وأمنع عن استخدام عقلي؟ وأنت أيها الشاب لماذا لا تربط يدي أبيك وراء ظهره. حتى إذا جاء قيصر وجده عاجزاً عن الدفاع؟ ليس السيف ضرورياً إن

شئت القضاء على حياتي. وما عليّ إلا أن احبس أنفاسي برهة من الزمن. أو أن أشبح رأسي في الجدار.

بعد هذا خرج ابنه وهو يبكي. وتبعه الباقون عدا ديمتريوس وأپوللوينوس. وكان أكثر هدوءاً في حديثه معهما إذ قال متسائلاً:

- وأنتما؟ أترايان أيضاً أن تُبقيا رجلاً في مثل سِنّي حيّاً بالقوة وتجلسان تنظران إليّ صامتين؟ أم هل تدليان بحُجج تثبت لي أن طلب كاتو السلامة من العدوّ عندما تغلق أمامه الأبواب الأخرى، أهو خليق به، وليس من الحطة في شيء؟ إن كان الأمر كذلك، فبرهنا أننا بفضل قيصر ومساعدته سنكون أحكم عقلاً وأكثر امتناناً له في إبقائه على حياتنا فحسب برفضنا كلّ المبادئ التي تشرّبتها أرواحنا. أقول هذا لا لأني صمّمت على الفناء والعدم بالنسبة لذاتي، لكني سأنفذ ما أراه مناسباً من القرارات، بعد أن أجعل ذلك في حدود سلطاني، ولن أمتنع عن اتخاذكما مشاورين بالرجوع إلى كل المبادئ التي تبشر به فلسفاتكما، وإني لفاعلٌ. وفي الوقت نفسه أرجو أن لا تزعجا نفسيكما واذهبا قولا لابني بأنه لن يرغم أباه على ما لا يستطيع إقناعه به.

فلم يردّا عليه بشيء بل خرجا باكيين. وجاءه صبيّ بسيفه، فاستلّه من الغُمد ونظر إليه. وفحص ذبابته فوجدها جيّدة، فقال:

- والآن. أنا سيّد نفسي.

وألقى بالسيف جانباً وتناول كتابه ثانية فأنهاه مرة أخرى على ما قيل. وبعدها نام نوماً عميقاً وسُمع شخيره في الخارج. وفي حدود نصف الليل نادى اثنين من معتوقيه: كلينثس Cleanthes وطبيبه وبوتاس Butas الذي كان يستخدمه في الأعمال المختلفة، فأرسل ثانيهما إلى الميناء ليتأكد من ابحار كل أصدقائه. ومد يده إلى طبيبه ليعالجها بعد أن انتفخت من أثر اللكمة. فشاع الفرح في نفوس الجميع إذ خيّل لهم أنه عدل عن الموت.

عاد بوتاس بعد فترة وأنبأه برحيل الجميع ما عدا كراسوس الذي تأخّر لعملٍ. إلاّ أنه يهّم الآن بالإبحار. وقال أيضاً إن الريح عاليةً والبحر هائج جداً. وصدرت من كاتو حسرة أليمة تفجّعاً على المبحرين. وبعث ببوتاس مرة أخرى ليرى هل عاد أحدٌ منهم ليأخذ شيئاً كان قد نسيه؟ وطلب منه أن يأتيه بالخبر.

وبدأت الطيور تصدح بأغاريدها. فأخذته سِنةٌ من النوم. أخيراً أقبل بوتاس وأخبره أن كل شيء هادئ في الميناء. فاستلقى كاتو كأنه يريد استئناف غفوته، وطلب منه أن يغلق الباب بعد خروجه. لكن ما إن خرج هذا حتى تناول سيفه ودفنه في صدره. إلاّ

أنه لم يقوَ على تسديد طعنة نجلاء لورم يده، فلم يمت في الحال. وسقط عن السرير وهو يتخبّط وهوت معه منضدة حسابية صغيرة كانت قريبةً منه فصدر دويّ صاح له الخدم. وأسرع ابنه والخدم إلى غرفته في الحال فوجدوه يتشحّط بدمه وقد خرج جزءٌ كبير من أحشائه وهو ما زال حياً يتطلع إليهم. وقفوا وقد أخذت منهم الرهبة مأخذها. وتقدم منه الطبيب وهم يدفع أمعاءه إلى الداخل وكانت سالمة لم يمزّقها حَدّ السيف، وحاول خياطة الجرح. إلا أن كاتو الذي استردّ وعيه وفهم نيّة الطبيب دفعه إلى الوراء وبتر أمعاءه بيده وفتح الجرح فلفظ أنفاسه الأخيرة.

وفي وقت أقلّ مما يصل خبر الموت إلى أسرةٍ مفجوعة كان الثلاثمائة يقفون ببابه. وبعد قليل اجتمعت حشود أهالي أوتيكا وعلا الصراخ والعويل. كان فقيدهم حقاً، وكان حاميهم. الرجل الحرّ الوحيد الذي لم يذق طعم الهزيمة.

في هذه الساعة بلغتهم أنباء اقتراب قيصر فلم يصرفهم عن أداء التكريم لكاتو خوفهم من الخطر الماثل ولا الرّغبة في تملّق الفاتح ولا التنابز والخلف فيما بينهم. وأخرجوا جثمانه بموكب مهيب وشيّعوه تشييعاً فخماً ودفنوه على ساحل البحر حيث يقوم الآن تمثاله وهو قابضٌ على سيف. وبعد ذلك عادوا ليفكروا بسلامتهم وسلامة مدينتهم.

أُبلغ قيصر بأن كاتو بقي في أوتيكا دون شعور بقلق ولم يحاول الفرار، وأنه أخلى من معه من الرومان وبقي مع ابنه وعدد من أصحابه. فوقع في حيرة وأعمل الفكر ليتحسّس نوايا كاتو. وكان عظيم التقدير لكفاءاته فقرر الزحف عليه بكلّ جيشه. وعندما سمع بموته قيل إنه نطق بهذه العبارة:

- أي كاتو! إني أنكر عليك موتك. مثلما أنكرت عليّ حفظ حياتك!

والحق يقال لو أن كاتو تحمّل مِنّة قيصر والابقاء على حياته لما كان في ذلك منقصة له، ولا ثلمٌ لشرفه كما هو يرفع من مجد قيصر. ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع التكهن بما كان سيحصل لكننا نخمّن أن جاز لنا من طبع قيصر الرؤوف.

مات كاتو وله ثمان وأربعون سنة من العمر، ولم يتعرّض قيصر لابنه بسوء. ولكن قيل لنا أن هذا الابن شبّ عاطلاً متسكّعاً. وعُرف بإسرافه في معاشرة النساء. مكث في كبكدوكيا ضيفاً على مارافاداتس Maraphadates أحد أعضاء الأسرة المالكة، وزوجه الفائقة الجمال. فأطال المكث في المنزل أكثر مما ينبغي. وجعل نفسه موضوعاً لمختلف القصائد. نورد منها الأمثلة التالية:

غداً - وهو اليوم الثالث عشر.

سيرحل كاتو على أغلب الظن.

و:

پورشيوس[٢] ومارفاداتس صديقان حميمان

و«روح» واحد تكفيهما على ما يقال.

و«روح» هو اسم زوج مارفاداتس. و:

الكلّ يعترف بعظمة [كاتو]

إنه ليحمل «روحاً» ملكية بالتأكيد!

لكنّ كلّ هذه الوصمات مسحت تماماً ببسالة ميتته. ففي معركة فيليپاي قاتل في سبيل حرية بلاده ضدّ قيصر وأنطوني. وعندما انكسر الصفّ أبت نفسه الفرار والنجاة. واستنكف أن يبقى اسمه مجهولاً من العدوّ. فأظهر نفسه وكشف عن هويّته في الجبهة الأمامية. وراح يحمّس الآخرين ويحثهم على القتال حتى سقط قتيلاً، تاركاً أعداءه ممتلئين إعجاباً ببسالته. ولم تكن بنت كاتو بأقلّ أنفة وشرفاً من باقي أفراد أسرتها. تزوّجت بروتوس قاتل قيصر. وكانت مطّلعة على المؤامرة ضدّه. وأنهت حياتها بالشكل الذي يليق بأخلاقها وأسرتها. وهو ما سيرد تفصيله في حياة بروتوس.

أما ستاتيلوس الذي أصرّ على الاقتداء بأعمال كاتو فقد حال الفيلسوفان بينه وبين القضاء على حياته في حينه. وبعدها انضمّ إلى بروتوس وكان له نِعمَ الصديق المخلص النافع. وخرّ صريعاً في معركة فيليپاي!

(٢) اسم كاتو الابن.



أپولو

أغيس

AGIS

٢٤٥-٢٤١ ق.م

زعم السذّج والبسطاء أن أسطورة أكسيون التي عانقت السحابة بدلاً من جونو فولدت السناطير هي اسطورة اختُرعت اختراعاً لتمثيل حالة الطموح في البشر. أولئك الذين انشغلت عقولهم باطّلاب المجد وهو محض صورة من صور الفضيلة، فلم يحققوا أثراً أصيلاً ولا منتظماً، بل حصلوا على نتائج مشوّهة غير طبيعية (كما هو متوقّع من مثل هذا الاتصال الإلهي). وبركضهم وراء عواطفهم وتنافسهم وبانسياقهم بحوافزهم الآنيّة لهم أشبه بأولئك الرعاة في تراجيديا سوفوكليس القائلين:

«إننا نتبع هذه السائمة، مع أنها تحمل أسيادها الشرعيين، وهي تقودنا، مع أنها بكماء».

في الواقع هذا هو الوضع الحقيقي الذي تجد عليه المشتغلين في الشؤون العامة. ففي جريهم وراء ألقاب فارغة: كقادة وحكام... يرتضون لأنفسهم منزلة العبيد، والأتباع لأهواء الناس ونزواتهم، وهم في ذلك مثل رقباء السفينة، يقفون في قيدومها ويمتد نظرهم أبعد من الملاحين الممسكين بالدفّة. الا أنهم لا يسعهم إلاّ ردّ أنظارهم إلى أولئك الملاحين وإطاعة أوامرهم. هؤلاء الرجال يوجّههم هتاف الجماهير وتصفيقهم - إن جاز لي القول - وإن كانوا يُسمّون حُكاماً هم في الحقيقة مجرّد أتباع للجمهور. الرجل الذي كمُل عقله، وسمت فضائله، لا حاجة له بالمجد والشهرة إلاّ بقدر ما يعبّدان طريقه ويمهّدانه للثقة الكبيرة التي يوفّرانها له. وليس ثمّ محذور في أن يُسمح للشاب - وهو الراغب في الشهرة - أن يفخر بأعماله الطيبة بعض الفخر. إذ إن فضائله (على حدّ قول ثيوفراستوس) التي ما زالت بعد غضّة الإهاب لم تخرج من شطئها، تتوقّد إلى الثناء وتتقوّى به فتنفذ جذورها إلى الأعماق. لكن عندما يغلب الإفراط على هذه العاطفة فإنها تغدو خطرة جداً عند كل البشر. وهي مخرّبة ومرة عند الحكّام. فالنفوذ العظيم والسلطان الواسع ينقلان المرء إلى حالة من حالات الجنون فلا يعود يفكر بالصالح المجيد، ولكنه يعدّ كل عمل صالحاً ما دام هو مجيداً. وكما أجاب

فوكيون الملك أنتياطر الذي طلب منه الإقدام على عملٍ لا يشرّفه:
- لا أستطيع أن أكون متزلّفاً لك وصديقاً في آن واحدٍ.
كذلك على أولئك الحكام والساسة أن يجيبوا الناس:
- لا أستطيع أن أحكم وأطيعكم في آن واحدٍ.

وما يحصل للدولة إن جرى الأمر خلاف ذلك مثله مثل ما حصل لتلك الأفعى التي تقول الأسطورة عنها إن ذيلها تمرّد على رأسها وشكا من أنه يلقى عنتاً كبيراً بإرغامه على أن يظل تابعاً للرأس. وطلب أن يحلّ محلّ الرأس في القيادة فتمّ له ذلك. فما لبث أن لحق به كثير من الأذى فقد سار على غير هدى وشجّ الرأس وأصابه بجراح كثيرة. فقد عاكس الطبيعة، وأصبح الرأس يتبع دليلاً أعمى أصمّ. كذلك نجد عاقبة الكثيرين الذين يستسلمون لميول الجماهير الطائشة غير الهادفة أو الموحّدة. إنهم لا يستطيعون أن يتوقّفوا من جهة، ولا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من المصير المحزن المحتوم من جهة ثانية.

هذا ما عنّ لنا ذكره عن ذلك المجد الذي يعتمد على هتاف الجمهور نجد آثاره المؤسفة في مصيري كايوس وطيبريوس گراخوس Caius, Teberais Graechus الأخوين النبيلَي الخُلق اللذين صُقِلت طباعهما السمحاء بأحسن التربية والتهذيب وتسنّما الحكم يحدوهما أشرف النوايا وأجدرها بالثناء، مع هذا فقد ذهبت ريحهما، لا أقول بعامل الرغبة الجامحة في المجد، بل بعامل الخوف من العار الأكثر اغتفاراً من الأول. فلأنهما كانا محبوبين لدى الشعب وموضع ثقته وجدا من العار عليهما أن لا يدفعا الثمن كاملاً. لقد حاولا بإصلاحاتهما القانونية الجديدة أن يتفوّقا على كل ما حازاه من شرف ومجد، فحقّق ذلك بينهما المزيد من الشرف والشهرة، فاتّقدت حماستهما وحماسة الشعب وأخذ الجانبان يتنافسان في الأمجاد والمصالح فوصلا بالأخير إلى سبيل مغلق، بحيث أصبح الاصطدام فيما بينهما حماقة، والتراجع عاراً. وهذا ما يستنتجه القارئ مما سأقصه. وإني سأقارنهما الآن باثنين من القادة اللقيديميين الشعبيين هما الملكان أغيس وكليونيتس فلأنهما كانا أيضاً من المغرمين باثارة الجماهير، يجاهدان لإعادة نظام الحكم والحياة النبيل الذي ضاع في زوايا النسيان منذ أمد بعيد، كرههما الأغنياء والمتنفّذون الذين صعب عليهم أن يجرّدوا من استمتاعهم الأناني الذي اعتادوه. لم يكن هذا الملكان أخوين لحماً ودماً، كزميليهما الرومانيين. لكن يلاحظ فيهما لون من التشابه الأخوي في أعمالهما ومقاصدهما التي تبدّت في تمهيدات ومناسبات سأفصّلها الآن:

عندما عاد حبّ الذهب والفضّة يتملّك نفوس سكان الجمهورية اللقيديمية ساد البخل والحرص وحطّة النفس في جمع المال، والترف والإسراف والخنوثة في إنفاقه. فهوت سپارطة من المكانة العالية التي كانت تحتلها، وأوذيت سمعتها وفضائلها. واستمرت أحوالها في تدهور حتى أيام أغيس وليونيداس الملكين اللذين حكما اللقيديميين في وقت واحد.

انحدر أغيس من أسرة يوريپون Eurypon الملكية وهو ابن يوداميداس Eudamidas سادس جيلٍ منحدر من صلب أغيسيلاوس صاحب الحملة العسكرية على آسيا، الذي كان أعظم رجال زمانه بين الإغريق. خلف أغيسيلاوس ابناً يدعي أرخيداموس الذي قتله الماسبيّون Masspains في ماندونيوم Mandonium بإيطاليا. فخلفه ابنه البكر أغيس ولما قُتل هذا بيد أنتيپاطر قرب ميغالوپوليس دون أن يعقب خلفه أخوه يوداميداس واعقبه ابنه أرخيداموس، والذي أعقبه يوداميداس ثالث وهو والد أغيس الذي نترجم له سيرته الآن.

وليونيداس ابن كليونيموس Cleonymus كان من الأسرة الملكية الثانية أغيادي Agiadæ وهو الثامن المنحدر من صلب پاوسانياس الذي قهر ماردونيوس Mardonius في معركة پلاتيا Plataea. وأعقب پاوسانياس ابنه بليتسوناكس وأعقبه پاوسانياس ثانٍ، نُفي وعاش عيش النكرات المغمورين في تيگيا Tegea ونُصّب بدلاً منه ابنه أغيسيپوليس Agesipolis. ومات هذا دون عقبٍ فخلفه أخ له أصغر منه يدعى كليومبروتوس. وترك هذا ابنين أكبرهما أغيسيپوليس الذي لم يلبث طويلاً على العرش وتوفّي دون عقبٍ. فخلفه أخوه الأصغر كليومينس الذي رُزق بابنين هما: أكروتاتوس Acrotatus وكليومنيوس. أولهما توفّي قبل أبيه، إلا أنه خلّف ابناً يدعى أريوس Areus الذي خلف جدّه في الحكم، وقُتل في كورنث، فترك العرش لابنه أكروتاتس الذي هُزم وقُتل بالقرب من ميغالوپوليس في معركة مع طاغيتها أرسطوديموس Aristodemus وترك امرأة حبلى. فنصب ليونيداس ابن كليونيموس المذكور آنفاً وصيّاً. ولما مات الملك الصغير قبل أن يبلغ أشدّه فقد خلفه على العرش.

لم يكن ليونيداس بالملك الصالح لشعبه قطّ. فمع الانحطاط الخلقي والاجتماعي الذي ساد سپارطة آنذاك وُجد فيه صدود عن العادات والشرائع القديمة يزيد كثيراً عمّا لدى غيره. ولا غرو فقد عاش ردحاً طويلاً من الزمن بين سادة الفرس العظام، وكان من حاشية الملك سلوقوس، فركب متن الشطط والطيش، وعمد إلى تبنّي تلك العظمة والفخفخة التي تعيشها تلك القصور الملكية في النظام الاجتماعي الإغريقي، واتخذ

عين الأساليب في الحكم. وكان أغيس زميله في الملك على درجة عظيمة من سموّ الفكر وجمال الطبع لم يتفوّق بها على ليونيداس وحده بل على كلّ الملوك الذين سبقوه منذ عهد أغيسلاوس الأكبر. لقد نشأ مترفاً منعماً في أحضان أمّه أغيسيستراتا Agisistrata وجدّته أرخيداميا Archidamia وكانتا أغنى أغنياء اللقيديميين. وقبل أن يبلغ أغيس العشرين من عمره نبذ كل المتع الدنيوية، وابتعد بأقصى ما يمكنه عن الملذّات والمظاهر الفخمة التي تبدو مناسبة لجماله. وراح يختال معتزاً بالمعطف الاسپارطي الخشن، ويتبع النُظم اللاقونية القديمة في طعامه واغتساله وتمارينه. وكثيراً ما كان يردّد أنه لا يريد أن يجعل من الملك غاية، بل وسيلة تمكنه من إحلال النظم والأساليب الاجتماعية التي كانت تسود البلاد في الماضي.

قد يصحّ أن يؤرّخ اللقيديميون بداية انحطاطهم وتحلّلهم الخلقي بعد فتحهم أثينا مباشرة، وعلى أثر تدفّق الذهب والفضّة الذي أعقب ذلك. مع هذا فإن عدد البيوت التي أثبتها ليكورغوس ما زالت على حالها. كذلك القانون الذي أوجب على المورّث أن يخلف لابنه كل ما لديه من مالٍ وأرضٍ. وكان هذا يحقق نوعاً من الضبط والعدالة يسند الدولة إلى حَدّ ما، وهي متخبّطة في أمورها الأخرى. لكن إيپيتاديوس Epitadaus الإيغور ذا النفوذ الكبير والطبع العنيف والروح الحاقدة أراد أن يشفي غليله من ابنه العاق الذي كان مختلفاً معه فاقترح قانوناً يمنح الجميع حرية التصرّف بأراضيهم عن طريق الهبة، في حال حياتهم أو بالوصيّة بعد موتهم دون اعتبارٍ للوارث، فتمّت الموافقة عليه بدافع الأنانية. وقُدّر لهذا القانون أن يُلحق الدمار بأفضل دول الكومنولث نظاماً. إذ عمد الأغنياء بدون تحرّج إلى التصرّف بعقارهم دون اعتبارٍ لورثتهم الشرعيين.

وبهذا تركزت الثروة في يد القلّة وباتت الأغلبية مُعدمة لا تملك شيئاً. وأهملت المقاصير النبيلة ولم يعد لها مكان في المجتمع الجديد. وساد الدولة حطّة وغلب على شؤونها عُقَد الأغنياء وحسدهم، ولم يعد باقياً من الأسر السپارطية الأصلية أكثر من سبعمائة منها مائة فقط تملك الأراضي، والباقية فقدت الأرض والمنزلة الاجتماعية. وغلب شعور العجز والعزوف عن الدفاع عند البلاد ضد أعدائها الخارجيين. وراح الجميع ينتظر بفروغ صبر بارقة تشير إلى انقلاب أو ثورة داخلية.

وجد أغيس أن أشرف ما ينبغي عمله هو إشاعة المساواة في البلاد وزيادة نفوسها بالتوطين. وكان في الواقع مصيباً في حدسه، فبدأ يستطلع آراء مواطنيه في ذلك. فوجد اللهفة والرغبة عند الشباب فوق ما كان يتوقع. كانوا متحمسين لمباراته في ميدان الخير

والصلاح وفي سبيل الحرية كانوا على أتمّ الاستعداد لنبذ ما تخلّقوا به وعاشوا فيه أكثر من استعداد المصارع لنزع ثيابه. أمّا كبارِ السنّ الذين تعوّدوا الترف وسائر الرذائل، وكانوا أكثر من غيرهم تشبّثاً بتلك الحياة، فقد كان مجرد اسم ليكورغوس يُسلمهم إلى القلق والخوف، مثلهم في ذلك مثل العبد الآبق الذي يقاد إلى مولاه. لم يسع هؤلاء أن يسمعوا أغيس منتقداً الحالة المؤسفة التي آلت إليها سپارطة ومتمنّياً أن يستعيد مجدها السالف. ولكن ليساندر ابن ليبيس Libys وماندروكليداس Manrroclidas ابن إكفانس Ecphanes وأغيسيلاوس لم يكتفوا بالموافقة وإنما شجعوه ومدّوا له يد العون. كان ليساندر حائزا ثقة شعبية تامة وله نفوذه الكبير على الناس. ويعدّ ماندروكليداس أكفأ الإغريق في الإدارة والتنظيم إلى جانب الحذق والدهاء والجرأة والإقدام. وأغيسيلاوس خال الملك هو خطيب مفوّه، إلاّ أنه جشع شهواني لا تأثير للمصلحة العامة على ضميره. ويظهر أن الفضل لحمله على هذا التشيّع يعود إلى ابنه هيپوميدون Hippomedon الذي أهّلته بسالته وأعماله الفريدة لاحتلال مكانة رفيعة، وكسب نفوذ كبير لدى شبان سپارطة. أما الدوافع الحقيقية التي حملت أغيسيلاوس على ممالأة أغيس فهي أنه كان غارقاً في الديون، يأمل بإصلاحات أغيس أن يتخلّص منها.

وبعد أن ضمّ أغيس خاله إلى صفه، دفعه إلى كسب أمّه، وكان لها أصدقاء وأشياع كثيرون، فضلاً عن مدينيها، ومساهمتها الكبيرة في الشؤون العامة. غير أنها أحجمت عندما فوتحت. واشتدّت في نُصح ابنها بالعدول عن هذا القصد العسير الذي لا يُرجى منه نفع، إلاّ أن أغيسيلاوس زاد في مجهوده لإقناعها بأن المشروع ليس بالصعوبة التي تتخيّلها، وأنه إذا تحقق سيعزز مركز الأسرة على أية حال. وتوسّل ابنها الملك إليها ورجاها ألاّ تقف عقبة ضدّ آماله وأمجاده بسبب المال. وقال إنه يعجز عن مساواة الملوك الآخرين في الغنى، لأن أتباع الولاة وخدمهم، ومدبري بيوت سلوقوس وبطليموس، أكثر غنى من كل ملوك سپارطة مجتمعين. فإذا استطاع التفوّق على ترفهم وغناهم بالبساطة والخُلق الرصين واحتقار الغنى والملذّات، ولو استطاع أن يشيع المساواة بين السپارطيين لكان ملكاً عظيماً. وظلّ يضرب على هذا الوتر حتى راقت الفكرة للأم والجدّة وانتهى الأمر بهما إلى التحمّس لها والثناء على طموح الشاب النبيل. ولم تكتفيا بالموافقة بل أخذتا تدفعانه. ولم تقتصر جهودهما على مفاتحة كل المرتبطين بهما وحثهم على مساندته، وإنما توجّهتا بالدعوة إلى النساء، لتعلماهن أن الزوجات اللقيديميات يمارسن نفوذاً كبيراً على أزواجهن دوماً، فقد تعوّد هؤلاء أن

يسارّوهنّ بكل أمور الدولة الهامة بصراحة تزيد عن صراحتهنّ عندما يحدّثنهم عن أمورهنّ الخاصّة. كان هذا في الواقع أهم عقبة تواجه مشروعه فمعظم الأموال في سپارطة هي بيد النساء. وإصلاحاته تجرّدهنّ لا من التوافه الماديّة وحدها، وهي في عُرفهنّ مصدر سعادتهن الرئيس، بل لمعرفتهنّ التامة بأن غناهنّ هو العامل الأساس لقوتهنّ ومكانتهنّ.

فهؤلاء الذين يريدون إبقاء ما كان على ما كان انحازوا إلى ليونيداس وأخذوا يدفعونه إلى إبداء المزيد من المعارضة قائلين إن واجبه، وهو الأكبر سِنّاً والأوفر تجربة، إحباط مشاريع هذا الشاب المندفع الأهوج. وكان ليونيداس بالأصل على خلاف شديد مع أغيس كتمه ولم يشأ إظهاره خوفاً من صولة الشعب الذي كان يصبو إلى التغيير ويدعو إليه بصراحة. لكنه كان يعمل في السِرّ بكل وسيلة لإحباط المشروع وإضعاف الثقة بجدواه، وتحريض الحكام على الوقوف ضدّه. وكان لايترك مناسبة تفوته إلاّ وسفّهه بمكرٍ ودهاءٍ كقوله مثلاً: «إن أغيس يقترح توزيع أراضي الأغنياء على الفقراء ثمناً لاغتصابه الحكم المطلق. وإن الغرض من إجراءات إلغاء الديون وتوزيع الأراضي ليس تزويد سپارطة بالمزيد من المواطنين وإنما لشراء حرس خاصٍ للطاغية».

على كلّ لم يُعِر أغيس اهتماماً لكلّ هذه التخرّصات، وعمل على انتخاب ليساندر إيغوراً. ثم اهتبل أول فرصة عن طريقه لتقديم مشروعه الإصلاحي Rhetra إلى المجلس. وأهمّ مواده هي:

«تُلغى جميع الديون. كل الأراضي الزراعية توزّع بمساحات متساوية. فتلك التي تقع بين مجرى النهر قرب پللينه Pellene وبين جبل تايگيتس Taygetus حتى بلدتي ماليا Malea وسيلاسيا Sellasia تُقسم إلى أربعة آلاف وخمسمائة قطعة. أما بقية الأراضي فتقسم إلى خمسة عشر ألف قطعة. وهذه الأخيرة توزّع على سكان الريف القادرين على الخدمة العسكرية في سلك المسلّحين تسليحاً ثقيلاً. أما القطع من الصنف الأول فتوزّع على المواطنين المولودين من أبوين سپارطيّين، على أن يكون العدد شاملاً سكان الريف أو الأجانب الذين نشأوا نشأة صحيحة، أقوياء الأجسام وفي سنّ الخدمة العسكرية. ويقسم هؤلاء إلى خمس عشرة كتيبة: بعضها يتألف من أربعمائة مقاتل وبعضها من مائتين. ويكون طعامهم وتدريبهم وفق المبادئ التي رسمتها شرائع ليكورغوس».

قدّم هذا المشروع «مجلس الكبار». فجوبه بمعارضة. فبادر ليساندر إلى عقد جمعية الشعب الكبرى، وخطب فيها هو وماندروكليداس وأغيسيلاوس. فأثاروا حماسة

الجمهور. قالوا إنه لمما يورث الأسى أن توضع عظمة سپارطة موضع إهمال وزراية إرضاءً لفئة قليلة من الأغنياء الذين لايرضون بأقلّ من استعبادهم، والاستبداد في أمورهم. وعليهم أن يتذكروا النبوءات الغابرة التي كانت سبّاقةً بتحذيرهم من التعلّق بالمال، لأنه الخطر الأعظم على سپارطة، والسبب المحتمل لخرابها. فيضاف إليها تلك النبوءات التي وردت مؤخراً من پاسيفاي Pasiphae (وهو هيكل شهير، ومهبط وحي يقع في تالامي Thalamae). وعلى حدّ قول بعضهم إن پاسيفاي هي إحدى بنات أطلس التي ولدت لجوپتر ابنه أمون. ويرى آخرون أنها كساندرا بنت الملك پريام Priam الذي أدركه الأجل في هذا الموضع فسمّي پاسيفاي لأنه «كاشف» النبوءات «الجميع». ويقول فيلارخوس Phylarchus بل هي دافني Daphne بنت أميكلاس Amuclas هربت من أپوللو فمسخها شجرة غارٍ. وشرّفها الإله بنعمة التنبّؤ؛ أمرتهم بالعودة إلى ما كانوا عليه من المساواة وفق النظام الذي ابتدعه ليكورغوس لهم.

بعد أن انتهى الخطباء الثلاثة نهض أغيس وبعد كلمات قلائل قال إنه سيقوم بخير ما يسعه للإسهام في تطبيق الشريعة الجديدة التي إنما وُضعت لصالحهم. فأولاً سيوزّع فيما بينهم كل الأراضي التي ورثها - وكانت ذات مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للرعي والزراعة - وسيقدّم لبيت المال العام ستمائة تالنت من النقد المصكوك، وإنّ أمّه وجدّته وأصحابه وأقرباءه وهم أغنى اللقيديمين مستعدون للاقتداء به.

وامتلأ الناس إعجاباً بكرم الشاب. وغمرتهم فرحة عظيمة. منها أن ملكاً جديراً باسپارطة يقوم بينهم بعد ثلاثمائة من السنين المجدبة. وزاد ليونيداس مقتاً ومعارضةً لإدراكه أنه سيكون هو وأصدقاؤه مرغمين على التخلّي عن أموالهم في حين سينفرد أغيس بكلّ الفضل والمجد المتأتّي معه. فنهض وسأل أغيس أمام الجموع الحاشدة.

- ألم يكن ليكورغوس في رأيك رجلاً حكيماً محباً لبلاده؟

أجاب أغيس: «بلى». فتساءل ليونيداس بقوله:

- ومتى ألغى ليكورغوس الديون، ومتى منح الأجانب امتياز المواطنة، وهو الذي رأى أن سلامة الجمهورية لا تتحقق إلا بتطهير المدينة من الأغراب بين الفينة والفينة.

فأجاب أغيس:

- لستُ أعجب إن أظهر ليونيداس قلّة معرفة بليكورغوس وشرائعه، فقد نشأ متزوّجاً في الخارج وأصبح والداً هناك. واتخذ زوجه من البلاط الفارسي. إن ليكورغوس أذهب الديون والقروض معاً بإلغائه النقود كوسيلةٍ للتعامل. الحق يقال إنه اعترض على وجود الأغراب عن عادات البلاد وأخلاقها، لا لأنهم يُضمرون سوءاً بل

لئلا تتسرّب عدوى حبّ المال إلى أنماط معيشتهم فتلتحق بالأخلاق الرقيقة وتتقلّب في احضان الترف. فمن المعروف جيداً أنه رحّب ببقاء كل من ترپاندر Terpander وطاليس Tales وفريكيديس Phercydes وكلهم أجانب، مدركاً بأن فلسفتهم وأشعارهم تنحو منحاه الفكري. وأنت الذي تعوّدت مديح إكپرپس Ecprepes الذي قطع بفأسه وترَيْن من الأوتار التسعة في آلة طرب الموسيقي فرينيس Phrynis، أيام كان إيغوراً، وكذلك بمدحك عمل أولئك الذين احتذوا حذوه فيما بعد، فقطعوا أوتار قيثار طيموثيوس Tiomotheus، فبأيّ وجه تلومنا على رغبتنا في وضع حَدّ نهائي للترف والإسراف والفخفخة في الجمهورية ؟ أتظنّ أن اهتمام هؤلاء الرجال كان منحصراً بأوتار تلك العيدان بالذات، أم أنهم ينوون شيئاً أكبر وأهمّ من ذلك؟ إنهم يريدون أن يكبحوا في الموسيقى نفس الإغراق والتطرّف الذي يسود حياتنا الحاضرة ووضعنا الاجتماعي. فقد دبّت الفوضى فيهما وأتلفت كل انسجام وتوافق في مدينتنا.

ومنذ تلك الساعة انحاز سواد الشعب إلى أغيس، وانحاز الأغنياء إلى صفّ ليونيداس. وأخذت الدهماء تضغط على أغيس ضغطاً شديداً بأن يمضى قُدماً في أهدافه. وبعد الرجاء والإلحاف تمكن من إقناع مجلس الكبار الذي تتضمّن صلاحياته إعداد القوانين التي يؤخذ فيها رأي الشعب بالاقتراع العام. ولما رُفض المشروع بصوتٍ واحدٍ عزم ليساندر أن ينتصف لذلك من ليدانيداس. فقدّم بحكم منصبه تقريراً عنه بناه على مبدأين قديمين: الأوّل يقضي بمنع أي شخصٍ منحدر من نسل هرقل أن ينسل أولاداً من امرأة أجنبي. والثاني يعتبر من الجرائم الكبرى تركُ اللقيديمي وطنه والعيش بين الأجانب. وأوكل ليساندر بعضهم لتنظيم الاتهام بينما خرج هو وزملاؤه «المراقبة الإشارة». وتلك تقليد يمارسونه بالشكل الآتي:

يختار الإيغور في كلّ سنةٍ تاسعة ليلةً تنيرها النجوم، لا تندّ بها غيمة ولا يضيئها قمر، فيجلس الجميع معاً هادئين صامتين لا همَّ لهم إلاّ مراقبة السماء. فإن شاهدوا شهاباً يخرّ، أعلنوا فوراً أن ملكهم قد ارتكب جُرماً بحق أحد الآلهة، فيعزلونه ويمنع من ممارسة سلطاته حتى تحلّه من هذا القيد نبوءة مصدرها دلفي أو أولمپيا.

وعاد ليساندر وأكد للشعب أنه رأى شهاباً يخرّ من السماء. فطلب من ليونيداس في الوقت عينه أن يتقدم دفاعاً عن نفسه. وأحضر الشهود فشهدوا بأنه تزوّج امرأة آسيوية، أعطاها إياها أعوان الملك سلوقوس، وقد ولدت له ولدين، إلاّ أنها لم تكن تطيقه حتى أنه اضطر إلى الفرار منها. وعلى هذا الأساس عاد إلى سپارطة. ولما مات سلفه دون عقِب تولّى الحكم.

لم يكتفِ ليساندر بهذا وإنما دفع كليومبروتوس إلى المطالبة بالعرش. وكان من أعضاء الأسرة المالكة وختن ليونيداس أيضاً، وأدرك ليونيداس الخوف من سوء العقبى فهرب والتجأ إلى هيكل «منيرڤا ذات البيت النحاسي» تصحبه ابنته زوج كليومبروتس التي قررت هجر زوجها واللحاق بأبيها وهو في محنته. طُلب ليونيداس مرة أخرى فتمرّد على الدعوة فعزلوه ونصّبوا كليومبروتوس في محلّه.

بعد هذا التغيير انتهت فترة ليساندر فاعتزل منصبه. وانتُخبت دفعة جديدة من الإيغورين الذين أسرعوا فأكدوا لليونيداس سلامته. واستدعوا كُلاً من ليساندر وماندروكليداس ليبرّرا عملهما في إلغاء الديون ومباشرتهما تقسيماً جديداً للأراضي. وشعرا بالخطر ماثلاً فالتجآ إلى الملكين، وبيّنا لهما أن مصلحتهما وسلامتهما تتوقفان على اتفاقهما في إصدار القرارات، فتلك هي السبيل الوحيدة لتحدّي الإيغورين. لأن سلطة هؤلاء في الواقع تبدأ عندما يدبّ الخلاف بين الملكين فيصدران قرارات منفردة غير متوافقة. فإذ ذاك يباشر الإيغور صلاحياتهم بترجيح كفّة من يرونه أصلح الرأيين، أما إذا اتفق رأي الملكين في قضية فلا أحد يجرؤ على مقاومة سلطتهما. فالمجلس الذي تتطلّب وظيفته منه أن يقف حكماً بين الرأيين المختلفين لا يحق له التدخل عند صدور رأي واحدٍ. بعد هذا خرج الملكان مع أصدقائهما إلى الساحة العامة وانتزعا الإيغور من مقاعدهم، ونصّبا أشخاصاً جدداً في محلّهم. وكان من بينهم أغيسيلاوس. ثم سلّحوا سريّة من الشبان، وأطلقوا عدداً كبيراً من السجناء. ودبّ الخوف في نفوس أشياع الحزب المعارض وقلقوا لمصيرهم. ولكن لم تُسفك قطرة دم واحدة. بالعكس، عندما أدرك أغيس أن أغيسيلاوس أمر ثلّةً من الجند بنصب كمين لليونيداس وقتله أثناء هروبه إلى تيغيا أرسل تواً بعض أتباعه لحمايته وحراسته حتى وصوله المدينة بسلام. إلى هنا سار كل شيء على ما يرام ولم يجرؤ أحد على المعارضة. لكن هذه البداية الطيبة نُسفت نسفاً لضعف نفسٍ بدر من شخصٍ واحدٍ فانهدم المشروع وقضي على أنبل وأصدق الغايات في سپارطة بسبب حبّ المال. قلنا إن أغيسيلاوس كان غارقاً في الدين، إلاّ أنه كان يملك أكبر وافضل العقار. ففي الوقت الذي انحاز متحمّساً مسروراً إلى محبّذي المشروع الذي يضمن له الخلاص من ديونه كره التخلّي عن أرضه. ولذلك عمل على إقناع أغيس بتأجيل الشقّ الثاني من القانون، إذ لو نُفّذ الشقّان معاً فإن التغيير العظيم المفاجئ قد تنجم عنه ثورة لا تُبقي ولا تذر. لكن لو بدئ بإلغاء الديون أولاً فسيكون من السهولة بمكان حمل الأغنياء على التخلّي عن أراضيهم. ونجح أيضاً في حمل ليساندر على اعتناق فكرته، وخدعه بمكره كما خدع أغيس،

فأمر كل دائن بإحضار سنداته ووثائقه، التي تدعى كلاريا Claria عند اللقيديمين، إلى الساحة العامة، وكدّست كلّها وأُشعلت النار فيها. ولم يكن بالمستغرب أن تجد الأغنياء المرابين يرمقون المشهد بقلوب أثقلها الألم. على أن أغيسيلاوس قال هازئاً بأن عينيه لم تقعا على لهيب أنقى وأسطع من هذا اللهيب.

وزاد الشعب لجاجةً وألحف في إجراء توزيع فوري للأراضي، فأمر الملكان بإجراء ذلك، إلاّ أن أغيسيلاوس أخذ يتعلل بهذه العقبة أو تلك وأخّر تنفيذ القانون إلى أن نجم ما دعا أغيس إلى الخروج للحرب. فقد استنجد الأخائيون باسپارطة، بمقتضى معاهدة التحالف الدفاعية المعقودة بينهما، لتوقّعهم المستمر محاولة من الإيتوليين لدخول الپيليپونيسيس من أراضي ميغارا. وكانوا قد ارسلوا جنرالهم أراتوس لتعبئة القوات والحيلولة دون الهجوم. وكتب أراتوس إلى إيغور سپارطة فأصدر هؤلاء أمراً يقضي بإسراع أغيس لمعاونته بالاحتياطي اللقيديمي. وسُرّ أغيس سروراً لا مزيد عليه للإقدام والحماسة اللذين أبداهما أفراد حملته. كان معظمهم شباباً فقراء، تخلّصوا من ديونهم وتحرّروا وكانوا يأملون أن يحصلوا جميعاً على قطع أراضٍ عند عودتهم. ولذلك ساروا خلف ملكهم بشوق وحمية. وكان أهالي المدن التي يمرّون فيها لا يتمالكون أنفسهم من الإعجاب بسيرهم من أول نهاية الپيليپونيس إلى آخر نهاية، دون أن يختلّ نظامهم، أو تبدر منهم ضوضاء أو حتى صوت إن جاز لنا القول. فتذكر الإغريق بهم الجيش اللاقوني العتيد من الأيام الغابرة الذي كان يُضرب بتواضعه وبساطته المثل تحت إمرة قادته العظام: أغيسيلاوس، أو ليساندر، أو ليونيداس. فلا غرو أن كان أغيس موضع إعجاب وتقدير، فهو قائد هذا الجيش وربما أصغر رجل فيه، يأخذ نفسه بالحزم والتقشف ولا يُحجم عن أي عملٍ، ولا يفترق بأية ميزة من الغنى أو العظمة - إن كان في سلاحه أو ثيابه أو تصرّفاته - عن أفقر جندي في جيشه. إلاّ أن الأغنياء راحوا ينظرون إلى هذا التحوّل الجديد نظرة قلق ومقتٍ، ولم يستبعدوا من ذهنهم فكرة انتشار هذا النظام الجديد، الذي سيحدث عند دخوله بلادهم تغييراً عظيماً في أحوالهم.

انضمّ جيش أغيس إلى قوات أراتوس في مدينة كورنث. ودار نقاش حول الخطة، هل يتم الاشتباك بالعدوّ الآن، أم يفضّل التريث؟ وهنا أيضاً أبدى أغيس جراءة وحصافة عظيمين، خاليين من الضرور أو التهور، إذ قال إنه يفضّل أن تشتبك قواتهما مع العدو، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لمنعه من اجتياز مداخل الپيلوپونيسس، إلاّ أنه سيطيع أوامر أراتوس لا لكونه القائد الأكبر سِناً والأكثر تجربةً، بل لأنه جنرال الأخائيين الذين لا

يملك هو حق قيادتهم، لأنه جاء لنجدتهم فحسب. أقول هذا ولا أُغفل رواية باتون Baton السينوبي الذي زعم أن أراتوس كان يحبّذ القتال، لكن أغيس عارض في الأمر، مؤكداً أن ما أوردته هو الصحيح. ورواية باتون لقراره إذ قال إنه اتخذ القرار لحلول موسم الحصاد. فوجد الأفضل أن يدع العدوّ يمرّ من أن يجازف بكلّ شيء في معركةٍ واحدة. فردّ قوّات الحلف شاكراً. وعاد أغيس بمجد ليس بالقليل فوجد الفوضى عامة، والثورة المعاكسة الجديدة وشيكة، بسبب سوء إدارة أغيسيلاوس. فقد تحرر هذا من الخوف الذي كان يكبح جماحه إلى حدٍّ ما بعد تخلّصه من ديونه ولم يعد يتعفّف عن ممارسة أي نوع من الضغط والإرهاب إن وجد فيه مغنماً. ومما أقدم عليه أنه جبى ضريبة الشهر الثالث عشر في حين أن دورة العام كانت دورة بسيطة لا تستدعي زيادة الشهر الكبيس. لهذا ولغيره من الأسباب، ولخوفه ممن لحقه أذى منه، ولمعرفته بمدى كره الشعب له، رأى ألاّ معدى له من إحاطة نفسه بحرسٍ شاكّي السلاح يلازمه في دار الحكم دوماً. وطغى وبغى وتجبّر حتى بلغ الحدّ الذي تطاول معه على الملكين فجاهر بتحقير أولهما. أما إذا أظهر قليلاً من احترام للآخر فهو يعود إلى صلة القرابة التي تربطه به لا إلى الاحترام والخضوع الواجبين لسلطة الملك. ثم إنه أعلن عن استمراره في إشغال منصب الإيغور عاماً آخر. فزاد أعداؤه قلقاً لذلك، ولم يضيّعوا وقتاً في حبك مؤامرةٍ تستهدف القضاء عليه، واستقدموا ليونيداس من تيغيا علناً وأعادوا نصبه ملكاً برضا الشعب نفسه الذي كان ساخطاً لأنه انخدع بوعد توزيع الأراضي. وكاد أغيسيلاوس يلقى حتفه في تلك الفتنة لولا أن خفّ إليه ابنه هيبوميدون Hippomedon الذي ينزله الشعب منزلة حُبّ وتقدير فأنقذه من أيديهم ورحّله سرّاً. وهرب الملكان أيضاً، ولجأ أغيس إلى هيكل «منيرفا ذات البيت النحاسي»، واستجار كليومبروتوس بهيكل نبتون. وكان ليونيداس أشد حنقاً على ختنه هذا منه على أغيس، فترك الأخير لشأنه وقصد حَرَم كليومبروتوس بثلّة من الجنود وأخذ يعنّفه بشدة وغضبٍ على ما قدّمت يداه، وهو زوج بنته، من التآمر عليه مع أعدائه واغتصاب عرشه وإرغامه على ترك بلاده.

كانت خيلونيس Chilonis زوج كليومبروتوس قد آثرت العيش مع أبيها في منفاه بعد أن اغتصب زوجها الملك منه، فتركت الزوج وأوقفت نفسها على العناية بأبيها والتسرية عنه في محنته. وفي أثناء فترة لجوئه إلى المعبد في سبارطة بقيت معه في حمى الآلهة، وهربت معه نادبة سوء حظّه، ساخطة على كليومبروتوس. فلمّا قلب الحظّ لزوجها ظهر مجنّه انقلبت هي أيضاً على أبيها ولحقت بزوجها. فكانت تُشاهَد

جالسة معه في حَرَم المعبد وقد لفّت ذراعيها حول عنقه وطفلاها إلى جانبها فامتلأ الناس إعجاباً بحنان هذه الشابة ووفائها. وقالت لأبيها مشيرةً إلى شعرها وثوبها المهملين:

- إني لم أبلغ إلى هذه الحال التي تراني فيها يا أبت بسبب ما يعاني كليومبروتوس من شقاء. فحزني وحدادي أصبحا عادةً فيّ منذ أمدٍ بعيد. لقد عانيتهما لأسرّي عنك في منفاك. والآن وقد عدت إلى بلادك والى ملكك، أكتب عليّ أن أبقى شقيّة حزينة؟ لعلّك تريدني أن أرتدي الثياب الملكية وأسعد معك بعد أن تقتل بين ذراعيّ الرجل الذي قبلته لي زوجاً. فإما أن يهدأ غضبك على كليومبروتوس بدموعي ودموع طفلي، وإما أن يقاسي عقاباً يفوق ذلك العقاب الذي فرضته على أخطائه. سيراني - تلك التي أخلص لها الودّ - أموت أمامه الآن. لأي غاية أعيش، وكيف سأظهر بين السپارطيات؟ كيف سيستقبّلون المرأة التي عجزت عن إلانة قلب أبيها أو زوجها؟ يبدو أني وُلِدت لأشارك. في سوء حظين، حظ الزوجة وحظّ البنت وهما أقرب الناس إليّ. وأمّا عن كليومبروتوس فقد أبديت عجزي التام عن الاعتذار النبيل بسبب غلطته، عندما تركته ولحقتُ بك. إلاّ أنك أنت تعطيه الآن أفضل عذر لزلّته، حينما يرى العالم أنك تقتل زوج ابنتك بسبب مملكة ولا تراعي لها حُرمة».

أنهت خيلونيس كلامها الحزين وأسندت وجهها إلى رأس زوجها وراحت تقلّب عينيها الدامعتين المتقرّحتين في الناس الشاخصين أمامها. فمسّت عاطفة البنوّة شغاف قلب ليونيداس وانسحب برهةً للتشاور مع أصدقائه، ثم عاد بعدها وطلب من كليومبروتوس ترك الحَرَم ومغادرة البلاد، على أن تبقى خيلونيس إلى جانبه إذ ليس من العدل أن تترك أباً بلغ من حبّه لها أن قبل شفاعتها في زوجها وأبقى على حياته. لكن ما قاله لم يقنعها. فنهضت وحملت أحد طفليها وأعطت الثاني زوجها ثم تلت صلاةً على مذبح الآلهة. وخرجت في أثر أبيها. مجمل القول: لو لم يَعِم الطموح عيني كليومبروتس لاختار بدون شكّ أن ينفى مع هذه المرأة الوفيّة على الملك بدونها.

بهذا تم خلع كليومبروتوس وإزاحته، وبعده باشر ليونيداس بعزل جماعة الإيفور واختيار آخرين. ثم بدأ يفكر في القضاء على أغيس، فحاول أولاً إقناعه بوسائل شريفة بأن يترك الحَرَم المقدّس ويشاركه في الملك، قائلاً إن الشعب سريع الصفح عن زلاّت الشباب الطامح إلى المجد، المخدوع بأحابيل أغيسيلاوس، إلاّ أنه وجد أغيس شديد الارتياب، لا تنجح معه أية محاولة في إخراجه من «حَرَمَه» فنبذ هذه الفكرة. على أن ما تعذّر تحقيقه بشعبذة عدوٍّ تمّ إنجازه بخيانة صديق. كان أمفاريس Amphares

وداموخاريس Damochares وأركيسيلاوس Arcesilaus يختلفون إلى زيارة أغيس، وكان عظيم الثقة بإخلاصهم حتى أنه بعد فترة من الزمن وافق على مصاحبتهم إلى الحمّامات القريبة من الهيكل فيرافقونه عند عودته. هؤلاء الثلاثة كانوا من أعزّ أصدقائه وكان أولهم أمفاريس قد استعار من أغيسيتراتا أمّ أغيس عدداً كبيراً من الصحاف والأواني الثمينة وغيرها من أدوات المنزل وكان يأمل أن يتملّكها إن أفلح في القضاء على الأمّ وإلحاق الأسرة كلها بها. فهو والحالة هذا أكثر الثلاثة تقبّلاً لإغراء ليونيداس وأسرعهم لخدمة أغراضه. وبوصفه واحداً من الإيغور فقد بذل مجهودات كثيرة مع زملائه لينقلبوا على أغيس. وقد وجد الثلاثة أن أغيس لا يترك حَرَمه، إلاّ عند ذهابه إلى الحمّام. فقرروا أن يقبضوا عليه خلال هذه الفسحة من الزمن. وفي يوم ما التقوه وهو عائد، فحيّوه كما كانوا يفعلون عادة، وتبادلوا الأحاديث اللطيفة وهم سائرون وتراشقوا بالنكات والفكاهات كما تفعل ثلّة من الشبّان الخِلاّن، حتى بلغ السير بهم منعطف الطريق المؤدّية إلى السجن. فما كان من أمفاريس إلاّ أن وضع يده على أغيس وقال مستخدماً صلاحية الإيغور:

- عليك أن تتبعني يا أغيس، لتمثل أمام الإيغور الآخرين وتجيب عمّا قدّمت يداك من مخالفات.

في الوقت نفسه شدّ داموخاريس طرف معطف أغيس حول عنقه وجرّه به وكان عملاقاً شديد القوة، بينما سعى الآخران وراءهما يحتثان أغيس. ولم يكن أحد من أصدقاء أغيس قريباً بله لم يكن ثمّ إنسان. فسهُل عليهم إيداعه السجن. وكان ليونيداس قد حضر قبلهم ومعه سريّة من الجند وزّعت على كل الطرق والأزقّة القريبة. وجاء جماعة الإيغور ومعهم أكبر عدد من «الكبار» الذين يثقون بهم فقد رغبوا في أن تبدو على مؤامرتهم مسحة من العدالة. وطلبوا من أغيس تقديم حساب عن أعماله فابتسم لنفاقهم هذا وريائهم ولم يجب بحرف. فقال له أمفاريس:

- من الأجدى بك أن تبكي فقد آن اوان القصاص على غرورك واعتدادك بنفسك.

وانبرى إيغور آخر محاولاً أن يبدو أكثر رأفةً وعرض عليه سؤال مَن يريد أن يلتمس له عذراً. قال:

- لعلّك أُرغمت من قبل أغيسيلاوس وليساندر؟

فأجاب أغيس أنه لم يقع تأثير أحدٍ. ولم يكن قصده مما عمل غير الاقتداء بليكورغوس، وممارسة الحكم الصالح بتطبيق شرائعه. فسأله الإيغور:

- ألست نادماً على الأقل ولما بدر منك من نزقٍ وخَرَق؟ فأجاب أغيس:

- لست أستسيغ الندم قطّ على قصدٍ مجيد نبيل عادل كمقصدي، مع أني متأكد بأن الموت في انتظاري.

فأصدروا عليه حكمهم بالموت، وأمروا الحرس باقتياده إلى الديخاس Dechas وهو موضع في السجن يتم فيه تنفيذ حكم الموت شنقاً بالمجرمين. وعندما امتنع الضباط من وضع أيديهم عليه وابى الجنود المرتزقة ذلك بدورهم، معتقدين أن التطاول على ملك هو عمل دنيء يخالف المبادئ الشرعية، أخذ ديموخاريس يتوعّد ويشتم. ثم دفع أغيس بيده إلى الغرفة.

في أثناء ذلك عَمّ المدينة نبأ اعتقال الملك. فتجمّعت فصائل من المواطنين وهرعوا إلى السجن وبأيديهم المشاعل والمصابيح ووقفوا عند الأبواب تتوسّطهم أمّ أغيس وجدّته وانطلقت الأصوات عالية تطالب بإخراج الملك اليهم، وبالسماح له بالدفاع عن نفسه أمام الشعب في محاكمة علنية. إلاّ أن هذه الضجة عجّلت بموته بدلاً من أن تحول دونه. فقد تملّك الخوف خصومه من تفاقم الأمر، ومن احتمال انتزاعه من أيديهم أثناء الليل. والتفت أغيس الذي كان على شفا الموت فرأى أحد الضباط يبكي حظّه بكاءً مُرّاً فقال له:

- لا تبكني أيها الخِلّ أنا الذي سأموت بريئاً، بفعلة نكراء أقدم عليها شرّ الناس. فحالتي هي أفضل من حالتهم بكثير.

ثم أسلم عنقه للمشنقه دون أن يبدو عليه أثر للخوف والارتباك. وبعد أن أسلم الروح، خرج أمفاريس من باب السجن فوجد أغيستراتا فأقبلت عليه، موقنة بأنه ما زال ذلك الصديق الصدوق لابنها، وخرّت على قدميه ضارعةً، فأنهضها برفق وأكد لها ألاّ داعي لقلقها على ابنها، وإن شاءت فلا مانع ثمّ يحول دون دخولها لرؤيته. فطلبت ذلك لأمّها أيضاً فأجاب بألاّ مانع أيضاً. وما إن دخلتا حتى أمر بإغلاق باب السجن. وسبقت إليه أرخيداميا وكانت عجوزاً دردبيساً، عاشت حياتها كلها متمتّعة بالاحترام ورفقه المقام بين قومها. وما إن قدّر أمفاريس أنها مضت، حتى أشار إلى أغيستراتا بالدخول إن شاءت. فطالعها جسد ابنها مسجّى على البلاط، وأمّها تتدلّى مشنوقة. فكان أول ما صنعت أنها مدّت يدها لمساعدة المنفذين على انزال جثة أمّها، ثم غطت وجهها وسحبتها إلى جانب جثة ابنها قائلة وهي تعانقه وتلثم وجنتيه:

- آه يا بنيّ. إن شفقتك العظيمة وطيبة قلبك الفائقة هي التي جلبت لنا ولك الدمار.

كان أمفاريس واقفاً يرقبها من خلف الباب فانفجر غاضباً وصاح:

- ما دمت تقرّين أعمال ابنك فمن الأجدر أن تقاسيمه مصيره. فنهضت ومدّت عنقها وهي تقول:
- آمل أن يكون هذا الفداء لصالح سپارطة.

وعُرضت الجثث الثلاث للملأ. وتبدّت الحقائق وهُتِك السِرّ، ولم يكن ثمّ خوف على درجة من القوة بحيث يمنع الناس من الإعراب عن فرط تقزّزهم واشمئزازهم والتصريح بكرههم لليونيداس وأمفاريس محور المؤامرة. كان عملاً وحشياً لم تشهد سپارطة مثله منذ أن سكن الدوريون Dorians أرض الپيلپونيس. وقال السپارطيون إن الأعداء أنفسهم يتحرّجون من سفك دم ملك لقيديمي، فينكصوا عنه ويتحاشونه في أثناء المعارك، يدفعهم إلى ذلك شعور الاحترام والتوقير. ونحن في الواقع نجد أنه لم يقتل من ملوكهم في سوح المعارك الكثيرة التي خاضتها سپارطة مع سواهم من الإغريق منذ تأريخها الأول حتى عصر فيليب المقدوني غير كليومبروتوس الآخر الذي قُتل بطعنة رمح في موقعة ليوكترا. وإني لا أجهل تأكيد المسينيين بأن ثيومپوپوس Theompopus قُتل بيد قائدهم أرسطومينوس Aristomenes إلاّ أن اللقيديميين ينكرون ذلك قائلين: بل جُرح فحسب.

لكن تلك هي مشيئة الأقدار. ومما لا ريب فيه أن اغيس هو أول ملك يُنفّذ فيه الإيغور حكم الموت في لقيديمون لمحاولته تطبيق شريعة نبيلة بذاتها قمينة بمواطنيه. قُتل في زمنٍ كانت أخطاء البشر تقابل عادة بالسماحة والغفران السريع. فإن كان أغيس مخطئاً حقاً فإن لوم خصومه له كان يجب أن يكون أقل من لوم أصحابه؛ بسبب ذلك الطبع السمح النبيل والشعور المرهف الذي دفعه إلى إنقاذ حياة قاتله ليونيداس، وبسبب إيمانه أيضاً بطيبة الناس الآخرين.



منيرفا

كليومينس

CLEOMENES

٢٣٥–٢٢٢ ق.م

تلك هي حكاية سقوط أغيس.

كان أخوه أرخيداموس أسرع من ليونيداس فأنقذ حياته بالفرار في اللحظة المناسبة. ألاّ أنه ترك وراءه أغياتيس زوجه مع طفلها. فأجبرها ليونيداس على ترك دارها وأرغمها على الزواج من ابنه كليومينس وكان في ذلك الوقت أصغر من أن يصلح للزواج، إذ كان لا يريد أن يحظى بها آخر، لأنها ورثت أموالاً وضياعاً واسعة من أبيها غيليپوس Gplipus. وكانت أجمل نساء بلاد الإغريق وأكثرهن جاذبية وفتوةً وأعلاهن خُلقاً. لذلك قالوا إنها بذلت جهداً كبيراً لتفادي هذا الزواج الإجباري. فأبغضت ليونيداس بعد إتمام العقد، وأظهرت للزوج الجديد الفتيّ لطفاً وأمانةً. وما إن عرفها حتى علِق بها وهام بها حباً. وأشربته نفس العطف الدائم الذي كانت تكنّه لأغيس فأخذ يكثر من السؤال والاستفسار عمّا وقع له، ويصغي بانتباه شديد إلى مأساته وغاياته وأهدافه. وشبّ الفتى بروح سمحاء وخُلق رضيّ. وبدا كأغيس في اعتداله وصدّه عن المتع. إلاّ أنه لم يكن بمثل نبله وشكّه وحذره. كان ثمّ شيء من الحرارة والاندفاع ينخسانه نخساً دائماً، وكان ثمّ عنف ونفاد صبرٍ في شوقه إلى كل ما يراه عادلاً وحسناً. ومن رأيه أن إخلاص الرجال وولاءهم بملء اختيارهم هو خير ضابطٍ لهم. لكنه كان يرى أن سحق مقاومتهم وإرغامهم على سلوك السبيل الفضلى هما من الشجاعة على جانب كبير ومما يستحق التقدير.

طباعه هذه جعلته كارهاً لنظام الحكم في المدينة. فالمواطنون سادرون في لهوهم وعبثهم الخامل المكسال. والملك في شغلٍ شاغل عن تبعات الحكم، تاركاً للأمور حبلها على غاربها، متمنّياً ألاّ يُقلق راحته أحد بواجب، أو يشغله عن ملذاته واستمتاعه بغناء عملٌ جِدّي. وتطرّق الإهمال إلى المصالح العامة وراح كل مواطن يجري وراء منافعه الخاصّة. وبعد قتل أغيس بات التلفّظ بكلمات «التمارين، وتدريب الشبان، والضبط» وما شاكل من الخطورة بمكان. وأما الحديث عن التقشف وترويض النفس

على الاعتدال، وعن المساواة والتحمّل، فكان أشبه بارتكابك جريمة الخيانة العظمى ضدّ الدولة.

ولقد قيل إن كليومينس تلقّى الفلسفة في صباه من [سفيروس Sphærus البوريستنيني Borystenite] الذي اجتاز البحر إلى سپارطة وقضى ثمّ ردحاً من الزمن معانياً المشقّة في تعليم الفتى وتهذيبه. وهو أحد أوائل تلاميذ زينو الكيتي Citiean. والأرجح أنه أعجب برجولة كليومينس فألهب طموحه. ويُروى عن ليونيداس الأول أنه سئل عن رأيه في شعر تيريتوس Tyrtaeus فأجاب:

- إنه يصلح لشحذ شجاعة الشبان.

ذلك لأن أشعاره تملأ النفوس بحرارة النار الإلهية فتراهم يندفعون غير مبالين بأي خطر. كذلك الفلسفة الرواقية فهي مهيّج شديد للطبع الناري القوي. فإذا مازجها الهدوء والرقّة اصابت غاية النجاح في هداية المرء إلى الصالح والطيّب من الأعمال.

خلف كليومينس أباه ليونيداس بعد وفاته. فوجد الفجور والتحلل مستوليين على نفوس المواطنين عموماً: فالأغنياء لا يكترثون بالمصلحة العامة، وهم عنها في شغل بمصالحهم الخاصة ولذاذاتهم. والفقراء قد ركبهم الشقاء، قابعون في بيوتهم وقد فقدوا الروح القتالية وعافوا التمارين والأنظمة السپارطية عماد حياتهم الاجتماعية. والملِك لا يملك من المُلك غير اسمه. والإيغور قد حصروا السلطة كلها في أيديهم. فعزم أن يغيّر هذه الحال تغييراً تاماً. واختلى بصديقه الخليل كزيناريس Xenares. (عاطفة صداقة يعبّر عنها السپارطيون بكلمة مُلهِم، أو الحَالّ فيه) وكاشفه بعزمه وأخذ يستوضح منه عن أغيس. ويسأل أيّ نوع هو بين الملوك؟ وبأي الوسائل توسّل؟ وبماذا استعان للبدء في تنفيذ أهدافه ومراميه؟ في أول الأمر بادر كزيناريس إلى تلبية طلب صديقه بسرورٍ، وقصّ عليه قصّة أغيس بتفاصيلها وعواقبها وظروفها. ولما وجد كليومينس شديد التأثر بما يسمع، مرهفاً سمعه إلى حديثه عن نظام الحكم الجديد الذي ابتدعه أغيس، مُلِحّاً عليه بإعادة الكلام؛ أخذ يؤنّبه تأنيباً شديداً ووصمه بالجنون. ثمّ ازورّ عنه واجتواه، لكنه لم يخبر أحداً بسبب الجفوة وكان يقول فحسب:

- سلوا كليومينس فهو أعرف بالسبب.

واعتقد كليومينس أن الجميع على شاكلة كزيناريس في صدودهم عن أهدافه، فسكت ولم يبح بسرّه لأحد. وإنما بدأ ينظم خططه ويتدارس مشاريعه في نفسه. وقد استقّر رأيه على أن الانقلاب الذي اعتزمه هو أسهل تنفيذاً عندما تكون المدينة في حالة حربٍ منه عندما تكون في حالة سلم. فعمل على استحداث خلافٍ بين الدول

الإغريقية وبين الأخائيين الذين زوّدوا تلك الدول بالمبرّرات الكافية للشكوى. كان أراتوس وهو أعظم الرجال قوة وشوكة بين كل الأخائيين يريد أن يوحّد كل بلاد البلوبونيسيس. وقد نذر لهذا الغرض حياته السياسية الطويلة، والقيادات العديدة التي تولاّها. إذ وجد أن الوحدة السياسية هي أنجع وسيلة للمّ شعثهم وجعلهم قوة يُعتدّ بها أمام أعدائهم. وقد اتفقت كلمتهم تقريباً على تحقيق تلك الوحدة خلا اللقيديميين والإليائيين والقسم الذي يعتمد المصالح السپارطية من الأركاديين فهؤلاء لم يتفقوا. وما إن قضى ليونيداس نحبه، حتى شرع أراتوس بمهاجمة الأركاديين وراح يعيث نهباً وسلباً في بلادهم، ولاسيما الجزء الذي يتاخم أخائيا. كان يحاول بهذا جسّ نبض السپارطيين مستهيناً بكليومينس لكونه شاباً يافعاً ليس له حظّ من التجارب لا في السياسة ولا في الحرب.

أرسل الإيغور كليومينس لمفاجأة الأثينيين قرب بلبينا Balbina وهو شِعبٌ جبلي يشرف على مداخل لاقونيا وكانت ملكيته آنذاك موضع نزاع بينهم وبين الميغالوپوليتيين فاحتله كليومينس وأقام عليه التحكيمات. فلم يبدُ من أراتوس ما يدلّ على استيائه لكنّه زحف ليلاً لمباغتة تيغيا وأرخومينوس Orchomenus إلاّ أن خطته هذه أصيبت بالإخفاق لجبنٍ وإحجام ساور أولئك الذين تفاهم معهم على تسليم المدينتين له غدراً، وانسحب معتقداً أن عمليته هذه مرّت دون أن يكشفها أحدٌ إلاّ أن كليومينس كتب إليه رسالة يسخر فيها منه متسائلاً إلى أين يريد السُّرى ليلاً؟ وطالباً أن يعلمه بوصفه صديقاً له! فأجاب أراتوس أنه عزم أن يتوجّه إليه ويقاتله بعد أن سمع عن نيّته في تحكيم ممر بلبينا. فردّ كليومينس بقوله أن لا اعتراض له على ذلك لكنه يرجو منه الإجابة - إن سمح له بالسؤال - لماذا كان يحمل معه المشاعل والسلالم؟

فضحك أراتوس للنكتة وسأل عن الشاب أيّ نوع من الشباب هو؟ فأجاب داموقراطس Damocrates وهو سپارطي منفيّ:

- إن كنت قد اعتزمت شيئاً ضد اللقيديميين فأسرع به، قبل أن يستنسر البُغاث وتطول مخالبه.

بعد هذا مباشرة، عسكر كليومينس في أركاديا بقليل من الخيّالة وثلاثمائة من الرجالة. وهناك تسلّم من الإيغور أمراً بالعودة خشية أن يشتبك في قتالٍ. وفي أثناء رجوعه استولى أراتوس على كافياي Caphyae. فأمروه بالعودة من حيث أتى. وفي طريقه استولى على ميثيديوم Methydium واجتاح بلاد الأرگيف فانبرى له الأخائيون بعشرين ألفاً من الرجالة وألفٍ من الخيّالة يقودهم أرسطوماخوس Aristomachus

فالتقاهم كليومينس في پاللانتيوم Pallantium وأخذ يتعرّض لهم. وأوقعت جسارته الخوف في قلب أراتوس فمنع جنراله من الاشتباك معه وأشار عليه بالتقهقر متعرّضاً لوابل من تقريع الأخائيين وشماتة السپارطيين الذين لم تزد قوّاتهم عن خمسة الآف. وشدّد هذا النجاح من عزيمة كليومينس، وراح يتكلم بين مواطنيه بجرأة مذكراً إياهم بمقولةٍ لأحد الأوّلين وعقّب عليها: «من العبث الآن أن لا يسأل السپارطيون كم كان عدد أعدائهم بل أين هم؟». ثم سار بعد هذا لنجدة الإليائيين الذين كانوا يتعرّضون لهجمات الأخائيين، فانقضّ عليهم وهم يتراجعون بالقرب من ليقيوم Lycaeum وأوقع الهزيمة الشنعاء بكامل جيشهم وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، وخلّف كثيراً من قتلاهم في ميدان القتال، حتى انتشر بين الإغريق أن أراتوس بين القتلى. لكن أراتوس استثمر الشائعة على خير وجه فزحف بعد الهزيمة مباشرة إلى مانيتنيا واستولى عليها بسرعة خاطفة قبل أن يشعر أحد بما حصل. ووضع فيها حامية. فانحطت معنويات اللقيديميين كثيراً بهذا الخذلان. وعارضوا قرار كليومينس بمواصلة الحرب. فلم يكن منه إلاّ أن استدعى أرخيداموس شقيق أغيس من مسينيه Messene ليتبوّأ العرش معه باعتباره من أعضاء الأسرة المالكة الثانية، وقصدُه من هذا إضعاف سلطة الإيغور بملء الشاغر في العرش وإكمال سلطة الملك. فاستولى الخوف على أولئك الذين شاركوا في القضاء على أغيس، لئلا يطلب منهم تقديم الحساب على فِعلتهم بعد قدوم أرخيداموس. وخرجوا بصورة مكتومة لاستقباله عند دخوله المدينة ورافقوه مع المرافقين إلى داره، وهناك قتلوه. ولم يتأكد - على رأي فيلارخوس - أن كليومينس كان ضدّ هذه الفِعلة، أم أنه تركه سائباً بين أيديهم، أم أن صحبه أقنعوه بإطلاق يدهم فيه، وعلى اية حال فأعظم الذنب يقع عليهم لأنهم أرغموه على الموافقة.

وبقي مصرّاً على إجراء تغيير في النظام السياسي، وعمد إلى رشوة الإيغور ليرسلوه على رأس حملة عسكرية. كما فاز بودّ الكثيرين بمساعي أمه كراتيسيكليا Cratesiclea التي لم تبخل بجهد في سبيل تحقيق مطامح ابنها. ومع أنها كانت عزوفاً عن الزواج، ففي سبيله قبِلت الزواج بأحد أكبر شخصيات المدينة غنى ونفوذاً.

وخرج كليومينس يقود جيشاً سپارطياً فاستولى على ليوكترا وهو موضع من بلاد ميغالوپوليس. فأسرع الأخائيون لصدّه بقوات كبيرة تحت إمرة أراتوس فاشتبك الجيشان تحت أسوار المدينة نفسها، فاندحر قسم من جيش كليومينس. وأمر أراتوس الأخائيين بأن يقفوا عند مجرى النهر العميق ولايعبروه وبذلك تتوقف المطاردة. إلاّ أن هذه الأوامر أغاظت ليدياداس Lydiadas الميغالوپوليتي، قائد الخيّالة، فعصِيَها وحثّ

خيالته فعبرت النهر معقّبة العدوّ المنهزم، ودخلت أرضاً يملأها الكرم والسواقي والأخاديد فدبّت الفوضى في صفوفها واضطر إلى التقهقر دون انتظام. وكان كليومينس يتابع الموقف فوجده قد انقلب لصالحه وأصدر أمره إلى التارنتيين والكريتيين بالكرّة عليهم فهزموهم بعد دفاع مجيد وقُتل قائدهم. فارتفعت معنويات اللقيديميين واشتدت عزائمهم وانقضّوا على الأخائيين مطلقين صرخة عظيمة فهزموا الجيش بكامله. وكان عدد القتلى كبيراً ما عدا جثة القائد ليدياداس فقد أمر بإحضارها ولفّها بثوب أرجواني وتوّج هامتها وأرسلها مع حرس خاص حتى أبواب ميغالوپوليس.

تلك هي نهاية ليدياداس الذي تنازل عن سلطات الطاغية بملء اختياره وأعاد للمواطنين حرياتهم وضمّ مدينته إلى وحدة الحلف الأخائي.

تاه كليومينس عُجباً بنفسه لنجاحه هذا، ومال إلى الظن بأنه سيصبح أشدّ خصوم الأخائيين خطراً وبأساً لو اجتمعت السلطة كلها في يده. فمال إلى زوج أمه ماغستونيس وأقنعه بأن مصلحة الدولة تستوجب تصفية سلطات الإيغور، وجمع الأموال الخاصّة كلها في بيت مال مشترك عام. وبذلك تعود سپارطة إلى سابق عهدها من المنعة وتعمّها المساواة وتتبوّأ مجدداً مكانَتها الأولى في قيادة بلاد الإغريق كلها. فراقت الفكرة لماغستونيس وحصل على تأييد اثنين أو ثلاثة من صحبه.

في حدود تلك الأيام كان أحد الإيغور نائماً في هيكل پاسيفلي فرأى حلماً غريباً جداً. خيُل له أنه شاهد أربع كراس تُرفع من الموضع المخصّص لجلوس الإيغور عندما يباشرون أقضيتهم، وأن شخصاً واحداً جلس في محلّهم. وفيما هو متعجّب سمع صوتاً من داخل الهيكل يقول:

- هذا هو الحلّ الأفضل لسپارطة.

وقصّ حلمه على كليومينس فاضطرب في مبدأ الأمر وخشي أن الإيغور يستخدم قصّته هذه طُعماً لاستدراجه ومعرفة نواياه بعد أن ساوره الشكّ فيها. لكنه ما لبث أن تأكد أن محدّثه سليم النية وأنه لم يجانب الحقيقة فيما قاله فاشتدت عزماته ثانية. وخرج للحرب مصحوباً بمن اعتقد أنهم أشدّ المعارضين له. فاستولى على هيريا Heræa وألسيا Alsæa وهما مدينتان تنتميان للعصبة الأخائية. وزوّد أورخومينوس المعسكر أمام مانتينيا بالأرزاق. وانطلق في مسيرات طويلات صعداً ونزولاً حتى ألقى الرعب في قلوب معارضيه اللقيديميين الذين أخرجهم معه، وطلبوا منه أن يتركهم في أركاديا ففعل. أما هو فكرّ راجعاً إلى سپارطة على رأس المرتزقة من جيشه وأنهى بسرّه

لأولئك الذين تأكد من صلاحهم لأغراضه وسار سيراً بطيئاً لمداهمة الإيغور وهم يتناولون عشاءهم.

ولما أصبح على مسافة قصيرة من المدينة بعث يوركليداس Eurclidas إلى قاعة المائدة العامة حيث يتناول الإيغور عشاءهم، بحجة نقل رسائل منه عن الجيش إليهم. ثم لحق به تيريكون Therycion وفيوبس Phoebis وهما من أتراب كليومينس وقد ربيا معاً (يسمّونهم موثاكيس Mothaces) مزوّدين بعدد قليل من الجنود. وبينما كان يوريكليداس يسلم الرسالة للإيغور، اقتحم الآخران القاعة وبيديهما السيوف مشرعة وانقضّ الجميع على الإيغور وقتلوهم: أولهم أغيليوس Agylæus هوت عليه ضربة سيف فسقط لاحراك به كأنه ميت، إلاّ أنه تحامل على نفسه بعد قليل وجرّ جسمه جراً حتى خرج من الغرفة وزحف دون أن يفطن إليه أحد متجهاً إلى بناية صغيرة مخصّصة لإله «الخوف» وهي في العادة مغلقة، لكن المقادير شاءت أن تكون مفتوحة وقتذاك. فولج وأغلق الباب وراءه واستلقى منتبهاً.

قُضي على الإيغور الأربعة الباقين، وأُشفِعوا بعشرة آخرين أقبلوا لنجدة زملائهم. ومن لم يأت بعمل أو حركة تجاوزه القتلة ولم يعترضوا سبيل من فرّ من المدينة. وتركوا أغيليوس وشأنه عندما غادر المعبد في اليوم التالي.

فضلاً عن تخصيص اللقيديميين أماكن مقدّسة لـ«الخوف» فإنهم أقاموا بنايات مماثلة لـ«الموت» و«الضحك» وغير ذلك من العوارض والعواطف البشرية. وعبادتهم للخوف تختلف عن عبادتهم لقوى ما فوق الطبيعة التي يرهبونها لكونها قادرة على إلحاق الأذى بهم. يعبدون «الخوف» لاعتقادهم بأنه الضمان الرئيس لبقاء دولتهم (ومرجعي في هذا أرسطو). فقبل أن يتسلم الإيغور الجدد الحكم يصدرون بياناً للشعب، يعدون فيه بأنهم سيحلقون شواربهم وسيخضعون لأحكام القانون، وسوف لايجعلون القوانين شديد الوطأة على الناس. يرددون هذه العهود التافهة ليعوّدوا شبّانهم على الطاعة حتى في أصغر الأمور. وأميلُ إلى الظنّ بأن الأقدمين لم يدركوا أن الشجاعة، التي هي عدم الخوف في عُرفهم، هي في الحقيقة الخوف الذي يحذر اللوم والعار. إن الذين يظهرون أعظم الجبن إزاء القانون هم أجلّ الناس على أعدائهم. وأولئك الذين هم أقلّ من غيرهم خوفاً عند الخطر هم أكثر الناس خوفاً من التأنيب المستحق. ولله درّ القائل:

«ما زال الاحترام واجباً للخوف».

وقول هوميرس: «ستكون يا أبتِ العزيز مخوفاً ومحترماً».

وقوله أيضاً: «بخوفٍ صامت يتحمّلون الاضطهاد».

وفي الناس عموماً استعداد كبير لاحترام كل من يرهبونه لذلك شيّد اللقيديميون معبداً للخوف لصق دار الإيغور سيسيتيوم Sysissitium ورفعوا مقام هذه السلطة حتى ضاهت سلطة الملك.

وفي اليوم التالي للمذبحة أصدر كليومينس قراراً بنفي ثمانين مواطناً، رأى ابعادهم عن سپارطة ضرورياً. كذلك رفع مقاعد الإيغور كلها، خلا مقعداً واحداً يجلس هو عليه لإجراء المقابلات الرسمية ولإنفاذ الأحكام. ودعا المواطنين كلهم إلى اجتماعٍ عام. وخطب فيهم معتذراً عما قام به من تدابير بقوله:

- قضت شريعة ليكورغوس أن يحكم «مجلس الكبار» إلى جانب الملك. وقد بقي هذا النظام معمولاً به مدة طويلة. ولم تدعُ الحاجة إلى اتخاذ أي هيئة حاكمة أخرى. وفي أثناء الحرب الطويلة مع المسينيين كان الملوك الذين هم قادة الجيش لا يجدون وقتاً كافياً لنشر العدل بين المواطنين وتصريف شؤونهم لغيابهم. فكانوا يختارون أصدقاء لهم فينيبونهم للفصل في قضايا المواطنين وتسوية مشاكلهم، وأُطلق على هؤلاء النوّاب اسم «الإيغور» وكانوا في مبدأ الأمر يعتبرون أنفسهم خدماً للملوك لا أكثر، لكنهم بدأوا بالتدريج يغتصبون السلطة، حتى تكوّنت منهم هيئة حاكمة أخرى متمايزة. والدليل على هذا ذلك التقليد الذي ما زال يتّبعه الملك. فعندما يرسل الإيغور يطلب حضوره، يمتنع عن الدعوة الأولى، وكذلك يفعل عندما يدعى ثانية، ولا يتوجّه إليهم إلاّ عند الدعوة الثالثة. وكان أستيروبوس Asteropus أول من رفع الإيغور إلى أعلى درجة من المكانة وأحرز لهم السلطة العليا، وعاش سنوات عديدة بعد ذلك. إلاّ أنهم كانوا طوال وجوده يعملون ضمن نطاق صلاحيتهم ولا يخرجون عنها وكانت مجاراتهم ومماشاتهم أفضل من الخلاف معهم اجتناباً للفتنة. لكن الخضوع لدعيّ، حديث عهد بالسلطة لا يتورّع عن تغيير نظام الدولة، أمرٌ يصعب احتماله. فقد أصبح الإيغور ينفي ملوكاً، ويقتل آخرين دون أن يسمع لهم دفاع، ويتوعّد بالويل أولئك الذين يطمحون إلى إشاعة أفضل وأقدس نظام حكم شاهدته سپارطة. ولو كان في وسعي تحرير لقيديمون من ربقتهم بدون سفك دماء لفعلتُ، ولو تمكنتُ من إنقاذ بلادي من تلك الأوبئة الوافدة: الترف، والديون والبذخ، والربا؛ ومن أقدم شرّين على الأرض: الغنى الفاحش والفقر المدقع لعددت نفسي أسعد ملوك الدنيا بنجاحي، الشبيه بنجاح الطبيب النطاسي عند قضائي على أمراض بلادي دون إحداث آلام. لكن الضرورة ألجأتني إلى الاقتداء بليكورغوس في إجراءاتي. لم يكن ليكورغوس حين قام

بانقلابه ملكاً أو حاكماً، بل كان رجلاً عاديّاً عندما وجّه ضربته إلى الملكية المطلقة. فقد دخل الساحة العامة شاكّي السلاح. ففرّ الملك خاريللوس Charillus خائفاً والتجأ إلى الهيكل، وكان إنساناً صالحاً عاقلاً محباً لوطنه، فسارع بقبول إصلاحات ليكورغوس وأقرّ التغيير الثوريّ في نظام الحكم. إن عمل ليكورغوس يقدّم لنا الدليل الدامغ على صعوبة الانقلاب بدون استعمال القوة وإشاعة الخوف. وكان باستعمالهما معتدلاً مقصداً، لم يفعل شيئاً أكثر من ازاحته أولئك الذين وقفوا عقبة في طريق سپارطة إلى السعادة والأمان.

وقال لبقية الشعب:

- أصبحت الأراضي جميعها ملكاً مشاعاً فيما بينكم، وستبرأ ذمم المدينين من ديونهم كلها. ويُجرى الفحص على كل فرد لا يملك حق المواطنة، فالأشجع سيصبح سپارطياً حُراً، يستخدم سلاحه للمحافظة على المدينة. وبهذا لن تشكو لاقونيا بعد الآن قلة المدافعين عنها، ولن تُترك نهباً مقسماً بين الإيتوليين والألليريين.

بعد هذا أعلن هو وزوج أمه ميغستونس وأصدقائه تنازلهم عن كل أملاكهم لبيت المال العام. واقتدى به جميع المواطنين. وقُسّمت الأرضون وجُعل لكل من نفاه حصّة في التقسيم ذلك لأنه وعد بإعادتهم جميعاً حالما تستقر الأمور، وتهدأ. وأكمل ما نقص من عدد المواطنين بأفضل سكان الريف، وخير من توسّم فيه الكفاءة. وبذلك جنّد أربعة آلاف مقاتل صنديد. ونبذ الحربة سلاحاً. وعلّمهم استعمال ما يدعى «ساريسا» Sarissa بكلتا اليدين، واستبدل بقبضة الترس الاعتيادية سيراً. ثم بدأ بمشاوراته حول وضع منهاج لتهذيب الشبان وتمرينهم أو «انضباطهم» كما يطلقون عليه. فتولّى معظم التفاصيل المدعو سفارس Sphares الذي كان موجوداً في سپارطة وقتئذ. وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى عادت معاهد الرياضة البدنية والموائد الاشتراكية إلى سابق عهدها الزاهر، ونظامها المتقن الغابر. وعاد معظم الناس بملء اختيارهم - خلا فئة قليلة بحكم الضرورة - إلى ممارسة الحياة اللاقونية الأولى السمحاء. وتحاشياً من أن يعود اسم الملك ليثير الحسد في النفوس بادر إلى إشراك أخيه يوكليداس Euclidas في العرش . وهي المرة الأولى التي يحكم في سپارطة ملكان من أسرة واحدة.

وعلم أن أراتوس ومن ورائه الأخائيون، توهّم بأنه انقلابه هذا أشغله وأورثه كثيراً من المتاعب والمشاكل، ولم يترك له مجالاً للمجازفة بالخروج من سپارطة المتقلّبة على رمضاء هذا الانقلاب العظيم. فوجد كليومينس من المفيد والرائع حقاً ان يذيق أعداءه طعم إقدام جنوده وتفانيهم. فغزا بلاد ميغالوپوليس واجتاحها اجتياحاً. وشملت

عملياته الحربية مساحة واسعة منها وتوغّل بعيداً فيها، وفاز بكثير من الغنائم. ثم احتجز جوقاً من الممثلين كان في طريقه إلى مسينيه وبنى مرسحاً في بلاد العدوّ ووضع جائزة تعادل أربعين مينا. وجلس يشاهد العرض المرسحي طوال اليوم، ليس لأنه بحاجة إلى التسلية أو لكونه يحبّ التمثيل، بل لإظهار مدى استهانته بأعدائه. فبهذا يبرهن على مدى تفوّقه. إن جيشه وحده دون سائر الجيوش الملكية الإغريقية لم يزوّد بممثلين أو دجّالين أو راقصين، أو مغنيات. فقد خلا من كل شكل للدعارة والفجور ومظاهر الترف. الشباب من الجنود يقضون معظم الوقت في التدريب، والكبار منهم يشرفون على تدريبهم وتلقينهم دروساً في «الانضباط». وفيما عدا ذلك يَتَسلّون بتبادل المُلَح والفكاهات المحلّية، ويتراشقون بتلك الأجوبة اللاقونية المحكمة السريعة. وكنا قد لحظنا النتائج الباهرة التي أسفرت عنها هذه الأساليب عندما تصدّينا لسيرة ليكورغوس.

وجعل كليومينس من نفسه قدوةً. فقد كان نموذجاً حيّاً للبساطة أمام كل ذي عينين. فلم يسمح لنفسه بمستوى عيشٍ أعلى أو أفخم من مستوى عيش مواطنيه. وهذا ما حقق له المكانة الفضلى عند الإغريق. إن الناس الذي يخدمون الملوك لا يعجبون بغناهم وأثاثهم الثمين وعدد الخدم والعبيد الذين يحفّون بهم قدر ما يكرهون غطرستهم وكبريائهم وصعوبة الوصول إليهم، وأجوبتهم المتكبّرة للسائلين. وهذا ما لا تجده عند كليومينس فهو ملك في الواقع، يحمل اللقب الملكي، إلاّ أن زائره لا يرى أرجواناً ولا حللاً ملكية مقصّبة ولا محفات ولا أرائك يتقلّب عليها مريحاً جسمه. وسائله لا يرى الباب مغلقاً بوجهه ولا يتسلّم ردّاً على طلبه بعد صعوبات وتأخير لكثرة السُّعاة والحُجّاب، ولا يحظى بالإجابة عن طريق المذكرات. فكليومينس ينهض ويتقدم بأي ثوبٍ - يتفق أنه ارتداه في ذلك اليوم - فيستقبل ذوي الحاجات والزائرين، ويكلمهم بدون كلفة أو تحفّظ. وبذلك يجتذبهم ويفوز بمحبّتهم؛ مصرّحاً بأنه الوحيد الذي هو ابن هرقل الحقيقي. ويتناول وجبات طعامه العامة في غرفة عادية قليلة الأثاث على الأسلوب اللاقوني. فإذا استضاف أجانب أو سفراء أضاف إلى الأثاث أريكتين. ويأمر خدمه بأن يجعلوا طعامه أرقى من المعتاد بشيء قليل، وليس معنى هذا أن تضاف إلى أصنافه الحلوى والمقبّلات، وأطايب المأكول، بل تبدل الصحاف بأخرى أكبر منها. وتُزاد كمية الخمر. وقد أنّب صاحباً له لأنه دعا بعض الأغراب إلى طعام لا يزيد عن الخبز الشعير والشورباء السوداء. وهو الطعام الذي يتناولونه عادة في موائدهم الاشتراكية المسمّاة فيديتيا Phiditia. وعتب عليه بقوله: «في مثل هذه المناسبات، عندما يُدعى أغراب إلى الطعام، ليس من المستحسن أن يكون المرء لاقونياً بكل معنى الكلمة».

وبعد أن ترفع المائدة يؤتى بمحمل عليه وعاء نحاسي مليء بالخمر ويؤتى بجرّتين فضيّتين تتسع الواحدة منهما لحوالي ليترٍ واحدٍ من الخمر، ويؤتى بعدد من الأقداح الفضية. وتُترك الحرية لمن يريد أن يشرب ومن لايريد، ولايلحّ على الضيوف قطّ. ولايوجد موسيقي. فكليومينس يقوم بتسلية الضيوف بإلقاء الأسئلة حيناً، وبرواية الحكايات حيناً. ولم يكن حديثه بالرزين كثيراً ولا بالجديّ المملّ ولا بالخشن ولا بالفكاهة المعيبة.

وكان يمقت استخدام الجوائز والعطايا وسائل للإيقاع بالرجال كما يفعل الملوك الآخرون. فهو يعتبرها أساليب زائفة متجرّدة عن الشرف. وبدأ له أن الأنبل والأجدر بالملوك لكسب محبة المقربين منهم هي تبادل الأحاديث الرقيقة والمحاورات الممتعة؛ مادام الفارق الوحيد بين الصديق والمرتزق هو كسبنا الأول بالحديث المخلص وشرف الخلق، وكسبنا الثاني بقوة المال.

كان المانتينيون أول من طلب معونة كليومينس فدخل مدينتهم ليلاً وتعاون الطرفان على طرد الحامية الأخائية ووُضعت المدينة تحت الحماية اللقيديمية. فأعيد نظام الحكم السابق وشُرع في تطبيق قوانينهم الأولى. وفي اليوم التالي زحف على تيغيا، ثم اخترق أركاديا بحركة دائرية وانقضّ فجأة على فيري Pherae في أخائيا، وقصده من ذلك إرغام أراتوس على التعرّض له، وإلاّ انحطّت سُمعته، لأن إحجامه سيدفع كليومينس إلى التوغل في البلاد.

كانت القيادة الأخائية في تلك الفترة بيد هيپرباتاس Hyperbatas إلاّ أن أراتوس كان صاحب السلطة الأصيلة الحقّة. فتقدّموا بكلّ قواتهم وعسكروا في ديمي Dymae بالقرب من هيكاتومبيوم Hecatombaeum. فأقبل كليومينس ووجد أن ضرب مخيّمه ما بين ديمي المدينة العدوة ومعسكر الأخائيين ينطوي على محاذير. فما كان منه إلاّ أن تعرّض للأخائيين بكلّ جسارة وأرغمهم على دخول المعركة وهزم «فلانكسهم» وقتل عدداً كبيراً منهم وأخذ أسرى كثيرين. ومن ثم زحف على لانغون Langon وطرد منها الحامية الأخائية وردّ المدينة للاليائيين حلفائه.

ولما تحرّج وضع الأخائيين وساء طلبوا من أراتوس وألحّوا وتوسّلوا بأن يتولّى القيادة، وكان قد رسم أن يتولّى سنةً ويعتزلها سنةً، فأبى وكان في إبائه مخطئاً. فعندما يشتد هبوب العاصفة لا يجمُل بالملاّح أن يستنكف عن الدفّة، ويسلّمها إلى شخصٍ آخر.

في مبدأ الأمر اقترح كليومينس للصلح شروطاً بسيطة معتدلة وأرسل سفراءه

للأخائيين. ثم أعقبهم بآخرين مطالباً لنفسه بالقيادة العليا للعصبة، أما في الأمور الأخرى فقد أظهر استعداد للموافقة على شروط سهلة، وعلى إعادة الأسرى إليهم وإرجاع أراضيهم. وكان الأخائيون راغبين في الصلح على أساس هذه الشروط، ودعوا كليومينس للحضور في ليرنا Lerna حيث سيعقد اجتماع لبحث الأمر. إلاّ أن إسراع كليومينس في السير وشربه الماء في أوقات غير مناسبة جعله يتقيّأ مقداراً من الدم، وبُحّ صوته ولم يعد يقوى على الكلام. فتوقف وبعث للأخائيين بأهم الأسرى، وأرجأ الاجتماع إلى أمدٍ. وقفل عائداً إلى لقيديمون.

هذا التأخير غير المتوقع أدّى إلى خراب الإغريق ودمارهم وقد بدأوا أو كادوا ينهضون من كبوتهم ويتخلّصون من المحن والأرزاء التي أخنت عليهم. فبدأوا يبدون بعض الكفاءة والمقدرة في استخلاص بلادهم من نير المقدونيين وعسفهم. فقد جاهد أراتوس أولاً لإحباط الاتفاق بين كليومينس والأخائيين (إما خشية منه أو عدم ثقةٍ به أو حسداً من النجاح غير المتوقع الذي أصابه الملك الفتى، أو ربما وجد مما يحطّ من قدره أن يخلفه في كل مجده وسطوته فتى غضّ الأهاب، وهو الذي تولّى القيادة العليا لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، لم ينازعه فيها أحد، ليأتي كليومينس بعدها فيرأس تلك الحكومة التي تعب في بنائها ووضع أُسسها هذه السنوات الطوال). فلم يصغِ الأخائيون إليه خوفاً من إقدام كليومينس واقتناعاً منهم بأن الشروط التي عرضها المقدونيون معقولة جداً، وكلّها ترمي إلى إعادة البيلوبونيس إلى وضعها الاعتيادي الأول. فضاقت السُّبل في وجه أراتوس ووجد مرجعه الأخير في عملٍ لا يليق صدوره من أي إغريقي، عمل يحطّ من شرفه كثيراً وينتقص من شجاعته ومآثره الجسام. فقد دعا أنتيغونس المقدوني إلى بلاده وملأ البيلوبونيس بالمقدونيين. وهو الذي طرد حاميتهم من كورنث، ثم أخرجهم من البلاد في أيام شبابه. بل وأكثر من هذا فقد أثر عنه شكّه العظيم وخلافه المستحكم مع سائر الملوك، وفي مقدمتهم أنتيغونس نفسه، الذي أسند إليه آلافاً من المثالب والنقائص في تعليقاته التي تركها بعد موته. لقد كان أراتوس دائم الحديث عن الأهوال التي قاساها والمخاطر والخسائر الجسام التي تعرّض لها حتى تسنّى له تحرير أثينا من حاميتها المقدونية. وها هو الآن يأتي بنفس الرجال وهم شاكّو السلاح إلى موطنه، بل إلى منزله، بل إلى جناح نسائه فيه. لأنه لا يتحمّل فرداً من أسرة هرقل هو ملك سپارطة الذي حقق انقلاباً إصلاحياً عظيماً في حكومة بلاده، وأنقذها من التوافق الفوضوي، إن جاز لنا القول، وأعاد تطبيق الأنظمة الدورية Doric البسيطة، ونظام الحكم الذي كان يسود سپارطة في عهد ليكورغوس. فهو يستكثر عليه رئاسة التريتيان

Tritaeans والسيكيونيان Sicyinians. وفي الوقت الذي استأصل الغنى وأصلح أمر الفقير (وهذه تهمة أراتوس الفضلى لكليومينس) وكان هو يترفع عن تناول خبز الشعير وارتداء المعطف الخشن، يعمد الآن إلى أن يعنو طائعاً ومعه أخائيا بشكل مهين للتاج المقدوني وأرجوانه وأوامره التعسّفية، وحكام أقاليمه. وبالغ في تكريم أنتيغونس لكي ينأى عن كليومينس ويزيل أي شك في أنه تحت إمرته، فقدّم قرابين باسم أنتيغونيا مشتقاً من أنتيغونس وأنشد التراتيل الدينية وعلى رأسه إكليل الزهر، ممجّداً مسبّحاً بحمد مقدوني مهزول مصدور. أكتب هذا ولست أنوي به النيل من أراتوس قطّ. فهذا الرجل أثبت في وقائع كثيرة صدق حبه للإغريق، إلى جانب عظمته. وما ذكرت هذا إلاّ إشفاقاً مني على الضعف البشري الذي يستولي على نفوس رفيعة، متمسّكة بأهداب الفضيلة في شتّى صورها وأشكالها، فيتعذّر على أصحاب تلك النفوس أن يُبقوا شرفهم غير مثلوم، وأن يحتفظوا بأمجادهم الغابرة، بهفوة واحدة من هفوات الغيرة والحسد.

واجتمع الأخائيون في مؤتمر ثانٍ بأرغوس وأقبل كليومينس من تيغيا. وكان الأمل كبيراً بتسوية جميع أسباب الخلاف. لكن أراتوس كان بالمرصاد، فقد اتفق هو وأنتيغونس سلفاً على الشروط التي سيتمّ بها التحالف. وخوفاً من أن يأتي كليومينس ويجرّدهما من كلّ شيء، إمّا بالاتفاق التام، وإمّا بإرغام المؤتمر على الموافقة، فقد اقترحاً أن يوضع بيد كليومينس ثلاثمائة من الرهائن لكي يدخل المدينة وحده، إذ يأتي بجيشه إلى ساحة التدريب المسمّاة كلارابيون Cyllarabium، والواقعة في ظاهر المدينة، فيفاوض من هناك.

وأُبلغ كليومينس بهذا فقال لهم إنهم يسيئون معاملته، إذ كان عليهم أن يُعلموه بنيّتهم هذه من الأول. وها هم بعد أن قرع بابهم يُظهرون ارتيابهم به ويسدّون بابهم في وجهه. وكتب رسالةً إلى الأخائيين في هذا الصدد، كان معظم ما فيها تهمٌ موجهة لأراتوس. أما أراتوس فقد وقف في الاجتماع يشنّ عليه هجوماً عنيفاً. فأسرع كليومينس يرتحل عنهم. وأرسل برقياً إلى أرغوس (أيگيوم Aegium - في تعليقات أراتوس) يعلمهم بالحرب، لكيلا لا يدع لهم وقتاً كافياً للتأهب والدفاع. ونجحت حركة ممالئة له بين الأخائيين أنفسهم، وتهيأت المدن للثورة بلهفٍ لأن العامة من الناس كانوا ينتظرون من رئاسة كليومينس توزيعاً للأراضي وتخلّصاً من الديون. وكان رؤساء القوم في كثير من المدن لا يطيقون أراتوس وبعضهم سخط عليه ونقم لجلبه المقدونيين إلى البيلوپونيسس. هذا التنابز والخلاف شجع كليومينس على غزو أخيا. فاستولى أولاً على پلليني Pellene بهجوم مباغت وطرد منها الحامية الأخائية، ثم ضمّ

.نيه فينيوس Pheneus وبنتلليوم Pentelleum. وشكّ الأخائيون بخيانة مبيّتة لهم في كل من كورنث وسيكيون Sicyon فأرسلوا خيّالتهم ومرتزقتهم من أرغوس وجعلوها عيوناً عليهما. وخرجوا إلى أرغوس للاحتفال بالألعاب النيمية Nemean. وعلم كليومينس بخروجهم، وكان يأمل بأنه سينشر رعباً شديداً ويحدث في صفوفهم اضطراباً واسع النطاق لو تقدّم ليلاً وداهم المدينة وهي ساهية عنه لاهية بالألعاب وبما لا يُحصى من المشاهدين، فزحف بجيشه حتى أسوارها. ثم انقضّ على الحيّ الذي يُسمّى أسپس Aspis ويقع إلى شمال الملعب. وهو جيّد التحصين يصعب التعرّض له، بله الاستيلاء عليه، فكان الرعب الذي أحدثه عظيماً. وبهت الجميع فلم يُبدِ أحد أية مقاومة. إلاّ أنه رضي منهم بشروط سهلة هي موافقتهم على ابقاء حامية في المدينة، وتسليمه عشرين رهينة من مواطني المدينة، ومساعدة اللقيديميين والتسليم له بالقيادة العليا.

هذه المأثرة الحربية رفعت من شهرة كليومينس ووسّعت نفوذه ودعمته. ظلّت أرغوس ممتنعة عن كل ملوك سپارطة الأقدمين فمع محاولاتهم المتكررة لم يفلحوا في ضمّها بشكل دائمي. وپيروس القائد المحنّك الأكثر تجارباً من أي قائد آخر دخل المدينة عنوة ليُقتل داخلها وليموت معه جزء كبير من جيشه. لذلك كان الإعجاب عاماً ببراعة كليومينس. فأولئك الذين كانوا يسخرون منه لتقليده صولون وليكورغوس في تحريره الناس من الديون وإشاعة المساواة في الملكية بين المواطنين، أسرعوا الآن يقرّون بأن نجاحه هذا ما هو إلاّ ثمرة الإصلاحات التي أجراها في سپارطة. لقد كان السپارطيون قبل ذلك أعجز عن المحافظة على مدينتهم، لضعفهم الشديد نسبة إلى أقرانهم. فقد غزا الأيتوليون لاقونيا واستاقوا منها خمسين ألفاً من العبيد؛ ويذكرون أن أحد السپارطيين الشيوخ قال بهذه المناسبة: إنهم (أي الغزاة) خدموا لاقونيا بتخفيف العبء عنها. مع هذا فبمجرّد عودتهم إلى تقاليدهم الأولى، وممارستهم الانضباط في زمن قصير جداً، راحوا يضربون الأمثلة الفريدة في الشجاعة والطاعة. كأنهم يعملون تحت سمع وبصر ليكورغوس نفسه. فرفعوا سپارطة من الحضيض ليضعوها في المحل الأول، دولة قائدة في بلاد الإغريق. واستعادوا كل الپيلوپونيسس.

بعد الاستيلاء على أرغوس أسرعت كليوني Cleonæ وفليوس Phluis بإعلان انضمامها إلى كليومينس. وكان أراتوس في كورنث، يتعقّب مَن قيل إنهم موالون لسپارطة، فأقلقه نبأ هذه الانتصارات، مدركاً أن كورنث نفسها تميل إلى كليومينس وتريد التخلص من الأخائيين. فدعا المواطنين إلى الاجتماع في قاعة المجلس. وتسلل هو دون أن يلحظه أحد، وخرج فامتطى جواده الذي كان قد هُيّئ له وفرّ إلى سيكيون.

فخفَّ الكورنثيون إلى أرغوس كأنهم على جناح طائر، أو كما يصف أراتوس ذلك: «كانوا يتسابقون على أولوية الوصول إلى كليومينس» حتى أن خيولهم نفقت تحتهم! وغضب كليومينس على الكورنثيين لأنهم لم يحولوا دون هروبه. ويضيف أراتوس قوله: عْن ميغستونس جاءه مُوفداً من كليومينس يطلب منه تسليم قلعة كورنث التي كانت تحتلّها حامية أخائية. وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، فأجابه أن زمام الأمور قد أفلت من يده وأنه الآن تحت رحمة الأهالي. هذا ما خطته يد أراتوس. على أن كليومينس سار إليها من أرغوس وفي طريقه أخضع الطرويزينيين Troyzenians والإپداوريين والهرميونيين Hermionians. وإذ بلغ كورنث شرع بحصار القلعة من جميع الجهات بعد أن أبى الأخائيون تسليمها. ودعا إليه أصحاب أراتوس وبطانة بيته، فوضع منزله وماله ونشبه في عهدتهم أمناء عليه. وبعث تريتيماللوس Tritymallus المسيني إليه بعروض صلح، وهي أن تشترك في حماية القلعة حاميتان سپارطية وأخائية بعددٍ مساوٍ من الجنود. وأن يعطى ضعف المرتّب الذي خصّصه له بطليموس الملك. فرفض أراتوس وأرسل ابنه مع رهائن أُخر إلى أنتيغونس، وراح يسعى لإقناع الكورنثيين بإصدار قرار بتسليم القلعة لأنتيغونس. فما كان من كليومينس إلاّ أن أغار على بلاد السيكيونيين. وحمل الكورنثيين على إصدار قرار بمصادرة أموال أراتوس للمدينة.

كان أنتيغونس في الوقت عينه يجتاز گيرانيا Geranea بجيش جرّار. ففضّل كليومينس أن يحصّن ويعزّز مواقعه في جبل يدعى أونيا Onea لا في البرزخ، وأن ينهك الجيش المقدوني بحرب المواقع والنقاط المستحكمة، لا أن يجازف بمعركة فاصلة يلعب فيها الفلانكس المقدوني المحكم دوراً حاسماً. وأسرع بتنفيذ خططه، مخيباً آمال أنتيغونس تماماً فقد قدِم وليس معه مؤن كافية لحرب الإنهاك التي فرضها عليه كليومينس كملك لم يكن من السهل عليه أن يشقّ طريقه من الممرّ عنوة وكليومينس يسيطر عليه. وحاول المرور ليلاً عبر ليكيوم Lechaeum لكنه أخفق وخسر عدداً من رجاله. وارتفعت معنويات جيش كليومينس وبلغ اعتزازه بهذا النصر إلى الحد الذي جعلهم يذهبون إلى العشاء في حالة مرحٍ صبياني. وركبت أنتيغونس الكآبة. وألجأه موقفه العسير إلى محاولات يائسة لم تُجدِه فتيلاً. وكان في سبيل اتخاذ خطة الزحف باتجاه رَعَن[1] هيريوم Heraeium ومنها ينقل جيشه إلى سيكيون بالزوارق، هي عملية تتطلب وقتاً طويلاً، وكثيراً من المهمات والاستعداد. إلاّ أن أصدقاء

---

(١) الرَّعَن هو قمة الجبل الداخلة في البحر.

لأراتوس وصلوا مساء من أرغوس عن طريق البحر وأشاروا عليه بالعودة لأن الأرگيفيين شقّوا عصا الطاعة على كليومينس، وأرسطوطل Aristotle يتزعّم الفتنة وهو الذي فجّر الثورة، إذ سهُل عليه إقناع الأهالي الذين كانوا بصورة عامة ساخطين على كليومينس لأنه لم يبرّ بوعده فيلغي ديونهم. وعلى هذا سار أراتوس على رأس ألف وخمسمائة مقاتل من جيش أنتيغونس وأبحر بهم إلى أپيداوروس. إلاّ أن أرسطوطل لم يشأ الانتظار وأخرج الأهلين وبدأ بالتعرّض لحامية القلعة، وأقبل تيموكزينوس Timoxinus بالأخائيين من سيكيون لنجدته.

وسمع كليومينس بالفتنة في حدود الهزيع الثاني من الليل، فاستدعى ميفستونس وأمره غاضباً بأن يذهب إلى أرغوس لتسوية الأمور، فهو الذي تعهّد بولاء الأرغوسيين وهو الذي أقنعه بألا ينفي المشتبه بهم. وأعطاه ألفين من الجنود. وبقي هو يرصد أنتيغونس ويشجع الكورنثيين بقوله إن الاضطراب في أرغوس ليس بالذي يؤبه به، وإنما هو فتنة أثارتها شرذمة لا قيمة لها. لكن ميفستونس قُتل فور دخوله أرغوس. وتعذّر صمود الحامية فراحت تبعث بالرسول تلو الرسول طالبةً نجدةً. ولخوف كليومينس من أن يعمد العدوّ بعد احتلاله أرغوس إلى سدّ الممرات والتوغل في لاقونيا آمناً، وحصار سپارطة وهي بدون حماية، أجلى عن كورنث فخسر المدينة حالاً لأن أنتيغونس دخل في أعقابه ووضع الحاميات فيها. وانحرف كليومينس عن استقامة سيره وهاجم أرغوس ليأخذها بالمفاجأة، ثم جمع قوّاته الزاحفة فاقتحم بها الأسپيس Aspis، واتصل بالحامية التي بقيت صامدة في الداخل إزاء الأخائيين. وتسلّق الأسوار في جوانب من المدينة واستولى عليها وأمر رُماته الكريتيين فطهّروا شوارعها من المقاومين. إلاّ أنه شاهد أنتيغونس ينحدر بفلانكسه من الجبل نحو السهل، كما دخلت خيّالته المدينة من جميع الجهات، فوجد أن المحافظة على مواقعه في المدينة غير ممكن، فجمع رجاله وانسحب بسلام متقهقراً تحت السور.

أحرز كليومينس في وقت جدّ قصير سلطاناً عظيماً. في سفرة واحدة (إن صحّ القول) نصب نفسه سيّداً على الپيلوپونيس، وبوقت يساويه في القصر أضاع الكلّ. فبعض حلفائه تخلّى عنه وبعد فترة وضع بعضهم مدنهم تحت حماية أنتيغونس. وهكذا خابت آماله وفشلت مساعيه. وراح يقود شراذم من قواته عائداً. وفي الطريق لقيه رسل في لقيديمون وهو في تيغيا حاملين له نبأ أعظم نكبة وأشدّها إيلاماً، هو نبأ وفاة زوجه التي كان يحبّها أشدّ الحب، ولا يطيق عنها بُعداً، إذ ما كان يتردد وهو في أنجح حملاته وقمّة انتصاره أن يترك جيشه ويعود إلى سپارطة لزيارة أغياستيس.

كان حزنه عليها عظيماً ورزؤه بفقدها كان قميناً بأي شابٍ فاضل أجمل وأفضل زوج. إلا أنه لم يدع عاطفته تصيبه بالعار، ولا لضعفه يفسد رجاحة عقله. فتجلّد ولم يخنه صوته ولا تقاطيع وجهه، ولم يطرأ على عاداته خلل. واستمر يُصدر الأوامر الضرورية لضباطه، ويتخذ التدابير اللازمة للدفاع عن تيغيا. وفي صباح اليوم التالي وصل سپارطة. وندب هو وأمّه وطفلاه خسارتهم ومصيبتهم. ثم أنهى الحداد وباشر فوراً بتصريف شؤون الدولة.

ووعده بطليموس ملك مصر بالمساعدة. إلاّ أنه اشترط عليه إرسال أمه وطفليه ليبقوا عنده بمثابة رهائن. فظل فترة طويلة يخجل من مفاتحة أمّه. وكثيراً ما قصدها لهذا الغرض فما يهمّ بالحديث إلاّ ويرتج عليه فيتردد ثم يعدل. وأخذت الشكوك تساورها من سلوكه هذا وسألت أصدقائه عمّا إذا كان قد كتم عنها شيئاً يخشى مفاتحتها به؟ أخيراً لم يسعه إخفاء الأمر عنها، فصارحها فقهقهت ضاحكة وقالت:

- أهذا ما كنت تحاول مصارحتي به ثم تحجم؟ هيّا عجّل وضعني على ظهر السفينة. ابعث بهذه الرّمة إلى حيث تؤدي أعظم خدمةٍ لسپارطة، قبل أن تتلفها عاديات السنين وتستهلك كل منفعة منها.

وتمّت كل التدابير للرحلة، وسافروا براً حتى تيناروس والجيش كله تحت أمرهم وبحراستهم. وعندما تهيأت كراتيسيكليا لركوب السفينة انتحت بابنها جانباً ثم قادته إلى هيكل نبتون وهناك أكبّت عليه تعانقه قائلة:

- امضِ في سبيلك يا ملك سپارطة. وإن خرجنا الآن فلا تدع أحداً يرانا باكيين. ولا تظهر أي ضعفٍ عاطفي غير لائق باسپارطه. فهذا هو أساس قوتنا. أما بخصوص النجاح والفشل فقل لن يصيبنا إلاّ ما قدّرته لنا الآلهة.

وتجلّدت وتصبّرت، وخرجت بحالة اعتيادية فركبت السفينة مع حفيديها وأمرت القبطان بالإقلاع حالاً. ولما وصلت مصر وعلمت أن بطليموس يزن مقترحات وعروض سلم من أنتيغونس، وأن كليومينس قد دعاه الأخائيون وألحّوا عليه بعقد اتفاق فأبى لأنه كان يخاف عليها من بطليموس أن تمّ ذلك بدون رضاه. فكتبت إليه تنصحه بان يفعل ما هو لائق بسپارطة نافع لها، وأن لا يخشى بطليموس بسبب عجوزٍ وطفلين. كذلك كانت أصالة خِلّتها وهي في وسط محنتها وسوء حظها.

بعد استيلاء أنتيغونس على تيغيا، واجتياح أورخوبينس ومانتينيا، وجد كليومينس نفسه محصوراً في حدود لاقونيا الضيّقة. فعمد إلى سَدّ حاجته من المال بأن سمح لكل

فردٍ من الهيلوت بأن يفتدي حريته بخمسة پاونات أتيكية فجمع بذلك خمسمائة تالنت. وسلّح ألفين من المقاتلين تسليحاً مقدونياً فتمّت له وحدة مقاتلة خليقة بمقارعة ليوكاسپيدس Leucaspides قائد أنتيغونس. ووضع خطة رائعة غير مسبوقة: كانت ميغالوپوليس في ذلك الحين كمدينةٍ قائمة بذاتها لا تقلّ مناعة وعظمة عن سپارطة نفسها. أضف إلى هذا أن قوّات أنتيغونس والأخائيين قد عسكرت بالقرب منها. وكان الميغالوپوليتيون ذوي اليد الطولى في استدعاء أنتيغونس لمعونة الأخائيين. وكانت خطة كليومينس تعتمد على «خطف» المدينة (ليس ثمّ كلمة أخرى أنسب من هذه لوصف عملية حربية تمت بمثل تلك السرعة والفُجاءة) فأمر رجاله بأن يتزوّد كل منهم بمؤونة خمسة أيام. وسار بهم نحو سيلاسيا كأنه يعتزم اجتياح بلاد الأرگيف إلا أنه انحدر من هناك إلى تخوم ميغالوپوليس. وبعد أن أراح جنوده عند رويتيوم Rhoeteum انحرف فجأة إلى طريق هيليكوس Helicus وتقدّم من المدينة رأساً. ولما أصبح على مسافة قصيرة منها أرسل پانتيوس Panteus على رأس لواءين للانقضاض على جانب من الأسوار يقع بين برجين، علم أنه أقلّ الأجزاء حمايةً في أسوار المدينة، ثم تقدم خلفه ببقية جيشه، سائراً على هَونه. ولم يكتف پانتيوس بإكمال مهمته على خير وجه، وإنما وجد جزءاً كبيراً من السور بدون حماية. فباشر في الحال بهدم أقسامٍ منه، وثغره عدّة ثغرات في أماكن أخرى، وقتل كل مدافعٍ تصدّى له. وفيما هو منهمك بذلك وصل كليومينس ودخل المدينة بجنوده قبل أن يشعر الميغالوبوتيون بالمباغتة. ولما علموا بما أصابهم ترك فريق منهم المدينة حاملاً ما استطاع حمله من متاع. وحمل فريق سلاحه وخرجوا لقتال المهاجمين. ومع أنهم لم يستطيعوا ردّهم على الأعقاب، إلاّ أن دفاعهم أتاح للمواطنين الفرصة والوقت للجلاء عن المدينة بسلامٍ. ولذلك لم يكن في المدينة أكثر من ألف نسمة عند تمام احتلالها. أما البقية فقد هربت بالزوجات والأطفال إلى مسينيه. ونجا كذلك جُلّ الذين قاتلوا العدوّ وحاولوا صدّه. ووقع منهم أسرى قليلون، ومن بينهم ليساندريداس Lysanderidas وثياريداس Thearidas وهما من ذوي المقام الكبير والنفوذ عند الميغالوپوليتيين، ولذلك أحضرهما الجند أمام كليومينس حال وقوعهما في الأسر. وما إن وقع نظر ليساندريداس على الملك من مبعدةٍ حتى صاح قائلاً:

- والآن يا ملك سپارطة لقد بات في مدى سلطانك أن تشتري أعظم المجد بقيامك بأعظم وأنبل عمل ملكيّ أقدمت عليه حتى اليوم.

فأدرك كليومينس ما يقصده وأجابه:

- ماذا تقصد يا ليساندريداس؟ من المؤكد أنك لا تنصحني بإعادة مدينتكم إليكم ثانيةً؟

فقال ليساندريداس:

- بل هذا ما أقصده. وأنصحك بألاّ تُعمِل يد الخراب في مدينة باسلة كهذه المدينة، بل أن تملأها بأصدقاء مخلصين أوفياء وحلفاء لك، بأن تعيد البلد إلى الميغالوپوتيين. وبأن تصير منقذاً لهذا الحشود الكبيرة من الناس.

ففكر كليومينس برهة ثم قال:

- إنه لمن الصعوبة بمكان الايمان بهذه الأمور إلى حدٍ كبيرٍ، لكن فلتفسح المنفعة مكانها للمجد.

ثم أرسل هذين الأسيرين إلى مسينيه مع رسول من قِبله يدعو الميغالوپوليتيين إلى مدينتهم إن هم قطعوا روابطهم مع الأخائيين وانقلبوا حلفاء له. ولكن فيلوپويمين لم يقبل أن ينقضوا حلفهم مع الأخائيين رغم بساطة الشروط وكرامتها وإنسانيتها. وراح يتهم كليومينس أمام الأهالي وأظهر نواياه بشكل معكوس قائلاً إنه لا يريد إعادة المدينة إليهم، بل الاستيلاء على أهاليها أيضاً. ثم أجبر ثياريداس وليساندريداس على مغادرة [مسينيه].

(فيلوپويمين هذا أصبح فيما بعد زعيم الأخائيين، ونال أعظم شهرة ومكانة بين الإغريق وقد تقدّم ذلك في سيرته).

عندما سمع كليومينس بما جرى في مسينيه ساوره غضبٌ شديد. وكان قبل ذلك قد شدد بعدم نهب المدينة واتخذ التدابير الوقائية لذلك، فأمر في سورة غضبه هذا ونفاد صبره بتجريد المدينة من كل ما هو نفيس فيها. وأرسل الصور والتماثيل إلى سپارطة وهدم جزءاً كبيراً منها ثم انسحب خشية إطباق أنتيغونس والأخائيين عليه. لكنهم لم يأتوا بحركة. إذ كانوا وقتئذ يحضرون مجلس حربٍ في أيگيوم Aegium. هناك اعتلى أراتوس منبر الخطابة وبكى مليّاً ساتراً وجهه بطرف ردائه، فران الذهول على المجتمعين وعلتهم البغتة، ثم صاحوا وطالبوه بالكلام فقال:

- ميغالوپوليس دمّرها كليومينس!

وسكت. فانفرط عقد المجتمعين فوراً. وذهل الأخائيون لعظم الخسارة وفجائيّتها. واعتزم أنتيغونس إرسال نجدات عاجلة. ولما رأى البطء الشديد في عملية التجمّع من المقرات الشتوية أصدر أوامره بالبقاء حيث هي. وسار بنفسه إلى أرغوس تحرسه ثلّة من الجنود.

ومع أن العملية التالية التي أقدم عليها كليومينس بدت مغامرة جنونية يائسة فإنها في رأي پوليبيوس عملية ذات تصميم ناضج وتنفيذ متقن تنطوي على بُعد نظر كبير. فبعد أن تأكد كليومينس أن المقدونيين متفرّقون في مقراتهم الشتوية وأن أنتيغونس مع أصحاب له وقليل من المرتزقة يُشتّي في أرغوس، أغار على بلاد الأرگيف مؤمّلاً أن يدفع الخوف من العار أنتيغونس إلى الاشتباك معه في ظروف غير متكافئة. فإن أبى القتال فستهبط مكانته عند الأخائيين إلى الحضيض. وهذا ما كان. فإن السلب والنهب والذي عمله في بلاد الأرگيف أثار غيظهم وألمهم فتجمّعوا حشوداً كبيرة أمام باب الملك وأخذوا يصيحون به قائلين: عليه أن يقاتل أو أن ينزل لغيره عن القيادة أشجع منه وأكثر إقداماً. إلاّ أن أنتيغونس وهو القائد المحنك عدّ المجازفة الحمقاء بمصير جيشه، وتركه مواقعه الآمنة، أكبر عاراً من تأنيب الناس وسخريتهم به. فلم يعرهم أذناً صاغية، وأصرّ على عدم الاشتباك بمعركة مع كليومينس. وفي أثناء ذلك بلغ جيش عدوّه أسوار المدينة وهو يعيث في الأنحاء سلباً ونهباً دون أن يلقى مقاومة ما، مجرّعاً خصمه الإهانة تلو الاهانة، ثم انسحب.

بعد فترة أُبلغ كليومينس أن أنتيغونس ينوي التقدّم نحو تيغيا ومنها يشرع في غزو لاقونيا، فأسرع يقود جنوده متحامياً الطريق حتى ظهر أمام أرغوس عند تباشير الفجر. وعمد إلى تخريب الحقول المحيطة بها. ولم يجتث سنابل القمح كما يفعلون عادة بمناجل الحصاد والسكاكين وإنما كان يدقّ السنابل دقّاً بهراوات خشبيّة ضخمة كالسيوف العريضة وهو سائر غير متوقف احتقاراً واستخفافاً مقصوداً، دون أن يتكبّد في ذلك جهداً أو يضيّع وقتاً. وهكذا أتلف حاصلهم. إلاّ أنه اعترض محاولة جنوده إشعال النار في كللابارس Cyllabaris وهو ملعب رياضي، كأنه شعر بأن الخراب الذي أحدثه في ميغالوپوليس كان لغلبة العاطفة على الحكمة. وسبقه أنتيغونس إلى أرغوس واحتل الجبال والشِّعب ووضع فيها ربايا. فلم يأبه كليومينس ولم يكترث وأرسل رسولاً يطلب مفاتيح هيكل جونو كأنما يريد تقديم القرابين فيه ثم يعود من حيث أتى!

بهذا المزاح الأليم الشامت الموجّه لأنتيغونس ضحّى للآلهة تحت جدران الهيكل المغلق. ثم توجّه إلى فيلوس ومنها إلى أوليغيرتس Oligyrtis حيث طرد محتلّيها. ثم سار نزولاً إلى أورخومينوس ودخلها.

هذه العمليات - فضلاً عن أنها شدّت من عزائم المواطنين - جعلته يبدو أمام أعدائه رجلاً جديراً بالقيادة العليا، قادراً على اصطناع العظائم. فبقوّات مدينته فقط نازل المقدونيين ذوي القوات الجبّارة فدوّخهم. وقاتل كل الپيلوپونيس ومن ورائهم أموالهم

وكنوزهم تدعمهم. وحافظ على لاقونيا من غوائل السلب. فضلا عن اجتياحه بلاد العدوّ واستيلائه على العديد من المدن الهامة. وهذا كله دليل على عبقرية قيادية فذة وبراعة غير عادية.

إن أول القائلين بأن المال هو عَصَب الأمور يبدو أنه كان يقصد الحرب خاصّة. ولما اقترع الأثينيون على وجوب إنزال سفنهم وتجهيزها للحرب وعجزوا عن ايجاد المال اللازم قال ديماديس:

- المطلوب، الخبّاز أولاً، ومن ثم الملاّح.

وأرخيداموس الغابر - في بداية حرب الپيلوپونيس - عندما أجمعت كلمة الحلف على تحديد حصّة كل حليف في النفقات، قيل إنه أجاب:

- إن الحرب لا يمكن أن تعتدّ بكذا أيام.

كان أنتيغونس كالمصارعين الذين أكملوا تدريبهم وأعدّوا أجسامهم إعداداً صحيحاً، فراحو ينهكون قوى أخفّ منازليهم وأبرعهم مناورةً. فقد دخل الحرب بموارد عظيمة. وأتعب كليومينس الذي صعب على إملاقه تأمين المال الكافي لدفع أجور مرتزقته، أو لتدبير قوات مواطنيه. أما في ما عدا هذا فإن عامل الزمن كان إلى جانبه. فالأحوال لم تكن على ما يرام في مقدونيا، وقد اجتاحها البرابرة وتوغّلوا فيها وهو غائب عنها. وفي عين الوقت دخلها جيش جرّار للألليريين، فبعث المقدونيون يستعجلونه بالعودة، وكادت الرسائل تصله قبيل المعركة، ولو وصلته من قبل لأسرع بالعودة تاركاً الأخائيين يتدبّرون أمرهم. إلاّ أن الحظّ الذي أُغرِم بتقرير نتائج الأحداث العظيمة في دقيقة واحدة أبدى في هذا الحدث دقة زمنية رائعة. فبعد ختام معركة سيلاسيا مباشرة، تلك المعركة التي خسر فيها كليومينس جيشه ومدينته - وصل السعاة وطلبوا مقابلة أنتيغونس. وهو ما جعل سوء طالع كليومينس أكثر استدراراً للشفقة والعطف. فلو أنه استمر يتقهقر ولو أنه تحاشى الدخول في المعركة يومين آخرين لما عادت الحاجة تدعوه إلى المجازفة، إذ بعد رحيل المقدونيين سيكون بمقدوره أن يفرض ما يشاء من الشروط على الأخائيين. إلاّ أنه اضطر كما أسلفنا إلى وضع آخر أمله في سلاحه، لافتقاره إلى المال، وأُرغم على الزجّ بالعشرين ألفاً (حسب رواية پوليبيوس) مقابل ثلاثين ألفاً، وقد أثبت نفسه قائداً رائعاً في هذه الوقعة العصيبة. وأظهر مواطنوه شجاعة فائقة، وحارب مرتزقته حرباً بطولية. إلاّ أنه غُلب بعامل الاختلاف في أساليب التعبئة، وانحطم تحت ثقل الفلانكس بسلاحه الثقيل. ويؤيد فيلارخوس كذلك أن السبب في هزيمة كليومينس هو خيانة بعض البطانة والمقرّبين منه.

أمر أنتيغونس بتقدّم الألليريين والأركارنانيين على محور شبه دائري فوق طريق خفيّة، ثم تطويق الجناح الذي يقوده يوكليداس أخ كليومينس، ثم جرّ بقية قوّاته إلى المعركة. وكان كليومينس قد صعد ربوة منبسطة لمراقبة تنفيذ أوامره. ولما لم يشاهد أثراً ما للقطعات الألليرية والأكارنانية بدأ الشك يساوره بأن أنتيغونس قد أرسلها للقيام بشيء شبيه بما فصّلناه. فاستدعى داموتيلس Damoteles قائد الوحدات التي أنيطت بها واجبات نصب الكمائن، وطلب منه أن يتقصّى بأنظاره وضع المؤخرة وأن يُنعِم النظر فيما وراء الجبهة فهناك شيء ما قد يكتشفه. إلاّ أن داموتيلس (وقيل إن أنتيغونس اشتراه) طمأنه بألا شيء يُخشى منه، وعليه ألاّ يقلق فالمؤخرة على ما يرام، والواجب عليه الآن هو أن يحصر اهتمامه بالجبهة الأمامية وبالذين سيقاتلونه منها. فاطمأن كليومينس وتقدّم متعرّضاً للعدوّ. وهجم السپارطيون هجمة عنيفة زحزحت الفلانكس المقدوني من مكانه وأجبرته على التقهقر، وبعجلة اختراق ناجحة مرّت قطعاته بين قوات أنتيغونس وتغلغلت إلى مسافة نصف ميل. إلاّ أنه أوقف العملية عند إدراكه الخطر الذي بات يتعرّض له الجناح الملتفّ بقيادة أخيه وناداه قائلاً:

- لقد ضعت يا أخي العزيز، لقد ضعت. إنك لمثلٌ باسلٌ لشبابنا السپارطي، ولحن لأناشيد نسائنا.

وتمزّق جناح يوكليداس وتشتّت قوّاته بدداً. وانقضّ عليه المنتصرون من هذا الجانب المكشوف. وسرعان ما دبّت الفوضى في جنوده وعجز عن مواصلة القتال فهرب. وقيل إنه لم يسلم من السپارطيين الستة آلاف غير مائتين وسقط كثير من المرتزقة.

عندما دخل كليومينس سپارطة نصح من استقبله أن يخرجوا للقاء أنتيغونس. وأما عن شخصه فسيختار ما هو أصلح لسپارطه موتاً أكان أم حياة. ورأى النسوة يفزعن لاستقبال من نجا معه، ويتناولن منهم أسلحتهم ويسقينهم. فدلف إلى منزله وتقدّمت منه خادم وهي امرأة حرّة كان قد جاء بها من ميغالوپوليس بعد وفاة زوجه وهمّت بخدمته جرياً على العادة. فرفض أن يشرب شيئاً مع أنه كان يشكو عطشاً شديداً. وأبى الجلوس مع أنه كاد يسقط إعياءً. واستقرّت ذراعه وهو ما زال لابساً دروعه فوق عمود. وأسند جبينه إلى مرفقه وأراح جسمه قليلاً. ثم بدأ يقلّب الفكر في السُّبل التي يتعيّن عليه الأخذ بها. ثم إنه توجّه مع بعض أصحابه إلى گيتيوم Gythium فوجد السفن التي أوصى عليها مهيّأة، فركبوها.

واستولى أنتيغونس على سپارطة. وأحسن معاملة اللقيديميين ولم تتعرّض مكانة

المدينة لإهانة أو تجريح بأي شكلٍ من الأشكال. وسمح للأهلين بممارسة قوانينهم ونظام حكمهم. وبعد أن قدّم قرابينه رحل عنهم في اليوم الثالث لدخوله، لأنه سمع بنشوب حرب طاحنة في مقدونيا، وعلم أن البرابرة يجتاحون بلاده، فضلاً عن اشتداد وطأة العلّة عليه فقد انقلبت إلى سلّ والتهاب في قصبات التنفّس. مع ذلك لم يهن وظلّ مثابراً وتمكن من العودة وإنقاذ بلاده، والموت ميتة مجيدة مشرّفة وسط الهزيمة الشنعاء والمقتلة الكبرى التي أوقعها بالبرابرة. ويذكر فيلارخوس، وهو من الأمور المحتملة جداً، أن أحد أوعيته الدموية انفجر لشدة الصيحات التي أطلقها في ميدان القتال. وقد قرأنا في المدرسة أنه صاح من فرط فرحه بعد أن تمكن من النصر:

- يا لك من يوم مُبين!

فنفث مقداراً من الدم، وركبته الحمّى ولم تفارقه حتى فارقته روحه. هذا ما يتعلّق بأنتيغونس.

أبحر كليومينس من كيثيرا Cythera إلى جزيرة أخرى تدعى أيگياليا Aegialia. وكان يهمّ بالإقلاع منها إلى كيرينه Cyrene حين انتحى به صاحبه ثيريكيون Therycion جانباً. وكان رجلاً نبيل النفس في كل المواقف، جريء اللسان، مرحاً. فقال له:

- مولاي. الموت في ساحة الوغى وهو أشرف الموت، ضاع مِنا. ومع أننا جميعاً نعلم أن أنتيغونس لن يطأ ملك سپارطة وهو حيّ. والآن فهذا الطريق الذي لا يحطّ من الشرف والكرامة مفتوح أمامنا. فلماذا نهرب من شِرّ قريبٍ لنلجأ إلى الشرّ البعيد؟ إن لم يكن مما يخلّ بشرف نسل هرقل أن يخضع لخلفاء فيليب والإسكندر فسنقتصد رحلة طويلة بتسليم أنفسنا لأنتيغونس فربما كان أفضل بكثير من بطليموس مثلما كان المقدونيون أفضل بكثير من المصريين. ولو وجدنا الخضوع للذين غلبونا عاراً فلأيّ سبب نختار من لم يغلبنا سيّداً؟ ألأننا نريد الاعتراف برئيسين بدلاً من رئيس واحدٍ؟ فنهرب من وجه أنتيغونس لنتزلّف إلى [بطليموس]؟ أم أنك تلجأ إلى مصر بسبب والدتك؟ سيكون في الواقع منظراً جميلاً ممتعاً حين تعرض ابنها لأنظار نساء بطليموس، لا بوصفه أميراً، بل عبداً منفياً. أولسنا بعد سادة سيوفنا؟ وفي الوقت الذي ما تزال لاقونيا على قيد النظر منا ألا يجمل بنا أن نحرّر أنفسنا من هذا الشقاء المخزي، ونبرّئ أنفسنا أمام أولئك الذين سقطوا في سيلاّسيا صرعى، إعلاءً لشرف سپارطة ودفاعاً عنها؟ أم قُضي علينا أن نقعد في مصر متسكّعين نتسقط أنباء سپارطة ونتساءل عمّن شاءت إرادة أنتيغونس أن تنصّبه حاكماً للقيديمين؟

هذا ما قاله ثيريكيون. وهذا هو جواب كليومينس عليه:

- باطّلابك الموت أيها الجبان - وهو أسهل وأدنى ملاذٍ - تتصوّر أنك ستبدو بطلاً مغواراً، إن هذا النوع من الفرار هو أشدّ خزياً من الفرار الأول. رجال أفضل منا بكثير خفضوا جناح الذل لأعدائهم بعد أن عاندهم الحظ، أو وقفت شعوبهم ضدهم. لكن من يستسلم ويسقط تحت عبء الضنى والقنوط وتحت وطأه خطل رأي الرجال وسوء نصيحتهم إنما ينزل عن نصره، بسبب جُبنه وخنوثته. فالموت الاختياري يجب استبعاده كوسيلة للخلاص من العمل، وإن اخترته فكعمل مثاليّ قائم بذاته. ومن العار أن نموت أو أن نحيا لأنفسنا فحسب. إن الموت الذي تدعوني إليه الآن انمّا يُطلب لخلاصنا من شقائنا الحاضر، وليس فيه نبلٌ ولا جدوى. وأرى أنه يجدر بنا نحن الاثنين أن لاندع لليأس من حال بلادنا سبيلاً لأنفسنا. وعندما نفقد الأمل تماماً، فلا بأس أن يختار كل واحد أسرع ميتة يراها.

لم يجبه ثيريكيون. لكن ما إن حانت له فرصة الوقوف في أحد السواحل، حتى نزل وبخع نفسه.

أقلع كليومينس من أيگياليا وأرسى في ليبيا. وكان سفره إلى بلاد الملك محفوفاً بالإكرام والرعاية إلى أن بلغ الإسكندرية. ولم تزد مقابلته الأولى للملك على عبارات المجاملة المعتادة، ولم يلق أكثر من الحفاوة الرسمية، لكن الأمور تغيّرت فيما بعد. فقد تبيّن له بعد تجربته أن كليومينس رجل عميق الحسّ راجح العقل، يخالط أسلوب حديثه اللاقوني البسيط نبلٌ ورقّة محبّبة. وأنه لم يفعل شيئاً غير جدير بأصله العريق ولم يحنِ هامته لتصاريف الحظّ. وبدا له أخلص مستشارٍ من بين أولئك الذين كان التزلّف والتحبّب شغلهم الشاغل. فأدركه الخجل وندم لإهماله هذا الرجل الكريم، وأنّبه ضميره لأنه تسبّب في أن يحرز أنتيغونس هذه الشهرة العظيمة على حسابه. فانقلب سلوكه تجاهه، وأظهر له كثيراً من المودة والانعطاف ووعده بأن يجهّزه بسفن ويمدّه بالمال للعودة إلى بلاد الإغريق وتبوّؤ عرش مملكته. وخصّص له مرتّباً سنوياً قدره أربعة وعشرون تالنتاً. كان كليومينس ينفق القليل منه على نفسه وأصحابه لما طبعوا عليه من الاكتفاء بالحدّ الأدنى من وسائل العيش. أما الباقي فكان يستخدمه لستر خِلّة المحتاجين من لاجئ الإغريق إلى مصر. إلاّ أن بطليموس العجوز توفّي قبل أن يخرج وعده لكليومينس إلى حيّز التنفيذ. وكان خلفه ملكاً متحللاً، شهوانياً، زير نساءٍ، واقعاً تحت تأثير خمره وحريمه. فأهمل شأن كليومينس بسبب انشغاله بملذّاته ونسائه. وكان أحفل ساعاته بالعمل وأكثرها جدّية هي مساهمته في الاحتفالات الدينية المقامة في

قصره. فتراه ينقر الدفّ ويشارك في المراسم حين تولّى عنه تصريف شؤون الدولة الهامة حظيّته أغاثوكليا Agathoclea وأمّها والقائد أونانتس Oenanthes. في مبدأ الأمر كان يبدو أن هؤلاء في حاجة إلى كليومينس. لأن بطليموس الراحل كان يخشى أخاه ماغاس Magas الذي تبوّأ مكانة كبيرة في قلوب الجنود بمساعي أمّه، فأفسح لكليومينس بين مجلس شوراه الخاص وأطلعه على خطة ترمي إلى قتل أخيه. إلاّ أن كليومينس عارض الجميع بقوله: يجب أن يكون للملك إخوة كثيرون على قدر المستطاع، فلهذا اثر كبير على أمنه واستقرار أحواله.

فردّ سوسيبيوس Sosibius بأنهم لا يأمنون من إخلاص الجنود المرتزقة ما دام ماغاس حياً. فقال كليومينس لا حاجة بهم إلى القلق من هذه الجهة. ففي المرتزقة أكثر من ثلاثة آلاف پيلوپونيسيي وهم أصحابه وبإمكانه أن يقودهم في أي وقت يشاء بإيماءة منه. بعد هذا الحديث بدا لهم كليومينس شخصاً لا مطعن في إخلاصه، يستطيع أن يستخدم نفوذه الكبير لمصلحتهم. إلاّ أن الضعف الذي كان يشكو منه بطليموس الابن أثرّ على مخاوفه وزاد فيها. وعندما تُفتقد الحكمة وسداد الرأي ينزل الشعور بالأمن إلى وهدة الشك العام وعدم الثقة. وهذا ما جعل كليومينس موضع ريبةٍ عند رجال الحاشية بوصفه صاحب نفوذٍ عظيم لدى المرتزقة. وأصبحت هذه المقولة على كل شفة ولسان في القصر «إن كليومينس في البلاط أشبه بأسدٍ بين النعاج». هكذا كان يبدو في البلاط حقاً: يراقب بهدوءٍ ويتابع ببصيرته النافذة كل ما يجري.

ونبذ كل فكرة بطلب سفن وجنود من الملك. على أن الأنباء وصلته بموت أنتيغونس وبأن الأخائيين مشتبكون في حربٍ مع الأيتوليين وأن أحوال الپيلوپونيسيس قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والانحطاط وهي تتطلب بل ترغب في الاستعانة به. فطلب الإذن بالرحيل مع أصحابه فحسب. فلم ينل بُغيته ولم يُتح له المجال ليكلّم الملك بهذا، لأن الأخير منصرف بكلّيته إلى نسائه وقد أغلق بابه بوجه كل أحدٍ منفقاً أوقاته في إحياء الحفلات الباخوسية، وإقامة مجالس الشراب. وفكّر سوسيبيوس الوزير الأول بأن احتجاز كليومينس ضد رغبته سخيف ويجعل منه إنساناً مشاكساً، كما أن المحذور من السماح له بالعودة قائم. فهو رجل مِقدام ذكيّ أريب، مطّلع على علل المملكة ومواطن الضعف فيها. ولم تكن الهدايا والعطايا لترضيه وتسكّن من ثورته. إنه كالثور المقدّس أپيس، ففيما هو يعيش منعّماً بكل ما يمكن توفيره له من راحةٍ ورزق وفير، وعلى مايبدو فيه من الرضا والسعادة، تراه يحنّ أبداً إلى العيش على ما تجود به الطبيعة، وأن يطلق سراحه ليمرح ويرعى بحرية متجوّلاً على رسله في الحقول بعيداً

عن مضايقات الكهنة ورعايتهم. كذلك كان أمر كليومينس ما عاد يطيق مجاملات البلاط ودعواتهم الرقيقة، وظلّ مقيّد الدار كأخيل:

«. . . مُضنى. . . بعيداً، يتمنّى القتال، وصيحة الحرب».

ظلّت أحواله هكذا حتى قدم نيكاغوراس Nicagoras إلى الإسكندرية. وكان هذا يكنّ له أشدّ البغض، إلا أنه يتظاهر بصداقته. وسبب ذلك أنه كان قد باع من كليومينس عقاراً جيد الغلّة، ولم يقبض ثمنه، ربما لأن كليومينس كان يشكو ضيق ذات اليد، وربما لانهماكه في حروبه وما شاكل ذلك من المشاغل فلم يتيسّر له الوفاء. ولمحه كليومينس وهو ينزل البرّ، يتنزه على الرصيف فأقبل عليه وحياه بمودّةٍ وسأله عمّا أتى به إلى مصر؟ فشكر له نيكاغوراس تحيّته وقال إنه قدِم ليعرض على الملك صفقة من الخيول الحربية الممتازة. فقال كليومينس باسماً:

- وددت له عرضت عليه صفقة من الغلمان والمغنّيات الصغيرات فهذا هو ما يهتمّ به الملك في الوقت الحاضر.

فضحك نيكاغوراس مستغرباً من هذا، ومضى لطيّته. وبعد أيام قصد كليومينس وذكّره بالعقار الذي ابتاعه، وطالبه بالثمن معتذراً بأنه ما كان ليزعجه لو أنه أصاب من بضاعته الربح الذي أمله.

فأجاب كليومينس بأنه لم يفضل لديه شيء مما أجري عليه. فتركه نيكاغوراس غاضباً وقصد سوسيبيوس وقصّ عليه مزاح كليومينس وسخريته بالملك. فسرّ الوزير بمعلوماته. إلاّ أنه كان يحتاج إلى سبب أكثر إثارة لحقد الملك عليه. فأقنع نيكاغوراس. أن يترك لديه رسالة تدين كليومينس وتدلّ على أنه يضمر خطة للانقضاض على جزيرة كيرين حالما يتوفر له الجند والسفن. فكتب نيكاغوراس الرسالة المطلوبة وغادر مصر. وبعد أربعة أيام عرض سوسيبيوس الرسالة على الملك زاعماً أنها وصلته الساعة. فثار بها غضب الشاب وملكه الخوف. وتمّ الاتفاق أن يدعى كليومينس إلى منزل واسع فإذا دخله لا يخرج منه وأن يعامل بالشكل اللائق الذي اعتاده دون نقصان.

هذا الإجراء آلم كليومينس كثيراً. فركبه. وزاد في الطين بلّة حادثة أخرى فيها قرأ السلام على آماله. وودّع آخر رجاء له. كان بطليموس ابن خريسيوماس Chryseumas أحد المقرّبين إلى الملك، ولطالما أظهر المودّة واللطف لكليومينس حتى توثقت عُرى الصداقة فيما بينهما وارتفعت الكلفة فكانا يتحدّثان في الشؤون العامة دون تحفّظ أو وجل. طلبه كليومينس فجاءه وكلّمه بما طيّب خاطره، وهدّأ من روعه وبدّد شكوكه،

واعتذر عن سلوك الملك حياله. ولكنه وهو في طريقه إلى الخارج انثنى إلى الحرّاس يعنفهم لإهمالهم في مراقبة كليومينس:

«. . . هذا الوحش الضاري العظيم الشديد الشراسة. . .».

ولم يدرِ أن كليومينس كان خلفه وقد سمع كل ما تفوّه به.

أسرع كليومينس إلى رفاقه وأخبرهم بما سمع ورأى. وعندئذ نبذوا آمالهم السالفة وعزموا على اتخاذ العنف وسيلةً، وقرروا الانتقام من بطليموس لخسّته ودناءته وأن يغسلوا الإهانة ويموتوا الميتة الجديرة بالسپارطيين، لا أن يظلوا ساكتين حتى يُذبحوا كالأضاحي المسمّنة. لقد كان من المؤلم والمخزي لكليومينس الذي ترفّع عن مفاوضته أنتيغونس - المحارب المقدام ورجل الأفعال الجسام - أن ينتظر فرصته لمفاتحة ملك مخنّث بأمره، حتى يلقى دُفّه جانباً، ويرفض طلبه ثم يقتله.

وتمّ الاتفاق على الخطّة. وصادف أن بطليموس أزمع السفر إلى كنوپوس Canopus وقتذاك. فأشاع أصحاب كليومينس أن الملك قد ردّ إليه حريته، ولما كانت العادة تقضي أن يرسل الملك هدايا ومطاعم لمن يطلقه من أساره، فقد هيّأ ذوو كليومينس كلّ ذلك وأرسلوه إلى محتجزهم ملقين في روع الحرس بأن ما أرسلوه هو من الملك. فقرّب كليومينس للآلهة، ودفع بجزءٍ كبير مما جيء به إلى الحرس. ووضع إكليل زهر في رأسه وأخذ يلهو ويقصف مع خلاّنه، متظاهراً بالفرح والغبطة. وقيل إنه بدأ في تنفيذ خطته قبل التوقيت الذي قرّره لها، بعد أن علم أن خادماً مطّلعاً على سرّ الخطة قد خرج لزيارة معشوقته وهذا ما جعله يعجّل بها خشية انكشافها. فما إن نشر البدر ضياءه، والحراس في نومٍ عميق من تأثير الخمر حتى بادر فارتدى زرده، وفتح كمّه الأيمن لتكون ذراعه أكثر حرية وامتشق سيفه واندفع إلى الامام مع أصحابه وهم بنفس الهيئة. وكان عددهم جميعاً ثلاثة عشر، بينهم هيپتياس Hippitas الأعرج الذي لحق بهم رغم عرجه في الهجوم الأول، ولما أدرك أن بطأهم كان بسببه طلب منهم أن يقضوا عليه وأن لا يتلفوا عملهم بانتظار شخص قاصرٍ لا فائدة منه. واتفق أن إسكندرانياً كان ماراً على ظهر حصانه فأنزلوه وأركبوا هيپيتاس عليه واندفعوا يطوفون في الشوارع منادين بالحرية للشعب. ولم يكن لدى الإسكندرانيين من الشجاعة إلاّ بمقدار الإعجاب بكليومينس ومدح جسارته، ولم يجد أحد منهم في نفسه الجرأة للانضمام إليه ومساعدته. وانقضّ ثلاثة منهم على بطليموس ابن خريسوماس وهو في طريقه إلى القصر فذبحوه. وتقدم نحوهم بطليموس آخر، هو الضابط المكلف بأمن المدينة، وكان راكباً عجلةً فهجموا عليه وفرّقوا حراسه واتباعه وجذبوه من فوق العجلة

وقتلوه. ثم اتجهوا نحو القلعة يريدون كسر أبواب السجن وإطلاق سراح من فيه علّهم يستفيدون من بعضهم، إلاّ أن الحراس كانوا يقظين لهم فأحكموا سدّ المدخل. ولما أخفقوا في محاولتهم هذه أخذوا يتجولون في المدينة على غير هدىً. ولم ينضم إليهم أحدٌ وكان الناس يهربون من أمامهم ويختفون حال اقترابهم. وأدرك كليومينس اليأس من أي نجاح وقال لرفاقه:

- لا عجب أن تحكم النساء الرجال، فهم يخافون الحرية.

وأوصاهم أن يموتوا بتلك الشجاعة الجديرة بأتباعه وبمآثرهم في المعارك السابقة التي خاضوها. ثم هوى كل واحدٍ منهم على حَدّ سيفه. وكان أولهم هيپيتاس فقد قضى عليه أحد رفاقه الشبان. وبقي پانتيوس وهو القائد الذي ارسله كليومينس لمباغتة ميغالوپوليس وكان شاباً جميلاً للغاية، ومن أشدّ المتمسكين بالانضباط السپارطي، وهو أعزّ أصدقاء كليومينس. ولمّا رآه مع البقية صرعى استلّ خنجره وراح يتنقل فيما بينهم وهم صرعى ويخز كل واحدٍ منهم بذبابه خنجره ليتأكد من موته على الطريقة السپارطية. وانتهى إلى جسد كليومينس فوخز كاحل ساقه فانقلب هذا على ظهره، فانحنى بانتيوس وقبّله وجلس بالقرب منه حتى أسلم روحه، فغطى جثته، ثم قتل نفسه.

هكذا قضى كليومينس نحبَه بعد الحياة التي قصصنا حوادثها، وبعد أن حكم سپارطة ستة عشر عاماً. وانتشر خبر مصرع الثلاثة عشر في طول المدينة وعرضها. ولم تقوَ كراتيسيكليا على تحمُّل هول الصدمة وطحنها الأسى وان كانت معروفة بقوة العزيمة، فعانقت طفلي كليومينس وانخرطت في بكاء وعويل. ولم يكن أحد يتوقع أن طفله الأكبر ذو روح وثّابة مثله. فقد قذف بنفسه من أعلى السطح وسقط مهشّماً مرضوضاً ولكنه لم يمت، فحُمل وهو يصيح مستنكراً منعهم له من قتل نفسه. وما إن أُبلغ بطليموس الملك بتفاصيل الحادث حتى أمر بسلخ كليومينس وتعليقه، وبقتل ابنيه وأمّه وسائر النسوة اللاتي جئن مع اللاجئين السپارطيين هؤلاء.

وكان بينهن زوج پانتيوس وهي فتاة جميلة نبيلة التقاطيع لم يمر كثير على زواجها وقد مرّت بها هذه المصائب وهي في أوج حبها. منعها أبواها من الإبحار مع پانتيوس على أثر تمام الزواج، فأبت ورغبت اللحاق به فحبساها في البيت رغم أنفها. لكنها تمكّنت بعد أيام قليلة من الحصول على حصان وشيء من المال وهربت ليلاً. وانطلقت تسابق الريح حتى بلغت تيناروس ومنها أبحرت إلى مصر وانضمّت إلى زوجها وتحمّلت معه بطيب خاطر حياة المنفى. مدّت يدها إلى كراتيسيلكيا لتعينها وهي

سائرة بين الجنود إلى ساحة الموت. ورفعت ثوبها وشجّعتها. ولم يكن يبدو عليها أي رهبة من الموت، وكان طلبها الوحيد أن تموت قبل الطفلين. وعندما بلغن محل التنفيذ بدئ بقتل الطفلين أمام عيني كراتيسيكليا. ثم حان دورها فقالت قبل أن يجري فيها حكم بطليموس:

- واهٍ لكما أيها الطفلان! إلى أين تراكما ذاهبان؟

إلاّ أن زوج پانتيوس وكانت امرأة ذات قوةٍ لمّت حولها أطراف ثوبها وبهدوء تامّ وصمت راحت تُعنى بجثث القتيلات. وأسجتهن على الأرض بشكل مقبول على قدر ما يسمح به الظرف واحدة بعد الأخرى. وبعد أن تم التنفيذ في جميعهن حان دورها، فأعادت تنظيم ثوبها وجمعته إلى جسدها ولم تقبل بأن يتقدم أحد منها أو يكون شاهد عيان لموتها ماعدا الجلاّد. وانتظرت الضربة بشجاعة. ولم توصِ بأن يرعاها أحد أو يقوم بربطها بعد موتها. وهكذا بدا حياءُ عقلها في موتها، إذ جعلته حارساً على جسمها. وكذلك كانت دائماً في حياتها، فأظهرت في عصر انحلال السپارطيين أن النسوة منافسات متفوّقات على الرجال وضربت مثلاً في الشجاعة فاق تحدّيات الحظّ.

بعد أيام قليلة لاحظ المتفرجون على جثة كليومينس المعلّقة حيّة كبيرة ملتفّة حول رأسه تغطي وجهه وتمنع اقتراب الطيور الجارحة منه. وهذا ما ملأ الملك بالوساوس المخفيّة فأمر النسوة بمباشرة مختلف الكفّارات، كأن شخصاً غير عادي، أو مخلوقاً محبوباً من الآلهة، قد قُتل. وأحيا الإسكندرانيون مآتم دينية في الموضع ومنحوه لقب البطل وابن الآلهة. إلى أن أقنعهم الفلاسفة بخطلهم، بقولهم: كما أن الثيران تنسل النحل، والخيول تستولد الزنابير، والحشرات تخرج من رِمَم الحمير الميتة، كذلك عصير وأخلاط[٢] مخّ الإنسان فإنه يتخثّر فتولد منه الأفاعي. وقد لحظ القدماء ذلك. فجعلوا الحيّة رمزاً للبطل - دون سائر المخلوقات الأخرى.

---

(٢) الأخلاط الأربعة هي عند القدماء: الدم والبلغم والصفراء والسوداء. وقد زعم أطباؤهم أنها تقرّر صحّة الإنسان وسقمه ومزاجه.

طيبريوس غراكوس

GRACCHUS
(Tiberius Sempronius)

١٦٢-١٣٣ ق.م

بعد أن فرغنا من عرض السيرتين الأوليين، نبدأ الآن في استعراض حياتي اثنين من الرومان لم يكن سوء الحظّ الذي لقياه بأقل من سوء حظّ قرينيها أغيس وكليومينس. طيبريوس وكايوس ابنان شقيقان لطيبريوس غراكوس الذي تولى مرةً منصب الچنصور ومرتين منصب القنصل، ونال موكبَي نصر. ولكنّ شهرته وسُمعته تعود بالأغلب إلى فضائله ومكارم خلقه لا إلى أمجاده والمناصب التي تقلّدها. ولهذا أقدم بعد موت سكيپيو قاهر هنيبعل على خطبة بنته كورنيليا ولم يكن ثمّ صداقة أو علاقة بينه وبين سكيپيو وربما كانت ثمّ جفوة. وتروى عنه حكاية مؤدّاها أنه وجد يوماً في غرفة نومه حيّتين فاستشار العرّافين في هذه الخارقة، فمنعوه من قتل الاثنتين أو تخلية سبيلهما. وقالوا إن قتل الذكر سيؤدّي إلى موت طيبريوس وإن قتل الأنثى سيؤدي إلى موت كورنيليا. وكان طيبريوس شديد الحبّ لزوجه وفكر أن الموت أقرب إليه منها لكونه كبير السنّ. وهي ما زالت صغيرة فعمد إلى قتل الذكر، وترك الأنثى لشأنها. وتوفّي بعد حين تاركاً اثني عشر ولداً من كورنيليا.

واضطلعت كورنيليا بتدبير شؤون المنزل وتربية أولادها فكانت خير ربّة بيت، وأعظم الأمّهات محبّة، وأكثر الأرامل وفاءً ونبلاً. حتى بدا طيبريوس على جانب عظيم من الرجاحة عند اختيار الموت في سبيل هذه المرأة، التي بلغ وفاؤها أن عرض عليها بطليموس الملك تاجه فأبت الاقتران به وفضّلت عيشة الترَمُّل وبقيت هكذا إلى الأخير. وثكِلَتْ أولادها إلاّ ابنة واحدة، زوّجتها من سكيپيو الأصغر، وابنين هما طيبريوس وكايوس وهما موضوع دراستنا هذه.

كانت العناية التي بذلتها الأم في تثقيفهما عالية حتى بدا وكأنهما مدينان بفضائلهما إلى ذلك أكثر مما هما مدينان لمنبتهما ولمواهبهما الطبيعية. فهما بين رومان عصرهما في المقدمة. أقرب المثال، وبالاختلاف الملاحظ في هذين الشابين النبيلين، هو التماثيل والصور التي نُحتت للالهيْن كاستور وپوللوكس فمع تشابههما فهناك فروق تبدو

في كل منهما. أولهما كان يهوى حلبة الملاكمة، وثانيهما كان مجلّياً في ميادين السباق. فالتشابه العام بين الأخوين غراكوس قويّ من ناحية الخُلق. كلاهما عُرفا بثبات العزيمة وضبط النفس والسخاء والفصاحة والذكاء. إلاّ أن نشاطهما وشكل معالجتهما للمسائل العامة يختلفان فيما بينهما اختلافاً كبيراً. وليس من قبيل الشذوذ عن الموضوع أن نبدأ بتعيين وجوه الاختلاف هذه:

فمن ملامح طيبريوس، وتعابيرها، ومن إيماءاته وحركاته؛ يظهر أنه رقيق الحاشية، هادئ الطبع، في حين يظهر كايوس عنيفاً في غاية الجدّ. وينعكس هذا في خطبهما الجماهيرية السياسية. فالأول ذو أسلوب رزينٍ منظّم، يقف على المنبر فلا يتحرّك حتى ينهي خطابه. والثاني تراه لا يستقرّ في مكان فيسِّير ويتنقل جيئة وذهاباً، ويجتذب عباءته حتى تنحسر عن كتفيه، وهو أول روماني يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب. كما قيل إن كليون Cleon كان أول خطيب من الأثينيين نزع عباءته وضرب فخذه عند توجّهه بالخطاب إلى الجمهور. كانت خطب كايوس عاطفية عنيفة، صريحة إلى أقصى حَدّ. أما خطب طيبريوس فكانت منطقية مُقنِعة رقيقة تثير الرثاء، وأسلوبه نقيّ لا شائبة في فصاحته. أما أسلوب كايوس فهو حماسيّ فخم. ويمكن قول هذا عن عيشهما ومأكلهما، فطيبريوس بسيط العيش زاهدٌ، وكايوس - لو قورن بغيره - معتدل متزمّت. الا أنهما نقيضان في حبّ الأشياء النادرة والأزياء الجديدة، كما يبدو من اتهامات دروسوس Drusus لكايوس: فقد روى أنه ابتاع دولفينات فضيّة بألف ومائة وخمسين درهماً للپاون الواحد وزناً. والفرق يبدو أيضاً في مزاجيهما. فأولهما أنيس متّزن. والثاني خشِن عاطفي تستاقه العاطفة وهو في أوج خطبته فتنسيه نفسه ويفقد سيطرته على صوته وتتغيّر نبراته الاعتيادية، وينحدر إلى البذاءة والنبوّ، فيُتلِف خُطبته. ولمعالجة هذا الاندفاع عمد إلى استخدام خادمٍ حاذقٍ اسمه ليشينيوس كان يقف خلفه عندما يخطب، وبيده مزمارٌ خاص لتنظيم طبقّات الصوت ونبراته، فكلّما شعر بتغيّر نبرة سيّده وتبيّن حدّة الغضب فيه نفخ بمزماره نغمة هادئة، ما يسمعها كايوس حتى يوقف اندفاعه العاطفي فيأخذ صوته بالانخفاض، وترتخي أعصابه ليعود إلى الحالة الطبيعية.

تلك هي وجوه الخلاف بين الأخوين. إلا أنهما كانا صِنْوَين في الشجاعة والإقدام اللذين أظهراهما في الحروب، وفي عدالتهما وعنايتهما بمصالح الشعب، وفي تفانيهما بأعمالهما وواجبات مناصبهما، وبضبط النفس في ما يتصل بملذّاتهما.

وكان طيبريوس يكبر أخاه بتسع سنوات. فبعُدت الشقّة بين جهودهما العامّة

بالعامل الزمني. فكان هذا أحد الأسباب الرئيسة التي أودت بمشاريعهما وخططهما السياسية. إذ تعذّر توحيد تلك المجهودات والمشاريع، ولولا ذلك لكانت القوة المتولّدة من تكاتفهما في وقت واحد كفيلة بالتغلّب على أية عقبة وسحق كل مقاومة. وبعد هذا كله علينا أن نقصّ سيرة كل من هذين الأخوين على انفراد ولنبدأ بأكبرهما.

ما إن بلغ طيبريوس مرحلة الرجولة حتى كانت سُمعته طائرة وصيته ذائعاً. حتى أنه قُبِل في هيئة الكهنة المتنبّئين، بالأكثر لفضائله المتكاملة، لا لعراقة نسبه. وقد تأيّد هذا بما أقدم عليه أبيوس كلوديوس Appius Claudius رئيس مجلس الشيوخ الروماني وقتذاك، والقنصل والچنصور قبلها. وهو رجلٌ راجح لا يجهل قدر نفسه ولا مكانته الرفيعة. هذا الشخص وُجِد في احتفال ديني عام للكهنة العرّافين فتوجّه إلى طيبريوس بخير العبارات وألطفها وعرض عليه بصراحة يد ابنته، فبادر طيبريوس إلى القبول بكلّ سرور، فتم العقد. وعاد أبيوس إلى منزلة. ونادى زوجه بصوت عالٍ ورجله فوق العتبة، وقال:

- يا أنتستيا! لقد اخترت زوجاً لابنتي وأتممت العقد.

فأجابت وهي مشدوهة:

- ولِمَ هذه العجلة؟ وما معنى هذه السرعة، إلا إذا كنت قد عقدت لها على طيبريوس غراكوس؟

لست أجهل أن بعضهم يعزو الحكاية إلى كلّ من طيبريوس رأس أسرة غراكّي Gracchi وسكيبيو أفريقانوس. إلاّ أن معظمهم يرويها كما أثبتناها. ويكتب پوليبيوس أن أقرب أقرباء كورنيليا بعد وفاة أبيها سكيپيو فضّل طيبريوس الابن على كلّ الخاطبين الآخرين فزوّجها له، وإن أباها لم يعقد لها على أحد ولم يعد بها شخصاً.

ولذلك ترى طيبريوس الشاب يخدم في أفريقيا تحت إمرة سكيپيو الأصغر زوج أخته، فيساكنه الخيمة. وسرعان ما تعلّم كيف يقدّر روح قائده النبيلة حق قدرها. فقد كانت صالحة جداً لإثارة دوافع قوية للمنافسة على الفضائل، والرغبة في إقامة الدليل على الكفاءة. ولم يمرّ عليه طويل زمن حتى فاق شبان الجيش كلّهم في ميزتي الطاعة والإقدام. وكان أول من تسلّق أسوار العدوّ على ما ذكره فانيوس Fannius الذي يشاركه في العمل. وكانت المحبة والمودّة تكتنفانه من كل جانب طوال وجوده في الجيش حتى أسف الجميع عند رحيله، وتمنّوا رجوعه.

ولمّا عُيّن كويستوراً - بعد هذه الحملة - شاء سوء طالعه أن يلحق بإمرة كايوس مانشينوس Caius Mancinus القنصل في الحرب الدائرة ضد النومانتيين

Numantines. كان هذا الجنرال حسن الخلق لا مطعن فيه. لكن لازمه سوء حظٍّ لم يلازم مثله أيّ قائد روماني آخر، فلم يتغيّر مسلك طيبريوس إزاءه مطلقاً بسبب النكبات العظيمة التي لقيها قائده والإخفاق الشنيع الذي مُنِيَ به. وكان أكثر الإعجاب بطيبريوس متأتياً من احترامه العظيم لقائده فضلاً عن رجاحة عقله وشجاعته، وهذا ما كان بارزاً فيه كل البروز ومدعاة للتقدير. والجنرال نفسه كان ينسى جلال منصبه وهيبته عندما تحزب به الأمور وتكتنفه الخطوب. فبعد أن لم يحالفه التوفيق في عدد من الوقعات الهامّة حاول ترك معسكره والانسحاب ليلاً، فعلم النومانتيون بذلك وترصّدوا له وأسرعوا باحتلال معسكره وبتعقيب القسم المنسحب من قواته. وقتلوا من حرس مؤخرته خلقاً كثيراً، وشرعوا يتعرّضون للقسم الأكبر من كل صوب، حتى أرغموه على الالتجاء إلى أرضٍ صعبة لايستطيع منها نجاة، وأسقط في يد مانشينوس وأدركه اليأس من شقّ طريقه بالقوة. فأرسل يطلب الهدنة والصلح. إلاّ أن النومانتيين رفضوا التفاوض إلاّ مع طيبريوس، لعدم ثقتهم بغيره لا لمتانة خلق الشاب وسمعته الداوية بين الجنود، بل إكراماً لذكرى أبيه الذي أخضع بالقوة قبائل عظيمة من الإسبان عندما كان يدير دفّة الحرب ضدّهم، لكنه صالح النومانتيين ونجح في إقناع الرومان باحترام ذلك الصلح، وعدم الإخلال بشروط مطلقاً.

فأوفد طيبريوس إلى العدوّ وتمّ الاتفاق على شروط الجانبين. وبهذه الوسيلة انقذ عشرين ألفاً من المواطنين الرومان خلافاً للخدم والأتباع في المعسكر كانوا سيهلكون لا محالة. على أن النومانتيين احتفظوا بكل ما وجدوه من أموال في المعسكر، ومما نهبوا سجلات طيبريوس المالية وفيها دوَّن كلَّ ما أجراه من معاملات صرفٍ وإنفاق خلال تولّيه منصب الكويستور. وكان شديد القلق عليها، عظيم الأمل في استعادتها. ولذلك ما إن واصل الجيش سيره حتى قفل راجعاً إلى نومانتيا ومعه ثلاثة أو أربعة من أصحابه لا غير. ورجا الضباط النومانتيين إعادة السجلات، قائلاً إنه سيتعرّض لتُهم يُلصقها به أعداؤه حين يعجز عن تقديم حساباته حول ما دخل ذمّته من أموال. وسُرَّ النومانتيّون به وحمدوا الفرصة التي أتاحها لهم لخدمته ودعوه إلى دخول المدينة. ولما تردّد أقبلوا عليه وأمسكوا يده راجين أن لا ينظر إليهم بعد اليوم نظرته إلى عدو، وان يثق بصداقتهم فيعاملهم على هذا الأساس. ورأى طيبريوس أنه يفعل حسناً لو وافق على الدعوة فقد كان شديد الرغبة في استعادة سجلاته، عظيم الخوف من الإساءة إلى مشاعرهم باظهار الريبة والشك فدخل مدينتهم وقدّموا طعاماً له وبكثير من الإلحاح والرجاء جلس وأكل. ومن ثمّ أعادوا إليه سجلاته، وخيّروه في استعادة ما شاء من

الأسلاب الباقية، فأبى أن يمدّ يده في شيء منها خلا شيئاً قليلاً من البخور الذي يستعمل في القرابين العامة. ثم إنه ودّعهم شاكراً بعبارة جميلة ورحل.

ووجد عند عودته إلى روما أن معاملاته المالية باتت هدفاً للطعون والاتهام، فكان إجراءً شائناً من الرومان لم يُسبق بمثيل له. إلاّ أن ذوي الجنود وأصحابهم وهم يؤلّفون فئات كبيرة من الناس كانوا يعتبرون طيبريوس منقذاً لعدد كبير من الرومان، وينسبون للقائد كل ما وقع من أخطاء. فأقبلوا على طيبريوس يشدّون أزره. وطالب المنذرون والمتهمون أن يقتدى بأسلافهم في معاقبة المسؤولين الرومان الذين يخرقون معاهدات روما مع جيرانهم. فيجرّدوا القواد بله كلّ الكويستورين والتريبيون الذين ساهموا بشكلٍ ما، وسلّموهم إلى السامنيت Samnites مثلاً، وجعلوهم يتحمّلون تبعات الحِنْث بالعهد والإخلال بشروط الصلح. لكن الشعب في هذه المرة أبدى تعلّقاً غير عادي بطيبريوس ولطفاً به. وقد صوّت فعلاً على تجريد القائد من رتبته وتكبيله بالأغلال وتسليمه للنومانتيين، لكنهم حبّاً بطيبريوس أعفوا كل الضباط الآخرين معه. وربما كان لتدخّل سكيپيو أعظم الرومان وأقواهم نفوذاً أثر في إنقاذه، وإن كان قد انتُقد لأنه لم يتدخّل لحماية مانشينوس. ولم يهتمْ هو نفسه بالمحافظة على شروط السلام التي توصّل إليها قريبه وصديقه طيبريوس مع النومانتيين. ولنا أن نعترض بأن اختلافهما وجفوتهما يعودان بالدرجة الأولى إلى طموح كل منهما، والى تأثير الأصحاب والناصحين، الذين كانوا كثيري الإلحاح على طيبريوس في إبداء المزيد من الاندفاع. على أن هذا الخلاف لم يصل إلى حَدّ القطيعة ولم يكن بالغ السوء. ولا أعتقد أن طيبريوس كان سيلقى ما لقي من نوائب لو اهتمّ سكيپيو بمعاونته وجعل من نفسه ظهيراً له. على أنه كان بعيداً منه، يقاتل في نومانتيا عندما برز طيبريوس في روما لأول مرةٍ سياسياً مشترعاً في المناسبة التالية:

كان الرومان عندما يستولون بالفتح على أراضٍ من جيرانهم، يبيعون قسماً منها بالمزاد العلني، ويحتفظون بالباقي للدولة (أراض أميريّة). ويُعهَد بهذه الأراضي إلى المواطنين الفقراء والمعوزين ببدل إيجار رمزيّ بسيط يدفعه المستغلّ إلى الخزينة العامة. ولكن الأغنياء أخذوا يعرضون بدلات إيجارٍ مرتفعة، فيُطرد الناس الأفقر منهم ويجرّدون من أراضيهم، ولهذا صدر مرسوم يحدّد المساحة التي يمكن للفرد استغلالها بما لايزيد عن خمسمائة فدّان (إيكر) فوضع حدّاً لجشع الأغنياء إلى حين، وكان عوناً كبيراً للفقراء الذين تمكنوا من الاحتفاظ بقطع أراضيهم المستأجرة من الدولة. إلاّ أن الأغنياء ما لبثوا أن اهتدوا إلى طريقة للاحتيال على القانون، لاستعادة الأراضي

والتصرف بأكثر من المساحات المقررة تحت أسماء أشخاص آخرين، وكفّوا عن الادّعاء بها علناً وكأنها لا تعود لهم. لم يعد الفقراء الذين جُرّدوا من أراضيهم بهذا الشكل يبدون أي استعداد كالسابق للانخراط في صفوف الجيش والخروج إلى الحرب. كما أهملوا تربية أولادهم. وبعد زمن قصير هبط عدد الرومانيين الأحرار في سائر إيطاليا ولم يعد فيها إلاّ نسبة قليلة، تدفّقت إلى محلات العمل والصنائع المكتظة بالعبيد الأجانب. كما استخدم الأغنياء بعضهم في أراضيهم المغصوبة بمثابة فلاحين أجراء.
وأخذ كايوس ليليوس Caius Lalius - وهو صديق مقرّب لسكيپيو - على عاتقه إصلاح الحال وإزالة الحَيْف لكنه لقي معارضة شديدة من ذوي الحول والطول فخاف الفتنة ونكص على أعقابه. فلُقّب «بالحكيم» و«البعيد النظر» وكلتا اللفظتين تؤديان إلى معنى الكلمة اللاتينية سايپان Sapiens

إلاّ أن طيبريوس الذي انتُخب تريبوناً للشعب اضطلع عنه بهذه المهمة دونما تردّد، بتشجيع ديوفانس الفصيح، وبلوسيوس Blossius الفيلسوف كما شاع في حينه. كان ديوفانس قد لجأ إلى روما من ميتلين، والثاني إيطالي جاء من مدينة كوما Cuma بعد أن تلقّى دراسته هناك على أنتيپاطر الطرسوسي الذي شرّفه أخيراً بإهدائه بعض مقالاته الفلسفية.

وعزا بعضهم إلى كورنيليا أمّ طيبريوس المساهمة في تشجيعه فقد كانت تشكو لولديها دائماً بأن الرومان يفضّلون مناداتها «بابنة سكيپيو» على مناداتها «بأمّ الغراكيين». ويزعم آخرون أن سپريوس پوستمليوس Spurius Postumius كان السبب الرئيس في ذلك. وهو رجل في مثل عمر طيبريوس ومنافس له في الشهرة بوصفه خطيباً جماهيرياً. فقد وجد طيبريوس عند عودته من الحرب أن تِربَه هذا قد سبقه كثيراً في مضمار الصيت والشهرة وان الاهتمام قد زاد بأمره. فقرر أن يبرّز عليه بتبنّي قضية عامة جماهيرية عسيرة المنال ذات آثارٍ خطيرة جداً. على أن شقيقه كايوس ذكر فيما خلّف من كتابات أن طيبريوس عند رحيله إلى نومانتيا مجتازاً توسكانيا ارتاع لرؤيته الريف الإيطالي يكاد يكون بلقعاً مقفراً من البشر، ولم يجد مزارعين أو رعاة من طبقة الأحرار، ومعظمه مسكون بالبرابرة والعبيد المستوردين، فكان هذا أول حافز له على أتباع السبيل السياسي الذي أدّى به وبأسرته إلى الدمار. ومن المؤكد أيضاً أن الجماهير نفسها أثارت حميّته وشدّت عزماته ودفعته إلى الدعوة بالرقاع والكتابات على الجدران والأنصاب والشرفات وفيها تشجيع وحثّ شخصيّ له على الأخذ بيد المواطنين الفقراء وإنصافهم بإعادة أراضيهم إليهم.

على أنه لم يضع مشروع قانونه العتيد إلاّ بعد مشاورة وإسناد من المواطنين الذين تمتّعوا بأعظم المكانة والنفوذ والسمعة عند الناس، منهم كراسوس عظيم الكهنة، وموشيوس سكيفولا Mucius Scoevola المحامي الذي كان قنصلاً في ذلك الحين، وكلوديوس أپيوس حموه. ولم يسبق أن بدا قانون كهذا في اعتداله ورحمته، لاسيما أنه شُرع للوقوف في وجه الظلم والجشع. فأولئك الذين ينبغي أن ينزل بهم عقاب شديد لخروجهم على أحكام القوانين السابقة، أو أن ينزلوا على الأقل عن ادعاءاتهم في تلك الأراضي التي اغتصبوها فملكوها بدون وجه حق، سيكون لهم بموجب قانون طيبريوس المقترح حق التعويض النقدي لقاء التخلّي عن ادعاءاتهم غير المشروعة عند النزول عن الأراضي المضبوطة وإعادتها إلى مستغلّيها الشرعيين المحتاجين. لقد صيغ قانون الإصلاح هذا بكثير من الحذر والنعومة متغاضياً عن كلّ الصفقات المشبوهة السابقة، وحمد الناس له الاحتياط لمنع وقوع أيّ ظلم في المستقبل. ومع هذا لم يرضَ عنه رجال المال وكبار الإقطاعيين لجشعهم المفرط، وكرهوا واضعه حقداً عليه ولروح التخريب، فحاولوا تضليل الناس وإغواءهم وقالوا إن طيبريوس يهدف بمشروعه إلى إعادة تقسيم الأراضي وقلب الحكومة، ونشر الفوضى في كل مكان.

لكن مساعيهم خابت. فقد عُرف عن طيبريوس تبنّيه القضايا العادلة الشريفة، كما كان يملك من قوة العارضة والبيان ما يكفي ليجعل مشروعاً أقل وجاهة من هذا يبدو مقبولاً معقولاً. ولذلك ما كان بذلك الخصم السهل أو بالذي يؤمن جانبه. وقد اعتلى منبر الخطابة يوماً والجموع المحتشدة تحيط بالمنصّة وشرع يتكلّم دفاعاً عن الفقراء فقال:

- لكلّ وحشٍ ضارٍ في إيطاليا عرينُه ومغناه الخاص يستجمّ فيه وملجأه الأمين يقيل إليه. أما أولئك الذين يحملون السلاح ويعرّضون حياتهم للردى في سبيل سلامة بلادهم فليس لديهم ما يتمتّعون به غير الهواء والضياء. ولأنهم لا يملكون بيوتاً أو مواطن خاصة تراهم مكرهين على الانتقال من موضع إلى آخر مع أولادهم ونسائهم.

واستطرد يقول:

- يرتكب القادة خطأً مضحكاً عندما يحمّسون الجندي البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل «مذابح قرابينهم وأنصابهم المقدسة». في حين لايوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانية ممن يملك مذبحاً أو نصباً، بل بيتاً أو مأوى ورثوه من أسلافهم لكي يدافعوا عنه. إنهم في الواقع يقاتلون ويُقتَلون، لكن ليحافظوا

على غنى الآخرين وترفهم. يشار إلى هؤلاء المساكين بأنهم سادة الدنيا لكنهم في الواقع لايملكون قدماً واحدة من الأرض.

خطبةٌ كهذه يلقيها شخص صادق الشعور، قوي الروح، على مستمعين متعاطفين متحمّسين، لا تجد أمامها خصوماً قادرين على تفنيدها ومعارضة حُججها في تلك الساعة. لذلك أمسك المعارضون عن المناظرة والمناقشة، وقصدوا ماركوس أوكتاڤيوس التريبيون زميل طيبريوس. وكان هذا شاباً رصين الخلق معتدل المزاج صديقاً عزيزاً لطيبريوس، ولهذا أبى في مبدأ الأمر أن يقود المعارضة ضده. ولكن قاصديه ألحّوا كثيراً وكانوا من وجهاء القوم وممن لا يُردّ لهم طلب، فقبل بعد الجهد الجهيد. واضطلع بمهمة الحيلولة دون إقرار للقانون الجديد. وكانت القاعدة أن لكل تريبيون الحق في إيقاف تشريع أي قانون. ولا يملك زملاؤه حيلة تجاه ذلك لأن الإجماع شرط واجب وإن عارض واحد لا يُسنّ القانون ولا ينفّذ. فانزعج طيبريوس لهذا العمل، وبادر في الحال إلى نبذ مشروع قانونه المعتدل، مقدماً مشروعاً آخر أشدّ وطأة من سالفه على المذنبين فهو والحالة هذه أكثر استساغة وقبولاً عند العامة. وبمقتضى هذا المشروع الجديد يجب على المعتدين أن يتنازلوا في الحال عن كل الأراضي التي يتصرّفون بها خلافاً لأحكام القوانين السالفة دون تعويض. وعلى أثر ذلك بدأت مشادّة يومية بينه وبين أوكتاڤيوس كانت الخُطب سلاحها. إلاّ أنهما لم ينزلا إلى التراشق بالتهم الشخصية ولم يُسمع أن لسانيهما عثرا بكلمة نابية تحطّ من قدرهما وهما في حمّى العاطفة منساقين. إن الطبع النبيل وثمرة التهذيب الرفيع لا يتبدّى

«. . . في المجون الباخوسيّ والعربدة»

فحسب، بل في الخصومات السياسية والتنافس، حيث يكون العقل ضابطاً وعليه رقيباً. وعلم أن أوكتاڤيوس كان أيضاً ممّن خرقوا أحكام القانون السابق وهو يحتفظ بمساحات كبيرة من الأراضي الأميرية فطلب منه الكفّ عن معارضته. وعرض في سبيل المصلحة العامة أن يدفع عن أوكتاڤيوس بدل حصصه من جيبه الخاص، وإن كان ما يملكه ليس بالكثير. ولما رفض أوكتاڤيوس عرضه أصدر بياناً يُمنع فيه كل شخص يشغل وظيفة ذات طابع قضائي من ممارسة وظيفته حتى يُبرم أو يرفض القانون المقترح بالاقتراع العام. ثم إنه وضع الختم على أبواب هيكل زُحَل فلم يعد أمناء الخزينة يستطيعون إخراج مالٍ أو إدخاله. وهددّ بفرض غرامة كبيرة على كلّ پريتور يحاول تحدّي أوامره، فتوقف كلّ ذوي المناصب عن ممارسة شؤون وظائفهم لئلا يقعوا تحت طائلة العقوبة. وعلى الأثر لبس الأغنياء الملاكون وأصحاب الأراضي الكبار ثياب

الحداد، وخرجوا إلى المحلات العامة يروحون ويغدون بأسارير كالحة وأوجه تعلوها الكآبة. ثم عقدوا الخناصر على مؤامرة للقضاء على طيبريوس وهيّأوا القتلة. فلم يفته ما دبّروه ودأب على حمل عصاً في داخلها نصلٌ كتلك التي يستخدمها اللصوص وتُسمّى باللاتينية دولو Dolo.

وحَلّ اليوم المضروب أجلاً لإدلاء الشعب بأصواته في القانون، إلاّ أن الأغنياء ضبطوا الأواني الخاصّة بالاقتراع وذهبوا بها. فعمّت الفوضى. إلاّ أن حزب طيبريوس بدا كافياً لردّ الحزب المناوئ وتكتّل الأشياع حوله وقوي عزمُه على المضيّ في هدفه حتى النهاية. وعندئذ ألقى مانليوس Manlius وفولڤيوس Fulvius القنصلان بنفسيهما أمام طيبريوس. وأخذا بيده يتوسّلان إليه - والدموع تنحدر من أعينهما - بأن يعدل عن قراره. وكان طيبريوس يشعر بمغبّة الفوضى والاضطراب القائم، ويحترم هذين الرجلين الفاضلين، فطلب منهما أن يشيرا عليه بما يصنع. فأقرّا بأنهما غير صالحين لإبداء رأي في مثل هذا الأمر الجلل. إلاّ أنهما ألحّا عليه بأن يترك لمجلس الشيوخ مهمة الفصل في الموضوع. لكن لما اجتمع مجلس الشيوخ ظهر عجزه هو أيضاً عن التوصل إلى نتيجة بسبب تغلّب حزب الأغنياء. فوجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ سبيل مجافٍ لحكم القانون ولروح العدالة بأن اقترح عزل أوكتاڤيوس من منصبه. إذ كان من المستحيل أن يجد سبيلاً لإبرام القانون بالتصويت، إلاّ بعد إزاحة التريبيون المعارض.

في مبدأ الأمر أخذ يرجوه بأرقّ وأعذب خطاب. وأمسك بيديه وراح يتوسّل إليه قائلاً:

- الآن، وبمحضر من الشعب كله، يمكنك أن تنتهز الفرصة لتمنّ عليه وتتفضّل بهذا الطلب، وهو بحدّ ذاته مطلب عادل معقول. إنه لتعويضٌ تافِهٌ عن الأخطار والمصاعب الكثيرة التي تحمّلها المواطنون لأجل المصلحة العامة.

إلاّ أن أوكتاڤيوس ظلّ مصرّاً على موقفه ولم يتزحزح عنه قيد شعرة. وعندها توجّه طيبريوس إلى الشعب بقوله:

- لمّا كان كلانا يشغل منصباً واحداً ذا سلطة متساوية، فمن العسير تسوية الخلاف بين وجهات نظرينا في موضوع خطير كهذا بغير حرب أهلية. وفي رأيي أن العلاج الوحيد الذي لامناص من الأخذ به هو تنحية أحدنا من منصبه هذا.

وطلب من أوكتاڤيوس أن يدعو المواطنين لإصدار حكمهم عليه أولاً، وأكد له أنه سينزل عن سلطاته كلها بطيبة خاطر إن شاء الشعب ذلك. فرفض أوكتاڤيوس. فقال

طيبريوس إنه سيقوم هو نفسه باستطلاع رأي الجمهور في تنحية أوكتاڤيوس إن لم يغيّر رأيه بعد مناقشة مستفيضة. ثم أجّل الاجتماع إلى اليوم التالي.

ولمّا اجتمع الناس ثانيةً جلس طيبريوس على كرسي وظيفته. وحاول للمرة الثانية إقناع أوكتاڤيوس. فلم ينل منه فتيلاً، فوضع مصيره بيد الشعب طالباً منه أن يقترعوا عليه في الحال. وعندما أدلى سبع عشرة قبيلة من أصل خمس ثلاثين بأصواتهم ضدّ أوكتاڤيوس، ولم يتبق إلاّ صوت قبيلة واحدة لتتمّ تنحيته عن منصبه، أوقف طيبريوس عملية الاقتراع. وجدّد رجاءه واهوى عليه عناقاً وتقبيلاً أمام الجماهير المتحشدة متوسّلاً بإخلاص وحرارة أن يعدل عن رأيه، قائلاً إنه لا يريد أن يكون سبباً في إلحاق العار بأحدٍ، أو يوصم بتهمة تدبير وتنفيذ عملٍ كريه كهذا. ويقال إن أوكتاڤيوس ظهر عليه بعض التردد ولين الجانب وبدا متأثراً بهذا الرجاء الحار فامتلأت عيناه بالدموع وظلّ صامتاً برهةً من الزمن. إلاّ أنه أرسل نظره إلى حيث يقف الأغنياء والإقطاعيون كتلةً متراصّة واحدةً. وبدا نهباً موزّعاً بين الخجل وتحقير نفسه لديهم. فالتفت إلى طيبريوس ودعاه إلى استخدام أي إجراء ضده مهما كان صارماً. وعلى هذا حصلت الأغلبية بطرده من منصبه. فأمر طيبريوس أحد خدّامه المعوّقين يطرد أوكتاڤيوس من الروسترا، بدلاً من استخدام ضباط الأمن، الأمر الذي أضفى على العملية لوناً جديداً من الأسى. فجرّ أوكتاڤيوس إلى الخارج بهذا الأسلوب الشائن، وهجم عليه الجمهور، فخفّ الأغنياء لمعونته، وبشيء من الصعوبة رُفع أوكتاڤيوس رفعاً وأُخرج من بين الحشود الهائلة. إلاّ أن خادماً مخلصاً ثبّت نفسه أمامه سدّاً ليفسح له مجال الفرار بدرء مهاجميه ففُقئت عيناه، الأمر الذي أورث طيبريوس كثيراً من الحزن. وخفّ مسرعاً وقد أدرك أنها بوادر فتنة وعمل على تهدئة الهياج.

بعد هذا صُدِّق قانون الأراضي الجديد ووُضع موضع التنفيذ . وانتُخب مفوّضون ثلاثة لمسح الأراضي والإشراف على التقسيم بصورة عادلة. وهؤلاء هم طيبريوس نفسه، وكلوديوس أپيوس حموه، وكايوس غراكوس أخوه، الذي كان وقتذاك بعيداً عن روما في الجيش بإمرة سكيپيو أفريقانوس أمام نومانتيا. وتمّ تصريف كل هذه الأمور المتعلقة بتطبيق القانون بمعرفة طيبريوس دون عقبة، إذ لم يجرؤ أحدٌ على الوقوف في وجهه بعد أن وضع في محل أوكتاڤيوس المعزول شخصاً لا يمتاز بشيءٍ اسمه موشيوس وهو من الموالين له.

وحزّ في أنفس كبار القوم أن توجّه إليهم مثل هذه الإهانة. وخافوا أن تتعاظم شوكة طيبريوس وتزداد شعبيّته فلا يقف عن حدّ، فراحوا ينتهزون كل فرصة لإهانته

والتشهير به في مجلس الشيوخ. فعندما طلب تخصيص خيمةٍ له على حساب الخزينة، جرياً على عادة من يقوم بخدمة عامة كي يستخدمها في عملية تقسيم الأراضي، رفض طلبه رفضاً قاطعاً. مع أن مثل هذا الطلب يجاب بصورة عامة لمكلّفين بواجبات أقلّ أهميّة بكثير من هذا الواجب. كما أن العلاوة التي خُصّصت لنفقاته اليومية لم تزد عن تسع أوبولات. وكان پوبليوس ناسيكا Publius Nasica الرأس المدبّر لهذه الإهانات. لقد حقد هذا الشخص حقداً مكشوفاً على طيبريوس فهو إقطاعي كبير ضبط مساحات كبيرة من الأراضي الأميرية، وأرغم على التنازل عنها، ولذلك لم تكن ضغينته باليسيرة. أما الشعب فقد أخذ هياجه يتصاعد حتى بلغ درجة خطيرة تكشف عنها الحادثة التالية: توفّي أحد أصحاب طيبريوس بموت الفجاءة. ولوحظ أن بقعاً خبيثة انتشرت على جسمه، فأسرع الجمهور إلى جنازته بضجيج وعجيج وهم يصرخون بأن الرجل مات مسموماً، وحملوا النعش على أكتافهم ووقفوا على حراسته أثناء رفعه إلى المحرقة. كان في الواقع بعض ما يبرّر شكوكهم في وجود دسيسة لأن الجثة انفجرت وخرج منها مقدار كبير من الأخلاط الفاسدة أخمدت النار، فحاولوا إيقاد المحرقة عبثاً، ولم يروا بدّاً من نقل الجثمان إلى موضع آخر. وبعد لأيٍ تمكنوا من إشعال النار فيها.

وعمد طيبريوس إلى مضاعفة هياج الجمهور بأن ارتدى ثياب الحداد ودفع بأولاده إلى الناس طالباً منهم أن يتكفّلوا بإعالتهم مع والدتهم، ليظهر بمظهر اليائس من حياته.

وفي حدود ذلك الزمن أدرك الأجل الملك أتالوس الملقب فيلوميتر Philometer، وحمل يوديموس Eudemus البرغامومي وصيّته الأخيرة إلى روما، وفيها جعل أهالي روما كلهم ورثته الشرعيين. وأراد طيبريوس أن يُسرّ الشعب فاقترح فوراً أن يصدر مرسوم بتوزيع تركة أتالوس على فقراء المواطنين المستحقين قطعاً من الأراضي الأميرية، فما يصيبهم سيعينهم فعلاً على شراء الحيوانات وفلاحة أراضيهم. أما بخصوص المدن التي تقع ضمن حدود مملكة المتوفّى فقد أفتى بأن مجلس الشيوخ لا يحق له التصرف بها وإنما هذا من حق الشعب وهو الوارث، ولذلك فإنه سيسأل الشعب عمّا يرتئيه بشأنها. فكانت إهانة للمجلس لم يسبق أن واجه مثلها من قبل. وإذ ذاك نهض پومپيوس Pompeius وقال إنه جار ملاصق لطيبريوس وبذلك سنحت له الفرصة ليعلم بأن يوديموس البرغامومي أهدى طيبريوس تاجاً ملكياً ورداء أرجوان، على أساس أنه سيصبح ملكاً لروما بعد مرور وقت قصير. ووبّخه كوينتوس ميتيللوس Quintus Metillus أيضاً بقوله: عندما كان والده (أي والد طيبريوس) چنصوراً كان

الرومان يسارعون إلى إطفاء النور كلّما رأوه يمرّ في الطريق عائداً إلى داره لتناول العشاء، لئلا يشاهدهم غارقين في حفلات الشرب والقصف واللهو في وقت غير مناسبٍ. في حين يُرى اليوم أحطّ الدهماء والسوقة يطوفون ليلاً بأيديهم المشاعل ويمشون وراء طيبريوس حتى يبلغوا به منزله؛ أما تيطس أنيوس Titus Annius وهو شخص لا يتمتع بسمعة طيبة جداً، لا من ناحية الخُلق ولا من ناحية العدل، لكنه اشتهر بالبراعة في إلقاء الأسئلة والحذق في الإجابة، فقد انبرى يتحدّى طيبريوس برهاناً على أن يثبت أنه عزل حاكماً هو بحكم القانون شخصية مصونة قدسيّة. وتعالت الضجّة وغادر طيبريوس القاعة على جناح السرعة ودعا الشعب إلى اجتماع عام ثم طلب أنيوس وباشر في توجيه التهم إليه. لكنّ أنيوس وهو المتكلم البارع الذي لا يتحصّن وراء سُمعة أو مكانة كطيبريوس لجأ إلى حماية نفسه بالسلاح الذي أتقنه. فطلب أن يؤذن له بإلقاء سؤال أو اثنين على طيبريوس قبل الدخول في الموضوع الرئيس. فأُعطي له ذلك وساد الصمت فطرح أنيوس سؤاله كالآتي:

- إن كنت تنوي قذفي والتشهير بي، وأردتُ مراجعة تريبيون من زملائك للانتصاف لي، فيأتي هذا لمعونتي. أفيثور ثائرك لهذا السبب وتحكم بعزله؟

قيل إن طيبريوس ارتبك وانعقل لسانه فبقي صامتاً يبحث عبثاً عن إجابة، مع أنه عُرف بسرعة البديهة وحضور الذهن في أوقات أخرى. فعمد إلى فضّ الاجتماع. إلاّ أنه بدأ يدرك أن الطريق التي اتبعها مع أوكتافيوس قد خلقت ردَّ فعلٍ حتمياً بين جماهير الشعب فضلاً عن طبقة الأشراف، إذ بدا وكأن حرمة منصب التريبيون قد انتُهكت، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدسة أبداً. فتوجّه إلى الجمهور في خطبة يريد بها تبرير عمله، أرى من المناسب أن اجتزئ منها بعض الفقرات لتقوم دليلاً ولتكوّن فكرةً عن قوة حجّته ومقدرته الخطابية في إقناع مستمعيه. قال:

- إن تريبيون الشعب يتمتع بشخصيّة قدسيّة فعلاً. ومن الضروري أن تكون تلك الشخصية مصونة محصّنة. لأن صاحبها وقفٌ على الشعب مكرّس لحراسته وحمايته بوجه من الوجوه. لكن إن انحطّ وتردّى إلى الحدّ الذي يضطهد الشعب ويقلّص سلطته ويصادر حقّه في الاقتراع، فأفعاله هذه تجرّده من شرف الحصانة والصيانة، لإهماله الواجب الذي تسبّب في إضفاء هذا الشرف عليه، فهل هذا يتوجّب علينا ويتحتّم أن ندع التريبيون يفعل ما يشاء، فلا نعترض سبيله، وإن شرع بتدمير الكابيتول أو إشعال النار في دار السلاح. إن التريبيون الذي يأتي بمثل هذه الأفعال هو تريبيون سيّئ. ومن

يعتدي منهم على سلطة الشعب لايعود تريبيون قط. أوَليس من السهل إدراك مغزى إعطاء التريبيون سلطة حبس القنصل، في حين أن الشعب لا يملك سلطة تجريده من صلاحياته عند استعماله هذا الحق الذي تسلّمه منهم ليلحق الضرر بهم؟ ذلك لأن التريبيونات فضلاً عن القناصل لم يبلغوا مناصبهم إلاّ بأصوات الشعب. إن الحكومات الملكية التي تجمع في يديها كل السلطات دون منازع قد ارتفعت فوق هذا إلى مرتبة التقديس بأعظم الفرائض الدينية شأناً، وأكثرها حرمة. ولكن جماهير الشعب دون التفاتٍ إلى كل هذا خلعوا تاركوين عندما ضلّ سبيل الرشاد. ولجريمة شخصٍ واحدٍ انقرضت إلى الأبد تلك الحكومة الرومانية الغابرة التي بُنيت عليها روما. ما أعظم قداسة وحُرمة في روما من العذارى الفستالات، اللاتي أنيط بهن وحدهن أمر المحافظة على النار الأزلية؟ مع هذا كله، فلو زلّت واحدة منهنّ عن السبيل القويمة لوئدت حيّةً. إن القداسة التي مُنحت لهنّ من أجل الآلهة تُستردّ عندما يخطئن أمام الآلهة. كذلك الأمر مع التريبيون، فهو يفقد حصانته التي يتمتع بها من أجل الشعب عندما يرتكب عملاً ضد الشعب، عندما يهاجم أسس تلك السلطة التي استمدّ منها سلطانه. إننا لا نعترف بالتريبيون تريبيوناً شرعياً إلاّ عندما يُنتخب بأغلبية الأصوات. أفليس أكثر من هذا شرعيةً أن يتمّ عزل نفس هذا الشخص بإجماع الأصوات على تنحيته؟ ليس ثمّ أقدس من التقدمات والنذور الدينية ومع هذا لا يُمنع الجمهور من استعمالها، ولا يُحال دون رفعها ونقلها حيث أريد لها أن تكون. ووظيفة التريبيون أيضاً، كأية تقدِمة أو عطيّة مقدسة، للشعب حقٌ شرعي في نقلها من يد شخصٍ إلى يد آخر. بل وليس في الإمكان أن ننزل هذه السلطة بهذه المنزلة من الصيانة والثبات حين نجد الكثيرين ممن تولّوها يتنازلون عنها بملء اختيارهم ويطلبون إعفاءهم منها.

هذه أهمّ الحجج التي وردت في دفاع طيبريوس، إلاّ أن أصدقاءه خوفاً من الخطر الذي يتهدده، وبسبب المؤامرة التي تتجمّع خيوطها حوله، فارتأوا أن أسلم الطرق هو التقدم لمنصب التريبيون للعام القابل. وعلى هذا الأساس بدأ يعمل لضمان مساندة الشعب له بإصدار قوانين جديدة. فاقترح مراسيم لتقليل سنوات الخدمة العسكرية. وشرع حق استئناف أحكام القضاة أمام الشعب. وضمّ إلى أعضاء مجلس الشيوخ، الذين كانوا مخوّلين إذ ذاك صلاحية القضاء، عدداً مساوياً من المواطنين من طبقة الفرسان، محاولة منه لتقليص نفوذ المجلس بدافع من العاطفة والتحزّب للشعب، لا لأسباب معقولة أو لأجل المصلحة العامة والمساواة. وعندما بدأ النقاش حول هذه المراسيم وجد أن المعارضة هي الأقوى. كما أن الشعب لم يوحّد كلمته ويقف كتلة

متراصّة بعد. فأراد كسب الوقت بإلقاء الخطب الاتهامية لبعض زملائهم الحكام. ثم أرجأ الاجتماع إلى اليوم التالي:

ونزل طيبريوس إلى ميدان المدينة الكبير مختلطاً بالشعب بكل تواضع. وقال لهم بعينين دامعتين: إن لديه أسباباً وجيهة للشك في أن خصومه سيحاولون اقتحام بيته وقتله في تلك الليلة. ففعل كلامه فعله القويّ في الجماهير، حتى جاء عدد منهم وضرب خياماً حول منزله. وسهروا ساعات الليل في حراسته. وعند تباشير الصبح أقبل أحد العرّافين الذين يكشفون عن نتائج الأعمال وعواقب الأمور، إن كان خيراً أم شراً، باستقراء نقر الدجاج الحبّ الذي يُلقى إليها. وبذل العرّاف جهوداً هائلة لإخراج الدجاج من قنّه فلم يخرج إلاّ واحدة رفّت بجناحها الأيسر، ومدّت رجلها، ثم دلفت إلى قنّها دون أن تلتقط شيئاً من الحبّ. وهذا ما ذكّر طيبريوس بحادثة سابقة أخرى تطيّر منها. فقد كانت لديه خوذة حربية ثمينة جداً رافقته في سائر المعارك التي خاضها. تسللت إليها حيّتان ووضعتا بيضهما فيها ثم فقستاها أصلالاً. إن استذكاره هذه الحادثة زاد من غمّه وقلقه. وعلى أية حال فقد توجّه إلى الكابيتول حال علمه بتحشد الجمهور هناك. إلاّ أن قدمه عثرت بالعتبة عند خروجه من الدار. وكانت بدرجة من الشدّة أن كسرت له ظفر إبهامه فانبجس الدم من حذائه، ولم يسر قليلاً حتى شاهد غرابين يقتتلان فوق منزل يقع على يساره. وكان يحيط به عدد من الناس. فدفع أحد الغرابين بقدمه حجراً نافراً من البناء فسقط تحت قدمه تماماً. وأدرك أقوى أصحابه جناناً بأن هذا إنذار له بالوقوف. الا أن بلوسيوس الكوميّ الذي كان بين الحاضرين أشار بأنه سيكون من المخجل والمخزي لطيبريوس ابن غراكوس، وحفيد سكيپيو أفريقانوس وحامي حمى الشعب الروماني، أن يرفض دعوة الشعب، خوفاً من طير لا عقل له. ولن يكتفي خصومه باتخاذ ذلك مادة للسخر منه، بل سيزعمون للشعب بأنها دليل على الطبع التحكّمي الاستبدادي المستهين برغبة الجمهور. وفي الوقت عينه أقبل عدد من السعاة إلى أصدقائه يشدّدون على حضوره إلى الكابيتول قائلين إن كل شيء يسير على ما يرام هناك. وفي الواقع كان أول دخول طيبريوس نصراً من جميع الوجوه. فما إن ظهر حتى رحّب به الشعب بهتاف داوٍ، وكانوا يرددون الشعارات التي تدلّ على مبلغ سرورهم أثناء اتجاهه إلى مقعده، وتحلقوه ولم يدعوا أحداً يدنو منه إلاّ المعروف من أصحابه. وباشر موشيوس بوضع المسألة في التصويت ثانية، لكن الهرج والفوضى التي كانت تثيرها جماعات ممن وقفت بعيداً عن نطاق الاجتماع حالت دون المضيّ في الإجراءات وفق الأسلوب المعتاد، فلم يتوصل إلى شيء. ونشب عراك مع أتباع

الحزب المعارض المتدافعين إلى الأمام والمحاولين شقّ طريقهم إلى الداخل ليندسّوا في الصفوف.

وفيما كانت الحالة على هذه الصورة من الاضطراب وقف الشيخ فلافيوس فلاكوس Flaveius Flaccus في موضع ظاهر لطيبريوس ولكنه بعيد بحيث يتعذر إسماعه ما يريد قوله له. فأخذ يشير إليه بحركات من يده بقصد إفهامه أن لديه ما يريد قوله له وهو بالغ الأهمية ففهم. وببعض الصعوبة وصل فلافيوس وسارّه بأن طبقة الأغنياء توصّلوا إلى قرار نهائي في مجلس الشيوخ، بعد أن وجدوا أنهم لن يُفلحوا في ضمّ القنصل إلى معسكرهم، وهو أن يعمدوا إلى اغتياله وقد سلّحوا عدداً من خدمهم وأتباعهم لتنفيذ هذا العمل. فأبلغ طيبريوس أتباعه وأصحابه فما كان منهم إلاّ أن زمّوا أرديتهم على أجسامهم وكسروا رماح الضباط التي كان يستخدمها هؤلاء لابعاد الجمهور وتفريقه، وجعلوها قطعاً وتوزعوها لمقاومة الهجوم بها. وعجب الناس البعيدون وأخذوا يتساءلون عمّا يجري. وكان طيبريوس يعلم أن صوته لا يصل إليهم فرفع يديه فوق رأسه يريد أن يصوّر لهم بحركاته الخطر العظيم الذي يتعرّض له. ولاحظ خصومه هذه الحركة فأسرعوا في الحال إلى مجلس الشيوخ وأعلنوا أن طيبريوس يطلب من الشعب تاجاً، مفسّرين مسّ رأسه بيده بهذا التفسير. فخلق النبأ ضجة واضطراباً عاماً بين الشيوخ. وأسرع ناسيكا يطالب القنصل بعقاب الطاغية والدفاع عن الحكومة، فأجاب القنصل بهدوء أنه لن يكون البادئ باستخدام العنف. وفي الوقت الذي لا يودّ أن ينفذ فيه حكم الموت بأي رومانيّ حرّ قبل صدور الحكم الشرعي عليه كذلك لن يسمح بتنفيذ عمل لطيبريوس أرغم عليه الشعب أو اختاره، عن طريق استفتاء غير قانوني. إلاّ أن ناسيكا قال وهو ينهض:

- ما دام القنصل لايراعي سلامة الجمهورية فليتبعني كل من يريد الدفاع عن حُرمة القانون.

ثم وضع طرف عباءته فوق رأسه وأسرع إلى الكابيتول وحذا من تبعه حذوه ولفّوا عباءاتهم على سواعدهم وشقوا طريقهم وراءه. ولما كانوا من ذوي السلطة والمقام في المدينة فقد تهيّبت العامة اعتراض سبيلهم بل أسرعت في إفساح السبيل لهم فأخذ الواحد منهم يسقط على الآخر من فرط العجلة. وأما أتباعهم الذي جروا وراءهم فقد استعدوا بالهراوات والقضبان التي جاؤوا بها من بيوتهم، وجمعوا قوائم بعض المصاطب والمقاعد، ورفعوا قطعاً من تلك التي تكسّرت بسبب تدافع الجمهور أثناء فرار السريع، واتجهوا نحو طيبريوس وهم يكيلون الضربات لكل من يقف في طريقهم

ويوقعونه أرضاً فتفرّق الناس. وحاول طيبريوس الخلاص فأخذ يعدو وفيما هو كذلك إذ أمسك أحدهم بذيل ردائه فأوقعه إلاّ أنه خلع الرداء واستانف فراره بثيابه الداخلية ولكنه عثر وسقط فوق الساقطين المرضوضين. وفيما هو يحاول النهوض شوهد پوبليوس ساتوريوس Publius Satureius التريبيون يهوي علي رأسه بأول ضربة قتّالة من قائمة كرسيّ. ونسب لوشيوس روفوس Lucius Rufus الضربة الثانية لنفسه. كأنه أقدم على مأثرة تدعو إلى الفخر. وقُتل في هذه الفتنة ما يزيد عن ثلاثمائة بالعصيّ والقضبان والهراوات ولم يُقتل أحد بسلاح حديدي.

تلك على ما قيل أول فتنة بين الرومان تنتهي بسفك الدماء منذ إسقاط الحكم الملكي، فكلّ الخصومات - وما كانت بالصغيرة أو بالتافهة - تُحلّ بالتصافي - بتنازل فريق لفريق: مجلس الشيوخ يتنازل خوفاً من العامة، والعامة تتنازل توقيراً للمجلس. وكان من المحتمل حقاً أن يتوصل إلى إقناع طيبريوس بالتنازل عن طريق محاجّته محاجّة منطقية. ومن المؤكد أنه سيخضع دون حاجة للاعتداء عليه ولا اللجوء إلى العنف وسفك الدماء، إذ لم يكن لديه من المشايعين إذ ذاك ما يزيد على ثلاثة آلاف. والواضح الذي لا يقبل نقاشاً أن مقتله لم يكن بنت ساعته. فالحقد والحنق اللذان حفظهما الأغنياء له كأنا مسؤولين عن المأساة، أكثر مما كانت للأسباب التي يدّعونها هم. وكدليل على هذا نشير إلى الوحشية والإهانة اللاإنسانية التي عوملت بها جثته، فلم يسمحوا لأخيه رغم رجاءاته الحارة بدفنها ليلاً، بل ألقوها في النهر مع الجثث الأخرى. ولم يقف حقدهم عند هذا الحدّ فقد أبعدوا أصحابه عن إيطاليا دون اللجوء إلى الإجراءات القانونية المعتادة. وقتلوا كل من وقع بأيديهم، وبينهم ديوفانس الخطيب. وقُتل كايوس ڤيلليوس Caius Villius قتلةً شنعاء فقد وُضع في برميل مليء بالأفاعي والحيّات. وجيء ببلوسيوس الكوميّ إلى القناصل واستُجوب حول ما وقع فاعترف بصراحة أنه أنفذ كل ما طلبه طيبريوس منه دون تردد. فصاح ناسيكا:

- فلو طلب منك طيبريوس اشعال النار في الكاپيتول. أتفعل؟

فأجاب أولاً إن طيبريوس لن يطلب منه شيئاً مثل هذا. فكرر آخرون نفس السؤال عليه فقال:

- لو كان طيبريوس قد أمر به لفعلته، فانه لم يأمر بشيء إن لم يكن في مصلحة الشعب.

وأُطلق بلوسيوس. فرحل إلى أرسطونيقوس Aristonicus في آسيا. وعندما سقط هذا بخع بلوسيوس نفسه.

لم يعارض مجلس الشيوخ في قانون تقسيم الأراضي الأميرية، تهدئة من تأثّر العامة بهذه الأحداث. وسمح باختياره مفوّض آخر في محل طيبريوس فاختاروا پوبليوس كراسوس من أقرباء القتيل، إذ إن كايوس غراكوس هو ختنه. إلاّ أن كورنيليوس نيپوس Cornilius Nepos يقول إن بنت كراسوس لم تتزوّج كايوس بل بروتوس الذي نال موكبي نصره لتغلّبه على اللوزيتانيين. إلاّ أن معظم الكتّاب يتفقون معنا فيما ذكرناه.

ومهما يكن فقد أظهر الشعب دلائل سخطٍ واضحة لمقتل طيبريوس. وتبيّن أنه كان يتحيّن الفرصة للانتقام. وسبق أن هدُدّ ناسيكا بالإحالة إلى القضاء، وخشي عليه المجلس فعيّنه سفيراً وأرسله إلى آسيا ولم يكن ثمّ ما يستدعي ذلك. ولم يُخفِ الشعب حنقه على هذا الرجل فقد كان يُهان ويحقّر كلّما لوحظ سائراً في شارع فينادى: القاتل والطاغية والرجل الذي لوّث أقدس وأطهر بقعةٍ في روما بدم حاكم مصون. فرحل ناسيكا من إيطاليا رغم أنه كان ملزماً بالبقاء بحكم وظيفته «عظيم الكهنة» لترؤّس القرابين الرسمية الهامة. فراح يطوف في البلاد على غير هدى لا يستقرّ به مقام. ومات بعد قليل في موضع لا يبعد كثيراً عن برغاموس. وليس بالأمر العجيب أن يبغض الناس ناسيكا إلى هذا الحدّ. فسكيپيو أفريقانوس الذي يكنّ له الرومان أعمق الحبّ والولاء، باستحقاقه، كاد يتعرّض لسخط الشعب أيضاً لأنه أنشد بيتاً لهوميروس عندما أُبلغ بمقتل طيبريوس وهو في نومانتيا إذ قال:

«وكذلك سيهلك كل من يفعل مثل هذا».

وقد سأله كلّ من كايوس وفلوثيوس في مجتمع حافل عن رأيه في مقتل طيبريوس فكان رأيه يخالف رأي الشعب فيما أقدم عليه طيبريوس. ولهذا السبب راح الناس يقاطعون خطبته كلّما صعد المنبر وهو ما لم يُقدموا عليه من قبل. فراح يطعن في الرأي العام بدوره... على أننا أوردنا هذه التفاصيل في سيرته.

كايوس غراكوس

CAIUS GRACCHUS

١٥٤-١٢١ ق.م

في مبدأ الأمر تحاشى كايوس غراكوس الدخول في الحياة العامة فتوارى عن الأنظار، وراح يعيش في منزله عيشة هادئةٍ. ولعلّه قصد بهذا أن يزيد من كراهة الشعب لأعداء أخيه، إذ إنه كان يخاف دسيسة من هؤلاء الأعداء. على أية حال ظلّ على هذه الحالِ، لا كأنه مضطرٌ إلى أن يقضي حياته منسيّاً، بل إنه القدر الذي حكم عليه بالحياة الخاملة غير المثمرة. وتمادى بعضهم في تحرّي أسباب اختياره العزلة فقال إنه أبغض أساليب أخيه وعزف عن الترويج لها وإحيائها في الخواطر بصورة مطلقة. ومهما يكن من أمر فإن لصِغر سِنّه إذ ذاك تأثيراً في هذا. إذ كان يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً حين لم يزد عمر طيبريوس عن الثلاثين عندما اغتُبِط.

بعد مرور حين من الوقت أطلق لميوله متنفّساً وأرخى لها بعض العنان بكلّ هدوءٍ، وبدت بضيقه ذرعاً من الكسل والخمول وحياة البيت. ميوله تلك لم تكن ترضى له بحياة الأكل والشرب وكسب المال، فأخذ يبذل الجهود الكبيرة في دراسة البيان والفصاحة، لتكون له بمثابة أجنحةٍ توصله إلى الحياة العامة. وكان واضحاً أنه لا ينوي قضاء عمره في زوايا النسيان فعندما جرت محاكمة صديقه ڤيتيوس Vettius تولّى الدفاع عنه فنقل المستمعين إلى حالة من الوجد والذهول، وجُنّوا فرحاً أن وجدوه سيّد البيان وإمام الفصاحة. حتى بدا غيره من الخطباء مجرد أطفال أمامه. فراح الحسد والخوف يعملان عملهما في نفوس ذوي النفوذ والوجاهة، وصاروا يتحدثون فيما بينهم عن وجوب الحيلولة دون وصول كايوس إلى منصب التريبيون.

وما مرّت فترة قصيرة حتى انتُخب كايوس، كويستوراً، وكان ملزماً بالعمل تحت إمرة القنصل أوريستس Orestes في سردينيا. ومع أن هذا التعيين كان مبعث سرور لأعدائه فإنه لم يكن كارهاً له فهو مقاتل بطبعه وقد تدرّب على صناعة الحرب كتدرّبه على الادّعاء والمرافعة في المحاكم. أضف إلى هذا أنه كان يخشى كثيراً العمل في الحقل السياسي، وأن ظهوره للناس في الروسترا لم يكن ليسعه التخلّص منه بناء على

إلحاح الناس وأصدقائه إلاّ بقيامه بهذه الرحلة. لذلك كان راضياً أتمّ الرضا بهذه الفرصة، فرصة ابتعاده عن مركز الإغراء. وبصرف النظر عن شيوع الرأي القائل بأن كايوس يفوق أخاه طيبريوس في ديماغوغيته المسيطرة، وطموحه إلى الزعامة الشعبية، فمن المؤكد أنه حُمِل حملاً على دخوله. ويحدثنا شيشرون الخطيب أنه عندما طلّق الحياة السياسية وآثر أن يحيا حياة هادئة ظهر له أخوهُ في الحلم وناداه باسمه وقال له:

- لماذا تتلكّأ يا كايوس؟ لا مهرب لك أبداً. لقد كُتبت لكلينا حياة واحدة وميتة واحدة، نقضي الأولى ونلاقي الثانية في خدمة الشعب.

وما إن استقر المقام بكايوس في سردينيا حتى أخذ يقدّم أدّلة لمواهبه العالمية التي صارت مثالاً يُحتذى. ففاق كل أترابه الشبان في الحرب مع الأعداء. وكان عادلاً مقسطاً لمرؤوسيه، وطائعاً محترماً لضابطه الأعلى. كذلك كان حُسن خلقه وبساطته ومثابرته فقد تفوّق بهذا على كل من يكبرونه عمراً بكثير. واتفق أن حَلّ في سردينيا شتاء قارس البرد شديد الوطأة حتى اضطر القائد إلى أن يفرض على عدد من المدن واجب تجهيز جنوده بالملابس الضرورية. فاعترضت المدن إلى روما وطلبت إعفاءها من هذا العبء فوجد مجلس الشيوخ الطلب وجيهاً وأمر القائد بأن يجد حَلاًّ آخر لمشكلة ألبسة الجيش. وفيما هو في حيرته لا يدري ماذا يصنع وحالة الجنود تتردّى. جاءه كايوس بالحلّ المنشود اد انطلق هذا الشاب يتنقل من مدينة إلى أخرى مناشداً متوسّلاً مستخدماً أرقّ تعابير الإقناع حتى تكلّلت مساعيه بالنجاح وأقبلت الأهالي بمحض اختيارها على التبرّع بالثياب للجيش. وأُعلِمت روما بمساعيه فأثارت حسداً في نفوس أعضاء المجلس وبدت لهم مقدّمةً لما يُنتظر منه كزعيم شعبي في المستقبل. والأنكى من هذا أن وفداً من السفراء أرسله ميشپسا Micipsa الملك من أفريقيا إلى روما ليعلم المجلس بأن مولاهم الملك، تقديراً لكايوس غراكوس واحتراماً له، قد أرسل كميات كبيرة من القمح إلى القائد في سردينيا. فعدّ المجلس هذا العمل إهانة كبيرة له وطردوا السفراء من القاعة وأصدروا أمراً باستبدال قطعات الجيش هناك بأخرى جديدة على أن يبقى أوريتيس في القيادة، وهذا ما يفرض بقاء كويستوره كايوس معه. فلما رأى كيف تجرى الأمور وأيّ منحى شاذّ تتخذ ثار به الغضب وأبحر إلى روما، فاستهجن أعداؤه ظهوره غير المتوقع في روما كما لامه الناس، إذ لم يكن من اللائق أن يترك كويستور مقرّ عمله قبل أن يتركه قائده. وعلى كل حال فقد وجّهت إليه اتهامات بهذا المال واستدعي للمثول أمام الچنصورين فطلب أن يُسمح له بتبرير عمله وقام بذلك خير مقام، وبدا شخصاً مظلوماً لحق به أكبر حيفٍ. قال إنه خدم في

الجيش اثنتي عشرة سنة في حين لم يخدم أمثاله أكثر من عشرٍ، وإنه ظلّ كويستوراً بإمرة القائد ثلاث سنوات في حين لا يجوز قانوناً أن يبقى أكثر من سنةٍ واحدة، وإنه كان الوحيد الذي خرج إلى الحرب وصُرّته ملأى، وعاد وهو لا يملك شَروى نقير. في حين أن الآخرين، بعد أن شربوا الخمر التي حملوها معهم، عادوا وقد ملأوا جرارها الفارغة بالذهب والفضة من الحروب.

ووجّهوا إليه بعد ذلك اتهامات أخرى، منها إثارة الفتنة بين الحلفاء، ومشاركته في مؤامرة تمّ اكتشافها عند فريگللي Fregellae، وما إن بدّد الشكوك التي تحوم حوله وبرّأ نفسه من كل تهمة، حتى تقدّم مرشّحاً نفسه لمنصب التريبيون. ومع أن كل الشخصيات البارزة كانت تقف له ضد أي مرشّح فقد تقاطر عدد لا يُحصى من الناس من كل أنحاء إيطاليا للتصويت له فضاقت المدينة بهم على رحبها وعزّت محلات المبيت. ولما كان «الحقل» لا يتسع للجمعية العامة فقد تسلّقت فئات من الناخبين أطناف البيوت وصعدوا السطوح. ومع شتّى الضغوط التي مارستها طبقة الأشراف على العامة لإسقاط كايوس وتحقيق رغائبها في المرشحين فقد فاز كايوس، ولكن ليس بأكثر الأصوات بين الفائزين كما كان متوقعاً بل جاء ترتيبه الرابع، وعندما باشر مهام وظيفته ظهر حالاً من هو التريبيون الأول الحقيقي. كان أقوى زملائه لساناً. والعاطفة التي كانت تتدفق حين يرثي أخاه جعلته اجرأهم في الكلام. لقد اعتاد في كل مناسبة تذكير الشعب بما وقع في تلك الفتنة. فيروح يعرض لهم أمثلة من أسلافهم، كيف أعلنوا الحرب على الفالسكان Faliscans لأنهم أهانوا بالقول تريبيون الشعب غينوشيوس Genocius وقذفوه ببذيء الكلام، وكيف حكموا بالموت على كايوس ڤيتوريوس Caius Viturius لأنه رفض الخضوع والتنازل للتريبيون في الفوروم. . .

- في حين أن هؤلاء الرجال - بمحضر منكم جميعاً - قتلوا طيبريوس بالهراوات وجرّوا جثته الذبيحة في وسط المدينة، ثم ألقوها في النهر. ولم ينجُ من هذا الحقد أصحابه فقد أمسكوا بكل من طالته أيديهم وقتلوهم فوراً دون محاكمة، دون اعتبارٍ للتقليد العادل القديم الذي ظلّ نافذ المفعول في مدينتنا: عندما يُتّهم شخص بجناية خطيرة ولا يحضر شخصياً إلى المحكمة يُرسل القضاةُ بوقياً إلى منزله صباحاً فيدعوه بنفير بوقه إلى المثول أمام القضاة. وبدون اتخاذ هذا الإجراء لا يمكن أن يباشر القضاة التصويت على الحكم. إلى هذه الدرجة من الحرص والحذر كان أسلافنا قد بلغوا في الأمور المتعلقة بالموت والحياة.

بعد أن تأكد من مقدرة خطبه العاطفية على تحريك عواطف الجمهور (كان صوته

أقوى وأعلى من سائر خطباء عصره) اقترح سنّ قانونين جديدين: أولهما، أن كلّ من طُرد من وظيفة عامة لا يُعيّن في وظيفة عامة أخرى. والثاني، أن أيّ حكم بالنفي يصدره حاكم على روماني، دون أن يتيح له محاكمة شرعية، فللشعب الحق في اتخاذ ما يراه مناسباً من عقاب بحق هذا الحاكم.

وكان واضحاً أن المقصود بأول القانونين هو ماركوس أوكتاڤيوس الذي عزله الشعب من منصب التريبيون باقتراح طيبريوس. أما القانون الثاني فقد كان يمسّ پوپيليوس Popilius الذي نفى كل أصحاب طيبريوس أثناء توليه منصب الپريتور. ولما لم يكن هذا راغباً في تعريض نفسه للمحاكمة فقد هرب من إيطاليا.

وقد سحب كايوس القانون الأول برجاء من والدته كورنيليا فكان لهذه البادرة وقع جميل عند الشعب وسرّ بها كثيراً، فطالما أنزلوا كورنيليا منزله رفيعة وخصّوها بأعظم الاحترام بسبب ولديها بالأحرى لا بسبب أبيها. ولقد أقاموا لها فيما بعد تمثالاً من النحاس تكريماً لها ونقشوا عليه هذه العبارة: «كورنيليا والدة الغراكيَّين». ولدينا فقرات من خطبه كان يستخدم فيها اسمها بقوة حجة وبيان كثيرة، وبحياءٍ قليلٍ أثناء مهاجمته الخصوم، كأن يقول:

- كيف تتجرّأ على الطعن في سُمعة كورنيليا أمّ طيبريوس (ولأن الشخص الذي صدرت منه المطاعن يشتبه في أن شذوذه الجنسيّ أنثوي الصبغة فهو يستطرد):

- بأيّ وجه يمكنك أن تقارن كورنيليا بشخصك أنت؟ هل ولدتَ بقدر ما ولدتْ من ابناء؟ ومع هذا فكلّ روما تعلم أنها تأبى مبادلة الرجال الحديث مدة أطول مما تستغرقه أنت!

هذه التعابير اللاذعة كانت تتخلّل لغته. وهنالك ما لا يُحصى من أمثال هذه العبارة يمكن الاستشهاد بها مما خلّف من كتابات.

ومن بين القوانين التي اقترحها الآن مستهدفاً رضا الشعب واضعاف سلطة الشيوخ: القانون الخاص بالأراضي الأميرية التي كان قد قرر توزيعها على المواطنين الفقراء، والقانون الذي يتعلق بالجنود العاديين وكسوتهم على حساب الدولة دون خصم التكاليف من أجورهم، وتحديد سنّ الانخراط في سلك الجيش بما لا يقلّ عن سبع عشرة سنة كاملة. وقانون ثالث حول منح حق الانتخاب والتصويت كل الإيطاليين بصورة مطلقة مثلما يتمتع بذلك أهالي روما. وقانون رابع يتعلق بأسعار القمح ووجوب بيعه من الفقراء بأقل مما كان يباع منهم في السابق. وقانون خامس بتنظيم المحاكم ومجالس القضاء، وتقليص سلطة أعضاء مجلس الشيوخ إلى حدٍّ كبير. فإلى ذلك

الحين كان أعضاء مجلس الشيوخ يجلسون وحدهم للقضاء في سائر الدعاوى. لذلك كانوا يلقون الرعب في نفوس طبقتي الفرسان الرومان والعوام. فاقترح كايوس في قانونه ضمّ ثلاثمائة مواطن عادي من طبقة الفرسان إلى مجلس الشيوخ (وهم ثلاثمائة كذلك) وأن تُمنح سلطة القضاء للستمائة معاً على حَدّ سواء.

وفيما هو يناقش ويحاور ويبسط وجهة نظره للفوز بالمصادقة على هذا القانون لوحظ أن سلوكه كان يكشف من نواحٍ كثيرةٍ عن صدق وإخلاص غير عاديين. وفي الوقت الذي كان الزعماء الشعبيون الآخرون حتى ذلك الحين يديرون رؤوسهم أثناء خطبهم نحو مجلس الشيوخ (الوضع يدعى كوميتيوم Comitium) تراه الوحيد الذي خالف القاعدة في خطبه العامة. فقد أدار رأسه إلى الجهة المعاكسة - للشعب - وظلّ مقيماً على ذلك. إنها إشارة إلى نوع من الانقلاب في مفهوم الدولة، وتحوّل من الاتجاه الأرستقراطي إلى المنحى الديمقراطي. إن عمله هذا إشارة للخطباء الجماهيريين بالتوجّه إلى الشعب لا إلى مجلس الشيوخ. بعد أن صادقت الجمعية العامة على هذا القانون خُوّل كايوس الصلاحيات اللازمة لانتقاء الفرسان الذين سيشاركون الشيوخ في السلطة القضائية، وبهذا صار يتمتع بسلطة تشبه سلطات الملك. ونزل مجلس الشيوخ نفسه إلى حدّ قبول مشورته في الأمور الخطيرة. فلم يستغل كايوس هذه الخطوة باقتراحات ونصائح تحطّ من قدر المجلس. مثال ذلك قراره بخصوص القمح الذي أرسله المتعهد فابيوس Fabius من إسبانيا. فقد كان مقسطاً فيه محافظاً على شرف روما وسُمعتها. إذ أقنع المجلس ببيع القمح وإعادة بدل المبيع إلى عين الأقاليم التي استُورد منها، مع توجيهه اللوم لفابيوس لأن عمله هذا جعل الدولة الرومانية تبدو مكروهة ممقوته. وهذا ما أضفى عليه لوناً من الاحترام الفائق للعادة، ونشر اسمه في الأقاليم. واقترح اتخاذ بعض الإجراءات حول تأسيس مستوطنات رومانية في عدة مدن، وشق طرق جديدة، وبناء مستودعات عامة لخزن القمح. وكان يقوم هو شخصياً بالإشراف على هذه الأشغال العامة وإدارتها، ويبادر دون تردد إلى إصدار الأوامر الضرورية لتنفيذ هذه المشاريع الكبيرة المختلفة بدقة واندفاع كأنه لا يشرف على جميعها في آن واحد بل على مشروع واحد فقط. واشتدّ العجب بالجميع - حتى الكارهين له والخائفين منه - للكفاءة والمقدرة التي يبديها في إنجاز ما تعهّد بإنجازه. وأما بخصوص أفراد الشعب فقد كان الفرح يغمرهم حين يرونه محاطاً بأفواج من المقاولين والصنّاع والفَعلة ونواب الشعب، وضباط الجيش والجنود والخبراء. وكان يعامل الجميع ببساطة وصراحة دون الإخلال بمركزه ولطفه. وهكذا سخّر طبعه

لتلبية حاجات ومطالب كل مراجع. فصار الناس ينظرون إلى كلّ من وصفه بالغطرسة والعنف والخيلاء نظرتهم إلى الغمّازين اللمّازين الحاسدين. وكانت زعامته الشعبية أظهر في أحاديثه الاعتيادية وأعماله منها في خطبه الجماهيرية.

وأولى أكثرَ العناية بشقّ الطرق وأوقف عليها أعظم مجهوداته، فاهتم بأن تكون لطيفة المنظر مريحة، وشُقّت عبر الحقول الزراعية بخطّ مستقيم تماماً، تحت إشرافه المباشر. ورُصِف قسمٌ منها بالحجر المهندم وقسم آخر رُصِف بكتل صلبة من الصخر. فإذا اعترضه وادٍ أو مجرى نهر عميق بادر إما بردمه أو بإقامة جسر فوقه على مستوى واحدٍ من النهايتين فيبدو للرائي منتظماً مستوياً ليس به نبْوٌ. وأمر بتقسيم كل طريق إلى أميال (كل ميلٍ واحد يساوي أقل قليلاً من ثمانية فرلنگات). وأقام أعمدة حجرية لتعيين المسافات من موضع إلى موضع، كذلك ركز حجارة على مسافات متقاربة من جانبي الطريق لمساعدة المسافرين على اعتلاء ظهور خيولهم دون حاجة إلى سائس.

لهذه الأسباب أكبره الناس. وبدأوا يتلهفّون ليظهروا مدى تعلّقهم به وامتنانهم منه. وفي يومٍ ما ذكر أثناء خطابه أنه يرجو المنّ عليه بفضل واحدٍ لا غير، ولو فعلوا لكان هذا أكبرَ تقدير منهم يطمح فيه، وإن لم يفعلوا فلن يعتب عليهم. هذا القول حمل الناس على الظنّ بأنه يرنو إلى المنصب القنصلي والتريبيون. وعندما أزف يوم الانتخاب القنصلي، وتوافد الناخبون وهم يضربون أخماساً لأسداس، ظهر كايوس في «الحقل» بصحبة كايوس فانيوس المرشح للقنصلية، وشرع يروّج له الدعوة مع أصحابه فكان لهذا تأثيره المؤكد في فوز فانيوس. وانتُخب كايوس تريبيوناً للمرة الثانية، دون أن يتقدم للترشيح، أو يبث الدعوة لنفسه، بل تمّ انتخابه بمبادرة تلقائية من الشعب. لكن سرعان ما أدرك أن مجلس الشيوخ عدوّه اللدود وأن فانيوس ليس من الأصدقاء المتفانين الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً تاماً عندما تحزب الأمور. فراح يتودّد للشعب ثانية بقوانين جديدة. فاقترح أن ترحل مستوطنة من الرومان لإشغال مدينة تارنتوم وكاپوا. واقترح مساواه اللاتين في حقوق المواطنة مع الرومان وتمتّعهم بنفس الامتيازات المقصورة على الأخيرين. إلا أن المجلس تهوّل تعاظم قوّته وزيادة خطره عليهم، فاتخذ سبيلاً جديدة غير مسبوقة، لأجل تجريده من محبة الشعب، وذلك بتمثيلهم دور الديماغوغي مقابله، عن طريق الإغراق في منح الامتيازات للشعب خلافاً لمفاهيم النضج السياسيّ:

كان ليڤيوس دروسوس Livius Drusus التريبيون زميلاً لكايوس وهو شخص ينحدر من أسرة طيّبة، جيّد الثقافة والتهذيب، لا يقلّ مستوى بأي حالٍ عمّن نالوا بقوّة

ألسنتهم وغناهم أعظم الشرف والتكريم فأصبحوا أقوى رجال ذلك العصر نفوذاً وسلطاناً. إلى هذا الشخص لجأ أعضاء مجلس الشيوخ لاستعماله في إنجاح خطتهم، وطفقوا يحثّونه ويشجعونه على مهاجمة كايوس والانضمام إلى حلفهم ضدهم والمشاركة في السبيل الذي اعتزموا المضيّ فيه إلى النهاية، لا باستخدام القوة أو مناهضة الجماهير بشكلٍ سافرٍ، بل بالمداهنة والتقرّب منها عن طريق إرضائها ومنحها امتيازات لا تتوقّعها. ولولا الغرض الذي تستبطنه هذه السياسة لشعروا بأن في مقاومة تلك المطاليب والامتيازات أكبر شرفٍ لهم وإن حصدوا منها نقمة الشعب وكرهه:

فقبِل ليڤيوس أن يخدم أغراض مجلس الشيوخ، وأن يضع سلطته تحت تصرّفهم. وراح يقترح مشاريع قوانين لم تكن في الواقع بذات نفع أو تكريم للشعب، وكل همّه أن يستبق كايوس إلى قلوب أفراده والفوز بثقتهم بإرضائهم (وبدا الأمر كلّه أشبه بتمثيلية هزليّة) والتزلّف الذليل إليهم وتقديم الترضيات المختلفة. حتى بدا للجميع أن مجلس الشيوخ لم يكن مناهضاً أو مستاءً من إجراءات كايوس بل كان همّه الوحيد القضاء المبرم عليه، أو إضعاف الثقة به وتجريده من شعبيته على الأقل، إن لم يكن الغرض الأول ميسوراً.

فعندما اقترح كايوس إنشاء مستوطنتين رومانيتين فحسب وأوصى بانتقاء أعضائهما من الطبقة الراقية اتهموه بإهانة عامة الشعب. في حين أبدوا رضاهم على اقتراح دروسوس بإنشاء اثنتي عشرة مستوطنة كل واحدة منها تتألف من ثلاثة آلاف مواطن يتمّ اختيارهم من أفقر الناس وأكثرهم حاجة. وعندما وزّع كايوس الأراضي الأميرية على المواطنين الفقراء وفُرضت إيجارات زهيدة جداً يدفعونها للخزينة أظهر المجلس الغيظ لصرامته، كأن إرضاءهم للشعب خالص لوجه الله، ولذلك أثنوا على ليڤيوس لأنه اقترح إعفاءهم من بدل الإيجار الزهيد هذا. وسخطوا على كايوس لأنه منح اللاتينيين حقوقاً مساوية لحقوق الرومان في التصويت على انتخاب الحكام. وعندما اقترح ليڤيوس أن يحظر على قائد المائة الروماني فرض عقوبة الجلد على الجندي اللاتيني أسرعوا فصادقوا على قراره. ودأب ليڤيوس على القول في كل خطبه بأنه لن يقترح من القوانين إلاّ تلك التي يحبّذها مجلس الشيوخ الذي يحرص على المصلحة العامة حرصاً شديداً ويهمّه رفاء الشعب وسعادته. في الواقع إن هذه النقطة هي الوحيدة التي أدّى بها ليڤيوس خدمة صادقة، من دون سائر أعماله، فقد قرّبت ما بين الشعب ومجلس الشيوخ، وخلقت المزيد من الثقة، فقد كان ينقم على زعماء المجلس ويشك في نواياهم تجاهه. فجاء ليڤيوس ليزيل تلك الريب ويخفف من شدّة ذلك العداء، بفنّه

الذي لم يفعل شيئاً لمصلحة الشعب ومنفعته دون توجيهات المجلس ومصادقتهم!

إلاّ أن العامل الأكبر الذي دفع الشعب إلى إيلاء دروسوس الثقة التامة والعطف الشديد هو أنه لم يقترح قانوناً ينطوي على منفعة خاصة له. فقد أناط الإشراف على عملية الاستيطان بمفوّضين لم يكن هو واحداً منهم. ولم يهتم بموضوع توزيع الأموال. في حين كان كايوس يتولّى دائماً المهمة الرئيسة في أي مشروع هام.

واقترح روبريوس أحد تريبيونات الشعب إعادة تأهيل قرطاجنة التي هدمها سكيپيو وسواها بالقاع، وعهد إلى كايوس بالمهّمة، فأبحر إلى أفريقيا. فانتهز دروسوس الفرصة التي أتيحت له بغيابه للمزيد من التقرّب إلى الجمهور وكان نجاحه يُعزى بصورة رئيسية إلى إدانته فولڤيوس أحد أصدقاء كايوس المقرّبين المعيّن معه في مشروع توزيع الأراضي. كان فولڤيوس مشاكساً مشاغباً مكروهاً من مجلس الشيوخ إلى أقصى حدّ، وكان أيضاً يشك في أنه عمل على تأجيج الخلاف بين المواطنين الرومان وحلفائهم، وأنه يحرّض الإيطاليين من طرفٍ خفيّ على الثورة. إلاّ أنه لم يتوفّر دليل ملموس على حقيقة هذه التهم، أكثر من الشكّ وبسبب طبعه المتقلّب واتجاهاته العنيفة. وكانت علاقة كايوس به السبب الرئيس لدماره، فقد أصابه رِشاشٌ من النقمة التي صبّت على رأس فولڤيوس. وعند وفاة سكيپيو أفريقانوس الفجائية، من دون معرفة سبب هذه الميتة غير المتوقعة سوى آثار لبعض الرضوض والكدمات شوهدت في الجثة مما يدلّ على اعتداء وعنف استخدم قبل الوفاة، كما ذكرنا في سيرته، حامت الشكوك حول فولڤيوس لأنه كان عدوّه اللدود. وفي يوم موته بالذات كان قد تهجّم عليه في خطبة ألقاها على الشعب. ولم يكن كايوس نفسه بعيداً عن الظنون. ومهما يكن من أمر فإن هذا الاعتداء الأثيم الذي ارتُكب بحق أعظم وأرفع الناس قدراً عند الرومان لم يُنتصَف له، ولم يجرِ تحقيق شامل دقيق فيه، لأن الشعب منع وعارض في أي تحقيق قضائي، خوفاً من أن ينال كايوس ضرّ من أعدائه إن بوشر بالإجراءات. هذا وقع قبل الحوادث التي نرويها الآن:

في أفريقيا حيث انهمك كايوس في بعث قرطاجنة وإحيائها، تلك المدينة التي عرفت فيما بعد باسم يونونيا Junonia، ذكر أن عدداً من نُذُر السوء قد أرسلته الآلهة، ومن بينها هبوب عصفة ريح هوجاء على أول شعار روماني كان حامله يشدّ عليه بكلتا يديه فانكسرت قناته، وهبّت عاصفة شديدة أخرى بصورة مفاجئة فحملت الأضاحي التي كانت مكدّسة فوق المذابح وقذفت بها إلى خارج الحدود التي رُسمت للمدينة. ومنها أن الذئاب هجمت ونهبت كلّ الإشارات التي وُضعت لتعيين خطط المدينة. ولم

يأبه كايوس لهذا كلّه، وواصل عمله وإصدار أوامره بالتنفيذ حتى أكمل عمله كله في سبعين يوماً، وقفل راجعاً إلى روما، إذ علم كيف استهدف فولڤيوس لاتهام دروسوس مدركاً أن الوضع لا يسمح له بالغياب عن روما. ذلك لأن لوشيوس أوپيميوس Lucius Opimius كان يسير إلى المنصب القنصلي بطريق ممهّد بعد أن جمع حوله العديد من الأتباع والأشياع. ولوشيوس هذا من طبقة الأشراف، يتمتع بنفوذ غير قليل في مجلس الشيوخ، وكان في الماضي قد رشّح نفسه إلاّ أنه فشل لتدخّل كايوس لصالح فانيوس فانتخب هذا قنصلاً في حينه. وقد ساد اعتقاد جازم بأن لوشيوس سيعمل للقضاء على كايوس قضاءً مُبرماً إن فاز في الانتخابات. وكان نفوذ كايوس في أفول واضمحلال. ولم يعد الشعب مستعداً للتصفيق له إعجاباً بأعماله كما كان يفعل سابقاً، لأنه وجد كثيرين ممن لا يفوتهم اختراع وسائل جديدة يومياً لإرضائه، ولا يقف المجلس عائقاً بل يسارع فوراً للمصادقة عليها.

بعد عودته إلى روما انتقل من منزله في جُبيل پالاتين Palatine ليعيش قريباً من الساحة العمومية محاولة منه أن يبعث الحياة في شعبية هذه الأحياء التي يقطنها الدهماء والمعدمون من المواطنين. وتقدم ببقيّة قوانينه إلى الشعب معتزماً أن ينال المصادقة عليها بالاستفتاء العام. فاجتمعت لمساندته أعداد هائلة من جميع البلاد، إلاّ أن المجلس أقنع فانيوس القنصل بإصدار بيان يأمر فيه كل مواطن غير مولود في روما أن يغادرها. ثم أذيع بيان ثانٍ غريب يقضي بمنع أي فردٍ من الحلفاء والموالين من القدوم إلى روما في تلك الفترة بالذات. فبادر كايوس إلى إذاعة بيان مضادّ، منددًا بإجراءات القنصل، ومعلناً للحلفاء والموالين أنه سيساندهم ويحميهم إذا بقوا في روما ولم يبرحوا. على أنه لم يحفظ الوعد الذي قطعه لهم. فقد شاهد بنفسه أحد أصحابه الخلصاء بين حراس فانيوس يقودونه إلى السجن فتشاغل عنه ومرّ به دون أن يحرّك ساكناً، إما لأنه كان خائفاً من وضع نفوذه المتهافت على المحكّ، وإما لأنه (كما ذكر هو نفسه) كان يتحاشى منح أعدائه تلك الفرصة التي يصبون إليها كثيراً، وهي الوصول بالخلاف إلى العنف والقتال الفعلي. في أثناء ذلك حصل خلاف بينه وبين زملائه التريبيونات حول المسألة التالية: كان مقرّراً أن تُعرض مشاهد نزال للمصارعين في حفلٍ عام فوق الساحة العمومية، فنصب معظم الحكام مقاصير حول الملعب بنيّة الاستفادة من تأجيرها، فأمرهم كايوس بهدمها حتى يتاح للفقراء مشاهدة العرض مجاناً، فلم يمتثل أحد منهم. فجمع عدداً من الفَعلة كان يعملون عنده وباشر بهدم المقاصير في الليلة السابقة على العرض، وما أقبل الصبح حتى كانت الساحة خاليةً

منها. وأتيح المجال للعامة للاستمتاع بمناظر النزال. في هذا وجد العامة أن كايوس قام بعمل رجولي. إلاّ أنه أسخط زملاءه التريبيون كثيراً. فقد وجدوا في عمله هذا مظهراً من مظاهر العنف والتدخل الصلف.

وكان هذا على ما يُعتقد السبب الأساس في عدم انتخابه تريبيوناً ثالث مرّة، لا لأنه لم يحز أغلبية الأصوات، بل لأن زملاءه أجمعوا على الانتقام منه فعمدوا إلى كتابة تقرير غير صحيح عن نتائج الانتخاب. وهذا الأمر موضع خلاف على كل حال، لكن ما هو مؤكد هو الحنق الشديد الذي استولى عليه بسبب فشله وكان صلفاً جداً تجاه بعض خصومه الذين أظهروا سرورهم لسقوطه فقد ردّ عليه بقوله: إن كلّ هذا مرح تهكّمي مزيّف، فقلّما عرفوا إلى أي زاوية مظلمة من النسيان والخمول قذفت بهم مآثره وأعماله!

وما إن انتُخب أوپيميوس قنصلاً حتى تمّ إلغاء عددٍ من قوانين كايوس. وتمادى خصومه ففتحوا تحقيقاً في الإجراءات التي قام بها في قرطاجنة ولم يدّخروا شيئاً لإثارته وإزعاجه لعلّ ثورته العاطفيّة تمكّنهم من ذريعة مقبولة للحكم عليه بالموت؟

في مبدأ الأمر احتمل كايوس هذه الإجراءات بصبر. ولما شجعه أتباعه وأثاروه ولاسيما فولڤيوس قرّر أن يتزعم فريقاً من الأشياع والموالين، وينزل إلى مقاومة القنصل بالقوة. وقيل إنّ أمّه انضمّت إلى العصيان وساعدته بأن استقدمت سرّاً إلى روما جماعات من الأغراب بحجّة مجيئهم للبحث عن عمل كحصّادين إذ كانت في رسائلها إليه إشارة لهذا. على أن آخرين أكدوا بصورة خاصة جداً أن كورنيليا على الأقل لم توافق على ما عمله ابنها.

وحلّ اليوم الذي تقرّر أن يلغي فيه أوپيميوس قوانين كايوس. وتقابل الحزبان في الصباح الباكر أمام الكاپيتول. وبعد أن أنجز القنصل المراسيم المعتادة في تقريب القرابين جاء أحد خدم القنصل ويدعى كوينتوس أنتيلليوس Quintus Antillius وحمل أحشاء الأضحية وسار بها إلى الخارج ومرّ بفولڤيوس وأصحابه الواقفين فقال لهم:

- أنتم أيها المواطنون المشاغبون، افسحوا السبيل للرجل الأمين!

وقيل إنه أشفع هذا الاستفزاز بمدّ ذراعه العارية نحوهم هزءاً بهم واستصغاراً. فانقضّوا عليه وقتلوه بأقلام stiles(*) قوية مما يُستخدم عادة في الكتابة. وقيل إنهم صنعوها لاستخدامها بمثابة سلاح بهذه المناسبة. هذه الجنابة أحدثت استياءً عاماً مفاجئاً

(*) كانت الأقلام تُصنع من حديد أو أي معدن وهي دقيقة مرهفة الحدّ.

وخلّفت في رؤوس كل حزب أثراً مختلفاً. أمّا كايوس فقد أحزنه الأمر كثيراً وأنحى باللوم الشديد على أتباعه لأن عملهم هذا زوّد خصومهم بالذريعة المقبولة التي كانوا يتمنّونها منذ زمن بعيد ليبرّروا حملتهم عليهم. واهتبل أوپيميوس الفرصة التي واتته من حيث لا ينتظر وظهر عليه الفرح الغامر وبدأ يحرّض الشعب على الانتقام. إلاّ أن زخةً قوية من المطر الهاطل حالت دون المضيّ في ذلك وانفرط عقد المجتمعين.

وفي صباح اليوم الباكر دعا القنصل مجلس الشيوخ إلى الاجتماع. وكان النقاش دائراً في الداخل عندما وُضع جثمان أنتيلليوس في نعش وجيء به إلى الساحة العمومية وعُرض على ملأ من الناس أمام مجلس الشيوخ تماماً. ورافق ذلك صراخٌ وعويل شديدين فأظهر أوپيميوس دهشته داخل المجلس (مع أنه كان قد أحيط علماً بهذا التدبير) وراح يتساءل عن سبب الضجة، وخرج أعضاء المجلس جميعاً لاستطلاع الأمر ودنوا من النعش حتى وقفوا بالقرب منه. ولم يسع الشعب أن يخفي اشمئزازه وبغضته بالمجلس حين تذكروا كيف أنهم لم يكتفوا باغتيال طيبريوس غراكوس أثناء ما كان يقوم بواجبات وظيفته في الكاپيتول، بل قذفوا بجثته الشوهاء في مياه النهر، ومع هذا يجدون في أنفسهم الجرأة والصفاقة بحضورهم وتفجّعهم العلني في الفوروم، وتكريمهم وتشريفهم جثة خادم عاديّ مأجور (وإن كان موته عدوانا سافراً فإنه على كل حال كان المتسبّب فيما حلّ به إلى درجة كبيرة)، يريدون بهذه الوسيلة الكيد للمدافع والحامي الوحيد المتبقّي للشعب، ثم القضاء عليه.

بعد برهة من الزمن عاد الشيوخ من حيث أتوا، وصوّتوا حالاً على تزويد أوپيميوس القنصل بسلطات استثنائية، لحماية كيان الجمهورية، ووضع حدٍ نهائي للطغاة كلهم. وبعد أن تمّ هذا أمر أوپيميوس الشيوخ بأن يتسلّحوا، وأمر الفرسان الرومان بأن يكونوا على استعداد صباح اليوم الباكر وأن يجلب كل واحدٍ منهم معه خادمين بكامل سلاحهما. وقام فولڤيوس من جهته بالتأهّب وجمع الجمهور حوله. في تلك الأثناء كان كايوس قد ترك الساحة العمومية وسار عائداً إلى منزله، إلاّ أنه وقف أمام تمثال أبيه وشخص إليه مليّاً بأبصار لا تريم، وظلّ برهةً في استغراق عميقٍ ثم تنهّد وسار عنه والدموع تسيل على خدّيه. فتأثر بذلك كل من رآه وأخذوا ينحون باللائمة على أنفسهم لخذلانهم رجلاً فاضلاً وتركهم إياه، وشدّوا الرجال إلى منزله وقاموا حرّاساً عليه طول الليل بأعين يقظة وهدوءٍ تام، يتبادلون النوبة في ما بينهم، ويقومون بضروب من الكهانة عمّا سيأتي به الغدّ، وعن نتيجة هذا النزاع، كما جرت العادة في النكبات العامّة. كانت حراستهم تختلف عن حراسة فولڤيوس فقد قضى حراسه الليل

كلّه في السكر والعربدة والهتاف. وكان فولڤيوس أوّل من سكر فراح يهذي في كلامه ويُقدِم على تصرّفات لا تليق بسنّه ومقامه.

ولما تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود أيقظوا فولڤيوس وهو بعد غير مستفيق من تأثير الخمر، وتسلّحوا بقطع السلاح التي غنمها فولڤيوس من حروبه في بلاد الغال وتغلّبه عليهم أثناء فترة قنصليته، وكانت معلّقة على جدران منزله، ثم شقّوا طريقهم نحو جُبيل أڤنتين بصياح وجلبة، مهدّدين متوعّدين.

لم يُفلح أحدٌ في حمل كايوس على التسلّح واشتمل بمعطفه كأنه يريد الذهاب إلى اجتماع عام، بفارق بسيطٍ وهو إخفاؤه خنجراً قصيراً في طيّات ثوبه. وفيما هو يهمّ بالخروج أدركته امرأته عند الباب وأمسكته بيدٍ بينما كانت تمسك طفله الصغير بيدها الأخرى وأخذت تتوسّل إليه بالكلام الآتي:

- أسفاً يا كايوس! إني لا أفارقك الآن لتذهب وتخطب في الناس، لا بوصفك تريبيوناً ولا مشترعاً، ولست أودّعك لتذهب إلى حرب مشرّفة قد تلاقي فيها ذلك المصير الذي حتم علينا أن نلقاه عاجلاً أم آجلاً، فيكون له بعض الأثر الملطّف لإحزاني وهو أن حِدادي عليك سيكون موضع احترام وتكريم. أنت تذهب الآن لتكشف صدرك لقتلة طيبريوس غير حامل سلاحاً. مفضّلاً أن تتقبّل أعظم الظلم على أن ترتكب أقلّ الظلم. إلاّ أن موتك في هذا الوقت لن يكون بذي نفع للمصلحة العامة، فالتحزّب سائدٌ والبطش والسلاح هما مقاييس اليوم الوحيدة للعدالة. لو أن أخاك سقط قتيلاً أمام نومانتيا لكان العدوّ قد أسرع بتسليم ما تبقى من... لكن، ذلكم هو حظي العاثر، ربما كنت تلك الضارعة المسكينة للفيضان أو الأمواج لعلّها تعيد إليّ بقاياك. أية ثقة يمكن أن نضعها في القوانين أو الآلهة، عندما كفّت يدها عن طيبريوس.

كانت لوچينيا منشغلة بشكواها وندبها حين أخذ كايوس يتملّص تدريجاً من عناقها حتى أفلتها بلطف وصمت. وسار عنها برفقة أصحابه فحاولت التشبّث بطرف ردائه، لكنها سقطت على التراب وتمددت وبقيت حيناً لا تبدر منها حركة، حتى ظنّ الخدم أنها فارقت الحياة، فحملوها وذهبوا بها إلى أخيها كراسوس.

واجتمع الخلق كتلة متراصّة، وأخذ فولڤيوس بنصيحة كايوس فأرسل هذا ابنه الأصغر إلى الساحة العمومية حاملاً عصا الرسول، وكان شاباً في غاية الوسامة. بدأ بلهجة متواضعة مستكينة والدموع تجول في عينيه، وبخجل لا يشينه، بدأ يعرض مقترحات للمصالحة بحضور القنصل وكل الشيوخ. ومالت الأغلبية الساحقه من المجتمع إلى قبول المقترحات. إلاّ أن أوپيميوس ردّ قائلاً إنه ليس من اللائق بهم

إرسال الرسل للتفاوض مع مجلس الشيوخ على شروط للاستسلام. وخير لهم أن يستسلموا دون قيد أو شرط، كالمواطنين المخلصين وأن يحاولوا نيل العفو بالطاعة والخضوع. وأمر الشاب بألا يعود إليه إلا إذا وافقوا على هذا الشرط. ويقال إن كايوس كان شديد الرغبة في أن يذهب لتبرئة نفسه أمام المجلس. إلاّ أن كلمة أصدقائه أجمعت على خلاف ذلك. وأرسل فولڤيوس ابنه مرةً أخرى لتسوية الأمر، إلاّ أن أوپيميوس الذي كان قد قرّر خوض المعركة مهما كان، أمر بالابن فقُبض عليه وأودع السجن. ثم حمل على الفريق الذي يقوده فولڤيوس بكتيبة من مشاته ووحدة من الرماة الكريتيين، هؤلاء الرماة أحدثوا من الإصابات المميتة والجروح الخطيرة في الناس ما أدّى إلى هزيمة وفرارٍ سريعين. ولجأ فولڤيوس إلى حمّام عمومي غير معروف، لكن سرعان ما اكتشف مخبأه هذا فقُتل وقُتل معه ابنه الأكبر. ولم يؤثر عن كايوس أنه شارك في القتال أو اشتبك مع أي شخصٍ فقد انسحب إلى هيكل ديانا مشمئزاً للغاية من أعمال العنف التي تقع. وهناك حاول انهاء حياته إلاّ أن أصدقاءه حالوا دون ذلك، وانتزع پومپينيوس وليشينيوس سيفه منه، وأخذا يلحّان عليه بشدة أن يهرب. ويقال إنه ركع للآلهة ورفع يديه إلى الأعلى داعياً على الشعب الروماني بالبقاء دوماً في حالة الذل والعبودية، عقاباً له على نكرانه وخيانته. إذ ما إن أذيع بيان العفو العام حتى تخلّت عنه الأغلبية العظمى وتنكّرت له.

حاول كايوس النجاة، إلاّ أن أعداءه كانوا يجدّون في أثره ولا ينثنون عنه وتبعوه حتى الجسر الخشبي. وهنا أفلت منهم بشقّ الأنفس وعرض عليه أخلص صاحبين باقيين معه أن ينجو بنفسه ويدعهما هناك يحميان انسحابه بتعويق المطاردين حتى يُقضى عليهما. ولم يتبقّ معه غير فيلوقراطس Philocrates خادمه. وكان وهو يسرع على ظهر حصانه يسمع كلمات التشجيع والدعاء بالنجاح من الناس، كما يفعل عابرو السبيل حين يصادفون المتسابقين في العدو. ولكن لم يتقدم أحد منهم لمعاونته، ولم يعطه أحدٌ حصاناً مع طلبه ذلك. وتوفّر له وقت كافٍ للاختفاء في بستان صغير مكرّس لفيوري Furies وهناك قام خادمه بقتله، ثم ألحق نفسه به حالاً فهوت جثته فوق جثة سيّده. ويحلف بعضهم بأن الأعداء أدركوهما وهما حيّان وكان فيلوقراطس يحتضن سيّده بقوة بحيث عجزوا عن توجيه طعنة لكايوس قبل قتل الخادم.

وقيل أيضاً، عندما احتزّ أحد المطاردين رأس كايوس وسار به لقيه سپتيموليوس Septimuleius وهو صاحب لأوپيميوس فانتزعه منه قسراً لأنهم أعلنوا قبل بدء المعركة عن مكافأة ذلك لكلّ من يأتي برأس كايوس أو فولڤيوس تعادل زِنة الرأس ذهباً. فرفع

سپتيموليوس الرأس على سِنان رمحه وأقبل على أوپيميوس) وقدّم له الرأس فجيء بالميزان في الحال ووجد أنه يزن سبعة عشر پاونداً. فقدّم سپتيموليوس دليلاً على عنائه، فضلاً عن تقديمه دليلاً على وحشيته، إذ إنه أفرغ الدماغ من قحف الرأس وملأه رصاصاً! وجاء آخرون برأس فولڤيوس أيضاً إلاّ أنهم كانوا من أحطّ البشر وحُثالات المجتمع فطردهم ولم ينلهم الجائزة. وأُلقيت جُثتا الرجلين مع جُثث القتلى الآخرين - وقد بلغت ثلاثة آلاف - في مياه النهر وصودرت أملاكهم ومُنعت أراملهم من الحداد عليهم. وخصّوا لوچينيا زوج كايوس بمعاملة فظّة فقد جرّدوها من صداقها، وأضافوا إلى لاإنسانيتهم جريمة وحشية أخرى بقتلهم ابن فولڤيوس الأصغر، وحيده، ولم يكن رفع السلاح في وجههم - ولا لأنه كان موجوداً في أثناء المعركة - بل لمجرّد إرساله لعرض شروط الصلح ولأجله سُجن أولاً ثم قُتل.

ولم يحنق الشعب على أحد قدر حنقهِ على أوبيميوس لبنائه هيكل النصر Cancord تخليداً لنجاحه في ذلك الوقت. كأنه يقصد الفخر بالمجد والنصر الذي حازه، بقتله هذا العدد الكبير من أبناء جِلدته. وقد اتخذ أحدهم الليل ستراً، فأضاف إلى الكتابة المنقوشة على البناية هذا البيت:

«بالحماقة والتنابز، بُني هيكل الكونكورد».

مع هذا كله، فقد كان أوپيميوس هذا أوّل محاولي اغتصاب السلطة، والظهور بمظهر الدكتاتور وهو قنصل. فقضى بالموت على ثلاثة آلاف مواطن بدون محاكمة، إلى جانب كايوس غراكوس الذي فاق كل معاصريه في الفضيلة والشرف، وفولڤيوس فلاكوس القنصل السابق الذي مُنح موكب نصر.

أوپيميوس هذا وجد فيما بعد أنه لايستطيع كفّ يده عن السرقة. وعندما أُرسل سفيراً إلى يوغورثا Jugurtha ملك النوميديين ظهر فساده بقبوله العطايا والهبات. وعند عودته أُدين وشُهّر به، فخسر كل كرامته ومكانته وأدركه الهرم وهو مكتنف ببعض الشّعب الجبلية. كان الشّعب في حينه مروّعاً جزعاً مهيض الجناح ولكنه لم يلبث أن عاد يتبيّن الحقائق، فأظهر بجلاءٍ مدى إجلاله واحترامه ذكرى الأخوين غراكوس بصنع تماثيل لهما ونصبهما في الميادين العامة، وبتقديس الموضعين اللذين سقطا على أديمهما، وبجلب أولى ثمار الأرض إليهما حسب مواسم السنة كأنها من قبيل التقدمات. وأخذ الناس يتقاطرون إليهما للتبرّك والعبادة يومياً، كأنهما هيكل آلهة.

وأُثر عن والدتهما كورنيليا أنها تحمّلت مصيبتها بفقد ابنيها بروح عالية وشجاعة. وعند الإشارة إلى الموضعين المقدّسين اللذين صُرِعا فوقهما قالت: إن جسديهما

الهامدين يستحقان هذين الضريحين. وقد انتقلت فيما بعد من مأواها وسكنت بالقرب من موضع يدعى ميسينوم Misenum ولم يطرأ أي تغيير على طرز حياتها. وكانت محاطة بطائفة كبيرة من الأصدقاء. ودأبت على استضافة الأجانب في بيتها وتكريمهم. ولازمها عدد من العلماء ورجال الإغريق. ولم يبق أمير أجنبي إلاّ ووصلته بالهدايا فقابلها بالمثل. وكان المهتمّون بالحديث معها يبدو عليهم الانتباه الشديد عندما تندفع مسرورة إلى تسليتهم بذكرياتها عن أبيها سكيپيو أفريقانوس وعاداته وأسلوب عيشه. على أن أعجب وأروع ما كان فيها هو الإصغاء إليها حين تتحدث عن ولديها، دون أن تذرف دمعاً أو يتملّكها الأسى. تقصّ التفاصيل الوافية عن أعمالهما ومصيرهما الأليم كأنها تقصّ حكاية عن بعض الأبطال الغابرين. وهذا ما أوهم بعضهم أن تقدّمها في السنّ، وعظم مصائبها، قتلا فيها مشاعرها وعواطفها. لكن من يظن هذا صحيحاً كان يغفل عن المقدار العظيم من ضبط النفس ونُبل الطبع الذي يجب أن يتوفّر للمرء حتى يتغلّب على المصائب. ومع أن الخط كثيراً ما يكون أكثر نجاحاً في استظهاره على قوى الفضيلة أثناء عملها على اجتناب... فليس بإمكاننا عند ابتلائنا بالمصائب إلاّ أن نحتملها بالصبر الجميل.



سوفوكل

المقارنة بين طيبريوس وكايوس ولديْ غراكوس باغيس وكليومينس

بعد أن سردنا قصص سير هؤلاء الأربعة كلاً على حِدة، بقي علينا أن نعرض لمقارنة أحدهم بالآخر.

فأما عن الأخوين غراكي فأشدّ المنتقصين لهما وألدّ أعدائهما لا ينكرون أنّ فضائلهما الموهوبة - بعد أن صقلها العلم والتهذيب - فاقت كلّ ما لوحظ عند الرومان الآخرين المعاصرين. وقد يجوز لنا الافتراض أن المواهب الطبيعية عند أغيس وكليومينس كانت أقوى وأظهر. فمع افتقارهما إلى وسائل الثقافة والتهذيب الجيدة، ومع نشوئهما على تلك العادات والتقاليد وأساليب العيش التي ظلت مدة طويلة تفسد الآخرين، فقد انتصبا مثلين رائعين للتقشف والاعتدال أمام شعبهما. أضف إلى هذا أن الأخوين غراكي اللذين عاشا في زمن بلغت فيه روما أوجها من شرف الأعمال والفضائل كانا سيُجللان بالعار فعلاً لو لم يخلّفا للجيل التالي التراث النبيل لفضائل أسلافهما. أما الاثنان الآخران فقد كانا ابنين لوالدين جُبلت أخلاقهما من طينة أخرى وقد وجدا بلادهما في حالة انحطاطٍ وتفسّخ اجتماعي. وكل هذا لم يُخمِد فيهما حماستهما المتأجّجة وشوقهما إلى كل ما هو شريفٌ وعادل.

إنّ أمانة الرومانيَّين وترفُّعهما عن المادة ينظر إليهما بصورة أساسية على هذا النحو: في إدارتهما المرافق العامة وفي قيامهما بواجبات وظيفتيهما لم يُظنّ عليهما في ربح غير مشروع. في حين كان يحق لأغيس أن يشعر بالإهانة لو مُدِح بهذا الشكل الرخيص فقيل عنه بأنه لم يغصب لنفسه شيئاً بدون وجه حق، وهو الذي وزّع على أبناء وطنه ثروته الخاصة التي كان الجزء النقدي منها فقط يبلغ ستمائة تالنت. إن الغصب والابتزاز قد يبدوان له جريمة غريبة وهو الذي يعدّ حيازتك أموالاً تزيد على أموال جارك مظهراً من مظاهر الجشع وإن كنت جمعتها بأساليب عادلة وطُرق مستقيمة.

ونشاطهما السياسي في ثورتيهما على النظام والدولة يختلف تمام الاختلاف في

خطر شأنه ومداه وأهدافه. فالغايات الأساسية التي كان الشابان الرومانيان يرميان إليها هي توطين الأهالي في المدن وإصلاح الطرق الخارجية. وأجرأ مشروع اشتهر به طيبريوس بالأخص هو استرجاع الأراضي الأميرية. ونال كايوس أطيب سمعةٍ بإضافته ثلاثمائة عضوٍ من طبقة الفرسان الرومان إلى مثل عددهم من أعضاء مجلس الشيوخ لأجل ممارسة السلطة القضائية التي كان ينفرد بها الشيوخ. أما التغيير الذي أحدثه كلّ من أغيس وكليومينس فقد كان ذا طابع آخر، فهما لم يعمدا إلى إزالة جانبٍ من المساوئ، ولا إلى علاج حالات بسيطة من المرض، وهو أمر ستبدو نتيجته - على حد قول أفلاطون - كنتيجة قطع أحد رؤوس الهيدرا، فهذا هو الوسيلة الوحيدة لزيادة عددِ رؤوسها! لكنهما اختطا إصلاحاً جذرياً شاملاً كان مقدّراً له أن يحرّر البلاد من كل ما ابتُليت به - أو بالأحرى (إنْ شئنا أن نكون أكثر صدقاً) أنهما أزالا حالة اجتماعية طارئة كانت علّة البلايا، فأعاد إلى مدينتهما سالف نظامها الصالح.

ومهما يكن فعلينا الإقرار بميزة للغراكيَّين. وهي أن مشاريعهما الإصلاحية كلها كانت تلقى دائماً معارضة من ذوي السلطة والنفوذ الأعظم. ومن جهة الآخرَين فإن تلك الخطوات التي أقدم عليها أغيس أولاً، ثم أكملها كليومينس من بعده، حظيت بمساندةِ السابقةِ العظيمة المجيدة المتمثلة في القوانين العتيقة وآيتهما البساطة والمساواة، انحدرت إليهما من ليكورغوس الذي استوحاها بدوره من الإله أپوللو. ومن نافلة القول أيضاً أن مجهودات الأخوين غراكي لم تُضِف إلى أمجاد روما المؤثّلة مجداً جديداً. في حين وجد الإغريق فجأة مدينة سپارطة تعود إلى سالف مجدها وسابق عهدها بفضل كليومينس فتمارس السلطة العليا على سائر الپيلوپونيسس وتزاحم في القيادة العليا أعظم وأقوى أمراء ذلك العصر. وهي نهضة كان مقدّراً لها تحرير بلاد الإغريق من الخطرين الدلليري والغالي، وإعادتها إلى حالتها الأولى من العز والمنعة والاستقرار تحت حكم أبناء هرقل.

ومن ظروف موتهم يمكننا أن نستدل على اختلاف في ألوان شجاعتهم. فالأخوان غراكي اللذان قاوما أبناء وطنهما قُتلا وهما يحاولان الفرار. وأغيس استسلم لمصيره بمحض اختياره، مفضّلاً ذلك على أن لا تهدر حياة مواطن واحدٍ من إخوانه المواطنين. أما كليومينس الذي عومل معاملة مهينة ظالمة فقد بذل جهداً للثأر لنفسه فلمّا أخفق لم يتردد قط في إنهاء حياته بيده.

ولا مناص من القول إن أغيس لم يقم بمأثرة عظيمة جديرة بقائدٍ نابغ فقد حال دون ذلك موته في سنّ مبكرة. وأما عن بطولات كليومينس فمن العدل أن نقرن بها

أعمال طيبريوس الحربية، إذ كان أول من حاول صعود أسوار قرطاجنة ولم يكن هذا بالقليل التافه. ولنا أن نضيف إلى هذا اتفاقية السلم التي عقدها مع النومانتيين فأنقذ بها عشرين ألف روماني من خطر التطويق والإبادة. وكايوس نفسه، فقد أبدى شجاعته الفائقة في بلده فضلاً عن حروب سردينيا. فهذه الأعمال المبكرة المجيدة كانت دليلاً قوياً على أنهما كانا سيتفوّقان ويبزّان خيرة قادة الرومان لو امتدّ بهما الأجل.

وفي المجال السياسي المدنيّ، بدا أغيس ضعيفاً مفتقراً إلى الصلابة والعزم. فقد سمح لنفسه أن يقع في شباك مكر أغيسيلاوس وخيّب آمال المواطنين في إنجاز مشروع توزيع الأراضي، وعلى العموم ترك كل الخطط والأهداف التي رسمها بتأنّ ورويّة وأعلنها للشعب. تركها غير منجزة بسبب افتقار الشاب اليافع إلى قوة الإرادة. وأمّا عن كليومينس فقد رافق ثورته كثير من العنف والاندفاع، وقتل دون وجه حقّ جماعة الإيغور، وكان تفوّقه عليهم بالقوة والسلاح أكبر ضمان له للتغلب على حزبه، أو لنفيهم خارج المدينة بكلّ سهولة كما فعل بالآخرين. إن استعمالك المِبضع - إلاّ في حالات الضرورة القصوى - ليس بالجراحة الجيّدة ولا بالسياسة الرشيدة. وإنما هي في كلا المجالين جهلٌ وحمق. وهو في المجال الثاني ظلم، بل وحشيّة وتجرّد من الشعور الإنساني. وفي هذا الصدد لا نجد الغراكيّين السبّاقين إلى سفك دماء إخوانهما. ولقد قيل عن كايوس إنه اجتنب كل شكل من أشكال المقاومة حتى عندما هُدّدت حياته، وظهرت بطولته واضحة أمام العدوّ الأجنبي. أمّا في الثورة فلم يكن فعّالاً قط، وهذا ما حمله على الخروج من داره وهو أعزل، ثم انسحابه عند بدء القتال. وفي كل الأحوال كان يحرص على أن لا يلحق بالآخرين ضررٌ منه، أكثر من اهتمامه باستنقاذ نفسه وأبعادها عن الضرر. وفرار الأخوين غراكي نفسه يجب أن لا نتخذه دليلاً على خور النفس، بل أن نعدّه انسحاباً مشرّفاً وتحاشياً لما قد ينجم عنه خطر للآخرين، فلو مكث كل واحد منهما في موضعه لواجها أحد احتمالين، إما الاستسلام لمهاجميهم، وإما قتالهم دفاعاً عن النفس.

وأعظم هفوة يمكن أن تُعزى إلى طيبريوس هو قيامه بعزل زميله التريبيون، وترشيح نفسه لمنصب التريبيون مرة ثانية. أمّا عن مقتل أنتيلليوس فقد عُزي إلى كايوس زوراً وبهتاناً، إذ تمّ ذلك دون معرفته فأسف غاية الأسف. وكان كليومينس بعكس ذلك (ولا نشير إلى مقتلة الإيغور) فقد حرّر جميع العبيد، وحكم متفرّداً، إذ كان زميله شريكاً في المظاهر لا غير، وهو أخوه يوكليداس من أسرته نفسها. كان قد أقنع أرخيداموس الوريث الشرعي للملك، ومن الفرع الآخر للأسرة، فجازف هذا بالعودة

من مسينيه إلى بلده لكنه قُتل. ولما لم يقم كليومينس بعمل ما للثأر له فقد قوي الشك في أن له يداً في الحادث. وليكورغوس، ذاك الذي زعم كليومينس بأنه يقتدي به، نزل عن المُلك بمحض اختياره لابن أخيه خاريللوس، ثم أسرع بالرحيل عن سپارطة وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة لئلا يحصل للشاب حادث مفاجئ فيقال إن لخاله ضلعاً فيه، ولم يعُد إلاّ بعد أن رزق خاريللوس بابن يرث ملكه من بعده. على أننا في الواقع لا يمكننا أن نجد إغريقياً آخر غير كليومينس جدير بأن يقارن بليكورغوس. وواضح بما فيه الكفاية أنك واجدٌ في الإجراءات العامة التي أقدم عليها كليومينس قدراً كبيراً من التهوّر وإهدارٍ لحرمة القانون. فعلى أولئك الذين يميلون إلى لوم تصرّفات هولاء أن يلاحظوا أن الإغريقيين منهما كانا ثائرين منذ حداثتهما، يطمحان إلى السلطة المطلقة والطغيان، ويشغفان بالنضال والتنافس. وأن طيبريوس وكايوس فُطرا على الجري وراء المجد والشهرة. وأكثر من هذا لا يمكن لأعدائهما أن يجدوا فيهما تهوّراً. لكن ما إن يبدأ النضال ضد خصومهما حتى تطغى حماستهما وعواطفهما على طبيعتهما الهادئة فتجرفهما - كالريح النكباء - وتدفعهما إلى الإتيان بالأعمال المتهورة الطائشة.

أيُّ مشروع أعدل وأشرف من أوّل غايةٍ عملا لها، لو لم تتصدَّ لهم قوة الأغنياء وحزبهم بالعمل على إلغاء القانون، وإلهائهما بهذا التناحر القتّال، أوّلهما لأجل المحافظة على نفسه، والثاني انتقاماً لموت أخيه الذي قُتل ظلماً وبدون مبرّر شرعي.

ومما بيّناه يمكنك أنت بنفسك أن تصل إلى الفروق التي لو فصّلنا فيها كلاً على حدة لأمكنني أن أؤكد لك أن طيبريوس كان أعلاهم فضيلة، والشاب أغيس أقلّهم خطأ. وفي القتال والجرأة هناك شقّة بعيدة تفصل ما بين كليومينس وكايوس.

ديموستينس

DEMOSTHENES

٣٨٤-٣٢٢ ق.م



ديموستينس

لست أدري أيهما: أهو سوسيوس Sosius الذي نظم قصيدة في مدح ألكيبيادس بمناسبة فوزه في سباق العجلات في الألعاب الأولمبية، أم هو يوريپدس؟ أم هو شاعر آخر؟ في هذه القصيدة يعلمنا الشاعر أن أول شرط لسعادة المرء هو ولادته «في مدينة ذائعة الصيت». لكن من يطمح إلى السعادة الحقّة التي تعتمد بالدرجة الأولى على المزاج والسجايا العقلية لا يُشترَط - في رأيي - أن يأتي من مدينة شهيرة، وليس بعيب أن تكون مسقط رأسه بلاد متأخرة أو مجهولة، كما لا يكون عقبة له كونه ولِد لأمّ ليست بذات وسامة أو جمال. ومن السخف حقاً أن نعتقد بأن إيوليس Iulis وهو جزء صغير من خيوس Ceos (وهي ليست بالجزيرة الكبيرة)، وأيجينا Aegina التي شبّهها أحد الأثينيين مرةً بالقذى الصغير في مرفأ پيريوس الذي يجب إزالته، ينبغ منهما ممثلون بارعون وشعراء مفلقون ومع ذلك تعجزان عن الإتيان بإنسانٍ عادل عالي الخلق، حكيم، واسع الفكر. إن الصناعات والفنون الأخرى التي تبتغي المجد والغنى غاية لها هي فريسة سهلة للذبول والغمور في بلدان فقيرة أخنى عليها الدهر. لكنّ الفضيلة خلاف ذلك فهي كالنبتة القوية الأيّدة، تمد جذورها وتنمو في أي مكان تصادف طبعاً أصيلاً وعقلاً مثابراً كدوداً. ومن ناحيتي أنا فالإنصاف يقضي عليّ بالقول: إني لا أريد أن تُعزى مسؤولية أي نقص لديّ في عمل اتيته، أو حكم صحيح أبديته، إلى ضِعَة موطني وخمول شأنه.

والأمر خلاف ذلك إن كان في نيّة أحدهم تدوين تاريخٍ يقتضي جمع حوادثه من مصادر توصّل إليها بالملاحظة والتتبّع. ومن قراءة آثار لا يَسهل العثور عليها في أي مكان كان، ولم تُكتب بلغته، وكثير منها أجنبيّ، متفرّق موزّع على أيادٍ أخرى. فمِن ألزم الضرورات لهذا المؤرخ أن يقطن مدينة زاهرة عامرة، سوق الفنون فيها رائجة حُرّة، حيث يكون تحت متناول يده العديد من المراجع في كل علمٍ وفنٍ. وحيث يتيسّر له جمع المعلومات من الذاكرة والصدور، والاستيضاح عن تلكَ التفاصيل التي

أغفلتها أقلام من سبقه، فحفظت في صدور الناس حفظاً أميناً. وبذلك يسلم عمله من الهفوات ويسدّ النقص من نواح كثيرة حتى في أدق التفاصيل التي يمكن الاستغناء عنها.

وأمّا عن نفسي فأنا أعيش في بُليدة لا أرغب في الرحيل عنها، لئلا تقلّ نفوساً! ولما كنت في روما وفي أنحاء أخرى من إيطاليا لم يتسنّ لي الفراغ الكافي لمدارسة لغة الرومان والتمرن عليها بسبب انشغالي في الشؤون العامة، وبالتلاميذ الذين يأتوني لتلقّي دروس الفلسفة، فقد تأخر بي زمني كثيراً. ولما بدأت في أراذل عمري أقرأ للكتّاب اللاتين وقع لي ما كان يبدو غريباً وقوعه، لكنه حصل لي فعلاً ولا أبالغ. فقد كنت أتوصل إلى مهمّ الأشياء أحياناً لا لمعرفتي بمعاني الكلمات فحسب بل بتجاربي الخاصّة للأشياء. ولا أشك في أنه مجهود رائع لطيف أن تتوصّل إلى تذوّق جمال ورشاقة النطق باللسان الروماني ومنهم مختلف استعارات الكلمات ووصلها وإدغامها وغير ذلك من أساليب البديع التي هي سِرّ جمال الكلام، إلاّ أن هذا يتطلّب مقداراً من التمرين والدراسة ليس بالقليل، وليس بالسهل نيله، فهو أنسب وأجدر بمن يملك فراغاً ووقتاً كافياً للدرس.

وفي كتابي الخامس الخاص بالسِّيَر المقارنة أتيت إلى سيرتَي ديموستينس وشيشرون، وإن مقارنتي لمزاجهما الطبيعي وطباعهما ستعتمد على أعمالهما وحياتيهما كسياسيين. ولن ازعم لنفسي نقداً لهما عن طريق مضاهاة خُطبهما، لأصدر بعدها حكمي على من هو الأكثر سحراً والأخطب. فنحن هنا أشبه بما يقول إيون Ion: «كسمكة فوق أرض يابسة»

وهو مَثَل ربما أغفلته ذاكرة كيسيليوس Caecilius عندما يستخدم عبقريته الجريئة دوماً في محاولة للمقارنة بين ديموستينس وشيشرون. وإذا كان من السهل الواضح لكلّ إنسان أن «يعرف نفسه»، ما أخذ المبدأ مأخذ نبوءة.

والظاهر أن العناية الإلهية قد شاءت في البدء أن تطلق ديموستينس وشيشرون في سبيل واحدة. فأحدثت بينهما كثيراً من المشابه في أخلاقهما وطباعهما وشغفها بالشهرة وذيوع الصيت، وحبهما بالحرية في الحياة المدنية، وافتقارهما إلى الشجاعة في الحرب، وعندما تحزب الأمور. كما أنها زادت في الوقت نفسه كثيراً من المشابه العرضية الحادثة، ففي اعتقادي أن من الصعوبة بمكان أن نجد خطيبين بدآ بداية متواضعة خاملة، ليغدوا فيما بعد بهذه الدرجة من القوة والعظمة. ويندر أن يصادف خطيبين نازلا الملوك والطغاة، وأن كلاهما ثكل ابنتَه، وطُردا من بلديهما ثم عادا مكرّمين ثم هربا ثانيةً، وتمكن منهما أعداؤهما. وأخيراً انتهت حياتهما بيد أبناء

وطنيهما. فلو افترضنا وجود امتحان مهارةٍ للحظ والطبيعة (كما يحدث أحياناً عند أهل الفن) لكان من الصعب علينا أن نحكم بالنجاح لأحدهما عندما قضيا بأن يكون المترجَم لهما شبيهين في أمزجتهما وطباعهما. أو. . . لعل كل هذا من قبيل الصدف المعارضة في الحياة؟

ستتكلم في البدء عن أولهما:

كان «ديموستينس» والد «ديموستينس» رجلاً من أفاضل المواطنين، حسن السمعة كما يحدثنا ثيومپوپوس Theompopus، عُرف بـ«الصّيقل» لأنه كان صاحب معمل كبير لصنع السيوف يشتغل فيه عمال مهرة. وأمّا ما يقوله إسخينس Aesechines الخطيب من أن أمّه كانت بنتاً لأمّ بربريةٍ ولأب يدعى غيلون Gylon فرّ من بلاده لاتهامه بالخيانة، فلا أستطيع الجزم بصحة هذا الزعم أو فساده، بالافتراء على الأمّ وقذفها. غير أن المؤكد هو وفاة أبيه عن حال معاشية طيّبة، ولابنه من العمر سبع سنوات. وقدّرت قيمة ما يملك من عقار بحوالي خمسة عشر تالنتاً خلفها لديموستينس إلاّ أن الأوصياء عليه أساؤوا الأمانة فاختلسوا جانباً من التركة وأهملوا العناية بالمتبقّي. حتى أنهم احتالوا على أساتذته وأنكروا أجورهم، ولهذا لم ينل الصبي الثقافة التي كان مقدّراً له أن ينالها. زد على ذلك أنه كان رقيق البنية عليلاً فجنّبته أمه الإجهاد ولم يتشدّد عليه أساتذته بالواجبات والدروس. وكان ضئيل الجسم واهنه من البداية ولهذا لُقب بـ«باتالوس» Batalus. وقيل إن الصبيان هم الذين خلعوا عليه هذا الاسم تندّراً على شكله. وقال آخرون إن باتالوس هو نافخ مزمارٍ نحيل الجسم، كتب أنتيپاطر مسرحية هزلية سخراً منه. ونوّه آخرون بأن باتالوس هو شاعر كان ينظم قصائد ماجنة خليعه وأغاني خمريّة. ويبدو أنّ ثمّ عضواً من أعضاء الجسم، لا يليق بنا ذكره هنا، كان أثينيّو ذلك الزمان يسمّونه باتالوس.

أمّا اللقب الثاني الذي لصق بديموستينس وهو «أرغاس» فلانه كان شرساً حقوداً. لأن أرغاس هو من أسماء الأفعى الشعرية. أو ربما لطريقته الممجوجة في الكلام، لأن أرغاس اسم لشاعر كان ينظم قصائد بذيئة ينبو عنها الذوق. وبهذا الكفاية من الأمر على حَدّ قول أفلاطون.

وكان المنبّه الأول لميله الشديد إلى الخطابة، على ما يقال، هو الحادث التالي:

كان مقرّراً أن يتقدّم كالليستراتوس الخطيب للدفاع عن أوروپوس Oropus في محاكمة علنية. وكان يُنتظر من تلك القضية أعظم النتائج، فضلاً عن مقدرة الخطيب الذي كان إذ ذاك في أوج شهرته، وخطورة القضية التي سيترافع فيها. وسمع

ديموستينس معلّميه وأساتذته يتواعدون على حضور الجلسة وتمكن بعد إلحاح شديد من إقناع معلّمه بأخذه إلى المحكمة، وكان لهذا المعلّم معرفة بالحجّاب فأمّن لتلميذه مقعداً مستوراً لا يُرى منه وفاز كالليستراتوس فوزاً مبيناً وأثار الإعجاب الشديد. وبدأ الصبي بالتفكير في مجده بنوع من الحسد، ولاحظ كيف كان الخطيب موضع حفاوة الجميع، وكيف رافقته حشود من الناس إلى منزله تكريماً وتبرّكاً. وأكثر ما أثار عجبه من الخطيب قوة عارضته التي بدت وكأنها تُخضِع كل شيء لإرادتها، وتفوز بكل ما تريده. ومنذ تلك الساعة ودّع ديموستينس كل أنواع الدراسات التي يتلقّاها وبدأ يتمرّن على الخطابة، ويبذل كل جهوده في معاناتها، مُعِدّاً نفسه لهذا الفن. واتخذ من إيسيوس Isaeus مدرّباً ومرشداً له في فن الكلام، مع أن إيسوقراطس Isocrates كان وقتذاك يلقي دروساً في الخطابة. وقال بعضهم إنه لم يقصده لأنه كان يتيماً يشق عليه دفع الأجور التي حدّدها إيسوقراطس بعشرة مينات. أو لعله فضّل أسلوب إيسيوس لأنه أكثر واقعية، وأقوى تأثيراً من الناحية العملية. ويذكر هرميپّوس Hermippus وقوفه على مذكّراتٍ لكاتب مجهول، ورد فيها أن ديموستينس كان تلميذاً لأفلاطون، أخذ عنه الكثير من تلك الفصاحة التي عُرف بها فيما بعد. وينوّه هرميپّوس هذا بكتسيبيوس Ctesibuis الذي ينقل عن كالياس Callias السيراقوسي وآخرين أن ديموستينس حصل بصورة سرّية على معلومات عن مبادئ إيسوقراطس وألكيداماس Alcidamas فتدارسها وأتقنها إتقاناً تاماً.

وما إن بلغ مبلغ الرجال حتى بدأ بمراجعة المحاكم لمقاضاة أوصيائه وكتابة الخطب ضدهم. ولجأ هؤلاء في الوقت نفسه إلى مختلف الحيل والوسائل لفتح دعاوٍ جديدة ضده. ومع أنه - كما يقول عنه ثوكيديدس - درس صناعته هذه في خضمّ الأهوال والمخاطر فقد نجح في ربح دعواه على خصومه بمجهوداته الخاصّة، إلاّ أنه لم يتمكن من استرداد تركة أبيه خلا النزر اليسير منها. ولم يفز من تلك المعركة القضائية بغير جانب من الثقة بمقدرته على الكلام، والتمرّس الوافي فيه. ولمّا تذوّق طعم السلطان والوجاهة المتأتّيتين من الترافع القضائي قرّر أن يخوض غمار السياسة ويتفرّغ للشؤون العامة.

قيل عن لاوميدون Laomedon الأرخوميني إنه اعتاد - بناءً على نصيحة طبيبه - أن يعدو مسافات طويلة ليردّ عنه غائلة مرض طحاله. وبعد التدريب المتواصل والجهد الشاق اشتدّ عوده وصلب، وشارك في ألعاب الغار الكبرى، ليغدو من خيرة العدّائين للمسافات الطويلة، وهذا ما اتفق لديموستينس تماماً، فقد توسّل بالخطابة في مبدأ

الأمر لاستعادة أملاكه المغتصبة. فقويت عارضته، وقُدّر له أخيراً أن يكون المجلّي والسبّاق في الحياة العامة على كلّ الخطباء المتبارين أمام الجمعية العامّة، كما فعل لاوميدون في الألعاب الرياضية الكبرى. إلاّ أنه مُني بخذلان مُبين في أول خطاب توجّه به إلى الجماهير التي سخرت منه وعابت عليه أسلوبه الغريب غير المهذّب المرهق بالجمل الطويلة، والمشوّه بكثرةٍ من المصطلحات المبتذلة اللفظية إلى حدّ الإغراق الكريه الممجوج. أضف إلى هذا أنه كان يشكو - على ما يبدو - ضعفاً في صوته. وكان في نطقه ارتباك وإبهام، يمازجه قِصر نَفَسٍ كان يلجئه أحياناً إلى تقطيع الجمل أو وصلها دون مراعاة للسياق وأصول الوقف. وبهذا يُشكِل على السامع فهمُ ما كان يقوله. فترك الجمعية العامة وقد تثبطت همّته وفقد ثقته بنفسه، وفيما هو يسير متثاقلاً على غير هدى على رصيف ميناء پيريوس التقى به يونومُس Iunomus الثْرياسي Thriasion. وكان هذا قد بلغ من العمر أراذله. فأنشأ يؤنّبه وينتقده بقوله: إن أسلوبه في الإلقاء يشبه كثيراً أسلوب پركليس وإنه لم يبلغ بعد المستوى المطلوب من الخطيب الجماهيري بسبب جُبنه وخَور نفسه أمام صياح الجمهور وعدم صموده، وقلّة احتفاله بتهيئة جسمه وتنشيطه، بل إهماله وتركه إياه فريسة للوهَن والذبول.

وفي مرة أخرى عافت الجماهير سماعه وتولّت عنه. فعاد إلى بيته كئيباً وقد نال منه الفشل، مغطياً رأسه بملفع وقيل إن ساتيروس Satyrus الممثل الساخر الذي كان على معرفة وثيقه به، تعقّبه حتى أدركه وأخذ يطارحه الحديث فأنشأ ديموستينس يشكو شكوى مرة من تنكّر الجمهور له وهو أكثر المترافعين مثابرةً وجِدّاً. وصارحهُ بأنه كاد يستنفد كل جهده وقواه في هذا السبيل دون أن يجد له منفذاً إلى قلوب الجمهور الذي يسمع البحّارة والأميّين والسكارى ويدعهم يصولون ويجولون فوق المنبر، أما هو فلا يلقى غير الازورار والاحتقار. فقال ساتيروس:

- أنت محقّ في قولك يا ديموستينس. غير أني سأعالج علّتك بسرعةٍ لو تلَوت عليّ الآن فقراتٍ من يوريپدس أو سوفوكليس.

فتلا ديموستينس قطعةً، وعقبه ساتيروس فتلا القطعة نفسها بأسلوب إلقائه الخاص فكساها ثوباً قشيباً أخاذاً بما رافقها من إيماءات ووقفات. وبدت الديموستينس شيئاً يختلف تماماً عمّا تلاه. وبهذا اقتنع بمدى اعتماد الأسلوب الكتابي على اللفظ الجميل المتأنّق. وأدرك أنه من العبث والفهاهة أن يمرّن المرء نفسه على الخطابة بإهماله حُسن الإلقاء والنطق. وبادر فابتنى لنفسه غرفة للدراسة تحت الأرض (ما زالت إلى يومنا هذا باقية)، وظلّ يختلف إليها يومياً لصياغة أسلوبه، وتدريب صوته وتهذيب إلقائه.

ولطالما حبس نفسه فيها شهرين أو ثلاثة دون أن يبارحها، كابحاً فيه رغبة الخروج منها بحلق نصف رأسه ليمنعه الخجل عن الظهور كلّما راوده الحنين إلى رؤية الناس وكثيراً ما كانت تشتد به الرغبة في ذلك. ولم يكتف بهذا بل جعل من حياته ومعاملاته وأحاديثه الاعتيادية مع الناس وسيلة مكملة للدراسة، واتخذ من تلك المناسبات والمناقشات مادةً للمقارنة والتدقيق. فما يفارق أصحابه حتى يهبط إلى غرفة الدراسة ويبدأ في استعادة كل ما مرّ به بترتيب، ويفحص حُججه وذرائعه وردوده للناس. وكان يستعرض تفاصيل خطبه مع نفسه ويقسمها أجزاءً وفترات، كما يستعيد إلى ذهنه ما تبادله من أقوال مع الناس فيصحّح فيه ويغيّر ويعيد صياغته بعدة أشكال. لذلك اعتُبر مديناً بقدرته الخطابية للمثابرة والجدّ الدؤوبَين لا لعبقرية طبيعية عظيمة. وأما عن الظنّ بأنه لم يكن يسرع إلى الكلام حسب مقتضى الحال إلاّ نادراً، ولا يسرع إلى المنبر إلاّ بعد الإلحاح والطلب منه عند التئام الجمعيّة، فلم يكن ينهض إلاّ وهو مستعد ومتفهّم للموضوع. لذلك اعتاد كثير من الخطباء الجماهيرين أن يعيّروه ويتنذّروا عليه بهذا. ومرّة هزأ منه پثياس Pythias بقوله إن مناقشاته وخطبه يفوح منها رائحة المسرجة، فردّ عليه ديموستينس بالجواب القاطع التالي:

- في الواقع يا پثياس إن مِسرجتي ومسرجتك تختلفان في النظر إلى الأشياء وفهمها.

على أن ديموستينس لا يحاول أن ينكر هذا الواقع على الآخرين، بل يقرّ بصراحة بأنه كما أنه لا يُعدّ خطبته كلها من ألفها إلى يائها فهو كذلك لا يتكلم على البديهة مطلقاً من غير استعداد. ويؤكد أن الاستعداد وسبْق التفكير هو عمل تنطوي على الإخلاص للجمهور. ففي التأنّي والرويّة نوع من الاحترام لهم، بينما الاستهالة وقلّة الاهتمام بكيفية تلقّي المستمعين أقواله يُفصح عن شيء من الطبع الأوليغارشي، وهو سبيل كل من يفضّل وسيلة الإرغام على الإقناع.

وأما عن افتقاره إلى الشجاعة والعزم في الارتجال والكلام على البديهة فقد اتخذت دليلاً آخر على نقصه. وذكروا أن ديماديس كان كثيراً ما ينهض من مجلسه عندما يصاب لسانه بعيّ أو يرتج عليه القول، فيُقيله من عِثاره. ولم يلاحظ أنه فعل ذلك لديماديس. وقد يقال: إذن كيف يُفسّر رأي إسخينس فيه عندما يشيد معجباً بجرأته الكلامية؟ وكيف أمكن ديموستينس أن يقف وحده لمقارعة پيثون Python البيزنطي، عندما راح هذا يندّد بالأثينيين ويهاجمهم هجوماً عنيفاً بكلّ اعتداد وسيل دفّاقٍ من الكلمات؟ وعندما كتب لامارخوس Lamarchus الميريني Myrinaen تقريظاً

وثناء لفيليب والإسكندر ضمّنه الكثير من اللوم والقدح بالثيبيين والأولنثيين Olynthians وألقى ذلك على جموع الحاضرين في الألعاب الأولمبية، كيف اتفق أن نهض ديموستنيس وبدأ بخطابٍ أعاد فيه للأذهان تلك الفوائد التي جناها الإغريق من الثيبيين والخلقيديين تاريخاً، وحكومةً. وذكّر الحاضرين بالبلايا والنوائب التي جرّها المتزلّفون للمقدونيين على تلك البلاد، وبهذا حوّل عواطف السامعين فانقلبوا على ذلك السفسطائي، الذي لم يسعه إلاّ أن يتسلّل سرّاً من الاجتماع خوفاً من ضجيج السخط الذي ثار ضده.

ويبدو أن ديموستينس كان يرى أن ثمّ جوانب في خلق پركليس لا تتفق ومشاربه. إلاّ أنه تأثّر خطاه وسار على نهجه في تحفّظه وثبات سلوكه، وإبائه الكلام على البديهة مهما كانت الأسباب. إلاّ أنه لم يأنف من مجدٍ تُتيحه له مناسبةٌ آنيّة، مثلما كان يحذر كثيراً من تعريض ملكته لرحمة الفُرص. والخطب التي ألقاها عَفْوَ الخاطر تنطوي على ثقةٍ بالنفس وجرأة تزيد كثيراً عن تلك الخطب التي أعدّها كتابة، لو آمنّا بأقوال إيراتُستينس وديمتريوس الفاليري والكوميديين عنه. يقول إيراتستينس: كثيراً ما كان ديموستينس ينتقل إلى حالةٍ من الوجد والجذب. ويقول ديمتريوس إنه اعتاد النطق بهذا القسم الإيقاعي المشهور الجميل الوقع على الجمهور.

«قسماً بالأرض، بالينابيع، بالأنهار، بالغدران».

كأنه في حالة الوحي، أو خروج عن الوعي. وأطلق عليه أحد الكوميديين اسم روپوپرپرثراس Rhopopurperthras. وسخر منه كوميديّ آخر لاستعماله الطِباق اللفظي ببيت من الشعر:

«وما أخذ أعاد؟» جملةٌ يسرّ لها خيال ديموستينس نفسه»

هذا، إلاّ إذا قصد أنتيفانس Antiphanes بها التندّر أيضاً على خطبة لديموستينس ألقاها في هالونيسوس Halonesus نصح فيها الأثينيين بألاّ «يأخذوا» يديّ فيليبس، بل أن «يعيدوها». ومهما يكن من أمرٍ فالكلّ أجمعَ على أن ديماديس خطيب لا يُجارى ولا يماري فيه أحد وأنه لا يحتاج إلى أكثر من استخدام مواهبه الطبيعية لتبرز بديهته على كل مجهود ديموستينس في مدارسة خطبته وإعدادها قبل إلقائها. ونقل لنا أرسطون الخياني Chian رأياً لثيوفراستس بخطباء أثينا المعاصرين عندما سئل: في أي صنفٍ يضع ديموستينس فأجاب:

- إنه جدير بمدينة أثينا.

ثم سئل عن رأيه بديماديس فقال:

- أعلى منه.

وذكر هذا الفيلسوف أن پوليئكتوس Polyeuctus الشقيتي أحد ساسة ذلك العصر اعتاد القول: «إن ديموستينس هو أعظم الخطباء طُرّاً، وفوكيون أكفأهم لأنه يعبّر عن أكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الكلمات». والحق يقال إن هذا صحيح، فقد روي عن ديموستينس أنه كان يقول لمن حواليه كلما وقف فوكيون للردّ عليه:

- ها قد أقبلت السكين على خطبتي.

وليس واضحاً هل كان قوله هذا يعبّر عن شعوره بالخوف على تأثير كلامه، أم على حياته وسُمعته. والمفهوم العامّ من القول على كلّ هو أن كلمة واحدة من رجل ثقةٍ أو إيماءة يأتيها قد تنقل السامعين إلى آلاف من المراحل بعيداً.

وروى ديمتريوس الفاليري عن ديموستينس وقد غدا شيخاً هِمّاً أنه شرح له الأسلوب الذي اتّبعه لإصلاح العيوب التي خلقتها الطبيعة فيه بقوله إنه تغلّب على عِيّه وتلجلجه بوضعه حصاة في فمه أثناء الكلام فاستقام لسانه. وإنه ضبط نبرات صوته بترديد الخطب والقصائد الشعرية عندما تنبهر أنفاسه ويلهث في أثناء عدوه أو صعوده مرتقى حادّاً. وكان عنده في المنزل مرآة كبيرة يقف أمامها عند مباشرته تمارينه.

وقيل إن أحدهم جاء إليه مرّةً يطلب منه النصح والإرشاد ليكون خطيباً وقصّ عليه كيف هوجم وضُرب، فقال ديموستنيس:

- من المؤكد أنه لا يمكن أن يحصل لك شيء كهذا.

فرفع القادم صوته وصاح مستنكراً:

- ما هذا يا ديموستينس؟ أتقول إنه لم يحصل لي شيء كهذا؟

فردّ ديموستينس:

- آه، ها أنا الآن أسمع صوت شخصٍ أُهين وضُرب حقّاً!

وكان يهتمّ كثيراً بالنبرة والأسلوب ويعلّق عليهما الأهمية القصوى في كسب ثقة المستمعين وإيمانهم. وكان الأسلوب الذي يعتمده يبعث في نفوس سواد الجمهور سروراً عجيباً. أمّا عند الفئة المثقفة أمثال ديمتريوس الفاليري فهو أسلوب رخيص، مبتذل، مخنّث. وذكر هرميپوس عن أيسيون Aesion أنه سئل عن رأيه في الخطباء الأوائل وفي الخطباء المعاصرين فأجاب: «من الرائع المعجب حقاً أن يتأمّل المرء رباطة الجأش والأسلوب الرفيع اللذين يتوجّهون بهما إلى الناس». على أن خطب ديموستينس تبدو لقارئها رقوى بناءً واشد تأثيراً ولا جدال قطّ في أن خطبه المكتوبة تتميّز بالأسلوب الصارم القاسي. وتراه في ردوده، وتعقيباته المرسلة على البديهة،

يسمح لنفسه بالدعابة والسخرية. فعندما قال له ديماديس:

- أي ديموستينس! علّمْني، كي تعِلم الخنزيرة مينرفا.

ردّ عليه فوراً:

- أهي مينرڤا التي وُجِدت مؤخّراً وهي تتعاطى الفحش والدعارة في كولليتس؟

وعندما حاول لصّ اشتهر بلقب «النحاسي» انتقاده لاستيقاظه في ساعة متأخرة، وكتابته على ضوء الشموع. قال ديموستينس:

- إني لأعلم جيداً بأنك تفضّل أن تكون كل الشموع مطفأة، ولست بمستغربٍ يا أهل أثينا من كثرة السرقات في البلد مادام لدينا لصوص من نحاس وجدران من طين!

إن لدينا الكثير من هذه الأمثلة يصح إثباتها هنا، إلاّ أننا سنمسك عن هذا في الوقت الحاضر ونواصل وصف شخصيته وتحديد أبعادها على ضوء أعماله وحياته السياسية.

كان أول دخوله الحياة العامة إبّان حروب فوكيون كما يؤكد هو نفسه وكما يُستبان من خطبه الفيليبيّة، فمنها ما ألقاه بعد نهاية تلك الحروب، وأولها يشير إلى أحداثها الأخيرة. ومن المؤكد أنه رفع الدعوى على ميدياس عندما كان له اثنتان وثلاثون سنة من العمر، ولم يكن إذ ذاك شديد الاهتمام بالشهرة السياسية. هذا وما حمله - في رأيي - على سحب اتهامه لميدياس وقبوله مبلغاً من المال على سبيل التعويض أنه...

«لم يكن بذلك الرجل السهل الليّن الجانب»

بل صارم الطبع، حريص على الانتصاف لنفسه. وعلى أية حال فقد وجد ديموستينس أن في مقارعة ميدياس صعوبة ينوء بها. وهذا رجل قوي عزيز الجانب، سواء من ناحية المال أو المنطق أو الجاه، ولذلك استجاب ديموستينس لرجاء من توسّط في الأمر. ولو وجد أملاً أو احتمالاً في تحقيق النصر عليه، فلا أظن الآلاف الثلاثة من الدراهم التي قبضها تعويضاً كانت تكفي لفلّ غراب حقده وإطفاء جذوته.

إن الهدف الذي اختاره لنفسه في سياسة الجمهورية كان شريفاً وعادلاً، فقد دافع عن الكيان الإغريقي في وجه فيليب. وهذا السلوك الممتاز حقق له الشهرة، وأثار الاهتمام في كلّ صقع بما أبداه من البلاغة والشجاعة الأدبية، وغطّت شهرته والإعجاب به كل بلاد الإغريق، وتودّد إليه ملك الفرس، وكان فيليب نفسه يقدّره ويفضّله على سائر الخطباء الآخرين. حتى أعداؤه، فقد اضطروا إلى الإقرار بأنه رجل ذو خطرٍ عليهم، ومن الواجب أن يتخلّصوا منه، ولذلك تجد إسخينس وهيپريدس يُقرّان له بهذه المنزلة في حين ما انفكّا عن انتقاصه والافتراء عليه. ولذلك تراني حائراً في إيجاد سبب

مقبول لمقولة ثيومپوپوس عنه حين وصف أخلاقه بالميوعة وسرعة التقلّب وعدم الثبات على نهج واحدٍ مدة طويلة، سواء بصلته مع الناس، أو باتباعه نفس الغايات. بينما كان العكس هو الأظهر على طبعه. فقد ظلّ متمسكا بالرأي والاتجاه السياسي الذي اختطّه لنفسه منذ البداية حتى النهاية ولم يحد عنه حتى أنه آثر ترك الحياة على إنكار مبادئه. ولم يُسمع عنه اعتذارٌ أو تبرير لانتقاله من معسكر سياسيّ إلى معسكر آخر مثل ديماديس الذي كان يتبجّح بقوله إنه كثيراً ما تكلم ضد نفسه، لكنه لم يتكلم قطّ ضدّ المدينة، ولم يكن مثل ميلانوپوس Melanopos خصم كاللليستراتوس المأثور، فلأنه كان كثير الارتشاء، تراه لا يتورّع عن القول للناس:

- هذا الرجل هو خصمي فعلاً، لكن علينا أن نواليه ونطيعه لخير بلادنا.

ولم يكن أيضاً مثل نيقوديمس Nicodemus المسّيني الذي ظهر منحازاً إلى كساندر في مبدأ الأمر، ثم تركه وانضمّ إلى صفّ ديمتريوس، وفسّر انقلابه هذا بقوله إن العملين ليس فيهما أي تناقض ذاتي إذ من الحكمة دائماً أن يُساير الفاتح. وليس ثمّ ما يمكن قوله بحق ديموستينس مما يجري هذا المجرى فلم يكن ممن ينكص على عقبيه أو يراوغ لا قولاً ولا عملاً. ولو لم ينطلق من هذا المنطق في نشاطه السياسيّ من البداية حتى النهاية لوجدنا حتماً اختلافاً مهما كان قليلاً. وقد ذكر پانيتيوس Panaetius الفيلسوف أن معظم خطبه كانما كُتبت للتدليل على هذه النتيجة وهي أن كل ما هو صالح ونبيل يجب أن يطلب لذاته فحسب. ودليل ذلك خطبته عن «التاج» وخطبته «ضد أريستوقراطس» وخطبته «في سبيل الحصانات»، وخطب «الفيليپات». كان في كل هذه الخطب يدعو أبناء وطنه بأن يطلبوا لا ما يبدو لهم أجلب للسرور والراحة والفائدة بل كان يستصرخهم مراراً وتكراراً بأن يؤثروا بالدرجة الأولى كل ما يستقيم مع الشرف والعدل، قبل أن يفكروا في أمنهم وسلامتهم. فلو ظل ديموستينس عفّ اليد، ولو كانت شجاعته في الدعوة إلى الحرب توازي سموّ مبادئه وخطبه، فهو يستأهل أن يوضع لا في عداد ميورو كليس Moeroclis وپولينكتوس وهيپريدس، بل في مصاف الطبقة الأولى من الخطباء أمثال كيمون وثوكيديدس و(پركليس).

من المؤكد أن فوكيون المعاصر له نال صيتاً بفضل شجاعته وأمانته لا يقلّ عن صيت إفيالتس Ephialtes وأريستيديس وكيمون. وإن كانت حكومة أثينا قد حبته بأقلّ الرضى وعدّته من الحزب المتعاون مع المقدونيين. إلاّ أن ديموستينس الذي لم يكن أهلاً للاعتماد عليه في السلاح على حدّ قول ديمتريوس، ولا كان محصّناً تماماً من الرشوة أنّى جاءت، امتنع عن قبول هدايا فيليب والمقدونيين بصورة قاطعة. إلاّ أنه

انكشف وهوجم عندما تغلّب عليه الأصفر الرنّان الذي جاءه من سوسه وكبتانا، ولهذا اعتُبر الأقدر على تزكية فضائل الزمن الغابر منه على الاقتداء بها والسير على نهجها.

ومع هذا كله فقد ارتفعت حياته الخاصة عن حياة كل الخطباء الذين عاصروه خلا حياة فوكيون. لم يواجه أحد منهم الجمهور بمثل الجراءة والصراحة التي واجهه بها، وكان يهاجم الأخطاء، ويعارض في نزوات الشعب واندفاعاته الطائشة كما يبدو من خطبه.

وكتب ثيومپوپوس يقول: إن الأثينيين اختاروا ديموستينس ليقوم بتوجيه الاتهام إلى شخصٍ معيّن فرفض ذلك فهبّ الجميع صارخين وتعالى ضجيج السخط عليه، فنهض وخاطبهم بقوله:

- يا رجال أثينا! سأكون رهن أمركم دائماً كناصحٍ ومشاورٍ شئتم ذلك أم أبيتم. أما أن أكون مدّعياً كاذباً، أو متملقاً ذليلاً، فهذا ما لن أكونه أبداً مهما حاولتم.

وكان موقفه من قضية أنتيفون Antiphon موقفاً أرستقراطيا بحتاً. فبعد أن بُرّئ الرجل أمام الجمعية العامة، اقتيد إلى المحكمة الأريوباغية، فحكمته وأدانته وأنفذت فيه الحكم بتهمة تعهّده لفيليب بإحراق دار السلاح، ولم تعبأ باستياء عامة الشعب. واتهم ديموستينس أيضاً الكاهنة ثيوريس Theoris بأنها لقّنت وحرّضت العبيد على خداع وغشّ أسيادهم إلى جانب تُهم أخرى، فحُكم عليها بالموت ونُفّذ فيها.

وقيل إن ديموستينس هو كاتب الخطبة التي استعان بها أپوللودورس على مباشرة الدعوى ضد تيموثيوس Timotheus الجنرال الأثيني بخصوص دَين عليه. كذلك عُزيت إليه الخطبتان ضد فورميون Phormion وستفانوس Stephanus. وفي القضية الأخيرة الاعتقادُ أن مسلكه كان بعيداً عن قواعد الشرف ذلك لأن الخطبة التي ردّ بها فورميون على أپوللودورس كانت أيضاً من بنات أفكاره، ومثلُه في هذا مثلُ ذلك الذي زوّد خصمين بالسلاح، من دكّان أسلحة واحد، ليطعن أحدهما الآخر!

ومن خطبه الموجّهة إلى الجمعيات العامة، خطبه ضد أندرويتون Androtion وخطبه ضدّ ثيموقراطس Timocrates وأرستوقراطس، وكلها كُتبت ليلقيها آخرون قبل أن يبرز في ميدان السياسة، ويبدو أنه أدعاها عندما كان له من العمر سبعة وعشرون أو ثمانية وعشرون عاماً.

وأما خطبته ضدّ أرسطوغيتون Aristogiton، وخطبه «حول الحصانات»، فقد ألقاها هو بنفسه بطلب من قطيسيپوس Ctesippus ابن خبرياس كما يقول هو نفسه. إلاّ أن بعضهم يقول إنه ما فعل هذا إلاّ تقرّباً لقلب أمّ الفتى، على أنه في الواقع لم يتزوّجها؛ وكانت زوجه ساموسيّة الموطن كما أورد ديمتريوس المغنيزي في كتابه

الموسوم «الأشخاص المتطابقة أسماؤهم». وهناك خطبته ضدّ إسخينس الذي أساء التصرّف في سفارةٍ، لا يُعلم هل أُلقيت أم بقيت حبراً على ورقٍ. على أن إيدومينيوس Idomeneus يقول إن إسخينس نجا من الإدانة بثلاثين صوتاً. ويبدو أن لا صحة لهذا القول، على قدر ما يمكن استخلاصه من خطبتيهما «في التاج»، إذ لم يأت أي منهما إلى ذكر المسألة بوصفها قضية وصلت مرحلة التهمة والمرافعة، لا صراحة ولا ضمناً. . . لكن فلنكتفِ بهذا القدر ولندع لغيرنا أمر البتّ في هذا التباين.

كان واضحاً حتى في فترة السلم السبيل الذي قصد ديموستينس توجيه سياسة الجمهورية إليه. فقد دأب على انتقاد كل ما يصدر من الملك المقدوني، وكان يجد في كل تصرف من تصرّفاته عيباً، ويهتبل كل مناسبة وفرصة لإثارة أهالي أثينا وتهييجهم عليه. ولذلك لم يتردد ذكره في بلاط فيليب كثيراً ولا كان يُمدح بما يستحق. ولقد كان واحداً من أعضاء السفارة العشرة الذين أُرسلوا إلى مقدونيا، ومع أن الجميع حظوا بالالتفات إلاّ أن أكبر الاهتمام كان منصبّاً على الخطبة التي ألقاها فقد حظيت بالجواب المفصّل الدقيق. إلاّ أن فيليب فيما عدا ذلك لم يحتفِ به كما احتفى بالآخرين ولم يُبدِ له اللطف والمجاملة اللذين أبداهما لحزب إسخينس وفيلوقراطس. ولما مدح الآخرون مقدرة فيليب في الخطابة وأطنبوا في وصف جمال شخصه وطيب مجلسه في حفلة شراب لم يتمالك ديموستينس من ايراد اعتراض تافه على هذا المديح بقوله: إن الصفة الأولى هي أجدر بالخطيب، والثانية قمينة بامرأة، والثالثة هي من خصائص الإسفنج، وليس في أية واحدة منها ما يصلح لإسنادها إلى أمير.

لكن الأحداث آلت إلى الحرب بالأخير. ففيليب لم يكن ليصبر على حياة السلم، والأثينيون انساقوا بتأثير ديموستينس، فقد حرّضهم على فيليب عندما أخضع إيوبيا بخيانة من طغاتها. وصوّت الأثينيون باقتراح منه على مرسوم اعلان الحرب، وعبروا البحر وطردوا المقدونيين من تلك الجزيرة. ومما دفع إلى تأجيج أُوار تلك الحرب انتصارُ أثينا للبيزنطيين والپرنثيين Perinthions عند تعرّضهم لهجمات المقدونيين. فأقنع ديموستينس الجمهور الآثنيين بنبذ خصوماتهم مع هاتين المدينتين، ونسيان الإساءات التي ارتكبتاها في أثناء حروب الحلف، فأرسلت النجدات العسكرية التي أنقذتهما وعزّزت دفاعهما. وبعد هذا بفترة قصيرة قام بمهمة السفير المتجوّل في مختلف دول اليونان، وكان يحثّهم على مقاومة فيليب وقتاله. وأفلح في إنشاء جبهة متحدة من هذه الدول باستثناء القلة منها. وتألف إلى جانب القوات - التي عبّأها المواطنون أنفسهم - جيش للحلف من خمسة عشر ألفاً من المشاة وألفين من الخيّالة.

ودفعت تلك الدول بطيبة خاطر الأموال اللازمة لتجنيد المرتزقة. وعلى ما يذكره (ثيومبوبوس) أن قولة كروبيلوس Crobylus المشهورة كانت في مناسبة طلب الحلفاء تعيين مقدار مساهمتهم المالية وتحديدها بصورة دقيقة. فقد نهض هذا الخطيب وقال:

- إن الحرب لا يمكن أن تُطعم بكذا وكذا، في اليوم الواحد.

بعد أن حملت كل بلاد الإغريق السلاح، وأخذت الآمال العراض تداعب شعوبها، واتحد الأيونيون، والأخائيون والقورنثيون والميغاريون والليوكاديون Leucadians والكوركيريون Corcyraean، أهاليَ ومدناً، في عُصبة مؤتلفة واحدة، بقيت أشقّ المهمات في عُهدة ديموستينس، وكان قد أرجئ البتّ فيها، وهي ضمّ الثيبيين إلى هذه العصبة. كانت بلادهم متاخمة لأتيكا، وكانت لديهم قوّات كبيرة مهيّأة للقتال، وهم في ذلك الوقت أفضل محاربي الإغريق، ولم يكن بالهيّن حملهم على مناصبة فيليب العداء، إذ لم يمرّ وقت طويل على الجميل الذي صنعه معهم في أثناء حروب فوكيون. ومما عقّد الأمر كثيراً أن أسباباً للنزاع والخلاف بين مدينة ثيبة وأثينا كانت تنجم وتتجدد باستمرار وتشتد وتتفاقم بخصومات تافهة تنشأ بسبب حدودهما الواحدة.

الاّ أن فيليب الذي علا نجمه وسطع، وزاده غروراً نجاحُه في أمفيسّا Amphissa، سرعان ما انقضّ على إيلاطيا Elatea فجأة، واستولى على فوكيس وأصاب الأثينيين بذعرٍ شديدٍ. ولم يجرؤ أحد من الخطباء على اعتلاء المنبر ومواجهة الجمهور وفقد الجميع مقدرة الكلام وركبتهم الحيرة أمام جمعية ذاهلة صامتة. في هذا الظرف العصيب برز ديموستينس وحده وألقى إليه بنصيحته وهي التحالف مع ثيبة. ولجأ إلى شتى الوسائل والأساليب لبثّ روح الإقدام في الأثينيين، ورفع معنوياتهم بالآمال المشرقة، فأخذوا برأيه وبعثوا به مع آخرين في سفارةٍ إلى ثيبة. وبادر فيليب أيضاً بإرسال وفدٍ حسب ما يذكر مارسياس Marsyas لإحباط مساعي ديموستينس، وكان وفده يتألف من أميتاس Amytas وكليارخوس Clearchus المقدونيين، ودخوس Doachus التسّالي، وثراسيديوس Thrasydoeus. كان الثيبيون أعرف من غيرهم بمصلحتهم في تلك الساعة، وأخبر بما يوائمهم، إلاّ أن فظائع الحرب وأهوالها كانت شاخصة أمام أعينهم جميعاً، وخسائرهم الفادحة في الحروب الفوكونية، ما زالت ماثلة للأذهان. إلاّ أن قوة عارضة الخطيب وسلطان تأثيره كان، كما يقول ثيومبوبوس، عاتياً في إذكاء نار شجاعتهم وإشعال لهيب حماستهم، حتى أنهم تركوا جانباً كل حذرٍ أو خوف، وعافوا كل عهدٍ مقطوعٍ بنوع من إلهام ربانيّ، ليختاروا سبيل الشرف الذي

دعتهم إليه كلمات الخطيب. إن هذا النجاح الذي حققه ديموستينس بلغ حداً من المجد والآثار الجسيمة ألجأ معه فيليب إلى إرسال وفدٍ للمفاوضة في صلح. إلاّ أن كل بلاد الإغريق هبّت دفعة واحدة بسلاحها للنجدة. ووضع القادة العامّون أنفسهم تحت تصرّف ديموستنيس لتلقّي الأوامر منه، لا في أتيكا وحدها بل في بويوتيا أيضاً. وكان تأثير لسانه على جمعيات ثيبة العامة لا يقل عن تأثيره في الأثينيين. فدانت لسلطانه المطلق جمعيتا المدينتين، وأحاطتاه بودّهما. وكان يجانب الطرق الملتوية في إدارتهما، ولا يدافع أمامهما إلاّ عن قضية عادلة كما أقرّ بذلك ثيومپوپوس نفسه. ولم يكن هذا على جدارته وألمعيّته بالكثير.

على أن الآلهة قدّرت، على ما يبدو من مجرى الأحداث، فترةً من الزمن تفقد فيه بلاد الإغريق حرّيتها. فكان الحظّ العاثر يقف لها بالمرصاد فيصيبها بالفشل ويُحبط مساعيها بصورة متوالية، وتواترت النبوءات والإشارات العلوية لتأكيد ذلك. منها النبوءة الكئيبة التي نزلت على الكاهنة الثيبية. وهي نبوءة قديمة تضمّنتها مجموعة القصائد السيبيلية Sibyl:

«المعركة في ثِرمُودون ستكون مأمونةً عن بُعد وإني لأرغب في مشاهدتها من مسافةٍ، مثل نسرٍ مراقب وهو يطير في الفضاء. سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب».

ويقال إن ثِرمُودون Thermodon هو غدير صغير هنا في بلدنا خيرونيا وهو يجري إلى كيفيسوس Cephisus. على أننا لم نقع على نُهيرٍ بهذا الاسم يجري في تلك الأنحاء في يومنا هذا. وليس لنا إلاّ أن نخمّن بأن مسيل الماء المعروف اليوم باسم هَيْمون Haemon الذي يمرّ محاذياً هيكل هرقليس حيث عسكر الإغريق هو ثرمودون المقصود. إذ إنه اصطبغ بعد هذه المعركة بالدماء، وامتلأ بجثث القتلى، ولأجل هذا تغيّر اسمه وأطلق عليه الاسم المعروف به اليوم - كما نظن. على أن دوريس يقول بأن ثرمودون ليس نُهيراً، وإن هذا الاسم يتعلق بحدث معيّن، وهو أن بعض الجنود عندما شرعوا بضرب خيامهم وحفر الخنادق حولها عثروا على تمثال حجري صغير، دلّت الكتابة المنقوشة فيه أنه تمثال ثرمودون يمثله حاملاً أمازونةً جريحة بين ذراعيه. وهناك بنوءة أخرى عن الموضع تتداولها الألسن وهي:

«أيها الغراب، لا تتردّد في حضور ورؤية المعركة التي ستقع في ثرمودون فستكون لك مأدبة كبيرة من لحوم الرجال هناك».

وليس من السهل أن نقرّر أيّ زعمٍ من هذه المزاعم هو الصحيح، على أية حال.

أمّا عن ديموستينس فقد قيل إنه كان يثق بقوات الإغريق ومقدرتها ثقة لاحدّ لها. وقد أثاره ما وجده من علامات البأس والعزم في هذا العدد الكبير من المقاتلين الشجعان المستعدّين لقراع العدو مما لا يُتصوّر معه أنهم قد يعيرون أذناً صاغية للنبوءات أو أنهم يهتمون بالعرّافات، حتى قال إنه يشكّ في الكاهنة، ويميل إلى الاعتقاد بأن بعضهم أغراها لتتكلم في صالح فيليب. وأخذ يذكّر الثيبيين بإپامنينداس، ويذكّر الاثينيين بپركليس قائلاً إنهما كانا يتخذان قراراتهما بتحكيم عقلهما فيهما، وينظران إلى النبوءات وأمثالها بوصفها أعذاراً يتعلّل بها الجبناء. إلى هذه المرحلة كان ديموستينس جريئاً أيّداً. إلاّ أنه لم يجنِ أيّة مأثرةٍ في القتال الفعلي، ولم يطابق بلاؤه في ساحة الوغى تجلّيه في منبر الخطيب، فقد فرّ من الميدان، وترك موضعه بشكل مُخز وألقى بأسلحته جانباً، دون أن يحسّ بالعار الذي أصاب الكتابة المنقوشة على ترسه بأحرف من ذهب «مع حظ سعيد»، وهذا ما يذكره لنا پيثياس Pythias. ما إن لاحت تباشير النصر لفيليب حتى ركبته فرحة طاغية، واستخفّه طرب عظيم، فخرج بعد أن عبّ مقداراً كبيراً من الخمر لمشاهدة القتلى، وأخذ يردّد آخر بيان حربي صدر بناءً على اقتراح من ديموستينس:

«اقتراح من ديموستينس ابن ديموستينس».

وراح يقطّعه تقطيعاً إيقاعياً ويشدّ على موضع الوقفات فيه. وبعد أن عاد لنفسه وأخذ يفكر بالخطر العظيم الذي كان يتعرّض له قبل قليل. أدركته ارتجافة تهيُّب من تلك القوة والكفاءة الهائلة في كلام خطيبٍ، مما دفعه إلى المجازفة بحياته وبمملكته، بمعركة تتقرر نتيجتها بسويعات. لقد انداحت شهرة ديموستينس وانتشرت حتى بلغت بلاط الفرس، وأرسل الملك رسائل إلى عُمّاله آمراً إيّاهم بأن لا يبخلوا على ديموستينس بالمال وأن ينجزوا أية خدمة يطلبها بوصفه الوحيد في كل بلاد الإغريق الذي تمكن من إلهاء فيليب، وإشغال قواته العسكرية في ميادين قريبة منه، أعني في النزاعات اليونانية. لقد انكشف هذا للإسكندر فيما بعد من رسائل لديموستينس وجدها في سارديس ومن أوراق عثر عليها لضباط فرس، وفيها ثبتٌ بالمبالغ الطائلة التي أرسِلت إليه.

بعد الفشل الذي مُني به الإغريق أخذ الحزب الآخر المعارض في الجمهورية يعمل على الإيقاع بديموستينس، واتخذوا من ذلك فرصة ليلفّقوا عدة تهم عليه، وإلصاق بعض الجرائم به. ولم يكتف عامة الشعب بتبرئته من كل ما عُزي إليه بل ظلّوا يخصّونه بالمنزلة الأولى من الاحترام، ولم ينفكوا عن دعوته للمشاركة في تصريف

الشؤون العامة، ثقةً منهم بحُسن نيّته وإخلاصه. وقد تجلّى ذلك عندما جيء بعظام قتلى خيرونيا إلى الوطن لدفنها باحتفال رسميّ، فقد اختاروه لإلقاء خطبة التأبين، ولم يظهروا وهم تحت تأثير المصائب أيّ خُلق وضيع أو معاملة دنيئة. وهذا ما سجّله لنا ثيومپوپوس بأسلوبه المغرق في المبالغة، وكان العكس هو الصحيح فبالاحترام والتكريم اللذين خصّوا به ناصحهم الأمين برهنوا على عدم استيائهم من نصائحه واقتراحاته.

ألقى ديموستينس الخطبة التأبينية، إلاّ أنه أبى أن تكون البيانات اللاحقة لها صادرة باسمه، بل وكلّ أصدقاءه بها واحداً بعد الآخر، متعللاً بأن اسمه يجلب النحس والشؤم. وظلّ هكذا فترةً، حتى ارتفعت معنوياته وشجعّه موت فيليب الذي لم يعش كثيراً عقب انتصاره في خيرونيا. وهذا ما أشير إليه في البيت الأخير من النبوءة على ما يبدو لي:

«سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب».

أُعلم ديموستينس سِراً، بنبأ موت فيليب قبل انتشاره، فوجد في ذلك فرصته ليستهوي الناس، ويبثّ في نفوسهم الشجاعة، ويحيي الأمل الباسم بالمستقبل. فأقبل على الجمعية العامة بوجه طافح بالبِشر وبأسارير باشّة وزعم لهم أنه رأى حُلماً ينبئ عن حظ عظيم مقبل على أثينا. وبعد هذا بقليل قدِم الرسل بنبأ موت فيليب. وما إن انتشر ذلك في أوساط الشعب حتى خرجوا إلى الهياكل لتقديم القرابين، وأصدروا قراراً بتقديم «تاج» إلى پاوسانياس. وخرج إليهم ديموستينس وعليه حُلّة فاخرة وقد اعتمر بإكليلٍ من الغار، مع أنه لم يزل في حِداد على ابنته التي لم يمضِ على وفاتها غير سبعة أيام، حسب قول إسخينس الذي انتقده على هذا التصرّف، وهاجمه ووصفه بالإنسان الذي تجرّد عن عاطفة الحب الأبوي. كان الأحرى بإسخينس لو عمد ديموستينس إلى الظهور بغير هذا المظهر أن يفضح ضعفه ويعيب عليه افتقاره إلى رباطة الجأش وقوّة الإرادة، وهو أقرب إلى الخُلق الانثوي؛ إن كان يعتبر البكاء والعويل الدليلين الوحيدين على رقّة الطبع ورهافة الحسّ، أو كان يدين أولئك الذين يتحمّلون تلك المصائب بالمزيد من الحلم والتصبُّر، وبالأقلّ من العاطفة. وأما من جهتي فلا يسعني القول بأن مسلك الأثينيين في تلك المناسبة كان شريفاً لائقاً. فإن ضفر الأكاليل على رؤوسهم وتقديم القرابين للآلهة لموت أمير لم يلقوا منه إلاّ أطيب المعاملة وألطفها وأقربها إلى الإنسانية، مات وهو في أوج انتصاراته وعظمة نجاحه وهم يعانون مرارة الهزيمة والفشل. لقد أثاروا بعملهم هذا نقمة الحظّ عليهم فضلاً عمّا ينطوي عليه من الخِسّة والدناءة بذات نفسه. فبعد أن جعلوه مواطن شرفٍ أثينياً، وبالغوا في إكرامه وتبجيله

حيّاً، رأيتهم يخرقون كل حدود السرور والتشفّي ويشتمونه عندما يسقط قتيلاً بيد شخصٍ آخر لا يمتّ إليهم بصلةٍ وينشدون أناشيد النصر والظفر كأن بسالتهم هي التي قضت على حياته. في الوقت نفسه ينبغي لي أن أشيد بموقف ديموستينس الذي ترك البكاء والدموع وأحزان الأسرة للنساء حين وجد أن واجبه يقضي عليه برعاية مصالح الجمهورية. وفي رأيي أنه واجب نبيل للنفس الجريئة الصالحة للحكم وقوفُها الثابت الدائم لحماية المصلحة العامة تاركةً الأحزان الخاصة والمتاعب الشخصية تجد تعويضها فيما ينعم به الشعب من خير. كان واجباً عليه أن يحافظ على وقاره ومكانته أكثر بكثيرٍ من الممثلين حين يمثلون أداور الملوك والطغاة على المرسح، تراهم لا يُعربون عن أحاسيسهم الخاصّة عندما ينخرطون في بكاءٍ، أو عندما يضحكون، بل يقومون بتمثيل الدور حسب مقتضى الحال. أضف إلى هذا أن واجبنا تجاه الجار الذي حلّت به مصيبة لا يقتصر على مواساته وإنما أن نقدّم له كلّ ما يُسرّي عنه قولاً وعملاً وتحويل أفكاره إلى المواضيع المسلّية. مثلما نشير على الناس الذين يشكون ألماً في أعينهم بأن يتحاشوا النظر إلى الألوان الساطعة المؤذية، والتحوّل إلى اللون الأخضر أو إلى مزيج من الألوان الخفيفة الهادئة. ولهذا ففي حالة ديموستينس يجب علينا أن نلجأ إلى وسائل تعزية للمصيبة التي ابتُلي بها أفضل وأجدى. وليس مثل نهوض بلاده من كبْوَتها وعودتها إلى الازدهار وسيلة أفضل، بإدخالنا المناسبات العامة والخاصة في الحساب - إن جاز لنا القول. فاليُسر الذي يصيب الدولة يطمس المصائب التي تحلّ بالمرء ويخفيها. لقد لجأت إلى التفصيل أولاً لأني أعرف أن كثيراً من القرّاء قد أثّرت فيهم نفسية إسخينس فبلغت بهم حَدّاً من الرهافة والرقّة مما لا يليق بالرجال.

ولأعُد إلى حكايتي: نفخت جهود ديموستينس روح الحياة مجدداً في المدن الإغريقية فعادت إلى الائتلاف في عصبةٍ. وأمدّ الثيبيين بالسلاح فانقضّوا على الحامية المقدونية المعسكرة بين ظهرانيهم وفتكوا بالخلق الكثير منها. واستعد الاثينيون بقواتهم لنجدتهم. وأصبح لديموستينس القول الفصل في الجمعية العامة. ووجّه الرسائل إلى القواد الفرس المؤتمرين بأمر ملك الفرس في آسيا يحثّهم على شنّ حربٍ ضد الملك المقدوني، ناعتاً إياه بالطفل، وبالأبله. لكن ما إن استتبّ الأمر للإسكندر في بلاده، وزحف على رأس جيشه نحو بويوتيا، حتى هبطت معنويات الأثينيين وخانتهم الشجاعة. وخفت صوت ديموستينس وتركوا الثيبيين يقاتلون الإسكندر وحدهم فخسروا مدينتهم، وعَمّ أهل أثينا الحزن والقلق الشديد. وقرروا إرسال وفد مفاوض إلى الإسكندر، وكان ديموستينس عضواً فيه. إلاّ أن الخوف من غضب الملك تملّكه

وهو في الطريق فكرّ على أعقابه راجعاً من كيثيرون Cithaeron متخلّياً عن المهمة. وفي الوقت عينه أرسل الإسكندر إلى أثينا طالباً تسليم عشرة من خطبائهم إليه على حدّ قول أيدمينيوس ودوريس، لكن معظم المؤرّخين يقولون إن الإسكندر طلب الثمانية التالية أسماؤهم فحسب: ديموستينس، پوليئكتوس، أفيالتس، ليكورغوس، ماوركليس، ديمون، كاللستينس، خاريديموس. وبهذه المناسبة قام ديموستينس ليقصّ عليهم حكاية الغنم التي سلّمت كلابها إلى الذئاب، مشبّهاً نفسه وأعضاء الوفد الآخرين الذين أوقفوا أنفسهم على سلامة مواطنيهم بالكلاب التي تحمي القطيع والمقدوني بكبير الذئاب... وقال مستطرداً:

- وكما نرى تجّار القمح يبيعون محصولهم بعرض عيّنة أو نموذج منه، في صحفة يطوفون بها على الشارين، كذلك أنتم بتسليمكم إيّانا ونحن فئة قليلة من الجمع الكثير، تسلّمون أنفسكم جميعاً وأنتم لا تدرون.

نجد الحكاية مدوّنة هكذا في تاريخ أرسطوپولس الكساندري: راح الأثينيون يتداولون فيما بينهم، حائرين لا يدرون ماذا يصنعون. ثم اتفق ديماديس مع الذين طلب الإسكندر تسلميهم إليه على أن يدفعوا له خمسة تالنتات لقاء ذهابه بدلاً عنهم للتشفّع لهم عند الملك. وسواء في ذلك أكان يعتمد على صداقته للملك والمكانة التي يتمتع بها لديه، أو أنه كان يأمل في أن يجد سَورة غضبه قد انفثأت، مثل أسدٍ مفترس، شبع من القتل حتى أُتخم، فمن المؤكد أنه ذهب ونجح في نيل العفو عن الرجال، وإجراء صلح بين الملك والمدينة.

وبهذا أصبح لديماديس اليد الطولي عند ذهابه إلى الإسكندر وعلت كلمة أشياعه. وأُهمل ديموستينس إهمالاً تاماً وأفل نجمه. لكن الحركة ربت فيه عندما قام أغيس السپارطي بثورته، فقد حاول ديموستينس إجراء حركة لمصلحته، إلاّ أنه سرعان ما عاد لينطوي على نفسه ثانيةً بعد فترة قصيرة، إذ لم يشأ الاثينييون أن يتدخلوا في أمر هذا الثورة.

وقُتل أغيس وغُلب اللقيديميون على أمرهم. وفي هذه الفترة قُدّم للمحاكمة قطيسفون Ctesiphon بالتهمة المتعلّقة بـ«التاج» وكانت الإجراءات القانونية قد بدأت في هذه القضية قبل معركة خيرونيا بقليل في وقت أرخونية خيروندايس Choerondos. إلاّ أنها لم تعقب وتُحال إلى المحاكمة إلاّ بعد عشر سنوات في وقت أرخونية أرسطوفون. ولم تنل قضيةٌ من الشهرة ما نالته هذه القضية سواء بسبب ما كان يتمتع به خطباؤها من صيتٍ ذائع، أو بسبب الشجاعة الفريدة التي أبداها القضاة الذين أبوا

إصدار حكم ضد ديموستينس، مع أنّ متّهميه في ذلك الوقت بالذات كانوا في أوج سلطانهم ونفوذهم الذي تدعمه قوة مقدونيا. فبرّأوه بتكريم وإجلال. حتى أن إسخينس لم يحصل على خُمس أصواتهم، فلم ير بداً من مغادرة المدينة بسرعة، منفقاً بقية حياته في تعليم البلاغة في جزيرة رودس وفي القارة الآسيوية بأيونيا.

بعد هذا بزمن قصير هرب هرپالوس من الإسكندر وغادر آسيا لاجئاً إلى أثينا. ولم يكن يجهل مقدار الذنوب التي ارتكبها، وكان سببها تعلُّقه بالترف والبذخ؛ فأدركه خوف شديد من الملك الذي أصبح الآن مصدر رهبة حتى لصفوة أصدقائه، وجاء إلى الاثينيين واضعاً أمواله وسفنه ونفسه تحت تصرّفهم. وسرعان ما امتدّت أيدي خطباء المدينة إليه وشخصت أبصارهم إلى أمواله وخفّوا إلى معونته وحملوا أهالي أثينا على إجارته وإعطائه حق اللجوء. وفي مبدأ الأمر نصحهم ديموستينس بطرده من البلاد، وبالحذر من توريط مدينتهم في حرب بلا مبرّر أو ضرورة. وبعد أيام قليلة كانوا يقومون بجرد الأموال التي جاء بها هرپالوس ولاحظ هذا إعجاب ديموستينس الشديد وفرحه بكأسٍ من صنع فارسيّ، وراقبه وهو يتأمّل بلهفةٍ نقوشه وتهاويله، فطلب منه أن يزنه بيد ويقدّر كمّية الذهب فيه، فذهل ديموستينس من ثقله وسأله:

- كم يبلغ وزنه؟

فأجابه هرپالوس:

- «إليك... سيصل» مع عشرين تالنتاً.

وما إن جنّ الليل حتى وصله الكأس مع ذلك القدر من التالنتات. ويبدو أن هرپالوس كان مصيباً في استقراء أمارات الجشع فيه من انقلاب سحنته ومن أنظاره وحركات عينيه. ولم يقوَ ديموستينس على مقاومة الإغراء وأدخل الهدية إلى حصن بيته كحامية شاكّية السلاح، ومن بعدها استسلم لهرپالوس وأصبح طوع أمره. ففي اليوم التالي، أقبل على الجمعية العامة وقد أحاط عنقه بمحرمةٍ من صوفٍ. فلما طلبوا منه الكلام، راح يلوّح بيديه مشيراً إلى أنه فقد قدرته على النطق. إلاّ أن الأذكياء وأصحاب النكتة اتخذوا من الأمر مادّة للمزاح والتندّر فقالوا: «لا شكّ أن الخطيب قد أصيب الليلة الفائتة بالتهاب اللوزتين الفضيّ! وليس غير». ولم يلبث الناس أن علموا بالرشوة فثار بهم الغضب، وأوقفوه عن الكلام ولم يسمحوا له بالاعتذار لنفسه بل أمروه بالنزول عن المنبر وهم ضاجّون صاخبون.

ونهض رجل وصاح:

- ماذا دهاكم يا رجال أثينا؟ أما تريدون أن تستمعوا إلى حامل الكأس؟

وأخيراً طردوا هرپالوس من المدينة. وخوفاً من أن يطلب منهم تقديم حساب عن الأموال التي ابتزّها الخطباء منه، فقد أجروا تفتيشاً دقيقاً في منازلهم، ولم يستثنوا من هذا الإجراء غير كالليكلس Callicles ابن أرّينيداس Arrhenidas الذي كان قد تزوّج حديثاً، فاستثنوا داره من التفتيش حرمةً لعروسه التي كانت فيه على ما يذكر ثيومپوپوس.

وعارض ديموستينس في التحقيقات، واقترح إصدار قرار يقضي بإحالة الأمر إلى المحكمة الأريوباغية، وإنزال العقاب بأولئك الذين تدينهم المحكمة. على أنه كان من الأوائل الذين أدانتهم تلك المحكمة عندما مُثل امامها متّهماً فغُرّم خمسين تالنتاً ووُضع في السجن، فضاقت نفسه به ولم يحتمله إمّا خجلاً من الجريمة وإما بسبب ضعف بنيته، فهرب بمساعدة وتدبير بعض المواطنين وإهمال بعضهم. ومن القليل الذي روي لنا أنه لم يبتعد كثيراً عن المدينة حتى شعر بأن ثمّ من يتعقّبه وتبيّن أن فيهم خصوماً له، فحاول الاختفاء إلاّ أنهم نادوه باسمه ودنوا منه ورجوه قبول شيء من المال يستعين به على رحلته، وأكدوا له أنهم ما تعقّبوه إلاّ لهذا الغرض وطفقوا يشجّعونه ويشددون عزائمه للوقوف بجلد أمام سوء خطّه، فأنشأ يندب نفسه ويبكي بحرقة وقال:

- لكن أنّى لي أن أتحمّل ثقل كل هذه النوائب. وها إني أغادر مدينة لي فيها خصوم من أمثالكم في حين لن يكون من السهل قط أن أجد أصدقاء لي في أية مدينة ألجأ إليها؟

ولم يُظهر جَلداً وصبرا على حياة المنفى، وقضى جُلّ أوقاته في أيجينا Aegina وترويزين Troezen، ينظر دوماً بعينين دامعتين إلى بلاد أتيكا. وقد تخلّف في المدوّنات بعض أقوال له لا تشبه كثيراً تلك العواطف الفنية الدافعة المفعمة بالجراءة التي اعتاد إلقاءها عندما كان يهيمن على الجمهورية. قيل إنه رفع كلتا يديه نحو الأكروپوليس وهو يغادر المدينة، وقال:

- أيتها السيّدة مينرڤا كيف تطيقين وجود ثلاثة وحوش ضارية لا يسلس قيادها: البوم، والثعبان، والشعب الأثيني؟

وكان يثبّط هِمَم الشباب الذين يأتون لزيارته والتحدث إليه، ويحذّرهم من أخطار السياسة ومعالجة شؤون الدولة بقوله:

- لو خُيّرتُ من البدء بين سبيلين، أحدهما يؤدّي إلى منبر الخطابة والجمعية العامة، والآخر يؤدّي إلى الدمار المباشر، ولو قُيّض لي التكهّن بالنوائب الكثيرة التي

تنتظر العاملين في الحقل السياسي، من المخاوف والحسد، والافتراء، والتناحر، لاخترت بدون شكّ السبيل المؤدّي إلى موتي مباشرةً.

وحَلّ أجل الإسكندر عندما كان ديموستينس في المنفى كما ذكرنا. فرفع الإغريق السلاح ثانيةً، وقد شجّعتهم محاولات ليوسثينس الباسلة، الذي كان آنذاك يبني حول أنتيباطر المحاصَر في لاميا. وعلى إثر ذلك هرب من أثينا الخطيبان پيثياس وكالليميدون Callimedon الملقّب بالسلطعون وانحازا إلى جانب أنتيباطر وراحا يتنقلان في مختلف أنحاء بلاد اليونان برفقة سفرائه لإقناع الإغريق بالإخلاد إلى السكينة وعدم الانحياز إلى جانب الأثينيين. لكن ديموستينس التحق بالسفراء القادمين من أثينا وبذل قصاراه، وأسدى كل ما أمكنه من العون لإقناع المدن الإغريقية بالهجوم معاً على المقدونيين وطردهم من بلاد الإغريق. ويقول فيلارخوس إن مناظرة وقعت في أركاديا بين پيثياس وديموستينس انجرّت بالأخير إلى مهاترة صريحة. فقد كان الأول داعية مقدونياً والثاني داعية إغريقياً. قال پيثياس:

- لما كنا نفترض دائماً وجود مرض ما في الأسرة التي تشرب حليب الحمير، فإن المدينة التي تأتيها سفارة من أثينا، لا بدّ أن تكون مصابة بوعكة مرضية!

فأسرع ديموستينس يردّ على هذه المقارنة بقوله:

- يؤتى بحليب الحمير ويُستعمل لحفظ الصحة، وقد جاء الأثينيون لأجل شفاء المرضى بإعطائهم العلاج الشافي.

سُرّ الأثينيون بسلوك ديموستينس حتى أنهم ألغوا قرار نفيه وأرسلوا يطلبون إليه العودة، وحمل هذا القرار إليه ابن عمّه ديمون Demon الپاياني Paeanian. وبعثوا له بسفينةٍ أقلّته من منفاه أيجينا إلى پيريوس حيث خرج المواطنون جميعاً لاستقباله بأعظم الفرح. ولم يتخلّف عن هذه المناسبة كاهنهم وأرخونهم. ويقول ديمتريوس المغنيزي أن ديموستينس رفع يديه نحو السماء وبارك ذلك اليوم الذي شهد عودته السعيدة قائلاً إنه اشرف بكثير من يوم عودة ألكيبادس، ذلك لأن أبناء وطنه دعوه من تلقاء أنفسهم، لا بأمرٍ فُرض عليهم بالقوة. وبقي موضوع الغرامة المالية معلّقاً. إذ لم يكن القانون يسمح بإعفائه منها بقرار شعبي. على أنهم وجدوا مخرجاً بالاحتيال على القانون. فقد جرت العادة لديهم أن يخصّصوا قدراً من الفضّة لأولئك الذين يُقرَّر تعيينهم لتزيين وترتيب مذبح التضحية الخاصّ بـ«جوپترسوتر» فأناطوا به هذه المهمة وخصّصوا له خمسين تالنتاً لقاء هذه الخدمة وهو مقدار الغرامة التي حُكم بها.

على أنه لم يتمتّع وقتاً طويلاً بالعيش في بلاده، فقد مُنيت بعد قليل بالفشل التام

كلّ محاولات الإغريق. فمعركة كرانون Cranon التي جرت في ميتاغيتنيون Metagitnion في شهر بيودروميون أدّت إلى دخول الحامية المقدونية مونيخيا. وبعدها بشهرٍ، وهو شهر پيانپسيون Pyanpsion، قضى ديموستينس نحبَه على الوجه التالي:

عندما وردت الأنباء بزحف أنتيپاطر وكراتيروس على أثينا. انتهز ديموستينس ورفاقه فرصتهم للهرب من المدنية سِرّاً. على أن حكماً بالموت أصدره الشعب عليهم باقتراح من ديماديس، فتفرّق الهاربون آحاداً، وأصبح كل واحد منهم في موضع. وأرسل أنتيپاطر جنوده إلى كل ناحية للقبض عليهم بإمرة أرخياس Archias الذي غلب عليه لقب «صيّاد المنفيين» منذ ذلك الحين، وكان ثوري Thurian المولد، وقيل إنه احترف التمثيل التراجيدي في أول حياته، وذكروا أن بولص الإيفيني أبرع ممثلي زمانه كان تلميذه. إلاّ أن هرميپوس يعتبر أرخياس من تلاميذ لاكريطس Lacritus الخطيب. ويقول ديمتريوس إنه أمضى بعض الوقت مع أنكسيمينس.

عثر أرخياس في أيجينا على كلّ من هيريدس الخطيب وأريطونيقوس Aritonicus المراثوني، وهيميريوس Himeroeus شقيق ديمتريوس الفاليري، فأخرجهم من هيكل أيقوس Aecus بالقوة إذ كانوا قد لاذوا به، وأرسلهم إلى أنتيپاطر الذي كان في كليوني Cleonae. وهناك قتلهم. وقيل إنه قطع لسان هيبريدس. وسمع أرخياس أن ديموستينس قد لاذ بحرم هيكل نبتون في كالاوريا Calauria فعبر إليها في مركب خفيف. وفور نزوله اليابسة بوحدةٍ من الرمّاحة الثراقيين حاول إقناع ديموستينس بمرافقته إلى أنتيپاطر وكان يعتقد أنه لن يلقى معاملة قاسية. إلاّ أن ديموستينس كان قد رأى الليلة السابقة حلماً غريباً. فقد خيّل له أن دخل في سباق تمثيل تراجيدي مع أرخياس لإحراز قصب السبق. ومع أن تمثيله الجيّد حاز رضا المتفرّجين التام فقد خسر بسبب سوء الإعداد المسرحي، وأثاثه الحقير.

بينما كان أرخياس يتحدّث إليه بكلّ لطفٍ وهو جالس لا يأتي بحركة ولا يغيّر من جلسته شاخص إليه بعين لاتريم، انتفض فجأة وقال:

- أيْ أرخياس إني أقلّ تأثراً بوعودك الآن من تأثري بتمثيلك في الماضي.

فداخل الغيظ أرخياس وأخذ يهدّده. فقال ديموستينس:

- أنت الآن تنطق بنبوءة مقدونية أصيلة، وقبل ذلك كنت تمثل دوراً. فأمهلني قليلاً لأكتب كلمة أو اثنتين لأهلي.

قال هذا ودخل حرم الهيكل وتناول رقّاً كأنّما يهمّ بالكتابة. ووضع القصبة في فمه وقضمها كما هي عادته عندما تتناهبه الأفكار أو عند الكتابة. أبقى القصبة في فمه برهة،

ثم أطرق وغطّى رأسه. وخيّل للجنود الواقفين بالباب أن جَلَده خانه وأن الخوف من الموت قد دبّ في أوصاله. فراحوا يسخرون منه ويلقّبونه بالأنثى، والجبان، وبالقلب الجازع. واقترب منه أرخياس وطلب منه القيام مردّداً ما قاله، وواعداً مرة أخرى بالسعي لمصالحته مع أنتيپاطر. لكن ديموستينس الذي شعر بأن مفعول السمّ قد سَرى في أحشائه كشف عن وجهه وشخص بأبصاره إلى أرخياس وقال:

- الآن يمكنك متى شئت أن تبدأ بتمثيل دور كريون Creon في التراجيديا، وتقذف بجسدي هذا في العراء دون دفن. ولكني يا نبتون الرحيم سأنهض الآن وفي جسدي بقيّة من روح لأترك هذا الموضع المقدس، مع أن أنتيپاطر ومقدونيّيه لم يُبقوا شيئاً من هيكلك إلاّ وهو مدنّس.

بعد هذا طلب أن يسنده أحدٌ لأنه بدأ يرتعش ويهتزّ أثناء سيره، وسقط عند مروره بالهيكل وأخرج تنهيدة ثم أسلم الروح.

يقول أرسطون إنه تناول السمّ من القصبة كما أوضحنا. إلاّ أن پاپّوس Pappus - وهو مؤرّخ عبر هرميپوس على تاريخه - يذكر أنه عندما سقط بالقرب من المذبح، وجِد في لفافة أوراقه التصدير التالي لرسالةٍ شرع في كتابتها:

«من ديموستينس إلى أنتيپاطر...»

وعندها أثار موته الفجائي دهشةً كبيرة. ذكر التراقيون الذين كانوا يحرسون الباب أنه تناول السمّ من صُرّة قماش بيده، ووضعه في فمه، وقد ظنّوا أنه ابتلع ذهباً. إلاّ أن التحقيق الذي أجراه جماعة أرخياس مع الخادم التي كانت تُعنى بشؤونه أكد أنه كان يحمل هذه الصرّة منذ مدة طويلة كتعويذةٍ. ويقول إيراتوستينس أيضاً إنه كان يحتفظ بالسّم في خاتم مجوّف، وإن الخاتم المقصود هو حِلية كان يلبسها في ذراعه. وهنالك روايات مختلفة أخرى أوردها كتّاب عديدون تطرّقوا إلى الموضوع ذاته، على أننا لا نرى ثمّ حاجة للبحث في مناقضاتهم، خلا أني لا أستطيع إغفال ما أورده ديموخاريس Demochares قريب ديموستينس، الذي يرى أنه لم يلق ميتته السهلة السريعة تلك بفضل السمّ، بل بنعمة فريدة وعناية فائقة خصّته بها الآلهة، فأنقذته من وحشية المقدونيين.

توفّي ديموستينس في السادس عشر من شهر پايانپسيون وهو اليوم الأحفل بالأسى والمراسم الدينية من إمساكية الـ«الثسموفوريا» Thesmophoria التي تحييها النسوة بالصيام في معبد الآلهة. وبعد موته مباشرة أغدق عليه الأثينيون من التكريم والإجلال ما هو أهلٌ له. فقد نصبوا تمثاله النحاسي وأصدروا مرسوماً يقضي بأن ينزل في كنف

البريتانيوم Prytaneum أكبر أسرته سِنّاً. ونقش على قاعدة تمثاله الكتابة المشهورة التالية:

«لو كنتُ قوياً قدر ما كنت حكيماً للإغريق لما تمكّن «المقدوني» من التغلّب عليهم».

ولذلك فمن السخف حقاً أن نصدّق ما روى بعضهم من أن ناظم هذين البيتين هو ديموستينس، نظمهما في كالاوْريا قبيل تناوله السُم.

قبل عودة ديموستينس إلى أثينا بفترة قصيره وقعت - على ما قيل - الحادثة التالية:

استُدعي جندي للمثول أمام ضابطه الآمر كي يجيب عن تهمةٍ. فوضع هذا تلك القطعة الذهبية الصغيرة التي ما تزال بين يدي تمثال ديموستينس وكانت الأصابع متشابكةً واحدتها بالأخرى وبالقرب منها نبتت شجيرة دلب سقط منها عدد كبير من الأوراق واستقرّ حول قطعة الذهب فأخفاها لوقت طويل، إما بفعل الريح التي دفعت بها إلى هذا المكان بمحض الصدفة أو أن الجندي نفسه عمد إلى وضعها. وبالأخير عاد الجندي ليجد قطعته الذهبية في مكانها. وقد ذاع نبأ هذه الحادثة وانتشر في الخارج وصار عقلاء المدينة وحكماؤها يجادل بعضهم بعضاً فيها متخذين منها مادة للطعن بنزاهة ديموستينس، في عدد من المقطوعات الشعرية الحكمية التي ألّفوها.

وأمّا عن ديماديس فإنه لم يتمتّع طويلاً بالنعم التي أُغدقت عليه فقد لاحقه الانتقام الإلهي لموت ديموستينس إلى مقدونيا، حيث ذاق طعم الموت على يد أولئك الذين تزلّف إليهم بوضاعةٍ وكانوا قد ملّوه واجتووه. على أن الجُرم الذي اجترحه كان واضحاً يتعذّر نكرانه. فقد ضُبِطت بعض رسائله التي كان يحثّ بها پردكاس على مهاجمة المقدونيين وإنقاذ الإغريق قائلاً إن المقدونيين يتعلّقون بخيط رثٌ قديم لا غير، ويقصد به أنتيپاطر. وقد واجهه دينارخوس الكورنثي بذلك. وحَمِي غضب كساندر فذبح ابنه على صدره أولاً، ثم أمر بقتله. فتعلّم من شقائه ونهايته السيئة درسَه وهو أن الخونة الذين يبيعون بلادهم إنما يبيعون أنفسهم أولاً. وتلك نهاية طالما تنبّأ له بها ديموستينس فلم يُلقِ عليها باله.

بهذا يا سوسيوس تتمّ لك سيرة ديموستينس اقتبستها من الروايات التي قرأناها أو سمعناها عنه.

شيشرون

CICERO

(Marcus Tulius)

١٠٨–٤٣ ق.م



شيشرون

أجمع الكلّ على أن هلڤيا Helvia والدة شيشرون كانت كريمة المحتِد، رخيّة العيش. لكن لم يُعرف عن أبيه إلاّ عكس ذلك، وبعضهم يجعله ابنَ قَصّار ورث الصنعة عن أبيه، في حين نجد آخرين يصعدون بنسب أسرته إلى تُللوس أتيوس Tullus Attuis ملك الڤولسكان Volscan الشهير الذي شنّ حروباً على الرومان لم تخل من المجد. ويبدو على كلٍ أنّ أول من نجم من هذا البيت متّخذاً لقب شيشرون لا بدّ أنه كان ذا شأنٍ بحيث إن أعقابه لم يكتفوا بالتسمّي به، بل تمسّكوا بالتسمية واعتزّوا وإن كانت لفظة عيبٍ بلغة السوقة. فاللاتين يطلقون كلمة «چيچر» Cicer على نبات البيقية[1]. والحزُّ أو الثقب في أرنبة أنفه الذي يشبه فتحة في جذع ذلك النبات أعطته لقب شيشرو.

وشيشرون الذي أكتب الآن سيرته قيل إنه انتهر بشيء من الشدة بعضَ أصدقائه عندما أشاروا عليه بنبذ الاسم أو تغييره عندما تقدّم للوظيفة العامة ودخل المعترك السياسي. وقال معقّباً إنه سيبذل جهده ليجعل اسم شيشرون أشهر وأعلى مجداً من اسمَي سكاوري Scauri وكاتولي Catuli. وعندما كان كويستوراً في صقلية أراد أن يقدّم صحفة فضّية إلى الآلهة، فأمر الصائغ أن ينقش اسميه الأولين عليها وهما «ماركوس» و«تلليوس» وقال له ممازحاً له أن ينقش بدلاً من الاسم الثالث صورة نبات البيقية. هذا ما ذكروا لنا عن اسمه وأصله.

وأما عن ميلاده فقد رُوي أن أمّه ولدته دون ألم أو مخاض في غرّة الشهر الثالث من التقويم الجديد وهو عين اليوم الذي يدعو فيه الحكام الرومان للإمبراطور ويقرّبون له. وقيل أيضاً إن رؤيا ظهرت لمرضعة تنبئ بأن الطفل الذي تتولّى إرضاعه سيغدو فيما بعد عظيم نفع لحكومات روما. وقد أيّد شيشرون عملاً هذه التكهّنات التي تؤخذ

---

(١) نبات تُعلف به الحيوانات وهو أشبه بما نطلق عليه اسم «الجتّ».

بصورة عامة مأخذ الأوهام والأحاديث الفارغة وجعلها نبوءات حقيقية. إذ ما إن بلغ سنّ الدارسة حتى برز صبياً ذكياً موهوباً وارتفع مقامه بين أترابه وأُعجبوا به، حتى أن آباءهم كانوا يختلفون إلى المدرسة ليتأمّلوا عن كثب سرعة استيعابه وحضور بديهته التي اشتهر بها بين زملائه. وكان أقلّ هؤلاء الآباء تهذيباً يستاؤون من أولادهم أن يروهم يستقبلون شيشرون باحترام ويوسّعون له موضع الصدارة بينهم. وكان وفق ما تمنّاه أفلاطون من الميل إلى الفلسفة، والتعلّق بالدرس، والشوق لتلقّي كل نوع من أنواع المعرفة والثقافة. وأظهر كذلك ميلاً غريباً لنظم الشعر، ولديه قصائد متداولة حتى يومنا هذا نظمها في صباه على البحر الرباعي تدعى پونطيوس غلاوكوس Pontius Glaucus. ثمّ عندما نزع بصورة خاصة إلى الدراسة والتتبُّع اشتهر بأنه أفضل خطيب فضلاً عن كونه أحسن شاعرٍ في روما. وما زال أسلوبه البياني موضع إعجابٍ ومحاكاة بصرف النظر عن الأساليب المستحدثة الكثيرة التي سادت العصر منذ أيامه. إلاّ أن قصائده فقدت شهرتها وطواها النسيان. وما أكثر الشعراء المجيدين الذين جاؤوا بعده.

بعد أن أنهى دراساته الأولية دخل طالباً مستمعاً لفيلو Philo الأكاديمي الذي أحبه الرومان وأعجبوا به لبلاغته ولسموّ أخلاقه، وأنزلوه منزلة فاقت منازل كل تلاميذ كليتوماخوس Clitomochus. وكذلك لازم آل موچي Macii وكانوا ساسةً بارزين، وزعماء في مجلس الشيوخ وأخذ عنهم علوم القانون. وخدم ردحاً قليلاً من الزمن في الجيش تحت امرة سيلّلا أثناء الحرب المارسيّة. لكنه أدرك أن الجمهورية تنقسم إلى شِيَع وأحزاب. ووجد الأمور فيها تنحو منحى الاستبداد، وتتجه إلى الملكية المطلقة، فآثر الانسحاب ليحيا حياة عزلة وتأمّل ومناظرة مع جهابذة الإغريق. وأوقف نفسه على الدراسة، حتى استتب الأمر لسيلّلا ونعِمَت الجمهورية بنوع من الاستقرار.

في ذلك الحين تقدّم معتوق سيلّلا المدعو خريسوغونس Chrysogonus بادّعاءٍ في ضيعة تعود لشخص قيل إنه قتل عندما صدر قرار إهدار الحقوق عليه، وقال إنه اشتراها بألفيْ درهم. فرفع روسكيوس Roscius ابن القتيل ووارثه الدعوى عليه موضحاً أن قيمة الضيعة مائتان وخمسون تالنتاً، فثار غضب سيلّلا لأن هذا يضع تصرّفاته موضع طعن وأمر بإجراء التعقيبات القضائية ضد روسكيوس بتهمة قتله أباه. وجمع خريسوغونس الأدلّة ضدّه. ولم يجرؤ أحدٌ من المحامين على مساعدة المتهم واعتذروا عن الوكالة خوفاً من قسوة سيلّلا. فوجد الشاب نفسه وحيداً لا نصير له، فسعى إلى شيشرون مستجيراً. وأخذ أصدقاء شيشرون يشجّعونه على هذا بقولهم: ليس من المحتمل أن تعنّ له فرصة لتقديم نفسه إلى الحياة العامة أشرف وأجلّ من هذه

الفرصة. فقبل الدفاع عنه وربح القضية فنال منها شهرة كبيرة. إلاّ أن الخوف من سيلّلا استولى عليه فرحل إلى اليونان زاعماً أنه يفعل ذلك بسبب اعتلال صحّته. في الواقع كان ضعيف البنية هزيلاً رقيق المعدة إلى حدّ لم يكن يقوى على تناول طعام عادي خلا الحِمية الدقيقة التي لا تحوي من القوت إلاّ النزر التافه، وهذا أيضاً ما كان ليقوى على تناوله إلاّ في ساع متأخرٍ من الليل. وكان صوته حسنا جهورياً، لكنه على قدر عظيم من الخشونة وعدم التهذيب حتى أنه يرتفع عند الحِدّة والحماسة إلى الحدّ الذي كان يُخشى منه على صحته.

وارتحل إلى أثينا واستمع إلى أنطيوخوس العسقلاني، وسُحر بسلاسة الأداء وأناقته، ولم تستهوه المبتدعات التي أدخلها هذا الفيلسوف على المبادئ، ذلك لأن أنطيوخوس هذا كان قد ابتعد وقتذاك عن الأكاديمي الجديدة كما يسمّونها وقطع علاقته بمذهب كارنيادس Carneades، وسواء في ذلك استهواه منطق ألفة المظاهر والحواس، أو دفعه، كما يقول بعضهم، شعور المنافسة والمعارضة لاتّباع كليتوماخوس وفيلو وتغيير أفكاره واعتناق المذهب الرواقي في معظم شؤون الحياة. على أن شيشرون كان أكثر ميلاً إلى مبادئ الأكاديمي الحديثة وكان يعتنق مذهبها وقد عاهد نفسه على أن ينسحب من مزاولة المحاماة والعمل السياسيّ ويقضي حياته في هدوء تتبّعاتٍ فلسفية إذا مُنيت حياته العامة في الجمهورية بالإخفاق.

لكن بعد أن بلغه نبأ موت سيلّلا، وبعد أن صحّ بدنُه واشتدّ عوده بالتمارين الرياضية، وسيطر على نبرات صوته فبات رخيماً يشنّف الآذان، منسجماً مع صحته العامة، راح أصدقاؤه في روما يلحّون برسائلهم ليعود، ولاسيما أنطيوخوس الذي كان لا يفتأ يحثه على العودة إلى المعترك السياسيّ. وهكذا تهيّأ ثانية لاستخدام البلاغة التي هي آلة الخطيب، وعبّأ كل كفاءته السياسية للعمل، وأنشأ يثابر على التمارين الخطابية وشدّ الرحال إلى أشهر بُلغاء عصره. رحل عن أثينا إلى آسيا ورودس وناظر من الأساتذة الآسيويين كزينوكلس Xenocles من أدراميتيوم Adramyttium ومينيپوس Menippus الكاري Caria، وديونيسيوس المغنيزي. وفي رودس درس الخطابة على أپوللونيوس ابن مولون، والفلسفة على پوسيدونيوس Posidonius. وقد قيل لنا إن أپوللونيوس الذي لم يكن يفقه اللاتينية طلب من شيشرون أن يخطب باللغة اليونانية فوافق مسروراً، مؤمناً بأنها خير طريقة لتنبيهه إلى أخطائه. وبعد أن انتهى من الإلقاء تملّك العجب السامعين وراحوا يتنافسون على أسبقية مدحه وتقريظه. إلاّ أن أپوللونيوس الذي لم تبدر منه إشارة تدلّ على مأثرة أو حماسة أثناء إصغائه إليه، بقي

ساكتاً ساهماً فترة طويلة بعد نهاية الخطبة دون أن تصدر عنه ملاحظة. وعندما أدرك قلق شيشرون من الموقف بادره قائلاً:

- لك ثنائي وإعجابي يا شيشرون، وللبلاد الإغريقية رثائي ومواساتي حيث إن هذه الفنون وتلك الفصاحة، وهي الأمجاد الوحيدة المتخلّفة لها، ستنتقل عن طريقك إلى روما.

وعندما قرّر شيشرون العودة إلى معترك السياسة وهو مليء الوطاب بالآمال فوجئ بنبوءةٍ هبطت بمعنوياته إلى حدٍ كبير. فقد استخار آلهة دلفي في الطريق الذي يسلكه لتحقيق أكبر المجد فكان جواب العرّافة البيثية بأن يجعل من جِنّيه، لا رأيَ الناس فيه، دليلَ حياته. لذلك كانت حياته في روما متّسمة بالحذر. وتأخّر كثيراً في التقدّم إلى الوظائف العامة، ولذلك قلّ حظّه من الشهرة في ذلك الحين. لقد عرفته طبقة الجهلة والدهماء في روما باسمي «الإغريقي» و«طالب العلم». لكن لما قرّر أن يطلب الشهرة والمكانة، برغبة أبيه وأقربائه، انصرف جاداً إلى المحاماة ولم يكن تقدّمه إلى الصفوف الأولى وتبوّؤه المحل الأرفع لا بطيئاً ولا رفيقاً، بل سطع نجمه وتألّق فوراً وبزّ كلّ المحامين الممارسين إلى مسافة بعيدة. في الأول كان مثل ديموستينس ضعيف الإلقاء على ما روي ولذلك كان شديد الاهتمام بالنصائح والإرشاد التي يوجّهها إليه روسكيوس Roscius الكوميدي، وأيسُوپ Aesop التراجيدي. ورووا عن أيسوپ هذا أنه كان مرّة يمثّل دور أتريوس Atreus على المرسح. وفيما كان يلقي المقطع المتعلق بموضوع الانتقام من ثياستيس Thyestes هاجت روحه بالدور ونسيَ نفسه في حماسة تمثيله وأهوى بصولجانه على رأس أحد الخدم أثناء مروره عبر المرسح بضربة بلغت من الشدّة أنها جندلته ميتاً على خشبة المرسح. كذلك آض إلقاء شيشرون فيما بعد، فقد ساهمت بلاغته بالكثير للوصول بخطبه إلى درجة الإقناع. واعتاد السخر بالمتكلمين ذوي الأصوات العالية بقوله إنهم يصرخون لأنهم لا يعرفون كيف يتكلمون، كالعُرج الذين يركبون الخيل لأنهم لا يقوون على السير. ووجد حضور بديهته وإلقاءه التهكمي المطرّز عموماً بظريف الأقوال وبارع الردود، مما يناسب جداً المحامي المترافع، حيث يجذب السامعين إلى درجة كبيرة. على أن إفراطه في استخدامها آلم الكثيرين، ولذلك وُصِف بحبّ المشاكسة وبسوء الطبع.

عُيّن شيشرون كويستوراً في زمن القحط ونُدرة القمح وكانت صقلية مقرّ وظيفته. وفي بادئ الأمر نقم عليه الناس لإرغامهم على تصدير قمحهم إلى روما. إلاّ أن الأمر تغيرّ بهم بعد أن جرّبوه وتأكدوا من حرصه وعنايته وعدالته وشفقته. فأحاطوه بإكبارٍ

واحترامٍ لم يحيطوا بهما أيّ حاكم سبقه. وصادف أن بعض الشبان الرومان من أُسرٍ شريفةٍ اتُّهموا بحرف النظام العسكري وبسوء السلوك أثناء الخدمة، فاضطلع بمهمة الدفاع عنهم وبرّأهم باذلاً أعظم الجهد، مما أورثه ثقة عالية بنفسه، وفسّر اعتداده واعتزازه بكلّ الأعمال التي أنجزها عند عودته إلى روما. وقد وقعت له وهو في الطريق قصّة مضحكة طريفة قصّها علينا هو بنفسه. قال إنه التقى في كامپانيا بمواطن كبير المقام كان يعدّه من أصدقائه. فسأله عن رأي الرومان في مجهوداته، وما هي أقوالهم عنه، كأنّ المدينة لا شغل لها إلاّ مناقلة أخباره والمداولة في إنجازاته. فسأله ذلك الصديق بدوره.

- وفي أي بلدٍ كنت يا شيشرون؟

هذا الجواب حطّم معنوياته العالية وأصابه بالخيبة التامّة حيناً من الزمن وبه فتح عينيه على الحقيقة المرّة، وهي أن أنباء أعماله غرقت في خضمّ مدينة روما كأنها غاصت في لُجّة بحرٍ دون أن تخلّف أثراً إيجابياً يذكر في شهرته. وتبيّن بنفسه فيما بعد أن المجد الذي يسعى إليه هو شيء غير محدود، لا نهاية في اطّلابه ولا مدى. وبذلك خفّف كثيراً من غلواء طموحه. إلاّ أنه ظلّ دوماً يسرّ وينبسط حين يسمع ثناءً أو مديحاً لشخصه وبقى إلى الأخير مغرماً بالمجد والسؤدد. هذه العقبة كثيراً ما وقفت في سبيل متابعته لأحكم قراراته وأبعدها نظراً.

وعندما ابتدأ يعالج الشؤون العامة بجدٍّ وجد من السخف والغباء أن يعرف الحِرَفيون أسماء ومواضع وفائدة الأواني والأدوات التي يستخدمونها في حِرفهم في حين يُهمِل رجالُ السياسة معرفةَ الناس والأشخاص، وهم أدواتهم التي يصرّفون بها الشؤون العامة. ولذلك سعى إلى تلافي هذا النقص ولم تعد معرفته بالناس قاصرة على الاسماء بل تعدّتها إلى الأمكنة التي يعيش فيها كل شخص بارز من المواطنين، وماذا يملك من عقار، ومن هم الأصدقاء الذين يعتمد عليهم، ومن هم جيرانه. فغدا قادراً - عند سلوكه السبيل في إيطاليا - على تسمية عقار ومقرّات أصدقائه ومعارفه والإشارة إلى مواقعها. وكان يملك ضيعة صغيرة جداً تدرّ عليه ما يكفي لسدّ خلّته وتغطيه نفقاته فحسب، ولهذا كان غريباً منه أن يأبى تقاضي أجورٍ أو قبول هدايا من موكّليه. وكذا فعل حين قام بالادّعاء ضدّ ڤيريس Veres. وكان هذا پريتوراً في صقلية فاتهمه الصقليون بكثير من الأعمال الإجرامية أثناء وجوده ثمّ. ونجح شيشرون في إدانته لا بكلامه بل بامتناعه عن الكلام إن جاز لنا القول، ذلك أن الپريتورين الذين كانوا يساندون ڤيريس ويمالئونه دفعوا بالمحاكمة إلى الخلف بعدّة تأجيلات إلى أن حلّ اليوم

الذي ما عاد يوجد بعد وقتٌ كافٍ لسماع دفاع المحامين. فتقدم شيشرون ليقول إنه لا حاجة ثمّ تدعو إلى إلقاء الخطب. فاستُمع إلى الشهود وعُرضت الأدلّة وبادر يطلب من القضاة إصدار الحكم. ومع هذا فقد سجّلت لشيشرون عدة عبارات طريفة لبِقة بالمناسبة. كان ثم شخص يدعى كيچيليوس Caeciluis وهو عبد معتوق، قيل إنه يمارس الطقوس اليهودية، لم يُدخله الصقليون في عِداد المدّعين، فاضطلع هو بنفسه الادّعاء ضدّ ڤيريس، وهنا تساءل شيشرون.

- ما علاقة اليهودي بـ«الخنزير»؟ (بالرومانية: كلمة Verres تعني الخنزير البرّي).

ولما بدأ ڤيريس يعيب على شيشرون حياة الخنوثة التي يحياها ردّ عليه بقوله:

- عليك أن تستخدم هذه اللغة في البيت مع أولادك! (وكان لڤيريس ابن سلك سبل الغواية فساءت سمعته).

لم يجرؤ هورتنسيوس الخطيب على القيام بمهمة الدفاع عن ڤيريس مباشرةً، إلا أنه أُقنع بالحضور عنه عند فرض الغرامة عليه، وأُهدي لقاء ذلك تمثالاً عاجياً لأبي الهول. فعندما عرّض به شيشرون في إحدى فقرات خطبه بصورة غامضة ملتوية وعقّب هورتنسيوس قائلاً إنه ليس بارعاً في حلّ الألغاز والأحاجي بادره شيشرون بالقول:

- كلاً لست بارعاً مع أن في بيتك أبا الهول!

وصدر الحكم على ڤيريس. ولأن شيشرون حدّد مبلغ الغرامة بسبعمائة وخمسين ألفاً. فقد اكتنفته الريب وشكّ في أنه قبل رشوةً لتخفيض مبلغ الغرامة. إلاّ أن الصقليين تدليلاً على امتنانهم واعترافهم بجميله قصدوه بكلّ ما يخطر بالبال من الهدايا وهو في منصب «إيديل» فلم يقبل لنفسه شيئاً وإنما استغلّ كرمهم هذا لتخفيض السعر الرسمي لمواد المعيشة.

وكان يملك مربَعاً في غاية الجمال في آرپي Arpi كذلك كان يملك مزرعة بالقرب من نابولي وأخرى قريبة من پومپي وليس منهما ما ارتفعت قيمته. وبلغ صداق زوجه ترنتيا Terentia مائة ألف. وكانت حصّته من الميراث تسعين ألفاً، وبهذا كان يعيش عيشة طيبة، الا أنها ليست باذخة، بصحبة علماء الإغريق والرومان الذين يلازمونه. وندر بل لم يجلس قطّ للعشاء قبل غروب الشمس. ولم يكن ذلك بسبب أعماله ومشاغله بقدر ما كان ذلك بسبب ضعف بنيته ومعدته. وكان من نواحٍ أخرى يهتمّ بجسده لذلك خصّص مواعيد معيّنة للعناية به بالتدليك والسير على القدمين. فبنى تكويناً قوياً صحيحاً في أنسب وقت، قادراً على تحمّل كثير من المشاق والتعب. ووهب أخاه دار أبيه وسكن هو نفسه في المرتفع البالاتيني حتى لا يُتعب قصّاده وزوّاره

بالسير الطويل. ولم يكن عدد قاصديه وزائريه للسلام عليه وتقديم فروض الإكرام له بأقلّ من قُصّاد كراسوس لأجل غناه أو پومپي لما يتمتّع به من مكانة ونفوذ بين الجنود. كان هذان أشهر وأقوى رجلين في روما آنذاك. وقد عملت مجهودات شيشرون السياسية الشيء الكثير لتوطيد سلطان پومپي ومكانته في الدولة.

تقدم عدد كبير من المرشحين معه إلى منصب الپريتور، فسبقهم إليه وتولّى الفصل في القضايا بعدل ونزاهة. وقد رُوي أن ليچينيوس ماچر Licinius Macer صاحب النفوذ الكبير في المدينة وأحد أعوان كراسوس. اتهم أمامه بقضية ابتزاز وكان واثقاً من تأثير نفوذه الشخصي ومن مساعي أصدقائه الفعالة. وبينما كان القضاة يتداولون في الحكم ذهب ليچينيوس إلى بيته فقصّ شعره ولبس رداءً نظيفاً، كما يفعل الواثق من البراءة، ثم انطلق إلى الفوروم، وفيما هو في طريقه التقى بكراسوس عند باب القاعة، فأخبره هذا أن الحكم قد صدر بإدانته بالإجماع، فرجع إلى منزله واستقلى على فراشه وأسلم الروح. اعتُبر هذا الحكم تشريفاً لشيشرون إذ أظهر فيه دقّة إدارته للقضاء والمحاكم.

وثمّ حادثة أخرى تتعلّق بالمدعو ڤاتينيوس Vatinius وهو رجل غليظ الطبع تغلب عليه الوقاحة ولا يتورّع عن شتم القضاة وإهانتهم. وكان يشكو أوراماً في رقبته حين تقدّم من مجلس قضاء شيشرون بمطلبٍ فاستمهله شيشرون للنظر فيه فعقّب ڤاتينيوس قائلاً:

- لو كنتُ أنا نفسي پريتوراً لفرغت الآن من البتّ فيه دون حاجة إلى مهلة.

فاستدار إليه شيشرون بسرعه وأجاب:

- لكنك ترى أني لا أملك رقبة مثل رقبتك.

ولما بقي من فترة وظيفته يومان أو ثلاثة اقتيد مانيليوس Manilius أمامه متهماً في قضية اختلاس. وكان المتهم يتمتّع لدى الشعب بمكانةٍ، ورأيهم فيه حسن وكان الرأي الشائع أنه ما اتهم بهذا إلاّ بسبب پومپي الذي تربطه به صداقة وثيقة. فطلب مهلةً قبل المرافعة فلم يسمح له شيشرون بأكثر من يوم واحدٍ أعني اليوم التالي فحسب. فثارت خواطر الدهماء وسخطوا إذ جرت العادة أن يسمح الپريتورون للمتهمين بعشرة أيام على الأقل. فاستدعى تريبونو الشعب شيشرون ليمثل أمام عامة الشعب متهماً بخرق هذا العُرف القضائي. فطلب الكلام وقال إنه ظلّ دائماً يعامل المتهمين معاملة إنسانية وبالمساواة بقدر ما يسمح به القانون لذلك وجد من الصعب عليه أن يحرم مانيليوس من حقه هذا. وقد اضطر اضطراراً إلى تعيين هذا اليوم لأنه الوحيد الذي بقي له من

فترة حكمه، وإنه ليس من مصلحة أولئك الذين يرغبون في مساعدة مانيليوس أن يدفعوا بقضيته إلى پريتور آخر ليصدر فيها حكماً. فأحدث بأقواله هذه انقلاباً عجيباً في أفكار الجمهور وأثنوا عليه كثيراً، ورغبوا منه أن يضطلع شخصياً بمهمة الدفاع عن مانيليوس فقبل ذلك بطيبة خاطر، وإكراماً لپومپي بالدرجة الأولى، وكان هذا غائباً. وهكذا عاد يتخذ مكانه عند الشعب. وألقى دفاعاً يتضمّن طعناً صريحاً بالحزب الأوليغارشي وبأولئك الذين يحسدون پومپي وينقمون عليه.

وكان تفضيله الوصول إلى المنصب القنصلي عن طريق طبقة الأشراف لا يقلّ عن تفضيله ذلك عن طريق العامة لخير البلاد ومصلحتها. ولهذا نجد الجانبين يتحدان للسعي له بالمنصب للأسباب التالية:

إنّ الانقلاب الذي أحدثه سيلّلا في نظام الحكم كان يبدو في عهده نظاماً أخرقِ لا طعم له. وبمرور الزمن وبالاعتياد عليه أصبح في نظر الشعب نوعاً من الاستقرار المقبول. إلاّ أن بعضهم حاول إحداث تغيير شامل في الوضع السياسي من القاعدة إلى القمة تحدوهم في هذا منافع خاصّة، لا دوافع عامة نبيلة. وكان پومپي في تلك الفترة منشغلاً بحروبه مع ملكي الپونطس والأرمن ولذلك لم تعد القوات المرابطة في روما بكافية لقمع أية محاولة للثورة. كان يتزعم هؤلاء الانقلابيين رجل جريء متهوّر متقلّب الأهواء يدعى لوچيوس كاتيلينه Lucius Catiline بارتكابه جنايات كثيرة، منها افتضاضه بكارة بنته، وقتله أخاه. وبسبب خوفه من تبعات جريمته الأخيرة واتخاذ الإجراءات القانونية بحقه أقنع سيلّلا بأن يضع اسم أخيه القتيل في قائمة الذين سينفّذ فيهم حكم الموت بسبب إهدار حقوقهم المدنية كأنه ما زال بعد حيّاً. اختارت حُثالة المجتمع ومتهتكوه هذا الرجل زعيماً. وتعاهدوا فيما بينهم بمختلف الأقسام المغلظة. منها أنهم ضحّوا برجلٍ وأكلوا لحمه. وعمد هذا المتآمر إلى إفساد عدد كبير من شبّان المدينة بتيسير سبل الغواية لهم من شرابٍ ونساء، وكان ينفق على فجورهم بسخاءٍ وبدون حساب. أضف إلى هذا أن مقاطعة إترووريا Etruria كانت قد حُرّضت إلى حَدّ إعلان الثورة. كذلك كانت الحال في بلاد الغال الجنوبية الألبية على أن روما نفسها كانت تعيش تحت خطر انقلاب حكومي عنيف بسبب التفاوت في توزيع الثروة والأراضي. فالطبقة العليا التي كان أفرادها يمتازون بأطيب الخلق أملقت لإسرافها وإنفاقها المتواصل على الحفلات العامة والاستعراضات الشعبية، ولطموحها إلى المناصب الرفيعة وبنائها الصروح الفخمة، حتى تركزت ثروات المدنية في أيدي أناس منحطّين خُلقاً، وضيعين منبتاً. لذلك لم يكن يحتاج إلى أكثر من فتيلٍ صغير لتحقيق

الانفجار العام وكان في مقدور أي إنسان جريء إسقاط جمهورية مريضة واهنة.

وعلى أية حال كان كاتيلينه بحاجة إلى منصب عظيم النفوذ لدعم خطته وتنفيذها فتقدّم مرشّحاً نفسه للمنصب القنصلي. وكان عظيم الأمل بالفوز، مؤمّلاً أن يكون زميله في المنصب كايوس أنطونيوس Cauis Antonius وهو رجل لا يحلّ ولا يربط ولا يمكن الركون إليه لا في قضية حسنة ولا في قضية سيّئة، إلاّ أنه يصلح مرقاة لاغنى عنها للسلطة. وكانت الأغلبية الساحقة من خيار المواطنين توجس خيفة من هذا، لذلك كلّفت شيشرون بالتقدم إلى المنصب القنصلي وأسرع عامة الشعب يؤيدون هذا الترشيح، فخسر كاتيلينه وانتُخب شيشرون وكايوس أنطونيوس. وكان شيشرون الوحيد بين المرشحين الذي لم ينحدر من أبٍ حائز الدرجة الكويستورية، أو من طبقة الشيوخ.

ومع أن خطط كاتيلينه لم تنكشف بعد للناس فقد وقعت اضطرابات كبيرة فور تولّي شيشرون مهام منصبه، فقد كان من جهةٍ أولئك الذين جرّدتهم قوانين سيلّلا من حق الاشتغال في الوظائف العامة. وهؤلاء لم يكونوا ليشكوا ضعفاً في قوتهم، ولا قلّة في عددهم، وقد تقدموا من الشعب مرشحين لمختلف الوظائف وراحوا يغازلونه ويتقرّبون منه استجلاباً لعطفه ويتحدثون إليه بالواقعي الحقيقي عن طغيان سيلّلا واستبداده، مختارين وقتاً غير مناسبٍ لإشاعة البلبلة والاضطراب في أصول الحكم. ومن جهة ثانية كان تقديم تريبونيي الشعب مقترحات قوانين تؤيّد هذا المنحى وتأليفهم لجنة من عشرة أشخاص زودوا بصلاحيات غير محدودة يمارسونها بوصفهم محكمة عليا، مخوّلين بموجبها حق بيع الأراضي الأميرية في كل من إيطاليا وسوريا والبلدان التي فتحها پومپي، وحق محاكمة ونفي من شاؤوا محاكمته أو إبعاده، وحق تأسيس المستوطنات، وسحب الأموال من الخزانة العامة وجباية ودفع ما يراه الجنود ضرورياً. وأعلن عدد من الأشراف مساندتهم لهذا القانون وفي مقدمتهم كايوس أنطونيوس القنصل زميل شيشرون الذي كان يأمل أن يُختار عضواً في اللجنة العشرية، على أن خوف طبقة الأشراف الأعظم منه هو اعتقادهم بأنه شريك في مؤامرة كاتيلينه وأنه يناصرها بسبب الديون الثقيلة التي يرزح تحتها.

في مبدأ الأمر حاول شيشرون إيجاد علاج ناجح لهذا الخطر المتفاقم، فاستصدر مرسوماً يقضي بإناطة حكم إقليم مقدونيا بزميله، ورفض في الوقت عينه حاكميّة بلاد الغال التي عُرضت عليه فنال بهذا الفضل ثقة زميله وأصبح له أطوع من البنان، وبدا مستعداً لنصرته ومساندته في كل ما يعمله لمصلحة البلاد مثل اللاّعب المأجور. وبترويض زميله هكذا صار بوسعه تحدّي المتآمرين بكثير من الجرأة. وتقدّم إلى

المنصّة فألقى في مجلس الشيوخ خطاباً ضد قانون «المفوّضين السامين العشرة». وكمّ أفواه من اقترحوه وألجمهم فلم يجدوا ما يردّون به على حُججه. وكرّروا محاولتهم لسبق تدبير فدعوا القنصلين للمثول أمام الجمعية العامة. ولم يكن شيشرون خائفاً من شيء فخرج إلى الجمعية أولاً وطلب من أعضاء مجلس الشيوخ أن يتبعوه. ولم يقتصر نجاحه على إبطال الاقتراح، بل حقق بالخطاب الذي ألقاه نصراً ساحقاً على التريبونين حتى نبذوا كل فكرة حول تحقيق مشاريعهم الأخرى.

ولا جدال في أن شيشرون كان الرجل الأوحد الذي ارتفع على الكلّ، وجعل الرومان يشعرون بعظمة ما يُضفيه سحر البلاغة على العمل الصالح. ومقدار مناعة العدالة عندما تجد لها اللسان الجيّد المعبّر. وما هو ضروري لمن يتوخّى الدقة في سياسة الجمهورية أن يقدم في عمله النزيه المستقيم على ما هو أقرب إلى هوى الشعب، وأن يفضّل في كلامه استخلاص الصالح المفيد من كل ما قد ينجم عنه ظلم وتعدٍّ. وقد وقعت حادثة أثناء قنصليته يمكن أن تقوم برهاناً على مدى تأثير الكلام ومفعوله. كان فرسان روما في الماضي يمتزجون بعامة الشعب في المراسح ويختارون مقاعدهم بين صفوفهم كيفما اتفق لهم. وكان ماركوس أوتو أول من ميّزهم عن المواطنين في عهد بريتوريته، فخصّص لهم جناحاً مناسباً أصبحوا يشغلونه بوصفه موضعاً خاصاً بهم في المرسح. أحدث هذا التصرّف استياءً عند العامة، وأشعرهم بالإهانة. وعندما ظهر أوتو في المرسح راحوا يهسهسون له ازدراءً، أما الفرسان فاستقبلوه بالتصفيق. وكررت العامة هسيسها وتمادت فيه، وواصل الفرسان التصفيق، ثم استدار هذا الفريق على ذاك وأخذا يتبادلان الشتائم والكلمات المقذعة، فعمّت الفوضى المرسح. وأعلم شيشرون بالأمر فخفّ مسرعاً ودعا الشعب إلى الاجتماع في هيكل بللونا Bellona وطفق يشتد في تعنيفهم وتأنيبهم، وما لبثوا أن عادوا إلى المرسح ليستقبلوا أوتو بهتاف عظيم نافسوا فيه الفرسان وتباروا معهم على إظهار أكثر التعظيم والاحترام له.

في مبدأ الأمر روّع المتآمرون الكاتيليون وثبطت بهم الهِمم لكن سرعان ما دبّت الشجاعة في أوصالهم فلمّوا شعثهم وعبّأوا قواهم وأخذ بعضهم يشدد عزائم بعض في وضح النهار لتنفيذ المخطط قبل عودة پومپي الذي قيل إنه يتجه الآن إلى روما على رأس قواته. وكان جنود سيلّلا القدماء عمود الحركة الفقري، وأداتها الرئيسة في يد كاتيلينه. كان قد تمّ تسريحهم جميعاً أينما كانوا في إيطاليا، إلاّ أن القسم الأكبر منهم وهو الاكثر شراسة كان منتشراً بين مدن إترووريا تراودهم أحلام سلب ونهبٍ جديدة

لثروات إيطاليا المكنوزة. وكان يتزعّمهم مانليوس Manlius الذي أبلى بلاءً حسنا في الحروب تحت إمرة سيلّلا فأصبح لذلك من المشاهير. وانضمّ هذا إلى كاتيلينه وجاء إلى روما لمساعدته بأصوات الجنود أثناء الانتخابات. ذلك أن كاتيلينه أقدم للمرة الثانية على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي واعتزم قتل شيشرون عندما يحمى وطيس الانتخاب. ويبدو أيضاً أن القوى الإلهية أطلقت النذر عن الأحداث الآتية، فأرسلت زلازل وصواعق، وأظهرت علامات غريبة. ولم تكن الدلائل البشرية غائبة بل كانت كافية جالبة القناعة على أنها لم تبلغ حدّاً يمكن معه إدانة كاتيلينه ذي الحول والطول، والمنتمي إلى طبقة الأشراف. ولهذا أرجأ شيشرون موعد الانتخاب، واستدعى كاتيلينه إلى مجلس الشيوخ واستجوبه حول التهم المنسوبة إليه. وكان هذا يعتقد أن عدداً كبيراً من الشيوخ يوافقونه على رغبته في التغيير، وأراد أن يقدّم لسائر المتآمرين نموذجاً لاتجاهاته وطبيعته فردّ على سؤال شيشرون بجواب صلفٍ إذ قال:

- أيّ ضرر هناك، حين أرى جسمين أولهما هزيل سقيم يعلوه رأس وثانيهما شديد قوي لكن بدون رأس، فأقوم أنا بوضع رأس لهذا الجسم المحتاج بعد قطعه من الجسم الأول؟

هذا الإيضاح ذو الدلالة الكافية الذي ألقي في مجلس الشيوخ أثار المزيد من المخاوف في نفس شيشرون. فلبس درعاً، وما عاد يخرج من منزله إلاّ وهو برفقة جمعٍ من المواطنين الشرفاء. وقصد «السهل» مع جماعة من الشبان للاجتماع، وبحركة مقصودة منه ترك رداءه ينحسر قليلاً عن كتفيه ليبين الدرع من تحته منبهاً الحاضرين إلى الخطر الذي يتهدده. فهاج هائجهم وأحاطوا به لحمايته. وفشل كاتيلينه في الانتخابات العامة ثانية وانتُخب سيلانوس Silanus ومورينا Murina للمنصب القنصلي. وبعد فترة قصيرة تجمّع الجنود الموالون لكاتيلينه في إترووريا وبدأوا يشكّلون الوحدات والسرايا، ذلك لاقتراب اليوم الذي حُدّد لتنفيذ المؤامرة. وفي حدود منتصف الليل قصد منزل شيشرون بعض كبار الشخصيات الرومانية وذوى النفوذ فيها، من أمثال ماركوس كراسوس، وماركوس مارچللوس، وسكيپيو ميتيللوس، فطرقوا بابه ونادوا البوّاب لإيقاظه وإعلامه بحضورهم. وكان الدافع الذي حملهم على المجيء هو أن بوّاب دار كراسوس جلب لسيّده بعد العشاء عدة رسائل حملها له شخص مجهول. بعض هذه الرسائل موجّه إلى أشخاص آخرين غير كراسوس إلاّ أن فيها رسالة مغفلة عن التوقيع موجّهة إلى كراسوس نفسه. وقد علم كراسوس من فحوى هذه الرسالة أن كاتبها ينبه بأن كاتيلينه يدبّر مذبحة عظيمة وينصحه بمغادرة المدينة. ولم يفضّ

كراسوس الرسائل الأخرى وإنما جاء بها إلى شيشرون متخوّفاً من الخطر الجاثم، وقاصداً تبديد الشكّ الذي يحوم حوله بسبب صداقته لكاتيلينه. ففكر شيشرون في الأمر مليّاً، ودعا المجلس في صباح اليوم الباكر للاجتماع، ودخل القاعة حاملاً تلك الرسائل ووزّعها على من أرسلت إليهم طالباً منهم قراءتها علناً. وكانت كلها تروي التفاصيل عن المؤامرة. ونهض كوينتوس أريوس Quintus Arrius وهو بمنصب پريتور وأدلى بتفاصيل عن تجمّع الجنود في إتروريا وانتظامها في وحدات وسرايا. وقال إن مانليوس يتحرك بقوة كبيرة من الجنود ما بين تلك المدن منتظراً الأنباء من روما. فأصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بوضع السلطة كلها في يد القنصلين وبأن يأخذا على عاتقهما إدارة دفّة الأمور جميعها وطلب منهما أن يبذلا كل مجهوداتهما لإنقاذ الدولة. لم يكن هذا التخويل بالشيء العادي، والمجلس لا يُقدِم على هذه الخطوة عادة إلاّ عندما يُحدِق الخطر بالحكومة.

بعد أن تزوّد شيشرون بهذه السلطة خوّل كوينتوس ميتيلليوس كل الصلاحيات المطلقة فيما يتعلق بالخارج واحتفظ لنفسه بالصلاحيات ضمن مدينة روما. وكبُر حجمُ الجمعِ الذي كان يقوم على حراسته يومياً عند تركه داره حتى أن الجزء الأكبر من الساحة العامة كان يغصّ به عند وصوله. ونفد صبر كاتيلينه، وأدركه النفور من تأخير وإرجاءٍ آخر، وقرر أن يهتك حجاب السرّية والكتمان بالذهاب إلى مانليوس. وأمر مارجيوس وكثيكوس بالخروج مسلّحين بالسيف إلى منزل شيشرون في صباح اليوم الباكر كأنهما جاءا للسلام عليه فينقضّا عليه ويذبحاه. وجاءت تلك السيدة النبيلة فولڤيا Fulvia إلى شيشرون ليلاً لتكشف له الأمر وتطلب منه أن يحاذر مارجيوس وكثيكوس. على أنهما أقبلا في أول الصبح فلم يُسمح لهما بالدخول فأخذا يصيحان ويخبطان وأحدثا ضجة أمام الباب مما أثار مزيداً من الشك. وخرج شيشرون ودعا المجلس إلى اجتماع طارئ في هيكل جوپتر ستاتور الذي يقع في نهاية الشارع المقدس وأنت قاصد الپالاتين. وأقبل كاتيلينه والآخرون كأنما يريد إلقاء دفاع عن نفسه. فلم يعره أحدٌ التفاتاً وعاف الشيوخ الجلوس بالقرب منه وتركوا مقاعدهم القريبة من المقعد الذي اختاره. ولما بدأ في الكلام قاطعوه بالصراخ. وأخيراً نهض شيشرون وطلب منه مغادرة المدينة، فما دام واحد يحكم الجمهورية بالكلام والآخر يحكمها بالسلاح فالضرورة تقضي بإقامة جدار فيما بينهما. وأسرع كاتيلينه بالخروج من روما بثلاثمائة مسلح متخذاً لنفسه شعار الحكم: الفأس والعصي، والشعار العسكري. والتحق بمانليوس وهناك اجتمع حولهما عشرون ألفاً فزحفا بهم على عدد من المدن محاولين

إقناع أهاليها بالثورة أو إرغامهم عليها. وهكذا انقلب الأمر إلى حربٍ صريحة، فأُرسل أنطونيوس لقتاله.

كان الأنصار الذين بقوا في المدينة بقيادة كورنيليوس لنتولوس الذي يلقّب بـ«سورا» Sura وهو شريف الأصل إلاّ أنه فاسق منحط يعيش لملذّاته فحسب، طُرد من مجلس الشيوخ لخلاعته. وهو الآن في منصب البريتور للمرة الثانية، الأمر الذي يقضي به العُرف على كل من يرغب في استعادته عضويته في مجلس الشيوخ. ولقب «سورا» لصق به على ما قيل في المناسبة التالية: كان كويستوراً في أيام سيلّلا فبدّد واختلس مبالغ كبيرة من أموال الدولة، فأخذت سيلّلا سَورة من الغضب واستدعاه طالباً منه تقديم الحساب أمام مجلس الشيوخ، فمثُل أمامهم وأجاب ببرود عظيم وبعدم اكتراث أن ليس لديه حساب يقدّمه لهم، لكن لهم «أن يأخذوا هذه» وأمسك بربلة ساقه كما يفعل الصبيان عندما يخطئ أحدهم هدفه في لعبة الكرة. فلصق به لقب «سورا» وهي كلمة رومانية تُطلق على عضلة الساق. وحوكم مرة بتهمة رشوة بعض القضاة وبُرّئ بأكثرية صوتين لا غير، فراح يشكو تبديده المال بدون جدوى، حيث إنه دفع لقاضيين في حين أن قاضياً واحداً كان يكفي لتبرئته. تلك هي أخلاق الرجل الذي وقع الآن تحت تأثير كاتيلينه وتضليل النبوءات الكاذبة وعِرافة قرّاء البخت الذين ملأوه بالآمال الكاذبة مقتبسين له أبيات شعرٍ زائفة ونبوءات لاسند لها، حتى بلغ الأمر بهم أن راحوا يدعمون أقوالهم بالنبوءة الواردة في كتب «السيبيل» القائلة بوجود ثلاثة باسم كورنيلوس حكمت الأقدار بأن يتولّوا الملك على روما، صدقت النبوءة في اثنين منهم وهما «چنّا» و«سيلّلا» وأن الحظ الإلهي يتقدم الآن بالهدية الملكية لثالثهم وهو كورنيلوس لنتولوس، فعليه والحالة هذه أن يقبل التاج مهما كلّفه الأمر وأن لا يضيع الفرصة بالتأخير كما فعل كاتيلينه. ولذلك كانت خطة لنتولوس عظيمة الخطر فقد قرر القضاء بحدّ السيف على كل أعضاء مجلس الشيوخ وكل من وقف في سبيله من المواطنين الآخرين، وأن يشعل النار في المدينة، ولا يستثني أحداً من المذبحة، خلا أولاد پومپي فقد اعتزم إلقاء القبض عليهم وإبقاءهم رهائن لضمان الاتفاق مع أبيهم، حيث انتشرت إشاعة قوية مؤدّاها أن هذا القائد هو الآن في طريقه إلى الوطن عائداً من حملته العسكرية الكبرى. كانت الليلة المتفق عليها للتنفيذ هي «ليلة زحل» Saturnalia وجيء بالسيوف والكتان والكبريت وأخفيت في دار كثيكوس وهُيِّئ مائة رجل، وقُسّمت المدينة إلى عدة قطاعات وحُدّد لكلّ رجل قطاعه المناسب كي يشعلوا النار دفعة واحدة عند إعطاء الإشارة، فتشبّ الحرائق في وقت واحد وتمسي المدينة وهي كتلة من نار.

وعُيّن آخرون لوقف جريان الماء في القنوات وقتل كل من يحاول نقل الماء منها لإطفاء الحرائق. وفيما كانت هذه الخطط في دور الإعداد اتفق أن كان في روما وقتئذ سفيران من اللوبروغيسيين Allobroges وهو شعب كان آنذاك تحت الحكم الروماني في حالة يُرثى لها من البؤس وعدم الاستقرار. فكّر لنتولوس وأنصاره أن يستفيدوا من هذين السفيرين لحث الغاليين وتحريضهم على التمرّد، ودفعوا إليهما برسائل لحملها إلى حكامهما، وبرسائل أخرى لنقلها إلى كاتيلينه. تعهدوا للغاليين في رسائلهم الأولى بإعطائهم الحرية، وفي الرسائل الثانية طلبوا من كاتيلينه إصدار أمرٍ بتحرير العبيد قاطبة والزحف بهم إلى روما. وأرفقوا بالسفيرين المذكورين تيطس الكروتوني Croton للوصول بهما إلى كاتيلينه ودفعوا إليه برسائل أخرى له. كل هذه المداولات التي أجراها أناس متهوّرون في مجالس شرابٍ ونساءٍ وصلت إلى علم شيشرون الذي كان يراقب الأمور بدأب متزن ورويّة وبأعظم الذكاء والحكمة، إذ كان يعتمد على عدد من الوكلاء في الخارج يرصدون كل حركة ويعقّبون كل ما يجري، كما كانوا على اتصال تام بالكثيرين الذين تظاهروا بالاشتراك بالمؤامرة. لذلك كان على علمٍ بكل الحديث الذي جرى بينهم وبين الأجنبيّين فدبّر لهم كميناً ليلياً وقبض على الرسول الكروتوني ومعه الرسائل، وكان السفيران الغاليان على اتصالٍ سرّي بشيشرون يعملان معه بالاتفاق.

في صبيحة اليوم التالي دعا شيشرون المجلس للانعقاد في هيكل الكونكورد وهناك قرأ الرسائل واستجوب المخبرين. وزاد يونيوس سيلانوس Junius Silanus قائلاً إن عدة أشخاص سمعوا كثيكوس يعد بقتل ثلاثة قناصل وأربعة پريتورين. وعقبه پيزو وهو قنصل سابق ليشهد بعدة أمورٍ من هذا النوع. فأرسل كايوس سولپيكيوس Caius Sulpicius أحد الپريتورين إلى منزل كثيكوس لإجراء التفتيش فعثر فيه على كمية من الحراب والدروع ومقدار من السيوف والخناجر شُحذت نِصالُها مؤخراً. وأخيراً قرر المجلس العفو عن الكروتوني لإدلائه باعتراف كامل، وأدين لنتولوس وعُزل من منصب الپريتور الذي كان يشغله، فخلع ثوبه الموشّى بالأرجوان في المجلس وارتدى ثوباً آخر أكثر لياقة بظرفه الحالي، وعهد به وبشركائه الحاضرين إلى الپريتورين لوضعهم تحت الحجز القضائي الحر.

وأقبل الليل وكانت جموع العامة في الخارج تنتظر، فخرج إليهم شيشرون وأخبرهم بما تمّ، ثم ذهب إلى منزل صديق وجارٍ له ملاصق، بحراسة الجمهور، لأن داره كانت مشغولة بالنساء بسبب قيامهن بالطقوس الدينية السرّية والعبادة للإلهة التي

يسمّيها الرومان «الصالحة»، والإغريق «المرأة الربّة»، فتُقدَّم إليها القرابين سنوياً في دار القنصل، بوساطة أمه أو زوجه وبحضور العذارى الفستالات.

دخل شيشرون منزل صديقه سرّاً وجلس وراح يقلّب وجهات النظر في كيفية معاملة هؤلاء الرجال. كان متردداً خائفاً بعض الشيء من إنزال العقوبة الرادعة الوحيدة بمرتكبي تلك الجرائم الشنعاء، فضلاً عن ما طُبع عليه من رحمة، وخشية الظن بأنه صارم في ممارسة سلطته، قاسٍ في معاملة أناس هم من أشرف الناس منبتاً وأقواهم علاقات في المدينة، ولو أنه عاملهم برفقٍ ولين لعرّض نفسه لخطر كبير في المستقبل. فلو حكم عليهم بما هو أخف من عقوبة الموت لأضطغنوا عليه وما غفروا ولا سامحوا، بل سيزيد على خبثهم سعاراً من الحقد جديداً، وسيندفعون إلى ارتكاب كل جريرة متصوّرة. في حين سيُظن بأنه وصل إلى أحط درجات الجبن وأنه فقد رجولته - ولم تكن العامة ترتفع بشجاعته إلى مستوى عالٍ إذ لم يشتهر بها عندهم.

وفيما كان شيشرون يضرب أخماساً لأسداس حول السبيل الأقوم الذي يسلكه حصلت معجزة للنسوة أثناء تقديمهن القربان. فمن المذبح حيث بدت النار وكأنها خامدة تماماً خرج لهب ساطع شديد من رماد الخشب المحترق فساد الرعب النسوة، إلاّ أن الفستالات نادين ترنتيا زوج شيشرون وطلبن منها أن تسرع إلى زوجها وتطلب منه تنفيذ ما استقر عليه رأيه لمصلحة بلاده. لأن الإلهة أرسلت نوراً عظيماً لتزيد من سلامته وعزّته، فأسرعت ترنتيا إليه، ولم تكن بطبعها رقيقة القلب ولا بالجزوع وإنما امرأة جميعة الفؤاد (تفضّل أن تحشر نفسها في شؤون زوجها العامة على مسارّته بأمورها العائلية، كما يقول عنها شيشرون نفسه)، وأنبأته بالمعجزة وراحت تحرّضه على المتآمرين، وأيّدها في ذلك شقيقه كونيتوس، وپوبليوس نيگيديوس Publius Nigidius أحد أصدقائه المتفلسفين الذي كان شيشرون يعتمد كثيراً على آرائه في أهم أمور الدولة وأخطرها.

في اليوم التالي ثارت المناقشة في المجلس حول العقوبة التي ينبغي إنزالها بهؤلاء. وكان سيلانوس أول من أدلى برأيه فرأى أن يرسلوا إلى السجن جميعاً حيث تطبّق عليهم أشدّ عقوبةٍ، واتفق معه كل من عقبه حتى حان دور كايوس قيصر الذي أصبح فيما بعد دكتاتوراً. وكان وقتذاك شاباً في مطلع حياته السياسية، إلاّ أنه كان قد اختط لنفسه منذ البداية أهدافاً تمكّنه من تغيير الدولة الرومانية وقلبها إلى ملكية. ولم يكن هذا واضحاً لأعين الآخرين في حينه. إلاّ أن شيشرون وجد أسباباً تدعو إلى الشكّ القوي في نيّاته دون أن تتوفّر له الأدلة الكافية. في الواقع هناك بعض من يقول إن أمره

افتُضح وكان هلاكه على قاب قوسين. ويرى آخرون أن شيشرون تعمّد التغاضي عن الأدلة المتضافرة عليه خوفاً من أصدقائه ومن نفوذه المتعاظم إذ كان واضحاً لكل امرئ أن قيصر لو اتُّهم مع المتآمرين لكان احتمال نجاتهم معه أكثر من احتمال عقابه.

عندما حان دور قيصر للإدلاء برأيه نهض واقترح أن يعدل المجلس عن فكرة الحكم عليهم بالموت، ووافق على مصادرة أملاكهم واحتجازهم في مدنٍ بإيطاليا يعيّنها شيشرون، يبقون فيها حتى يتمّ إلقاء القبض على كاتيلينه. وبما أن هذا الحكم كان أخف الأحكام المقترحة ولأن مقترحه كان أقوى الخطباء فقد أنزله شيشرون منزلة من الاهتمام ليست بالقليلة، فنهض ورجّح كفّة الميزان الأخرى بانحيازه إلى جانب الاقتراح لأول مرّة، وإلى جانب اقتراح قيصر مرّة أخرى. وقد وجد أصدقاء شيشرون في انتقال شيشرون بين الاقتراحين أمراً حسناً لأنه سينال أقلّ اللوم إن لم يقض على المتآمرين بالموت، ولذلك لم يختاروا حكم الموت. وما لبث سيلانوس أن عدل عن رأيه وسحب اقتراحه قائلاً إنه لم يقصد الحكم بالموت بل قصد أقصى العقوبة، وهي الحبس للشيخ الروماني. وكان كاتالوس لوطاطيوس Catalus Lutatius أول المتكلمين بشجب اقتراح قيصر. وعقبه كاتو وأشار بحماسة شديدة إلى الشكّ القوي الذي يحوم حول قيصر نفسه. ومُلئ الشيوخ غيظاً وعزماً فصوّتوا بالأغلبية على مرسوم يقضي بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين. إلاّ أن قيصر عاد الآن يعارض في قرار المصادرة، وقال إنه لا يرى من العدالة في شيء أن يفيد من أقصى الحكم أولئك الذين نالوا أخفّ جزءٍ مما اقترحه هو من حكم. وعندما عارضه الكثيرون استنجد بالتريبونين فأُسقط في يد هؤلاء أيضاً، إلى أن رضخ شيشرون ووافق فألغى هذا الجزء من العقوبة.

بعد هذا خرج شيشرون مع أعضاء المجلس لمواجهة المتآمرين ولم يكونوا في موضع واحدٍ، إذ كانوا موزّعين على البريتورين. وكان لنتولوس المحجوز في البالاتين أول من أخذ. جاء به عن طريق الشارع المقدس إلى وسط الساحة العامة تحيط به حلقة من المواطنين البارزين لحمايته. وارتعد الناس لما يفعله وكانوا يمرّون به صامتين لاسيما الشبان منهم حتى جعلهم الخوف والرهبة أشبه بمن يتقبّل مراسم التكريس للأسرار المقدسة العتيقة ذات القوى الضخمة. ثم اجتاز الساحة العامة حتى وصل السجن. وسلّم لنتولوس للضابط الآمر وأمره بتنفيذ حكم الموت. ثم أشفعه بكثيكوس والباقين إذ كان يأتي بهم واحداً بعد الآخر ويسلّمهم للمكلّفين بتنفيذ الحكم. وشاهد عدداً كبيراً من الضالعين في المؤامرة ما زالوا واقفين في الساحة العامة على شكل جماعات وكتل جاهلين بما حدث ومنتظرين موعدهم الليلي متوهّمين أن زعماءهم ما

زالوا أحياء أو من المحتمل أنهم أُنقِذوا. وعندئذٍ صاح شيشرون بصوت جهوري:

- إنهم لأحياء يُرزقون! (وهذا التعبير يستخدمه الرومان للإشارة إلى الموتى تطيُّراً واجتناباً للشؤم).

وعندما ترك الساحة العامة قاصداً منزله كان الليل قد جَنَّ، ولم يعد الناس يسيرون في ركابه بنظام وصمت وإنما راحوا يستقبلونه بالهتاف والتهليل وهو يمرّ بهم، ويحيّونه بوصفه منقذاً ودعامةً للبلاد، وسطعت الأنوار باهرة في الشوارع من المصابيح والمشاعل المعلّقة على أبواب المنازل. وخرجت النسوة إلى أسطح بيوتهن يحملن الضياء تكريماً له ولمشاهدته عائداً إلى بيته تحفّ به بطانة رائعة من أبرز وأشرف المواطنين، ومن بينهم الكثير الذين خاضوا حروباً عظيمة ونالوا امتياز مواكب النصر وأضافوا مساحات إلى الإمبراطورية الرومانية براً وبحراً. وأقرّ هؤلاء فيما بينهم أثناء سيرهم أن الشعب الروماني المدين لعدد من القادة والضباط العظام بهذا العصر الذهبي، عصر الغنائم والثروة والعزّة والمتعة. يجب أن يكون مديناً لشيشرون وحده بسلامة كل هذا، بإنقاذهم من الخطر الأعظم الذي حوَّم فوق رؤوسهم. إن إحباط المؤامرة ومعاقبة المتآمرين ليس بالشيء الفريد في بابه. إلاّ أن سحق أكبر الرؤوس المتآمرة بأقل ما يمكن من الاضطراب والفوضى هو المعجزة الكبرى، فأغلبية الذين التفّوا حول كاتيلينه انفضّوا من حوله حال سماعهم بالمصير الذي آل إليه لنتولوس وكثيكوس. وهاجم شيشرون الفلول الباقية من أتباعه وتمّ القضاء عليها وعليه.

على أن هناك من يفتري على شيشرون وينتقص أعماله هذه وعلى رأسهم أولئك الذين خلفوه في دست الحكم مباشرة كـ«قيصر» الذي كان واحداً من الپريتورين، والتريبيونين: متيللوس وبستيا Bestia. هؤلاء تسلّموا مناصبهم قبل أن تنتهي فترة قنصلية شيشرون بأيام قلائل، فلم يسمحوا له بالتوجّه بخطبة عمومية بهذه المناسبة. وإنما ألقوا المقاعد أمام الروسترا ومنعوه من الكلام قائلين:

- لك إن شئت أن تحلف يميناً بالانسحاب من المنصب القنصلي ثم تنزل إلى تحت ثانية.

فرضي شيشرون وتقدّم لتأدية اليمين، فران صمتٌ عام، وتلا قسَمه ولكن ليس بالطريقة المألوفة بل بشكل جديد غريب، إذ ذكر فيه أنه أنقذ بلاده وحفظ الإمبراطورية. وأيّد الشعب هذا القسم بأقسامهم. ونفد صبر قيصر والتريبيونين منه واقترحوا إصدار مرسوم باستدعاء پومپي إلى روما على رأس جيشه كيما يضع حداً لاستعلاء شيشرون. وكان من حُسن حظ شيشرون والجمهورية، ولفائدتهما الكبرى أن

كاتو في ذلك الحين كان متقلّداً منصب التريبيون. ومع أن سلطته مساوية لسلطة زملائه الآخرين فقد كان يفوقهم سمعةً ومكانةً، ويملك القوة لمعارضة إرادتهم فكان يسهل عليه إحباطها. وفي خطاب جماهيري له أغدق على فترة قنصلية شيشرون آيات المديح والثناء وأنزلها منازل التعظيم والتكريم، حتى أعلن الشعب رسمياً منحه لقب «أبي البلاد» فكان أول من حصل على هذا اللقب، حينما اقترحه كاتو في خطبته.

وبات يتمتّع بأعظم سلطان في المدينة، إلاّ أن ذلك خلق له كثيراً من الحسّاد، كما أنه أسخط العدد الكبير لا لسوء أعماله بل لدوام الاعتداد بنفسه والتمجيد لذاته. لا يجتمع مجلس شيوخ ولا جمعية عامة ولا مجلس قضاء إلاّ وتجده يتكلم عن كاتيلينه ولنتولوس. وفي الواقع إنه ملأ كتبه ومدوّناته بمدح شخصه إلى الحَدّ الذي أحال أسلوبه الرائع الخلاّب كلاماً مملاً مقرفاً في أذن السامع. وكان طبعه الأناني مثل المرض المزمن فيه. ولكن مع غرامه المفرط بتمجيد نفسه فقد كان بعيداً كل البعد عن حسد الآخرين، والعكس هو الصحيح، فلطالما أغرق وأطنب في الثناء على الأقدمين والمعاصرين كما شهدت بذلك كتاباته. ويُذكر الآن بعض أقوالٍ له مأثورة، منها رأيه في أرسطو الذي قال عنه إنه «نهر من عَسْجَد» وقال في محاورات أفلاطون: «لو أن جوبتر تكلّم لكانت لغته لغة تلك المحاورات». واعتاد القول عن ثيوفراستس إنه «ترفي الشخصي». وعندما سئل أيّ خطبة من خطب ديموستينس أحبّ إليه، أجاب: «أطولها». على أن بعض مقلّدي ديموستينس المتأثرين به شكوا من عبارات وردت في إحدى رسائله قوله «إن ديموستينس كان أحياناً يروح في إغفاءة أثناء إلقائه» ونسوا المدح الذي كان يغرقه به والتكريم الذي خصّه به، حين سمّى أدق خطبه وأحكمها، تلك التي كتبها ضدّ أنطوني بـ«الفيليبيات». وأما عن مشاهير فلاسفة عصره وخطبائه فليس فيهم إلاّ وقد زاد مديحه له من مكانته أو شهرته، سواء بكتابته أو بأحاديثه عنهم. فقد نال من قيصر عند تولّيه السلطة الجنسيةَ الرومانية لقراطيبوس Cratippus الفيلسوف المشّائي (الأرسطي). وأصدر مرسوماً حمل المجلس الأريوباغى على طلب بقائه في أثينا لتعليم الشباب فيها، وليبقى وجوده شرفاً تتمتّع به المدينة. وما زال ثمّ رسائل منه إلى هيرودس Herodus، وأخرى لابنه يوصي فيها بأخذ الفلسفة عن هذا الفيلسوف. ولديه رسالة يؤنّب فيها گورجياس Gorgias البليغ لأنه أغرى ابنه بالشراب والترف وحظر عليه صحبته. هذه الرسالة ورسالة أخرى وجّهها إلى پيلوپس Pelops البيزنطي هما الرسالتان الوحيدتان من بين الرسائل اليونانية التي كتبها في ساعة غيظ على ما يبدو. كان في الأولى محقاً بمهاجمة گورجياس إن صدق ما أُثر عنه من فجور وتهتُّك.

أما الثانية فقد كانت شكوى وتعنيفاً دنيئاً، لأن پيلوپس لم يهتم باستصدار مرسوم تكريم له من البيزنطيين.

وإليك صورة أخرى لاعتداده بنفسه وإغرامه بالثناء، تبدو أحيانا لافقةً للنظر بخروجها عن اللياقة ونبذها الوقار جانباً: بعد خطبة ألقاها دفاعاً عن موناتيوس فأنقذه من الإدانة، أسرع المبرّأ باتهام صديقه سابينوس Sabinus في الحال. فثار غضب شيشرون وقال في فورة من الحنق.

- أتظن أنك بُرئت لأنك تستحقّ البراءة يا موناتيوس، أوَلستُ أنا الذي سوّدت القضية بحيث عجزت المحكمة عن رؤية جريمتك؟

وألقى من الروسترا تقريظاً بحق ماركوس كراسوس نال كثيراً من الاستحسان. وبعدها بأيام قليلة راح يقدح في الذات نفسها علناً. فقصده كراسوس معاتباً بقوله:

- ألم تمدحني أنت بنفسك قبل يومين من هذا الموضع بالذات؟

فأجاب شيشرون:

- أجل كنت أمرّن بلاغتي بخطبةٍ في موضوع سيّئ.

وكان كراسوس قد قال في إحدى المناسبات بأنه لم يوجد مِن أسرته من أناف على الستين، وما لبث أن رجع عن ذلك وتساءل مستنكراً:

- لا أدري ما الذي حملني على هذا القول.

فأجاب شيشرون:

- لكي تفوز بعطف الجمهور. فأنت تعرف كم يطربهم سماع ذلك!

وعندما أبدى كراسوس إعجابه بالحكمة الرواقية «الرجل الصالح هو غنيّ دائماً» قال شيشرون:

- ألا تعني «أن كل الأشياء هي ملك للعاقل؟» (كان كراسوس معروفاً بالجشع).

وكان لكراسوس هذا ابن له شبه عجيب برجل يدعى أكسيوس Axius حتى أن الشك كان يحوم حول عفّة الأم. ألقى هذا الابن خطبة ناجحة في مجلس الشيوخ، فسئل شيشرون عن رأيه فيها فأجاب باليونانية:

- أكسيوس كراسّو Axius Crassow

وفيما كان كراسوس يتهيّأ للرحيل إلى سوريا كره أن يترك شيشرون خصماً. فسلّم عليه ذات يوم وقال له إنه سيزوره تلك الليلة ويتعشى عنده، فأحسن شيشرون استقباله واحتفى به. وبعد أيام قليلة توسّط أحد معارف شيشرون لڤاتينيوس Vatinius وأنهى

إليه رغبته في التصافي والصداقة. وقد كانت بينهما جفوة وقطيعة آنذاك فأجاب شيشرون:

- ماذا؟ أيريد ڤاتينيوس أيضاً أن يتعشى عندي؟

ذلك هو أسلوب معاملته لكراسوس.

وعندما كان ڤاتينيوس يترافع امامه في قضيته، وهو يشكو من أورام في رقبته، لقّبه بـ«الخطيب المتورّم». وأخبره أحدهم مرةً بأن ڤاتينيوس هذا قد قضى نحبه، ثم جاء من أبلغه توّاً بأنه ما زال حياً يُرزق فقال:

- ألا فليهلك الوغد، فإن أنباءه ليست بصحيحة!

وتقدّم قيصر بمشروع قانون لتوزيع أراضي كامپانيا على الجنود فعارض فيه كثير من الشيوخ ومن بينهم لوچيوس غيلليوس Lucius Gellius، وهو من أكبر الشيوخ سِنّاً في المجلس، فقد صرّح بأن القانون المقترح لن يمرّ من المجلس ما دام هو حياً. فقال شيشرون:

- فلنؤجّله إذن، إن غيليوس لا يطلب منا الانتظار طويلاً.

وكان ثمّ شخصٌ يُدعى أوكتاڤيوس يُعتقد أنه إغريقي الأصل. شكا هذا من أنه لا يسمع شيشرون عندما كان هذا يترافع، فقال معقّباً:

- مع أن في أذنيك ثقوباً!

وقال له ميتيللوس نيپوس Metellus Nepus بكرهٍ إن ما أحدثه من دمارٍ كشاهدٍ أكثر مما أنقذ كحاكم. فعقّب شيشرون على هذا بقوله:

- أقِرّ بأني أملك من الصدق أكثر مما أملك من الفصاحة.

وكان جوابه لشاب شكّ في أنه أعطى والده كعكعة مسمومة وكان يتبجّح دائماً بأنه ينوي أن يؤلف رسالة قدحٍ بحق شيشرون.

- هذا خير من كعكتك.

وأوكل پوبليوس سكستيوس Publius Sextius شيشرون للدفاع عنه مع محامين آخرين في قضية. إلاّ أنه كان يرغب في أن يتولّى هو قول كل شيء دفاعاً عن نفسه ولم يكن يفسح مجالاً لأحدٍ من محاميه بالكلام عنه. وعندما كان ينتظر قرار البراءة من القضاة المجتمعين للمداولة صاح به شيشرون قائلاً:

- عجّل يا سكستيوس عجّل واستغلّ وقتك، فغداً ستضحى نكرة من النكرات!

وطُلب پوبليوس كوتّا Publius Cotta للشهادة في إحدى القضايا وكان يريد أن

يلقي في روع الناس بأنه محام مع جهله وبُعده عن العلم والثقافة. وعندما قال في شهادته إنه لا يعرف شيئاً عن المسألة قال شيشرون:

- لعلّك حسبتَ أننا نسألك عن نقطة قانونية!

ووقع نزاع بينه وبين ميتيللوس نيپوس فأخذ خصمه هذا يردد عدّة مرّات.

- ومن كان أبوك يا شيشرون؟

فأجاب:

- لقد جَعَلتْ أمُّك الجوابَ على مثل هذا السؤال فيما يتعلّق بك أنت أكثر صعوبة! (كانت أمّ نيپوس سيّئة السمعة).

وكان ابن نيپوس هذا متقلّب الأهواء، غير مستقّر على رأي. فمرّةً تخلّى فجأة عن منصب التريبيون وأبحر إلى سورية ملتحقاً بپومپي، ولم يستقرّ به المقام هناك، بل عاد حالاً بدون سبب كما رحل بدون سبب. وأقام لمعلّمه فيلاغروس Philagrus حبارةً تزيد عمّا يناسب مقامه وما يحتمّ عليه الواجب، ثم بنى نصباً حجرياً فوق قبره فيه تمثال غراب. فقال له شيشرون

- ذلك مناسبٌ حقاً، ما دام لم يعلّمك الكلام، بل الطيران هنا وهناك!

وعندما افتتح ماركوس إپيوس دفاعه أمام أحد المجالس القضائية قائلاً إن صديقه طلب منه المثابرة والبلاغة والإخلاص في قضيّته، قال شيشرون:

- وكيف طاوعك قلبك أن تهمل كل طلبٍ من طلباته؟

قد يبدو استعمال هذه النكتة الحادّة ضد الخصوم والأعداء في المرافعات القضائية من قبيل البلاغة المسموح بها. على أنه أثار كثيراً من الشعور بالسخط والاستياء لحضور بديهته في مهاجمة أي شخصٍ على سبيل التفَكِهة لا غير. ودونك قليلاً من الحكايات المماثلة:

كان لماركوس أكوينيوس Marcus Aquinius ختنان مبعدان في أحد المنافي. ولذلك لقّبه بالملك أدراستوس Adrastus.

وكان لوچيوس كوتّا مغرماً بشرب الخمر من دون اعتدال. وكان چنصوراً أيام تقدّم شيشرون مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي. وفي أثناء إجراء الانتخابات عطش شيشرون فطلب ماء وفيما هو يتناوله وأصحابه يحيطون به، قال لهم:

- أنتم محقّون في تخوّفكم. فقد يغضب الچنصور منيّ لشربي الماء القُراح.

وفي أحد الأيام لقي ڤوكونيوس Voconius مع بناته الثلاث القبيحات، فتمثّل بالبيت:

«لقد أنسل جيلاً دون إذن من أپوللو!».

وقرأ ماركوس غيليوس عدّة رسائل في مجلس الشيوخ بصوتٍ حادّ ثاقب جداً - وكان المعروف عنه أنه ابن عَبْد سابق - فقال شيشرون معلّقاً:

- لا عجب، فقد انحدر من صُلبِ مُنادين.

كان فارستوس سيلّلا ابناً لسيلّلا الدكتاتور الذي عمد إلى إهدار الحقوق المدنية لكثير من المواطنين وإدانتهم وقتلهم. بدّد هذا الابن ثروته، وغرق في الديون حتى لجأ آخر الأمر إلى نشر بيانات بيع أملاك للتسديد، فقال له شيشرون إنه يحبّ هذه البيانات أكثر مما يحب بيانات أبيه.

بهذه العادة كان يبدو مكروهاً لكثير من الناس. وتآمر عليه حزب كلوديوس بالشكل التالي:

كان كلوديوس ينحدر من أسرة نبيلة؛ وهو شاب في زهرة العمر، ذو نفس وثّابة وإرادة قوية. وقع في هوى امرأة قيصر ودخل سرّاً منزلها متنكراً بزيّ فتاة عازفة. وكانت النسوة آنذاك منشغلات بتقدمة قرابينهن وأداء طقوسهن التي لا يُسمح للرجال بحضورها، فلم يكن أحد من الرجال موجوداً. ولما كان كلوديوس أمْرَد لم يطر شاربه فقد توقّع الاجتماع بـ«پومپيا» دون أن تفطن إليه النسوة المجتمعات. ولكنه دخل البيت الكبير في الليل فضلّ سبيله بين المماشي، ولقيته وصيفة «أوريليا» أم قيصر وهو يمشي على غير هدى فاستوقفته وسألته عن اسمه فاضطر إلى الجواب وقال إنه يبحث عن «إبرا» إحدى وصائف پومپيا ففضحه صوته الغليظ. وصرخت الوصيفة مستنجدة بالنساء فقمن بإغلاق الأبواب وأخذن يفتشن كل موضع من الدار حتى وجدن كلوديوس مختبئاً في غرفة الوصيفة التي أدخلته الدار. ولما انطلقت الشائعات الكثيرة عن هذه الحادثة عمد قيصر إلى تطليق زوجه. ورُفِعت دعوى عامة على كلوديوس لتدنيسه الشعائر الدينية.

في ذلك الوقت كان شيشرون على صلة ودّ وصداقة بكلوديوس وقد كان له عوناً وسنداً وتميزّ بعنفه وحماسته في مناصرته. وركّز دفاعه في المحكمة على نفي وجوده في روما يوم الحادث وقال إنه كان بعيداً عنها في الريف. لكن شيشرون تقدّم للشهادة، فشهد بأن كلوديوس جاء إلى بيته زائراً في ذلك اليوم بالذات وحادثه في شؤون مختلفة. وكانت شهادته صحيحة، لكن المظنون أن الدافع الذي حفزه للشهادة لم يكن مجرّد استجلاء حقيقة، قدر ما كان يقصد منها مهادنة زوجه «ترتنيا» وإرضاءها. فقد كانت تحقد على كلوديوس بسبب أخته كلوديا التي حاولت التزوّج من شيشرون - على ما

قيل - واتخذت تللوس Tullus أحد أخلص أصدقائه وسيطاً في ذلك الأمر. وثارت شكوك ترنتيا بكثرة زياراته لكلوديا التي كانت جارة لهما، وغاظها الاهتمام الكثير الذي يحيطها به. وكانت ترنتيا عصبية حادة المزاج. ولدالّتها وسلطانها على زوجها فقد دفعته إلى الشهادة نكاية بكلوديوس. وتقدّم فضلاً عن شيشرون عدد كبير من أفاضل المواطنين وأكثرهم استقامة للشهادة عليه بحلفه يميناً كاذبة، وبأعمال الفوضى، والرشوة، واغتصاب الحرائر. وأثبت لوكوللوس عن طريق خادمات منزله أن المتهم واقعَ أختَه الصغرى وهي زوج لوكوللوس. وساد الاعتقاد بأنه أقدم على الفعل نفسه مع أختيه الأخريين ترتيا Tertia التي تزوّجها مارچيوس ريكس Marcius Rex وكلوديا التي بنى بها ميتيللوس چيليس Metellus Celes وكانت تلقّب بـ«كوادرنتيا» Quadrantia. لأن أحد عشاقها خدعها بإعطائها صرّة تحوي نقوداً نحاسية صغيرة القيمة بدلاً من الفضّة، ويطلق على أصغر مسكوكة نحاسية «كوادرانت». وعن طريق سيرة هذه الأخت بصورة خاصة تكالبت المطاعن بأخلاق كلوديوس. إلاّ أن كل ذلك لم يُجدِ فتيلاً فقد اتفقت كلمة العامة ضد الشهود ومحرّكي الاتهام ومن والاهم. فدبّ الخوف في نفوس القضاة ووُضعت حراسة عليهم لدرء أي اعتداء أو تحرّش بهم. وكتب معظمهم رأيه على اللوح بشكل غامض يتعذر فهم المقصود منه. وعلى أية حال وجدت الأغلبية أنه غير مذنب. وذُكر أن الرشوة كانت ذات أثرٍ فعّال في الحكم. وعلّق كاتالوس على ذلك بقوله للقضاة:

- كنتم مصيبين جداً بطلبكم حرساً، كيما تحولوا دون عملية سلب نقودكم.

وعندما عاتبه كلوديوس قائلاً إن القضاة لم يقتنعوا بصحة شهادته، أجاب:

- أجل، لقد صدّقني خمسة وعشرون فأدانوك. أما الثلاثون الآخرون فلم يصدّقوك، لأنهم لم يخلوا سبيلك إلاّ بعد أن تسلّموا مالك.

ومع أن قيصر دعي للشهادة فإنه لم يُدلِ بشيء ضده، وقال إنه لا يعتقد بارتكاب زوجه فعل الزنى. وهو ما طلقها إلاّ لأنه لا يكفي لبيت قيصر أن يكون طاهراً من الرجس، بل منزّهاً عن الشائعات أيضاً.

بعد أن سلِم جلد كلوديوس من هذا المأزق، ونال منصب التريبيون بادر إلى مهاجمة شيشرون مؤلّباً عليه الناس كافّة، ووصمه بكلّ ما يسيء إلى سُمعته. وكان قد كسب ثقة العامة بقوانين شعبية، وأفلح في استصدار مراسيم بتقليد كل قنصل حاكمية إقليم فكانت مقدونيا من نصيب پيزو Piso وسورية من نصيب گابينيوس Gabinius. وألّف لنفسه حزباً قوياً من المواطنين المعوزين لمساندة إجراءاته. ولم يكن يُرى إلاّ

وحوله جماعة من الصبية المسلحين. في ذلك الحين كان ثلاثه يتمتّعون بأكبر السلطان في روما: كراسوس خصم شيشرون علناً، وبومبي صديق كليهما دونما تفضيل، وقيصر الذي يتهيأ للرحيل إلى بلاد الغال على رأس جيش. قصد شيشرون ثالثهم وطلب منه أن يقبله مساعداً في حكم الإقليم الذي عُيّن له، فلم يبدِ قيصر تمنّعاً. وأدرك كلوديوس أن شيشرون سيفلت من يده ويمتنع عن سلطته التريبيونية بهذه الوسيلة، فراح يشيع بين الناس أنه يميل إلى المصالحة والتصافي، ويعزو ما حصل بينهما من عداء إلى ترنتيا، وأخذ يذكره بالخير والطيب دوماً، ويتوجّه إليه بأرقّ العبارات كأنه أفرغ من قلبه الحقد والضغن، ويتوجّه بالعتب عليه بلهجة ودودة رقيقة. بهذه المظاهر المصطنعة خدع شيشرون حتى حمله على الاعتذار لقيصر عن عدم قبول الوظيفة، وعاد إلى معترك الحياة السياسية ثانية، فأحنق قيصر عليه، ولأجل ذلك انحاز إلى جانب كلوديوس ضدّه، وعمل على قطع كلّ الأسباب ما بينه وبين بومبي. وأعلن أيضاً في الجمعية العامة أنه لا يعتقد أن كثيكوس ولنتولوس يستحقان الموت قانوناً وعدلاً إذ لم تجر محاكمتهما. وكان هذا هو الاتهام الذي وُجّه إلى شيشرون واستدعي للجواب عنه. فأبدل ثوبه وأهمل هيئته وخرج أشعث الشعر مسترسله يستجدي عطف الشعب، كأيّ متهم. إلاّ أن كلوديوس كان يعترضه في كل منعطف وخلفه عصابة من المشاكسين الوقحين يسخرون منه ويعيّرونه برثاثة ثيابه وذلّته. وكثيراً ما قطعوا عليه ضراعاته إلى الناس بقذفه بالحجارة والأقذار.

بادرت طبقة الفرسان الرومان برمّتها إلى تغيير ثيابها تضامناً معه في أول الأمر، وكان يسير خلفه ما لا يقلّ عن عشرين ألفاً من الشباب بشعرهم الأشعث المسترسل، ضارعين معه إلى الشعب. واجتمع مجلس الشيوخ وأصدر أمراً بأن يغيّر كل أفراد الشعب ثيابهم كما هي العادة في مناسبات الحِداد الرسمية والحزن العام. إلا أن القنصلين عارضا في القرار وطوّق كلوديوس مجلس الشيوخ برجاله المسلحين فخرج عدد كبير من الشيوخ وهم يصيحون ويمزّقون ثيابهم إلاّ أن منظرهم هذا لم يُثر الخجل أو الشفقة. وكان على شيشرون بعد هذا أن يختار بين الفرار أو تحكيم السيف بينه وبين كلوديوس، ورجا من بومبي أن يخفّ لنصرته وكان بومبي قد تعمّد الابتعاد وسافر إلى بيته الريفي في مرتفعات ألبان Alban ومكث هناك. وأرسل شيشرون أولاً ختنه بيزو للتوسط إليه ثم قصده هو بالذات، ولما أُبلغ بومبي بقدومه توارى وتسلّل من باب آخر متحاشياً مقابلته، لخجله، واستذكاره الصراعات العديدة التي خاضها شيشرون في سبيله والفوائد التي جناها من سياسته، إلاّ أنه أصبح الآن ختن قيصر وهذا ما منعه عن

نصرته. ولما وجد شيشرون أن پومپي تخلّى عنه وتركه وحيداً بلا نصير التجأ إلى القنصلين، فأغلظ غابينيوس له القول كالعادة، إلاّ أن پيزو كان أكثر لطفاً ومجاملة ونصحه بالرضوخ للأمر الواقع وإرخاء العنان لإعصار كلوديوس حيناً من الزمن، وأن يركن إلى الهدوء انتظاراً لتبدّل الحال فيكون منقذاً لوطنه من أخطار هذه الاضطرابات والفوضى التي ينشرها كلوديوس كما أنقذه في الماضي. بعد هذا انقلب إلى أصدقائه يطلب رأيهم، فنصحه لوكوللوس بالبقاء وقال إنه واثق بفوزه أخيراً. وأشار عليه آخرون بالفرار مؤكدين أن الشعب لن يلبث أن يفتقده عندما يشم من جنون كلوديوس وهياجه. فوافق على الرأي الثاني وبادر أولاً فحمل تمثالاً لمينرڤا. كان في داره منذ زمن طويل بموضع تكريم إلى الكاپيتول وأوقفه عليه بعد أن نقش عليه العبارة التالية:

«إلى مينرڤا شفيعة روما».

وزوّده أصدقاؤه بمرافقين فترك المدينة في حدود منتصف الليل وسافر براً عبر لاقونيا قاصداً صقلية. وما إن انتشر نبأ فراره حتى اقترح كلوديوس على الشعب مرسوماً يقضي بنفيه. وأصدر هو أمراً شخصياً حرّم عليه فيه «الماء والنار»، وحظر على أي شخص ضمن مسافة خمسمائة ميل في إيطاليا أن يؤويه في داره. إلاّ أن معظم الناس لم يأبهوا لهذا البيان احتراماً لشيشرون وبذلوا له كل رعاية ورافقوه في طريقه. إلاّ شخصاً واحداً يدعى ڤيبيوس Vibius وهو صقلي كان شيشرون قد شمله بالألطاف الكثيرة، منها أنه عيّنه رئيساً لمهندسي الدولة أيام كان قنصلاً، فقد أبى على شيشرون دخول بيته عند وصوله هيپّونيوم Hipponium وهي مدينة لوقانية تُعرف اليوم باسم ڤيبو Vibo. وأرسل من يعلمه بأنه سيخصّص له مسكناً في الريف. وأمّا (كايوس ڤرجيلوس Caius Vergelius پريتور صقلية، الذي كانت تربط فيما بينهما أوثق علاقات الصداقة، فقد كتب إليه يزيّن له العدول عن النزول إلى صقلية. إزاء هذا كله لم يسع شيشرون إلاّ أن يتوجّه إلى برنديزيوم وهو مثقل بالهمّ، خائر العزيمة. وأقلع في ريح مؤاتية ما لبثت أن انقلبت إلى إعصار عاتٍ مضادّ يهبّ من جهة البحر، فدفع بالسفينه من حيث أتت وقذف بها إلى ساحل إيطاليا في اليوم الثاني. ثم إنه أقلع مرةً ثانيةً ووصل دراكيوم وعند نزوله اليابسة وقع زلزال وهزّة بحرية في الوقت عينه كما قيل، وتلك ظواهر فسّرها السحرة بأن نفيه لن يطول كثيراً، وما حصل هو بشائر التغيير. وقصده الكثير احتفاءً به. وتنافست مُدن الإغريق على تكريمه. إلاّ أنه بقي مع ذلك حزين النفس منكسر الخاطر كعاشق ولهان تنكّر له الحظ، وكثيراً ما كان يرنو إلى جهة إيطاليا متشوّقاً. في الواقع لم يتصوّر أحد أن تبلغ الذلّة والشعور بالمهانة ما بلغت بهذا الرجل

الذي أوقف جانباً كبيراً من حياته على الدرس والعلم. لقد اعتاد الطلب من أصدقائه بأن يلقّبوه بالخطيب، بله بالفيلسوف فقد كانت الفلسفة عليه غالبة، ولم يتخذ البلاغة إلاّ مرقاة إلى العمل السياسي. على أن للرأي العام قوى عظيمة في إزالة صبغة الفلسفة من نفوس الرجال تلك التي خلفها الدرس والعقل كما يقال، وبقوة الاعتياد والتماسّ الدائم بإمكانه أن يطبع نزعات الدهماء ومشاعرهم في نفوس الساسة. إلا إذا كان المرء شديد الحذر منتبّهاً إلى أنه عند التصدّي لشيء عام فعليه أن يهتم للمشاكل نفسها لا للعواطف الناشئة عنها.

بعد أن نجح كلوديوس في إبعاد شيشرون بهذه الشكل انقضّ على مغانيه وحقوله ثم منزله في المدينة وأعمل فيها حرقاً وتدميراً وبنى على أرض المنزل هيكلاً لربّة الحرية. وعرض بقية أملاكه للبيع بالمزاد العلني يومياً فلم يتقدم لها شارٍ. بهذه الوسائل وطّد سلطانه وهابه الأشراف وتعلّقت به العامة بعد أن فتح لهم أبواب التسيّب والوقاحة على مصاريعها وجرّأهم على النظام العام. أخيراً راح يجرّب سلطانه ضدّ پومپي فهاجم بعض إجراءاته التي أقدم عليها في البلاد المفتوحة. فلم يسع پومپي إلاّ الشعور بثقل العار لجبنه وراح يلوم نفسه على التخلّي عن شيشرون. وتبدّلت أفكاره فجأة فأخذ يعمل جاهداً مع أصدقائه لإعادة شيشرون. ولمّا عارض كلوديوس في ذلك اتخذ مجلس الشيوخ قراراً بالتصويت يقضي بالامتناع عن مصادقة أي إجراء رسمي أو الأمر بتنفيذه إلاّ بعد عودة شيشرون. لكن الشحناء والنزاع على هذا الأمر تفاقما عندما تولّى لنتولوس المنصب القنصلي، فحصل اشتباك نجم عنه إصابة التريبيونات بجراح في الفوروم، وتُرك كوينتوس شقيق شيشرون ملقى بين القتلى دون أن يفطن أحد إلى أنه بين القتلى. وبدأ التغيير يظهر في عواطف الشعب وكان أنيوس ميلو Annius Milo أحد تريبيوناته أول من ملك الشجاعة لاستدعاء كلوديوس إلى المحاكمة عن أعمال العنف التي اقترفها. وتحزّب عدد كبير من عامة سكان المدن المجاورة إلى پومپي وشدّوا أزره عندما ذهبوا معه فطردوا كلوديوس من الفورو.م واستدعي الشعب ليدلي بأصواته حول عودة شيشرون وقيل إن الشعب قلّما أجمع على أمر كما أجمع هذه المرة. ورغب المجلس أيضاً في منافسة الشعب بعواطفه فبعث برسائل شكر إلى تلك المدن التي استضافت المنفيَّ واحتفت به أيام إبعاده. وأصدر مرسوماً يقضي بإعادة بناء داره ومرابعه الريفية التي دمّرها كلوديوس على نفقة الدولة.

هكذا عاد شيشرون بعد ستة عشر شهراً من نفيه، وعمّت المدن الفرحة وبلغت لهفة الناس لرؤيته حداً كبيراً، حتى أن ما قيل على سبيل الفخر من أن إيطاليا عادت به

إلى روما محمولاً على أكتافها هو قول لا يوازي الحقيقة. وكراسوس نفسه الذي عُرف بعداوة له قبل نفيه خرج لاستقباله بملء الرغبة وتصالحا، لأنه «أراد أن يفرح ابنه پوبليوس أحد المعجبين المغالين بشيشرون» على حَدّ قوله!

ولم يلبث شيشرون في روما إلاّ قليلاً وانتهز فرصة غياب كلوديوس فقصد الكاپيتول مع جمع كبير، ومزّق وكسر الألواح التريبيونية التي سُجّلت عليها إنجازات كلوديوس. وعندما وجّه إليه هذا استجواباً عن الدافع الذي حمله على هذا العمل أجاب شيشرون أنه فاز بمنصب التريبيون خلافاً للقانون لكونه پاتريشياً، فكل ما أنجزه والحالة هذه باطلٌ لا قيمة له. وقد ساء ذلك كاتو وعارض شيشرون لا حبّاً بكلوديوس الذي لم تكن تصرّفاته موضع رضاه، بل محتجاً بأن تصويت المجلس على عدم قانونية تلك الأنظمة والأوامر والمراسيم، ومن ضمنها تعيينه هو نفسه لمهمّتي قبرص وبيزنطيوم، يتّسم بطابع النزق والطيش فضلا عن مجافاته للقانون. وهذا ما أحدث الجفوة بين كاتو وشيشرون إلا أنها لم تبلغ مبلغ العداء السافر وإنما شاب صداقتهما برود كبير.

بعد هذا قام ميلو بقتل كلوديوس فأُحيل إلى القضاء فوكّل شيشرون للدفاع عنه، وخشي مجلس الشيوخ أن استنطاق شخصٍ ذي جرأة ومكانة مثل ميلو قد ينجم عنه اضطراب في حبل الأمن، فأناط بپومپي أمرَ الإشراف على النظام في المدينة أثناء هذه المحاكمة والمحاكمات الأخرى، وأن يتولّى الإشراف على الانضباط في دور القضاء أيضاً، فعمد پومپي ليلاً إلى احتلال المرتفعات فيما حولها، وضرب نطاقاً من الجنود حول الفوروم. وخاف ميلو من تأثير هذا المشهد غير المألوف على شيشرون فيضطرب ويسيء الدفاع عنه، لذلك أقنعه بأن يأتي إلى الفوروم محمولاً في محفّة وان يبقى فيها حتى تنتظم الجلسة ويكمل نصاب القضاة وتمتلئ القاعة. ويبدو من هذا أن شيشرون كان يفتقر إلى الشجاعة الأدبية فضلاً عن الشجاعة الحربية. فبدأ دفاعه بشيء من التردد والتلعثم. ولازمته الرعشة في البداية. وفي كثير من خطبه لا تتركه الرجفة إلاّ نادراً، حتى عندما يدخل في صلب الموضوع ويبلغ جوهر خطابه. ومن ذلك مثلاً دفاعه عن لوچينيوس مورنيا في قضيّة اتهمه بها. كاتو كان محامي خصمه هورتنسيوس قد دبّج خطبةُ نالت استحساناً عظيماً. وكان شيشرون قد أمضى الليلة مؤرّقاً يتناهبه قلق الطموح إلى التغلب عليه، فانهدّت قواه بفعل الأرق، ولم تعدّ خطبته من المستوى الذي أُثر عنه. فبعد أن هبط من المحفّة لمباشرة قضية ميلو لاحت منه التفاتة إلى پومپي وهو يحتلّ مواضعه بعسكره فوق المرتفعات، وخطف أنظاره بريق الأسلحة أينما التفت

حواليه في الفوروم، فاعتراه الخوف، وارتجّ عليه في الأول، لأن جسمه كان يرتعش، ولسانه يتلجلج. في حين كان ميلو المتهم ثبتَ الجِنان رابط الجأش في كل تصرّفاته. فقد أنف من إرسال شعره، أو ارتداء ثياب الحِداد، على نحو ما يفعل المتهمون، وكان هذا السبب الرئيس لإدانته على ما يبدو. وأما عن شيشرون فقد قيل إنّ ما أظهر من الخوف والحرص على نفسه كان أكثر مما أظهر من قلق وحرص على صديقه.

وعُيّن شيشرون كاهناً من المرتبة التي يطلق عليها الرومان اسم «أوگور» Augur مخلفاً كراسوس الأصغر الذي قضى نحبه في بلاد الپارثيين. وعُيّن بالقرعة حاكماً لإقليم كيليكيا وأبحر متجهاً إلى مقرّ حكمه على رأس اثني عشر ألف راجلٍ وألفين وستمائة من الفرسان. وكان قد زوّد بأوامر تقضي بإخضاع كبدوكيا لملكها أريوبارزانيس Ariobarzanes. وقد أنجز المهمة على أفضل ما يمكن دون اللجوء إلى استعمال السلاح. وأدرك أن الكيليكيين يبيّتون ثورةً على إثر الفشل الذي مُني به الرومان في بلاد الپارثيين، وبعدما حصل في سورية من الاضطرابات والمشاكل، فعمد إلى تهدئتهم وكسب ودّهم وإخلاصهم باتّباعه اللين والعدل. ورفض الهدايا التي كان يقدّمها له الملوك. وألغى الضرائب والرسوم التي تُجبى من الأهلين عن الملاهي والحفلات العامة. وكان يستقبل في داره يومياً رجال العلم والثقافة اللامعين في الإقليم ويبالغ في إكرامهم، ولكن بصورة خلت من مظاهر البذخ والترف. ولم يكن يقف حارس أمام بابه، ولم يقصده أحد ويراه متكئاً على سريره. إذ كان يستيقظ عند الفجر ويقف أمام باب منزله، أو يتمشى إلى جواره، مستقبلاً كل قادم للسلام عليه والسؤال عنه، وقيل إنه لم يأمر قط بجلد أحدٍ من مرؤوسيه بالعصيّ أو بنزع ردائه، ولم يتلفظ قط بكلمة بذيئة في سورة من غضب أو انفعال، ولم يوقع عقوبة تجرح كرامةً أو تصيب عزة النفس. ووجد أن أموالاً طائلة قد اختُلست من الخزينة العامة فاهتمّ بأن تستعيد المدن استقرارها المالي وفي الوقت نفسه لم يوقع عقوبة بأولئك الذين سدّدوا ما اختلسوه وإنما تركهم يحتفظون بحقوق المواطنة. واشتبك أيضاً في حروبٍ وهزم قطّاع الطرق الذين كانوا يعيشون سلباً ونهباً في جبل أمانوس فحيّاه جيشه بلقب «إمبراطور» وكتب إلى كوچيليوس Coecilius[٢] الخطيب الذي طلب منه عدداً من فهود كيليكيا لعرضها في ملعب روما. وفي نوبة من نوبات تمجيد النفس لما حققه كتب يقول إنه لا فهود بعد

(٢) في نسخة أخرى Caelius.

في كيليكيا فقد هربت جميعها إلى كاريا سخطاً واستياء لأنها أمست المخلوقات الوحيدة التي تُهاجَم في حين أن الجميع ينعم بالسلام والاستقرار.

وعند مغادرته الإقليم توقف في رودس وكان سعيداً جدّاً لقضاء بعض الوقت في أثينا، حيث كان يحتفظ لها بأجمل الذكريات للأيام التي قضاها هناك في الماضي. والتقى البارزين في كل فرع من فروع العلم والثقافة واستقبل أصدقاءه ورفاقه القدامى. وبعد أن قوبل في اليونان بما يستحق من التكريم قفل إلى روما فوجدها - على حدّ قولنا - في أولى مراحل الحمّى التي تمخّضت بالحرب الأهلية.

وفي مجلس الشيوخ عندما هَمّ الأعضاء الأصدقاء بالتصويت على منحه موكب نصر، قال إنه يفضل أن يمشي وراء عجلة نصر قيصر لو أن المسائل سوّيت بصورة مُرضية. وكتب في السرّ عدة رسائل إلى قيصر ناصحاً وقابل پومپي شخصياً عدة مرات باذلاً جهده لتهدئة الطرفين، ومناشداً كليهما تحكيم العقل. لكن الشقّ اتسع ولم يعد بالإمكان معالجة الأمر وتقدّم قيصر من روما وپومپي لا يجرؤ على البقاء فيها، بل تركها مع كثير من أفاضل المواطنين. إلاّ أن شيشرون لم يغادرها. وكان المقول عنه أنه من أشياع قيصر على أنه في الحقيقة كان مذبذباً موزّع الرأي لا يدري إلى أي طرف ينحاز. فقد كتب في رسائله يقول:

«إلى أيّ طرف ينبغي لي أن أتوجّه؟ لپومپي أسبابه العادلة المشرّفة لشنّ الحرب. إلاّ أن قيصر هو أحسن تصرّفاً في إدارته وأقدر على وقاية نفسه وأصدقائه. لهذا فأنا أعلم ممن سأهرب وإلى من يجب أن أهرب». لكن عندما أشار عليه تريبانيوس Terbanius أحد أصدقاء قيصر بقوله إن قيصر يرى أن ينحاز إلى صفه ويشاركه في مستقبله وهو أفضل السبل له، لكن إذا وجد سِنّه لا تسمح له بمعاناة المتاعب فبإمكانه الرحيل إلى بلاد اليونان والعيش هناك بهدوء بعيداً عن الفريقين المختصمين، وأدرك شيشرون العجب من قيصر لأنه لم يكتب له شخصياً.

وردّ بغضب قائلاً إنه لن يُقدم على عملٍ يشين ماضيه. وهذا ما يمكن استنتاجه من رسائله؛ وما إن زحف قيصر على إسبانيا حتى أبحر للانضمام إلى معسكر پومپي. ورحّب به الجميع خلا كاتو الذي انتحى به جانباً وأخذ يؤنّبه على مجيئه قائلاً إنه ارتكب خطأً كبيراً في الانضمام إلى پومپي. وقال عن نفسه: «أما أنا فمرتبط بكلمة شرف أن لا أتخلّى عن الخط السياسي العام الذي سرت عليه منذ البداية، إلاّ أنك قد تكون أكثر فائدة لبلادك وأصدقائك لو بقيت في الوطن، دون أن تنحاز إلى فريق، وأن

تكيّف نفسك للأحداث عندما تعرف ماذا ستكون النتيجة. أمّا الآن فقد جعلت نفسك عدوّاً لقيصر دون ضرورة ولا سبب وجيه، وجئت هنا للتعرّض لهذه الاخطار العظيمة التي تهددنا جميعاً».

أقلقته هذه العبارات وأثّرت على عقله، كما أحزنه أيضاً أن پومپي لم يعتمد عليه في مهمّات كبيرة، وهو الملوم بهذا لأنه ما انفكّ يعلن عن أسفه لمجيئه، وينتقص من تدابير پومپي العسكرية وينتقد خططه من وراء ظهره دائماً. ولم يكن يتورّع عن إلقاء النوادر والمِلَح سخرية من رفاقه في السلاح. ومع أنه كان في الواقع يتجوّل في أنحاء المعسكر بوجه عبوس وملامح كئيبة فقد كان يحاول دوماً التسرية عن الآخرين ودفعهم إلى الضحك بنكاته رغم أنفهم. والأمر يستأهل منا إيراد بعض الأمثلة:

فضّل دوميتيوس للقيادة شخصاً غير عسكري، وبرّر تفضيله بأنه إنسان متواضع، واسع الفهم والبصيرة. فقال شيشرون:

- فلِمَ لا تعيّنه معلماً لأولادك إذن؟(٣)

وسمع مدحاً ببثيوفانس اللسبي رئيس سلاح الهندسة في الجيش، للطريقة الفذّة التي اتبعها في تعزيتهم على خسارة أسطولهم. فقال:

- إنها لرحمة في الواقع أن يكون في القيادة إغريقي!

وعندما كان قيصر يتابع نجاحاً إثر نجاح وقد كاد يطوّق پومپي كان لنتولوس يذيع أنباءً تفيد بأن أصدقاء قيصر قد هبطت معنوياتهم وثبطت هِمَمهم. فقال شيشرون معقّباً:

- ذلك لأنهم لا يتمنّون الخير لقيصر ولا يريدون أن ينتصر.

وقال للمدعو مارچيوس الذي قدِم مؤخراً من إيطاليا وأخبرهم بانتشار إشاعة قوية في روما تقول إن پومپي قد ضُرِب عليه الحصار:

- ولهذا ركبتَ البحر إلى هنا. إنك تشاهد الأمر بأمّ عينك!

وراح ننيوس Nnius يشجّعهم بعد إحدى الهزائم ويطلب منهم أن لا يقنطوا ولا يفقدوا الأمل فما زال في معسكر پومپي نسور سبعة. فقال شيشرون:

- نصيحة ممتازة! لو كنّا نحارب الزّاغ ليس إلاّ.

وظلّ يشدّد لابينوس Labienus على أهمية بعض النبوءات التي أشارت إلى أن پومپي سينتصر. فقال شيشرون:

- بالضبط فإنها نِعم الستراتيجية تلك التي أدّت بنا إلى خسارتنا معسكرنا الآن.

---

(٣) في نسخة: «لماذا لا تعيّنه معلماً؟»

بعد معركة فرساليا التي لم يحضرها شيشرون لوعكة ألمّت به وماتلاها من فرار پومپي، بقيت تحت إمرة كاتو قوات كبيرة وأسطول ضخم في دراكيوم فرغب في تسليم القيادة لشيشرون بمقتضى القانون وبحسب الأقدمية في المنصب القنصلي. ولما رفض ذلك وأبى مشاركتهم في تصميمهم على مواصلة الحرب، تعرّضت حياته لخطر عظيم وكاد يُقتل ووصمه پومپي الابن وأصدقاؤه بالخيانة وجرّدوا سيوفهم وسدّدوها إلى صدره، فتدخّل كاتو وأنقذه بشقّ الأنفس، ثم أخرجه من المعسكر. فاستقلّ البحر ووصل إلى برنديزيوم وتأخر فيها بعض الوقت منتظراً قيصر الذي كانت مشاغله في آسيا ومصر قد أخّرته. ولما أُنبئ بأنه وصل تارنتوم وأنه منطلق إلى برنديزيوم برّاً، أسرع اليه، ولم يكن فاقد الأمل كلّيةً بالنتيجة، إلاّ أنه كان يشعر بالخجل لاضطراره إلى جسّ ردود فعلِ عدوّ وفاتحٍ أمام عدد كبيرٍ من الشهود. ولم تكن في الواقع حاجة به البتّة ليقول أو يفعل أي شيء غير لائق به. ولمحه قيصر مقبلاً يتقدم الجماعة بمسافةٍ، فنزل لاستقباله حالاً، وحيّاه وأفسح له وهما سائران يتحدثان وحدهما مسافة فرلنگ واحدٍ. ومنذ ذلك الحين وهو يعامله بإكرام واحترام حتى أنه لما كتب شيشرون خُطبه في مدح كاتو انتهز قيصر مناسبة الردّ عليه ليمدح حياة شيشرون وبلاغته مقارناً إياه بپركليس وثيرامينس Theranenes. وكان عنوان رسالة الأول «كاتو» وعنوان رسالة الثاني «ضدّ كاتو».

وروي كذلك أن كوينتوس ليگاريوس Quintus Ligarius أحيل إلى المحاكمة لأنه رفع السلاح ضدّ قيصر فقبل شيشرون مهمة الدفاع عنه. فقال قيصر لأصدقائه:

- ولِمَ لا نسمع خطبة لشيشرون بعد مرور هذا الوقت الطويل؟ وأما عن ليگاريوس فكلنا يعلم منذ زمن طويل أنه مجرمٌ وعدوّ.

ولكن لما بدأ شيشرون يتكلم بدت كلماته مثيرة للعواطف بصورة لا تُصدَّق. وما إن مضى في دفاعه شوطاً متنقّلاً من عاطفة إلى أخرى بلغة ساحرة آسرة حتى أخذت ألوان قيصر تفرّ وتُقبل وكان واضحاً أن كلّ عاطفة فيه قد تحركت وجاشت به. وأخيراً عندما تطرّق الخطيب إلى معركة فرساليا[٤] وصل تأثره منتهاه، وراح جسده يتهزّ وسقطت بعض الأوراق من يده. وهكذا غُلب على أمره وبرّأ ليگاريوس.

ومنذئذ انقلبت الجمهورية إلى حكم الفرد المطلق. فانسحب شيشرون من الحياة العامة وطلّق السياسة وراح يمضي أوقات فراغه في تعليم الفلسفة لقُصّاده من الشبّان.

---

(٤) فرسالوس أيضاً بالرومانية.

وكانوا كلّهم يتحدّرون من أرقى وأشرف الأُسر الرومانية وهو مدين بصورة رئيسة لهذه العلاقة الحميمة في عودته إلى معترك الحياة السياسة واستعادته نفوذه العظيم في روما. وانشغل أيضاً في كتابه وترجمة المحاورات الفلسفية، ونحت تعابير ومصطلحات لاتينية لمختلف الكلمات المستخدمة في المنطق والعلوم الطبيعية. ويقولون إنه كان أولّ من أوجد الاسماء اللاتينية لهذه التعابير:

Phantastia, Syncatathesis, eporhe, Catalepsis, atamon, ameres, Kenon.

وسلسلة أخرى في اللسان اللاتيني إمّا بطريق الاستعارة، أو بإيجاد مصطلحات جديدة مقاربة لها. وعلى سبيل التسلية عالج أيضاً نَظْم القريض، وقيل إنه إذا عكف عليه خرج في اليوم التالي وقد نظم خمسمائة سطر في ليلة واحدة. وقضى الشطر الأكبر من حياته في مفناه الريفي بتوسكولوم Tusculum. وكتب لأصدقائه قائلاً إنه يحيا حياة ليرتس Laertes إما على سبيل المزاح كما هي عادته، أو تعبيراً عن طموحه ورغبته في المساهمة بالشؤون العامة التي جعلته غير راض عن الأوضاع السائدة وقتذاك. وقلّما كان يأتي إلى روما؛ وإذا غشِيَها فللتسليم على قيصر، وكان على رأس من اعتاد أن يقترحوا ضروب التكريم له، ويحاولون دائماً اختراع تعابير مديح له لنفسه أو لأعماله. فمثلاً هناك تعليقات له على تماثيل پومپي تمّ رفعها ونقلها من مواضعها، إلاّ أن قيصر أمر بإعادتها إلى أمكنتها؛ وعندما أقيمت قال شيشرون: إن قيصر بعمله الكريم لم ينصب تماثيل پومپي فحسب وإنما ثبّت تماثيله هو نفسه تثبيتاً راسخاً.

وقيل إنه فكر في كتابة تاريخ بلاده؛ مضيفاً إليه جزءاً كبيراً من تاريخ الإغريق ومضمّناً إياه كل الحكايات والأساطير الغابرة التي وقف عليها وتولّى جمعها. إلاّ أن مختلف الأحداث العامة والخاصّة المؤسفة، والمصائب التي كان معظمهما من عمله ونتيجة أخطائه، حالت بينه وبين تحقيق هذه الأمنية. فبالدرجة الأولى طلّق زوجه ترنتيا، متعلّلاً بأنها أهملته أثناء الحرب، وتركته يسافر وهو خالي الوفاض لا يملك ما يقيم به أوده في رحلته، وزعم أنه لم يجد لديها عطفاً وحناناً عند عودته إلى إيطاليا إذ إنها لم تلحق به في برنديزيوم طول بقائه فيها. وأنها لم تُهيّئ لبنتهما الصغيرة التي قطعت هذه الرحلة الطويلة إليه ما يليق بمثيلاتها من رفقةٍ ومالٍ كافٍ لنفقات السفر. فضلاً عن كونها خلّفت له منزلاً خالياً عارياً عن الأثاث وورّطته في ديون كبيرة. وهذه بالتاكيد أكثر الأسباب وجاهة للطلاق. لكن ترنتيا التي تُنكر كل هذه المزاعم تتمسّك بأقوى دفاع زوّدها به هو نفسه. إذ لم يمرّ وقت طويل على طلاقها حتى تزوّج باكراً فتاة صغيرة السّنّ وقع أسير جمالها وهذا ما جعل حجّتها أقرب إلى التصديق. وعلى أن

عتيقه تيرو Tiro يقول إنه أقدم على هذه الزيجة ليتخلّص من ديونه، لأن الفتاة كانت في غاية الغنى، وكان شيشرون قد نُصّب قيّماً على أموالها ووصيّاً عليها. ولما كان مديناً بمبالغ طائلة فقد نصحه أصدقاؤه وأقرباؤه بالزواج منها بغضّ النظر عن الفارق الكبير بين عمريهما، واستخدام مالها لإيفاء دائنيه حقوقهم.

ونوّه أنطوني بهذه الزيجة في ردّه على «فيليبياته» ووجّه إليه التأنيب الشديد عائباً عليه طلاقه امرأة عاشت معه حتى مرحلة الشيخوخة، وأضاف بعض اللمحات الساخرة الطريفة حول مزاج شيشرون البيتي، وعُقم تصرّفاته وبُعدها عن طباع المحارب. وبعد فترة قصيرة من زواجه توفّيت ابنته توليا زوج لنتولوس وهي على فراش الوضع، وكانت من قبل زوجاً لپيزو الذي مات وتركها فترمّلت. فتقاطر الفلاسفة وذوو العلم من كل صوب لتعزيته، وكان حزنه عليها شديداً جداً، حتى أنه طلّق زوجه الجديدة لأنها أظهرت السرور لموتها.

هذا ما كانت عليه أحوال شيشرون المنزلية آنذاك. لم يشارك شيشرون في التكتل الذي كان يتخذ شكله ضدّ قيصر مع أنه كان من أقرب أصدقاء بروتوس وموضع سرّه، وأحد الذين يشكون بألم ما آلت إليه الأحوال السياسية، ويرغبون في عودة نظام الحكم السالف. إلاّ أن المتآمرين كان يتخوّفون من جُبنه، ويحسبون حساب شيخوخته والشيخوخة تجعل أجرأ الناس جباناً هيّاباً.

وبعد أن نفّذ بروتوس وكاسيوس والباقون خطتهم تجمّع أصدقاء قيصر ضدّهم وخيف من حرب أهلية ثانية تُبتلى بها روما. وفي هذه اللحظة الحرجة دعا أنطوني - وكان قنصلاً - مجلس الشيوخ للانعقاد وألقى كلمةً قصيرة حول إحلال الوئام والتصافي وإجراء المصالحة الوطنية، وتبعه شيشرون بخطبةٍ مطوّلة تناسب المقام، وحمل المجلس على احتذاء حذو الأثينيين بالتصويت على قانون العفو العام عن كل من ساهم في قتل قيصر، وأن يعطى كلاً من بروتوس وكاسيوس حكم إقليم. ولكن لم يُنفّذ أيّ من هذين القرارين. ذلك لأن الجمهور كان يعطف على قيصر على كل حالٍ. فعندما شاهد الجمهور جثته محمولة خلال الفوروم، وعندما أنشأ أنطوني يعرض ثيابه الدامية التي مزّقتها طعنات السيوف، اجتاحته سَورة من الغضب وهاج هائجه، وانطلقوا في أثر القتلة وتوجّهوا إلى منازلهم وبأيديهم المشاعل لإحراقها، إلاّ أن المتآمرين أُنذِروا بما ينتظرهم فاستبقوا الخطر وبادروا إلى ترك المدينة حفظاً لحياتهم.

وبرز أنطوني فجأة كالنجم الثاقب. وأصبح سيّد الموقف الذي لا يقف أمامه شيء. وبات القلق يغزو نفوس الجميع من أن يعمد إلى التفرّد بالحكم المطلق. وكان

شيشرون أكثر الناس توجّساً من هذا. وأنطوني كان من الجهة الثانية يحذّر من عودة نفوذ شيشرون وتعاظمه ومن العلاقة الحميمة التي تربطه ببروتوس، لذلك صار يتضايق من وجوده في المدينة. أضف إلى هذا التحاسد الذي نشأ بينهما من تنافر طبيعي في أخلاقهما. وخاف شيشرون سوء العاقبة وفكّر في النزوح إلى سورية معاوناً لدولابللا، إلاّ أن القنصلين المنتخبين هرتيوس Hertius وپانسا Pansa اللذين كانا سيخلفان أنطوني رجياه بالبقاء وتعهّدا بسحق نفوذ خصمه أن بقي في روما ظهيراً لهما. وكانا شخصين طيّبين وصديقين له فصدّقهما إلى الحدّ الذي قرّر معه البقاء ولم يكن واثقاً منهما كل الثقة. وذهب دولابللا وحده. واتفق مع القنصلين أن يقضي الصيف في أثينا وأن يغادرها عندما يتولّيا سلطاتهما القنصلية. فسافر وحده إلاّ أن بعض التأخير طرأ على رحلته. وكما يحدث غالباً فقد وردت أنباء جديدة له من روما؛ فقد قيل إن هناك تغييراً عجيباً طرأ على سلوك أنطوني، وإن كلّ أعماله وسياسته تبدو وكأنها تتجه إلى إرضاء مجلس الشيوخ، وإن كلّ ما يلزم في الوقت الحاضر هو عودته لتستقيم الأوضاع على أفضل الأسس من الاستقرار. فلام نفسه لإفراطه في الحذر وقفل راجعاً إلى روما، ولم يخب ظنه في أولى توقعاته؛ فقد اجتمعت حشود هائلة من الناس لاستقباله حتى أن التحايا وخطب الترحيب في أبواب المدينة وفي أثناء دخوله إليها استغرقت يوماً كاملاً تقريباً.

في صباح اليوم التالي دعا أنطوني المجلس للانعقاد، وطلب حضور شيشرون إلاّ أنه اعتذر بوعكة مرضيّة ألزمته الفراش، ولم يحضر. على أن سبب تخلّفه الحقيقي عن الحضور هو الخوف على ما يبدو من دسيسةٍ دُبّرت له إما لشكّ ساوره، أو لمعلومات وصلته وهو في طريقه إلى روما. فأظهر أنطوني استياءً عظيماً وشعر بالإهانة وتوعّده بإرسال جنود لجلبه بالقوة أو لإحراق بيته، إلاّ أن أناساً كثيرين توسّطوا في الأمر ورجوه أن لا يفعل شيئاً من هذا القبيل فقنع بقبول ضمانات من شيشرون على حُسن سلوكه. وبعد هذا كان يتجاهل أحدهما الأخر عندما يلتقيان. وبقي كلاهما على هذه الحال يحاذر أحدها من الآخر حتى جاء قيصر الأصغر من أپوللونيا Apollonia وهو أول ورثة قيصر. فبدأ النزاع بينه وبين أنطوني حول خمسة وعشرين مليون درهم كان أنطوني قد احتجزها من التركة.

ونتيجة لهذا قدِم فيلپس Philippus، زوج أمّ قيصر الشاب ومارچللوس زوج أخته، مع الشاب نفسه إلى شيشرون واتفقوا معه على أن يضع بلاغته ونفوذه السياسي عند المجلس وعامة الشعب تحت تصرّفهما، وأن يتولّى قيصر الشاب أمر الدفاع عن

شيشرون بنفوذه المالي، وبما هو تحت إمرته من القوات الكبيرة التي خدمت تحت لواء قيصر الأكبر. وكان من المعتقد بوجود سبب آخر أقوى من هذه الأسباب حمل شيشرون على قبول صداقة قيصر! في أيام حياة پومپي وقيصر يبدو أن شيشرون رأى حلماً مؤدّاه أنه كان يدعو بعض أبناء الشيوخ لدخول الكاپيتول لأن جوپتر كان يريد أن يختار واحداً منهم لحكم روما. وجاء المواطنون مسرعين بكلّ شوقٍ ووقفوا حول الهيكل، والفتيان جالسون في أوشحتهم الموشاة بالأرجوان وكأنّ الطير على رؤوسهم، ثم فُتحت الأبواب فجأة واصطفّ الفتية واحداً بعد الآخر، وطفقوا يمرّون أمام الإله بكلّ انتظام وهو يستعرضهم ويتفحّصهم، ثم إنه أخذ يصرفهم تباعاً وكلّهم أسف، حتى وصل قيصر الفتى أمام الربّ، فمدّ إليه جوپتر يده وقال:

- أيها الرومان، عندما يصبح هذا الفتى سيّد روما؛ سيوضع حدٌّ نهائي للحرب الأهلية.

قيل إن شيشرون رأى هذا الحلم ومنه كوَّن لنفسه صورة واضحة المعالم لملامح الشاب، بقيت منطبعة في ذهنه وإن كان يجهل شخصياً. وفي اليوم الذي تلا ليله الحلم التقى وهو في طريقه إلى مخيّم مارتيوس Campus Martius بالفتيان وهم عائدون من ألعابهم الجمنازيّة، يتقدّمهم الفتى الذي رآه في الحلم فأدركه العجب وسأله عن أصله وفصله فتبيّن له أنه قيصر الشاب، الذي لم يكن أبوه (أوكتافيوس) معروفاً، وأن أمّه هي آتيا Attia بنت أخت قيصر. ولهذا السبب تبنّاه قيصر الذي لم يعقب، وجعله في وصيّته وارثاً لأملاكه ومنزله. ومنذ ذلك الحين كان شيشرون - على ما قيل - يراقب الشاب بكل اهتمام كلّما صادفه، وكان الفتى يقابل اهتمام شيشرون بلطف ويرحّب بعطفه. وقد شاء إله الحظّ أن يولد الفتى عندما كان شيشرون قنصلاً.

ومع أن هذه الأسباب هي التي أُثرت عن نشوء العلاقة بين الرجلين فإن الدافع الحقيقي الذي جعل شيشرون ظهيراً للفتى هو أولاً بغضه لأنطوني، وثانياً طبعه الذي كان يدفعه دوماً إلى الشهرة والبروز. فتصوّر أنه يضيف قوة قيصر إلى نفوذه السياسي. والفتى كان يجسّم له هذه الفكرة إلى الحدّ الذي صار يناديه بـ«يا أَبتِ». وهو ما أغضب بروتوس إلى حد كبير فكتب في رسائله إلى أتيكوس Atticus مهاجماً شيشرون بقوله: «من الجليّ أن تودّده إلى قيصر خوفاً من أنطوني، لم يكن يستهدف به حرية بلاده وإنما كان يخطب ودّ طاغية، ليكون عطوفاً على شخصه ليس إلاّ». ومع هذا فإن بروتوس احتضن ابن شيشرون الذي كان يدرس الفلسفة في أثينا، وسلّمه قيادة عسكرية واستخدمه في عدد من المهمات الناجحة.

في تلك الفترة بلغت سطوة شيشرون أوجها في المدينة. فكان يعمل ما يشاء وما يهوى: استظهر وتغلّب على أنطوني وطرده، وأرسل القنصلين هرتيوس وپانسا على رأس جيش للقضاء عليه. كذلك حمل المجلس على أن يسمح لقيصر بالحرس اللكتوري، وشعار الپريتور بوصفه يحارب دفاعاً عن بلاده. وبعد أن هزم أنطوني في معركة سقط فيها القنصلان قتيلين اتحد الجيشان تحت راية قيصر. فخاف المجلس من العاقبة وتهوّل حظه العجيب، وحاولوا بالجوائز وضروب التكريم سحب الجيش منه وتحديد سلطانه متعلّلين بأن الجيش لم يعد وجوده ضرورياً بعد دحر أنطوني. وهذا ما كان يخشاه قيصر فأرسل بعض أصدقائه إلى شيشرون سِرّاً ليرجوه ويقنعوه بالسعي للفوز بالمنصب القنصلي لهما معاً. وقال إنه لن يزاحمه في السلطة العليا، وسيدعه يتصرّف بشؤون الدولة كما يشاء، فحسبه الاسم والشهرة لا غير. وقد اعترف قيصر نفسه في ما بعد أنه استخدم حبّ شيشرون للسلطة بدافع الضرورة الملحّة لأنه كان يخشى أن تُسرَّح جنوده أو أن يجد نفسه معزولاً. فوعده بالمساعدة والمساندة في الانتخاب وأقنعه بالترشيح للمنصب القنصلي.

وهنا استسلم شيشرون بالتأكيد لكلمات شابّ خادعة وهو في عمره المتقدم، وسمح لنفسه أن يسقط في الفخ. فساعد قيصر في الانتخابات، وكسب له رضا مجلس الشيوخ. ولأجل هذا لامه أصدقاؤه في حينه، ثم سرعان ما أدرك هو أنه ألحق الدمار بنفسه، وخان بلاده في حريتها. إذ ما إن استتبّ الأمر للفتى وتولّى وظيفة القنصل حتى ودّع شيشرون وداعاً أخيراً وتصالح مع أنطوني وليپيدوس Lepidus ووحّدوا قواهم وقسموا الحكومة فيما بينهم كأنها قطعة أرض. ثم نظموا قائمة بمائتي شخص قرروا القضاء عليهم بالموت. إلاّ أن معظم الخلاف الذي ساد مناقشاتهم كان موضوع شيشرون، فأنطوني يأبى كل اتفاقٍ إلاّ إذا أُدرج اسم شيشرون في رأس القائمة. وليپيدوس متفق مع أنطوني في هذا. وقيصر يعارض الاثنين. وقيل إن قيصر ظلّ يومين كاملين وهو مصرّ على استنقاذ شيشرون إلاّ أنه استسلم في اليوم الثالث وتخلّى عنه. وكانت مواد اتفاقهم هي الآتية:

يتخلّى قيصر عن شيشرون، ويتخلى ليپيدوس عن أخيه پاولوس، ويتخلى أنطوني عن خاله لوچيوس قيصر. وهكذا تخلّى الثلاثة عن كل مشاعر واعتبارات إنسانية مفسحين المجال لأحقادهم ومطامعهم. وبذلك برهنوا أن ليس ثمّ حيوان أشد وحشية من فصيلة البشر عندما تتسلّح عواطفه بالقوة. لقد توصّل الثلاثة إلى هذا الاتفاق بعد

اجتماع دام ثلاثة أيام كاملة في بقعة قريبة من بلدة بونونيا يحيط بها النهر ولا تبعد كثيراً عن المعسكر.

كان شيشرون أثناء هذا كله في مفناه الريفي قرب تسكولوم وكان معه أخوه. وهناك سمعا ببيان إهدار الحقوق. فقررا الرحيل إلى أستورا Astura وهي مربَع لشيشرون على ساحل البحر، ومن هناك يركبان سفينة تقلّهما إلى مقدونيا حيث بروتوس معسكر بقوات كبيرة كما تواترت الأنباء عنه. فانطلقا معاً، كلّ في مِحفّة وقد أثقل الحزن قلبيهما. وكثيراً ما كانا يقفان وتوضع المحفّة إلى جانب المحفّة ويعزّي أحدهما الآخر ويهوّن عليه.

وكان كوينتوس أكثرهما همّا وترحاً. وبدأ يفكر في بؤسه وقال إنه لم يتزوّد بشيء من المال، ولم يكن عند شيشرون أيضاً ما يكفي لنفقات الرحلة. فارتأى كوينتوس أن يواصل شيشرون هروبه وأن يعجّل هو بالانضمام إليه بعد أن يتزوّد من منزله بما هو ضروري. ذلك هو السبيل الذي اتفقا عليه، فاعتنقا وافترقا وهما يبكيان.

لم تمرّ أيام قلائل على هذا حتى وقع كوينتوس ضحية غدر خدمه، فقد أفشوا سِرّه لمطارديه فأدركوه وقتلوه مع ابنه الصغير. على أن شيشرون بلغ أستورا فوجد سفينته فصعد إليها في الحال، ومخرت به العُباب بريح طيبة حتى چيركسيوم. ومن هناك أراد الملاحون الإقلاع رأساً إلاّ أن شيشرون فضّل النزول منها، إما خوفاً من هياج البحر أو لأنه لم يفقد تماماً ثقته بقيصر. وعاد متجهاً صوب روما وقطع حوالي مائة فرلنگ، ثم أدركه الخوف ثانية فغيّر رأيه وقفل راجعاً إلى البحر. وقضى ليله على الساحل تتناهبه المخاوف والأفكار السوداء؛ فمرّة يقرّر التسلّل سرّاً إلى بيت قيصر ويلقي نفسه على حجرة المذبح المنزلي، ليجلب لعنة السماء عليه. إلاّ أن الخوف من التعذيب جعله يعدل عن هذه الخطة. وهكذا بعد أن قلّب في رأسه مختلف المشاريع المضطربة، والآراء المتناقضة، أمر خدمه بالذهاب به إلى كاييتا Caietia[٥]. وهنا كان لديه عقار ومنزل لطيف جداً للاصطياف عندما تكون الريح الإتسية Etisian على أرقّها. يوجد في هذا الموضع مزار لأپوللو لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر ومنه هبّ سربٌ من الغربان محلّقاً في الفضاء بضجّة عظيمة، واتجه إلى سفينة شيشرون وهي في طريقها إلى اليابسة، فحطّ على خشبة الصاري، فريقٌ منه ينعق وفريق ينقر رؤوس الحبال، فتطيّر الجميع من هذا. ونزل شيشرون إلى اليابسة ثانية ودخل منزله واستلقى على فراشه

(٥) في نسخة: كابتيي Capitae.

ليصيب بعض راحةٍ ويهدّئ من خواطره. واستقر عدد من الغربان على النافذه وأخذت تنعق نعيقاً مقبضاً للصدر. وحطّ غراب منها على الفراش حيث شيشرون مستلق تحت الأغطية، وراح ينقرها ويسحبها حتى أزاح الغطاء عن وجهه. وعندما رأى الخدم هذا أخذوا يلومون أنفسهم لوقوفهم موقف المتفرّج منتظرين قتل سيّدهم لا يفعلون شيئاً للدفاع عنه، في حين هذه المخلوقات الحيوانية أقبلت لمساعدته والعناية به في بؤسه وسوء حظه. فأقبلوا عليه يتوسّلون إليه حيناً، ويرغمونه حيناً، حتى حملوه بالمِحفّة إلى ساحل البحر.

في تلك الأثناء أدركهم القتلة. يتقدّمهم هرنيوس Hernnius قائد المائة، وپوپيلليوس Popillius وهو ضابط في الجيش كان شيشرون قد تولّى الدفاع عنه عندما حوكم بتهمة قتله أباه. بلغوا المنزل فوجدوا أبوابه مقفلة، فكسروها ودخلوا وكان معهم مساعدون ولم يعثروا عليه، وأنكر الموجودون في المنزل معرفتهم بمكانه. وقيل لنا إن شاباً كان شيشرون قد لقّنه العلوم العقلية والفنون يدعى فيلولوگس Philologus، وهو عتيق أخيه كونتيوس، بادر متطوّعاً إلى إخبار الضباط بأن المِحفّة تأخذ الآن سبيلها إلى ساحل البحر خلال المماشي الضيّقة الظليلة، فأخذ الضابط قبضةً من الرجال وأسرع ينتظره في الموضع الذي يخرج فيه طريق من الغابة. ولمح شيشرون مطارده هرنيوس يعدو في المماشي. فأمر خدمه بإنزال المحفّة، وربّت بيسراه على ذقنه وأراحه عليها كما اعتاد أن يفعل وتطلّع إلى قاتليه بنظرةٍ ثابتة. وكان الغبار يعلوه، وقد ظهر الإهمال على شعر رأسه ولحيته، وبدا التعب والإرهاق على وجهه. وحجب الواقفون وجوههم عندما تولّى هرنيوس قتله بعد أن أخرج له عنقه من المحفّة. وكان له من العمر أربعة وستون سنة. قطع هرنيوس رأسه، وبتوصية خاصّة من أنطوني قطع أيضاً يديه اللتين دوّنتا الفيليپيات (اختار شيشرون هذا الاسم للخطب والمقالات التي كتبها ضدّ أنطوني وظلت تعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا).

عندما جيء بأعضاء شيشرون المبتورة إلى روما كان أنطوني في اجتماع معقودٍ لتنظيم انتخابٍ. فلما سمع بالنبأ وتطلّع إلى منظر الأطراف صاح:

- والآن فلنضع حدّاً «لإهدار الحقوق».

وأمر بأن يُثبت الرأس واليدان من الروسترا، فوق كبش السفينة، وهو موضع الخطابة في الفوروم. وكان منظراً استنكره الرومان واشمأزّوا منه. وبدا لهم وكأنهم يرون هناك لا وجه شيشرون بل صورة لنفس أنطوني. ومع هذا كله فقد أظهر أنطوني لمحه واحدة من الشعور الطيّب حين دفع بالواشي فيلولوگس إلى أيدي پومپونيا

Pomponia امرأة كوينتوس. وما إن أصبح تحت رحمتها حتى راحت تُنزل به أنواعاً من أهول العقوبات، منها أنها جعلته يقطع من لحمه أجزاءً أجزاء ويشويها ويأكلها. هذا ما رواه لنا بعض الكتّاب إلاّ أن تيرو Tiro عتيق شيشرون لم يأت على ذكر شيء من غدر فيلولوگس.

بعد مرور زمن طويل كان قيصر يزور أحد أبناء بنته، فوجده يمسك بكتابٍ من كتب شيشرون، حاول إخفاءه تحت طيّات ثوبه خوفاً من جدّه، فلحظ قيصر ذلك وتناول الكتاب منه وأخذ يقلّب أوراقه وهو واقف، ثم أعاده إليه قائلاً:

- هذا يا صغيري، رجل عالمٌ ومحبّ لوطنه.

هذه الرواية حُكيت لي والعُهدة على الراوي.

وبعد ذلك بقليل قضى قيصر على أنطوني، وكان قنصلاً. وجعل ابن شيشرون زميلاً له في المنصب القنصلي. وفي عهد هذه القنصلية أصدر مجلس الشيوخ قراراً بإنزال تماثيل أنطوني كلها، ومحا كل آثار التكريم والتعظيم التي حُبيَ بها ومنع أن يُطلق اسم ماركوس على أبناء الأسرة التي ينتمي إليها. وبهذه الوسيلة أوكلت العناية الإلهية إلى أسرة شيشرون بأعمال القِصاص الأخيرة من أنطوني.

أوجُه المقارنة بين ديموستينس وشيشرون

دوَّنا ما تيّسرت لنا معرفته من سيرتَي ديموستينس وشيشرون بظروفهما القمينة جداً بالتأمّل. وإن نحن تركنا جانب المقارنة الدقيقة ما بين مقدرتهما الخطابية فيبدو لي أن هناك الكثير الذي يجب أن يقال في مجال المقارنة العامة.

فلأجل أن يتمكن ديموستينس من ناصية الكلام استخدم كل قواه، أطبيعية كانت أم مكتسبة، وسخّرها جميعاً لهذه الغاية حتى سبق بقوة عارضته واندفاعه وتأثيره كلّ معاصريه سواء من جهة الموضوعات السياسية أو القضائية التي طرقها، أو من جهة العظمة والسموّ اللذين فاق بهما كل الخطباء المادحين والمؤبّنين، وفاق بالدقة والشمول العلمي كل بلغاء زمانه ومنطقييهم. وكان شيشرون عالي الكعب في الثقافة، بانكبابه المثابر على الدراسة، وبذلك برّ الجميع في سائر فروع العلم وترك عدداً لا يحصى من الرسائل الفلسفية بقلمه على المبادئ الأكاديمية. وإننا لنراه في الواقع يحاول دائماً حتى في خطبه السياسية والقضائية أن يكشف عن طول باعه في العلوم وسعه اطّلاعه. كانت خُطب ديموستينس خالية من عنصر الفكاهة، صيغت كلّها صياغة جدّية لغرض التأثير الحقيقي، لا يُشمّ منها ريح المصباح، كما يقول پيثياس هازلاً، بل ريح الجد وأصالة الرأي والإخلاص الهادئ المتزن، والصرامة وكل ما يعبّر عن مزاجه الطبيعي. في حين كان تعلّق شيشرون بالنكتة وولعه بالسخرية كثيراً ما ينحدر به إلى الإسفاف والبذاءة وكان حبّه في اتخاذ المناظرات الجدّية في القضايا القانونية مادة للهزل، وولعه بإزجاء الملاحظات الظريفة لمنفعة موكّليه، يجعله غير حافلٍ قطّ بكلّ ما يمتّ إلى الكرامة والحشمة. فمثلاً قوله في معرض الدفاع عن كيليوس Caelius إنه «لم يقدِم على عمل سخيف، إلى حد إغراقه وإفراطه في اللذائذ والمسرّات، إنه لمن الجنون أن لا يستمتع بالأشياء التي يملكها، لاسيما أن معظم الفلاسفة الكبار أكدوا أن الملذات هي في رأس قائمة الأعمال الصالحة!».

وروي لنا أيضاً أنه لما قَبِل شيشرون، وكان قنصلاً، مهمة الدفاع عن مورينا ضدّ

المتهم كاتو أورد مجموعة من الفكاهات (إغاظةً لكاتو) على «المتناقضات» السخيفة المعزوّة للمدرسة الرواقية، فسرت القهقهات من الجمهور إلى القضاة.

فعقّب كاتو قائلاً لمن حوله بابتسامة هادئة:

- أيها الأصدقاء، أيّ قنصل مضحك عندنا؟

الحق يقال إن شيشرون كان يمتاز بطبع مرح فكاهي جداً. وكان يبدو باسم الثغر أبلج الوجه دائماً، في حين كان ديموستينس يبدو شديد الانشغال والتفكير قلق الخاطر، وهو مظهر ظلّ يلازمه إلاّ فيما ندر، ولذلك عدّه أعداؤه جلفاً فظاً، كما أقرّ هو بذلك. ويتضح من مدوّناتهما العديدة أن ديموستينس لم يمدح نفسه إلاّ باعتدال ومن غير نبوّ، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، أو إن كان في ذلك فائدة هامة. وهو في المناسبات الأخرى متواضع مقتصد في الثناء على نفسه. إلاّ أن اختيال شيشرون بنفسه الذي لا يعرف حدوداً - في خطبه ورسائله - تدفعه إلى الشهوة العارمة للبروز والمعالي. فتراه يهتف دائماً بوجوب نزول السلاح عن مكانته للوشاح، وتنحية إكليل غار الجندي ليحلّ اللسان محلّه. ولم يقتصر على تعظيم أعماله ومنجزاته، بل تعدّاها إلى خطبه تلك التي ألقاها، وتلك التي كتبها ونشرها. فيخيّل إليك أنه دخل مباراة خطابية للصبيان حول من هو أفضل لساناً، مع الخطيبين إيسوقراطس، وانكسيمنيس، لا بالذي اضطلع بمهمة قيادة البلاد الرومانية ورعاية مصالحها.

«إن الجندي الكامل السلاح والعدّة يرعب الخصم».

من الضروري حقاً للزعيم السياسي أن يكون خطيباً متمكناً. لكن من الخِسّة أن يستمتع المرء ويتمطق بتمجيد قوة بيانه. ومن هذه الناحية كان ديموستينس سامي الفكر وقوراً بصورة غير اعتيادية. كذلك كان يعدّ مقدرته الكلامية مسأله تمرين يعتمد النجاح فيه كثيراً على سلامة قلب المستمعين وطيبتهم. وهو يعدّ المختالين بأنفسهم أناساً تافهين منحطّي الخلق.

كان كلاهما يملك المقدرة على استمالة جماهير الشعب بنفس المستوى. فكانت الجيوش والمعسكرات أطوع إليهما من البنان وكان قادتها في حاجة دائمة إليهما. مثل خاريس Charis وديوپيثس Diopithes وليوستينس بالنسبة إلى ديموستينس. وپومپي وقيصر الأصغر، بالنسبة إلى شيشرون، وهذا الأخير يقرّ به في مذكراته الموجّهة إلى أغريپّا Agrippa وميكيناس Maecenas. على أن ما قيل وظنّ بوجوب إثبات مزاج الرجال وطباعهم في تجربتها بأمكنة السلطة والحكم، حيث تتحرك كلّ عاطفة فيهم وتنكشف كل نقاط الضعف، فهذا مما لم يُتح لديموستينس، ولم يكن في وضع يمكّنه

قط من تقديم مثل هذا البرهان عن نفسه إذ لم يقبل منصباً خطيراً ولم يضطلع بمسؤولية سياسية ذات تبعات ولم يتقدم جيشاً لقتال فيليب من بين تلك الجيوش التي عبّأتها قوة عارضته وذرابة لسانه. أما شيشرون فقد أُرسل إلى صقلية بمنصب كويستور، وأُرسل إلى كيليكيا وكبدوكيا بمنصب پروقنصل في زمن كان حبّ المال قد ملك على الناس مذاهبهم، والقادة والحكام الذين يعيّنون خارج البلاد ينهبون ويسلبون بالقوة الغاشمة مع أنهم يعتبرون السرقة جريمة. وبلغ الأمر حداً أن قبول الرشوة ما عاد يُعتبر معرّةً ومن يُقدِم عليها باعتدال وشيء من التعفّف يحظى بالتقدير والإعجاب. إلاّ أن شيشرون قدّم أعظم البراهين على احتقاره الغنى، وعلى أنه إنسان طيّب القلب عفّ الضمير في ذلك العصر. وفي روما عندما انتُخب قنصلاً، ولكنه أعطي فعلاً صلاحية الدكتاتور المطلق للقضاء على كاتيلينه ورفاقه المؤتمرين، حقق مقولة أفلاطون المأثورة:

«إن مِحَن الدول ونوائبها تأتي إلى نهايتها عندما يشاء الحظّ أن تجتمع السلطة العليا والعدل والحكمة في واحدٍ».

وقيل في لوم ديموستينس إن بلاغته استُخدمت للارتزاق، وإنه كتب سرّاً خطباً لفورميون Phormion وأپللودورس وهما خصمان في قضية واحدة. واتُّهم بقبول المال من ملك الفرس، وأنه أدين لأخذه رشوةً من هرپالوس. فلو سلّمنا جدلاً بكذب كل من روى عنه هذه الحكايات، وهم ليسوا بقلّةٍ، فإن ديموستينس مع هذا لم يكن متعففاً عن قبول الهدايا التي تُقدّم إليه عرفاناً بجميله أو تكريماً له من أشخاص ذوي مقام ملكيّ. ومن كان من مقرضي المال بالربا الفاحش لا يقدّم هذا الأمر من حقيقه الحكم عليه ولا يؤخّر. على أننا نعلم بأن شيشرون رفض عدة هدايا من الصقليين أيام كان كويستوراً. وأبى قبولها من ملك كبدوكيا عندما كان پروقنصل. وترفّع عنها من أصدقائه في روما عندما كان منفياً رغم الإلحاح الشديد. وقد أتينا إلى ذكر هذا في سيرته.

زد على ذلك أن نفي ديموستينس كان معرّةً، بسبب إدانته بجريمة الرشوة. أما نفي شيشرون فقد كان مشرّفاً له لأنه أنقذ بلاده من شرذمة أوغادٍ. فعندما هرب ديموستينس من بلاده لم يهتم أحد بالأمر. أما نفي شيشرون فقد حمل أعضاء مجلس الشيوخ على لبس الحِداد ورفضوا إصدار أي قانون قبل صدور قانون بإلغاء الحكم على شيشرون. ومهما يكن فقد قضى فترة نفيه في مقدونيا متعطلاً خاملاً. إلاّ أن نفي ديموستينس كان بحدّ ذاته جزءاً كبيراً من الخدمات التي قدّمها لوطنه. فقد راح يجوب مدن الإغريق طولاً وعرضاً وانضمّ إلى الإغريق وراح يطرد سفراء مقدونيا مبرهناً على أنه مواطن أفضل بكثير من تميستوكلس وألكيباديس عندما كانا يمرّان في مثل ظرفه هذا. وصمد

إلى الأخير في مقارعته أنتيپاطر والمقدونيين. في حين نجد ليليوس Laelius يؤنّب شيشرون في مجلس الشيوخ لجلوسه صامتاً عندما تقدّم الشاب الأمرد قيصر طالباً الإذن للتقدم إلى المنصب القنصلي خلافاً لأحكام القانون. واتّهمه برتوس في رسائله بأنه أدار ورعى أعظم وأشد طغيان من ذلك الذي أزالوه.

وأخيراً فإن مقتل شيشرون يثير في أنفسنا الشفقة والرثاء. شيخ هرِم يحمله خدّامه وهو بحالة يُرثى لها فيسيرون به جيئة وذهاباً، يهرب ويختبئ من موت هو في الواقع قريبٌ منه إن تقيّدنا بعامل السِنّ وحكم الطبيعة. مع هذا كله يُقتل.

ومع أن ديموستينس بدا في أول الأمر ذليلاً متوسّلاً إلاّ أن استعداده للموت واحتفاظه بالسمّ يستدعي منا الإعجاب. بل يزيد إعجابنا به استخدامه له عندما عجز هيكل الربّ الذي لاذ به عن حمايته فلجأ إلى مذبحٍ أعظم - إن جاز لنا القول - وحرّر نفسه من الجنود والسلاح هازئاً بقسوة (أنتيپاطر).

ديمتريوس
DEMETRIUS
(Poliorcetes)

٣٣٧-٢٨٣ ق.م

وجد العباقرة منذ زمن بعيد أن ثمّ تجاوباً بين المبادئ وحواس الجسم. واوّل منبّه لهم إلى ذلك، حسب اعتقادي، هو ملاحظتهم شكل اختبارنا للأضداد في مبادئنا وفي حواسنا، ما إن يتمّ التوصل إلى حكم معيّن عليها حتى يتقرر استخدامها بناء على قيدين: أولاً أن حواسنا لا تقرر انتقاء الأسود بدلاً من الأبيض، أو تفضيل الحلو على الحامض، أو الليّن والمطاوع على القاسي والمقاوم من الأشياء. كلّ ما على الحواس من وظيفة هي أن تتسلّم الانطباعات كما يحصل عادة وتنبئ العقل عن الانطباعات كما تسلّمتها. وثانياً أن المبادئ التي يبدعها العقل لانتخاب المناسب والحصول عليه، ورفض غير المناسب والتخلص منه، يكمن تأثيرها الحقيقي في اعتبار الأول من الأشياء على أن تهتمّ أيضاً بالثاني منه بشكل عرضي طارئ، لا لشيء إلاّ لمجرّد رفضها له. فلأجل أن يحفظ الطبُّ الصحةَ يجب أن يشخّص المرض. ولأجل أن يتولّد التوافق في اللحن الموسيقي يجب التحقق من وجود النشاز.

ولما كانت السجايا العليا الثلاث: الاعتدال والحكمة والعدل، أعمال اختيار وفروض، فإنها لا تمارَس فحسب على ما هو عادل صالح، بل على ما هو شرّير وغير عادل، وضالّ. وهي لا تُطري البراءة الصرفة (والسذاجة والجهل بما تجب معرفته هو الاسم الأقرب لها) لمجرّد أنها لا تجد ما تفخر به غير عدم تجربتها للشرّ. فقد اعتاد السپارطيون الأقدمون في أعيادهم أن يرغموا الهيلوت على شرب مقدار كبير من الخمر القُراح، ثم يعرضونهم على موائد شبّانهم العامة ليتفهموا معنى السكر وعواقبه. مع أني لا أرى ذلك يتفق مع المبادئ الإنسانية والعدالة: أن تُصلِحَ أخلاق امرئٍ بإفساد أخلاق الآخر، فإن لنا أن نتّعظ ونفيد من أولئك الذين أطلقوا العنان لطيشهم وتهوّرهم فجعلوا من أنفسهم وهم في أعلى مقامٍ مثلاً صارخاً من أمثلة سوء التطرف. ولن أكون راكباً متن الشطط إن قدّمت زوجاً أوَ زوجين من الأمثلة فلعلّها تروّح عن أنفس قرّائي، أو لعلّهم سيجدون فيها لحناً يختلف عن لحن المقام الأصلي الذي أنشده. إني لست

متاكداً من هذا على كل حال، ولكني أضع أمامي إسمينياس Ismenias الثيبي الذي اعتاد أن يشير إلى تلاميذه العازفين بالمزمار، المجيدين منهم والمسيئين، بقوله.

- ستعزفون مثل هذا.

أو

- ستعزفون مثل ذاك.

أو كما اعتاد أنتيغينيداس Antigenidas قوله:

«يكون الشبّان أكثر التذاذاً بسماع جيّد العزف إن أُسمعوا قبله عزفاً رديئاً».

وعلى ذلك يبدو لي أننا سنكون على أكثر الاحتمال أشدّ إقبالاً وحماسة للقراءة والملاحظة والاقتداء بخير السِّيَر، إن أحطنا علماً بالرديء منها، والأجدر بالنقد.

ولذلك فالكتاب التالي يتضمّن سيرتَي ديمتريوس پوليوركيتس Demetrius Poliocretes وأنطونيوس القنصل الثالث. وهما شخصان لا تصدُق في غيرهما عبارة كتلك التي قالها أفلاطون: «الطباع العظيمة تولد أعظم القبائح كما تولد أعظم الفضائل». فكلاهما كان شبِقاً للنساء، مُسرِفاً في تعاطي الخمر، مولَعاً بالحرب، جواداً سخياً، مِتلافاً مُترفاً، مستبدّاً عنيداً. وقد طابقت خطوطهما أخلاقهما، فحياتاهما كانتا سلسلة متصلة من الانتصارات العظيمة والانكسارات الكبيرة، من الأرباح الضخمة إلى الخسارات الموجعة، إلى السقوط الفجائي إلى النهوض غير المنتظر. وليس هذا وحده فقد تشابه موتهما. مات ديمتريوس وهو قيد الأسر الفعلي لدى أعدائه، ومات أنطوني وهو على وشك الوقوع أسيراً في يد أعدائه. ولد لأنتيغونس من زوجه ستراتونيكي Stratonice ابنة كورّيثوس Corrhoeus صبيّان. أُطلق على الأول منهما اسم عمّه ديمتريوس وأُعطي الثاني اسم جدّه فيليب. ومات فيليب وهو صغير. هذا أبسط التفصيل وأقصره. لكنّ بعضهم روى أن ديمتريوس لم يكن ابناً لأنتيغونس، بل لأخيه، وأن أباه توفي وهو صغير، فتزوّج أنتيغونس بأرملته فعدّ ابنَ أخيه ولداً له.

لم يكن ديمتريوس بطول أبيه العملاق، وإن كان يُعَدُّ من الطوال. إلاّ أن وجهه كان يتمتّع بوسامة فريدة في بابها، ويمتاز بتعابير وملامح أعجزت كلّ المصوّرين والنحّاتين عن محاكاتها أو الوصول إلى شبهٍ مقبول بها، كانت ملامحه تجمع بين القوة واللين، والرزانة، والبِشر الطفولي. وكانت ثمّ نظرة معيّنة تنمّ عن البطولة وملامح العظمة الملكية يشقّ نقلها تماماً. ولم تكن أخلاقه تكذب، فليس ثمّ من كان يدانيه في مقدرته على إشاعة حبّه والرهبة منه. وكان ألطف الندماء وأرقّهم حاشيةً وأكثر الأمراء ظرفاً وبذخاً في مجالس الخمر والمآدب اليومية. ولم يكن يدانيه أحد في القتال جلداً

وصبراً وحميّةً وإقداماً. وكان يبدو أن باخوس قُدوته. فهذا الربّ الذي حذق فنّ الحرب أتقن صناعةَ السلام في مسرّاته وأفراحه بعد الحرب.

كان شديد الحبّ والتعلّق بأبيه أنتيغونس. ويدلّ على حنانه ورفقه بأمّه الاهتمام المضاعف الذي كان يخصّها به مما يوضح أن ذلك لم يكن بدافع الواجب أو الخوف بل الميل المجرّد وهو أقوى من دافع الواجب بكثير. رُوي أنه عاد من الصيد مرّة فدخل على جناح والده رأساً وكان يتحدّث إلى بعض السفراء، فارتقى الدرج إليه وقبّله، وجلس إلى جانب ممسكاً بجرابه كما جاء. وصرف أنتيغونس السفراء بعد أن قضى حاجتهم وفيما هم خارجون ناداهم بصوت عالٍ قائلاً:

- واذكروا أيضاً أنّ هذه هي طريقة حياتنا نحن الاثنين معاً.

كأنما يريد أن يلمّح لهم بأن علاقته مع ابنه ليست بالدليل البسيط على قوة حُكمه واستقراره، وأن وجود هذا الانسجام والتفاهم بينهما مما يعزّز هذا السلطان. إنّ السلطة شيء مُوحش انطوائي فيها قدر عظيم من الحسد والريبة والتوجّس. ولقد جعل أول وأعظم خلفٍ للإسكندر من عدم خوفه من ابنه سجيّةً تستحقّ الإعجاب والإكبار. ولم يحكم بيت من بين كل خلفاء الإسكندر كبيت أنتيغونس الذي خلص وحده من مثل هذه الجرائم أجيالاً عديدة. ولنأتِ بالتفاصيل. كان فيليب الوحيد من هذه الأسرة الذي قتل ولده. في حين قدّمت كل الأُسر الأخرى أمثالاً كثيرة عن آباء يفتكون بأبنائهم، وأزواج يقضون على نسائهم، وأولاد يقتلون أمهاتهم، أمّا فتك الإخوة بالإخوة فهو من قبيل المسلّمات الحسابية شائع مقبول، لكونه أول ضمانٍ لسلامة الملك.

ولنذكر هنا مثلاً مقتبساً من مطلع حياة ديمتريوس يوضح عطفه الإنساني، وهو حادث وقع له مع ميثريدات ابن أريوبارزانس وهو في مثل سِنّه يشاطره العيش منضمّاً إلى حاشية الملك. لم تشب سلوك الفتى شائبة، ولم يصدر منه ما يستوجب التوجّس، إلاّ أنه مع هذا وقع تحت شك أنتيغونس بسبب حلم رآه: خيّل له أنه في حقل واسع مونق، زرع فيه بذوراً ذهبية اخرجت شطأها حالاً. وما هي إلا لحظة حتى اختفى القمح ولم يرَ غير الجُذامة. وفيما هو واقف وقد علاه الغضب والحنق سمع أصواتاً تقول: «ميثريدات حصد القمح الذهبي وحمله إلى البونطس». فقلق الملك لهذا الحكم، وربط ابنه بقسم على عدم إفشاء السرّ، ثم قصّ عليه ما رأى. وأضاف يقول إنه اعتزم الاستعجال في التخلّص من ميثريدات والقضاء عليه. فكان حزن ديمتريوس عظيماً. ولما جاء الفتى كعادته لتمضية بعض الوقت معه قرّر تحذيره ولئلا يحنث بقسمه لم يتفوّه بكلمة، إلاّ أنه سحبه شيئاً فشيئاً عن الجماعة حتى انفرد به فأمسك برمحه وخط

بسنانه أمامه كلمتي «ميثريدات! اهرب!» ولم يفتح فمه. فأدرك الفتى الإشارة وهرب إلى كبدوكيا ليلاً، وسرعان ما تحقق حلم أنتيغونس عنه فقد استولى ميثريدات على أراضٍ واسعة خصبة وخرج منه خطّ ملوك البونطس الذي خضع جيله الثامن للرومان. يصلح هذا مثلاً لطيبة قلب ديمتريوس وحبه العدل، وهما جزء من طبعه.

ويخبرنا أمبدوكلس Empedocles إنما تخرج المنازعات والحروب من عاطفتي الحب والبغض كما هي سُنّة الكون في عناصر الطبيعة. ولاسيما إن كان التماسّ أقرب. والنزاع الطويل الأمد بين خلفاء الإسكندر إنما تأجّجت ناره وتفاقم أمره في مناسبات خاصة بتعارض المصالح ومجاورة الحدود، كما هي الحال في نزاع أنتيغونس وبطليموس. فقد وردت أنباء لأنتيغونس تشير بأن بطليموس عبر البحر من قبرص وغزا سورية وأنه يجتاحها ويعيث فيها سلباً ويُخضع مدنها لطاعته. فأرسل ديمتريوس وكان له من العمر إذ ذاك اثنان وعشرون عاماً ليكون ذلك أول اختبار له كقائدٍ مطلق الصلاحية في معركة كبيرة. أما هو فمكث في فريجيا. ولم يُجدِ اندفاعُ الشباب أمام التجربة والمِران. فقد زحف على خصم تلقى تدريبه في مدرسة الإسكندر وعجم عوده مختلف الوقائع والمعارك. وأصيب ديمتريوس بهزيمة نكراء بالقرب من غزّة وأُسِر من جيشه ثمانية الآف وخسر خمسة آلاف قتيل. ووقعت خيمته وأمواله أيضاً وكل مقتناه الخاص وأثاثه غنيمة في أيدي العدو. على أن بطليموس أعاد هذه المنهوبات مع الأسرى من أصدقائه وحمّلهم رسالة مهذّبة رقيقة قال فيها إنهم لا يحاربون إلاّ وراء المجد والشرف. وقبل ديمتريوس الهدية وأنشأ يضرع للآلهة بألا تبقيه مديناً لبطليموس وأن تمنحه الفرصة السريعة ليردّ له الجميل. واحتمل نكبته بصبر وجلد كقائد عتيق كثير التجارب خبير بتقلّبات الحظّ لا كصبيّ غُلب على أمره في محاولة له. وانهمك في جمع فلول جيشه وملأ مستودعاته بالذخيرة، واهتمّ بولاء المدن له، وعكف على تدريب جنوده المستجدين.

وبلغت أنتيغونس أنباء المعركة، فقال إن بطليموس إنما هَزم صِبْيةً وعليه الآن مواجهة الرجال. إلاّ أنه لم يشأ كسر معنويات ابنه ولم يُخِب رجاءه فترك له القيادة في النزال التالي.

ولم يمضِ على هذا طويل زمنٍ بعد أن تسلّم كيلليس Cilles نائب بطليموس قيادة جيش جرّار، وكان ينظر إلى ديمتريوس بوصفه خصماً مغلوباً في معركة سابقة. ولهذا صوَّر خيالُه أنه سيفرّ من سورية هارباً قبل أن تتاح له رؤيته. لكنه سرعان ما وجد نفسه مخطئاً فقد انحدر إليه ديمتريوس من حيث لا يتوقّعه وباغته وباغت جيشه فأسره مع

سبعة آلاف من جنوده، وغنِم أكداساً عظيمة من الأسلاب والأموال. ولم يكن فرحه بالنصر بسبب الغنائم التي سيحتفظ بها قدر ما كان فرحه بسبب الغنائم التي سيعيدها. وكان شكرهُ للمجد والثروة التي حازها أقلّ لها بالذات من الفرصة التي أتاحتها له ليفي بها كرم عدوّه. إلاّ أنه لم يستأثر بقراره وإنما كتب إلى أبيه، فأذِن له بأن يعمل ما يشاء. فبادر بإعادة كيلليس إلى بطليموس مع أعوانه محمّلين بالهدايا. كان من نتائج هذه الهزيمة أن جلا بطليموس عن سورية وجاءت بأنتيغونس من كلاينوي Celaenoe لجني ثمار النصر ولرؤية الابن الذي كسبها.

بعد هذا مباشرة أرسل ديمتريوس لإخضاع العرب النبطيين. وهناك دخل منطقة قاحلة لا ماء فيها فأحدق به خطر عظيم. إلاّ أنه أذهل البرابرة بعزمه وثباته، وعاد بعد أن غنِم منهم الكثير، ومن بين أسلابه سبعمائة جملٍ.

كان أنتيغونس قبل زمن قد طرد سلوقوس من بابل إلاّ أن هذا استعاد ملكه بمجهوده وثبّت قواعد حكمه. وخرج بعدها بقوات جرّارة لإخضاع القبائل المتاخمة للهند والأقاليم المجاورة لبلاد القفقاس. فخيّل لديمتريوس أنه ترك بلاد ما بين النهرين وليس فيها الحماية الكافية، فأسرع يعبر الفرات بجيشه متجهاً نحو بابل دون أن يتوقعه أحدٌ وأفلح في احتلال إحدى قلعتيها وطرد منها حامية سلوقوس ووضع فيها سبعة الآف من جنوده. وبعد أن سمح لجنود بالإفادة من غنى البلاد، وحملهم ما وسعهم حمْله من الغنائم، انسحب نحو البحر تاركاً سلوقوس الذي بات الآن أمنع جانباً، وأكثر أمناً في ملكه مما كان بالأول إذ بدا ديمتريوس بانسحابه وكأنه يتنازل عن كل ادّعاء له في بلادٍ عاملها معاملة عدوّ. على أن سرعة حركته الانسحابية أنقذت هليقارناسوس من يد بطليموس الذي كان يحاصرها. إن المجد الذي ناله الأب والابن من هذا العمل أولد فيهما رغبة عجيبة لتحرير بلاد الإغريق التي أوصلها كساندر وبطليموس إلى العبودية. هذه الحرب لم تضاهِها أية حرب أخرى أوقدها أيّ ملك من الملوك بنُبل مقصدها وعدالة غاياتها. فالثروات التي غنماها من إخضاع البرابرة بمساندة الإغريق أنفقاها على بلادهما التي تمّ تحريرها ابتغاءً للشهرة والسمعة الحميدة ليس إلاّ. وفي أثناء القرار لبدء المحاولة أشار أحد أصدقاء أنتيغونس بأنه في حالة استيلائهم على أثينا فيجب الاحتفاظ بها فهي مفتاح بلاد الإغريق، فمن هذا الممرّ يمكنهم النزول من السفن ودخول البلاد وقتما شاؤوا. إلاّ أن أنتيغونس لم يأخذ بهذه النصيحة. إذ لم يكن ليريد ممراً أضمن وأقوى من حسن نيّة الأهالي فمن أثينا منارة العالم ستنتشر أنباء معاملتهم هذه بسرعة، فلا يعود يجهلها أحد. وعلى هذا الأساس أبحر ديمتريوس إلى أثينا بأسطول يتألف من

مائتين وخمسين سفينة ومبلغ من المال قدره خمسة آلاف تالنت. وكان ديمتريوس الفاليري يحكم المدينة باسم كسّاندر على رأس حامية معسكرة في ميناء مونيخيا. وببراعة منه واكبها حُسن الحظ ظهرت طلائعه أمام پيريوس في السادس والعشرين من شهر ثارجيليون Thargelion قبل أن يسمع أحدٌ عنه شيئاً. في الواقع توهّم الناس لأول وهلة أنها سفن بطليموس وبدأت الاستعدادات لاستقبالها. ولما اكتشف القادة خطأهم بالأخير أسرعوا إلى الداخل وعمّت الفوضى واختلط الحابل بالنابل، وشرعوا يحاولون التأهّب لمواجهة القوات الغازية. وجد ديمتريوس مداخل الميناء من دون دفاع فنفذ إلى الداخل فوراً. ولما اكتُشفت هويّته كان قد تمركز في الميناء آمناً أمام أعين الجميع. وأصدرت سفينة إشارات توضح عن رغبته في مقابلة سلام فسُمح له بذلك، فأمر منادياً ذا صوت جهوري بأن يعلن أن مجيئه إلى هنا كان بأمرٍ من أبيه. ولا غرض له إلاّ دعوته إلى الآلهة بتحقيق أمنيته وهي إعادة الحرية للأثنيين وطرد الحامية المقدونية، وممارسة شرائعهم ودستور بلادهم القديم.

وما إن سمع الناس هذا حتى ألقوا بتروسهم أرضاً وأخذوا يصفّقون وطلبوا منه بهتافات داوية أن ينزل إلى البرّ. ونادوه بالمنقذ وبحامي الحمى. وأُسقط في يد الفاليري وأتباعه ولم يسعهم إلاّ استقبال الغازي أصادقاً كان في وعده أم كاذباً. وأرسلوا وفداً يرجون منه بسط حمايته عليهم. فأحسن ديمتريوس استقبالهم وأعادهم برفقة أريستيديموس المليطي Aristodemus أحد أصحاب أبيه. وبات الفاليري يخشى أبناء وطنه أكثر من خشيته العدوّ بعد أن تغيّرت يد الحاكم. إلاّ أن ديمتريوس منحه الحماية. واحتراما لفضائله وسُمعته بعث به إلى ثيبة مزوّداً بكتاب أمان على أن يكون له الخيار في الذهاب منها إلى حيث يشاء. وصرّح بأن قدمه لن تطأ أرض مدينة أثينا رغم شوقه ولهفته حتى يتمّ طرد الحامية المقدونية منها ويتمّ تحريرها. ثم قطع كل صلة بقلعة مونيخيا بخندق وتحكيمات. وأبحر لمهاجمة ميغارا حيث يوجد ثمّ حامية لكسّاندر أيضاً. ولما علم بأن كراتيسيپوبس Cratesipobis زوج إسكندر ابن پولسپريخون التي اشتهرت بجمالها شديدة الشوق لرؤيته تخلّف عن جنوده قرب ميغارا وانطلق بشرذمة من الأتباع ذوي السلاح الخفيف إلى پطرا Patrae محل سكناها. وترك أتباعه هؤلاء وضرب خيمته منفرداً بعيداً عن أعين الرقباء لتقوم المرأة بزيارته من غير أن تقع عليها عين. وعلم بعض الأعداء بمكانه فهاجموه فاضطرّ إلى التنكر بمعطف رثّ والنجاة بجلده، ولم يكن بينه وبين عار الأسر إلاّ خطوة؛ كلها بسبب عاطفته الهوجاء وبطبيعة الحال سُلبت منه خيمته وأمواله.

واستسلمت ميغارا، وكاد الجنود يقومون بنهبها لولا تدخّل الأثينيين الآني. وتمّ طرد الحامية واستعادت المدينة حريتها. ولم يمنعه انشغاله من تذكّر ستيپلو Stiplo الفيلسوف الذي اشتهر بإيثاره حياة العزلة وكان يعيش في هذه المدينة. فبعث بطلبه وسأله هل اغتصب منه أحدٌ شيئاً؟ فأجاب:

- كلا، لم ألق أي إنسان يستلب المعرفة.

خلت المدينة من الخدم تقريباً فقد تسلل معظمهم من المدينة وفرّ. ولما جدد ديمتريوس ترحيبه بستيپلو واستأذن هذا، قال:

- إني يا ستيپلو أترك مدينتكم هذه وهي مدينة للأحرار.

فأجاب ستيپلو:

- بالتاكيد. إذ لم يعد بين ظهرانينا خادم واحدٌ.

وعاد من ميغارا ليشدّد الحصار على مونيخيا. ولم تمرّ أيامٌ حتى فتحها بهجوم صاعق. وأمر بهدم أسوارها وتحصيناتها. وبهذا حقق أمنيته. ودخل الأحياء العليا من أثينا بناء على دعوة الأهالي الملحّة. وهناك استقدم المواطنين جميعاً وأعلن لهم العودة إلى تطبيق دستورهم القديم وبشّرهم بأنهم سيتسلّمون من أبيه مائة وخمسين ألف مكيال من القمح ومقداراً من الأخشاب يكفي لبناء مائة سفينة، وهي هدية منه إليهم. وهكذا أعاد أنتيغونس إلى الأثينيين نظام حكمهم الديمقراطي بعد خمس عشرة سنة أي منذ حرب لاميا ومعركة كرانون. خلال هذه الفترة كانت السلطة اسمياً تمارس أوليغارشياً، أما فعلياً فكان يُهيمن عليها رجل واحدٌ هو ديمتريوس الفاليري الذي عُرف بجبروته.

إلاّ أن التكريم الذي أغرق الأثينيون ديمتريوس به أثار استياءً واشمئزازاً. كانوا أول من خلع على أنتيغونس وديمتريوس لقب الملك. وقد بقيا إلى ذلك الحين يجعلان من رفضهما التاج دليلاً على زهدهما وتواضعهما فهو الشرف الوحيد الذي ظلّ موقوفَ على نسل فيليب والإسكندر لا يشاركهما فيه أحدٌ. وخلع الأثينيون عليهما لقبين آخرين هما «المخلّصان» و«الربّان الحارسان». وتثبيتاً لهذا التزلّف صوّتوا على قرارٍ يقضي بتغيير تقويم المدينة. وأُبطل حساب السنين، اعتباراً من الأرخون الحولي. وأعطي هذا الشرف لكاهن «الربّين الحارسين» الذي يتمّ اختياره سنوياً، فتحمل كل المعاملات الرسمية والوثائق والمستندات تاريخه وتُذيّل باسمه. وقرّروا أيضاً نسج صورتي الأب والابن مع زمرة الآلهة في نقوش الرداء الأعظم. وقد سوّوا البقعة التي كانت أول ما وطئ ديمتريوس عند نزوله من عجلته. وبنوا هيكلاً فوقها باسم «هيكل نسل ديمتريوس». واستحدثوا قبيلتين جديدتين أسموهما «أنتيغونيد» و«ديمترياد» تيمّناً

باسميهما. واختاروا لمجلس الشورى الذي يضمّ خمسمائة عضو خمسين عضواً لكلّ من القبيلتين الجديدتين فأصبح أعضاؤه ستمائة. الا أن أكثر الاقتراحات نزقاً هو ذلك الذي تقدّم به ستراتوكليس Stratocles أمام المخترعين لهذه الأساليب العجيبة المنتقاة من التكريم. فقد اقترح أن يُمنح أعضاء أيّ وفد ترسله المدينة إلى أحدهما عينَ اللقب الذي يُخلع على الوفود المرسلة إلى دلفي أو أولمبيا لتقديم القرابين الرسمية نيابة عن الحكومات بمناسبة الأعياد الإغريقية الكبرى.

ستراتوكليس هذا، كان شخصاً خليع العِذار، متهتكاً لا خير فيه من أية ناحية نظرت إليه. وكان يبدو وقد جعل همّه أن تستجلب له رقاعته وصفاقته محبّة الجمهور المأثورة لكليون Cleon. قدّمت له محظيّته فيلاكيون يوماً صحفة فيها مخّ ولحم رقبة لعشائه فقال:

- آه إذن فأنا سأتعشى من الأشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة!

ومرة أخرى عندما مُني الأثينيون بهزيمتهم البحرية قرب أمورغوس Amorgos أسرع إلى منزله قبل وصول النبأ إلى المدينة، وضفر على رأسه إكليلاً، وأقبل راكباً إلى الجيراميكوس Ceramicus معلناً أنهم نالوا نصراً، واقترح أن يصوّتوا على قرار بإقامة عيد شكر للآلهة وتوزيع اللحم على الأهلين حسب القبائل. وعقب هذا مباشرة وصلت فلول المعركة مع حطامها. فاستنكر الناس عمله هذا فما كان منه إلاّ أن خرج إليهم بصفاقة وجهه العجيبة متسائلاً:

- أيّ ضرر يتأتّى من استمتاعكم بيومي فرح وبهجة؟

هكذا كان ستراتوكليس. ومما زاد في الطين بلّة، كما يقول أرسطوفانس، أنه وجِد من فاق ستراتوكليس تفاهة باقتراحه إصدار مرسوم كالآتي:

«كلّما شرّف ديمتريوس المدينة بزيارة فعليهم أن يقيموا له من الأفراح والمهرجانات ما اعتادوا إقامته لكل من الربّين سيرس Ceres وباخوس. ومن فاق غيره في البذخ والإنفاق على استقباله يُدفع له من بيت المال مبلغ ليعمل به تقدمات مقدسة».

ثم غيّروا اسم الشهر المعروف بـ«مونيخيون» وجعلوه «ديمتريون» كما أسموا اليوم المنفرد الواقع بين نهاية الشهر القديم وبداية الشهر الجديد بنفس الاسم. وغيّروا عيد باخوس المسمّى «ديونيسيا» إلى «ديمتريا» أي عيد ديمتريوس. كل هذا التغيير كان موضع استياء الأرباب، فالرداء المقدّس الذي نُسجت فيه صورتا أنتيغونس وديمتريوس إلى جنب صورتي جوبتر ومينرفا تعرّض لريح شديدة أثناء ما كان محمولاً في الموكب

المارّ خلال الجيراميكوس، فانشقّ من الأعلى إلى الأسفل. ونبت الشوكران، وهو نبات نادر، في كل مكان حتى في خلوات الريف بكميات كبيرة جداً، ونما واستطال حول الهياكل التي شُيّدت للربين الجديدين. وألغوا المواكب الدينية في يوم عيد باخوس، لنزول صقيع عنيف قاسٍ غير متوقع قتل الكروم وأشجار التين ودمّر غلّة القمح وهو في سنابله. فما كان من فيليپيدس Philippides خصم ستراتوكليس إلاّ أن هجاه في كوميدياه بالأبيات التالية:

«لمن أُرسل الصقيع الذي قتل كرومكم؟
ولآثام مَن انشقّ الرداء المقدّس؟
مَن منحَ البشرَ التكريمَ الذي لا يُمنح لغير الأرباب؟
إنه الآن عدوّ الشعب. وليس المرسح المسكين!».

كان فيليپيدس أخلص أصدقاء ليسيماخوس الملك الذي شمل الأثينيين بمختلف ألوان العطف إكراماً لصديقه هذا. لقد بلغت محبّة ليسيماخوس به حدّاً أنه كان يرى من قبيل الفأل الحسن لقاء فيليپيدس قبل قيامه بحملة عسكرية أو مباشرته مشروعاً. على العموم كان الرجل محترماً لأخلاقه ولبساطةٍ فيه وعدم فضول ولبعده عن شمائل البلاط الملكي من اعتداد بالنفس والتوسّط لقضاء الحاجات. ومرّة عندما أخذ ليسيماخوس يلحّ عليه بتسمية هدية يقدّمها له إظهاراً لمحبّته، أجاب:

- أي شيء تريد، خلا أسرار دولتك.

إن هذا الممثل المسرحي يستأهل على ما أعتقد موضعاً من حديثنا قدر ما يستأهله الخطيب الجماهيري.

إلاّ أن الحماقة التي فاقت كل حماقات التملّق والزلفى السابقة هي اقتراح تقدّم به دروموكليدس Dromoclides السفيتي Sphettus الذي أوصى الجمعية أثناء مناقشتها حول الطلب من عرّافة دلفي أن ترشدهم إلى أقوم السبل لتكريس بعض الدروع، بأن يطلبوا النبوءة بالأحرى من ديمتريوس! وها إني أثبت صيغة الاقتراح حرفياً كما ورد في النص المقرّر:

«ليكن خيراً وسعداً. إن أهل أثينا رسموا بأن يُختار شخص لائق من بين المواطنين الأثينيين، يكون مندوباً عنهم ويرسل إلى «المخلّص». وبعد أن يقدّم القربان كما يجب، ليستفسر من «المخلّص» بأي شكل ديني صحيح قويم يسرّه أن يرتئي في أقرب وقت ممكن تكريس الدروع؟ وسيعمل أهل أثينا بحسب الجواب».

بهذه الرقاعة أكملوا إفساد عقلٍ لم يكن قبلاً من السلامة والمناعة كما ينبغي أن يكونه.

وتزوّج ديمتريوس في فترة الهدوء والتعطّل بيوريدكي Eurydice وهي من نسل ميلتيادس الغابر. وكانت قبله زوج أوفيلتاس Opheltas حاكم كيرين Cyrene ولما توفّي عنها عادت إلى أثينا. وقد عَدّ الأثينيون هذا الزواج تقديراً لهم وتشريفاً للمدينة. إلاّ أن ديمتريوس لم يكن يتقيّد في مثل هذه الأمور بأيّ مبدأ فقد جمع عدّة زوجات في وقتٍ واحدٍ. إلاّ أن فيلا Phila بنت أنتيپاطر وزوج كرايتروس، الرجل الوحيد بين كل خلفاء الإسكندر الذي ترك في قلوب المقدونيين أعمق مشاعر الحبّ، ظلّت تحتفظ بالمقام الأول بين زوجاته. ولقد أرغمه أبوه على البناء بها بصرف النظر عن فارق العمر للأسباب التي ذكرناها. فقد كان ديمتريوس صبياً يافعاً وهي أكبر منه بكثير، ولذلك أبدى بعض التمنّع، فأسرّ أنتيغونس في أذنه مقطعاً من قصيدة ليورپيدس، مستبدلاً كلمة «يفيد» بكلمة «يتزوّج»:

«طبيعياً كان أم غيرَ طبيعي، على المرء أن «يتزوج» ما دام كان في ذلك نفع».

ومع هذا فإن الاحترام الذي يكنّه لفيلا أو غيرها مهما بلغ لم يكن يمنعه من معاشرة المحظيات وبنات الهوى، لينال في هذا المجال أسوأ سُمعةٍ نالها أمير معاصر.

أرسل أبوه يأمره بالتوجّه لقتال بطليموس في قبرص ولم يكن له بد من الامتثال لأمره فترك بلاد اليونان آسفاً. إلاّ أنه أتى وهو في طريقه بعمل أكثر نبلاً ومجداً فقد بعث إلى كليونيدس Cleonides قائد بطليموس المشرف على حاميتَي سيكيون وكورنث يعرض عليه مالاً، لقاء خروج الحاميتين من تلكما المدينتين. فلما رفض أقلع إلى قبرص فوراً بقوّات إضافية وانقضّ على مينيلاوس شقيق بطليموس وهزمه. فأقبل بطليموس بنفسه يقود قوات برية وبحرية متفوّقة ولم يتعرّض أحدهما للآخر وقتاً طويلاً خلا أنهما كانا يتبادلان التحدّيات والتهديدات، والاعتزاز بالقوة. فقد نصح بطليموس ديمتريوس بالانسحاب قبل أن تصل كل قواته إن كان يهمّه أن لا يداس تحت الأقدام! وعرض ديمتريوس على بطليموس أن ينسحب بأمان إن وافق على سحب حاميته من سيكيون وكورنث. وكان جميع الأمراء والملوك المعاصرين يتطلعون في الواقع إلى نتيجة هذا النزاع المجهول بلهفة وترقّب إذ من الواضح أن غنيمة الغالب لن تكون قاصرة على قبرص أو على سورية، بل هي السيادة الملطقة.

كان مع بطليموس مائة وخمسون بارجة، أمر مينيلاوس بالخروج بها من ميناء

سلاميس، والمعركة في أوج احتدامها، والهجوم بستين منها على مؤخرة ديمتريوس. فعمد هذا إلى الحيلولة دون خروجها من الميناء بسدّ مدخل الميناء الضيّق بوضع عشرة من بوارجه في فم المدخل. ثم نظم قواته البرية في صفوف المعركة ونشرها على طول الأرض الداخلة في البحر، وتعرّض للعدوّ بمائة وثمانين بارجة. وكان هجومه عنيفاً كاسحاً حقق به الغلبة على بطليموس وهزمه هزيمة ساحقة، فهرب هذا بكلّ ما تبقّى من أسطوله وكان ثماني سفن لا غير. وتمّ أسر سبعين سفينة مع رجالها وغرق الباقي في المعركة، وسقط في يد ديمتريوس أعداد هائلة من الخدم والأتباع والأسلحة والأموال وآلات الحرب. جُمِعت كلها وجيء بها إلى المعسكر. وكان من بين الأسرى لاميا Lamia التي ذاع صيتها في نفخها بالمزمار ونجمها كمحظيّة. لقد عملت بديمتريوس ما يشبه السحر مع أن جمالها الفتيّ كان في أفول، ومع أنه كان يصغرها بكثير. وبلغ به التعلّق بها حتى بدا «وكأن كل النساء عاشقات ديمتريوس، وهو لا يعشق غير لاميا».

بعد هذا النصر الحاسم زحف على سلاميس ولم يكن مينيلاوس في وضع يمكنه من المقاومة فاستسلم هو نفسه مع كل أسطوله، وألفٍ ومائة من الخيّالة واثني عشر ألفاً من الرجالة مع المدينة. ومما زاد في نصره جلالاً ومجداً هو معاملته الإنسانية الكريمة للمغلوبين فبعد أن شيّع القتلى إلى مثواهم بمظاهر التكريم منح الحرية للأحياء. ولم ينس الأثينيين وأرسل إليهم من العدة والسلاح ما يكفي لتسليح ألفٍ ومائتي رجل تسليحاً كاملاً، هديةً دون مقابل.

وأرسل أريسطوديموس المليطي أبرع المتزلّفين في البلاط لينهي هذه الأنباء السعيدة إلى أنتيغونس. وعزم الرسول - على ما يتراءى - أن يجعل الترحيب به فخماً عظيم الوقع. فعندما اقتربت سفينته من البرّ أوصى بأن تُلقى المراسي بعيداً عن الساحل وأمر ببقاء نوتية السفينة فيها ومنعهم من النزول، ثم استقل زورقاً واتجه وحده إلى الساحل قاصداً الملك.

كان أنتيغونس بلا ريب قلقاً متوتّر الأعصاب تتناهبه تلك الهواجس التي تعتري عادة كل من اضطلع بكفاحٍ مجهول النتائج، محفوف بالمخاطر الجسام. وقيل له إن أريسطوديموس مقبل إليه بمفرده، فزاد هذا من اضطرابه. ولم يمسك نفسه عن الخروج إلى لقائه إلاّ بشقّ الأنفس، وطفق يرسل الرسول تلو الرسول، والصديق في إثر الصديق، لاستطلاع الأنباء. إلاّ أن أريسطوديموس ظلّ يسير على هونه بوقارٍ ورزانة لا يُفصح وجهه عن شيء، ولا يردّ على الأسئلة الموجّهة إليه، وإنما يظل سائراً بهدوء. فلم يطق أنتيغونس صبراً ونهض لاستقباله في المداخل فرآه مقبلاً يتبعه خلق كثير وكلهم

قلق، يهرولون خلفه. ولما صار على قيد سمع أنتيغونس بسط يديه وهتف بصوت عالٍ:

- تحيّة إليك أيها الملك أنتيغونس! لقد هزمنا بطليموس بحراً واستولينا على قبرص وأخذنا ستة عشر ألفاً وثمانمائة أسير. فردّ عليه أنتيغونس:

- مرحباً بقدومك يا أريسطوديموس. لقد اخترت أن تعذّبنا مدة طويلة ونحن بانتظار أنبائك السعيدة، ولذلك عليك أن تنتظر أيضاً وقتاً مليّاً، لمكافأتك!

وعندها أسرع الجمهور المحتشد فنادى بأنتيغونس وديمتريوس ملكين لأول مرة ووضع أصحابهما التاج على مفرق أنتيغونس، وأرسل هو تاجاً لابنه مع رسالة يخاطبه فيها بلقب ديمتريوس الملك. ولما وصلت الأنباء إلى مصر بادر أصدقاء بطليموس إلى المناداة به ملكاً أيضاً تبديداً لآثار الهزيمة الأخيرة وعلى سبيل المقابلة. فأسرع بقية خلفاء الإسكندر يحذون حذوهم ولبس ليسيماخوس التاج، وسلوقوس، الذي كان البرابرة يتوجهون إليه بهذا الاسم من قبل، أخذ الآن يستخدمه في المناسبات الرسمية محتذياً حذو الإغريق. وظلّ كسّاندر يكتب عنوانه الاعتيادي في رسائله، إلاّ أن الناس منحوه اللقب الملكي في مخاطباتهم ورسائلهم. والقضية بعد هي ليست قضية إضافة صفة أو إدخال بدعة جديدة لا غير، فمشاعر البشر المعبّرة عن أنفسهم هي التي تتمخّض، وتشتدّ أحاسيسهم رفاهةً وتتسلل روح العظمة والغطرسة في أحاديثهم وحياتهم فتتغيّر كما يتغيّر الممثّل التراجيدي على المرسح بمجرّد تغيير ثوبه، وإذ ذاك يسري التغيير على خطواته وصوته، وجلسته وأسلوبه في مخاطبة زميله الممثل الآخر. كذلك الحال بهؤلاء فبعد أن ينضوا عنهم ذلك الثوب المتواضع الذين كانوا يخفون تحته سطوتهم وجبروتهم تمويهاً، تزداد عقوباتهم عنفاً، وكأنّ الزيّ كان يجعلهم أرقّ وأرأف برعاياهم.

إن صوت متزلّف واحد قد يقلب الدنيا رأساً على عقب.

انتشى أنتيغونس بنصر قواته في قبرص منتهى النشوة. واعتزم أن يستغلّ حظه فيقود جيشه شخصياً ضد بطليموس براً، في حين يسانده ديمتريوس من جهة البحر بأسطول عظيم. لقد عُرفت النتيجة من حلم رآه ميديوس Medius صديق أنتيغونس. فقد رأى أنتيغونس وكلٍّ جيشه يهرولان وكأنهما في سباق، وقد أبدى صديقه في الشوط الأول قوة وسرعة عظيمتين ثم أخذت خطواته تتثاقل بالتدريج حتى تخلّف عن الركب لاهثاً مبهور الأنفاس يجرّ قدميه كلاً وإعياءً.

واعترضت أنتيغونس مصاعب كبيرة في البرّ. وهبّت عاصفة شديدة على ديمتريوس

في البحر، دفعته إلى ساحلٍ خطرٍ غير صالح للرسو، وأفقدته عدداً كبيراً من سفنه. وهكذا عادت الحملة دون أن تحقق شيئاً. وكان أنتيغونس قد شارف على الثمانين ولم يعد قادراً على تحمّل مشاق الحروب البرية ومسيراتها الطويلة ولعلّ ذلك متأتٍّ من ضخامته لا من ضعف قوته. مهما يكن فقد سلّم شؤون الملك إلى ابنه، وكان يبدو أن حظوظه وخبراته كافية للنهوض بأعباء الحكم ولم يكن ترفه وفجوره وإسرافه بالحائل دون قيامه بما أوكله اليه. ففي وقت السِّلم كان يسرّي عن نفسه بالملذات وينغمس فيها حتى يجاوز كل الحدود دون أن يتعفّف عن شيء. أما في زمن الحرب فتجده رائقاً صاحياً، رزيناً إلى أبعد الحدود. ويحكى عنه أنه بعد أن بسطت عليه لاميا سلطانها بشكل لم يعد سِرّاً عاد إلى بلاده، وما إن رأى أبيه الشيخ حتى ارتمى عليه وأخذ يقبّله بحرارة غير اعتيادية. فقال أبوه متعجباً:

- ماذا؟ ألعلّك حسبتني لاميا.

ومرّة بعد أيام متواصلة من اللهو وتعاطي الخمر اعتذر لغيابه بقوله إنه كان يشكو إسهالاً شديداً. فقال أبوه:

- هذا ما بلغني. أكانت من أثر الخمر التاسيّة Thasian أم من الخمر الخيانية Chain؟

وأنبئ أنتيغونس مرةً بأن ابنه مريض، فذهب ليعوده وقبل أن يلج الباب مرّت به فتاة جميلة جداً. فدخل وجلس قرب فراشه وجسّ نبضه. فقال ديمتريوس:

- الآن غادرتني الحمّى.

فردّ أنتيغونس فوراً:

- أي نعم، لقد لقيتها عند الباب خارجةً!

إن مآثر ديمتريوس العظيمة جعلت أباه يعامله بمثل هذا التساهل.

لقد كان الصيثيون في مجالس شرابهم يُرِنّون قِسيّهم، ليبقوا شجاعتهم يقظةً صاحية وسط الخيال والنشوة. إلاّ أن ديمتريوس كان يستسلم استسلاماً تاماً للملذات. ويهب نفسه للعمل الجدّي ولا يدع التفكير في احدهما يحول دون اطّلاب الآخر. وعندما يدعو داعي الحرب تراه يُظهر من المقدرة والحنكة ما لا يدانيه فيهما أحد. والواقع أن كفاءته تجلّت في التأهّب للحرب أكثر مما تجلّت في إدارة دفّتها. كان يرى وجوب التحوّط للمستقبل ويفكر بأنه لا يستطيع أن يؤمّن كلّ ما يحتاج إليه لكلّ مناسبة محتملة، ولم تكن لذّته تعرف حدّاً في إجراء اختبارات على تحسينات آلات الحصار والسفن. ولم يبدّد عبقريته ومواهبه في الميكانيكا على اختراع اللعب والمبتكرات

التافهة، كالتصوير والخراطة والنفخ بالمزمار، وهي من الهوايات التي ينشغل بها الملوك. فأيروپوس Aeropus ملك مقدونيا كان يقضي جُلّ أوقاته في صنع المناضد والمصابيح الصغيرة. وأتالوس فيلوميتور Attolus philometor كانت هوايته استخلاص السموم من نبات البنج Henbane، والخربق Hellebori والشوكران Hemlock والأكونيط Qconite و Doryenium. ويتولى استنبات كل هذه الحشائش في حدائقه الملكية ويجمع بنفسه ثمرها وطلعها وبزرها في مواسمها المخصوصة ويستحلب منها السّم. أما ملوك الفرس فكانوا شديدي الاعتزاز بشحذ وصقل أسِنّة رماحهم وسهامهم بأنفسهم. إلاّ أن ديمتريوس كان ملكاً بحقٍ من هذه الناحية فقد قام بدور الصانع الذي يأتي بأفخم وأروع الأشياء، فما ابتكره كان فيه طابع الأصالة والإبداع والغرض السامي. ولم يكن يقف عند حدّ تصميم مبتكراته ودفع الأموال لعملها بل كان يستخدم يده ويساهم بصنعها. أمور يرتجف الأصدقاء لعظمتها، ويسحر الأعداء بجمالها. وعبارتنا هذه ليست جميلة الوقع على السمع قدر ما هي صادقة الدلالة، والناس الذين كانوا سيلاقون الأمرّين من تلك الآلات لم يتمالكوا أنفسهم من الإسراع إلى رؤيتها بعين الدهشة: بوزاج ذات خمس أو ستّ طبقات من المجاذيف تمرّ بالسواحل فيأتي سكان المدن المحاصرة ويحتلّون أسوارهم ليشاهدوا «قانصات المدن» الشهيرة. حتى أن ليسيماخوس، ألدّ أعداء ديمتريوس من الملوك، لما قدِم لفكّ الحصار عن سولي Soli في كيليكيا، أرسل أولاً يطلب السماح له بمشاهدة سفن عدوّه وآلات حصاره. وبعد أن أشبع رغبته اعرب عن إعجابه بها وانصرف.

ورجا منه الرودسيون الذين عقدوا الصلح معه بعد حصار طويل أن يسمح لهم ببعض آلاته، ليحتفظوا بها على سبيل الذكرى، وتخليداً لقوّته ولمقاومتهم البطولية في الوقت نفسه.

نجم الخلاف بينه وبين الرودسيين بسبب حلفهم مع بطليموس. وفي الحصار الذي ألقاه عليهم ركز أكبر وأضخم آلاته مقابل أسوارهم. وهي عبارة عن قاعدة تامة التربيع طول ضلعها أربعة وعشرون كوبيتاً[1]، ويقلّ طول الضلع كلما ارتفعت الآلة إلى القمّة، وهي مقسّمة من الداخل إلى طوابق أو غرفٍ تملأ بالجنود، وفي كل طابق نوافذ وكوى بمواجهة العدو لرمي أنواع القذائف، ويحتلّ كل غرفة صنف من المقاتلين. وأعجب صفاتها أنها مع كبر حجمها لا تميل ولا تنقلب ولا تتوقف بل تجري على

---

(١) حوالي ٣٦ قدماً.

قاعدتها بتوازن تامّ وبضجّة عالية وقوة حركية عظيمة فتذهل عقول مشاهديها وتسحرهم.

وكان ديمتريوس مستمراً في حصاره عندما جيء إليه بدرعين حديديّين من قبرص، لا تزيد زِنَة الواحد منهما عن أربعين پاونداً. ورغب صانعهما زويلوس Zoilus امتحان درجة صلابتهما العالية وطلب أن يسدّد إلى أحدهما قذيفة منجنيق تُرمى من إحدى آلات الحصار من مسافة لا تزيد عن ستٍ وعشرين خطوة. وعندما جرى الاختبار وجد أن سنان القذيفة سقط على الدرع بكلّ دقة إلاّ أنه لم يخلّف غير خدش بسيط كالأثر الذي يخلّفه القلم أو المنقاش، فأخذه ديمتريوس لنفسه. وقدّم الثاني إلى ألكيموس Alcimus الإيپروتي Epirot أفضل عسكري بين ضباطه وأقواهم، وهو الوحيد الذي كان يلبس درعاً يبلغ ثقله تالنتين. وكان غيره يكتفي بدرع ثقله تالنت واحد. لقد هوى صريعاً في هذا الحصار أثناء معركة بالقرب من الملعب.

دافع أهل رودس دفاع الأبطال وباستماتة. ووجد ديمتريوس أنه لا يحقق تقدّماً ملحوظاً، ولم تكن مواصلته الحرب إلاّ بدافع من عاطفةٍ وعنادٍ! أو ربما بسبب ما أقدم عليه الرودسيون حين استولوا على سفينة له فيها ثياب وأثاث ورسائل من زوجه فيلا فأرسلوها كلها إلى عدوّه بطليموس. ولم يكن فعلهم نبيلاً كالأثينيين الذين ألقوا القبض على ساعٍ أرسله فيليب الملك وهو عدوّهم، ففضوا كلّ الرسائل التي كان يحملها إلاّ رسالة موجّهة إلى الملكة أولمبيا. فقد أعادوها بأختامها سليمة. فكان استفزازاً شديداً لديمتريوس. إلاّ أنه أبى أن يثأر عندما تمكنّ وأصبح انتصافه لنفسه داني القطوف: فقد كان پروتوگينس Protogenes الكاوني Caunian يرسم لهم صورة تمثل قصّة إياليسوس Ialysus، وبقي له الشيء القليل لإكمالها عندما وقعت في يد ديمتريوس في إحدى الضواحي. فأرسل الرودسيون إليه منادياً يرجونه الإبقاء على هذا الأثر الفني وعدم إتلافه فأجابهم إنه ليفضّل إحراق صورة أبيه على إتلاف هذه القطعة الفنية التي كلّفتهم كثيراً من الجهود. وقيل إن الفنان أنفق سبع سنين من عمره في رسمها، ويروون لنا أن أپللس Apelles ذُهل وعقلت الدهشةُ لسانَه عندما شاهدها لأول مرة. وبعد أن تمالك نفسه قال:

- جهد عظيم! ونجاح مدهش.

ثم عقّب على هذا بقوله «ومع هذا فليس فيها تلك الروعة التي رفعت رسومه الخصوصية إلى عنان السماء إن جاز القول». حُملت هذه الصورة إلى روما مع الأسلاب الأخرى وتلفت بالحريق.

بينما كان الرودسيون يدافعون عن مدينتهم دفاع المستميت لم يأسف ديمتريوس

حينما وجد ذريعةً يتوسّل بها إلى رفع الحصار ووجد ضالّته هذه بالسفراء الذين قدموا من اثينا، فتوسطوا في الصلح. وتمّ ذلك بأن يتعهد الروديسون بمساعدة أنتيغونس وديمتريوس ضدّ أعدائهما جميعاً، باستثناء بطليموس.

وطلب الأثينيون مساعدته لفك حصار كسّاندر الذي ألقاه على مدينتهم. فتوجّه إليها بأسطول يتألف من ثلاثمائة وثلاثين قطعة بحرية وعددٍ كبيرٍ من الجنود. ولم يكتف بطرد كسّاندر من أتيكا، وإنما تعقّبه حتى ثرموپيلي وهزمه. وأصبح سيّد هراقليا التي خضعت له مختارة. كما انضمّت إليه وحدة تتألف من ستة آلاف مقدوني. وبعد أن حرّر كل الإغريق في الجزء الأدنى من ثرموپيلي كرّ راجعاً وعقد حلفاً مع البويوثيين، واستولى على كنخراي Cenchreae وأخضع قلعتي فيله Phyle وپاناكتوم Panactum وكان فيهما حاميتان لكسّاندر، وأعادهما إلى أثينا. فتحفزت المدينة لردّ هذا الجميل. كأنما لم تملّ من إغراقه بالتكريم والشرف؛ وكأنهم لم يستنفدوا طاقاتهم في اختراع الطريف منها. لقد اتضح أنهم ما زالوا يمتلكون المبدع المستحدث من أفانين الملق والزلفى. وعمدوا الآن إلى إخلاء الهيكل الخلفي من الپارثنون وأعدّوه لسكناه. فاستقرّ هناك تحت السقف الذي يظلّ مضيفته منيرڤا. وكان هذا قصدهم الضمني وهو مشاطرته السكنى ربّةً باكراً! عندما أسكن أخوه فيليب في بيت تشغله ثلاث فتيات، لم يقل أنتيغونس له شيئاً، وإنما أرسل وكيله وأمره بأن يجد لابنه - وبمحضر منه - منزلاً أقلّ اكتظاظاً بالشاغلين من هذا المنزل. وكان أقلّ ما يجب على ديمتريوس عمله هو إظهار الاحترام اللائق بأخته الكبرى - الربّة منيرڤا. وهذا ما يُستخلص من تقدير المدينة له بإنزاله في بيتها. إلاّ أنه ملأ الموضع بالنجاسات حتى بدا أقلّ دنساً عندما اقتصرت خلاعته على معاشرة النساء المبتذلات مثل خريدس Chryids ولاميا وديمو Demo وأنتيكيرا Anticyra.

إن اسم المدينة الطاهر يمنعنا من إيراد بعض الحكايات الصريحة. ولنذكر فحسب فضيلة الفتى أموكليس الملقّب بالجميل وما كان له مع ديمتريوس؛ أراد أن يتخلّص من ملاحقاته، فكان يتجنّب كلَّ محلٍّ قد يكون فيه. أخيراً لحقه ديمتريوس إلى غرفة حمّام خاصة، ووجد الفتى نفسه وحيداً بلا ناصر أو مجير، فرفع غطاء القِدر وقذف بنفسه في مائه الفائر ليموت ميتة أليمة قبل أن يحين أجله! إلاّ أنها ميتة جديرة بالبلد وبالجمال اللذين سبّباها. ولم يكن كليانيتوس Cleanetus ابن كليوميدون Cleomedom مثل هذا الفتى. فقد نال من ديمتريوس رسالة توصية بأبيه موجّهة للأثينيين، وكان الأب قد غُرّم خمسين تالنتاً، فألحق العار بنفسه وأوقع المدينة في ورطة. لم يسع الأثينيين إلاّ إلغاء

الغرامة احتراماً للرسالة، على أنهم أصدروا بياناً يحرّمون فيه على أي مواطن جلب رسائل توصية من ديمتريوس في المستقبل. ولما علموا بأن ديمتريوس استاء جداً من هذا القرار وعدّه تحقيراً واستصغاراً لشأنه، لم يكتفوا بإبطاله وإنما نفّذوا حكم الموت ببعض الناصحين به والمقترحين له، ونفوا الآخرين، خوفاً ورهبةً. ثم تمادوا في الاعتذار، فأصدروا مرسوماً يقضي بصحّة وسلامة كلّ ما يأمر به ديمتريوس الملك في المستقبل، سواء إزاء الأرباب أو إزاء البشر. ولما قال أحد المواطنين: «لا بدّ أن يكون ستراتوكليس مجنوناً لاستخدامه مثل هذه العبارات» عقّب عليه ديموخارس وليوكونوي Leoconoe قائلين: «من الغرابة أن لا يكون مجنوناً». ولقد كوفئ ستراتوكليس خير مكافأة على زلفاه. أما ديموخارس فقد نُفي تنكيلاً به لمقولته السالفة. وتلك كانت تصرّفات الأثينيين بعد تحرّرهم من نير الحامية الأجنبية واستعادتهم ما سُمّي بحريتهم.

بعد هذا زحف ديمتريوس بقواته على الپيلوپونيسس فلم يلق مقاومة وفرّ أعداؤه من أمامه وتركوا المدن تنضمّ تحت لوائه. وقَبِل حلفَ سائر أكته Acte (كذلك كان اسمها) وسائر أركاديا ما عدا مانتينيا. وابتاع حرية أرغوس وكورنث وسيكيون بدفعه لحامياتها مائة تالنت لقاء تركها. وترأس الألعاب في أرغوس خلال عيد يونو الذي صادف أيام وجوده، وشارك في إحياء الاحتفال مع الإغريق الذين اجتمع شملهم هناك. كما احتفل بزواجه من دايداميا Deidamia بنت أياكيديس Aeacides ملك المولوسيين Molossians وأخت پيروس. وقال لأهالي سيكيون إنهم وضعوا مدينتهم خارج مدينتهم! وأقنعهم بالانتقال حيث يعيشون من يومها. وبذلك أعطى مدينتهم موقعاً جديداً فضلاً عن اسم جديد، إذ أطلق عليها اسم «ديمترياس» مشتقاً من اسمه.

والتأمَتْ جمعيّةٌ عمومية للإغريق في المضائق. وهناك نادى به حشد عظيم من المندوبين قائداً للإغريق، كما كان الشأن مع فيليب والإسكندر من الأوائل. ولم يكن يخفي رغبته في التفوّق عليهما، وهو في أوج عظمته وسلطانه. والواقع هو أنه سبق الإسكندر من ناحية واحدة. فالإسكندر لم يأبَ على الملوك ألقابهم، في حين لم يتخذ لنفسه لقب ملك الملوك، مع أن عدداً كبيراً منهم كانوا مدينين له باللقب والسلطة معاً. أما ديمتريوس فقد اعتاد السخر من أولئك الذين منحوا لقب الملكية لغير أبيه ولغيره. وكان السرور يشيع في أعطافه عندما يشرب أتباعه أولاً نخب صحته وصحة أبيه بوصفهما ملكين، ويواصلون الأنخاب فيشربون في صحة سلوقوس بوصفه قائد الفِيَلة، وفي صحة بطليموس بوصفه أمير البحر الأعلى، وفي صحة ليسيماخوس بلقب أمين الخزانة، وأناثوكليس بلقب حاكم صقلية. ويضحك هؤلاء الملوك عندما تروى لهم

قصص هذا الزهو الفارغ إلا ليسيماخوس الذي يُبدي امتعاضاً لاعتباره خصيّاً لا غير. فمن هؤلاء عادةً يُختار صاحب منصب أمين الخزانة. وكان العداء بينه وبين ليسيماخوس أشدّ من عدائه لغيره. ومرة قال ليسيماخوس ساخراً من حبّه للاميا:

- إني لم أرَ من قبل عاهراً تمثّل دور الملكة.

فردّ ديمتريوس بقوله «إن محظيّته لا تقلّ إخلاصاً واستقامة عن پنلوپ Penelope امرأة ليسيماخوس.

ونستأنف حديثنا فنقول: كان ديمتريوس على وشك العودة إلى أثينا فكتب رسالة إلى أهلها يُعلِمهم برغبته في أن يُسمح له في الحال بالوقوف على مراسم التكريس «للأسرار» وأنه يريد إكمال مراحل المراسم من الأول إلى الأخير دفعةً واحدة، وهو مخالف للمبادئ المتبعة وأمر لم يُسمح به من قبل لأيّ أحدٍ. فالمرحلة الأولى تجري مراسمها في شهر «بويدروميون» ولا يُقبل المكرّسون نهائياً حتى يكلموا سنة واحدة بعد اقتبال مراسم المرحلة الأولى. لكن طوي هذا كلّه بعد قراءة رسالة ديمتريوس في الجمعية العامة ولم يجد أحد في نفسه الشجاعة للمعارضة غير پثودورس Pythodorus حامل المشعل ولم يؤبه باعتراضه. فقد نطّ ستراتوكليس لفوره مقترحاً بالتصويت على تحويل الشهر الحالي «مونيخيون» إلى شهر «أنيتسيتريون» فجرى ذلك وغُيّر. وهكذا اقتبل ديمتريوس الأسرار الأولى. وجرى تصويت آخر فانقلب الشهر «مونيخيون» نفسه إلى شهر «بويدروميون» فأقيمت مراسم الأسرار العليا وقبل ديمتريوس. هذه الإجراءات أتاحت للكوميدي فيليپيدس فرصة جديدة لإعمال فكاهته البارعة في ستراتوكليس:

«إن خوفه المتملّق...

جعل السنة كلّها تُحشَر في شهر واحد!».

وقال عن التصويت الذي جرى حول إسكان ديمتريوس في البارثنون:

«ذاك الذي يقلب الهياكل إلى حانة متبذلة

ويجعل منزل العذراء بيتاً للخنا».

ومن بين الأعمال السيّئة الأثيمة التي اقترفها خلال هذه الزيارة عملٌ جرح مشاعر الأثينيين بصورة خاصّة. فقد أصدر أمراً بجمع مائتين وخمسين تالنتاً من الأهالي فوراً. فجُبيت من الشعب بمنتهى الغشم والقسوة. وقدّموا له المال الذي عانوا في جمعه ما لا يخطر بالبال. فأمر بأن يوزّع على لاميا وبقية نسائه ليبتعن به صابوناً، كأنّ ما قدّموه أتفه من أن يخصّص لغير هذا الغرض. وكان العار الذي أصابهم جرّاه أشدّ وقعاً ومرارة مما

عانوا بجمعه من خسارة. واختلف الرواة في الحكاية في الواقع، فبعضهم يقول إن الحادث وقع للتساليين لا للأثينيين. ومهما كان من أمرٍ، فإن لاميا هي أيضاً قامت بجباية مقدار كبير من المال للإنفاق على مأدبة أقامتها للملك، فاشتهرت مأدبتها إلى الحدّ الذي أتى إلى وصفها لينكيوس Lynceus. وأضفى على لاميا بهذه المناسبة اسم هيليبوليس Helepolis الحقيقية. ولقّب ديموخارس بصولي Soli، وديمتريوس بميثوس Mythus لأن لأسطورة لاميا صولها الخاصة وميثوسها الخاص.

الحق يقال إن أهواء هذه المرأة والبذخ الذي عاشت فيه جلبا عليه حسد كل نسائه وغيرتهن فضلاً عن عداء أصدقائه.

فمثلاً: كشف ليسيماخوس مرة لبعض السفراء الذين أرسلهم ديمتريوس عن ندوب في فخذيه وذراعيه بفعل براثن أسدٍ كان الإسكندر قد أطلقه عليه. وبعد أن أصغى هؤلاء السفراء إلى تفاصيل معركته مع هذا الوحش الضاري ابتسموا وقالوا إن لملكهم أيضاً ندوباً في جسمه، وإنه ليستطيع أن يعرض في عنقه آثار براثن لاميا وهي حيوان ليست بأقل خطراً من الأسد. ومما يورث أكبر العجب أنه كان يصدّ عن ميلا بسبب تقدّمها في العمر، في حين كان عبداً ذليلاً للاميا التي مر عهد شبابها منذ زمن طويل. وفي إحدى الأمسيات عند العشاء كانت تعزف لحناً على المزمار فسأل ديمتريوس محظيّته ديمو التي يلقّبها الرجال بـ«جنون» ما رأيها في لاميا؟ فأجابت: أراها امرأة عجوزاً.

وجيء ببعض الحلوى فسألها الملك ثانية:

- انظري إلى الهدايا التي جاءتني من لاميا؟

فقالت ديمو:

- سترسل أُمّي العجوز أكثر من هذا، لو اتخذتها لك عشيقة.

ورُويت قصة أخرى عن انتقاد لاميا للحكم الشهير الذي أصدره القاضي بوخوريس Bocchoris. حاول شاب مصري لمدةٍ طويلة وِصال العاهرة تونيس Tonis وعرض عليها مبلغاً من الذهب أجراً لمعاشرتها. وقبل أن يتم ذلك حلم بأنه امتلكها وأطفأ شوقه بالخيال ولم يعد يشعر برغبةٍ في الوصال الفعلي. فأقامت عليه تونيس الدعوى بالمبلغ المتفق عليه. وعندما سمع القاضي الادّعاء أمر المدّعي عليه بإحضار المبلغ إلى المحكمة كاملاً في وعاءٍ وأن يحرّكه يميناً وشمالاً أمام أنظار تونيس ويعطيها خياله. فطعنت لاميا في صحة الحكم قائلة: من المحتمل أن تكون رغبة الشاب قد أُشبعت في الحلم، لكن رغبة العاهرة تونيس بالمال لا يمكن إشباعها بخيال ذلك المال. وإلى هنا

نكتفي بالحديث عن لاميا. لننتقل بالقصة الآن من مرحلتها الهزلية إلى خاتمتها المأساوية، بتعقيب أعمال وتقلّبات حظوظ ممثلي أدوارها.

اجتمع الملوك في عصبة، ووحّدوا قواتهم لمهاجمة أنتيغونس. فترك ديمتريوس بلاد الإغريق، وتوجّه إلى والده، فوجده عالي الهمّة ثابت العزم على أتمّ استعداد لدخول المعركة مما لا يتفق مع تقدّمه في السنّ فشجّعه ذلك كثيراً. ولكن كان معقولاً لو رضي أنتيغونس بالتنازل عن البسيط، أو أظهر اعتدالاً قليلاً في رغبته بالسيادة المطلقة إذن لاحتفظ لنفسه بالمقام الأول بين الملوك حتى موته، ولاحتفظ بها لخلفه أيضاً. إلاّ أنه كان عنيفاً متجبّراً غطريساً لا يمكن احتمال كلماته المهينة وإجراءاته من قِبَل ملوك شبان أقوياء الجوانب. وبهذا استفزّهم وحملهم على التحالف ضده. وعندما أُنبئ بالحلف المتكوّن ضده لم يتورّع عن القول:

- إن هذا السرب من الطير لا يلبث أن يتفرّق بضربة حجر واحدة وبصرخةٍ لا غير.

ونزل ساحة القتال على رأس ما يزيد عن سبعين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيّالة، وخمسة وسبعين فيلاً. أمّا أعداؤه فقد حشدوا أربعة وستين ألفاً من المشاة. وعشرة آلاف وخمسمائة خيّال، وما يناهر الأربعمائة من الفيلة ومائة وعشرين عجلة حربية. ولما اقترب الجمعان لوحظ ثمّ تغييرٌ لا في هدف أنتيغونس بل في مشاعره السابقة للمعركة وتوجّساته. فقد بدا خلافاً لما كان يبدو في معاركة السابقة مهموماً صامتاً منطوياً على نفسه، وكان في العادة يبدو واثقاً في نفسه، رابط الجأش جهوري الصوت، ساخراً هازئاً، وكثيراً ما كان يعرب عن استخفافه وعن ثبت جنانه بالمزاح وإرسال الفكاهات. وانضمّ ديمتريوس إلى الجيش، فأسرع أنتيغونس يعلنه خليفةً له. وأصابت الجميع الدهشة إذ رأوه يختلي بابنه في الخيمة ويتباحثان منفردين وهو من أغرب الأمور. إذ لم يؤثر عنه قبلاً أن عقد مؤتمراً خاصاً مع ديمتريوس بل كان ينفرد برأيه دائماً ويقرر خططه وحده ثم يصدر أوامره تبعاً لذلك. ومرة حين كان ديمتريوس صبيّاً وسأله متى يبدأ الجيش بالحركة، ردّ عليه بحدّةٍ.

- أنت من دون سائر الجيش، تخشى أن لا تسمع نفير البوق؟

وأثّرت بعض الظواهر الطبيعية على معنوياته. كان ديمتريوس قد رأى في حلمه الإسكندر بكامل سلاحه. ظهر له وطلب منه أن يعلمه بكلمة السرّ التي ستُعطى إيذاناً بالمعركة، فقال ديمتريوس أنه يعتزم أن تكون «جوبتر والنصر» فقال الإسكندر:

- إذن فسأذهب إلى عدوّك، وانتظر منه استقبالي.

وفي صباح يوم المعركة بينما كانت القطعات تتخذ مواضعها عثر أنتيغونس بباب خيمته وهو خارج فسقط على الأرض وأصيب بأذى شديد. ولما زال ألم قدميه، رفع يديه إلى السماء ودعا الآلهة أن تمنحه النصر أو الموت قبل أن يشعر بالهزيمة. وعندما التحم الجيشان هجم ديمتريوس على أنطيوخوس ابن سلوقوس وكان يقود أفضل قطعات الخيّالة فهزمه هزيمة نكراء، وانطلق يطارده بفورة النجاح وحماسته وابتعد مسافة كبيرة طيشاً منه وتهوّراً وبذلك تسبّب في خسارة المعركة كلّها. إذ بعد أن أدرك خطأه وقرّر الرجوع لمساندة المشاة لم يجد ذلك ممكناً لأنّ العدوّ قطع خطّ الرجعة بفيلقه.
ومن الجهة الثانية لاحظ سلوقوس أن القسم الأكبر من مشاة أنتيغونس تُرك مكشوفاً لخيّالته، فلم يهجم بل قام بعدة مناورات تغطية وتظاهر بالهجوم. وهكذا أبقاهم في إنذار وتحفّز وصار يكرّ ويفرّ ويتقدم ويتأخر كأنه يهمّ بالاشتباك معطياً الفرصة للجنود الذين يريدون التخلي عن أنتيغونس والانضمام إليه، وقد فعل ذلك عدد كبير منهم ولاذت البقية بالفرار. إلاّ أن أنتيغونس ظلّ ثابتاً في موضعه. وعندما تقدمت منه قوات ضخمة وانقضّت عليه وصاح أحد القريبين منه:

- مولاي إنهم يهاجمونك.

لم يجب بغير هذا:

- وماذا في وسعهم أن يعملوا سوى هذا؟ أن ديمتريوس سيخفّ لنجدتي.

وظل صامداً يراوده الأمل حتى الأخير، وهو يتطلع إلى كل الجهات منتظراً وصول ابنه حتى جُندل مثخناً بطعنات الرماح. وهرب أصحابه ومن والاه إلاّ ثوراكس Thorax اللاريسي فقد بقي يحرس الجثمان.

بعد انتهاء المعركة أخذ الملوك الغالبون يقطّعون أوصال الإمبراطورية الواسعة التي كانت ملكاً لديمتريوس وأنتيغونس، كما يقطّعون الجثة، فيلحقون أجزاءها بأملاكهم. وفرّ ديمتريوس بخمسة آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الخيّالة إلى إفسس بأسرع ما أمكنه. وكان الاعتقاد السائد أنه سيضع يده على كنوز الهيكل، ليُنفق منها على حاجاته ولكنه عمل عكس هذا، فقد أسرع بالرحيل خوفاً من محاولة كهذه يقوم بها جنوده، وأبحر إلى بلاد الإغريق. ووضع أمله الوحيد في الأثينيين الذين استأمنهم على جزءٍ من أسطوله وأمواله وزوجه دايداميا ولم يساوره أي شكّ في إخلاصهم له، وإيجاد كنف من حماهم في محنته. ولما وصل إلى الكيكلاديس Cyclades التقى بوفد أثيني راح يرجوه أن لا يستمر في التقدم نحو المدينة لأن الأهالي صوّتوا على عدم السماح لأيّ ملك كان بولوج السور. وقالوا إنهم رحّلوا ديداميا بما يليق من إكرام ولياقة إلى ميغارا. فاجتاحه

الغضب وفارقه صبره ورباطة جأشه. وكان قد ضبط نفسه حتى الآن فلم يبدر منه ما يحطّ من قدره أو يشين كبرياءه. ولكنه لم يتحمّل خيبة ظنّه بالأثينيين وأن يجد تلك الصداقة التي آمن بها واعتمد عليها زائفة فارغة عند الامتحان. فكانت صدمة عظيمة له وغصّة أليمة. والحقّ أن المبالغة في إظهار التكريم السطحي هي أضعف دليلٍ على الحبّ الحقيقي من الشعب إلى أيّ ملك أو أميرٍ. تلك المظاهر تفقد قيمتها كدلائل على المحبة عندما نتذكر أنها إنما تنشأ من عامل الخوف. إن المحبّة تستمدّ قوّتها ودوامها من المشاعر الخالصة والاختيار الخُلقي. ولهذا صوّت الأثينيون على القرارات الأخيرة كما صوّتوا على القرارات الأولى، بنفس الاستعداد والاستعجال. إن ذوي البصائر والحكماء لا ينظرون باعتبار إلى التماثيل والرسوم والتكريم الإلهي وغيره مما يقدّم لهم، قدر ما ينظرون إلى أعمالهم وسلوكهم، فمنها يحكمون على إمكان الوثوق بالمظاهر كدليل على الولاء الأصيل الحقيقي، أو نبذهم باعتبارها مظهراً لولاءٍ قسريّ. والواقع أن الشعب نفسه لا يسعه إلاّ أن يقرف ويشمئزّ من هواة الإطراء الذين يُقبلون عليه بنهم وغطرسة دون احترام لحرية إرادة المعطي.

وديمتريوس الذي اعتقد أنه عومل معاملة مهينة لم يكن في وضع يستطيع معه الانتقام. فأرسل عتاباً رقيقاً أعرب فيه عن أمله بأن يُسمح له بأسطوله وبينه سفن ذات ثلاث عشرة طبقة. فسُلّمت له السفن فأقلع بها إلى المضايق، فوجد أموره هناك على أسوأ حال: فحاميته قد طُردت وهناك انسحاب عام وانضمام إلى صفّ العدوّ، وبهذا غدا پيروس مطلق اليد في بلاد اليونان. فولّى وجهه نحو الخرسونيز واجتاح أراضي ليسيماخوس وأصلح أحوال جنوده بالغنائم التي وضع يده عليها فارتفعت معنوياتهم واشتدّت سواعدهم. ولكن لم يهتمّ أحد من الأمراء باعتراضه ومناجزته في هذا الجزء من العالم. فليسيماخوس لم يكن محبوباً في تلك الأنحاء وإنما كان يُخشى بأسه فحسب. ولكن ما مَرَّ زمن قصير حتى أرسل سلوقوس يخطب ستراتونيكي بنت ديمتريوس من زوجه فيلا.

كان سلوقوس قد أنجب من أپاما Apama الفارسية ابنه أنطيوخوس. على أنه كان قد بسط ملكه على رقعة واسعة، لأكثر من خلفٍ واحدٍ. كما أنه لجأ إلى مصاهرة ديمتريوس لأن ليسيماخوس كان في ذلك الحين قد تزوّج إحدى بنات بطليموس وزوّج ابنه من بنته الأخرى. وعدّ ديمتريوس هذا العرض حظّاً سعيداً غير متوقع، فأقلع فوراً مع ابنته وجميع أسطوله إلى سورية وأرسى في الساحل عدّة مرّات. فنزل في كيليكيا في الجزء الذي كان من سهم پليستارخوس Plistarchus أخ كسّاندر من عملية اقتسام

أملاك أنتيغونس بعد هزيمته. فعدّ پليستارخوس عمل ديمتريوس اعتداء على حقوقه ولم يكن آسفاً على هذا الاعتداء المزعوم فقد اهتبلها فرصة للاحتجاج على سلوقوس لدخوله في مفاوضات مع ديمتريوس عدوّهم المشترك دون مشاورة الملوك الآخرين. وأُبلغ ديمتريوس بذلك. وانتهز فرصته فانقضّ على مدينة كويندا Quinda دون إنذار ونهب منها ألفاً ومائتي تالنت كانت مودعة في خزائنها. وأسرع يلوذ بسفنه ورفع قلوعه ورحل. وفي روسوس Rhosus اجتمعت به زوجه فيلا. وتلاقى مع سلوقوس وسرعان ما تمّ الاتفاق الصريح بينهما وتبادلا الثقة بصفاء نفسٍ بعيداً عن الشكوك. وأولم سلوقوس لديمتريوس في خيمته بالمعسكر، وبادله ديمتريوس الحفاوة فأقام له وليمة في السفينة ذات الطوابق الثلاثة عشر. وتلتها لقاءات وحفلات ترفيه ومؤتمرات وزيارات طويلة لتبادل الآراء العامة دون بطانة ولا حرس مدجج بالسلاح. ثم استأذن سلوقوس فرحل وحمل ستراتونيكي إلى أنطاكية بموكب فخم. وانقضّ ديمتريوس على كيليكيا فاستولى عليها. وأرسل فيلا إلى أخيها كسّاندر للإجابة على شكوى پليستارخوس. وانضمّت إليه دايداميا زوجه قادمة من بلاد اليونان بحراً إلاّ أنها ابتُليت بمرض لم يمهلها كثيراً فقضت نحبها. وعلى إثر موتها تمّ الصلح بين ديمتريوس وبطليموس بتوسّط من سلوقوس، واتفق بموجبه على أن يتزوّج ديمتريوس ببتليمياس بنت بطليموس. إلى هذا الحد كان مسلك سلوقوس حكيماً وإنجازاته طيّبة لا مطعن فيها. إلاّ أنه ما لبث أن طلب من ديمتريوس النزول له عن إقليم كيليكيا لقاء مبلغ من المال. فلما رفض طلبه، عاد يفاوضه بحدّة في التنازل له عن صور وصيدا وهو ما بدا وجهاً من وجوه التحكم الغشوم. بل هو في الواقع عمل شائن ممن يملك تلك الممالك الشاسعة والأقاليم المترامية بين الهند والبحر السوري، فيشعر بمسيس حاجة إلى مدينتين فقط؛ دون أن يعبأ بإزعاج قريبه الذي عانى الكثير من المحن والأرزاء وسوء الحظّ. إنه بمختصر القول يبرز حكمة أفلاطون: «الطريق الأكيدة الوحيدة التي تؤدّي بك إلى الغنى الحقيقي هي أن لا تزيد في مالك، بل أن تقلل من رغباتك» فمن لا يشبع من التملك يظلّ يؤكد أنه ما يزال محتاجاً. وهو لا شك فقير في وسط غناه وبحبوحته.

إلاّ أن ديمتريوس الذي لم تخنه شجاعته أرسل ردّاً جازماً. قال إنه لن يدفع أي ثمن لحسن نيّة ختنٍ له مثل سلوقوس ولو خسر عشرة آلاف معركة كمعركة إپسوس Ipsus، ثم عزّز هاتين المدينتين بحاميات كافية لتقوى على الدفاع في حالة هجوم سلوقوس. وفي ذات الوقت علم أن لاخاريس Lachares انتهز فرصة نزاعه ففرض

حكمه على الأثينيين غصباً. فرأى أنه لو باغت المدينة لنجح في الاستيلاء عليها بسهولة. ولهذا اجتاز البحر بسلام على رأس أسطول كبير. إلاّ أن العواصف الشديدة داهمته وهو مارّ بساحل أتيكا فخسر معظم سفنه ومن فيها من رجال. أما هو فنجا. وراح يشنّ حروباً صغيرة بنطاق ضيّق على الأثينيين. ولما عجز عن تحقيق بُغيته أرسل يأمر ببناء أسطول جديد وزحف بما لديه من جنود على البيلوبونيسس، وحاصر مدينة مسينا. وأفلت من الموت بأعجوبة في أثناء هجوم. إذ أصابت وجهه قذيفة منجنيق اخترق سنانها خدّه ونفذ إلى فمه، على أنه شفي بالأخير. وعادت إلى ملكه مدن عديدة كانت قد تمرّدت عليه. ثم شنّ غارة على أتيكا، فاستولى على إليوسيس Eleusis ورامنوس Rhamnus، واجتاح البلاد المجاورة لهما. وسقطت في يده سفينة موقرة بالقمح متوجّهة إلى أثينا فأمر بربّانها ومدير شحنتها بأن يُشنقا ليلقي الرعب في نفوس الآخرين فلا يجرؤ أحد على تموين المدينة بالأرزاق مضايقةً منه للأثينيين. وبلغ الأمر بالسكان أن ضاقت بهم السبل وأصبح البوشل من الملح يباع بأربعين درهماً، والپك[٢] من القمح بثلاثمائة درهم. وأرسل بطليموس مائة وخمسين سفينه لإنجادهم فاقتربت حتى صارت على مرمى النظر من أيجينيا Aeginae إلاّ أن هذا الأمل القصير الأمد ما لبث أن ضاع بوصول ثلاثمائة سفينة لتعزيز أسطول ديمتريوس من قبرص والپيلوپونيسس وغيرهما. فلاذ أسطول بطليموس بالفرار، وهرب الطاغية لاخاريس من أثينا وتركهم لمصيرهم المحتوم.

إن الأثينيين الذين كانوا قد فرضوا عقوبة الموت على كل من يقترح إبرام معاهدة أو اتفاق مع ديمتريوس، سارعوا الآن يفتحون أقرب الأبواب إليه لإخراج وفدٍ لا أملاً في رحمته بنيل شروط حسنة، بل نزولاً عند أحكام الضرورة واجتناباً للموت جوعاً. فمن المآسي المروّعة قيل إن أباً وابنه كانا جالسين معاً في غرفةٍ وقد ودّعا كل أمل ببلغةٍ من العيش وإذ بفأر ميت يسقط من السقف، فهجما عليه كل يريده لنفسه فتماسكا وتضاربا. ورُوي عن المجاعة أيضاً أن الفيلسوف أبيقور لم ينقذ حياته وحياة تلاميذه إلاّ بكمية صغيرة من حبوب الفاصولياء كان يوزّعها عليهم بالعدد يومياً.

كذا كانت حال المدينة عندما دخلها ديمتريوس. فبادر يصدر بياناً دعا فيه جميع الأهالي إلى الاجتماع في الملعب. ولما انتظم عقدهم أمر جنوده أن يقفوا صفوفاً بظهر الملعب، واحتلّه بحرسه، ثم دخل من ممرّ الممثلين وقد وصل الرعب بالأهالي غايته

---

(٢) الپك Peck هو ربع البوشل.

القصوى. فبدّدت كلماته الأولى كل خوفٍ. إذ راح يؤنّبهم بلهجة رقيقة، لطيفة خالية من الصرامة، معلناً رضاه عنهم. وزاد على ذلك بتقديم هدية لهم تتألف من مائة ألف بوشل من القمح وعيّن للوظائف العامة أناساً يرضاهم الأهالي.

ولما رأى الخطيب دروموكليس مبلغ حيرة إخوانه المواطنين في إيجاد وسيلة للتعبير عن مدى شكرهم بالهتاف أو بالكلام، ومبلغ استعدادهم للقيام بأيّ شيء في هذا الصدد، خلافاً للامتنان القولي والردّ الرسمي من قِبل الخطباء، نهض مقترحاً إصدار مرسوم بتسليم كلّ من قلعتي پيروس ومونيخيا إلى الملك ديمتريوس. فتمّ ذلك. وبادر ديمتريوس دون توصية من أحدٍ بوضع حامية ثالثة في مسيوم Meseum احتياطاً لأيّ تمرّد للأهالي قد يشغله عن خططه الأخرى. وبعد استتاب الأمر في أثينا بدأ يتهيأ للهجوم على لقيديمون فعلم بذلك ملكها أرخيداموس وخرج إليه. إلاّ أنه انهزم في معركة جرت قرب مانتينيا فدخل ديمتريوس لاقونيا. ومُني أرخيداموس بهزيمة أخرى قرب سپارطا. وقتل ديمتريوس مائتين من اللقيديمين وأخذ خمسمائة أسير، ولم يعد بامكان هذه المدينة التي لم يستول عليها أحد من قبل أن تصمد امامه. ولكن من المؤكد الثابت أنه كان ملكاً عجيباً لم يُخلق مثله لعب الحظّ معه لعبات خاطفة فلم تقم حياة أو سيرة مملوءة بهذا القدر من التقلّبات السريعة كقصّة حياته. فمن صغائر الأمور إلى عظائمها، ومن الرفعة إلى الذلّة، ومن الضعف التام إلى نهاية السلطان والقوة! حتى ليقال إنه اعتاد مناجاة الحظّ بكلمات أسخيلوس كلّما عضّه الحظّ العاثر بنابٍ:

«أنت الذي رفعنا وأنت الذي وضعتنا ثانيةً!».

وفي هذه اللحظة عندما بدا كل شيء متفقاً وأمانيه في الملك والسلطة وردت أنباء تفيد بأن ليسيماخوس استولى على جميع ما تحت يده من مدن في آسيا، وأن بطليموس قد أخضع كل قبرص عدا سلاميس، وأن أمّه وأولاده في سلاميس محصورون. ومع هذا كله، فكالمرأة التي وصفها أرخسيلوخوس Archilochus:

«تعرض الماء في إحدى كفّيها الخادعتين
في حين تتوهّج النار في كفّها الأخرى».

صدّه الحظّ عن سپارطا بهذه الأنباء القاضية. لكنه في اللحظة عينها فتح له باب خلاص جديد عجيب: فقد توفّي كسّاندر ملك مقدونيا. ولم يعش خلفه وابنه الأكبر فيليب طويلاً بعد وفاة والده. فاختلف أخواه فيما بينهما حول وراثة العرش. وعمد أكبرهما أنتيپاطر إلى قتل أمّه تسالونيكا. فطلب الأخ الأصغر معونة پيروس من أپيريوس ومعونة ديمتريوس من الپيلوپونيسس. فسبق پيروس في الوصول واقتطع جزءاً كبيراً من

مقدونيا وضمّه إليه تعويضاً عن مساعدته تلك. مما حدا بألكساندر إلى القلق والاعتقاد بأنه استقدم جاراً خطراً، وأنه قد لا يتعرّض لمثل هذا الخطر من ديمتريوس الذي بدا أقوى من حليفه، وأفضل سمعة. فأسرع يلتقي به في ديوم Dium حيث وصلها ديمتريوس عندما تسلّم رسالة الشاب، وبعد أن سلّم عليه وأعرب عن شكره لتلبيته دعوته وأنه ما عاد بعدُ يرى ضرورة حضور حليفه الأول، دعاه إلى العشاء. والواقع أن العاهلين لم يلتقيا بقلبين خاليين من الشك فقد كان أحدهما يتوجّس شراً من الآخر. وفيما كان ديمتريوس يسير إلى الوليمة المعدّة له أسرّ أحدهم في أذنه بأنه سيُقتل غِيلة في مجلس الشراب. فلم يظهر قلقاً. إلاّ أنه تباطأ في سيره وأرسل أمراً لكبار ضباط جيشه بوضع الجنود تحت الإنذار وجعلهم متأهّبين بكامل سلاحهم. وأمر بطانته وكانت تفوق بطانة ألكساندر بكثير أن تتولى حراسته في غرفة الطعام وأن لا يتحركوا من مواضعهم حتى ينهض. فغُلب خدم ألكساندر على أمرهم وجبنوا عن القيام بعملية الاغتيال المدبّرة، إذ لم يتح لهم ديمتريوس الفرصة بتدابيره وتقصير أمد زيارته وزعمه لألكساندر أن صحته السيئة في الآونة الأخيرة لا تسمح له بتعاطي الخمر، وترك المأدبة مستعجلاً. وفي اليوم الثاني بدأ يستعد للرحيل زاعماً لألكساندر أن الأنباء التي وردته تستدعي منه العودة، واعتذر عن رحيله الفجائي معرباً عن أمله بلقياه حالما تسمح له أعماله. وسرّ ألكساندر لا برحيله وحده، بل لأن ذلك تمّ بمحض رغبته ومن دون إحراج وعرض عليه مرافقته حتى تسالي. وعند بلوغهما لاريسا تبودلت الدعوات فيما بينهما وجرت فيها أحاديث صريحة فيها حُسن نيّة ظاهرة يفوح منها ريح مؤامرة جديدة على ديمتريوس. إلاّ أن الوضع انقلب وأصبح المتآمر تحت رحمة الضحية: لم يشأ ألكساندر أن يتخذ لنفسه أي احتياطات لئلا يوجس ديمتريوس منها خيفة فيبادر إلى اتخاذ احتياطات مقابلة، وكان أن وقع ضحية غدره. فقد قبل دعوة ديمتريوس وجاء إلى مقرّه وفيما هما يتناولان عشاءهما نهض ديمتريوس من مجلسه وسار، فقام ألكساندر ولحق به متجهاً صوب الباب.

وفيما ديمتريوس يجتاز التفت إلى حرسه وقال:

- اقتلوا من يتبعني.

واستأنف سيرة. فوثبوا على ألكساندر وقضوا عليه وعلى كل أصدقائه الذين حاولوا إنقاذه. وقال أحدهم قبل موته:

- سبقتنا بيومٍ واحدٍ.

وتلت ذلك بطبيعة الحال ليلة حفلت بالفوضى والاضطراب. وظلّ القلق مستحوذاً

على نفوس المقدونيين حتى الصباح خوفاً من ديمتريوس لكن لم تظهر منهم بادرة عنف. ووصلتهم منه رسالة يطلب فيها مقابلة لشرح الأسباب التي دعته إلى هذا العمل، فأفرخ روعهم، وعادت ثقتهم بأنفسهم وتهيّأوا لاستقباله استقبالاً حسناً، ولم يكن بحاجة إلى الإطالة وكثرة الكلام. وسرعان ما حملهم بغضهم لأنتيپاطر، قاتل أمّه، وفقدان أخيه وهو أفضل منه، على المناداة بديمتريوس ملكاً لمقدونيا. وأسرعوا إلى بلادهم في ركابه. ولم يأسف المواطنون المقدونيون للتغيير، فهم يذكرون جيداً أعمال كساندر السيئة وغدره بأسرة الإسكندر ولا يغتفرون. وكان من فائدة ديمتريوس أن يذكروا له الأفعال الجميلة والحكم الرفيق البسيط الذي مارسه عليهم حموه أنتيپاطر الأول والد فيلا، لاسيما أن ابنه منها أصبح الآن فتىً منخرطاً في الجيش وهو وليّ عهد أبيه بلا جدال.

إلى جانب هذا الحظّ، ورده نبأ قيام بطليموس بإخلاء سبيل والدته وأولاده وصرفهم بالهدايا والهبات الكثيرة، وأن بنته ستراتونيكي زوج سلوقوس، أصبحت الآن زوجاً لأنطيوخوس ابنه، وقد نودي بها ملكة على آسيا الشرقية.

يبدو أن أنطيوخوس هام حباً بالملكة الصغيرة ستراتونيكي التي أنجبت لسلوقوس ابناً. فقاوم أنطيوخوس تلك العاطفة مقاومة شديدة، وبالأخير وجد أن حبه هذا غير شرعي مطلقاً، وأنه مرض فيه لا يرجى شفاؤه، ولا تقدر قواه الفعلية على إخماد جذوته، فاستقرّ رأيه على الموت. ولجأ إلى قتل نفسه قتلاً بطيئاً، فأهمل شأنه وامتنع عن تناول الطعام وتصنّع المرض. وسرعان ما أدرك طبيبه إيراسيستراتوس Erasistratus أن عِلّته في الحب لكن صعب عليه معرفة من وقع في حبها. فلازم غرفته لا يبارحها مراقباً تقلّب مريضه وانفعالات وجهه عند قيام جميلات البلاط بزيارة الأمير العليل. فلم يجد أيّ أثر يتخلّف على أساريره دليلاً على ما يُبطن من عاطفة، على كثرة النساء اللاتي اختلفن إليه. إلاّ أنه لاحظ الأعراض المعهودة كلّما دخلت ستراتونيكي إليه وحدها أو برفقة سلوقوس. تلك الأعراض التي وصفتها سافو Sappho وهي رعشة صوته واحمرار وجهه واستراق النظرات وزيغانها، وعَرَق مفاجئ ينضحُ من سائر جسمه، ومسارعة خفقان قلبه، واضطرابه وعجزه عن ضبط طغيان عاطفته، وامتقاع وجهه بعد احمرار، ثم الإغماء وفقدان الوعي.

فكر إيراسيستراتوس بالأمر ملياً ودرس الأعراض، وأخذ يقلّب الاحتمالات من شتّى الوجوه، فاستقرّ على أن من يحبّها لو كانت غير ستراتونيكي لما بدا منه هذا الإصرار العجيب على الموت، ولا البوح يسرّه. وشعر بالصعوبة التي تكتنف حَلّ

مشكلةٍ كهذه وإبلاغ سلوقوس بالحقيقة. إلاّ أنه اعتمد شدّة تعلّق الأب بالفتى وحنانه العظيم. وأخيراً سنحت له فرصة وأعلمه بأن مرض ابنه هو الحبّ. حبّ يستحيل أن يبرأ منه أو يعالج به. فكان عجب الملك شديداً وسأله:

- ولماذا يتعذر شفاؤه منه؟

فقال إيراسيستراتوس: في الواقع أنه يحبّ امرأتي!

فقال سلوقوس: كيف؟ وهل يرفض صديقنا إيراسيستراتوس أن يمنح امرأته لابني وولي عهدي الوحيد، وهو السبيل الوحيد لإنقاذ حياته؟

فأجاب الطبيب: أوَلست أباه؟ أتفعل فعلي لو كان من يحبّه ستراتونيكي؟

فقال سلوقوس: ثق أيها الصديق أني لأرجو من السماء أن تيسّر لي أيّ وسيلة كانت أنسيّة أم ربّانية، لتتحوّل عاطفته إلى هذه الجهة؛ إني لأسرّ لا بالتنازل عن ستراتونيكي وحدها بل عن إمبراطوريتي إن كان في ذلك أمل في إنقاذ أنطيوخوس.

قال سلوقوس هذا بعاطفة حافلة بالصدق وكانت دموعه تنهمر أثناء الحديث. وعندئذ أمسك إيراسيستراتوس بيده وقال:

- أنت الآن لست بحاجة إلى إيراسيستراتوس. فأنت الزوج وأنت الأب، وأنت الملك. فأنت إذن الطبيب المناسب لأسرتك!

فبادر سلوقوس إلى دعوة الشعب وصارحهم باعتزامه تنصيب ابنه ملكاً وستراتونيكي ملكة على كلّ الأقاليم الواقعة في شرق آسيا، وأن يجمع بين الاثنين برباط الزواج. وقال إنه يملك السلطة الكافية على ابنه حسب اعتقاده فهو لذلك لا يتوقّع منه إعراضاً وصدوداً عن أوامره هذه. وأما بخصوص ستراتونيكي فهو يأمل أن يوفّق أصدقاؤه في إقناعها. وإذا أظهرت تردّداً وتمنّعاً فليُفهموها بأن هذا في الواقع إعلاء لشأنها وتكريم لمنزلتها. وهي أمور لا غبار عليها ما دام الملك قرّر أنها ضرورية للصالح العام.

وبهذه الوسيلة تم زواج أنطيوخوس بستراتونيكي، على ما روى لنا الرواة.

ولنعد إلى ديمتريوس بعد أن تربّع على عرش مقدونيا. فقد انقضّ على تساليا وأخذها. كما ضبط القسم الأكبر من البيلوبونيسس ومن الجهة الغربية من البوغاز. استولى على ميغارا وأثينا. ثم زحف على البويوثيين وعولج الأمر أولاً بالتفاهم. إلاّ أن كليونيموس Cleonymus السبارطي أنجدهم بجيشه ودخل ثيبة. وجرّأهم على المقاومة بيسيس Pisis التسبي وهو أقواهم نفوذاً فنبذوا اتفاقهم جانباً. لكن ما إن دنا ديمتريوس من الأسوار بآلات حصاره حتى دبّ الخوف في قلب كليونيموس وانسحب في مَوهن

من الليل. ولما وجد البويوثيون أنفسهم وحيدين في الميدان أعلنوا خضوعهم. فوضع ديمتريوس حامية في مدينتهم وفرض عليهم غرامة كبيرة، ونصب هيرونيموس Heironymus المؤرّخ حاكماً وقائداً عسكرياً في المدينة. ولم ينل پيسيس بأذى وإنما توجّه إليه بالكلام الرقيق وجامله وعيّنه رئيساً لقضاة تسپيا Thesipiae.

وبعد قليل، وقع ليسيماخوس في إسار دروميخيتس Dromichaetes فاهتبل ديمتريوس فرصته واستولى على تراقيا التي بقيت دون ملك يحكمها. إلاّ أن البويوثيين تمرّدوا عليه من جديد، ووردت أنباء بإطلاق ليسيماخوس من الأسر. فعاد ديمتريوس أدراجه غاضباً ليجد أن ابنه أنتيغونس قد سبقه إلى سحق البويوثيين في معركة طاحنة فباشر هو حصار ثيبة. وفي أثناء ذلك علم أن پيروس شنّ الغارة على تساليا وأنه وصل حتى مشارف ثرموپيلي فأوكل لأنتيغونس تشديد الحصار وزحف ببقية الجيش لمهاجمة المغير، إلاّ أن پيروس أسرع بالانسحاب. فترك ديمتريوس عشرة آلاف من المشاة وألفاً من الخيّالة في تساليا وعاد لمواصلة حصار ثيبة. وجاء بـ«قانصة المدن» الشهيرة لدعم هجومه. وكانت حركة هذه البارجة في غاية البطء والصعوبة لضخامة جِرمها وثِقل هيكلها ولم تتقدم أكثر من فرلنگين اثنين في غضون شهرين. وكان الأهالي في الوقت ذاته يستميتون في الدفاع، حتى ليبلغ جنون العناد بديمتريوس إلى حد إرسال جنوده في مهمات خطرة جداً دون ضرورة أو ثمرة. وكان ابنه أنتيغونس يرقب بعين الأسى هلاك الكثير من الجنود في مثل هذه الهجمات فناشد أباه قائلاً:

- لماذا نحن نواصل تعريض حياة الرجال للهلاك في حين لا ضرورة ثمّ لذلك؟

فقاطعه ديمتريوس وقال له بحدّة:

- وأنت يا سيدي الفاضل! لماذا يؤلمك الأمر، أيأتي الموتى إليك يطلبون الأرزاق اليومية؟

على أن الجنود لم يكونوا ليرفضوا له أمراً إذ يجدونه قليل الاحتفال بسلامته لا يقيم لحياته وزناً قدر ما يقيم لحياتهم ويهتمّ بهم، ويعرّض نفسه لأعظم الأخطار دون أن تداخله شفقة بحاله. وقد أُصيب عنقه بطعنة حربةٍ حتى خيف على حياته. إلاّ أنه واصل الحصار مع ذلك حتى فتح المدينة ودخلها وأهلها يرتجفون خوفاً وهلعاً متوقّعين منه كل قسوةٍ يمكن أن يستخدمها الفاتح الغاضب. إلاّ أنه اكتفى بإرسال ثلاثة عشر شخصاً إلى الآخرة. ونفى عدداً قليلاً وعفا عن الجميع: هكذا حوصرت ثيبة مرّتين وفُتحت مرّتين في فاصل قصير من الزمن - تلك المدينة التي لم يمض على إعادة بنائها عشر سنوات كاملة.

بعد هذا حلّ موعد الاحتفال بعيد أبوللو البيثني. وكان الأتيوليون قد سدّوا كل المنافذ إلى دلفي. فأحيا ديمتريوس العيد والألعاب معاً في أثينا، متعلّلاً بأن يكون هذا الإكرام في أثينا لأن أبوللو هو الإله الشفيع للشعب الأثيني، ومؤسّس أمّتهم على ما يعرف.

ثم عاد ديمتريوس إلى مقدونيا. وكان ينفر من الهدوء والاستقرار بطبعه ويدرك أن المقدونيين هم أطوع الشعوب وأسهلهم انقياداً عندما تشغلهم مشاغل القتال والحملات العسكرية، وهم أبعد عن الاستقرار وأقرب إلى التمرّد والتململ في أوقات السلم والبطالة. فزحف بهم على الإيتوليين المتمرّدين وبعد أن عاث في بلادهم سلباً وغصباً ترك بنتاوخوس Pantauchus مع جانب من جيشه لاكمال الفتوح. وزحف بالبقية لمطاردة پيروس الذي كان هو أيضاً ينشد لقاءه. إلاّ أن الصدف حكمت بأن يسلك كل منهما طريقاً مختلفاً فلم يتلاقيا. لكن عندما دخل ديمتريوس إيپروس واجتاح كل ما صادف أمامه كان پيروس يباغت بنتاوخوس ويلتحم معه في معركة اليد باليد وجُرح القائدان. إلاّ أن الغلبة كُتبت لپيروس ووقع في يده خمسة آلاف أسير وسقط كثير من القتلى في ميدان القتال. إن أسوأ ما في الأمر هو أن پيروس كان يثير في النفوس من الإعجاب أكثر مما يثيره من العداء. وبسالته الفائقة ومساهمته في القتال شخصياً رفعت اسمه ومكانته لدى المقدونيين فأخذوا يمجّدونه ويلهجون باسمه قائلين إنه الملك الوحيد القريب الشبه بالإسكندر. فالملوك الآخرون ولاسيما ديمتريوس لم يحاولوا احتذاء حذوه بالأفعال بل كانوا أشبه بالممثلين على المرسح، يحاكون عظمته وجلال مظهره لا غير. والواقع أن ديمتريوس كان مجرّد أبّهة فارغة ولعبة مزخرفة بأرديته وتيجانه وأرجوانه المطرّز بالذهب وقلانسه بذوائبها الغليظة وأحذيته المصنوعة من أفخم اللباد الأرجواني المطرّز بالذهب. ولنخصّ رداء واحداً بالوصف: إنه نسيج فنيّ رائع أطول من أن يتسع لنول الحائك عند نسجه، نُقشت عليه صورة الكون والأجرام السماوية. لم يكمل نسجه لأن النكبات داهمته فأشغلته عنه، ولم يقدم أحدٌ من خلفائه على ارتدائه مع أن سلالته لم تخل من المتعجرفين المتغطرسين.

لم تكن هذه الأبّهة المرسحية وحدها سبب اشمئزاز المقدونيين وقرفهم، بل كان هناك أيضاً بذخه وترف عيشه بل صعوبة الوصول إليه والتحدث معه. فهو مترفّع محتجب لا يُرى إذا كان في حالته الاعتيادية وإذا سمح بمقابلة فهو عنيف لا يُطاق كريهُ الاستقبال. فمع أنه كان يهتمّ بأمور الأثينيين أكثر من سائر الإغريق، فقد ترك وفداً لهم عامين كاملين ينتظر الحصول على إذن بمواجهته. وأرسل اللقيديميون موفداً واحداً في

سفارة، فعدّها إهانةً وسأل غاضباً: أحقاً أن اللقيديميين لم يرسلوا غير سفير واحدٍ؟ فأتاه الجواب دراكاً:

- أجل سفير واحدٌ لملك واحد!

وفي حالة من حالة الصفاء وطيب المزاج خرج مرةً راكباً جواده فلحقه عدد من الناس وقدّموا إليه مظلمات مكتوبة في رقاع فتناولها منهم جميعاً بكلّ لطفٍ ووضعها في جيبه، فعمّت الناس الفرحة وأخذوا يتابعونه في السير حتى إذا وصل الجسر الممتد فوق نهر أكسوز Axius نفض جيب معطفه فتساقط كل الرقاع في النهر. هذه الفعلة أثارت أشدّ السخط والحنق في نفوس المقدونيين وشعروا بأنهم لا يُحكمون بل يُهانون. وتذكروا ما شهده بعضهم في الأيام الخوالي. وتسامع آخرون ما حُكي عن بساطة الملك فيليب وسجاياه السمحاء اللطيفة.

في يوم ما اعترضت امرأة عجوز سبيله عدّة مرّات وهو سائر وألحّت عليه بأن يصغي إليها فلما أجابها بأن لا وقت لديه صاحت به:

- إن كان الأمر كذلك، فلا وقت لديك لتكون ملكاً.

أصابه هذا التوبيخ في الصميم. ففكر ملياً وعاد إلى بيته، ونبذ جانباً كل ما يشغله وأوقف نفسه أياماً عديدة على سماع شكاوى كل قاصد، مبتدئاً بالعُجّز.

إن نشر العدل هو أوّل ما يجب أن يهتمّ به الملوك في الواقع. ويقول طيموثيوس: «إن مارس هو الطاغية»، لكن «القانون هو ملك الجميع»، كما يقول پندار. وهوميروس لم يقل إن الملوك يتسلّمون منه مبادئ العدل ليحفظوها ويطبّقوها. وجوپتر لم يمنح لقب «الصديق الأعزّ، والتلميذ» لأشدّ الملوك مراساً في القتال، ولا لأكثرهم ظلماً وتعطشاً للقتل، بل لأعدلهم وأكثرهم إنصافاً. وكان ديمتريوس يُسرّ بتلك الألقاب التي يمجّها ذوق رأس الآلهة وينبو عنه. أمّا الأسماء الطيّبة التي تخلعها الآلهة فهي أمثال «المدافع» و«الساهر». وأما هو فقد عُرف بلقب «محاصر المدن». لقد أعطى الصدارة في موضع، لو لم يكن جاهلاً قدر ما هو قوي، لعلم أنه صدارة الرذيلة. وقد اختلط الشرف بالجريمة بعمله هذا.

كان ديمتريوس طريح الفراش يعاني مرضاً خطيراً في پلّلا Pella بينما راح پيروس يبتلع مقدونيا متقدماً حتى مدينة إديسا Edessa. ولكنه أسرع بطرده بعد أن تماثل للشفاء، ثم عقد معه صلحاً إذ لم يكن يريد إشغال نفسه بسلسلة من الحروب المحلية مع أحد جيرانه بينما ركّز أفكاره في هدف آخر؛ ألا وهو محاولة استعادة إمبراطورية أبيه. وكان استعداده يناسب آماله العريضة ومشروعه الجسيم. فقد باشر بتجنيد ثمانية

وتسعين ألفاً من المشاة وزهاء اثني عشر ألفاً من الخيّالة، وبدأ في بناء عمارة بحرية تتألف من خمسمائة سفينة، بعضها بناه في اثينا، وبعضها في كورنث، وجزء في خلقيس وبالقرب من پللا وكنت تراه كثير الحركة والتنقل بين هذه الأحواض لإصدار أوامره والإشراف على التصاميم. وكان الذهول يرتسم على الوجوه عندما يتأمل المشاهد الكثيرة والضخامة فالى ذلك الحين لم يكن معروفاً في عالم السفن بارجة ذات خمس عشرة طبقة أو ست عشرة. لقد بنى بطليموس فيما بعد سفينة ذات أربعين طبقة طولها مائتان وثمانون كيوبيتاً، وارتفاعها حتى قمّه مؤخرتها ثمانية وأربعون كيوبيتاً، فيها أربعمائة نوتي، وأربعة آلاف جذّاف، وتتسع لثلاثة آلاف جندي تقريباً للحرب على ظهرها. على أن هذه السفينة كانت للاستعراض والمظهر لا تُستخدم في الحرب. وهي أشبه شيء بصرحٍ مشمخرّ ثابت البنيان على ساحل البحر لا يمكن تحريكها إلاّ بعد الجهد الجهيد وتِعريضها للمخاطر. أما سفن ديمتريوس هذه فقد صُمّمت للقتال فضلاً عن الاستعراض. ومنظرها لا يقلّ بأي حالٍ عن فائدتها وهي تثير الإعجاب حقاً بسرعتها ومتانتها مثلما يثيره جِرمها.

هذه الاستعدادات الهائلة لحملة آسيا التي لم يجر مثلها منذ غزوة الإسكندر لها قرّبت ما بين سلوقوس وبطليموس وليسيماخوس فعقدوا حلفاً دفاعياً. كما بعثوا بسفرائهم إلى پيروس ليحمل على القيام بعملية مشاغلة حربية عن طريق مهاجمة مقدونيا. ولم يكن هذا بحاجة إلى كثير تفكير بقيمة معاهدةٍ يعقدها ديمتريوس، فهي لديه مجرّد وسيلة من الوسائل التي تساعده على اختيار عدوّه ومهاجمته. فبادر پيروس إلى قبول عرضهم. وكان ديمتريوس في منتصف مرحلة الاستعداد، فما وجد نفسه إلاّ والقتال يكتنفه من جميع الجهات. بطليموس يغزو بلاد اليونان بأسطول جبّار، وليسيماخوس يدخل مقدونيا من جهة تراقيا، وپيروس يقتحم حدودها من جهةٍ إيپيرون، فيجتاح هذان الأخيران بلاده وبعيثان فيها سلباً وتدميراً. ترك ديمتريوس ابنه للاهتمام بمصير بلاد اليونان وتقدّم لإنقاذ مقدونيا واختار ليسيماخوس. وبلغه وهو في تقدمه أن پيروس استولى على بيرويا Beroea. فسرى النبأ إلى الجنود بسرعةٍ وقضى على النظام وفقد السيطرة وامتلأ جو المعسكر بالبكاء والعويل وصيحات الغضب والقدح في ديمتريوس وصبّ اللعنات والشتائم عليه. وأعلنوا أنهم لن يبقوا بل سيذهبون لإنقاذ بلدهم وأصدقائهم وذويهم. وكانت نيّتهم الحقيقية الانتقاض على ديمتريوس والانضمام إلى ليسيماخوس. فرأى ديمتريوس أن أفضل ما يمكن عمله هو إبعادهم قدر المستطاع عن ليسيماخوس لأنه ابن بلدهم وفي جيشه كثيرون يعطفون عليه

ويحبونه، وهو قادم جديد وأجنبي عنهم يصعب تفضيله لذاته. غير أنه وجد نفسه على خطأ مبين في تقديره هذا. فما إن أصبح قريباً من پيروس وضرب خيامه أمامه حتى سرت نفحة إعجاب كامن ببسالته وإقدامه. وكان الجنود يتناقلون خلفاً عن سلفٍ القول المأثور بأن خير الملوك هو أشجع الجنود. ولطالما تحدّثت الألسن عن معاملته الكريمة لأسراه وعدالته. ولا نطيل فقد كان جنود ديمتريوس يريدون استبداله، ووجدوا في پيروس خير بديل. وفي مبدأ الأمر خرجت شراذم المؤخرة عليه، وما مرّ زمن حتى أعلن الجيش برمّته عصياناً وبرز عدد منه إلى ديمتريوس، وأبلغوه بصراحة أن يعجّل في الرحيل إن كان يقيم وزناً لحياته. لأنهم قرروا ألاّ يجازفوا بأرواحهم بعد اليوم ليؤمّنوا له عيشه الباذخ وليمتّعوه بالملذّات. لا شك أنه كلام معقول صحيح إذا قورن بما سمعه من قبل. فلم ير بدّاً من الانسحاب إلى خيمته وأبدل ثيابه الملكية كما يفعل الممثلون بثياب عادية، وتسلل خارج المعسكر، وما إن غاب خياله عن النظر حتى شرع الجنود يختصمون ويفتك بعضهم ببعض لحيازة أسلاب خيمته. إلاّ أن پيروس وصل فوراً ووضع يده على المعسكر ولم يقع حادث مؤسف خلال ذلك. ثم عمد إلى اقتسام مقدونيا مع ليسيماخوس بعد أن ملك عليها ديمتريوس سبع سنين متواصلة.

وذهب ديمتريوس إلى كساندريا Cassandria بعد أن فقد كل شيء. وأدرك فيلا حزن عظيم ولم تتحمّل رؤية زوجها في هذه الحالة المزرية من سوء الطالع لا يعدو شخصاً عادياً منفياً عن بلاده. فرفضت أن تتعلق بأملٍ آخر. وقررت ترك حال لا ثبات له ولا استقرار إلاّ في الكوارث والنوائب. فشربت سُمّاً وماتت. وشد ديمتريوس الرحال إلى بلاد اليونان وهو مصرّ على التعلّق بالحطام. وهناك جمع أصدقاءه وضباطه حوله. يقدّم لنا فيلاوس في مسرحية سوفوكلس صورة عن تقلّب أحواله فيقول:

«. . . أما أنا فقد وجدت مصيري، واأسفي -
يدور فوق عجلة الآلهة السريعة.
فيظل في تقلّب وتحوّل، مثل أشكال القمر الجميل
لا يستمر ليلتين على حالةٍ. بل يبدو أولاً في الظلّ
هلالاً ثم يكبر ويزداد جمالاً حتى يكتمل بدراً
ثم يتناقص شكله الكامل ويتضاءل حتى يختفي تماماً».

يصدق هذا التشبيه على ديمتريوس. فترى حظه في ارتفاع، وإذا به يتضاءل ويتناقص، ثم يزيد ليحطّ فجأةً وهكذا، في طور ضموره وخمول شأنه يسطع ضوءه مرة أخرى وتبدأ وسائل القوة تُقبل عليه شيئاً فشيئاً فتحيي في نفسه الأمل ثانيةً. ظهر في مبدأ

الأمر في ثياب رجل بسيط يطوف في المدن عاطلاً عن مظاهر الملك. ولقيه أحدهم في ثيبه فتذكر به قصيدة ليوربيدس بلغ فيها كبد الحقيقة إذ قال فيها:

«ذليل أمام البشر، منبوذ من القوى الإلهية

قادم إلى دركه Dirce وإلى جهة إسمينوس Ismenus».

وسرعان ما أخذت آماله تنتعش وتسلك سبيلها الملكيّ. إذ راح يجمع حوله اطار مملكةٍ. وأهدى إلى الثيبيين دستورهم السابق. أما الأثينيون فقد نبذوه وعزلوا دفيلوس Diohilus كاهن «الربّين الحارسين» في تلك السنة وأعادوا الأرخون كالسابق. وأرجعوا السنة إلى ما كانت عليه. ولما سمعوا أن ديمتريوس لم يعد ضعيفاً كما ظنّوا أرسلوا إلى پيروس في مقدونيا يلتمسون حماية منه. وعندها ثار غضب ديمتريوس وزحف على أثينا وألقى حصاراً محكماً حولها. فضاق الأمر بهم وأرسلوا إليه قراطس Crates الفيلسوف وهو رجل ذو نفوذ وسمعة فنجحت وساطته بحكمته وحسن تصرّفه واقنع ديمتريوس برفع الحصار. ثم إنه جمع كل سفنه وأصعد إليها أحد عشر ألف راجل مع الخيّالة وأقلع بها إلى آسيا وهدفه انتزاع إقليمي كاريا وليديا من قبضة ليسيماخوس. ووصل إلى ميليتوس فالتقى هناك يوريديكي Euridice شقيقة فيلا وكان معها بنتها بطليمياس التي ولدت لها من الملك بطليموس وهي خطيبة ديمتريوس كما ذكرنا، فتزوج منها هناك. وشرع في تنفيذ خططه وواتاه الحظّ في أول الأمر، حتى أن مدناً عديدة شقّت عصا الطاعة وانضمّت إليه. كما أنه نجح في الاستيلاء على المدن التي امتنعت عليه لاسيما سارديس. والتحق به أيضاً عدد من قواد ليسيماخوس بجنودهم وأموالهم. إلاّ أنه انسحب إلى فريجيا عازماً التوجّه إلى أرمينيا عند وصول أغاثوكليس ابن ليسيماخوس على رأس جيش. وكان يرى أن تثبيت قدمه في أرمينيا يتيح له الفرصة لإطلاق لهيب الثورة في ميديا وبذلك يتمركز في شرق آسيا، حيث يسهل على قائدٍ هاربٍ مثله أن يجد له مائة طريقة وطريقة للروغان والهرب. على أن أغاثوكليس جَدّ في إثره دون أن يمنحه راحة. ووقعت عدة اشتباكات صغيرة كانت الغلبة فيها لديمتريوس. لكن مضايقة أغاثوكليس اشتدت. حتى أزهق أنفاسه بغاراته المستمرة عليه وأظهر رجاله مللهم ونفورهم من أهدافه وهي كما تصوّروها: الابتعاد بهم مسافة كثيرة في مجاهل أرمينيا وميديا. وتفشّت المجاعة فيما بينهم وأخطأوا في عبور نهر ليكوس Lycus ففقدوا بسبب ذلك عدداً كبيراً منهم إذ جرفهم التيار وأغرقهم. على أن روح الدعابة لم تفارقهم، فقد عمد أحدهم إلى تثبيت رقعة على باب خيمة ديمتريوس كتب فيها بيتين لأوديب Oedipus أجرى فيهما بعض التغيير:

«يا ابن الشيخ الأعمى أنتيغونس إلى أية بلادٍ جئت بنا؟».

وبدأ الطاعون يفتك بهم فضلاً عن الجوع، وهو ما لا مناص منه عندما تلجئ الضرورات الجيوش إلى الاعتياض عن جراياتها المعتادة بما يتيسّر لها من قوت. وبهذا الوباء فقد ثمانية آلاف من رجاله، فانسحب بالبقية إلى طرسوس. ولما كانت هذه المدينة من أملاك سلوقوس فقد حرص أن يجنّبها السلب والنهب متوخّياً أن لا يلحقه أي ضررٍ. وكان يصعب عليه ضبط اندفاع جنوده وهم في أشدّ حالات الضيق. فقد عمد أغاثوكليس إلى سَدّ منافذ جبل طرسوس وضيّق الخناق عليه. فلم ير بدّاً من الكتابة إلى سلوقوس. وبدأ رسالته بالتظلم من سوء حظّه، ثم انتقل إلى الرجاء والتوسّل، وتحريك عاطفة الحنان على قريب له ابتُلي بالأرزاء والمِحن حتى رقّ له أعداؤه وأشفقوا عليه. فأثرت رسالته في نفس سلوقوس وأصدرا أوامره إلى حكام تلك الأقاليم بإكرام وفادة ديمتريوس وتزويده بما يتفق ومقامه الملكي، وبما يكفي جنوده من الأرزاق. إلاّ أن باتروكليس وهو رجل محترم الرأي عند سلوقوس وصديق مخلص وموضع ثقة كبيرة أشار عليه قائلاً: «إن نفقات إعاشة هذا العدد من الجنود ليست من الأهمية بشي. ولكن من خطل السياسة أن يبقى ديمتريوس في بلاده. فهو من دون سائر ملوك عصره، عنيف، مغرم بالمخاطرات جريء في اطّلاب المغامرات. وهو الآن يعاني وضعاً يغري أكثر الناس اعتدالاً ودماثة بمحاولات جنونية يائسة». أثارت هذه النصيحة هواجس سلوقوس فتحرّك بجيش جرّار نحو كيليكيا فغلبت الدهشة على ديمتريوس من التغير الفجائي وتدبّر أمر سلامته بالانسحاب إلى أشدّ المواضع وعوثة ومناعة من جبل طرسوس. وأرسل من مربضه هذا رسلاً إلى سلوقوس يرجوه السماح له بالبقاء مع جيشه في محلّ ما بين قبائل البرابرة المستقلة. وبذلك يتسنّى له أن يجعل من نفسه ملكاً صغيراً، وأن يختم حياته هناك بعيداً عن المشاكل والمتاعب والتنقل. أما إذا رفض طلبه هذا فليقدّم على الأقل قوتاً لجنوده أثناء الشتاء وأن لا يعرّضه وهو في وضعه المحزن هذا لشماتة أعدائه وحقدهم.

إلاّ أن حسد سلوقوس وهواجسه جعلته يتبيّن في كل ما كتبه سوء النيّة. فأجاب أنه يسمح له بالبقاء شهرين في كاتاونيا Cataonia ولا أكثر من هذا، على أن يرسل إليه فوراً كبار أصدقائه لإبقائهم رهائن لديه حتى رحيله. ثم عمد في الوقت نفسه إلى تحصين كل الممرات المؤدّية إلى سورية. فوجد ديمتريوس نفسه أشبه بالوحش الضاري في الشرك، مطوّقاً من كل الجهات. والجأه يأسه هذا إلى الدفاع المستميت عن نفسه فأخذ يشنّ الغارات على البلاد واستظهر على سلوقوس في عدة هجمات شنّها

هذا عليه. ونذكر منها تعرّضه لهجوم العجلات ذات الأسنّة المنجلية. فتحاشى الهجوم وراغ منه ثم كرّ على المهاجمين فهزمهم. ودفع بالجنود الذين وضِعوا لحراسة الممرات إلى الوراء وسيطر على الطرق المؤدّية إلى سورية. فارتفعت معنوياته كما دبّت في نفوس جنوده الحماسة فقرر الاندفاع إلى الأمام دون تردّد والدخول في معركة فاصلة مع سلوقوس يتقرّر فيها كلّ شيء. وكان سلوقوس في واقع الأمر يعاني القلق والهمّ. فهو من جهة يكره أن يأتيه أيّ عون من ليسيماخوس لأنه يخشاه ولا يثق به. وهو من جهةٍ يحجم عن الدخول في معركة مع ديمتريوس لأنه يعرف مدى بأسه وتقلّبات حظّه العجيبة التي طالما ارتفعت به فجأة في أسفل سافلٍ إلى أعلى عليّ.

وتقدم سلوقوس منه وضرب مخيّمه على مقربة، ثم حرّك ديمتريوس جنوده يبغي مباغتته ليلاً. وظلّ سلوقوس إلى آخر لحظة يجهل كلّ شيء وآوى إلى فراشه حين أقبل أحد الهاربين وأعلمه باستعداد العدوّ، ولم يجد لنفسه الوقت الكافي ليهبّ من فراشه وهو في أشدّ حالات الانزعاج لينذر رجاله، وكان يصدر الأوامر لضباطه ويوصيهم باليقظة والحذر لأنهم سيجابهون وحشاً ضارياً رهيباً وهو يحشر رجليه في حذائه. واستنتج ديمتريوس من الضوضاء القائمة في معسكر العدو أن الأمر المبيّت لم يعد سرّاً وان خطته انكشفت فسحب جنوده بسرعة. وفي صباح اليوم التالي كان سلوقوس يضغط عليه ضغطاً شديداً. وأمّر أحد ضباطه على الجناح الأيسر ودحر القوات التي تواجهه. وترجّل سلوقوس ونزع خوذته وتناول ترساً وتقدم عن صفوف الجنود المرتزقة الأمامية وكشف لهم عن شخصه وطلب منهم أن يتبعوه ويتركوا ديمتريوس قائلاً لهم إنما لأجل سلامتهم امتنع عن المعركة هذه المدة الطويلة. فحيّوا سلوقوس تحية الملك وانفصلوا عن ديمتريوس وانضمّوا إلى سلوقوس دون أن يرفع أحد منهم يده بضربةٍ.

وهنا أدرك ديمتريوس أنه وصل إلى نهاية لعبة الحظّ، ولم يعد بعد أمل في انقلاب. فهرب إلى شِعاب جبال أمانوس وقذف نفسه مع شرذمة من الأصدقاء والأتباع في أحشاء غابة كثيفة وظلّ هناك ينتظر الليل وكل قصده أن ينجو بجلده بالتوجّه نحو كاونس Caunus إن تيسّر له ذلك. فقد كان يأمل أن يجد سفنه متأهّبة لنقله، لكنه وجد بعد سؤال الربابنة أنهم لا يملكون أقواتاً ولو ليوم واحدٍ فبدأ يفكر في وسيلة أخرى للنجاة. وفيما هو يقلّب وجوه الرأي وصل صديقه سوسيگينس Sosigenes ومعه أربعمائة قطعة من الذهب وبهذا الفرج راوده الأمل بالوصول إلى الساحل. وما إن بدأ الظلام يسدل أستاره حتى انطلق نحو الشعاب. إلاّ أن ألسنة النيران المشبوبة أنذرته باحتلال العدوّ لها فودّع كلّ أمل له بهذا السبيل وانسحب إلى مقرّه في الغابة ببعض

رجاله. فقد هرب بعضهم ولم تبق في الباقين رغبة في ملازمته. وتجرّأ أحدهم على القول بأن الأفضل له تسليم نفسه لسلوقوس، فسمعه ديمتريوس فاستلّ حسامه وكاد يطعنه إلاّ أن أصدقاءه حالوا دون ذلك. وراحوا يبذلون الجهود لإقناعه بهذا الحلّ حتى رضخ وأرسل إلى سلوقوس يعرض عليه الاستسلام دون قيد أو شرط.

عندما أُبلغ سلوقوس بهذا قال: ليس حسن حظّ ديمتريوس الذي هداه إلى طريق نجاته هذا، بل حسن حظه بالأحرى. فقد أتيح له أن يضيف إلى سُمعته مظهراً من مظاهر رأفته وكرمه. وبادر في الحال إلى إصدار الأمر لضباط إعاشته ومديري شؤونه الخاصة باعداد سرادق ملكي وكل ما يليق باستقبال فخم مع ضروب التسليات. وكان بين حاشية سلوقوس شخص يدعى أپللونيدس وهو من أصدقاء ديمتريوس المقرّبين في الماضي. فكان والحالة هذه أصلح من يُرسَل من لدن الملك لاستقبال ديمتريوس كي يزداد اطمئناناً ويجيء وهو متأكد من استقباله كصديق وقريب. ولما انتشر نبأ تلك الوفادة أسرع الحجّاب والسعاة والضباط (في مبدأ الأمر قلّة منهم، ثم كلهم تقريباً) إلى ديمتريوس يتسابقون في تقديم الاحترام له. وقد زيّن لهم خيالهم أن ديمتريوس سيتبوّأ المكانة الأولى عند الملك. وأحدثت هذه الضجة أثرها الفوري وانقلبت العاطفة الصادقة إلى حسدٍ وشكّ وتيسّر للخبثاء وسيّئي السريرة أن يلمحوا بسهولة أن إنسانية سلوقوس هذه لا تنطوي على أيةَ حكمةٍ، وسيكون أول ظهور لديمتريوس سبباً في هيجان خطيرٍ في الجيش. ولهذا فبينما كان أپللونيدس ومعه الجمّ الغفير يشرح لديمتريوس وهو في غاية البهجة نوايا سلوقوس الطيبة، وان عليه - بعد هذه الأرزاء والمصائب - أن ينسى هواجسه ويطرح أي شعور يخالجه بالمهانة لتسليمه وأن يثق بالآمال الطيبة. فيما كان ديمتريوس يصغي إلى هذه الأقوال، وإذا بپاوسانياس يصل على رأس ألف من الحرس مشاة وفرساناً فيحيطون به، وبعد أن فرّقوا الناس المستقبلين أخذوه لا إلى سلوقوس بل إلى الخرسونيز في سورية. ووضِع هناك تحت حراسة قوية ووفّروا له ما يكفي من الخدم وأسباب العيش، وسُمح له بمسافة محددة للنزهة على ظهر الخيل أو السير، وخُصّصت له غابة للصيد، وسُمح لأصدقائه ورفاقه في المنفى بزيارته. وكانت ترده من سلوقوس رسائل لطيفة من حين لآخر يطمئنه فيها ويشير إلى قرب إخلاء سبيله حال وصول انطيوخوس وستراتونيكي.

بعد أن أيقن ديمتريوس بحكم القدر بعث برسائل إلى أعوان ابنه وإلى قوّاده وأصدقائه في أثينا وكورنث يوصيهم بألاّ يقيموا وزناً لأي رسالة تصلهم باسمه ولو

كانت مختومة بختمه، وأن يعتبروه في عِداد الموتى. وأن يحافظوا على سلامة المدن وكل ما بقي من أملاكه لابنه وخليفته أنتيغونس.

استقبل أنتيغونس نبأ أسر أبيه بحزن عميق ولبس الحداد عليه. وكتب رسائل لجميع الملوك ولسلوقوس نفسه مستعطفاً له راجياً، وعرض أن ينزل عن كل ما بقي من أملاكه بل أن يضع نفسه رهينة في مكانه. وأيّده أمراء ومدن كثيرة في تلك الشفاعة إلاّ ليسيماخوس فقد عرض على سلوقوس مبلغاً كبيراً من المال لقاء قتله. لكن سلوقوس الذي لم يحاول قط إخفاء بغضه بليسيماخوس، صرحّ بأنه أكبر غول بربريّ، إذ يفكر في هذا العمل الوحشي. على أنه ظلّ يرجئ ويسوّف، محتفظاً بالفضل لأنطيوخوس وستراتونيكي على ما يقول.

تكرّرت ضربات الحظّ على ديمتريوس فتحمّلها حتى بات معتاداً وبدت له بمرور الزمن محتملةً. في مبدأ أمره عكف على ترويح نفسه بمختلف الأشكال فكان يخرج للصيد ويركب الخيل... إلاّ أنه أهمل نفسه شيئاً فشيئاً. وبعد فترة من الزمن عاف كلّ شيء وانصرف إلى لعب النرد وشرب الخمر، وكان يقضي فيهما جُلّ يومه. الأمر سواء أإتخذها سبيلاً لنسيان واقعه الذي كان يعذّب فكره وهو صاح فيغرقه في الخمر، أم أنه وجدها السعادة الحقيقية التي طالما صبا إليها وحنّ فكان من الغباء والحمق أن انصرف عنها تحت إغراء من الشهرة الزائلة والطموح التافه الذي لم يأته بغير الكوارث له وللآخرين. إن أرفع درجات السعادة التي ظنّ أن السلاح والأساطيل والجيوش ستنيله إياها توصّل إليها الآن في الخمول والراحة.

والحقيقة هي أن كل غاية من الحروب وركوب الأخطار والمتاعب التي يتعرّض لها الأمراء المنكودون هي عبث باطل. إن حماقتهم وبؤسهم لن يكونا قاصرين على جعلهم الترف والمتع غاية حياتهم بدلاً من الفضيلة والتسامي، بل على جهلهم أين يكمن ذلك الترف والمتع. وظلّ ديمتريوس رهن الأسر في الخرسونيز ثلاث سنين. وبعدها دهمه المرض بسبب الخمول والعزوف عن الرياضة والعكوف على الخمر وكثرة الأكل فمات من جرّاه وله من العمر أربع وخمسون سنة. ونالت الألسن من سلوقوس وأدركه أسف شديد لضعفه أمام شكوكه، وتماديه فيها. فلم يرقَ إلى فعل دروميخيتوس Dromichetes البربري التراقي الذي أظهر من المعاملة الإنسانية والأخلاق الملكية لأسيره ليسيماخوس ما لم يظهره لأسيره وقريبه.

وثمّ فصلٌ مرسحي درامي في مراسم التشييع التي أجريت لجثمان ديمتريوس. فعندما علم ابنه أنتيغونس بمجيء رفاته من سورية خرج للقائه بسائر أسطوله فسُلّم له

في إناء ذهبي، فوضعه في أكبر سفينة قيادةٍ. وكانت كل مدينة ترسو فيها هذه العمارة ترسل تاجاً ليزيّن به الإناء، ويتوافد بعض المواطنين منها للمشاركة في المأتم ومراسم الجنّاز. ولما اقترب الأسطول في ميناء كورنث عُرِض الإناء وهو مغطّى بالأرجوان يعلوه التاج الملكي على سطح السفينة. واستقبله على اليابسه سرية من الشبّان المدجّجين بالسلاح. وعزف كزينوفانتس Xenophantes أشهر موسيقيي زمانه على المزمار أثقل ألحانه، فنسّق الجذّافون ضربات مجاذيفهم على إيقاعه عند دخول السفينه المرفأ فبدا وقعاً يشبه ضربَ الصدور في موكب التشييع، مع ضبط الردّة والفواصل والإيقاعات الموسيقية. وأثار أنتيغونس العواطف بثياب الحداد وبذرفه الدموع، وأدمى قلوب المشيّعين الذين احتشدوا على الساحل. وبعد أن قُدّمت التيجان والأكاليل وغير ذلك من مظاهر التكريم في كورنث نُقِل الإناء إلى ديمترياس وهي المدينة التي سمّيت باسمه وجُمع سكانها من قرى إيوكلس Ioclus.

لم يخلّف ديمتريوس أولاداً من فيلا غير ستراتونيكي وأنتيغونس، على أنه رُزق بولدين من أمّ أليرية، وكلاهما يحملان اسمه ولُقّب أحدهما بالنحيف. وله ولد أيضاً من بطليمياس وقد حكم كيرينه، وولد آخر من ديداميا اسمه ألكساندر عاش ومات في مصر. وهناك قائل يزعم أن يوريديكي ولدت له ابناً يدعي كورابوس Corrbus.

ظلت أسرته تعقب ملوكاً على مقدونيا حتى پرسيوس Perseus آخر السلالة. وبعده دخلت البلاد حكم الرومان.

والآن بعد أن أتينا إلى ختام الدراما المقدونية فلنهيّئ أنفسنا للتأمّل في الدراما الرومانية.

مارك أنطوني

MARCUS ANTONIUS

(Mark Antony)

٨٢–٣٠ ق.م

مارك أنطونيوس (أنطوني)(*)

جدّ أنطوني كان محامياً شهيراً، قتله ماريوس لانحيازه في الحرب الأهلية إلى سيلّلا. وأبوه أنطوني الذي لقّب بالكريتي Creticus(1) لم يصبح شهيراً أو بارزاً في الحياة العامة. إلاّ أنه عُرف بالطيبة والصلاح ولاسيما بالجود والسخاء كما يمكن الحكم عليه من هذه الحادثة: لم يكن واسع الرزق كثير الغنى، ولذلك كانت زوجه تميل إلى الحيلولة دون استرساله وتماديه في البذل دون حسابٍ. قصده مرة صديق كان يشكو ضيقاً مالياً ليستلف منه. ولم يكن لديه وقتئذ مالاً. فأمر أحد خدمه أن يأتي إليه بماءٍ في القصعة الفضية الفلانية. وعندما جيء إليه بما طلب بلّل وجهه كأنه يهمّ بحلاقة لحيته ثم أرسل الخادم في مهمةٍ أخرى، وقدّم لصديقه هذا القصعة ليتصرّف بها بالشكلّ الذي يسدّ به خلّته ويُفرّج عن ضيقه. ولما كثر البحث والسؤال عن مصيرها في المنزل، وركب امرأته حزن عظيم وكادت تأمر بتفتيش الخدم واستجوابهم واحداً واحداً، اعترف بما فعل وسأل العفو منها والمغفرة. وزوجه يوليا هي من أسرة قيصر؛ وهي أهل لأن تتبوّأ مكانتها بين أشرف نساء زمانها محتِداً وأعلاهم خُلقاً. فقد أشرفت هي على تربية أنطوني، وعند وفاة أبيه تزوّجت لنتولوس كورنيليوس الذي أنفذ فيه شيشرون حكم الموت لأنه كان من أقطاب المؤامرة الكاتيلينية. ولعل هذا هو السبب الرئيس للحقد الذي حمله أنطوني لشيشرون. يقول: حرّم على الجثة أن تُدفن حتى توسّطت أمّه بامرأة شيشرون فسُلّمت لها. إن هذا على ما يبدو خطأ جسيم إذ لم يمنع دفن احدٍ ممن نُفّذ فيهم حكم الموت في فترة قنصلية شيشرون.

(*) آثرنا أن نطلق عليه أنطوني في هذا الكتاب، وهو الاسم الذي اختاره له كل المترجمين العرب، خشية أن يتوهّم القارئ أن المقصود هو غيره.

(1) هذا اللقب أعطي له على سبيل السخر به. فقد عُهدت إليه قيادة أسطول ضدّ القرصان، ففقد جزءاً كبيراً منه في قتالٍ بحري ضدّ الكريتين في العام ٧٤ ق.م. وتوفي بعد ذلك مباشرةً، تاركاً أبناءً ثلاثة أكبرهم مارك أنطوني.

شبّ أنطوني فتىً وسيماً للغاية. لكنّ سوء حظّه العظيم جعله يتعرّف على كيوريو ويؤاخيه. وكان هذا شاباً خليعاً مُغرقاً في ملاذه. ولأجل أن يجعل من صديقه هذا أداة طيّعة له قذف به إلى حياة الخلاعة والتهتّك ومعاقرة الخمر وقاده إلى طريق البذخ والسفه حتى أثقل كاهله بالديون وهو في مطلع شبابه. وبلغ ذلك الدين مائتين وخمسين تالنتاً كفله به كيوريو. وتناهى الأمر إلى أسماع كيوريو الأب فطرد أنطوني من منزله، فلصق بكلوديوس فترة قصيرة من الزمن، وهو غوغائي وأسوأ ديماغوغيّي زمانه سُمعةً. وشاركه في أعمال العنف والفوضى إلاّ أن السأم ما لبث أن تملّكه من تصرّفاته الشائنة، ولعلمه بأن حزباً مناوئاً تألف ضده، بادر إلى ترك إيطاليا وسافر متجوّلاً في بلاد اليونان. وهناك درس الخطابة والفنون العسكرية، واتخذ ما كان يدعى في حينه «الأسلوب الآسيوي» في الكلام وتمكن منه. وكان هذا الأسلوب في أوج شيوعه وهو في الواقع يناسب كثيراً أسلوب حياة أنطوني التي حفلت بالزهو الفارغ والتباهي والشراسة والطموح الطائش.

بعد أن مكث حيناً من الوقت في اليونان دعاه غابينيوس - الذي كان إذ ذاك قنصلاً - للعمل معه في حروبه السورية فرفض أول الأمر لأنه لم يشأ الخدمة في الجيش كإنسان عاديّ. إلاّ أنه تسلّم منه أمراً بتعيينه ضابطاً في صنف الخيّالة فرحل إليه. وكان أول معركة خاضها ضدّ أرسطوبولوس Aristobulus[٢] الذي قاد ثورة اليهود. فكان أول رجل تسلّق على الاستحكامات وأجلى قوات هذا الثائر عنها. ثم هزم جيشاً له يفوقه عدداً بحفنةٍ من الرجال ولم ينجُ من قوات خصمه إلاّ القليل، فقد قضى عليهم جميعاً وأسر أرسطوبولس وابنه.

بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها اتصل بطليموس أوليتس Ptolemy Auletes[٣] بغابينيوس وفاتحه في أمر توحيد قواتهما وغزو مصر وإعادتها إلى عرشه هناك، ووعده بدفع رشوة له قدرها عشرة آلاف تالنت. ووقف معظم الضباط ضدّ هذه العملية ولم يكن غابينيوس نفسه متحمّساً لها كثيراً، إلاّ أنه كان واقعاً تحت إغراء

(٢) كان أرسطوبولوس ملكاً وكاهناً اعلى لليهود. أسره پومپي في العام ٦٣ ق.م وأرسله إلى روما إلاّ أنه أفلت من الأسر في العام ٥٧ ق.م.

(٣) هو والد كليوپاترا، اضطر إلى الهرب إلى إفسس بسبب سخط المصريين عليه للضرائب الثقيلة التي فرضها. استخدم هذه الأموال المجباة لرشوة الموظفين الرومان حتى يعلنوه صديقاً للرومان وحليفاً. وقد أعيد إلى العرش المصري في العام ٥٥ ق.م.

العشرة آلاف. على أن أنطوني الذي كان مدفوعاً بطموحه إلى المعالي وإلى الشهرة وإلى إرضاء بطليموس ألقى بثقله إلى جانبه وأقنع غابينيوس بالمشروع. وكان الإجماع قد تمّ على أن أخطر ما في العملية ليس القتال وإنما اجتياز الصحراء إلى پلوسيوم Pelusium فهي أرضٌ تغطيها رمال كثيفة قاحلة لا ماء فيها حتى مستنقعات سربونيا Serbonia وأكريگما Acregma[٤]، ويُسمّي المصريون هذا الإقليم بثقب تنفّس طيفون. ولكن من المحتمل أن المستنقع يحتوي بالأصل على ماءٍ تركه البحر الأحمر عند انحساره أو أنه ترشّح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط وعن البحر الأحمر عند انحساره أو أنه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط في أضيق موضع منه. وصدر الأمر لأنطوني بالتقدم على رأس الخيّالة فلم يكتف بالسيطرة على البرزخ بل استولى أيضاً على مدينة پلوسيوم الكبيرة وأسر حاميتها. وبهذا أمّن سلامة الطريق للقسم الرئيس من الجيش الروماني. ووضع أساساً للمعركة التي كان أي قائد يستطيع أن يودع فيه ثقةً كبيرة بالنصر. وفي هذه المناسبة حتى العدوّ نفسه أفاد من حبّ أنطوني للمجد. إذ ما إن دخل بطليموس الملك پلوسيوم حتى همّ مدفوعاً بحقده على المصريين بوضع السيف في رقاب الأهالي جميعاً فحال أنطوني بينه وبين ذلك ومنع قيام المذبحة. وتلت ذلك سلسلة من المعارك الدامية، كان أنطوني يثبت فيها دائماً بسالته وعبقريته القيادية. وأشهر تلك المواقف العملية التي قام فيها بحركة التفاف والإحاطة بالعدو، وضرب مؤخّرته، فأتاح بذلك كسب الرومان للمعركة وكانوا يهاجمون من الأمام. ومُنح تكريماً وتقديراً مناسباً لكلّ المآثر. وقد أدهشت المصريين بصورة خاصّة إنسانيته التي أبداها تجاه أرخيلاوس[٥] المتوفّى. فمع أن أنطوني كان ضيفه وصديقه الشخصي فقد اضطر بحكم الظروف إلى قتاله أثناء حياته. ولكن عندما قُتِل حمل جثته ودفنها بتكريم ملكيّ. وبهذا خلّف اسماً عظيماً له عند الإسكندرنيين في حين كان رفاقه في الجيش الروماني يعدّونه جندياً لامعاً.

---

(٤) تقع پلوسيوم في أقصى شرق مصبّ النيل في الموضع التي تقوم عليه مدينة دمياط. وتيغون أخ إيزيس وأوزوريس وهو الإله الشرير عند المصريين يُعتقد أنه مدفون تحت مستنقعات سربونيا التي تبدأ بمسافة أميال قلائل من شرق پلوسيوم. وفي «الفردوس المفقود» لجون ملتون إشارة لهما. كما أن هيرودوس يصفهما أيضاً في الكتاب الثالث ف ٥ من تاريخه.

(٥) كان أرخيلاوس ابن قائد لميثريداتس بالاسم نفسه، واستسلم لسيلّلا. وتزوّج الابن ببيرينيكه Berenice بنت بطليموس أوليتس التي أصبحت ملكة على مصر عندما طُرد أبوها. واول مقابلة لأنطوني مع كليوپاترا ربما حصلت أثناء هذه الزيارة للإسكندرية: وكان عمرها إذ ذاك ١٤ سنة.

إلى جانب سجاياه، كانت ملامحه تنمّ عن وقار نبيل، بلحية نامية، يعلوها جبين عريض وبينهما أنف معقوف. وتتحد هذه التقاطيع بصورة تنمّ عن الرجولة والجرأة، مما يذكر الناس بتقاطيع مختلف وجوه أسرة أنطوني التي تنحذر من سلالة هرقل عن ابنه أنطون. وكان يلذّ لأنطوني أن يعزّز مظهره من صحة تلك الأسطورة. وكان أيضاً يعمد إلى تجسيمها في الأذهان باختياره زيّه فكلّما كان يبدو أمام حشد كبير من الناس يعمد إلى شدّ حزام جلبابه في أسفل بطنه عند أعلى الفخذين ويتمنطق بسيف عريض يتدلّى إلى جنبه ويشتمل بعباءة فضفاضة. والواقع أن هذه الصفات «الهرقليّة» هي التي كانت تصدّ عنه الناس المتنطّعين أعني خيلاءه وكلامه التهكمي، وشربه الخمر علناً، وجلوسه مع رجاله وهم يأكلون، أو تناول طعامه واقفاً من موائد الجنود العامة. مما جعل ذلك مصدر سرورٍ لجنوده، إلى حدّ أنهم صاروا يحبّونه حبّ عبادة، وضعفه أمام سحر الجنس اللطيف يظهر جانباً جذّاباً من خُلقه، حتى أنه أكسبه عطف كثير من الناس. تراه كثيراً ما يساعد الآخرين في شؤونهم الغرامية. ويتقبّل دائماً بطيبة نفسٍ وسماحة المزاح الذي ينصبّ عليه من الآخرين. وإلى جانب هذا فإن سخاءه وبسطه اليد بالهدايا لأصدقائه وزملائه الجنود وضع أساساً مكيناً له عندما انطلق في درب السلطة. وقد دعمت هذه الصفات سلطانه عندما استطار ذكره وثبت أمره، بل ورفعت من شأنه، حتى عندما أخذت حماقاته وأخطاؤه العديدة تعمل على تقويضه. وينبغي لي أن أسجل هنا مثلاً واحداً لسخائه. أصدر أمراً بدفع مائتين وخمسين ألف درهم لأحد أصدقائه، وهو مبلغ يطلق عليه الرومان لفظة ديچيز Decies فاستكثر وكيله المبلغ وأصابه الذهول من ضخامته، ولأجل أن ينبّه أنطوني إلى ضخامة الهدية كدّس الفضّة أمام أنظار سيده. فمر بها أنطوني وسأل عن المبلغ الذي يعدّ هذا الكدس فقال الوكيل: إنه المبلغ الذي أمر بإهدائه لصديقه. ففطن إلى أن الرجل يستكثر المبلغ فقال:

- ظننت أن الديچيز أكثر من هذا بكثير؛ إن هذا شيء تافه، من الأوفق أن تضاعفه.

هذه الحادثة جرت فيما بعد. أما عن الوقت الذي أتكلم الآن عنه فإن الأمور في روما آلت إلى شفا الحرب الأهلية. وكان أن انشعب الرأي العام الروماني إلى حزبين: حزب الشيوخ[٦] الذي أسلم قياده لبومبي أثناء وجوده في العاصمة، وحزب العامة الذي كان يستمدّ قوّته من قيصر الذي كان يقود جيشاً رومانياً في بلاد الغال. وعند هذه

(٦) أي حزب الأريستوقراطية التي يمثلها أعضاء مجلس الشيوخ وطبقتهم.

المرحلة غيّر كيوريو صديق الصبا حزبه وأصبح واحداً من مشايعي قيصر[٧]، وأقنع أنطوني بالانضمام إليه. وكانت القوة الخطابية التي يتمتّع بها كيوريو السبب في سيطرته على الجماهير. وبتفريقه بلا حساب المال الذي كان يمدّه به قيصر ضمن انتخاب أنطوني لمنصب التريبيون، ثم لمنصب الأوگور[٨] وأعني به الكاهن الذي ينحصر واجبه في مراقبة حركة الطير. وما إن صار في المنصب حتى بدأ يستخدم سلطاته لمنفعة أولئك الذين يعملون لقيصر وينفّذون خططه. في أول الأمر وجد أن القنصل مارچللوس يقترح وضع جميع القوات العسكرية التي تمّ تجنيدها بإمرة پومپي، فضلاً عن تخويله صلاحية تجنيد وحدات جديدة. فعارض أنطوني هذا بإصدار مشروع قرار يقضي بإرسال الجنود الذين تمّت تعبئتهم إلى سورية لتعزيز جيش بيبلوس Bibulus الذي كان منشغلاً بحملته على الپارثيين، وأن لا يوضع المجنّدون الجدد تحت إمرة پومپي. وفي مناسبة أخرى، عند رفض مجلس الشيوخ تسلّم رسائل قيصر وقراءتها في الجلسة، استخدم أنطوني السلطات التي تخوّلها له وظيفته وقرأها علناً وبهذه الوسيلة ضمّ عدد كبيراً من الأنصار إلى حزب قيصر لأنه مكّن الشعب من الحكم بتأثير هذه الرسائل على أن مطالبه عادلة ومعقولة. وأخيراً عندما وضع أمام المجلس سؤالان: هل يجب أن يسرّح پومپي جيشه؟ وهل يجب أن يسرّح قيصر جيشه؟ انقسم الأعضاء فيما بينهم، وعندما صوّتت أقلية صغيرة على السؤال الأول، وصوّتت الأغلبية الساحقة على الثاني، نهض أنطوني وسأل سؤالاً ثالثاً: ألا يرى المجلس أن يقوم كل من پومپي وقيصر بتسريح ما لديهما من جيوش؟ هذا الاقتراح قوبل بالاستحسان وحظي بالرضى فطلب أنطوني وضعه في التصويت. لكن القنصلين عارضا في الإجراءات وعندئذ أخذ أنصار قيصر يتقدمون باقتراحات جديدة كانوا يرونها معقولةً إلاّ أن كاتو عارض فيها. ثم أمر لنتولوس القنصل بطرد أنطوني من القاعة مستعملاً صلاحيته. فأجاب أنطوني على هذا بإلقاء خطاب عنيف هاجم فيه معارضيه بعد تركه المجلس. ثم تنكر بثياب عبدٍ وبرفقة كوينتوس كاسيوس[٩] استأجر عربة وانطلقا للحاق بقيصر. وما إن وصلا

(٧) ضمّ قيصر كيوريو إلى حزبه، بإيفاء جميع ديونه عنه.

(٨) سرد پلوتارخ للحوادث هنا يشوبه غموض. فقد عاد أنطوني من مصر في العام ٥٤ ق.م وزار قيصر في مقره الشتوي ببلاد الغاليين. وكان في روما السنة التالية. وفي ٥٢ ق.م انتخب كويستوراً ورحل إلى بلاد الغال. وفي ٥٠ ق.م عاد إلى روما وعُيّن أوكوراً. وفي السنة التالية (٤٩ ق.م) انتُخب تريبوناً.

(٩) هو أخ كاسيوس المتآمر على حياة يوليوس قيصر.

حتى أبلغاه غاضبين بأن الأمور في روما بلغت أدنى حالة من الفوضى، إلى حدّ أن تريبيونات الشعب حُرِموا من حرية الكلام، وأن كل من يرفع صوته في سبيل العدالة والمساواة يُضطهد وتتعرّض حياته للخطر. وعندها أمر قيصر بنقض معسكره وزحف مغيراً على إيطاليا. ولهذا السبب كتب شيشرون في [«يليبياته» أن أنطوني كان سبباً لقيام الحرب الأهلية، مثلما كانت هيلين السبب في حروب طروادة. إلاّ أن هذا كذب واضحٌ. فقيصر لم يكن عاطفياً سريع التأثر، ولا بالذي ينبذ حساباته جانباً بعامل غضبٍ آنيّ. إن مجرّد رؤيته أنطوني وكاسيوس في ثياب رثّة يدخلان معسكره في عربة أجرة لن يدفعه إلى إثارة حرب على بلاده بوحي الساعة إلاّ إذا كان قد خطط لهذا العمل منذ وقت طويل. بالعكس، كان قيصر يتلهّف منذ أمدٍ بعيد إلى المجاهرة بالعداء، وهذه الحادثة زوّدته بالذريعة وبالحجة المقبولة ليس إلاّ. أما الغرض الحقيقي الذي دفعه إلى إثارة حرب ضدّ البشرية فهو نفسه الذي دفع الإسكندر وكورش من قبل - إنه ظمأ لا يُطفأ إلى التسلط والعظمة، وإلى أن يكون أعظم رجل في العالم. ومطمحه هذا لا يمكن الوصول إليه إلاّ باستظهاره على پومپي.

وتقدّم قيصر من روما واحتلّها وطرد پومپي من إيطاليا وقرر أولاً مهاجمة قواته في إسبانيا، ثم عندما نظم أسطولٌ في غيابه أن يعبر البحر إلى بلاد اليونان حيث عدوّه كان قد ثبّت أقدامه. وفي أثناء ذلك ترك حكم روما في يد ليپيدس Lepidus الذي كان پريتوراً، في حين سلّم قيادة الجيوش المرابطة في إيطاليا لأنطوني الذي كان واحداً من تريبيونات الشعب. ولم يعتم أنطوني أن ظفر بقلوب جنوده بمشاركتهم في تدريبهم وقضاء جُلّ وقته معهم، وتأمين الهدايا لهم كل ما عنّت مناسبة، على أن بقية الشعب كانت تراه من وجهة مختلفة، فهو أكسل من أن ينظر في شكاوى الناس، وأقلّ صبراً على سماع أولئك الذين يقصدونه مستعينين ومستجيرين. في حين ساءت سمعته بسبب وقائعه مع نساء وزوجات الآخرين. وبمختصر القول، إن نظام حكم قيصر الذي لم يبد عليه أي طابع استبدادٍ عند إدارة قيصر له بنفسه، جعله أنصاره وأصدقاؤه حكماً كريهاً لا يطاق. ومن أولئك أنطوني صاحب أكبر سلطة، ولهذا كان يعتبر أسوأ المخطئين.

ورغم كل هذا تجاهل قيصر كل التهم التي وجّهت إلى أنطوني عند عودته من إسبانيا وكان حكمه عليه صحيحاً. من ناحية كونه قائداً محنّكاً للرجال أظهر نشاطاً وشجاعة في إدارة الحرب. وأبحر قيصر من برنديزيوم بقوات صغيرة[١٠] فاجتاز البحر

---

(١٠) كان ذلك في مطلع العام ٤٨ ق.م.

الأيوني وأرجع سفن النقل لأنطوني وغابينيوس يأمرهما بتعبئة الجنود عليها على جناح السرعة واللحاق به في مقدونيا. ورأى غابينيوس مخاطر في العبور بحراً في فصل الشتاء وبدأ يسوق جيشه في الطريق البرّي صعداً. أمّا أنطوني الذي استولى عليه القلق المتزايد من موقف قيصر المحفوف بخطر تطويقه بقوات متفوّقة فقد تمكن من إجلاء ليبو Libo الذي كان قد ضرب الحصار على مرفأ برنديزيوم بمهاجمة بوارجه بزوارق خفيفة كثيرة العدد. ثم أنزل قوة تعدادها عشرون ألفِ راجلٍ وثمانمائة خيّال وانطلق في عُرض البحر وانكشف للعدو الذي راح يطارده، ولكنه نجا من قبضته بريح جنوبية قوية فجائية أحدثت هياجاً عظيماً في البحر فأبطات من سرعة السفن المطاردة، في حين دفعت الريح سفن أنطوني إلى ساحل صخريّ وجُرُف ذات مياه عميقة حيث أمل النجاة منها ضعيف. لكن ما عتمت الريح أن انقلبت إلى جنوبية غربية وأخذت تهبّ من اليابسة إلى البحر فبدأت سفن أنطوني تتهادى على صفحة البحر برقّةٍ وأمان. وأنشأ يرقب الساحل الذي انتشر عليه حطام أسطول عدوّه. فقد دفعت العاصفة بالسفن المطاردة إلى الساحل الصخريّ فاصطدمت به وتحطم معظمها تحطيماً كاملاً ووقع عدد كبير من الرجال ومقدار كبير من الأموال في يد أنطوني. ثمّ إنه احتلّ مدينة ليسّوس وبثّ ثقة عظيمة في نفس قيصر بوصوله في أحرج ساعة بهذه النجدة الكبيرة.

وتبعت ذلك فترة طويلة من الاشتباك المستمر، وبرز أنطوني في تلك المعارك كلها، بطلاً لا يُشقّ له غبارٌ. فأوقف مرتين هزيمة مُني بها الجيش ثم عاد يقوده إلى النصر في هجوم مدبّر. ولا عجب والحالة هذه أن ارتفع قدره عند الجنود حتى أصبح يلي قيصر مقاماً وقد بدا رأي هذا العاهل فيه واضحاً في فرساليا خاتمة المعارك حيث استأثر هو بقيادة الميمنة، في حين أناط قيادة هجوم الميسرة بأنطوني بوصفه أقدر ضابط في جيشه.

وبعد المعركة أُعلن قيصر دكتاتوراً فانطلق يعقّب پومپي وأرسل أنطوني إلى روما بمنصب قائدِ سلاح الفرسان وهو المنصب الذي يلي منصب الدكتاتور مباشرةً في المكانة الوظيفية وفي السلطان الفعلي عند وجود الدكتاتور. أما إذا غاب هذا فهو يمارس السلطة المطلقة وهو الحاكم المتفرّد تقريباً. وقد جرت السُّنّة أنه عند تعيين الدكتاتور يتوقف كل من يتمتّع بسلطة حاكم عن ممارسة سلطته في روما، إلاّ سلطة التريبيون فتبقى.

وكان دولابللا تريبيوناً في ذلك الحين، وهو شاب حديث العهد بالسياسة يحب الإصلاح. همّ بإصدار مرسوم شامل جامع يقضي بإلغاء الديون وفاتح أنطوني بالأمر،

وكان صديقه، وهو يعهد فيه تبنّيه لكلّ مشروع فيه منفعة لسواد الشعب، ليسانده في غرضه هذا. إلاّ أن أسينيوس Asinius وتريبلليوس Trebelluis نصحا أنطوني بمعارضته، وكان في الوقت نفسه يشكّ في أن دولابللا قد أغوى زوجه، حتى بلغ الأمر به إلى تطليقها، وكانت ابنةً لعمّه كايوس أنطونيوس زميل شيشرون في القنصليه، وجاهر دولابللا بالعداء. وفي الوقت نفسه عمد دولابللا إلى الاعتصام بالفوروم واحتلاله بالقوة لإصدار مرسومه عن طريق جمعية الشعب. وما إن أصدر مجلس الشيوخ قراراً بتخويل أنطوني استعمال القوة حتى زحف على الفوروم وقتل عدداً من رجال دولابللا وفقد هو أيضاً عدداً من رجاله. فخسر بعمله هذا مكانته عند الشعب. في حين أن أسلوب حياته وسلوكه الشخصي أكسبه احتقار كل ذوي المبادئ والعقلاء، وأصبح بغيضاً مكروهاً عندهم على حَدّ قول شيشرون. لقد اشمأزّوا من معاقرته الخمر في غير أوقاتها، وإفراطه في الإنفاق، وفضائحه الجنسيّة، ونومه طوال النهار على إثر فجوره الليلي، وقضاء ليلة في المراسح والمآدب أو حضور زواج ممثل كوميدي أو مسخّراتي أو مهرّج، أو تجواله على غير هدى بسبب صداع أفقده عقله. وقد تنوقلت عنه الحكاية الآتية وهي أنه حضر حفلة زواج الممثل الكوميدي هيبياس Hippias وظلّ يشرب ويأكل طوال الليل. وكان عليه أن يخطب في الجمهور صباحاً في الفوروم فتقدم من المنصّة وهو ثملٌ يترنّح. وأخذ يفرغ ما في جوفه من قيء أمام الجمع الحاشد، فأسرع أحد أتباعه ونشر معطفه أمامه ليفرغ فيه قيئه. وكان لسرجيوس Sergius المشخّص أعظم دالّةٍ عليه وكذلك كيثيرس Cytheris التي تنتمي إلى عين الفن التمثيلي، فقد كان شديد التعلق بها، يصبحها معه عند زياراته المدن الإيطالية، فيُركبها في مِحفّة، يرافقها أتباع وحاشية لا تقلّ عمّن كان يحيط بأمّه.

هناك الكثير غير هذا في سلوك أنطوني اليوميّ مما سبّب السخط والاستياء. فالناس مثلاً استنكروا رؤية أقداح الشراب الذهبية التي كانت تُرسل قبله عند سفره خارج المدينة كأنها جزءٌ من مهمات موكب ديني. ويتألمون لرؤية الفسطاط الذي ينصب له أثناء رحلاته والموائد الفخمة التي تمدّ في البساتين والجنائن أو على شواطئ الأنهار، وعجلاته التي تجرّها الأسود، وعادته إسكان العاهرات وعازفات السامبوكا Sambuca(١١) في بيوت الناس الفضلاء. وكان معظم الناس يستفظعون مقارنة ذلك بقيصر الذي يحارب خارج إيطاليا فينام في العراء متعرّضاً للأخطار، ومعانياً التعب

---

(١١) السامبوكا هو نوع من أنواع القيثار.

والإرهاق وهو يخوض غمار المعارك الأخيرة من الحروب الأهلية في حين يستفيد أنصاره من حملاته هذه ليغرقوا أنفسهم في الترف ويوجّهوا الإهانات لأبناء بلدهم.

ويُعتقد أن هذه السبيل في التصرف زادت من حدّة الحرب الأهلية وشجّعت الجنود على الاستباحة والنهب وغيرها من أعمال العنف. ولذلك بادر قيصر فور عودته إلى العفو عن دولابللا ولم يختر أنطوني زميلاً له عندما انتُخب قنصلاً للمرة الثالثة، وإنما اختار ليپيدوس. في هذا الزمن بالذات عُرض منزل پومپي للبيع فابتاعه أنطوني وعندما طلب منه تسديد الثمن غضب. ويفسّر عدم مشاركته قيصر في الحرب الأفريقية بشعوره بالغبن لأنه لم يعوّض بأيّ شيء عن مآثرة السابقة. على أن قيصر مع هذا يبدو أنه أصلح كثيراً من اعوجاجه وحماقاته بالتنبيه إلى أغلاطه وعدم التغاضي عنها. وعلى أية حال أصلح أمره وقوّم سُبل حياته ووجّه أفكاره إلى الزواج، واختار فولڤيا[١٢] أرملة كلوديوس الغوغائي. وهي امرأة لم تُخلق للغزل والنسج وتدبير المنزل، ولم يكن في وسعها أن ترضى بسَوْس رجل لا طموح له سياسيّ، بل كان همّهما أن تحكم بعلاً يحكُم وأن تقود قائداً عاماً. ولا شك في أن كليوباطرا كانت مدينة لها بالشكر الجزيل لأنها درّبت أنطوني على إطاعة سلطه زوجةٍ. إذ لمّا جاء الوقت لتتسلّمه وجدته مروَّضاً طيّعاً مدرّباً على قبول سلطان المرأة. وكان يلجأ إلى مختلف الحيل الصبيانية وصنوف المزاح ليفرح فولڤيا ويسرّي عنها. منها أنه لمّا عاد قيصر من إسبانيا بعد انتصاره كان أنطوني من جُملة المستقبلين إذ خرج للقائه، وكان أن انتشرت إشاعة مؤدّاها أن قيصر قد قُتل وأن العدوّ يهمّ بغزو إيطاليا. فعاد أنطوني إلى روما وتنكر بثياب عبدٍ وقصد منزله وزعم أنه يحمل لفولڤيا رسالة من أنطوني وجيء به إليها وكان الوقت ليلاً وقد لفّ وجهه تماماً، وكانت تعاني قلقاً عظيماً. فسألته قبل أن تتسلم الرسالة هل أنطوني حيّ؟ فسلّمها الرسالة صامتاً وما إن فضّتها وبدأت بقراءتها حتى وثب إليها وطوّقها بذراعيه وأنشأ يقبّلها. لقد اخترت هذه الحكاية لتقوم مثلاً واحداً لحكايات له كثيرة معها.

عندما عاد قيصر من إسبانيا[١٣] خرج للقائه كل شخص ذي مقام ووجاهة في

---

(١٢) كان زوج فولڤيا الأول كلوديوس. وابنتها من هذا الزواج أصبحت اولى زوجات أوكتاڤيوس قيصر في ٤٣ ق.م. أما زوجها الثاني فهو كيوريو صديق أنطوني الذي توفي في أفريقيا في ٤٩ ق.م. وكان أنطوني زوجها الثالث وقد ولدت له ولدين وتوفّيت في ٣٩ ق.م.

(١٣) بعد النصر الذي حققه في موندا خريف العام ٤٥ ق.م.

روما، وقطعوا رحلة أيامٍ لاستقباله. وكان أنطوني الشخص الوحيد الذي اختاره للتكريم فقد أركبه معه في عربتهِ، وركب وراءهما بروتوس الپينوس وأوكتاڤيوس(١٤) ابن بنت أخته الذي اتخذ لنفسه فيما بعد اسم قيصر وحكم روما سنيناً عديدة.

وعندما انتُخب قيصر قنصلاً للمرة الخامسة بادر إلى اختيار أنطوني زميلاً له. وكان قد اعتزم الاستقالة من منصبه وإناطته بدولابللا. وأعلن قراره هذا للمجلس.

إلاّ أن أنطوني عارض الأمر بشدة وأنحى على دولابللا بالسباب والكلام المقذع، فردّ عليه هذا بأكثر منه. إلى أن بلغ الخجل بقيصر حداً أنه ترك الفكرة جانباً بصورة مؤقتة؛ وقد اشمأزّ من تلاحي أنصاره هذا. ثم واجه الشعب علناً ليعلن دولابللا قنصلاً، فصاح أنطوني إن الإشارات العلوية لا تنبئ بخير من وراء هذا(١٥). فاضطر قيصر أخيراً إلى التخلّي عن الفكرة، مما أغاظ دولابللا كثيراً. في الواقع يبدو أن قيصر كان شديد القرف من دولابللا قدر ما كان شديد القرف من أنطوني. وتقول رواية إنه عندما اتهم أحدهم بالتآمر عليه قال قيصر:

- إني لست أخشى الرجال البطينين وإنما أخشى الشاحبين الهضيمين

يقصد كلاً من برتوس وكاسيوس اللذين كانا سيتآمران عليه ويقتلانه.

وكان أنطوني هو الذي زوّد المؤتمرين بغير قصدٍ منه بالذرائع المعقولة للقيام بمؤامراتهم وكانت المناسبة عيد ليكيا Lycaea الذي يسمّيه الرومان «لوپركاليا». وقد جلس قيصر مشتملاً برداء النصر في الروسترا في الفوروم يشهد العدّائين وهم يرحون ويغدون. وقد جرت العادة أن يُحتفل بالعيد بأن يدهن عدد كبير من النبلاء الشبان ومتولّي المناصب في الدولة جسومهم بالزيت ويمسكوا بأسواطٍ من الجلد ذي الشُّعب ويهرولون في الطرقات فيضربون كل من يصادفونه على سبيل المزاح. وكان أنطوني من بين هؤلاء العدّائين، وعوضاً عن تطبيقه المراسم التقليدية فقد أزوج إكليلي غارٍ حول تاجٍ وأسرع نحو الروسترا فرفعه رفاقه إلى أعلى فوضع التاج على رأس قيصر يريد بهذه الإشارة أنه يستحق المناداة به ملكاً. ولكن قيصر تظاهر بالرفض، فشاع السرور في نفوس الشعب وأخذوا يصفقون. فحاول أنطوني ثانيةً، فعاد قيصر يدفعه عنه جانباً. وظلت هذه التمثيلية تتكرر عدّة مرّات بقلّةٍ من رفاق أنطوني يشجعونه في محاولته إرغام قيصر على قبول التاج بينما كان سواد الشعب يحيّي كلّ رفضٍ بهتاف الاستحسان.

---

(١٤) في نسخة درايدن التي راجعها أرثر، هيوكوف: يثبت أوكتاڤيان إلاّ أن المتن هو الصحيح.
(١٥) كان أنطوني أوكوراً فهو والحالة هذه ينبئ بمقتضى وظيفته.

والغرابة في الأمر أن هؤلاء الناس كانوا على استعداد للخضوع لسلطة الملك وحكمه، في حين مايزالون يصدّون عن اللقب كأنه يعني القضاء على حريتهم.

وأخيراً نهض قيصر الذي اشتد غيظه مما حصل، وأزاح رداءه عن عنقه وقال إنه مستعد لتقبّل أية طعنة يوجّهها إليه أيّ شخص الآن. ووضع إكليل الغار على هامة أحد تماثيله، إلاّ أن بعض التريبيونين الشعبيين رفعه، فتبعهم سواد الشعب إلى منازلهم مشيّعين بهتافات عالية استحساناً لعملهم، إلاّ أنهم طُردوا من وظائفهم فيما بعد بأمرٍ من قيصر.

هذه الحادثة شدّت من عزيمة بروتوس وكاسيوس وشجّعتها في مؤامرتهما. وعندما بدآ يستعرضان الأصدقاء الذين هم أهل للاعتماد على مساعدتهما بحثا مسألة التحدث مع أنطوني. وكان من رأي الجميع أن يُفاتَح بالأمر، إلاّ تريبونيوس فقد عارض الفكرة. وذكر أنه كان قد خرج هو وأنطوني لاستقبال قيصر وركبا عربةً واحدة معاً، وفي أثناء تبادلهما الحديث أخذ يجسّ نبضه بحذرٍ وتوجّس وفهم أنطوني المراد إلاّ أنه لم يشجعه، كما بدا له. ولكنه في الوقت نفسه لم يبلغ قيصر بالحديث وحفظ سرّه بأمانة. وعندها اقترح المؤتمرون قتل أنطوني مع قيصر إلاّ أن بروتوس لم يوافق وأصرّ قائلاً إن المهمة التي يضطلعون بها هي قتل رجلٍ في سبيل العدالة والقانون، ولذلك يجب أن يحافظ على نقاوتها وخلوّها من أي وصمة ظُلم. وكانت البقية تخشى قوة أنطوني الجسمانية والنفوذ الذي يمارسه بمقتضى منصبه. فعُيّن بعض المتآمرين لمهّمة مراقبته، حتى إذا دخل قيصر مجلس الشيوخ وأزفت الساعة لتنفيذ عملية الاغتيال أشغلوا أنطوني في حديث حول أمرٍ عاجل وأبقوه خارج القاعة.

ونُفّذت هذه الخطط كما قُدّر لها وسقط قيصر متشحّطاً بدمائه في قاعة المجلس. فأسرع أنطوني يختفي متنكّراً بزيّ عبدٍ. وعندما أُعلن أن المتآمرين قد تجمّعوا في الكاپيتول فحسب، ولا نيّة سوء لديهم ضد أي شخصٍ آخر، خرج وأقنعهم بمغادرة الكاپيتول إلى المدينة، وأرسل ابنه رهينة عندهم. وتمادى حتى أنه دعا كاسيوس إلى العشاء في منزله، وفعل ليپيدوس الشيء نفسه مع بروتوس. ثم دعا المجلس للاجتماع. وفي الجلسة اقترح إصدار قانون العفو العام، وتقليد كلّ من بروتوس وكاسيوس وأنصارهما حكم إقليم من الأقاليم الرومانية، فأيّدها المجلس، وصوّت أيضاً على أن لا يحدث أي تغيير في الإجراءات والأحكام التي اتخذها قيصر. لذلك ارتفعت سُمعة أنطوني إلى أسمى عُلاها عند خروجه من المجلس، فقد ساد شعور عامّ

بأنه أنقذ روما من حربٍ أهلية ونجح في حَلّ معضلةٍ صعبة جداً ومعقّدة بطريقة حكيمة وببُعد نظرٍ سياسيّ لا نظير له.

إلاّ أن هذه الإجراءات المعتدلة سرعان ما اكتسحها المدّ الجماهيري والشعور العام الذي أصبح الآن يتجه نحو أنطوني، وهذا ما أشاع فيه الأمل بأنه سيكون سيّد روما الأول لو أفلح في الإطاحة ببروتوس. وحدث أنه عندما حُمل جسد قيصر ليُدفن ألقى أنطوني التأبين التقليدي في الفوروم. وعندما وجد أن خطابه قد أحدث في الناس أثراً كأثر السِحر، بدأ يضمّن تأبينه عبارات رثاءٍ واستنكارٍ لمصير قيصر. وأخيراً عندما شارفت خطبته على الختام سحب ثوب الميت وعرضه على الناس وهو دام وقد مزّقته الطعنات، وواصفاً الفاعلين بالقتلة والأوغاد سفّاكي الدماء. فأهاج الحاضرين وملأهم سخطاً، حتى أنهم كدّسوا المناضد والمقاعد بعضها فوق بعض وأحرقوا جثمان قيصر في الفوروم، ثم التقط بعضهم أخشاباً مشتعلةً من المحرقة وأسرعوا بها إلى منازل المتآمرين يريدون إشعال النار فيها.

ولهذا ترك بروتوس وأتباعه المدينة، والتفّ أصدقاء قيصر حول أنطوني. وفي ذات الوقت أوكلت كالپورنيا زوج قيصر إليه حفظ الجزء الأكبر من ثروة زوجها، بنقله من بيتها ووضعه في يده وكان يبلغ أربعة آلاف تالنتٍ. كذلك وضع يده على أوراق قيصر وتتضمّن مسوّدات ومذكرات لكثير من مشاريعه ومراسيمه، فقام أنطوني بتطبيق كثيرٍ من تلك الأوامر وعيّن بموجبها عدداً من الحكام والشيوخ بحسب رغباته. كما أعاد بعض المنفيين وأطلق سراح آخرين من السجن كأنّ كل هذه الإجراءات تمثّل إرادة قيصر. وأطلق الرومان على كلّ المستفيدين من هذه الإجراءات اسم «الخارونيين»[١٦] تندّراً ومزاحاً، إذ لو أنهم طُلبوا لإثبات قضيّتهم لكان عليهم أن يرجعوا إلى أوراق الميت ليتخذوها كدليل. وبمختصر القول مارس أنطوني في تلك الفترة حكماً أتوقراطياً بكلّ معنى الكلمة، فقد كان قنصلاً في تلك السنة. ثم عيّن أخويه بمنصبين رفيعين. فأصبح گايوس Gaius پريتوراً، ولوگيوس Lucius تريبيوناً للشعب.

كذا كان الموقف العام الذي وجده الفتى أوكتاڤيوس عند وصوله روما. وكان هذا كما ذكرت سابقاً ابن بنت أخت قيصر وقد جعله وارثاً له في تركته وكان يعيش في أپولّونيا عندما قُتل خاله. فقام بزيارة أنطوني حالاً بوصفه صديق الأسرة، ثم ذكّره

---

(١٦) يثبت پلوتارخ هنا الكلمة الإغريقية. وهي مشتقة من Charon علاج [هيداس] الأسطوري. أما الكلمة اللاتينية المقابلة فهي أورچيني Oarcini مشتقةً من أوركس إله العالم السفلي.

بالأموال التي اؤتمن عليها. ذلك لأن أوكتاڤيوس كان ملزماً بموجب منطوق الوصيّة، وبوصفه الوارث الشرعي، بأن يدفع خمسة وسبعين درهماً لكلّ مواطن روماني[١٧].
واستخفّ أنطوني في مبدأ الأمر بأوكتاڤيوس وقال له إنه مجرد صبيّ مأفون. وأنذره قائلاً إن شاباً مثله لا يملك من الأصدقاء المتنفّذين إلاّ قلّة، ولا من تجربة الحياة ما يؤبه به، سيجد قبوله ميراث قيصر واضطلاعه بتنفيذ شروط الوصية عملاً شاقّاً ينوء به كاهلُه. إلاّ أن أوكتاڤيوس لم يبدُ متأثراً قطّ بهذه النصيحة وواصل المطالبة بالمال في حين طفق أنطوني يعمل كلّ ما في وسعه لإذلاله. فأولاً عارض في انتخابه لمنصب التريبيون. وعندما حاول تقديم كرسي ذهبي[١٨]، تكريماً لقيصر، كما قرّر مجلس الشيوخ، هدّد أنطوني بإيداعه السجن، إن لم يكفّ عن استجلاب عطف الشعب وتقرّبه منه. وهذا ما حدا بأوكتاڤيوس إلى الاستعانة بشيشرون والانضمام إليه وإلى كل أعداء أنطوني اللدودين. وبمساعدتهم ضمن مساندة المجلس له. بينما تمكن هو بنفسه من كسب مودّة العامّة ونجح في جمع وتعبئة جنود قيصر القدماء من المستوطنات التي استقروا فيها. فأقضّ مضجع أنطوني وأقلقه بمناوراته هذه. والتقى به في الكاپيتول وتبادلا الحديث ثم اصطلحا. وفي الليلة نفسها رأى أنطوني حلماً غريباً تطيّر منه. خيّل له أن صاعقةً انقضّت على يده اليمنى. وبعد أيام قليلة أُبلغ أن قيصر الصغير يتآمر على حياته. وحاول أوكتاڤيوس جهده لنفي هذه التهمة عنه إلاّ أنه لم يفلح في إزالة شكّ أنطوني. فأخذ الخرقُ يتّسع فيما بينهما وشبّت نار العداء مستعرةً بأشدّ من السابق. وهرع كلاهما يتنقلان في أرجاء إيطاليا يتنافسان في تقديم العطاءات والأجور المرتفعة لتجنيد المحاربين القدماء الذين كانوا قد استقروا في أراضيهم، ويتسابقان في ضمان ولاء الجنود الذين ما زالوا في الخدمة.

في ذلك الحين كان شيشرون يمارس نفوذاً في روما لا يعدله نفوذ أي سياسيّ آخر، ولذلك أوقف مجهوداته لإثارة الرأي العام على أنطوني حتى أنه أقنع مجلس

---

(١٧) القانون الروماني لا يلزم أوكتاڤيوس بقبول الميراث، على أن تركة قيصر كانت كبيرة جداً ولا خطر ثم في ميراث ديون عليها. والخطر بالأحرى متأتٍ من استيراث الثروة والسمعة السيئة المتعلقة باسم الميت نفسه وفي الصعوبات التي تكتنف إدارة المخلفات واستخلاصها ولاسيما تلك التي هي موضع نزاع. وقد ترك لأوكتاڤيوس ثلاثة أرباع التركة. والباقي أوصى به لكوينتوس پيديوس Quintus Pedius وهو ابن بنت أخت ثانٍ لقيصر.

(١٨) تختلف ترجمة درايدن لهذه العبارة: فهو يفهمهما هكذا «. . . عندما أراد أن يقدّم كرسيّ أبيه الذهبي وقفاً كما رسم في الوصية. . .».

الشيوخ على إعلانه «عدوّاً للشعب». وأودع الفاچي وغيرها من شعارات الپريتور إلى أوكتاڤيوس، وأرسل هريتوس Hirtius وپاشا القنصلين لطرد أنطوني من إيطاليا. والتقى الجيشان في موتينا Mutina[١٩] وكان قيصر فيها يقاتل إلى صفّ القنصلين فهزم أنطوني إلاّ أن هريتوس وپاشا قُتلا في المعركة. وعانى جيش أنطوني مشاقّ تجلّ عن الوصف في تقهقره وأضرّ به الجوع ضرراً بليغاً. ولكن من صفات أنطوني أن تبدو أعظم سجاياه في ساعات المحنة. والواقع أنه لا يكون أقرب إلى رجل الفضيلة والصلاح إلاّ عندما يُبتلَى بسوء الحظ وتنزل به المصائب إلى الدرك الأسفل. من المعروف عادة أن مفهوم الفضيلة يكون أقرب إلى الرجال عند معاناتهم المحن، ولكن من النادر عندهم أن يحتثوا الصفات التي يعجبون بها للعمل، وأن يتخلّصوا من الرذائل التي يستقبحونها. وبعكس ذلك نرى الكثيرين الذين يضعفون أمام النوائب، فتنهار عزائمهم وتخونهم قواهم إلى الحدّ الذي يفقدون معه بصائرهم. وعلى أية حال فقد ضرب أنطوني مثلاً رائعاً لجنوده. فمع حياة الترف والنعومة التي حفلت بها حياته سهل عليه أن يشرب الماء الآسِن ويأكل الثمار البرّية وجذور النبات دون تحرّج. وقيل لنا إن الجيش اضطر وهو يقطع جبال الألب إلى التهام لحاء الشجر وحيوانات لم يذقها بشر من قبل.

كانوا يريدون الاتصال بالجيش الذي يقوده ليپيدوس فالمعتقد أنه صديق لأنطوني، وهو أحد الذين انتفعوا مثله بصداقة قيصر. ولكن أنطوني لم يجد دليلاً على الترحيب عندما وصل وضرب معسكره بالقرب منه. ولذلك قرّر المجازفة بكلّ شيء في حركة واحدة جريئة. كان شعره طويلاً مشعّثاً ولحيته مُرسَلة غير مشذبة مُهمَلة منذ هزيمته، وقد اشتمل بمعطف قاتم. فتقدم من آطام معسكر ليپيدوس وراح يكلّم الجنود وسرعان ما أدركت الشفقة الكثيرين منهم لهيئته المزرية ومسّت كلماته شِغاف قلوبهم، فداخل ليپيدوس القلق وأمر بنفخ كل الأبواق لكتم صوت أنطوني. إلاّ أن هذا زاد في عطف الجنود عليه فحسب. ثم ألبسوا كلاً من ليليوس Laelius وكلوديوس ثياب عاهرتين من العواهر اللاتي يتبعن الجيش وأرسلوهما للمداولة معه سِرّاً. وطلب هذان منه أن يتحلّى بالصبر والشجاعة وأن يهاجم المعسكر في الحال وقالوا بأن الكثيرين سيرحّبون به، بل وهم مستعدون لقتل ليپيدوس لو شاء. فلم يقبل أنطوني بمدّ يدهم عليه. ولكنه شرع في اليوم الثاني بعبور النهر على رأس جيشه وكان أول من وضع قدمه في الماء وخاضه حتى الشاطئ المقابل حيث كان يشاهد جنود ليپيدوس يرحّبون به بأيدٍ ممدودة،

---

(١٩) هي مدينة مودينا Modena الحالية.

ويقلعون الأطم المحيطة بمعسكرهم ليفسحوا له سبيل المرور. وما إن دخل المعسكر حتى كان السيدّ المطلق. وعامل ليبيدوس بغاية اللطف والاحترام وعانقه وناداه بـ«أبي». ومع أنه كان مسيطراً تماماً على جيش منافسه فقد أصرّ أن يحتفظ برتبة الجنرال ومظاهره. وحفّز سلوكه هذا موناتيوس پلانكوس على ضمّ قواته إليه، وكان معسكراً على مقربة منه بوحدات عسكرية كبيرة العدد. وهكذا اجتمعت إليه مع جيشه قوة ضخمة فعاد إلى اجتياز الألب نحو إيطاليا على رأس سبع عشرة فرقة من المشاة، وعشرة آلاف من الخيّالة تحمي مؤخّرته، فضلاً عن تركه ستّ فرق أخرى للمرابطة في بلاد الغاليين: هذه القوة كانت بقيادة ڤاريوس Varius أحد أصدقائه وندمائه في مجالس الشراب ويعرف بلقب كوتيلون Cotylon[٢٠].

في هذا الزمن حصلت الجفوة بين أوكتاڤيوس قيصر وشيشرون الذي كان مصرّاً على عودة الحرّيات كما كانت في ظلّ الجمهورية السابقة. وأرسل أوكتاڤيوس أصدقاءه إلى أنطوني يدعوه إلى الاتفاق. واجتمع أنطوني وليپيدوس وأوكتاڤيوس في جزيرة صغيرة بوسط النهر[٢١] ودام اجتماعهما ثلاثة أيام. ولم يجدوا صعوبة في التفاهم على أمور كثيرة جداً وقسموا حكم العالم فيما بينهم بالسهولة التي يقتسمون فيها ميراثاً من آبائهم. وكان أعظم ما واجههم من صعوبة هو الاتفاق على الأشخاص الذين سيتمّ القضاء عليهم، إذ كان كلّ واحدٍ منهم يطلب حقّه في التخلص من أعدائه الشخصيين وإنقاذ أقربائه ومن يمتّ إليه بصلة الرحم والدم. وبالأخير تغلّب الحقد الذين يشعر به كل واحدٍ منهم على الشعور بالكرامة والشرف تجاه أقربائهم بل ولائهم لأصدقائهم، فضحّى أوكتاڤيوس بشيشرون لأجل أنطوني، في حين تخلّى أنطوني بدوره عن لوچيوس قيصر خاله، وأُعطي ليپيدوس امتياز قتل أخيه پاولوس Paulus. وإن قال بعضهم إنه سَلّم هذا الأخ إلى أنطوني وأوكتاڤيوس اللذين كانا يريدان قتله. ومهما يكن من أمرٍ فإني لا أستطيع أن أعدّ شيئاً أكثر وحشية وهمجية من الاتجار بالدم. فبعد كل هذه الصفقات الدموية ومبادلة موتٍ بموت لا أعتبر جريمتهم في التخلّي عن أولئك أقل من جريمتهم في قتل مَن قبضوا عليهم. لأن الإساءة التي اجترحوها بحق أصدقائهم هي أشنع الجريمتين. إذ إنهم قتلوهم دون أن يشعروا بكرهٍ نحوهم.

---

(٢٠) مأخوذة من المكيال اليوناني المعروف باسم كوتيله Kotyle. وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الغالون المعروف.

(٢١) بالقرب من مدينة بولونا الحالية، في العام ٤٣ ق.م.

وإتماماً للصلح التفّ الجنود حولهم وطلبوا أن يعزز أوكتاڤيوس حلفه بزواجه من كلوديا بنت فولڤيا زوج أنطوني من زوجها الأول، فتمّ الاتفاق على هذا أيضاً. وبعدها انطلق «مثلّث الحكم» إلى إعلان إهدار الحقوق وقتل ثلاثمائة شخص[٢٢]. وكان شيشرون من قتلى الدفعة الأولى، وبعد أن قُضي عليه أمر أنطوني بأن يحتزّوا رأسه ويقطعوا يده اليمنى التي كتبت قدحاً بحقّه. وعندما جيء بهما إليه نظر إليهما نظرة انتصارٍ وتشفّ وأرسل قهقهةً عالية. وبعد أن شفى غليله أمر بدفنهما فوق الروسترا في الفوروم، كأنه نجح في توجيه إهانة وإذلال إلى الرجل الميت، في حين أنه أظهر به مشهداً من إساءته استعمال سلطته، وغروره وخيلاءه في ساعة يُمنه. وطورد دخاله لوچيوس قيصر أيضاً فوجد نفسه لاجئاً إلى أخته أمّ أنطوني فاقتحم القتلة دارها وشقّوا طريقهم بالقوة ليجدوا الأخت تسدّ باب الغرفة في أوجههم، وتمدّ يديها قائلة:

- لن تقتلوا لوچيوس قبل أن تقتلوني. أنا التي ولدت جنرالكم.

وبهذا العمل أفلحت في إنقاذ أخيها، وهرّبته.

وضاق الرومان ذرعاً بحكم الثلاثة. إلاّ أن أنطوني كان أكثرهم موضعاً للوم. فهو أكبر سِنّاً من قيصر، وأكثر سلطاناً من ليپيدوس، أضف إلى هذا أنه عاد إلى حياة التبذّل والفجور الأولى حالما استقر به المقام. كانت سُمعته العامة سيئة بحد ذاتها إلاّ أنه زاد في كره الناس له بسكناه في منزل پومپي الأكبر. وهو رجل كان موضع الإعجاب والإكبار العظيمين لا لسموّ خلقه ووقاره وحياته البسيطة المنتظمة الديمقراطية فحسب بل لنيله ثلاثة مواكب نصرٍ. وكان يحزّ في نفوسهم أن تغلق أبواب هذا المنزل في أوجه القادة والقضاة والسفراء الذين يجدون أنفسهم مطرودين منه بكلّ وقاحةٍ، في حين تفتح مصاريعه للاعبين والمشعبذين والمتزلّفين والطفيليين السكارى، ليستنزفوا الجزء الأكبر من الثروة التي جناها من ضحاياه بالعنف والقسوة. إذ لم يكتف ثلاثي الحكم بمصادرة أموال المهدورة دماؤهم وإنّما أخذوا يوجّهون الاتهامات الزائفة إلى أراملهم وأقربائهم ويفرضون عليهم ضرائب وغرامات من كل نوع متصوّر. وعندما علموا أن مبالغ من المال لبعض الرومان والأجانب قد أودعت أمانة عند العذارى الڤستالات ذهبوا إليهن وانتزعوا تلك الأموال منهنّ بالقوة. ولم يطل الأمر بأوكتاڤيوس ليدرك أن نهم أنطوني

(٢٢) يذكر أپيان Appian أن حوالي ثلاثمائة شيخ وألفين من الفرسان فقدوا حياتهم. وكما في مذابح سيلّلا لم يكن الغرض قاصراً على التخلص من المعارضين السياسيين بل لجمع المال. فكل من يصدر بحقه أمر الإهدار تصادر أملاكه.

إلى المال لا يعرف حداً. ولهذا طلب أن تقسم الأموال المصادرة بينهم بالتساوي، ثم قسما أيضاً قيادات الجيش. وقادا قواتهما المشتركة إلى مقدونيا لمهاجمة بروتوس وكاسيوس تاركين ليبيدوس في روما(٢٣).

واجتازا البحر، وبدآ في حملتهما العسكرية، وضربا معسكرهما أمام العدوّ: وكان أنطوني يواجه كاسيوس، وأوكتاڤيوس يواجه بروتوس. ولم يقم أوكتاڤيوس بعمل يذكر، وكان أنطوني الذي تسلّم زمام المبادرة وحقق النصر في كل قتالٍ. وعلى أية حال أصيب أوكتاڤيوس في أول معركة بهزيمة ساحقة، واستولى العدوّ على معسكره وكاد يقع أسيراً فأفلت في آخر لحظة، وإن كتب في مذكراته أنه انسحب قبل المعركة بسبب حلمٍ رآه أحد أصدقائه. إلاّ أن أنطوني من الجهة الأخرى هزم كاسيوس، وإن ذكر بعضهمْ أنه لم يكن موجوداً بشخصه أثناء المعركة، وأنه شارك فيها عندما بدأ رجاله بمطاردة العدوّ المنهزم. ولم يدر كاسيوس بانتصار بروتوس وأمر عبده العتيق پنداروس Pindarus بقتله. وبعد أيام قليلة خاض الفريقان معركة أخرى دارت فيها الدائرة على بروتوس فقُتل نفسه. وكان أوكتاڤيوس طريح الفراش فاستأثر أنطوني بثمار النصر كلها تقريباً، ووقف عند رأس بروتوس المنتحر وأخذ يلومه لموت أخيه كايوس الذي قُتل بأمر من بروتوس انتقاماً لشيشرون. ولكنه استدرك فقال إن أكبر اللوم في هذا يقع على عاتق هورتنسيوس. وأصدر أمره بأن يُقتل فوق قبر أخيه وألقى بمعطفه القرمزي الثمين على جثة بروتوس وأمر أحد عبيده العتقاء بدفنه. وعلم فيما بعد أن هذا الرجل الموكل احتفظ لنفسه بالمعطف مع جانبٍ كبيرٍ من المال الذي خصّصه لمصاريف الجنازة، فأمر به فقُتل.

ونُقل [أوكتاڤيوس] إلى روما مريضاً، وكان الأمل بشفائه ضعيفاً. وزحف أنطوني عبر بلاد اليونان على رأس جيشٍ لجِب لجباية الأموال من الأقاليم الشرقية. وكان ثلاثي الحكم قد وعدوا الجنود بأن يدفعوا لكلّ منهم بمكافأة قدرها خمسمائة درهم. وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتباع إجراءات أشدّ صرامة في فرض الضرائب وجباية الإتاوات. وأظهر أنطوني في معاملته للإغريق اعتدالاً ومجاملة على الأقل في مبدأ الأمر، وقنع من ضروب التسلية، بحضور الألعاب والمراسم الدينية وسماع مناظرات الفلاسفة والعلماء. وأظهر رحمةً وتسامحاً في الأحكام القضائية، وكان يسرّه أن يلقب «بمحبّ الإغريق»، ويزداد غبطة إذ يلقّب «بمحبّ اثينا» حيث أمطر المدينة بالهدايا.

---

(٢٣) حدث ذلك في صيف العام ٤٢ ق.م.

ولكن عندما أراد أهالي ميغارا إطلاعه على شيء ينافس جمال أثينا ودعوه لرؤية مجلس شيوخهم أسرع بالذهاب وتأمله. ثم سألوه عن رأيه فيه فأجاب أنه ليس واسعاً جداً بطبيعة الحال. إلاّ أنه متقوّض جداً!

وقام أيضاً بالكشف على هيكل أپوللو البيثي لأجل إكمال عمارته، على الأقل وعد مجلس الشيوخ المحلي بذلك.

وبعد هذا بقليل ترك لوچيوس چنسورينوس Lucius Censorinus حاكماً على بلاد الإغريق[٢٤] وعبر المضيق إلى آسيا وشرع حالاً بنهب ثروات الإقليم. وكان الملوك الموالون يقفون ببابه والملكات يتنافسن على تقديم أنفس الهدايا له، ويتراهنّ على من ستكون صاحبة الحظوة في عينه يتمنّين بذل أنفسهنّ وشرفهنّ له. وفي حين كان أوكتاڤيوس في روما يعمل ناصباً ويُنهك قواه في معترك التطاحن السياسي الحزبي وفي الحرب الأهلية، كان أنطوني غارقاً في مسرّات ونعم السلم وفي راحة دائمة. وما لبثت غرائزه أن أطلقت لنفسها العنان كما كانت في السابق فزحف عليه أشتات من الطفيليين وعازفي العود مثل أناكسانور Anoxenor والنافخين بالمزمار مثل كسانتوس Xanthus والراقص مترودورس Metrodorus، ومجموعة كاملة من اللاعبين الآسيوين، سبقت إباحيتهم ومُجونهم حتى أولئك الطفيليين الذين جاء بهم معه من إيطاليا. فاستولوا على منزله وأصبحوا فيه الآمرين الناهين. وأخذ الناس يضيقون ذرعاً بتبديد الثروات على مثل هذه القبائح. إذ إن كل إقليم آسيا أصبح الآن يضوع بالفجور، مثل ثيبة في تراجيديا أوديب الملك Oedipus Tyronnes «صرخات اليأس مختلطة بأغاني المرح». وعند دخوله أفسس استقبلته النسوة بأزياء باخوسية، والرجال والأحداث بأزياء المسوخ والربّ پان Pan، وساروا امامه بمواكب. وملئت المدينة بأكاليل اللبلاب وسيقان الثيرسوس Thyrsus! وكان الجوّ يردّد صدى موسيقى القيثار والزّمار والناس يحيّونه بوصفه ديونيسيوس المحسن وجالب المسرّات. هكذا كان يبدو لبعض الناس بلا ريب، لكنه كان في نظر أكثريتهم ديونيسيوس القاسي، وناهش اللحم[٢٥]. لأنه جرّد العديد من الأُسر الشريفة من كل ما تملكه ليفرّقه على المتزلّفين والأوغاد. وفي أحيان أخرى كان يسمح لبعضهم بسرقة الأموال من أصحابها الشرعيين

(٢٤) في العام ٤١ ق.م.

(٢٥) يعزى إلى ديونيسيوس أسماء مختلفة وسجايا مختلفة. والعنصر البدائي الوحشي في طائفته متوفر كما هو متوفر العنصر الطيب العاقل. ومن هنا جاءت مقابلة پلوتارخ هذه.

وهم أحياء بزعم أنهم موتى. وفي مغنيزيا منح أنطوني دار أحد الناس لطاهٍ كان كل فضله أنه عمل له عشاءً جيداً. ولكن أخيراً عندما فرض إتاوة ثانية على المدن جمع هبرياس Hybreas أطراف شجاعته وتكلم باسم كل الإقليم الآسيوي قائلاً:

- إن كان بوسعك جباية إتاوتين سنويتين في عامٍ واحدٍ فلا شك انك قادر على إعطائنا موسمَي صيف وحصادين.

وصاغ أفكاره بأسلوب بليغ معبّرٍ أعجب به أنطوني، ثم إنه مضى يقول بلهجة عنيفة صريحة إن آسيا قد جمعت حتى الآن له مائتي ألف تالنت... «فإن لم تتسلّم هذه الأموال، فعليك أن تسأل جُباتك الذين جمعوها، وإن تسلمتها فعلاً وأنفقتها؛ فنحن من الهالكين». أحدثت هذه الكلمات أثراً عميقاً في أنطوني إذ كان يجهل تماماً عِظم المبالغ التي جُمعت باسمه، لا لأنه من أولئك اللامبالين، بل لأن السذاجة بلغت به حَدّ الثقة المطلقة بمرؤوسيه.

في الواقع كان أنطوني ساذجاً بطبعه، بطيئاً في الوصول إلى الحقيقة. ولكن ما إن يدرك خطأه حتى يملأ الندم جوانب نفسه ويغدو مستعداً للإقرار بخطئه ممن أصابهم به. وكلّما وجب عليه أن يُنزل عقوبةً أو يُصلح ظلماً فهو يقوم به بشكلٍ واسعٍ ويتخطّى حدود المعقول كثيراً في المكافآت التي يمنحها، أكثر من العقوبات التي يفرضها. وأما عن نوع المزاح الغليظ الوقح الذي يحبّ أن يتبادله فهو يحمل معه علاجه. إذ بإمكان كل شخص أن يقابله بمزاح أغلظ وأشدّ وقاحة. وهو يلتذّ بأن يكون موضع سخرٍ وضحك قدر ما يلتذّ بالضحك على الآخرين. وكثيراً ما أضرّت به هذه الصفة إذ كان يتعذر عليه أن يعتقد بأن الغرض الحقيقي لأولئك الذين يمارسون حرياتهم معه ويبادلونه المزاح إنما هو التملّق والتزلّف إليه. إنه لم يفهم قطّ أن بعض الرجال يخرجون عن جادّتهم فيعمدون إلى اتخاذ أسلوب صريح واضح ويتخدمونه مثل المستحلب الحرّيف لتغطية طعم المداهنة الكريه. أمثال هؤلاء ينطلقون في ردودهم الجريئة وكلامهم متعمّدين وهم في مجالس الخمر حتى يظهروا بأن المصادقة الذليلة في الأمور الهامة لا توحي بأنهم إنما يعاشرون الرجل لأجل أن يُدخلوا البهجة إلى نفسه، بل إن ما يصادقون عليه إنما هو رأيهم الحقيقي في حكمته السامية.

تلك هي طبيعة أنطوني، ولهذا فإن حبّه لكليوپاترا التي دخلت الآن حياته جاء أعظم خاتمةً لمصائبه. لقد أثار إلى درجة الجنون كثيراً من النوازع التي كانت إلى ذلك الحين مختفية أو نائمة، وخنقت أو أفسدت كلّ السجايا التي ظلّت تبدي حتى تلك

الساعة مقاومةً للإغراء، وتنطوي على عناصر الصلاح والخير. وإليك قصّة ضياع قلبه فيها:

كان يتهيّأ لحملته على البارثيين، فأرسل يطلب من كليوپاترا مقابلته في كيليكيا لتجيب عن اتهامها بإرسال مساعدة مالية كبيرة لكاسيوس وإسداء العون له في حربه ضدّ ثلاثي الحكم. وبهت رسوله دليوس Dellius بسحر كليوپاترا ودهائها ما إن وقع نظره عليها. وبات مقتنعاً من ساعتها بأن امرأة مثلها لن تخشى أن يصيبها أي أذىً من أنطوني وإنما الخوف سينشأ من النفوذ والتأثير الذي ستمارسه هي عليه. فقرّر أن يقدّم فروض التكريم للملكة المصرية وأن يزيّن لها الذهاب إلى كيليكيا وهي «في أبهى هيئة يؤهلها إليه فنّها» كما يعبّر عنه هوميروس[٢٦] وأن تطمئن إلى أن أنطوني ألطف القادة وأكثرهم رجولة وتهذيباً. وتأثرت كليوپاترا بأقوال دليوس. فقد سبق لها أن اختبرت جاذبيتها وتأثير جمالها في يوليوس قيصر وفي پومپي الأصغر[٢٧]. وكانت تتوقّع أسر أنطوني بأسهل من السابقين لأن قيصر وگنيوس پومپي Gnoeus Pompey تعرّفا عليها وهي فتاة غرّة لا تجربة لها في الحياة. اما الآن فستقابل أنطوني وهي في سنّ ناضجة، المرأة فيه تكون في أوج فتنتها ورجاحة عقلها[٢٨]؟ ولذلك تهيّأت للسفر بكثير من الهدايا الغالية والأموال والفخفخة والزينات التي تتفق ومقامها الملكي وأسرتها العريقة. إلاّ أن أكبر اعتمادها كان على ملاحتها وفتونها والتأثير الساحر الذي ستخلفه.

تسلّمت سلسلة من الرسائل من أنطوني وأصدقائه تدعوها لزيارته. إلاّ أنها استخفّت بكل هذه الدعوات حتى أنها عندما قدِمت بدت وكأنها ما جاءت إلاّ استخفافاً بأوامره. وصلت تمخر مياه نهر قدنوس Cydnus في مركب خَيزومُه من ذهب، وأشرعته من الأرجوان منشورة في مهبّ الريح، ومجاذيفه الفضّية تلطم الماء بشكلٍ رتيب على ألحان المزمار والسرناي والقيثار. واستلقت هي تحت سقيفة من نسيج مذهب مرتدية زيّ ڤينوس كما تُرى في تماثيلها. يحفّ بها صبيان صغار ذوو وسامةٍ يرتدون زيّ كيوبيد كما يُرى في صوره، وهم يهشّون لها بمروحاتٍ. وكانت وصيفاتها يرتدين زيّ حوريات البحر Neriede, Grace بعضهنّ يدرنَ الدفّة، وبعضهن يعالجن

---

(٢٦) المقتبس هو من الالياذة في [ج ١٦ ف ١٦٢] والوصف بالأصل لهيرا Hera التي تجمّلت لإيقاع زفس في حبائلها.

(٢٧) هو ابن پومپي الأكبر.

(٢٨) في العام ٤١ ق.م كان لكليوپاترا من العمر ثمانية وعشرون عاماً.

القلوع. وكان البخور والعطور تتضوّع صادرة من المركب إلى الشاطئ فتنشر مختلف الروائح الغالية الثمن. والحشود الهائلة من الناس على الجانبين، قسم رافق المركب من صدر النهر، وقسم أقبل من المدينة (طرسوس) مهرولاً والكلّ يريد أن يُشبع نظره من المشهد. وانفضّ الجمع تدريجياً من الساحة العامة حيث كان أنطوني ينتظر كليوپاترا وهو جالس على كرسيه الرسمي، حتى تُرك أخيراً وحده تماماً وأقفر المكان. وانتشر القول إن ڤينوس جاءت لإحياء العيد مع باخوس لمصلحة آسيا.

أرسل أنطوني إلى كليوپاترا يدعوها إلى عشاءٍ. إلاّ أنها استحسنت أن يلبّي هو دعوتها. فقبل ليظهر حسن نيّته وكياسته فوجد ما هيّئ له يجلّ عن كل وصفٍ. إلاّ أن ما فاق كل تصوّره هو العدد العائل من المصابيح، قيل إنه أُنزلت فجأة من السقف وأخذت تلقي بأنوارها الساطعة إلى كل الجهات في وقتٍ واحدٍ وقد نُظمت وجُمعت بهيئات لطيفة ونسق بديع، بعضها في مربّعات وبعضها في حلقات، وبدت بمنظر يسبي اللّبّ، لا يمكن أن ينظم مثله ليأسر النظر. وفي اليوم التالي دعاها هو رداً لضيافتها. وكان يأمل أن يفوق مأدبتها بذخاً وإسرافاً وفخامةً. لكنه فشل فشلاً ذريعاً وسَلّم بالهزيمة من كل ناحية، وجعل ذلك مادة للمزاح والتفكهة على سماجته وخرقه وافتقاره إلى الظرف والذوق. ووجدت كليوپاترا أن مزاح أنطوني هو من النوع الخشن الغليظ الذي هو أقرب إلى العسكري منه إلى رجل البلاط المهذّب فجارته فيه ونزلت الميدان ونازلته دون تحفّظ، ولم يكن جمال وجهها - كما روي لنا - مما لا يضاهيه جمال فيأسر الناظر حالاً، إلاّ أن سحر وجودها لم يكن بالإمكان مقاومته. وكانت ثمّ جاذبية في شخصيتها وكلامها، مع قوةٍ غريبة في تلك الشخصية تلازم كل كلمة وكل حركة، فتوقع مجالسها مهما كان تحت تأثيرها التام. إن مجرّد سماع صوتها كان اللذة بعينها وهو مثل آلة طرب متعددة الأوتار، بإمكانها الانتقال عليها من جِرْسٍ إلى جرس، فهي عندما تواجه البرابرة يندر لها أن تحتاج إلى مترجم، بل تتحدث إليهم بطلاقة ودون معاونة كالأحباش، والتروغلوريت Troglodyte والعبرانيين والعرب، والسوريين والميديين والپارثيين. وقيل إنها ألمّت بلغات شعوب كثيرة أخرى في الواقع مع أن أسلافها حكام مصر لم يتعبوا أنفسهم حتى بتعلّم اللغة المصرية، وأن بعضهم نسي لهجته المقدونية.

وعلى أية حال نجحت كليوپاترا في اجتذاب أنطوني تماماً، حتى أنه قبل أن تأخذه معها إلى الإسكندرية في الساعة التي كانت زوجه فولڤيا تدير دفّة الحرب في إيطاليا ضدّ أوكتاڤيوس قيصر دفاعاً عن مصالح زوجها، وفي الوقت الذي كان الجيش الپارثي بقيادة

لابينوس Labienus[٢٩] (الذي اختاره قوّاد الملك قائداً عاماً) يهدّد بالويل على حدود بلاد ما بين النهرين، ويهمّ بغزو سورية. وفي الإسكندرية، غرق هذا المحارب القديم في ضروب من المسرّات والتسليات واللهو كشابٍّ غرّ لا يقيم للمستقبل وزناً، وأخذ يبدّد في اللهو الباطل ما وصفه أنتيفون Antiphon «بأغلى السلع طراً» ألا وهو الوقت. وجمع أنطوني وكليوپاترا حولهما نخبة من الأصدقاء يولم كل واحدٍ منهم للآخرين يومياً، بإسراف وبذخ يجلّ عن الوصف. وقد اعتاد فيلوطاس وهو طبيب سكن أمفيسّا Amphissa أن يحدِّث جَدّي لامپرياس Lamprias عن أيام دراسته الطب في الإسكندرية[٣٠] فيقول له إنه تعرّف بأحد طهاة الملكة. وقد زيّن له وهو بعد شاب يملأه حب الاستطلاع أن يأتي معه ليشاهد الاستعداد الفخم لوجبة العشاء ملكي، ودخل به إلى المطبخ. وبعد أن شاهد كثرة الأصناف وتنوّعها وراقب عملية شواء ثمانية خنازير بريّة، أعرب عن دهشته لعدد المدعوين الكثير، الذي يستلزم تلك الكمية من الطعام. فقهقه الطاهي وبيّن له أن عدد المدعوين ليس كبيراً وهو لا يتجاوز الاثني عشر نفراً. ولكن من الضروري أن يُطهى كل شيء ويقدّم بصورة متقنة وأن التأثير كله قد يُتلف إن حصل خلل في التوقيت لا يتجاوز الدقيقة الواحدة. فقد يتفق أن يطلب أنطوني العشاء فور مجيء الضيوف، أو أنه يطلب بعد قليل إرجاءه ويأمر أن يؤتي له بكأس من الخمر، أو ربما يستغرق في حديث.

- لذلك فنحن لا نهيّئ عشاءً واحداً، بل نستعدّ لعدد منها لأننا لانعرف اللحظة التي سيرسل بطلب العشاء بالضبط.

هذه هي الحكاية التي اعتاد فيلوطاس روايتها. كما أنه روى حكاية أخرى عن زمن لاحقٍ عندما كان ابن أنطوني البكر من زوجه فولڤيا واحداً من مرضاه وهو طبيب في الإسكندرية. وقد اعتاد تناول العشاء عنده مع أصدقائه، عندما لا يتعشّى هذا الشاب مع أبيه. في إحدى المناسبات حضر العشاء طبيب آخر وأخذ يتكلم متفاخراً متباهياً فأزعج المدعوين، إلى أن نجح فيلوطاس في إسكاته بالعبارة السوفسطائية التالية:

---

(٢٩) لابينوس هذا، هو ابن تيطس لابينوس أحد ضباط قيصر في حروب الغال (يذكره قيصر في مذكراته عن الحروب الغالية). انضمّ إلى پومپي وقتل في معركة موندا في ٤٥ ق.م. وأرسل بروتوس وكاسيوس الابن بطلب معونة من أورودس Orades ملك الپارثيين وكان هناك عندما انهزم المتآمرون في معركة فيليبي. غزا لابينوس سورية في ٤٠ ق.م. إلاّ أن ڤنديتوس قائد أنطوني طرده منها. ثم أسِر في كيليكيا.

(٣٠) كانت في الإسكندرية آنذاك مدرسة طبّ شهيرة.

«في بعض حالات الحُمّى يجب على المريض أن يتناول الماء البارد. وكل امرئ محموم هو في حالةٍ من حالات الحمّى: لذلك فكلّ محموم يجب أن يتناول الماء البارد».

فارتجّ على الرجل وعجز أن يردّ بكلمةٍ أمام هذا المنطق. وبلغ من سرور ابن أنطوني أن هتف قائلاً:

- كل هذا لك يا فيلوطاس.

وأشار إلى منضدةٍ صفّ عليها أقداح شرب واسعة. فشكره فيلوطاس وأظهر تقديره، إلاّ أنه استأذن ليبدي شكّه في أن فتىً صغيراً مثله مخوّل بتقديم هدية كهذه غالية الثمن. ولكن لم يمرّ زمن حتى جاء إليه عبدٌ يحمل تلك الأقداح في كيسٍ وطلب منه أن يضع ختمه عليها. ولما أبعدها فيلوطاس عنه وأدركه الخوف من قبولها، قال له الرسول:

- لا تكن غرّاً أحمق! ما الذي يدعوك إلى التردد؟ ألا تدري أن مهديك هو ابن أنطوني، وأن له الحق في أن يهديك كل هذه الأقداح الذهبية إن شاء؟ ولكن لو كنت في موضعك لقبلت مقايضتها بالنقد، فبعض هذه الأقداح قديمة وصياغتها نادرة، عالية القيمة. ومن المحتمل جداً أن يفتقدها والد الصبيّ.

ويقول جدّي إن فيلوطاس كان مغرماً برواية قصص من هذا النوع في كل مناسبة تعنّ له.

يتحدث أفلاطون عن أربعة أنواع من الملق إلاّ أن لدى كليوپاترا ألف نوع. ولا فرق لديها إن كان مزاج أنطوني جاداً أو مرحاً فبإمكانها أن تخترع دائماً وسيلة جديدة لتسحره وتسرّه. لقد ملكت عليه مذاهبه واستأثرت باهتمامه ولم تدعه يغيب عن ناظرها لحظة في الليل والنهار. تلاعبه النرد، وتساقيه الخمر، وتخرج للصيد معه. وتراقبه وهو يجرّب السلاح ويتمرّن عليه. وفي الليل عندما يخطر بباله التجوال في المدينة ويقف عند أبواب ونوافذ المواطنين العاديين فيتندّر عليهم ويساخرهم، ترتدي هي ثياب خادمة وتؤدّي دورها في أية عملية حماقة ومجون تخطر ببال أنطوني. إذ كان من عادته أن يخرج متنكراً بثياب عبدٍ. وفي مثل هذه الأحوال كان يخرج بإهانات وشتائم. وأحياناً كان ينال نصيباً كبيراً من الضرب قبل أن يعود إلى القصر، وان كان لمعظم الأهالي فكرة مؤكدة عن هويّته. والواقع أن التهريج والمجون كان من نقاط ضعف الإسكندرانيين، تلذّهم المساهمة في مثل هذه المسلّيات بأساليبهم المهذّبة ورقّتهم

المرهفة. وقد أحبّوه شخصياً واعتادوا القول إنه وضع قِناعه التراجيدي للرومان، وحفظ قناعه الهزلي لهم.

سأبدّد الوقت في وصف تفاصيل لهو أنطوني الصبياني. على أني سأروي واقعة واحدة تغني عن الجميع ويكون فيها فصل الخطاب. في ذات يومٍ خرج لصيد السمك فلم يُفتح عليه بشيء. ومما زاد في انزعاجه وجود كليوپاترا فأمر بعض صيادي السمك بالغطس سرّاً وربط عدد من الأسماك التي صادوها في شصّه. ثم شرع يسحب صنّارته مرتين وثلاثاً. وأدركت كليوپاترا حقيقة الأمر. وتظاهرت بالإعجاب وهلّلت لنجاحه، إلاّ أنها أخبرت أصدقاءها بالحادث ودعتهم للمجيء والمشاهدة في اليوم التالي. فركبت جماعة كبيرة قوارب الصيد وانطلقوا للصيد وما إن ألقى أنطوني بصنّارته، حتى أمرت كليوپاترا أحد عبيدها بالغطس إلى صنّارته ليضع في الشصّ سمكة مقدّدة من أسماك البحر الأسود. وسحب أنطوني الخيط ظانّاً أنه اصطاد شيئاً. وما إن خرج بالسمكة المملّحة حتى ضجّ الحاضرون بالضحك كما كان متوقعاً. وأسرعت كليوپاترا تقول:

- دع صنّارة السمك لنا أيها الإمبراطور، نحن ملوك فاروس وتينوب الفقراء. فطرائدك هي المدن والممالك والقارات.

فيما هو غارق في هذه الحماقات وضروب العبث الصبياني وردته من روما رسالة تنبئه أن أخاه لوچيوس وزوجه فولڤيا قد اختلفا فيما بينهما، ثم اتفقا على شنّ الحرب ضد أوكتاڤيوس، وأصيبا بهزيمةٍ هربا على إثرها من إيطاليا. ووردته رسالة أخرى من سورية أبعث على القلق من الأولى، تنبئه بأن لابينوس قد استولى على آسيا من الفرات وسورية حتى إقليم ليديا وإيونيا غرباً. وعندها[٣١]، وكالنائم الذي أوقظ بخشونة من رقادٍ بعد ليلة عربدةٍ وخمر، انطلق لقتال الپارثيين وتقدم حتى فينيقيا. وهنا تسلّم رسالة من فولڤيا ملأى بالتفجع والبكاء على ما حَلّ بها من محن. فقرر إجراء تغيير في خطته، وألوى متجهاً إلى إيطاليا بأسطوله المؤلف من مائتي سفينة. وفي طريقه التقط عدداً من أنصاره الذين تركوا إيطاليا هاربين وعلم منهم أن فولڤيا كانت المسببة الأولى للحرب مع أوكتاڤيوس. كانت امرأة عنيدة صلبة المكسر، يلذّ لها معالجة السياسة، فضلاً عن اعتقادها بأن أسرع وسيلة لحمل أنطوني على ترك كليوپاترا هي إثارة الخصومات والاضطرابات في إيطاليا. وتشاء الأقدار أن يعاجلها الأجل وهي في

---

(٣١) في مطلع العام ٤٠ ق.م.

طريقها إليه فقد سقطت مريضة في سيكيون وهناك توفيت. وهذا ما قوّى احتمال التفاهم مع [أوكتافيوس]. إذ ما إنْ وطأ أنطوني إيطاليا حتى أصبح واضحاً لديه أن أوكتافيوس لا يعتزم تحميله مسؤولية الحرب، وفي الوقت نفسه كان أنطوني مستعداً لإلقاء التبعة على فولڤيا لكل الاتهامات التي قد تُلصق به. ومهما يكن فعندما تمّ أوّل لقاء بينهما(٣٢) رفض أصدقاء الجانبين إضاعة الوقت في فحص اعتذارات أنطوني ومبرّراته. فقد انصبّ اهتمامهم على مصالحة الرجلين ثم على قسمة الإمبراطورية. فجعلوا البحر الأيوني حدوداً وأناطوا حكم الأقاليم التي تقع إلى شرقه بأنطوني، والأقاليم التي تقع إلى غربه بأوكتاڤيوس. وأنيط حكم إقليم أفريقيا بليپيدوس. واتُّفق أيضاً على أن يتولى منصب القنصلية أنصارهما كل بدوره لأنهما لم يكونا راغبين فيها.

وعُدّت هذه الإجراءات مناسبة للطرفين، ولكن ارتئي أن تُشدّ برباط أوثق، وهيّأ الحظّ لهذا فرصةً نادرة. كان لأوكتافيوس قيصر أخت غير شقيقة أكبر منه، هي بنت أمخوريا Amchoria، أما هو فابن آتيا Atia وهي زوج أبيه الثانية. وكان أوكتافيوس شديد التعلق بأخته، وكانت كما أشيع عنها أعجوبة بين النساء. زوجها كايوس مارچللوس توفي منذ زمن قصير. في حين كان أنطوني يُعتبر أرمل بعد وفاة زوجه فولڤيا. ولم ينكر علاقته بكليوپاترا، الا أنه أنكر وجود رباط زوجي فيما بينهما، وفي هذا الأمر كان موزّع الفكر بين حبّه للملكة المصرية والواقع المقبول. وفي الوقت نفسه كان الرومان جميعاً متفقين على شدّ هذا الرباط، وكانوا شديدي الأمل في أن أخت أوكتافيوس إن تزوجت أنطوني وكسبت محبته - فامرأة مثلها لا يتعذر عليها ذلك لذكائها وقوة شخصيتها فضلاً عن جمالها - سيكون في هذا الاتحاد الخلاص، وسيأتي بالهدوء والاستقرار للإمبراطورية الرومانية(٣٣). وعندما اتفق الرجلان على الشروط ذهبا إلى روما واحتفلا بزواج أوكتافيا. ولم يكن القانون يسمح للمرأة بالزواج إلاّ بعد انقضاء عشرة أشهر على وفاة زوجها، إلاّ أن مجلس الشيوخ أصدر في هذه القضية مرسوماً بالسماح قبل مضيّ المدّة.

في ذلك الزمن كانت قوات سكتوس بوبيوس مسيطرةً على صقلية، وكان أيضاً يعيث سلباً في الساحل الإيطالي. وكان قادراً بمساعدة أسطول قرصان بإمرة ميناس

(٣٢) تشرين الأول ٤٠ ق.م.

(٣٣) هناك دليل على أن هذا الزواج، والأمل في أن يثمر ولداً، هو الذي أوحى لڤرجيل بإيكلوجه Ecloque الرابع المشهور بنبوءته حول مجيء طفلٍ الهي يكون عهده مفتتح العصر الذهبي.

Menas ومينيقراطس Menecrates على تهديد سلامة السفن في سائر منطقة البحر المتوسط. على أنه كان قد مدّ يد العون لأمّ أنطوني عند هروبها من روما مع فولڤيا وكان يُعتقد أنه يخلص الودّ [لأنطوني]. ولذلك قرر ثلاثي الحكم مفاوضته. فاجتمعوا في ضواحي ميسنيوم Misenum(٣٤) عند اللسان الداخل في البحر، وكان أسطول پومپي راسياً على مقربة وجنود أنطوني وأوكتاڤيوس قد انتظموا صفوفاً على طول الساحل. واتفق على أن تُطلق يد سكستوس في صقلية وسردينيا، ويتعهّد مقابل ذلك بتطهير البحر من القراصنة، وإرسال مقدار معيّن من الحبوب إلى روما سنوياً.

وبعد هذا الاتفاق تبادلوا دعوات العشاء، واقترعوا فيما بينهم، فوقعت الدعوة الأولى على سكتوس پومپي فسأل أنطوني أين ستكون الدعوة؟ فأجاب پومپي مشيراً إلى سفينة القيادة وهي بارجة ذات ست طبقات:

- هناك! فهي المنزل الوحيد الذي ورثه پومپي عن أبيه.

قالها معرّضاً بأنطوني الذي كان واضع اليد على منزل أبيه آنذاك.

وثبتت البارجة في مرساها ومُدّ جسر إليها من الساحل لعبور المدعوين. واستقبلهم پومپي بغاية الحفاوة والتكريم. وعندما بدأت الخمر تفعل فعلها في النفوس وتحرّر المزاح من قيود الكلفة، وبدأت تُلقى تعليقات جريئة حول غرام أنطوني بكليوپاترا، همس ميناس رئيس القرصان في أذن پومپي.

- أأقطع الأمراس، وأجعلك سيداً لإمبراطورية روما لا لصقلية وسردينيا فحسب؟

فأطرق پومپي ملياً ثم أجاب:

- ميناس! كان عليك أن تنفّذ هذا دون إعلامي. اما الآن فعلينا الرضى بما قُسِم لنا. إني لن أحنث بكلمتي.

وبعد أن حضر پومپي دعوتي أنطوني وأوكتاڤيوس أقلع إلى صقلية.

بعد إقرار هذا الاتفاق أرسل أنطوني قائده ڤنتيديوس Ventidius(٣٥) قبله إلى آسيا

---

(٣٤) عقد هذا المؤتمر في ميسنيوم الواقعة في الرأس الشمالي من خليج نابلي، وكان ذلك في ربيع ٣٩ ق.م. كان سكستوس الابن الاصغر لپومپي الأكبر وقد ساعدته سيطرته على البحر في قطع إمدادات القمح عن روما. وهذا ما سبّب مجاعةً وعدداً من الفتن وحوادث الشغب في روما قُمِعت بصرامة شديدة.

(٣٥) كان ڤنتيديوس باسوس ممن يطلق عليهم الرومان لقب «نوڤوس هومو» أي أول عضو في الأسرة يبرز فيها بعمل ويحقق لها الشهرة. وقد ظهرت مواهبه القيادية بالأصل أثناء خدمته تحت إمرة يوليوس قيصر.

لصدّ تقدّم الپارثيين وفي الوقت نفسه مثل وظيفة الكاهن الأعلى Pontifex Maximus التي كان يشغلها يوليوس قيصر ترضيةً لأوكتاڤيوس. وكانا خلال وجودهما في روما معاً يتبادلان المشورة فيما بينهما ويعملان بانسجام في تصريف شؤون الدولة ومعالجة الأمور السياسية. وكان الغيظ يستولي على أنطوني كلّما وجد أوكتاڤيوس يغلبه في ألعاب الحظ وضروب التسلية الأخرى التي يتعاطياها معاً. وكان يوجد لديه ساحر مصري حذِق في النظر في الطوالع. لم يخف هذا الساحر عن أنطوني (إما مدفوعاً بقول الحقيقة وإما مدفوعاً بتوصية من كليوپاترا) أنه صاحب حظّ عظيم لامع، إلاّ أن القدر حكم بأن يكسف هذا بحظ أوكتاڤيوس فهو والحالة هذه ينصحه بالابتعاد عن زميله الشاب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وأنذر أنطوني بقوله:

- إن روحك الحارسة تفترق عن روحه الحارسة. وإن كانت روحك جسورة صلبة العود بنفسها فإنها رعديدة جبانة عندما يقترب قيصر منها.

وقد أيّدت الأحداث التالية تكهنات هذا المصري. فقد رُوي لنا أن أوكتاڤيوس كان الغالب كلما ألقى الاثنان بالنرد، سواء لتسلية أو لتقرير شيءٍ من الأشياء. وكلما تراهنا على قتال الديكة والسُّمانى خرج أنطوني مغلوباً.

وعمل أنطوني على إخفاء ضيقه من هذه الأمور إلاّ أنه أولى أقوال المصري كثيراً من الاهتمام. فأوكل امور بيته إلى أوكتاڤيوس وغادر إيطاليا إلى اليونان ترافقه أوكتاڤيا التي وضعت له طفلةً. وقضى شتاءه في أثينا. وهناك وصلته أنباء انتصارات ڤنتيديوس[٣٦] على الپارثيين. وكيف أنه حقق النصر الساحق في معركة حاسمة قتل فيها لابينوس، وفارناباط Pharnabates أقدر قوّاد هيروديس Hyrodes فاحتفل بهذا النجاح بإحياء الحفلات الكبرى للإغريق، وبالألعاب الرياضية في أثينا التي ترأسها بنفسه فترك في منزله شعارات المنصب التي تُرفع أمام الجنرال الروماني. وظهر للناس مرتدياً ثوباً اعتيادياً ونعلاً أبيض وحاملاً عصّى الجمناسارخ Gymnasiarck (أي رئيس الألعاب). وتولّى وظيفة الحَكَم في بعض المسابقات، يقبض على المصارعين الشبان من اعناقهم ويفرق فيما بينهم!

---

(٣٦) هزم ڤنتيديوس الپارثيين سنة ٣٩ ق.م في المداخل الكيليكية وجبل أمانوس. وفي هذه الحروب تخلّى الپارثيون عن الهجمات البعيدة المسافة التي يقوم بها رماة السهام الخيّالة وهي التي جعلتهم يربحون معركة الرها Carrhae ضد كراسوس - واعتمدوا على خيالتهم المصفحة دون أن يحققوا نجاحاً. عندما غزا أنطوني الپارثيين كان هؤلاء قد أدركوا خطأهم وعادوا إلى أسلوبهم الأول.

وعندما حان موعد ذهابه لحرب الپارثيين قطع إكليلاً من شجرة الزيتون المقدّسة في الأكروپوليس. وإطاعة لنبوءةٍ معيّنة ملأ إناءً بماءٍ من نبع كلپسيدرا Clepsydra المقدس وأخذه معه. وفي الوقت نفسه عاد پاغوروس Pacorus ابن الملك هيرودوس فأغار على سورية بجيش پارثي ضخم، فاشتبك معه ڤنتيديوس وهزمه في جندارُس Gindarus بإقليم جيرستيكا Cyrrhestica(٣٧) وأفنى القسم الأعظم من قواته، وكان پاغوروس من أوائل القتلى. كان هذا النصر أحد ألمع الانتصارات العسكرية التي حققها الرومان في تاريخهم. فقد أخذوا بثأرهم كاملاً من النكبة التي أصابتهم على يد كراسوس. واضطر الپارثيون بعد أن خسروا ثلاث معارك متوالية إلى الانسحاب خلف حدود ميديا وما بين النهرين. وقرر ڤينتدريوس ألاّ يتعقّب المنهزم أكثر من هذا، ربما خوفاً من إثارة حسد أنطوني لنجاحه. وبدلاً من ذلك هاجم القبائل التي تمرّدت على الحكم الروماني وأخضعها، وألقى الحصار على أنطيوخوس الكوماجيني Commagene في مدينة ساموساتا Samosata. وعندما عرض أنطيوخوس دفع ألف تالنت لقاء العفو عنه وتعهّده بالخضوع لأنطوني أشار عليه ڤنتيديوس بأن يقدم عرضه إلى أنطوني مباشرةً. وكان هذا الأخير قد اقترب من الجوار ورفض السماح لڤينتيديوس بإجراء أيّ اتفاق مع أنطيوخوس مباشرةً(٣٨). كان متلهفاً إلى مأثرة واحدة على الأقل تُعزى إليه ولم يكن يرغب أن يُعزى كل نجاح إلى ڤنتيديوس. وطال الحصار أمداً واستمات المحصورون في الدفاع بعد أن رُفضت عروض الصلح التي قدّموها، فأُسقط في يد أنطوني. وبات يشعر بالخزي والندم لرفضه العرض الاول وقنع أخيراً بعقد صلح مع أنطيوخوس وقبول ثلاثمائة تالنت فقط. وذهب إلى سورية لتسوية بعض الأمور الصغيرة ثم عاد إلى أثينا. وفي عين الوقت أوفى ڤنتيديوس ما يستحقه من التكريم ومنازل الشرف وأرسله إلى الوطن لينال موكب نصره.

وكان ڤنتيديوس أوّل من نال موكب نصرٍ على الپارثيين. نشأ لأسرة مغمورة إلاّ أن صداقته لأنطوني فتحت أمامه الفرص لتحقيق عظائم الأمور. وأيّد الرأي القائل بأن انتصارات أنطوني وأوكتاڤيوس قيصر إنما تُعزى في الحقيقة إلى قوادهما ومرؤوسيهما

---

(٣٧) كان ذلك في ٣٨ ق.م. وبحسب رواية ديوكاسيوس Diocassius قُتل باكوروس في التاسع من حزيران، وهو نفس اليوم الذي فقد فيه كراسوس حياته قبل خمس عشرة سنة.

(٣٨) توحي دلائل أخرى بأن ڤنتيديوس قبل رشوةً من أنطيوخوس، لكي لايشدد حصاره ويلقي بكامل ثقله. واضطر أنطوني إلى إنهاء القضية بنفسه. سُمح لڤينتديوس بالعودة إلى روما للاحتفال بنصره، إلاّ أنه اختفى من الحياة العامة بعدها مباشرةً ولم يُسمع عنه شيء.

أكثر مما تُعزى إليهما شخصياً. لا شك في أن سوسيوس Sossius وهو قائد آخر من قواد أنطوني، نال انتصارات هامة[٣٩] في سورية، في حين لم يكتف كانيديوس Canidius بفتح بلاد الأرمن[٤٠] عندما تركه أنطوني هناك بل اخضع أيضاً ملوك الإيبري والألباني[٤١] وتقدم حتى بلغ القفقاس. وبهذا عظمت شهرة أنطوني العسكرية عند شعوب البرابرة.

وفي ذلك الحين عاودت الجفوة أنطوني بسبب ما كان أوكتافيوس يذيعه عنه من التهم والوصمات، وأبحر إلى إيطاليا بثلاثمائة سفينة، فأغلق أهالي برنديزيوم ميناءهم في وجهه فدار بأسطوله حول الساحل حتى بلغ تارنتوم. وهنا نجحت أوكتافيا التي رافقته من بلاد اليونان بإقناعه بالسماح لها بزيارة أخيها. كانت قد ولدت لأنطوني ابنتين وهي آنذاك حُبلى. والتقت بأوكتافيوس وهي في طريقها إليه وانتحت جانباً بصديقيه أگريپا Agrippa وميچنياس Maecenas ونالت عطفهما، وراحت تتوسّل إلى أخيها باكية، مستخدمة كل عواطفها، قائلة أن لا يجعلاها أشقى النساء بعد أن كانت أسعدهن. قالت له إن كل الأعين في الإمبراطورية تشخص إليها الآن لأنها زوج لواحد من سيّديها وأخت للسيّد الآخر. . .

- فإن وقعت الطامة الكبرى ونشبت الحرب فيما بينكما لا يستطيع أحد أن يتكهّن من سيكون الغالب منكما. ولكن الأمر الذي لا شكّ فيه هو أن حظّي سيكون أشقى الحظوظ.

تأثّر أوكتافيوس بكلماتهما أيما تأثّر وجاء إلى تارنتوم بنيّة إحلال السلام. وهناك شهد الأهالي منظراً في غاية النبل[٤٢] رأوا جيشاً جرّاراً تنتظم صفوفه على طول

---

(٣٩) استولي على جزيرة وبلدة أرادوس Aradus في فينيقيا ٣٨ ق.م واستولى أيضاً على أورشليم.

(٤٠) في ٣٧ ق.م السنة التي سبقت غزو أنطوني لبلاد الپارثيين وكان كانيديوس يقود حملة متقدمة على أرمينيا.

(٤١) قبيلتان تسكنان جنوب القفقاس.

(٤٢) جرى هذا الاجتماع في ربيع العام ٣٧ ق.م. فمن وجهة نظر أنطوني كانت هناك مسائل على جانب كبير من الأهمية تستدعي البتّ فيها. فأولاً مع أنه كان لكلّ منهما حق متساو لتجنيد الجنود في إيطاليا فقد وجد أنطوني أن حقه لايحترم وكان يُمنع من استعماله بمختلف الحجج. وثانياً كانت مدة حكم الثلاثي توشك على الانتهاء ومن الضروري تجديد سلطاته فبالاتفاق الذي تمّ هنا تخلّى أنطوني عن سكستوس پومپيوس وجهز أوكتافيوس بسفنٍ لاستعمالها في الحرب ضده وبمقابل ذلك، لما كان حقه في التجنيد، لا قيمة له فقد طلب جنوداً عوض ذلك. كما أن حكم الثلاثة مُدّد خمس سنوات أخرى.

الساحل، وأسطولاً جبّاراً في الميناء لا يأتي حراكاً، في حين يتبادل الأصدقاء من الجانبين التحيّات وتعمّ الجيش مظاهر البهجة والفرح. وسبق أنطوني فدعا قيصر فقبل. وكان هذا منه تنازلاً إكراماً لأخته. ثم تمّ الصلح بينهما، وبموجبه أعطى أوكتافيوس فرقتين من المشاة لإسناد أنطونيو في حربه الپارثية. وترك أنطوني له مقابل هذا مائة سفينة حربية. وأفلحت أوكتافيا بالحصول لأخيها على عشرين سفينة خفيفة أخرى من زوجها مقابل إعطائه ألفاً من المشاة. وافترقا وهما على خير ما يكون الأصدقاء. وباشر أوكتافيوس بقتال پومپي(٤٣) والاستيلاء على صقلية، وترك أنطوني زوجه وبناته مع أولاده من زوجه الأولى وأبحر عائداً إلى آسيا.

ولكنّ التأثير القتّال، وأعني به حبه لكليوپاترا الذي ظلّ مدة طويلة هاجعاً في قلبه، وبدا وكأنه طرد سحره، أو على الأقل طواه النسيان بتغلّب الحكمة والعقل، تجمّعت قواه فجأةً وشبّت ناره مرة أخرى، حينما كان يدنو من السواحل السوريّة. وأخيراً كان أشبه بالحصان الجامع المشاكس الذي يصفه أفلاطون حين يقارن النفس البشرية بحصاني العجلة(٤٤). كذلك أنطوني فقد رمح عن عقله كل الاعتبارات السامية الشريفة لضبط النفس التي قد تكون منقذته، وأرسل فونتيوس كاپيتو Fonteius Capito لمرافقة كليوپاترا إلى سورية. وكانت الهدايا التي أمطرها بها حين وصولها لا بالتافهة ولا بالصغيرة، فقد أقطعها فينيقيا، وسورية الكولية(٤٥) وقبرص، وجزءاً كبيراً من كيليكيا. وأقطعها ذلك الجزء من اليهودية الذي بنبت البلسان، والجزء الساحلي من بلاد العرب النبطيّة الذي يمتد جنوباً على البحر الأحمر، هدايا كثيرة أثارت الاستياء والسخط لدى الرومان. لقد منح أنطوني في الماضي أشخاصاً عادين حاكميات، ونصّبهم ملوكاً على شعوب عظيمة. وجرّد كثراً من الحكام من أقاليمهم وممالكهم كأنتيغونس(٤٦) ملك

---

(٤٣) في الواقع إنه أمضى بقية العام ٣٧ يستعد لهذه العملية. ودحر پومپيوس بالأخير وطرد من صقلية في خريف ٣٦ ق.م. وهرب إلى آسيا وقبض عليه أحد ضباط أنطوني وقتله.

(٤٤) يقارن أفلاطون في محاورة فيدر Phædrus النفس البشرية بعجلة مجنّحة وسائقها العقل، وحصان أبيض يمثل الشرف والكرامة وآخر اسود يمثل الكبرياء والوقاحة.

(٤٥) الإقليم المركزي لسورية الذي يمتد شرقاً من جبال لبنان ويشمل دمشق وحلب Palmyra.

(٤٦) في الواقع كان أنتيغونس كاهن اليهود الأكبر، وهو غاصب وليس ملكاً، وصل إلى السلطة بمساعدة الپارثيين عند غزوهم سورية. نُفّذ فيه حكم الموت في العام ٣٧ ق.م. ونصب أنطوني هيرودس حاكماً على اليهودية وهو من أنصاره المخلصين. ويزعم ديوكاسيوس أن قتل أنتيغونس كان بناء على رغبة هيرودس.

اليهودية الذي أمر بقطع رأسه وكان أول ملك تُنفّذ به هذه العقوبة. إلاّ أن الألم الذي شعر به الرومان لهذا التكريم لم يكن يعدله ألم. وزادهم نقمة عليه اعترافه بأبوّة التوأمين اللذين ولدا له منها وتسميتهما الإسكندر وكليوپاترا ثم تلقيبهما بالشمس والقمر. مهما يكن فإن أنطوني بارع جداً في إكساء شرّ الأعمال أجمل مظهر. واعتاد القول إن عظمة الإمبراطورية الرومانية إنما تتجلّى في مقدرتها على إعطائها بالأحرى لا بأخذها، وإن نسلاً شريفاً يجب أن يمتدّ فرعه إلى عدة ملوك. وعلى أية حالٍ فإن مبدأه - كما يقول - هو أن جدّه الأعلى كان من نسل هرقل الذي لم يقصر ذرّيته على رحم واحدٍ، ولم يُقم أمامه عقبة قانونية كقانون صولون بخصوص تحديد النسل. ولم يخشَ مخصباً بنسل، بل ترك الطبيعة تعمل عملها فترك خلفه أساساً لكثيرٍ من الأسر.

بعد هذا بزمن غير طويل وثب أفراهاط على أبيه هيرود فقتله، واستولى على مملكته الپارثية. وهرب خلق كثير من بلاده، وفيهم المدعو مونيسس Momaeses وهو رجل رفيع القدر واسع النفوذ لجأ إلى أنطوني. وقد خيّل له أن حالة هذا الرجل تشبه حالة تميستوكلس. ولما وجد أيضاً تناسقاً جذّاباً بين ضخامة ثروته وكرمه وضخامة ثروة ملوك الفرس وكرمهم فقد بادر إلى إقطاعه المدن الثلاث: لاريسا Larissa وأريتوسا Arethusa وهيراپوليس Hierapolis التي كانت تسمّى سابقاً بامبيچة[٤٧]. ومهما يكن فعندما استدعى الملك الپارثي مونيسس للعودة مرسلاً إليه «يداً يمنى»[٤٨]، كما يعبّرون عنه، اهتبل أنطوني الفرصة وأعاده. وكان في الحقيقة يريد أن يخدع فرهاد[٤٩] بالتظاهر بأنه لا ينوي قتاله. وكان طلبه الوحيد فيه هو إعادة الأعلام الرومانية التي غنموها عند مقتل كراسوس، وإرجاع الأسرى الباقين في قيد الحياة.

وأعاد أنطوني كليوپاترا إلى مصر وسار حالاً بجيشه عبر بلاد العرب وأرمينيا إلى موضع رتّب فيه أن تلتقى قواته بقوات مختلف الملوك الأحلاف. وكان ثمّ عدد كبير منهم إلاّ أن أقواهم وأعظمهم سلطاناً كان أرتافازد Artavasd ملك أرمينيا الذي أمدّه بستة آلاف من الخيّالة وسبعة آلاف من الرجالة. وهنا قام أنطوني باستعراض قواته. وكان الرومان أنفسهم يعدّون ستين ألفاً مع الخيّالة التي كانت تُعتبر رومانية في ذلك

---

(٤٧) تلك عادة شرقية، أن يُقطع لرجل بارز مدينة أو إقليم برمّته يحكمهما ويكون فيها رزقه. ومقابل ذلك يكون مديناً بالولاء للعُرف الإقطاعي.

(٤٨) تعبير شائع عند الفرس والپارثيين ليدلّ على عرض السلام والصداقة.

(٤٩) انطلت الخدعة على أنطوني. إذ يبدو أن مونيسس لم يكن بحاجة إلى الالتجاء إلى أنطوني، وأن غرضه هو التجسّس على أنطوني ومعرفة خططه وإبلاغها لملكه.

الوقت، وكان منها عشرة آلاف من الإسبان والكلتيين. وساهمت الشعوب الأخرى بما يناهز مجموعه ثلاثون ألفاً بضمنها الخيّالة والأصناف الخفيفة. مع هذا قيل لنا إن تحشيد القوة الهائل الذي أرعب حتى الهنود ما وراء يختيريا وجعل آسيا كلها ترتعد فرقاً كان لا نفع فيه لأنطوني لتعلّقه بكليوپاترا. فلأجل أن يمضي معها فصل الشتاء عجّل بالحرب قبل موعدها الصالح. وما اختطه ورسمه فيها كان يتّسم بالطيش وقِصَر النظر، ويجانب السداد والأصالة، كأنه لم يعد مالكاً زمام عقله، وإنما تحت تأثير عقارٍ أو سحرٍ. فقد كان يبدو وكأنّ عينيه تشخصان دوماً إلى صورتها وأفكاره مركزة في التعجيل بالعودة، لا الإسراع في قهر العدو.

في الدرجة الأولى كان أفضل ما يجب عمله قضاء الشتاء في أرمينيا لإراحة جنوده الذين أنهكهم سير طوله ألف ميلٍ، وبعد ذلك يحتل ميديا في أسابيع الربيع الأولى، قبل أن يخرجِ الپارثيون من مقرّاتهم الشتوية. إلاّ أنه لم يجد لديه الصبر على الانتظار وزحفِ حالاً على إقليم أتروپاتينه Atropatene فاجتاحه. ثانياً كان شديد العجلة حتى أنه أبى انتظار وصول الآليات الضرورية لعمليات الحصار، وكانت محمّلة على ثلاثمائة عربة، وفيها كبش لثغر الأسوار طوله ثمانون قدماً. أن عطبت أية آلة من هذه الآلات فلا يمكن مطلقاً التعويض عنها في الوقت المناسب، لأن أصقاع آسيا الشمالية خالية من أخشاب بمثل هذه الأطوال وشدّة المقاومة. وعلى أية حال أصدر أنطوني أوامره بأن تتبعه في المؤخرة لأنها تبطئ من سرعة تقدّمه. ولذلك أفرز قطعة كبيرة من جيشه بقيادة ستاسيانوس Statianus لتقوم على حمايتها. وألقى الحصار على فراهاته Phraata وهي مدينة كبيرة تسكن فيها زوجات ملك الميديين وأولاده. إلاّ أن الصعوبات التي اكتنفت حصاره كشفت له عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه في تركه الآت حصاره. ولم يرَ بدّاً من التقدم بجيشه إلى مسافة قريبة من الأسوار وبناء تلّ ترابي مقابلها، وكانت خسارته عظيمة جداً في الوقت والعمل. في الوقت نفسه انحدر أفراهاط من الپارثيا بجيش لجِبٍ. وما إن تبيّن له أن مقطورات آلات الحصار قد تخلّفت عن سائر جيش العدوّ حتى أرسل قوةً كبيرة من الخيّالة لمهاجمتها فأخذت ستاسيانوس على حين غرّة ولم يجد نفسه إلاّ وهو مطوّق[٥٠] وقُتل هو والآلاف العشرة التي وضِعت تحت إمرته،

---

(٥٠) هُزم بعين الخطة التي طبّقت على كراسوس، وهي جماعات من رماة السهام الخيّالة تُمدّ بدون انقطاع بحاجتها من السهام بواسطة حيوانات حمل، وتبقى على مرمى السهام من الفرق وتصبّ عليهم زخّات مدمّرة من السهام.

ووقع أسرى كثيرون منهم پوليمون Polemon أحد ملوك الپونطس، كما استولوا على آلات الحصار وحطّموها.

وبطبيعة الحال انخفضت معنويات جيش أنطوني إلى درجة كبيرة بهذه النكبة غير المتوقعة في بدء الحملة. ومما زاد الأمر سوءاً اعتقاد أرطاڤاسديس ملك الأرمن بأن الرومان لم يعد لهم أملٌ بالنجاح فانسحب بقواته ورحل[٥١] مع أنه كان المحرّض الاول على بدء الحملة في ذلك الوقت من السنة. وتقدّم الپارثيون الآن من الجيش الروماني الذي يحاصر المدينة واستخدموا أفضل جنودهم للقيام باستعراض قوةٍ بكامل سلاحهم وإرسال التحدّيات والتهديدات للرومان. فلم يكن من أنطوني الذي أدركه القلق على معنويات جنوده - لئلا يفقدوا روحهم الهجوميّة ويدركهم اليأس إن ظلّوا عاطلين - إلاّ أن خرج بعشر فرقٍ وثلاث كتائب من الحرس الپريتوري وكلّ خيّالته، وأخذ يكتسح البلاد المجاوره ويعمل فيها سلباً ونهباً لاجتذاب العدوّ وإغرائه بدخول معركة فاصلة. بعد أن تقدم مسيرة يوم واحدٍ لاحظ أن الپارثيين بدأوا يحيطون به وهم في انتظار فرصتهم للوثوب عليه أثناء زحفه. فرفع إشارة المعركة داخل معسكره، إلاّ أنه أمر بتقويض الخيم كأنه ينوي الانسحاب لا القتال. ثم مَرّ من أمام خطوط البرابرة الذين كانوا قد انتظموا على شكلٍ هلالي. إلاّ أنه أصدر أوامره بأن تقوم الخيّالة بهجومها على العدوّ حال وصول الفرق الرومانية مسافة كافية لمهاجمة خطوطهم الأمامية. ولم يأتِ الپارثيون بحركةٍ حين أخذ الرومان بالحركة صفّاً بعد صفٍّ محافظين على مسافات بدقةٍ ونظام تام وسكون ورماحهم مشرعة، وقد أخذ منهم العجب مأخذه. إلاّ أنهم صمدوا بشجاعة لخيّالة الرومان عندما أُعطيت إشارة الهجوم، وصدّوا اندفاعهم وان كان الانقضاض عليهم سريعاً بحيث لم يمكنهم من استخدام قسيّهم. إلاّ أن فرق المشاة دخلت المعركة بصيحة هائلة وبصليل أسلحتها المزعج مما أجفل خيولهم وجعلها ترتدّ إلى الخلف، وانهزم الپارثيون قبل المشاة، وقبل أن ينال هؤلاء منهم مأرباً. فجدّ أنطوني في مطاردتهم إذ كانت آماله كبيرة بإنهاء الحرب أو على اقل تقدير بربح المعركة الفاصلة في هذه الوقعة. وواصلت مشاته تعقيب العدو إلى مسافة ستة أميال أو اكثر، وقطعت خيّالته في المطاردة مسافة عشرين ميلاً. وكانت حصيلة هذا الجهد كله ثلاثون أسيراً پارثياً وثمانين قتيلاً لا غير فشاعت الخيبة في الجيش وامتلأ الجنود قهراً. وكانت

---

(٥١) في الحقيقة إن أرطباسديس ترك قوة ستاسيانوس. فخيّالته كانت تؤلف جزءاً كبيراً من الحرس، ورحيله بها أضعف القوة وكان السبب في القضاء على معدّات الحصار.

صدمة عظيمة لهم أن يوقعوا هذه الخسارة التافهة في العدو لينالوا النصر عليه بمقارنتها بالهزيمة الساحقة التي لحقتهم باستيلاء العدو على معدّات الحصار. وفي اليوم التالي قوّضوا معسكرهم وعادوا إلى قاعدتهم في فرهاده وصادفوا وهم في طريقهم شراذم وزمراً من العدو أخذت تتكاثر وتتجمّع كلما امعنوا في سيرهم، ثم ظهرت وحدات كاملة انتظمت بالأخير جيشاً مستعداً للقتال أخذ يتحدّاهم ويُطبق عليهم من كلّ الجهات، كأنه لم يعان هزيمةً. وضويق الرومان كثيراً وقاتلوا قتالاً مرّاً وهم يشقّون طريقهم إلى المخيم. وبعد هذا بفترة وجيزة خرج الميديّون من المدينة وهاجموا التلّ الروماني وهزموا المدافعين عنه. وهذا ما أغضب أنطوني فعمد إلى تطبيق العقوبة بتقسيم الجنود إلى مجموعات عشرية، ويُختار بالقرعة واحد من كل عشرة فيقتل، وأمر البقية بأن تُصرف لهم جراياتهم من الشعير بدلاً من القمح.

كانت الحرب منهكة للطرفين. وبدا المستقبل باعثاً على القلق. وراح أنطوني الآن يحسب حساب الجوع، إذ لم يعد الآن قادراً على كفاية حاجة الجنود من الطعام بعمليات نهب واجتياح إلاّ بتضحية عدد كبير من القتلى والجرحى. وفي الوقت نفسه كان أفراهاط يدري أن جنوده لا قِبل لهم بتحمّل قسوة الشتاء ومتاعب الحرب فيه بالنوم في العراء أشهراً. وخشي أن يتخلّى عنه رجاله إن صمد الرومان وظلّوا في معسكرهم. فقد مضى الاعتدال الخريفي وهجمت الريح الباردة. ولذلك لجأ إلى الحيلة التالية: أصدر أمراً لرجاله الذي هم أعرف من غيرهم بالجنود الرومان أن لا يضايقوهم أثناء قيامهم بجمع الأرزاق ولايشتدوا في مهاجمتهم وأن يفسحوا لهم المجال في ذلك. وأن يتقرّبوا منهم بنيّة سلميّة ويمتدحوا شجاعتهم ويعلموهم بأن البارثيين يعدّونهم جنوداً من الطبقة الأولى وأن ملكهم لا يسعه غير الإعجاب بهم. وبعدها يتقرّبون منهم مسافةً أخرى ويرخون أعِنّة خيلهم لتسير الهوينا معهم ويبدأون بلوم أنطوني لأنه يأبى التوصّل إلى اتفاق مع ملكهم وأنه لا يمنحه أية فرصة للسلام بينما هو متلهف للوصول إلى اتفاق لإنقاذ حياة هذا العدد الكبيرة من أشجع الرجال. بدلاً من هذا يصرّ أنطوني على البقاء منتظراً قدوم أشرس عدوّين: الجوع والبرد، مما لا قِبل لهم بمقاومتهما، حتى وإن رافقهما البارثيون في طريقهم. أُبلغ أنطوني بهذه المحادثات من مختلف المصادر، ومع أن آماله كانت تدعوه إلى فتح مفاوضات فإنه لم يرسل إلى الملك البارثي رسلاً حتى تأكد من قائلي هذا الكلام بأن أقوالهم تلك إنما تعبّر عن رأي ملكهم. وعليه أن لا يشكّ في تلك العروض. فأرسل عدداً من رفاقه مجدداً طلبه في إعادة الأعلام والأسرى الرومانيين لأنه لم يكن يرغب أن يفترض الملك بأنه سيكون حامداً ربّه لو

أتيح له الانسحاب بسلام لا غير. وكان جواب الملك بأن موضوع أعلام كراسوس والأسرى الرومان ليس مهماً، ولكن لو أنه سحب جيشه الآن فسيضمن له سبيلاً آمنة ولا يتعرّض له. وفي غضون أيام قلائل حَمّل أنطوني أثقاله وشدّ رحاله وبدأ مسيرة العودة. وكان خطيباً مفوّهاً يسهل عليه دائماً السيطرة على مستمعيه، وكان يعلم أكثر من أي رجل من معاصريه كيف يأتي بالكلمة المناسبة الكفيلة بتحريك مشاعر الجنود. إلاّ أن الهَمّ والشعور بالعار الذي كان يتملّكه ويمنعه من القاء الخطبة التقليدية تشجيعاً للجيش، حملاه على إنابة دوميتيوس آنيو باربوس Domitius Ahino Borbus[٥٢] فيها. فاستاء بعض الجنود لهذا، وشعروا بأنه يحطّ من قدرهم، إلاّ أن معظمهم أدركوا الحقيقة وتألّموا جداً وشعروا بأن الواجب يقضي عليهم أن يظهروا المزيد من الاحترام والطاعة لقائدهم. لهذا السبب قرر أنطوني أن يسلك السبيل الذي جاء فيه، وهو يمرّ في أرض منبسطة خالية من الشجر. فجاءه رجلٌ من قبيلة مارديا Mardian الساكنة على الساحل الجنوبي من بحر قزوين، وكان خبيراً بالعادات الپارثية، وقد قدّم البرهان على إخلاصه للرومان أثناء معركة العجلات وآلات الحصار، وعرض على أنطوني اقتراحه، وهو أن يسير بمحاذاة خطّ الجبال وأن يبقيها عن يمينه، وعليه بصورة خاصّة أن لايعرّض وحدات مشاته ذات السلاح الثقيل والتجهيزات لهجمات الرماة الخيّالة بالسير في أرضٍ براحٍ لا تؤمّن حماية أو غطاء. وقال إن هذا هو ما يتوقعه أفراهاط بالضبط، عندما بذل وعوده الطيبة لإقناعه برفع الحصار. فإذا وافق أنطوني على اقتراحه فيسرّه أن يكون دليلاً للجيش يقوده في سبيل أقصر، تتوفّر فيه الأقوات التي يحتاج إليها. ففكر [أنطوني ملياً بما قاله الرجل القبليّ. لم يكن يريد أن يظن الپارثيون بأنه لا يثق بهم بعد التهادن. إلاّ أنه كان يفضّل شخصياً أقصر السُّبل، وما يمرّ منها ببقاع مأهولة. فطلب من الماردي الميثاق على إخلاصه، فعرض أن يوثق كتافه بالسلاسل حتى يقود الجيش عبر أرمينيا فتمّ ذلك. وانطلق يقود الجيش يومين كاملين دون أن يواجه مقاومةً، وفي الوقت الذي صرف فيه أنطوني عن رأسه أية فكرة عن رؤية العدوّ ولهذا سمح للرتل بالسير على رسله دون التقيّد بنظام السير. إلاّ أن الماردي لاحظ

---

(٥٢) هذا الضابط الذي لعب دوراً هاماً في مأساة شاكسبير. قاتل إلى جانب بروتوس في فيليبي. ثم بعد أن قاد جزءاً من الأسطول الجمهوري إلى الأدرياتيك انضمّ إلى أنطوني في ٤٠ ق.م. كان خصماً عنيداً لكليوپاترا ولنفوذها. وعاد مع أنطوني وظلّ يلازم جانبه حتى موقعة أكسيوم حين تخلّى عنه قبيل المعركة.

كسراً في ضفة النهر، وأن الماء قد فاض منها وغمر الطريق الذي اتخذوه خطاً لسيرهم، فأدرك أنه من عمل الپارثيين، يقصدون به عرقلة سيرهم فأنذر أنطوني بزيادة الحذر واليقظة لأن العدوّ لا شك قريب. وهكذا كان، فما إن وضع المشاة في حالة التعرّض وأخذ ينظم الرماة وقاذفي الرماح للعبور من الصفوف والتقدم إلى جهة العدوّ حتى تدفقت جموع الپارثيين من كل صوب عليهم فنال الرومان من سهامهم عنتاً. إلاّ أن رماة الرماح أوقعوا فيهم ما يعادل ذلك من الخسائر واضطروهم إلى الانكفاء على الأعقاب. غير أنهم كرّوا ثانية ليقوموا بهجوم آخر استمر حتى تجمّعت خيّالة «الكلت» كتلةً واحدة وانقضّوا عليهم فشتّتوا شملهم فتلاشوا ولم يُرَ لهم أثر طوال ذلك اليوم.

هذا الاشتباك لقّن أنطوني عدداً من الدروس في التعبئة، فلم يكتف بعد الآن بتغطية مؤخرته، بل بحماية جناحيه بوحدات قوية من رماة الرماح. ونظم شكل مسيرته بمربّعات جوفاء وأصدر الأوامر أيضاً للخيّالة بأن عليها أن تهزم العدوّ عند الهجوم ولكن دون أن تقوم بمطاردته إلى مسافات بعيدة. وكان من نتيجة هذه التدابير أن الپارثيين مُنوا في الأيام الأربعة التالية بخسائر أكثر بكثير من الخسائر التي أوقعوها بعدوّهم. وخفّت حرارتهم في الهجوم إلى درجة ملحوظة. وبدأوا يفكرون في العودة إلى ديارهم، محتجين بتقدم فصل الشتاء.

في اليوم الخامس جاء إلى أنطوني أحد ضباطه الأقدمين فلاريوس غالّوس Flavius Gallus وهو رجل ذو شجاعة خارقة وقائد موهوب. واستأذن بأن تعود وحدة من الجنود الخفيفة في المؤخرة وبعض الخيّالة من الطلائع، لأنه واثق بمقدرته على إنجاز نجاح هام. فأذن له أنطوني. وعندما هجم الپارثيون ردّهم غالوس على الأعقاب. إلاّ أنه لم ينسحب تدريجياً ليجتذبهم إلى الفِرق كما جرى العمل حسب الخطّه المرسومة، بل ثبت في مواضعه واشتبك مع العدوّ في معركة سافرة. وأدرك الضباط الذين يقودون المؤخرة أنه وقع في خطر الانفصال عنهم، وأرسلوا عدّائين إليه يأمرونه بالانسحاب إلاّ أنه رفض الانصياع لهم. وقيل إن تيتيوس الكويستور تشبّث بألوبته وأدارها إلى الخلف كأنما يأمر الجنود بالانكفاء والعودة إلى القسم الأكبر وراح يعنّف غالوس لاسترخاصه أرواح هذا العدد الكبير من الشجعان. فردّ عليه غالّوس بنفس العنف والشدة وأمر رجاله بالثبات. فعاد تيتيوس وحده. ولكن فيما كان غالوس يتقدم إلى الأمام غفل عن ملاحظة قيام العدو بحركة تطويق من المؤخرة بأعداد كبيرةٍ. ولما رأى السهام تُمطر عليه من كل جانب أرسل يطلب نجدة وهنا ارتكب قادة المؤخرة ما يمكن اعتباره خطأً كبيراً. وكان بينهم كانيديوس وهو أقرب القواد إلى أنطوني، فبدلاً

من مواجهة العدوّ بكلّ زخم وحداتهم أنشأوا يرسلون تباعاً سرايا صغيرة، ما إن تندحر واحدة حتى يشفعوها بالأخرى، ولم يشعروا إلاّ والجيش كلّه يكاد يمنى بهزيمة شنعاء من جرّاء اندحار هذه الوحدات. ولحسن الحظّ أسرع أنطوني إلى المؤخرة بمشاته الثقيلة لوقف التقهقر وشقّت فرقته الثالثة طريقها لمواجهة العدو ووقف أي مطاردة منه.

فقد الرومان ما لا يقل عن ثلاثة آلافٍ من القتلى وجُرح منهم خمسة آلافٍ ومن بينهم غالوس الذي اخترقت صدره أربعة سهام ما لبث أن توفّي متأثراً بها. وأخذ أنطوني ينتقل من خيمة إلى خيمة لمواساة الجرحى والتخفيف عنهم ألماً وقهراً. وكانوا يشدّون على يده الممدودة بأوجه تطفح بالبشر، ويرجون منه أن يذهب ويهتم بمشاغله وهتفوا له باسم الإمبراطور والجنرال. وقالوا له إنهم بخير وسلامة مادام هو بخير وسلامة. وعلى العموم يصحّ القول إنه لن يذكر التاريخ قائداً بهذا العمر على رأس جيش يجمع كلّ هذه الميزات القتالية الممتازة، يتألف من جنود في مقتبل العمر والفتوّة، قادرين على إتيان العجب سواء في مجال الشجاعة أو التحمّل والصبر. إلاّ أن أعجب ما في الأمر هو طاعتهم لقائدهم واحترامهم له، وحُسن النيّة التي يكنّونها له، مع شعورهم بأنهم يفضّلون حسن ظنّ أنطوني فيهم على حيواتهم وعلى سلامتهم - هذا الشعور الذي يشارك فيه الجميع: شهيرهم ومغمورهم، ضابطهم وجنديهم على حدٍ سواء. بمختصر القول إنه جيش لا يقدمه جنود روما القديمة أنفسهم. وهناك أسباب عديدة خلقت مثل هذا التعلّق كما سبق لي ذكره، ومنها عراقة اصل أنطوني، وقوة عارضته، وبساطته، وسخاؤه الذي يصل به حدّ الإسراف، والأسلوب الخالي من الكلفة الذي يلازمه في أوقات لهوه وفي حياته الاجتماعية. وفي هذه المناسبة بالذات كان للحنان الذي عامل به رجاله واستعداده للمشاركة في آلامهم، والاهتمام بتوفير حاجاتهم، التأثير العظيم في حمل الجرحى والمرضى منهم على أن يكونوا أكثر استعداداً لخدمته من أصحائهم وأقويائهم.

وعلى أية حال شجّع هذا النصر العدوّ الذي كان قبل يوم واحدٍ منهوك القوى يهّم بالتخلي عن القتال، وحفزه على البقاء طول الليل قريباً من الرومان استخفافاً بهم، متوقّعين أن يتسنّى لهم وشيكاً نهب الخِيَم الخالية والأثقال المتروكة لجيشٍ مندحر. وفي الصباح جمعوا جموعهم للهجوم بقوّات تفوق الأمس عدداً حتى قيل إنها كانت تضمّ ما لا يقل عن أربعين ألفاً من الخيّالة. وأرسل الملك حرسه الخاصّ أيضاً للمشاركة في ما توقّع أن يكون نصراً أكيداً ذلك لأن الملك البارثي لم يحضر قطّ أي قتالٍ بشخصه. وقرر أنطوني أن يخطب في الجنود. فأرسل يطلب ثياباً غامقة إذ كان

يريد أن يجعل خطبته مثيرة للعاطفة ما وسعه ذلك. إلاّ أن أصحابه عارضوا فكرته فبدا الجنرال بالأرجوان وتكلم أمام الجيش مادحاً الجنود الذين دحروا العدوّ ومؤنباً أولئك الذين فرّوا من أمامه. فأجاب الأولون مؤكدين الثقة التي وضعها فيهم، واعتذر الأخيرون وأبدوا استعدادهم لتقبّل عقوبة التعشير أو أية عقوبة أخرى يختارها، لو أنه نسي عارهم، وكفّ عن إيلام نفسه بتذكره. فأجاب أنطوني برفع كلتا يديه والدعاء إلى الآلهة قائلاً إن ادّخرت له بعض جزاء لموازنة حُسن حظه في الماضي، فليقع هذا عليه وحده ولتمنح السلامة والنصر لبقية الجيش.

وفي اليوم التالي قام الرومان بتغطية تقدّمهم بشكل أفضل وأقوى تأثيراً. وعندما هاجمهم الپارثيون صدموا صدمةً شديدة وانقضّوا وكأنهم لا يتوقّعون غير النهب والسلب من عدوّهم. ولما استقبلهم الرومان بزخّة من المقذوفات ووجدوهم على أتمّ النشاط والعزم والشوق إلى المعركة دبّ فيهم التخاذل والملل من القتال. على أن الرومان تلقّوا منهم وابلاً من السهام وتعرضوا للهجوم عندما اضطرّ الرومان إلى نزول منحدرٍ. وعندها انفتح حملة التروس الثقيلة على جبهة مقعّرة ووضعوا وحدات المشاة الخفيفة في العمق. وبرك الصف الأول منهم على ركبة واحدة ووضعوا تروسهم متراصّة أمامهم. ورفع الصف الثاني التروس فوق الصف الأول، وتوالت الصفوف على هذا المنوال. فبدا منظرهم أشبه بالآجُرّ المرصوف في سقوف البيوت، أو بصفوف مقاعد الملعب المدرّج. وكان دفاعاً فعالاً ضدّ رشقات السهام، فقد أخذت تنثال عليهم دون أن توقع فيهم خسارة. ولم يتصوّر الپارثيون ركوع الرومان إلاّ نتيجة الإرهاق الذي حَلّ بهم، فتركوا قسيّهم وأشرعوا حرابهم وهجموا هجمة صادقةً. فانتفضَ الرومان واقفين وألقوا بأنفسهم عليهم وهم يطلقون صيحة عظيمة، وفتكوا بالصفوف المتقدمة، وأرغموا الباقين على الفرار. وشهدت الأيام التالية اشتباكات مماثلة ولذلك أصبحت عملية الانسحاب تجري على مراحل قصيرة.

وبدأ الجيش أيضاً يكابد الأمرّين من نقص الغذاء والجوع إذ لم يكونوا ليوفقّوا حتى إلى النزر اليسير، وهذا لا يحصلون عليه إلاّ بالقتال. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يفتقرون إلى مطاحن ومخابز، فقد تركوا هذه العُدد خلفهم، لأن حيوانات الأثقال لم يعد لها أثر فهي إما نفقت وإما كانت تحمل الجرحى والمرضى. وشحّت الأرزاق حتى بيع الخيونكس الأتيكي[٥٣] من القمح بخمسين درهماً. وبيعت أرغفة الشعير بوزنها

---

(٥٣) Cheouix وهو مكيال يقارب البوشل.

فضةً. فلم يعد للرومان حيلة إلاّ بأكل الخضروات والجذور، ولكنهم وجدوا ما يؤكل منها قليلاً. فاضطروا إلى تجربة ما لم يذوقوه من قبل وبهذا السبيل أتوا إلى نوع من الحشائش تصيب آكلها بالجنون ثم تميته. ففقد آكلوها ذاكراتهم ودفعهم جنونهم إلى نقل الحجارة من موضع إلى موضع دون تعيين كأنما يقومون بعمل على جانب عظيم من الأهمية، وكانت أرجاء المعسكر تعجّ برجالٍ يرفعون الحجارة من الأرض وينقلونها إلى مكان آخر، ثم تأخذهم نوبة من القيء الأصفر ويسقطون موتى. وكانت الخمر ترياق هذا الداء وهم لا يملكون منها قطرةً. وفقد الرومان رجالاً كثيرين بهذه النازلة. وكان الپارثيون لا ينفكون عن التعرّض لهم وهم بهذه الحالة. وكان أنطوني على ما يذكر لا ينفك يصيح:

- مرحى أيتها الآلاف العشرة!

مظهراً إعجابه بگزنيفون وجيشه الذي قطع مسافة أطول مما قطع جيشه، من بابل إلى البحر، ونجح في شق طريقه بوجه مقاومة أشدّ مما يلقاه.

وعجز الپارثيون عن تمزيق الجيش الروماني وإيقاع الخلل في صفوفه. وبعد أن ارتدّوا خاسئين في الاشتباكات العديدة عادوا إلى تمثيل دور الأخوّة والصداقة مع أفراد الفرق، عندما كانوا يخرجون من المعسكر بحثاً عن علف وطعام. ويقولون لهم مشيرين إلى قسيّهم المعلّقة على أكتافهم بأنهم عافوا القتال وسيعودون إلى بلادهم. وكانت فئات قليلة من الميديين يواكبون الرومان مسيرة يوم أو يومين، دون أن يتعرّضوا لهم، وكان غرضهم حماية القرى المجاورة ليس غير. مظاهر الصداقة هذه كانت ترافقها التحايا وحسن النوايا، وبهذا ارتفعت معنويات الرومان ثانيةً. وعندما وصلت أنطوني هذه التقارير مال إلى استخدام الطريق السهل إذ قيل له إن الطريق الجبلية خالية من الماء. وفيما هو يتهيّأ لذلك إذ بميثريدات يصل المعسكر قادماً من جهة العدوّ، وهو ابن أخ مونيسس الذي كان قد التجأ إلى أنطوني فمنحه هذا ثلاث مدن. وطلب ميثريدات مترجماً يعرف الپارثية أو السريانية ليترجم له أقواله فاستقدم أنطوني صديقاً له أنطاكياً يدعى ألكساندر ليقوم باستجوابه. فكشف ميثريدات عن هويّته وقال إن عليهم أن يتوجّهوا بالشكر إلى مونيسس للمعلومات التي زوّده بها لهم. ثم سأل ألكساندر هل يرى تلك السلسلة من الجبال الشاهقة؟ ولما أجاب هذا بالإيجاب استطرد ميثريدات:

- هناك يكمن لكم الجيش الپارثي. السهول العظيمة تمتد على طول قدمات السلسلة والپارثيون يتوقّعون أنكم ستنخدعون بتقرّبهم منكم بحُسن النوايا فتتركوا المسالك الجبلية وتسيروا باتجاه السهول. لا شك أنكم ستعطشون وتنهدّ قواكم

بمروركم عبر الجبال. إلاّ أنكم معتادون معاناة هذه المشاق. أما إذا حاول أنطوني السير عبر السهول فسيلقى مصيراً شبيهاً بمصير كراسوس.

ورحل الرجل بعد أن أدلى بمعلوماته هذه. واستبدّ القلق العظيم بأنطوني لما سمع وجمع أصحابه. والدليل الماردي الذي كان رأيه طبق رأي ميثريدات وقال:

- إن مخاطر الطريق عبر السهول لا تقتصر على كمائن للعدوّ، فلو لم يكن أثر له فإن خلوّ الطريق من معالم واضحة قد يُفضي بهم إلى التيه والضلال. وفي هذا ما فيه من إرهاق ونصب. أما طريق الجبال فمع كونه وعِراً فلا خطر فيه إلاّ بقاؤكم دون ماء يوماً واحداً فحسب.

فاختار أنطوني الطريق الثانية. وبعد أن أمر رجاله بأن يتزوّدوا بالماء بدأ بالمسيرة ليلاً. ولكن معظمهم لم يكن يملك أوعيةً وبعضهم ملأوا حوذهم وحملوها، وعبّأ بعضهم الماء بالقِرَب الجلدية.

وعلم الپارثيون بمسيرة أنطوني فوراً، فأسرعوا بتعقيبه ليلاً خلافاً لما اعتادوه. وعندما أصبح الصباح هاجموا المؤخّرة، التي كانت في أشدّ حالة من التعب والإرهاق من فرط السير وحرمان النوم فقد قطعوا ٣٠ ميلاً أثناء الليل ليجدوا العدوّ في اعقابهم، فطارت أنفسهم شعاعاً وخبا بصيص الأمل في نفوسهم إذ لم يكونوا يتصوّرون أن العدوّ سيدركهم بهذه السرعة. ومما زاد في الطين بلّة أن العطش تفاقم واشتدّ بالقتال الدائم، فقد كانوا يسيرون ويقاتلون في الوقت ذاته محاولين صدّ العدو عنهم. وأخيراً وصلت الطلائع إلى نهر ماؤه صاف بارد إلاّ أنه مالح، وتأثيره سمّي يُحدث آلاماً فورية في الأمعاء وتشنّجات ويزيد العطش. ومع تحذير الماردي فقد كان الجنود ينحّون جانباً كل من يريد صدّهم عنه ويشربون من المجرى. وهرول أنطوني إلى الرتل المتقدم وراح يتوسّل إليهم ويرجو صبراً قليلاً قائلاً إن ثمّ نهراً ماؤه عذب على مسافة غير بعيدة، وإن الجزء الباقي من الطريق وعِر المرتقى لا تقوى خيّالة العدوّ على سلوكه. ثم أمر بنفخ بوق التجمّع والانسحاب لأن المؤخّرة كانت مشتبكة في قتال مع العدو وأمر بضرب الخيام، ليريح جنوده في ظلالها على الأقل. فشرع الرومان ينصبونها وواصل الپارثيون خطتهم المعتادة فانسحبوا في الحال، وفي تلك الساعة أقبل عليهم ميثريدات ثانية وبعد أن أرسل ألكساندر لمقابلته، نصحهم بأن لايطيلوا إقامتهم وأن يصيبوا أقل ما يمكن من الراحة، ويستأنفوا السير باذلين جهدهم للوصول إلى النهر التالي، لأن الپارثيين لن يعبروه، لأنهم قرّروا مطاردتهم حتى ضفّته. فأبلغ ألكساندر أنطوني وعاد بالرسالة. ثم عاد إلى ميثريدات يحمل مقداراً من الصحاف والأواني الذهبية هدية، فخبّأ هذا كل ما

استطاع إخفاءه منها تحت ثيابه ورحل. وعمل أنطوني بنصيحته فقوّض خيامه قبل ساعة المساء وسار الجيش بكامله ولم يتعرّض لهجوم. الا أن الرومان أمضوا ليلةً ليلاء لم يمرّ عليهم مثلها، وكانوا هم مثيري فتنتها. فقد بدأ الجنود يقتلون ويسلبون من كانوا يظنون أنه يُخفي مالاً منهم. وسُرقت الممتلكات الخاصّة من أحمال الحيوانات، وأخيراً هوجم قطار أثقال أنطوني وكُسرت أقداحه ومناضده الغالية الثمن وتوزّعها اللصوص فيما بينهم.

أحدث هذا العمل الفوضى الكاملة في الجيش وبدأ بعض الوحدات يفقد اتصاله مع القسم الأكبر ويبتعد عنه، وانتشرت الإشاعة بأن العدوّ قد قام بهجوم ناجح أوقع بهم الهزيمة وأحدث الخلل في تشكيلاتهم. وعندها استدعى أنطوني أحد حرسه الشخصيين وهو معتوقه رامنوس Rhamnus، وحمله على أن يقسم له بأن يطعنه طعنة قاتلة وقتما يطلب منه ذلك ويحتزّ رأسه (لأنه قرّر أن لا يقع في يد البارثيين حيّاً، ولا أن تُعرف هويّته ميتاً). وأخذ أصحابه من حوله يبكون إلاّ أن الماردي بذل قصارى جهده ليرفع من معنويات سيّده مؤكداً له أن النهر بات قريباً جداً فالرطوبة تشيع في النسيم الذي يهبّ عليهم من تلك الجهة وأن الهواء البارد الذي يلفح وجوههم جعل تنفّسهم أسهل من ذي قبل. وبيّن أيضاً أن الوقت الذي أمضوه في المسير يدلّ على أن النهر بات قريباً منهم لأن ساعات الليل كادت تمرّ. في الوقت نفسه وصله من أخبره بأن الهرج والمرج الذي حصل كان سببه طمع وعنف فريق من الجنود[٥٤] فأعطى أنطوني إشارة الوقوف وضرب الخيام لإعادة النظام إلى الجيش بعد أن فقد الضبط والربط وعمّت الفوضى فيه.

وطلع الصبح وعادت حالة من الهدوء والنظام تسودان الجيش حين بدأت سهام البارثيين تنثال على المؤخّرة، فأُعطيت إشارة القتال لوحدات المشاة الخفيفة واتخذت تشكيلة الدفاع التي سبق لها واتخذتها في الماضي، أعنى حماية واحدهم الآخر بالتروس، ونجحوا في صدّ مهاجميهم الذين لم يجرؤوا على التقرب منهم مسافة أخرى. وسار الجيش مطبّقاً هذه الخطّة حتى لاح لهم النهر، وعند وصولهم الضفة نشر أنطوني خيّالته بمواجهة العدوّ، وعبر الجرحى والمرضى أولاً، وما لبث الجنود الذين كانوا يقومون بواجب صدّ العدو أن وجدوا لهم المجال فسيحاً للارتواء من ماء النهر،

---

(٥٤) هذه الحادثة تبدو غير منسجمة تماماً مع إخلاص الجنود لأنطوني. وربما كان السبب في نهب ممتلكاته هو شيوع خبر اليأس الذي استولى عليه، أو نبأ موته الكاذب.

إذ ما وقعت أعين الپارثيين على النهر حتى أعادوا قسيّهم إلى جُعبهم وأشاروا للرومان بأنهم أحرار في عبور النهر وهنّأوهم على شجاعتهم وصبرهم. وأتمّوا عملية العبور إلى الضفة الأخرى دون تعرّضٍ وأراحوا أنفسهم ملياً ثم استأنفوا السير، وهم في شكٍّ من تأكيدات الپارثيين. وبعد ستة أيامٍ من آخر معركة لهم بلغوا نهر أراكس الذي يفصل ميديا عن أرمينيا. وكان عبور هذا النهر السريع التيار والعميق المجرى مجازفةً عظيمة. وسرت إشاعة بأن العدوّ قد أعدّ لهم كميناً هناك. وعلى أية حال عبروا إلى الضفة الأخرى بأمان، وما إن وطئت أقدامهم أرمينيا حتى أخذوا يتعانقون ويقبّلون الأرض فرحاً بنجاتهم حتى لكأنهم نوتية سفينة معطوبة نجوا من عاصفة بحرية هوجاء وبلغوا اليابسة. وانطلقوا يسيرون عبر ارض غنية بالثمّر والقوت فأكلوا حتى أُتخموا بعد ذلك الجوع والطوى، حتى وقعوا فريسة لمرضَي الزُّحار والاستسقاء. واستعرض أنطوني جيشه فوجد أنه فقد عشرين ألف راجل وأربعة آلاف خيّال. هلك أكثر من نصفهم بعامل المرض لا بسلاح العدوّ. واستغرقت مسيرتهم من أفراهاطه سبعة وعشرين يوماً، هزموا خلالها الپارثيين في ثماني عشرة وقعة غير حاسمة أو واقية لهم من الهجمات، إذ لم يكن في مقدورهم مطاردة عدوّهم بصورة فعالة إلى مسافة بعيدة. والمسؤول عن هذا كلّه هو أرطباسديس الأرمني[٥٥] الذي حرم أنطوني من القوات الكفيلة بإنهاء الحرب فلو أن الآلاف الستة عشر من الخيّالة[٥٦] كانت موجودة لاختلف الأمر. فسلاح هؤلاء شبيه بسلاح الپارثيين وهم متعودون أساليب قتالهم ولو كانوا هناك لمطاردة العدو بعد أن يصدّه الرومان لاستحال على الپارثيين أن يجمعوا شتيتهم ويكرّوا عليهم بهجمة أخرى وأخرى كما جرى. ولذلك كان الجيش حاقداً على أرطباسديس وأصرّ على أنطوني بالانتقام منه. إلاّ أنه آثر أن يسكت عنه، لأن جيشه كان قد بلغ حدّاً كبيراً من الضعف عدداً وأرزاقاً، ووجد أيضاً من حُسن السياسة أن لا يضع اللوم على عاتقه ولا يصمه بالخيانة وأظهر له المودّة وحُسن النوايا كأن لم يحدث شيء بينهما. ولكن لما دخل أرمينيا مرة أخرى أثناء غزوته الثانية أرسل إلى أرطباسديس عدة دعوات بوعود مغرية حتى أقنعه بمقابلته، فقبض عليه وكبّله بالأغلال وحمله إلى الإسكندرية لعرضه في موكب نصره. وقد آلم الرومان بعمله هذا، فقد شعروا بأنه يحتفل بتقليد رسمي

---

(٥٥) قضت كليوپاترا على هذا الملك بالموت في ٣٠ ق.م بعد معركة أكسيوم مباشرة.

(٥٦) في موضع سابق من هذه السيرة يذكر پلوتارخ أن عدد الخيّالة كان ستة الآف. وهو أكثر احتمالاً.

وطني عظيم المكانة في بلد غريب ولمنفعة المصريين وإرضاء لكليوپاترا. على أن هذا وقع في زمن لاحق.

وغذّ أنطوني السير، لأنّ فصل الشتاء حَلّ وكان قاسياً بعواصفه الثلجية المستمرة. وفقد ثمانية آلاف من رجاله خلال مسيرته. ووصل هو نفسه إلى ساحل البحر المتوسط بثلّة من الحرس إلى موضع يُدعى القرية البيضاء، بين بيروت Berytus وصيدا Siddon، منتظراً كليوپاترا، ولما استبطأها ركبه الهمّ وألحّ في شرب الخمر. إلاّ أنه لم يكن يصبر على الجلوس إلى المائدة، بل كان ينهض فجأة ويسرع إلى الخارج يترقّب قدومها. وأخيراً جاءت عن طريق البحر ومعها كميات كبيرة من الألبسة والأموال للجنود. وتقول إحدى الروايات إنها وزعت الألبسة فقط في حين أن أنطوني وزّع باسمها المال من جيبه الخاص بوصفه هديةً منها.

في هذا الزمن(٥٧) وقع نزاعٌ بين ملك الميديين وأفراهاط الپارثي. وقيل إن سببه خلاف على توزيع الأسلاب التي اغتُنمت من الرومان إلاّ أنها أثارت شكوك الملك الميديّ الذي كان يخشى ضياع تاجه. ولهذا السبب طلب معونة أنطوني وقدومه إليه ووعد من قبله بمساعدته على قهر الپارثيين. فوجدها أنطوني فرصة ذهبية نادرة أنعشت آماله، لاعتقاده أنه ما فشل في فتح بلاد الپارثيين إلاّ لأنه كان يفتقر إلى أعداد كبيرة من الخيّالة ورُماة القسيّ، وهما الصنفان اللذان سيكفيه ملك الميديين حاجته منهما وبصورةٍ يبدو قبولهما منّة وتفضّلاً من أنطوني على المهدي. فاستعدّ للزحف مرة ثانية نحو آسيا الشمالية عبر أرمينيا وهناك تنضّم إليه القوات الميدية عند نهر أراكس فيبدأ بالحرب.

في تلك الأثناء كانت أوكتاڤيا في روما شديدة الرغبة بالرحيل شرقاً للحاق بأنطوني. وقد أجمعت الآراء أن أوكتاڤيوس سمح لها بذلك لا جبراً بخاطرها، بل ليتخذ من إساءة أنطوني استقبالها ذريعةً لإعلان الحرب عليه. وعندما وصلت أوكتاڤيا إلى أثينا(٥٨) تسلّمت رسائل من أنطوني يُعلمها بحملته الجديدة ويطلب منها انتظاره هناك. ومع أن أوكتاڤيا تألّمت لهذا وأدركت السبب الحقيقي لاعتذاراته فقد كتبت إليه تستشيره فيما إذا كان يرغب أن ترسل إليه ما جلبته معها. لأنها حملت معها مقادير كبيرة من الألبسة العسكرية للجنود، وعدداً كبيراً من حيوانات الحمل وأموالاً وهدايا لضباط أنطوني وأركان حربه، إلى جانب ألفين من الرجال المنتخبين المزوّدين بأفضل

---

(٥٧) في أواخر العام ٣٥ ق.م.

(٥٨) في صيف العام ٣٥ ق.م.

السلاح والدروع ليكونوا بمثابة حرس پريتوري[٥٩]. وأرسلت أوكتاڤيا أحد أصحاب أنطوني المدعو نيكر Niger لإبلاغه بكلّ هذا، وعندما أدّى الرسالة مدحها وأثنى عليها، بما هي أهله حقاً.

وأدركت كليوپاترا أن منافستها تنوي أن تتحدّاها من موضع قريبٍ. وكانت تخشى أن تحقق أوكتاڤيا سيطرتها على أنطوني بالاستعانة بسحر معاشرتها اليومية وحدبها الرفيق عليه، فلا يمكن اقتحام السبيل إليه بعدها. لذلك تظاهرت بأن حبّها لأنطوني يكاد يُتلفها واتّبعت نظام حِمية صارماً ليبدو عليها النحول، فإذا دخل عليها شخصت إليه بعينين واجدتين لا تريمان، وإذا قام يريد الذهاب تصنّعت الضعف وتظاهرت بالإغماء. وكانت في أثناء ذلك تبذل مجهوداً عظيماً لتمكّنه من ملاحظتها وهي تبكي، فإذا التفت إليها وانتبه أسرعت تجفف دموعها وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى كأنها تريد إخفاء ذلك عنه. وظلت تمثل دورها طوال الوقت الذي كان يتهيّأ في سورية للالتحاق بملك ميديا. وخفّ صنائع كليوپاترا ومتملّقوها إلى بذل الجهود مع أنطوني فراحوا يلومونه على قسوته، وغلاظة قلبه، إذ كيف يطاوعه أن يعرّض امرأة للتلف فيجفوها، وروحها متعلّقة به وحده، صحيح أن أوكتاڤيا هي حليلته، ولكنه تزوّجها لأسباب سياسية، ولأن مصلحة أخيها كانت تستلزم ذلك، فلديها والحالة هذه مقام الشرف. أما كليوپاترا الملكة التي تحكم شعوباً عديدة فقد قنعت بمقام الخليلة. وهي لا تنفر من وضعها هذا ولا تتأفّف منه ما دامت تراه وتستمتع بصحبته. لكن لو حُرمت من هذا فلن تستطيع الحياة. وظلّوا يضربون على هذا الوتر حتى ألانوا قلبه وأفقدوه كل صفات الرجولة، وبات يؤمن إيماناً تاماً بأنها ستموت إن تخلّى عنها فعدل عن حملته الميدية وعاد إلى الإسكندرية، منتظراً الصيف لمعاودتها مع أن الأنباء كانت تشير إلى الفوضى التي عمّت بلاد الپارثيين والنزاع الداخلي الذي كاد يمزّقها. ومهما يكن فقد رحل إلى تلك البلاد بعد فترةٍ من الزمن وعقد حلفاً مع ملك الميديين، وزوّج ابنه الصغير من كليوپاترا بنت الملك الميدي وهي طفلة بعد، ثم عاد إلى مصر. إلاّ أن أفكاره الآن تحوّلت إلى خطر الحرب الأهلية الوشيك بينه وبين أوكتاڤيوس قيصر.

وجد أوكتاڤيوس برحيل أخته عن أثينا وعودتها إلى روما إهانة له. وعدّ أنطوني

---

(٥٩) في عهد الجمهورية الرومانية: القناصل هم قادة عامون للجيوش. والپريتورون جنرالات غالباً. ولذلك فإن الحرس الپريتوري هو بالأصل نخبة من صنفي الخيّالة والمشاة، يكونون بمثابة حرس شخصي للجنرال.

مسؤولاً عن هذه المعاملة الغليظة. فأمرها بترك بيت الزوجية والعيش في محلّ آخر إلاّ أنها رفضت وطلبت منه أن يقلع عن التفكير في إثارة حرب مع أنطوني إن كانت هي سبباً لها. إلاّ إذا كان قد قرّر ذلك لأسباب أخرى، وأن يتغاضى عن سلوك أنطوني إزاءها، إذ ليس مما يطاق أن يقال بأن أعظم إمبراطورين في العالم أقحما الشعب الروماني في حربٍ أهلية، أحدهما بسبب حبّه لامرأة، والآخر بسبب حنقه على امرأة. إن مسلك أوكتاڤيوس برهن على إخلاصها في قولها فقد ظلّت في منزل أنطوني كأنما هو موجود فيه، وتفرّغت بتفانٍ وانكار ذات إلى العناية بأولادها الذين يأتون إلى روما بحاجةٍ فتحقق لهم طلباتهم لدى قيصر. إلاّ أن سلوكها النبيل عمل على تحطيم سُمعة أنطوني دون أن تريد، فقد جعلته الإساءة التي ارتكبها بحقها مكروهاً.

وزاد الحقد عليه بسبب توزيعه ميراثه في الإسكندرية[٦٠] بين أولاده؛ واعتبر الرومان عمله وقاحة، وحركة مرسحية، يبدو أنها دليل على كرهه لبلاده. على أنه جمع خلقاً كثيراً في ساحة الألعاب الرياضية هناك، وجاء بتاجين من الذهب له ولكليوپاترا وضعهما على تخت من فضة مع تيجان أخرى لأولاده. فبدأ بإعلان كليوپاترا ملكة لمصر، وقبرص وليبيا وسورية الكولية، ونادى بقيصاريون زميلاً لها في الملك. والمعتقد أن هذا الشاب هو ابن يوليوس قيصر الذي ترك كليوپاترا حاملاً. ثم أعلن ابنيه منها ملكَي ملوكٍ، وأعطى ألكساندر أرمينيا وميديا وپارثيا (بعد الاستيلاء عليها) وأعطى بطليموس فينيقيا وسورية وكيليكيا. وجيء بألكساندر أمام الجموع المحتشدة وهو في ثياب ميدية أرمينية: القلنسوة ذات الرأس المنتصب. وجيء ببطليموس وهو بالحذاء والمعطف القصير والقبعة المقدونية وفوقها التاج. كان هذا ما يرتديه الملوك من خلفاء الإسكندر الكبير. وبعد أن عانق الأولاد أبويهما أُعطي الأول منهما حرس شرفٍ أرمنيّ. وأُعطي الثاني حرس شرف مقدوني. وكانت كليوپاترا ترتدي زيّ الربّة إيزيس وكانت تلقّب بإيزيس الجديدة.

أبلغ أوكتاڤيوس قيصر مجلس الشيوخ[٦١] بهذه الأعمال. وبتنديده المستمر العلني

---

(٦٠) لم يكن هذا الاعلان مجرّد إشارة أو كلامٍ، بل تسوية سياسية مدروسة عرفت بـ«تقسيمات الإسكندرية».

(٦١) بلغ أوكتاڤيوس بالأمور غايتها عندما طوّق المجلس بالجنود بمناسبة تقديمه اتهاماته ضد أنطوني. وكان لهذا كثير من الأنصار في روما حتى في ذلك الوقت. وعندها ترك حوالي أربعمائة من أعضاء المجلس مع قنصليْ سنة ٣٢ روما والتحقوا به في الشرق.

بأنطوني نجح نجاحاً كبيراً في إثارة غضب الشعب الروماني ضدّه. وقام أنطوني كذلك برفع عدد من الاتهامات المضادة على أوكتاڤيوس وأهمّها هي الآتية:

أولاً: عندما استولى أوكتاڤيوس على صقلية من سكستوس پومپي استأثر بها لنفسه ولم يعطِه حصّة منها.

ثانياً: بعد أن استعار عدداً من السفن لاستخدامها في هذه الحملة أبقاها لديه ولم يعدها.

ثالثاً: بعد أن عزل ليپيدوس زميلهما الثالث، استأثر بجيشه وأقاليمه التي كان يحكمها هذا القنصل مع عوائدها وضرائبها.

رابعاً: وزّع كل ما تيسّر من أراضي إيطاليا تقريباً على جنوده لم يُبق لجنود أنطوني شيئاً.

وكان ردّ أوكتاڤيوس على هذه التهم: أنه عزل ليپيدوس وصادر سلطاته لإساءته استعمالها، وإن ما استولى عليه في الحرب سيشرك أنطوني به حالما يعطيه أنطوني حصة من أرمينيا. وإن جنوده لا يحق لهم نصيب من أراضي إيطاليا ماداموا قد فتحوا بلاد الميديين والپارثيين وهي الأراضي التي أضافوها ببطولاتهم تحت قيادة جنرالهم إلى الإمبراطورية الرومانية.

كان أنطوني في أرمينيا عندما أُعلم بردود أوكتاڤيوس قيصر. فوجّه في الحال كانيديوس على رأس ست عشرة فرقةٍ إلى ساحل البحر. إلاّ أنه ذهب إلى أفسس برفقة كليوپاترا ليستقبل سفن نقلٍ، وساهمت كليوپاترا بمائتين، مع عشرين ألف تالنت وتقديم الأرزاق والمؤن للجيش كله أثناء القتال. وبناء على نصيحة دوميتيوس أنيوباربوس وعدد من أصدقائه طلب أنطوني من كليوپاترا أن تعود أدراجها إلى مصر وتنتظر نتيجة الحرب. إلاّ أنها كانت تخشى أن تنجح أوكتاڤيا في إحلال صلح جديدٍ بين الخصمين فرشت كانيديوس بمبلغ كبيرٍ من المال ليسعى لأجلها عند أنطوني. فتوجّه إليه هذا قائلاً إنه من الظلم أن تتحمّل المرأة نفقات الحرب الطائلة هذه وتُحرم من امتياز وجودها فيها، كما أنه ليس من الفطنة السياسية في شيء الإساءة إلى المصريين وهم جزءٌ كبير من قواته البحرية. وهو كذلك لا يجد الملوك الحلفاء الذين يعملون معه أرجح عقلاً وأوفر ذكاءً منها. فقد حكمت مملكة عظيمة مدة طويلة من الزمن، وعايشته زمناً فنالت تجارب كثيرة في الشؤون الدولية. أثّرت هذه الحجج في أنطوني ورضخ لها. لأن القدر حكم بأن يحرز أوكتاڤيوس قيصر كل شيء، ولا مردّ لحكم القدر. وبعد أن كمل

تجمّع الأساطيل أبحرا معاً إلى ساموس وانصرفا إلى اللهو[٦٢].

وصدر الأمر إلى كل الملوك والأفراد والحكام والشعوب والمدن من سورية حتى البحيرة الماريوتية Mareotic ومن أرمينيا حتى الليريا بأن يجلبوا أو يرسلوا ما يجب عليهم من معدّات الحرب، كما صدر الأمر لجميع الممثلين بالحضور إلى ساموس. وفي الوقت الذي كانت الدنيا تخرج الزفرات وتذرف الدمع لما ستجرّه الحرب من ويلات ظلّت هذه الجزيرة عدة أيام تتردّد في أجوائها أنغام المزامير والقيثارات، وامتلأت مراسحها بالمتفرّجين، وانشغلت أجواق التمثيل، وأرسلت كل مدينة ثوراً مساهمة منها في القرابين. وأخذ كل ملك من الملوك المرافقين له ينافس صاحبة في إقامة المآدب على شرفه، وفي إهدائه أنفس الهدايا. وبات الناس يتساءلون عن كيفية الاحتفال بالنصر المقبل مادام هذا شأن الاحتفال ببدء الحرب من بذخ وإسراف في الإنفاق.

بعد ختام هذه الاحتفالات رتّب أنطوني للممثلين الداريّين أن يسكنوا على وجه الاستقرار في مدينة پرينه Priene. ثم أقلع إلى أثينا، وسمح لنفسه أن يلهو بالمزيد من وسائل التسلية والمشاهد المرسحيّة. وشعرت كليوپاترا بالغيرة لضروب التكريم الذي نالته أوكتاڤيا هناك - فقد تعلّق الأثينيون بها وأنزلوها منزلة حب خاصّة - ولذلك حاولت كليوپاترا التقرب منهم وخطب ودّهم، وبالغت في إنعامها عليهم فقابلوها بالمثل وأفرطوا في التكريم الرسمي لها، وانتدبوا عدداً من المواطنين للقيام بمراسم هذا التكريم وأرسلوهم وفداً إلى منزلها. ورافقهم أنطوني بنفسه بوصفه مواطن شرف أثيني، ووقف أمامها وألقى الخطبة التقليدية بالنيابة عن المواطنين الأثينين. وفي الوقت نفسه أرسل أناساً إلى روما مزوّدين بتعليمات تقضي بطرد أوكتاڤيا من منزله. وقيل لنا إنها عندما تركته أخذت معها كلّ أولاده ما عدا أنتيللوس Antyllus ابنه البكر من زوجه فولڤيا الذي كان معه، وإنها ذرفت دموع الأسى لأنها ستُعدّ عند الرومان عاملاً من عوامل الحرب. إلاّ أن هؤلاء كانوا يخصّون أنطوني بالمزيد من الرثاء، لاسيما أولئك الذين شاهدوا كليوپاترا وأكدوا أنها لا تفضل أوكتاڤيا لا في شبابها ولا في جمالها.

وكان قلق أوكتاڤيوس قيصر عظيماً عندما سمع بالسرعة التي استعدّ بها أنطوني وعظمة تلك الاستعدادات، فقد كان يخشى أن يُرغم على الإقلاع في ذلك الصيف[٦٣]

---

(٦٢) من المحتمل أيضاً أن تكون هذه الاحتفالات قد أقيمت لمناسبات دينية وليس للّهو: فقد أقام الإسكندر الكبير حفلات مماثلة تكريماً لديونيسوس قبل عددٍ من حملاته.

(٦٣) كان ذلك في ٣٢ ق.م.

لدخول معركة تقرّر مصير الحرب كلّها. وهو في ذلك الوقت يشكو نقصاً في التجهيزات، فضلاً عن الكره الشعبي الشديد الذي نجم عن فرضه ضرائب ثقيلة. فقد كان على من يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة أن يدفع أكثر من رُبع دخله، والمعتوق ثُمن أملاكه. فتعالت الضجة والصياح عليه من الطبقتين وتفشّت الاضطرابات في إيطاليا. ولهذا السبب عُدّ تأجيل أنطوني حربه خطأً من أعظم الأخطاء الاستراتيجية لأنه أتاح الوقت الكافي لأوكتاڤيوس فأكمل استعداده، وعمل على تهدئة الخواطر الثائرة عليه. يضج الناس بالشكوى ويتمرّدون ساعة جباية المال منهم، فإذا دفعوها هدأ ثائرهم وسكتوا. وخرجت كليوپاترا أيضاً عن جادّة الصواب فأهانت تيتيوس Titius وپلانكوس Plancus القنصلين السابقين صديقي أنطوني وكانا من أشدّ معارضي فكرة بقائها في غضون الحرب. فهربا والتحقا بأوكتاڤيوس قيصر وأنهيا إليه ببعض المعلومات عن محتوى وصيّة أنطوني التي يعرفان تفاصيلها. وكانت هذه الوصية قد أودعت أمانة عند العذارى الفستالات(٦٤) وعندما طلبها أوكتاڤيوس منهنّ رفضنَ تسليمها وقلن: إن كان يرغب فيها فليأت وليأخذها بنفسه فلم يتوانَ. وقرأها، وعلم فيها فقرات تصلح لإساءة سُمعة أنطوني، ثم دعا مجلس الشيوخ للاجتماع وتلا تلك الفقرات علناً فاستنكر معظم الشيوخ عمل أوكتاڤيوس إذ وجدوا محاسبة المرء على ما يرغب في إجرائه بعد موته، أثناء ما هو في قيد الحياة، عملاً غريباً غير مسبوق ولا يمكن التسامح فيه. وشدّد أوكتاڤيوس النكير على أنطوني لفقرةٍ تتعلق بدفنه. فقد أوصى بأن يُحمل جثمانه إلى كليوپاترا في مصر بعد أن يشيّع تشييعاً رسمياً في الفوروم إن حصل موته في روما. وإلى جانب هذا تقدم كالڤيسيوس Calvisius أحد صنائع أوكتاڤيوس بعدد من التهم ضدّه تتعلّق بسلوكه مع كليوپاترا فقال إنه أهداها مكتبات في برغاموم تضمّ مائتي ألف لفّة رقّ. وفي مأدبة كبيرة ضمّت عدداً كبيراً من المدعوين نهض وانحنى يدعك لها قدميها إيفاءً برهان أو عهدٍ مقطوع. وسمح لأهالي أفسس أن يحيّوا كليوپاترا بوصفها ملكتهم وبمحضر منه. وفي عدد من المناسبات أثناء تصريفه الرسمي لشؤون والولاة كان يتسلّم رسائل غرامٍ منها مكتوبة على ألواحٍ من عقيق أو بلّور فيقرأها علناً. وفي إحدى المناسبات كان فُورنيوس Furnius وهو من أبرز الشخصيات الرومانية، يترافع

---

(٦٤) يظهر أن هذا عادة عند الشخصيات الرومانية البارزة. إلاّ أن عمل أوكتاڤيوس أثار استياء لأن وصيةً تودعُ لدى الفستالات تعتبر مقدسة بنوع خاص. وكان بمقدور أنطوني أن يغيّر من موادّها لو شاء.

أمامه في قضية، فمرّت به كليوپاترا وهي في مِحفّتها فقفز أنطوني عن كرسيه ونزل تاركاً المرافعة لمرافقتها متعلّقاً بمحفّتها.

على أية حال اعتبر المجلس كالفيسيوس مخترعاً لكلّ هذه الحكايات. وفي الوقت نفسه قام أنصار أنطوني باستفتاءٍ شعبي ودافعوا عنه علناً أمام الجمهور. وأرسلوا أحدهم المدعو غمينيوس Giminius ليطلب من أنطوني أن لا يظلّ ساكتاً في حين تجري محاولة إزاحته عن السلطة بالتصويت، ويعلن عدواً للشعب الروماني. ووصل اليونان، وسرعان ما اعتبرته كليوپاترا عيناً من عيون أوكتاڤيوس، وجعلت مجلسه على المائدة بين الناس العاديين أو الأقل شأناً إذلالاً له، ووضعته هدفاً لمزاح ثقيل. وتحمّل غمينيوس كل تلك الإهانات بصبر وانتظر فرصة للكلام مع أنطوني ولكنه عندما سئل عن الغرض من مجيئه في حفلة عشاءٍ أجاب أنه سيحتفظ برسالته لمناسبة أكثر جِدّاً، إلاّ أن لديه شيئاً واحداً يريد قوله أصاحياً كان أم ثملاً. وهو أن كل شيء سيسير على ما يرام عند إعادة كليوپاترا إلى مصر. ولما بان الغضب على أنطوني قالت كليوپاترا:

- أحسنت صنعاً يا غمينيوس لكشفك الحقيقة قبل وضعك على دولاب التعذيب!

ومهما يكن فقد نجح غمينيوس في العودة إلى روما بعد أيام قليلة[٦٥]. وأفلح طفيليو كليوپاترا في إبعاد أصدقاء كثيرين لأنطوني عنه. هؤلاء لم يسعهم احتمال مزاح بطانتها السمج، ومزاحهم الغليظ. وممن تركه ماركوس سيلانوس Marcus Silanus ودليوس Dellius المؤرّخ. ويقول دليوس هذا إنه كان دائم الخوف على حياته، حتى أن گلاوخوس Glauchus أعلمه بما بيّتت له كليوپاترا، بعد أن غضبت عليه لقوله: إن أصدقاء أنطوني تُقدَّم لهم خمر فجّة، في حين أن سارمنتوس Sarmentus وصيف أوكتاڤيوس (وهو أحد وصفائه المقربّين الذين يطلق الرومان عليهم اسم دليچاي Deliciae) يشرب هناك خمر فاليرنيا Falernia. ما إن أكمل أوكتاڤيوس قيصر استعداده حتى أصدر أمراً بإعلان الحرب على كليوپاترا وبتجريد أنطوني من السلطة التي نزل عنها لامرأة وجعلها تمارسها في محله. وذكر قيصر أيضاً أن أنطوني وقع أسيراً للخمر وأنه لم يعد يتحمّل مسؤولية أعماله، وأن الرومان يخوضون هذا الحرب

---

(٦٥) بلغت القطيعه حداً أنه ما عاد الصفاء بينه وبين أوكتاڤيا ممكناً. والاحتمال الأقرب من هذا أن كليوپاترا خشيت أن يكون غمينيوس كاتيو باربوس أحد أولئك الذين ما فتئوا يلحّون على أنطوني بقطع صلاته مع كليوپاترا وإعادة منصبه في الغرب. إن تمكنها من تهديد المواطنين الأحرار بالتعذيب هو آخر ما يمكن أن يتحمّله أصحاب أنطوني من استفزاز.

ضدّ مارديان Mardian الخصيّ، وكل من پوثينوس Pothinus وإيراس Iras وصيفَي كليوپاترا وشارميون Charmion وصيفتها، لأنهم ذوو الحلّ والعقد الفعليون.

وهنا عليّ أن أذكر عدداً من العجائب التي قيل إنها أنذرت بوقوع الحرب. وقعت هزّة أرضية فابتلعت أرض مستعمرة پيساروم Pisaurum التي أنشأ فيها أنطوني مستوطنة رومانية على ساحل الأدرياتي. وأخذ العرق ينضح من أحد تماثيل أنطوني في ألبا Alba عدّة أيام متواصلة ولم يتوقف النضح رغم تجفيفه عدّة مرّات. ولما كان أنطوني في مدينة پاتراي Patrae وقعت صاعقة على هيكل هرقل. وفي أثينا مزّقت الريح الهوجاء صورة باخوس وقلعتها قلعاً من نقش «معركة العمالقة» وألقتها فوق الملعب على ظهرها. وأنطوني يزعم أنه متصل نسباً بالربّ الأول ومتصل بالثاني نهجاً وخُلقاً حتى أنه لقّب بـ«باخوس الصغير». وعصفت الريح في أثينا بتمثالي فومينوس Fumenes وأتالوس Attalus الهائلين اللذين نُقش عليهما اسم أنطوني من بين سائر التماثيل الكثيرة الأخرى التي لم يصبها ضرر. وشوهدت علامة نحس سيئة جداً في سفينة القيادة الخاصّة بكليوپاترا فقد بنى بعض العصافير في مؤخّرتها عشّاً فجاءت عصافير أخرى وطردت الأولى وأتلفت عشّها.

واجتمع لأنطوني من السفن الحربية ما لا يقلّ عن الخمسمائة، منها سفن ذات عدّة طبقات قد تبلغ الثماني أو العشر وهي كثيرة الحلي والزخارف دقيقة الصنع كأنها صُنعت لاستخدامها في موكب نصر. واجتمع له مائة ألفٍ من المشاة واثنا عشر ألف خيال. ومن الملوك الموالين الذين رافقوه برخوس Borchus ملك ليبيا وتاركونديموس Tarcondemus ملك كيليكيا العليا وفيلادلفوس Philadephus ملك پافلاكونيا Paphlagonia وأرخيلاوس ملك كبدوكيا وميثيريدات ملك كرماجنيه، وسادلاس Sadlas ملك تراقيا. هؤلاء كانوا موجودين بأشخاصهم؛ وأرسل له كل من پوليمون ملك الپونطس، ومالخوس Malchus ملك البلاد العربية، وهيرود Herod ملك اليهودية، وأمنتوس ملك لاقونيا وغلاطية، قوات كبيرة، كما بعث إليه ملك الميديين ببعض الوحدات المقاتلة.

وحشد أوكتاڤيوس قيصر مقابل ذلك مائتين وخمسين بارجة حربية، وثمانين ألفاً من المشاة وما يعادل خيّالة أنطوني. وكانت إمبراطورية أنطوني تمتد من الفرات وأرمينيا حتى البحر الأيوني والليريا. وتبدأ إمبراطورية أوكتاڤيوس من الليريا وتمتد غرباً إلى المحيط، ثم تستمر على طول الساحل الصقليّ والتوسكاني، وكان يسيطر أيضاً على كل الساحل الأفريقي المواجه لإيطاليا، وبلاد الغال وإسبانيا حتى أعمدة هرقل. في

حين كان أنطوني يسيطر على الإقليم الذي يمتدّ من قيرينه Cyrne حتى أرمينيا.

وأمسى أنطوني في هذه الآونة آلةً في يد كليوپاترا تسيّره كما تشاء. فمع أن تفوّقه البرّي على عدوّه كان واضحاً فقد قرر، نزولاً عند رغبة الخليلة، أن يجعل البحر ميدان المعركة الفاصلة. لقد أصرّ على ذلك إرضاء لملكته لا غير، وإن كان يدري مدى افتقاره إلى البحّارة حتى أن ولاته Tetrarch في بلاد اليونان كانوا يجنّدون لها المسافرين، والمكارين، والحصادين والصبيان الذين لم يبلغوا سنّ الخدمة حتى جرّدوا البلاد من قابلياتها واستنفدوا طاقاتها. ومع هذا كله لم تبلغ سفنه المستوى القتالي المنشود. وظلت سيئة الادارة بصورة يُرثى لها. وكان أسطول أوكتاڤيوس بعكس ذلك، يشمل سفناً لم تُبنَ للعرض والرؤية وإنما للحرب والخدمة. فكانت سريعة خفيفة كاملة العدد والعُدّة سهلة التحريك. حشدها في تارنتيوم وبرنديزيوم وأرسل يطلبُ من أنطوني الخروج لقتاله ولا يضيّع وقتاً أكثر مما ضيّع وأن يُقبل عليه وسوف يضمن له المكلات والمواني حرة لأسطوله ولجيشه البري، لينزل منها وينصب خيامه، وقال إنه سيسحب جيشه مسافة كافية في برّ إيطاليا مما يمكن خيالته من الحركة. فردّ أنطوني على هذا التحدي بلهجة تعاظم مماثلة. وتحدّى أوكتاڤيوس إلى منازلته في معركة فرديّة وإن كان أكبر منه سنّاً. فإن رفض أوكتاڤيوس هذا فإن أنطوني يطلب منه أن يلتقيا في ڤرساليا حيث اشتبك قيصر ببومپي من قبل. وعلى أية حال فبينما كان أسطول أنطوني جاثماً في أكسيوم حيث تقوم اليوم مدينة نيكولوپوليس تسلل أوكتاڤيوس إليه سِرّاً عبر البحر الأيوني. واحتلّ مدينة في إپيروس تدعى تورينه Toryne أي «المغرفة». وعندما شاع القلق في نفوس أصحاب أنطوني لأن جيشهم لم يصل بعد، جعلت كليوپاترا من ذلك مادة للسخر وتساءلت مازحةً:

- أيّ بأسٍ في ما لو نجح أوكتاڤيوس في الإمساك بمغرفة؟

وبعد فترة قصيرة انطلق العدوّ نحو أسطول أنطوني في الفجر. وكان يخشى أن تؤسر سفنه قبل أن يتمّ وصول جنوده إليها، ولذلك سلّح كُلّ بحارته وجذّافيه وعرضهم على سطوح السفن إيهاماً للعدوّ. ثم صفّ السفن بالقرب من فم خليج أكسيوم وجعل طبقات المجاذيف ترتفع على الماء بمجاذيفها الموجّهة إلى العدوّ كأنها مستعدة للقتال. فانطلت الخدعة على أوكتاڤيوس وانسحب. واعتبر أنطوني بارعاً في إقامته آطاماً لقطع مجرى الماء عن العدوّ حيث لا يوجد كثير من الينابيع الصالحة للشرب في الأنحاء المجاورة. وهذه ليست بالجيدة أيضاً.

وفي هذا الزمن كان أنطوني كريماً جداً في معاملة دوميتيوس اينوباربوس خلافاً

لرغبة كليوپاترا. فقد فرّ هذا في زورقٍ صغير ولحق بأوكتافيوس وهو مريض بالحمّى، ومع أن أنطوني بات وهو في غاية من الحنق عليه إلاّ أنه بعث إليه بكلّ سلاحه وأمواله وأصدقائه وخدمه. وما لبث دوميتيوس أن مات هناك كأنه يريد أن يندم بعد أن اكتشفت خيانته وقلّة إخلاصه. واختار بعض الملوك التابعين تغيير مواقفهم أيضاً فالتحق بأوكتاڤيوس أمينتاس Amyntas وديوتاروس Deiotarus. زد على هذا فشل الأسطول في كلّ عملية يشارك فيها. إذ كان دائماً يأتي متأخراً فلا يأتي بفائدةٍ فاضطر أنطوني إلى أن يزيد من اهتمامه بجيشه البرّي. وأدرك كانيديوس الآن خطورة الموقف فغيّر رأيه في الأمر وعاد يقترح ترحيل كليوپاترا إلى مصر، وانسحاب أنطوني إلى تراقيا أو مقدونيا، وأن يعتمد على معركة بريّة فاصلة، ذلك لأن ديقوس Dicoues ملك الغيتيين Getae وعده بجيش قويّ. ولم يكن ثمّ ما يحطّ من قدره إن هو تخلّى عن السيادة البحرية لأوكتافيوس، ما دامت قواته د تدرّبت على الحرب البحرية بالأعمال العسكرية التي قام بها أثناء حملة صقلية. هذا فضلاً عن أنه يكون من الخطل أن لا يستفيد من تفوّقه العددي وحُسن تجهيز فرقه، وهو المجرّب الخبير في الحروب البرّية الذي لا يدانيه قائد معاصر فيها. ومن السخف أن يبعثر قواته ويشتّتها بحشرها على ظهور السفن فيضعف من قيمتها القتالية. مع كل هذه المجهودات التي بذلها كانيديوس فقد ظلّ لكليوپاترا القول الفصل. وكانت قد اعتزمت في سِرّها على الفرار ولم يكن الهدف الذي توخّته من تنظيمها قطعها البحرية هو ربح المعركة بل ضمان فرارها حين تدور الدائرة على أنطوني. وحصل أيضاً أنه كان ثمّ جداران طويلان يمتدان من المعسكر حتى مرسى السفن وقد اعتاد أنطوني سلوك هذا الممر للوصول إلى القاعدة البحرية وكان يروح ويغدو آمناً وليس في فكره أي تحسّب لخطرٍ. وأعلم عبدٌ أوكتاڤيوس بأن في الإمكان أسر أنطوني أثناء مروره، فأرسل دوريّة لتضع له كميناً. وكاد هؤلاء الجنود ينجزون مهمتهم إلاّ أنهم خرجوا من مكامنهم في اللحظة غير المناسبة وقبضوا على شخص كان يسبق أنطوني فهرول أنطوني ونجح في فراره.

عندما قرر نهائياً أن يخوض المعركة في البحر أشعل النار في جميع السفن المصرية ما عدا ستين منها[٦٦]، ثم عبّأ أكبر وأقوى سفنه التي تتألف من ثلاث حتى عشر طبقاتٍ من المجاذيف وأقلع بها وعلى ظهرها عشرون ألفاً من المشاة الثقيلة

---

(٦٦) يظهر أنه قام بهذا العمل خوفاً من هروبها أثناء المعركة. والثلاثون الباقية إنما أبقيت لحراسة كليوپاترا.

وألفان من رماة القسيّ. ومما ذُكر لنا في هذه المناسبة بالذات أن قائد مائة من إحدى الفرق كان قد خاض العديد من المعارك تحت إمرة أنطوني حتى امتلأ جسمه بالندوب، صاح فجأة أثناء مرور أنطوني:

- أيها الإمبراطور. كيف يمكنك أن تفقد الثقة بهذا السيف وهذه الجراح وتضع كل آمالك في الخشب النخر؟ ألا دع هؤلاء المصريين والفينيقيين يخوضون حربهم في البحر ودع لنا الأراضي فهناك نعرف كيف نقف صامدين قدماً إلى قدمٍ فنهزم خصمنا أو نموت دونه.

فلم يستطع أنطوني الجواب. وكل ما فعله أنه ألقى نظرة إليه وأومأ إليه بحركة من يده تشجيعاً له. ثم مضى لطيّته. والواقع أنه لم يكن يملك كبير ثقة فيما استقرّ عليه. إذ لما اقترح ربابنة السفن ترك الأشرعة(٦٧) أصدر أمره بإبقائها على ظهر السفن، معلّلاً ذلك بأنهم لن يدعوا فرداً واحداً من العدو يفلح في الفرار(٦٨).

في ذلك اليوم والأيام الثلاثة التي تلته كان البحر هائجاً حتى تعذّر على الطرفين القيام بأي عملية حربية. على أن البحر هدأ في اليوم الخامس وسكنت الريح والتقى الأسطولان. وتولّى أنطوني وپوپليكولا Publicola قيادة الميمنة في حين تولّى كوليوس Coelius الميسرة، وتولّى ماركوس أوكتاڤيوس وماركوس إنستيوس Insteius القلب. ووضع أوكتاڤيوس قيصر أغريبّا على الميسرة، وتولى بنفسه الميمنة. وتولى قيادة جيش أنطوني كانيديوس في حين سلّم أوكتاڤيوس قيادة جيشه إلى طوروس Taurus. إلاّ أن كلا القائدين وضع جيشه في خطّ القتال دون أن تبدر منهما حركة. وراح أنطوني ينتقل بقارب صغير من سفينة إلى سفينة مشجّعاً جنوده وطالباً منهم الثبات والبلاء الحسن في هذه السفن الكبيرة، مثلما عهد منهم في البرّ. وأمر الربابنة بمواجهة هجمة العدو وكانت سفنهم راسية وأن يصمدوا في مواضعهم على فم الخليج الضيّق الذي يصعب المرور منه. وقيل إن أوكتاڤيوس قيصر ترك خيمته والظلام ما زال مرخياً سدوله وانطلق

---

(٦٧) قيل إن أنطوني كان يؤمّل الإفادة من الرياح المقبلة لدفع سفن عدوّه إلى الساحل. وعلى أية حال معلوم أن البوراج الحربية أثناء المعركة إنما تعتمد على مجاذيفها عادة وليس على قلوعها. والواضح أن أوامره خلقت انطباعاً بأن نيّته الحقيقية هي الفرار لا القتال، وقد عززّ هذا الانطباع أن أمواله ومقتنياته كانت كلها محمّلة على ظهر السفن، في حين كان بمقدور الجيش البريّ المحافظة عليها من الضياع.

(٦٨) يزيد نشر القلوع من سرعة السفن عند المطاردة.

لتفقّد سُفنه فمرّ برجل يسوق حماراً فاستوقفه وسأله عن اسمه، فأجاب الرجل وقد عرف مخاطبه:

- اسمي مسعود واسم حماري فاتح.

وبعد المعركة عندما أقام أوكتاڤيوس عند الساحل عدداً من مناقير السفن المأسورة تزييناً للموضع وتخليداً للمعركة، نصب بينها تمثالاً برونزياً للسائق وحماره.

بعد أن أنهى جولته التفقدية توجّه إلى الجناح الأيمن بقارب صغير. فوجد لعجبه الشديد أن العدوّ لا تبدر منه أية حركةٍ في المضيق كأن سفنه ملقيةٌ بمراسيها. وظلّ برهة وهو يظن أن الأمر كذلك. وأبقى سفنه بعيدة عن العدوّ بمسافة ميل واحد. ولكن ريحاً رخاء هبتّ من جهة البحر قبيل الظهر. وأدرك رجال أنطوني الملل من طول الانتظار. ولما كانوا قد وثقوا بأن سفنهم لا تُقهر بسبب ضخامتها وارتفاعها، أطلقوا حركة الميسرة فتقدّمت للمعركة. فكان سرور أوكتاڤيوس عظيماً وأمر جذّافي ميمنته بالتقهقر، ليغري العدوّ به ويخرجه من الخليج ومدخله الضيّق. وكانت خطته تطويقهم بأسرع القطع من أسطوله وقتالهم من مسافة قريبة حيث كان واثقاً بأن الأفضلية ستكون لسفنه على بوارج عدوّه الكبيرة السيئة العُدّة بحركتها البطيئة وعجزها عن المناورة.

عندما التقت خطوط القتال لم تحاول السفن نطح إحداها الأخرى أو سحقها. لأن سفن أنطوني كانت ثقيلة جداً، لا تستطيع أن تحقق السرعة الكفيلة بتوجيه صدمة ساحقة لجدران سفن العدوّ. ولأن أوكتاڤيوس من جهته تحاشى ذلك عمداً، ولم يشأ أن يصادم سفن العدوّ بمناقير سفنه، فتلك كانت مصفّحة بصفائح معدنية ضخمة وأسِنّة برونزية، ولم يحاول أيضاً أن ينطحها من جوانبها لأن هيكلها مبنيّ بكتل مربّعة ضخمة من الخشب الذي تشدّه إلى بعضه أحزمة حديدية، فتتكسّر مناقير سفنه عليها بسهولة. ولهذا أصبح القتال أشبه بمعركة برّية واتخذ سماته تقريباً، أو بكلمة أدقّ هجوم على قلعةٍ محصّنة. فكنت ترى كل ثلاث أو أربع سفن لأوكتاڤيوس تحوّم حول سفينة واحدة لأنطوني. وجرى القتال بالتروس والحراب والقضبان والمقذوفات النارية، وكان رجال أنطوني فضلاً عن ذلك يستخدمون مقذوفات المجانيق المثبتة على أبراجٍ خشبية. وبدأ أغريبّا يمدّ جناحه الأيسر متحامياً طريقه للالتفاف حول جناح العدوّ. واضطر پوپليكولا - مواجهة لهذه الحركة - إلى التقدم نحوه، والانفصال عن القلب الذي كانت الفوضى قد عمّته، وقد اشتبك معه فوراً أرونتيوس Arruntius قائد القلب في أسطول أوكتاڤيوس. في هذه اللحظة حينما كان الميزان معلّقاً بين الطرفين شوهدت سفن كليوپاترا الستين تخرج عن خط القتال فجأة وتنشر قلوعها منطلقة في عُرض البحر.

كانت هذه السفن قد وضِعت خلف السفن الثقيلة مباشرة ولهذا اختلّ نظام التشكيلة وعمّتها الفوضى عندما راحت تتلمّس سبيل انطلاقها. وراقبها العدوّ بذهول وهي تنشر قلوعها وتتجه بمساعدة الريح نحو البلوپونيسس. وهناك أوضح أنطوني للعالم أجمع أنه لا يعمل بشعور القائد ولا بدوافع الرجل الشجاع، ولا بمقتضى عقلية الرجل السويّ، بل برهن على حقيقة قولٍ قيل في معرض مزاح: إن روح العاشق الولهان تعيش في جسم آخر. وقد سمح لنفسه أن يُجرّ جرّاً خلف امرأة كأنه أصبح جزءاً من لحمها وأن عليه أن يذهب حيث شاءت له. ما إن رأى سفنها تنطلق حتى امّحت كل الاعتبارات الأخرى من ذهنه وتخلّى عن الرجال الذي يقاتلون ويموتون في سبيل قضيته وخانهم. صعد إلى بارجة ذات ستّ طبقاتٍ مع كل من ألكساس Alxas السوري وسچليوس Scellius وأسرع وراء تلك المرأة التي دمّرته، والتي ستقوم بإكمال تدميره بعد فترة قليلة.

لما أدركت أنه يسعى وراءها رفعت إشارة على سفينتها فاقترب منها أنطوني وأُصعد إلى ظهرها إلاّ أنه لم يحاول رؤيتها ولم تره هي، بل ذهب إلى قيدوم السفينة وجلس وحده لا ينطق بكلمة واضعاً رأسه بين كفّيه. وبعد قليل لاحت قطع من سفن أوكتاڤيوس الليبورنية الخفيفة Liburnian في الأفق تتعقّبهم فأمر أنطوني بأن تستدير السفينة لمواجهتهم. فلما فعلت نكصت المطاردة على أعقابها إلاّ سفينة يوركليس Eurycles اللاقوني فقد اقترب بسفينته ووقف على سطحها وأشرع رمحه كأنه يريد أن يقذف به أنطوني. ووقف أنطوني عند القيدوم وصاح:

- من هو هذا الذي يتعقّب أنطوني.

- أنا يوركليس ابن لاخاريس. جئتك مسلّحاً بحظوظ قيصر كي أثأر لوالدي.

كان لاخاريس قد أُدين بجريمة سرقة، واحتزّ رأسه بأمرٍ من أنطوني. على أن يوركليس لم يهاجم سفينة أنطوني بل توجّه بأقصى سرعة إلى سفينة القيادة الأخرى - حيث كان يوجد اثنتان - فنطحها وجعلها تدور على نفسها واستولى عليها وعلى سفينة أخرى كان فيها مقدار من الصحاف الثمينة وغيرها من الأموال. وما إن كرّ يوركليس راجعاً وغاب عن الأنظار حتى عاد أنطوني إلى وضعه السابق من الوجوم والجلوس. وظل كذلك ثلاثة أيامٍ يأبى التحرك من موضعه، وهو إمّا ممتلئ غيظاً من كليوپاترا، أو رغبةً منه في عدم توجيه اللوم اليها، أخيراً بلغوا تيناروم[٦٩]، ونجحت وصيفات

---

(٦٩) هي رأس ماتابان الحالي. ويقع في أقصى جنوب البلوپونيسمس.

كليوپاترا في حملهما على محادثة بعضهما بعضاً ثم أكلاً معاً ورقدا. وبدأ عدد من سفن النقل الثقيلة وفلول أتباعه يتواردون إليه عقب الهزيمة العامة. وأعلموا بأن الأسطول قضي عليه قضاءً مبرماً. أمّا القوات البرّية فأغلب ظنّهم أنها ما زالت صامدة في مواقعها. فأرسل أوامر إلى كانيديوس يأمره بسحب الجيش إلى آسيا عبر مقدونيا بأسرع ما يمكن. أمّا هو فقرّر أن يترك تيناروس إلى أفريقيا. وأهدى أنصاره إحدى سفن النقل بما فيها من أموال طائلة وآنية ذهبية وفضية تعود للملوك الحلفاء. ورغب منهم أن يقتسموها فيما بينهم ويستعينوا بها لتدبير أمر سلامتهم. فرفضوا هديته شاكرين وانخرطوا في بكاء فأخذ يطيّب خواطرهم بأعذب الكلام وأرقّ لهجة وألحّ عليهم بقبول الهدية. أخيراً صرفهم بعد أن كتب إلى ثيوفيلس وكيل أمواله في كورنث يطلب إليه أن يمنحهم ملجأ ويبقيهم مخفيّين إلى أن تصلح أمورهم مع أوكتاڤيوس قيصر. وثيوفيلس هذا، هو ابن هيبارخوس صاحب أكبر نفوذ عند أنطوني، ومع هذا فقد كان أول عُتقاء أنطوني الذين ينضمون إلى أوكتاڤيوس. وقد استقر بعد ذلك في كورنث.

هذا ما آلت إليه أحوال أنطوني. ظلّ أسطوله في أكسيوم صامداً بوجه أوكتاڤيوس عدة ساعات ولم يستسلم رجاله إلاّ بعد أن أُعطبت سفنه عطباً شديداً بعاصفةٍ. وكان ذلك في الساعة الرابعة بعد الظهر، وفقد الأسطول ما لا يقلّ عن خمسة آلاف قتيل وغريق، ووقعت ثلاثمائة سفينة في يد أوكتاڤيوس كما دوّن هو نفسه في مذكّراته. ولم يعلم بفرار أنطوني إلا القليل من سفنه. ومن بلغه النبأ كذّبه ولم يعره أذناً صاغية. إذ لم يكن يصدّق أن يتخلّى جنرال عن تسع عشرة فرقة، واثني عشر ألف خيّال لم تدخل معركة ولم تهزم. ومهما يكن فلأنطوني تجارب عديدة مع تقلّبات الحظّ وتحوّلاته المفاجئة كما أن مفاجآت القتال وتصاريفه قد عجمت عوده وبلته. وكان جنوده في شوقٍ لرؤيته، وكانوا على ثقة بأنه سيظهر لهم من جهة ما. حقاً هذا الإخلاص وتلك الشجاعة جعلاهم يصمدون سبعة أيام متوالية وهو غائب عنهم، متجاهلين كل تقرُّب منهم يأتيه أوكتاڤيوس. أخيراً عندما تبيّنوا أن كانيديوس وكيل أنطوني في القيادة هرب من المعسكر ليلاً وأنهم أصبحوا دون أملٍ، ولا أرزاقٍ، ولا قيادة، انضمّوا إلى الغالب. بعد هذا أبحر أوكتاڤيوس إلى أثينا بحراً حيث قام بتنظيم شؤون الإغريق. ووزّع ما تبقّى من مخزون القمح الذي انتزعه أنطوني من المدن بالإكراه وكاد يوردها موارد التلف. لقد نهب أموالهم وغصب عبيدهم وصادر خيولهم وحيوانات أثقالهم ولم يبق لهم شيئاً. لقد اعتاد نيقارخوس والد جدّي أن يروي كيف جُنّد أهالي مدينتنا لأعمال السخرة فكان كل واحد منهم يحمل على عاتقه مقداراً معيّناً من القمح إلى

الساحل قرب أنتيكيرا Anticyra، يشرف عليهم مراقبون ويحثّونهم بالسوط. وبعد أن أنجزوا نقلةً واحدةً وفيما هم يتهيّأون لكيل النقلة الثانية ويضعون أحمالهم تلك على عواتقهم أقبل من يُنبئهم بهزيمة أنطوني. هكذا نجت خيرونيا فقد هرب جنوده ووكلاء إعاشته حال سماعهم بذلك وتركوا الأهالي يتقاسمون القمح فيما بينهم.

بوصول أنطوني ساحل ليبيا أرسل كليوپاترا لتسبقه إلى مصر فغادرت پاريتونيوم Paraetonium[٧٠] وبقي هو وحيداً، يستمتع بكلّ ما توفّره له الوحدة من هدوء. فيتجوّل على هواه مع صديقين أحدهما أرسطوقراطس المنطقي اليوناني ولوچيليوس الروماني الذي ورد ذكره في موضع ما من سيرة بروتوس. وقصصنا كيف أنه أفسح لبروتوس مجالاً للهرب بعد معركة فيليبي عندما تثاقل في سيره حتى أدركه مطاردو بروتوس، وقبضوا عليه عندما انتحل شخصيّته. وقد عفا عنه أنطوني بعد أن مثُل أمامه. ولهذا ظلّ أميناً مخلصاً حتى الأخير. وعندما انضمّ كارپوس[٧١]، وهو القائد الذي أمّره أنطوني على جيش ليبيا إلى أوكتافيوس، حاول قتل نفسه إلاّ أن صديقيه حالا دون ذلك. وعاد إلى الإسكندرية فوجد كليوپاترا مهتمة بمشروع جريء غريب، فقد كانت تحاول أن ترفع سفنها من البحر الأبيض إلى اليابسة وتنقلها إلى البحر الأحمر في موضع ينفصل فيه البحران ويعتبر الخطّ الفاصل بين آسيا وأفريقيا، وهو يبلغ في أضيق موضع منه حوالي أربعين ميلاً[٧٢] وكانت خطتها أن تحمّلها بعدئذ بالأموال الكثيرة، مع حرس مرافق قوي. فتنزل السفن إلى البحر الأحمر ثم تبحر وتستقر فيما وراء حدود مصر آمنة من الأخطار والحروب والأسر. إلاّ أن عرب مملكة بطرا أشعلوا النار في أول سفينة خرجت إلى اليابسة[٧٣]. ولما كان أنطوني على ثقة بأن جيشه في أكسيوم ما زال مخلصاً فقد تخلّت كليوپاترا عن الفكرة. ووضعت جيشها في موقف الاستعداد لحماية مصر. وفي تلك الأثناء ترك أنطوني المدينة والأصدقاء وذهب ليعيش وحده في جزيرة فاروس[٧٤] حيث بنى له بيتاً على نتوء نافذ في البحر. وهناك حبس نفسه عن

---

(٧٠) قرب مدينة السلّوم الحالية.

(٧١) أحد ضباط أنطوني الذين حاربوا معه في معركة فيليبي.

(٧٢) حوالي سبعين ميلاً في الواقع.

(٧٣) هؤلاء هم رعية ملكوس النبطي. كان هذا الملك يحقد على كليوپاترا منذ أن أعطيت بلاده لها بموجب التسوية التى عملها أنطوني في ٣٨ ق.م.

(٧٤) تقع هذه الجزيرة مقابل مدينة الإسكندرية، حيث أقيم عليها المنار الشهير، الذي يُعدّ من عجائب الدنيا السبع.

الناس جميعاً وقال إنه يريد أن يعيش كما عاش تيمون Timon من قبل. فقضيّته تشبه قضية ذاك الأثيني قوبل مثله بالأذى ونُكران الجميل من أولئك الذين توهّمهم أصدقاء، فأبغض كل البشر وفقد ثقته فيهم.

كان تيمون هذا مواطناً أثينياً عاش في أيام حروب الپلوپونيسس تقريباً. وقد ورد ذكره في كوميديات أرسطوفان وأفلاطون(٧٥). ويصوّره هذان الكوميديان رجلاً انطوائياً سوداويّ المزاج كارهاً الناس ومع أنه كان يضيق ذرعاً بالعشرة والصحبة ويتجنّب البشر والاختلاط بهم، فقد استمتع بصحبة ألكيبيادس - وكان آنذاك شاباً وقحاً ذا خُلق نفور - وكان معتاداً معانقته وتقبيله بكلّ حب. ولما أعرب أپيمانتس Apemantus عن دهشته لهذه العواطف وسأله عن سببها، قال له تيمون إنه يحبّ ألكيبيادس لكونه يعلم بأنه سيكون سبباً لكثير من المحن والمصائب للأثينيين. وكان أپيمانتس هذا الشخص الوحيد الذي يسمح له أحياناً بزيارته فكلاهما من الطينة نفسها. وقد حاول أپيمانتس أحياناً احتذاءه في طريقة عيشه. ومرة أثناء «عيد الإبريقين»(٧٦)، كما كان يطلق عليه، قال أپيمانتس:

- ما أبدع مجلسنا هذا يا تيمون؟

فأجابه:

- قد يكون مجلسنا طيباً لو لم تكن هنا.

ومرّة نهض والجمعية العامة منقعدة في أثينا وصعد منصّة الخطابة، وهذا بحدّ ذاته أمرٌ خارق للعادة، وبلغت الدهشة بالحاضرين حتى أنهم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير وأرهفوا آذانهم ليلتقطوا ما سيتفوّه به. فأعلن تيمون قائلاً:

- يا رجال أثينا. إن لديّ قطعة أرض صغيرة للبناء، تقوم عليها تينةٌ، وقد سبق لكثير من إخواني المواطنين أن شنقوا أنفسهم على فروعها، على أني أنوي الآن بناء منزل في موقعها، فوجدت الأفضل أن أعلن للجميع ذلك النبأ. فإن كان أي منكم يريد أن يشنق نفسه فليذهب وليفعل ذلك قبل أن أجتثّها!

ولما حان أجله دُفن في هالي Halae على حافة البحر إلاّ أن الجزء الأمامي من الساحل انخسف وجرفه الماء ثم الجوانب فتعذر الوصول إلى قبره. ويُقرأ النقش المكتوب عليه هكذا:

---

(٧٥) هو الكاتب المرسحي الهزلي، وليس الفيلسوف المعروف.

(٧٦) اليوم الثاني من عيد الخمر الذي يقام تكريماً لديونيسوس وهو يوم سكب الخمر قرباناً للموتى.

هنا أرقد مدفوناً بعد أن انقطع خيط حياة شقية.

لا تسل عن اسمي: فليس عندي لك غير لعنتي.

هذان البيتان هما من نظمه على ما قيل. إلاّ أن الصيغة المعروفة عموماً هي من نظم كاللّيماخوس Callimachus وإليك هي:

هنا يرقد تيمون، الذي أبغض البشرية: ولا تتوقف يا عابر السبيل؛ والعنيّ إن كانت تلك رغبتك، لكن سِر في طريقك، فهذا كل ما أرجو منك.

هذا قليل من كثير من الحكايات إلتي انحدرت إلينا عن تيمون.

كان كانيديوس هو الذي أبلغ أنطوني بأنّ جيشه في أكسيوم قد تبخّر وتلاشى بكامله. وعلم بعدها مباشرة أن هيرود[٧٧] ملك اليهودية قد أعلن ولاءه لأوكتاڤيوس وأخذ معه عدداً من الفرق والكتائب، وأن بقية حلفائه من الملوك قد تخلّوا عنه ولم يبق لديه من السلطة شيء خارج مصر. إلاّ أن أمثال هذه الأنباء الآن لم يعُد لها أي تأثير عليه وبدت عليه السعادة لتخلّصه من رسيس الأمل، ومن القلق معاً. وترك منتجعه البحري الذي سمّاه تيمونية Timoneum. واستقبلته كليوپاترا في قصرها وأقامت المدينة وأقعدتها بالحفلات والمآدب المتواصلة ومجالس الشراب وتوزيع الهدايا بإسرافٍ. وثبّت قيصاريون ابن قيصر من كليوپاترا في قائمة الشباب Ephebes[٧٨]، وخلع على أنتيللوس ابنه من فولڤيا المعطف الرجالي Toga Virilis بدون حاشية الأرجوان[٧٩]. وأشغلت المآدب والحفلات التي أقيمت بهذه المناسبة المدينة عدة أيام بطولها. وحلّ أنطوني وكليوپاترا عصبة «العائشين الأفذاذ» وألّفوا عصبة أخرى، مساوية للأولى على الأقل في إسرافها وبذخها وإفراطها وسمّوها «أخويّة المتّحدين في الموت»، وانضم إليها أصحابهم بعلمٍ منهم بوجوب إنهاء حياتهم معاً، فراحوا يقضون الأيام بسلسلةٍ متتابعة من حفلات العشاء الفاخرة. وفي أثناء هذا جمعت كليوپاترا أنواعاً عديدة من السموم القتّالة، وكانت تجرّبها على المحكومين بالموت لترى أيّها أقلّ آلاماً.

---

(٧٧) كان هيرود الكبير حتى ذلك الحين نصيراً متحمّساً لأنطوني. وقد أرسل نجدات عسكرية إلى أكسيوم إلاّ أنه لم يحضرها بنفسه.

(٧٨) عند الإغريق يدرج في هذه القائمة من يتراوح عمره بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

(٧٩) ثقف قيصاريون ثقافة إغريقية ولذلك أدرج في قائمة الإيفيبوس. وثقف أنتيللوس ثقافة رومانية. والصبي الروماني يرتدي «المعطف الرجالي» في حدود الرابعة عشرة إشارة إلى أنه أصبح يتمتع بحقوقه القانونية كاملة. والى هذا التاريخ كان يلبس ما يُسمّى Toga Praetexta ذات الأهداب الأرجوانية. هذان قتلهما أوكتاڤيوس، كما سيرد ذكره.

ووجدت أن السموم ذات المفعول السريع تورث دائماً أشدّ الآلام وأنكاها، وأن أقلها ألماً هي أبطأها مفعولاً. وواصلت اختبارها لاكتشاف الميزات السمّية لمختلف الحيوانات السامّة، بحملها على مهاجمة بعضها بعضاً على مشهدٍ منها. وكانت تقوم بتجاربها هذه يومياً تقريباً وبعد تجربتها كلّ المحتملات، وجدت أن لدغة «الصلّ المصري asp» هي الوحيدة التي تُحدث نعاساً ثقيلاً وسُباتاً ثم خدراً تاماً. ولا يحدث السمّ تشنّجات ولا تنهّدات، بل قليل من العرق في الوجه، وتفقد الحواس قابليّاتها بالتدريج حتى تتلاشى. والملدغون يقاومون كل محاولة لإيقاظهم أو إنعاشهم. كما يفعل الناس عند استغراقهم في نوم طبيعي عميق.

وأرسل كلاهما بعثة إلى أوكتاڤيوس في آسيا، وطلبت كليوپاترا أن يرث أولادها عرش مصر. وطلب أنطوني أن يسمح له بالعيش في أثينا كشخص عاديّ، إن حُظر عليه البقاء في مصر. ولما كان معظم أصدقائهما قد انفضّوا من حولهما عادا يشكّان في إخلاص القلّة الباقية، فقد بعث لهذه المهمّة معلّم أبنائه المدعو يوفرونيوس Euphronius. والسبب في هذا هو العمل الذي اجترحه ألكساس اللاوديكي Laodicea. كان تيماجينس Timagenes هو الذي قدّم هذا الرجل إلى أنطوني في روما، ومرت الأيام به وهو يزداد اقتراباً من العاهل حتى بات يتمتع بأقوى نفوذ تمتّع به إغريقي عنده. وكان أيضاً ممن استخدمتهم كليوپاترا للتأثير على أنطوني ففعل ذلك بكلّ نجاح وأقنعه بنبذ كل الاعتبارات التي كانت قد تعيد علاقات الصفاء مع أوكتاڤيا. وقد أرسله أنطوني إلى هيرود ملك اليهودية أملاً في إقناعه بالعدول عن إعلانه الولاء لأوكتاڤيوس، ولكن بعد أن مكث ألكساس عند هيرود ردحاً من الزمن وخان سيّده، وجد عنده الصفاقة الكافية للمثول بين يدي أوكتاڤيوس قيصر معتمداً على نفوذ هيرود لحمايته. إلاّ أن هذا الملك عجز عن معونته، وقُبض عليه وجيء به إلى بلاده مصفّداً بالأغلال ونُفّذ به حكم الموت بأمرٍ من أوكتاڤيوس. تلك كانت العقوبة التي استوفاها ألكساس جرّاء خيانته في أثناء حياة أنطوني.

رفض أوكتافيوس قيصر مطلب أنطوني. إلاّ أنه كتب لكليوپاترا يطمئنها بنيل كل طلبٍ معقول تبديه، شريطة أن تقضي على حياة أنطوني أو أن تطرده من مصر. وفي الوقت ذاته أرسل إليها تيرسوس Thyrcus أحد عُتقائه وهو من العلماء والأذكياء[٨٠].

---

(٨٠) أرسل أنطوني وكليوپاترا عدداً من الرسل إلى أوكتاڤيوس دون أن يحققا نجاحاً، ومنهم انتيللوس ابنه، أرسلاه مع مقدار كبيرٍ من المال فاحتفظ أوكتافيوس بالمال وصرف أنتيللوس. ومن

وفكّر أوكتاڤيوس أن مواهبة وقابلياته في الإقناع ستؤدي إلى نجاحه في إبلاغ رسالةٍ من جنرال شابٍ إلى امرأة مدركة قدر جمالها، فخورة به إلى أقصى حدٍ. وعند وصول المبعوث الموفد إليها حظي هذا الرجل منها بمقابلة أطول من الآخرين، وبالتفاتٍ وتكريم أثارا الشك في قلب أنطوني. فأمسك بالرجل وجلده وأعاده إلى أوكتاڤيوس برسالة قال فيها:

- إن تطاول هذا الرجل ووقاحته قد أغاظني في ظروفٍ من سوء الحظّ تجعل استفزازي من أسهل الأمور. فإن ساءك ما فعلت به فلديك معتوقي هيپارخوس رهينة. وبإمكانك شنقه أو جلده، وبذلك نخرج متعادلين.

بعد هذا حاولت كليوپاترا إصلاح غلطتها بإظهارها له أشدّ الحنان والرعاية والتفاني. وأحيت عيد ميلادها بما يناسب حالتهما الحاضرة وسوء حظوظهما، إلاّ أنها احتفلت بعيد ميلاده بإسراف وبذخ منقطعَي النظير، حتى أن كثيراً من الفقراء الذين دُعوا إلى المشاركة فيه خرجوا وهم أغنياء. وفي ذات الوقت كتب أغريپّا لأوكتاڤيوس يرجوه العودة إلى روما لأن وجوده فيها ضروري. ففعل. وأُجلّت الحرب حتى انقضاء موسم الشتاء. ومن ثمّ بدأ أوكتاڤيوس الحرب مجدداً فزحف على مصر وسورية، كما زحف قوّاده عليها من أفريقيا. وما لبث أن استولى على پيلوسيوم. وأشيع أن سلوقوس قائدها سلّمها إلى أوكتاڤيوس بإيعاز من كليوپاترا. ولأجل نفي الإشاعة دفعت إلى يد أنطوني بأولاد القائد المستسلم وزوجه فقتلهم.

كانت كليوپاترا قبل هذا بزمنٍ قصير قد ابتنت لنفسها قرب معبد إيزيس عدداً من الأضرحة العالية والقبور الرائعة المنظر، ونقلت إليها كلّ أموالها وكنوزها من الذهب والفضة، والزمرّد واللؤلؤ والأبنوس والعاج والقرفة وكمية كبرى من خشب النار ونسالة الكتان. وخشي أوكتاڤيوس أن تعمد كليوپاترا في نوبةٍ مفاجئةٍ من اليأس إلى إشعال النار في هذه الكنوز، فكان حريصاً على مكاتبتها باستمرار ووعدها بالمعاملة الطيبة أثناء تقدّمه من المدينة. ومهما يكن من أمرٍ فبعد أن عسكر بالقرب من هيپودروم[٨١] الإسكندرية كرّ عليه أنطوني من الداخل بهجومٍ رائع فأرسل خيّالته على أعقابها وطاردها حتى اضطرّها إلى الاحتماء بتحكيماتها، وعاد إلى المدينة ظافراً. وقد أنعش النصر

= المحتمل أن تيرسوس أُرسل ليبقي المفاوضات مستمرة ليحول بين كنوز البطالمة والتدمير، وكانت أموالاً طائلة، وأوكتافيوس في حاجة ماسّة إلى المال.

(٨١) هو رباط الخيل الكبير ويقع في ظاهر المدن الواسعة.

روحه ودخل القصر وعانق كليوپاترا وهو مدجّج بالسلاح. وقدّم لها جندياً من رجاله أبلى أحسن البلاء في المعركة، فأهدته كليوپاترا درعاً وخوذة من الذهب اعترافاً بشجاعته فقبلها، وفي الليلة نفسها هرب والتحق بقوات أوكتاڤيوس.

وأرسل أنطوني تحدّياً آخر لأوكتاڤيوس يطلب منه نزالاً فردياً. فكان الجواب: على أنطوني أن يجد لنفسه وسائل أخرى غير هذه الوسيلة لإنهاء حياته. وهذا ما جعل أنطوني يفكر أن أشرف ميتة هي أن يسقط في ميدان القتال. وقرر الاشتباك مع العدوّ برّاً وبحراً في وقتٍ واحدٍ، وقيل إنه طلب من الخادم أثناء العشاء أن تُترع كأسه، وأن يزيد في العناية بخدمته عن العادة، فلا أحد يدري هل سيخدمه غداً، أم أنه سيخدم سيّداً آخر، بينما يكون هو في عداد الموتى، مومياء أو لا شيء. وعندما لحظ أن أصدقاءه يبكون لكلامه قال إنه لم يأخذهم للقتال معه، لأنه لا يتوقع أن يخرج من المعركة منتصراً أو سالماً، وإنما هو يبغي منها موتاً كريماً فحسب. وتمضي الرواية فتقول: في تلك الليلة بالذات عند منتصف الليل تقريباً عندما هجع الجميع، وغرقت المدينة في صمت موحش رهيبٍ توقعاً لما سيأتي به الغد، سُمعت ألحان موسيقى رائعة، بدت وكأنها خارجة من جوقةٍ تضرب على مختلف الآلات بمصاحبة أرخم الأصوات وأعذبها، وسُمعت في الوقت نفسه صيحات ضجيج صادر من جمّ غفيرٍ من الناس، اختلطت فيها الصرخات الباخوسيّة بقفزات المسوخ المجذوبة، كأنّ موكباً مرحاً يترك المدينة وهو يغنّي ويهتف. وبدأ الموكب وكأنه يسير في شارع وسط المدينة متجهاً إلى الباب الخارجي المؤدي إلى معسكر أنطوني وفي هذه اللحظة ارتفعت الأصوات إلى مُنتهاها ثم تلاشت. واستنتج أولئك الذين حاولوا تفسير هذه المعجزة بأن الإله ديونيسوس الذي ادّعى أنطوني بصلة قرابةٍ معه، واتخذ منه مثلاً يُحتذى، قد تخلّى عنه الآن(٨٢).

ما إن بدت تباشير الصبح حتى وضع أنطوني مشاته على التلال أمام المدينة وراقب سفنه وهي تخرج لمواجهة العدوّ. ثم لما أنه ظلّ يعتقد بأن أسطوله هو الذي سيقرّر نتيجة قتال اليوم فقد بقي في موضعه منتظراً ما ستسفر عنه المعركة البحرية. ولكن ما إن أصبح أسطوله على مقربةٍ من سفن أوكتاڤيوس حتى رفع النوتيّه مجاذيفهم بالتحيّة، ولمّا قوبلوا بمثلها انضمّوا إلى أوكتاڤيوس برمّتهم. وتقدم الأسطولان المتحدان نحو المدينة رأساً. وما إن شاهد أنطوني هذا حتى وجد الخيّالة تتخلّى عنه إلى أوكتاڤيوس. وأخيراً عندما مُنيت مشاته بالهزيمة انسحب إلى المدينة وهو يصيح بنوبة غضب

---

(٨٢) هناك أسطورة مشهورة تقول إن الآلهة تتخلّى عن المدينة التي حان أجلها قبل سقوطها.

اجتاحته: إن كليوپاترا خانته وسلّمته إلى الرجل الذي قاتله لأجلها. فأدرك الرعب الملكة وخشيت من عمل يُقدم عليه وهو في غمرة يأسه وحنقه، فهربت إلى ضريحها وأنزلت الأبواب المعلّقة، المصفّحة بالقضبان والمزاليج. ثم أرسلت تخبر أنطوني بأنها باتت في عِداد الموتى. فلم يداخله شكّ في ذلك، وانثنى يقول لنفسه:

- لماذا التأخير إذن يا أنطوني؟ إن القدر قد انتزع منك العذر الوحيد الذي كان يجعلك ترغب في المزيد من الحياة.

ثم دخل غرفته. ونزع عنه دروعه وألقى بقطعها جانباً. وهتف يقول:

- لم يؤلمني فقدك يا كليوپاترا، فعمّا قريب سأكون معك. إلاّ أن الخجل يغمرني، حين أكون أنا الإمبراطور ذا الشهرة المعروفة أقل شجاعةً من امرأة في النهاية.

وكان لأنطوني خادم مخلص يدعى إيروس Eros، حمله منذ مدةٍ على أن يقسم له بأن يتولّى القضاء عليه عندما تدعو الحاجة. فأمره أن يفي بوعده. فانتضى إيروس سيفه وأشهره كأنه يريد طعن سيّده إلاّ أنه وجّهه إلى نفسه فجأة. وعندما سقط عند قدمي سيده هتف أنطوني:

- أحسنت يا إيروس. لقد هديت سيّدك إلى ما ينبغي عمله، وإن لم يطاوعك قلبك على أن تفعل ذلك بنفسك.

قال هذا وأغمد سيفه في بطنه وسقط على الفراش. إلاّ أن الجرح لم يقضِ عليه لساعته، وفجأة انقطع النزف وهو مستلق وعاد إليه وعيه وأخذ يتوسل إلى الحاضرين أن يضعوا حدّاً لآلامه. إلاّ أنهم هرولوا خارجاً وتركوه يتلوّى من فرط العذاب ويصرخ مستنجداً، حتى أقبل أمين سرّ كليوپاترا، المدعو ديوميدس، لينقله إلى ضريحها بناء على أوامر منها.

عندما علم أنها حيّة أمر عبيده أن يعجّلوا بدفعه وحمله على أذرعتهم حتى باب الضريح. لكن كليوپاترا لم تسمح بفتحه، وإنما نظرت من كوّة صغيرة مرتفعة، وأدلت بأوتار وحبالٍ إلى الأرض. فشدّ العبيد أنطوني إليها، وراحت كليوپاترا وخادمتاها الوحيدتان الباقيتان معها، تسحبانه إلى الأعلى. وذكر الحاضرون أنه لم يكن ثمّ منظر أدعى إلى الأسى والرثاء مثل ذاك المنظر: أنطوني وقد صبغته دماؤه، والروح تحشرج في صدره، يُسحب إلى الأعلى مادّاً إليها يديه، ورافعاً جسده بما بقي فيه من قوى!

لم يكن سحبه بالعمل السهل بالنسبة إلى ثلاث نساءٍ. كانت كليوپاترا تتشبّث بالحبال بكلّ قواها وقد أسندت رأسها إلى الأرض استجماعاً لقواها، إلى أن أفلحت في جرّه والحاضرون يلقون إليها بكلمات التشجيع، ويشاركونها المجهود والقلق. بعد

أن تمّ رفعه ألقته على السرير ومزّقت عن جسمها رداءها وألقته عليه وأخذت تضرب صدرها حتى أدمته ولطّخت وجهها بالدماء التي أخذت تسيل من جرحه. وراحت تناديه وتندبه وتسمّيه مولاها وزوجها وإمبراطورها. ونسيت شقاءها ومحنتها في تفجّعها عليه. فأخذ أنطوني يهدّئ من آلامها وطلب خمراً إما لعطش شعر به أو أملاً في أن يعجّل به موته. بعد أن شربه طفق ينصحها بأن تعمل لأجل ضمان سلامتها شريطة أن لا يمسّ ذلك بكرامتها وشرفها. وأشار عليها بالاعتماد على پروكوليوس Proculius من دون سائر أصدقاء أوكتاڤيوس. وأخيراً رجا منها أن لا تتألم لسوء الحظ الذي لقيه والأحرى بها أن تفرح باستذكار الأمجاد التي نالها وأن تتذكر أنه وصل إلى أعلى درجة من الشهرة والسؤدد نالهما إنسان ولذلك فليس عاراً عليه أن يموت رومانياً، غلبه روماني.

ما كاد أنطوني يُسلم روحه حتى وصل پروكوليوس مرسلاً من لدن أوكتاڤيوس قيصر. بعد أن طعن أنطوني نفسه، وفي أثناء حمله إلى كليوپاترا جريحاً، اختطف درچيتايوس Dercetaeus وهو أحد أفراد حرسه الشخصي، سيفه وأخفاه ثم تسلل من القصر وأسرع إلى أوكتاڤيوس. وكان أول من أبلغه بنبأ موت أنطوني وأبرز له السيف الملطخ بالدماء، وبعد أن سمع أوكتاڤيوس أقواله انسحب إلى خيمته وبكى. كان أنطوني صهره، وكان فضلاً عن ذلك زميله في المنصب، وشريكه في كثير من الأعمال والمعارك. ثم جمع أصدقاءه وأخرج الرسائل التي تبادلاها وأخذ يقرأها عليهم، ليسمعوا وليروا كيف كان اعتدال لهجته ولطفه، وكيف كان أنطوني فظّاً ساخراً في ردوده كلها. وبعد هذا بعث پروكوليوس بأوامر تقضي أن يبذل كل مجهودٍ ممكن ليقبض على [كليوپاترا] حيةً إذ كان يخشى - كما ذكرتُ - أن تحرق الملكة كنوزها. كما وجد أن حضورها في موكب نصره بروما لن يكون شيئاً بسيطاً في إعلاء مجده. ورفضت كليوپاترا تسليم نفسها لپروكوليوس إلاّ أنها رضيت بالتحدث إليه عندما وقف أمام أحد أبواب الضريح على مستوى الأرض. كان هذا الباب منيعاً محكم الصنع ولكن الكلام عبره مسموعاً. وتحدّثا فيما بينهما وطلبت كليوپاترا أن يحتفظ أولادها بملك مصر. في حين أكد لها پروكوليوس حُسن نوايا أوكتاڤيوس قيصر وأن لا تخشى منه شيئاً ولا تفقد الأمل.

وكان پروكوليوس أثناء ذلك يدرس الضريح دراسة دقيقة، وعندما عاد وأبلغ أوكتاڤيوس بالنتيجة، أرسل غاللوس[٨٣]، في مقابلة أخرى لها. وسار هذا حتى وصل

---

(٨٣) روماني من طبقة الفرسان. كان قائداً للقوات التي زحفت على مصر من ليبيا. قُلّد فيما بعد منصب حاكم مصر. وكان صديقاً للشاعر فرجيل الذي قدّم له الإكلوج القصيد العاشر Eclogue.

إلى الباب وأشغلها في الحديث في حين أسند پروكوليوس سلّماً إلى الكوّة التي كان أنطوني قد أُصعد منها. فارتقاه مع خادمين ونزلوا إلى الضريح وتقدّموا حيث كانت كليوپاترا واقفة وذهنها منصرف إلى مخاطبة غاللوس. ولمحتهم الوصيفة فصاحت بأعلى صوتها:

- ما أشقاك يا كليوپاترا! لقد أمسكوا بك!

فدارت على نفسها وإذا بها أمام پروكوليوس. فاستلّت خنجراً مما يستعمله اللصوص من حزامها وهمّت بإغماده في صدرها إلاّ أن پروكوليوس حال دون ذلك وكانت يداه أسرع منها فأمسكها وهو يقول:

- إنك يا كليوپاترا تظلمين نفسك وتظلمين قيصر. لا تضيّعي عليه فرصة إظهار كرمه تجاهك. إنه ألطف وأرقّ القادة إلاّ أنك تتصرّفين كأنّ أمامك عدوّاً غاشماً لا يحترم كلمة الشرف.

في الوقت نفسه انتزع منها الخنجر ونفض ثوبها لئلا تكون قد أخفت سُمّاً في طياته. وكذلك أرسل أوكتاڤيوس عتيقه إيپافروديتس Epaphroditus إليها وأوصاه أن يتوخّى تكريمها ومعاملتها باحترام، وأن يتخذ أشد التدابير للمحافظة على حياتها.

ودخل أوكتاڤيوس الإسكندرية وقد وضع يده بيد الفيلسوف أريوس Areius وسارا وهما يتحدثان، ليزيد في مقام الفيلسوف في أعين الإسكندرانيين ويجعله محترماً، للتكريم الفريد الذي خصّه به هذا العاهل. وعندما دخل الملعب الرياضي الأهلي وصعد المنصّة التي أقيمت له، وكان الرعب قد ملك على الناس مذاهبم وخرّوا على أوجههم أمامه، طلب منهم الوقوف وأعلن أنه لا ينوي وضع اللوم على مدينتهم، أولاً لأن الإسكندر بانيها، وثانياً لأنه هو نفسه معجب بجمالها وسعتها، وثالثاً احتراماً منه لأريوس. وكان هذا تشريفاً خاصاً للفيلسوف. وبناء على رجائه أصدر أوكتاڤيوس العفو عن عددٍ من الأشخاص ومنهم فيلوستراتوس Philostratus وهو خطيب مرتجل، لا يبزّه أحد من سفسطائيي Saphist زمانه، ولسوء الحظّ ادّعى زوراً أنه فيلسوف أكاديميّ.

ولهذا السبب رفض أوكتاڤيوس الذي كان يشمئزّ من كل أسلوب حياته أن يعفو عنه. فأرسل فيلوستراتوس لحيته البيضاء، وارتدى ثياباً سوداء، وسار خلف أريوس وهو يردّد بلا انقطاع البيت التالي:

«على العاقل إن كان عاقلاً حقاً أن ينقذ العاقل».

ولما سمع أوكتاڤيوس ذلك صفح عنه، وإن كان أكثر اهتماماً بتجنيب أريوس الإحراج من تبديد مخاوف فيلوستراتوس.

وأما عن أولاد أنطوني، فقد وشى بأنتيللوس ابن فولڤيا معلمٌ له يدعى ثيودورس فقُتل. وبينما كان الجنود يحتزّون رأسه اختلس هذا المعلّم الواشي جوهرة ثمينة كانت تحيط بعنقه، وأخفاها في جيبه ثم أنكر ذلك. ولكن سرقته كُشفت وصُلب. ووضع أولاده من كليوپاترا هم وخدمهم تحت الحراسة، إلاّ أنهم عوملوا معاملة طيّبة. على أن قيصاريون الذي قيل إنه ابن يوليوس قيصر أرسلته أمه مع أموالٍ كثيرة في رحلة الهند عن الطريق إيثيوبيا، ولم يمضِ كثيراً في سفرته فقد أقنعه معلّمه رودون Rhodon، وهو على عين شاكلة ثيودورس، بأن أوكتاڤيوس سيجعله ملكاً على مصر وحمله على العودة. وقيل إن أوكتاڤيوس كان يقلّب وجوه النظر في الموقف الذي يحسن به اتخاذه إزاءه، حين أخذ أريوس يترنّم بشعر أوديسيوس Odysseus المشهور من الإلياذة محوّراً فيه بما يناسب المقام.

«ليس أسوأ من أن يوجد «قياصرة» كثيرون...»[٨٤].

وبعد موت كليوپاترا عمل أوكتاڤيوس بنصيحة أريوس فأهلكه. وأما عن أنطوني فقد طلب عدد من الملوك والقادة جسده ليقوموا بمراسم دفنه، إلاّ أنه لم يحرم كليوپاترا منه ودفنته هي دفنة ملكية امتازت بفخامتها وروعتها، وزُوّدت بكلّ ما اقتضى لهذا الغرض. واصطلح عليها الحزن والألم الذي كابدته - إذ أصاب ثدييها ورم وكدمات من شدة اللّطم - وتقبّلت بكلّ سرور المرض الذي انتابها واتخذته ذريعة لرفض الطعام، ليريحها من عبء الحياة بدون اللجوء إلى وسيلة أخرى. وكان أحد رجالها الموثوقين طبيباً يدعى أولمپس Olympus فأنهت إليه بعزمها هذا واعتمدت على مساعدته ومشورته لتحقيق وفاتها. وقد أيّد ذلك في ما دوّنه من تاريخ لهذه الأحداث، نشره فيما بعد. في أثناء ذلك أخذ الشكّ يساور أوكتاڤيوس فراح يخيفها بمصير أولادها، وباستخدامه هذه الضغوط بنفس الطريقة التي يستخدم القائد آلات الحصار أرغمها على التخلّي عن قصدها وسحق مقاومتها، فعادت تسمح لجسمها بالمعالجة والغذاء كما رغب أوكتاڤيوس.

وبعد أيامٍ ذهب لزيارتها والتحدث معها وحاول طمأنتها. وكانت قد عافت حياة الترف التي اعتادتها، واختارت البساطة، فوجدها مستلقية على حشِيّةٍ من القشّ وليس عليها غير رداء من الكتان، وما إن رأته حتى نهضت وألقت بنفسها تحت قدميه. كان

---

(٨٤) الإلياذة ١١ : ٢٠٤. لما كان أديسيوس يحاول أن يحلّ النظام والتفاهم في الجيش الإغريقي قال: ليس أسوأ من أن يوجد حكامٌ كثيرون.

شعرها أشعث وسحنتها منقلبة وعيناها غائرتين في مقلتيهما، وصوتها راعشاً لا سبيل لها إلى السيطرة عليه، وعلى صدرها آثار اللطم الشديد الذي أحدثته يداها، وعلى العموم بدا جسمها يكابد من الألم ما لا يقلّ عن الآلام التي أصابت روحها. ومع ذلك فإن سحرها، وثقتها الطائشة في جمالها، ظلت جذوتهما متقدّةً فيها، وكانا يشعان منها ويضيئان في تبدّل سحنتها، وتقلّب أحوالها، رغم مظاهر الألم والأسى. وعلى أية حال، بعد أن طلب منها أوكتاڤيوس أن تستلقي وجلس بالقرب منها، حاولت في مبدأ الأمر تبرير مشاركتها في الحرب وعزت ذلك إلى الضرورة والإرغام والخوف من أنطوني. وعندما كان أوكتاڤيوس يعارضها في كل نقطةٍ ويُفحمها ويبطل حُجّتها أسرعت بتغيير موقفها وبدأت تضرع إليه وتطلب أن يرقّ لحالها بمختلف التوسّلات والرجاء، كأنها لا تهتمّ بشيء غير سلامة حياتها. وأخيراً سلّمته ورقةً كتبت فيها تفاصيل كاملة عن أموالها ومقتناها، حسب زعمها. ولكن عندما أوضح سلوقوس أحد وكلائها أنها لم تُدرج في القائمة كل ما تملكه وأنها أخفت عنه أشياء، انتصبت على قدميها وأمسكته من شعره وأخذ تلطمه على وجهه. فضحك أوكتاڤيوس للمشهد، وأخيراً هدّأ من ثائرتها فقالت:

- أليس من المزعج جداً يا قيصر أن يتهمني واحدٌ من خدمي بإخفاء بعض الحلي واللعب النسوية في محضر منك عندما شرّفتني بالزيارة والتبسّط معي في الحديث وأنا في أتعس حالٍ! إني لم أحتفظ بها لنفسي الشقيّة بل لأقدّمها هدايا صغيرة منّي لأوكتاڤيا ولزوجك ليڤيا. فبشفاعتهما أؤمّل أن أجدك أرحم وأكثر عطفاً عليّ.

وسرّ أوكتاڤيوس بكلامها هذا لأنه أكد له رغبتها في الحياة. فقال لها إنه سيقبل بكل شيء تسوّيه على هذا الأساس وفق رغبتها. على أن أهمّ من كل هذا هو أنه اعتزم معاملتها بإكرامٍ قد لا تتوقّعه. ثم انصرف وهو واثق بأنه أفلح في خداعها، لكنه كان في الواقع هو المخدوع.

كان من رفاق أوكتاڤيوس، شاب من طبقة الأشراف نبيل الخُلق يدعى كورنيليوس دوللابلا[٨٥] يكنّ لكليوپاترا حُبّاً، وقد أخضعته لسحرها. أفلح هذا الشاب في إبلاغها سِرّاً - عند الحاحها عليه - بأن أوكتاڤيوس أزمع الرحيل إلى سورية على رأس جيشه وقرر أن يرسلها هي وأولادها إلى روما قبله وسيتم ذلك في غضون ثلاثة أيام. وعندما سمعت الملكة بهذا كان أول عمل لها أن طلبت من أوكتاڤيوس السماح لها بسكب

(٨٥) هو ابن دوللابلا السياسي الذي ورد ذكره في سيرة يوليوس قيصر.

القربان الأخير لأنطوني، وعندما أجيز لها ذلك أمرت بحملها إلى القبر ترافقها النسوة اللاتي اعتدن أن يكنّ معها. وهناك أمسكت بالإناء الذي يحوي رماده وقالت:

– يا حبيبي أنطوني. منذ مدة قصيرة دفنتك بيدي هاتين، وكانتا حرّتين، أمّا الآن وقد جئت لأسكب لك قرباناً فأنا أسيرة يحيط بي الحراس وأراقب لئلا أشوّه جسمي هذا بالضرب عليه أو حتى بالبكاء عليك. لقد أصبح جسم أمةٍ رقيقةٍ وهم يحرسونه ليكون زينة للنصر الذي حققوه عليك. والآن وبعد هذا لا تتوقع أيّ قربان يقدّم لك، هذا آخر تكريم تأتي به لك كليوپاترا الأسيرة لأنها ستؤخذ عنك بعيداً. فمع أنه لم يكن يفرّقنا مفرّق في حياتنا، يبدو أن الموت سيرغمنا على تغيير مستقرنا، أنت الروماني المولد وجدت قبرك في مصر، وأنا المصرية التاعسة سأحصل من بلادك على المقدار الذي يكفي لأثوي في إيطاليا. لقد خانتي آلهتي وخذلتني، فإذا وجدت أي عون أو حولٍ في آلهة روما فكلّ رجائي منها أن لا تترك زوجك ما دامت صبيّة وأن لا يدعوها تسير في موكب نصر يجلّلك بالعار. أخفني ودعني أُدفن معك، فلقد أدركت الآن أن آلاف الأحزان التي كابدتها هي لا شيء أمام الأيام القلائل التي عشتها بعيدة عنك.

بهذا ناجت كليوپاترا أنطوني، وبكته. ثم توجّت الإناء الذي يحوي رفاته بإكليل زهر وقبّلته. ثم أمرت بتهيئة حمّامٍ، وبعد أن اغتسلت استلقت، وأمرت بطعامٍ فاخرٍ. وجاءها قرويّ مصريّ بسلّةٍ صغيرةٍ فاعترضه الحرس وسألوه عمّا تحويه فرفع القروي الأغصان التي تغطيها عن تين كبير الحجم أثار دهشتهم. فضحك القروي ودعاهم إليه، فأبوا إلاّ أن شكّهم زال فسمحوا له بأخذ الثمر إلى الملكة.

بعد أن تناولت كليوپاترا طعامها كتبت رسالة لأوكتافيوس على لوحٍ ومهرتها بختمها وأرسلتها إليه. وبعد هذا صرفت كل أتباعها إلاّ وصيفتيها المخلصتين وأغلقت أبواب الضريح.

وفضّ أوكتاڤيوس قيصر اللوح وما إن قرأ رجاء كليوپاترا بأن تدفن مع أنطوني حتى أدرك ما تنويه. وأراد هو أن يذهب بنفسه لإنقاذها إلاّ أنه ضبط إرادته وأرسل رسلاً يستطلعون جليّة الأمر. إلاّ أن المأساة سبقتهم وكانت أسرع منهم. اندفع الرسل إلى داخل الضريح فوجدوا الحرس يجهلون كل شيء. وعندما فتحوا الأبواب وجدوا كليوپاترا مستلقية على سرير من الذهب وهي مرتدية ثيابها الملكية، وتحت قدميها إيريس إحدى وصيفاتها تعالج سكرات الموت، وشارميون الوصيفة الثانية كانت تترنّح ولا تقوى على رفع رأسها، منهمكة في إصلاح التاج الذي يحيط بجبين سيّدتها. وعندها صاح أحد الحراس غاضباً:

- شارميون أهذا عمل لائق؟

فأجابته: لائق، وجدير بأميرة انحدرت من صلب هذا العدد الكبير من الملوك.

وما إن أكملت عبارتها حتى سقطت ميتة عند أقدام السرير.

واستناداً إلى إحدى الروايات أنّ الصِلّ حُمِل إليها مع التين وكان مخبأ تحت الأوراق في السلّة. لأن كليوپاترا قد أعطت أوامر بأن يستقرّ الثعبان على جسمها قبل أن تعلم به. ولكن عندما رفعت بعض التينات لمحته وقالت:

- إذن فهذا هو.

وتمضي الرواية فتقول إنها كشفت عن ذراعها ومدّتها إليه فلدغها.

ويقول آخرون إنه كان محفوظاً في إبريق مُحكم السدّ، وإن كليوپاترا أهاجته بوخزه بدبّوس ذهبيّ، فشبّ عليها وأنشب نابه في ذراعها. إلاّ أن الحقيقة ظلّت سِرّاً لا يعلم به أحدٌ. فهناك رواية أخرى تفيد أنها أخفت سُمّاً في دبّوس شعرٍ مجوّفٍ أخفته بلفّ خصلات شعرها عليه. ومع هذا لم يعثر في جسمها على خدش أو كدمة أو بقعة أو أي أعراض للتسمّم، ولم يشاهد الصِلّ في الضريح، إلا أنه لوحظ شيء شبيه بمسحاله فوق الرمل القريب من الجهة المواجهة للبحر من الغرفة. ويقول بعض الناس أيضاً إنه وجد أثر نابين مغروزين في ذراع كليوپاترا يكادان لا يظهران للعين. ويبدو أن أوكتاڤيوس قيصر نفسه أخذ بهذا التعليل، حيث سيّر في موكب نصره تمثالاً لكليوپاترا وقد تعلّق بها صِلّ. تلك هي مختلف الروايات عن مصرعها.

كان غيظ أوكتاڤيوس لموت كليوپاترا شديداً. ومع ذلك لم يسعه إلاّ الإعجاب بنبل روحها. وأمر بأن تدفن إلى جوار أنطوني بكلّ مظاهر الملك وأبّهته كما شيّعت وصيفتاها بكلّ إكرامٍ. ماتت كليوپاترا ولها من العمر تسعة وثلاثون عاماً. وحكمت اثنتين وعشرين سنةً، وشاركت أنطوني إمبراطوريته في أربعة عشر عاماً[٨٦] من هذه المدة. وكان لأنطوني يوم موته ثلاث وخمسون سنة من العمر في رواية، وستّ وخمسون في رواية أخرى[٨٧]. وحُطّمت تماثيله كلها. ولكن سُمح بالإبقاء على تماثيل

---

(٨٦) يصعب جداً فهم الرقم. فالمقابلة الشهيرة في تدنوس حصلت في ٤١ ق.م أي بعد عشرين سنة من أكسيوم تقريباً.

(٨٧) ولد أنطوني في ١٤ كانون الثاني عام ٨٢ أو ٨١ ق.م. ولذلك مات وهو في الثانية والخمسين أو الثالثة والخمسين.

كليوپاترا منصوبة لأن أرخيبيوس Archibius أحد أصدقائها دفع لأوكتاڤيوس ألفي تالنت لإنقاذها من مصير تماثيل أنطوني.

ترك أنطوني سبعة أولاد، منهم بكره أنتيللوس الذي قتله أوكتاڤيوس. وأخذت أوكتافيا البقية إلى منزلتها وربّتهم مع أسرتها. ودبّرت زواج بنت كليوپاترا التي سُمّيت بنفس الاسم، بجوبا ملك النوميديين، أوسع حكام عصره فكراً ومواهب. ووصلت أنطوني وهو أحد أولاد فولڤيا بأوكتاڤيوس فبلغ أرفع منزلة عنده. ففي الوقت الذي كان أغريپّا يتمتع بمنزلة الشرف الأولى عنده وأولاد ليڤيا بالمنزلة الثانية، كان أنطوني الابن يتمتّع بالمنزلة الثالثة حسب التقدير العام ولم يكن هذا التقدير يتعدّى الحقيقة.

كان لأوكتاڤيا من مارچللوس زوجها الأول بنتان وابن واحدٌ اسمه مارچللوس. هذا الولد تبنّاه أوكتاڤيوس وزوّجه بنته. كما زوّجت أوكتاڤيا إحدى بناتها من أغريپّا. إلاّ أن مارچللوس اعتبط عقب زواجه مباشرةً. وأدركت الحيرة أوكتاڤيوس فيمن يجعل له صهراً موثوقاً. فأشارت عليه أوكتاڤيا بأن يحمل أغريپّا على تطليق ابنتها وأن يتزوّج بابنته يوليا. بالأول أقنعت أوكتاڤيوس، وبعدها حملت أغريپّا على الرضا بهذا التدبير فتمّ زواج أغريپّا بيوليا، وزوّجت بنتها المطلقة من أنطوني الابن.

أما ابنتا أوكتاڤيا من أنطوني، فأولهما أغريپينا، تزوجت من دوميسيوس أينو باربوس(٨٨). وثانيتهما أنطونيا التي اشتهرت بفرط جمالها وذكائها، فقد تزوّجت دروسوس الذي ملك فيما بعد. ومن أولاد يرمانيكوس حكم كايوس أفضل حكمٍ وقُتِل هو وزوجه وولده. وبعد أن حملت أغريپينا لزوجها وولدت له لوچيوس دوميتيوس، تزوّجت كلوديوس قيصر الذي تبنّى لوچيوس هذا وسمّاه نيرون يرمانيكوس، فكان إمبراطوراً في زماننا هذا. فقتل أمّه. وكاد بجنونه وحمقه يصل بالإمبراطورية الرومانية إلى شفا الخراب. وهو السليل الخامس لأنطوني(٨٩).

---

(٨٨) ابن صديق أنطوني الذي تخلّى عنه عشية معركة أكسيوم.

(٨٩) وهكذا يستمر النزاع بين أوكتاڤيوس وأنطوني بشكلٍ ما إلى نهاية حكم نيرون (٦٨م) عندما يحمى تماماً في سنة الأباطرة الأربعة، بيوت كل من يوليان وكلوديان وأنطونيان.



تمثال من المرمر لنيرون

أوجُه المقارنة بين ديمتريوس وأنطوني

كلاهما كان أروع مثل يضرب لتقلّبات الحظّ. وعلينا الآن أن نجد سبيلنا إلى الوسائل التي استخدماها للوصول إلى السلطة. ورث ديمتريوس مملكة كان قد ثبّت له أركانها أنتيغونس أقوى خلفاء الإسكندر. فقد توغّل بجيوشه في آسيا وأخضع معظم أجزائها قبل أن يبلغ ابنه ديمتريوس مبلغ الرجال. وكان والد أنطوني رجلاً من الأفاضل إلاّ أنه لم يكن محارباً ولا بوسعه أن يخلّف لابنه صيتاً ونفوذاً. إلاّ أن ابنه لم يكن يعوزه الإقدام للوصول إلى دست الحكم، فهو لم يبلغه بفضل ميلاده كما بلغه أوكتافيوس. لذلك يمكن القول إنه أصبح وارث مجهوداته الخاصّة العظمي وهو مدين لها فحسب. ولما جرى اقتسام الإمبراطورية استأثر بالجزء الأفضل. ودحر الپارثيين وهزم قبائل القفقاس البربرية حتى بلغ بحر قزوين. ولم يكن بحاجة إلى أن يحضر بنفسه بل عن طريق معاونيه ونوابه. والأمور التي أساءت إلى سُمعته هي التي تشهد بعظمته.

في حين نرى أنتيغونس يعتبر تزويج ابنه ديمتريوس بفيلا بنت أنتيپاطر رغم أنها تكبره بكثير زواجاً فيه مصلحة كبيرة لنجله. وأنطوني عَدّ زواجه من كليوپاترا منقصة وهي ملكة من أعظم الملوك سلطاناً وسؤدداً لا يعلوها من ملوك عصرها إلا أرشاق Arsaces. وكان أنطوني أعظم بكثير من أن يراه الآخرون، قميناً باشياء أعلى مما وقفت عندها رغباته.

وأمّا بخصوص أهدافهما في حكم إمبراطورية، وأحقّيتهما فيها، فليس ثمّ ما يبرّر لنا أن ننحي باللائمة على ديمتريوس لرغبته في حكم شعب تعوّد حكم الملوك. وأما أنطوني فقد عمل على استعباد الشعب الروماني ولم يكد يتحرّر من حكم قيصر الفردي، فاتّبع طريقة شائكة وسلك سبل الطغاة، حتى وصم أعظم عملٍ شخصي له وهو انتصاره على بروتوس وكاسيوس بوصمة عار، لأنه خاض الحرب مستهدفاً سحق حريات أبناء وطنه وبلاده. في حين ظلّ ديمتريوس حتى الأخير يدافع عن الحريات في

بلاد الإغريق ويطرد الحاميات الأجنبية المحتلة من مدنها. ولم يصدّه عن هذا معاندة الحظّ له، ووصوله إلى الدرك الأسفل من البؤس. لم يكن كأنطوني الذي دأب على المفاخرة بأنه قضى في مقدونيا على أولئك الذين أرادوا إشاعة الحريات في روما.

أمّا السخاء الذي عُرف به أنطوني وعطاياه وهباته، وهو أشهر ما فيه من فضائل، فإن ديمتريوس بذّه فيها إلى آخر حدّ. فما أعطاه هذا لأعدائه وخصومه كان أكثر بكثير مما أعطاه ذاك لأصدقائه. وارتفع قدر أنطوني عندما أمر بتكريم رفاق بروتوس الذين صرعوا. أما ديمتريوس فكانت عادته أن يفعل هذا لجميع القتلى من أعدائه دون تفريق. بل رأيته كيف يعيد الأسرى إلى بطليموس محمّلين بالمال والهدايا.

كلاهما كان يغرّه النجاح، ويخرجه عن طوره ويدفعه إلى الارتماء في أحضان الترف واللهو. ومع هذا ليس بوسعنا أن نعزو لديمتريوس تهاونه عندما يدعو الداعي إلى العمل بسبب انشغاله في عبثه ومجونه، فالملذّات عنده خادمة للفائض من الوقت. ومحظيّته لاميا، الشبيهة بلاميا بطلة الأسطورة، كانت لساعات نصف اليقظة، وشبه الإغفاء ان جاز لنا القول. ولم يكن رمحه مزداناً باللبلاب ولا خوذته عبقة برائحة العطور عندما يدعوه داعي الجدّ ويناديه منادي القتال. إنه لا يخرج للحرب من مخادع الناس، بل تراه يخمد الصياح الباخوسي، ويضع حدّاً للفجور. ويغدو «كاهن مارس اللاكهنوتي» على حدّ تعبير يوريپدس. وبمختصر القول إن الملذات والإسراف في اللهو لم تسبّب له كارثة. في حين كان أنطوني أشبه بصورة هرقل - حيث تُرى أومفاله Omphale تتناول منه دبّوسه، وتحلّ له جِلد حقَويه - فكثيراً ما كانت كليوپاترا تتولّى نزع سلاحه عنه، وتلهيه عن واجبه، فتفلت من يده فرصٌ كثيرة ومآثر ضخمة، يفضّل عليها الذهاب إلى قينوب وتافوسيريس Tophosiris ليعبثا ويلهوا ما شاء لهما العبث واللهو. أخيراً تراه يترك المعركة ويلحق بها ليرتمي في أحضانها مثل پاريس. ولنستدرك هنا فنقول إن پاريس ذهب إلى هيلين بعد أن خسر المعركة، في حين أن أنطوني ترك المعركة ليلحق بكليوپاترا فضاع منه النصر.

لم يكن في ذلك الحين قانون يمنع ديمتريوس من الزواج بعدة نساءٍ فقد أصبح ذلك عادةً منذ عهد فيليب والإسكندر عند ملوك مقدونيا. وهو لم يفعل أكثر مما فعله ليسيماخوس وبطليموس. أضف إلى هذا أنه عُرف بحسن معاملته لكلّ من تزوجهنّ، بعكس أنطوني فقد أقدم أولاً على عمل يأباه لنفسه أيّ روماني، إذ تزوّج بامرأتين في آن واحدٍ، ثم طرد زوجه الرومانية إرضاء للأجنبية غير الشرعية. ولم يُلحق تعدّد الزوجات بديمتريوس أيّ ضررٍ في حين تسبّب هذا في دمار أنطوني. إلاّ أن فسوق

أنطوني لا يمكن أن يُتّهم بالدنس والعقوق الديني الذي يتّسم به فسق ديمتريوس. فالمؤرّخون يحدثوننا أن الكلاب كانت قد أبعدت عن الأكروپوليس بسبب نجاساتها في حين رأى الپارثنون نفسه ديمتريوس يعاشر المومسات ويضاجع العاهرات الأثينيات تحت سقفه. ويمكن أن نضيف إلى هذه العيوب القسوة التي تبدو في الظاهر بعيدة عن دائرة الرغبات الحيوانية والشهوة. فقد تسبّب ديمتريوس بإزهاق أو أنه أزهق أجمل شباب الأثينيين وأكثرهم عفّة وطهارة. هذا الشاب الذي لم يجد غير الموت سبيلاً للخلاص من فجوره الشرس. وبمختصر القول: لقد عانى أنطوني من فجوره. في حين أن الناس الآخرين عانوا من فجور ديمتريوس.

وليس بالإمكان أن يوجّه انتقاد إلى ديمتريوس حول سلوكه العائلي. أما أنطوني فقد سلّم خاله للجلّادين كيما يُسمح له بقتل شيشرون. وتلك فِعلة تنطوي بحدّ ذاتها على وحشية وفظاظة لا يمكن اغتفارها له، حتى إذا كان موت شيشرون ثمن حياة خال.

وأمّا بخصوص نقض أنطوني عهوده، فقد يبرّر قبضه على أرطاباز تبريراً معقولاً لا ينكره عليه أحدٌ. فهذا الملك كان البادئ بالتخلي عنه وخيانته في ميديا. أما قتل ديمتريوس لكسّاندر/ فقد زعم الكثيرون أنه تلمّس للفتك به ذرائع لا أساس لها. ولم يكن قتله انتصافاً منه لنفسه لما أصابه من أذى، وإنما هو ثأر لشخص آخر لحقه منه الأذى.

إن الانتصارات التي حققها ديمتريوس كانت بفعله، في حين أن أعظم وأروع انتصارات أنطوني حققها نوّابه ومساعدوه في غيابه. وأما عن نهايتهما فمسؤوليتهما فيها واحدة إلاّ أنها ليست متساويةً على أية حالٍ. فقد تُرك ديمتريوس في الميدان وحيداً وثار عليه المقدونيون. أما أنطوني فقد ترك الميدان وفرّ والرجال يقاتلون في سبيله باذلين أرواحهم. وكان الخطأ الذي ارتكبه أولهما أنه نفّر منه جنوده ففقد حبهم. في حين ندين الآخر بتخلّيه عن الحبّ الشديد والإخلاص المتفاني وهما في حيازته. وموت كليهما لا يثير عندنا أي إعجاب. إلاّ أن موت ديمتريوس كان أحطّ وأخزى. فقد بقي في الأسر مختاراً. وشكر آسره لمده بثلاث سنين أخرى في حياته. وسمح لنفسه أن يُروَّض مثل الوحش الكاسر بالخمر والأكل. أما أنطوني فقد قضى على حياته بأسلوب الجبان الرعديد الذي لا يثير في النفس غير الرثاء، على أنه أقدم على ذلك في الوقت المناسب ليحول دون وقوع شخصه تحت رحمة العدوّ.

ديون

DION

٤٠٩-٣٥٤ ق.م

إن كان - أي سوسيوس سينيكو - ما قاله لنا سيمونيدس من أن طروادة لا تشكو من الكورنثيين مساهمتهم مع الأخائيين في حصارها، لأن الكورنثيين كانوا يقاتلون أيضاً في صفوف الطرواديين بشجاعة (فكلاوكوس خرج من كورنث أيضاً)، فلنا أن نقول بكل اطمئنان إن الرومان والإغريق لا يمكن أن يخاصما الأكاديمي. فكلّ أمّة منهما ممثّلة فيها. كما تكشف عنه سيرتا بروتوس وديون التاليتين.

كان ديون أحد تلاميذ أفلاطون. وبروتوس من معتنقي الأفلاطونية والناشئين عليها. لقد نبغ كلاهما من أرومة هذه المدرسة، وسارا خفافاً على دربها ودرب الشرف والكرامة. ولم يكن بعجيب وهما في سبيل أداء رسالتهما المتحدة المتشابهة أن يؤكدا صحة ما قاله معلّمهما:

«إن الأعمال ذات الطابع العام لا يمكن أن تحقق أهدافها الصحيحة والعظيمة والنبيلة إلاّ إذا تعاونت القوة مع النجاح». وكما أكدّ مدرّب المصارعة هيپوماخوس Hippomachus من أنه يسهل عليه تمييز تلاميذه من بعيد وإن كانوا يحملون اللحم من المجازر، فكذلك أولئك الذين نهلوا من الينبوع الثقافي نفسه تبدو مبادئهم متطابقة وسلوكهم متشابهاً في أعمالهم كلها، وتخلق فيما بينهم انسجاماً وتوافقاً مستساغاً ولائقاً في الوقت نفسه.

ولنا أن نستنتج الشبه الشديد للرجلين من المصير الذي آلا إليه، فقد جعلتهما الظروف شبيهين أكثر مما جعلت أهدافهما متشابهة. إذ اخترمهما الموت وهما في عنفوان شبابهما ولم يتح لهما الوقت لإنجاز تلك الأهداف خلال كثير من المصاعب والأهوال، وأعجب ما في الأمر أن تدخّلاً خارقاً للطبيعة أنبأهما بقرب نهاية حياتهما، بظهور شبح غريب لهما. ومع إنكار الكثير من الناس وجود شيء كهذا بقولهم:

لم يرَ إنسان سويّ كامل الحواس شبحاً أو رؤىً فائقة للطبيعة، خلا الأطفال، والنساء المتعلقات بالأوهام والرجال الذين أثّر المرضى في عقولهم أو جسومهم

فتجسّمت لهم الأخيِلَة، وبالغوا في تصوّر الوهم حقيقةً واقعةً. في حين كانت الوساوس تعمل في أنفسهم، بالتعاون مع جنّيهم الشرير الكامن. ومع هذا فلو صعُب على فيلسوفين وعقلين نابهين كديون وبروتوس أن يضلّلهما الخيال، ويشتّتهما الخوف المفاجئ وأن يكونا عُرضة للتأثر المفاجئ بالرؤى حتى أنهما لا يترددان في الحديث عنها لأصدقائهما، فكيف يتسنّى لنا التهرّب من الإقرار برأي الأقدمين المسفّه تماماً: وهو أن الشرّ والأرواح الضالّة تدفعها الغيرة من أفاضل البشر، والرغبة في عرقلة طيّب عملهم، إلى إثارة شعور الخوف والهلع في نفوسهم، فتهزّهم وتجعلهم يعثرون وتحول بينهم وبين الحصول على حال أسعد من حال تلك المخلوقات بعد الموت، بالمثابرة والاستقامة. على أني سأترك هذه الأمور لفرصة أخرى. وفي هذا الكتاب، وهو الثاني عشر من سِيَر عظماء الرجال ومقارنتها، سابدأ بسيرة أكبرهما سِناً.

بعد أن استتبّ الأمر لديونيسيوس الأول بادر حالاً إلى الزواج من بنت هيرموقراطس Hermocratis السيراقوسي. وفي أثناء الفتنة التي اشتعلت نارها قبل أن يستقرّ الحكم بيد العاهل الجديد اعتُدِيَ على شرف هذه المرأة بشكل بربري مشين لم يسعها معه إلاّ إنهاء حياتها بيدها خجلاً وعاراً. وعندما ثبت حكم ديونيسيوس ثانيةً تزوّج بامرأتين في آن واحدٍ. أولاهما دوريس اللوكرية Locri، وثانيتهما أرسطوماخه Aristimache الصقليّة بنت هيپارنيوس Hipparinus وهو رجل من أفاضل السيراقوسيين، كان زميلاً لديونيسيوس عند اختياره لأول مرة جنرالاً مطلق الصلاحية لغرض إدارة الحرب. وقيل إن ديونيسيوس تزوج بامرأتيه في يوم واحدٍ. كان السيراقوسين في الواقع متشددين في تفضيل نسائهم على الأجنبيات فكأنّ القدر أراد تعويض دوريس عن أصلها الأجنبي فجعلها أمّاً لابن، ووارث للأسرة. في حين بقيت أرسطوماخه عاقراً مدة طويلة وكان ديونيسيوس يرغب جداً في الإنجاب منها. واتهم أمّ دوريس بأنها سقت أرسطوماخه عقاراً منعها من الحمل، وأمر بها فقُتلت.

ووجد ديون شقيق أرسطوماخه حفاوة وتكريماً بسبب أخته. إلاّ أن مواهبه وكفاءاته ما لبثت أن أمّنت له محبة صهره، وقرّبته منه كثيراً، ومما شرّفه به أنه أصدر أمراً لمدير خزائنه بأن يعطي ديون أيّ مبلغ يطلبه على أن يخبره في اليوم نفسه كم دفع له. وعُرف ديون بالتعالي والخيلاء، ونبل الضمير والشجاعة الفائقة. إلاّ أن هذه السجايا العالية زادت تهذيباً وتسامياً بعامل الحظّ السعيد الذي هدى أفلاطون إلى زيارة صقلية من تلقاء نفسه، من دون أن يدعوه أحدٌ، أو يتوقّعه بشرٌ. قوة فائقة للطبيعة قضت أن يكون هذا الحدث عاملاً في استعادة صقلية حرّياتها السليبة وقلب نظام الحكم المستبدّ. فقذفت

بالفيلسوف من إيطاليا إلى سيراقوسة وربطت ما بينه وبين [ديون] بأواصر صداقة دائمة. كان [ديون] انذاك فتىً صغير السن، إلاّ أنه كان أسرع تعلماً واوسع استيعاباً واحضر بديهة واشوق إلى الممارسة الفعلية لدروس الفضيلة من سائر التلاميذ الذين استمعوا لأفلاطون بشهادة الفيلسوف نفسه وبالبرهان الساطع الذي اثبتة افعاله. فمع أنه نشأ في بيئة يسودها الطغيان، وآيته الذلة والخنوع، ومع تعوده حياةً هي من ناحية عبودية وذلّ، ومن ناحية ترف سجح، سعادة زائفة لشعب لايرى امامه سبيلاً أفضل من الإنغماس في الملذات واللهو. إلاّ أنه ذاق أول طعم للحكمة والفلسفة اللتين تتوخيان سيادة الفضيلة، فشبت النار في روحه شبوباً. واستنتج من حالته هذه، بسذاجة الشباب، أن التغيير نفسه قد يحصل لديونيسيوس فراح يعمل جهده لحمله على الاستماع إلى [أفلاطون] حتى نجح، وأخذ [ديونيسيوس] يحضر دروسه في اوقات فراغه، وكان موضوع الدراسة في ذلك الوقت. الفضيلة الإنسانية. وكانوا يتناظرون بصورة خاصة حول ضبط النفس، وقد برهن [أفلاطون] أن الطغاة هم أقلّ الناس حظّاً منه دون سائر الناس. ومنها انطلق لمعالجة موضوع العدالة. فأكد حالة السعادة التي يرفل فيها الحكم العادل. والبؤس الذي يعانيه الظالم. وهو الجدل الذي لقى اذنا صماء من [ديونيسيوس] على أنه شعر بضعف حجته وبأنه مدان، وساءه كثيراً أن يجد بقية المستمعين ممتلئين إعجاباً بالمتكلّم، مأخوذين بقوة حجته. أخيراً ضاق ذرعه، وبلغت روحه التراقي فسأل الفيلسوف والغضب يعصف به:

- ما الذي جاء بك إلى صقلية؟

فقال أفلاطون:

- جئت أبحث عن رجل فاضل.

فقال ديونيسيوس:

- الظاهر أن جهودك ضاعت سُدى.

وظنّ ديون أن هذا كلّ ما يراد ديونيسيوس قوله، ولن يخرج على الحدّ. وطلب أفلاطون أن يتدبّر أمر رحيله فأصعده سفينة متوجّهة إلى اليونان كان فيها پولليس Pollis السپارطي، فاتصل ديونيسيوس بهذا الرجل سِرّاً واتفق معه أن يفتك بأفلاطون بأية وسيلة يراها، وإن عزّ عليه ذلك فأن يبيعه عبداً. ولم يكن هذا ليضرّ أفلاطون طبعاً. إذ سيبقى ذلك الرجل العادل وسيتمتع بالسعادة المتأتّية منه وإن فقد حريته. وتمضي الرواية فتذكر أن پولليس أقلع بأفلاطون، حتى أيجينا وهناك باعه. وكان الأيجينيون إذ ذاك في حربٍ مع أثينا وقد أصدروا مرسوماً يقضي بأن يُعرض للبيع في سوق النخاسة كلّ أثيني يقبض

عليه في سواحلهم. على أن منزلة ديون عند ديونيسيوس لم تقلّ مع ذلك، بل ظلّ تقديره له كما كان وأوكل به أخطر المهام وأرسله إلى قرطاجنة في سفارات هامّة، فطارت شهرته وارتفعت سمعته. وكان العاهل المستبد، فضلاً عن ذلك، يسمح له بحرية مطلقة في الكلام، بصراحة ودون وجلٍ. وكان في هذا المجال الوحيد بين أصدقائه. ومن ذلك أنه أنّبه في قضية غيلون Gelon الذي كان ديونيسيوس من حكمه ويقول عنه إنه مضحكة صقلية، ولما أظهر السامعون إعجابهم بهذا التهرّب واستحسانهم له أجاب ديون بكثيرٍ من الحزم:

- على أية حال، أنت الحاكم المطلق هنا، لأنك استؤمنت ووضعت به الثقة إكراماً لغيلون. ولكن من الآن فصاعداً لم تعد الثقة ممكنة بأي رجلٍ إكراماً لك.

ذلك لأن غيلون مارس الحكم الملكي بشكل جعله يبدو أفضل نظام حكم في حين جعله ديونيسيوس في نظر الناس أسوأ حكم. أنجبت دوريس لديونيسيوس ثلاثة أولاد وأنجبت له أرسطوماخه أربعة منهم بنتان وهما سوفروزينه Sophrosyne وأريته Areta. فزوّج سوفروزينه من ابنة أخيها ديونيسيوس، وزوج الثانية أخاه - الذي هو عمّها - ثياريدس وتوفّي هذا فتزوّجها ديون.

وسقط ديونيسيوس مريضاً وبعد فترة حضرته الوفاة، وحاول ديون جهده أن يكلمه بخصوص أولاده من أرسطوماخه إلاّ أن أطباءه لم يسمحوا له. وكانوا بهذا يريدون نيل حظوة عند خليفته. قال طيماؤوس إن وليّ عهده سقاه جرعة منوّمة أرادها، فأحدثت غيبوبة لم يفق منها.

وفي مجلس الشورى الذي عقده ديونيسيوس الابن من أصدقائه، أجاد ديون في شرح الوضع الراهن. وبدا الحاضرون كلهم أمامه أطفال سياسةٍ، كما ظهروا في تصويتهم عبيداً أكثر منهم مستشارين. فقد وافقوا على كل ما يبهج الشاب ويرضيه جبناً منهم ومكراً دون أن يكترثوا بما هو صالح له. وأصابهم ديون برعبٍ شديد عندما أدلى بالاقتراح الخاص بكيفية اجتناب الخطر المحدِق جرّاء حربٍ محتملة مع القرطاجيين. فقد وضع رأيه بالصورة التالية:

«إن شاء ديونيسيوس سلاماً فعليه أن يبحر فوراً إلى أفريقيا ويُبرمه هناك بشروط شريفة. أما إذا فضّل الحرب فعليه أن يبني ويجهّز على حسابه الخاص خمسين سفينة حربية لهذا الغرض».

وأُعجب ديونيسيوس كثيراً بفكرته النيّرة وأشاعت الارتياح في نفسه. إلاّ أن أفراد البطانة اعتبروا رضاه هذا مضرّاً بهم وداخلهم الحسد من منزلته التي ستخفض من

مكانتهم. فأخذوا منذ ذلك الحين يتحيّنون الفرص ليوقعوا بين ديونيسيوس وبينه عن طريق الافتراء والتشهير به. فصوّروا للعاهل أنه يريد استخدام قوّته في البحر والاستعانة بها لقلب نظام الحكم ونقل السلطة إلى أولاد أخته أرسطوماخه. على أن أظهر وأقوى أسباب الجفاء والتباغض كانت تكمن في اختلاف أمزجتهما ومشاربهما من الأول. كما كانت تُعزى إلى انطوائية ديون وتحفّظه؛ مقابل الزلفى والوسائل الرخيصة التي استخدمها الآخرون منذ البداية لنيل رضى الأمير والتقرّب منه وهو الشاب الذي فتح عينيه على الشهوات. وكانوا يسهّلون له ملذّاته، ويجتهدون في إيجاد علاقة غرامية جديدة له كل يوم وإغرائهم إياه بمعاقرة الخمر ومجالسة النساء وغير ذلك من طرق الفساد. وبدا الاستبداد للرغبة بهذه المظاهر كالحديد الذي يلين في النار، ووجدوه أكثر اعتدالاً وسماحةً؛ وأقلّ صرامة وشدةً. لقد فلّ من غُراب الطغيان تراخي العاهل وتفسّخه لا رحمته وعدله. وكان هذا التفسّخ يزداد ويتمكن منه يوماً بعد يوم. فانكسرت «تلك السلاسل المتينة» التي جعلت الملكية محكمة الشدّ أمينة، على حدّ تعبير أبيه. ورُوي أنه بدأ مرة مجلس شراب يتخلله الفجور، فواصله تسعين يوماً دون انقطاع، فلم يعرض عليه أمرٌ أو قضية ولم يقابله بشر ولم يسمع أي حديث جدّي في البلاط، ليس غير الشرب والغناء والرقص والخلاعة والمجون دون ضابط أو رادع.

لا غرابة إذن إن مالت البطانة عن ديون وخصّوه بجفوتهم لأنه لم يأخذ بسبيل الغواية ولم يعرف عبث الشباب وملاذه، وكانت سجاياه موضع افتراءاتهم. فينعتونها باسم أو آخر مقبول الظاهر من أسماء الرذائل. أسموا وقاره كبرياءً، ونعتوا صراحته بالعناد ونصائحه الجيدة بالتأنيب والتقريع. وانتقدوه لاحتقاره أولئك الذين أبى مشاركتهم موبقاتهم. ونقول للحقيقة والواقع أن ثمّ تزمّتاً وترفّعاً وتحفّظاً وانطوائية كانت تبدو لعشرائه وفي تعامله. مما جعل صحبته ثقيلةً بغيضة ليس عند الطاغية الشاب وحده، ذلك الذي فسد سمعه بالملق والمداهنة، بل عند كثير من أصدق أصدقائه وإن أحبّوا فيه استقامته وسموّ أخلاقه. لقد عابوا عليه سلوكه ومالوا إلى الاعتقاد بأن أوثق الناس صلةً به لا ينالون منه ما يجب من الاحترام والاهتمام الذي يلازم رجال السياسة عادةً. وقد تطرّق أفلاطون نفسه إلى هذا النقص عند كتابته إليه فيما بعد، فنصحه وكأنه نبيّ أن يجتنب بكلّ حذر ذلك الطبع المستبد الذي لا يجد له رفيقاً إلاّ العزلة والوحدانية.

ولقد اعتُبر في هذا الوقت بالذات الدعامة الوحيدة الكفوءة لتثبيت الحكم المتداعي، وأن الظروف هي التي جعلته شخصية هامة لهذا الغرض، مع أنه كان يعلم

بأنه ليس مديناً بمركزه الرفيع إلى فضل أو مِنّة بل إلى ضرورةٍ ماسّة أرغمت الطاغية على الاستعانة به. أفترض أن الجهل هو علّة ديونيسيوس فبذل الجهد في إقناعه بالاجتهاد في دراسة العلوم العقلية، وأن يُسمعه شيئاً عن مبادئ الأخلاق والموازنة الفكرية في الأمور. وكان يأمل أن يتغلّب الشاب على تخوّفه من الحياة الفاضلة، وأن يتعلم كيف يجد اللذة والسعادة في الأعمال الطيّبة الجديرة بالثناء. لم يكن ديونيسيوس مجبولاً على الفساد، ولم يكن أسوأ مثال للمستبدّ، فأبوه هو المسؤول عمّا آلت إليه حاله. لقد كان يخشى أن يتآمر عليه إن ازداد فهماً لنفسه أو اتصل بالحكماء والفلاسفة فيزيحه ويقضي على سلطانه. ولذلك أبعده عن المعرفة وأغلق أبواب الحقيقة دونه فافتقد العِشرة الحسنة ولم يدرِ أفضل الوسائل لقضاء أوقاته. فأخذ يتلهّى بصنع عربات صغيرة، وكراس وشمعدانات ومناضد وما شابه ذلك من أشغال النجارة. كان ديونيسيوس الأب عظيم الشك فاقد الثقة دائم الحذر من الجميع، حتى أنه أبى أن يقصّ شعره بآلةِ حلّاق. بل كان يأمر أحد خدمه بإزالة الجزء الأعلى منه بحرقه بجمرة متقدة من الفحم. ولم يكن يسمح بأن يدخل عليه ابنه أو أخوه بثيابهما، بل كانا يخلعانها أسوةً بغيرهما من المتقابلين وينظرهما وهما عاريان ثم يرتديان ثياباً أخرى وإذ ذاك يسمح بمقابلتهما. ومرة كان أخوه ليبتينس Leptones يشرح له موقع موضع من المواضع وهيئته فاختطف رمحاً من يد أحد الحراس ليخط بسنانه رسماً توضيحياً، فغضب عليه ديونيسيوس وأمر بالحارس الذي نزل عن رمحه له فقُتل في الحال. وكان يقول:

- كلّما كان أصدقائي عقلاء زاد شكي فيهم. فأنا أعلم يقيناً بأنهم لن يتحرّجوا عن الطغيان، ولن يكونوا رعيّة لطاغية، لو كان الحلّ والعقد بيدهم.

وقتل مارسياس Marsyas وهو ضابط أناط به قيادة هامة لأنه رأى في نومه أنه تولّى قتله، وعلّل فعلته هذه بقوله:

- لو لم تداعبه الفكرة في يقظته لما تخيّلها في نومه.

وكان على درجة كبيرة من الجبن، وكان عبداً شقيّاً لمخاوفه. ومع هذا غضب من أفلاطون لأنه لم يعدّه أعظم الأحياء بسالةً وإقداماً!

نعود فنقول، لما وجد ديون أن الابن نشأ نشأة معيبة فاسدة لافتقاره إلى التهذيب، أخذ يحثه على الدرس، وأن يلحّ على أفلاطون أعظم الفلاسفة طرّاً بزيارته في صقلية، وأن يضع نفسه تحت تصرّفه ويتتلمذ له فلعلّ تعاليمه تقوّم طبعة وتهديه إلى حقائق الفضائل، والاقتداء بحياة الأرباب وبـ«الإنسان الكامل» السنيّ وبإطاعة أولئك الذين

تحفظ رقابتهم نظامَ الكون الجميل. فباتّباعه هذا النهج قد يحقق السعادة العظمى لنفسه ولرعاياه الذين سيندفعون إلى إطاعته مختارين ممتنّين لعدالته وسماحته، كما يطيعون آباءهم. أما الآن فهم مرغمون بحكم الضرورة على الخضوع له وهم حانقون متضجّرون كما يخضعون لسيّدٍ غاشم. إنه لا يعود طاغيةً غاصباً بل ملكاً شرعياً محبوباً. ليس القوة والخوف والأسطول البحري وجيش مستعدّ قوامه عشرة آلاف من البرابرة المرتزقة هم السلاسل المتينة التي تحمي النظام الملكي وإنما هي الحبّ، والتفاني، والإخلاص المتولّدة من الرحمة والعدل. وهذه على كل حال أقوى وأشد الروابط دواماً لدعم الحكم الطويل الأمد وإن كانت أكثر مرونة من أغلال الصرامة والقسوة. أضف إلى هذا أنه لمن الخِسّة والحِطّة أن يُعنى الحاكم بارتداء الفاخر من الثياب وترف العيش والإسراف في حين لا يبدي من العقل والحكمة ما يوازي أبسط العقول وأشدها سذاجة بين رعاياه، ولا يزخرف قصر عقله الفاخر بما يناسب مقامه الملكي.

كثيراً ما تطرّق ديون إلى هذا الموضوع في أحاديثه مع الملك مردّداً - بقدر ما تسنح له الفرص - بعض أقوال الفيلسوف. فأخذ شوق ديونيسيوس يزداد إلى أفلاطون وسماع محاوراته ولجّ به الصبر وراح يُتبع الرسالة بالرسالة إليه في أثينا. فضلاً عن رجاء ديون وتدخّل بعض الفلاسفة الفيثاغوريين في إيطاليا الذين بعثوا يلحّون عليه بالمجيء للسيطرة على تلك الروح الشابة المطواعة لعلّها تنصلح بتأثير مناظراته العقلية الصائبة، فتستقيم وتتهادى فوق بحار السلطة المطلقة والاستبداد. ولم يجد أفلاطون بدّاً من النزول عند إلحاحهم، «خجلاً» كما يذكر لنا أكثر من أي شعور آخر. ولئلا يبدو مجرّد واعظ نظريّ لا يغامر بالتطبيق العملي بمحض رغبته. فكان أمله أن يوفّق في شفاء الرأس والدليل وبه قد يُشفى كل ما تشكو منه الجزيرة.

لكنّ أعداء ديون داخلهم الخوف من انقلابٍ قد يحصل لديونيسيوس، فأقنعوه بدعوة فيليستوس Philistus من منفاه بإيطاليا، وكان هذا أخا معرفة، وعلم، وتجارب عميقة في أحوال الطغاة وأخلاقهم، يصلح أن يكون ندّاً مقارعاً لأفلاطونَ وفلسفته. كان من البداية أداة فعالة في تثبيت أقدام استبداد الفرد وظلّ مدة طويلة يتولّى قيادة القلعة. وقد شاع عنه في حينه أنه كان على صلة حبّ بأمّ ديونيسيوس الأول. ولم يكن هذا غافلاً عنها. وعمد ليپتينس أخ ديونيسيوس إلى تزويجه بإحدى بنتي عشيقةٍ له كان قد أغواها، دون علمٍ من أخيه، فغضب هذا غضباً شديداً وأودع عشيقة ليپتينس السجن ونفى فيليستوس] من صقلية. ففرّ هذا إلى الساحل الأدرياتي ونزل حِمى بعض

أصدقائه، ويرجّح أنه كتب هناك معظم اجزاء تاريخه وقت فراغه وبطالته، فقد ظل بعيداً عن صقلية طوال مدة حكم ديونيسيوس الأول. وكما ذكرنا نجح خصوم ديون في إلغاء أمر إبعاده عن الوطن لأنه أصلح الجميع لأغراضهم، فضلاً عن كونه من أنصار الحكم الاستبدادي والمدافعين عنه. ولذلك صار يسعى إلى دعمه في صقلية فور عودته. وواصل المفترون النحّالون يصبّون الاتهامات في أذن الملك كقولهم إن ديون يراسل كلّ من هيراقليدس وثيودوتس لقلب نظام الحكم. ولا شكّ أن ديون كان يأمل أن يخفف مقدم أفلاطون صرامة الحكم واستبداد الطاغية وتحويل ديونيسيوس إلى حاكم عادلٍ قانوني، فإن ظلّ معانداً مُعرضاً عن إجراء أي إصلاح عَمِل على خلعه وإحلالَ الحكم الجمهوري في المجتمع السيراقوزي. ولم يكن ديون بالأصل من محبّذي الحكم الديمقراطي، إلاّ أنه كان يجده على أية حال أفضل من حكم الفرد واستبداده حين يتعذر إقامة حكم أرستوقراطي جيّد.

هذا هو الموقف عندما وصل أفلاطون إلى صقلية. وقد استُقبل بمظاهر رائعة من التكريم والودّ. كانت بانتظاره على اليابسة عربة ملكية فاخرة، وقام ديونيسيوس نفسه بتقديم قرابين الشكر للآلهة، اعترافاً بجميلها وإنعامها على حُكمه بهذه السعادة.

وانتعشت آمال المواطنين وراحوا يتطلّعون إلى اصلاح عاجل عندما لاحظوا التواضع الذي أخذ يسود المآدب، والاحتشام الذي تسربل به البلاط. والانقلاب الخلقي الذي طرأ على ديونيسيوس وكيف صار يعاملهم برقّة وإنسانية، ويعالج شؤونهم بعدلٍ ولين. وكان ثمّ انصراف عام إلى الفلسفة والحكمة. وذُكر أن القصر كان يمور بالأغبرة لكثرة ما كان يؤمّه من طلبة الرياضيات وانشغالهم بحلّ المسائل الحسابيّة.

وحَلّ موعد تقديم أحد القرابين السيراقوسية. وجرياً على العادة المتبعه أخذ الكاهن يدعو بطول العمر لحكم الطاغية، وبسلامة نظامه، فقيل إن ديونيسيوس الحاضر صاح به:

- كفاك صلاة ودعوات بدوام الشرّ.

استاء فيليستوس وأنصاره لهذا التحول. وقدّروا أن خطر أفلاطون عليهم يتعاظم. فبهذه المدة القصيرة استطاع أن يُحدث تحوّلاً وتغييراً عميقاً في عقلية الفتى، فكيف به لو طال بقاؤه وامتدّت محاوراته؟ ولا شكّ أن سلطانه عليه سيكون عظيماً. ولذلك وجب عليهم أن يتخلّصوا من وجوده كيفما كان. فانتقل جميعهم إلى الافتراء العلني على [ديون] ونبذوا أسلوب الغمز واللمز فراحوا يشيعون للملأ أن الفتى مفتتن بسفسطة أفلاطون وأنه مسحور به، وسوف يُحمَل على اعتزال الحكم مختاراً ليحل ديون محلّه

فيه وينتزع الملك لأولاد أخته أرسطوماخه. وتظاهر فريق منهم بالحرص على سلامة البلاد، فقالوا إن الأثينيين الذين جرّدوا على صقلية أسطولاً عظيماً وانزلوا إليها جيشاً برياً قوياً، فلم يفلحوا في الاستيلاء على سيراقوسة وهلكوا دونها، يحاولون اليوم عن طريق سفسطائي قلب نظام حكم ديونيسيوس ويهدّدون بتسريح حرسه البالغ عشرة آلاف من الرمّاحة، وتصفية أسطوله البحري المؤلف من أربعمائة سفينة، وإلغاء كتائب الخيّالة البالغة عشرة آلاف فارس، وأضعاف هذا العدد من المشاة، ويُغرى بالبحث عن المجهول وعن السعادة الوهمية في المدارس، وكيفية العيش الهنيء بمزاولة حَلّ المسائل الرياضية، في حين سيكون التمتع بالسلطان المطلق والغنى والملذات من نصيب ديون وأولاد أخته.

بهذا الأسلوب بدأت الشكوك تساور ديونيسيوس حول نوايا ديون وأخذ يقابله بجفاءٍ وإعراضٍ متزايدين بالتدريج. ثم ضبطت رسالة من ديون إلى وفد القرطاجنيين القادم لأجل مفاوضات السلم، ينصحهم فيها بأن لا يقابلوا ديونيسيوس حتى يتصلوا به. وبهذا لن يخيبوا في الوصول إلى ما يريدونه. اطلع ديونيسيوس على الرسالة ورفع بها إلى فيليستوس وتشاورا معاً فيما يجب عمله. ويخبرنا طيماؤوس أن العاهل تظاهر بالركون إلى ديون وأظهر له الودّ والمصافاة ثم سار معه يوماً إلى ساحل البحر حتى بلغا أسوار القلعة، وأخرج الرسالة وجابهه بها واتهمه بالتآمر عليه مع القرطاجنيين. ولم يسمح لديون بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه وإنما نقله بالقوة إلى سفينة كانت قد أرسيت هناك لهذا الغرض، وأمر البحّارة بالإقلاع به وإنزاله في ساحل إيطاليا.

وشاع أمر نفيه، واعتُبر عملاً قاسياً لا مبرّر له، وكان ثم بكاء ومناحة عند نساء بيت الطاغية نفسه. على أن السيراقوسيين قابلوا الأمر بجلد وشجاعة إذ كانوا يتوقعون من هذا اضطراباً وعصياناً بعد فقدان الثقة وضياع الأمل بإصلاح الحال. وكانوا يتطلعون إلى ثورة وتغيير سياسيّ في نظام الحكم. ولم يخفَ ذلك على ديونيسيوس وهو يرى الخواطر ثائرة والنفوس هائجة فانتابه الذعر الشديد وأخذ يهدئ روع النسوة وأقرباء ديون الآخرين وأنصاره، مؤكداً لهم أنه لم ينفه وإنما أبعده فترةً من الزمن خوفاً من نوبة غيظ تفاجئه يوماً بسبب عناد ديون وتمسّكه برأيه فتدفعه إلى عمل يأسف عليه. وقدّم لأقربائه سفينتين وسمح لهم أن يرسلوا فيها كلّ ما شاؤوا من متاع وخدم إليه في البلوبونيسيس.

كان ديون في غاية من الثراء. وكان أثاث منزله يضاهي ما عند الملوك فخامة وأبّهة. فحزم أصدقاؤه تُحفَه واثاثه الثمينة، مع مقدار كبير من الهدايا الغالية التي بعثت

بها النسوة والأنصار، فظهر ديون بين الإغريق بمظهر الوجاهة والترف بقدر ما يتعلق الأمر بالغنى. ولعلّهم حكموا من غنى المنفيّ على مدى السلطان الذي يتمتّع به الطاغية.

ونقل ديونيسيوس أفلاطون إلى القلعة ووضع عليه حرساً، تحت ستار التكريم والحفاوة. وكان يخشى أن يلحق بديون ويُعلن للملأ ما لقي صديقه من سوء المعاملة. أضف إلى هذا أن عاملي الزمن والدراسة روّضا ديونيسيوس كما تروّض الوحوش الضارية، فتنقلب أليفة. فأصبح يلتذّ بصحبة أفلاطون ومناظراته، وبدأ حبه يغزو قلبه، بشكل فيه أثره، وتعلُّق أناني لا يخلو من نوازع الاستبداد، إذ كان يتطلب من أفلاطون بالمقابل أن يخصّه بحبه وحده دون الآخرين وأن يكون به ألصق الناس. وأبدى رغبته في أن يعهد إليه بإدارة دفّة الدولة العليا، شريطة أن يُنزله المنزلة الأولى في قلبه. هذا الإفراط في العاطفة كان مصدر ضيق شديد لأفلاطون فقد صحبته نزوات من الغيرة العمياء والوقاحة كما من قبيل العواطف الجامحة التي نراها عند العاشقين الوالهين، فكثيراً ما كان يغاضبه ويجفوه، ليعود حالاً نادماً مستغفراً مستوكفاً صداقته مرة أخرى. وكانت تدفعه رغبة جنونية في أن يُعدَّ تلميذاً للفيلسوف، يبدي هذه الرغبة أمام منتقديها ومسفّهيها، الذين يصارحونه بأنها ستكون سبباً لدماره.

ولكن الحرب نشبت في أثناء ذلك. فصرف أفلاطون بعد أن تعهّد له بإلغاء قرار نفي ديون والسماح له بالعودة إلى الوطن في الصيف القادم. وكان في وعده هذا كاذباً. لكنه أرسل لديون رُبع أملاكه. واعتذر من أفلاطون عن إخلافه وأقسم له أنه سيستدعي ديون فور انتهاء الحرب. وأعرب عن أمله في أن يركن ديون إلى الهدوء خلال هذه الفترة، وأن لا يثير الفتن ولايتكلم عنه بالسوء أمام الإغريق. وهذا ما عمل أفلاطون في سبيله بإبقاء ديون ملازماً له في الأكاديمي وإلهائه في المتابعات الفلسفية.

سكن ديون الحيّ الأعلى من مدينة أثينا مع كالليپس Callipus أحد أصدقائه. وابتاع بيتاً في الريف للراحة والاستجمام، وهبه لسپيوسپوس Speusippus أعزّ أصدقائه عند عودته إلى صقلية. وقد فعل ديون ذلك نزولاً عند نصيحة أفلاطون الذي كان يريد أن يلين طبعه الصارم بالعشرة الجميلة التي تتخللها فترات عفوية لمجلس الأنس والمرح المناسبين. وكان سپيوسپوس مرحاً. فقد ذكره تيمون في كتاب سللي Silli بقوله «اشتهر بالفكاهة والمزاح». واتفق أن طُلب من أفلاطون تنظيم جوق صبيان، فعهد بذلك إلى ديون الذي أخذ الأمر على عاتقه إدارةً ونفقات. وبذلك أتاح له الفرصة للتفضّل على الأثينيين بمنّةٍ مؤمّلاً بذلك أن يكسب لصديقه من العطف أكثر مما يؤمّن من الثقة.

وسافر ديون إلى مدن أخرى وقابل فيها أرفع واشهر شخصيات الإغريق، وجالسهم في أنسهم وراحتهم وأيام أعيادهم، ولم يُعْز إليه في كل هذه المواجهات أي تصرّف سوقي أو خيلاء أو سفه، بل أظهر قدراً كبيراً من التواضع والسخاء والشجاعة والتذوّق الرفيع للمناظرات الفلسفية والمناقشات العقلية، فظفر بمحبّة الجميع وإعجابهم وكرّمته مدن كثيرة. فاللقيديميون منحوه المواطنة السپارطية دون أن يعبأوا بسخط ديونيسيوس الذي كان في ذلك الحين يعاونهم في حربهم مع الآثيبيين.

ومما رُوي أنه قصد مرة زيارة پتويودورس Ptoedorus الميغاري بدعوة منه وهو رجل غني جداً وذو مكانة كما دلّ عليه ظاهر حاله. فوجد صعوبة في الوصول إليه بسبب حشود الناس المجتمعة أمام بابه، ولضغط أعماله الكثيرة، فالتفت إلى أصدقائه وكان قد بدا عليهم الغيظ والضيق، وقال:

- كيف نلوم پتويودورس ونحن في سيراقوسة لا نفعل أفضل من هذا؟

ما مَرّ زمن يسير حتى قطع ديونيسيوس عن ديون ريع املاكه حسداً وغيرةً من المنزلة التي نالها عند الإغريق. ونصّب حرّاسه القضائيين عليها. وحاول أن يتحاشى انتقاد الفلاسفة وفقدان ثقتهم بسبب تأثير أفلاطون فراح يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من روّاد المعرفة المشهورين والحكماء. وأراد أن يُظهر طول باعه وتمرّسه في صناعتهم تلك تحكيماً واقتداراً بمحاورتهم ومناظرتهم مستخدماً المبادئ التي تلقاها عن أفلاطون بشكل مغلوط في أكثر الأحيان.

ثم حنّ عليه وخالطه ندمٌ لأنه لم يُحسن الإفادة منه عندما كانت معارفه مبذولة له. وأسف لأنه لم يهتمّ بدروسه الرائعة، وكما هو شأن المستبد الذي لا يُردّ له حكم، العنيف في تحقيق نزواته وكل ما شاءت إرادته؛ وجد نفسه شديد الرغبة في مجيئه. فلم يترك باباً إلاّ طرقه، ولا حجراً إلاّ قلبها في هذا السبيل. ثمّ ولّى وجهه شطر أرخيتاس Archytas الفيثاغوري أحد معارفه الذي كان مديناً له بأولى علاقاته مع أفلاطون، وطلب منه أن يضمن كلمته عند أفلاطون وأن يشجّعه للقدوم إلى صقلية ثانيةً. فبعث أرخيتاس إليه برسوله أرخيديموس، كما أرسل ديونيسيوس من جانبه عدداً من الأصدقاء والسفن لحمله على قبول دعوته. وكتب إليه مؤكداً أنه لن يحقق لديون أيّ رجاءٍ أو طلبٍ إن لم يوافق على القدوم. أما إذا وافق وجاء فعلاً فإن كل ما يطلبه ديون سيجاب. وتسلّم ديون من أخته وامرأته رسائل مفعمة بالضراعات والشفاعات، والإلحاح عليه بالرجاء من أفلاطون تلبية طلب ديونيسيوس، وبذلك يحول بينه وبين

عمل سيّئ آخر. فلم يسع أفلاطون إلاّ أن يشدّ الرحال للمرة الثالثة من مضيق سكيللا Scylla ولسان حاله يقول:

«ها إني أغامر مرّة أخرى في خليج
خاريبيدس Charybdis العظيم الأخطار».

وأورث مجيئه ديونيسيوس غبطةً عظيمة أن يحقق أفلاطون الغلبة على فيليستوس وأن تنتصر الفلسفة على نظام الاستبداد. وانضمّت النساء إلى حلقات دراسته. وعظمت دالّته على ديونيسيوس إلى درجة لم يحظ بها أحد قبله. وكان يملك الحرية التامة في الدخول عليه أنّى شاء دون أن يفتش. وقدّم للفيلسوف مبلغاً كبيراً من المال فرفضه، وجدد عرضه عليه عدة مرّات وكان أفلاطون يرفض أبداً. فعلّق أرسطوبوس الكريني الذي كان موجوداً بقوله: «إن ديونيسيوس في سلامة تامة من عواقب سخائه، فهو يعطي القليل للراغبين في الكثير. ويعطى الكثير لأفلاطون فلا يقبل شيئاً».

بعد أن فرغ الجميع من تبادل التحايا ومظاهر الترحيب طفق أفلاطون يتحدث في أمر ديون. فأسمعه معاذير مختلفة. ثم بدأ يشكو ويتذمّر بصورة غير مباشرة. فلم تبدُ شكاواه ظاهرة للعيان في مبدأ الأمر لأنه جهد في اخفائها. لكنه أخذ يعمل على نزع محبّة أفلاطون لديون من قلبه، بمزيد التفاته إليه وشموله بمظاهر التكريم والتقدير. وظلّ أفلاطون زمناً وهو يحاذر من استفزازه، لئلا يبدو كذبه ونقضه لعهده للملأ فتقع الواقعة. وحرص أن يكتم ما بنفسه من ألم وضيق. وتوهّم الاثنان أن العيون غافلة عما يجري، وأن الناس لا يدرون الحقيقة. بينما كان الأمر خلاف ذلك كما تدلّ عليه الحكاية الآتية:

تنبّأ هيلكيون Helecone الكيزيكيني Cyzicenean أحد تلاميذ أفلاطون بكسوفٍ فوقع في اليوم الذي حدده، فأُعجب ديونيسيوس به وأمر له بتالنت من الفضة. فاتخذ أرسطوبوس من ذلك مادةً للفكاهة والمزاح مع الفلاسفة الآخرين. قال: إنه يستطيع أن يتنبأ هو أيضاً بشيء خارقٍ.

فطلبوا منه الإفصاح، فقال:

- أتنبّأ أنه لن يمرّ وقت طويل إلاّ وينشب خلاف بين أفلاطون وديونيسيوس.

ثم إن الطاغية باع أملاك ديون وصادر أثمانها وضمّها إلى مُلكه. ونقل أفلاطون من المنزل المخصّص له في حدائق القصر إلى موضع سكنى بين الحرس المرتزقة الذين أبغضوه من المبدأ وكانوا يتحيّنون الفرص للخلاص منه لأنهم كانوا يعتقدون بأنه أشار على ديونيسيوس بالتنازل عن الحكم وتسريح الجنود.

لما أدرك أرخيتاس مدى الخطر الذي يتعرّض له أفلاطون أسرع بإرسال سفينة مع رسلٍ إلى ديونيسيوس يطلب منه السماح للفيلسوف بالعودة اليه، وذكّره بأنه ضامن سلامته حسب الاتفاق الذي تمّ بينهما وعلى أساسه جاء أفلاطون إلى صقلية. فأقام ديونيسيوس المآدب والحفلات التكريمية الباذخة لضيفه تخفيفاً لما يشعر به هذا نحوه من قرفٍ. إلاّ أنه لم يسعه أن يكتم الخوف الذي يعتمل في نفسه فقال له يوماً:

- لا شكّ أنك يا أفلاطون ستنتقدني بين رفاقك الفلاسفة عند عودتك إلى الوطن، وسوف تحاسبني حساباً عسيراً على أخطائي الكثيرة.

فأجابه أفلاطون باسماً:

- ثق أن الأكاديمي لن تفتقر إلى مواضيع بحث لتتخذ منك موضوعاً.

وانصرف عنه أفلاطون. إلاّ أن ما كتبه عنه لايتفق بالضبط مع هذه الرواية.

وصل السخط بديون غايته القصوى. ولم يلبث أن جاهر بعدائه لديونيسيوس بعد أن سمع من أفلاطون بما فعله لزوجه إذ كانت له مكاتبه سرّية مع ديونيسيوس. وملخّص الحكاية أن الطاغية طلب من الفيلسوف قبل عودته الأخيرة أن يسأل ديون هل يوافق أن تتزوّج امرأته في صقلية من رجل آخر؟ وثمّ رواية أخرى لا ندري مبلغ صدقها ولعلّها من صنيع أعداء ديون. تقول الرواية إنه لم يكن مرتاحاً من زواجه بالاصل، وإن حياته مع امرأته كانت تاعسة. فلمّا عاد أفلاطون إلى أثينا وفاتحه في أمر تسريح زوجه، كتب رسالة لديونيسيوس تعرّض فيها لمختلف الشؤون بأسلوب واضح صريح، حتى إذا جاء إلى هذه النقطة استخدم أسلوباً معمّى فيه غموض كان بينه وبين ديونيسيوس سبق اتفاق عليه. واعلمه بهذا الأسلوب أنه تحدث إلى ديون حول الموضوع وقد ظهر له أنه لا يحبّذ ذلك وسيستاء جداً ويعدّه إهانة موجّهة إلى شخصه إن قُدّر له التمام.

كان ديونيسيوس في ذلك الحين يمنّي نفسه بالصلح والصفاء ولذلك لم يُقدم على تزويج أخته، زوج ديون. إلاّ أنه نفّذ ما نواه بعد أن خابت آماله في الصلح؛ وتعقدت الأمور، وعاد أفلاطون إلى أثينا متبرّماً، فأرغم أرتيه وهي كارهة على الزواج من ثيموقراطس أحد أصدقائه المقرّبين. بهذا العمل الشائن سفّ ديونيسيوس إلى الدرك الأسفل حين يقارن في هذا المجال بموقف أبيه في قضيّة مشابهة أظهر خلالها تساهلاً وعدلاً. والحكاية هي: انضمّ پولكزينوس Polexenus زوج تسته Theste أخته إلى معسكر أعدائه وفرّ هارباً من صقلية خوفاً على نفسه. فأرسل ديونيسيوس الأب يستقدم تسته وراح يتهمها بسبق علمها بنيّة زوجها في الفرار، وكتمان الأمر عنه، فأجابته تلك السيدة الجسورة الشديدة الثقة بنفسها قائلة.

- أتظنني يا أخي زوجاً سيئة أو جبانةً إلى الحدّ الذي أمتنع معه عن مرافقة زوجي ومشاطرته مصيره لو أعلمني بنيّته على الهروب؟ إني لا أعرف عن نيّته هذه شيئاً، ولو علمت لفضّلت أن أُسمّى بزوج المنفيّ پولكزينس على أن أُسمّى بأخت المستبدّ الطاغية ديونيسيوس.

وقيل إن ديونيسيوس أُعجب أيّما إعجاب بجوابها الصريح وسرعة بديهيّتها، كما أُعجب السيراقوسيون بشجاعتها وأمانتها حتى أنها بقيت تحتل مكانتها الرفيعة ومقامها الملكي إلى ما بعد القضاء على حكم الطغاة. وعند وفاتها صدر قرار شعبي يلزم كل مواطن بحضور مراسم تشييعها إلى المقر الأخير. هذه الحكاية تستأهل مِنا التسجيل هنا، وإن كانت خارجة عن صدد البحث.

عندئذ اختمرت في ذهن ديون فكرة التأهّب لغزو صقلية. إلاّ أن أفلاطون لم يشأ التدخل في الأمر وظل بعيداً بسبب تقدّم العمر به وإكراماً لذكرى ما لقيه من الاحترام والحفاوة في صقلية من ديونيسيوس. على أن سپيوسيپوس وسائر أصدقائه شجّعوه وساعدوه قائلين: إن صقلية تضرع إليه بذراعين ممدودتين إلى السماء لإنقاذها، وإنها ستستقبله بذراعين مفتوحتين.

وكان سپيوسيپوس أكثر اتصالاً بالمواطنين من أفلاطون عند وجوده في سيراقوسه وهو يعرف ميولهم الحقيقية وإن كانوا يشكون منه ويحذرون - لما بدا من صراحته التي جعلتهم يعتقدون أنه عميل من عملاء الطاغية مدسوس عليهم لإيقاعهم في شرك إلاّ أنهم وثقوا به واطمأنوا إليه بمرور الزمن. وسادتهم فكرة واحدة وأمنيّة واحدة وهي أن يقبل ديون بإعداد العُدّة لتحريرهم، وإن كان لا يملك أسطولاً أو خيلاً أو سلاحاً. وليستقلّ أية سفينة تعنّ له واضعاً اسمه ونفسه تحت تصرّف الصقليين ضدّ ديونيسيوس. هذا ما أكده له سپيوسيپوس. إلاّ أن ديون أبقى الأمر في طيّ الكتمان واستخدم رفاقه في السِرّ لتعبئة ما يمكن من الرجال، وخفّ لمعونته عدد كبير من الفلاسفة والساسة، نذكر منهم يوديموس Eudemus القبرصي، الذي وجّه أرسطاطاليس رسالته في النفس باسمه إثر وفاته، وتيمونيدس Timonides الليوكادي Leucadian، وملطاس Miltas العرّاف الذي درس في الأكاديمي.

أما من منفيي ديونيسيوس القبرصيين الألف على الأقل فلم ينضوِ إليه غير خمسة وعشرين. لقد آثر الآخرون البقاء في منفاهم للخوف الذي كانوا يشعرون به. وكان موضع التجمع في زياكزنيثوس Zaecynthus، فهناك عُبّئت قوة صغيرة لا تتجاوز ثمانمائة رجل امتازوا بخبراتهم الطويلة وتمرّسهم بالآفات والخدمة العسكرية الشاقة

فتدرّبت أجسامهم واشتدّ عودهم، وكان إقدامهم وخبرتهم العسكرية كافيين لرفع المعنويات، وحمل جنود العدو على الانضمام إليهم كما كان ديون يؤمّل من الصقليين.

إلاّ أن القلق وخَور العزيمة دبّا في نفوس هؤلاء الرجال ساعة علموا بأنهم سيقاتلون ديونيسيوس. فراحوا ينحون باللائمة على ديون ويتهمونه بالغش قائلين إنه يندفع بيأسه وحنقه كالمجنون وإنه سينتهي بهم إلى دمارٍ محقق دون أن يتبصّر بالعواقب. ولم يكن حنقهم على ضباطهم وآمريهم بأقل من هذا، لأنهم جنّدوهم دون أن يصارحوهم بجليّة الأمر أو يعلموهم بالهدف. فخطب فيهم ديون موضحاً حالة الضعف التي يشكو منها المستبدّ، واضطراب الوضع الداخلي، وبيّن لهم أنه لم يجندهم في الواقع، بل كان يرمي إلى جعلهم ضبّاطاً للسيراقوسيين ولبقيّة الصقليين الذين يوالونه جميعاً. وقد مضى وقت طويل على تأهّبهم واستعدادهم للثورة. ثم تلاه ألكيمينس الأخائي سليل البيت ذي المجد العريق، ذو الاسم الشهير والمكانة الرفيعة، فخطب فيهم على الوتيرة نفسها - وكان أحد رجال الحملة أيضاً - فطابت نفوسهم وهدأت.

رُسم للبدء في الحملة منتصف الصيف، حيث الريح الإتيسية Etesian دائمة الهبوب في البحار. وكان القمر بدراً. فهيّأ ديون قرباناً فخماً لأپوللو وسار على رأس قوّته بموكب مهيب إلى المعبد وهم مدجّجون بالسلاح. وبعد تقديم الذبائح أَوْلَم لهم وليمة عامرة في ساحة سباق زاكشيا وبسط لهم السماط فعرتهم الدهشة من كثرة ونفاسه صحاف الذهب والموائد المثقلة بالأطعمة، وهي لا تنمّ عن ثروة اعتيادية. ولذلك استنتجوا أن رجلاً كديون تعدّى مرحلة الشباب، ويملك مثل هذه النفائس التي تؤمن له خفض العيش ورغده، لن يورّط نفسه في مجازفة كهذه، الا إذا كان قوي الأمل بنجاحها. ولا شك أنه متأكد أن الموالين له في صقلية سيهبّون لمساعدته.

وبعد أن سكب الخمر وتلا الدعاء المعتاد، دخل القمر في خسوف. ولم يفاجأ ديون به، لأنه كان خبيراً بدورات الخسوف والكسوف عليماً بعلّة احتجاب القمر جرّاء توسّط الأرض بينه وبين الشمس. وكان من الضروري شرح الظاهرة للجنود الذين اضطربوا وعلَتْهُم البغتة، وملأتهم المخاوف وهبطت معنوياتهم. فنهض العرّاف ملطاس في وسطهم ودعاهم إلى الاطمئنان والاستبشار بالنجاح الباهر، لأن العناية الإلهية استبقت الأحداث بهذه الظاهرة التي تدلّ على أن عظمةً وسؤدداً سيبتعلهما الظلام وينخسفان. وفي وقتهم هذا ليس من يداني ديونيسيوس عظمةً وسؤدداً. وقال إن نزولهم في صقلية سيمحقه ويطفئ سناءه. وأسهب ملطاس في شرح الدلائل لهذه الظاهرة.

وأمّا عن خشرم النحلِ الذي استقرّ على مؤخّرة سفينة ديون فقد أسرّ إليه ملطاس بأنه يخشى أن يكون نجاح العمل العظيم الذي هم في سبيله مؤقتاً، وأن عمره لن يطول بل ستذوب آثاره وتضمحل بعد حين. وقيل أيضاً إنّ آيات عديدة تجلّت لديونيسيوس آنذاك، فقد انقضَّ نَسْرٌ وخطف رمحاً من يد أحد حرّاسه وحلّق به إلى ارتفاع كبيرٍ ثم أفلته فسقط في مياه البحر. كما أن مياه الساحل التي تلتطم بأسس القلعة انقلبت إلى مياه عذبة صالحة للشرب يوماً كاملاً بشهادة من شربوا منه. وولدت الخنازير خنانيصها كاملة الخلقة. إلاّ أنها تشير إلى فتنة وعصيان وشيكين، لأن الرعيّة ما عادوا يعيرون آذاناً صاغيةً لأوامر الرؤساء. وفسّروا عذوبة الماء بأن حالة السيراقوسيين ستتبدل، وستنقلب تعاستهم إلى سعادة وشقاؤهم إلى هناء. أمّا آية النسر الذي هو طير جوپتر والرمح الذي هو شعار سلطانه وهيمنته فتدلّ على أن عظيم الآلهة قد حكم بإنهاء الحكم الحاليّ.

حملت سفينتا نقلٍ كلَّ رجال ديون وأقلعتا بحراسة سفينة أخرى متوسطة، ومركبين كلّ منهما ذو ثلاثين مجذافاً. وبخلاف الأسلحة التي كان يحملها الجنود جلب نحو ألفين من التروس وكميات كبيرة جداً من رماح القذف، والحراب الثقيلة، وأرزاقاً كثيرة جداً مختلفة تأميناً لحاجتهم أثناء الرحلة. وكانت الخطّة أن لا يقتربوا من أي شاطئ حتى يصلوا إلى الهدف، وأن لا يستخدموا غير قوة الريح، ذلك لأن البلاد التي سيمرّون بها كانت كلها معادية. وأُنبئوا بأن فيليتس كان في إياپيجيا Iapygia على رأس أسطولٍ مهمته التفتيش عنهم. وطالت رحلتهم اثني عشر يوماً، وكانت الريح مؤاتية رخية. وفي اليوم الثالث عشر بلغوا پاخينوس Pachynus وهو رأس في الجزيرة وهنا نصحهم پروتس Protus الملاح بالنزول إلى البرّ فوراً ومن دون أي تردّد. فلو أنهم جوبهوا بمقاومة في اليابسة وأرغموا على العودة دون الإفادة من هذا اللسان البحريّ فقد يمتد بقاؤهم في عرض البحر أياماً وليالي عديدة انتظاراً لريح الجنوب الصيفية. إلاّ أن ديون لم يشأ النزول في بقعة قريبة جداً من عدوّه. وكان يرغب في أن يبدأ حملته من مسافة أبعد من پاخينوس فواصل رحلته. ولم يمض بعيداً حتى هبّت ريح الشمال الزفون ودفعت بالسفن إلى الساحل. وظهرت نجمة السّماك الرامح Arcturus، وهبّت ريح هوجاء، وهطلت الأمطار مصحوبة برعود وبروق، وغُمّ على عقول البحارة فلم يعرفوا اين يتوجهون، ووجدوا على حين بغتة أن الأمواج تدفع بهم نحو چرچينا Cercina وهي جزيرة قريبة من الساحل الأفريقي في أخطر جرفٍ منها. ولم ينجوا من الاصطدام بالصخور إلاّ بعد اللتيا والتي. وخلصت سفنهم من الدمار ببذل جهود جبارة

في التجذيف ضد الريح التي كانت تدفعهم إليها حتى مرّت العاصفة. وصادفوا سفينةً فسألوها عن الموضع الذي هم فيه وعلموا أنهم عند رؤوس سرتيس Syrtes العظيمة فعاد اليأس يتملّكهم بحلول هدوءٍ فجائي. وأخذوا يروحون ويغدون في عُرض البحر على غير هدىً حتى شعروا بنسيم رخيّ يهبّ من جهة اليابسة وكانوا يتوقعون كل شيء خلا ريح الجنوب هذه فلم يصدقوا حظهم السعيد. وراحت الأنسام تشتد تدريجياً حتى انقلبت ريحاً رخاءً فنشروا القلوع كلّها. وبعد الدعاء للآلهة انطلقوا في عُرض البحر متجهين رأساً إلى صقلية يسابقون الريح. وفي اليوم الخامس بلغوا مينوا Minoa وهي جزيرة صقلية صغيرة تحت سيطرة القرطاجنيين شاءت الصدف أن يكون حاكمها سينالوس Synalus أحد أصدقاء ديون، إلاّ أنه لم يعلم أول الأمر بأن السفن تعود لديون فحاول منع رجاله من النزول إلى البرّ. إلاّ أنهم اندفعوا إلى اليابسة بسيوفٍ مشهرة لكنهم لم يفتكوا بأحد لأن ديون منع ذلك مدفوعاً بصداقته للقرطاجنيين، ودفع بأولئك الذين تصدّوا لهم وأرغمهم على التقهقر وأخذ يتعقّبهم عن كثب ويشدّ الكرّ عليهم حتى دخل البلدة معهم واحتلها. ولما التقى القائدان حيّا أحدهما الآخر وأعاد ديون البلدة التي احتلها إلى سينالوس دون أن يضارّ أحد في أهليها. وهيّأ سينالوس مقراً للجنود وزوّدهم بالطعام ووفّر لديون كل ما هو بحاجة إليه.

وارتفعت معنوياتهم كثيراً بالصدفة الغريبة التي حكمت أن يكون ديونيسيوس غائباً عن صقلية. ففي ذلك الوقت بالذات كان متجهاً إلى ساحل إيطاليا على رأس ثمانين سفينة. وكان ديون يريد إراحة جنوده بعد عناء السفر فعارضوه وأصرّوا على أن يجنوا أكبر الفائدة من هذه الفرصة وألحّوا عليه بالزحف على سيراقوسة دون تأخير. وهكذا كان. فتركوا أثقالهم وفائض سلاحهم أمانةً عند سينالوس وساروا نحو سيراقوسة. وكان أول من انضمّ إليه وهو في طريقه مائتان من الخيّالة الجرجنتيين الذين كانوا قد اتخذوا مقرّهم بالقرب من إكنوموم Ecnomum، وتبعهم الغلوان Geloan. على أنّ الأنباء ما لبثت أن وصلت سيراقوسة. وكان أهم شخص فيها آنذاك تيموقراطس صديق ديونيسيوس. وهو الرجل الذي زوّجه من أخته بعد فصلها عن ديون. واتخذ هذا التدابير الممكنة للحيلولة دون وقوع انفجار أو فتنة داخل المدينة، حيث كانت الخواطر هائجة والنفوس تغلي كالمِرجل. إلاّ أنهم لم يقدِموا على عملٍ وظلّوا ساكنين إذ لم يشاؤوا وضع ثقة زائدةٍ فيما بلغهم من أنباء. واتفقت للرسول الذي حمل الخبر لديونيسيوس حادثة غريبة. فقد وصل إلى إيطاليا، وفيما هو يجتاز أرض ريجيوم Rhegium مسرعاً إليه في كاولونيا Caulonia، التقى بصديق وهو يحمل إلى منزله

بعض أجزاء من جسم أضحية. فقدّم له قطعة من اللحم فقبلها منه وواصل رحلته مستعجلاً. وأدركه التعب بعد أن قطع مسافة كبيرة خلال الليل فتوقف ليصيب شيئاً من الراحة واستلقى في غابة قريبة من الطريق. فاشتمّ ذئب رائحة اللحم فتعقّبها وكانت القطعة مربوطة بحقيبة الرسائل، فحمل اللحم والحقيبة معاً وبداخلها الرسائل الموجّهة إلى ديونيسيوس. ولما استيقظ الرسول افتقد الحقيبة وصار يبحث عنها هنا وهناك مدة طويلة، ولما يئس من العثور عليها قرّر أن لا يواصل رحلته إلى الملك واختفى عن الأنظار.

الاّ أن أنباء الحرب في صقلية بلغت ديونيسيوس من مصادر أخرى لكن بعد مرور زمن طويل. وفي خلال ذلك واصل ديون زحفه فانضمّ إليه الكامارينيون Camarineans وانتفضَ سكان الأرياف المحيطة بسيراقوسة والتحقوا به زرافات ووحداناً، ثم إنه اتصّل بالليونتيين Leontnies. وأُبلغ أهالي كامپانيا الذين يحرسون الإيپوبلي Epipolae مع تيموقراطس بنبأ كاذب تعمّد ديون إذاعته، ومؤداه أن الغزاة ينوون الهجوم على مدنهم أولاً، فتخلى هؤلاء عن تيموقراطس وهرعوا إلى أهاليهم لحمايتهم. وبلغ ذلك ديون وكان متوقعاً ذلك، ومنتظراً بالقرب من ماكري Macrœ، فرفع معسكره ليلاً وسار إلى نهر أماپس Amapus الذي يبعد عن المدينة زهاء عشرة فرلنگات. فتوقف وضحّى للآلهة على ضفة النهر وقدّم نذوراً للشمس البازغة، وصرّح السحرة أن الآلهة تعِده بالنصر. وكان ديون يشارك في تقدمة القرابين وقد ضفر إكليلاً على رأسه، فاقتدى به الحاضرون ووضعوا الأكاليل على رؤوسهم. وكان ثمّ خمسة آلاف من الذين انضمّوا إلى قواته أثناء زحفها، وقد سدّت حماستهم مسدّ النقص الذي يشكونه في السلاح. لقد سلّحوا أنفسهم بكلّ ما وقعت عليه أيديهم. وما إن كان ديون يأمر بالتقدم حتى رأيتهم يندفعون إلى الأمام بهتافٍ وصياحٍ، كأن ديون قد نال النصر التام، ويروحون يشجعون بعضهم بعضاً بقرب نيلهم حريتهم.

واستقبله وجهاء القوم وأفاضل المواطنين بثيابٍ بيض عند أبواب سيراقوسة، وانقضّ الأهلون على أنصار ديونيسيوس ولاسيما أولئك الذين عُرفوا باسم المخبرين والجواسيس وهم فئة من أحط البشر وأشدهم خبثاً وشرّاً. وكانت مهمّتهم أن يذرعوا المدينة طولاً وعرضاً ويندسّوا بين الجماعات ثم يحيطون الطاغية علماً بكلّ ما يسمعونه من الناس من أقوال ويقدّمون تقارير عن ميولهم واتجاهاتهم. فانطلق الجمهور يفتش عنهم بالأول، وأذاقوهم نِكالاً وأشبعوهم ضرباً حتى انتزعوا أرواحهم.

عجز تيموقراطس عن الوصول إلى الحامية المتحصّنة في القلعة فركب حصانه

وهرب من المدينة. فأشاع الخوف والفوضى في كل المناطق التي مرّ بها مبالغاً في تقدير قوة ديون ليقوم ذلك عذراً وجيهاً على تركه المدينة. وما لبث ديون أن وصل مشارف المدينة وشوهد من بعيد قادماً على رأس قواته وعليه أجمل وأفخم شِكّة سلاحٍ يحفّ به أخوه ميغاكليس Megacles من جهة وكالليپوس Callippus صديقه الأثيني من جانب وعلى رؤوسهم الأكاليل وقام على حراسته مائة من جنود الحملة بينما قاد الضباط بقيّتهم بأحسن نظام. وخرج السيراقوسيون للترحيب بهم، كأنهم يستقبلون موكباً دينياً مقدساً جاء لإحياءٍ مناسبة التحرر بعد ثمان وأربعين سنة من كبت الحريات، والقضاء الحكم الديمقراطي.

دخل ديون من باب مينيتيد Menitid وأسكت ضجيجَ الناس بصوت النفير ليعلن بيانه الأول الذي جاء فيه:

«كَن ديون وميغاكليس اللذين جاءا لإسقاط الحكم الاستبدادي يعلنان للسيراقوسيين، وكل أهالي صقلية الآخرين، أنهم منذ هذه الساعة قد تحرروا من حكم الطاغية».

ورغب في أن يخطب في الجماهير، فسار خلال حَيّ أخرادنيا Achradina، والناس يجلبون الأضاحي للقرابين، وينصبون الموائد ويضعون عليها الأقداح، وكانت أبواب البيوت تُفتح لنثر الأزهار منها عليه، وهي مزدانة بالزينات. والناس يهتفون باسمه ويتسابقون في النذور له كما يعاملون إلهاً. في أسفل القلعة والپنتاپلا Pentapyla أقام الطاغية مِزْوَلة شمسية ضخمة عالية، فصعد ديون عليها وأنشأ يخطب في الناس داعياً إلى المحافظة على حرياتهم والدفاع عنها ضدّ أي غاصب. فحيّوه وأعربوا عن امتنانهم بكل مظاهر السعادة والابتهاج ونصّبوه عليها وأخاه جنرالين ومنحوهما صلاحيات مطلقة. وبناء على رغبتهما ضمّوا إليهما عشرين زميلاً، نصفهم من المنفيين الذين جاؤوا معه. واستبشر العرّافون بآيةٍ وهي أن ديونيسيوس كان عند مخاطبته الجمهور يطأ نصباً من الأنصاب التي تعب ديونيسيوس في إقامتها. ولكن لما كان النصب مزولةً شمسيّة وقت نصبه جنرالاً فقد أعربوا عن قلق من إمكان حصول تغيير في الانقلاب العظيم الذي حققه، واتفقوا على أن الحظّ لن يلبث أن يقلب ظهرَ المجنّ له.

بعد هذا احتل الإيپوپلي وأطلق سراح مَن سجنهم ديونيسيوس فيه. وبدأ ببناء أُطم لحصار القلعة. وبعد سبعة أيام وصل ديونيسيوس بحراً ودخل القلعة. وفي الوقت نفسه وصلت العربات تحمل أسلحة ديون التي كان قد وضعها لدى سينالوس فوزّعها على

المواطنين وسلّح البقية بما تيسّر له من مصادر أخرى. وكان يبدو عليهم النشاط والحماسة والاستعداد لخوض غِمار الحرب كأيّ محارب متمرس.

في مبدأ الأمر أرسل ديونيسيوس رسلَهُ سِرّاً لمفاوضة ديون في الشروط التي يقترحها. فأجاب ديون أن أية مفاوضة يجب أن تجرى علانية وأمام السيراقوسيين بوصفهم مواطنين أحراراً. وراحت الوفود تنتقل من معسكره ناقلة لمقترحات مقبولة ووعود معسولة كتخفيض الضرائب والرسوم، وإلغاء كلّ الجبايات الحربية وأعباء الحملات العسكرية، وهي أمور أصبحوا هم ولاة الأمر فيها لا تتم إلاّ بموافقتهم ورضاهم ولايفرضها إلاّ بعد المداولة معهم حولها. فضحك السيراقوسيون من هذه العروض. وأجاب ديون وفد الطاغية بأنّ على سيّدهم أن ينتزع من رأسه فكرة التفاوض معهم حول أي شرط خلا التنازل عن الحكم، فإن رضخ واستعفى فلن ينسى ديون صلة القرابة التي تربطهما ولن يتماهل في مساعدته على نيل العفو له عمّا سلف منه، وتأمين كل ما هو معقول ومناسب. فتظاهر ديونيسيوس بالموافقة، وأرسل وكلاءه مرة أخرى يطلب حضور عدد من السيراقوسيين إلى الحصن ليبحث معهم شخصياً في الشروط المناسبة للطرفين بعد المداولات الحسنة النيّة. فأُنيب لذلك عدد من المواطنين بموافقة ديون، وخرجت شائعة من القلعة تفيد بأنّ ديونيسيوس وافق على التنازل عن سلطاته مختاراً، مفضّلاً أن يقوم بهذا العمل الطيّب من تلقاء نفسه على أن يرغمه ديون عليه. إلاّ أن هذه الشائعة كانت مجرّد حيلة لإلهاء السيراقوسيين وصرف أنظارهم، لأنه ألقى القبض على الوفد الذي أُرسل للمفاوضة وزجّ بهم في السجن.

وعند بزوغ فجر اليوم التالي أرسل حاميته من الجنود المرتزقة إلى خارج الأسوار للقيام بهجوم مباغت على استحكامات ديون، بعد أن سقاهم كثيراً من الخمر في تلك الليلة وحمّسهم. كان الهجوم مفاجئاً غير متوقع، وانطلق البرابرة بجرأة واستهتار وهم يصرخون صرخات مُنكرة وبادروا إلى هدم الأطم ثم كرّوا على السيراقوسيين كرّةً بلغ من شدّتها أنها زحزحتهم عن مواقعهم، ولم تنجدهم إلاّ كتيبة واحدة من جنود ديون المأجورين عند علمهم بالهجوم. هذه النجدة لم تدر ماذا يجب عمله وكيف تستخدم قوتها بصورة فعالة لأن الضجيج الذي أحدثه السيراقوسيون حال دون وصول أوامر الضباط أسماع الجنود. لقد فرّ السيراقوسيون من وجه المهاجمين واندفعوا نحو النجدة المتقدمة ورموا أنفسهم عليها فاختلّت صفوفها وعمّتها الفوضى. ووجد [ديون] أن ليس من مصيخ إلى أوامره، فقرر أن يضرب لهم مثلاً عملياً لما ينبغي لهم عمله، فكرّ بهجمة على قلب العدوّ وأصبح القتال فيما حوله عنيفاً دموياً. ولما كان شخصه معروفاً من

الجانبين فقد أخذ الجميع يندفعون إلى الموضع الذي يقاتل فيه وهم يطلقون صرخات عظيمة. ومع أن سِنّه المتقدمة لم تكن تؤهّله لخوض مثل هذه المعركة فإن ثباته وشجاعته عوّضا عن ذلك فقد ظلّ صامداً لكلّ من يهاجمه، وفي الوقت الذي بدأ العدوّ فيه ينكفئ على أعقابه، أصيبت يده بطعنة رمح، ومن توالي الطعنات والضربات أُعطبت دروع صدره عطباً بالغاً ولم تعد تصلح لوقايته من المقذوف عليه، أو من الضربات المسدّدة إليه، واخترق درعه عدد من الأسِنّة والحراب ولما تكسّرت نصالها سقط على الأرض فحمله جنوده وأخرجوه من ميدان القتال. وكانت روحه توّاقة ناشطة. والعدوّ قد أُنهكت قواه، وهو يفكر في النكوص على أعقابه، فقد كان يأمل الاستيلاء على المدينة بهجومه الأول لكنهم فوجئوا بمقاتلين أشداء مجرّبين لا يترحزحون عن مواضعهم، وهكذا تمّ تراجعهم إلى الحصن. إلاّ أن جنود الإغريق لم ينفكّوا عنهم، وشدّوا عليهم وضيّقوا الخناق فانقلب تقهقرهم هزيمة.

فقد ديون خمسة وسبعين من رجاله وسقط من العدوّ خلقٌ كثير، وكان نصراً فريداً من نوعه، الفضل فيه يعود إلى الجنود الأجانب بالدرجة الأولى. فكافأهم ديون بمائة مينا. فردّ الجنود الهديّة بتاج من الذهب.

ولم يتأخر ديونيسيوس عن إخراج رسول يحمل رسالة إلى ديون من النسوة وعياله، كُتِب على غلاف أحدها: «من هيپارينوس Hipparinus إلى أبيه»، وهيبارينوس هو ابن ديون. على أن طيماؤوس يذكر أنّ اسمه أريتيوس Aretaeus مشتق من اسم «أريته» أمّه. على أني أرجّح الأخذ برواية تيمونيدس لأنه كان أحد جنود أبيه ومحل ثقته، وقُرئت بقية الرسائل علناً، وكانت تتضمّن رجاءات متواضعة وتشفّعات من النساء. أما تلك التي وجّهت إليه من ابنه فإن الرسل رفضوا أن تُفضّ علناً إلاّ أن ديون أصرّ وأجبرهم، فكُسِرت أختامها، فوجد أنها موجّهة من ديونيسيوس يخاطب بها شخص ديون ظاهرياً. على أنها في الواقع موجّهة إلى السيراقوسيين وقد صيغت بحيث تجعل ديون موضع شك من المواطنين، كما حوت تبريراً معقولاً لنفسه واستعطافاً، وذكّره بالخدمات الجليلة التي قدّمها ديون للحكومة المستبدة في الماضي. وخُتمت بتهديد يتناول أعزّ ذوي قرباه؛ أخته وزوجه وابنه، إن لم يوافق على مقترحاته. وتلت ذلك مطاليب مؤثرة عاطفية، تتعلق بالحرص على الحكم، وعدم وضع السلطة في أيدي أناسٍ لم ينفكّوا عن بغضه أو نسيان أحقادهم وخلافاتهم. واقترح أن يتبوّأ ديون العرش وبذلك يضمن سلامة أصدقائه وأسرته.

وأحدثت الرسالة أثرها في نفوس السيراقوسيين. ففي الوقت الذي كان ينبغي أن

يزيد إعجابهم بشهامته ورباطة جأشه إزاء هذا التهديد، وبعد أن قدّم أعزّ مصالحه على التفريط بالعدالة والفضيلة، رأوا فيها مصداقاً لهواجسهم وشكوكهم في إحراج قد يقع على ديون لا قِبَل بمقاومته فيخضع لديونيسيوس. ولذلك بدأوا يبحثون عن زعماء آخرين، فاستقبلوا بالمزيد من السرور نبأ قدوم هيراقليدس أحد الذين نفاهم ديونيسيوس وهو جنديّ من أكفأ الجنود تولّى قيادات هامّة في أثناء حكم الطغاة، إلاّ أنه كان متقلّباً في رأيه وعقيدته، لا يمكن الاعتماد عليه في قيادة أمينة إن رُسِم له أن يعمل مع زميل. وكان ثمّ خلاف سابق بينه وبين ديون أيام وجودهما في البلوبونيسس حيث قرر هو أن يهاجم ديونيسيوس بالأسلحة التي تتوفّر له. وأقبل بسبع بوارج وثلاث سفن فوجد الطاغية محصوراً بين جدران القلعة والسيراقوسيون يختالون عجباً بالنصر الذي حققوه، فأخذ يتقرّب إليهم بمختلف الوسائل ويخطب ودّهم لتكون له شعبية عندهم. وكان في الواقع يملك المؤهّلات المطلوبة من روحٍ جذّابة إلى قابلية استمالة الجمهور الذي يهوى أن يكون دوماً موضع تدليل وإعزاز. إنّ تضايق الناس من ترفُّع ديون واستعلائه سهّل لهيراقليدس السبيل إلى قلوبهم، فقد كانوا ينظرون إلى مسلك ديون نظرتهم إلى من يريد الاستهانة بهم والاحتقار لهم. وقد جعلهم نجاحهم يطرحون جانب الحذر، كما وثقوا بأنّ من حقهم أن يجدوا في زعمائهم تذلّلاً وخضوعاً وتزلّفاً، قبل أن يثبّتوا أُسس الحكم الديمقراطي.

ولذلك دعوا إلى عقد جمعية عامة اعتباطية ينقصها النظام واختاروا هيراقليدس أميراً للماء. فتقدّم ديون واوضح لهم أن وضع هذه الثقة في هيراقليدس لا تعني إلا سحب ثقتهم منه لأنه لا يعود بعدها قائداً عاماً لهم بعد تسليمهم القيادة البحرية إلى شخصٍ آخر، فأبطلوا الأمر وألغوا التعيين خلافاً لرغبتهم. وعلى إثر ذلك دعا ديون هيراقليدس إلى منزله وبيّن له بلطف أنه لم يكن حكيماً فيما عمل، وليس من المصلحة أن ينازعه في إحدى شكليّات المناصب، في ظرف قد تُسبّب أية خطوة مغلوطة خرابَ كل شيء. ثم دعا الجمعية العامة وأعلن أمامها تعيين هيراقليدس أميراً للماء. وسعى لدى الجمعية لمنحه امتياز حرس خاص يرافقه، كما خُصّص لنفسه بالذات. فلم يسع هيراقليدس إلاّ أن يُعرب له عن أعظم احترامه وشكره لهذا الصنيع، وأحاطه بالإجلال والتعظيم، ووضع نفسه رهن إشارته. على أنه ظلّ وثيق الصلة بالمواطنين المشاكسين الذين لا يسلس قيادهم يعمل سِرّاً على إثارتهم بشكاواه، ويلعب بعقولهم، فيضع ديون في أشد حالات القلق والحيرة. فلو نصح بالسماح لديونيسيوس بإخلاء القلعة وترك صقلية لعرّض نفسه لتهمة حمايته والعمل على إنقاذه. وإذا واصل الحصار ليتحاشى

السخط أو زرع بذور الشك فسيقولون إنه يتعمّد إطالة أمد الحرب ليبقى متمتّعاً بسلطة الجنرال ويبسط ظلّ الإرهاب على المواطنين.

كان ثمّ في المدينة شخص اسمه سوسيس Sosis عُرف بسوء السمعة والحمق، والرقاعة. إلاّ أنه كان يتمتع عند الجمهور بشعبية لسبب وحيد وهو رغبتهم في أن يطلقوا الحريات الشعبية حرة من الضوابط والقيود كحرية الكلام. هذا الرجل، تنفيذاً لدسيسة مبيّتة لديون، وقف يوماً في أحد الاجتماعات وبعد أن استوفى حظّه من التهجّم على المواطنين ووصفهم بالحمقى الذين لا يرون ما آلت إليه حالهم، وقال إنهم استبدلوا استبداد فاجر ماجن بآخر يقظٍ ماكر. وبعد أن أعلن نفسه عدوّاً وخصماً لديون ترك الاجتماع.

وفي اليوم التالي شاهده الناس وهو يعدو في الشوارع، وهو شبه عارٍ وفي رأسه جرح قاطع يسيل الدم منه على وجهه كأنه يهرب من وجه مطارديه. وفي الساحة العامة تجمّع الناس حوله وسألوه عما جرى له فأخبرهم أن رجال ديون هاجموه يريدون قتله، وكشف لهم إثباتاً عن الجراح التي أصيب بها رأسه، وانتصر له خلق كثير. وتصاعدت هتافات معادية ضدّ ديون تندد به وبأعماله الوحشية المستبدة، وتعيب عليه كمّه الأفواه وسفك الدماء والتهديد بالموت. وفيما كان الجمهور يتقاطر لعقد اجتماع عام في هذا الضجيج غير الاعتيادي، أقبل عليهم ديون وشرع يكشف لهم خيوط الدسيسة، فأخبرهم أن لسوسيس هذا أخاً هو أحد حرس ديونيسيوس وأنه أطلق أخاه في المدينة لإثارة الشغب والهياج. فقد أُسقط في يد الطّاغية ولم يعد يرى لنفسه مخرجاً إلاّ إثارة الشغب وزرع الفتنة وبذر بذور التفرقة. وفحص الجراحيّون الجرح فوجدوا مسار القطع من الأسفل إلى الأعلى، وأنه سطحيّ غير نافذ، لأن الجراح التي تعملها السيوف تكون بسبب ثقل السلاح عميقة نافذة في وسط القطع، وعلى مستوى واحدٍ من العمق في سائره. ووجدوا أيضاً أنه ليس ثمّ قطع واحدٌ مستمرّ متأت من ضربة واحدة، بل عدّة حزوز متأتّية على أغلب الاحتمال من عدة محاولات على قدر احتمال المصاب بها. ثم جاء أناسٌ عُرفوا بالصدق، وعرضوا في الاجتماع موسى وقالوا إنهم التقوا بسوسيس وهو يعدو في الشارع والدم ينزف منه فأخبرهم أنه يفرّ من وجه جنود ديون الذين أطبقوا عليه وجرحوه قبل قليل. فأسرعوا لتعقيبهم فلم يجدوا أحداً الا أنهم عثروا على هذه الموسى مخبأة تحت صخرةٍ مجوّفة كانت بالقرب من الموضع الذي أقبل منه الجريح.

ودارت الدائرة على [سوسيس] وبدأ أنه سيلقى شرّ الجزاء على ما قدمت يده

عندما تأيد كذبه بمجيء خدمه وإدلائهم بشهاداتهم فقد ذكروا أن سيدهم ترك منزله بمفرده قبيل شروق الشمس وبيده موسى. ولهذا سحب المدّعون على ديون اتهامهم، وصوّتت الجمعية بفرض عقوبة الموت على سوسيس بالإجماع وأبدت موافقتها العّامة على جميع إجراءات ديون. على أنهم ظلوا يُضمرون حسداً وعداء لجنوده. فالقتال بات الآن بحرياً. وقد أقبل فيليستوس من أياپيگيا لمساندة ديونيسيوس على رأس أسطول كبير، وبذلك رأوا أن لا حاجة بعد تدعو إلى استخدام الجنود الغرباء وهم مقاتلو برٍّ ومسلّحون تسليحاً يستقيم مع صنفهم. والسيراقوسيون رجال بحر وهم أعرف كيف يعالجون أمورهم من هذه الناحية لأن قوّتهم تكمن في سفنهم. وبالغوا في تقديرهم لأنفسهم بإفراط، للتفوّق الذي حققوه في اشتباكاتهم البحرية التالية. من ذلك أن فيليستوس وقع في أيديهم أسيراً فأذاقوه أشدّ العذاب. وقد روى إيفورس Ephorus أنه بخع نفسه عندما أُسِرت سفينته. إلاّ أن تيمونيدس الذي رافق ديون من أول الإنزال، وكان شاهد عيان للأحداث التالية، كتب إلى سپيوسپوس الفيلسوف يقصّ عليه الحادث بالشكل التالي:

جنحت سفينة فيليستوس فأُخِذ أسيراً وجُرّد من سلاحه، ثم نُزع جَوْشَنه. وتعرّض وهو أعزل كبير السنّ لكل أنواع الإهانات ثم احتزّوا رأسه، وسلّموا جثته إلى صبيان المدينة، وأمروهم أن يجرّوها جرّاً في شوارع أخردانيا ومن ثم يطرحوها في المقالع الحجرية. ويضيف طيماؤوس قائلاً إن الصبيان زيادة في التحقير ربطوا جثّته من رجله العرجاء وأخذوا يسحبونها في الشوارع، بينما اصطفّ أهل سيراقوسة على الجانبين يضحكون ويتندّرون على مشهد الرجل المربوط المسحوب من رجله الذي قال يوماً لديونيسيوس:

– إنك لن تهرب على متن حصان. بل ستنظر لتُسحلَ سحلاً إلى خارج المدينة وأنت مربوط من كعبيك.

على أن فيليستوس أنكر صدور هذا القول منه لديونيسيوس، وإنما القائل كان شخصاً آخر غيره.

استفاد طيماؤوس من هذه الفرصة التي هيّأها له فيليستوس دون أن يدري، واستخدمها في دفاعه الحارّ الدائب عن حكم الشعب، وقدحه وانتقاده لحكم الطغاة، واتخذها سبيلاً لإرواء غليله منه والتنفيس عن حقده في عين الوقت. إنه لما يُغتفر للمكابدين منه الأذى أن يتمادوا في الانتصاف لأنفسهم حتى عند إهانتهم جسده الهامد، ولكن ليس ما يشرّف أولئك الذين يكتبون التاريخ، ممن لم يصبهم بأيّ أذى

في حال حياته، أولئك الذين اعتمدوا كتبه مرجعاً لهم، أن ينزلوا إلى لغة التشهير والبذاءة والتحقير، وتأنيبه على سوء حظّ قد يقع لأفاضل الناس.

ويبدو لنا إيفورس طرفاً نقيضاً، حين يبتعد كثيراً عن الحقائق في إطرائه فيليستوس ومدح سيرته. فمهما بذل من جهد وبراعة في إضفاء الدوافع النبيلة العادلة على أعمال الظلم والتصرّفات القبيحة، ومهما جهد في اختيار العبارات المحتشمة الشريفة، سيظلّ إيفورس هذا متهماً بكونه من أشدّ المتحمّسين للطغيان، وأعظم المغرمين بترف الطغاة وسلطانهم وغناهم والتقرّب منهم.

إن من لا يمدح فيليستوس لسوء تصرّفه، ولا يذمّه لسوء حظّه، هو الذي يسلك أصلح السبل وأقومها في رأيي.

بعد مقتل فيليستوس عرض ديونيسيوس على ديون أن يسلّمه القلعة وكل ما فيها من مؤن وسلاح وجنود مدفوعة لهم أجورهم لستة أشهر مقدّماً، مقابل تأمين حياته والسماح له بالرحيل إلى إيطاليا دون تعرّض، ليعيش هناك معتمداً على ما تدرّه گيارتا [Gyarta من غلّة. وهذه قطعة أرض ذات خصب وماء وثمار تعود ملكيتها إلى سيراقوسة وتمتد من ساحل البحر حتى أواسط البلاد. فرفض ديون مقترحاته هذه، وأشار عليه بمراجعة أهالي سيراقوسة، إلاّ أن هؤلاء طردوا سفراءه، وكان غرضهم القبض عليه حيّاً خلال وقتٍ قصير. فما كان منه إلاّ أن ترك ابنه الأكبر أپوللوقراطس للدفاع عن القلعة وأوقر سُفنَه بالنفيس من الأموال وبالرجال، وانتهز فرصة هبوب ريح مؤاتية وتسلل آمناً دون أن يفطن له أمير الماء هيراقليدس أو أسطوله. فتصاعدت الأصوات بالاحتجاج وأخذوا ينددون بهيراقليدس ويتهمونه بالإهمال. فاستخدم هيپو Hippo أحد خطبائهم الجماهيريين فاندسّ هذا في الجمعية وقدّم اقتراحاً حول إعادة تقسيم الأراضي قائلاً إن المبدأ الأول للحريات هو تحقيق المساواة وإن الفقر والاستبداد هما رفيقان لا ينفصلان. ودعم هيراقليدس اقتراحه بخطبة. واستخدم الحزب المتحمّس لهذا الرأي أداة للتغلب على ديون الذي كان يعارض في تقسيم الأراضي. ومُجمل القول، صادق الشعب بالتصويت على الاقتراح، كما صودق أيضاً على اقتراح يقضي بإيقاف صرف أجور الجنود الأجانب، وعلى اقتراح ثالث بوجوب اختيار قادة جُدد للتخلص من سطوة ديون. كان الجمهور - كما يقول المثل - يريد الوقوف حالاً على ساقيه بعد مرض الاستبداد الطويل الذي ابتُلي به؛ وكانوا يريدون ممارسة حقوقهم كمواطنين أحرار باتخاذ الإجراءات والقرارات، وهم بعد في طور

النقاهة، يتعثّرون في خطواتهم ويركبون متن الشطط، فكرهوا ديون طبيبهم النطاسي وضاقوا به ذرعاً وهو يجاهد في حفظ المدينة ضمن إطار النظام والقانون.

في منتصف الصيف تقريباً التأمت الجمعية لانتخاب القادة الجدد، فأرعدت الدنيا، ووقعت آيات نحس أخرى دامت خمسة عشر يوماً متواصلة، فشتتت الناس ومنعت اجتماعاتهم بسبب الرهبة الدينية، ولم يتمّ انتخاب القوّاد. إلاّ أن الغوغائيين ودعاة الشغب وجدوا لهم يوماً صاحياً فجمعوا أنصارهم وباشروا عملية الانتخاب. وفي هذا الوقت بالذات هاجت هائجة ثور حراثة، بسبب عدم اعتياده ضجيج الناس وهرج الشارع، فانفلت من نِيره ومن سيطرة سائقه وأخذ يجري كالمسعور في أنحاء الملعب حيث الاجتماع معقود، يقفز ويثب ويطارد وينطح فأحدث من الفوضى والاضطراب ما لا يمكن وصفه، ثم ترك الملعب هائماً على وجهه في ذلك الجزء الذي احتله العدو من المدينة بعد ذلك بقليل. ولكنّ السيراقوسيين لم يكترثوا لهذه الظاهرة، وواصلوا عملية الانتخاب. فاختاروا خمسة وعشرين قائداً من بينهم هيراقليدس واتصلوا سرّاً برجال ديون ووعدوهم بمنحهم حق المواطنة السيراقوسية، مع الامتيازات التي يفرضها هذا الحق، إن هم تخلّوا عن ديون ووافقوا على الدخول في خدمتهم. فلم يعبأ هؤلاء ولكي يبرهنوا على إخلاصهم له وعلى شجاعتهم وضعوه في وسطهم وساروا به خارج المدينة وسيوفهم مسلولة دون أن يتعرّضوا لأحدٍ بأذىً. إلاّ أنهم كانوا يعاتبون الناس وهم سائرون على جحودهم ونكرانهم الجميل. ووجد الأهالي أن هؤلاء الجنود قلّة، وشجّعهم عليهم أنهم لم يُقدِموا على عملٍ عنيف، فاستهانوا بهم واعتقدوا أن تفوّقهم العددي عليهم سيكفل التغلّب عليهم والفتك بهم إلى آخر رجل قبل أن يُفلحوا في الخروج من المدينة، فانقضّوا على مؤخّرتهم.

فكانت أحرج ساعة في حياة ديون. وجد نفسه بين نارين إمّا أن يقاتل أبناء وطنه وإما أن يستسلم هو وجنوده المخلصين ليقطّعوا إرباً إرباً. فحاول بشتّى وسائل الإقناع والضراعة ردّ السيراقوسيين عَمّا انتووه، ومدّ كلتا يديه إلى القلعة التي يتحصّن فيها أعداؤهم وأشار إلى الجنود الذين يحتلون الأسوار بأعداد كبيرة وهم يراقبون ما يجري في المدينة. ولما أُسقط في يده ولم يجد وسيلة لإقناع المهاجمين، وأن الكتلة البشرية الهائلة تبدو مندفعة كالبحر الهائج بتحريض واستفزاز الغوغائيين، أمر جنوده بالكرّ وما هي لحظة حتى هربوا جميعاً وتفرّقوا في منعطفات الشوارع. ولم يتعقّبوهم بل سارع ديون فأمر جنوده بالاستدارة وخرج من المدينة قاصداً ليونتيا.

النساء أنفسهنّ أخذنَ يضحكن على القواد الجُدد ويتندّرن على الهزيمة التي

أصابتهم. ولأجل أن يستعيد هؤلاء ما فقدوه من ثقة واحترام طلبوا من الأهالي حمل السلاح ثانية لتعقيب انسحاب ديون. وأدركوه وهو يجتاز نهراً فجرّدوا عليه كوكبة من الخيّالة الخفيفة راحت تناوش قوّته. ففارق ديون هدوءه وليونته، واختفى من أساريره ذلك الحنان الأبوي الذي كان يحفظه لمواطنيه وحلّ محلّه الحزم والعزم على أن يردّ الصاع صاعاً، فأمر رجاله بمواجهتهم ورصّ صفوفه في نسق الهجوم، وسرعان ما مُنوا بهزيمة أشنع من الأولى ففرّوا إلى المدينة بعد أن فقدوا عدداً من الرجال.

واحتفى أهل ليونتيا بمقدم ديون وأعطوا رجاله مالاً ومنحوهم حق المواطنة. وأرسلوا يطلبون من السيراقوسيين دفع ما بذمّتهم للجنود، فردّ هؤلاء بإرسال وفدِ اتهام لديون، فعقد الليونتيون جمعيتهم وبُحث الأمر ونوقش فظهر أن السيراقوسيين غير محقّين في اتهاماتهم وأنهم الجانب المعتدي. فرفض هؤلاء تحكيم حلفائهم واتبعوا ما أملاه عليهم غرورهم واعتزوا برأيهم وأصرّوا على أن لا يؤمّروا من القادة الا أولئك الذين يخافون الشعب ويطيعون أوامره بدون مناقشة. وفي تلك الأثناء جرّد ديونيسيوس أسطولاً بقيادة نپسيوس Nypsius النابوليّ وحمّله أقواتاً وأجوراً للحامية. إلاّ أن السيراقوسيين اعترضوه وتغلّبوا عليه وغنموا منه أربع سفن فأسكرهم النصر، وأساؤوا التصرف، وانفرط عقد النظام بينهم فغرقوا في الشراب والأكل والعربدة والمجون حتى جاوزوا كل حَدّ، وأهملوا أخطر شأنٍ من شؤونهم، حتى خسروا مدينتهم ساعة أن كانوا على ثقة بأن القلعة أصبحت في حكم المستولى عليها. لقد راقب نپسيوس الفوضى وهي تجتاح المدينة، والأهالي وهم عاكفون على الخمر والغناء والعربدة يصلون الليل بأطراف النهار، وقوّادهم لا يحرّكون ساكناً لوقف الفوضى، أو أنهم ما كانوا ليجرؤوا على إصدار أوامر لرجال سكارى. فاهتبل فرصته وقاد هجوماً خارج القلعة فاكتسح استحكاماتهم وسحقها وأطلق العنان لجنوده البرابرة في المدينة يعيثون فيها سلباً ونهباً، ويتصرّفون بها كما يشاء لهم الهوى.

عندما أدرك السيراقوسيون مصيبتهم التي سببتها حماقتهم كان التكفير عنها أو ملافاتها من الصعوبة بمكان. فالمدينة في حالة اجتياح فعليّ، والعدوّ يُعمِل السيف في رقاب الرجال والاستحكامات تتساقط، والنساء يُسبَين سبياً ويُحمَلن قسراً إلى القلعة، والقوّاد المنتخبون انسحبوا من المسألة بعد أن تبيّنوا عجزهم عن تنظيم الأهالي وتعبئتهم بشكل مقبول لأغراض الدفاع والمقاومة. وفيما هم على هذه الحال، وأخرادنيا تكاد تسقط في يد العدوّ، اتجهت الأنظار كلها إلى آخر أمل لهم، ولكنهم لم يجرؤوا على النطق باسمه خجلاً، بعد أن نال من صفاقتهم ونكرانهم أسوأ ما يمكن أن يناله بشر.

إلاّ أن للضرورة أحكاماً. وصاح صائح من بين جنود الاحتياط والخيّالة:

- ابعثوا بطلب ديون ورجاله من ليونتيا!

ما إن طُرح هذا الرأي وتردّد اسم ديون حتى انطلقت صيحة فرح عامة وطالبوا باستدعائه والدموع في أعينهم، وتمنّوا أن يعود لقيادتهم مرّة أخرى بحكمته وإقدامه. وراحوا يستعيدون في أذهانهم تلك الثقة التي بثّها فيهم عندما قاد هجومهم على العدوّ وروحه الوثابة وشجاعته في أشدّ الأخطار. فأسرعوا يرسلون العسكريين تيليسدس Telrsides وأرخونيدس Archonides والفارس هيلاّنيكوس Hellanicus وأربعة آخرين، فانطلقوا على صهوات الخيل ينهبون الطريق نهباً وبلغوا ليونتيا مساءً، وما إن ترجّلوا حتى ألقوا بأنفسهم تحت قدمي ديون وشرحوا له وهم يبكون حالة السيراقوسيين التاعسة. وبدأ عدد كبير من الليونتيين والپلوپونيسيين يتجمّعون حولهم مستنتجين من لهجة حديثهم ولهفتهم أن أمراً غير اعتيادي قد وقع.

وتقدّم ديون الناس إلى محلّ الاجتماع وكمُل النّصاب بوقت قصير. وأقبل أرخونيدس وهيلانيكوس والرسل الآخرون وقصّوا عليهم باختصار ما حَلّ بالسيراقوسيين من مِحن وأرزاء، وطلبوا من جنود الپلوپونيسس نسيان ما لقوه من إساءات ونكران والإسراع بمساعدة منكودي الحظ الذين جوزوا على ما فعلوا بأكثر مما كان المساء إليهم سيجازونهم. وبعد أن انتهوا من كلامهم ساد صمت عميق أرجاءَ الملعب. ثم نهض ديون واقفاً وأنشأ يتكلم، إلاّ أنه لم يكمل عبارته فقد خنقته العبرة، وارتُجّ عليه، فساد الاضطراب جنوده، وأخذوا يشجعونه على الكلام، وبعد أن سيطر على عواطفه واصل قائلاً:

- يا رجال الپلوپونيسس، ويا رجال الحلف. إني ما جمعتكم هنا لتفكروا بمصالحكم أنتم. أما أنا فلا مصالح عندي أبحثها هنا، وسيراقوسة تسير إلى الدمار. ومع أني لست متأكداً بأني سأنجح في إنقاذها، لكن سأسرع إليها، لأُدفن على الأقل تحت أنقاض بلدي. أمّا إذا مالت قلوبكم إلى مساعدتنا نحن أشقى الناس وأشدهم نزقاً وطيشاً فسيكون لكم شرف المحافظة على هذه المدينة الشقية، وإن فشل السيراقوسيون في إثارة شفقتكم ونيل مساعدتكم فلا يسعني على كلٍّ إلاّ أن أطلب من الآلهة مجازاتكم على أفعالكم النبيلة المقدامة الماضية في سبيلهم، وعن العطف الذي لقيه منكم ديون الذي لم يتخلّ عنكم عندما أحدق بكم الضرّ وأُهِنتم. ولم يتخلّ أيضاً عن أبناء وطنه عندما أحدقت بهم الخطوب واكتنفتهم الشدائد.

وقبل أن ينهي كلامه هبّ الجنود، وأظهروا استعدادهم للسير وراءه بهتافات داوية،

وأخذ يتنادون إلى السير فوراً لإنقاذ المدينة. فعانقهم الرسل السيراقوسيون ودعوا بالبركة لديون وجنود الپلوپونيسس وبعد أن هدأت الضجة أصدر ديون أوامره بعودة الجنود كلّ إلى مقرّه والتهيّؤ للمسير. فانصرفوا ثم عادوا بعد فترة وهم بكامل سلاحهم إلى موضع التجمّع وقد اعتزموا إنقاذ المدينة في تلك الليلة بالذات.

وفي سيراقوسة واصل جنود ديونيسيوس نهب المدينة وتدميرها طوال النهار وارتكبوا كلّ ما يخطر بالبال من المحرّمات ولم يتعفّفوا. إلاّ أنهم انسحبوا إلى القلعة عند حلول المساء، وقد فقدوا عدداً من رجالهم، الأمر الذي حمل زعماء المعارضة في المدينة على الظن بأن العدوّ نال كفايته، وأنه لن يقوم بمحاولة مماثلة أخرى، فأقنعوا الأهالي برفض معونة ديون والحيلولة دون دخوله إلى المدينة عند مجيئه، ونصحوهم بعدم الانصياع إليه والخضوع له لأن ذلك ينتقص من شرفهم وشجاعتهم اللذين يحتّمان عليهم إنقاذ مدينتهم والدفاع عن حرياتهم ومقتناهم بأنفسهم. وبناء على هذا عاد الأهالي فأرسلوا وفداً آخر لديون يحظرون عليه التقدم. أمّا العقلاء والفرسان فقد أرسلوا من جهتهم وفداً ثانياً يحثّونه على الاسراع. فما كان من ديون إلاّ أن تباطأ في سيره إلاّ أنه لم يتوقف. ووضعت المعارضة أثناء الليل حرساً على أبواب المدينة لمنعه من دخولها. إلاّ أن نپسوس قام بهجوم آخر من القلعة بعدد من الرجال يفوق عدد رجال أمسِ وكان هؤلاء أكثر شراسة واعتداء من زملائهم. هدموا ما تبقّى من الاستحكامات، وانقضّوا رامحاً ونابلاً ينهبون ويخرّبون. وكانت الخسارة في الأرواح هذه المرة أكثر بكثير من الأول ولم يقصروا الضحايا على الرجال وإنما تعدّوها إلى النساء والأطفال. وكان مطلبهم الرئيس التدمير والتخريب وقتل كل من يقع بأيديهم لا النهب أو السلب. ذلك لأن ديونيسيوس يئس من استعادة ملكه وزاد حقده على السيراقوسيين إلى حدّ اعتزم معه أن يدفن سلطانه تحت أنقاض مدينتهم. ولما كان يتوقع نجدة ديون لها، فقد قرّ رأيه على خطة لتدمير المدينة تدميراً كاملاً سريعاً، بإحراقها وذرّ رمادها. ولذلك باشر الغزاة يقيمون الحرائق باستخدام كلّ نارٍ تقع في أيديهم من مشاعل ومصابيح ومسارج وسهام نارية يقذفونها من بعيد. ودبّ الهلع في أهالي المدينة وراحوا يتراكضون على غير هدى، إن شبّت النار في بيت وخرج أصحابه منه تتلقفهم سيوف المغيرين لتذبحهم ذبح النعاج. ومن يهرب من المذبحة إلى البيوت اضطرته النيران إلى تركها الوقوع في أيدي الجلادين، وأتت النيران على عدد كبير من المنازل، وهوى عدد منها على ساكنيها فدفنتهم تحت أنقاضها.

هذه المصيبة الجديدة التي كانت من صُنع أيديهم. فتحت أبواب المدينة أمام

ديون. وكان كما ذكرنا قد أبطأ في سيره عندما أنبئ بانسحاب العدوّ إلى القلعة. إلاّ أن ثلّة من الفرسان أقبلت من المدينة صباح اليوم الباكر لتنهي إليه نبأ الهجوم الثاني. وفي أثناء ذلك جاءه فاراً بعض من عارض في دخوله، راجين منه أن يعجّل في نجدتهم. واشتدّ الضغط عليه وأرسل هيراقليدس أخاه ثم عمّه يثودوتس معلنين عجز المدينة عن المقاومة وأن هيراقليدس قد جُرح ومعظم المدينة بات إما خرائب أو لهباً. وكان ديون على مسافة ستين فرلنكاً من المدينة عندما وصلته هذه الأنباء المحزنة فشرح لجنوده الموقف واستنهضهم وطلب منهم أن يضربوا للرجولة مثلاً. فاستأنف الجنود السير، ولم يكن سيراً بل هرولةً وكانوا وهم في طريقهم يلتقون بالرسل تلو الرسل وكلهم يحث على الاستعجال. وتمكن ديون بفضل حماسة الجنود العجيبة وسرعتهم المذهلة من بلوغ المدينة بسرعةٍ فدخل الهيكاتومپيدون Hecatompedon ودفع بالمشاة الخفيفة إلى هجوم فوريّ على العدوّ فارتفعت معنويات السيراقوسيين وأذكت في نفوسهم نار الشجاعة. وعمد ديون إلى رصّ جنوده الكاملي السلاح رصّاً محكماً ملحقاً بهم من تطوّع من السيراقوسيين. ونظم الكتائب على العمق، ووزّع ضباطه بقيادات منفصلة ليتمكن من الاشتباك على جبهات متعددة في وقت واحد وهي الخطة الفعالة المثلى لمواجهة العدوّ في هذا الموقف.

بعد أن أكمل استعداده وقدّم النذور للآلهة زحف على رأس رجاله للاشتباك مع العدوّ. ولما شوهد في الشوارع ارتفعت هتافات التشجيع والتهاني وقُدّمت النذور وراحوا ينادون ديون بالمنقذ والربّ الحارس، ويلقّبون جنوده بالأصدقاء والإخوة وأبناء الوطن. وكان يبدو أن الجنود لا يقيمون وزناً لسلامتهم قدر ما كانوا يهتمّون بسلامة ديون وهو يسير في مقدّمتهم مواجهاً الخطر يتخطى النيران ويطأ اكداساً من الجثث الملقاة في طريقه. في الواقع كان العدوّ في حالة تشيع الهلع في النفوس. فقد أسكرتهم خمرة النصر وجعلتهم في منتهى الشراسة وهم في مواقع جيدة متحصّنون على طول الجدار المتهدّم، مما جعل أمر الاشتباك بهم مجازفة. على أن ما أورث جنود ديون الانزعاج هو خوفهم من النيران المشبوبة التي جعلت سيرهم صعباً بطيئاً، لأن النار كانت تلتهم البيوت ولهيبها يواجههم من كل ناحية، وخطر سقوط المنازل عليهم مُحدِق بهم، وهم يشقّون طريقهم بين أكداس من الحطام المشتعل. وخلال سحب الدخان والرماد. وحاولوا جهدهم المحافظة على نظام تقدمهم وتراصّ صفوفهم. حتى إذا بلغوا مواقع العدوّ كان ميدان التعرّض ضيّقاً جداً، والأرض غير مستوية. لا تسمح إلاّ بالاشتباك على نطاق ضيّق محدود. ولم يطل الأمر بهم حتى

كرّوا عليهم بهتاف التشجيع ومساندة السيراقوسيين وهزموهم. ونجا معظم من كان قريباً من مداخل القلعة، أما الفئات البعيدة فقد لوحقت وتمّ التقاط أفرادها من مختلف الجهات، ووُضِع السيف في رقابهم. ولم تكن الحال تسمح للمواطنين بإبداء السرور والاحتفال بالنصر وتبادل التهاني فقد انشغل الجميع بإخماد النيران واستنقاذ ما بقي قائماً من المنازل وظلوا يعملون طوال الليل ولم يسيطروا على النار إلاّ بشقّ الأنفس.

في اليوم التالي لم يجرؤ أحدٌ من خطباء الجمهور على الظهور في المدينة فقد أدركوا مغبّة عملهم وتبيّنوا جريمتهم بمجرّد هروبهم إنقاذاً لأرواحهم. على أن هيراقليدس وثيودوتس سلّما نفسيهما لديون مقرّين بأنهما أساءا إليه وراجيين أن يكون أرحم بهما مما كانا مُنصفين له. وقالا: كم سيكون جميلاً به وهو صاحب الفضل في كلّ هذه المآثر العظيمة أن يهدّئ من سورة غضبه، وأن يشمل بكرمه ناكرَيْ جميل يعترفان الآن أمامه بهزيمة عداوتهما ومنافستهما الماضية له أمام فضائله. وقد نصحه أصدقاؤه - رغم الخضوع الذي أبدياه - بألاّ يعفو عنهما وأن يسلّمهما إلى جنوده لقتلهما، وبذلك يقتلع من أرض الجمهورية نبتة حبّ الظهور الشخصي باطّلاب الشعبية وهو مرض يساوي بخبثه وحظورته نوازع الطغيان والاستبداد بالضبط. وأخذ ديون يهدئ من روعهما ويحاول كسب ودّهما فقال:

إن غيره من القادة تدرّبوا أكثر ما تدرّبوا على حمل السلاح وخوض غمار الحروب. أما هو فقد قضى جُلّ وقته يدرس في الأكاديمي كيفية التغلب على الغضب، والقضاء في ذاته على عاطفة الحسد وروح المنافسة. ولا يكفي المرء أن يحقق ذلك ليُعَدّ بَرّاً عطوفاً بأصدقائه، وبأولئك الذين يستحقون منه كل الخير. وإنما يجب عليه أن يكون رفيقاً مستعداً للصفح عن المخطئين الجانحين. وإنه ليرغب في أن يُشهِد عليه الملأ بأنه لايريد أن يظهر على هيراقليدس في مضمار الكفاءة وحُسن التصرّف، بل أن يستظهر عليه في مضمار الرحمة والعدل، فها هنا تكمن أفضلية التفوّق الحقيقي، في حين أن مجد النجاح في الحرب ليس ثابتاً ولا قطعياً. لأن الحظّ سيكون بلا شكّ طرف المنازعة فيه ولا يمكن لأي امرئ ادعاء حقٍ فيه. ماذا لو كان هيراقليدس غادراً خبيثاً حقيراً بطبعه؟ أفعليه أن يشين من مناقبه هو بالاهتمام بتلك الطباع؟ إن القوانين والمبادئ تقرّ بأن الأكثر عدلاً هو أن تنتصف لنفسك من أذى، لا أن تقترف الأذى. إلا أن الواضح أن كلا العملين يصدران بالأصل من العيب والنقصان نفسيهما. إن خباثة طبع البشر من عُسر علاجه، إلاّ أنه ليس من المناعة والاستحالة بمكان. إذ يمكن التغلب عليه بالعطف، ويمكن تبديله بالعفو والمنّة المتكررة.

بعد هذا الكلام المدعّم بالحجج عفا ديون عن هيراقليدس وثيودوتس وأخلى سبيلهما. ثم قرّر مهاجمة القلعة بعد إلقاء الحصار عليها. فأمر كل سيراقوسيّ بقطع وتدٍ مساهمة منه في إقامة الاستحكامات. وبعد هذا صرفهم لِيصيبوا ما هم في حاجة إليه من الراحة والاستجمام. وأبقى رجاله يعملون في إقامة الأُطم طول الليل. وعندما أصبح الصبح كان خطّ الأطم قد كمُل بناؤه. وأصيب الأهالي والعدوّ على حدّ سواء بالدهشة لإنجاز هذا العمل الكبير خلال وقت قصير. وبعد أن تمّ دفن الموتى، وافتداء ألفين من الأسرى تقريباً. دعا الجمعية العامة للانعقاد. وتقدّم هيراقليدس مقترحاً تعيين ديون قائداً عاماً مطلق الصلاحية براً وبحراً فاستحسن وجوه المواطنين وعقلاؤهم ذلك ودعوا الشعب إلى التصويت عليه. إلاّ أن الرعاع من البحّارة والشغّيلة لم يقبلوا تنازل هيراقليدس عن القيادة البحرية، معتقدين أنه أقرب من ديون شعوراً بالمواطنة، وأسرع إلى تفهّم رغبات الشعب رغم رداءته. فنزل ديون إلى حكمهم ووافق على استمرار هيراقليدس في قيادة الأسطول. وعندما بدأ الضغط بخصوص مشروع إعادة تقسيم الأراضي والمنازل لم يكتف ديون بمعارضة الأمر وإنما أبطل كلّ الإجراءات المتخذة في هذا الصدد، فجرح مشاعرهم وأدّى إلى أن يرتفع رصيد هيراقليدس عندهم، فشجّعه ذلك. وقام وهو في مسينا يخطب في الجنود والبحارة متهماً ديون بأنه يعمل ليجعل من نفسه حاكماً مطلقاً. وكان في الوقت نفسه يفاوض ديونيسيوس سرّاً بوساطة فاراكس Pharax السپارطي. وعندما أحسّ الأشراف في سيراقوسة بما يجري كان الجيش قد أعلن التمرّد. وأخذت المدينة تعاني ضيقاً شديداً وشحّت الأقوات فيها. ولم يعد ديون يتبيّن السبيلَ الصحيحة التي يسلكها، إذ كان موضع لوم أصدقائه لأنه مكّن منه رجلاً فاسداً شريراً كثير الحسد هو هيراقليدس.

كان فاراكس حينذاك قد عسكر بالقرب من نياپوليس Neapolis في أراضي أغرغنتوم Agrigentum فزحف على ديون بجنوده السيراقوسيين. على أنه لم يكن ينوي الاشتباك معه حتى تؤاتيه الفرصة المناسبة. إلاّ أن هيراقليدس وبحارته راحوا يندّدون بموقفه ويشيعون بأنه يؤخّر القتال ليطيل من فترة قيادته. فلم يجد بدّاً من القتال فغُلب ولكن خسارته لم تبلغ الشيء الكثير. وجمع رجاله وهو ينوي خوض معركة ثانية ورصّهم في نظام محكم وحثّهم على استعادة سُمعتهم في المعركة التالية. وقبل أن يتعرّض للعدو ورده نبأ يقول أن هيراقليدس يتوجّه بأسطوله إلى سيراقوسة قاصداً احتلالها، ومنع جيشه من الدخول إليها. فاختار جماعة من رجاله النشطين وركب ليلاً متوجّهاً إلى المدينة بأسرع ما أمكنه. وفي حدود الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي

كان عند أبوابها وقد قطع سبعمائة فرلنگاً في تلك الليلة، وبذلك سبق هيراقليدس الذي حاول الوصول قبله لكنه جاء متأخراً. ولما علم بوجود ديون غيّر اتجاه سفنه وبقي في عُرض البحر لا يأتي بعملٍ وهو حائر ماذا يصنع إلى أن قيّضت له الأقدار غيسيلوس Gaesylus السپارطي. فقد أخبره هذا أنه قدِم من لقيديمون لتوجيه الصقليين وقيادتهم، كما فعل غيليپوس Gylippus من قبل. فكان سرور هيراقليدس بلقياه عظيماً. وأمسكه وتشبّث به كأنه تعويذة، وأظهره لحلفاء سيراقوسة، وبعث بمنادٍ إلى المدينة يدعوهم إلى قبول هذا السپارطي جنرالاً لهم. فكان ردّ ديون أن لديهم من القادة ما يكفي. وإن كانوا هم بحاجة إلى سپارطي يقودهم فبإمكان ديون أن يسدّها لأنه مواطن سپارطي هو أيضاً. وعندما تبيّن لغيسيلوس هذا الأمر نزل عن ادعائه وأبحر إلى ديون وأجرى صلحاً بينه وبين هيراقليدس بعد أن أقسم هذا بأغلظ الأيمان على الإخلاص والولاء وتنفيذ كل ما يعهد إليه من واجبات. وتعهّد غيسيلوس بأن يضمن سلوكه إزاء ديون وأن ينفّذ به أيّ حكم إذا حنث بيمينه.

وبعد هذا وجد السيراقوسيون أن لا فائدة من الأسطول وأنه يكلّفهم أعباء مالية جسيمة، فعطّلوه عن العمل، وتخلّصوا بذلك من أهمّ أسباب الخلاف والنزاع بين القواد، وألقوا بثقلهم في الحصار، فأكملوا بناء الأطم. وبذلك عزلوا القلعة وأخذوا يضيّقون عليها الخناق.

ولما وجد المحصورون أن أملهم بالنجدة يكاد يكون مستحيلاً وأن أقواتهم شحت وبدأ الجوع ينشب فيهم أظفاره، أعلنوا تمرّدهم وشقّوا عصا الطاعة على ابن ديونيسيوس الذي ظلّ صامداً فترة تزيد على فترة صمود أبيه، فاضطر إلى مفاوضة ديون حول تسليم القلعة بكل حاميتها ومستودعاتها ثم أوسق خمس سفنٍ وأصعد إليها أمّه وأخواته للالتحاق بأبيه. واتخذ ديون التدابير ليقلع عنها بسلام. ولم يبق أحد من أهل المدينة الا وخرج لمشاهدة السفن وهي تغادر القلعة. وكانت نغصة في قلوب أولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم بمشاهدة المنظر في ذلك اليوم السعيد الذي أشرقت فيه الشمس على سيراقوسة الحُرّة لأول مرّة. يُذكَر تاريخ طرد ديونيسيوس إلى يومنا هذا بوصفه أعظم وأروع مثل لتصاريف الحظّ. وليس لنا إلاّ أن نتخيّل البهجة التي عمّت أولئك الذين أسقطوا أعتى المستبدّين وأعظمهم جبروتاً سقوطاً لا قائمة بعده بوسائل محدودة وقوة ضعيفة تكاد لا تُذكر.

بعد أن أقلع أپلّلوقراطس توجّه ديون لوضع يده على القلعة. ولم تستطع النسوة الباقيات فيها الصبر بل أسرعن لاستقباله عند المدخل. وكانت أرسطوماخه تمسك بيد

ابنه، وآرتيه تتبعها باكيةً وجِلةً لا تدري كيف تقابل زوجها وتكلّمه، بعد أن ساكنت رجلاً آخر مساكنة الأزواج. وعانق ديون أخته أولاً، ثم ابنه، وعندما قادت أرسطوماخه زوجه إليه ابتدرته قائلة:

- إن إبعادك يا أخي ديون أشقانا كلّنا. وعودتك ونصرك هذا أزالا كلّ أحزاننا. إلاّ أحزان هذه البائسة المسكينة، أحزان اضطررت أن أحمل مثلها أنا التاعسة وإن كنت حية. إن الحظ ألقانا في حماك أنت وحدك. فما هو قرارك في أمر شقائها؟ بأي شكل ستحيّيك؟ كخالٍ لها ام كزوج؟

فأبكته بكلماتها، وأقبل على زوجه يعانقها عناقاً حارّاً، وسلّم إليها ابنه وطلب منها أن تقوده إلى منزله الذي استمرّ على سكناه وكان فيه عند تسليمه القلعة للسيراقوسيين. لقد تمّ كل شيء وفق مَرامِه وتكلّلت مجهوداته بالنجاح، ولكنه لم يشأ أن يستمتع من حظّه المجيد بفائدة أو متعة، واكتفى بإرضاء أصدقائه ومكافأة حلفائه والإنعام على رفاق الأيام الخوالي في أثينا، وإرضاء الجنود الذين خدموه بالهبات والتكريم الخاصّ. وتعدّى حدود إمكاناته في البذل والعطاء، وقنع لنفسه بالزهيد من أسباب العيش، وآثر الاعتدال في حياته، وآض في الواقع محطّ إعجاب الناس جميعاً لا في صقلية وقرطاجنة وحدهما، بل في سائر بلاد الإغريق. وارتفع به المقام عندهم إلى الأوج وعدوّه أعظم رجال زمانه، وأشهر قائدٍ سواء لبسالته أو للنجاح الذي حققه. وبقي ديون مع هذا كله بسيط العيش كأنه ما زال يساكن أفلاطون في الأكاديمي وليس عائشاً بين ضباط مأجورين وجنود مرتزقة همُّهم الوحيد أن يأكلوا ويشربوا ملء بطونهم لقاء تعرّضهم للأخطار والموت، وأن يمتّعوا أنفسهم بالملذّات كل يوم تعويضاً عن كدحهم وأتعابهم. ولذلك كان طعامه عادياً، وحياته اليومية خالية من الأُبهة فلا حرس ثمّ ولا خدم. وكتب إليه أفلاطون يقول: «إن أعين العالمين كلّها شاخصة إليه». على أن عينه كانت في الواقع تشخص إلى موضع واحد في الدنيا. ألا وهو الأكاديمي منتظراً حكمها عليه. فمراقبوه وقضاته هناك لا يحفلون بالحظّ ولا يهتمّون بالشجاعة ولا تقدير عندهم للأعمال العظيمة، وكل ما يهتمّون به أن يرقبوا إلى أي حدّ يستطيع سلطانه استخدام الحكمة والاعتدال. وبأيّ مستوى يستطيع أن يحافظ عليهما وهو يتمتّع بالمجد والسؤدد؟

إنه والحق يقال لم يكبت ميله إلى العظمة، بل يتعمّدها عند حديثه أو مخاطبته الجمهور ويصرّ على التمسّك بهذا المظهر. في حين أن تنازلاً قليلاً ومجاملة رقيقة كانا من ضروريات حالته الراهنة. وقد عابه أفلاطون كما قلنا، وكتب إليه يقول «إن التشبُّث

بالرأي يُبقي الدار في وحدة موحشة». ومن نافلة القول إن مزاجه لم يكن باللّيّن المطواع. كما أنه كان يرمي من تشدّده هذا إلى الأخذ بيد السيراقوسيين نحو السبيل وإنقاذهم من حالة الفجور والتهتّك التي يعيشونها. وعاد هيراقليدس يتآمر ضدّه. استدعاه ديون ليكون واحداً من مستشاري الدولة، فرفض قائلاً إنه سيدلي برأيه كمواطن عادي في الجمعية العامة ولا يريد أكثر من هذا. ثم شكا من ديون أنه لم يهدم القلعة ولم يوافق على نبش الجمهور ضريح ديونيسيوس وإلقاء رفاته خارجاً بعد التشهير بها. ثم اتهمه بأنه طلب من كورنث مشاورين ومساعدين له على الإدارة، مهملاً أبناء وطنه ومحقّراً من شأنهم. والواقع هو أنه أرسل رسائل لبعض الكورنثيين يستقدمهم ليعاونوه على وضع دستور الدولة الذي كان ينوي إقراره. فقد أراد أن يقلّص من سلطة الشعب، ويقيّد الديمقراطية التي كانت تمارَس بدون حدودٍ، وهي كما وصفها أفلاطون «حكومة الساحة العامة». كما انتوى إقامة نظام حكم هو مزيج من النظامين الكريتي والسپارطي، أعني أنه يقف وسطاً بين النظام الجمهوري والنظام الملكيّ، فيه يتولى الحكم هيئة أرستوقراطية تشمل سلطتها كل الأمور الخطيرة. ووجد أن الحكم الكورنثي بالأصل يتألّف من هيئة عليا تشبه الأوليغارشية، وأن عامة الشعب قليلة الاهتمام بالسياسة وأمور الحكم. وكان يدرك أن هيراقليدس سيكون أقوى خصومه معارضة له في هذا فضلاً عن كونه دسّاساً مشاغباً مُفرّقاً للصفوف. لذلك أفسح المجال لأولئك الذين سبق له أن منعهم من قتله، فاقتحموا عليه بيته وقتلوه. وأثار مقتله سخطاً وحنقاً عظيمين عند الناس كافة. ولما أقام له ديون تشييعاً مهيباً وسار خلف نعشه كل جنوده وخطب فيهم بعد ذلك أدركوا أنه ليكون من رابع المستحيلات أن تتمتّع المدينة بالاستقرار أو أن تتّسع لوجود ديون وهيراقليدس يتنافسان على الحكم.

كان لديون صديق أثيني يدعى كاللّيپوس Callipus قال أفلاطون عنه إنه كان على معرفة بسيطة به في مبدأ الأمر ثمّ توثقت أواصر الصداقة بينهما لا بسبب من علاقة بالدراسات الفلسفية، وإنما بمناسبة الاحتفال بعيد «الأسرار» وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية. هذا الرجل رافقه فيما بعد في كلّ حروبه وحظيَ لديه بمكانة ونفوذٍ كبيرين، وكان في مقدّمة من سار إلى جانبه عند دخوله سيراقوسة وعلى رأسه إكليل. وقد أبلى أحسن البلاء في المعارك وبرّز بشجاعته. هذا الرجل وجد أن خيرة أصدقاء ديون قد هلكوا في الحروب، وأن هيراقليدس طواه الردى. والشعب يحتاج إلى قائد، والجنود يكنّون له الحب. فبدأت الآمال العِراض تداعب مخيّلته، كأيّ وغدٍ شرّير همّه الغدر، في أن تكون له السلطة العليا في صقلية على حساب القضاء على صديقه

والمحسن إليه. لقد قيل أيضاً إنّ العدوّ رشاه بعشرين تالنتاً لقاء فتْكِه بديون. فأغرى عدداً من الجنود وضمّهم إلى مؤامرته. واستخدم الحيلة الشريرة التالية لإحكام خطته: اعتاد أن يخبر ديون يومياً بكلّ ما سمع، أو كل ما لفّق عن لسان الجنود من أقوال ضدّه. فنال ثقته العمياء واعتمد عليه كلّيةً، وسمح له أن يتكلم بحريّة ضدّه في كل المجلس لإيقاع خصومه في الشَّرَك والكشف عن العناصر الضارّة التي تُضمر له الشرّ. فاستعان كالليپوس بهذا على تأليف عصبة تضمّ كل الساخطين الثائرين في المدينة بوقت وجيز. وكلما انضمّ واحد إلى العصبة المتآمرة أسرع كالليپوس يقول له إنه سيخالطه ليحلّ عُقدة لسانه ويكشف عن سِرّه، فيطمئن ديون معتقداً بأن صديقه إنما يفعل ذلك لمصلحته وتنفيذاً لتعليماته.

وفيما كانت المؤامرة تنضج، رأى ديون رؤيا غريبة مخيفة. خيّل إليه أنه جالس ذات مساءٍ في جَوْسَق ببيته وحيداً مستغرقاً في أفكاره فسمع صوتاً مفاجئاً فالتفت فشاهد في نهاية صفّ الأعمدة وفي وضح النهار امرأةً فارعة الطول تشبه تانك الفيوري في التراجيديات بملامحها وزيّها - ورأى بيدها مِكنسة تكنس بها الارض - فانتابه ذهول وهلع شديدين. وأرسل يستدعي عدداً من أصدقائه، وقصّ عليهم حُلمه وناشدهم البقاء معه طول الليل لأنه كان في منتهى القلق والرعب، وهو يخشى أن يلوح له الشبح ثانيةً إن ظلّ وحيداً. إلاّ أن الرؤى لم تعاوده غير أنه فُجع بعد أيام قلائل بمصيبه أليمة. فقد ألقى ابنه الوحيد بنفسه من سطح الدار فهشمت رقبته، وكان شاباً يكاد يبلغ مبلغ الرجال، على إثر كدرٍ وغيظٍ بسبب مسألة تافهة.

وفيما كان ديون في غمرة الحزن، دفع كالليپوس بمؤامرته إلى حيّز التنفيذ، فعمد إلى نشر إشاعة بين السيراقوسيين مؤداها أن ديون اعتزم أن يستدعي ابن ديونيسيوس ليجعله وليَّ عهده وخليفته بعد موت ابنه الوحيد. وفي هذا الوقت بالذات تسرّب الشكّ في قلب ديون وأخته وزوجه من تصرّفات كالليپوس وبدأت المعلومات تردهم من كل صوب حول وجود المؤامرة. وكان ديون في تلك الآونة يعاني اضطراباً نفسياً شديداً، قد يكون مردّه تأنيب الضمير لقتل هيراقليدس وهو لا شك لطخة سوداء ووصمة عارٍ في حياته. وقد ركبه نوع من الملل والقنوط وصار يفضّل الموت ألف مرة على العيش في خوف دائم من أعدائه، بل في شكّ من أصدقائه. على أن كالليپوس انتبه لفضول المرأتين الشديد، ولتساؤلاتهما العديدة للنفاذ إلى أعماق المسألة، فجاءهما باكياً يُنكر التهمة بشدة وعرض عليهما أي دليل يقنعان به تأكيداً لإخلاصه فطلبتا منه أن يحلف «اليمين العظمى». وكانت تؤدّى على النحو التالي: يدخل المحلَّف إلى حرم هيكل

كيريس Ceres وپروسپرين Prosperine وبعد تأدية مراسم مخصوصة يرتدي ثوب الربّة الأرجواني ويمسك بيده مشعلاً موقداً ويؤدّي القسم. فنفّذ كالليپوس ما طلبا منه منكراً ما عُزي إليه. وكان في الواقع لا يقيم وزناً للآلهة، حتى أنه انتظر إلى أن حلّ عيد پروسپرين التي حلف في هيكلها ليجعل منه موعداً لارتكاب جريمة القتل. ولم تكن في الواقع ضرورة تدعوه للتشدد في اختيار اليوم، لأنه سيكون مجرماً في أي يومٍ من الأيام، بعد أن قام بمراسم كاهنها المكرّس ليسفك دم أحد عبادها.

وكان عدد المساهمين في المؤامرة كبيراً. وديون في داره يجالس عدداً من أصدقائه في قاعة انتشرت فيها موائد الطعام. فطوّق فريق من المؤتمرين الدار. وعمد فريق آخر إلى إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ، أما الفريق الذي وقع عليه تنفيذ جريمة القتل فكان من الزاكنيثيين، الذين ولجوا الدار دون معاطف ولا سيوف، فأغلق الذين هم في الخارج الباب وراءهم ووقفوا حرّاساً عليها. وانقضّ القتلة في الداخل على ديون يريدون كتم أنفاسه خنقاً، فلم يفلحوا فطلبوا من رفاقهم في الخارج سيفاً، ولكن لم يجرؤ أحدٌ على فتح الباب. وكان ثمّ عدد كبير من عشراء ديون في الغرفة إلاّ أن كل واحد منهم صار يهتم بنجاته، متوهّمين أن حياتهم ستكون بمأمنٍ إن هو فقد حياته. فلم يقدِم أحد على إغاثته وانتظر القتله ملياً، حتى قذف إليهم ليكون Lycon السيراقوسي بسيف قصير من النافذة فتلقّفه أحد الزاكنيثيين وذبحه مثل أضحية. فقد بقي طول هذا الوقت ينتفض بين أيديهم منتظراً الضربة القاتلة.

بعد هذا أودعت السجن كلٌّ من أخته وزوجه وكانت حاملاً. وفي السجن وضعت السيّدة التاعسة وليدها فقامتا على حضانته بموافقة الحرس، أو بالأحرى قبلوا ذلك لأن كالليپوس بدأ يتورّط بالمتاعب.

بعد أن قُتل ديون نبه صيت كالليپوس وأصبح الحاكم المطلق في سيراقوسة فكتب بذلك إلى أثينا، تلك المدينة التي تأتي مسؤوليتها في هذه الجريمة النكراء بعد مسؤولية الآلهة مباشرةً. والتي كان عليها أن تنظر إليه نظرة خوفٍ وعارٍ. ولقد أصاب كبد الحقيقة من قال عنها: إن ذوي الصلاح الذين تربّيهم ليس أصلح منهم، والأشرار الذين تقذفهم ليس أشرّ منهم. كذلك البلاد نفسها فهي تنتج ألذّ العسل وأفتك سُمّ من الشوكران.

وعلى أية حال لم يقطع كالليپوس شوطاً طويلاً في تحدّي الحظّ، ولا في تغاضي الآلهة عن عزّه ونعمائه كأنها تتستّر عليه وتحميه وهو الذي اشترى الثروة والسلطة

بارتكاب أشنع جريمة. فلم تمهله، وأنالته القِصاص الذي يستحقه. فقد خرج للاستيلاء على كاتانا Catana ففقد سيراقوسة. وذكروا أنه قال بهذه المناسبة:

- فقدت المدينة، وربحت دمية!

ثم هاجم مسّينا فهلك معظم رجاله ومن بينهم قتلة ديون. ولمّا امتنعت كلّ مدن صقلية عن إيوائه وكلّها تمقته وتنفر منه، توجّه إلى ريچيوم في إيطاليا. وضاقت به السبل هناك ولم يجد ما يُنفق على جنوده. ثم وثب عليه لپتينس Leptines وپوليسيرخون فقتلاه. وشاءت الأقدار أن يكون موته بالسيف الذي استُعمل في قتل ديون وقد عُرف بقِصَره، كالسيوف السپارطية، وبصنعته الغريبة الدقيقة. وهكذا استوفى كالليپوس جزاء غدره.

عند إطلاق سراح أرسطوماخه وآيته من السجن أخذهما هيكتيس Hicetes أحد أصدقاء ديون إلى منزله. ويبدو أنه ظلّ يُعنى بهما ويرعاهما كما يليق بالصديق المخلص إلى أن زيّن له أعداء ديون التخلّص منهما. فجهّز سفينة وزعم أنه يريد إرسالهما إلى الپلوپونيسس إلا أنه أمر البحارة بقتلهما وإلقائهما في البحر عند الابتعاد عن اليابسة. وروى آخرون أنهما أُلقيتا مع الوليد في البحر أحياءً. هذا الرجل لم ينجُ أيضاً من الجزاء العادل فقد قبض عليه تيموليون وقتله، وذبح السيراقوسيون بنته انتقاماً لديون. وكل هذا أسهبت في سرده في سيرة تيموليون.

ماركوس بروتوس
BRUTUS
(Marcus Junius)

٨٥–٤٢ ق.م



ماركوس بروتوس - المتحف الكابيتوليني

انحدر ماركوس بروتوس من صُلب يونيوس بروتوس الذي أقام له الرومان الأقدمون تمثالاً برونزياً في الكاپيتول ووضعوه بين تماثيل ملوكهم، يُرى وهو قابضٌ على سيفٍ مسلول تخليداً لبسالته وثبات عزمه في طرد آل تاركوين والقضاء على النظام الملكي. إلاّ أن بروتوس الأول هذا كان ذا طبع صارم كأنه قُدّ من الحديد لا يلين كالسيف الفولاذي. والرجل صلب بطبعه لم تهذّبه الدراسة والثقافة حتى أن حنقه على الطغاة بلغ به حدّاً أن قتل ولديه لأنهما تآمرا معهم. إلاّ أن بروتوس الذي نسرد سيرته الآن اعتنى كثيراً بتهذيب غرائزه الطبيعية عن طريق الثقافة والضبط العقلي الذي تعطيه الفلسفة، كما أنه أجهد نفسه في تنشيط أهدأ وأرزن جانبٍ من أخلاقه ودفعه إلى العمل. وكانت النتيجة أن مزاجه أصبح متوافقاً تماماً مع حياة الفضيلة التي عاشها. ولذلك نجد حتى أولئك الذي حقدوا عليه بسبب مشاركته في المؤامرة ضد يوليوس قيصر كانوا على استعداد ليعزوا الفضل لبروتوس في كل جانبٍ طيّب منها، في حين حمّلوا كاسيوس صديقه العزيز وقريبه كل قبيح فيها، ولم يكن كاسيوس بالذي تنقصه الفضيلة ولا بذلك الذي يفتقر إلى الخلق القويم.

وأمّه سرڤيليا تنحدر من صلب سرڤيلوس أهالا Servilius Ahala وهو الرجل الذي تصدّى لسپوريوس مايليوس Spurius Maelius[١] عندما كان يحاول كسب مساندة الشعب ليجعل من نفسه طاغية. فوضع خنجراً تحت إبطه وذهب إلى الفوروم، وقصد مايليوس متظاهراً بالتحدث إليه، وعندما كان الرجل يميل برأسه إليه ليصغي إلى ما يقول انتهز فرصته وطعنه طعنةً قاتلة. هذا هو المتفق عليه عموماً حول أسلافه من جهة الأمّ. وأما عن أسرة أبيه فالناس الذين يحملون له أشدّ الكره وسوء النيّة بسبب قتل قيصر ينفون أية صلة نسب له مع بروتوس الذي طرد التاركوينيين لأنه بقي دون عقبٍ

---

(١) كان سپوريوس مايليوس تاجر قمح غنياً. نظم مؤامرة انقلابية للإطاحة بالحكم الروماني في العام ٤٣٩ ق.م. انظر ليڤي ١٧:١٣.

بعد قتله ابنيه. فهو بالنسبة إليهم انحدر من رجل عاميّ هو ابن وكيل بهذا الاسم ولم ترتفع مكانته في الوظائف العامّة إلاّ في زمان متأخّر. على أن پوسيدونيوس الفيلسوف يزعُم أن الابنين الشابّين ليونيوس بروتوس أُعدِما الحياة، كما ورد في التاريخ حقاً، إلاّ أن ثمّ ابناً ثالثاً كان في حينه صبياً فعاش، ومنه نشأ النسل الذي انحدر منه [ماركوس بروتوس]، وزاد على هذا قوله بأنه وجد عدد من مشاهير الرجال من هذه الأسرة، كانوا احياء في زمانه، وبعضهم ذوو ملامح تشبه ملامح تمثال يونيوس بروتوس شبهاً لافتاً للنظر. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع.

كانت سرڤيليا أمّه أختاً لكاتو الفيلسوف. وهو الرجل الذي لم يُعجَب بروتوس بأحدٍ قط من الرومان قدر ما أُعجِب به، وقد تزوّج فيما بعد ببنته پورشيا. لم يبق في الواقع فيلسوف من فلاسفة اليونان إلاّ وعرفه أو قرأ له. إلاّ أن أكثر ما اجتذبه هو كتابات تلاميذ أفلاطون، ولم يهتمّ اهتماماً كبيراً بنظريات الأكاديمي الوسيطة والحديثة[٢] كما أطلق عليهما، بل ركّز دراسته على القديمة. ولذلك كان دائم الإعجاب بأنطيوخس العسقلاني الذي جعل من أخيه أرسطون عشيراً وخِلاً وضمّه إلى أهل بيته ليلازمه دائماً. وهذا رجل أقلّ مواهب في العلوم من كثير من الفلاسفة. إلاّ أن متانة خلقه، وطيب معشره، فاقا معظمهم وسادة أخيارهم. وأمّا عن إمپيلوس Empylus الذي نوّه بروتوس وأصدقاؤه باسمه في رسائلهم بوصفه أحد ضيوفه فقد كان من البلغاء. كتب بحثاً قصيراً جيّد السبك عن مصرع قيصر عنوانه «بروتوس».

وأتقن بروتوس اللاتينية كخطيب وكمحام مترافع لكنه كان يعبرّ عن نفسه باليونانية بالأسلوب المختصر الواقعي، أو البلاغة الموجزة المعجزة. أو ما يطلق عليه بالأسلوب اللاقوني في الحديث، وهو يعرض أمثلة مدهشة من ذلك في رسائله. فمثلاً عندما خرج للحرب ضد أنطوني وأوكتاڤيوس كتب لأهالي برغاموم ما يلي:

«سمعت أنكم دفعتم مالاً لدولابللا؛ إن فعلتم ذلك طواعيةً فعليكم الإقرار بأنكم أخطأتم بحقي. ولكن إن دفعتم مرغمين فبإمكانكم البرهنة على ذلك بالدفع لي طواعية».

---

(٢) أسّس أفلاطون الأكاديمي الأولى. أما الوسيطة فقد أنشأها أرخيسلاوس Archesileus في أواسط القرن الثالث ق.م. وأشهر فلاسفة الأكاديمي الحديثة (وتُسمّى الأفلاطونية الحديثة) هما كليتوماخوس وكارنيادس Carneades اللذان عاشا في القرن الثاني ق.م. (انظر سيرة كاتو أيضاً).

وفي مناسبة أخرى كتب لأهل ساموس:

«مقترحاتكم غامضة. مساعداتكم لا وجود لها، فماذا تعتقدون أن تكون نهاية ذلك؟».

وفي رسالة أخرى كتب يقول:

«إن الكزانثيين Xanthians جعلوا بلادهم قبرهم لرفضهم عطفي. ولثقة الپاتاريان Patareans بي استمتعوا بحرية كاملة في إدارة شؤونهم. ولديكم الفرصة للاختيار بين حكمة الپاتاريان ومصير الكزانثيين». ذلكم هو الأسلوب الذي جعل رسائله خالدة.

صحب بروتوس خاله كاتو في مطلع شبابه عندما أُرسل هذا في حملة ضد بطليموس. فبعد أن بخع هذا الملك نفسه أرسل كاتو الذي أخّرته بعض الأمور في رودس أحد أصدقائه المدعوّ كانيديوس ليتوكّل في أمر أموال الملك(٣).

ولما كان ضعيف الثقة بأمانة كانيديوس فقد كتب لابن أخته يأمره بالإقلاع حالاً من پامفيليا Pamphilia إلى قبرص. وكان بروتوس قد قصد هذه المدينة ليقضي دور النقاهة من مرض شديدٍ أصيب به. فانطلق بروتوس إلى قبرص امتثالاً لأمر خاله بكثير من التردّد، احتراماً منه لكانيديوس الذي رأى أنه موضع شكٍّ ظالم. واعتقاداً منه أن هذه المهمة الصغيرة الشأن هي من حيث المبدأ أصغر جداً وأحقر من أن تُناط بشابٍ مثله، أوقف نفسه على التتبّعات العقلية والمسائل الفكرية. ومع ذلك فقد تولّى المهمة بجدارة ونجح فيها إلى الحدّ الذي استأهل به ثناء خاله العظيم، وبعد أن حوّل كل أموال الملك إلى نقدٍ، نقل كلّ ما جمع بحراً إلى روما معه.

عندما انشعبت الدولة الرومانية إلى حزبين، ونشبت الحرب بين پومپي وقيصر، وعمّت الفوضى الإمبراطورية كلّها، كان المتوقع على العموم أن بروتوس سينحاز إلى جانب قيصر، ولاسيما أن أباه أُعدِم الحياة بأمرٍ من پومپي قبل عدة سنوات(٤). إلاّ أن بروتوس وضع المصلحة العامة فوق الولاء الخاصّ. ولما كان مقتنعاً بأن أسباب پومپي لخوض الحرب أكثر وجاهةً فقد انضمّ إلى حزبه. فعل ذلك مع أنه كان بالأمس القريب يأبى أن يبادل پومپي كلمة واحدة حين يلتقيان إذ كان يجد من العار أن يحادث قاتل

---

(٣) كان هذا في ٥٧ ق.م ولبروتوس من العمر ٢٨ سنة. وبطليموس هذا هو أخ بطليموس أوليتس Auletes ابن كليوپاترا، وكان إذ ذاك ملك قبرص.

(٤) في ٧٧ ق.م كان والد بروتوس من أنصار ماريوس. فغدر به پومپي وقتله بعد أن وافق على استسلامه.

أبيه. إلاّ أنه عَدّ پومپي في المرحلة الحالية قائداً لبلاده ولذلك وضع نفسه تحت تصرّفه وسافر إلى كيليكا مبعوثاً لسيستيوس Sestius الذي عُيّن حاكماً لهذا الإقليم، إلاّ أنه لم يجد فرصة ليقوم بعمل نابهٍ هناك. ولما كان كل من قيصر وپومپي يتخذان مواقعهما ويتهيئان لخوض المعركة الحاسمة التي سيقرّر فيها مصير الإمبراطورية رحل من تلقاء نفسه إلى مقدونيا ليساهم في مخاطر القضية التي آمن بها. وقيل إن پومپي أدركته دهشة عظيمة وسُرّ سروّر بالغاً لمقدمه حتى أنه نهض من مجلسه عند اقترابه وعانقه بمحضر من كل ضباطه كأن بروتوس رئيسه. وفي خلال هذه الحرب كان بروتوس يعكف على كتبه وتتبعاته الفلسفية عندما يترك مجلس پومپي، ليس خلال الأسابيع التي سبقت معركة فرساليا وحدها بل حتى في الليلة التي سبقت المعركة الكبرى[٥]. كان الموسم صيفاً والقيظ على أشدّه والمعسكر قريب من مستنقع، وقد أبطأ الخدم الذين جاؤوا بخيمته وهو يكاد يسقط إعياء لافتقاده الظِلّ. ومع أن النهار كاد ينتصف قبل أن يدهن جسمه ويتناول بُلغةً من الطعام فقد امضى الوقت حتى الليل وهو يكتب ملخّصاً عن پوليبيوس Polybius. في حين كان رفاقه إمّا مستسلمين للنوم أو يفكرون بالمستقبل بخوفٍ وهلع.

قيل إن قيصر كان شديد الاهتمام بسلامته. حتى أنه أصدر أمراً إلى قوّاده بألاّ يحاولوا قتله في المعركة، بل أن تسلم حياته، فإن استسلم فليؤسر، أما إذا أبدى مقاومة فليُفسح له مجال الهرب ولا يضايق. والاعتقاد السائد أن قيصر فعل كلّ ذلك إكراماً لخاطر أمّه، ويبدو أن قيصر كان على صلة غرامية بها أيام شبابه، وكانت هي مدلّهة بحبه. ولما كان بروتوس قد ولد في الفترة التي كان حبهما قد بلغ أوجه، فقد ظلّ الشكّ ينخر قلبه في أن بروتوس هو ابنه[٦]. وروى أنه لما بوشر في مجلس الشيوخ بمناقشة التدابير التي يجب اتخاذها لسحق مؤامرة كاتيلينه التي كادت تعصف بالجمهورية، احتدمت المناقشة بين كاتو وقيصر وكانا قد وقفا جنباً إلى جنب، وفي أثناء الجدال سُلّمت لقيصر رقعة جيء بها من الخارج فأخذها وقرأها. وهنا صاح كاتو إن قيصر يسلك سلوكاً شائناً بتسلّمه رسائل من أعداء الدولة، فأحدث قوله ضجّة كبيرة

---

(٥) في آب ٤٨ ق.م.

(٦) إن تواتر هذه الاسطورة فيه غرابة. ذلك لأن قيصر لم يتخط الخامسة عشرة عند ولادة بروتوس. ولكن لا يستبعد قطّ أن يكون قد علِق بحب سرفيليا في زمن مؤامرة كاتيلينه التي جرت وقائعها بعد اثنين وعشرين سنة.

بين أعضاء المجلس. وعندها دفع قيصر بالرقعة إلى كاتو لقراءتها، فوجدها رسالة غرام موجّهة إليه من أخته سرفيليا فقذف بها إليه وهو يقول:

- خذها أيها السكّير.

ثم عاد إلى المناقشة

كان غرام سرفيليا بقيصر حديث العام والخاص.

بعد أن غلب [پومپي] على أمره في فرساليا هرب بحراً. ولكن معسكره حوصر، غير أن بروتوس تمكن من الانسلال من الباب إلى المستنقع القريب الذي كان الماء والقصب يغمرانه. وبعد السُّرى طول الليل بلغ لاريسا سالماً، ومنها كتب إلى قيصر ففرح لسلامته وكتب إليه يطلب قدومه. ولم يكتف قيصر بالصفح عنه، وإنما بالغ في إكرامه وجعله ضمن دائرة أعزّ خلصائه. وفي تلك الأثناء كان النقاش يدور حول الجهة التي هرب إليها پومپي وكانت ثم آراء متضاربة كثيرة. فانفرد قيصر ببروتوس وخرجا في جولة قصيرة وسأله عن رأيه في الأمر. وقد استخلص من الآراء التي طرحها بروتوس أن فكرته هي الأقرب إلى الحقيقة، فنبذ جميع الآراء الأخرى وهرع نحو مصر. لكن پومپي وصل إلى مصر كما خمّن بروتوس، ولقي فيها حتفه قبل أن يدركه قيصر.

وفي تلك الأثناء نجح بروتوس في التخفيف من غضب قيصر على كاسيوس. كما أنه اضطلع بمهمة الدفاع عن ملك الليبيين. ومع أنّ كثرة التهم وثقلها كانت أعظم مما يمكنه إنقاذ موكله منها، فإن طلبه الرحمة له كان مقنعاً شديد التأثير بحيث استطاع أن يستخلص له جزءاً كبيراً من مملكته(٧). ويروى أن قيصر قال لأصدقائه بعد أن سمع بروتوس يخطب في الجمهور لأول مرة:

- لا أدري ماذا يريد هذا الشاب. إلاّ أن ما يريده يريده بشدّة وبصورة عنيفة جداً.

لاستقامة خُلقه، ولصعوبة إقناعه بالقيام بعمل لمجرد المنّة أو الفضل، ولكونه لايعمل إلاّ بوحي من ضميره وبعد التروّي والتحكيم العقلي، كانت مجهوداته قوية ومؤثرة في أية قضية يتناولها. ولم يكن أي قدر من التزلّف والمداهنة يقوى على حمله على تلبية طلب غير عادل. وهو يعتبر الإذعان للتوسطات الصفيقة التي يعتبرها بعض الناس طيبة قلب وحُسن نيّة من أشنع حالات الضعف البشري الذي يصيب الرجل

---

(٧) هذا الاضطراب قد يبدو إما تصحيفاً في النص أو خطأ من پلوتارخ نفسه. ففي ٤٧ ق.م دافع بروتوس في قضية ديوتاروس ملك الغلاطيين ولم ينجح.

العظيم. ويؤكد أن أولئك الذين لا يمكنهم رفض طلب سائل لا بدّ أنهم من الفاسدين في شبابهم.

عندما كان قيصر يتهيّأ لحملته على كاتو وسكيپيو في أفريقيا اختار بروتوس حاكماً لبلاد الغال الجنوبية. وكان ذلك لخير الإقليم العميم. ففي الوقت الذي كان سكان الأقاليم الأخرى يعانون الأمرّين من إرهاب وجشع حكامهم، ويكابدون من الضغط والاضطهاد ما يجعلهم في حكم العبيد أو أسرى الحرب، نفّس بروتوس عن كرب الغاليين وجعلهم مرتاحين لا من وضعهم الحاليّ، بل من مصائبهم السالفة. ولم يقنع بهذا وإنما جعل الأهالي يفكرون بمقدار الفضل العظيم الذي يدينون به لقيصر. حتى أن هذا الدكتاتور كان بادي السرور لرضا المدن عندما قام بجولة في إيطاليا برفقة بروتوس بعد عودته من حملة أفريقيا. لم يكن بروتوس يهمل شيئاً فيه رفعة لمكانته ومعاملته كصديق عزيز.

في هذا الزمان شغر عدد من المناصب البريتورية. وكان المتوقع أن الكرسي البريتوري الأرفع والأهم، وهو پريتورية العاصمة، سيناط إمّا ببروتوس أو بكاسيوس. وقيل حسب بعض الروايات إن هذا سبّب بعض الجفاء وزاد من حدّة خلاف سابق فيما بين الرجلين حول أمور أخرى، مع أنهما كانا مرتبطين بأوثق رابطة قرابة. فكاسيوس هو زوج يونيا إحدى شقيقات بروتوس. وهناك آخرون يقولون إن هذه المنافسة كانت من تدبير قيصر فقد وعد كلاً منهما على حدة بالمساعدة حتى وجدا نفسيهما - بهذا القدر من التشجيع الخفيّ المزدوج - ينافس بعضهما بعضاً. ولم يكن رصيد بروتوس يتعدّى سُمعته الطيبة واشتهارة بالاستقامة في أعماله، يضعها مقابل مآثر كاسيوس العديدة اللامعة أثناء حملة كراسوس على البارثيين. ومهما يكن من أمر فبعد أن أصغى قيصر إلى ادّعاءات الجانبين وبحث الأمر مع أصدقائه انتهى بالقول التالي:

- كاسيوس الأقوى حُججاً. ولكن علينا أن نقلّد بروتوس البريتورية الأولى.

وعُيّن كاسيوس لپريتورية أخرى إلاّ أنه كان حانقاً لخسارته پريتورية المدينة أكثر منه شاكراً للمنصب الذي ناله. وكانت هناك طرق أخرى شارك بروتوس فيها سلطة قيصر بقدر ما شاءت رغبته. ولو أنه اختار ممارستها فعلاً لكان أكبر الرجال نفوذاً من بين أنصار قيصر وأوسعهم سلطاناً إلاّ أن معاشرته لكاسيوس أبعدته عن قيصر. لم يتمّ الصلح شخصياً فيما بينهما بعد منافستهما. إلاّ أنه كان يعير أُذناً صاغية لأصدقائه الذين كانوا لا يكفّون عن تحذيره من الوقوع تحت سحر قيصر ويغدو ألعوبةً في يده، وإنما

عليه أن يرفض التكريم الذي يسبغه عليه الدكتاتور لأنه لايرمي به إلى مكافأة الفضيلة فيه، بل لإضعاف قوة غاياته، وتجريده من اعتزازه الروحي.

لم يكن قيصر من الجهة الأخرى على تمام الثقة به وكانت لديه شكوكه. والواقع أنه لم يكن يفتقر إلى من يخبر عنه ويتّهمه. ولكن عِظم ثقته في متانة خُلقه بقيت إلى جانب خوفه من سموّ روح الشاب، وسُمعته وأصدقائه. وعندما قيل له إن أنطوني ودولابللا يخططان لثورة، علّق قائلاً:

- ليس ممّن يخيفني هذان المرجلا الشعر البطينان، وإنما الشاحبان النحيفان الأعجفان.

يقصد بروتوس وكاسيوس. ومرة أخرى عندما راح مختلف الناس يتهمون بروتوس ويحثّون قيصر على مضاعفة الحذر، رفع يده ومسّ بها جسمه وقال متسائلاً:

- ماذا؟ ألا تفكرون بأن بروتوس لا يصبر على هذا اللحم المسكين لينهي أيّامه؟

يقصد القول إنه لا يجد أحداً أجدر من بروتوس ليكون خليفة له في سلطته العظيمة هذه.

وعلى أية حال كان ثمّ شبه إجماع بأن بروتوس يستطيع بسهولة أن يكون الرجل الأول في روما لو صبر على وقته. وقنِع بأن يظل نائباً لقيصر منتظراً أفول نجم سلطانه وتهافت ضياء مآثره. إلاّ أن كاسيوس بطبعه العنيف وبحقده على قيصر - الذي نجم عن عداءٍ شخصي يحمله له بالأحرى لا عن كرهٍ عام غير شخصي للطغيان - ألهب شعور بروتوس ودفع به إلى الأمام. قيل إن بروتوس كان خصماً للدكتاتورية وإن كاسيوس كان خصم دكتاتورٍ. ومن بين الأمور التي كان كاسيوس يأخذها على قيصر هو مسألة نقل الأسود التي حصل عليها كاسيوس عندما كان يهمّ بتولّي منصب الإيديل. تُركت هذه الأسود في ميغارا وعندما احتل كالينُس Calenus[(٨)] طلبها قيصر لنفسه وأخذها. وقيل إنها كانت سبباً في نكبة حلّت بالميغاريين. ففي الساعة التي كان الفاتح يقتحم المدينة كسر الميغاريون أقفاصها وفكوا السلاسل التي كانت تقيّدها، مؤمّلين أنها ستهاجم العدوّ عند دخوله، إلاّ أن الوحوش استدارت على الميغاريين العُزّل وعملت فيهم تمزيقاً وهم يهرولون مرتعبين، وكان منظراً مؤلماً حتى للأعداء الفاتحين. كان هذا - على ما يقال - سبب حقد كاسيوس والدافع الأساس لحبك المؤامرة. إلاّ أن التسليم بهذا هو افتئات على الوقائع. كان كاسيوس منذ نعومة أظفاره

(٨) أحد ضباط قيصر الذي أنيط به أمر جنود اليونان أثناء ما كان قيصر ينازل پومپي في ٤٨ ق.م.

مطبوعاً بحقدٍ غريب على كلّ الطغاة الذين يريدون استعباد أبناء وطنهم. لقد كشف عن هذا عندما كان صبيّاً يغشى المدرسة التي يتعلم فيها فاوستوس ابن سيلّلا. وعندما بدأ هذا الابن يفرض نفسه على الطلاب ويتباهى بسلطان أبيه المطلق وثب عليه كاسيوس وأشبعه ضرباً. وأراد وصيّ فاوستوس وأهله أن يرفعوا الأمر إلى القضاء، إلاّ أن پومپي لم يسمح بذلك واستدعى الصبيّين واستجوبهما عمّا حصل. وتمضي الرواية فتقول إن كاسيوس قال:

- هيّا يا فاوستوس؛ ان تجرّأت فردّد الكلام الذي قُلته على مسامع پومپي فأثار غضبي وسأهشم أسنانك ثانيةً.

كذا كان طبع كاسيوس. أما في قضية بروتوس فلم يكن اندفاعه ناجماً عن مجرّد إغراء أصدقائه الشخصيين ومجادلتهم، بل سلسلة طويلة من الإيماءات، والرجاءات، والرسائل المنفعلة التي كانت تحثّه وتدفعه، فمثلاً وجدت كتابة على تمثال جدّه الأعلى يونيوس بروتوس الذي قضى على نظام الملكية:

«آه لو كنت معنا اليوم!»

«. . . لو كان هذا البروتوس حيّاً!»

وبدأت الرسائل تغطي مقعد بروتوس الپريتوري الذي يجلس عليه يوماً بعد يومٍ بالكتابات فوقه،

«بروتوس أنت تغطّ في نومك»

«أنت لست بروتوس حقيقياً».

كثير من هذه الاستنجازات النابعة عن الشعور العام كان سببها أعمال متملّقي قيصر والغارقين في نعمائه، الذين خرجوا عن كل الحدود في تكريمه وتعظيمه، فمن بين ضروب التشويق المقرف الذي اخترعوه له أنهم راحوا يضعون تيجاناً على هامات تماثيله ليلاً، مؤمّلين أن يقرّوا الشعب بمناداته ملكاً بدلاً من دكتاتور. إلاّ أن هذه المجهودات جاءت بثمار معكوسة تماماً كما أتيت إلى شرحه في حياة يوليوس قيصر.

وعندما أخذ كاسيوس يستمزج آراء أصحابه لتنظيم مؤامرة ضدّ قيصر وافق الجميع شريطة أن يكون بروتوس زعيماً لهم. فهم يرون أن العدد، أو الجرأة، أو العزم الثابت، ليست بالشروط الكافية. وما تحتاج إليه المؤامرة بالدرجة الأولى هو سُمعة رجل كبروتوس، فوجوده سيكرّس الضحيّة كما يقول المثل ويؤكد عداله التضحية بمجرد مشاركته. فبدونه سيقدمون على القتل بإيمان أقلّ، وسوف يثير المزيد من الشك في نيّاتهم بعد ذلك، لأن الناس سيقولون: لو كانت مقاصدهم نبيلة لما رفض بروتوس

المشاركة فيها. ووجد كاسيوس هذه الحجج معقولة، فقصد بروتوس بزيارةٍ أولى بعد قطيعتهما التي أتيت إلى ذكرها. ثم بعد أن تصافيا وتبادلا تحيات الودّ سأل بروتوس هل قرر حضور جلسة الشيوخ التي تقرّر موعدها في عيد أول آذار لأنه سمع بأن أنصار قيصر سوف يقدّمون اقتراحاً في تلك الجلسة للمناداة به ملكاً. وعندما أجاب بروتوس بأنه لن يحضر، واصل كاسيوس كلامه قائلاً:

- ماذا سنفعل إذن لو أرسلوا بطلبنا؟

فأجاب [بروتوس]:

- لو حصل هذا فسيكون من واجبي أن أدافع عن بلادي وأموت في سبيل حريتها ولا أبقى ساكتاً.

فشجعه هذا الكلام وسأله:

- ولكن أتظنّ أنه يوجد روماني واحدٌ يدعك تضحّي بحياتك على هذه الشاكلة؟ أما تعرف شيئاً عن نفسك أي بروتوس؟ أو تظنّ أن كل تلك الضراعات التي تجدها فوق مقعدك البريتوري هُراء كتبه النسّاجون والبقّالون، لا أرفع رجال روما مقاماً؟ إنهم يتطلبون من البريتورين الآخرين تسليات عامة ومهرجانات وحفلات مصارعة إلاّ أنهم يتطلعون إليك لتنقذهم من الاستبداد. إنهم ليطلبون ذلك منك كدين في عنقك لأجدادك وهم مستعدون لمعاناة كلّ شيء في سبيلك لو ظهرتَ لهم ذلك الرجل الذي يظنّونه ويتوقّعونه.

وختم كلامه بمعانقة بروتوس وتقبيله. وبعد أن تمّ الصلح بينهما قصد كل منهما أصدقاءه للمداولة في الأمر.

كان ثمّ رجل يدعى غايوس ليغاريوس Gaius Ligarius وُشِيَ به لقيصر بوصفه أحد أنصار پومپي فعفا عنه منذ زمن قريب. لم يشعر هذا الرجل بأيّ امتنان لهذا العمل الرحيم وكان ممتلئاً حقداً على تلك القوة التي عرّضت حياته للخطر. فكره قيصر وكان واحداً من أقرب أصدقاء بروتوس. ومرة قصده في زيارة فوجده مريضاً، فقال:

- أي ليغاريوس، إنك لم تختر الوقت المناسب لملازمة فراشك.

ما إن فهم ليغاريوس عبارته حتى أنهض جسمه مستنداً إلى مرفقه وشدّ على يد بروتوس وأجاب:

- كلا يا بروتوس؛ إن احتجت إليّ في اية قضيّة جديرة بك فأنا معافى.

ومنذ ذلك الحين أخذ بروتوس وكاسيوس يجسّان نبض عددٍ من رجال روما

البارزين الذين يثقان بهم. ولم يقتصرا على دائرة أصدقائهما بل اتصلا بكل من توسّما فيه روح المغامرة والإقدام والاستهانة بالموت. ولهذا السبب لم يكاشفا شيشرون بسرّهما وإن كانا يثقان به ويعرفان مدى حبّه لهما. إلاّ أنهما خافا من جُبنه الطبيعي الذي يمازجه الحذر المتأتّي من تصاريف الزمن والشيخوخة، وحرصه على استئصال أقلّ عنصرٍ من عناصر المجازفة في أي مخطط، مما يثلم من حِدّة عزمهما في ساعة تكون السرعة عاملاً جوهرياً. ومن بين أصدقاء بروتوس الآخرين الذين تخطّاهم ستاتيليوس Statilius الأبيقوري وفافونيوس أحد المعجبين بكاتو. والسبب في ذلك انّه جسّ نبضهما قبل فترة قصيرة بطريقه التعميم الفلسفية أثناء مناقشةٍ. وقد أجاب فافونيوس أن الحرب الأهليّة هي شرّ من الملكية المستبدّة. وكان رأي ستاتيليوس أن جرّ المتاعب للنفس وتعريضها للأخطار في سبيل الحمقى والأشرار والنكرات لا تجمُل برجل يملك أقلّ قدر من الفطنة والحصافة. على أن لابيو Labeo الذي كان حاضراً سفّه هذين الرأيين. أما بروتوس فقد ظلّ ساكتاً طول الحوار، معتذراً بأنها مسألة معقدة ويصعب إعطاء رأي جازم فيها، إلاّ أنه أنهى بالأمر إلى لابيو فيما بعد فوجده متحمّساً ووافق على الانضمام إلى المؤامرة. وبعد هذا قرر أيضاً إشراك بروتوس الآخر، الذي يدعى ألبينوس Albinus. ولم يكن يمتاز بسُمعة عظيمة من ناحية الجرأة أو الاضطلاع بالمهمام الخطيرة. إلاّ أنه كان مهمّاً للمتآمرين بسبب العدد الكبير الذي كان يدرّبه من المصارعين في ذلك الوقت للحفلات العامة، ولأنه كذلك موضع ثقة قيصر. وعندما قام كاسيوس ولابيو بجسّ نبضه رفض أن يقطع عهداً في الحال إلاّ أنه قابل بروتوس على انفراد وما إن اتضح له أنه زعيم المؤامرة حتى أعلن انضمامه. وتم اجتذاب معظم البقية بسمعة بروتوس وكلهم كانوا من علية القوم ووجوهم. ومع أن المتآمرين لم يؤدّوا قسماً ولم يتبادلوا عهداً مقدساً لضمان الولاء المتبادل فقد نجحوا في إبقاء السرّ مكتوماً نجاحاً لم يصدّق معه أحد بوجود مؤامرة مع ظهور كثير من الخوارق والإنذارات السماوية التي أخذت صورة نبوءات وآيات، وإشارات نحسٍ في القرابين.

وبلغ بروتوس مرحلة شعر معها أن سلامة كثير من كبار الرومان أصلاً وعراقةً ومكانة وخلقاً تتوقف على سلوكه، ولما كان يدرك جيداً الأخطار التي ينطوي عليه ذلك، حاول أقصى جهده أن يبقي خططه مدفونةً في صدره وأن يراقب أفكاره. إلاّ أنه ينقلب في بيته ولاسيما ليلاً غيرَ الرجل الذي كان في الخارج. فأحياناً كانت أعاصير فكره تفزعه من نومه فيصحو مرعوباً. وفي أحيان أخرى عندما يكون غارقاً في هواجسه وحساباته واجماً أمام الصعوبات التي تكتنفه اتضح لامرأته وهي مضطجعة معه في

الفراش أن قلقاً غير عادي يخيّم على عقله ويضغطه ضغطاً شديداً، وأنه يقلّب في رأسه مشروعاً عسيراً معقّداً.

ذكرتُ سابقاً أن بورشيا هي إحدى بنات كاتو. وقد تزوّجها ابن عمّتها بروتوس وهي صغيرة جداً، مع أنها كانت ثيّباً، بعد موت زوجها الأول بيبولوس[٩] الذي أنجبت منه صبياً. وثمّ كُتيّب اسمه «مذكرات بروتوس» كتبه هذا الفتى وهو متوفّر الآن.

كانت بورشيا شديدة الحبّ لزوجها. ولم تكن ذات خلق عاطفي فحسب وإنما كانت تجمع إلى حيويتها عقلاً راجحاً ونباهة. فلم تلحّ على معرفة السِرّ من زوجها حتى أخضعت نفسها للتجربة الآتية: صرفت خادماتها من غرفتها وأخذت مِديةً صغيرة مما يستخدمه الحلاقون لتقليم الأظافر وأحدثت في فخذها جرحاً عميقاً، وفقدت مقدار كبيراً من دمها وبعد ذلك شعرت بآلام شديدة واعترتها رجفة وحُمّى عالية. وعندما كان الألم يبرّح بها والاضطراب الشديد علم بروتوس بحالتها، فقالت له:

- بروتوس، أنا بنت كاتو، ولم يزوّجوني بك لأقاسمك السكنى والفراش كمحظية لا غير، بل لأكون شريكة حقيقية في أفراحك وأتراحك. ليس لديّ ما ألومك عليه ولكن أيّ برهان تريد مني على حبّي لك إن أنت تأبى عليّ مشاطرتك في ذلك النوع من المحن الذي يستدعي رفيقاً أميناً تعتمد عليه، وتبقي آلامك ومعاناتك لنفسك وحدها؟ أنا أعلم جيداً أن المرأة أضعف من أن تُستأمن على أسرارٍ. ولكن من المؤكد يا بروتوس أن لنبل الأصل والثقافة وصحبة العلماء وأفاضل الناس بعض الأثر في تكوين أخلاقنا. ومن حقي أن أفخر بكوني بنت كاتو وزوج بروتوس. لم أكن أعلم قبلاً كيف تغني إحدى هاتين النعمتين. إلاّ أني الآن وضعت نفسي في التجربة فوجدت أني قادرة على قهر الألم.

ثم كشفت له عن الجرح الذي أحدثته في ساقها وقصّت عليه الحكاية وشرحت له التجربة التي أقدمت عليها لمعرفة مدى قابليتها على الاحتمال. فعرته الدهشة ورفع يديه إلى السماء شاكراً وداعياً الآلهة لمساعدته في ما هو مقدم عليه ليبرهن أنه زوج جديرٌ بمثل هذه المرأة. ثم اهتم كثيراً بصحة زوجه حتى تماثلت للشفاء.

وأُعلن عن افتتاح جلسة للشيوخ كان يتوقع من قيصر أن يحضرها. واتفق المؤتمرون أن يهتبلوا هذه الفرصة وأن هذه المناسبة ستساعدهم على تعبئة قوّتهم كاملةً دون إثارة الشبهات. وفضلاً عن ذلك سيكون كل شخصيات روما وأشرافها مجتمعين

---

(٩) زوجها الأول هو ماركوس كالورنيوس بيبولوس، كان قنصلاً مع قيصر في ٥٩ ق.م.

في صعيد واحدٍ، وهم يأملون أن هؤلاء سيقبلون حالاً بعد أن يقضى الأمر إلى تبنّي قضية الحرية. أضف إلى هذا أن الموضع الذي اختير للجلسة بدا وكأن العناية الإلهية قد اختارته لإتمام القصد. لقد كان رواقاً ترتفع فيه الأعمدة عن تلك الأروقة المفتوحة الجوانب التي تلاصق الملعب وفيه رحبة واسعة أقيم عليها تمثال لپومپي أيام حكومة الجمهورية على نفقة الدولة. وعندما زيّن هذا القائد ذلك الحيّ من المدينة بالأروقة وبالملعب(١٠) إضافةً إلى هذه البناية دعي المجلس إلى الاجتماع في منتصف آذار(١١) (والرومان يطلقون عليه «عيد مارس»، وكان يبدو وكأن العناية الإلهية تقود قيصر إلى الموضع ليلقى عقابه على موت پومپي).

ما إن انبلج الصباح حتى خرج بروتوس ومعه خنجر لا تعلم به غير زوجه. واجتمع بقية المؤتمرين في منزل كاسيوس ورافقوا ابنه إلى الفوروم لأنَّ الصبي كان سيجري في هذا اليوم مراسم ارتدائه ثياب الرجال أي toga virilis كما يسمّيها الرومان. ومن هناك أسرعوا جميعاً إلى رواق پومپي وظلوا هناك بانتظار مقدم قيصر للمشاركة في جلسة المجلس. ولم يكن ليسع أيّ رجل على علم بالمؤامرة إلاّ أن يندهش في تلك الساعة لما رآه فيهم من رباطة جأشٍ وهدوء وحضور ذهن في ساعة اقتراب الأزمة من نهايتها. وكان كثيرون منهم حائزين على المنصب الپريتوري ووظيفتهم تقضي عليهم بالنظر في قضايا اليوم. فانصرفوا يصغون بصبرٍ إلى الشكاوى المعروضة وينظرون في الخلافات كأن ليس لديهم شيء آخر يشغل بالهم، وكانوا يبذلون قصاراهم في صياغة أحكامهم بدقّةٍ في كلّ قضيّة. وعندما رفض شخص من المتداعين قبول حكم بروتوس وبدأ يتحجّ بصوت مرتفع ويتظلم لقيصر، تطلع بروتوس بهدوء في وجوه المستمعين وقال:

- قيصر لا يمنعني من الحكم بموجب منطوق القانون ولن يفعل ذلك قطّ في المستقبل.

وفي الوقت نفسه وقعت مفاجآت وحوادث غير منتظرة أخلّت بهدئهم وأورثتهم بعض القلق. أولها تأخّر قيصر عن الوصول بعد مرور وقت طويل وانقضاء الشطر الأكبر من النهار. فقد أعاقته زوجه ومنعه العرّافون من الخروج لعيبٍ وجدوه في

(١٠) هذه البناية الجميلة الكبيرة وهي أول مرسح ثابت بني في روما. تمّ الفراغ من بنائها في ٥٥ ق.م. وتقع في كامپوس ماريتيوس Campus Martius في الشمال الغربي من المدينة.

(١١) باللاتينية يعرف بعيد مارس Idus Martiae.

أضحيته. وثانيها أن رجلاً أقبل على كاسكا Casca أحد المؤتمرين وأمسك بيده وقال:

- لقد أخفيت السِرّ عنّا يا كاسكا، إلاّ أن بروتوس أخبرني بكلّ شيء.

وفيما وقف كاسكا جامداً صامتاً ابتسم الرجل واستطرد يقول:

- عليك أن تخبرني بالحقيقة يا صاح، كيف أصبحت موفور الغنى بهذه السرعة فأقدمت على ترشيح نفسك لمنصب المحتسب (ايديل)؟

كان كاسكا على وشك فضح السِرّ بسبب التباس فهمِه لكلام الرجل لو لم يبادر هذا بالتفسير.

وفي ذلك الوقت قابل پوپيليوس ليناس Popilius Loenas كلاً من بروتوس وكاسيوس بحرارة أكثر من المعتاد ثم دنا منهما وهمس بصوت خافتٍ جداً:

- دعواتي لكما، وتمنياتي لمشروعكما النجاح. لكن كل ما تعملانه استعجلا به، فكلّ الناس يتحدثون به الآن.

قال هذا وتركهما سائراً بعد أن أشاع الشك فيهما بافتضاح أمر المؤامرة.

وفي تلك اللحظة أيضاً قدِم أحد السعاة وهو يعدو من جهة منزل بروتوس، يحمل إليه نبأ مفاده أن زوجه پورشيا تعالج سكرات الموت، والحقيقة هي أن الاضطراب بلغ بها منتهاه في ارتقابها النتيجة حتى خرجت عن طورها وضاق بها المنزل على رحبه، ما تسمع صوتاً أو جلبة إلاّ وتجفل وتهبّ من مجلسها واقفةً كأنها في حالة انجذاب. وخارت قواها من فرط حركتها، إذ كانت تخرج وتسائل المارة عمّا يحدث في الفوروم ثم تعود لترسل الساعي تلو الساعي تسقطاً للأنباء. وتضاعفت مخاوفها وأخذت الشكوك تنهشها وتفريها، ولم تستطع الوصول إلى مخدعها فقد أغمي عليها وراحت في غيبوبة وفرّت ألوانها وفقدت النطق. فأطلقت نساؤها صرخة عظيمة وهرع الجيران إلى منزل بروتوس ليستطلعوا الأمر وانتشر خبر وفاتها بسرعة وعلى نطاق واسع. على أن العناية التي بذلتها وصيفاتها اعادت إليها وعيها بعد قليل واستردّت قواها. وتأثر بروتوس تأثيراً عميقاً بالنبأ المفاجئ كما هو متوقع طبعاً إلاّ أنه لم ينسَ واجبه، ولم يفسح للقلق مجالاً ليجعل عقله منشغلاً في همومه الخاصّة.

وورد الخبر بأن قيصر في طريقه إلى المجلس محمولاً في مِحفّة. لقد تطيّر من نُذر الشرّ التي ظهرت في قرابينه فقرر ألا يبتّ في أية مسألة هامّة يومها، وأن يؤجلها إلى وقت آخر معتذراً بالمرض. وما إن خرج من مِحفّته حتى تقدّم منه پوپيليوس ليناس الذي كان قبل قليل قد تمنّى لبروتوس النجاح في غايته وشرع يحدّثه ملياً. وظلّ قيصر واقفاً طوال المحادثة لا ينمّ عليه شيء خلا إشارات الاهتمام، ولم يكن بوسع

المؤتمرين (هذا ما سأطلق عليهم الآن) سماع الأقوال إلا أن استنتاجهم الطبيعي هو أن الحديث يدور حول مؤامرتهم وان ليناس يقوم بإنذار قيصر فوهت عزائمهم. وبدا من النظرات التي تبادلوها فيما بينهم أنهم مجمعون على أن لا ينتظروا القبض عليهم وأن يقتلوا أنفسهم بأيديهم. وامتدت أيادي كاسيوس وبعض الآخرين إلى أغماد سيوفهم المندسّة تحت معاطفهم لتجريدها عندما لاحظ بروتوس أن تصرّف ليناس كلّه يدلّ دلالة واضحة على أنه يعرض طلباً، ولا يقدّم اتهاماً. فلم ينطق بحرفٍ لأنه كان محاطاً بالأغراب الذين لا شأن لهم بالمؤامرة، إلاّ أنه أظهر البشاشة والبشر، فأفرخ روع كاسيوس وصحبه. وبعد قليل لثم ليناس يد قيصر وانصرف. فبدا واضحاً أن مقابلته لقيصر كانت تتعلق بمسألة خاصة تهمّ شخصه ولا أحد غيره.

بعد أن دخل أعضاء المجلس قاعة المناقشات قبل قيصر تجمّع المؤتمرون حول كرسيه كأن لديهم قضية يريدون عرضها عليه. وأدار كاسيوس وجهه نحو تمثال پومپي - على ما قيل لنا - كأنه يستنجده العون ويسمع دعاءه. وفي الوقت نفسه راح تريبونيوس يشاغل أنطوني بالحديث عند المدخل ويصرف اهتمامه ليبقيه خارجاً. ووقف أعضاء المجلس تكريماً لقيصر عند دخوله، وما إن جلس حتى كان المؤتمرون جميعاً يتحلّقونه ثم دفعوا بأحدهم وهو تلليوس چمبر Tillius Cimber ليعرض عليه قضية أخيه المنفي. وتدخل بقيّة المؤتمرين في الشفاعة له. وقبض چمبر على يد قيصر وقبّل رأسه وصدره. بالأول رفض قيصر الرجاء. ولكن عندما وجد أنهم لا يدعونه يذهب حاول النهوض ودفعهم عنه بعنفٍ وعندها أمسك تلليوس چمبر عباءته وسحبها عن كتفيه بكلتا يديه، في حين تقدّم كاسكا الذي كان واقفاً خلفه مشهراً سيفه وكال له الطعنة الأولى فأحدث جرحاً بسيطاً في ذراعه. فامتدت يد قيصر إلى قبضة السيف وأمسكها وصاح باللاتينية:

- كاسكا أيها الوغد! ماذا تفعل؟

في حين نادى كاسكا أخاه باليونانية طالباً المعونة. وعندها وجد قيصر نفسه يتلقّى الطعنات من أيادٍ كثيرة. وفيما هو يتطلع حواليه ليجد له مخرجاً وخلاصاً من مهاجميه وقعت عينه على بروتوس مشهراً سيفه في وجهه، فأفلت يد كاسكا التي كان ممسكاً بها وغطّى وجهه بردائه وسلّم جسمه لضربات القتلة. فأطبق المؤتمرون عليه وأعملوا فيه طعناً حتى صارت النصال تعترض النصال وأصيب بعضهم بجراح على يد الآخرين، وأصيب بروتوس بجرح في يده في أثناء مساهمته بالعمل. ولطّخت الدماء جميعهم.

أخيراً بعد أن قُتل قيصر تقدم بروتوس ووقف في وسط القاعة وحاول جهده تهدئة

روع الأعضاء وإقناعهم بالبقاء إلاّ أنهم تولّوا عنه مذعورين وتدافعوا بكثير من الفوضى إلى الأبواب وتزاحموا بالمناكب ليستبقوا الخروج مع أنه لم يكن ثمّ من يطاردهم. فقد قطع المؤتمرون عهداً فيما بينهم بأن لا يقتلوا أحداً غير قيصر، وأن ينادوا أمام جميع الشعب بالحرّية. عندما كانت المداولات تجري بين المؤتمرين حصل إجماع على ضرورة قتل أنطوني أيضاً. إذ اعتبروه رجلاً يستخف بالقوانين ويفضّل الحكم الأوتوقراطي المطلق وأن لديه حظوة كبيرة من الجنود وسلطاناً عليهم بسبب مقدرته على الاختلاط بجنوده بكل بساطةٍ وكسب ولائهم وطاعتهم، وأخيراً طموحه ووقاحته الطبيعية اللذان تضاعف خطرهما لأنه ارتفع إلى منصب القنصلية، وكان في ذلك الوقت زميلاً لقيصر في هذا المنصب. إلاّ أن بروتوس عارض الإجماع. وأصرّ على أن الواجب يقضي بالدرجة الأولى أن يعملوا وفق أضيق حدود العدالة، وكان من رأيه أن ينصلح حال أنطوني وأن التغيير قد يطرأ عليه فيما بعد. كان يتمسّك بفكرته وهي: عندما يُزاح قيصر عن الطريق فإن طبيعة أنطوني السمحاء، وطموحه وحبّه للمجد، سوف تتجاوب مع المثل النبيل الذي ضربه المؤتمرون وأنه سينضمّ إليهم لمساعدة بلادهم على الوصول إلى الحرية. وبهذه الوسيلة أنقذ بروتوس حياة أنطوني فعلاً. إلاّ أن الذعر الشامل الذي عقب القتل جعل أنطوني يخلع معطفه المشيخي ويتنكر بثوب رجل من العامة ويهرب.

وقصد بروتوس ورفاقه الكابيتول وأخذوا يلوّحون بأيديهم الدامية القابضة على سيوفهم المسلولة للناس ويدعونهم للتمتع بحرياتهم. في مبدأ الأمر ووجهوا بصيحات الخوف ليس إلاّ وزاد الاضطراب العام بحرجلة الناس المرتعبين، عقب الاغتيال مباشرةً. ولمّا لم يعقب ذلك نهب أو سفك دماءٍ فقد استجمع الشيوخ وكثير من الناس شجاعتهم وقصدوا الكابيتول لرؤية المؤتمرين وهناك احتشد خلق كثير. فارتجل بروتوس خطبة تناسب الموقف وترضي الجمهور. وهتف له المستمعون عالياً وطلبوا منه النزول إليهم من الكابيتول فعادت الثقة بالنفس إلى المؤتمرين وقصدوا الفوروم وساروا معاً. إلاّ أن بروتوس وجد نفسه محاطاً بأبرز رجال روما الذين رافقوه من الكابيتول بكل مظاهر الإجلال والتعظيم، حتى أصعدوه إلى الروسترا. كان الجمهور الذي يواجهه يضمّ أناساً من مختلف الاتجاهات والعواطف وقد جاء متهيئاً لأحداث شغبٍ. إلاّ أن الرهبة سادته عند مشاهدة بروتوس وراح يترقب كلامه بصمت خاشع ونظام تام وعند الشروع في خطابه أصغى إليه بانتباه. ولكن ما إن أخذ جنّا Cinna مكانه وبدأ يتهجم على قيصر حتى بدا واضحاً أن عدداً كبيراً من المستمعين ساخطون

على ما حصل. وبدأ غضب الجموع يتصاعد وأخذوا يهاجمون جنّا بعبارات مُقذِعة وبعنفٍ حتى اضطر المؤتمرون إلى العودة والاحتماء في الكاپيتول. وهناك صرف [بروتوس] الرومانيين البارزين الذين رافقوهم إذ كان يخشى أن يحاصَروا هناك ولم يجد من العدل أن يتعرّض للخطر من لم يساهم معهم.

ومهما يكن من أمرٍ فقد اجتمع مجلس الشيوخ في اليوم التالي في هيكل الربّة تللوس Tellus. وتكلّم أنطوني وپلانكوس وشيشرون محبّذين التآلف والاتفاق وإجراء مصالحة عامة وأن يقوم المجلس بإصدار قانون العفو العام. فصوّت على الاقتراح وقُبل(١٢). وبموجبه تقرّر أن لا تتخذ أية إجراءات ضدّ المؤتمرين فضلاً عن قيام القنصلين باقتراح تكريم مناسبٍ لهم. ثم انفضّ الاجتماع. وبعد أن أرسل أنطوني ابنه إلى الكاپيتول بمثابة رهينة غادر بروتوس وصحبه البناية وتبادل الفريقان عبارات الودّ والتحيّات بدون تحفّظ. وعزم أنطوني كاسيوس للعشاء واحتفى به. وفعل ليپيدوس المثل مع بروتوس. وتبودلت الدعوات بين الطرفين وساهم أصدقاء الفريقين بذلك. ثم التأم مجلس الشيوخ في بكور اليوم التالي وكان أول عملٍ له هو التصويت على قرار بشكر أنطوني لتفاديه حرباً أهلية. ثم قرّضوا عمل بروتوس ورفاقه الحاضرين. وبعدها شرعوا في توزيع حاكميات الأقاليم، فكانت كريت من نصيب بروتوس، وأفريقيا لكاسيوس، وآسيا لتريبونيوس، وبثينيا لجمبر، والغال الجنوبية لألبينوس بروتوس.

وأخيراً نوقشت قضية وصيّة قيصر وجنازته. وطلب أنطوني وأنصاره أن تُقرأ الوصية علناً وأن لا يدفن الجثمان بصورة اعتيادية بل بالإكرام والمراسم التقليدية، وإلاّ انفجر سخط الجمهور مرة أخرى. فعارض كاسيوس في هذه الطلبات بكلّ قوته إلاّ أن بروتوس نزل عند الطلب ووافق. ويبدو أنه كان مخطئاً في حكمه هذا أيضاً. ارتكب غلطته الأولى بإبقائه على حياة أنطوني، فتعرّض بذلك لتهمة وضعه أمام المؤتمرين خصماً قوياً ليس ثمّ أخطر منه. وهذه غلطته الثانية. فبسماحه بتشييع جثمان قيصر بالشكل الذي اقترحه أنطوني وقع في خطأ مميتٍ لا يرجى إصلاحه. وكان أوّل آثاره أنه عندما ظهر من وصيّة قيصر أنه وهب كل مواطن روماني خمسة وسبعين درهماً، وأوقف

---

(١٢) تلك كانت مساومة. فالمجلس الذي هو الآن السلطة الدستورية العليا كان ينتظر منه أن يعلن أن اغتيال رئيس الدولة هو عمل من أعمال الخيانة. إلاّ أنه لم يفعل ولكنه صادق في هذه الجلسة على كل المراسيم التي أصدرها قيصر لأن وجود العدد الكبير من محازبيه القدماء في روما أرغمه على ذلك في الواقع.

لمنفعتهم كل بساتينه فيما وراء نهر التيبر حيث يقوم هيكل إله الحظ اليوم، تصاعدت موجة عارمة من الحبّ له، وساد شعور قوي بعظم الخسارة فيه. ثم إنه عندما جيء بالميت إلى الفوروم، ألقى أنطوني خطبة التأبين التقليدية فوق جثمانه. وما إن وجد الجمهور المحتشد شديد التأثير بأقواله حين غيّر من اتجاهه وانتقل إلى المسائل العاطفية ورفع عباءة قيصر وقد جمدت عليها الدماء فنشرها لتراها العيون مشيراً إلى كل خرقٍ فيها نفذت منه السيوف إلى جسم القتيل وراح يحصي الطعنات. ففقد المستمعون كل سيطرة على أنفسهم فصاح بعضهم محرّضاً على قتل القتلة. وعمد بعضهم إلى تكديس المناضد والمقاعد التي جاؤوا بها من الحوانيت المجاورة بعضها فوق بعض ليعملوا محرقةً كبيرة، مثلما حدث في الشّعب الذي فقد فيه كلوديوس الغوغائي حياته(١٣)، ثم رفعوا جثمان قيصر إلى قمّتها وأشعلوا النار فيها، وفي الحقيقة كان اختيار هذه البقعة بالذات لإقامة المحرقة موفقاً جداً لأنها محاطة بعدة هياكل ومحاريب وأماكن مقدسة. ثم لما أخذ اللهب يتصاعد ويشتد اندفع الناس من كل جانبٍ وأمسكوا بعيدان مشتعلة وانبثّوا في أرجاء المدينة يفتشون عن بيوت القتله لإشعال النار فيها.

وكان المؤتمرون قد اتخذوا احتياطاتهم فتحصّنوا في داخل منازلهم وأصبحوا قادرين على دفع الخطر. إلاّ أنه كان يوجد رجل شاعرٌ يدعى جنّا لا علاقة له بالجريمة، وهو في الواقع صديق لقيصر رأى في الحلم أن قيصر دعاه إلى العشاء فلم يقبل الدعوة إلاّ أن قيصر ألحّ عليه وأخيراً أمسك بيده وأخذه إلى موضع وسيع مظلم، فتبع خطى مستضيفه متردداً والرعب يملأ جوانبه. وبعد أن غابت الرؤية عن مخيّلته وجد نفسه فريسة لحمّى ركبته طوال الليل. ولما أقبل الصبح ونُقل جثمان قيصر لدفنه شعر بالخجل لتخلّفه عن المناسبة وخرج وانضمّ إلى الجموع في الوقت الذي بلغ بهم الهياج منتهاه بخطبة أنطوني. وهناك وقعت عليه أنظار الجمهور، ولم يتثبّتوا من هويّته وإنما توهّموه جنّا الذي وقف بالأمس يتهجّم على قيصر، فوثبوا عليه ومزّقوه إرباً.

هذه الواقعة زادت من قلق بروتوس بشكل لم يُثره حدث آخر، خلا انقلاب سلوك أنطوني، فترك المدينة هو وأنصاره. في الأول قضوا بعض الوقت في أنسيوم Antium على أن يعودوا إلى روما بعد أن يسكن هياج الناس وتهدأ الخواطر. وكانوا يتوقعون أن يحصل ذلك بشكل طبيعي وبعد فترة وجيزة ذلك لأن غوغاء المدينة عُرفوا بسرعة التقليد وعدم الاستقرار. كما كانوا يعلمون أن مجلس الشيوخ يقف في صفهم. ومع أنه

(١٣) قتل كلوديوس ٥٢ ق.م في شجار نشب بينه وبين (ميلو) في الشارع وقاتله منافس غوغائي له.

أطلق سراح الذين فتكوا بجنّا فقد قام بإجراءات تحقيق وألقى القبض على أولئك الذين هاجموا منازل المؤتمرين. وفي هذه الفترة من الزمن أخذ الناس يضيقون ذرعاً بأنطوني لأنه بات يمارس سلطات تكاد لا تختلف عن السلطة الدكتاتورية وصبوا إلى عودة بروتوس. وكان متوقعاً أن يحضر بشخصه للإشراف على الألعاب الشعبية(١٤) لأن تنظيمها يقع ضمن واجباته، إلاّ أنه اكتشف مؤامرة لاغتياله يدبّرها عدد من المحاربين القدماء الذين قاتلوا تحت إمرة قيصر فأقطعهم أراضي في المدن. وقد تسللوا إلى المدينة بشراذم لتنفيذ المؤامرة فلم يجرؤ على التوجه إلى روما. وأقيمت الألعاب بغيابه وأنفق عليها بسخاء وكانت في غاية الفخامة. كان بروتوس قد ابتاع في ما مضى عدداً كبيراً من الوحوش المفترسة فأصدر أوامره باستخدامها كلها وعدم بيع قسم منها أو ادّخاره، لتكون متعة الجمهور كاملة. كذلك سافر إلى ناپولي وتعاقد مع عدد كبير من الممثلين واللاعبين والمغنيين. وكتب لأصدقائه عن كانوتيوس Canutius، الممثل الذائع الصيت في زمانه، لإقناعه بزيارة روما. إذ لم يكن يرغب في إرغام أي إغريقي على المجيء. كذلك كتب لشيشرون مشدداً عليه بحضور الألعاب.

بقيت الحالة على هذا المنوال في روما حتى مقدم الشاب أوكتاڤيوس قيصر فأحدث تغييراً كاملاً مفاجئاً في الوضع كله. كان ابن بنت أخت يوليوس قيصر، فتبنّاه وجعله وريثاً له بموجب وصية. كان وقت مقتل قيصر في أپوللونيا على الساحل الألليري يتابع دراسته، حيث اعتزم الانضمام إلى الحملة التي تهيّأ لها قيصر ضدّ الپارثيين إلاّ أنه أسرع إلى روما عند سماعه بمقتله. وأول عمل أقدم عليه للتقرب إلى الشعب هو اتخاذ لقب قيصر وتوزيع ما خصّصه الراحل في وصيّته لكل مواطن روماني من مالٍ. وبهذه الوسيلة لم يقتصر نجاحه على تجريد أنطوني من شعبيته ومكانته عند الجمهور، وإنما أفلح بالمال والهبات التي فرّقها دون حساب على الجنود في ضمّ أعداد كبيرة ممن حاربوا تحت إمرة قيصر إليه. وأقنع شيشرون بمساندته مدفوعاً بمقته الشديد لأنطوني. وهذا ما حمل بروتوس على تأنيبه تأنيباً قاسياً. ومما كتب له قوله:

- أراك يا شيشرون لا تصدّ عن الطاغية، ولا أنك تخشى أن يكون ذلك الطاغية هو الشخص الذي تكرهه. وعندما تبدي في خطبك وأقوالك إعجابك بطيبة أوكتاڤيوس

---

(١٤) هنالك ما يسمّى بلودي أپولليناريس Ludi Apollinars وتقام في تموز. وكان من واجب بروتوس بوصفه پريتور العاصمة Praetor Urbanus أن يرأسه. إلاّ أن أخا مارك أنطوني حضره بالنيابة عنه.

فرأيك هو في الحقيقة الثناء على نوع من الاستعباد ليس فيه إلاّ.
واستطرد مذكراً إياه بقوله:
- إلاّ أن آباءنا الأولين ما كانوا يطيقون حتى الطغاة اللطفاء. وأمّا من ناحيتي فلم أقرّر بصورة نهائية أن أعلنها حرباً أم أجنح إلى السلم إلاّ أني مصمّم على شيءٍ واحدٍ وهو أن لا أكون عبداً. وإني لأعجب يا شيشرون كيف تخشى أخطار الحرب الأهلية بكل أرزائها ولا تخشى سلماً شائناً ذليلاً، وأن تطلب امتياز إقامة أوكتاڤيوس في محلّ أنطوني كمكافأة على التخلّص من طغيان هذا الأخير.

تلك كانت لهجة بروتوس في أولى رسائله لشيشرون. على أن الجمهورية الرومانية كانت قد انشعبت إلى حزبين أحدهما يساند أوكتاڤيوس والآخر يظاهر أنطوني. وراح الجنود يبيعون ولاءهم لمن يدفع لهم أكثر من غيره كأنهم في مزادٍ علني. وبدأت الأحداث تسلم بروتوس إلى اليأس وقنط من تحقيق آماله. فقرّر مغادرة إيطاليا فمرّ بلوقانيا حتى بلغ ميناء ڤيليا Velia[١٥] واضطرت زوجه پورشيا إلى العودة منها إلى روما. وحاولت إخفاء أحزانها لفراق بروتوس إلاّ أن منظر نقش في صورةٍ فضح أمرها وأصاب محاولتها النبيلة بالإخفاق. كان موضوع الصورة مقتبساً من أسطورة إغريقية «هكتور يودّع أندروماخه» والمنظر يمثلها وهي تتناول من ذراعيه طفلهما أستياناكس Astyanax بينما تشخص بنظراتها إلى زوجها. وجدت پورشيا وهي تنظر إلى الصورة أحزانها تمثل أمامها فانفجرت باكية، وأدامت الذهاب إلى النقش عدة مرّاتٍ في اليوم والبكاء أمامه. وبهذه المناسبة اقتبس أچيليوس Acilius أحد أصدقاء بروتوس أبيات هوميرس التي تخاطب أندروماخه زوجها هكتور بها[١٦]:

---

(١٥) ترك بروتوس وكاسيوس إيطاليا آخر الأمر في حزيران ٤٤ ق.م. إلاّ أن بلوتارخ يستبق الأحداث في تحليله الوضع السياسي وتأثيره على حالة بروتوس العقلية، فإن المؤتمرين تركوا إيطاليا لا كلاجئين سياسيين بل حكاماً وقادة بموجب مراسيم صدرت من مجلس الشيوخ بالتصويت. في هذا الوقت بقي شكل نظام الحكم الذي سيعقب العهد القيصري موضع أخذٍ وردٍ، فما زالت ميول الجيوش الرومانية في إيطاليا والأقاليم وولاؤها موضع شك. وكان ثم نزاع طويل يوشك أن يستعر أواره أمام أوكتاڤيوس قبل أن يقوى على تحدي أنطوني. لقد بلغت سلطة مجلس الشيوخ أوجها في نهاية العام ٤٤ ق.م بانتخاب القنصلين الجمهوريين هريتوس وپانسا. وكانت نقطة التحوّل في أوائل صيف ٤٣ ق.م عندما قُتل هذان القنصلان في موتينا وما لبث الجيش القادم من إسبانيا بقيادة ليپيدوس أن انضم إلى أنطوني وهو حدث أخلّ تماماً بميزان القوى في إيطاليا وأدى إلى الاتحاد الثلاثي.

(١٦) انظر الإلياذة ٦: ٤٢٩ - ٤٢٠.

أنت لي يا هكتور كلّ شيء.
رعيتني كأبٍ وكأمٍ
وكأخٍ وكزوج محبّ
فابتسم بروتوس له وقال:
- لكني لن أجيب [بورشيا] بمثل ما أجاب هكتور[١٧]:
اهتمي بنولك ومغزلك
وأصدري أوامرك لخادماتك
- ربما لأنها لا تملك القوة الكافية لإتيان الأعمال المنتظرة من الرجال إلاّ أن لديها الروح الوثّابة للنضال في سبيل بلادها، مثلما لدينا.

لقد اقتبسنا هذه الحكاية من كتاب بيبولوس ابن پورشيا عن بروتوس.

بعد أن ترك بروتوس ميناء ڤيليا أبحر إلى أثينا فاستقبله الشعب بحماسة عظيمة واحتفى به بمختلف مظاهر الإكرام الرسمية، فمكث هناك عند أحد أصدقائه واستمع إلى دروس تيوميستس Theommestus الأكاديمي وقراطيپوس Cratippus المشّائي Peripalitie وبحث مسائل الفلسفة معهما وبدا وكأنه لا شاغل له غير الدراسة الأدبية. إلاّ أنه كان طوال هذه الفترة يعدّ العدّة للحرب سِرّاً دون أن يدع للشكّ إليه سبيلاً. واعتزم أن يستميل قواد الجيش الروماني في مقدونيا، وأرسل لهذه الغاية داعيته هيروستراتوس Herostratus. وفي الوقت نفسه اجتذب كلّ الشباب الرومان الذين يدرسون في أثينا ومنهم ابن شيشرون الذي كان دائم الثناء عليه بحرارة والقول:
- سواء في ذلك أكنت في حلم أم في يقظة، لايسعني إلاّ الإعجاب برجل له مثل هذه الروح العالية، وذاك الكره العظيم للاستبداد.

وبعد ذلك بدأ بروتوس يعمل جهاراً. ولمّا علم أن عدداً من السفن الرومانية المحمّلة بالمال قد أبحرت من آسيا وأن قائدها إنسان طيّب، ومعروف لديه بالسمعة، ذهب لمقابلته في كاريستوس Carystus وهي مدينة في يوبيا. وبعد أن تداول معه وأقنعه بتسليم السفن له أقام مأدبة كبيرة في ذلك اليوم الذي وافق عيد ميلاده. ثم بعد أن بدأوا بالشراب واقترحوا نخب «النصر لبروتوس والحرية لروما» رغب بروتوس في بث المزيد من الحماسة في المجتمعين فأمر بوعاء أكبر من الخمر. وفيما هو ممسك به

---

(١٧) انظر الإلياذة ٦: ٤٩١.

ردّد بدون مناسبة أو سبب ظاهر هذا البيت من هوميروس، وهو آخر كلمات نطق بها باتروكليس المحتضر[١٨]:

لقد عاكسني الحظّ أولاً وأدار لي وجهه

ثم تلاه أپوللو ابن ليتو Leto

وزاد بعض الكتاب شرحاً لهذا، أنه عندما خرج بروتوس لخوض آخر معركة له في فيليبي كانت كلمة التيمّن التي اختارها لجنوده هي «أپوللو» واستنتجوا أن النزوة المفاجئة التي دفعته إلى ترديد هذا البيت إنما نبعت من إحساس مسبق بالهزيمة.

بعد هذا أعطاه أنتستيوس Antistius نصف مليون دراخما من الأموال التي كان يحملها إلى إيطاليا. وبقية جيش پومپي الذي لم يزل يهيم على وجهه في أنحاء تساليا انضمّ مسروراً تحت لوائه. وأخذ من چنّا أيضاً خمسمائة خيّال كان هذا يريد إيصالها إلى دولابللا في آسيا. بعد ذلك أبحر إلى ديمترياس وهي ميناء تسالي حيث وضع يده على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات التي كان يوليوس قيصر قد أمر بجمعها لحملته الپارثية وكانت على وشك إرسالها إلى أنطوني. وسلّم إليه هورتنسيوس الپريتور حاكم مقدونيا الإقليم الذي يحكمه وأعلن الملوك والحكام المجاورين مساندتهم له وعرضوا عليه المعونة. ثم وردت أنباء تشير إلى أن گايوس أخ مارك أنطوني قد خرج من إيطاليا وهو في طريقه للانضمام إلى القوات التي يقودها ڤاتينيوس Vatinius في دراكنيوم وأپوللونيا[١٩]. وقرر بروتوس أن يعترض سبيله ويضع يده على جيشه قبل أن يتم تعزيزه. فانطلق حالاً بما تيسّر له من قوةٍ يقطع أرضاً وعِرة، تهدده العواصف الثلجية، ويسبق قافلة أرزاقة بمسافة كبيرة توخياً للسرعة. وما إن وصل ضواحي دراكيوم حتى بدت عليه أعراض المرض الذي يسمّونه بوليميا Boulimia، وهو متأتّ من البرد والتعب يصيب معشر الإنسان والحيوان على حدّ سواء لاسيما عندما يشقّون طريقهم في الثلوج ويُضعفهم الإنهاك. وربما كان كانت عِلّته أن الحرارة الطبيعية في الجسم عندما تجد نفسها متجمّدة ومكثفة بالبرد الذي يُحدق بها تستنفد بسرعة كل ما لديها من غذاء، أو لعلّ البخار الحادّ الخبيث الذي يتصاعد من الثلج ينفذ إلى الجسم

---

(١٨) الإلياذة ١٦: ٨٤٩. هناك استعارة وتورية في اسم أپوللو هنا - فبالإمكان أن يقصد به هنا «مدمّر» أو مُخرّب.

(١٩) في نسخة أخرى: دراكيوم وردت إپيدامنس Epidamnus وكلتاهما ميناء في شمال غرب اليونان على بحر الأدرياتيك.

ويقتل الحرارة التي تتولّد من المسام. ذلك لأن عرق الجسم يتولّد في الظاهر من تلك الحرارة الداخلية، فيقوم ردّ فعل معاكس بما يواجه من بردٍ حال وصوله الجسم. ومهما يكن فقد بحثت هذا الموضوع بتفصيل في مكان آخر.

ووجد بروتوس نفسه خائر القوى مهدوداً. ولم يعد للجنود لُقمة يتبلّغون بها، ولذلك اضطرر خدمه إلى السؤال من أعدائهم. واقتربوا من أبواب المدينة وطلبوا من الحرس شيئاً من الخبز. ولما سمع هؤلاء عرض بروتوس. اقبلوا إليه بمحض اختيارهم وجلبوا له طعاماً وشراباً. وقد ردّ بروتوس الجميل عندما سقطت المدينة في يديه فقد أظهر ليس لهم وحدهم بل للسكان جميعاً أعظم ضروب العطف والرعاية.

عندما وصل گايوس أنطونيوس أپوللونيا أمر كل الجنود المعسكرين بالقرب من المدينة بالانضمام إليه. إلاّ أنهم انضمّوا إلى بروتوس. وفي الوقت نفسه اتضح له أن أهالي أپوللونيا هم مع بروتوس فترك المدينة وزحف على بوثروتوم Buthrotum[٢٠] فخسر في مبدأ الأمر ثلاث كتائب مزّقها بروتوس شرّ تمزيق أثناء ما كان خصمه يواصل سيره. وأخيراً عندما اشتبك في معركة للاستيلاء على بعض التحصينات المحيطة ببلّليس Byllis واقتحامها، وكان بروتوس قد سبقه لاحتلالها، أصيب بالاندحار على يد شيشرون الابن الذي أناط به بروتوس القيادة، فكسب لقائده عدة معارك. وباغت بروتوس گايوس في أرض مستنقعات وقوّاته مبعثرة فوق مساحة واسعة إلاّ أنه لم يُصدر أوامر بالهجوم، وإنما أحاط بجيش عدوّه وحذّر من التعرّض لحياة الجنود إذ كان متأكداً أنهم سيكونون في صفه بعد قليل، وهذا ما حصل فعلاً فقد استسلموا هم وجنرالهم. وهكذا وجد بروتوس جيشاً عظيماً تحت إمرته. وعامل گايوس معاملة كريمة تتفق والشرف العسكري. فقد سمح له بالاحتفاظ بشارات رتبته مدةً طويلة مع أن كثيراً من الشخصيات كتبوا له من روما يحثّونه على قتله ومن بين هؤلاء شيشرون نفسه. ولكن عندما بدأ گايوس يفاوض ضباط بروتوس سِرّاً محاولة منه إثارة عصيان نقله بروتوس إلى سفينة ووضعه تحت حراسة دقيقة. وعندما هرب الجنود الذين نجح گايوس في إقناعهم بالانتقاض على بروتوس ولجأوا إلى أپوللونيا ودعوا بروتوس لزيارتهم، أجابهم أن هذا ليس بالتقليد الروماني الصحيح، وأن عليهم أن يأتوا هم إلى جنرالهم ويطلبوا منه الصفح. وهذا ما فعلوه، فعفا عنهم.

وفيما هو يتهيّأ للعبور إلى آسيا وصلته أنباء عن تطوّرات الموقف في روما. ففي

---

(٢٠) على ساحل الأرض اليونانية مقابل كورفو Corfu.

خلال تلك الفترة[٢١] تمكن أوكتافيوس قيصر من الحصول على ثقة مجلس الشيوخ ومساندته ضدّ أنطوني وأنه طرد خصمه ومنافسه هذا من إيطاليا. فكان على بروتوس أن يخشى الآن أوكتافيوس إذ بدأ يعمل على تعيينه قنصلاً خلافاً لأحكام القانون، وأنه يحتفظ بجيوش أكثر مما تحتاج إليه الدولة. على أنه رأى أن مجلس الشيوخ لا يقرّه على هذه الإجراءات، وأنه بدأ يتحوّل نحو بروتوس، ويصدر مراسيم بإناطة قيادة الأقاليم العسكرية به، فاستبدّ القلق بأوكتافيوس ولذلك أرسل يعرض على أنطوني المصالحة. وجاء بعين الوقت بجيشه وأحاط روما[٢٢] ليعمل على تنصيبه قنصلاً بالتهديد مع أنه لم يكمل العشرين من عمره كما ذكر هو نفسه في «تعليقاته». وكان أحد أول أعماله إصدار الأمر بالتحقيق ورفع الدعوى العمومية على بروتوس ورفاقه المؤتمرين بتهمه إنزال حكم الموت دون محاكمة بأوّل رجل في الدولة يتولّى أكبر منصب. وعُيّن لوچيوس كونيفيجيوس Lucius Cornificius مدّعياً عاماً على بروتوس وماركوس أغريبّا Marcus Agrippa مدّعياً عاماً على كاسيوس. ثم حكم المتهمون غياباً واضطر القضاة إلى الإدلاء بأصوات الإدانة اضطراراً. وقيل إن المنادي لمّا صعد الروسترا ونادى بروتوس لحضور المرافعة كما يحتّم التقليد القضائي ندّت من العامّه تنهيدة عميقة، وأطرق النبلاء برؤوسهم صامتين. وشوهد پوبليكوس سيليچيوس Publius Silicius وهو ينفجر باكياً ولهذا السبب وضع اسمه في قائمة المستباحة دماؤهم بعد حين. ثم ما عتم أن عقد الصلح بين أوكتافيوس وأنطوني وليپيدوس وألفوا الحكم الثلاثي[٢٣] وقسموا الأقاليم بينهم ووضعوا قائمة باستباحة دماء مَن ارتئي القضاء عليهم وقد بلغ عددهم المائتين[٢٤] وكان شيشرون من ضمنهم.

بلغت هذه الأنباء بروتوس وهو في مقدونيا، فوجد نفسه مكرهاً على إصدار أمر لهورتنسيوس بقتل گايوس أنطونيوس عقاباً لقتل شيشرون وبروتوس ألبينوس أولهما صديقه وثانيهما قريبه. ولهذا السبب أمر أنطوني بأن يُقتل هورتنسيوس فوق قبر گايوس

---

(٢١) في أوائل ٤٣ ق.م.

(٢٢) في صيف ٤٣ ق.م.

(٢٣) في تشرين الأول ٤٣ ق.م.

(٢٤) هذا العدد قاصر على أعضاء مجلس الشيوخ الذين حُكموا بالموت. وكان ثم أيضاً ما يناهز ثلاثة آلاف من طبقة الفرسان. كان عدد أعضاء المجلس يتفاوت كثيراً باختلاف العهود. فإلى مبدأ القرن الأول قبل الميلاد كان أقل من مائتين. وزاد سيلّلا في عدده إلى ٥٠٠ تقريباً، وضاعفه قيصر فأصبح ألفاً. إلا أن أغسطس أنقصه إلى ٦٠٠.

عندما ظفر به بعد معركة فيليبي. وقد قال بروتوس إنه أكثر خجلاً لموت شيشرون منه حزناً عليه، وإنه ليلقي اللوم على أصدقائه في روما لما حصل. وقال إن ما جعلهم عبيداً ليس الطاغية المستبد وإنما أعمالهم، ولقد سمحوا لأنفسهم أن ينظروا نظرة استسلام إلى أعمال يجب أن لا يسمحوا حتى بمجرّد سماعها.

عبر بروتوس إلى القارة الآسيوية[٢٥] بجيشه وقد أصبح لجِباً مرهوباً وأصدر أمراً بوضع الأسطول على قدم الاستعداد في بثينيا وفي الميناء المجاور چيزكوس Cyzicus. في حين قام بعدة جولاتٍ في داخلية البلاد لتفقّد المدن وكسب ولائها والعمل على تدبير شؤونها ومقابلة الحكام المحليين. وأرسل رسلاً إلى كاسيوس في سورية ليلتحق به متخلّياً عن حملته المنتواة إلى مصر. وذكّره بأنهما لا يتجوّلان في الإمبراطورية لاقتطاع أجزاءٍ منها لنفسيهما: بل إن غايتهما هي تأليف جيش لإسقاط الطغاة وتحرير بلادهما. فعليهما أن يضعا نصب أعينهما هذا الهدف وألاّ يبتعدا عن إيطاليا، بل يجب أن يسرعا بالعودة لإنقاذ أبناء وطنهما من الظلم.

وأطاع كاسيوس أمر الدعوة ولما قفل راجعاً خفّ بروتوس إليه وتقابلا في أزمير وكانت أول لقيا لهما بعد أن افترقا في پيريوس باثينا. حين توجه كاسيوس إلى سورية، وسار بروتوس إلى مقدونيا. وشعرا بارتياح وثقة عظيمين للقوات التي يقودها كل منهما. لقد خرجا من إيطاليا كأحقر المنفيين، بلا مال ولا سلاح ولا سفينة واحدة مجهّزة بمجاذيف ولا جندي تحت إمرتهما، فدار الزمان دورته القصيرة، وها هما يجتمعان الآن بعد اشهر قليلة يقودان أسطولاً وجيشاً من الخيّالة والمشاة، ولديهما مال وفير. وفي حالة مؤاتية جداً لخوض المعركة في سبيل الإمبراطورية الرومانية.

وكان كاسيوس يحرص أن يكونا متساويين مقاماً، إلاّ أن بروتوس كان يستبق نيّته بالذهاب لزيارته، إذ كان كاسيوس أكبر منه سِناً ولا يستطيع تحمّل درجة معيّنة من المشقة. كان كاسيوس يُعرف بالكفاءة العسكرية، إلاّ أنه اشتهر أيضاً بالطبع الحادّ العنيف، وممن يحافظ على سلطته بما يشيعه من رهبة، وإن كان مع أصدقائه المقرّبين قد يصل في مزاحه إلى حَدّ التهريج. إلاّ أن مناقب بروتوس جعلته محترماً عند الناس، محبوباً من الأصدقاء، موضع إعجاب الأفاضل، غير مكروه من أعدائه أنفسهم. وقد تميّز بطبع رقيق فريد في بابه وسمت روحه العظيمة عن الشعور بالغضب أو الفرح أو الطمع، ثابت لا يلين في تتبّع أهدافه، ولا ينكص عمّا يعتقده صواباً وشريفاً. إن

---

(٢٥) في آخر صيف ٤٣ ق.م.

إخلاصه التام لغاياته اكسبه الحب الأعظم والسمعة العليا. وپومپي الأكبر نفسه مثلاً ما كان يتوقّع منه لو انتصر على يوليوس قيصر أن ينزل عن سلطانه إلى حكم القانون وإنما سيظل يتولّى تصريف شؤون الحكم وفق هواه فلا يسرّح جيشه إطاعة لحكم القانون، وإنما كان سيهدّئ من روع الناس باتخاذه لقب قنصل أو دكتاتور أو أي عنوان سلطة آخر مقبول. ونعود إلى كاسيوس لنقول: لقد عُرف بعواطفه الجائحة العنيفة التي لا يمكن السيطرة عليها. وكثيراً ما ادّى به جشعه وحبه للمال إلى الزيغ عن الصراط المستقيم. ولذلك بدا من الطبيعي أن غايته من القتال وتنقّله في أرجاء الإمبراطورية والمجازفة بحياته لم تكن لأجل حرية أبناء وطنه بل لتأمين مركز عظيم لنفسه. إن زعماء الجيل الذي سبق جيل پومپي وكاسيوس رجال أمثال چنّا وماركوس وگاربو Carbo كلهم اعتبروا بلادهم غنيمة حرب وأنهم فعلوا كل شيء - إلاّ التصريح - لأجل التوصل إلى السلطة المطلقة.

والأمر يختلف عند بروتوس فأعداؤه أنفسهم لم يتهموه بخيانته مبادئه على هذه الشاكلة. في الواقع سمع كثيرون أنطوني يقول إن بروتوس هو الوحيد من المؤتمرين الذي اندفع إلى ذلك بشعور التسامي وبما اعتقده شرف القصد، في حين ائتمر الباقون جميعاً على قيصر لأنهم يكرهونه ويحسدونه. وواضح أيضاً من رسائل بروتوس أنه وضع ثقته في نبل قضيّته أكثر مما وضعها في قوة السلاح. فقبيل أزمة حظّه الختامية كتب إلى أتيكوس Atticus يقول إن أموره على خير ما يرام، وبأحسن ما يمكن أن يأتي به الحظّ، إذ إما أن يحقق النّصر وبعيد الحرية إلى الرومان وإما أن يموت فيكون شخصه بمنجى من الاستعباد. وفي الوقت الذي باتت المسائل كلها وقد سوّيت بشكل يبعث على الاطمئنان له ولأصدقائه بقيت مسألة واحدة موضع شكّ: هل سيعيشون ويكونون أحراراً، أو سيموتون؟ وأضاف يقول في الرسالة نفسها: إن مارك أنطوني يدفع ثمناً عادلاً لحماقته، فبدلاً من أن يختار في هذه اللحظة أن يحتلّ مكانه في التاريخ إلى جانب رجالٍ من أمثال بروتوس وكاسيوس وكاتو فضّل أن يجعل نفسه مجرّد تابع لأوكتاڤيوس، وتنبّأ بأنه إن لم يهزمهما كلاهما معاً، فلن يطول بهما الزمن حتى يقتتلا فيما بينهما.

وقد دلّ على أنه عرّاف ممتاز.

طلب بروتوس من كاسيوس جانباً من الأموال التي جمعها، معتذراً بأنه أنفق كل ما في حوزته على إعداد أسطولٍ كافٍ لسيطرتهما على البحر المتوسط. إلاّ أن أصدقاء كاسيوس عارضوا في ذلك قائلين إنه ليس من العدل في شيء أن يدفع لبروتوس تلك

الأموال التي وفرّها بالتقتير وعلى حساب شعور السخط بين الجنود، يستعملها في دفع أجور جنوده وتنمية شعبيته بينهم. على أن كاسيوس لم يُعر أقوالهم اهتماماً ودفع له ثلث ما لديه. وبعد هذا افترق الجيشان لينهض كل منهما بواجباته. فاستولى كاسيوس على رودس على أنه عاملهم بقسوة لا داعي لها قط. وكان سلوكه هذا يناقض الجواب الذي ردّ به على المواطنين حينما أخذوا ينادونه بسيّدنا وملكنا عند دخوله مدينتهم فقد قال لهم:

- أنا لست بسيّدٍ ولا بملك إلاّ أني عاقبت وقتلت الرجل الذي جمع في ذاته هاتين الصفتين.

ومن ناحية أخرى طلب بروتوس أموالاً وجنوداً من ليقيا Lycia[٢٦] فأجابه لاوقريطس Laucrates زعيمهم الديمقراطي بإقناع المدن على الثورة. واحتل الأهالي مرتفعات معيّنة كانت تعترض خطّ سير بروتوس فأرسل بادئ ذي بدءٍ قوة من الخيّالة باغتت العدوّ أثناء تناولهم الطعام الفطور وقتلت منهم ستمائة. ثم استولى على معاقلهم وقراهم إلاّ أنه أخلى سبيل كل أسراهم بدون فِدية يريد بذلك استمالة الأهالي برحمته وعدله. إلاّ أن الليقيين ظلوا معاندين واختاروا مداواة حقدهم بجراحهم، واحتقار إنسانية بروتوس وعطفه، حتى أرغم أصلب محاربيهم على اللجوء بأسوار مدينة كسانتوس Xanthus فحاصرهم فيها. فحاول الأهالي النجاة بالسباحة تحت الماء في النهر الذي يجري بمحاذاة المدينة فكان يلتقطهم بالشباك التي نصبها في مجراه فقد ربط بتلك الشباك أجراساً صغيرة ترنّ كلما سقط فيها سابح. بعد هذا حاول الكسانيتون القيام بهجوم خارج المدينة ليلاً وإشعال النار في بعض آلات الحصار، إلاّ أن الرومان فطنوا إليهم وأرغموهم على العودة. وهبّت ريح شديدة فوجّهت النار إلى استحكامات المدينة وإلى البيوت المجاورة لها وامتدت إليها حتى خشي بروتوس أن تأتي النار على المدينة كلّها فأمر رجاله بالتعاون مع الأهلين على إخمادها.

لكن حالة رهيبة لا توصف من اليأس تملكت الليقيين فجأة، حالة خير ما يمكن وصفها به هو الحنين الشديد للموت. فقد أخذ كل حيّ في المدينة امرأة كان أم طفلاً، حراً أم عبداً، من كل عمرٍ وطبقة يقذفون من الأسوار بالصواريخ الرومانَ الذين خفّوا لمعونتهم وهم يحاولون إخماد النيران، في الوقت الذي أخذ آخرون يجمعون الحطب والخشب وكل مادة قابلة للاحتراق لنشر الحريق في سائر المدينة، ويزيدون من وقيدها

---

(٢٦) إقليم في ساحل آسيا الصغرى الجنوبي، إلى جوار رودس.

بصبّ الزيت وكل سائلٍ ملتهب وكل ما من شأنه مضاعفة شدّتها. فسرت النار في جميع أنحاء المدينة وتصاعد اللهب وأصبحت كتلة واحدة من نارٍ. فركب بروتوس والأسى يغمر جوانبه وطاف حول الأسوار وأخذ يتوسّل إلى الكزانيثيين بأيدٍ ممدودة مناشداً إياهم أن ينقذوا أرواحهم ومدينتهم. فلم يصغ إليه بشرٌ وكان همّ الرجال والنساء أن يجدوا الوسائل السريعة لإهلاك أنفسهم لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم وأطفالهم وأحداثهم وهؤلاء الأخيرون كانوا يطلقون صرخات مرعبة وهم يقذفون بأنفسهم إلى الأتون، دعك ممن كانوا يلقون بأنفسهم من أعلى السور أو يعرّضوا أجسامهم لطعنات آبائهم متوسّلين إليهم أن يقضوا عليهم. بعد خراب المدينة الشامل وجِدت جثة امرأة مشنوقة وعلى صدرها تتدلّى جثه طفلها المشنوق أيضاً، وهي ما تزال ممسكة بالمشعل الذي أحرقت به بيتها. كان المنظر أليماً يقطع نياط القلب. ولم يكد بروتوس يطيق رؤيته فقد انفجر باكياً وأعلن عن مكافأة لكلّ جندي ينقذ كزانثياً واحداً. وقيل إنه لم يعثر على أكثر من مائة وخمسين من سائر السكان، تم إنقاذهم من الموت رغم أنفهم. وهكذا فقد أعاد التاريخ نفسه في هذه طبقاً لدورة خراب شامل مقدّرة الأجل: فإن أجداد هؤلاء الأقدمين، في أيام الإمبراطورية الپارثية[٢٧]، أقدموا على إحراق المدينة وإهلاك أنفسهم.

ما عتم بروتوس أن وجد نفسه بعد هذا يواجه مقاومة شديدة مماثلة من مدينة پاتارا Patara فتردد في مهاجمتها، واستبدّت به الحيرة فيما يصنع لأنه كان يخشى أن يصابوا بالأزمة التي أصيب بها الكزانثيون. ولما كان من بين أسراه بعض النسوة الپاتاريات فقد بادر بإطلاق سراحهنّ بدون فدية وكنّ بنات وزوجات أعلى رجال المدينة مقاماً، فروَين لذويهنّ ما لاقينه من حسن المعاملة وعظّمن أخلاق بروتوس وعدالته ولطفه حتى أقنعنهم بتسليم المدينة إليه، وبنتيجة ذلك حذا حذوهم كلّ سكان ليقيا، وأعلنوا خضوعهم لسلطته فوجدوا أن حسن معاملته وعطفه يفوقان كلّ ما توقّعوه. إذ كان كاسيوس في حدود ذلك الزمن قد أرغم الرودسيين على تسليم كل ما لديهم من ذهبٍ وفضّة يملكونه وبهذا ابتزّ منهم ثمانمائة تالنت تقريباً، ولم يكتف بهذا بل فرض على السكان جميعاً غرامة قدرها خمسمائة تالنت. ولم يطلب بروتوس من الليقيين أكثر من خمسمائة وخمسين تالنت ثم انطلق إلى أيونيا دون أن يُلحق بهم ضرراً بأي شكل كان.

وقام بروتوس بمآثر كثيرة أخرى وواكبت العدالة عقوباته ومكافآته. ولكني سأذكر

---

(٢٧) يصف هيرودوتس خراب كزانتوس على يد الجنرال الفارسي هرباغوس Harpagus.

واحدة كانت مصدر ارتياحه هو وارتياح أبرز الرومان في ذلك العصر. عندما نزل پومپي الأكبر لاجئاً في پلوسيوم بمصر بعد أن دالت دولته وتجرّد من كل سلطانه بهزيمته أمام يوليوس قيصر، تداول أوصياء الصبي «فرعون» مع أصدقائهم فانقسمت آراؤهم. فبعضهم ارتأى أن يمنحوا پومپي حقّ اللجوء، وبعضهم ارتأى أن يُطرد من مصر. إلاّ ثيودوتس الخيوسي Chios الذي كان قد استؤجر لتعليم الملك الصبيّ البلاغة والذي كان يُعَد راجح العقل لعدم وجود من يفضله، ولذلك كان عضواً في مجلس الشورى هذا. فقد صَرّح قائلاً إنّ الفريقين مخطئان، أولئك الذين يحبّذون قبوله وأولئك الذين يرون إخراجه، والموقف يتطلب موقفاً واحداً ليس إلا وهو القبض عليه وقتله. ودعم حُجّته هذه بالمثل التالي:

«الرجل الميّت لا يعضّ».

فوافق المجلس على رأيه ووقع پومپي الأكبر ضحيةً حذلقة معلّم بلاغة سفسطائية، وكما اعتاد ثيودوتس هذا أن يتباهي، أو كمثل على تقلّبات الحظ العجيبة غير المتوقعة. ولم يمرّ زمن طويل حتى وصل قيصر إلى مصر ونال بعض القتلة جزاءهم العادل وذاقوا مرارة موتٍ استحقوه. على أن الحظّ مَدّ في حياة ثيودوتس قليلاً، ولكنه أسلمه إلى حياة الفقر والذلة والتنقل. إلاّ أن يد بروتوس طالته أثناء ما كان يعبر آسيا فأمسك به وقتله. وكان موته أكثر ذكراً من أي حادث في حياته.

ودعا بروتوس زميله كاسيوس لينضمّ إليه في ساردیس. وخرج لاستقباله وهو في طريقه له مع جماعة من أصحابه، واصطفّت القوات المختلطة بهيئة الاستعراض وحيّتهما بلقب إمبراطور. ولكن الخلاف الحادّ نشب بينهما، كما يحصل عادة في المشاريع العظيمة التي تضمّ عدداً كبيراً من القادة والأنصار، وتبودلت التهم فيما بينهما. ولذلك قرّرا قبل كل شيء أن يعقدا فيما بينهما اجتماعاً مغلقاً بمعزلٍ عن كلّ أحدٍ. فأوصدت الأبواب دونهما وبدأ الرجلان يتلاومان ثم يتبادلان التهم، وسرعان ما انتقلا إلى الملاحاة والبكاء.

واستولت الدهشة على أصدقائهما في الخارج وهم يسمعون صياحهما وهياج عواطفهما وخافوا سوء العاقبة، إلاّ أنهم لم يجرؤوا على دخول الغرفة لأن الأوامر كانت جازمة. إلاّ أن ماركوس فاڤونيوس الذي كان من المعجبين بكاتو وممن يتعاطون الفلسفة بدافع من التعصّب العاطفي لا من القناعة العقلية، حاول الدخول عليهما لكن الخدم منعوه. إلاّ أنه كان شديد العناد ما إن يقرر شيئاً حتى يعمله ولا يكون منعه عنه بالسهل فهو كما ذكرنا رجل مندفع بالعاطفة والتطرّف. ولم يكن ليعلّق كبير أهمية على

مركزه كعضو في مجلس الشيوخ الروماني. وباتخاذه سلوكاً معيّناً يتميّز باللامبالاة والسخرية كان يزيل في الواقع الآثار التي تخلّفها خشونته ويخفف من وقع كلماته الجارحة. ونجم عن ذلك أن الناس عدّوا وقاحته مُزاحاً. وفي هذه المناسبة شقّ طريقه بالقوة بين الواقفين واقتحم الغرفة وأنشأ يقتبس مقاطع من هوميروس - تلك التي استخدمها نسطور Nestor مع آخيل وآغاممنون - ويلقيها بلهجة مسرحية:

«فلتطيعا أحكامي، فأنا أكبر منكما
سِنّاً وأوفر منكما حكمة!»[٢٨]

واستمرّ في ذلك، فضحك كاسيوس إلاّ أن بروتوس دفع به إلى خارج الغرفة قائلاً له إنه قد يدّعي بفلسفة الكلبيين[٢٩]. الاّ أن كل ما لديه منها في الواقع هو صفاقة الكلب.

على أن هذه الحادثة أحدثت أثرها وحسمت النزاع إلى حين وافترقا حالاً. ثم إن كاسيوس أقام مأدبة عشاء دعا إليها بروتوس وأصدقاءه ضيوفاً. وفيما كان المدعوون يهمّون بالجلوس على أرائكهم وصل فاڤونيوس وقد اغتسل وشيكاً. فناداه بروتوس قائلاً إنه ليس مدعواً، وأمر الخدم أن يجلسوه على أريكة في آخر الغرفة. إلا أن فاڤونيوس اندفع إلى أمام وتقدم ليأخذ محلّه في إحدى الأرائك الوسطى[٣٠] وأخذ المرح يتسرّب تدريجياً إلى النفوس بعد أن أديرت الرّاح، وأخذت النوادر والآراء الفلسفية تطرّز الأحاديث وتضفي على الدعوة كثيراً من الظرف والامتاع.

في اليوم التالي أدان بروتوس علناً لوچيوس بللا Lucius Pella وحقرّه؛ وهو روماني يتولّى منصب پريتور وصديق لبروتوس، إلاّ أن أهالي سارديس اتهموه باختلاس الأموال العامة فحنق كاسيوس حنقاً شديداً. إذ قبل أيام قلائل لا غير واجه اثنان من أصحابه تهمة مشابهة فلم يفعل شيئاً أكثر من تأنيبهما سِرّاً إلاّ أنه برّأهما علناً وأبقاهما في وظيفتيهما. ولذلك لام بروتوس على صرامته وتمسّكه بحرفيّة القانون بكل تزمّتٍ في حين تتطلب الظروف الحاضرة منهما كثيراً من اللباقة وحسن التصرّف. فأجاب

---

(٢٨) الإلياذة ١: ٢٥٩.

(٢٩) إن أتباع هذه فلسفة يعرفون بـ Cynics (أشباه الكلاب). لسلوكهم الفظ الذي يتعمّدون الظهور به.

(٣٠) يضع الرومان ثلاث أرائك حول مائدة عشائهم، ويتركون الجانب الرابع مفتوحاً، والأريكة الوسطى تُعتبر موضع الشرف.

بروتوس مذكّراً إياه بمنتصف آذار يوم قتلا يوليوس قيصر لا لأنه كان ينهب الناس، بل لأن سلطته شجعت بعضهم على النهب. واستطرد يقول:

- لو أننا نحاول أن نتلمّس العذر في إهمالنا تطبيق العدالة لكان من الأفضل أن نتغاضى عن أعمال أصدقاء قيصر على أن نترك أصدقاءنا يخطئون. ففي هذه الحالة سنوصم بالجبن ولا أكثر. ولكنا الآن معرّضون للاتهام بالجور والظلم بعد كل ما عانينا من تعب وتعرّضنا له من أخطار.

تلك هي المبادئ الذي وضعها بروتوس نصب عينيه. وعندما أزف وقت الرحيل عن آسيا إلى بلاد اليونان قيل إن بروتوس رأى آيةً عجيبة: لقد كان نومه خفيفاً وقد تمكن بالتدريب وضبط النفس من تقليل اوقات نومه إلى ساعات قليلة. ولم يكن ينام أثناء النهار ولم يكن يفعل ذلك ليلاً إلاّ بعد أن يأوي كل واحد إلى فراشه ولا يعود ثمّ من يتحدث إليه أو حاجة تستدعي منه الحَلّ. في تلك الأيام عندما بدأت الأعمال الحربيّة، ووقع ثقلها كلّها على عاتقه وكانت الأفكار عن المستقبل تزعج رأسه، اعتاد أن ينام نومته الأولى ليلاً بعد العشاء. ثم يقضي بقية الليل في تصريف أعجل الشؤون وادعاها إلى الاهتمام. وإن استطاع أن ينتهي من ذلك في وقت قصير فإنه يقرأ حتى الهزيع الثالث، أي التبديل الثالث للحراسه عندما يمثل أمامه التريبيونون وقواد المائة لتلقّي الأوامر. وفي ليلة من الليالي قبل أن يعبر الجيش إلى بلاد الإغريق كان جالساً بمفرده في خيمته التي يضيئها نور معتم وكان الوقت متأخراً والسكون يخيّم على المعسكر كلّه. وخيّل له وهو في استغراق تأمّلي أنه سمع من يدخل عليه فرفع بصره مستطلعاً فرأى شبحاً رهيباً غريباً لجسم غير إنساني يقف إلى جانبه. فسأله بروتوس بما استجمع من شجاعة:

- من تكون بين الرجال أو الآلهة وماذا تريد منيّ؟

فأجاب الطيف:

- إني جنّيك الشرير يا بروتوس: وستراني في فيليبي.

فقال بروتوس دون أن يفارقه ضبط نفسه:

- سألقاك هناك إذن.

وعند تلاشي الطيف استدعى بروتوس خدمه، فأكدوا له أنهم لم يسمعوا صوتاً ولم يروا أحداً. فبقي ساهراً حتى الصباح حيث قصد كاسيوس حالاً وأخبره بما رأى. وكان كاسيوس أبيقوريّ المذهب وكثيراً ما كان يناقش بروتوس في مثل هذه المسائل. وكان رأيه في هذه المناسبة هو ما يلي:

- إن وجهة نظرنا يا بروتوس هي أن ليس كل ما نراه وندركه بحواسنا الجسميّة هو حقيقي ومادي، فبالدرجة الأولى إن المدركات التي تأتينا عبر الحواس هي خادعة وغير مستقرة. وبالدرجة الثانية إن ذكاءنا سريع في تغيير التجربة نفسها - تغييراً قد يكون وهماً كبيراً - إلى أشكال وهيئات مختلفة. إن ما تسجّله الحواس في الواقع هو ما يسجّله ضمّ الشمع، والروح الإنسانية التي تتضمّن خاصيّة الليونة. والمادة التي تعمل على الشمع تستطيع أن تكيّف موضوعات الحواس بالشكل الذي تريد. وبإمكاننا أن نجد هذا يعمل في أحلامنا حيث تقوم المخيّلة بتغيير تجربة غير مادية تماماً إلى كلّ شكل من أشكال العواطف والهيولات. إن طبيعة المخيّلة أن تظلّ فعالة إلى الأبد، وهذا العمل يعبّر عن نفسه إمّا بالتوهّم وإما بالفكر. وفي قضيتنا هذه كان الجسم مرهقاً بالعمل المتواصل فمن الطبيعي أن يؤثر ذلك على الذهن، فيجعله في تفزّع مستمر ووضع غير اعتيادي. إنّ هذه الحالة تثير الذكاء وتشوّهه معاً. أما بخصوص الأرواح فأنا لا أعتقد بوجدوها أو إذا كانت موجودة بحيث يمكنها أن تتخذ شكل إنسان وتتحدث مثله أو أن تمارس سلطاناً كفيلاً بالتأثير علينا. وأمّا من جهتي فإني لأرجو أن تكون موجودة وإن ما يقال عنها صحيح، فإذ ذاك لا نكتفي بالاعتماد على جيشنا وخيّالتنا وأسطولنا بل أن نعتمد على الآلهة أيضاً ما دمنا نتزعّم قضيّة عادلة نبيلة مقدسة.

هذا الحديث والبراهين استخدمها كاسيوس لطمأنة بروتوس. وفي الوقت الذي باشرت القوّات بصعود السفن لاجتياز المضائق إلى بلاد الإغريق عبر المضائق حلّق نسران وحطّا على اللواءين المتقدمين وحُملا وهما مستقران فوقهما خلال المسيرة. وكان الجنود يطعمونهما حتى وصل الجيش فيليبي، إلاّ أنهما طارا قبل المعركة بيوم واحدٍ.

سبق لبروتوس أن أخضع مُعظم الشعوب التي كان الجيش يمرّ بها. وبلغ الآن الساحل التراقي وأخذ يتقدم بمحاذاته مستولياً على نقطة تقع مقابل جزيرة تاسوس Thasos. ووجد نربانوس Narbanus معسكراً بجيشه في المضائق بالقرب من سيمبولوم Symbolum فطوّقه وضيّق عليه الخناق حتى أجبره على التقهقر وإخلاء الميدان. في الواقع كاد أن يأسر كلّ جيشه، لأن زحف أوكتافيوس قيصر تعوّق بسبب مرضه، ولولا سرعة أنطونيو في إنجاده، تلك السرعة العجيبة التي أذهلت بروتوس، لقضي على قواته. ووصل أوكتافيوس بعد عشرة أيام وضرب معسكره مقابل بروتوس، في حين كان كاسيوس يواجه أنطوني.

إن رقعة الأرض التي تفصل بين المعسكرين عرفت عند الرومان باسم سهول

فيليبي. ولقد كان أعظم جيشين رومانيين يواجه أحدهما الآخر في معركة. كانت قوة بروتوس أقلّ عدداً بكثير من قوات أنطوني وأوكتافيوس ولكنها تتفوّق بجودة سلاحها وتجهيزاتها مما جعلها تبدو منظراً رائعاً. فمعظم الدروع كانت مكفّتةً بالذهب والفضّة بسبب ما أغدقه عليهم بروتوس من سخائه.

لقد عوّد ضباطه على مستوى معيشةٍ معتدلٍ تشوبه الصرامة في النواحي الأخرى. إلاّ أنه اعتقد بأن الثروة التي يحملها المرء بين يديه أو يضعها على ظهره ترفع من معنوياته وتزيد من إقدامه، لاسيما الجندي الكفوء الطموح، أما أولئك الذين حصروا همّهم بالربح فإنهم يقاتلون بأكثر ضراوة حرصاً منهم على تروسهم لأنها كلّ ما يملكونه.

واستعرض أوكتافيوس قيصر جنوده وقام بمراسم الطهارة في استحكاماته ثم وزّع وجبة طعام صغيرة وخمسة دراخمات على كلّ جندي لأجل القيام بالتضحية المعتادة. وأظهر بروتوس وكاسيوس استحقارهما لفقر عدوّهما وخِسّته بإجراء مراسم الطهارة في أرض مكشوفة خارج الاستحكامات كما هي العادة، ووزعا عدداً كبيراً من الأضاحي لكلّ كتيبة. وأعطيا كل جندي خمسين دراخما. وبهذا رفعا معنويات الجيش وإخلاصه أكثر مما فعل العدوّ بكثير. وفي الوقت عينه وقع لكاسيوس أثناء المراسم حادث شؤمٍ فقد جاءه ليكتوره بإكليل الزهر الذي كان سيضعه على رأسه مقلوباً. وفي مناسبة أخرى سبقت هذه كان ثم موكب لاحتفال ديني حُمِل تمثال ذهبي لربّ النصر يعود لكاسيوس فسقط على الأرض عندما زلّت قدم حامله. أضف إلى هذا أنّ عدداً كبيراً من الجوارح شوهدت تحوّم فوق المعسكر يومياً وشوهدت كذلك أسراب من النحل تتجمّع في محلات معيّنة بين الخطوط، فعزلها السحرة بسياج لإزالة روح التشاؤم والخوف الوهميّ بوسائلهم. فقد هبطت به معنويات الجنود كما بدأت تزعزع عقيدة كاسيوس الأبيقورية. ولهذا السبب لم يشأ أن يضع مصيرهم في تجربة معركةٍ مع العدوّ وقتئذ وفضّل في هذه الحالة إطالة أمد الحرب لأنّ قوة حربهما تكمن في مواردهما في حين كانا أضعف من خصمهما نسبياً في الرجال والسلاح. إلاّ أن بروتوس كان يرغب في دخول المعركة الفاصلة بأسرع ما يمكن من الوقت فإمّا ينقذ بلاده من الاضطهاد ويعيد إليها حريتها وإمّا ينهي شتاء أولئك الذين أثقلوا بأعباء الحرب ونفقات وخدمات وإتاوات وتطوّع فيها. واتفق في تلك الأثناء انّ خيّالته الخفيفة انتصرت في بعض المعارك الثانوية التمهيدية فشدّت من عزيمته، كما هرب بعض الجنود من معسكر أوكتافيوس والتحقوا به، وانتشرت اشاعات بأن مزيداً من هؤلاء سيلتحقون به. وقد

أقنع هذا السبب كثيراً من أصدقاء كاسيوس في مجلس الحرب على تبنّي رأي بروتوس. ومهما يكن فإن اتيلليوس أحد أصدقاء بروتوس عارض في خطته ونصح بتأجيل المعركة إلى ما بعد انقضاء الشتاء. فسأله ما الذي يجعله يعتقد أنه سيكون أحسن حالاً وتوفيقاً بعد سنة؟ فأجاب:

- على الأقل أكون قد أطلت عمري سنةً واحدةً إن لم يكن ثمّ أكثر من هذا.

لم يسرّ كاسيوس من هذا الجواب مطلقاً في حين جرح مشاعر بقيّة أعضاء مجلس الحرب. وأخيراً تقرّر الدخول في المعركة ثاني يوم.

وظهر بروتوس في عشاء تلك الليلة مُفعماً بالثقة، وساهم في المناظرات الفلسفية مع أصدقائه ثم ذهب للنوم. أما كاسيوس فقد كان على خلاف ذلك، على حَدّ ما يذكر لنا ميسّالا Messala. فقد تناول عشاءه مع أخصّ خاصّته وبدا واجماً كثير التفكير خلافاً لعادته. وبعد أن فرغوا من العشاء ضغط على يد ميّسالا بحرارة وأخذ يكلّمه باليونانية على عادته عندما يريد إظهار مودّته فقال:

«أشهد عليّ يا ميسّالا بأني أُرغمت على هذا مثلما أرغم پومپي الأكبر من قبلي. لقد أُجبرت على المغامرة بمصير بلادي بمعركة واحدة. لكن علينا أن نشدد من عزائمنا وأن ننظر إلى الحظّ بعين غير واجفة ونحن ننتظر حكمه. فعلينا أن لا يفقد ثقتنا به وإن كان في رأينا خَطَلُ».

يقول ميسّالا: كانت هذه كلماته الأخيرة التي وجّهها إليه وبعدها تعانق الرجلان. وكان كاسيوس قد دعا ميسّالا إلى العشاء في اليوم التالي الذي يوافق عيد ميلاده.

وما إن أصبح الصبح حتى كانت شارة المعركة وهي الوشاح القرمزي قد رُفعت أمام معسكري بروتوس وكاسيوس. وخرج الجنرالان والتقيا في الفسحة التي تفصل ما بين معسكريهما. وبهذه المناسبة وجّه كاسيوس إلى بروتوس الكلام التالي:

- ألا فليكن هذا اليوم موعد النصر لنا يا بروتوس، وأن نتقاسم ثمار نجاحنا حتى نهاية حياتنا. ولما كانت أعظم أمنيات المرء هي أبعدها تحقيقاً، ولما كان من أضعف الاحتمالات أن نلقى بعضنا بعضاً إن دارت الدائرة علينا، فأجبني ماذا اعتزمت أن تفعل إذا خُيّرت بين أمرين لا ثالث لهما: الهرب والموت.

فأجاب بروتوس:

- أي كاسيوس عندما كنت صغيراً غرّاً لا أعرف عن الدنيا إلاّ قليلاً ألجئت، ولا أدري كيف، إلى إعطاء أحكام متسرّعة عن الفلسفة. فأنحيت باللوم على كاتو لأنه انتزع حياته بيده ولكوني توهمت بأن محاولة تحاشي الطريق الذي رسمته العناية الإلهية

للاشياء، وعدم القبول بكلّ ما يأتي به القدر دونما وجلٍ والهروب منه، إنما هو مروق عن الدين وضعف لا يليق بالرجل. لكني أرى الأمور الآن - وبالنظر إلى واقع حظوظي - بمنظار مختلف. فإن لم تعط الآلهة حكمها لصالحنا، فليس لي رغبةٌ في تجربة آمال أو خطط أخرى، وسأموت قانعاً بحكم مصيري. في منتصف آذار وهبتُ حياتي لبلادي ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش لأجلها حياة ثانية حُرةً مجيدةً.

فابتسم كاسيوس وعانق بروتوس وقال:

- والآن وبعد أن استقرّ عزمنا على هذا، فلنكرّ على العدوّ: فإمّا تحقق لنا الغلبة، وإمّا لن يصيبنا خوفٌ من المنتصر.

ثم انثنيا إلى أصدقائهما وأنشآ يبادلانهم الحديث حول أوامر القتال وخططه. وطلب بروتوس من كاسيوس أن يسمح له بقيادة الميمنة وان كان هذا من حق كاسيوس عادةً بسبب تقدّمه عليه في السنّ والخبرة. ولم تقتصر موافقة كاسيوس على هذا، بل أمر ميسّالا الذي يقود خيرة الجنود في جيشه أن يتمركز بها على الجناح الأيمن. وأسرع بروتوس بتحريك خيّالته الممتازة التسليح ورصّ مشاته بنسق المعركة بنفس الفوريّة.

في الوقت نفسه كان جنود أنطوني يعلمون على حفر خنادق من المستنقعات حيث يعسكرون حتى السهل، ليقطعوا على كاسيوس طريق البحر. وكان جنود أوكتافيوس يتبعون في غياب قائدهم المريض خطته في اتخاذ موقف الدفاع، إذ لم يتوقعوا أن يجازف العدوّ بمعركة فاصلة. بل افترضوا أن يقتصر تعرّضه لهم على بعض الهجمات الموضعية والمناوشات لإقلاق الرجال الذين كانوا يحفرون الخنادق بالصياح وبقذفهم ببعض الحراب الخفيفة. وبما أنهم لم يكونوا يراقبون القطعات وهي تتحرك وتتخذ مواقعها مقابلهم فقد أدركتهم الحيرة بالضجّة والصيحات المختلطة التي بدأت تتناهى إليهم من الخنادق. وفي تلك الأثناء أصدر بروتوس رسائله إلى ضباطه بكلمة السِرّ مكتوبة فيها، في حين أخذ يستعرض خطوط الفرق المصطفّة ويشجّع الجنود. في الواقع لم يسمع بكلمة السِرّ وهي تُنقل بين الصفوف إلاّ قسمٌ قليلٌ ولكن الأغلبية الساحقة عملت بوحي من غزيرتها دون انتظار لكلمة السِرّ، فانقضّوا بأنفسهم على العدوّ وهم يطلقون صيحة الحرب كرجلٍ واحد، وبذلك تباعدت الشقة فيما بينهم وفقدوا الاتصال. ودارت فرقة ميسّالا أولاً بجناح أوكتافيوس قيصر الأيسر وتبعتها الفرق الأخرى ثم مضت بعيداً في حركتها التطويقية واشتبكوا بخطوط العدوّ الخلفيّة لفترة قصيرة ولم يقتلوا منهم كثيراً. ثم إنهم داروا بحركة التفاف حول الجناح كله واندفعوا

إلى داخل المعسكر. ولقد كتب أوكتاڤيوس قيصر في مذكراته كيف أن أحد أصدقائه المدعو فاركوس أرتوريوس Marcus Artorius رأى في الحلم كيف كان أوكتاڤيوس يحثّ على ترك فراشه والخروج من المعسكر. وقد أخذ بهذا النذير فأمر بأن يُحمل إلى خارج المعسكر قبل مهاجمة معسكره بفترة جدّ قصيرة. وانتشرت الإشاعة بأنه قُتل لأن الجنود خرقوا مِحفّته الخالية بطعناتهم ورماحهم ومقذوفاتهم. وتم الاستيلاء على المعسكر وحصلت مذبحة عظيمة فيه فقُتل ألفان من اللقيديميين الذين التحقوا مؤخراً بقيصر ولم ينج منهم رجل واحد.

أما بقية جيش بروتوس الذي لم يطوّق العدوّ المقابل، واشتبك بالقسم الأكبر، فقد حقق الغلبة عليه بسهولة، وأباد ثلاث فرقٍ عن بكرة أبيها في قتال اليد باليد، واندفعوا إلى الأمام ثملين بخمرة النصر ومعهم بروتوس نفسه. واندفعوا إلى المعسكر في أعقاب المنهزمين، إلاّ أن المنتصرين هنا ارتكبوا غلطةً فقد أسرع عدوّهم المتقهقر باهتبال الفرصة. كانت ميمنة بروتوس قد تحركت وأخذت بالمطاردة فانفصلت عن القسم الرئيس تاركة القلب مختلاً ومكشوفاً. وهنا قام العدوّ بهجومه المعاكس. فصمد القلب ودافع دفاعاً مجيداً إلاّ أن الميسرة التي اختلّت صفوفها ودبّت الفوضى في تشكيلاتها ولم تدر ما حدث في سائر ميادين القتال حلّت بها الهزيمة. ودفع بهم جنود أوكتاڤيوس إلى معسكرهم وألقوا الحصار عليه. وفي هذه الموقعة لم يتواجد أي قائدٍ من الجيشين، فقد ذكروا أن أنطوني انسحب إلى المستنقع لاجتناب عنف الهجمة الأولى. وأوكتاڤيوس لم يكن يُعلم مكانه بعد أن نُقل من معسكره. مع أن بعض الجنود لوّحوا بسيوفهم الدامية لبروتوس زاعمين أنهم قضوا عليه ووصفوا له شكله وقيافته وعمره. وفي تلك الأثناء تمكن قلب جيش بروتوس من المهاجمين ودحروهم وأوقعوا بهم مقتلة عظيمة. وقد وضح تماماً أن بروتوس انتصر في هذا القطاع من الجبهة، مثلما أصيب كاسيوس بهزيمة ساحقة في القطاع الآخر وسلّم بالهزيمة، الأمر الذي أدّى إلى خطأ مميت، لأن بروتوس لم يخفّ لنجدته ظاناً أنه قد انتصر مثله. كما أن كاسيوس لم يكن يتوقع نجدة بروتوس ظاناً أنه قد هُزم مثله وقُتل دون أن ينتظر نجدة منه. وعلى أية حال فإن ميسّالا كان يرى بروتوس منتظراً بدليل اغتنامه ثلاثة نسور وعددٍ كبير من الألوية من العدو في حين لم يغتنم خصمه شيئاً منه.

بعد أن نهب بروتوس معسكر أوكتاڤيوس قيصر وفيما هو عائد من المطاردة أدهشه أنه لم ير خيمة كاسيوس التي كانت أعلى من البقية، ولا الخيم الأخرى في أماكنها المعتادة إذ إن معظمها وقع في يد العدو فنصبها وقوّضها عند هجومه على المعسكر.

إلاّ أن أتباعه الذين كانوا يتمتّعون ببصرٍ حديد قالوا إنهم يرون من بعيد دروعاً كثيرة وتروساً فضيةً وكثيراً من الخوذ تسطع وترسل شعاعاً في ما حول مخيّم كاسيوس ومن عددها وشكلها لا يظنون أنها لأولئك الذين تُركوا للقيام بحراسة المعسكر. وفي الوقت نفسه قالوا إنهم لا يرون العدد المتوقع من جثث القتلى حين تشتبك عدة فرقٍ وتُمنى بالهزيمة. كانت هذه الإشارة الأولى إلى النكبة، فترك حرسه في معسكر العدوّ وأصدر أمره بإيقاف المطاردة ونظم قواته لنجدة كاسيوس.

وكان موقف كاسيوس كالآتي:

في مبدأ الأمر استاء كثيراً من هجوم بروتوس الأول الذي جرى قبل انتظار كلمة السِرّ، أو الأمر ببدء التعرّض. ولم يُسرّ بل زاد حنقاً بعد نجاح هجومهم واندفاعهم إلى النهب والسلب في معسكر العدوّ دون أن يفكروا في تطويق العدو وإكمال حركة الالتفاف. على أن خطته كانت مشوبة بالتردد وكثرة التحسّب والحذر، أكثر مما كانت حاسمة سريعة. ولذلك وجد نفسه مطوّقاً بميمنة العدوّ، واستدارت خيّالته فجأة واتجهت نحو البحر وعندما وجد مشاته تتقهقر أيضاً حاول رصّ صفوفها وإعادتها إلى مواقعها، واختطف علماً من أحد حملة الأعلام أثناء فراره وركزه في الأرض أمامه، وإن كان حرسه الخاص قد أخذ يبدي علائم الوهن وخور النفس. أخيراً اضطر إلى الانسحاب مع شرذمة من أتباعه إلى تلّ صغير مشرف على السهل وكان كليل البصر فلم يتبيّن أن معسكره يتعرّض للنهب. على أن الخيّالة القليلين الذين كانوا معه تبيّنوا قطعات كبيرة من الخيّالة تتجه إلى مواقعهم وهي التي أرسلها بروتوس في الحقيقة إلاّ أن كاسيوس حسبها خيّالة عدوّة خرجت لمطاردته، على أنه أرسل تيتينيوس Titinius لمعرفة هوية المتقدمين. ولما اقترب منهم وعرفوا به أحد أعوان كاسيوس المخلصين، احاطوا به وراحوا يهتفون هتاف الفرح وترجّلوا وأخذوا يصافحونه ويعانقونه، ودارت به الخيّالة يصيحون ويهتفون من فرط سرورهم. إلاّ أن هذه المظاهر سبّبت أعظم النكبات. فقد اعتقد كاسيوس أن رسوله وقع في أسر العدّو فصاح قائلاً:

- أحببتُ الحياة وتعلّقت بها كثيراً إلى الحَدّ الذي صرت معه أشهد أصدقائي يقعون في الأسر أمام عيني.

وعلى إثر ذلك انسحب إلى خيمة خالية وليس معه غير عتيقه پندارس Pindarus. كان كاسيوس منذ نكبة الحملة الپارثية عندما خدم تحت إمرة كراسوس قد درّب هذا الرجل ليقوم بدوره في مثل هذه الحالة الاضطرارية. تمكن كاسيوس من الإفلات أثناء تلك الحملة إلاّ أنه غطى رأسه بوشاحه وحسر عن عنقه ليتلقى الطعنة القاتلة. ووجد

رأسه مفصولاً عن جسده فيما بعد. إلاّ أن پنداروس لم يُرَ بعد موت سيّده. ولذلك ظنّ بعضهم أنه قتل كاسيوس دون انتظار أمره.

ما لبثت جماعة كاسيوس أن تبيّنت هويّة الخيّالة المتقدمة، وشاهدت تيتينيوس وهو مكلل الرأس بالزهر، يخبّ بحصانه متجهاً إلى كاسيوس. لكنه أدرك موته من بكاء ورثاء أصحابه. وما إن أدرك الخطأ الفادح الذي تسبّب فيه حتى أخذ ينحى على نفسه باللائمة لتأخره ثم استلّ سيفه وسقط عليه وبخع نفسه.

عندما تأكد بروتوس من هزيمة كاسيوس أسرع إليه على أنه لم يُبلّغ بنبأ موته حتى أصبح قريباً من معسكره فوقف عند جثته وراح يندبه وسمّاه بآخر الرومان، قاصداً بهذا أن روما لن تنجب بعده رجلاً بمثل هذه الروح العالية. وكُفّن جسده وأُرسل إلى تاسوس لدفنه خوف أن يُحدث تشييعه في المعسكر اضطراباً. ثم إنه جمع الجنود وراح يعزّيهم على مصابهم به وأخذ يستنهض هِممهم ويرفع من معنوياتهم الهابطة. ووجد أن نهب المعسكر قد جرّدهم من أدنى ضروريات العيش فوعد كل واحدٍ منهم بألفي درهم تعويضاً عمّا فقدوه فأذهلتهم قيمة المكافأة وارتفعت معنوياتهم بكلماته وشيّعوه بالهتافات، واصفين إياه بأنه أحد جنرالات أربعة لم يغلبوا في المعركة. وقد أيّدت الوقائع أن ثقته بالنصر كان لها كل مبرّراتها فبفرق قليلة سحق كل مقاومةٍ واجهته وهزم عدوّه. ولو أنه ركّز كل قواته وزجّ بها في هجومه، ولو لم يتعدّ القسم الأكبر من قواته خطوط العدوّ وينهمكوا في سلب ممتلكاته، لكان من المؤكد تحقيقه هزيمة العدوّ الساحقة.

كانت خسائر بروتوس في هذه المعركة ثمانية آلاف قتيل بينهم المراسِلَة والخدم الذين يعرفون باسم Briges. ويقدّر ميسّالا خسارة أنطوني وأوكتاڤيوس بضعف هذا العدد. لذلك كانوا أكثر خوراً ووهناً حتى أقبل على أنطوني أحد خدم كاسيوس واسمه ديمتريوس مساء ذلك اليوم ومعه السيف والثياب التي نزعها من جسد سيده. فرفع ذلك معنوياتهم إلى حدٍ كبيرٍ حتى أنهم أخرجوا القطعات في بكور اليوم التالي واتخذوا وضع القتال. وكان المعسكران اللذان صار الآن بروتوس يقودهما قد دبّ فيهما الاضطراب الشديد، فمعسكره مكتظّ بالأسرى الأمر الذي كان يلجئه إلى تخصيص حرس قويّ، في حين كان الضيق مستولياً على جنود كاسيوس لتبدّل القائد. وكان الحسد والحقد يعمل في نفوسهم بسبب النصر الذي حازه رفاقهم في المعسكر الثاني. لذلك قرر بروتوس إبقاء جنوده تحت السلاح على أن لا يجازف بمعركة. ووجد أن عدداً كبيراً من العبيد الذين أسرهم يتحركون حركات مريبة بين أسرى الحرب فأمر بقتلهم. كما أنه

أمر بإطلاق سراح بعض الأسرى الأحرار مصرّحاً بأن العدوّ هو الذي حرمهم في الواقع من حريتهم فهم أسرى وعبيد تحت قيادته في حين أنهم مواطنون رومانيون أحرار عنده. ولما تبيّن أن أصدقاءه وضباطه يهمون بالانتقام منهم أنقذهم بإخفائهم ثم عاونهم على الفرار.

وكان من بين الأسرى الممثل ڤولمنيوس Volumnius والمهرّج ساكيوليو Sacculio وجد بروتوس أنهما أقل شأناً من أن يُلحظ وجودهما إلاّ أن أصدقاءه جاؤوا بهما متذمّرين وقالوا إنهما لم ينفكا عن إرسال النكات الوقحة والتعليقات السليطة في موقف لا يحتمل الهزل والمزاح. وكان لبروتوس الكثير مما يشغله عن هذه الأمور فلم يقرر شيئاً بحقهما إلاّ أن ميسالا كورڤينوس ارتأى أن يُجلدا علناً فوق المرسح وأن يرسلا عاريين إلى قواد العدوّ بوصفهما خير رفاقٍ وندمان شراب لأولئك القادة، فضحك الحاضرون. إلاّ أن پوبليو كاسكا أول طاعني يوليوس قيصر قال:

- أترى من اللائق يا بروتوس أن نحتفل بجنازة كاسيوس بالسخر والمزاح على هذه الشاكلة؟ ألا إننا سنرى أي منزلة لكاسيوس عندك، من موقفك هنا. هل ستحمي هذين الرجلين اللذين حقّراه وأساءا إلى ذكراه أم ستعاقبهما؟

فأخذت بروتوس سَورة من الغضب وصاح قائلاً:

- إذن لماذا تسألني عن رأيي يا كاسكا بدلاً من أن تفعل أنت نفسك ما تراه مناسباً؟

وقد عُدّ جواب بروتوس إذناً بقتل هذين التاعسين فاقتيدا إلى حيث قُتلا.

بعد هذا أصدر بروتوس أمراً بدفع المكافأة التي وعد بها الجنود. وبعد أن أنّبهم تأنيباً خفيفاً لأنهم لم ينتظروا كلمة السرّ، وإنما كرّوا على العدوّ في هجوم طائش دون أمرٍ، وعدهم أن يستبيح لهم مدينتي سالونيكي ولقيديميون ليسلبوهما إن أحسنوا القتال في المعركة التالية. كانت هذه التهمة الوحيدة التي لا يمكن الدفاع عنه إزاءها في سائر حياته. الحق يقال إن أنطوني وأوكتاڤيوس ارتكبا من أعمال العنف والقسوة ما يفوق هذا بكثير في ابتزاز المكافآت لجنودهما وطرد الأهالي من أراضي أسلافهم في طول إيطاليا وعرضها لإغناء أتباعهما ومن والاهما بالمدن والمقاطعات التي لا حقّ لهم فيها. إلاّ أن الفتح والسلطة العليا هما الهدفان اللذان كانا يتوخّيانه من الحرب. في الوقت الذي كان بروتوس يتمتّع بسمعة واشتهار في الفضيلة بين الناس، حتى أنهم لا يرونه قادراً على أن يغلب أو ينقذ نفسه إلاّ إذا استخدم وسائل شريفة عادلة. وقد أصبحت هذه الفكرة عنه أدعى إلى الاهتمام بعد موت كاسيوس لأنه كان في الماضي يُتّهم بحمل

بروتوس على القيام بمختلف أعمال العنف. والقصّة كلّها أشبه بالسفينة التي حطّمت العاصفة دفّتها وهي في عُرض البحر، يحاول الملاحون إصلاحها بوضع قطع من الخشب في محل القطع المحطمة، فلا يفلحون في إصلاح مُتقَن وهم يجهدون أنفسهم لتفادي الخطر، فينجزون خير ما يمكنهم إنجازه. كذلك بروتوس فبعد أن أصبح القائد الأوحد لمثل هذا الجيش العظيم في أحرج ساعةٍ ولعدم وجود قائد آخر في مثل كفاءته تراه يضطر إلى الاستعانة بالمرؤوسين الذين يملكهم والى تنسيق كثيرٍ من أعماله وأقواله مع ما يرونه مقبولاً. وهذا ما جعله يقرّر أن يفعل كلّ ما يرونه ضرورياً لإعادة روح جيش كاسيوس ومعنوياته لأن الجنود باتوا الآن متمرّدين يصعب ضبطهم وقيادتهم. إن افتقارهم إلى قائد خاصّ جعلهم ثائرين في المعسكر، في حين جعلتهم هزيمتهم يخشون مواجهة العدوّ.

ولم يكن حال أوكتافيوس قيصر وأنطوني بأحسن من تلك. فقد بدأ يشكوان شحاً في الأرزاق. ولأن معسكرهما قد ضرب في أرض منخفضة فقد أدركهما الخوف من الشتاء القاسي الذي سيعانونه وقد تجمّعوا متزاحمين على حافّة المستنقع. وطغت أمطار الخريف التي أخذت تنهمر بغزارةٍ بعد المعركة على خيامهم فأغرقتها في الوحل والماء، فأدركته حالة الانجماد مباشرة بسبب البرد الشديد. وبلغتهما في أثناء ذلك أنباء النكبة البحرية التي أصابت سفنهما، فقد هاجم أسطول بروتوس وحطّم عمارة كبيرة تحمل النجدات من إيطاليا إلى أوكتافيوس قيصر، واضطر النفر القليل الذي نجا من المقتلة إلى أكل قلوع السفن وحبال الأشرعة من فرط الجوع. ولما علما بهذا قرّ رأيهما على منازلة بروتوس قبل أن يحاط علماً بانتصاره البحري هذا. وهكذا حصل القتال البريّ في اليوم الذي انتهت المعركة البحرية فيه لصالح بروتوس. وشاء سوء الحظ أن يجهل بروتوس هذا بخطأ ارتكبه القوّاد البحريون فلم يبعثوا إليه بالأنباء إلاّ بعد عشرين يوماً، ولو أنه أُبلغ في حينه لما دخل المعركة الثانية، لأنه كان موفور الأقوات، حسن المواقع، ومعسكره جيّد الحماية لا يتعرّض للطقس الشتوي، منيع تماماً من الناحية المواجهة للعدوّ. أضف إلى هذا كلّه أن علمه بأنه مسيطر على البحر ونصره في المعركة الأولى كان سيملأه ثقةً واعتداداً.

لكن أيام الجمهورية انصرمت على ما يبدو، ومن الضروري أن يحلّ حكم الرجل الفرد محلّها. لذلك فلأجل أن تزيح الآلهة الرجل الوحيد القادر على مقاومة السيّد الذي قدّر له أن يحكم الدنيا، حالت دون وصول أنباء النجاح الذي أحرزه بروتوس في الوقت المناسب. ففي الليلة التي سبقت المعركة الأخيرة لجأ هاربٌ من معسكر العدوّ

يدعى كلوديوس وقال إن أوكتافيوس قيصر علم بهزيمته البحرية وهو لهذا يريد الدخول في معركة مستعجلة. فلم يصدّق قصته أحدٌ ولذلك لم يُسمح له حتى بمواجهة بروتوس، واحتقروه وأهملوه بوصفه تاجر إشاعات إمّا سمع خبراً مكذوباً، أو أنه اخترع هذه الحكاية لعلّه يجني من ورائها نفعاً.

في تلك الليلة ظهر الطيف لبروتوس ثانية بنفس هيئته السابقة إلاّ أنه غاب دون أن ينطق بحرف. إن الفيلسوف پوبليوس ڤولمنيوس Publius Volumnius الذي خدم بروتوس في كل معاركه لا يذكر شيئاً عن هذه الآية إلا أنه يقول إن راية الجيش القائد كانت مغطاة بأسراب النحل وإن ذراع أحد قوّاد المائة نضحت زيتِ وردٍ وظلّت تنضح رغم مسحها وإزالة الزيت عنها مراراً. وذكر أيضاً أن نِسرَين اعتركا في الجوّ قبيل المعركة فوق الفُسحة التي تمتد ما بين المعسكرين وراح الجيشان يراقبانهما وقد خيّم عليهما الصمت التام ولم يعد يسمع صوت في السهل. وأخيراً كفّ النسر الذي كان إلى جهة بروتوس وحلّق في الجوّ. وهناك أيضاً حكاية الأيتوبي المعروفة الذي لقي حامل اللواء عند مدخل المعسكر حال فتح بابه وكيف أن الجنود قطّعوه إربا إرباً لأنهم اعتبروا ظهوره فألا سيئاً.

بعد أن وضع بروتوس جيشه في نسق المعركة بمواجهة العدوّ أخّر الاشتباك برهة من الوقت لأنه شعر بشكّ من بعض القطعات وسمع اتهامات بحق أخرى. كما لاحظ أيضاً أن الخيّالة لا تبدي حماسة كبيرة لبدء المعركة وأنها تنتظر ما سيفعله المشاة. ثم وبدون سابق إنذار خرج من الصفوف جندي يدعى كامولاتوس Camulatus، وهو مثال العسكري الممتاز - كان بروتوس قد قلّده شارات الشرف لشجاعته - وانضمّ إلى صفوف العدوّ. الأمر الذي آلم بروتوس كثيراً ودفعه غيظه من جهة، وخوفه من خيانة أو هروبٍ على نطاق اوسع من هذا، إلى أن يأمر بالهجوم وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً والشمس قد مالت إلى الأصيل. ونجح الهجوم في قطاعه وتغلّب حالاً على العدوّ ومضى في ضغطه على ميسرته حتى زحزحه عن مواقعه وتقهقر، وكرّت خيّالته أيضاً لمساندة المشاة المتقدمة وهجموا على العدوّ حالما تبيّنوا الفوضى التي تسوده. أما الجناح الآخر فقد كان منتشراً على جبهة واسعة ليحول دون تطويقه من قِبل العدوّ الذي كان يفوقه عدداً. وكانت النتيجة أن القلب أصبح ضعيفاً جداً فلم يُفلح في صَدّ الهجوم وانكسرت صفوفه ولاذت بالفرار. وما إن حقق العدوّ هذه الخطوة حتى التفّ حول مؤخّرة بروتوس. وقد واجه بروتوس هذه الأزمة مواجهة القائد المحنّك الموهوب بكلّ كفاءاته الشخصية وبإدارته الدقيقة للمعركة. إلاّ أن ما كان عاملاً على

انتصاره في المعركة السالفة كان سبباً لانكساره في هذه المعركة، فقد تمّ الإجهاز على كل قوّات العدوّ في ميدان القتال في الجزء الذي تحققت هزيمته. إلاّ أن قوات كاسيوس المندحرة لم يُقتل منها إلاّ أفراد قليلون. لكن المنهزمين أثّروا بمعنوياتهم على القسم الأكبر من الجيش فثبطوا عزائمهم وأشاعوا فيهم الفوضى. وهنا قُتل ماركوس ابن كاتو وهو يقاتل ويبدي من ضروب البسالة ألواناً بين أشجع الفتيان الپاتريشيين، قاتل حتى خارت قواه وأبى أن يستسلم أو يهرب بل ظل مشهراً سيفه وهو يصرخ عالياً بأنه ابن ماركوس كاتو وسقط ميتاً فوق أكداس من جثث الأعداء التي قتلها. وقُتل أيضاً أشجع رجال الجيش الذين ضحّوا بأنفسهم دفاعاً عن بروتوس.

من بين أصدقاء بروتوس الخُلّص رجل تميّز بشجاعة فريدة يدعى لوچيليوس. عندما رأى خيّالة من البرابرة تجدّ في إثر بروتوس دون أن تلقي بالاً على شيء آخر عزم أن يوقفها مجازفاً بحياته فتنكّب الطريق ثم صاح يقول: «أنا بروتوس». وصدّقه البرابرة لأنه طلب منهم أن يذهبوا به إلى أنطوني لا غيره، كأنما يخشى أن يأخذوه إلى أوكتاڤيوس قيصر. ففرحوا بما اقتنصوا وحمدوا حُسن حظهم وجاؤوا به ليلاً وأرسلوا من يسبقهم إلى أنطوني ليزفّوا إليه النبأ، واستخفّه الفرح فخرج لاستقبالهم ومعه كل من سمع بالنبأ. وتجمّعوا زرافات بعضهم يندب سوء حظه وبعضهم يندّد بجبنه الذي يناقض كبرياءه وشعوره بالكرامة، وبعضهم يلومه لتعلّقه الشديد بالحياة الذي أدّى به إلى تسليم نفسه للبرابرة. واقترب الفرسان وظلّ أنطوني جامداً في وقفته، يفكر بأيّ شكل يقابل بروتوس، وإذا به يسمع لوچيليوس الذي كان واقفاً أمامه يقول بجرأة:

- لا أحد من العدوّ أسر بروتوس، ولا أحد سيكون قادراً على أسره حيّاً يا أنطوني. إن الحظ لم يسمح بهذا النصر على الفضيلة. عندما تعثر على بروتوس حيّاً كان أو ميتاً فإنه سيكون جديراً بنفسه. أمّا أنا فقد كان اقتيادي إليك بخدعة انطلت على جنودك وإني لمستعد لأيّ عقابٍ ترتئيه بحقي.

وبهت الجميع لصراحة لوچيليوس. والتفت أنطوني إلى آسريه وقال:

- أعتقد أن الغضب يعصف بكم للخطأ الذي وقعتم فيه يا رفاقي، وأنكم حانقون لأنكم ظهرتهم بمظهر الغباوة والحمق. لكن ثقوا أنكم وضعتم يدكم على أسير يساوي أكثر من الرجل الذي انطلقتم للقبض عليه. خرجتم لاقتناص عدوّ، فجئتموني بصديق. إني وقسماً بالآلهة ما كنت أدري كيف سأعامل بروتوس لو جئتم به إليّ حيّاً. لكن أعلم بأنه خير لي أن أتخذ من رجل كلوچيليوس صديقاً لا عدواً.

ثم إنه عانق لوچيليوس وعهد به إلى أحد أصدقائه لرعايته ثم استخدمه ووجده صديقاً وفياً مقيماً على الصداقة.

في تلك الأثناء عبر بروتوس غديراً تظلّه الأشجار وتقوم على جانبيه ضفاف شديدة الانحدار. وأدركه الليل فتوقف وجلس مع بعض الضباط والأصدقاء في موضعٍ منخفض من الأرض تستره صخرة. ثم شخص بأنظاره إلى السماء التي طرّزتها النجوم وترنّم ببيتين يسجّل أحدهما ڤولمنيوس[٣١]:

«تذكّر يا زفس العظيم مسبّب كلّ هذه البلايا».

ويقول إنه نسي الآخر. وبعد قليل نطق بأسماء أصدقائه الذين قُتلوا في المعركة دفاعاً عنه، وأُطلق تنهيدات عميقة عندما نطق باسمي لاپيو وفلاڤيوس أولهما رئيس أركانه وثانيهما قائد سلاح الهندسة. وهنا شعر أحد أتباعه بالعطش وتبيّن أن بروتوس يشكو العطش أيضاً، فأخذ خَوذة ونزل إلى الغدير. وفجأة سمعوا ضجّة من الجهة المقابلة، فخرج ڤولمنيوس ليستطلع يرافقه دردانوس Dardanus حامل ترسه معه. ثم عادا بعد قليل وسألا عن الماء فأجاب بروتوس:

- نفد كله.

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- إلاّ أننا سنأتيك بشيء منه.

وأرسل الشخص الذي أتى بالماء أولاً. إلاّ أنه كاد يقع أسيراً فقد أصيب بجرح ولم ينج إلاّ بصعوبة.

بقي بروتوس يعتقد أنه لم يقتل الكثير من رجاله في المعركة، وعرض أحد من أصدقائه واسمه ستاتيليوس أن يجد له طريقاً إلى معسكر بروتوس باختراقه خطوط العدو إذ لم يكن ثم طريق آخر للوصول إليه، ويقوم بالاستطلاع، فإذا وجد كلّ شيء على ما يرام فسيرفع مشعلاً ويعود. ووصل المعسكر بسلام ورفع المشعل ومَرّ زمن طويل ولم يعد. إلاّ أن بروتوس قال:

- إن كان ستاتيليوس حيّاً فسيعود.

لكن يبدو أنه وقع في يد العدوّ عند عودته وقُتل.

مضى من الليل أكثره. وفيما كان بروتوس مقتعداً الأرض مال إلى خادمه كليتوس

---

(٣١) يوريپيس [ميديا] ٣٣٤. يعتبر أپيان Appeian أن بروتوس يتنزل اللعنة من جوپتر على أنطوني باقتباسه هذا البيت الذي تلعن به بطلة المسرحيه زوجها ياسون Jason الغادر.

Cleitus وكلّمه بصوت منخفض فلم يجبه الخادم بشيء وإنما انفجر باكياً. وعندها أومأ إلى دردانوس حامل ترسه وانتحى به جانباً وأخذ يكلّمه. ثم التفت إلى ڤولمنيوس وخاطبه باليونانية مستذكراً السنوات التي قضياها معاً في دراسة الفلسفة ورجاه أن يمسك له بالسيف ويساعده على إغماده في أحشائه. فرفض ڤولمنيوس كما رفض الجميع. وقال أحدهم أن لا سبب يدعوهم إلى الانتظار وعليهم أن ينقذوا أرواحهم. وعندها هبّ بروتوس واقفاً وأجاب:

- أجل علينا أن ننجو، وفي هذه المرّة ليس بأقدامنا بل بأيدينا. وبعد أن مدّ يده لكلّ منهم مصافحاً، ابتسم وقال إنه مفعم بسرور عظيم لأنه لم يجد من أصدقائه خائناً أو متخاذلاً. وأما عن الحظّ فإنه لا يلومه إلاّ من أجل بلاده. وإنه ليعتقد بأن القدر كان أرحم به من المنتصرين لا في الماضي وحده بل في الحاضر، لأنه سيخلّف ذكرى للفضيلة لا يستطيع قاهروه بكلّ غناهم وسلاحهم أن يباروها. وستعلم الدنيا بأن الأشرار والظالمين الذي فتكوا بالصالحين العادلين هم لا يصلحون للحكم. ثم بعد أن حثّهم على أن يتدبّروا أمر سلامتهم تركهم وسار بعيداً عنهم مع اثنين أو ثلاثة من رفاقه ومنهم ستراتو Strato وهو أحد أعز أصدقائه منذ أن كانا يدرسان البلاغة معاً. أوقف ستراتو إلى جنبه. ثم أمسك بسيفه المسلول من عنقه وبكلتا يديه ألقى بنفسه عليه فمات. وروى بعضهم أن ستراتو أمسك بالسيف أمامه وأعانه بعد أن أدار رأسه إلى ناحية أخرى، وأن بروتوس القى عليه بنفسه بشدةٍ حتى أنه اخترق صدره ومات لساعته.

إن ميسّالا الذي كان أحد أصدقاء بروتوس، ثم تصالح مع أوكتاڤيوس قيصر، وجد له مناسبة بعد فترة من الوقت، ليقدّم ستراتو إلى السيّد الجديد، ويقول وعيناه دامعتان:

- هذا يا قيصر الرجل الذي قام بآخر خدمةٍ لبروتوس صديقي العزيز.

فأحسن أوكتاڤيوس استقباله وضمّه إلى خدمته ووجده كالإغريق الذين يحفّون به شجاعاً في المعارك التي تلت ولاسيما في معركة أكسيوم. وتمضي الرواية إلى القول إن ميسّالا نفسه كان موضع ثناءٍ حارٍ من أوكتاڤيوس بقوله: في الوقت الذي كان أشدّ المقاتلين مِراساً في معركة فيليبي إلى جانب بروتوس أثبت أنه أخلص وأصدق خِلٍّ له في معركة أكسيوم. فردّ ميسّالا على هذا بقوله:

- لقد قاتلت يا قيصر إلى جانب الأفضل والأكثر عدالة دائماً.

عندما عثر أنطوني على جثة بروتوس أمر أن تُلفّ بأثمن عباءة أرجوانية عنده. ولمّا علم بعدئذ أن لصّاً أقدم على سرقته قبض عليه وقتله. وأرسل رماد بروتوس إلى سرڤيليا أمه. وأمّا عن پورشيا زوجه فقد روى كلّ من نيقولاوس Nicolous الفيلسوف

وڤاليريوس ماكسيموس Valerius Maximus أنها تمنّت الموت وحاولت إنهاء حياتها إلاّ أن صديقاتها حِلنَ دون ذلك ولازَمْنها ملازمة الظلّ، ولم يدعنها تغيب عن أنظارهن. إلاّ أنها استطاعت في غفلة منهنّ أن تختطف حجرة فحم من الموقد وتضعها في فمها وتشدّ عليها بالنواجذ حتى اختنقت وماتت. الا أنه يوجد لدينا الآن رسالة من بروتوس إلى أصدقائه يرثي فيها پورشيا ويتألم لمصيرها ويلومهم لأنهم أهملوها حتى أنها فضّلت الموت على الاستمرار في مرضها. ويبدو أن نيقولاوس قد أخطأ في حساب الزمن. فهذه الرسالة تُعلمنا بأن پورشيا كانت مريضة، كما تعلمنا عن حبّها لزوجها، وعن كيفية موتها، لو كانت رسالة بروتوس صحيحة.

أوجُه المقارنة بين ديون وبروتوس

هناك مواقف نبيلة لا تُحصى في خُلق هذين الرجلين. ومما يستحق الذكر منها بالدرجة الأولى هو وصولهما قمّة المجد، بوسائل بسيطة محدودة تكاد لا تُذكر. والأرجحيّة تكون لديون إذا أخذنا بسبيل المضاهاة. فقد كان يجاهد وحيداً لا شريك له، كما كان لبروتوس شريكه كاسيوس. فهذا وإن لم يكن مساوياً له في السجايا والمناقب الا أنه ساهم بقدر كبير في مجهودات الحرب بجرأته وخبرته ونشاطه. وهناك من يعزو إليه المجهود كله من بدايته إلى نهايته، فيقولون إن بروتوس لم يشأ أن يتحرك، وإن كاسيوس هو الذي دفعه ضد قيصر، في حين كان ديون صاحب الفكرة والمنظّم. ولم يقتصر مجهوده على توفير السلاح والسفن والجنود، وإنما يشمل تعبئة الأنصار والموالين. ولم يعمد كبروتوس إلى جمع الأموال وتجنيد الرجال بالحروب والقسر وإنما أنفق على الحرب من حُرّ ماله مستخدماً رزقه ومدار عيشه في منفاه أداة لتحرير بلاده. أضف إلى هذا أن بروتوس وكاسيوس بعد هروبهما من روما لم يجدا الراحة والطمأنينة لأنهما كانا قد حُكما بالموت. ولما لوحقا ألجأتهما الضرورة إلى رفع السلاح والمقامرة بحياتيهما دفاعاً عن نفسيهما أكثر منه دفاعاً عن بلادهما. ونجد ديون من ناحية أخرى يتمتّع برغد من العيش في منفاه، كما ينعم بالسلامة والراحة، إلاّ أنه خاض الأهوال وركب الشدائد إنقاذاً لصقلية فحسب.

وعليك أن تلاحظ أيضاً أن تحرير الصقليين من نير ديونيسيوس وتحرير الرومان من حكم قيصر لم يكونا بمستوى واحد. فأولهما كان مستبدّاً لا شائبة في استبداده ولم يكن لآثامه وشروره بحق الصقليين حَدّ. ومع أن سلطة قيصر المطلقة نكبت الناس في أولى مراحل تكوينها وابتلتهم بشتّى المِحَن ولاسيما الذين وقفوا في وجهها، إلاّ أنها خفّفت من غلوائها بعد أن ثبّتت أسسها وحققت انتصارها ولم يعد باقياً منها غير اسمها ومظاهرها. وإذا نظرنا إلى العلل والأدواء التي كان يشكو منها المجتمع والحكومة في تلك الفترة فيمكن القول إن الحكم الفردي المطلق كان هِبةً سماوية تدخّلت كما يتدخّل

أرقّ الأطباء وألطفهم في معالجة مرض عُضال. ولذلك عمّ الأسى سواد الشعب بصورة لاشعورية عندما قُتل قيصر وتعاظم غضبه وسخطه على قاتليه. في حين كانت جريمة ديون الكبرى في أعين أبناء وطنه هي أنه ترك سبيل الفرار مفتوحة أمام ديونيسيوس وأنه حال دون تخريب ضريح والده المستبدّ الأول.

أمّا في فنون الحرب وقيادة الجيوش فقد كان ديون مثال القائد المحنّك، لا يتمسّك بالأوامر والخطط التي يرسمها وإنما يظلّ يعيد فيها نظره ويحسّنها. وفي حين كانت خطط الآخرين ونصائحهم تؤدّي به إلى أسوأ العواقب رأيته دؤوباً على تصحيحها وتقويم اعوجاجها. وكان بروتوس على ما يبدو متسرّعاً في معركته الأخيرة التي قُدّر لها أن تكون المعركة الحاسمة التي يتوقّف عليها كل شيء. ولما أخفق فيها لم يقم بما يحتّمه عليه واجبه في تدبّر العلاج، بل أدركه اليأس التامّ وتخلّى عن كل شيء ولم يتحدّ سوء الحظ، ولو بالقدر الذي فعله پومپي، في حين كان جيشه سليماً تقريباً وأسطوله يسيطر على البحار سيطرةً تامة. إن جريرة بروتوس الكبرى هي أنه لم يتورّع عن نقع يده بدم قيصر الذي أنقذ حياته أولاً ثم قبل شفاعته في أصدقائه كلّهم فعفا عنهم إكراماً له. مثل هذا لا يمكن أن ينسب إلى ديون. لقد كان من أسرة ديونيسيوس وكان صديقاً له. نفعه وخدمه خدمات جليلة. ولم يناصبه العداء إلاّ بعد أن طرده من بلاده وأساء إلى زوجه وصادر أملاكه، إذ ذاك أعلنها حرباً مشروعة عادلة صريحة.

ولنتحوّل الآن إلى وجه مقارنة آخر.

إن أعظم مجدٍ نالاه نجم أصلاً عن بغضتهما الاستبداد والشرّ. هذا البغض في بروتوس لم يكن مشوباً بعاطفة شخصية، إذ لم يكن بينه وبين قيصر خصومة أو عداء. ولكنه عرّض نفسه للأخطار توخّياً لحرية بلاده. أمّا ديون فما أعلن الحرب إلا بعد أن جُرحت مشاعره وهذا ما تجده في رسالة لأفلاطون يقول فيها: لقد شنّ حرباً على ديونيسيوس لأنه طُرد من البلاط ولم يتركه مختاراً. زد على هذا أن المصلحة العامة وصلت حبل الودّ بين بروتوس وپومپي وأزالت العداء الذي كان أولهما يضمره للثاني، وجعلته في الوقت نفسه عدوّاً لقيصر. ولذلك كان العدل هو معيار صداقات بروتوس وعداواته.

كان ديون مخلصاً في خدمة ديونيسيوس عند تمتّعه بالحظوة لديه ولما لم يعد موضع ثقةٍ منه ثارت ثورته واحتكم إلى السلاح. لذلك لم يثق أحدٌ بأن ديون سيبرّ بوعده، وكان سائر الناس يشكون في أنه سيحلّ مَحلّ ديونيسيوس في تفرّده بالملك وطغيانه حال تغلّبه عليه. ولم يكن أصدقاؤه أنفسهم بمنجى من هذه الشكوك، فقد

توقّعوا أنه سيموّه استبداده باتخاذه عنواناً لحكمه لطيف الوقع لا يورث رهبة في النفس كلقب الطاغية. أما بروتوس فأعداؤه أنفسهم يقرّون بأن هدفه الأول والأخير كان إعادة نظام الحكم الجمهوري السابق للشعب الروماني.

ولو طوينا كشحاً عن كلّ ما أتينا لذكره آنفاً فإن المؤامرة التي دُبّرت للقضاء على ديونيسيوس لم تكن بمستوى تلك التي نُسجت ضد يوليوس قيصر. فلم يكن ثمّ قريب أو صديق إلا عاب على ديونيسيوس حياة الخمول واللهو التي يعيشها بين الخمر والنساء والقمار. في حين كان يحتاج إلى بطولةٍ وإباء وعزّة لكل نفس تتبنّى فكرة القضاء على قيصر الذي تشيع مواهبه وعبقريته الرهبة والجلال. لقد كان سلطانه وسعده بله اسمُه فحسب يقضّ مضاجع ملوك الپارثيين والهند.

ما وقعت أنظار الصقليين على ديون إلاّ وأسرعوا ينضمّون إليه بالألوف لمقارعة ديونيسيوس. في حين استمدّ الأصدقاء قوةً من شهرة قيصر وصيته بعد مماته. إن اسمه وحده رفع من قدر ذلك الذي اتخذه لقباً لنفسه، فنقله من صبيّ غرّ غير معروف إلى زعيم الرومان الأوحد بزمن قصيرٍ جداً. لقد استخدمه ضدّ خصومه كما تُستخدم الرُّقية، حتى ضدّ أنطوني بالذات. وإن اعترض أحدهم بقوله إن ديون عانى الكثير من المشاقّ والأخطار ليحقق نصره على الطاغية، وإن بروتوس نال من قيصر مأربه وهو أعزل لا يحميه أحدٌ؛ فنحن نرى في ذلك تدبيراً دقيقاً وتنظيماً محكماً يتّسم بالحذق أن تنال رجلاً جيّد الحراسة منيع الجانب وهو أعزل ومن دون حماية. إنه لم ينقضّ على قيصر ولم ينفرد به ولا ظفر به في قلّة من أتباعه، وإنما توصّل إلى ذلك بأناة وإحكام خطةٍ اقتضته وضع الثقة التامة في عدد كبير من الرجال لم ينمّ عنه واحد منهم. والأمر سيّان سواء أتمتّع بروتوس بموهبة الفراسة وتقديم الرجال الأفاضل أم أنه جعلهم كذلك بمجرّد وضع ثقته فيهم. والعكس يصدق على ديون فإما أنه كان أخطأ الحكم على الرجال باعتماده على أراذلهم وإمّا أنه جعلهم كذلك بمجرّد وضع ثقته فيهم فانقلب صالحهم طالحاً. كل افتراض من هذين يصلح أن يكون موضع تفكير للمتأمّل العاقل. إن أفلاطون نفسه لم يشفق على ديون في حكمه إذ قال إنه أساء اختيار أصدقائه، فقد خانوه وغدروا به.

زد على هذا أنه لما قُتل ديون لم يحرك أحدٌ ساكناً للثأر له، في حين وجد بروتوس بين أعدائه زعيمهم أنطوني يتكفل بتشييعه تشييعاً فخماً. واتخذ أوكتاڤيوس قيصر أيضاً التدابير اللائقة للمحافظة على جلال قدره. ففي ميلان الواقعة في بلاد الغال الألبيّة اقيم تمثال من البرونز له. فلفتت نظر أوكتاڤيوس إليه دقّة صُنعه وقرب الشبه بينه

وبين صاحبه، فتوقف. وبعد أن سمع أقوالاً كثيرة استدعى ولاة الأمر في المدينة فمثلوا بين يديه. فقال لهم:

- إن مدينتكم نقضت أحكام المعاهدة فهي تؤوي عدوّاً.

فأنكر هؤلاء تلك التهمة بشدّة، وأخذوا يتبادلون نظرات الحيرة، وقد غمض عليهم مراده. وهنا استدار أوكتافيوس قيصر نحو التمثال وقال مقطباً:

- اسمحوا لي! أليس هذا عدوّنا الذي ينتصب هنا؟

فاضطربوا ولم يحضرهم جواب. ولكن أوكتافيوس عاجلهم بابتسامة وأثنى على مواطنيهم الغاليين الذين أظهروا إخلاصهم لأصدقائهم حتى عندما تنزل بهم المصائب. وأمر بأن يبقى التمثال كما كان.

أراتوس

ARATUS

أذكر يا پوليقراطس Polycrates أن خرسيپوس Chrysippus الفيلسوف كان قد اقتبس مثلاً من أمثال القدماء السائرة بعد تحويره. وأعتقد أن ما دفعه إلى هذا هو ما توهّم فيه من خشونة شديدة، فهذّب فيه وجعله كالآتي:

«مَنْ مادح الآباء، غير أكرم الأبناء؟».

الاّ أن ديونيسيودورس Dionysudorus الترويزيي أثبت خطأه في ذلك وأعاد قراءته الأصلية الصحيحة هكذا:

«مَن مادح الآباء، غير أفسد الأبناء؟».

ويشرح المقصود فيقول إن المراد منه هو كَمّ أفواه أولئك الذين تجرّدوا عن كل المؤهّلات، ومنعهم من الاحتماء بفضائل أسلافهم، واستعلائهم على غيرهم بمدح آبائهم. ولله درّ پندار الشاعر إذ يقول:

«إنه ذلك الذي يرث بحكم الطبيعة
روحاً نبيلةً عن أسلافه».

هو الذي جعل حياتك نسخةً صادقة من أصول أسرتك. أقول إن أمثالك يغتبطون كثيرون عندما يُذكرون بأنبل وأشرف أسلافهم عن طريق حديث الآخرين عنهم، أو بحديثهم هم أنفسهم. إن أمثالك لا يستغلّون فوائد الثناء الذي يستحقّه الآخرون لأنهم يفتقرون إليه لضعة شأنهم. إلاّ أنهم يضيفون مآثرهم إلى مآثر أجدادهم فترتفع منزلتهم باعتبارهم أصلاً لأخلاقهم ولنسْلِهم. ولذلك أبعث إليك يا پوليقراطس بما كتبته من سيرة أحد أجدادك الأعلين - ومواطن من مواطنيك - وهو أراتوس الذي لا تقل انت عنه مكانةً وسلطاناً. لا لأنك بحاجة إلى معلومات عنه وعن مآثره، بل ليكون ابناك [بوليقراطس وبيثوكلس] واقفين على مثل من تاريخ اجدادهما، قراءة وسماعاً. مثل يجدر بهما أن يحتذياه ويسيرا على نهجه. فمن الأثرة وحبّ النفس لا من حب الفضائل أن يتصور الأنسان بانه سبق إلى الوصول إلى الفضيلة والصلاح.

بدأت أحوال مدينة سيكيون Sicyon تسوء وسادتها الفوضى وعمّها الاضطراب منذ خروجها من يد الحكم الدوري Dorie الأرستقراطي النزيه (دالت دولته واستظهر الغوغائيون بمنازعاتهم الشخصية فتعاقبت على المدينة سلسلة من الفتن والثورات). وهكذا راحت تتنقل من يد مستبدٍ إلى يد مستبدٍ آخر، حتى مقتل كليون Cleon. فانتُخب تيموقليدس Timoclides وكلينياس Clinias لحكمها. وهما رجلان حسنا السمعة رفيعا المقام بين المواطنين. فبدت أحوال الجمهورية متجهة نحو الأمن والاستقرار. ثم توفّي تيموقليدس ووثب أبانتيداس Abantidas ابن پاسياس Paseas على كلينياس فقتله فخلا له الجو واستبدّ بالحكم فأهلك عدداً من أقربائه وأشياعه ونفى بعضهم، وهمَّ أيضاً بقتل ابنه أراتوس الذي كان عند مقتل أبيه طفلاً لا يتجاوز السابعة. إلاّ أن الصبي خرج من وسط الفوضى التي سادت وقتذاكٍ وانضمّ إلى الهاربين وراح يتجوّل في أنحاء المدينة على غير هدى مرتعباً وجِلاً شريداً، وتشاء الصدف أن دخل خلسةً منزل أخت أبانتيداس التي هي زوج پروفانتس Prophantus أخ كلينياس واسمها سوسو Soso. عُرفت هذه المرأة بطيبة القلب. وقد اعتقدت بأن العناية الإلهية هي التي قادت أراتوس إلى بيتها، فعمدت إلى إخفائه في منزلها. وعندما جنّ الليل بعثت به إلى أرغوس.

بهذا كُتبت لأراتوس السلامة. وطوت نفسه من البداية إلى النهاية على حقدٍ وكره جارف بالاستبداد والمستبدّين كانا يشتدان بمرور الزمان. ونشأ بين أصدقاء أبيه ومعارفه في أرغوس وتلقّى ثقافة حُرّة وكان جسمه صحيحاً قوياً فاتخذ المصارعة هواية، وتدرّب في غيرها حتى أتقن ممارسة الألعاب الخمس ونال بعض تيجان التفوّق. وتماثيله في الواقع تبرز تكوينه الرياضي، ولم يكن استخدامه أدوات الرياضة لتخفي رجاحة عقله وجلال سيمائه. ولم يدرس فنيّ البلاغة والخطابة محتجاً بأنهما لا تناسبان رجل السياسة. إلاّ أنه كان أقوى عارضةً مما يظنه الكثيرون، إذا حكمنا من التعليقات التي خلّفها، وقد كُتبت بأسلوب مهملٍ غير منّمق مستعجل ولم ينتق تعابيره وإنما استعمل أول ما خطر بباله منها.

وبعد مرور فترةٍ من الزمن وثب ديناياس Dinias وأرسطوطوليس Aristoteles على أبانتيداس فقتلاه، وكان معتاداً الحضور في الساحة العامة لسماع مناقشاتهم ومشاركتهم فانتهزا فرصتهما ونفّذا مؤامرتهما فيه هناك. فخلفه في الحكم والده پاسياس، وما عتم أن أغتيل بيد نيكوكلس الذي تفرّد بالحكم. ولقد قيل إنه يشبه پرياندر Periander ابن كپسيلوس Cypselus شبهاً غريباً، كما قيل إن أوورنتس Orontes الفارسي يشبه

ألكميون ابن أمفياروس Amphiaraus، وكالشبه بين هكتور وذلك الشاب اللقيديمي الذي تقاطر الناس لرؤيته ومزقوه إرباً وطأً بأقدامهم.

حكم نيكوكلس هذا أربعة اشهر، وارتكب خلالها شتّى أنواع الموبقات وأقدم على المحرّمات، وكاد يترك المدينة فريسة في أيدي الإيتوليين. في ذلك الزمن بلغ أراتوس مبلغ الشباب، وكان موضع تقدير لعراقة أصله ولسجاياه العالية غير الاعتيادية ولروحه الوثّابة الصلبة، ولأصالة رأيه مما لا يناسب سِنّه. فاتجهت أنظار المنفيين إليه وبنوا الآمال عليه. ولم يكن نيكوكلس بغافل عنه فقد أخذ يتجسّس عليه ويتابع حركاته وسكناته سِرّاً لا خوفاً من محاولة جريئة واسعة النطاق يقوم بها للإطاحة بحكمه، وإنما لشكوك ساورته بأنه يراسل الملوك الذين كانت تربطهم بوالده روابط صداقة ومعرفة. في الواقع انتهج أراتوس هذا السبيل لكنه لقي من أنتيغونس إعراضاً وقلّة اهتمام ومماطلة بعد العهد الذي قطعه له. كما اتضح له أن الآمال التي بناها على مصر ومساعدة بطليموس لا يمكن أن تتحقق في المدى القصير. ولذلك قرّر القضاء بنفسه على الطاغية.

وأول من أفضى إليه بسرّه، أرسطوماخس وأقديلس Acdelus. وأولهما أحد منفيي سيكيون وثانيهما فيلسوف أركادي من ميغالوپوليس، رجل عملٍ وحميّة، وصديق أركيسلاوس الأكاديمي في أثينا، فحبّذا له الفكرة وانضمّا إليه. ثم اتصل بالمنفيين الآخرين فانضم إليه نفر قليل منهم خجلوا من الظهور أمامه بمظهر اليائس من النجاح. أما الأغلبية فقد حاولت ردّه عمّا اعتزمه ووصفوه بالمتهوّر القليل التجربة والجريء إلى حَدّ الطيش.

وفيما هو يعمل لإنشاء قاعدة انطلاق له في سيكيون يشنّ منها الحرب على الطاغية، وصل أرغوس أخٌ لأحد المنفيين المدعو كزينوقلس Xenocles هارباً من السجن. فقام أخوه بتعريفه له، واصفاً له ذلك الجزء الذي تسلّقه من السور، قائلاً إنه بمستوى الأرض من الناحية المواجهة للمدينة كما أنه يجاور أرضاً صخرية مرتفعة وأنه يمكن الصعود إليه بالسلالم. فأسرع أراتوس بإرسال كزينوقلس وتابعَيه سيوثاس Seuthas وتخنون Technon لإلقاء نظرةٍ على السور. فإذا كان تسلّقه ممكناً جازف بالعملية وقامر بكل شيءٍ لأنها أفضل من الاشتباك في صراعٍ طويل الأمد بين إنسان محدود الموارد وطاغية مستبدّ، أو شنّ حرب تتحكم فيها القوة والعدّة، وعاد كزينوقلس ورفيقاه بعد أن قاسا ارتفاع الجدار فأفادا بأن تسلّق هذا الجزء من السور ليس مستحيلاً ولا عسيراً. إلا أن الاقتراب منه سِرّاً فيه صعوبة كبيرة لوجود مجموعة من

الكلاب الصغيرة الجسم النبّاحة التي لا شبه بشراستها، يملكها بستاني منزله قريب من السور. فقرّ رأيه على الخطة في الحال.

ولم يكن تجميع السلاح والاستعداد للحملة ليثير تقوّلاً وشكوكاً في ذلك الزمن لأن قطع الطرق وأعمال النهب الصغيرة كانت من الأمور الاعتيادية تمارسها الجماعات بعضها ضد بعض في كل مكان. أما موضوع السلالم وأدوات التسلّق فقد قام يوفرانور Euphranor أحد المنفيين وهو صانع أدوات بعلمها على مرأى من الناس لأن مهنته كانت ترتفع به عن المظنّة. وأما حاجته من الرجال فقد مدّه كلّ من أصدقائه في أرغوس بعشرةٍ من العدد القليل الذي يملكونه، وسلّح هو ثلاثين من أتباعه وخدمه، واستأجر من كزينوفيلوس Xenophilus زعيم رؤساء قطّاع الطرق عدداً قليلاً من الرجال، زاعماً له أنه سيغزو بهم أراضي سيكيون لينهب خيول الطاغية الخاصة. وأرسل معظم الرجال قبله شراذم قليلة العدد إلى برج پوليغنوتس Polygnotus وأمرهم بانتظاره هناك. وأرسل أيضاً كافيسياس مع أربعةٍ بسلاحٍ خفيف لدخول منزل البستانيّ عند حلول الظلام بوصفهم مسافرين ويحتالوا على المَبيت فيه، وما إن يتمكنوا من البستاني حتى يحتجزوه هو وكلابه. إذ لم تكن ثمّ وسيلة لتأمين الطريق غير هذه. أمّا أدوات التسلّق فقد صُنعت بشكل يمكن تفكيكها وتركيبها عند الحاجة. فوضِعت في صناديق وأُرسلت مسبقاً في عرباتٍ. وفي أثناء ذلك ظهر بعض جواسيس نيكوكلس في أرغوس. وقيل إن مهمتهم هي مراقبة أراتوس خفيةً، فاحتال على خداعهم بأن نزل في بكور اليوم التالي إلى الساحة العامة وأظهر نفسه لأكبر عدد من الناس وتحدث إلى كثير من أصدقائه. ثم قصد الساحة الرياضية وهناك دهن جسمه بالزيت ودعا إلى منازلة عدد من الشبان الذين اعتاد عِشرتهم والشرب معهم. ثم أرسل خدمه إلى السوق فأحدثوا ضجّة وجلبوا انتباه المارّة بما حملوه من الأكاليل وابتاعوا من مشاعل وقصدوا المغنيات والراقصات اللاتي اعتدن إحياء الليالي للاتفاق معهنّ. ولم يفت ذلك الجواسيس الذين كانوا يراقبون كل شيء، وانطلت عليهم الخدعة وأيقنوا أن أراتوس في شغل شاغل عن نيكوكلس بحفلاته فتضاحكوا وقالوا:

- لعَمْركم! أرايتم أجبن من نيكوكلس. أرأيتم طاغيةً وسيّداً لمثل هذه المدينة المنيعة، وآمراً مطاعاً لكلّ هذه القوّات، يخشى شاباً متهتكاً مِتلافاً ينفق القليل الذي يكاد لا يكفيه ستر الخَلّة في منفاه على اللهو والمجون النهاري لا الليلي!

واقتنعوا بما رأوا واستنتجوا وعادوا إلى بيوتهم.

إلاّ أن أراتوس خرج من منزله بعد تناول الفطور مباشرة واجتمع بجنوده في برج

بوليغنوتس وسار بهم إلى نيميا Nenea. وهناك فاتحهم لأول مرة بما في نفسه وكشف لهم عن غايته الحقيقية وبذل لهم شتّى الوعود وقطع لهم العهود بالعطاء الجمّ. ثمّ تقدّم من المدينة وأبلغ كلمة السرّ وهي «أبوللو الظافر». وحرص أن يستفيد من نور القمر وهو في سراه فلا يغيب إلاّ ويكون قد بلغ البستان المجاور للسور. وتمّ ذلك فعلاً. وكان في استقباله كانيسياس الذي أعلمه أنه لم يستطع احتجاز الكلاب لأنها هربت قبل أن يتسنّى القبض عليها. غير أنه تمكن من البستاني وحبسه. وهنا ساد رجال الحملة القلق وهبطت معنويات غالبيتهم. فأخذ أراتوس يقوّي عزائمهم. وتعهّد بأن ينكص على الأعقاب إن أثارت الكلاب ضجةً. وأرسل أمامه حَمَلة السلالم بقيادة أقديلوس ومناسيتيوس Mnasitius وسار في إثرهم متثاقلاً. وهنا بدأت الكلاب تنبح نباحاً شديداً وتتابع خطى أقديلوس وزملائه. على أنهم بلغوا السور وثبّتوا السلالم دون حادث أو عقبة. ولما باشر أول الرجال بالتوقّل بدأ آمر الحرس القديم يقوم بجولته التفقدية الأخيرة وبيده الناقوس تمهيداً للتبديل الصباحي. وسمع المهاجمون جلبة الحرس المقتربين بأنوارهم فالتصقوا بالسلالم فلم ينتبه إليهم أحد. إلاّ أن الخطر من افتضاح أمرهم زاد بدنوّ الحرس الصباحي لتسلّم الحراسة من البدل، على أنه مَرّ بهم دون أن ينتبه إليهم. فأسرع مناسيتيوس وأقديلوس إلى اعتلاء السور، وسيطروا على المداخل والمخارج، وأرسلوا تخنون إلى أراتوس يستعجلونه القدوم.

كانت المسافة قصيرة بين الروضة والسور والبرج الذي قام كلب ضخم على حراسته. لم يسمع الكلب وقع أقدامهم من تلقاء نفسه إما لأنه كان بليداً بطبعه أو لأنه بات تعباً في جولات النهار، لكن نباح كلاب البستاني أيقظه، فبدأ يهرّ ثم ينبح ردّاً على الكلاب، بعدها أطلق نباحاً شديداً عند مرورهم به ثم تعالى النباح وتعاظم حتى أن الديدبان الذي كان بمواجهته نادى وليّه ليتأكد من سبب نباحه المتواصل، وليستفسر منه عمّا إذا استجدّ شيء. فأجاب صاحب الكلب بالاّ شيء هناك. وأن سبب نباح كلبه هو سقوط أنوار الحرس عليه ورنين نواقيسهم. وشدد هذا من عزيمة جنود أراتوس. وقد ظنّوا أن صاحب الكلب هو رفيق لهم يعرف مقدّماً بخطتهم وأنه يعمد إلى تغطية عمليتهم. وراح الوهم بهم إلى أن ثمة شركاء وأنصاراً لهم من أهل المدينة. ولكنهم وجدوا صعوبة شديدة في تسلّق السور فضلاً عن الوقت الطويل والجهد الذي تستلزمه. فقد أخذت السلالم تتأرجح بهم وتهتزّ. فلجأوا إلى الرفق في معالجتها، وأخذوا يتسلّقونها واحداً واحداً. كان الوقت يمضي سريعاً، لأن الديكة بدأت تصيح وأهل الريف الذين اعتادوا جلب سلعهم إلى سوق المدينة يوشكون أن يصلوا. فعجّل أراتوس

بالصعود وكان قد سبقه إلى اعتلاء السور أربعون فقط، ثم انتظر قليلاً حتى انضمّ إلى الأربعين نفر آخر وبقي الآخرون خارج السور، لم ينتظر أراتوس، وتقدمهم إلى قصر الطاغية ودار الحكومة حيث مهاجع الجنود المرتزقة. وهناك فاجأوهم بسرعة خاطفة فأسروهم جميعاً ولم يقتلوا منهم أحداً. ثم أسرع ينبئ أنصاره وأصدقاءه في المدينة فخفّوا إليه مسرعين من كل صوب. وبدأت خيوط الصبح تنفرط وامتلأ الملعب بالجمهور وقد ساده التوتّر للأنباء المتضاربة التي أخذت تطرق أسماعه، ولجهله بحقيقة ما يحدث. وبينما هم في هذه الحال تقدّم منادٍ عمومي وأعلن قائلاً: إن أراتوس ابن كلينياس قد دخل المدينة وهو يدعو المواطنين إلى استعادة حريتهم.

وما إن تأكدوا أن الحُلم البعيد الذي ساورهم قد تحقق حتى اندفعوا زرافاتٍ ووحدانا إلى منافذ قصر الطاغية لإشعال النار فيه، وسرعان ما تصاعدت النيران الهائلة وسرت في أبهائه فأصبح شعلةً واحدة من اللهب شوهدت من مدينة كورنث. وراح اهلها يضربون أخماساً لأسداس عمّا يجري في سيكيون وفكروا في إرسال نجدة. وهرب نيكوكلس سِرّاً من المدينة بنفقٍ يمتد تحت الأرض. وتعاون رجال أراتوس مع أهل المدينة على إخماد النار وبهذه الوسيلة أقدموا على نهب كل ما في القصر. ولم يعترض أراتوس على هذا بل زاد عليه بتوزيع ممتلكات الطاغية على الجميع. ولم يفقد في هذه العملية الجريئة رجلاً واحداً وشاء الحظ كذلك ألاّ تُراق قطرةٍ دمٍ من الأهلين.

أعاد أراتوس ثمانين منفياً كان نيكوكلس قد أبعدهم، وما لا يقلّ عن خمسمائة آخرين نفاهم من سبقه من الطغاة فقضوا سنيناً طوالاً مبعدين عن أوطانهم، حتى امتد النفي ببعضهم إلى خمسين عاماً، وعضّهم الفقر بنابه. وأدقع بعضهم. ولهذا كانوا يريدون استعادة أملاكهم ومنازلهم بكل سرعةٍ وهو ما أحرج موقف أراتوس كثيراً. فقد كثرت المنازعات وعمّت الفوضى مدينة صارت المدن الأخرى تغبطها لزوال حكم الاستبداد وشروق شمس الحرية عليها. وهي في الوقت نفسه مطمح أنظار أنتيغونس فلم يجد مندوحة من ضمّها إلى الحلف الأخائي، وإن كان أهلها دوريين أصلاً. وبذلك اتخذوا المواطنة الأخائية وإن لم يكن هؤلاء في ذلك الحين قوة يُعتدّ بها أو ذوي مكانة موموقة في بلاد الإغريق. كان معظمهم يعيش في بلدان صغيرة، ولا تتميّز أرضهم بالخصوبة أو السعة، ويكاد الساحل كله يكون خالياً من ميناء وهو جرف صخري برمّته. ومع ذلك كله فلطالما ضربوا بشجاعتهم الفائقة أمثلة لسائر الإغريق عندما يتّحدون وينتظمون تحت قيادة محنكة موجّهة وقلّما عُدّ الأخائيون جزءاً من القوات اليونانية حتى جاء زمن لم تكن قواتهم تضاهي قوة مدينة اعتيادية الحجم. إلاّ

أن حصافتهم وتماسكهم وتخلّصهم من رذيلة التحاسد وحبك الدسائس وإطاعة الفضلاء والأكارم منهم والتسليم بالقيادة مكّنتهم من المحافظة على استقلالهم وحريتهم وهم محاطون بمدن كبيرة وملوك يقودون جيوشاً قوية، بل أهّلتهم للقيام بدور المنقذ والمحرر لكثير من الإغريق.

وكان أراتوس مثلاً رائعاً لرجل الدولة. فقد تميّز بعقل راجح وإنكار للذات. كما أنه كان دوماً يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويجعل من الخير العام مبدأً وشريعةً في صداقاته وخصوماته. ولذلك كان عدوّاً كريماً سمحاً أكثر منه صديقاً وفياً يتكيف بحسب الظروف السياسية في هذا المجال. وكان شديد الكره للطغاة والمستبدّين ولذلك وضع نصب عينيه إحلال التآلف بين شعوب الإغريق وتآخي مدنهم وتحرّى الوصول إلى الإجماع في التصويت على القرارات في الجمعيات العامة والمجالس المحلية.

وكان يشكو الضعف في السلاح والقلّة في الرجال. لكنه كان يحقق بالسياسة والبراعة بالتعامل مع المدن والأمراء ما يعزّ تحقيقه بالقوة والحرب. وقد نجح والحق يقال في كثير من الأعمال التي لم يكن لها أيّ حظّ من النجاح. على أنه ترك كثيراً من المشاكل السهلة - كما يبدو - بدون حلّ أو معالجة لأنه كان ضعيف الثقة بنفسه. والذي يلاحظه المرء أن ثمّ حيوانات ضعيفة نهاراً لا تبدو قوتها الا في الليل، لرقّة أخلاط أعينها التي لا تتحمّل ضياء النهار، وشبيه بهذا نوعٌ من البراعة والحكمة البشرية، لا يمكنها البروز والنجاح في العلانية، وإنما تحقق غاياتها وتصل إلى أهدافها في الخفاء والسرّية. وهو نقص عقليّ إن وجد في ذوي الكفاءة فسببه فقرهم في الفلسفة. عقلٌ كهذا هو أشبه بثمره فجّة من ثمار الفضيلة لا تكشف عن نضوجٍ صحيح.

بعد أن دخلت سيكيون في اتحاد مع الأخائيين تولّى أراتوس قيادةً في صنف الخيّالة فأحبّه ضباطه الآمرون لما تميّز به من إطاعة للأوامر، فقد كان مستعداً كأي جنديٍ لتلقّي أوامر الجنرال الأخائي وتنفيذها مثل أي مواطن دايني Dynae أو تريراي Triræa مع أنه ساهم بعدد كبير من الخيّالة في قوات الحلف، أو أي مواطن من مواطني مدن أصغر من هاتين شأناً. وأهداه الملك خمسة وعشرين تالنتاً فوزّعها على المحتاجين من مواطنيه واستخدمها لافتداء الأسرى منهم.

وأصبح المنفيون العائدون معضلة. وقد صعب إرضاؤهم وإسكانهم. وظلّوا مصدر إزعاج لواضعي اليد على ممتلكاتهم. وباتت سيكيون على قاب قوسين من

الفوضى والانقسام الداخلي. ولم يعد لأراتوس أملٌ إلاّ بمساعدةٍ يتلقّاها من بطليموس فقد رحل إليه يطلب المال منه، ليفضّ النزاعات المالية في داخل المدينة. وأبحر من موثونه Mothone فيما يلي ماليا Malea وهو طريق مباشرة لا وقف فيها. إلاّ أن الملاح جوبه بريح قوية وأمواج عالية مندفعة من البحر فلم يقوَ على توجيه سفينته في الطريق المنتوى وحاد عنه إلى الساحل بعد معاناة كثيرٍ من الأهوال. وجنح إلى أندارس Andras وهي أرض عدوّة من ضمن أملاك أنتيغونس كانت له فيها حامية عسكرية. فاضطر أراتوس إلى ترك السفينة حال بلوغها الساحل، ونفذ إلى داخلية البلاد وليس معه غير تابع واحدٍ يدعى تيمانثوس Timanthes. فأخفيا نفسيهما في غابة كثيفة واستراحا ليلة واحدة. وبعد مرور حين من الوقت على رسو السفينة أقبل قائد الحامية وسأل عن أراتوس فضلّله الخدم بقولهم إنه قصد جزيرة يوبيا Eubœa، فاعتبر السفينة وحمولتها غنيمة شرعية واحتجز كل من كان على ظهرها. أما أراتوس فبعد أن قضى أياماً في ضيقٍ شديد ساقت إليه الصدف الطيّبة سفينة رومانية ألقت مراسيها في البقعة التي استقرّ فيها، واتخذ منها موضع استكشاف فيختفي فيها أحياناً ويخرج منها أحياناً. وكانت وجهة السفينة سورية. فاتفق مع الربّان على إنزاله في كاريا وصعد إليها. ولكنه لاقى من المصاعب ما لا يقلّ عن تلك التي لقيها في رحلته الأولى. وبلغ مصر من كاريا وقابل الملك الذي كان يعطف عليه كثيراً ويخصّه بالتفاته، لأن أراتوس الخبير في الفنون اليونانية سبق له إهداء الملك عدداً من المنحوتات والصور، وكان شديد التدقيق في انتقاء أروعها وأغربها وإرسالها إليه، لاسيما رسوم پامفيلوس Pamphilus، وميلانثوس Melantheus.

كانت اللوحات السيكيونية أشهر اللوحات وأندرها، لأنها الرسوم الوحيدة التي لا تتغيّر ألوانها مطلقاً. وأپلليس Applles نفسه قصد المدينة بعد أن ذاع صيته وأصبح من الأعلام. ودفع تالنتاً واحداً وهو رسم الدخول في عضوية جمعية الرسّامين لا للاستفادة من خبرتهم وعلمهم وهو ما لايحتاج إليه، بل ليكون له شرف الانتماء إلى نقابتهم لا غير. ولما حرّر أراتوس المدينة أنزل كل رسوم الطغاة إلاّ أنه تردّد كثيراً في إنزال رسم أريستراتوس Aristratus الذي عاصر فيليب المقدوني. فهي من أعمال ميلانثوس وتلاميذه، وتمثله بالقرب من عجلة حربية وقد ركب فوقها تمثال للنصر. وكان أپللس نفسه قد اشتغل فيها كما ذكر لنا پولميين الجغرافي. كانت لوحةً نفيسة رائعة جداً فعزّ على أراتوس أن يتخلّى عنها، ورغب في إبقائها لقيمتها الفنية إلاّ أن دافع الكره للطغاة تغلّب عليه فأمر بإنزالها. إلاّ أن نياكلس Neacles الرسّام، وهو من أصدقاء أراتوس،

قيل إنه توسّل إليه وهو يبكي للإبقاء عليها. ولما وجد مساعيه لا تؤدي إلى شيء قال له:

- لا خير في أن تواصل نضالك ضدّ الطغاة. لكن فليكن نضالك هذا قاصراً عليهم. ودع العجلة وآلة النصر على حالهما وسأجد الوسائل الكفيلة بطمس معالم صورة أريستوترس في اللوحة.

فوافق أراتوس على ذلك، ومسح نياكلس صورة الطاغية من اللوحة ورسم في مكانها نخلة ولم يجرؤ على إضافة شيء آخر من مخيّلته. وقيل إن قدمي أريستوتراتوس في الصورة ظلّتا ظاهرتين لأنهما كانتا مخفيّتين وراء العجلة فغفل الرسام عن إزالتهما.

لهذا السبب ارتفعت مكانة أراتوس عند الملك. وبعد أن ازداد هذا معرفةً به تضاعف حبّه له. وأعطاه مائة وخمسين تالنتاً للتخفيف عن ضائقة المدينة، نقل منها أربعين معه، عند إبحاره إلى الپيلوپونيس. أما الباقي فقد قسمه الملك أجزاء وأرسله تباعاً إليه في أوقات مختلفة.

إنه لشيء رائع حقاً. لقد أمّن أراتوس لأبناء وطنه هذا المبلغ الكبير من المال لإصلاح حالهم، في حين كان جزء قليل منه يكفي لتخريب ذِمّة أي قائدٍ أو زعيمٍ، ولتجعلهم على استعدادٍ للغدر بمواطنيهم وخيانة بلادهم. إن أبدع ما في هذا العمل هو أن يستخدم هذا المال لإحلال الوئام والصفاء بين الأغنياء والفقراء وسيادة الاستقرار والطمأنينة ربوع البلاد.

أما الجانب العادل في خُلقه وهو الذي أثار أعظم الإعجاب به فقد تجلّى عند اختياره حكماً مطلقاً مفوّضاً بفضّ النزاعات على الأراضي التي تعود ملكيتها للمنفيين العائدين، فقد أبى قبول هذه المسؤولية وحده وبادر إلى ضمّ خمسة عشر مواطناً آخرين لهذا الغرض. وحقق النجاح في تسوية هذا النزاع المعقّد وإحلال الودّ والسلام بين مختلف طبقات السكان بعد كثير من المتاعب والمصاعب. وبلغ في إكرامه والثناء عليه، من سائر الأهالي، حتى أن المنفيين أقاموا له تمثالاً برونزياً نقشوا عليه هذه الأبيات:

«إن مشوراتك ومآثرك وبراعتك العسكرية
في سبيل الإغريق، تعدّى صيتُها أعمدة هرقل
ونحن يا أراتوس أهدينا صورتك؛ صورة
الذي أنقذنا - إلى الآلهة التي أرسلتك
لتنقذنا من المنفى، وتعيدنا إلى موطننا

بفضائلك وعدلك اللذين ترفل سيكيون
بنصحهما إلى يومنا هذا. مع الثروة التي يتمتّع
بها الجميع على السواء، ومع القوانين التي يطيعها الجميع».

وقد أمِن أراتوس من حسد أبناء جلدته بتحقيقه هذه الأمور. فقد شعروا بالمنافع التي حققها لهم، فحرصوا على وجوده. إلاّ أن أنتيغونس الملك كان شديد القلق من نواياه. ولذلك فكّر في أن يضمّه إلى حِلفه فإن فشل عمد إلى تشكيك بطليموس فيه. وفي غضون ذلك أظهر له كثيراً من المودّة وأخذ يتقرّب منه. ولم يعبأ أراتوس كثيراً بما يفعله أنتيغونس لأجله. فمن ذلك أنه قرّب للآلهة في كورنث وأرسل إلى أراتوس جانباً من قرابينه. وانتهز العيد فصرّح بين جمع كبير من المدعوين قائلاً:

- ظننت أن هذا الشاب السيكيوتي محبّ فحسب للحرية ولأبناء وطنه. لكني صرت أعدّه الآن خبيراً بأخلاق الملوك مقدّراً أفعالهم في الماضي. كان يتجاهلنا ويضع آماله في جهات بعيدة؛ معتمداً على ثروات مصر، بعد سماعه الكثير عن قصورها وفِيَلتها وأساطيلها. ولكنه وجد كل هذا مجرّد أبهة فارغة، ومظاهر تمثيل كاذبة بعد أن رآها عن كثبٍ فعاد إلينا. وأما من ناحيتي فأنا أرحّب به من كلّ قلبي وأنوي استخدامه في أعظم المهام وإني لآمركم أن تعتبروه صديقاً وحليفاً.

التقط المبغضون والنمامون هذه الأقوال وتسابقوا على إبلاغها لبطليموس، فكتبوا له الرسائل الطوال مسندين فيها إلى أراتوس شتّى الاتهامات والافتراءات. فأرسل بطليموس يعاتبه ويؤنّبه. إن كثيراً من الحسد والشكّ ونيّة السوء يتخلل علاقات الأمراء والعظماء وصداقاتهم، لأنها أكثر الصداقات اطّلاباً وتعرُّضاً للحسد.

في تلك الأثناء كان أراتوس قد انتُخب جنرالاً للأخائيين لأول مرةٍ. فاجتاح أراضي لوكريس Locres وكاليدون Calydon وهما مما يلي أخائيا. ثم أنجد البويوتيين بعشرة آلاف جندي. على أنه لم يدركهم بنفسه الا بعد أن انتهت معركة خيرونيا بهزيمتهم أمام الإيتوليين وخسارتهم أبيوقريطس Aboecritus وبويوتارخ Boeotarch وألفاً من الرجال. وبعد هذا بسنة واحدة وعلى إثر انتخابه جنرالاً للمرة الثانية قرر الاستيلاء على قلعة كورنث Acrocorinthes لا لكونها ذات أهميّة للسيكيونيين أو الأخائيين بل لأنه وجدها فاتحة لتحرير كل اليونان من حكم الاستبداد الذي يجثم على كل شبرٍ فيها بمجرّد طرده الحامية المقدونية منها. وواتى الحظّ خارس الأثيني في تحقيق النصر على قوّاد الملك بمعركةٍ. فكتب إلى أهالي أثينا يقول إن نصره هو توأم لنصر مراثون! ولذلك فيجب أن يعدّ عمله هذا صِنواً لعمل پيلوپيداس الثيبي

وتراسيبولس Thrasybulus الأثيني اللذين تمكنا من القضاء على الطاغيتين. على أنه يتفوّق عليهما من ناحية واحدة وهي أن معركته لم تكن مع إغريق وإنما ضدّ سيطرة أجنبية. إن البرزخ الذي يرتفع بين البحار كالجرف الساحلي هو مفتاح كل بلاد اليونان الجنوبية والقلعة تقف عقبةً كؤوداً وتقطع البيلوپونيسس تماماً عن أي تماس مع الأجزاء الباقية. وإذا ما عُزّزت بحامية قوية يصبح مرور السلاح والرجال والنقل البحري والبريّ من قبيل المستحيلات ومن يسيطر على تلك القلعة هو سيدّ البلاد كلّها. ولذلك لم يكن فيليب الشاب يمزح حين أطلق على كورنث اسم «أغلال اليونان». وكان هذا الموقع والحالة هذه مطمح أنظار الجميع، وقِبلةَ المنافسة بين الملوك والطغاة. وفي مقدمتهم أنتيغونس الذي كان يقف أمامها أشبه بالمحبّ المتيّم الواله. وانشغل ذهنه بخطط الاستيلاء عليها ولازمته فكرة المفاجأة لأنه كان يائساً من الاستيلاء عليها بهجوم عسكري. ولذلك عمد كما قيل إلى دسّ السمّ لصاحبها ألكساندر فخلفته زوجه نيقيا Nicaea في حكم تلك القلعة، فأسرع أنتيغونس يتخذ ابنه ديمتريوس طعماً للوصول إلى مرماه، فمنّاها بزواج ملكي فخم فحياة سعيدة مع ابنه الشاب فراق لها الأمر ووقع في نفسها موقعاً حسناً لاسيما وقد تعدّت سنّ الشباب ووافقت وتزوجته. إلاّ أن القلعة بقيت في يدها وظلت حاميتها القوية تحافظ عليها. وتظاهر أنتيغونس بعدم الاهتمام واحتفل في كورنث بالزواج وأقام للزوجين المآدب ومجالس اللهو كأنه خالي الذهن منصرف انصرافاً تاماً إلى المرح واللهو لفترة من الزمن. وكانت ساعة الصفر هي بدء غناء أمبيوبيوس Amboebeus على خشبة المرسح. وكان أنتيغونس برفقة نيقيا وقد نُقلت على كرسي ملكي مزيّن، وهي تكاد تطير فرحاً بما تلقى من حفاوة وتكريم، وليس عندها أية فكرة بما بيّت للقلعة.

وما لبث أنتيغونس حتى ودّع الموسيقى وحفلة الزواج وخفّ بأسرع ما يسمح له عمره إلى حصن كورنث فوجد المداخل محكمة الإغلاق في وجهه. فدقّ بعصاه وأمر بفتح الباب، فلم يسع الحراس إلاّ أن يفعلوا ذلك وهم في حيرة من أمرهم. وبهذه الطريقة استولى على الموقع. ولم يستطع كبح جماح عواطفه الجائشة بالفرح فقد نسي وقاره وتقدّم عمره، ونسي طول معاناته تصاريف الدهر وتقلبات الحظّ، وخرج إلى الشارع مظهراً انبساطه. وأخذ وهو واقف في الساحة العامة متوجاً بأكاليل الزهر، وبين يديه الضاربات والنافخات في الناي، يدعو المارّة إلى مشاركته في أفراحه. تلك هي طبيعة العاطفة النزقة الخالية من التحفّظ تُذهِب العقل أكثر مما يُذهبه الخوف والأسى.

هكذا استولى أنتيغونس على قلعة كورنث ووضع فيها حامية من جنوده المؤتمنين

وجعل پرسيوس Persæuse الفيلسوف حاكماً مدنياً لها. وكان أراتوس قد حاول في زمن صاحبها ألكساندر الاستيلاء عليها، ووضع خطة لذلك، إلاّ أنه عدل بعد أن تحالف ألكساندر هذا مع الأخائيين. غير أن دخولها الآن في أملاك أنتيغونس دفعه إلى تجديد المحاولة بخطة جديدة إليك هي:

كان يوجد في كورنث أخوة أربعة من السوريين، أحدهم المدعو ديوقليس كان أحد عساكر الحامية، أما الثلاثة الباقون فقد لجأوا إلى سيكيون بعد أن سرقوا ذهباً من الملك. وكان ثم صرّاف يتعامل أراتوس معه بحدود مهنته اسمه أيغياس Aegias قصده هؤلاء الإخوة فباعوا منه جزءاً من الذهب المسروقّ. أمّا الباقي فقد أخذ أحد الإخوة الثلاثة وهو المدعو أرغينوس Arginus يصرفه بالمفرّق تباعاً إلى الصراف إيغياس وبذلك أصبحا صديقين حميمين، ومرّة انجرّ بهما الحديث إلى قلعة كورنث فقال أرغينوس إنه لاحظ عند صعوده إليها لزيارة أخيه أن هناك شقّاً جانبياً بوجه الصخرة يؤدّي إلى جزء من السور أقل ارتفاعاً من سائر الأجزاء الأخرى، فعقّب أيغياس ممازحاً:

- اني لأعجب من فرط حكمتك! لقد اقتحمت خزائن الملك لأجل الحصول على مقدار ضئيل من الذهب. في حين أنك تستطيع أن تكسب مالاً طائلاً لو شئت بعمل ساعةٍ واحدة لا يكثر. وتعلم أيضاً أن العقاب واحد على السرقة والخيانة العظمى وهو الموت.

فضحك أرغينوس وقال له إنه سيفاتح ديوقليس بالأمر (ذلك لأنه لم يكن يثق بأخويه الآخرين ثقة تامة). وعاد بعد أيام قليلة واتفق مع أراتوس على اصطحابه إلى ذلك الجزء من السور، حيث لا يبلغ الارتفاع أكثر من خمس عشرة قدماً. وتعهّد له أن يفعل كل ما يطلب منه بالتعاون مع أخيه ديوقليس.

ووافق أراتوس على أن يدفع لهم ستين تالنتاً في حالة النجاح. أمّا إذا فشلت العملية وخرج الفريقان سالمين فإنه سيمنح كل واحدٍ منهم منزلاً وتالنتاً واحداً. ثم إنه وضع الستين تالنتاً أمانةً عند أيغياس لأمر أرغينوس وشريكيه. ولم يكن أراتوس يملك هذا المبلغ ولم يكن يريد أن يثير التساؤل بالاستدانة من الآخرين فارتهن صحافه الثمينة وحليّ زوجه عند أيغياس مقابل هذا المبلغ. لقد بلغ من سموّ الخلق والغيرة على أشرف المقاصد أن عمد إلى الإنفاق على المشروع من جيبه الخاص، فبذّ فوكيون وإپامنداس اللذين سمع بأنهما أفضل الإغريق وأعدلهما لأنهما رفضا أعظم الهدايا ولم يخونا واجبهما لقاء المال. وبذلك تحمّل عواقب المغامرة كلّها لأجل الآخرين الذين

ظلوا يجهلون أمرها. ولم يسع الجميع إخفاء إعجابهم بإنكار الذات والسخاء بهذا المبلغ الكبير ثمناً لمجازفةٍ محفوفة بالأخطار، وبذل كل ما لديه لنيل فرصة التعرّض للموت بالنزول بين الأعداء في دجنة الليل، غير طالبٍ مكافأة على ما بذل غير الأمل بالنجاح المشرّف.

كانت المغامرة بحدّ ذاتها خطرة، ولكنّ خطرها تضاعف كثيراً بخطأ ارتُكب من البداية. فقد أرسل أراتوس تابعه تخنون إلى ديوقليس ليستطلعا السور معاً. وكان تخنون يجهل شكل ديوقليس إلاّ أن أرغينوس وصفه له وصفاً دقيقاً يتعذّر معه أن يخطئه. ذكر له أنه أجعد الشعر، أسمر اللون أملط. فذهب تخنون إلى المكان المعيّن وظلّ ينتظر مقدم ديوقليس وأرغينوس في ظاهر المدينة أمام موضع يقال له أورنس Ornis. واتفق أن ديونيسيوس الأخ الأكبر مَرّ به وهو واقف (ولم يكن يدري شيئاً عن المسألة لكنه كان يشبه أخاه ديوقليس شبهاً غريباً) فتطلع إليه تخنون فوجد الأوصاف منطبقة عليه تماماً فاستوقفه وسأله هل له معرفة بأرغينوس؟ فأجابه إنه أخوه فأيقن تخنون أنه يكلم ديوقليس لا غيره فلم يجد حاجة إلى التأكد من اسمه أو طلب دليل آخر ومدّ إليه يده مصافحاً، وشرع يتحدث إليه ويطرح الأسئلة حول ما اتفق عليه مع أرغينوس. وكان ديونيسيوس أشدّ مكراً من أن تفوته فرصة الإفادة من الالتباس، فتظاهر بفهم ما يقول واتجها نحو المدينة وهما يتحدثان دون أن يخالج تخنون أي شك. ولما أصبحا قريبين من الباب همّ ديونيسيوس بالقبض عليه إلاّ أن الصدف حكمت بأن يدركهما أرغينوس فانكشفت له الخدعة ولاح له الخطر فأشار على تخنون بالفرار ودار كلاهما على الأعقاب وأطلقا ساقيهما للريح حتى وصلا إلى أراتوس وقصّا عليه الأمر، فلم يخالجه اليأس. وإنما أرسل أرغينوس إلى ديونيسيوس فوراً وأغراه بمبلغ من المال لقاء سكوته كما نجح في جلبه إلى أراتوس وما إن أصبح تحت رحمته حتى بادر إلى شدّ وثاقه واحتجزاه في غرفة وأقاما عليه حراسة قوية وأخذا يستعدّان للعملية الكبرى.

بعد أن تمّ كل شيء أمر جنوده بأن يظلوا شاكّي السلاح طول الليل واختار منهم أربعمائة لا يعلمون شيئاً عمّا هم مقدمون عليه إلاّ قلّة. وسار بهم حتى الأبواب القريبة من هيكل جونو وكان الوقت منتصف الصيف والقمر بدراً والليلة صافية الأديم لا تشوبها قطعة غيم. وكان الخطر من بريق الصفائح والدروع في ضوء القمر، الذي سيجتذب أنظار العدوّ ويكشف المهاجمين. وما إن شارف الرتل الأول القلعة حتى زحف الضباب من البحر فغطاهم وغطى القلعة نفسها وما جاورها. فافتقد المهاجمون الأرض ونزعوا أحذيتهم لأن ذلك يخفف كثيراً من وقع أقدامهم ويثبّتها أثناء التسلّق.

وأخذ أرغينوس سبعة من الشبان تنكروا بزيّ المسافرين وبلغوا الباب دون أن يسترعي بهم الانتباه، وقتل الناطور والحراس بينما ثُبّتت السلالم على الأسوار. وعجّل أراتوس بإصعاد مائة من رجاله وأمر الباقين بالتسلّق ثم صعد هو وسحب سلالمه وسار مع رجاله في قلب المدينة قاصداً القلعة، وقد كاد يطير فرحاً لبقاء أمره سِرّاً ولفرط وثوقه الآن بالنجاح. وكانت المسافة بينه وبين القلعة واسعة عندما تبيّن أربعة من الخفراء الليليين قادمين وبأيديهم المصابيح لكنهم مرّوا بهم دون أن يفطنوا إليهم فقد كانوا يسبحون في ظل القمر لا في نوره. إلاّ أنهم توضّحوهم عندما توجّهوا نحوهم مباشرة. فانسحب رجال أراتوس وتواروا خلف بعض الجدران في باحات البيوت وكمنوا للخفراء ثم وثبوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة. وفرّ رابعهم وهو مصاب بجرح سيف في رأسه يهتف أن العدوّ قد دخل المدينة، فنُفخ في الأبواق وهبّت المدينة من رقادها وعلا الضجيج وامتلأت الشوارع بالناس وهم يهرجلون وأضيئت الأنوار في المدينة وفي القلعة. وسُمعت جلبة وأصوات مختلطة في كل الأنحاء.

في الوقت نفسه كان أراتوس يعمل بهمّة على توقّل الصخور المؤدية إلى القلعة فعانى مشقة وأبطأ وحاد عن الشقّ الصخريّ العميق الذي كانت تخفيه الأطناف من الجانبين وتتخلله المنعطفات والالتواءات الكثيرة وهو متجه إلى القلعة. ولكن الغيوم انحسرت فجأة عن وجه البدر بقدرة قادرٍ فأنارت للرجال أشقّ جزءٍ من الشِّعب، وبلغ أراتوس الناحية المنشودة من السّور. حتى إذا تمّ ذلك زحفت الغيوم ثانية وحجبت نور القمر.

أما الثلاثمائة الذين تركهم أراتوس في معبد جونو خارج المدينة فقد دخلوا المدينة بعد أن استيقظ الناس وأنيرت الأضواء ولم يعلموا شيئاً عن وجهة أراتوس برجاله المائة ولم يعثروا لهم على أثر. فانسلّوا بهدوءٍ وتجمّعوا كلهم تحت جرف صخري بارزٍ مستترين بظله الكثيف وظلوا هناك حائرين قلقين. وفي تلك الأثناء هوجم رتل أراتوس بالمقذوفات ونشب القتال بينهم وبين الحامية وتناهت إليهم الأصوات وضجّة المعركة من فوق. ولذلك كانت مختلطة غامضة صعب عليهم تعيين اتجاهها لأن الصدى كان يصدر من كل جهة. وأدركت المدافعين عن المدينة الحيرة ولم يدروا بالضبط مركز الهجوم. فساق أرخيلاوس جنوده نحو القلعة وأخذوا يطلقون الصيحات الراعدة وينفخون في الأبواق بشدّة، وقصدُهم مباغتة رتل أراتوس من الخلف. ومرّوا بالثلاثمائة الكامنين، فخرج هؤلاء من مكامنهم وحملوا عليهم وقتلوا بعضهم فألقوا الرعب في نفوس البقية فهربوا، فطاردوهم حتى دحروهم وشتّتوا شملهم في أرجاء

المدينة. وأقبل في أعقاب ذلك أرغينوس ليعلمهم بأن أراتوس مشتبك مع العدوّ في قتال عنيف فوق الأسوار، وأن العدوّ يدافع دفاعاً عنيداً وأن أراتوس في حاجة إلى مدد سريع، فطلبوا منه أن يتقدمهم دون تأخير، وساروا مطلقين الصيحات العالية فسمعها رفاقهم وارتفعت بها معنوياتهم. وانعكس نور القمر على أسلحتهم الصقيلة وهم يسيرون في رتل طويل فبدوا للعدوّ أكثر من عددهم الحقيقي وضاعف الصدى من حجم صيحاتهم. وبمختصر القول انضمّ الرتل إلى جماعة أراتوس ودفعوا بالعدوّ إلى الوراء حتى تمّ لهم الاستيلاء على القلعة وأسر الحامية. وانبلج الصبح عن نصرٍ كاملٍ لهم وألقت الشمس بأشعّتها على أسياد القلعة الجدد. وفي تلك الأثناء وصل القسم الأكبر من جيش أراتوس قادماً من سيكيون واستقبلهم الكورنثيون بفرح عظيم عند مداخل المدينة وعاونهم في إلقاء القبض على أشياع الملك.

بعد أن وضع أراتوس الأمور في نصابها هناك نزل إلى الملعب. وكان ثمّ عدد لا يُحصى من الجمهور احتشد لسماع أقواله ولرؤيته.

فانتظم الجنود الأخائيون في صفّين متقابلين على طول ممشى المرسح. وتقدّم أراتوس وهو في شِكّة سلاحه ودروعه وقد بدت أمارات الإجهاد والإعياء واضحة عليه وغلبت على البِشْر والفرح الذي كان يملأ قلبه. فاعتلى المرسح وأطلق الجمهور هتافاً عظيماً مشفوعاً بالتهاني الحارة. أمسك أراتوس رمحه بيده اليمنى وأسند عليه جسمه مثنياً ركبته قليلاً وظلّ واقفاً بهذه الصورة فترة من الوقت وهو يستمع إلى هتافاتهم وصيحانهم بصمت، ويصغي إلى عبارات التعظيم والإعجاب بشجاعته وتوفيقه، حتى هدأت الضجّة وأرهفت الآذان. فافتتح خطابه إليهم باسم الأخائيين حول عمليته الأخيرة، مزيّناً لهم التحالف مع الأخائيين، ثم أعاد إليهم مفاتيح أبواب مدينتهم التي حرموا منها منذ عهد فيليب الملك. وأطلق سراح أرخيلاوس قائد حامية أنتيغونس الذي وقع في أسره. وأما ثيوفراستس الذي رفض ترك موقعه فقد أمر بقتله. وهرب پيرسيوس إلى Cenchreae عند استسلام القلعة. وقيل إنه كان يتحدث مع أحدهم – بعد مرور زمن على هذه المعركة – فقال محدّثه في سياق الكلام: «إن العاقل وحده هو القائد الحقيقي». فأجاب پيرسيوس:

– أجل، فليس هناك مبدأ فلسفي يعجبي قدر ما يعجبني مبدأ زينو هذا. إلاّ أني اهتديت إلى رأي أصلح بفضل هذا الشاب السيكيوني.

هذا ما عزاه كثير من الكتاب إلى پيرسيوس.

ثم سيطر أراتوس على معبد جونو وميناء ليخيوم Lechaeum. وفي هذا الميناء

استولى على خمس وعشرين سفينة من سفن الملك وخمسمائة حصان وأربعمائة من السوريين الذين باعهم عبيداً. ووضع الحلف الأخائي حامية في قلعة كورنث قوامها أربعمائة جندي وخمسون كلباً مع خمسين مدرّباً لها.

يُعظّم الرومان فيلوپويمين ويسمّونه بـ«آخر الإغريق». أعني أنه لم يقم بينهم رجل عظيم بعده. وأنا أسمّي استيلاء أراتوس على قلعة كورنث بآخر مآثر الإغريق. فهذه العملية جديرة بأن توضع في مصافّ أعظم ما حقّقوه في ميادين الحرب والسياسة سواء بالجراءة التي اتسمت بها أو بنتائجها وآثارها: فما عتم الميغاريون أن ثاروا على أنتيغونس وانضمّوا إلى أراتوس، ودخل الروزينيون والأپيداريون في الحلف الأخائي. وأتيح له لأول مرة أن يدخل أتيكا ويبحر إلى سلاميس ويجتاحها. ثم يوجّه القوة العسكرية الأخائية إلى كل مكان كأنها طائر حبيس انطلق من سجنه يتنسّم أنسام الحرية. وبعث إلى الأثينيين كل حُرّ أسره دون طلب فديةٍ عنهم تمهيداً لسبيل انضمامهم إلى الحلف. وأقنع پطليموس بمحالفة الأخائيين.

ومنح أراتوس امتيازاً لم يُعط لغيره وهو الجمع بين القيادة العليا البحرية والبريّة. وعظم قدره لدى الحلف ومارس سلطاناً عظيماً. فكان يُنتخب جنرالاً بين سنة وأخرى بصورة مستمرة لأن دستورهم لم يكن يسمح ببقاء الجنرال سنتين متتاليتين أو اكثر. على أنه كان هو القائد العام عملياً وسواء في ذلك أكان يتقلّد المنصب أو لا يتقلده، إذ كان في مشوراته وآرائه فصل الخطاب. لقد أدركوا أن أعزّ أمانيه هي منعة الأخائيين واتساع نفوذهم. لقد وجد أن المدينة الواحدة ضعيفة عادة، لا تقوى على حفظ كيانها ودرء الأخطار عن نفسها إلاّ بالتحالف مع غيرها على المعونة المتبادلة في مجال المصلحة العامة، أي كأعضاء الجسم الحيّ الذي لا يقوى على التنفس والعيش إلاّ بالتعاون والنموّ الطبيعي. فإذا انفصلت الأعضاء بعضها عن بعض تحلّلت وفسدت كما يحلّ الدمار بالمدن عندما تنقسم على نفسها في حين أنها تنمو وتزدهر وتنعم بالرفاء عندما تتّحد وتتبادل المنافع مع الإقليم الأخائي الذي تحكم آراؤه الكلّ، كأنها أعضاء في جسم كبير.

لقد آلم أراتوس أن يرسف أهل أرگيف في أغلال العبودية، في حين تنعم المدن المجاورة بحرياتها وقوانينها الخاصّة فراح يتداول في أمر القضاء على طاغيتهم أرسطوماخس. وكان مشوقاً إلى تسديد دينه لتلك المدينة التي آوته وهو طريد، وربّته حتى استوى رجلاً. وذلك بإعادة حريتها وضمّها إلى الحلف الأخائي. ولم يكن يعوزه الرجال الشجعان المستعدون لهذا العمل، وفي مقدمتهم المنجمان أيسخيلوس

Aeschylus وخاريمنيس Charimenes. وكان هؤلاء الثائرون بحاجة إلى الأسلحة، لأن الطاغية منع حمل السلاح داخل المدينة وفرض عقوبات شديدة على المخالفين. فأعدّ أراتوس مقداراً من السيوف القصيرة في مدينة كورنث وأخفاها في سروج وبراذع خيول النقل التي تحمل السلع الاعتيادية إلى أرغوس. إلاّ أن خاريمنيس أفضى بالأمر إلى أحد الأشخاص. الأمر الذي استاء له أيسخيلوس وجماعته، فقاطعوه وانصرفوا لإتمام العمل وحدهم. فثارت ثورة خاريمنيس وانطلق بسورة من غضبه فأخبر عنهم في الوقت الذي كانوا يهمّون بالوثوب على الطاغية في الساحة العامة. وأفلح معظمهم في النجاة ولجأ إلى كورنث. ولم تمرّ فترة من الزمن على هذا حتى وثب فريق من عبيد أرسطوماخوس عليه واغتالوه. فقبض أرسطپوس Aristoppus على ناصية الحكم وكان أكثر من سلفه طغياناً وشراً. فعبّأ أراتوس ما أمكنه من الأخائيين اللائقين للخدمة وأسرعوا لنجدة المدينة وهم واثقون من استعداد الأهالي للانضمام إليهم. ولكن أراتوس كان مخطئاً في حسابه، فقد طال بهم حكم الاستبداد فتعوّدوه ورضوا به، ولم يتحرك أحد منهم لنصرته فاضطر إلى العودة معرّضاً الأخائيين لتهمة ارتكاب أعمال عدوانية في وقت السلم. ورُفِعت عليهم القضية أمام المانيتيين فلم يحضر أراتوس مجلس التحكيم، وفُرض عليه تعويض لأرسطپوس قدره ثلاثون مينا. وساور الطاغية خوف عظيم من أراتوس وازداد له بغضاً وراح يعمل على إهلاكه، فوجد في شخص أنتيغونس الملك ظهيراً. وباتت حياة أراتوس في خطر عظيم فقد انتشر المؤتمرون به يتحيّنون الفرصة لاغتياله. إلاّ أن إخلاص أبناء قومه بعامّتهم وأشرافهم وزعمائهم وحرصهم عليه وعلى سلامته يسرّ له أن يتجنّب مكائدهم ويقف على خططهم ويسمع بآذان عديدة وينظر بأعين كثيرة إلى كل ما يقولون ويفعلون. ولا يسعني هنا إلاّ أن أحيد قليلاً عن موضوع البحث لأصف حياة الطاغية، وحكمه الاستبدادي الكريه، وأبيّن حقيقة الأبهة والعظمة التي اشتهرت بها الحكومات المستبدة والحياة الخاصة التي كان أرسطپوس مضطراً اليها.

كان أنتيغونس صديقه وحليفه، وكان لديه عدد كبير من الجنود فضلاً عن الحرس الشخصي. ولم يترك عدوّاً له في المدينة على قيد الحياة، ومع هذا كلّه كان مضطراً إلى جعل ثكنة حرسه في رواق الأعمدة المحيط بمنزله. وكان يصرف جميع خدمه بعد انتهاء العشاء مباشرةً ويغلق الأبواب عليهم ويحكم رتاجها. ثم يصعد زحفاً على قدميه إلى علّية صغيرة مع محظيته، ويدخلها من بابٍ في أرضيّتها. وبعد ولوجهما يغلق هذا الباب ويضع الفراش فوقه وينام النوم المتوقع لمن هم في حالته هذه: نوم متقطع

خفيف يكتنفه الخوف والهواجس. ثم إن أمّ محظيته تقوم بسحب السلّم من باب العلّية بعد إغلاقه وتأخذه إلى غرفةٍ وتقفل عليه بابها. وفي صباح اليوم التالي تأتي الأم بالسلّم وتثبته في موضعه وتنادي الطاغية الشجاع العظيم فينزل زاحفاً مثل حيوان يمشي على أربع وهو يخرج من جحره. تلك هي حياة أرسطپوس. أما أراتوس فلا يحيا بفضل القوة التي يمارسها ويديرها، وإنما بقوة فضائله، وبسلطة القانون الذي منحه القيادة والأمر دون أن يخشى شيئاً، ينام ويصبح كغيره ويلبس ما يلبسه الآخرون مجرّداً عن الأبّهة والفخفخة، وبقي أبداً عدوّاً لدوداً للطغاة، مدافعاً عن المصلحة العامة، تاركاً نسلاً شريفاً أبيّاً ما زال يتمتع باحترام الإغريق حتى يومنا هذا. لا يُنكر أن بعض أولئك الذين سكنوا القلاع واتخذوا لأنفسهم حرساً واحتموا وراء المزاليج والأبواب المحكمة واعتدّوا بصنوف الأسلحة لحماية أنفسهم، قد نجوا بأرواحهم، لكنها نجاة شبيهة بنجاة الأرنب من قبضة الصيّادين. أفلتوا من الموت إلا أنهم عاشوا مشردين بلا أسرة أو بيت يؤويهم، وماتوا مجهولين لا يُعرف لهم قبر يُزار وتذرف الدموع عليه.

نعود فنقول: قام أراتوس بعدة محاولات سرّية وعلنية للقضاء على أرسطپوس أثناء عمله على تحرير أرغوس فكان نصيبها الفشل. ونذكر منها محاولته اقتحامها. فقد ركّز السلالم وتسلّق الأسوار بفئة قليلة من الجنود، وتمكن من قتل الخفراء الذين اعترضوا سبيله واحتل الأسوار كلها بعد الجهد الجهيد، إلاّ أن نور النهار أدركه فحشد أرسطپوس كل قواته وأطلقها عليه، وجلس الأهالي يرقبون القتال بهدوء تام كأنهم محكمون محايدون في مسابقة ألعاب، وكأن القتال ليس في سبيل حريتهم بل حفلة ألعاب نيمية Nemea كان العُرف قد منحهم امتياز توزيع الجوائز على الفائزين فيها. وقاتل أراتوس قتالاً شديداً وأصيب فخذه بطعنة رمحٍ لكن ظل في مكانه صامداً يردّ هجمات العدوّ المتوالية حتى جنّ الليل فواصل القتالَ أثناءه حتى رجحت الكفّة. ولم تعد تخالج الطاغية فكرة غير الهرب. وكان قد احتاط من قبل فحمل إلى السفن القسم الأكبر من أمواله. ولكن أراتوس كان يجهل الأمر. وكان يشعر بعطش قاتل، وأعجزه جرحه عن مواصلة القتال، فلم يرَ بُدّاً من الانسحاب بجنوده من المدينة، ثم إنه انقضّ على أرغوليس ونهبها.

وفي معركة أخرى ضارية مع أرسطپوس بالقرب من نهر خاريس اتُّهم بأنه انسحب من القتال وبذلك فاته النصر وكان على قاب قوسين منه، لأن قسماً من جيشه استظهر تماماً على العدو وانطلق يجدّ وراء المنهزمين وابتعد مسافة كبيرة، إلاّ أن أراتوس كفّ عن القتال وتراجع إلى معسكره بدون انتظام من دون أن يُضايَق أو يلقى عنتاً من العدوّ

المواجه له، وإنما لخوف شديد انتابه ولعدم ثقة بالنجاح. وعاد الجناح المنتصر من جيشه بعد أن أعمل فتكاً في المنهزمين. وأظهروا حنقاً واستياء وقالوا:

- إننا قتلنا من العدوّ أكثر بكثير مما قتل مِنّاً. ومن حقنا أن نقيم نصباً تذكارياً لانتصارنا.

فامتلأ أراتوس خجلاً، واعتزم معاودة القتال في سبيل إقامة النصب. وفي اليوم التالي بكّر في الخروج وصف جيشه للقتال إلاّ أنه تبيّن أن العدوّ قد عزّز جيشه بوحدات جديدة وبدت معنوياته أفضل من اليوم السابق. فلم يجرؤ على القتال وانسحب وأرسل يقترح هدنةً لدفن القتلى.

مع هذا كله فقد استطاع إزالة آثار هذه الغلطة الفادحة من الأذهان بدهائه السياسي، وحُسن تصرّفه مع الرجال والجنود. ثم إنه ضمّ مدينة كليوني Cleonæ إلى الحلف الأخائي. وأحيا الألعاب النيمية فيها باعتبارها أحقّ تاريخياً بهذا الشرف، وأكثر ملاءمةً. وأقام الأرگيف الألعاب نفسها في مدينتهم في الوقت نفسه. وتسبّب هذا في أوّل خرقٍ لمبدأ الأمان والحصانة المتعارف عليه والمسلّم به لكلّ قادم للمسابقات على الجوائز. إذ أخذ الأخائيون يقبضون على القادمين إلى أرغوس لمشاهدة الألعاب، ويبيعونهم عبيداً. إلى هذا الحدّ كان أراتوس قد بلغ في عدائه للطغاة.

أدرك أراتوس بعد قليلٍ أن أرسطپوس يبيّت لكليوني شراً إلاّ أنه كان متردّداً في تنفيذ محاولته خوفاً من وجوده في كورنث. فتفتّق ذهن أراتوس عن خطة بارعة، وأعلن التعبئةَ رسمياً وجمع جيشه وأمر الجنود أن يتزوّدوا بأرزاق تكفيهم عدة أيام. ثم تظاهر بالزحف عن كنجزيي تاركاً كليوني دون حماية ليحمل أرسطپوس على الاتجاه إليها متوهّماً أن أراتوس قد ابتعد مسافةً لا تمكّنه من العودة لإنقاذها. وهذا ما وقع فعلاً فقد خرج أرسطپوس من أرغوس يقصد كليوني. إلا أن أراتوس اتجه إلى كورنث فوصلها غسقاً ووضع ربايا على طول الطرق المؤدية إلى كليوني، ثم زحف بالأخائيين لمفاجأة أرسطپوس فساروا بأحسن نظام وبسرعة شديدة. ولم يفطن الطاغية إلى الامر ولم يشعر بتقدمهم أو حتى بوصولهم كليوني وانتظامهم بنسق المعركة. حتى إذا انجلى الصبح فُتحت أبواب المدينة ونُفخ في الأبواق وانقضّ أراتوس على العدوّ وهو في غفلة بصياح عظيم وبشدةٍ فألحق بهم هزيمة سريعة وراح يجدّ في أثرهم معقّباً طريقاً كان يعتقد أن أرسطپوس سيفضّل سلوكه وهو يمتاز بكثير من المنعطفات. ولكن المطاردة انتهت في ميكيني Mycenae إذ وثب تراغيسكوس Tragiscus الكريتي على أرسطپوس فقتله، كما ذكر لنا دينياس Dinias وقتل من الجنود ألفاً وخمسمائة. ومع أن أراتوس

حقق نصراً بهذا دون أن يخسر جندياً واحداً فإنه لم يفلح في الاستيلاء على أرغوس ولم يمكّنها من حرّيتها لأن أغياس Agias وأرسطوماخوس الأصغر دخلا المدينة على رأس قوات الملك وقبضا على ناصية الحكم. على أنه أبطل بنصره هذا مزاح وسخرية أولئك الذين دأبوا على الزلفى والتملّق للطغاة بقولهم: إن الجنرال الأخائي يُصاب عادةً بإسهال عندما يترتّب عليه خوض المعركة، وإن نفير بوق الحرب يصيبه بدوارٍ وتهافتٍ، وإنه بعد تنظيمه الصفوف وإعطاء كلمة السرّ لبدء القتال اعتاد أن يسأل أركانه وضباطه هل أن وجوده ضروري الآن بعد أن أصبحت المعركة محتومة؟ ثم يتركهم ويمضي فيجلس بعيداً وينتظر ما يسفر عنه القتال.

في الواقع كانت هذه الحكايات تجد لها صدى في النفوس بصورة عامة. ومال الفلاسفة أيضاً إلى تصديقها حتى أنهم عندما يأخذون بمناقشة احتمال حصول سرعة في دقّات القلب، وتغيّر لون الوجه وانخفاض درجة حرارة الجسم عند الخطر بسبب الخوف، أو أية عِلّة عقلية أخرى، فإنهم كانوا دائماً يضربون بأراتوس مثلاً لذلك الجنرال المحنّك البارع الذي تبدو عليه هذه الانعكاسات في وقت المعركة.

بعد أن تخلّص أراتوس من أرسطپوس على هذه الشاكلة، شرع يفكر في كيفية التخلص من طاغية ميغالوپوليس المدعو ليدياديس Lydiades. كان هذا الرجل بطبعه طيّب الخلق، فيه نبل واستقامة. لم يسلك هذا السبيل السيّئ في الحكم بالدوافع التي كانت لدى الطغاة الآخرين من جشع وتبذّل وفجور وحبّ السيطرة وإنما لأنه كان مشوقاً إلى الشهرة والمجد، فانساقت عاطفته الفتيّة بمظاهر التكريم والإجلال الذي يؤدي له، وباستحسان أفعاله والثناء على مظاهر استبداده. إلاّ أنه نبذ كلّ مظاهر السلطان بعد فترة قليلة من تولّيه الحكم المطلق وعزف عن الأبّهة وأعبائها، وآثر حياة الهدوء والاستقرار، ودفعه خوفه من أراتوس إلى اختيار أفضل السبل. فأولاً تخلّص من عاملي الكره والخوف بالاستغناء عن الجنود والحرس. وثانياً بعث في طلب أراتوس وهناك تنازل عن الحكم لأبناء قومه وأعلن ضمّ مدينته إلى الحلف الأخائي. فاستحسن الاخائيون عمله النبيل وسارعوا بانتخابه جنرالاً لهم وهنا هزّته الحميّة فاعتزم أن ينجز من المآثر مما لم ينجزه أراتوس. وأقدم على خطوة لم تكن الضرورة تدعو إليها وأعلن الحرب على اللقيديميين الأمر الذي لقي معارضةً شديدة من أراتوس حتى ظنّ أنه يعارضه حسداً. واختير ليدياديس جنرالاً مرة أخرى رغم أنف أراتوس الذي كان يعارض في ذلك ويحاول إسناد المنصب إلى آخر، لأنه كان يُنتخب بين سنة وسنة كما أوردنا ذكره. ولكن ليدياديس انتُخب للمرة الثالثة أي صار يتداول المنصب مع أراتوس. ولما

تمكن أعلن عداءه الصريح وكثرت اتهاماته له أمام الأخائيين، ظلماً وتحاملاً، فما لبث هؤلاء أن أدركوا حقيقة أمره فلم يعيدوا انتخابه ونبذوه واحتقروه. وتبيّن الناس الفرق بين الحقيقي والمزيّف من الفضائل؛ وتذكروا به قصّة إيسوب عن الوقواق إذ سأل العصافير مَرّةً لماذا تطير عنه وتتحاشاه دائماً؟ فأجابته: لأنها تخاف أن ينقلب يوماً ما صقراً. كذلك كان في طغيان ليدياديس شكٌ في أن التغيير الذي طرأ عليه مؤقّت.

ونال أراتوس مجداً مؤثّلاً آخر في الحرب الإيتولية. فقد قرّر الأخائيون الإغارة على الإيتوليين من حدود ميغارا، وتقدم أغيس ملك اللقيديميين بجيشه لنصرتهم وتشجيعهم على الاستمرار في القتال. فأحجم أراتوس عن المعركة وتحمّل بصبرٍ كثيراً من اللوم والسخرية وعُيرّ برخاوته وجُبنه، ومع هذا كله لم يتزحزح عن قراره ولم يحمله على العدول عمّا وجده مصلحة عامة. فترك العدوّ يجتاز غيرانيا Geranea إلى البيلوپونيسس دون أن يتعرّض له. وما إن وردت الأنباء بأنهم انقضّوا فجأة على پيلليني Pellene وأخذوها حتى انقلب حال أراتوس، وأصبح رجلاً آخر ولم يعد يطيق انتظاراً وتأخيراً في تعبئة كل قواته بل زحف على العدوّ بما كان لديه من العسكر وانقضّ عليهم. وكان نظامهم قد اختلّ وتفشّت الفوضى في صفوفهم على إثر نجاحهم. إذ ما إن دخلوا المدينة حتى تفرّقوا في أحيائها ودخلوا المساكن وثار القتال والشجار فيما بينهم على الغنائم والأسلاب. وأخذ الضباط والقادة يجرون وراء النسوة والبنات ويضعن فوق رؤوسهن خوذهم الحربية ليتبيّن كل واحد غنيمته فيما بعد ويمنع الآخرين من حيازتها. هكذا كانوا عندما بلغتهم الأنباء بقرب انقضاض أراتوس عليهم، فسادهم الذعر وركبهم الهلع، وآضوا بمواجهة الخطر الماثل قبل السماع به وتلك هي عاقبة الفوضى. فاشتبكت طلائع منهم عند مداخل المدينة وضواحيها بالأخائيين فانكسرت واندفعت لا تلوي إلى الداخل لتبث الرعب في أولئك الذين كانوا يحاولون تنظيم صفوفهم لإسنادهم.

وقد اتفق في تلك الأثناء أن إحدى الأسيرات وهي بنت وجيهٍ من وجهاء المدينة يدعى إپيغيتس Epigethes تمتاز بالفتنة والجمال والقوام الفارع الأهيف؛ جاء بها قائد وحدةٍ من المقاتلين إلى هيكل ديانا وأجلسها هناك بعد أن ألبسها خوذته المريّشة بوصفها غنيمته. ولما سمعت الضجة نهضت وأسرعت إلى الخارج مستطلعةً ووقفت عند باب الهيكل تراقب سير القتال من الأعلى وعلى رأسها الخوذة المريّشة، فبدت للناس مخلوقاً غير أنسيّ وألقت المزيد من الرعب في قلوب الغزاة. فقد حسبوها الربّة متجلّيةً فخانتهم الشجاعة واستسلموا. ويحدّثنا الپلليينيون بأن تمثال ديانا لا يمسّ عادة

ولا ينقل من موضعه، وإن قضت الضرورة الماسّة بذلك فتقوم الكاهنة برفعه، وفي أثناء ذلك يغضّ الحضور بأبصارهم ويديرون وجوههم إلى ناحية أخرى. لأنهم يعتقدون أن النظر إليه شؤم، وجالب للنحس، وأنه يصيب الأشجار التي تعترض طريق مروره بالعُقم فلا تعود تؤتي ثمراً. ويزعمون أن الكاهنة حملت هذا التمثال في ساعة المعركة تلك ورفعته أمام وجوه الإيتوليين الغزاة، فأطارت صوابهم وأعمتهم. إلاّ أن أراتوس لا ينوّه بشيء من هذا في تعليقاته. بل يقول إنه هزم الإيتوليين واختلط الحابل بالنابل في المدينة وجرى قتال الرجل للرجل حتى قُتل سبعمائة منهم وأُجبر الباقون على ترك المدينة والفرار.

واشتهرت هذه المعركة وعُدّت من أبرز الوقائع. وقام تيمانتس Timanthus برسم لوحة للمعركة ووفّق في تصوير دقائقها وتفاصيلها فأبدع وأجاد.

وتألف اتحاد مناوئ للحلف الأخائي يضمّ شعوباً وحكاماً كثيرين فأسرع أراتوس يفاوض الإيتوليين المغلوبين ويعرض عليهم صداقته. وضمن مساعدة پانتاليون Pantalion أبرز شخص فيهم وأعظمهم نفوذاً. ووفّق إلى الصلح ثم إلى حلفٍ معهم. غير أنه أضرّ بسمعة الأخائيين وجلب لنفسه الخزي والعار بسبب رغبته في تحرير الأثينيين. فقد تجاهل الهدنة بينه وبين المقدونيين وحاول الاستيلاء على پيريوس. غير أنه ينكر ذلك في تعليقاته ويلوم أرغينوس مساعده في الاستيلاء على قلعة كورنث. فيقول إنه هاجم پيريوس من تلقاء نفسه ودون أمرٍ منه. فتقطعت حبال السلالم به وبرجاله ولوحق وتحرّج مركزه، فاستجار بأراتوس هاتفاً باسمه وكأنه موجود معهم فخدع أعداءه وبذلك كُتبت له النجاة. لكن هذا العذر لا يبدو معقولاً، أو مقبولاً، فليس في وسع أرغينوس وهو إنسان بسيط ومواطن سوري أن يخطط من ذات نفسه لعملية عسكرية واسعة النطاق كهذه دون أن يكون أراتوس وراءه يهيّئ له الوسائل ويعيّن له الزمن. أضف إلى هذا كله أن محاولاته الاستيلاء على پيريوس لم تعد سِرّاً ولم تقتصر على اثنتين أو ثلاث بل كثرت وكان فيها أشبه بالمحبّ العنيد يكرر محاولات الوصال ولا يثنيه عن عزمه تكرار الفشل. بل كانت الخيبة حافزاً على القيام بتجربة جديدة وبالمزيد من الإقدام يشجعه في ذلك اقترابه من النجاح أكثر فأكثر بعد كل محاولة. ومرّة اضطر إلى الفرار بمن معه من سهول تساليا فأصيب بخلع في ساقه واضطر إلى معاناة عدة عمليات جراحية بالمبضع ليستقيم أمره، وظلّ مدة طويلة عاجزاً عن السير وكان يُحمل في مِحفّة أثناء الحرب.

ووافى أنتيغونس الأجل فخلفه في ملكه ابنه ديمتريوس. وهنا زاد شوق أراتوس

إلى تحرير أثينا، وكان أيضاً يستهين بالمقدونيين على العموم ولا يأبه بقوتهم. على أنه لاقى هزيمة بالقرب من فيلاكيا Phylacia على يد بيش أحد قواد ديمتريوس. وعلى إثر الهزيمة انتشرت إشاعة قوية عن قتله أو أسره. فأرسل ديوغينيس حاكم پيريوس رسائل إلى كورنث يأمر بها الأخائيين هناك بإخلاء المدينة لأن «أراتوس قد قضى نحبه». وتشاء الصدف أن يكون أراتوس فيها عندما وصلت تلك الرسائل، فأعيد الرسل إلى سيّدهم بعد أن أُشبعوا هزؤاً وسخرية. والأنكى من هذا كله أن ديمتريوس أرسل سفينة خاصّة لنقل أراتوس إليه مكبلاً بالأغلال! وخرق الأثينيون المتزلّفون كل الحدود المعقولة عندما ورد نبأ موته وضفروا الأكاليل على رؤوسهم ابتهاجاً وتيمّناً. وحمل أراتوس وهو في سَورة من الغضب على أتيكا وتوغّل فيها حتى بلغ الأكاديمي نفسها ولكنه توقف وهدأت نفسه ولم يُقدم على عملٍ عدواني آخر. على أن الاثينيين أدركوا فيما بعد قيمة فضائله عندما حاولوا بعد موت ديمتريوس استعادة حريتهم واستنجدوا به. ولم تكن السنة سنة قيادته وكان طريح الفراش يشكو العِلّة. فلم يخِب ظن المدينة به في وقت الضيق وأمر بأن يحمل في مِحفّة وهو مريض ونجح في إقناع الحاكم ديوغينيس بتسليمه للأثينيين كلاً من پيريوس ومونيخيا وسلاميس وسونيوم Sunium لقاء مائة وخمسين تالنتاً تدفع له. وتبرّع أراتوس بعشرين منها. وعلى إثر ذلك انضمّ الأيجينون Aegintans والهرميونيون Hermionians إلى الأخائيين. ودخل القسم الأكبر من أركاديا في الحلف الأخائي. وتعاظمت قوة هذا الحلف بمساعدة الإيتوليين وبانشغال المقدونيين في حروبهم الداخلية، وفي قتالهم مع جيرانهم، حتى بلغت أوجها. إلاّ أن أراتوس لم يتخلّ عن فكرته الأولى وهي القضاء على الطغاة. وعِيل صبره من بقاء الاستبداد يخيّم على مدينة أرغوس القريبة. فأرسل يطلب إلى أرسطوماخوس طاغيتها إعادة الحرية إليها وضمّها إلى الحلف الأخائي مقتدياً بليدياديس. وقال له ناصحاً:

- خيرٌ لك أن تختار لنفسك منصب جنرال الشعب العظيم، بكل ما يخلعه عليك من شرفٍ ومكانة، على أن تكون طاغية مستبدّاً في مدينة واحدة، بكلّ ما يتضمّن ذلك من بغضٍ وأخطار.

فوقعت الرسالة في نفسه موقعاً إيجابياً وطلب من أراتوس أن يبعث إليه بخمسين تالنتاً ليفي ما بذمّته من أجر للجنود.

فشرع في جمعها. إلاّ أن ليدياديس الذي كان جنرالاً للحلف في تلك السنة أراد أن يُعزى الفضل في هذا له مدفوعاً بشدّة طموحه. فأخذ يغتاب أراتوس ويشكك

أرسطوماخوس فيه قائلاً إنه عدوّ لدود للطغاة لايلين جانبه، وأقنعه بأن يوكل إليه أمر الاتفاق مع الأخائيين عنه ويترك وساطة أراتوس. إلاّ أن الأخائيين أتوا بالبرهان الدامغ على مبلغ حبّهم لأراتوس ومكانته العظيمة عندهم وثقتهم به، عندما اندفع بسَورة من غضبه يعارض في اقتراح ضمّ أرسطوماخوس إلى الحلف فأسرعوا كلّهم إلى رفض الطلب، ولمّا هدأ واستُرضي وحبّذ الطلب صوّتوا حالاً بقبول بارغوسيين والفلياسيين Phliosions في الاتحاد الأخائي. وانتخبوا أرسطوماخوس جنرالاً للسنة التالية.

وبات أرسطوماخوس يتمتّع بكثير من الثقة والتقدير لدى الأخائيين وهذا ما شجّعهُ على فكرة غزو لاقونيا فأرسل يستقدم أراتوس من أثينا لهذا الغرض. فكتب إليه أراتوس محاولاً جهده أن يحمله على نبذ الفكرة فقد كان يخشى كثيراً دخول الأخائيين في نزاع مع كليومينس الذي كان شجاعاً سريع الصعود في مراقي السلطان والبأس. إلاّ أن أرسطوماخوس قرّر المضيّ قُدماً في حملته، فلم يسع أراتوس إلاّ الرضوخ والمشاركة فيها. وكان هذا سبباً في أن يحول بين أرسطوماخوس وخوضه معركة مع كليومينس عندما واجههما هذا في فاللانسيوم Phallantium. فاستهدف لاتهام ليدياديس. ونشبت بينهما معركة انتخابية فاز فيها أراتوس بمنصب الجنرال برفع الأيدي للمرة الثانية عشرة.

في هذه السنة عانى أراتوس هزيمة ليقيوم على يد كليومينس فهرب وهام على وجهه ليلاً وظُنّ أنه قُتل. وانتشر هذا النبأ للمرة الثانية في طول اليونان وعرضها وأكده الناس. إلاّ أنه اعاد تنظيم قواته، ولم يخلد إلى الهدوء ولكنه استخدم اشاعة موته بخير ما يمكن. فقد انقضّ بدون سابق إنذار على المانتينيين حلفاء كليومينس واحتلّ مدينتهم ووضع فيها حامية، ومنح حقوق المواطنة للأجانب فيها فأمّن فوائد جمّة للأخائيين المقهورين يصعب حصولهم عليها فيما لو كانوا هم المنتصرون. وأغار اللقيديميون ثانية على أراضي ميغالوبوليس فتقدم أراتوس لنجدة المدينة. إلاّ أنه لم يتح لكليومينس فرصة جرّه إلى القتال واستفزازه. كذلك لم يفلح الميغالوبوليون في جرّه إلى المعركة مع إلحاحهم الشديد عليه. لم يكن أراتوس مستعداً كلّ الاستعداد لخوض معركة فاصلة، فقوّاته أقلّ عدداً من قوات خصمه، كما أنه كان يواجه خصماً جريئاً بشخص القائد الشاب. في حين كان هو قد تخطّى حدود الإقدام الطموح الذي يستوجب كبحه وعدم التفريط بالمجد الذي فاز به بالتزام حدود التأنّي والتبصّر، في حين كان كليومينس خصمه يريد الوصول إليه بالمزيد من الاقدام والاندفاع.

قامت المشاة الخفيفة بهجوم من المدينة فأجبروا اللقيديميين على التقهقر حتى

معسكرهم. إلاّ أن [أراتوس] لم يتقدم برجاله وإنما ربض في مجرى ماءٍ جافٍ يعترض الطريق إلى المعسكر، ومنع الجنود من العبور. فاشتد غيظ ليدياديس لما يحدث. وانهال على أراتوس لوماً وتقريعاً، وناشد الخيّالة الانضمام إلى المطاردين في المطاردة لئلا يفلت النصر المحقق من أيديهم. وقال إنه مُقدِم على المخاطرة بحياته في سبيل بلاده وإن عليهم أن لا يتخلّوا عنه وعزّز قواته بكثير من الكُماة الذين لبّوا نداءه. ثم كرّ على ميمنة العدوّ وهزمها وراح يطاردها مطاردة عنيفة ملقياً بجانب الحذر تاركاً حماسته وأمله بالمجد تغريه بالتقدم في أرض وعرة تغطيها النباتات وأشجار الفاكهة وتعترضها سواقٍ عريضة. وهنا اصطدم بقوات كليومينس فخرّ صريعاً وهو يقاتل قتال المغاوير في أشرف معركة عند عتبة بلاده. وفزعت البقية إلى الجزء الأكبر من الجيش فأوقعت الاضطراب والخلل في صفوف المشاة الثقيلة وأدّت إلى هزيمة الجيش كله.

وُجّه أشد الاتهام إلى أراتوس إذ شُكّ في أنه غدر بليدياديس. وأرغمه الأخائيون المنسحبون على مرافقتهم إلى إيغيوم وهو ساخطون عليه أشدّ السخط. وهناك عقدوا مجلس حرب وقرروا فيه أن لا يمدوا أراتوس بعد الآن بمالٍ وأن لا يؤجّر له جنوده، وفرضوا عليه أن يدفع من جيبه أجور جنوده إن رغب أن يشنّ حرباً.

هذه الإهانة اصابته بألم شديد حتى فكر في إعادة أختام المنصب والاستقالة من القيادة العامة. إلاّ أنه عاد فعدل عن رأيه ووجد الصبر أخلق به. وزحف في الحال مع الأخائيين إلى أرخومينس واشتبك بمعركة ضد مغيستونس Megistonus زوج أم كليومينس وانتصر عليه وقتل ثلاثمائة محارب. ووقع مغيستونس في الأسر.

انتهت قيادة سلفه وقد جرت العادة أن يتسلّم هو القيادة للسنة التالية، ولكنه رفض قبولها عندما دُعي لتسلّمها، فانتخب تيموكزينس Timoxenus محلّه. ولم يكن سبب رفضه حنقه على الأهلين كما زعموا، بل للظروف السيئة التي تمرّ بها أحوال الأخائيين. فكليومينس عاد الآن يغزوهم غزوات بسيطة خفيفة الأثر كما كان يفعل قبلاً بوصفه قائداً مقيّداً بأوامر سلطة مدينته. بل صار يغير عليهم بوصفه صاحب الأمر والنهي غير المسؤول أمام أحدٍ بعد أن فتك بالإيغور، ووزّع الأراضي، ومنح خلقاً كثيراً من الأجانب المقيمين حقوق المواطنة اللقيديميّة، وبهذا دخلت خصومته مع الأخائيين صفحة جديدة خطرة، بدأها بالمطالبة لنفسه بالقيادة العليا.

لا مناص لنا هنا من توجيه أشدّ اللوم إلى أراتوس. فقد بدا كالربّان الهيّاب المتردّد في وقت هبوب العاصفة وهياج البحر. لقد تخلّى عن الدفّة في حين كان واجبه يقضي عليه بالتشبّث بها شاء الركاب الخلاص أم أبوا. أمّا إذا كان يعتقد بأن حالة الأخائيين لا

يُرجى لها امل، فكان يجب عليه أن يسلّم الأمر إلى كليومينس ولا يدع البيلوپونيسس تقع مرة أخرى في يد الحاميات المقدونية الهمجية، وأن يحتلّ قلعة كورنث الجنود اللاليريون والغاليون. زد على هذا أن أولئك الذين جعل همّه التغلّب عليهم وسحقهم بالقوة أو بالسياسة وأغرقهم بالإهانات والانتقادات في تعليقاته عاد ينصّبهم حكاماً على المدن تحت راية العنوان الفخم «الحلف الأخائي». في حين أبى ذلك على كليومينس الذي كان طاغية مستبداً في الواقع إلاّ أنه منحدر من النسل الهيراقليدي العريق، وسپارطة موطنه حيث يحق لكل مواطن مهما خمُل ذكره أن يتولّى القيادة قبل أن يتولاها أفضل المقدونيين، إن كان ثمّ من يقيم وزناً لشرف المحتِد اليوناني. ثم إن كليومينس طالب بقيادة الأخائيين معتزماً أن يعطي شرف اللقب حقّه بردّ فضل حقيقي للمدن الإغريقية. في حين رفض أنتيغونس قبول منصب الجنرال بصلاحيات مطلقة في البرّ والبحر، إلاّ إذا تمّت الموافقة على اطلاق يده في قلعة كورنث. مثله في ذلك مثل صيّاد إيسوپ. إنه لم يشأ أن يعتلي ظهور الأخائيين الذين انحنوا له وقدّموا أقفيتهم للضرب بإرسالهم السفراء إليه وإصدار المراسيم الشعبية، فقد أبى إلاّ أن يسرجهم ويشكمهم بأخذ رهائن منهم ووضع حاميات في مدنهم!

استنفد أراتوس كل طاقاته في الكلام ليوضح الضرورة التي ألجاته إلى ذلك. إلاّ أن پوليبيوس Polybius يقول إن أراتوس كان قد اتصل سِرّاً بأنتيغونس قبل أن تلوح هذه الضرورة بوقت طويل، إذ كان يوجس خيفة من كليومينس ويخشى اندفاعه. وكان قد نجح كذلك في إقناع أهالي ميغالوپولس بالضغط على الأخائيين لالتماس العون من أنتيغونس لأنهم أكثر تعرّضاً لويلات الحرب من سواهم. وكان كليومينس لا ينفكّ ينهب بلادهم ويعيث فيها سلباً.

ويكتب فيلارخوس Phylarchus الشيء نفسه (وهو ليس بثقة لولا تأييد پوليبيوس لروايته) لأن الحماسة كانت تغلب عليه كلما أتى إلى ذكر كليومينس بكلمةٍ، حتى لكأنه يترافع عنه في محكمة وليس يكتب تاريخاً فيهبّ في الدفاع عن هذا، ويسرف في قدح أراتوس.

واستعاد كليومينس كانتينيا من يد الأخائيين، وأصاب أراتوس بهزيمة نكراء بعد قتال شديد بالقرب من هيكاتوبيوم. فعمّ السخط عليه حتى أن الأخائيين أرسلوا إلى كليومنيس في الحال، يطلبون منه المجيء إلى أرغوس لتسلّم قيادة الحلف العليا. وسمع أراتوس بقدومه وكان يخشى العاقبة فأرسل إليه يشير بأن لا يأتي ومعه أكثر من ثلاثمائة رجل كما يفعل الأصدقاء والحلفاء. وإن شكّ في أمرٍ يبيّت له فهو مستعدّ

لوضع رهائن بين يديه. إلاّ أن كليومينس عدّ هذا السلوك إهانةً وقفل راجعاً وأرسل إلى الأخائيين رسالة حفلت بالعتاب والاتهام لأراتوس. وكتب أراتوس من جهته رسائل ضدّ كليومينس تضمّنت أقبح الشتائم وأقذع الأوصاف، ولم تنجُ زوجتا المتقادحين ولا زواجهما من تلك الإهانات المتبادلة. وعلى إثر ذلك أرسل كليومينس منادياً للأخائيين بإعلان الحرب. ولما فشل في الاستيلاء على سيكيون بسبب الخيانة - وكان أقرب إليها من حبل الوريد - انسحب إلى مسافة قصيرة وانقضّ على پلليني واستولى عليها عنوةً. وعجلّ بالاستيلاء على پنتاليوم Pentollum وفينيوس Pheneus وأسرع الأرغوسيون للانضمام إليه بملء رغبتهم. ورضي الفلياسيون بحاميته في مدينتهم. وبمختصر القول، لم يبق للأخائيين حليف من كلّ المنضمّين إليهم مؤخراً وأحدقت الفوضى والضجة بأراتوس من كل جهة. ورأى سائر الپيلوپونيسس يهزّ قبضته متوعداً، والمدن ثائرة عليه بتحريض المحرّضين الذين بدأت أصواتهم ترتفع بالثورة. في الواقع لم تبق أرض لم تطأها الثورة. ولم يعد موضع واحدٌ فيه استقرار أو رضا بالوضع الراهن. حتى أن السيكيونيين والكورنثيين اتصلوا سِرّاً بكليومينس، بعد أن ضاقوا ذرعاً بالوضع السائد وحنّوا إلى الانفصال عن الحلف والاستقلال بأمورهم. وكان أراتوس يملك سلطة مطلقة في فرض العقوبات الرادعة فنفّذ أحكام الموت بمن وقع بيده من السيكيونيين، وذهب إلى كورنث وفرض ما ارتآه من العقوبات. فثارت الخواطر وتغيّرت مشاعرهم على الأخائيين وملّوا حكمهم. واجتمعت جموعهم الزاخرة في هيكل أپوللو وأرسلوا بطلب أراتوس وقد قرروا فيما بينهم أن يقبضوا عليه أو يقتلوه قبل إعلان الثورة. فجاء يقود زمام حصانه وكأنه خالي البال لا يشكّ في أمرٍ. فنهض عدد منهم وانهالوا عليه لوماً وصبّوا عليه الاتهامات صبّاً؛ فلم يبدُ عليه أيّ تأثرٍ من الصراخ والزعيق في وجهه واشار إلى الواقفين بالباب أن يدخلوا. وبعد أن ساد الهدوء سار بكل ثبات إلى الباب وخرج كأنه يريد أن يسلّم زمام حصانه لأحد الواقفين وبعد أن ابتعد عن الجمع بمسافة متحدثاً إلى الكورنثيين الذين يلقاهم بشكل اعتيادي ومن غير اكتراث ويطلب فيهم التوجّه إلى هيكل أپوللو حتى بلغ القلعة دون أن يفطنوا إلى قصده. وهنا اعتلى صهوة حصانه وأوصى كليوپاطر Cleopater آمر الحامية باليقظة والحذر والحرص على الواجب، ثم أطلق العنان له متجهاً إلى سيكيون ومعه ثلاثون جندياً لا غير، تاركاً الباقين يتدبّر كل منهم أمره. وبعد قليل ذاع خبر فراره، فأسرع الكورنثيون يجدّون في إثره ولكنهم عجزوا عن اللحاق به. فبادروا إلى استدعاء كليومينس ودفعوا إليه بمدينتهم. وقال كليومينس لهم إن أعظم غنيمة كان بإمكانهم الفوز بها هي أراتوس الذي

تركوه ينجو بجلده. وتقاطر أهالي أكتي[1] لمؤازرته ووضعوا مدنهم تحت تصرّفه، فباشر ببناء الأُطم وخطوط من المتاريس حول قلعة كورنث.

على أن أراتوس بلغ سيكيون بسلام فاجتمع حوله الأخائيون كافةً وصوّتوا على انتخابه جنرالاً مطلق الصلاحية. فبادر إلى حماية نفسه بحرس شخصيّ من مواطنيه.

ها قد مرّ على أراتوس ثلاثة وثلاثون عاماً وهو يعمل في الحياة العامة مع الأخائيين زعيماً أوحد لا ينازعه أحد في سلطانه، ولا في الثقة التي وضِعت فيه. تراه الآن وحيداً منبوذاً من الجميع، لا حول له ولا طول، تتقاذفه الأهواء وتحدق به الأخطار في سفينة بلاده النخرة المتكسّرة. رفض الإيتوليون معاونته في وقت الضيق عندما اتجه إليهم. والأثينيون الذين أحبّوه واحترموه حيل بينهم وبين مساعدته بتدخل يوقليدس وميكيون Micion اللذين امتنعا عن تعزيز قواته. إلاّ أن كليومينس أبى مصادرة ما كان يملكه من عقار ومُلك في كورنث. ولم يدع أحداً يمد يده إليه بل استقدم أصدقاءه ووكلاءه وطلب منهم أن يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الإشراف على أمواله وأن يقدّموا له حساباً عنها. وأرسل إليه في السرّ زوج أمّه مغيستونس وتريپيلوس Tripylus فعرضا عليه الكثير، ومنه مكافأة تقاعدية سنوية قدرها اثنا عشر تالنتاً أي ضعف ما عرض عليه پطليموس لقاء سعيه له بانتخابه قائداً للأخائيين، وأن يشارك في السيطرة على قلعة كورنث. فكان جواب أراتوس أن الظروف ليست خاضعة لسلطانه، وإنما هو الذي يخضع لسلطانها. وعَدّ كليومينس هذا الردّ مراوغة وتهرّباً فغزا أراضي سيكيون ودمّرها تدميراً بالسيف والنار، ثم ألقى الحصار على المدينة طوال ثلاثة أشهر، صمد له أراتوس بعزم لا يلين، ونفسه تنازعه في دعوة أنتيغونس لنجدته لقاء تنازله له عن قلعة كورنث، فهو الشرط الوحيد الذي يقبله هذا الملك.

واجتمع الأخائيون في إيغيوم وطلبوا حضور أراتوس وكان وصوله محفوفاً بأعظم الخطر. فقد ضرب كليومينس معسكره أمام سيكيون تماماً ولا بد من اختراقه لبلوغ المدينة. وألحّ عليه السيكيونيون أن يبقى حيث هو قائلين إنهم لن يسمحوا له بتعريض نفسه للخطر الأكيد والعدوّ متربّص به على الأبواب والمداخل. والتفّت النسوة والأطفال حوله يتباكون ويتشبّثون به كأبٍ ونصير، فطمأنهم وشجعهم على قدر ما أمكنه واعتلى ظهر جواده مع عشرة من أصدقائه وابنه الذي كان وقتذاك فتىً يافعاً. واتجه إلى الساحل فوجد سفناً راسيةً على مبعدة من اليابسة فصعد إليها وأبحر متجهاً نحو إيغيوم

(١) Acte: هو الاسم القديم لأتيكا. وتعني بالإغريقية «أرض الساحل».

لحضور الاجتماع. وتقرر هناك طلب معونة أنتيغونس وتسليم قلعة كورنث له مقابل ذلك. وأرسل أراتوس ابنه وآخرين ليكونوا رهائن لدى الملك المقدوني. فثارت ثائرة الكورنثيين عليه حتى أنهم نهبوا ممتلكاته وصادروا عقاره، وقدّموا منزله هديةً لكليومينس.

وكمُلت استعدادات جيش أنتيغونس وبات متأهّباً للقتال. وكانت عدّته عشرين ألفاً من الرجّالة وألفاً وثلاثمائة فارس مقدوني. فخرج أراتوس وأعضاء المجلس إلى عُرض البحر لاستقباله، فبلغ پيغي Pegæ دون أن يعلم به العدوّ. ولم يكن كبير الثقة بأنتيغونس والمقدونيين وكان يدرك أن مجد هذا الملك قد بُني على حساب الخسائر التي أوقعها بهم، كما لم يكن ناسياً أن شهرته السياسية الأولى بُنيت على خصومته السابقة لأنتيغونس. ولكن للظروف أحكاماً، والحاجة القصوى، وتصلُّب رأس وسيّد كل من نسمّيهم حكاماً جعله يغامر بكل شيء.

لمّا أنبئ أنتيغونس بقدوم أراتوس وصحبه، خرج لاستقبالهم وتحيّتهم بصورة اعتيادية، إلا أنه خصّ أراتوس بالتكريم من البداية، فقد وجده راجح العقل أهلاً للثقة. فقرّبه وجعله من جملة أخصّ عشرائه. وقد جمع أراتوس إلى أصالة الرأي وجيّد المشورة في المسائل العامة طيبَ المعاشرة وحُسن المجلس في اللقاءات الخاصة ومناسبات الأنس واللهو. وما أدرك الفتى أنتيغونس هذه الخصال فيه وموافقتها لمشاربه الملكية حتى ألقى إليه بثقله واعتمده في أمور المقدونيين فضلاً عن أمور الاخائيين. وبهذا تحققت نبوءة الإله فيه بما كشف له في إحدى قرابينه في الماضي. فقد رُوي أنه كان قد ضحّى من زمن بعيد فوجدوا في كبد الأضحية كيسين من الصفراء يغلّفهما غشاء دهني واحد ففسّر هذه الظاهرة كاهنٌ بقوله إن صداقة متينة العُرى ستشتدّ ما بينه وبين ألدّ أعدائه عمّا قريب، فاستخف بالتفسير ولم يأبه به لأنه كان قليل الإيمان بكلام المشعبذين والعرّافين، كبير الاعتماد على منطقه وتحليله العقلي للأمور.

بعد أن حالفهما التوفيق في الحروب التي خاضاها، وأصبحت الأمور على ما يرام، أقام أنتيغونس مأدبة عظيمة في كورنث دعا إليها عدداً كبيراً من الضيوف ووضع مجلس أراتوس إلى جانبه مباشرة. ثم إنه شعر بقشعريرة فطلب غطاءٍ وسأله ألا يشعر هو أيضاً بالبردِ فقال أراتوس:

- أجل فالدنيا باردة جداً.

فأشار عليه أنتيغونس بأن يقرّب منه مقعده. ولما أقبل الخدم بالغطاء ألقوه عليهما معاً، وعندها تذكر أراتوس الاضحية وقول العرّاف فأنشأ يضحك وأخبر الملك بالقصّة.

على أن هذا حدث بعد مرور زمن طويل مما نحن فيه. وهكذا تبادل الملك وأراتوس عهد الإخلاص في پيغي وزحفا على العدوّ واشتبكا معه في عدة وقعات عند مشارف المدينة. وكانت مواقع كليومينس منيعة والكورنثيون يدافعون عن مدينتهم دفاعاً مجيداً وفعالاً. وفي ذلك الوقت أرسل إليه صديقه أرسطوطاليس Aristoteles الأرغوسي يخبره سِرّاً بأنه سيحمل أبناء مدينته الأرغوسيين على الثورة إن قدِم إليها شخصياً مع وحدة عسكرية، فأطلع أنتيغونس على ذلك وأخذ معه ألفاً وخمسمائة رجل وأبحر في زوارق سارت به على محاذاة الساحل في البوغاز حتى إپيداورس Epidaurus. إلاّ أن الأرغوس لم يصبروا حتى وصوله وهبّوا ثائرين بصورة مفاجئة وانقضّوا على جنود كليومينس فلاذ هؤلاء بالقلعة. وعلم كليومينس بما حصل وخشي أن يُقطع عليه خطّ الرجعة باستيلاء خصمه على أرغوس فترك قلعة كورنث وأسرع ليلاً لنجدة رجاله هناك. وسبق أراتوس في الوصول وقضى على الفتنة. ووصل أراتوس برجاله، ثم ما لبث أن زحف أنتيغونس بجيشه، فانسحب كليومينس إلى مانتينيا. وهنا عادت كل المدن إلى حظيرة الحلف الأخائي واحتلّ أنتيغونس قلعة كورنث، وانتخب أهل أرغوس أراتوس جنرالاً، وحملهم على أن يقدّموا كل يملكه الطغاة والخونة هدية لأنتيغونس.

وأمّا عن أرسطوماخوس الطاغية، فقدّ شُدّ على المخلعة وعُذّب، ثم أُغرق في البحر قرب مدينة كنجزيي. وكان هذا العمل البربري سبباً في توجيه أشدّ الانتقاد لأراتوس لأنه وافق على قتل إنسان بدون وجه حقٍ - قتل رجلاً خلافاً لأحكام القانون - كان صديقاً حميماً له، ولم يعرف عنه إلاّ الطيب وكرم الأخلاق، نزل بمساعي أراتوس نفسه عن سلطاته الاستبدادية بملء اختياره. فقالوا إنه تنازل عن كورنث لأنتيغونس بأسهل مما تتنازل عن قرية مقدونية في أورخومنيس بعد أن حاصروها هم وفتحوها. واتهموه بأنه حملهم على إصدار قرارٍ يحرّم عليهم الاتصال بأيّ ملكٍ أو مكاتبته إلاّ بموافقة أنتيغونس. وأنه أرغمهم على تقديم مواد الإعاشة للجنود المقدونيين وصرف أجورهم، وأنه اضطرهم إلى إقامة القرابين وتنظيم المواكب والألعاب تكريماً لأنتيغونس. وأن مواطنيه سبقوا إلى استقبال هذا الملك ودعوه إلى النزول ضيفاً في منزل أراتوس فاختطوا سُنّةً كريهة وأرغموهم على تكرارها. كل هذه عُدّت أخطاءً ارتكبها أراتوس شخصيّاً؛ وكأنهم غفلوا عن الحقيقة المعروفة وهي أنه من العسير كبْح جماح سلطة الملك. فما إن وضِعت الأعنّة في يد أنتيغونس حتى انطلق بقوة ذلك السلطان الملكي دون توقف. وأصبح السيّد المطلق على الحرية التي لا تعود قطّ مأمونة العواقب عند استعماله لها.

في الواقع كان ثمّ الكثير مما يقلق بال أراتوس، كما ظهر من مسألة التماثيل. فقد أعاد أنتيغونس إقامة تماثيل طغاة ارغوس وأزال تماثيل كل فاتحي قلعة كورنث إلاّ تمثال أراتوس. ولم يستطع هذا أن يقنعه بخلافه رغم محاولته. ومما آلمه أيضاً معاملة الأخائيين للمانيتينين بعد استيلائه على مدينتهم بمساعدة أنتيغونس فقد أعملوا السيف في رقاب أبرز المواطنين وأرفعهم مقاماً. وأما الباقون فبعضهم بيع في سوق النخاسةِ، وبعضهم كُبّل بالأغلال وأرسل إلى مقدونيا ليكون رقيقاً وإماء لزوجات المقدونيين وأولادهم. وجمعوا كل الأموال من المدينة المفتوحة فوزّعوا ثُلثها فيما بينهم ودفعوا بالثلثين الباقيين إلى المقدونيين ليتوزّعوها فيما بينهم أيضاً. قد يمكن تبرير هذا العمل بمبدأ المقابلة بالمثل؛ ولكن أليس من الهمجية أن يقوم إخوان مواطنون من شعب واحدٍ ودم واحدٍ بهذه الأعمال فيما بينهم وهم في فورة من الهياج والجنون؟ إن الضرورة على حد قول سيمونيوس تجعل هذا العمل مستطاباً ومغتفراً، إذ لا جُناح في أن يُتاح للعواطف الحانقة المكروبة متنفّسٌ لشفاء غليلها. إلاّ أن الدفاع عن سمعة أراتوس في الموقف التالي غير ممكن بأي وجهٍ من الوجوه، لا من ناحية منطقية ولا بحكم الضرورة. فقد وهب أنتيغونس المدينة للأرغوسيين بعدما أقدم على تلك الأفعال، فقرّر أراتوس بعد انتخابه مؤسّساً جديداً لها أن يعيد تأهيلها. فأصدر بحكم منصبه العسكري مرسوماً يقضي بإبطال إطلاق الاسم القديم عليها، وسمّاها «أنتيغونيا» وهو ما يطلق عليها الآن. ولذلك يمكن القول بأنه كان السبب في طمس معالم الذكرى الغابرة لمانتينيا الجميلة وحملها إلى يومنا هذا اسم مدمّرها وجزّار أهاليها.

تحققت هزيمة كليومينس التامّة في معركة طاحنة بالقرب من سيلاّسيا Sellasia فترك سپارطة وهرب إلى مصر. وبعد أن أظهر أنتيغونس لأراتوس كل آيات الودّ والصداقة بادر إلى الانسحاب بجيشه إلى مقدونيا وهناك أقعده المرض الشديد. فأرسل ابنه فيليب إلى الپيلوپونيس وهو فتىً لم يطرّ شاربه وأوصاه بان يعتمد كل الاعتماد على مشورة أراتوس وأن لا يتعامل مع المدن إلاّ عن طريقه ولا يتصل بالأخائيين إلاّ بوساطته. فاستقبله أراتوس ومحضه النصيحة وأحسن توجيهه وقام على تهذيبه وأعاده إلى مقدونيا وهو يحمل له قدراً كبيراً من الحب والاحترام. وقلبه مفعم بالرغبة والطموح إلى القيام بدورٍ نبيل في بلاد الإغريق.

لمّا قضى أنتيغونس نحبَه حاول الإيتوليون التدخّل في شؤون الپيلوپونيس مستهينين بالأخائيين لما رأوهم عليه من قلّة الحيلة والاعتياد على الاعتماد على غيرهم للدفاع

عنهم والاحتماء بقوة المقدونيين، واستسلامهم لحياة الكسل والراحة. فأغاروا على أراضي پاتري Patrae وديمه Dyme ونهبوها أثناء زحفهم، وغزت جحافلهم مسينة وأعملت فيها تخريباً. فبلغ الغضب بأراتوس أقصاه، ووجد تيموكزينس جنرال تلك السنة متردّداً يضيع الوقت سُدى، لأن مدته كانت توشك على الانتهاء وكان هو سيخلفه. فما كان منه إلاّ أن استبق الأجل المقرر بخمسة أيام، ليتمكن من نجدة المسينيين، فحبّذ الأخائيين الذين كانوا يكرهون الحرب ولايعرفون كيف يستخدمون السلاح فلحقت به الهزيمة في كافيي Caphyae. لقد باشر الحرب باندفاع وحماسة فانتهى بنقيضهما إذ فترت حرارته وأدركه الجزع وضيّع كثيراً من الفرص المؤاتية التي كانت ستمكّنه من خصومه. وتركهم يسرحون ويمرحون في الپيلوپونيس ويشيعون الفوضى فيها من أقصاها إلى أدناها ويرتكبون كل أنواع المحرّمات والجرائم. وهكذا أُسقط في يد أراتوس واضطر إلى الاستنجاد بالمقدونيين ثانية، وبهذا دعي فيليب وجُرّ جرّاً للتدخل في شؤون اليونان. وكان الأمل فيه أن يظهر لطفاً وليناً واستعداداً للعمل وفق ما يريدون بسبب حبه وثقته بأراتوس.

لكن الملك كان واقعاً آنذاك تحت تأثير أپلليس Apelles وميغالياس Megaleas وغيرهما من رجال البلاط الذين أوغروا صدره على أراتوس وقضوا على مكانته لديه. فانحاز فيليب إلى الحزب المناوئ له في أخائيا، وساند مرشحه إيپراتوس Epiratus لمنصب الجنرال، فكان بذلك موضع سخرية الأخائيين واحتقارهم، أضف إلى هذا أن الأمور لم تسر معه سيراً طيّباً لافتقاره إلى معونة أراتوس. وسرعان ما أدرك خطأه فصالح أراتوس واعتمد عليه اعتماداً مطلقاً، فاستقامت له الأمور، وحسنت أحواله وعادت مكانته وسلطته إلى سابق عهدها. وبذلك أثبت أراتوس أنه خير قيّم على الحكم الملكي كما كان خيّر قيّم على الحكم الديمقراطي. فقد أخذت أعمال الملك وتصرّفاته تنحو منحى عقلية أراتوس وطباعه، وتُظهر طابعها الأصيل. مثال ذلك معاملته الرقيقة للقيديميين، بعد أن أثاروا سخطه وغضبه بتصرفاتهم. والعطف الذي أبداه لأهالي كريت (مما أدى إلى خضوع الجزيرة كلّها لحكمه في أيام قلائل). وحملته على الإيتوليين والنصر الساحق الذي حققه. كل هذا رفع من مكانته وصيته، بفضل مشورة أراتوس. وهو ما زاد من حسد أتباع الملك له. وقد وجدوا من المتعذّر أن يتغلّبوا عليه بحبك الدسائس من خلف الستار، فراحوا يوجهون إليه الإهانات، ويسيئون إليه علناً في مجالس شربهم ومآدبهم، بكل فظاظة وصفاقة. حتى أنهم قذفوه مرّة بالحجارة عندما خرج بعد العشاء قاصداً خيمته، فاستاء فيليب من هذا العمل وفرض

على الفاعلين غرامة قدرها عشرون تالنتاً. فلم يكفّوا وظلوا يثيرون الفتن ويعرقلون الأمور. فبطش بهم.

إلاّ أن انتصاراته ودوام نجاحه وازدهار أحواله أخذت تصيبه بالعجرفة والغرور، فبطر وبدأت الرغبات الجامحة تتفجّر في رأسه وتخرج أشطاءها. واندفعت ميوله السيئة فكسرت كل الضوابط المصطنعة التي كانت تقيّدها وتحبسها. وما مرّ عليه زمن حتى تبدّت طباعه الحقيقة ووضح خُلقه الأصيل. وكان أوّل ما فعله هو استغلال وجوده ضيفاً في بيت أراتوس الابن، فأغوى امرأته واعتدى على شرفها سِرّاً ولذلك ظل الأمر مستوراً مدة طويلة. ثم ازداد خشونة وتحكّماً في معالجة شؤون الإغريق العامة. وتمّت تصرّفاته عن أنه يريد التخلّص من رقابة أراتوس لينطلق على رسله دون ضابط. وقد تأيّد ذلك لأراتوس في مسألة المسينيين. فقد ثارت الفتنة فيما بينهم وتأخر أراتوس قليلاً في السير بالنجدات إليهم، فسبقه فيليب إلى المدينة بيوم واحدٍ وأخذ يؤرث نار الشقاق بينهم بدلاً من إخمادها. إذ سأل زعماء المسينيين الأشراف كلاّ على حِدة: هل إن قوانينهم تكفل لهم السيطرة على عامة الشعب؟ ثم انفرد بالزعماء الشعبيين وسألهم هل ينوون البقاء مكتوفي الأيدي أمام مضطهديهم؟ فنفخ في الجهتين روح التحديّ والعداء، وحاول القوّاد إلقاء القبض على زعماء الشعب، فهاجم هؤلاء القواد على رأس الجمهور وقتلوا منهم زهاء مائتين. بعد أن ارتكب فيليب هذه الجريمة النكراء راح يعمل جهده لإخضاع المسينيين لمشيئته التامة. وفي تلك الأثناء وصل أراتوس وأظهر سخطه على هذا العمل لفيليب وللمسينيين أيضاً. كما أنه أوعز إلى ابنه بأن يؤنّبه ويقرّعه. ويبدو أنه كانت ثمّ علاقة حبّ بين هذا الشاب وفيليب. وفي هذه المناسبة كان أحد تعابير اللوم والتأنيب التي وجّهها إليه قوله إنه ما عاد يبدو في عينه أجمل الرجال بل اقبحهم بعد هذا العمل المنكر. فلم يردّ عليه فيليب بكلمة واحدة وإن بان عليه الغضب الشديد وبدا وكأنه يهمّ بالإجابة، وقاطعه عدّة مرّات بصيحات عالية أثناء ما كان يتكلم. أمّا أراتوس الأب فقد ظلّ ساكناً كأن الأمر لا يعنيه في شيء، كسياسي مطبوع يمتاز بالمقدرة على كظم الغيظ وضبط النفس. ومدّ إليه يده وسار به إلى خارج الملعب وقصدا معاً الإيثوماتس Ithomatas للتقريب إلى جوبتر وإلقاء نظرة على الموقع إذ كان منيعاً يشبه قلعة كورنث، يتعذّر اقتحامه إن عُزز بحامية، ويظلّ صامداً لأي هجوم من أية ناحيةٍ. وبعد أن قرّب فيليب وتسلّم أحشاء الثور بيده من الكاهن، عرضها على أراتوس مرّة وعلى ديمتريوس الغاري مرة وسألهما ما الذي يجب عمله بخصوص القلعة حسبما استخلصا من دلائل في الأضحية؟

أيحتفظ بها أم يعيدها للمسينيين؟

فضحك ديمتريوس وأجاب:

- إن كان صدرك يضمّ روح مُنجّم، فأعدها إليهم، وإن كان يضمّ روح ملك فعليك أن تقبض على الثور من قرنيه معاً.

مشيراً إلى الپيلوپونيس التي ستكون طوع أمره إن هو أضاف إلى ملكه قلعة إيثوماتاس إلى جانب قلعة كورنث. وظلّ أراتوس صامتاً برهة من الزمن، فالتفت إليه فيليب وسأله عن رأيه فقال:

- هناك جبال عديدة عظيمة في كريت. وفي بويوسيا وفوكيس صخور منيعة لا تعدّ. وثمّ قلاع وحصون مشهورة لا تُحصى في داخلية أكارنانيا وعلى سواحلها. وكل سكان هذه الأمصار يطيعونك ويدينون بالولاء لك مع أنك لم تستول عنوةً على أي موقع من هذه البلاد. إن اللصوص وحدهم يكمنون في الصخور والجرف. وأمنع قلعة يُحرزها الملك هي الثقة والولاء. فهذان فتحا لك البحر الكريتي، وهذان يجعلانك سيد الپلوپونيسس وبمعونتهما - وأنت بعد شاب - ستكون قائداً للحصن الأول وسيداً للقلعة الثانية.

كان فيليب قد أعاد الأحشاء إلى الكاهن وأراتوس مسترسل في حديثه. وبعد هذا جذب يده قائلاً:

- تعال إذن ولنتبع هذا السبيل.

كأنما أحسّ بأن أراتوس ارغمه على التخلي عن المدينة.

ومنذ ذلك الحين أخذ أراتوس ينأى عن بلاط فيليب ويتهرّب بالتدريج من صحبته. ولما تهيّأ للزحف على إپيروس وطلب منه أن يرافقه اعتذر ولازم منزله خوفاً من أن يناله العار بمشاركته في أعماله. ولما لحقت به الهزيمة الشنعاء مع الرومان وخسر أسطوله، وبالفشل الذريع الذي لاقت خططه، عاد إلى الپيلوپونيسس وحاول مرة أخرى إيقاع الخلاف بين المسينيين، فلم يُفلح، فأعلنها حرباً عليهم وهاجمهم وراح يخرّب بلادهم، فوقعت القطيعة التامة بينه وبين أراتوس وأنكره صديقاً بعد أن أصبح على علم بما لحق ابنه من عار بسبب صلة فيليب بامرأته. لقد تألم كثيراً ولكنه أبقى الأمر سِرّاً ولم يطلع عليه ابنه إذ لا فائدة في إعلامه بما ناله من ضرّ إن كان عاجزاً عن الثأر لنفسه. يقدّم فيليب في الواقع مثلاً لأغرب وأعظم تحوّل خُلقي. فبعد أن كان ملكاً لطيفاً وشاباً عفاً محتشماً انقلب رجلاً فاسقاً وطاغية من أقسى الطغاة وأكثرهم استبداداً. وهذا في الحقيقة لا يُعدّ انقلاباً، بل انكشافاً لطبع أصيل عند سنوح الفرصة

الملائمة للميول الشريرة التي كانت مقيّدة بالخوف من الظهور وعمل النفاق على سترها مدة طويلة. ولذلك كان احترامه لأراتوس في مبدأ الأمر ينطوي على كثير من الخوف والرهبة، وآية ذلك ما فعله به في الأخير. فقد قرّ رأيه على التخلّص منه بقتله، إذ كان يشعر بأن وجود هذا الرجل يحدّ من حريته وسلطانه وأنه لايستطيع أن يتصرّف تصرُّف الملوك والطغاة طالما بقي أراتوس حياً. إلا أنه لم يكن يجرؤ على الفتك به علناً. ولذلك أمر توريون Taurion أحد ضباطه المقرّبين بأن يدسّ له سُمّاً، بغيابه ان امكن. فتقرّب توريون من أراتوس حتى نال ثقته، ودسّ له سمّاً لا يشبه سمومكم القوية السريعة التأثير، بل من تلك التي تسبّب في أول الأمر حُمّى خفيفة، ثم سعالاً جافاً، ثم تُحدث الموت بصورة بطيئة. وما أدرك أراتوس ما حل به، وكان من العبث أن يصرّح بما حصل، فآثر احتمال الأمر بصبر وصمت، وبدا وكأن ما ألمّ به وعكة بسيطة اعتيادية. ولم يبدر منه شيء يدلّ على ما يكنّه قلبه إلا مرّة واحدةً فقد بصق دماً بمحضر من صديق له كان يعوده. فلاحظ الصديق ذلك واستغرب وسأله عما به فقال أراتوس:

- هذا يا كيفالون Cephalon أجْر محبّة الملوك.

ووافاه الأجل في إيغيوم وهو في منصب الجنرال للمرّة السابعة عشرة. ورغب الأخائيون بدفنه هناك وعُمِل موكب تشييع رسمي له وتخليده بنصب يليق بحياته الحافلة إلا أن السيكيونيين احتجّوا بشدّة معتبرين دفنه في بقعة أخرى غير موطنه كارثة وطنية. وأقنعوا الأخائيين بأن يسلّموه لهم. وكان ثم قانون قديم يمنع دفن أيّ شخصٍ داخل أسوار مدينة سيكيون. كذلك كان ثمّ نفور قويّ لبواعث دينية - من دفن الجثث في المدينة. لذلك أرسلوا وفداً إلى دلفي ليستخيروا الكاهنة البيثينية Pythoness فأجابتهم بما يلي:

«سيكيون التي كثيراً ما أنقذها
تقول «أين ستثوي رُفاة أراتوس؟»
إن التربة التي لا تستقرّ عليه بلطف
والتربة التي تشعر تحته بضيق
ستكون ملعونةً في الأرض والبحر والسماء».

ولمّا عاد الرسل بهذه النبوءة سُرَّ الأخائيون بها كثيراً إلا أن سرور السيكيونيين كان أعظم. فقد نزعوا الحِداد ونبذوا مظاهره، وبدوا وكأنهم في عيد وفرح عام. وأسرعوا بنقل الجثمان من إيغيوم إلى المدينة بما يشبه الموكب الديني وقد ضفروا أكاليل الزهر على رؤوسهم وانتظموا صفوفاً بثيابهم الناصعة البياض. وساروا بالغناء والرقص حتى

بلغوا به موضعاً رحباً اختاروه ليكون مثوى أخيراً لمؤسّس مدينتهم ومنقذها. وظل الموقع إلى يومنا هذا يُعرف بالأراتيوم نسبة إلى اسمه. وإليه كانوا يتقدّمون سنوياً بقربانين أولهما في يوم ذكرى إنقاذه المدينة من حكم الطاغية، ويتفق مع الخامس من شهر ديسيوس Daesius الذي يسمّيه الأثينيون أنتستريون Anthesterion ويطلقون على هذا القربان اسم سوتيريا Soteria. أما المناسبة الثانية ففي يوم ميلاده. وما زال هذان القربانان عالقين بالأذهان. ويقوم بمراسم أولهما كاهن جوپتر سوتر ويقوم بمراسم ثانيهما كاهن أراتوس بعد أن يحيط جبينه بعصابة بيضاء مشوبة باللون الأرجواني. وتُنشَد الترانيم على نغم القيثار، ينشدها مغنّو الأعياد الباخوسية. ويقود الموكب رئيس الألعاب ويسير وراءه الصبيان ثم الشباب ثم المستشارون وهم يتقلّدون عقود الزهر، ويلحق بالركب سائر المواطنين وعامّتهم. وقد دخلت مظاهر قليلة من هذه المراسم في الطقوس الدينية وعُدّت جزءاً لا يتجزأ منه الآن ولا يمكن إغفالها أو الاستغناء عنها في الأيام المخصوصة. إلا أن القسم الرئيس منها بطل استعماله بتقادم الزمن وغير ذلك من الطوارئ.

ذلكم هو حديث التاريخ عن حياة وأفعال أراتوس الأب. أما عن أراتوس الابن فقد عمد فيليب الشرّير اللئيم بطبعه، المتطرف في استخدام سلطته، إلى دسّ عقار سامّ له، لم يقتله بل أفقده الرشد، فراح يقوم بأعمال غريبة لا تمتّ إلى العقل بصلة، ويشبع رغبات مخجلة ويتيه في بيداء النزوات. ومات وهو في عنفوان شبابه. وكان موته نعمةً ونهايةً لشقائه أكثر منه مصيبةً له ولأهله. على أن فيليب دفع ثمناً غالياً لغدره بأصدقائه طول حياته، فبعد أن قهره الرومان اضطر إلى وضع نفسه تحت حمايتهم فجرّدوه من كل ممتلكاته وصادروا سفنه كلها عدا خمساً منها. وفرضوا عليه غرامةً قدرها الف تالنت، وتسليم ابنه رهينةً. وتعطفوا عليه فسمحوا له بحكم مقدونيا وملحقاتها. فواصل قتل أنبل رعيّته والفتك بذوي قرباه فملأ المملكة إرهاباً وشراً حتى مقته الناس. ولم يبتسم له الحظّ بعد كل ما حلّ به من مِحَن وكوارث إلا في حالة واحدة، وهو أنه اعقب ابنا عظيم المناقب رفيع الأخلاق. لكنه حقد عليه حسداً و غيرةً لما نال من الرومان من التكريم والتشريف فأمر بقتله. وترك مملكته لبرسيوس ابنه من الخيّاطة غناثينيون Gnathenion وهو الذي قاده پاولوس أميليوس أسيراً في موكب نصره. وبه كانت نهاية سلالة أنتيغونس الملكية. في حين أن نسل أراتوس ظل حتى يومنا هذا متواجداً في كل من سيكيون وپلليني.

أرتحشتا

ARTAXERXES

٤٦٥-٤٢٤ ق.م

١٩٣٩

امتاز أرتحششتا الأول على جميع ملوك الفرس باللطف ونُبل النفس. ولُقّب بذي اليد الطويلة لأن يُمناه كانت أطول من يُسراه. وهو ابن أحشويرش Xerxes. أما أرتحششتا الثاني الذي أقصّ سيرته الآن، والمعروف بـ«الحسَن الذاكرة» فهو حفيد أرتحششتا الأول، من بنته پاريساتس Parysatis التي أنجبت لداريوش أربعة أبناء بِكرُهم أرتحششتا وثانيهم كورش وثالثهم أوستانس Ostanes ورابعهم أوكستاثرس Oxtathres. وسُمّي بكورش تيمّناً بكورش الأول الذي اشتُقّ اسمه على ما يقال من الشمس واسمها باللغة الفارسية «كورش». وكان اسم أرتحششتا بالأول أرسيكاس Arsicas. ويقول دينون Dinon، بل كان يدعى أورسيس Oorses. ولكن ليس من المحتمل أن ينسى قطسياس Ctisias اسم الملك الذي عاش معه كطبيب خاص في بلاطه له ولزوجه وأمه وأولاده (وإن كان قد حشا كتبه بخليط متنافر من الأساطير الخرافية التي لايرضى بها العقل السليم ولا تستقيم مع المنطق).

أظهر الابن الثاني كورش منذ حداثته صلابة، وروحاً وثّابة، بعكس أرتحششتا الذي كان ألْيَن منه جانباً وأرقّ روحاً في كل شيء. تزوّج بنتاً جميلة فاضلة نزولاً عند رغبة أبويه. وأبقاها في ذمّته ضدّ رغبتهما أيضاً! فقد قتل داريوش الملك أخاها وهمّ بقتلها كذلك. إلا أن زوجها أرتحششتا ألقى بنفسه على قدمي أمّه باكياً متشفّعاً وأقنعها بعد لأيٍ بأن يعدل عن قتلها وعن فكرة فصلها عنه. على أن كورش كان الابن الأثير المدلّل عند أمّه. ولذا كانت تفضّله على سائر إخوته في تولّي العرش بعد أبيه. فلما حضرت الوفاة زوجها استدعته من الساحل فأسرع إلى البلاط ينهب الأرض نهباً وكلّه أمل بتولّيه العرش بمساعيها. وكانت لدى پاريساتس حجة قوية لتعزيز ادّعائه بالعرش، استخدمها أحشويرش في ما مضى لنفسه بناء على نصيحة ديماراتوس. والحجة أن پاريساتس أنجبت له بكره أرتحششتا (= أرسيكاس) عندما كان زوجها مواطناً عادياً، في حين أنها أنجبت له كورش عندما كان ملكاً. الا أنها لم تُفلح في مساعيها مع داريوش

وأُعلن بكره ملكاً فاتخذ له اسم أرتحششتا بدلاً من اسمه الأول. وظل كورش ساترابًاً على ليديا وقائداً لجيوش الأقاليم الساحلية.

ومرّ الزمن على وفاة داريوش وحلّ موعد رحلة أرتحششتا إلى پاسارگادي Pasargadae ليقوم كهنة الفرس بإتمام مراسم تنصيبه. كان ثمّ هيكل لربّة محاربة يمكن تشبيهها بمينرڤا، تحتّم التقاليد على الأمير الملكي الذي سيتوّج ملكاً أن يمرّ به بعد أن يخلع حُلّته الملوكية ويلبس الرداء الذي كان كورش الأول يرتديه قبل أن ينصّب ملكاً. ويقضي العُرف أيضاً أن يأكل سلّةً من التين، وعصير شجر الصنوبر (ترپنتين Turpentine)، ثم يشرب كأساً من اللبن الرائب. هذا كل ما عُرف عن المراسم المتبعة، ولا أحد يدري إن كان هناك المزيد إلا من يحضرها. وكان أرتحششتا يوشك على اقتبال تلك الطقوس حين أقبل عليه [تيسافرانس] مع أحد الكهنة الذين علّموا كورش في شبابه ولقّنوه الآداب الفارسية والنظم المتبعة والفلسفة المجوسية. ولذلك كان متوقعاً منه أن لا يسرّ إن ارتقى العرش شخص آخر غير تلميذه، فصدقه في إسناد أي تُهمة لكورش ليس محلّ شك والحالة هذه. ذكر هذا الكاهن لأرتحششتا أن كورش كامن له داخل المعبد وأنه سيثب عليه ويغتاله وقتما ينزع ثيابه. ويؤكد بعض الكتّاب أن كورش قُبِض عليه بعد الاتهام مباشرة، بينما يزعم آخرون أنه دخل المعبد وعُثر عليه مترصّداً بالقرب من الكاهن. فهرعت إليه أمّه قبل أن ينفّذ فيه حكم الموت وشبكته بذراعيها وشدّته إليها بجدائل شعرها وألصقت عنقه بعنقها. وهكذا نجحت في إنقاذ حياته بتوسّلاتها وضراعتها الحارة، فعفا عنه وبعث به إلى مركزه السابق، فسافر وهو حاقد ولم يذكر نجاته من الموت قدر ما كان يذكر القبض عليه. إن حقده هذا جعله أكثر تحرّقاً وتطلّعاً إلى العرش.

قيل إنه أعلن العصيان على أخيه لأنه لم يسمح له بنفقات كافية لطعامه اليومي. إن هذا التعليل سخيف من أساسه. إذ لو سلّمنا جدلاً بأن أرتحششتا كان ممسكاً لا يصرف له ما يكفيه فإن أمّه كانت كفيلة بكل ما يحتاج إليه من أموالها الخاصة. على أن الألوف المؤلّفة من الرجال الذين كان يجنّدهم وينفق عليهم (كما يذكر لنا گزينفون) هو دليل كافٍ على غناه. لم يكن كورش يجمع قوّاته في صعيد واحد، وإنما يوزّعهم في ثكنات عديدة لأنه أراد أن يُخفي نواياه. وبث وكلاءه في كل الأقاليم لتجنيد المرتزقة الأجانب متذرّعاً بمزاعم شتّى. وكانت أمه پاريساتس - التي تعيش مع أخيه الملك - تسعى في الوقت ذاته لتبديد كل شك يساور الملك بخصوصه، كذلك حرص كورش على أن تكون رسائله إليه حافلة بعبارات الولاء والإخلاص وكان أحياناً يطلب إِنعاماً. وأحياناً

كان يبادل تيسافرنس الاتهام كأن حسده وغيرته مركّزان في هذا الشخص فحسب. زد على هذا طول الأناة الذي يمتاز به طبع الملك، مما كان يتوهّمه الكثيرون رحمةً وتسامحاً. وهو في الواقع كان يبدو في بدء ملكه شبيهاً بأرتحششتا الأول في رقّته ولطفه وانفتاحه على الناس وكرمه الشديد في عطائه وهباته. ولم يكن يُلحظ في عقوباته أثر للتشفّي أو لذّة انتقام. وكان سرور من يقدّم له هدية يفوق سرور أولئك الذين يتقبّلون هداياه لكياسته ورقّة أسلوبه في تقديمها. ولم يؤثر عنه أنه تلقّى هدية مهما صغُرت قيمتها إلا وتقبّلها بحفاوة ولطف. ولنا مثلٌ من ذلك الرجل أومسيس الذي قدّم له رمّانة كبيرة الجِرم فقال المهدي له:

- قسماً بميثرا، لو وضع في رعاية هذا الرجل بلدة صغيرة، لجعلها مدينة عظيمة.

ومرة كان في جولة تفقدية في أنحاء المملكة والناس يتبارون في تقديم الهدايا له. ووجد بعض الشغّيلة الفقراء أنه لا يملك ما يقدّمه له، فهرع إلى ضفة النهر واغترف بكفيه ماءً وقدمه له، فسرّ أرتحششتا بذلك سروراً عظيماً وأرسل إليه قدحاً ذهبياً وألف داريي darie. وكان إقليدس اللقيديمي يذيع عنه بعض التعليقات السليطة الصريحة فأرسل إليه أحد قوّاده ليبلغه بالآتي:

- إنك مأذون بقول ما تريد لي. ولكن تذكّر بأن لي أن أقول وأعمل ما أريده لك.

وكان مرّة في رحلة قنص فتقدّم منه تريبازوس Teribazus وأشار بأن رداءه الملكي قد تمزّق. فسأله الملك عمّا يرى عمله في هذا الشأن. فقال تريبازوس:

- إن سَرَّكَ فلتستبدل بهذا الثوب آخر وتمنحه لي.

فعمل الملك بما قاله وعقّب:

- إني أهبك الثوب يا تريبازوس. ولكني أطلب منك ألاّ تلبسه.

إلا أن تريبازوس لم يعبأ بهذا التنبيه، ولم يكن رجل سوء إلا أنه كان قليل التبصّر خفيف العقل. فما إن وجد الحُلّة الممزّقة بين يديه حتى سارع في ارتدائها وزاد عليها زينة الملك من القلائد والعقود الذهبية والحليّ النسائية فذهل الجميع لأن العمل مما يخالف العُرف والتقاليد. إلا أن الملك ضحك وقال:

- أذِنت لك أن تتزيّن بالحليّ بوصفك امرأة. وأذِنت لك بارتداء الثوب الملكي بوصفك مهرّجاً.

وكان التقليد لا يسمح بجلوس أحد إلى مائدة طعامه غير أمّه وزوجته الشرعية. وكانت الأولى ترتفع عنه في مجلسها أما الثانية فتليه. إلا أنه خرق العادة بدعوة أخيه أوكساتريس داوستانس. وكان أحبّ منظر عند الفرس هو عربة امرأته ستاتيرا فقد كانت

ترفع سجفها دائما لتسمح للمواطنين بالسلام عليها والاقتراب منها، وهذا ما أكسبها محبة الناس.

على أن المشاغبين والمتصيّدين الذين لا صبر لهم على الاستقرار ولاهمّ لهم إلا إثارة الفتن أخذوا يصرّحون بأن الزمن بحاجة إلى رجل مثل كورش لأنه رجل مقدام ومقاتل ممتاز، يحب أصدقاءه ويخلص لهم، وأن سعة رقعة الإمبراطورية تتطلب حتماً أميراً مغامراً جريئاً. ولم يكن اعتماد كورش قاصراً على أتباعه في الأقاليم التي يحكمها دائماً وكان يعتمد أيضاً على كثير من الموالين له في البلاد الشمالية القريبة من قاعدة الملك. ولذلك أعلن الحرب عليه، وكتب إلى اللقيديميين يطلب منهم العون والرجال مؤكداً لهم أنه سيعطي الراجل منهم حصاناً، والخيّال منهم عربة. ومن ملك حقلا فسيعطيه قريةً، ومن كان صاحب قرية فسيؤمّره على مدينة. ومن تطوّع في جيشه فسيدفع له أجره بالوزن لا بالعدد. وكال كورش المديح لنفسه بلا حساب. فقالوا إنه أشجع وأكثر إقداماً وأكثر وقوفاً على الفلسفة من أخيه، وأعمق اطلاعاً في الدين المجوسي وإن بوسعه أن يشرب ويتحمّل مقداراً من الخمر أكثر مما يتحمّله أخوه. وأكّد كورش أن أخاه بلغ حداً كبيراً من الجبن وأن ليس فيه الكثير من الرجولة ولا يستطيع الجلوس على صهوة جواده في رحلة صيد، ولا على عرشه في ساعة الخطر.

بعد أن تُلي كتاب كورش هذا على اللقيديميين أرسلوا «القضيب» إلى كليارخوس يأمرونه بإطاعة أوامر كورش في كل شيء. وعلى الأثر زحف بجموعه الكثيفة من البرابرة لقتال أخيه. إلا أن مرتزقة الإغريق لم يكونوا يزيدون عن ثلاثة عشر ألفاً. وأخفى عنهم السبب الحقيقي للحملة فكان يزعم مرة سبباً. ثم يزعم مرة سبباً آخر. إلا أن الغرض الأصلي ما عتم أن انكشف وأسرع تيسافرنس إلى الملك ليطلعه على الأمر شخصياً. فهاج البلاط وماج وانصبّ اللوم كلّه على أُمّ الملك وحام الشك حول بِطانتها ووجّهت إليهم أصابع الاتهام. وكانت ستاتيرا أكثرهم حزناً وأشدّهم عتاباً ولوماً لأم الملك فراحت تذكّرها بتعهداتها وبتوسّلاتها التي استخدمتها لإنقاذ المتآمر على حياة أخيه «. . . كي يقذف بنا في أتون حربٍ ويثير المتاعب لأخيه». فزاد بغض الأم لستاتيرا، وكانت حقوداً لا يعرف قلبها معنى الصفح في سَورة غضبها ومجال نقمتها. فبدأت تداعب فكرة القضاء على حياتها. وبما أن دينون يقول إنها نفّذت فِعلتها هذه أثناء الحرب، وأن قطسياس يقول إن ذلك تمّ بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فسأمسك الآن عن سرد الحكاية وأرجئها إلى حين عملاً بزعم ثانيهما إذ ليس من المعقول أن يجهل التاريخ وكان موجوداً بشخصه هناك، وليس ثمّ من سبب يدفعه إلى

تحوير تاريخ الحادثة عمداً عند إيرادها. وإن كان يحيد أحياناً عن الحقائق ويسرح في أجواء الخيال.

كانت الأنباء والإشاعات تهبط على كورش وهو يتقدم بجيشه حثيثاً مصوّرة له حيرة الملك وعكوفه عن دراسة الموقف، وعدم توفّر نيّة القتال الفوري لديه، بل الانتظار في عُقر داره حتى تتجمّع قوّاته من كل أرجاء مملكته.

كان الملك قد حفر في السهل خندقاً عظيماً عرضه ستون قدماً وطوله لايقل عن ثمانين ميلاً. ومع هذا فقد ترك كورش يجتازه دون أن يحرّك ساكناً. ولم يعترض سبيله إلى مدينة بابل. ويُروى أن تريبازوس كان أول من وجد في نفسه الجرأة ليذكر الملك بواجبه في القتال، والمحافظة على ميديا وبابل وسوسة. وأوضح له محاذير بقائه مختفياً في پرسيس في حين يبلغ جيشه أضعاف أضعاف ما لدى خصمه، وأن عدداً لا يُحصى من الحكام والقادة الذين يفضلون كورش في مجال السياسة والحرب طوع أمره. فقرر الملك القتال وخرج على رأس تسعمائة ألف مقاتل مدرّب، فدبّ الرعب في قلوب العدوّ وفوجئ، وكان يزحف بثقة نفس واستهانة ومن دون نظام وأسلحته في وضع لا تمكّنه من استخدامها حالاً، حتى أن كورش عجز عن تنظيم صفوفهم في نسق المعركة بسبب الفوضى والضجيج. وكان جيش الملك يسير بصمت وهدوء وانتظام تامّ جعل الوحدات اليونانية تقف مشدوهة لحسن الضبط. فقد كانوا يتوقعون الجلبة والهرجلة والفوضى والفجوات الكبيرة بين السرايا والوحدات في مثل هذه الحشود الضخمة من الجنود. ووضع الملك الصفوة المختارة من عجلاتها أمام فلانكسه الخاص المواجه للوحدات الإغريقية حتى يخترق صفوفهم بهجوم عنيف صاعق قبل أن يُطبقوا عليه من الجانبين.

لقد تناول كثير من المؤرّخين هذه المعركة بالوصف. ومنهم گزينفون الذي أبدع وأجاد حتى أنه حملنا على الاعتقاد بأننا نراها بأُمّ أعيننا، لا كأنها حدث من أحداث الماضي. ولقد كان من الدقّة في إيراد التفاصيل أن قارئه لا يسعه إلا أن يشعر وكأنه يشارك في مراحل المعركة فعلاً ويكابد أهوالها بكل ما في ذلك من العواطف. لذلك كان من السخف أن أحاول عرض وصف أوسع وأكثر شمولاً وسأعمد إلى ذكر كل ما يستحق التسجيل مما أغفله.

يُطلق على الموقع الذي التحم فيه الجيشان اسم كوناكسا Cunaxa. ويبعد زهاء خمسمائة فرلنگ عن مدينة بابل. قبل بدء المعركة طلب كليارخوس من كورش أن يبقى في المؤخرة لئلا يعرّض نفسه للخطر. وقيل إن جواب كورش كان كالآتي:

- ما هذا الذي تقترحه يا كليارخوس؟ أتريد مني أنا الذي أطمع بالإمبراطورية أن أُعَدّ غير جدير بها؟

وإذا كان كورش قد ارتكب خطأً فاحشاً في اندفاعه إلى قلب الخطر دون أن يقيم لسلامته وزناً، فإن خطأ كليارخوس لا يقل عنه - إن لم يكن أفدح - عندما رفض توجيه الوحدات الإغريقية إلى القسم الرئيس من الجيش العدوّ حيث موقع الملك. فقد أسند ميمنته إلى النهر خوفاً من حركة التفاف. وكان الأجدر به البقاء في موطنه وعدم الخروج للحرب، إن كان يريد لنفسه السلامة بالدرجة الأولى أو أن ينام بهدوء وأمان! وها هوذا بعد أن قطع مسافة عشرة آلاف فرلنك من الساحل؛ مختارًا غير مجبر بقوّاته الشاكية السلاح لوضع كورش على العرش، تراه يُعمل الفكر لانتقاء مواقع تساعده على دخول المعركة باطمئنان وراحة، لا على حماية من أجره للدفاع عنه. والحالة هذه أشبه بذاك الذي دفعه الخوف من الخطر الحالي إلى التخلّي عن الهدف الحالي من القتال؛ فخان واجبه وضيّع الغرض من حملته. لقد اتضح من أولى صفحات المعركة أن الوحدات التي التفّت حول الملك كانت عاجزة عن صدّ هجوم إغريقي كاسح ولو فعلت تلك الوحدات ذلك لانهزم أرتحششتا أو قُتل وكُتب النصر لكورش، فضلاً عن نجاته من الموت وظفره بالعرش.

إن حذر كلياخورس الذي أسفر عن خيبة كورش ثمّ هلاكه كان أدعى إلى اللوم والنقد من تهوّر كورش واندفاعه. ولم يكن الملك نفسه ليختار أو يتمنّى موقعاً للإغريق يهاجمهم فيه بأقل ما يمكن من المجازفة كذلك الموقع الذي اختاروه هم بعيداً عنه وعن مقاتليه. لقد كرّ الملك عليهم ولم يعلم باندحاره أمامهم. وكذلك لم يعلم كورش بالنصر الذي ناله كليارخوس ولذلك لم يستفد منه ومات وهو يجهل الأمر. وكان كورش يدرك جيداً ما يجب عمله فأمر كليارخوس أن يأخذ هو ورجاله موضع القلب. فأجابه كليارخوس أنه لن يقوم إلا بأفضل شيء فأتلف بذلك كل شيء.

تمكن الإغريق من دحر البرابرة وهم جاثمون في مواضعهم حتى أثخنوا فيهم قتلاً وطاردوهم بنجاح إلى مسافة بعيدة. وكان كورش ممتطياً جواداً من الأصائل إلا أنه جامح لا يسلس قياده اسمه - على قول قطسياس - «پاسكاس»، فتوجه إليه أرطاكيرسيس Artagerses قائد القادوسيين Cadusians وهو يعدو هرباً وصاح به:

- يا أظلم الناس وأكثرهم حمقاً، يا عار الاسم الشريف كورش. أجئت إلى هنا تقود شرّ الإغريق في شّر حملة، تسلب نفائس الفرس؛ معتزماً قتل سيّدك وأخيك،

سيّد عشرة آلاف خادم كلّهم أفضل منك؟ إنك ستفقد رأسك هنا قبل أن يتسنّى لك أن تصيب لمحة من وجه الملك.

قال هذا وسدّد إليه طعنة رمح إلا أن زرده القوي ردّ الطعنة فلم تصبه. ولكن شدة الطعنة جعلته يرتدّ إلى الخلف. وعندما ألوى أرطاكيرسيس عنان فرسه قذفه كورش بحربة فغاب نصلُها في عنقه بأعلى لوح الكتف. واتفق الجميع أن مقتل أرطاكيرسيس كان على يد كورش. وأما عن مصرعه هو نفسه فلما كان كزينفون قد خصّه بعبارات قليلة لا تفي الموضوع حقه فمن المناسب أن نورد هنا ما قاله كلّ من دينون وقطسياس.

يؤكد دينون أن كورش كرّ على حرس أرتحششتا كرّة عنيفة بعد قتله أرطاكيرسيس فجرح حصان الملك، وأُرغم على الرحيل. وهنا أسرع تريبازوس يرفعه على سرج حصان آخر وهو يقول له:

- أذكر أيها الملك هذا اليوم فهو ليس باليوم الذي يمكن أن يُنسى.

وهمز كورش جواده وحمل على أرتحششتا فأسقطه أرضاً. فعصف الغضب بالملك عند الهجمة الثالثة وصاح إن الموت لأجدر به من هذا. وحمل على كورش الذي كان يندفع بعنف وجنون بوجه السلاح الموجّه إليه كالأعمى، فطعنه الملك برمحه وتوالت عليه الطعنات فخرّ صريعاً بيد الملك كما يقول فريقٌ، وبيد جندي من كاريا Caria كما يدّعي الآخرون - الذين يزيدون قائلين بأن الملك كان قد كافأه على هذا بمنحه امتياز رفع ديك ذهبي على رمحه والسير به أمام الصف الأول من الجيش في كل حملة. وسبب ذلك أن الفرس يلقّبون رجال كاريا بالديكة لأنهم يزيّنون خوذاتهم بالريش.

ودونك الآن رواية قطسياس بعد اختصارها وحذف بعض التفاصيل:

بعد أن خرّ أرطاكيرسيس صريعاً بيد كورش أدار جواده نحو الملك، وفعل هذا فعله وأطبق أحدهما على الآخر دون أن يتبادلا كلمة واحدة. إلا أن أريئوس Ariaews تابع كورش قذف رمحاً نحو الملك فأخطأه، فقذف الملك أخاه برمح فلم يصبه بل أصاب ساتيفرنس Satiphernes - وهو إنسان نبيل ومخلص لكورش - فصرعه. وسدّد كورش إلى الملك فاخترق سنانه درعه ونفذ في صدره مقدار عقدتين، فهوى الملك على الأرض لشدة الضربة. فتبدّد شمل من كان يحفّ به وتفرقوا. ولكنه قام من سقطته وبقلّة من رجاله [ومن بينهم قطسياس] شق طريقه إلى نشَزٍ من الأرض غير بعيد فجلس هناك ليصيب بعض الراحة. أما كورش الذي كان في قلب جيش العدوّ فقد جمح به حصانه وجرى به مسافة بعيدة ولم ينجح في كبحه. وانتشر الظلام ولم يعد من السهولة

أن يتعرّف عليه، كما أن أتباعه تعبوا في البحث عنه، وأسكره النصر وملأه ثقة بنفسه فاندفع بين جنود الملك وهو يردّد بالفارسية بأعلى صوته:

- أفسحو السبيل أيها الأوغاد، أفسحوا.

فانشقّت صفوفهم له وألقوا بأنفسهم تحت قدميه، إلا أن قلنسوته سقطت عن هامته وانكشف أمره فلحق به شاب فارسي يدعى ميثريداتس وأصابه بطعنة رمح في أحد صدغَيه بالقرب من عينه من غير معرفة بهويّته. فانبثق الدم الغزير من وجهه ودارت به الأرض فسقط على الأرض فأغمي عليه وظل حصانه منطلقاً يجري على رسله في ميدان القتال. ولكن رفاق ميثريداتس اختطفوا غطاء سرجه الذي سقط عن الحصان وهو مضرّج بالدماء. ولما أخذ كورش يعود إلى صوابه حاول حفيدان له أن يركباه حصاناً آخر لنقله إلى موضع أمين، فعجز عن الركوب وفضّل السير فأسندوه وسار متحاملاً على نفسه وهو يشعر بدوار وضعفٍ شديدين. على أنه كان واثقاً بأنه انتصر. إذ كان يسمع وهو سائر جماعات الفارّين وهي تهتف باسمه وتحيّيه بتحية الملوك مستعطفة مسترحمة. وفي تلك الأثناء التحق بركبه جماعة من الكاونيين Caunians وهم أناس فقراء معدمون انضمّوا إلى جيش الملك خدماً وأتباعاً في المعسكرات - ليقوموا بأحقر الأعمال - فساروا في ركاب كورش مع أتباعه بمحض الصدف معتقدين أنهم من جنود الملك، ولكنهم ما لبثوا أن تبيّنوا خطأهم من الصدار الأحمر الذي يلبسونه فوق دروعهم. لأن أتباع الملك كانوا يلبسون الصدار الأبيض، فأسرع واحد منهم يسدّد طعنة رمح إلى كورش من الخلف دون أن يعرف هويّته، فأصابه بجرح تحت الركبة وفتح العرق فسقط كورش، وبسقطته اصطدم صدغه المجروح بصخرة فشجّه فلفظ أنفاسه.

تلك هي رواية قطسياس يسردها على مهل، ويتباطأ في أحداث الموت فيها. حتى كانت أشبه بالسلاح ذي الحدّ المثلوم!

وفي أثناء مرور أرطاسيراس Artasyras - وهو واحد من عيون الملك - بجثة كورش استرعى نظره الخِصيان وهم يندبون ويعولون فسأل أحد معارفه منهم:

- من هو هذا الذي تندبونه يا پارسيكاس؟

فأجابه:

- أما ترى يا أرطاسيراس؟ إنه سيّدنا كورش.

فأدركه العجب، وعزّى الخصيَّ وطيّب خاطره وطلب منه المحافظة على الجثة. وأسرع وهو ينهب الأرض نهباً إلى أرتحشتا الذي كان قد قطع الأمل تماماً كما كان

يشعر بآلام شديدة من الجرح الذي أصابه والعطش الشديد. وكادت الدنيا لا تسعه من الفرح وهو يبلغه بموت كورش فأسرع الملك إلى الموقع حالاً. ثم توقّف وعدل عن رأيه وأرسل عدداً من أتباعه لـمّا سمع أن جنود الإغريق يكتسحون كل ما يعترض سبيلهم وهم في سورة المطاردة. فذهب ثلاثون رجلاً وبأيديهم المشاعل ليتحققوا من الأمر. وبدأ أرتحششتا وكأنه يلفظ أنفاسه من حرقة العطش فانطلق حاجبه ساتي بارزانس Sati Barzanes يبحث له عن شربة ماء إذ لم يكن في تلك الناحية شيء منه، ومصدر الماء بعيد بمسافة كبيرة عن معسكره. وبعد طويل بحث لقي أحد الكاونيين الفقراء خدم المعسكر ومعه مقدار من الماء الآسِن الموحل في جراب جلدي لا تزيد سعته عن أربعة ليترات فأخذه منه وجاء به إلى الملك. وبعد أن شربه كلّه سأله هل الماء طيب؟ فقال الملك:

- قسماً بالآلهة جميعاً لم أجد خمراً أو ماءً ألذّ وأصفى وأنقى من هذا. وإن خاب سعيي في معرفة من أعطاك إيّاه ومكافأته، فأطلب من السماء أن تسعده في حياته وتجعله غنياً.

وعاد الرجال الثلاثون وسيماؤهم تطفح بالبشر والسعادة، يؤكدون له موت كورش. فارتفعت معنوياته أيضاً بتجمّع الجنود حوله. ووصل إلى حيث وضِع جسد أخيه، وكانت التقاليد تقضي بفصل الرأس أو اليد اليمنى. فأمر الملك أن يؤتى إليه بالرأس ولما جيء به أمسكه من شعره الكثيف المسترسل وعرضه على الجميع وهو بين مصدّق ومكذّب يعتزم الفرار. فاعترتهم الدهشة وسارعوا بإعلان ولائهم واجتمع في وقت يسير سبعون ألفاً من الجنود حوله ودخلوا المعسكر معه.

يؤكد قطسياس أنه خرج معه إلى الحرب أربعمائة ألف مقاتل. إلا أن دينون وكزينفون يقولان إن جيشه كان أكثر عدداً من هذا بكثير، ولا يحسب فيه من لم يدخل المعركة. أما عدد القتلى بموجب الثبت الذي أُرسل لأرتحششتا فقد كان تسعة آلاف على حد قول قطسياس. لكن عدد القتلى الحقيقي لم يكن يقلّ عن عشرين ألفاً.

ويزعم قطسياس أنه كان ضمن وفد أُرسل إلى الإغريق مع فيلانوس Philanus الزاكنثي، وهو كذب صريح. فكزينفون يعلم جيداً أن قطسياس يسكن في البلاط وقد ذكره في أماكن كثيرة من تعليقاته ولا ريب في أنه اطّلع على كتاباته. فلو أنه كان من أعضاء الوفد ولو أنه انتُدِب حقاً لنقل الرسالة الخطيرة مترجمةً لما أغفل كزينفون ذكره بالتأكيد منوّهاً باسم فيلانوس وحده. ولكن يبدو أن قطسياس مبتلى بحب الظهور إلى درجة الإفراط، كما أنه كثير التشيّع والممالأة للقيديميين ولكلياخوس. ولذلك عمد إلى

حشر نفسه في حكاية السفارة، منتهزاً الفرصة هنا ليكيل المديح جزافاً لكليارخوس وسپارطة.

بعد انتهاء المعركة بعث أرتحششتا بهدايا نفيسة لابن أرطاكرسيس الذي صرعه كورش وخلع مثلها من النعم والهبات على قطسياس والآخرين. وعثر على الكاوني الذي سقاه الماء فأنقذه من فقره ورفع من مكانته وجعله غنياً. وأما عن العقوبات التي أنزلها بالمتمرّدين فقد كان ثمّ انسجام وتوازن بينها وبين الجرائم التي ارتكبوها. فحكم على أرباكس Arbaces الميدي الذي انحاز إلى كورش أثناء القتال ثم عاد إلى صفوف الملك بعد مصرعه حكماً يدلّ على فرط ما تحلّى به من جُبن وخنوثة، لا بوصفه خائناً ذا خطورة. فقد أمر أن يُركِبوا على ظهره عاهرة من العواهر العاديات فيسير بها هكذا في الساحة يوماً كاملاً. وكان ثمّ آخر انضمّ إلى العدوّ، ولكنه عاد وأخذ يتبجّح كذباً بأنه قتل اثنين من العُصاة، فأمر أن يُغرز في لسانه ثلاثة دبابيس. ولأجل أن يُظهر ويُثبت في أذهان الناس أنه قتل كورش تم على يده، وليحملهم على الإيمان بذلك، أرسل بهدايا فاخرة إلى ميثريدات أول من أصابه بجرح وأمر حاملي الهدايا إليه أن يقولوا له عند تقديمها «إنه الملك قد شرّفك وأكرمك بهذه الهدايا لأنك عثرت على غطاء سرج كورش وجئته به».

وطالب ذلك الكاري الذي قضى على كورش بعد إصابته بجرح في مأبضه بالمكافأة، فبعث إليه بهدايا كثيرة وأمر حامليها إليه أن يقولوا له: «إن الملك يهديك هذا مكافأة أخرى على الأنباء السارّة التي أبلغتها له. فإن أول مكافأة كانت لأول مَن حمل النبأ وهو أرطاسيراس وأنت الذي أكدت له موت كورش».

وانسحب ميثريدات راضياً ولكنه كان حانقاً في سِرّه. إلاّ أن الكاري السيّئ الحظ كان قاصر العقل، فقد تغلّب عليه الضعف البشري وبهرته الهِبات السنيّة التي بُسطت أمامه وأغرته نفسه على المطالبة بالأكثر وطمع بأشياء أخرى أرفع مما تناسب مقامه. فلم يتنازل بقبول هدية الملك بوصفها مكافأة على إبلاغه نبأ مصرع كورش بل صاح مستنكراً واستشهد بالناس واحتجّ قائلاً إنه هو وحده قاتل كورش وإنه حُرم من شرف العمل ظُلماً. ولما بلغ الملك ما قاله استشاط غضباً وأمر في الحال بقطع رأسه إلاّ أن أمّ الملك التي كانت موجودة إذ ذاك قالت له:

- أرجو أن لا يعمد الملك إلى التخلص من الكاري الحقير بهذه الطريقة السهلة. وليدفعه إليّ لأذيقه العقاب الذي يلائم لسانه الطويل.

فأسلمه إلى پاريساتس فأمرت الجلّاد بأن يشدّه إلى دولاب المخلعة عشرة أيام ثم يقتلع عينيه ويصبّ نحاساً ذائباً في أذنيه حتى يموت.

وبعد فترة قصيرة قُضي على ميثريدات بأشنع ميتة لارتكابه الغلطة نفسها. فقد دُعي إلى وليمة كان يحضرها عدد من خِصيان الملك، ووالدته. فأقبل يختال في حُلّة فاخرة وحِلي ذهبية مما أهداه الملك. ثم أديرت كؤوس الخمر وبدأ أقرب الخصيان وأوسعهم نفوذاً في البلاط عند الملكة، يتحدث إليه قائلاً:

- إن هذا الرداء الفاخر الذي خلعه عليك الملك لا يثمّن يا ميثريدات، وتلك القلائد والأساور نفيسة جداً، وسيفك هذا لا قرين له. لقد أصبحت فأنت قِبلة الأنظار كافةً بما حُبيت من سعادة وإقبال.

فردّ عليه وهو نشوان بفعل الخمر: ما قيمة هذه الأشياء يا سپاراميزس Sparamizes؟ حقاً إني برزت في يوم الامتحان ذاك. وبرهنت للملك أني أستحقّ أنفس وأغلى من هذه الهدايا.

فابتسم سپاراميزس وقال: إني لا أحسدك على نعمتك يا ميثريدات. ولكن لما كانت الخمر والصراحة تسيران جنباً إلى جنب، كما يقول الإغريق. فأسمعني أيها الصديق عن مأثرتك المجيدة وعملك الباسل في العثور على بعض الأغطية التي سقطت من ذلك الحصان وكيفية مجيئك بها إلى الملك؟

سأله وهو يعلم الحقيقة. إلاّ أنه قصد أن يطلق لسانه أمام الحاضرين بإثارة كبريائه بعد أن حلّت الخمر عُقدته وأعجزته عن ضبط أقواله فلم يخفِ شيئاً وأنشأ يقول: تحدث بما شئت حول أغطية السرج وغير ذلك من التوافه! إني أقول لك بصراحة إن يدي هذه هي التي صرعت كورش. لم أقذف برمح طائش كما فعل أرطاكيرسيس، فقد كانت طعنة صادقة تلك التي سدّدتها إليه لم يكن بينها وبين عينه إلاّ شعرة، فنفذت إلى صدغه وأسقطته أرضاً. إن طعنتي هي الطعنة القاتلة.

أطرق الحاضرون برؤوسهم وسكتوا وكأنهم على ثقة من نهاية ميثريدات ومن المصير الفاجع الذي ينتظره. وقال صاحب الدعوة: أي صديقي ميثريدات دعنا نأكل ونشرب الآن، ونحترم يُمن أميرنا وحُسن حظّه، ولنُمسك عن الخوض في حديث هو أخطر مما يناسبنا.

وأنهى سپاراميزس إلى پاريساتس بما سمعه، فأطلعت عليه الملك الذي لم يخفِ غضبه الشديد. لأن ما قاله ميثريدات هو تكذيب له. وأصبح أعظم مأثرة له وأسنى موقف في انتصاره معرّضاً للضياع. فقد كان يريد أن يوهم الجميع فُرساً وإغريقاً بأن

النزال الشخصي الذي وقع بينه وبين أخيه بقي كذلك حتى الأخير دون تدخّل خارجي وأنه كان ثمّ ضربات وطعنات متبادلة وأن الضربة التي تلقّاها جرحته، أما الضربة التي سدّدها فقد أماتت خصمه. ولذلك حكم على ميثريدات بالموت بطريقة الزورق المزدوج، ويتمّ هذا على النحو التالي:

يؤتى بزورقين متماثلين تماماً فيمدّوا المحكوم في واحدٍ وهو مستلق على ظهره ثم يطبقون عليه الزورق الثاني بشكل يجعل رجليه ويديه ورأسه خارج هذه العلبة المحكمة، وبقية جسده داخلها، مثل السلحفاة. ويُطعمونه وإن رفض الأكل أرغموه على ذلك بوخز عينيه. وبعد أن يأكل يصبّون في فمه مزيج الحليب والعسل ويرشّون به وجهه ثم يبقون وجهه بمواجهة الشمس دائماً، فتزحف عليه جموع الذباب والهوام حتى تغطي وجهه وتخفيه، ويقذف بفضلات جسمه داخل الزورق المزدوج فتسعى الدوابّ والحشرات وكل أنواع الدود إلى تلك الفضلات المتفسخة المتعفّنة وتجد سبيلها إلى أمعائه فتنهش جسمه وتُتلفه. وعندما يزول الشك في موت المحكوم يُرفع الزورق الأعلى ويتبيّن أن لحمه قد نُهش نهشاً وحشود من الحشرات البشعة المنظر وهي مشغولة بالتهام ما تبقّى منه وقد تكاثرت وتوالدت في الداخل.

بهذه الطريقة قُضي على ميثريدات بعد سبعة عشر يوماً من العذاب الشديد.

أما ماساباطس Masabates خصيّ الملك الذي قطع يد كورش ورأسه فقد بقي الهدف الأخير لانتقام پاريساتس إلاّ أنه كان حذراً واعياً فلم يتح لها فرصة النيل منه. وأخيراً توصّلت إليه بنصبها الفخ الآتي:

كانت امرأة ذكاء ودهاء وحذقٍ في مسائل كثيرة، وقد عُرفت بكونها من أمهر لاعبي النرد. وكثيراً ما لاعبت به الملك قبل الحرب. بعد أن انتهت الحرب وصالحته راحت تزامله في كلّ تسلياته، وعادت إلى ملاعبته بالنرد كالسابق، وأصبحت موضع ثقته حتى في شؤون حبه وسعت جهدها إلى أن لا تتركه منفرداً بزوجه ستاتيرا فقد كان بغضها لها لا يعدله بغض، كما أنها كانت تكره أن تنافسها امرأة في نفوذها عند الملك. وفي ذات يوم شعر أرتحششتا بحاجة إلى ما يسلّيه ويروّح عن نفسه، فزيّنت له أمّه لعبة نردٍ معها وراهنت بألف داركي وتعمّدت الخسارة ودفعت له الرهان بالذهب، ثم تظاهرت بأنها تأثرت من الخسارة وطلبت منه أن يتيح لها فرصة الثائر وألحّت أن يكون موضع الرهان خصيّاً فوافق. إلاّ أنهما اتفقا على أن يستثني كل واحد منهما خمسة من أعزّ خصيانه وأن يختار من يريده من الباقين إذا ربح. وبدأ اللعب فيما بينهما وبذلت أقصى جهدها واستخدمت كلّ حذقها وساعدها الحظ ففازت عليه. وأسرعت

تطلب منه ماساباطس الذي لم يكن بين الخمسة المستثنين فدفع به إليها، فأمرت فوراً - وقبل أن يشك الملك في الموضوع - بسلخه حَيّاً وتعليقه على ثلاثة أقطابٍ ونشر جلده على ثلاثة أقطابٍ أخرى. فسخط عليها الملك سخطاً شديداً وكاد يجنّ غضباً عندما سمعها تضحك وتقول مازحةً:

- ما أسعدك وأريح بالك، ما دام أزعجك أمر خصيّ شائب وغد إلى هذه الدرجة، في حين أني فقدت ألف داركي ولم أتأثر وبقيت ساكتة قانعة بحظّي.

وأنحى الملك باللائمة على نفسه لأنه خُدع على هذه الشاكلة إلاّ أنه آثر السكوت وإخفاء الأمر، بعكس ستاتيرا التي أخذت تناصبها العداء منذ زمن. فقد زاد حنقها عليها بسبب هذه الفِعلة التي خرقت بها كلّ مبادئ العدل والإنسانية، وضحّت بصديق الملك المخلص وخصيّه إكراماً لذكرى ابنها كورش.

غدر تيسافرنس بكليارخوس والقواد الإغريق الآخرين بعد أن حلف لهم الأيمان وتعهد بألاّ يمسّهم ضررٌ. إذ قبض عليهم وأرسلهم مصفدين إلى الملك. يقول قطسياس أن كليارخوس طلب منه مشطاً وإنه سُرّ كثيراً عندما أجابه إلى سؤاله وقام له بهذه الخدمة. وأهداه خاتماً على سبيل الذكرى وليكون عهداً لأقربائه وأصدقائه في سپارطة. وكان نقش الخاتم يمثل رقصةً كارية Carya. ويحدثنا قطسياس أن زملاء كليارخوس الأسرى، كانوا يسرقون جزءاً من علاوة الأرزاق التي خُص بها ولا يعطونه سوى القليل. فعالج قطسياس الأمر وحسّن من جرايته. وأمر أن توزّع مخصّصات الجنود والأسرى الباقين لوحدهم. وقال إنه فعل ذلك بسعي وتدبير پاريساتس. ويذكر قطسياس في هذا المجال أنها أمرته أن يضع في داخل قطعة من لحم الخنزير كانت ضمن طعام كليارخوس اليومي سكيناً حتى لا يكون مصيره رهناً بإرادة الملك وقسوته ولكن قطسياس أحجم عن ذلك خوفاً. واستجاب الملك لمساعي أمّه ووعدها مقسماً بأن يبقي على حياة كليارخوس إلاّ أنه ما لبث أن قضى عليه رفاقه كافة بتحريض من ستاتيرا وأبقى على مينون وحده. يقول قطسياس إن پاريساتس أخذت منذ ذلك اليوم تترّبص بستاتيرا وأعدّت لها سُمّاً زُعافاً، بقصد القول إنها إكراماً لذكرى كليارخوس راحت تأتمر بحياة ملكة شرعية هي أمّ ولاة عهد الإمبراطورية. ولكن هذا لا يمكن أن يكون دافعاً يقبله المنطق والعقل. ومن الواضح أن هذا الجزء من رواية قطسياس ما هو إلاّ تأبين وتشييع تكريمي لجنازة كليارخوس. لقد أراد منا أن نصدّق بأن جثّته وحدها سلمت من تمزيق الكلاب ونهش الطيور عندما نُفّذ حكم الموت بكلّ قادة الحملة، إذ هبّت ريح شديدة فدفعت كميات كبيرة من التراب فوق الجثة فحجبتها عن الحيوانات.

ثم سقطت فوق هذه التربة ثمرات، فأنبتت روضةً جميلة من الأشجار الظليلة. حتى أن الملك نفسه أبدى أسفه لما فعل، لأنه استنتج من ذلك أنه قتل بشخص كليارخوس رجلاً خصّته الآلهة بحبّها!

كانت پاريساتس منذ البداية تكره كنتّها وتُضمر لها حسداً وغيرةً فقد وجدت أن حظوتها عند زوجها أرتحششتا متأتية من الحبّ والثقة؛ وهما أقوى عوامل الثبات فيها. في حين أن حظوتها عنده مبعثها احترامه وتقديره لها كأمّ. فقرّ عزمها على السعيّ لإهلاكها، وهي على معرفة بأنها تقوم بأخطر مجازفةٍ متصوّرة. كان ثمّ من بين وصائفها امرأة تدعى جيجيس Gigis اختصّتها بأكبر الثقة، وهذه هي التي عاونتها في إعداد السمّ كما يروي لنا دينون. أمّا قطسياس فيزعم أنها كانت مطّلعة على الموضوع لا أكثر، وقد تمّ خلافاً لرأيها. واتهم قطسياس بيليتارز Belitaras بأنه الفاعل الأصلي. لكن دينون يذكر أن ميلانتاس Melantas هو الذي قام بدسّ السمّ. بدأت المرأتان تتزاوران وتتناولان الطعام معاً كالسابق. ومع أن حدّة التحاسد والتباغض قد خفّت إلى حَدّ ما فيما بينهما فقد ظلّتا تتبادلان الحذر والخوف فلا تأكلان من صحاف مختلفة بل تتناولان الطعام من صحفةٍ واحدةٍ دائماً. وكان ثمّ طير صغير الجِرم يكثر في بلاد فارس فقط، ولا يوجد في أحشائه غائط، بل هو كتلة من الشحم، ولذلك اعتقدوا أن هذا الحيوان الصغير إنما يحيا بالهواء والندى وهم يسمّونه ريتناسس Rhyntaces. يؤكد لنا قطسياس أن پاريساتس قطعت هذا الطائر إلى نصفين بسكين لوّثت أحد وجهيها بنقيع السمّ فأكلت هي الجزء الذي لم يلوّثه السمّ وقدّمت لستاتيرا الجزء المسموم. إلاّ أن دينون ينفي هذه الحكاية ويقول إن ميلانتاس هو الذي قطع الطير وأعطى ستاتيرا القسم المسموم فأصيبت بتشنّج وكابدت آلاماً رهيبة وأدركت وهي في نزعها الأخير بأنها مسمومة ووجهت شك الملك إلى أمّه، وكان يعلم حق العلم من أية طينة جُبلت ويعرف ما طُبعت عليه نفسها الشريرة. فبادر فوراً بإجراء التحقيق وقبض على كل وصائفها وخدّام منزلها المكلّفات بشؤون الطبخ واعداد المائدة وسلّمهن إلى الجلادين لتعذيبهن. إلاّ أن پاريساتس أخفت جيجيس وأبقتها معها في الدار مدةً فأمرها بتسليمها إلاّ أنها امتنعت. وأخيراً رغبت هذه الوصيفة في العودة إلى بيتها وكان الوقت ليلاً. وعلم الملك فأرسل من كمن لها وقبض عليها وأمر بقتلها.

إن عقوبة الموت المفروضة على المجرمين تُنفّذ في بلاد فارس قانوناً على الشكل الآتي وصفه: هناك صخرة مسطّحة يستقرّ عليها رأس المحكوم فيدقّ رأسه ويهشّم بصخرة أخرى حتى يُسحق الوجه والرأس إلى شظايا. وقد طُبّقت على جيجيس. إلاّ

أن أرتحششتا لم يقل شيئاً لأمّه ولم يلحق بها أذىً لكنه أبعدها إلى مدينة بابل وهو ما لم تكن تكرهه. وحلف أن لا يقرب تلك المدينة ما دامت حيّة.

هذا ما كان من أمر شؤون الملك المنزلية وآل بيته.

فشلت مساعي أرتحششتا وخابت محاولاته في أسر حملة الإغريق التي حاربت مع كورش. ولم تكن رغبته في ذلك تقلّ عن رغبته في التغلب على كورش والمحافظة على عرشه. لقد كُتبت النجاة لسائر جنود الحملة رغم أنهم خسروا قوّادهم وانتشروا في بلاد الإغريق يذيعون حقيقة أمر الملك الفارسي ويقولون إنه غني جداً، لا يلحقه بشر بترفه وكثرة نسائه، إلاّ أن ما تبقّى إن هو إلا مظاهر جوفاء لا تخفي تحتها شيئاً. وعندما دبّت الحميّة والشجاعة في نفوس الإغريق جميعاً واستهانوا بقوة البرابرة ولاسيّما اللقيديمين الذي خيّل لهم أن الوقت قد حان لتحرير أبناء وطنهم المساكين من عبوديتهم للفرس في آسيا، وأن يضعوا حداً للاضطهاد والمعاملة السيئة التي يلقونها. فجهزوا أولاً جيشاً، وسلّموا قيادته إلى ثيمبروين Thimbroin، ثم إلى ديركيلليداس Dercyllidas. ولكنهم لم يحققوا شيئاً يذكر. وأخيراً سلّموا القيادة لملكهم أغيسيلاوس الذي أنزل قواته في آسيا وأخذ النجاح تلو النجاح يحالفه إذ دحر تيسافرنس في معركة طاحنه وأطلق الثورة في عدة مدن. وكان أرتحششتا يدرك سبيلاً غير الحرب لمعالجة ذلك. فعمد إلى إرسال تيموقراطس Timocrates الروديسي إلى بلاد الإغريق بمقدار كبير من الذهب وأمره بإغراء زعماء المدن وتوزيع هذه الأموال عليهم دون حسابٍ أو تردد. وأن يعمل على إثارة حرب إغريقية تكون سپارطة هدفاً لها. فاتّبع تيموقراطس تعليماته فهبّت أكثر المدن تناصب سپارطة العداء وعمّت الفوضى كل الپيلوپونيسس واستدعى مجلس الإيغور أغيسيلاوس من آسيا. وقد روى أنه قال لأصدقائه وهو يتهيأ للعودة إن أرتحششتا قد طرده من آسيا «بثلاثين ألف رام» يشير بذلك إلى النقش الذي يُرى على قطعة النقد الذهبية الفارسية فهو يمثّل رامي قوسٍ.

وطهّر أرتحششتا البحار من اللقيديميين وكان أسطوله معقود اللواء للاميرالين كونون Conon الأثيني، وفارنا بازوس. كان كونون بعد معركة أيغوسپوتامي Aegospotomi قد سكن قبرص. لا لأنه كان يحرص على سلامته، بل انتظاراً منه للأحداث. ولم يكن بأقلّ أملاً من أولئك الذين ينتظرون تغييراً في اتجاه الريح البحرية. وكان يدرك أن مؤهلاته وبراعته في حاجة إلى القوة. وأن قوة الملك تحتاج إلى توجيه رجل ذكي. فأرسل إليه بتفاصيل خطةٍ قام بإعدادها، وأوصى الرسول بأن يسلّمها إلى الملك يداً بيد إن أمكن، وأن يستخدم لذلك وساطة زينو الكريتي أو پوليقريطس

Polycrites المندي Mandaen (أولهما معلّم رقص، وثانيهما طبيب) فلم يجدهما فاتصل بقطسياس الذي قيل إنه تسلّم رسالة كونون ودسّ فيها عبارة ترجو الملك «أن يبعث بقطسياس مع ردّه لأنه سيكون ذا فائدة في الأقاليم الساحلية». إلاّ أن قطسياس ينفي ما عُزي إليه ويقول إن الملك أنابه من تلقاء نفسه ليقوم بهذه المهمة. على أية حال استظهر أرتحششتا على اللقيديميين في معركة كيندوس البحرية وكان فارنابازوس وكونون يقودان أسطوله. وهكذا قضى على سيادتهم البحرية. وانحاز الإغريق كلهم إلى جانبه وقيل إن عهد السلام الشهير الذي أُبرم فيما بينهم المعروف بـ«سلم أنتاقليداس» كان من اقتراحه. وأنتاقليداس Antaclidas هذا هو ابن ليون السپارطي. كان أحد خاصّة الملك وممن يعتمد عليهم. فاوض اللقيديميين واقنعهم بعقد معاهدة يتنازلون فيها عن كل حق لهم في المدن الإغريقية الآسيوية وكل ما جاورها من الجزر للملك فلا يَعارضون سلطته عليها. وبذلك أحلّ السلم بين الإغريق، إذا كانت كلمة السلم النبيلة تصحّ لوصف عملٍ هو في الواقع عار على الإغريق وغدر بهم. إنها معاهدة أشنع وأقبح من أية معاهدة يمليها غالب في الحرب على مغلوب. ومع أن أرتحششتا كان شديد المقت للسپارطيين ويعتبرهم أشدّ الشعوب صلافة ووقاحة فقد خصّ أنتاقليداس بكثير من التكريم وقرّبه إليه عندما زاره في بلاده. وبلغت حظوته عنده أنه نقع قلادة زهرٍ في أنفس وأندر عطرٍ وبعث بها إليه بعد العشاء، وكانت التفاتة أثارت الدهشة في أنفس الجميع. في الواقع إنه كان شخصاً جديراً بهذه المعاملة من أرتحششتا وبإحرازه هذه الهدية النفيسة، بعد أن مكر بليونيداس وكالليركراتيداس Callicratidas لمصلحة الفرس. فقد هتف واحدٌ منهما - لا أدري أيّهما - قائلاً:

- ما أتعس حظ اليونان، بعد أن أصبح السپارطيون ميديين!

فأجاب أغيسيلاوس:

- كلاّ، بل الميديين هم الذين أصبحوا سپارطيين.

ولم تُغنِ دقة الجواب ولم تمسح عار النتيجة. فما لبث اللقيديميون أن فقدوا سيادتهم على اليونان بهزيمتهم في ليوكترا Leuctra. على أنهم أضاعوا شرفهم قبلها بالمعاهدة التي أبرموها. وقد ظلّ أنتاقليداس يتمتع بالحظوة لدى الملك فيدعوه بالصديق والضيف العزيز حتى معركة ليوكترا التي مرّغت كبرياءهم في التراب وأذلّتهم، وجعلتهم في حاجة كبيرة إلى المال وأرسلوا أغيسيلاوس إلى مصر، وأنتاقليداس إلى أرتحششتا ليطلبا مالاً يكفيهم أدنى حاجتهم. فأُهين أنتاقليداس واحتُقر، ولم يبتّ طلبه فعاد إلى بلاده خائباً ليكون موضع هزء وإهانة خصومه. ودبّ في نفسه الخوف من

صولة الإيغور، فأعلن إضراباً عن الطعام حتى مات. وزار إيسميناس Ismenias الثيبي وپيلوپيداس اللذان انتصرا في موقعة ليوكترا البلاط الفارسي ولم يُقدم ثانيهما على ما يحط من مكانته وسمعته خلال زيارته، أمّا إيسمينياس فقد طُلِب منه الانحناء إلى الملك وفيما هو يفعل سقط خاتمه على الأرض فانكبّ معفّراً وجهه ليتناوله، فبدا وكأنه يقوم برفع فروض الولاء والطاعة. وأظهر الملك رضاءً وسروراً بالخدمة التي أداها له تيماغوراس Timagoras الذي أرسل له أنباءً هامة بوساطة أمين سِرّه بيلوريس Beluris بعشرة آلاف داركي. وعلم أنه مريض وأنه أشير عليه بشرب حليب البقر فاستاق إليه ثمانين بقرةً حلوباً وأرسل إليه معها سريراً وأثاثاً له وخدماً لنصب السرير وترتيبه لأن الإغريق لا معرفة لهم بمثل هذه الأمور ولا يملكون الحذق الكافي لصنع مثل هذا الأثاث. وكذلك أرسل رجالاً لحمله إلى ساحل البحر وهو مستلق عليه بسبب ضعف بنيته. وعلينا أن نذكر أيضاً الحفل الذي أقيم له في البلاط. كان من الفخامة والروعة بحيث دفع أوستانس أخ الملك إلى التوجه إليه بالقول الآتي:

- لا تنس يا تيماغوراس Timagoras المائدة الفخمة التي جلست إليها هنا؛ إنها لم تُفرش لك عبثاً.

وهو لا شكّ تعريض بخيانته أكثر مما هو تذكير له بكرم الملك. والواقع أن الأثينيين حكموا على تيماغوراس بالموت لارتشائه.

وإزاء الكثير من الإساءات والأذى التي ألحقها أرتحشستا بالإغريق فإنه أرضاهم في مسألة واحدة، وهي إنقاذهم من طغيان تيسافرنس أخبث أعدائهم وابغضهم إلى قلوبهم. فقد نفّذ فيه حكم الموت. كانت پاريساتس قد شجعته على اتخاذ هذا القرار وأيّدت التهم التي أدين بها، لأن الملك لم يبق مقيماً على خصامه معها. فقد انفثأ غضبه بعد وقت وجيز وصالحها وأرسل يستقدمها إليه مستفيداً من ذكائها وشجاعتها وحُسن مشورتها. ولم يعد بينه وبينها أي سبب للنفرة وأخذا يتعاونان في شتّى الأمور ويتبادلان وجهات النظر دون شكوك. وعملت هي جهدها لإرضاء الملك والترويح عنه بتيسير كلّ ما يشتهيه ويهفو إليه قلبه، ولم تعد تعيب عليه أي شيء يُقدم عليه. وبهذا زاد نفوذها عنده وقوي سلطانها عليه حتى صار يلبّي كل ما تطلب منه. وأدركت أنه يهيم حباً بأتوسا إحدى ابنتيه. إلاّ أنه كان يخفي عاطفته هذه ويقمعها خوفاً من أمّه بالدرجة الأولى. إلا إذا صدّقنا روايات بعض الكتّاب الذين يزعمون أنه أطفأ نار رغبته منها سِرّاً. ما إن شكّت پاريساتس بحقيقة الأمر حتى أخذت تظهر للفتاة كثيراً من الودّ وراحت تبالغ في وصف فضائلها وسجاياها وجمالها له، ومجمل القول فإنها راحت

تزيّن له الاقتران بها وإعلانها حليلةً شرعية، خلافاً للمبادئ الخلقية والقوانين المتعارف عليها بين الإغريق. لأن الملك عند الفرس هو مصدر القانون بإرادة الآلهة، وهو القاضي الأعلى والحكم في ما هو خير وما هو شرّ. وأكد بعض المؤرّخين ومنهم هيراقليدس الكومي Cuma أنه لم يكتف بالزواج من هذه الابنة، بل تزوّج أيضاً بنته الثانية أميتريس Ameitris التي سيرد ذكرها بين آن وآخر في السياق. إلاّ أنه كان شديد التعلّق بأتوسا حتى أنه لم ينفر منها قط عندما أخذ الجُذام ينتشر في أنحاء جسمها وإنما راح يبتهل إلى جونو لأجلها. وإلى هذه الربّة وحدها دون سواها كان يصلّي ويقدّم لها فرائض العبادة ببسط يديه على الأرض. وحذا كل ساتراب حذوه وتنافسوا مع أصدقائه في رفع التقدمات إليها حتى اكتظّ الطريق إليها بالنفائس والذهب والفضة والخيل والأرجوان من الهدايا إلى مسافة ستة عشر فرلنگ الممتدة ما بين معبدها والبلاط الملكي.

وأرسل فارنابازوس وإيفيقراطس Iphicrates على رأس حملة إلى مصرٍ ولكنه لم ينجح في حربه هذه بسبب الخلاف الذي نشب بين القائدين. وفي حملته على القادوسيين Cadusian تولّى القيادة بنفسه وأغار بثلاثمائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس على أراضيهم الجبلية التي يتعذر اقتحامها، إلى جانب الضباب الكثيف الذي يخيّم عليها دائماً وجدبها وقلّة ثمارها فهي لا تغلّ أي نوع من الغلّة كالقمح، ما عدا التفاح والكمثري وغيرهما من أنواع الفاكهة وعليها فقط يقتات هذا الشعب الجسور الذي رضع حبّ القتال والحرب منذ نعومة أظفاره. فأحدقت الأخطار بحملته، ووقع في ضيق شديد وعضّهم الجوع بنابه إذ لم يكن ثمّ طعام يصلح لجنوده مما تنبت تلك الأرض ولم يجد وسيلة لنقل الأرزاق من مكان آخر فعمدوا إلى ذبح حيوانات أثقالهم. وبلغ ثمن رأس الحمار ستين دراخما. وأقفرت مائدة الملك مما يُغري بالأكل. واستُهلكت الخيول إلاّ القليل. وهنا تفتّق ذهن تريبازوس عن حيلة أنقذ بها الملك وجيشه. كان حظّ تريبازوس عُرضة للتغيّر المفاجئ عند الملك. فيبدو حيناً مقرّباً منه حائزاً رضاه ليجفوه وينفر منه بعدها فيهوى به جدّه إلى الحضيض. وهكذا اختلف نجمه بين صعود وأفول بسبب بسالته وبسبب تهريجه وألاعيبه. وكان في ذلك الوقت في أسوأ حالٍ من الإهمال والجفوة عندما تقدّم باقتراحه: يحكم القادوسيين ملكان كل منهما يعسكر بقواته فوق مرتفع بعيد عن الآخر. مثل تريبازوس أمام الملك وأفضى إليه بخطته فوافق عليها. فأرسل ابنه إلى أحد الملكين وقصد الثاني منهما بنفسه وانطلت الخدعة التي عملاها. فقد أكد كل واحدٍ منهما إلى هذين الملكين أن صاحبه قد أوفد

سفيراً إلى أرتحششتا بطلب عقد معاهدة صداقة وحلف لنفسه. فإن كان حكيماً فعليه أن يسبق زميله ويتصل بالملك قبل أن يعقد هذا الحلف على حسابه. وأنه أي تريبازوس أو ابنه سيعاونه وسيسعى له في ذلك عند الملك. فصدّق الملكان كذبة الأب والابن كلّ من تآمر الآخر. ولذلك بعث كل واحدٍ منهما بسفير، برفقة الرسولين المزعومين تريبازوس وابنه.

استغرقت هذه العملية وقتاً ولذلك شُكّ في تريبازوس وابنه، وفوتح الملك بهذه الوساوس، وكان اليأس والندم من وثوقه به قد بدأ يتسرّب اليه، فبدأ يعير أذناً صاغية للواشين الحاسدين. غير أن الأب والابن عادا أخيراً، وكل منهما برفقه مندوب قادوسي. فأعلنت هدنة وسلام وعاد تريبازوس إلى الوطن مع الملك وهو يختال بالحظوة التي نالها وبالمقام الذي ارتفع إليه عند الملك. لقد أثبت أرتحششتا بحملته الخطرة هذه أن الجبن والخنوثة لا يتأتّيان من ترف العيش ونعومته كما يظن الكثيرون، بل من آثار الطبع الفاسد الوضيع الذي يحرّكه سوء الرأي وخطله. إذ بصرف النظر عمّا كان يرتديه الملك من نفيس الثياب والذهب والحلى الفاخرة مما لا تقلّ قيمته عن اثني عشر ألف تالنت، لم يجد أي معرّة في مشاركة أصغر جنوده رتبةً تعبهم وكدحهم. فقد كنت تراه وقد شدّ كِنانته إلى جنبه وأمسك بترسه يقود جيشه سائراً على قدميه تاركاً حصانه جانباً، يجوس المسالك الوعرة ويهبط الشعاب الحادّة. وكان عمله هذا يشيع في نفوس الجنود الراحة ويشدّ من عزائمهم. في حين كان وجهه الباسم وقوّته التي لا يعتريها وهنٌ تجعل لجنوده أجنحة وتخفّف أعباء السير عنهم. وبلغ معدّل ما كانوا يقطعونه في اليوم الواحد مائتي فرلنگ.

ووصل الجيش إلى قصر من قصور الملك الريفية، امتاز بحدائقه الزهراء وجنانه البديعة النظام. وكان يقع وسط إقليم قاحلٍ ماحلٍ لا ترى فيه نبتاً ولا شجراً، وكان البرد شديداً لا يُحتمل فأطلق جنوده يحتطبون لأنفسهم ما شاؤوا دون قيدٍ أو شرط من أشجار الحدائق ولم يستثن حتى أشجار السرو والصنوبر الثمينة. وكانت أشجاراً سامقة مهيبة فترددوا ونكصوا عنها، فما كان من الملك الا أن تناول فأساً وأهوى بضرباته على أكبرها وأجملها منظراً فحذا الجنود حذوه وأشعلوا نيراناً عظيمة وقضوا ليلتهم في راحةٍ ودفء. على أن الملك مُني بخسائر في أشجع رجاله لم تكن بالقليلة، كما فقد كل خيوله. وأخذ يشكّ في أن فشله وسوء حظه أفقده مكانته عند الشعب وأشاع فيه الاحتقار له وأوجس خيفة من نبلائه بصورة خاصة فأوقع بهم مذبحة. قتل بعضهم بدافع الخوف وبعضهم بسورة من غضب. إن الخوف في الواقع هو أشدّ حافزٍ للأمراء

إلى البربرية وسفك الدماء. أما الثقة فتدفع إلى الرحمة والعطف وصفاء القلب من الشك. ولذلك نجد أشدّ الوحوش ضراوة أقلّها ألفة، وأكثرها نفرة خوفاً وأسرعها إثارة أما الحيوانات الراقية والأكثر نبلاً فإنْ تجعلها شجاعتها موضع ثقة، فهي أكثرها تجاوباً للألفة والصداقة مع البشر.

بلغ أرتحششتا من العمر عِتيّاً، ليجد ابنيه يتنافسان على عرش مملكته ولكلّ منهما حزبه المؤلف من أشراف مملكته ومقرّبيه. أما المحايدون العقلاء فكانوا يرون أن الحكمة والعُرف يقضيان بتولّي الابن الأكبر سِنّاً وهو داريوش مثلما تسلّم أرتحششتا نفسه الملك بوصفه الابن البكر. وكان الأخ الاصغر أوخوس Ochus، العنيف الحادّ المزاج، مسنداً من عدد كبير من رجال البلاط. إلاّ أن أمله الأكبر كان بأتوسا أخته التي منّاها بالزواج وبجعلها شريكةً له في الملك إن هي استطاعت إقناع أبيه بإعلانه وليّ عهده. في الواقع كانت ثمّ إشاعات بوجود علاقةٍ صميمة فيما بين الأخت وأخيها وهو ما كان موضع جهلٍ من الملك. وكان أرتحششتا يريد اختيار الوقت المناسب ليقضي على أمل أوخوس في الملك، لئلا ينجم عن محاولته الشبيهة بمحاولة عمّه نزاع قد يؤدّي إلى الحربِ وخراب المملكة. وسنحت له الفرصة بعد قليل فبادر إلى إعلان داريوش وليّاً للعهد وكان له من العمر خمسة وعشرون عاماً، وسمح له أن يعتمر بالقلنسوة الطويلة كما يسمّونها وهي شعار الملك. وقد جرى العُرف أن يطلب وليّ العهد الجديد طلباً ممن أعلنه وريثاً لعرشه. وحتّم التقليد أن يجاب طلبه هذا مهما كان شريطة أن يكون ضمن مقدرته ومجال سلطانه. وكان مطلب داريوش أسپاسيا Aspasia وهي أحبّ وأثمن محظيات عمّه كورش، وكانت في حينه من نساء الملك وهي فوكيّة Phocae الولادة، أيونية الموطن ولِدت لأبوين حرّين ونالت تهذيباً حسناً. ويروى أن كورش كان جالساً للعشاء يوماً فجيء بها إليه لأول مرة مع فتيات أُخر فأُجلسن بالقرب منه فأنشأ يمازحهنّ ويعابثهن ويباسطهن الحديث ورفع الكلفة تماماً في مغازلته لهنّ. إلاّ أن أسپاسيا لم تجاره في عبثه وظلت واقفة صامتة وأبت التقدم من كورش عندما استدناها؛ فلما همّ حجّابه باستخدام القوة صاحت بهم:

- من يضع يده عليّ سيندم.

وبدت جافّة خشنة الطبع سيئة السلوك إلاّ أن تصرّفها هذا أحدث أطيب الأثر في نفس كورش فضحك وقال للرجل الذي أتى بالفتيات:

«بالتأكيد إن هذه الفتاة هي الوحيدة من كل من جئت به فهي تمتاز بخلق طاهر نبيل». ولم يمر عليه زمن طويل حتى كان اهتمامه قاصراً عليها وزاد كلفه بها على سائر

نسائه ولقّبها بالعاقلة. وكانت من بين الأسلاب عندما قُتل. لا شكّ أن الملك استاء كثيراً لطلب ابنه هذا. لأن حرص البرابرة على نسائهم وموضع متعتهم معروف. والموت هو عاقبة كل من تعرّض لهنّ بأي شكل من الأشكال، ولا يقتصر التعرّض على التقرّب أو لمس محظية من محظيات الملك بل يعتبر من قبيل التعرّض تقدّم الركب أو سبق العربات التي تقلّهن أثناء رحلةٍ. ولذا أزعجه طلب داريوش كثيراً مع أنه لم يستنكف عن الزواج ببنته أتوسا إطفاء لشهوته متحدياً كل النواميس، ومع أنه كان يملك ثلاثمائة وستين محظيّة كلهن آيات في الجمال. فاعتذر لابنه قائلاً إن من يطلبها ليست أَمةً بل حُرّة. وإن من حقّها أن تختار فإن رضيت به فهي له وإلاّ فليس من حقّه إرغامها. قال هذا وأرسل يستدعي أسپاسيا التي لم تتردد في اختيار داريوش خلافاً لما توقّعه الملك منها. فلم يسعه إلاّ التخلي عنها تحت حكم التقليد المتبع. الا أنه لم يصبر وانتزعها منه بعد زمن بحيلةٍ، بأن كرّسها كاهنة لـ«ديانا أكبتانا» التي يسمّونها أنياتس Anaitis حتى تقضي بقية حياتها بعيدة عن الرجال وفي حالة العفّة التامة. وكان يظنّ أن انتقامه هذا الذي يتسم بالاعتدال ويختلط فيه الجدّ بالهزل لن يؤثر في ابنه كثيراً. فخاب فأله إذ كان حنق الابن شديداً، وسواء أنجم عن غرامه الشديد بأسپاسيا أم عن شدّة وقع الإهانة والتحقير. وأدرك تريبازوس ما يعتمل في نفس الفتى فسعى لتأريث هذا الحقد لأنه وجد الإهانة شبيهة بما ناله في المناسبة التالية:

وعد أرتحششتا بتزويج أپاما Apama بنته من فارنابازوس، وبتزويج ابنة أخرى له تدعى رودوغونه Rhodoguna من أورنتس Orantes، وبتزويج بنت ثالثة اسمها أمستريا Amestria من تريبازوس. إلاّ أنه نكل عن وعده لهذا الأخير واتخذها لنفسه زوجاً. على أنه أراد أن يعوّضه عن ذلك فعقد له على صغرى بناته أتوسا إلا أنه وقع في حبها كما أسلفنا فتزوجها. فاضطغن له وحقد عليه حقداً شديداً. وكان تريبازوس معروفاً بتقلّب الأهواء والتهوّر وبعده عن الهدوء. وسواء أوجد نفسه مقرّباً من الملك أم من المغضوب عليهم فتراه بعيداً عن الاعتدال في أي من الحالتين إن استُدني تواقح وطغى بصورة لا تُحتمل. وإن تجُوفِيَ وأُبعد لا يستسلم ولا يسالم، بل تجده ثائراً عنيفاً. فكان ناراً تسعّر نار الأمير، ما يفتأ يحثّه على العمل ويدفعه بعباراته الثائرة كأن يقول له:

- من العبث أن لا يهتمّ ذوو القلانس الطويلة بأمورهم على الوجه الصحيح: وإني لأراك قصير النظر مأفون الرأي إن كنت ضامناً ارتقاءك العرش، ولديك أخ يتطلع إلى هذا المركز الأسمى ويبحث عن السبل المؤدية إليه في أجنحة الحريم ومخادع النساء.

وأبوك ذو المزاج السريع التقلب، والطبع النزق الذي جعله يتخطّى أقدس القوانين الفارسية وأكثرها حُرمةً حُبًا بفتاةٍ أيونية ليس من المحتمل قطّ أن يكون مخلصاً في أهمّ عهدٍ قطعه.

وزاد على ذلك قوله:

- ليس من حق أوخوس أن يصل إلى التاج ولا ضرار عليه أن لم يصله وليس من حقك أن تنزل عنه أو تهمل أمر المحافظة عليه. فأوخوس مواطن بسيط من الرعية، وبإمكانه أن يعيش بهدوءٍ وهناء وليس ثمّ ما يُخشى منه. ولكنك أنت الذي نودي بك ملكاً أمامك طريقان لا ثالث لهما. إمّا أن تقبض على صولجان الملك فعلاً أو أن تخاطر بحياتك في سبيل ذلك.

أثارت داريوش هذه الأقوال. ولا شك أن سوفوكليس لم يتعد الحقيقة حين قال:

إن سبيل الإقناع بما هو خاطئ سهل وسريع.

ذلك لأنه ممهّد بإرادتنا. ومعظمنا يميل إلى شرّ بسبب بُعده عن الخير وجهله به. وفي هذه القضية كانت حجّة تريبازوس قوية ومادة إقناعه لا يأتيها فشل بسبب سعة رقعة الإمبراطورية والغيرة التي يشعر بها داريوش من أخيه، ولم تكن ثينوس بعيدة أيضاً. فهناك خسارته أسپاسيا مما يجب أن يدخل في الحساب. وهكذا أسلم داريوش مقاديره لتريبازوس وأصبح طوع أمره. وازداد عدد المؤتمرين الملتفّين حولهما. واطّلع أحد الخصيان على ما يدبّر في الخفاء فأبلغ الملك بتفاصيل الخطة المرسومة لتنفيذ المؤامرة وتتمّ باقتحام مخدعه ليلاً وقتله وهو نائم. لم يرَ أرتحششتا أن يستهين بخطر كبيرٍ كهذا، ولا أن يثق بوجوده لأن الدليل كان ينقصه، أو أن الدليل لم يكن من الضعف بحيث يستدعي إهمال المسألة. ولذلك قام الملك بالخطوات التالية: أمر الخصيّ أن يواصل الاجتماع بالمؤتمرين ويلازمهم ولا يدعهم يغيبون عن مراقبته. ثم عمل فتحة في جدار مخدعه خلف سريره ووضع عليها باباً يفتح ويغلق ووضع سجّادة فوقه ليخفيها. ودنت ساعة التنفيذ وأبلغه الخصيّ بالموعد الذي قرره المؤتمرون لتنفيذ عملية الاغتيال فانتظرهم وهو مستلق على سريره ولم يغادره إلاّ بعد أن تبيّن وجوه مهاجميه وعرفهم واحداً واحداً. ولما اخترطوا سيوفهم وتقدّموا نحوه رفع السجادة ودلف إلى الغرفة الصغيرة وأحكم رتاج الباب وأطلق صيحة. ولما تأكد القتلة أنهم انكشفوا وأن الملك لم يعد في متناول يدهم أسرعوا بالخروج من حيث أتوا وحثوا تريبازوس ورفاقه على الهروب بعد افتضاح مؤامرتهم فهربوا كلاً في سبيل. إلاّ أن حرس الملك كانوا في

أعقابهم فأدركهم وقتل منهم عدداً كبيراً وأطبقوا على تريبازوس وقُذف برمح من بعد فصرعه. أما داريوش فقد أحيل مع أولاده إلى المحاكمة. وعُيّن الملك قضاةً مدنيين للنظر في قضيته. ولكونه غائباً فقد اتهم بالواسطة وأمر كتبته بتدوين رأي كل قاضٍ وجلبه إليه. وبعد أن أجمعت الآراء على موته أخذه الضباط إلى غرفة قريبة، واستدعي الجلاد فجأة وبيده الموسى التي يستخدمها أرباب صنعته عادة في حزّ رؤوس المحكومين ولكنه ارتاع وأحجم وانكفأ إلى الوراء عندما تبيّن داريوش. وأراد أن يترك الغرفة وقد خانته قواه. إلاّ أن القضاة الذين كانوا واقفين بباب الغرفة حالوا بينه وبين الخروج وهدّدوه وتوعّدوه فعاد وقبض على شعر رأسه وجرّ وجهه إلى الأرض بيد وقطع رقبته باليد الأخرى. ويؤكد بعضهم أن الحكم صدر بحضور أرتحششتا وأن داريوش بعد أن أدين بالجرم المشهود انطرح على قدميّ أبيه مستعطفاً مستغفراً. وبدلاً من العطف عليه نهض غاضباً واخترط سيفه وصار يضربه به حتى قتله. ثم خرج إلى القصر وتوجه بالدعاء إلى الشمس قائلاً:

- اذهبوا يا أيها الفرس بسلام وأعلنوا لإخوانكم رعاياي عن القوة التي صبّ بها أهورمزدا انتقامه على فاعلي الشرّ والإثم.

تلك كانت عاقبة المؤامرة. وكبرت آمال أوخوس وعلّل نفسه بنفوذ أتوسا إلاّ أنه كان يخشى أخاه أرياسپس Ariaspes الذكر الوحيد الباقي من النسل الشرعي لأبيه خلافه. وكذلك كان يخشى أرسام Arsames أحد أبناء أبيه غير الشرعيين. وكان أرياسپس محطّ أنظار الفرس وكانوا يرغبون في أن يملك عليهم لا لأنه أكبر سِناً من أوخوس بل لأنه امتاز عنه بلطفه وعدالته وسمّو خلقه، إلاّ أن أرسام كان أصلح لتولّي الحكم لرجاحة عقله. كذلك كان أوخوس يعلم أنه المفضّل عند أبيه. فأخذ ينصب لأخويه هذين الفخاخ وكان غدره لا يقل مطلقاً عن قوته فاستخدم الأخيرة ضدّ أرسام واستخدم الثاني ضدّ أرياسپس. ودفع خِصيان أبيه والمقرّبين إلى أن يختلقوا أقوالاً على لسان الملك وينقلوها إلى أرياسپس كقولهم إن الملك أصدر الأوامر بإنزال كل أنواع النكال به وإذاقته شرّ ميتة. ينقلون إليه هذه الأكاذيب يومياً ويهمسون بها في أذنيه بوصفها أسراراً. وقالوا له إن الملك ينوي الفتك به وشيكاً وإن الضربة لا تلبث أن تهوي عليه، حتى أطاروا صواب الفتى المسكين وملأوا رأسه أوهاماً وهواجس فعمد إلى سُمّ كان قد هيّأه فشربه تخلّصاً من حالته. وعلم الملك بأسباب موته فبكاه وتحسّر عليه وحزن حزناً صادقاً. وخالجه الشكّ في هويّة من دفعه إلى هذا المصير إلاّ أن

شيخوخته وضعفه حالاً بينه وبين تحرّي الأدلّة والبراهين. وزاد تعلّقه بأرسام بعد موت هذا الابن ووضع فيه كل ثقته وجعله أمين سِرّه ومستشاره، فلم يطق أوخوس صبراً عليه واستخدم أرپاطس Arpates ابن تريبازوس لقتل أخيه. ولم يكن أرتحششتا إذ ذاك غير أنفاسٍ تصعد وتهبط. ولما أبلغ بمصير أرسام لم يحتمل الصدمة ومات تحت وطأة الحزن وله من العمر أربعة وتسعون عاماً، حكم منها اثنتين وستين سنة، كان فيها حاكماً معتدلاً يميل إلى الرأفة ولاسيما إذا قورن بابنه أوخوس الذي فاق جميع أسلافه في القسوة وسفك الدماء.

غالبا

GALBA

(Servius Sulpicius)

٥-٦٩

اعتاد الفيلسوف إيفيقراطس Iphicrates القول: من الأفضل أن تستخدم الجنود المرتزقة الذين لا يهمّهم من الدنيا غير المال والملاذ، فهم أكثر إقداماً وأقوى مراساً من الآخرين لأن القتال سبيلهم الوحيد للوصول إلى ما يُشبع رغباتهم. على أن الكثرة ترى غير هذا وتقول إن تركيب الجيش هو أشبه بتركيب جسم الإنسان عندما يكون في حالة الصحّة فإن أعضاءه كلها تطيع أوامر الرأس وتسير على هدية بانتظام، ولا يعمل كل منها على هواه. ويحدّثنا الرواة مصداقاً لهذا أن پاولس إميليوس تسلّم قيادة القوات المرابطة في مقدونيا، فراعه ما وجد بينهم من الفضول والتدخل في شؤون لا تعنيهم وكثرة الكلام إلى حَدّ الوقاحة، حتى لكأنّ كل واحد منهم قائدٌ. فأصدر أمراً يوماً جاء فيه «فلتكن أيديكم على استعداد ولترهفوا نصال سيوفكم، أمّا الباقي فاتركوه لي». وأفلاطون نفسه لم يكن يؤمّل من أي حاكم داهية أو جنرال موهوب خيراً إن لم ينل من جنوده الثقة والطاعة والانسجام (يرى أن فضيلة الطاعة كفضيلة الحكم لا تتوفّر إلاّ في الخُلق النبيل الذي يدعمه التهذيب الفلسفي، فتتحالف القوى الفاعلة مع أرقّ الأحاسيس وأكثرها إنسانية). بوسع هذا الفيلسوف أن يورد دعماً لمبدئه هذا مختلف الأحداث المحزنة، ولاسيما تلك التي عقبت موت نيرون عند الرومان حيث تضافرت البراهين على أن ليس ثمّ أفظع وأفجع من القوة العسكرية حين تنطلق من عقالها فتصول وتجول في الإمبراطورية دون رادع من العقل، ولا رقيب موجّه. إن ديموادیس Demuades بعد وفاة الإسكندر الكبير شبّه الجيش المقدوني بالسيكلوب Cyclops التي اقتُلِعت عينها الباصرة لما أقدموا عليه من فوضى وتخريب. إلاّ أن الكوارث التي أنزلها الجيش بالحكم الروماني هي أشبه بحركات العمالقة giants الذين هاجموا السماء يعتورها التشنّج مرة، وينتابها الانبساط مرة أخرى، ثم تنطوي على نفسها وتنسحب، وذلك حسب أهواء أولئك الذين نودي بهم أباطرةً فضلاً عن أطماع الجنود وجشعهم وموبقاتهم. فلقد كانوا يقتلعون القوّاد واحداً بعد الآخر كما يقتلعون أظافر الأنامل.

قال ديونيسيوس عن حكم الفيرتّين Phereans هازئاً: «لقد كان حكمهم تراجيدياً» ذلك أنهم لم يستمتعوا بالحكم غير استقبال ما لا يقلّ عن أربعة أباطرة خلال مدة تقل عن عشرة أشهر. مثلهم في ذلك مثل الممثلين يظهر أحدهم على خشبة المرسح فلا يلبث أن يُخلي موضعه للتالي وهكذا.

ذلكم هو الانتصاف الوحيد المدّخر للمضطهدين. فليس ثمّ عدالة وقصاص ينزل بساحة مضطهديهم أقوى وأشد من أن يشاهدوهم وهم يذبحون بعضهم بعضاً. وكان أوّل من أكد لهم وعلّمهم الفائدة من تبديل الأباطرة، فنال أعدل الجزاء على ما قدّمت يداه، هو ذلك الذي أساء إلى عهدٍ نبيل قطعه بالأجر الذي دفعه لتحقيقه، فانحرف بالثورة ضد نيرون إلى ما هو أشبه بالخيانة العظمى.

ساءت أحوال نيرون وبلغت حَدّاً لا يرجى منها أي صلاح. وعُلِم انّه ينوي الفرار إلى مصر، كما ذكرنا سابقاً، فانتهز كلّ من نمفيديوس سابينوس Nymphidius Sabinus، قائد الحرس، وتغلينوس Tiggelinus الفرصة وأقنعا الوحدات العسكرية بالمناداة بغالبا إمبراطوراً، كأنما أصبحت دولة نيرون في حكم الزوال، لقاء وعدٍ بدفع سبعة آلاف وخمسمائة درهم لكل واحدٍ من أفراد الحرس، أو الجند الپريتوري (كما كانت تُدعى) وألف ومائتين وخمسين درهماً لكل جندي من الوحدات المرابطة في الخارج. وكان مجموع المبالغ التي تعهّدا بتوزيعها مما يستحيل أن يجمعها أحد إلاّ إذا لجأ إلى الظلم والوحشية في جبايتها، وإلى الاستمرار في جمعها حتى يوم القيامة. أعنى أن يمارس قسوةً واستبداداً يفوقان ما مارسه نيرون نفسه بمراحل. على أن هذه الوعود أحدثت أثرها وأسرعت بنيرون إلى حتفه، ثم ما لبثت أن ألحقت به غالبا. قتلوا أولهما بأمل قبض المكافأة التي وعِدوا بها وقتلوا الثاني بعد قليل لأنهم لم ينالوها. ثم بحثوا عمّن يستطيع شراء المنصب الشاغر بهذا الثمن، وارتكبوا أثناء بحثهم هذا سلسلة متوالية من أعمال العنف والغدر حتى نالوا مطلبهم. ولو شئنا الدخول في التفاصيل لاقتضانا ذلك مجلّداً كاملاً. ولكني سأكتفي هنا بما يفي بغرضي، أعني سأقصر كلامي عمّا فعله القياصرة، وما عانوه.

هناك إجماع على أن غالبا هو أغنى من تولّى منصب الإمبراطور. وإلى جانب شرف كونه من أسرة سرڤيي Servii فخر بصلة نسبه مع كاتولوس Catulus أعظم الرومان قدراً وأعلاهم سجاياً وخلقاً، وإن كان قد استسلم لإغراء الآخرين حين طمع بالسلطة والمنصب. ويمتّ سولپيچيوس غالبا Sulpicius Galba أيضاً بصلة قرابةٍ إلى ليڤيا Livia امرأة أغسطس قيصر، التي سعت له عند زوجها فعيّنه پروقنصلاً. وأثر عنه

حسن القيادة في جرمانيا، والكفاءة في ممارسة الوظيفة نفسها في ليبيا، فنال سمعةً طيبة هناك، قلّما نالها سلف. الا أن أسلوب عيشه الهادئ وعزوفه عن أسباب الترف وشتّى المظاهر الباذخة حطّ من قدره عند صيرورته إمبراطوراً وأفسح المجال لتعزى إليه صفة البخل. وهي سُمعة لها ظلّ من الحقيقة، كان انتظام حياته وزهده مسؤولين عنها. أناط به نيرون حكم إسبانيا وهو يجهل كيف يحتاط لنفسه ويحذر من آثار سُمعته الطيبة وشهرته العظيمة. كما ساد الاعتقاد بأن مباشرته الشؤون العامة ستتمّ بالحذر والتوجّس بسبب مزاجه اللطيف وشيخوخته.

وفيما كان عمّال نيرون الطغاة يعبثون بمقدّرات الأمصار وينفّذون أوامره بقسوة ووحشية، ظلّ غالبا مكتوف اليدين لا حول له ولا قدرة على وقف تلك الأعمال إلاّ التخفيف والتشجيع المعنوي للمنكوبين، بمشاركتهم آلامهم والتسرية عن المحكومين الذين تصدر الأوامر ببيعهم عبيداً. ونُشِرت نشرات هجاء ونقد بحق نيرون ووزِّعت وتُلِيت جهاراً في كل مكان فلم يمنعها. إلاّ أنه في الوقت نفسه لم تبدر منه بادرة سوءٍ بحق وكلاء نيرون وعمّاله. وقد ازداد الناس به تعلّقاً لحياده وعطفه، ولطول بقائه حاكماً لإقليمهم. فقد كانت له ثمانية أعوام في الحكم عندما بدأ يونيوس ڤنديكس Junius Vindex قائد القوات الرومانية في بلاد الغال بعصيانه على نيرون. ولقد قيل إن رسائل بهذا المآل وردت إلى غالبا قبل أن يذرّ قرنُ العصيان وينقلب إلى تمرّد علني، والظاهر أنه لم يكترث بتلك الرسائل. إلاّ أنه لم يخبر نيرون بأمرها كما فعل الضباط الآخرون والقادة الذين وصلهم مثلها، فلم يساهموا في التمرّد، مع أنهم انضمّوا إلى الانقلاب فيما بعد واعترفوا بانخداعهم مثلما اعترفوا بأنهم خدعوه. وأخيراً أعلن ڤنديكس الحرب وكتب إلى غالبا يحثّه على تولّي السلطة العليا، وبذلك يمنح رأساً مفكراً لهذا الجسم القوي، ويعني به الأقاليم الغاليّة التي يحميها مائة ألف مقاتل كامل العدّة والسلاح. ويقول له إن باستطاعته فضلاً عن هذه القوات تعبئة أكثر من مثل هذا العدد عندما تدعو الحاجة. فعرض غالبا الأمر على أنصاره وأصدقائه فرأى بعضهم أن الانتظار أجمل به وأن الأفضل هو مراقبة تطوّر الموقف في روما من هذا الانقلاب وما ينجم عنه من آثار. إلاّ أن تيطس ڤينيوس قائد الحرس الپريتوري هبّ متسائلاً:

- ما معنى هذا التدقيق والحذر يا غالبا؟ إن مجرّد المداولة في بقائنا على ولائنا لنيرون أو شقّ عصا الطاعة عليه هو بحدّ ذاته عصيان. إن نيرون هو عدوّنا. وليس من الحكمة أن نحبس أنفسنا عن معونة ڤنديكس وإلاّ يجب أن نبادر إلى شجب عمله فوراً

ونزحف لقتاله لأنه يرغب في أن تتولّى أنت حكم الرومان بدلاً من أن يستمر نيرون في طغيانه.

وعندئذ أصدر غالبا بياناً أعلن فيه موعداً لتسلّمه زمام الحكم التحرري. وكانت الشائعات والدعاوات السابقة له قد أحدثت أثرها الكبير في جمع الناس حوله وأعدّت الأذهان لتبنّي الانقلاب. فلما ظهر في دار القضاء هتف الناس له وحيّوه بلقب الإمبراطور بلسانٍ واحدٍ. إلاّ أنه أبى قبول ذلك في حينه، ثم أخذ بعدها يقدح في نيرون ويندّد بأفعاله ويأسف على الأفاضل والخيّرين الذين أهلكهم. ثم قدّم نفسه لخدمه بلاده لا بلقب قيصر أو [إمبراطور] بل باسم «وكيل الشعب الروماني ومجلس شيوخه».

كان ڤنديكس بعيد النظر في دعوة غالبا لمنصب الإمبراطور، وهذا ما شهد به نيرون نفسه، فقد كان يحتقر من شأن ڤنديكس ولا يهتمّ بالغاليين قلامة ظفر، ولا يشغل نفسه بهم. ولكن الأمر كان مختلفاً من جهة غالبا. وقد شاءت الصدفة أن يرده نبأ انتفاضته عليه وهو خارج من حمّامه يهمّ بتناول فطوره، فرفس المائدة وقلبها عاليها سافلها حنقاً. ولكن نفسه طابت عندما صوّت مجلس الشيوخ على اعتبار غالبا عدوّاً لروما. فاتخذ من الأمر مادة للتفكِهة وبثّ الثقة في نفوس الموالين له:

- تلك فرصة ذهبية لي أنا الذي كنت في أمسّ الحاجة إلى غنيمة كالغنيمة الغاليّة التي ستقع بين يدي أسلاباً شرعيّة. أمّا أملاك غالبا فبوسعي استعمالها أو بيعها حالاً بعد أن أُعلن عدوّاً لنا.

وأسرع بعرض أحوال غالبا للبيع. فلما سمع هذا وضع الحجز على جميع ما يملكه نيرون في إسبانيا ووجد له مشترين متحمّسين للشراء. وأصبح عدد القائمين ضدّ نيرون كثيرين، وانضمّوا كلهم تقريباً إلى جانب غالبا، ما عدا كلوديوس ماچير Clodius Macer في أفريقيا، وڤرجينوس روفوس Virginius Rufus قائد القوات الجرمانية في بلاد الغاليّين، فقد رفضا الانضمام إليه على أنهما لم يتفقا على رأى واحدٍ. فكلوديوس الذي يدري ما أدّى به الجشع والقسوة من قتول واغتصاب كان يتجاذبه عاملان: اعتزاله القيادة، أو البقاء فيها. أمّا ڤرجينيوس الذي كان يقود أقوى الفرق الرومانية فقد حظي منها بلقب الإمبراطور عدّة مرات وكثُر إلحاح الجنود عليه بقبول اللقب، فأعلن قائلاً إنه لم يقبل لنفسه هذا اللقب الرفيع ولم يدع أحداً يفعل ذلك، إلاّ من يختاره مجلس الشيوخ.

كل هذا أقلق غالبا كثيراً. ولكن الجنود تغلّبوا على إرادتي ڤنديكس وڤرجينيوس

بالضغط والحثّ فأرغموهما على دخول معركة ضارية. وجد ڤنديكس نفسه الطرف الخاسر والسيف يعمل في رقاب عشرين ألفاً من جنوده الغاليين فقتل نفسه. وانتشرت الأنباء في سائر البلاد بأن الكلّ قد أجمعوا على ڤرجينيوس بعد أن نال هذا النصر الساحق، فإن رفض فسيشدّون أزر نيرون. فركب غالبا همّ عظيم وكتب إلى ڤرجينيوس يدعوه إلى الانضمام إليه مخافة أن يدبّ الانقسام في الإمبراطورية ومحافظة على حرية الرومان. ثم انسحب هو وأتباعه إلى كلونيا Clunia المدينة الإسبانية نادماً على تنطّعه وتزمّته، ناشداً الهدوء والراحة مفضّلاً الجمود على التحرك للقيام بواجبه وفقما تملي عليه الظروف. وكان الوقت صيفاً عندما جاءه رسول من روما، قبل الغسق بقليل، وهو روماني حرّ يدعى إيچيلوس Icelus قطع المسافة من روما بسبعة أيام فقط. وتوجّه إلى الموضع الذي انزوى فيه غالبا ودفع جانباً الخدم الذين اعترضوا سبيلَه إلى غرفته ودخل عليه ليبلغه أن نيرون قد اختفى ولا أحد يعلم محلّه، وأن الجيش بالدرجة الأولى ثمّ عامة الشعب ومجلس الشيوخ بالدرجة الثانية قد أعلنوه إمبراطوراً. ولم يذع نبأ القضاء على حياة نيرون إلاّ بعد فترة طويلة من إعلانه إمبراطوراً. ثم استطرد يقول:

- على أني أقتنع بإشاعة موته، حتى ذهبت بنفسي وشاهدته جثة هامدة فانطلقت إليك لأبلغك الأمر.

فارتفعت معنويات غالبا ثانية، وتقاطر الناس إلى منزله وهم مؤمنون بنبأ الرسول وإن كانت رحلته بسبعة أيام يصعب تصديقها. ومرّ يومان على وصوله، وجاء تيطس ميثيوس يحمل أنباءً أخرى من المعسكر تؤكد النبأ الأول وتحوي تفاصيل الأوامر التي أصدرها مجلس الشيوخ. فرفع غالبا من مكانته وقلّده أسمى الرتب. أمّا الرجل الحرّ الذي جاءه بأول الأنباء فقد شرّفه غالبا بالخاتم الذهبيّ وعمد هو إلى تغيير اسمه فأصبح يعرف بـ«مارشيانوس» Marcianus. وعُدّ أول الأحرار الرومان. إلاّ أن الأمور في روما لم تستقرّ. فقد استأثر نمفيديوس سابينوس بالسلطة كلها دون أن ينزل عن شيء منها لغيره ومارسها بصورة فجائية لا بلطف أو لين. فكّر نمفيديوس أن غالبا العجوز الذي أناف على الثالثة والسبعين لن يمتد به العمر ليُحمَل إلى روما واهن القوى بمِحفّة. وكان جنود العاصمة يحبونه منذ زمنٍ طويل، بسبب اهتمامه وإتحافهم بالهدايا، في حين أن الوعد بالمكافأة الذي قطعه لهم غالبا جعلهم يعتبرونه مديناً لهم. فوجّه نمفيديوس اهتمامه بمصلحته الخاصّة. وأمر صاحبه وزميله تجيللنيوس Tigellinus أن يعيد السيف إلى قرابه. وبدأ يقيم الولائم والحفلات ويدعو رجال الحكم السابقين من قناصل وقواد إليها باسم غالبا. وجمع عدداً كبيراً من الجنود في المعسكر ليقترحوا

الطلب من غالبا بأن يعيّنه حاكماً عاماً[١] مدى الحياة دون شريك يقاسمه السلطان. واتّبع مجلس الشيوخ سبيل الإغراق في تكريمه، وتوسيع صلاحياته مما جعله بغيضاً مخوفاً حتى من أولئك الأعضاء الذين أمّلوا عطفه وإحسانه واعتبروه منقذاً فكانوا يتسكّعون أمام منزله يومياً. وخصّوه بامتياز إعطاء قراراتهم صيغة التنفيذ بتصديرها باسمه وبهذا بلغوا به نهاية الصلافة والعجرفة. وعندما أرسل القنصلان رسلهما إلى الإمبراطور بقرارات مجلس الشيوخ مع الدبلومات[٢] المختومة بالأختام التي كانت السلطات الإدارية تنتظرها في كلّ مدينة يجري فيها تبديل عربات الرسل وخيولهم. فيُستَحثّ الرسل للإسراع جهد طاقتهم، استاء جداً لأنه لم يُسأل عن وضع ختمه، ولم يكلّف جنوده بالمهمة، وأخذ يفكّر في الانتصاف لنفسه من القنصلين. إلاّ أن غضبه انفثأ بعد أن اعتذرا له وأكّدا ولاءهما. ولم يتدخل بأي شكل عندما أخذ الجمهور يتصيّد أتباع نيرون ويضربون كل من وقع منهم بأيديهم حتى الموت إرضاءً لهم. وممن لقي حتفه بهذه الطريقة المصارع سپكلوس Spiclus الذي ديس تحت أقدام تماثيل نيرون في الفوروم، وأُنزلت التماثيل وسُحبت فوق جثته. وطرحوا أپونيوس Aponius أرضاً وأشبعوه ضرباً ثم جرّوا عربات مثقلة بالحجارة فوقه، وهو أحد الذين مدّت إليهم العامة بأصابع الاتهام عن كثير من الجرائم. ومزّقوا كثيرين غيرهما تمزيقاً وكان بعضهم بريئاً. وتمادى الناس في ذلك حتى أن مورسيكوس Moursicus عضو الشيوخ وهو رجل فاضل عظيم القدر صرّح في المجلس قائلاً إنه يخشى أن لا يطول بهم الزمن حتى يتمنّوا عودة نيرون.

بلغ نمفيديوس نهاية جبروته؛ فلم ينف ما أشيع عنه بأنه ابن كايوس قيصر خليفة طيبريوس الذي كان معروفاً عنه بأنه عشيق أمّه في مطلع شبابه. وكانت أم نمفيديوس من الجميلات المعدودات، وهي ابنة كالليستوس Callistus أحد عُتقاء قيصر وكانت تمتهن الخياطة. وواضح أن علاقة كايوس بالأم نمفيديا كانت في زمن متأخر بحيث لا يمكن قطّ أن تعزّز ادّعاءه هذا بسبب مقبول. ولقد شك في أنه قد يدّعي أيضاً ببنوّة

---

(١) Prefect: في روما القديمة يُعتبر هذا اللقب صفة لمختلف الرتب العسكرية والمدنية ويلقب به الحكام وذوو السلطة الإجرائية.

(٢) Diploma: لغوياً «رسالة مختومة ومغلقة». وفي عهد الجمهورية تصميم أو نشرة رسمية تتضمّن توصية تُعطى المسافرين من قبل الحكومة لتسهيل سفرتهم. وفي عهد الإمبراطورية صارت الكلمة تطلق على الوثيقة الحكومية التي تصدر بمنح امتيازاتٍ للأشخاص الموجهة إليهم. والشك أن المقصود هنا هو المعنى الأخير.

المصارع الشهير مارشيانوس Martianus الذي أغرمت به نمفيديا، للشبه الكبير بين الاثنين. ومع اعترافه بأمومة نمفيديا، تراه يعزو سقوط نيرون لنفسه وحده ويعتقد أن كل ما ناله من ثروة وجاه وسلطان لا تكفي لإيفائه حقّه (وزاد على هذا كله أنه أرسل يستقدم سپورس Sporus وما زالت النيران تشتعل في جثمان نيرون واتخذه صاحباً، وعامله معاملة الزميل مع اسم پوپيا Poppæa[٣]) وإنما كان يجب أن يتولّى منصب الإمبراطور. ولم يكن يعدم أنصاراً له في روما، يعملون لهذه الغاية في السِرّ، فضلاً عن عدد من النساء المتنفّذات، وأعضاء من مجلس الشيوخ. وأرسل إلى إسبانيا جيليانوس Gellianus أحد أصدقائه لمراقبة الأمور عن كثب.

على أن أمور اغالبا استقامت بعد موت نيرون وباتت على خير ما يرام، خلا موقف ڤرجينيوس روفوس المتردد. فقد ظلّ معلّقاً موزّع الفكر بين أن يعمل وفق نصيحة من يزيّن له الاستيلاء على السلطة لنفسه بعد ظفره بڤنديكس وخضوع جزءٍ كبير من الإمبراطورية الرومانية له، أعني بلاد الغاليّين بأسرها التي بدت وكأن الثورة تتمخّض فيها وأنها على حافة الانفجار، فضلاً عن الجيش العظيم الذي يتولّى قيادته. لم يكن هناك صِنْوٌ لڤرجينيوس في الواقع سُمعةً واسماً وشهرةً، فقد اضطلع بمهمة مزدوجة الخطورة وهي إنقاذ الإمبراطورية من أهول استبدادٍ، وانتشالها من مخاطر حرب غاليّة سيئة العواقب. على أنه ظلّ متمسكاً برأيه الأول فأبقى لمجلس الشيوخ سلطاته في انتخاب الإمبراطور. لكن الجنود زادوا من إلحاحهم وضغطهم عليه بعد موت نيرون وخيّروه بين تولّي الحكم والبطش به. ودخل ترييبوس خيمته مخترطاً سيفه لتنفيذ ذلك. ثم أعلن فابيوس ڤالينس Fabius Valens أحد قادة الفرق ولاءه لغالبا، ووردته رسائل من مجلس الشيوخ تعلمه بقراره انتخاب غالبا إمبراطوراً. وعندها وبعد لأيٍ تمكن من إقناع الجيش بقبول الأمر الواقع والمناداة بغالبا إمبراطوراً. وسلّم قيادته لفلاكوس هورديونيوس Flaccus Hardeonius خلفه المرسل من غالبا طوعاً. ورحل لمقابلة غالبا وهو قادم إلى روما وقام على خدمته. إلاّ أن غالبا لم يُشح عنه بوجهه ولم يظهر له التفاتاً كثيراً. إن شعور غالبا بالاحترام منعه من إظهار استيائه منه، وغيرة أصدقائه من ڤرجينيوس ولاسيما تيطس ڤينيوس صدّته عن القيام بواجب التكريم له. كان تيطس مدفوعاً إلى مناصبة العداء بدوافع حسدٍ شخصية تهدف إلى الحيلولة دون صعوده في مدارج السلطة. وبهذا عاون روح فرجينيوس الحارسة على إنقاذه من المخاطر التي

---

(٣) زوج نيرون.

تجابه غيره من القادة وتقودهم إلى نهايات مفجعة. فأمّن له حياة هادئة وشيخوخة هنيئة مستقرة.

استقبل غالبا وفد مجلس الشيوخ بالقرب من مدينة ناربو Narbo الغاليّة. وبعد التهنئة طلبوا منه الاسراع إلى روما لأن الشعب هناك ينتظره بفارغ الصبر. وكان غالبا يحادثهم بكل احترامٍ وتواضع. وأرسل إليه نمفيديوس الأثاث الملكي والخدم الذين كانوا يقومون بخدمةً نيرون في ولائمه. فلم يستخدم شيئاً منها ولم يقربها واكتفى بما لديه. فأطلق الألسنة بمدحه والثناء عليه ووصفه بالحكيم اللبيب المرتفع عن متاع الدنيا وعبثها. إلاّ أن ڤينيوس أشار بأن هذه الأساليب الرفيعة والحياة المتجرّدة عن الفخفخة والحافلة بروح البساطة قد تفسّر بأنها مجرّد تظاهر مقصود لا بذاته بل لخطب ودّ الشعب، فهو إحجام لا طائل تحته عن اطّلاب المجد الحرّي به. فأقنعه وأغراه باستعمال أثاث نيرون في ولائمه التي باتت لا تخلو من الأبّهة والمظهر الملكي. وأخذ الشيخ الهرم يستسلم بالتدريج لڤينيوس ويعمل بمشورة ڤينيوس هذا الذي لم يكن يعرف للجشع حدوداً. كما لم يكن بعيداً عن الشبهات في علاقاته الجنسية فقد عُرف عنه في أول حياته أيام شبابه عندما كان يخدم بإمرة كالڤيسيوس سابينوس Calvisius Salbinus أنه أدخل زوج قائده وهي امرأة هلوك شديدة الشبق إلى المعسكر خلسة وهي متنكرة بثياب جندي ليلاً. وقُبض عليه وهو نائم معها في الجزء الذي يطلق عليه الرومان اسم پرنچيبيا Principia[٤] فزجّ به كايوس قيصر في السجن ولم ينقذه من شديد العقاب إلاّ وفاة هذا القائد. وذكر أيضاً عنه أن كلوديوس قيصر دعاه مَرّةً للعشاء فاختلس من المائدة كأساً فضيّة، وأبلغ قيصر بالأمر فدعاه أيضاً في اليوم التالي وأمر خدامه بألاّ يضعوا أمامه صحفة من الفضة بل طبقاً فخّارياً. وجعل قيصر الأمر أدعى إلى التندّر والتفكِهة منه إلى المؤاخذة الجنائية. إلاّ أن الأعمال التي ارتكبها بدافع من طمعه سبّبت وأثارت مشاكل خطيرة وأذىً قتّالاً محزناً لمّا اتسعت سلطته وكان غالبا في قبضته.

وزاد قلق نمفيديوس بعودة جيليانوس من إسبانيا. وكان كما أسلفنا قد أرسله ليكون له عيناً على غالبا ورقيباً على أعماله، فقد علم منه أن كورنيليوس لاكو Cornilius Laco عُيّن قائداً للحرس الپريتوري. وأن ڤينيوس هو أقرب المقرّبين من غالبا. وأنه (أي جيليانوس) لم يُسمح له بالدنوّ من غالبا، فكيف بمبادلته الكلام على

---

(٤) يطلق هذا الاسم على موضع من المعسكر حيث تُنصب خيم القائد العام وضباطه وقواد الفرق والتريبيونين وحيث تلقى الخطب فهو أشبه بمقرّ عام.

انفراد. فقد وضِعت عليه رقابة شديدة شلّته تماماً. فلم يكن من نمفيديوس إلاّ أن دعا ضباط الجيش إلى اجتماع وخطب فيهم قائلاً: إن غالبا شيخ فاضل، حسن النية إلاّ أنه سليب الإرادة، وهو لا يعمل بوحي ضميره. وإن ڤينيوس ولاكو يسيئان النصح له. وهناك خوف كبير من احتكار السلطة التي كان تيجيلينوس يمارسها على جنوده قبل أن يفطن هؤلاء للأمر. ولذلك فهو يقترح عليهم إرسال وفدٍ من المعسكر إلى غالبا يعلمه بأنه سيلقى مزيداً من الترحيب والحفاوة عند وصوله، إن أقصى هذين الشخصين عن دائرة خاصّته ومستشاريه. (كان من الحمق والقِحّة أن تُرسَم القواعد وأسلوب العمل لقائدٍ محنّك، ولاسيما حول من يختار من أصدقاء، ومن يُبعد من مستشارين، كأنه شابّ غرٌّ حديث العهد بالحكم وممارسة السلطة). ووجد نمفيديوس مساعيه في هذا السبيل لم تؤت الثمرة المنشودة، فلجأ إلى طريقة أخرى وكتب له شخصياً عدّة رسائل تفوح منها رائحة التهديد، والإنذار بسوء العاقبة. منها قوله إن العاصمة بعيدة عن الاستقرار، وان الهدوء مفقود. ومنها أن كلوديوس ماچير اعترض سفن القمح من أفريقيا واحتجزها. وأن الفرق المعسكرة في جرمانيا بدأت تتململ وتميل إلى التمرّد، وأنه سمع بما يشبه ذلك في سوريا واليهودية. فلم يأبه غالبا به ولم يقم وزناً لحكاياته تلك. ولذلك قرر نمفيديوس أن يقوم بمحاولته. فنصحه كلوديوس چلسوس Clodius Celsus الأنطاكي، وهو رجل عاقل وصديق مخلص له، بأن يعدل عن نيّته، قائلاً إنه مخطئ إذ ليس هناك حيٌّ واحد من أحياء روما يقبل به قيصراً. على أن معظم أنصاره كانوا يستهينون به ويستصغرون شأنه. ومن بينهم ميثريدات ملك الپونطس الذي قال ساخراً: «ما إن يُرى هذا الرجل الأصلع الكثير التجاعيد في روما حتى يجد أهاليها أن اختياره قيصراً لهو عين العار والخزي».

وتقرّر أخيراً أن يؤتى بنمفيديوس إلى المعسكر في حدود منتصف الليل للمناداة به إمبراطوراً، إلاّ أن أنطونيوس هونوراتوس Antonius Honoratus أوّل التريبيونين جمع ليلاً كل من كان تحت إمرته. وأخذ يتهمهم ويتهم نفسه بكثرة التقلّب وأَفَنِ العقل وفساد الرأي، والتذبذب غير المبتنى على هدف أو اقامة وزن للأهلية والكفاءة. وقال إن شيطاناً رجيماً يدفعهم إلى الانتقال المفاجئ من رأي إلى رأي. وختم كلامه بقوله هذا:

- لا شكّ أن جرائم نيرون تبرّر إلى حدٍّ ما أعمالكم السابقة. أما الآن فما دفاعكم وما تبريركم لغدركم بغالبا ألفتكه بأمٍّ أم لدم زوجٍ سفكه؟ أم لإلحاقه العار بالسلطة الإمبراطورية فوق خشبة المرسح وبين الممثلين؟ إنّنا لم نتخلّ عن نيرون مع هذا كله، إلى أن أقنعنا نمفيديوس نفسه بأن نيرون كان البادئ بالتخلّي والفرار إلى مصر. أفينبغي

لنا والحالة هذه أن نُرسل غالبا إلى الأبدية للتسرية عن طيف نيرون أو علينا أن نخلع أحد أعضاء أسرة ليڤيا لنجعل من ابن نمفيديا إمبراطوراً، كما كان الحال مع ابن أغريپينا؟ إن أردنا أن نكون عادلين مُقسِطين فيجدر بنا الانتقام لموت نيرون وإظهار الإخلاص والوفاء باحتفاظنا بغالبا.

بعد أن انتهى هذا التريبيون من كلامه اتفقت كلمة الجنود على العمل برأيه وأخذوا يحثّون بعضهم بعضاً على الولاء للإمبراطور. وحصلت موافقة الأغلبية الساحقة، وفيما هم يتداولون في الأمر سمعوا ضجّة وصيحة عظيمة. قيل إن نمفيديوس ظنّ الجنود يترقّبونه بفارغ الصبر، وقيل إنه عجّل بالقدوم ليتخذ الأهبة للقضاء على أية معارضة وكسب المتردّدين إلى جانبه، فخفّ مسرعاً إلى المعسكر بكثير من النور والمشاعل، وهو قابض على خطاب كتبه له چنگونيوس ڤارو Cingonius Varro كان قد استظهره، لإلقائه على الجنود. إلاّ أنه وجد أبواب المعسكر موصدة، وشاهد عدداً كبيراً من الجنود متقلّدين الأسلحة يخفرون السياج فساوره خوفٌ، على أنه دنا وسألهم عن الخبر وعمّن أمرهم بتقلّد السلاح. فسمع هتافاً عاماً بحياة غالبا إمبراطورهم. فتقدم منهم وراح يهتف معهم وأمر القادمين معه بأن يحذوا حذوه إلاّ أن الحرس لم يسمح له بدخول المعسكر إلاّ مع نفرٍ قليل. فلم يجتز المدخل إلاّ وقُذف برمحٍ فادّرأه عنه سپتيميوس Siptimius بترسه وكان يسير قدّامه. إلاّ أنه هوجم بالسيوف، فهرب فلحقوا به إلى مضجع الجنود وهناك فتكوا به. ومن ثمّ سحلوا جثّته. ثم أحاطوها بحاجزٍ وعرضوها على الأنظار في اليوم التالي. ولما بلغ غالبا نبأ القضاء عليه أمر فوراً باستئصال شأفة أنصاره وأشياعه الباقين الذين لم يقتلوا أنفسهم. وكان من بين القتلى چنگونيوس كاتب الخطاب وميثريدات الذي ورد ذكره. وعلى أية حال فقد كان هذا عملاً ينطوي على ظلم واعتساف جرى خلافاً للقوانين، ولم يلق تحبيذاً وان كان جزاءً وفاقاً فلم يجر العُرف أن تنتزع حياة أناس من ذوي المكانة دون محاكمة، في وقت كان الجميع يتوقعون تبدّلاً أساسياً في الحكم يختلف عن الحكم السابق؛ وشعروا أنهم انخدعوا بالوعود المعسولة والكلمات الطيبة. ومما زاد في الطين بِلّة قتْل القنصل پترونيوس تورپليانوس Petronius Turpilianus الذي ظلّ مخلصاً لنيرون! في الواقع إن إزاحة ماچير من أفريقيا وقيام ڤالينس بإزاحة پترونيوس وفونتيوس Fontius من ألمانيا، كان له ما يبرّره، فهؤلاء لا يؤمن جانبهم، لأنهم قادة عسكريون مؤمّرون على قوّات مسلّحة، وجنودهم طوع أمرهم. ولكن ما الذي دعا إلى حرمان الشيخ الأعزل تورپليانوس من حق الدفاع ومحاولة تبرئة نفسه؟ وأخذ الناس يتساءلون هل سيطبّق حقاً

ولو جزء من العدالة والمساواة اللتين وعِد بهما الناس. إلى مثل هذا النقد عرّضت غالبا تلك التصرّفات اللاقانونية.

لم يبق بين غالبا وروما غير خمسة وعشرين فرلنگاً عندما اعترضته حشود من البحّارة لا يجمع بينها نظام، فأحاطت به أثناء مسيرته. كان هؤلاء قوام فرقة عسكرية شكّلها نيرون. وهم الآن يطلبون من غالبا بكل خشونة وغلاظة تأييد قرار التشكيل. فأحدثوا خللاً عظيماً وهرجاً ومرجاً وسدّوا عليه السبل ومنعوا مستقبلي الإمبراطور الجديد من الوصول إليه والتسليم عليه، وعلا ضجيجهم وصراخهم مطالبين لفرقتهم بالأعلام والشعارات وتخصيص مقرّات لها. فاستمهلهم غالبا إلى وقت مناسب ففسّروا كلامه بالرفض فزادوا تطاولاً ووقاحة وراحوا يقتفون أثره وهم يصرخون وجرّد بعضهم السيوف. فلم يسع غالبا إلاّ أن يأمر خيالته بالهجوم عليهم، ففعلوا وشتّتوا شملهم ولم يصمد واحدٌ منهم وسقط هناك كثير من القتلى وقُضي على عدد مماثل في أثناء المطاردة. وهكذا اقترن أول دخول لغالبا بحادث مشؤوم. إذ سار خائضاً الدم ومتخطياً جثث القتلى. وراح الناس الذين احتقروه قبلاً لشيخوخته ينظرون إليه الآن برعب وتوجّس.

وكان أول خطأ فاحش وقع فيه هو محاولته إظهار الفرق بين سفاهة نيرون وتبذيره الأموال، وبين إمساكه وحرصه على الأموال العامة. فقد تجاوز تقتيره واقتصاده وابتعاده عن الفخفخة كلّ حدٍّ معقول، فلما عزف كانوس Canus العازف المشهور أثناء عشاءٍ عبّر عن استحسانه بأن طلب أن يؤتى له بحقيبة. ثم أخذ يضع فيها قطعاً ذهبية وقال إن ما أعطاه هو من جيبه لا من خزينة الدولة. وضيّق من حدود المخصّصات الكبيرة التي كان نيرون قد منحها للمصارعين والممثلين ومن لفّ لفّهم، وأنزلها إلى العُشر، ومع أن ما سبق أن أعطي لهؤلاء كان بمجموعه صغيراً وهم من ينفق دخله اليومي بأسرع مما يتسلّمه لحياة الترف والتهتّك التي ترغمهم عليها صناعتهم، فقد أمر بإجراء تحقيق مع من باع واشترى منهم وطلب إعادة الفرق بين مخصّصاتهم الحالية وما تسلّموه قبلاً وأثار مشاكل لا حَدّ لها. وانداحت عملية استعادة الأموال فشملت رقعة واسعة، ومسّت عدداً كبيراً من الأشخاص فأساءت كثيراً إلى سمعة غالبا. وأثارت كره الناس لڤينيوس الذي جعل الإمبراطور يبدو للناس كزّاً بخيلاً وضيع النفس، في حين كان هو نفسه ينفق الأموال بدون حساب. ويضع يده على كل ما يستطيع ويبيع لأيّ مشترٍ تطبيقاً لوصيّة هسيود الذي يشير علينا بأن نشرب ولا نستبقي شيئاً...

من فم الزقّ حتى قرارته

وڤينيوس الذي وجد إمبراطوره شيخاً هِمّاً واهناً، راح يسعى ليجمع أول ثروة له وآخرها. دون رادع أو رقيب.

وساءت سمعة غالبا من ناحيتين. أولاهما إطلاق يد ڤينيوس في ارتكاب أسوأ الأعمال. وثانيتهما إيقافه الإجراءات العادلة والصحيحة التي كان قد أمره بها، أو بتشويهها. كإنزاله العقاب بأشياع نيرون. فعندما قضى على أشرارهم من أمثال هيليوس Helius ويولقليطس Polycletus وپتينوس Petinus وپاترولیوس Patrolius استحسن الشعب عموماً هذا العمل وأيّده تأييداً تاماً وراحوا يهتفون للإمبراطور وهم يسحلون جثثهم سحلاً في الفوروم، فكان منظراً يشفي القلوب الكليمة وموضع الرّضى من الآلهة نفسها. ثم أجمعوا بصوت واحد على أن الآلهة والبشر يطلبون على السواء إجراء حكم العدالة بحق تجللينوس أصل كل البلاء ومؤسّس الطغيان ومرشده. إلاّ أن هذا الرجل كان قد اتخذ احتياطاته بشكل هدية ووعدٍ لڤينيوس. أما توريليانوس المسكين فلم يُسمح له بإنقاذ حياته مع أن جريمته الوحيدة هي أنه لم يخن نيرون ولم يظهر كرهاً له. إلا أن هذا الذي عمل نيرون ما عرفه به التاريخ ثم تخلّى عنه وغدر به، ذلك الذي كان محرّضه على الفساد وإلى أقصى حدود الفساد، سُمح له بإنقاذ حياته ليكون مثلاً حيّاً على مقدرة ڤينيوس على أن يفعل ما يريد، أو إعلاناً بأن الغنيّ المستعدّ للدفع لن ييأس من الحصول على ما يريد. وعلى أية حال تملكت الناس رغبة شديدة في رؤية تجللينوس وهو يساق إلى النطع. وظلّوا يواصلون طلبهم في كل مكان حتى في المرسح، وفي ميدان السباق؛ إلى أن أسكتهم مرسوم إمبراطوري يعلن أن تجللينوس لن يعيش طويلاً لأنه مبتلٍ بداء الصدر، ويرجو المرسوم منهم أن لا يحاولوا جعل عهده يبدو حافلاً بأعمال القسوة والاستبداد. وهكذا ضحك على الجمهور الناقم وأسكته.

وأقام تجللينوس وليمة فخمة، وضحّى للآلهة شكراً على خلاصه. وترك ڤينيوس مائدة الإمبراطور بعد العشاء وأخذ معه ابنته الأرملة ليسمر مع تجللينوس فأسرع هذا يقدّم شكره لها، مع هدية من المال تبلغ مائتين وخمسين ألف درهم. ثم التفت إلى كبيرة محظياته فطلب منها أن ترفع من جيدها قلادة نفيسة وطوّق بها جيد بنت ڤينيوس. وقد قُدّر ثمن هذا العقد في حينه بمائة وخمسين ألف درهم.

ولم يعد ثم مجال للإتيان بالأعمال النافعة والمعقولة. مثل ذلك معاملته للغاليين الذين شاركوا ڤنديكس في عصيانه. فقد اعتبر الرومان إلغاء الجزية عنهم ومنحهم حقوق المواطنة الرومانية لا مظهراً من مظاهر رأفة غالبا بل ربحاً مالياً لڤينيوس. وبهذا أصبحت جماهير الشعب تنظر إلى الحكم نظرة نفرة. إلاّ أن الجيش ظلّ محافظاً على

الهدوء ترقّباً للأعطيات التي وعد بها وكانوا يعلّلون أنفسهم على الأقل بجزء منها يساوي ما كان نيرون يعطيهم أن لم يتيسّر الكلّ. ولما سمع غالبا فيما بعد أنهم بدأوا يتظلّمون قال بعجرفة الجنرال الآمر إنه لم يتعوّد شراء الجنود بل دخولهم الخدمة تطوّعاً. فسمعوا ما قاله واشتد غضبهم عليه وكرهوه. فلم يقتصر على غشّهم، وخداعهم في آمالهم، بل اختطّ بقوله هذا سابقةً سيئة ليتبعها خلفاؤه. على أن النار التي كانت كامنة في فؤاد روما لم تستعر بعد لأن ما تخلّف فيها من الاحترام لشخص غالبا خفف من غلوائها، وأخرّ ضرامتها. ولم يجد الجنود عِلّة ظاهرة للتحرك، ولكن ثورتهم ظلت مستسرّة تحت نقمتهم المتصاعدة. على أن القوات الجرمانية التي كانت بإمرة ڤرجينيوس وهي الآن بقيادة فلاكوس ركبتها الخيلاء وشعرت بروح التفوّق بعد المعركة الظافرة التي خاضتها ضد ڤنديكس، ووجدت أنها لم تجن شيئاً كثيراً منها فاشتدت نقمتها على ضباطها وعصيت أوامرهم. ولم تكن لتقيم وزناً لآمرها فلاكوس بسبب مرضه وابتلائه بالنقرس المزمن فضلاً عن كونه رجلاً قليل الخبرة.

وحدث في أحد الأعياد، حيث العادة أن يتوجّه الضباط بالتهانئ للإمبراطور وتمنّي الصحة والسعادة له، أن أخذ الجنود عامة يجأرون بالشكوى ويتذمّرون. ومضى الضباط في مراسم الحفل وطلبوا منهم المشاركة فأجابوا: «إنه لا يستحق ذلك» (يقصدون الإمبراطور).

وأخذت ترد غالبا رسائل حول هذه الأمور من وكلائه بعد أن ظهرت الشكاوى نفسها من جنود الفرق المعقود لواؤها لڤيتيللوس. فدبّ فيه القلق وبدأ الخوف من سقوط سُمعته يشيع في نفسه لا بسبب شيخوخته وحده بل لأنه لم يخلّف وريثاً من صلبه. فقرر أن يتبنّى شاباً حسن الخُلق والمؤهلات، ويعلنه خليفةً له، وكان يوجد آنذاك شاب يدعى ماركوس أوتو وهو شاب طيّب الأصل، إلا أنه عُرف منذ حداثته بأنه من أكثر شباب روما تهتّكاً وفجوراً وترفاً، وكما خلع هوميروس على پاريس في عدة مواضع لقب «حبيب هيلين الجميل» فخلّد اسم المرأة وجعل اسمه ملحقاً بها كأن ليس لپاريس ما يمتاز به غير هذا، كذلك كان الأمر بأوتو فقد انحصرت شهرته في روما بوصفه «زوج پومپا» أرملة نيرون التي أُغرم بها هذا عندما كانت زوجاً لكرسپينوس Crispinus. ولما كان نيرون في ذلك الوقت يخشى أمّه ويخلص لزوجه الأولى فقد استخدم أوتو ليكون وسيطاً له إلى قلبها في السرّ. فقد كان نيرون لأوتو خِلاً لصيقاً به. إذ قرّبه منه تطرّفه وإغراقه في اللهو وكان يبدو عليه السرور والانشراح حتى عندما يقسو عليه في التندّر والمزاح. ولا يبخل عليه بالحريّة في وصفه بالبخل والتقتير وما إلى ذلك

دون أن ينزعج منه. ومرة تعطر نيرون بعطر غالى الثمن وخصّ أوتو بشيء قليل منه فما كان من أوتو إلا أن دعا نيرون إلى منزله في اليوم التالي وأمر بأنابيب فضية وذهبية تمدّ في المجلس ليجرى فيها نفس العطر الثمين ويضخ. كل زاوية من الحجرة كالماء! وأما بخصوص پوپيا فقد كان يعمل لأجل نيرون في مبدأ الأمر لينال حظوة لديه. فباشر بإغرائها ليوقعها في حبه حتى نجح في تفريقها عن زوجها وجاء بها إلى منزله زوجاً له. ولكنه لم يرضَ بأن يشاركه فيها أحد بعد ذلك وأحفظه أن ينافسه نيرون. أما پوپيا فكانت على ما يقال مسرورةً بهذه الغيرة، تراها أحياناً تمتنع عن نيرون حتى عندما يكون أوتو غائباً، إما لتزيد من شوقه إليها وحذراً من تطرق الملل منها إليه، وإما لأنها على ما يقال كانت تكره فكرة الزواج بإمبراطور مع رغبتها في أن تبقى له عشيقة. ولذلك ظلّ أوتو يعيش في خطرٍ مقيم. ومن العجيب حقاً أن ينجو في الوقت الذي عمد نيرون فيه إلى قتل أخته وزوجه تمهيداً لهذه الزيجة. إلاّ أن صداقة سينيكا كبحته. فبمسعاه ورجاءاته رضي نيرون بإرساله بمنصب پريتور إلى لورتانيا Lurtania على ساحل البحر المحيط. فكان محبوباً من الأقاليم لحسن تصرّفه واهتمامه بشؤون الأهلين الذين كانوا على معرفة تامة بأن المنصب الذي يتقلّده إنما هو حجّة وتغطية لإبعاده عن روما.

ولما شقّ غالبا عصا الطاعة على نيرون كان أوتو أوّل من انضم إليه من حكام الأقاليم وأسرع إليه يحمل كل ما جمعه من الذهب والفضة أقداحاً وآنية وموائد ووضعها تحت تصرّفه لصهرها وصكّها نقوداً. وقدّم له أيضاً ما يملك من خدم وحشم مدرّبين على خدمة الملوك. وكان مخلصاً له في كل الشؤون الأخرى. وأُعجب غالبا بمهارته في تصريف الشؤون العامة، وبتفانيه في خدمته وتعلّقه به حتى أنه ركب معه في نفس العربة التي أقلّته إلى روما طوال الرحلة التي دامت أياماً عديدة. فأصبح بهذا وبملازمته الطويلة من أخلص أصدقاء ڤينيوس أيضاً، لكثرة ما أتحفه من هدايا ولطلاوة حديثه، ولاسيما لأنه سلّم له بالمكانة الأولى عند غالبا وارتضى لنفسه المقام الثاني. ولكنه في اجتنابه قالة السوء تحاشى الحسد وحافظ على سمعة طيبة بمساعدته كل من يقصده من ذوي الحاجات دون اطّلاب أو مكافأة لنفسه ولاسيما العسكريون منهم، فقد توسّط لتعيين الكثير منهم في مناصب قيادية إما بالإمبراطور رأساً أو عن طريق ڤينيوس أو عن طريق عتيقين لغالبا عظيمي النفوذ في البلاط هما إيچلوس Icelus وأسياتيكوس Asiaticus. وحرص أن يدفع بمناسبة كل دعوة يقيمها لتكريم غالبا قطعة ذهبية لكلّ جندي في الكتيبة القائمة بواجب الحراسة كمظهر من مظاهر ذلك التكريم للإمبراطور،

في حين كان في الحقيقة يعمل على تحطيم سُمعته وتجريده من شعبيته عند الجنود بهذا الصنيع. كان غالبا قليل الميل إلى اختيار أوتو إن لم يكن لسببٍ غير سبب أيلولة ثروته إليه وهو الشاب المعروف بإسرافه وبذخه، وبأنه غارق في ديون تبلغ خمسة ملايين دراخما. ولذلك لم يعط ڤينيوس جواباً وسكت وأعلن نفسه قنصلاً، وعيّن ڤينيوس زميلاً له. وكان الجميع يتوقعون أنه سيعلن عن خليفته في مطلع العام الجديد وكان الجيش يرغب في أوتو.

أعلنت القوات المرابطة في جرمانيا عصيانها وهو ما زال يقلّب وجوه النظر في هذه المسألة. وعمّ السخط الشديد الجنود كافةً لأنه نكل عن وعده لهم ولم يعطهم المكافأة الكبرى التي كانوا يترقّبونها منذ تنصيبه. وأخذوا يذكرون باهتمام كبير الطردة المهينة التي نالها ڤرجينيوس روفوس، ومكافأة الغاليين على تمرّدهم، والعقاب الذي أنزله بمن رفض مشاركة ڤنديكس في خططه، حتى بدأ وكأن غالبا لا يقر بفضل احدٍ غير فضل ڤنديكس. فقد أكرم ذكراه بإقامة المهرجانات الرسمية كأنه وصل إلى مركزه الإمبراطوري بمسعاه. هذه الأقوال كانت تدور علناً بين أوساط العسكر عندما حلّ اليوم الأول من السنة الجديدة أو «الكالند» كما يسمّيه الرومان. فجمع فلاكوس الجنود لتأدية القسم السنوي التقليدي بالإخلاص للإمبراطور فتمرّدوا وأخذوا ينزلون تماثيل غالبا ويسحقونها، ثم أقسموا يمين الإخلاص لمجلس الشيوخ والشعب الروماني وتركوا الاجتماع. وخاف الضباط والمسؤولون الفوضى وكانوا يتوقعون عصياناً لا يُبقي ولا يذر فبرز أحدهم واستوقف الجنود وراح يحدثهم بالآتي:

- ماذا سيكون من أمرنا أيها الإخوة في السلاح إن لم نختر لنا جنرالاً آخر، أو لم نحتفظ بجنرالنا الحالي؟ إن التخلّي عن غالبا فحسب لا يعني غير شقّ عصا الطاعة وعصيان الأوامر. ومن العبث أن نؤمّر علينا فلاكوس هوردونيوس وهو لا أكثر من صورة منسوخة عن غالبا. إلاّ أن ڤيتيلليوس قائد القوات المرابطة في جرمانيا السفلى لا يبعد عنّا غير مسيرة يومٍ واحدٍ. وقد تولّى أبوه منصب چنسور، ثم انتُخب قنصلاً ثلاث مرّات. وكان أشبه بالإمبراطور المزامل لكلوديوس قيصر. وقد قدّم ڤيتيلليوس أسطع دليل على كرمه وطيبة نفسه بالفقر الذي يعيبه عليه الآخرون. ألا فلنختره إمبراطوراً للجميع إننا أدرى باختيار رجلنا من الإسبان، واللوزيتان.

فوافق فريق منهم على هذا الاقتراح ورفضه آخرون إلاّ أن أحد حملة الأعلام انسلّ خارج المعسكر وقصد ڤيتيلليوس الذي كان يستضيف جماعة كبيرة من أصحابه في تلك الليلة. وتفشّى الخبر بين جنوده فشاع الأمر، وركب فابيوس ڤالينس قائد إحدى الفرق

في صباح اليوم التالي على رأس عدد كبير من الخيّالة، وحيّا ڤيتيلليوس بتحية الإمبراطور. وكان إلى تلك اللحظة يبدو عازفاً عن المنصب، ويعلن أن الخوف يتملّكه دائماً من الاضطلاع بالسلطة ومسؤولياتها. إلاّ أن الخمر والطعام الفاخر الذي تناوله جرّآه وبثّا فيه الإقدام كما يقال، فبدأ يرضخ ويتقبل فكرة تنصيبه إمبراطوراً. واتخذ اسم جرمانيكوس الذي اقترح عليه إلاّ أنه اعتذر عن قبول لقب قيصر. وأسرع جنود فلاكوس ليحنثوا بالقسم الذي أدّوه باسم مجلس الشيوخ، وعادوا ليقسموا يمين الإخلاص والولاء لڤيتيلليوس الإمبراطور. وحلفوا أن يطيعوا أوامره كافةً. فأُعلن إمبراطوراً بصورة رسمية في ألمانيا. ولما أُبلغ غالبا بذلك وجد أن إرجاء إجراءات التبنّي لم يعد له معنى. وكان يعلم أن بعض أصدقائه يحبّذون دولابللا ويضغطون عليه. وأمّا الأغلبية الساحقة فكانوا يريدون أوتو ولم يكن كلاهما يعجبه. وفوجئ الجميع دون سابق إنذار بإرساله في طلب پيزو ابن كراسوس وسكريبونيا Scribonia اللذين قُتلا بأمرٍ من نيرون. وكان هذا شاباً حسن الأخلاق بصورة عامة، إلاّ أنه امتاز بسجيّتين: الاستقامة، والجدّ الصارم. وسار غالبا إلى المعسكر لإعلانه قيصراً وخلفاً له في المنصب الإمبراطوري. إلاّ أن عدداً من المخاريق ظهر له وهو في أول الرحلة ثم تكررت هذه الظواهر في مفتتح خطبته في الجنود. وكان يقرأ حيناً ويرتجل حيناً.

إن هزيم الرعد المتواصل، وزخّات المطر الشديدة التي نزلت على المدينة والمعسكر معاً، كانت دلائل قوية على أن القوى السماوية لا تنظر بعين الرضى والارتياح إلى عملية التبنّي هذه، وأنها تراها سيئة العُقبى. وأظهر الجنود أيضاً علائم السخط الكظيم عندما تلقوا خطابه بأوجهٍ عابسة، لأنه لم يوزّع عليهم شيئاً من المال حتى تلك الساعة. على أن الحاضرين الذين كانوا يتطلعون إلى پيزو ويسمعون صوته لم يسعهم إلاّ الإعجاب بضبط النفس الذي تجلّى فيه بقلّة تأثير هذا التكريم العظيم عليه، فقد بدا غير مكترث به أو شاعر بخطورته. أما سحنة أوتو فلم تكن لتخفي مشاعر المرارة والحنق والخيبة. لقد كان المرشح الأول المنتظر وكان على قاب قوسين أو أدنى. وها هو الآن يُنحّى جانباً بإهمال وعدم اكتراث وانتابه شعور فجائي بأن غالبا ينفر منه ويضمر له السوء، فامتلأ خوفاً ورعباً، وعاد إلى منزله تصطخب في رأسه شتّى العواطف. كان يخشى پيزو من جهة، ويكره غالبا، ويحقد على ڤينيوس من جهة أخرى. وها هم السحرة الكلدانيون وأخصّهم بالذكر بطليماؤس Ptolemæus لا ينصحونه بنبذ آماله والتخلّي عمّا رسمه، فقد أصرّ هذا العرّاف على نبوءته التي سبق وتنبأ لأوتو بها أيام نيرون، وهي أن نيرون لن يقتل أوتو بل سيسبقه إلى الآخرة وأن

أوتو سيعيش حتى يتولّى منصب الإمبراطور. فلأن الشق الأول من النبوءة قد تحقق؛ لا سبيل إلى تكذيب الشق الثاني. أو لعل أولئك الذين رثوا لحاله سِرّاً وأبدوا أسفهم الصادق لحظّه العاثر وسوء الجزاء الذي ناله من غالبا كانوا أكبر محفّز له. ومنهم تلك المخلوقات الحقيرة أمثال نمفيديوس وتجلليلنوس الذين هبطت منزلتهم بعد هذه الإجراءات وأصبحوا في حكم المنبوذين، راحوا الآن ينشطون لإثارته وأخذوا يجسّمون له الإهانة التي لحقت به ويحثّونه على الانتصاف لنفسه.

ومن بين هؤلاء قام اثنان بدور كبير في الأحداث التالية. وهما ڤيتوريوس Veturius «الأوپسيو» وباربيوس Barbius «التسّراروس»[٥] (وهما من الموكلين بواجبات السعاة والاستطلاع) فقد انطلقا مع أونوماستوس Omomastus عتيق أوتو إلى المعسكر لاستمالة الجيش وشراء من يمكن شراؤه بالمال وإغراء من يمكن إغراؤه بالوعود. ولم يكن ذلك بالأمر العسير فقد فسدت الذمم وارتخصت النفوس منذ زمن بعيد ولم يكن المرء ليحتاج إلاّ إلى ذريعة مقبولة. ولولا ذلك لما توصّلوا إلى مرامهم بأيام أربعة فحسب (تبدأ من إجراءات التبنّي وتنتهي باغتيال غالبا). لقد أتموا خلال هذه الفترة القصيرة ما انطلقوا في سبيله وأنجزوا مهمة التحريض والإثارة حتى خلّفوا تمرّداً شاملاً. وفي اليوم السادس لعملية التبنّي (وهو الثامن عشر السابق لشباط كما يطلق عليه الرومان) تمّ القضاء على غالبا. ففي صبيحة ذلك اليوم ضحّى في الپالايسوم بمحضر من أتباعه وأنصاره. فأخرج الكاهن أومبريچيوس Umbricius الأحشاء وأنشأ يتكلم بشكل واضح لا مبهم كما جرت العادة وقال: «هناك دلائل تنبئ باضطراب عظيم وشيك. وهناك فخاخ خطيرة تنصب للإمبراطور مستهدفةً حياته». هكذا أشارت الآلهة بإصبع الاتهام إلى أوتو وكان واقفاً خلف غالبا مباشرةً يسمع كل ما يقال ويرى كل ما يشير إليه الكاهن في الأضحية. فأخذت ألوانه تتغيرّ من فرط خوفه وهلعه وفضحت أساريره كل ما أضمره في قلبه. وفي تلك الأثناء وصل معتوقه أونماستوس وقال له إن رؤساء البنّائين قد حضروا وهم ينتظرونه في المنزل. وكانت هذه العبارة المصطلح عليها وتعني أن يذهب أوتو لمواجهة الجنود وفسّر الأمر للسامعين بأنه كان قد ابتاع منزلاً قديماً وهو يريد عرض ما وجد فيه من عيوب على البائعين ثم رحل. وبعد أن مرّ

---

(٥) Optio: لغةً هو الضابط المرافق للقائد، أو المساعد. و Tesserarus: هو في اللغة العسكرية الرومانية: ضابط مهمته تسلّم «البطاقة Tessera» التي يدوّن عليها كلمة السرّ (كلمة الليل) وينقلها إلى الوحدات.

بمكان يدعى «دار طيبريوس» دخل الفوروم ووقف في البقعة التي ينصب فيها عمود مذهب حيث تلتقي كل الطرق المؤدية إلى روما من إيطاليا. وهنا استقبله على ما يقال ما لا يزيد عن ثلاثة وعشرين شخصاً وحيّوه بلقب إمبراطور. إن رغد العيش وترفه وإن أثّرا على جسم أوتو فإن تأثيرهما على روحه وعقله كان قليلاً، فهو بطبعه جريء القلب لا يتطرق إليه الخوف عندما تُحدق به الأخطار. إلاّ أنه أحجم عن الذهاب إلى المعسكر مع ذلك فحال الجنود الحاضرون دون تردّده وأحاطوا بكرسيه وقد انتضوا سيوفهم وأمروا حَمَلَته برفعه والتقدم إلى المعسكر، وسُمع وهو يردد لنفسه عدة مرات «إني رجل ضائع».

كان استغراب الناس الواقفين هناك أكثر من قلقهم بسبب هذا العدد الضئيل من المتجمهرين القائمين بالانقلاب. ولكن العدد أخذ يزداد بما كان ينضمّ من الناس وهو يسير في الفوروم، ثلاثاً وأربعاً. فاتجهوا إلى المعسكر بسيوف مشرعة وهم يهتفون له باسم قيصر ولم يعترض مارچيالياس Martialias التريبيون الخفر دخوله المعسكر، فقد ذكروا أنه لم يكن على علم بالمؤامرة مطلقاً، ولكن الدهشة استولت عليه وخاف أن يعترض سبيله. وبعد هذا لم يُبد أحدٌ أية مقاومة فقد عمد المؤتمرون إلى الإحاطة بالذين لم يعلموا شيئاً عن المسألة وكانوا يروحون ويغدون في أرجاء المعسكر على رسلهم، خائفين وجِلين، ثم أُقنعوا بإعلان الولاء لأوتو. ووصلت هذه الأنباء فوراً إلى غالبا وهو في الپالاسيوم يقوم بتقديم القرابين مع الكهنة فلم يسع الأقل قابلية لتصديق المخاريق منهم إلاّ العجب لتحقيق النبوءة بهذه السرعة الخاطفة. وبدأت الجماعات الكبيرة من مختلف الناس تولّي هاربةً من الفوروم. وانتضى ڤينيوس ولاكو وبعض عتقاء غالبا سيوفهم وأحاطوا به. وتقدم پيزو فتكلم إلى الحرس القائم بالخفارة، ثم أرسل ماريوس چلسوس Marius Celsus وهو من الشجعان المعدودين لاستقدام الفرقة الألليرية المرابطة في ما يدعى بالقاعة الڤپسانية Vipsanian لتقوم بواجب الحماية.

وسأل غالبا أنصاره هل يفضّلون خروجه أم بقاءه حيث هو؟ فأشار عليه ڤينيوس بالبقاء، إلاّ أن چلسوس ولاكو أخذا يلحّان عليه في الخروج وأنحيا باللوم والتأنيب على ڤينيوس. إلاّ أن إشاعة جديدة انتشرت بسرعةٍ خاطفة تقول إن أوتو قُتل في المعسكر. ثم أقبل المدعو يوليوس أتيكوس Julius Atticus وهو رجل ذو شهرة ومكانة في أوساط الحرس، أقبل يعدو منتضياً سيفه وهو يصيح أنه قتل عدوّ قيصر واندفع يشقّ طريقه بين الجموع وتقدم من غالبا بسيفه الدامي. فسأله غالبا:

- ممن تلقيتَ أوامرك؟

فأجابه أنه الواجب الذي أملى عليه ذلك، وأنها التبِعة التي حمّلها له قسم الولاء. فصاح الجمهور استحساناً وهتفوا له لغالبا. وجلس غالبا على كرسيه ونُقل محمولاً إلى الهيكل للتقريب إلى جوپتر ولإظهار نفسه للملأ. وما إن وصل الفوروم حتى وجد نفسه أمام الفريق المعادي، وأن الريح التي قذفت به تغيّر اتجاهها الآن. فقد سيطر أوتو على المعسكر تماماً. وأخذ بعض الناس يحثه على العودة من حيث أتى، وبعضهم يشجعّه على السير قُدماً، كما يحصل عادةً في أمثال هذه الأزمات. وطلب بعضهم منه أن يتحلّى بالبسالة والإقدام، وأوصاه بعضهم الآخر بالحذر والشكّ. وبينما كانت الكرسي تميل به ذات اليمين وذات الشمال كأنها تطفو فوق الأمواج وهي تهتز به، ظهرت قطعات الخيّالة وأعقبتها وحدات المشاة الثقيلة قادمةً من ميدان پاولوس وهي تهتف بصوت واحدٍ:

- فليسقط هذا الرجل المنحطّ.

وعندها بدأ الجمع المحتشد يصمد ولا يتفرق هارباً بل يحتل الأروقة والمواضع المرتفعة من الفوروم، كأنهم يستبقون الحصول على أماكن للنظر منها إلى مشهد طريفٍ. وما إن أسقط أيتلليوس ڤرجيليو Atillius Vergilio أرضاً أحد تماثيل غالبا حتى كان ذلك إشارة للقتال فوجّهت رشقة من الحراب إلى مِحفّة غالبا ولما أخطأت هدفها تقدمت القوة وهاجمته بسيوفها من مسافةٍ قريبة فلم يثبت أحدٌ للدفاع عنه ولم يُبد مقاومة إلاّسمپرونيوس دينوس Sempronius Densus قائد المائة. رجل واحدٌ من بين تلك الألوف المؤلفة التي رأت شمس ذلك اليوم يقوم بعمل مجيد، جدير بسمعة إمبراطورية الرومان. لم يكن هذا الضابط مديناً بفضل لغالبا، إلا أنه حاول الدفاع عن المِحفّة فرفع أولاً غصن الكرم التي يستعملها قواد المائة عادة لتصحيح مشية الجنود، وصاح بالمهاجمين منتهراً وأمرهم بأن يمسكوا أيديهم عن إمبراطورهم. ولما أطبقوا عليه امتشق سيفه ودافع عنه مدة طويلة ثم سقط بعد إصابته في ساقيه.

وهوجمت مِحفّة غالبا في موضع يُسمّى لاكوس كورتيوس Lacus Cortius. فسقطت عليه الضربات وهو ممدد وعليه درعه، فمدّ لهم عنقه وقال:

- إطعنوا، إن كان في ذلك مصلحة الرومان.

وأصيب بعدة طعنات في ساقيه وذراعيه وأخيراً أجهزوا عليه بطعنة في عنقه، كما ذكر معظم الكتاب، سدّدها جندي من الفرقة الخامسة عشرة يدعى كاموريوس Camurius. إلاّ أن فريقاً يذكر أن ترنيتوس هو الذي قتله، ويذكر آخرون ليكانيوس

Lecanius. ويقول آخرون إن فابيوس فابولوس Fabius Fabulus هو الذي قام بقطع رأسه وحمله ملفوفاً بطرف معطفه، لأن إبقاءه مكشوفاً يجعله عُرضة للخطف. ولم يسمح مرافقوه بإبقاء غنيمته مستورةً وطُلب منه أن يعرضها للأنظار ليشهد الجميع بطولته، فركزه على سنان رمح ورفع رأس ذلك الشيخ الهرم الوقور الذي كان قبل لحظات حاكمهم العادل وقنصلهم وكاهنهم الأعلى. وأخذ يعدو به مثل باخوسيّ ماجن، ويديره ويرقّصه في الهواء والدماء تشخب منه وتقطر على قناة الرمح. ولما جاؤوا به إلى أوتو قال:

- أيها الرفاق الجنود، لن يكون هذا شيئاً ما لم تأتوني برأس پيزو.

فجيء إليه برأس الشاب بعد برهة وجيزة. وكان پيزو قد انسحب بعد أن أصيب بجرحٍ، فعقبه المدعو موركوس Morcus حتى معبد ڤيستا وهناك أجهز عليه. كما قتل تيتوس ڤينيوس بعد أن أقرّ علناً باشتراكه في المؤامرة ضد غالبا حين صاح بقاتليه إنكم تقتلونني خلافاً لرغبة أوتو. وعلى أية حال فقد احتزوا رأسه ورأس لاكو وجاؤوا بهما إلى أوتو طمعاً بجائزة على حدّ قول أرخيلوخوس:

«عندما تجد ستاً أو سبعاً من الجثث على الأرض
تسمع آلافاً وهي تصيح، إنه أنا، إنه أنا الذي قتلهم».

ولذلك غمس عدد كبير من الناس - الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل - أيديهم وسيوفهم في الدم المهراق وأقبلوا يعرضونها على أنظار أوتو وقدّموا طلبات خطية بالتعويض والمكافأة، وتمّ تشخيص هويات ما لايقل عن مائة وعشرين منهم من تواقيعهم. فتعقبهم ڤيتيلليوس وقتلهم جميعاً.

وأقبل ماريوس چلسوس إلى المعسكر فجوبه بصيحات الجنود التي أدانته بالانتصار لغالبا وطالبوا بقتله، وهو ما لم يكن برغبة أوتو. على أن خوفه من الإجابة بالرفض جعله يصرح بأنه سيحجم الآن عن قتله حتى يستخلص منه معلومات هامة كثيرة. وسلّمه إلى المكلفين بوضعه تحت الحفظ.

وجمع أوتو مجلس الشيوخ فوراً... فإذا هم غير أشخاص الأمس أو كأنهم بدّلوا الآلهة التي يحلفون بها. فقد أسرعوا يقسمون لأوتو القسم الذي أدّاه هو لغالبا وحنث به. وخلعوا عليه لقبي قيصر وأغسطس، وجثث القتلى ما زالت في أرديتها القنصلية ملقاة في الساحة العامة. أما ما كان من الرؤوس المقطوعة فعندما انتفت الحاجة إليها وملّتها الأنظار عُرض رأس ڤينيوس للبيع فاشترته بنته بألفين وخمسمائة دراخما. وتوسّلت ڤارينيا Varenia إليهم فأعطي لها رأس زوجها پيزو دون مقابل. أمّا رأس

غالبا فقد دفعوا به إلى خدم پاتروبيوس فعبثوا به وكالوا له شتّى أنواع الإهانات والتعدّي، ثم ألقوه في الموضع الذي جرت العادة أن ترمى إليه جثث من يقتل بأمر الإمبراطور ويعرف باسم سسيريوم Sesserium. وقام أرجيوس Argius عتيق پرسكوس هلفيديوس Prescus Hervidius بإذن خاص من أوتو بحمل جثة سيّده ودفنه ليلاً.

بهذا نأتي إلى نهاية سيرة غالبا، الرجل الذي لا تجد صنواً له من الرومان إلاّ القليل، في الغنى أو النبل. لقد فاق بهذين كل رجال عصره. وعاش وهو يتمتع بأعلى منزلة من الاحترام وحسن السمعة خلال حكم خمسة أباطرة. وأسقط نيرون بشهرته وسمعته أكثر مما كان عامل القوة والعنف مسؤولاً عن ذلك. وكان الرأي العام ينظر إلى من نحى منحى نيرون في الحكم إما بأنهم استحقوا المنصب الإمبراطوري، وإما أنهم فرضوا أنفسهم عليه وهم لا يستحقونه. أمّا غالبا فهو الوحيد الذي عُرض عليه المنصب وقرر قبوله وسمح لڤنديكس بأن ينتقض باسمه ولا أكثر. فأعطى صفة «الحرب الأهلية» لما كان يعرف قبلها بالتمرّد، بمجرّد وجوده. ذلك الشخص الذي عُدّ جديراً بالسلطة، إن المنصب هو الذي انقاد إليه، وليس هو الذي انقاد إلى المنصب. لقد أراد أن يقود أولئك الجنود الذين أغراهم نمفيديوس وتجلّلينوس بالمال على الطاعة، بالطرق التي سبق لسچيپيو وڤابريچيوس وكاميللوس أن اتبعوها في قيادة العسكر الروماني في سالف العصور. ولكن كِبَر سِنّه في الواقع جعل الجنود والوحدات العسكرية تنظر إليه نظرتها إلى حاكم عتيق الطراز صلب العود. أمّا من الجهات الأخرى، فباستسلامه لرأي ڤيتيوس ولاكو والعُتقاء المقرّبين، فقد نزل إلى مستوى نيرون فيما كان يخصّ به عشراءه وندماءه وخلّانه. ولذلك لم يترك وراءه من كان يتمنّى دوام حكمه، وإن كان الأسف لموته عميقاً.

أوتو

OTHO

(Marcus Salvius)

٣٢–٦٩

١٩٨٩

في صباح اليوم التالي خرج الإمبراطور الجديد إلى الكاپيتول وقدّم القرابين، ثم أمر بإحضار ماريوس چلسوس وحيّاه وتلطّف معه ورجا منه أن ينسى اتهامه أكثر مما يتذكر إخلاء سبيله. فأجابه چلسوس بخير ما يمكن أن يقال في ذلك الظرف وشكره موضحاً أن تهمته نفسها يجب أن تكون عاملاً في رفع سُمعته لأنها الإخلاص لغالبا الذي لم يكن مديناً له بأيّ فضل خاصٍ. وأعجِب الحاضرون بموقف الرجلين وهتف الجنود لهما.

وفي مجلس الشيوخ تكلّم أوتو بألطف وأحبّ لهجةٍ. وكان مقرّراً أن يبقى قنصلاً لما فضل من السنة إلاّ أنه تنازل عنها لڤرجينيوس روفوس ولم يعزل أحداً من القناصل الذين سمّاهم غالبا ونيرون. ومنح الترقيات للمستحقين والمبرّزين ورفع المتقدمين بالعمر من الشيوخ إلى منصب الكهنوت. وأعاد بقية أملاك الشيوخ المصادرة غير المباعة التي وضع نيرون يده عليها ونفاهم ثم ألغى غالبا أوامر نفيهم. فبدأ الأمل يداعب نفوس الأشراف ورؤساء الشعب بحكم زاهر باسم من مطالعه بعد الخوف الذي أمسك بخناقهم، إلى حَدّ اعتقادهم بأن قوىً منتقمة إلهية قد استولت على الإمبراطورية وليس مخلوقات بشرية مثلهم.

ولم يرفعه في نظر الشعب الروماني شيء قدر ما رفعته عدالته في معالجة أمر تجللينوس. كان هذا الشخص في الواقع قد بدأ يستوفي قصاصه لقاء ما جنت يداه، فقد لازمه الخوف من العقاب الذي ألحّت روما بطلبه، وأخذت الأسقام التي لا يُرجى شفاؤها تنخر في جسمه، دعك من إفراطه الأثيم في تعاطي الفحش مع العاهرات والساقطات منذ نعومة أظفاره حتى لفظ بينهن آخر أنفاسه على حدّ مأثور القول. هذه الأعمال في عُرف أفاضل الناس هي أشدّ عقاب يمكن أن ينزل بالبشر. إنها عدة ميتاتٍ في الواقع. لكنها على أية حال كانت مبعثاً للسخط العظيم عند الناس، وقد ملأتهم

غيظاً رؤيتُه نور النهار حتى تلك الساعة وهو المسؤول عن قتل الكثير مباشرةً والأكثر تسبّباً. ولذلك أمر أوتو بجلبه وكان يتهيّأ للفرار وقد أعدّ بعض السفن للإقلاع به من الساحل بالقرب من سينويسا Sinuessa محلّ سكناه. فأدركه السعاة فحاول إرشاء الضابط بمبلغ كبير من المال ليخلي سبيله ولا يحول دون فراره ولما وجده مصّراً قدّم له هدية ثمينة كأنما هو غير مهتمّ بالأمر ورجا منه أن ينتظر قليلاً ليحلق لحيته ثم ذبح نفسه بالموسى.

وبهذا أرضى أوتو الرومان وشفى غليلهم. أمّا هو فقد أظهر عدم اهتمام بتعقيب من ألحق به الأذى في الماضي. ولم يرفض في مبدأ الأمر تلقيب الناس له في المرسح بـ«نيرون» ولم يتدخل عندما عرض بعضهم تماثيل هذا العاهل لأنظار الجمهور. ويقول كلوڤيوس روفوس Cluvius Rufus إن الرسائل الرسميّة الموجهة من الإمبراطور إلى إسبانيا كانت أولاً تُمهَر بتوقيع أوتو نيرون ولكن ما إن أدرك أن ذلك يجرح مشاعر أخيار المواطنين حتى حذف اللقب.

ولما بدأ يجرى التعديل في نظام الحكومة على هذه الوتيرة أخذ الجنود المرتزقة يتذمّرون وحاولوا تشكيكه في نوايا الأشراف ليُنزِل بهم العقاب، ولا ندري أكان يدفعهم في هذا حرصهم على سلامته أو لرغبتهم في إثارة حربٍ أو إشاعة الفوضى تحت هذا الزعم؟ فلما أمر أوتو كرسپينوس Crispinus بسوق الكتيبة السابعة عشرة من أوستيا، راح هذا يتهيأ لذلك بعد حلول الظلام وكدّس الأسلحة في عربات النقل، صاح بعض مثيري الفتن ودعاة الشغب أن كرسپينوس يتآمر ويبيّت خيانة وأن مجلس الشيوخ يدبّر أمراً بليلٍ ضد الإمبراطور وأن هذه الأسلحة ستخدم هذا الغرض. وما إن انطلقت هذه الصيحة حتى وجدت لها أفواهاً تتلقّفها ونفوساً تؤمن بها وتتبنّاها فثارت عواطف الجماهير وتفجّرت براكين عنفهم فاستولى فريق منهم على العربات ووثب فريق على كرسپينوس فقتله مع قائدين من قوّاد المائة اعترضا سبيلهم، ووزّع السلاح على الغوغاء ونظموا صفوفهم مشجعين بعضهم بعضاً للوقوف إلى جانب قيصر واتجهت جموعهم إلى روما. وسمعوا أن ثمانين شيخاً يتناولون عشاءهم على مائدة أوتو فاندفعوا إلى القصر قائلين إنها خير فرصةٍ للقضاء على أعدائه دفعةً واحدة. وأُنذرت المدينة بأن الجنود على وشك تطويقها وساد الاضطراب نفوس من في القصر، وتصاعد غضب أوتو إلى أقصاه، وكان القلق ينهشه على الشيوخ الذين كان بعضهم قد صحب زوجاته. كذلك شعر بأنهم صاروا ينظرون إليه بشك وقلق من أعينهم الشاخصة إليه بصمت وفزع. فطلب من أمراء الحرس أن يخرجوا إلى الجنود ويعملوا على تهدئتهم. في حين

أوعز للمدعوين بالنهوض وترك القاعة والخروج من بابٍ آخر. وما إن أخلى المكان حتى اندفع الجنود وهم يصرخون:

- أين هم أعداء قيصر؟

فاعتلى أوتو معقده وحاول معهم إثارةً بالمنطق، وتارة بالضراعة بالدموع الصادقة، حتى تمكن بعد لأيٍ من صدّهم عما اعتزموه.

وفي اليوم التالي قصد المعسكر ووزّع مكافأةً قدرها ألف ومائة وخمسون دراخما لكلّ جندي. ثم شكرهم وأثنى على غيرتهم وحرصهم على سلامته. ثم ذكر لهم أن هناك من يتآمر عليه من بينهم. هؤلاء الذين عابوا عليه رحمته وتساهله، ولم يكتفوا بهذا بل سلكوا أسوأ السبل ليعبّروا عن إخلاصهم الزائف له. ولذلك فهو يريد منهم أن يعاونوه لإنفاذ حكم العدالة في هؤلاء النفر. فأعلن الجميع تضامنهم وموافقتهم على حكمه. فاكتفى بتنفيذ حكم الموت باثنين فقط كان يعلم أن موتهما لن يكون موضع أسفٍ عند جندي واحدٍ في الجيش كله.

لم يكن ينتظر أحدٌ من أوتو مسلكاً كهذا، إلاّ أن الناس اختلفوا في تعليله. فبعضهم كان يعتبره مِنّة منه وفضلاً، وبعضهم عدّه سبيلاً اندفع فيه بحكم الضرورة لتأمين مساندة الجنود له عند نشوب الحرب. فقد وردت في حينه أنباء تشير إلى أن ڤيتيللوس قد تسلّم زمام السلطة واتخذ لنفسه لقب الإمبراطور. وتعاقب السعاة والرسل بأنباء انتفاضات أخرى جديدة، على أن فريقاً من السعاة حملوا أنباء تفيد بأن الفرق العسكرية المرابطة في پانونيا Pannonia ودالماسيا Dalmasia وموسيا Moesia بجنودها وضباطها مقيمة على ولائها له. وما مرّ وقت قصير حتى وردته رسائل تأييد من موشيانوس Mucianus وڤسپاسيان Vespasian وكلاهما يقود جيشاً جرّاراً، أولهما في سورية وثانيهما في بلاد اليهودية، يؤكدان فيها وقوفهما إلى جانبه بصورة أكيدة. إن الاطمئنان الذي ثبّتته هذه الرسائل فيه رفع من معنوياته وحمّسه فكتب إلى ڤيتيلليوس يحذره من مغبّة اعتدائه على السلطة وتخطّيه حدود صلاحياته ويأمره بالتزام واجبات منصبه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال مع مدينةٍ ليعيش فيها طول حياته عيش رغدٍ وراحة. فردّ ڤيتيلليوس بجواب فيه لطف ومجاملات مبطّنة ثم سرعان ما انتقلت مراسلاتهما إلى المهاترة والمغاضبة وتبادل التهم المخجلة والشتائم القبيحة، ولم يكونا كاذبين بها. إنما من السخف والحمق أن يهاجم أحدهما الآخر ويتهمه بالجرائم التي لم يتعفف كلاهما عن ارتكابها فعلاً. إذ يصعب والحق يقال أن يجزم المرء بأيّ منهما أكثر سفاهة وتخنّثاً، وأيهما أشد جهلاً بالقيادة، وأكثرهما إغراقاً في الاستدانة لفقرهما في الماضي؟

أما عن المخاريق والظواهر السماوية التي حصلت في تلك الفترة فقد ذكر عنها الكثيرون دون إيراد أصولها، أو التثبّت من تفاصيلها فقد رُوي بعضها بأشكال مختلفة. على أن ثمّ خارقةً واحدة رآها الناس كافة بأعينهم. وهي ما حصلِ لتمثال ربّة النصر القائم فوق عربة الكاپيتول. فقد شوهدت الأعِنّة تسقط من يد الربّة كأنها لم تعد تقوى على شدّها. وثم خارقة أخرى حصلت لتمثال كايوس قيصر القائم في جزيرة التيبر فقد دار على نفسه وصار يواجه الشرق بعد أن كان يستقبل الغرب دون أن تحدث هزّة أرضية أو تهبّ عليه ريح. وقيل إن ذلك وقع في الزمن الذي بدأ فيه ڤاسپسيان وحزبه بالتمخّض والعمل علانية. ثم وقع حادث آخر عدّه الناس نذير شؤم وهو ارتفاع منسوب ماء التيبر وطغيانه. لقد وقع هذا في موسم ارتفاع مناسيب الأنهار المعتاد إلى اقصى ما تبلغ من ارتفاع، إلاّ أن زيادة الماء في التيبر والطوفان الهائل الذي نجم عنه والخراب الذي أحدثه في الممتلكات لم يُعرف شبيه له من قبل. لقد طغى الماء على جزءٍ كبيرٍ من المدينة ولاسيما سوق القمح فأحدث قحطاً لأيام عديدة.

وعندما وردت الأنباء بأن قائدي ڤيتيلليوس؛ وهما كايچينا وڤالنس قد بسطا سيطرتهما على الألب، أرسل أوتو دولابللا (وهو پاتريشي كان الجيش يشك في أن له مآرب شريرة) إلى بلدة أكونيوم Aqiunum لأمر لم تُعرف حقيقته وقد يكون بسبب الخوف منه أو لعلّةٍ أخرى، زاعماً أنه أرسله لبث روح المقاومة والشجاعة في النفوس. ثم اختار القادة والحكام الذين سيرافقونه شخصياً إلى الحرب. وممن عيّن لوشيوس أخا ڤيتيلليوس. ولم يخصّه بفضلٍ أو يبدِ له جفاء إلاّ أنه اتخذ أشد التدابير حزماً لسلامة زوج ڤيتيلليوس وأمّه، وبدّد كل ما قد تشعران به من خوفٍ وهواجس. وعيّن فلاڤيوس سابينوس Flavius Sabinus أخا ڤسپاسيان حاكماً لروما إما إكراماً لذكرى نيرون الذي كان قد أسند إليه هذا المنصب ثم عزله عنه غالبا وإمّا إظهاراً لثقته بڤسپاسيان أخيه.

وعند وصوله پركسيللوم Brixillum وهي مدينة إيطالية قريبة من نهر پو قرّر البقاء هناك وعيّن لقيادة الجيش كلاً من ماريوس چلسوس وسوتونيوس پاولينوس Suetonius Paulinus وسپورينا Spurina وهم رجال عركتهم الخبرة وبلتهم التجارب واشتهر أمرهم. إلاّ أنهم عجزوا عن تنفيذ ما يجب تنفيذه للروح المتمرّدة الفوضوية التي سادت أفراد الجيش. فقد أبوا أن يطيعوا أمراً غير صادرٍ من الإمبراطور المختار من قبلهم. ولم تكن حال جيش العدو بأفضل من ذلك. فالانضباط عندهم مفقود والأوامر لا تُطاع والجنود تتملّكهم روح الزهو والعجرفة والتمرّد على القادة لعين السبب. إلاّ أنهم كانوا أكثر تجربة ومِراناً وتعوّداً على العمل الشاق. أما رجال أوتو فقد جرّدهم رغد العيش

وقلّة التدريب من الرجولة وأصيبوا بالرخاوة لانغماسهم في الملاذ وارتياد الملاعب والمراسح والحفلات في العاصمة. وإلى جانب محاولة تغطية قصورهم وضعف هِمَمهم بالتواقح والمظاهر الزائفة، فقد تظاهروا وتعمّدوا التنصّل من واجباتهم لا لعجز فيهم بل لأنهم كانوا يترفّعون عنها. وكاد سپورينا يفقد حياته ويمزّق إرباً لأنه حاول إرغامهم على أداء واجباتهم، فأهانوه وأسمعوه من هجر القول واتهموه بالكيد لقيصر وإضمار السوء والخيانة له. واقتحم بعض السكارى خيمته ليلاً وطلبوا منه نفقات رحلة إلى الإمبراطور ليقدموا شكوى ضده!

على أن ما لقوه في پلاچنسيا Placentia من تحقير وازدراء أسدى في حينه خدمة طيبة له ولقضية أوتو. فقد تقدم رجال ڤيتيلليوس من الأسوار وأخذوا يعيّرون رجال أوتو القائمين على حراسة الأبراج ويسخرون منهم فلقّبوهم بالراقصين والممثلين والمهرّجين والمتفرجين الكسالى في الألعاب الأولمبية، والمستجدّين في فنون الحرب، ممن لم يسبق لهم أن شاهدوا ميدان قتال، والجبناء الذين كان نصرهم الوحيد هو قطع رأس غالبا الشيخ الأعزل، والكارهين مواجهة الأعداء الحقيقيين. . . هذه الإهانات ملأت نفوسهم حنقاً فجثوا تحت قدمي سپورينا متوسّلين إليه أن يُصدر إليهم أوامره بالانقضاض على أعدائهم وأكدوا له أنهم لن ينثنوا عن مكامن الخطر ولن يتقاعسوا عن أي واجب. وكانوا عند كلمتهم فقد شنّت قوات ڤيتيلليوس هجوماً عنيفاً على المدينة مستخدمة عدداً كبيراً من آلات الحصار والثغر فصدّها المدافعون بشجاعة وردّوها على أعقابها بعد أن كبّدوها أفدح الخسائر، وبذلك ضمنوا سلامة مدينة شريفة هي من أجمل وأزهى المدن الإيطالية.

وظهر جلياً أن ضباط جيش أوتو كانوا أطيب معاملة للسكان كبارهم وصغارهم من ضباط ڤيتيلليوس، وكان من قواده كايچينا الذي تميّز بفظاظة في الطبع، وسلاطة لسان، لا يتّصف بسلوك الرجل المهذّب ولا يتكلم بلغته، غطريس غريب الهيئة عملاق يرتدي دائماً أثواباً بأكمام وسراويل على الزّي الغاليّ عندما يحضر مجالس موظفي الرومان وحكامهم. وكانت زوجه تلازمه في مسيراته العسكرية فتمتطي جواداً وهي في حُلّة فاخرة، يحفّ بها حرس من الخيّالة المنتقاة. أمّا زميله الجنرال الآخر فابيوس ڤالنس فقد كان طمّاعاً جشعاً لا يشبع من المال الذي ينهبه من العدوّ، أو يُهدى إليه أو يرشى به أو يسرقه من أصدقائه وحلفائه. وذكروا أنه كان يتعمّد البطء في تقدّمه (حتى أنه لم يدرك المعركة التي سلف ذكرها) ليتاح له وقت كافٍ للسلب والنهب وهو في طريقه. إلاّ أن بعضهم يلومون كايچينا في هذا بقولهم إنه استعجل الهجوم قبل وصول فابيوس

ڤالنس لأنه أراد أن يستأثر بالنصر، وقد ارتكب أيضاً عدة أخطاء أخرى ثانوية، فكاد يلحق الدمار التام بالحملة كلها لاشتباكه مع العدوّ في ظروف غير ملائمة.

اندحر كايچينا في پلاچنسيا فانطلق للانقضاض على كريمونا المدينة الكبيرة الغنية. وفي الوقت عينه زحف أينوس غاللوس Annius Gallus للانضمام إلى سپورنيا في پلاچنسيا. ولكنه علم قبل وصوله أن الحصار رفع عنها، وأن كريمونا تتعرّض الآن للحصار فاتجه إليها لإنقاذها وعسكر بالقرب من العدوّ، وكانت تعزيزاته من الضباط مستمرة على مدار اليوم. ووضع كايچينا كميناً قوياً من المشاة الثقيلة في أرض وعرة كثيفة الشجر وأصدر أمراً لخيالته بالتقدم والتعرّض للعدوّ حتى إذا استنفر انسحبت خيالته ببطء واستدرجتهم إلى الكمين. إلاّ أن أحد الهاربين كشف الخطّة للعدوّ فقام چلسوس بالتصدي للخيّالة بقوات كبيرة من فرسانه وأخذ يعقّب المتقهقرين بكل حذرٍ، إلى أن نجح في تطويق كل القوات التي وضعت في الكمين وألحق بها هزيمة نكراء. ولو وصلت المشاة التي بعث في طلبها من المعسكر في الوقت المناسب لإسناد الخيّالة لحلّت الهزيمة التامة بكلّ جيش كايچينا على أية حال. إلاّ أن حركة پاولينوس كانت في غاية البطء حتى أنه اتهم بالحذر غير المتوقع من قائدٍ مثله ذي دراية وسُمعة طائرة.

لذلك أثار الجنود حفيظة أوتو عليه فاتهموه بالخيانة وفخروا بملء أفواههم بالنصر الذي حازوه قائلين إنه لم يكن كاملاً بسبب خطل قادتهم وأخطائهم. ومع أن أوتو لم يصدّق كل ادعاءاتهم فإنه لم يعترض على ما قالوا. ولذلك عيّن أخاه تيتيانوس Titianus مع آمر الحرس پروكولوس Proculus، أولهما قائداً رسمياً وثانيهما قائداً فعلياً. وأنزل رتبة چلسوس وپاولينوس إلى مستوى المستشارين وجرّدهما من كل سلطة إجرائية. وكان العدوّ في الوقت نفسه يشكو الفوضى، والتناحر قد مزّق صفوفه تمزيقاً، ولاسيما قطعات ڤالنس عندما علمت بهزيمة جنود كايچينا في الكمين. واجتاحتها سورة من الغضب الشديد لأنه لم يُتح لها المشاركة ولو في اشتباك واحدٍ دفاعاً عن العدد الكبير من إخوانهم الجنود الذين قُتلوا في تلك المعركة. ولقي ڤالنس الأمرّين في تهدئة عواطفهم إلاّ أنهم عادوا فقذفوا خيمته بالرماح فما كان منه إلاّ أن ترك معسكره وذهب إلى كايچينا.

وانتقل أوتو إلى بدرياكوم Bidriacum وهي بُليدة لا تبعد كثيراً عن كريمونا. ودخل المعسكر وأمر باجتماع لمجلس الحرب وفيه اقترح پروكولوس وتيتيانوس شنّ الهجوم فوراً لاستغلال معنويات الجنود العالية بالنجاح الذي حققوه، وقالا إن الواجب يقضي بأن لايضيع الوقت مع الفرصة المؤاتية وأن تُستثمر أقصى حالات القوة التي

بلغوها الآن دون انتظارٍ لمقدم ڤيتيلليوس من بلاد الغال. وخالفهما پاولينوس بقوله إنهم يواجهون الآن كل ما لدى العدوّ من وحدات عسكرية، وإنه لا يملك أي احتياطي فلو أن أوتو تريّث وتأنّى ولم يتسرّع وفضّل أن يختار ساعة المعركة بنفسه لا أن يقبل بالموعد الذي اختاره العدوّ فمن المتوقع أن تصل نجدات من موسيا وپانونيا لا تقل عدداً عما لديه الآن من قوات. ومن المحتمل جداً أن الجنود وهم الآن على درجة كبيرة من الحماسة قبل وصول هذه النجدات سيكونون أكثر تحمّساً واندفاعاً بعد وصولها. كذلك ليس هناك أي خطر عليهم من تأخير المعركة لأن أقواتهم تكفيهم. في حين أن العدو وهو في أرض غريبة لن يلبث أن يشكو من نقص أرزاقه. وكان هذا من رأي ماريوس چلسوس أيضاً. أما أنيوس غاللوس فلم يكن موجوداً في مجلس الحرب بسبب السقطة عن ظهر حصانه وخضوعه لعلاج الجراحيّ. فاستخرج رأيه كتابةً فنصح أوتو بانتظار الفرق العسكرية القادمة من موسيا. على أن الإمبراطور لم يعمل بهذا الرأي وأخذ برأي من حبّذ الدخول في المعركة فوراً.

بُرّر هذا القرار بأسباب عدة، وكان أبرزها هو هذا: إن الجند الپريتوريّ كما كان يطلق عليه، وهو الذي يقوم بواجبات الحرس الإمبراطوري، ضاقوا ذرعاً بالانضباط العسكري الذي بدأ يفعل فعله في نفوسهم وما كانوا يطيقونه لاعتيادهم حياة النعومة والتسلية فحنُوا إلى عيشهم الرغد البعيد عن سمة الحرب بين ملاعب روما ومراسحها. ولذلك أرادوا التعجيل في خوض المعركة متصوّرين أن النصر التام سيكون إلى جانبهم في أول الهجوم. ويبدو أن أوتو نفسه لم يكن قويّ الإرادة حازماً كما يجب في مواجهة كلّ الاحتمالات. ولم يدعه طبعه المخنّث يتحلّى بالصبر. كما أن قلّة مِرانه وتجربته جعلته يغفل حساب الخطر فكان شديد الخوف عند مواجهته له وفعل طبق ما فعله الجبان الرعديد إذ أغمض عينيه وترك مصيره في كفّة القدر وقذف بنفسه من الجرف إلى أسفل. هذا ما أورده بتفصيل سكوندس Secundus المنطقي أمين سِرّه. وقد يقول لك آخرون إنه لوحظ تقارب كبير بين أفراد الجيشين وتفاهم حول إنهاء النزاع بالاتفاق على انتخاب أفضل الموجودين من القادة لمنصب الإمبراطور. وإن لم يتمكنوا طلبوا اجتماع مجلس الشيوخ ومنحوه صلاحية الاختيار. ومن المحتمل جداً أن يكون هذا هدف ذلك الفريق الواعي المتزن من أفراد الجيش الذي لم يجد في أيّ من الإمبراطورين المتنازعين على السلطة الجدارة والخبرة والأهلية لتسنّم المنصب فهما في الواقع لا يتمتعان عنده بأي احترام أو مكانةٍ. لم يكن هناك مشبه للمصائب والشرور التي تجرعها الرومان بسبب احترابهم وقتالهم بعضهم بعضاً لأجل المدعو سيلّلا أو ماريوس أو من عُرف

باسم «قيصر» و«پومپي». وها هم اليوم يتجرعونها مجدداً لتدفع الجمهورية الرومانية مصاريف طيش ڤيتيلليوس وجشعه، ونفقات تفسّخ أوتو وخنوثته. ولقد ساد الاعتقاد أن تفكير چلسوس كان ينحو هذا المنحى فأخذ يمدّ في حبل الزمن ويؤجّل القتال لعلّ التسوية المنشودة تُحقق، في حين كان أوتو يستعجل الأمور ويندفع ليحول دون الوصول إلى اتفاقٍ.

عاد أوتو إلى پركسيلوم، فكانت عودته غلطة أخرى لأنه جرّد المقاتلين من الدافع الحقيقي لحسن البلاء وإجادة القتال للظفر بالتقدير الذي كانوا يطمحون إليه منه، كما قضى على كل احترام يشعرون به تجاهه. ولأنه كذلك أضعف الجيش بسحب بعض الوحدات الممتازة المخلصة وضمّها إلى حرسه من صنفي الخيّالة والمشاة.

وفي تلك الأثناء حصل اشتباك على نهر پو بينما كان كايچينا يمدّ جسراً فوقه. فقد هاجمه رجال أوتو فأحبط هجومهم. وبينما كانوا يحمّلون زوارقهم بخشب المشاعل وكميات من الكبريت والقار هبّت ريح النهر على تلك المواد التي كانوا يهيّئونها لاستخدامها ضد العدوّ فقدحت فيها ناراً، وخرج منها دخان ثم تصاعدت ألسنة اللهب فدبّ الذعر في الرجال وعمّتهم الفوضى. وأخذوا يهرجلون في داخل القوارب فاختلّ توازنها وأصبحوا تحت رحمة عدوّهم بشكل يدعو إلى الضحك والرثاء. وهاجم الجرمان مصارعي أوتو في جزيرة صغيرة وسط النهر وهزموهم بعد أن فتكوا بعدد كبيرٍ منهم.

كل هذا أغاظ الجنود المعسكرين في داخل بدرياكوم وملأهم شوقاً إلى المعركة. فخرج بهم پروكولوس من المدينة وسار إلى موضع يبعد عنها خمسين فرلنگاً، فضرب فيه خيامه، بقِصر نظر فاضح وجهل مطبق بالفنون العسكرية. فقد أخذ الجنود يشكون شحّاً في الماء في حين كان الفصل ربيعاً والسهول المجاوره تحفل بالغدران والنهيرات الدائمة الجريان على مدار السنة. وفي اليوم التالي قام بمسيرة لا تقل عن مائة فرلنگ واقترح الاشتباك بالعدوّ، لكن پاولينوس عارض في ذلك بقوله إن الانتظار أخلق بهم. وليس من الحكمة أن يدفع جنوده إلى خضمّ المعركة بعد أن ساروا هذه المسافة الطويلة مع حيوانات نقلهم وخدم المعسكر والأثقال. في حين كان العدوّ منتظم الصفوف متهيئاً للمعركة بسلاحه. وفيما كان القادة يتناقشون في هذا الأمر قدِم ساعٍ نوميديّ من مقرّ أوتو يأمرهم باستعجال القتال وعدم إضاعة الوقت. فأنهى بذلك النقاش واتفق الجميع على الهجوم وبدأوا بالحركة. فأدركت كايچينا الدهشة العظمى لعمل لم يتوقع صدوره من عدوّه وغادر موقعه على النهر وأسرع إلى المعسكر. وكان معظم جنود ڤالنس قد

استعدّوا بسلاحهم وتلقّوا كلمة السرّ منه. وأخذت الفرق تتجمّع في مواقعها بينما تحركت تشكيلات الخيّالة إلى الميدان.

وسرت إشاعة بين جنود أوتو لا أساس لها تفيد أن ضباط العدوّ سينفصلون وينضمّون إليهم. حتى خيّل لهم أن الأمر حقيقة فبادروا يحيّون العدوّ المتقدم ويرسلون إليه عبر الخطوط عبارات الودّ، ودعوهم بالإخوان والرفاق عند اقتراب الجمعين. إلاّ أن الردّ كان جافاً مهيناً. فركبتهم الخيبة وهبطت معنوياتهم. كما شك الجنود المتأخرون في إخلاص الصفوف الأماميّة للسلوك الودّي الذي أبدوه للعدو. فكان الاضطراب يسود أول كرّةٍ لهم على العدوّ. وجرت كل صفحات المعركة بدون خطة أو نظامٍ. فقد اختلط حملة الأثقال بالمقاتلين وخلقوا فوضى عظيمة، وأحدثوا تخلّلاً وانفصالاً بين الوحدات. وأرغمت طبيعة الأرض بحُفرها وسواقيها العديدة كثيراً من الوحدات على كسر صفوفها والدوران حول هذه العقبات، فصارت تقاتل بدون نظام وعلى شكل وحدات متفرقة قليلة العدد. اللهمّ إلاّ فرقتين إحداهما تعود لڤيتيللوس وتدعى بـ«الشهباء»، والأخرى لأوتو وتدعى «المساعدة» فقد خرجتا إلى أرضٍ سهلة واشتبكتا بشكلٍ نظاميّ ردحاً طويلاً من الزمن. كان رجال أوتو أشداء شجعاناً إلاّ أنهم لم يسبق لهم خوض معركة. أمّا رجال ڤيتيلليوس فقد خاضوا معارك كثيرة، إلاّ أنهم لم يعودوا شباباً فقد أنهك تقدّم السنّ قواهم. ولذلك كرّت عليهم فرقة أوتو كرّة عنيفة وأجبروهم على التقهقر واغتنموا منهم نسراً. وقتلوا كل رجال الصف الأمامي تقريباً، حتى عصف الغضب والخزي بالمتقهقرين فصمدوا وردّوا الهجوم وقتلوا أورفيديوس Orfiduis قائد الفرقة وأخذوا عدة أعلام. وسار ڤاروس ألفينوس Varus Alfenus على رأس جنوده الباتاڤيين Batavia وهم سكان جزيرة في الراين واشتهروا بأنهم أفضل فرسان الجرمان فانقضّ بهم على المصارعين الذين عُرفوا بالبسالة والبراعة إلاّ أن قلّة من هؤلاء أدّوا واجبهم. لكن الأغلبية ألوت بأعِنّة خيلها إلى النهر وانقضّت على بضع كتائب هناك، فعزلت نفسها عن سائر الجيش. ولم يقف أحد موقفاً مخزياً كموقف الحرس الپريتوري فقد ولّوا الأدبار قبل أن يلتحموا بالعدوّ وشقوا طريقهم خلال الصفوف الصامدة منهم فنشروا الفوضى. مع هذا كله فقد وفِقّت قطعات عديدة لأوتو في دحر أعدائهم الذين صمدوا لهم وفتحوا ثغرة في صفوفهم ونفذوا منها إلى معسكرهم دون أن يتمكن منهم المنتصرون.

ولم يجرؤ پروكولوس وپاولينوس على دخول المدينة مع الجنود وانتحيا جانباً وتحاشيا ثورة الجنود الذين ألقوا كل اللوم عليهما بالهزيمة. ولكنهم سمحوا لأنيوس

غالوس بدخول المدينة فباشر يعيد تنظيم الوحدات المشتّة ويبث في نفوسهم الشجاعة بقوله إن المعركة لم يتقرر مصيرها بعد، وإن النصر في أكثر مواقعها هو بجانبهم. وجمع ماريوس چلسوس الضباط وحثهم على المجاهدة في سبيل الوطن.

ولو كان أوتو يتحلّى بأي قدرٍ من الشجاعة لكفّ عن القتال بعد أن سفك هذا القدر الكبير من الدم الروماني. ولاسيّما أن له في كاتو وسچيپيو أسوةً فقد أُتهما بأنهما هدرا حياة عدد كبير من أشجع الرومان في أفريقيا ولم يقبلا الاستسلام لقيصر بعد معركة ڤرساليا، اتهما بذلك مع أن حرية روما كانت في كفّة القدر. لا يسلم أحد من غدر الدهر الخؤون وتقلبات الحظّ إلاّ أن هناك سجيّة مميزة للأفاضل منهم، لا سبيل للحظ في نكرانها وهي أنهم يستخدمون عقولهم ويعملون بهدي منها عندما تكبو بهم الأقدار ويقلب لهم الحظّ ظهر المجّن. هذه الفكرة كانت تسود ضباط جيش أوتو فأخذوا يسبرون غور الجنود فوجدوا أنهم يرغبون في السلام مثلهم. وعلى إثر ذلك أصدر تيتيانوس أمراً بإرسال وفد مفاوضة واتفق أن يتألف الوفد من چلسوس وغاللوس وڤالنس وكايچينا. وانطلق الأولان لمقابلة الطرف الثاني. فاستوقفهما في الطريق جماعة من قواد المائة وأعلموهما أن جنودهم يتحركون نحو بدرياكوم. إلاّ أن قائديهم قد أنابوهم للقدوم إليهما بشروط الصلح والسلام. فأعرب چلسوس وغاللوس عن رضاهما وطلبا منهم العودة معهم إلى كايچينا ففعلوا وساروا معاً إلاّ أن چلسوس تعرّض للخطر، عندما اقترب من حرس المقدمة وكانوا من الخيّالة التي لحقت بها خسائر جرّاء فشل كمين كايچينا كما مرّ بيانه. فما إن تبيّنوه حتى أطلقوا صراخاً وهجموا عليه إلاّ أن قوّاد المائة تولّوا حمايته، وانتهروا ضباطهم وصاحوا بهم حتى ردّوهم عنه. وخرج كايچينا ليرى سبب الضجة وعمل على تهدئة الحال وحيّا چلسوس تحية الصديق وضمّه إلى ركبه المتقدم نحو بدرياكوم. على أن الندم خالط تيتيانوس لإرساله وفد الصلح وعزّز الأسوار بحرس موثوقين واستنهض هِمَم الجنود الآخرين ليشدّوا أزرهم. إلاّ أنهم حيّوا كايچينا ورجاله عند اقترابهم بودّ ولطف ولم يصدر منهم عمل عدائي. وبادر بعضهم إلى فتح أبواب المدينة وخرجوا لاستقبال القادمين واختلطوا بهم دون كلفةٍ. وأخذ الفريقان يصافح أحدهما الآخر وتبودلت عبارات التهانئ وتسابقوا إلى أداء يمين الولاء والطاعة لڤيتيلليوس.

هذا ما يورده معظم من كان موجوداً في القتال. إلاّ أنهم يقرّون بأن الاضطراب والفوضى التي سادت وفقدان النظام حالت دون التأكد والاطلاع على التفاصيل ودقائق الأمور. ولما شددتُ الرحال إلى ميدان القتال بصحبة مستريوس فلورس Mestrius

Florus وهو من القناصل السابقين وكان في معيّة أوتو وقتذاك مجبراً لا مختاراً، وجّه اهتمامي إلى معبد عتيق وقال لي موضحاً:

- كنت أتمشى بعد انتهاء المعركة في هذا الطريق فلاحظت كدساً من الجثث تعلو بعضها بعضاً حتى تبلغ بمستوى سطح المعبد الذي تشاهده الآن. فتساءلت كيف حصل هذا ولم أهتد إلى الحقيقة، ولم يفدني أحدٌ بجوابٍ شافٍ. فالعادة في الحرب الأهلية أن أكثر القتول لا تسقط خلال المعركة، وإنما بعدها. إذ لا تقبل دخالة جنود الفريق المغلوب لأن المنتصرين لا يجتنون أية فائدة من الأسرى إلاّ أن سبب تكديس الجثث هنا لم يجد له أي تعليل.

وكما يحصل دائماً في مواقف كهذه، وردت أوتو شائعات غير مؤكدة عن نتائج المعركة. ثم وصل بعض الجرحى العائدين من الميدان رأساً وأعلموا بالحقيقة الواقعة. وليس لنا أن نعجب عندما نعلم أن أصدقاءه وأنصاره أخذوا يشجعونه، ويستنهضون همتّه، ويحثّونه على نبذ اليأس جانباً. إلاّ أن العجب الكبير هو ما أظهره جنوده من شعور بالتفاني والتضحية. فقد وقفوا جميعاً إلى جانبه، ولم يُدر أحدٌ ظهره إليه مستقبلاً العدو، أو مظهراً أية رغبة في التفاوض مع المنتصر لأن الفشل بات حليف قادتهم، بالعكس تماماً فقد تجمّعوا أمام بابه وهتفوا له وحيّوه بلقب الإمبراطور عندما برز لهم واستلموا يده، وألقوا بأنفسهم على الأرض وراحوا يتوسّلون ويضرعون بأعين باكية، ليقف إلى جانبهم ولا يتخلّى عنهم لأعدائهم وأن يتصرف كما يشاء بمصائرهم وأرواحهم التي ستبقى ملك يمينه ما ظلّ فيهم نفس يتردد. كان صدق عواطفهم وحماستهم عامةً حقيقية. وبرز جندي بسيط من الكتل المتراصّة وانتضى سيفه ووجه إلى أوتو العبارات التالية:

- امتحن إخلاصنا بهذا يا قيصر. ليس بيننا رجل إلاّ ويطاعن في سبيلك كما أطعن الآن.

قال هذا وغيّب نصل سيفه في احشائه.

ومع هذا كلّه فقد وقف أوتو كئيباً صامتاً. ثم تلفّت متطلّعاً فيهم بوجه صارم يشعّ منه الحزم والعزم وقال:

- أيها الجنود الرفاق. إن هذا اليوم الذي يقدّم لي هذه الأدلّة الصادقة على حبّكم لهو أفضل وأسمى من ذلك اليوم الذي بايعتموني فيه إمبراطوراً. فلا تأبوا عليّ إذن سعادةً أرفع من هذا شأناً، وهي أن أسترخص حياتي للمحافظة على أرواح هذا العدد الكبير من الرجال الشجعان. فلتسمحوا لي في هذا على الأقل أن أكون جديراً

بالإمبراطورية، أعني أن أموت فداءً لها. وفي رأيي أن العدوّ لم ينل حتى الآن نصراً تاماً، ولم يربح معركة فاصلة. ليس خفيّاً عنّي أن جيش موسيا الذي يتجه الآن إلى البحر الأدرياتيّ لا يبعد كثيراً عنا. وأن آسيا وسورية ومصر والفرق التي تقاتل اليهود هي معنا. ومجلس الشيوخ يقف إلى صفنا، ونساء العدوّ وأولاده هم تحت رحمتنا. لكن معركتنا مع الأسف ليست معركة دفاع عن إيطاليا، كتلك المعارك التي جرت ضد هنيبعل أو پيروس، أو قبائل الچمبري. فها هنا الرومان يقاتلون الرومان، والأمر سواء أكتب لنا النصر أم مُنينا بالهزيمة فبلادنا هي التي ستعاني النتيجة. وإننا لنرتكب جُرماً فالنصر سيتمّ على حساب أمّتنا كائناً من كان الغالب. كونوا على ثقة - وأكرّر هذا - كونوا على ثقة بأني قادر على موت بشكل أشرف مما أنا قادر على الحكم. ولست أفهم قط كيف يسعني تقديم خدمة كبيرة لبلادي بانتصارِ أحرزه، مثلما أخدمها بموتي في سبيل إشاعة السلام والاتحاد وإنقاذ إيطاليا من مثل هذا اليوم السيّئ النقيبة.

وأقبل عليه الجميع يحاولون صدّه عما اعتزمه بالرجاء والضراعة فلم يتزحزح عن موقفه. واستأذن من أصدقائه، وطلب الشيوخ الحاضرين أن يعجّلوا بالرحيل، وكتب بذلك للغائبين منهم. ووجه إلى المدن رسائل يرجو فيها أن يقدّموا لهم كل التسهيلات والتكريم عند مرورهم. ثم استدعى ابن أخيه كوچيوس Cocceius وكان بعد حدثاً، وطلب منه أن يطرح كل خوفٍ جانباً لأن أسرة ڤيتيلليوس وزوجه وأمّه عوملن معاملة طيّبة جداً لم تختلف عن معاملته لذويه وقال له:

- إن ما منعني عن تبنّيك إلى هذا اليوم هو رغبتي في أن تشاركني السلطة فيما لو كتب لي النصر، وأن لا تشاركني سوء حظّي إن كتبت لي الهزيمة.

واستطرد يقول:

- انتبه يا بنيّ إلى كلماتي الأخيرة هذه: لا تنسَ بفرط إهمالٍ، ولا تتذكر بكثير حماسة، أن عمّك كان قيصراً.

وأخذت الضجة تعلو تدريجياً بين الجنود في الخارج. فقد أخذوا يتوعّدون الشيوخ ويتهدّدونهم عندما بدأ هؤلاء يستعدون للرحيل. فخرج إلى الجنود مرة أخرى، وقد ظهرت عليه أمارات الصرامة والغضب وفارقه لينه ورقّته وراح ينهرهم بجفاء ودالّة ذي السلطان. وأمر المتسبّبين بالشغب أن يتركوا الموضع حالاً فأطاعوا ولم يتمرّد عليه أحد منهم.

كان الوقت مساءً، فشعر بعطشٍ وشرب بعض الماء، ثم تناول خِنجرين. وبعد أن تفحّص نصليهما بدقةٍ ترك أحدهما جانباً ودسّ الثاني تحت إبطه داخل طيات ثوبه. ثم

استدعى خدمه وفرّق عليهم بعض الأموال لا مسرفاً ولا قانتاً كأن المال لا يعود له أصلاً. وأخذ بعين الاعتبار استحقاق كل واحدٍ عند تقرير مبلغ عطائه وبصورة يتمثل فيها العدل والقسطاس. وبعد أن فرغ من ذلك صرفهم وقضى بقية ليله يغطّ في نوم عميق حتى أن ضباط خفر الليل كانوا يسمعون شخيره. وفي صباح اليوم التالي استدعى عتيقاً له كان مكلّفاً بتنظيم سفر الشيوخ فسأله عن أحوالهم وعن سلامتهم فطمأنه قائلاً إن حاجاتهم قد أُمّنت جميعاً وهم لا يشكون شيئاً فقال أوتو:

- فنصرف إذن، وأظهر نفسك للجنود، أو سيقطّعونك إرباً إن بقيت معي، لأنهم سيظنون بأنك ساعدتني على قتل نفسي.

وما إن انصرف هذا، حتى ركز أوتو خنجره بصورة عمودية أمامه وقبض عليه بكلتا يديه وألقى بنفسه على النصل فخرجت روحه بآهة واحدةٍ فقط تعبيراً عن الإحساس بالألم الفجائي، أو تنبيهاً لأولئك الذين كانوا ينتظرون في الخارج. وما إن أخذ أتباعه يصعّدون الحسرات معبّرين عن حزنهم حتى سرت المناحة في المدينة كلها وامتلأت بالندب والعويل. وأسرع الجنود فاقتحموا الباب وهم يصرخون صرخات شديدة وقد غلب عليهم الأسى وراحوا ينحون على أنفسهم باللوم لأنهم قصّروا في المحافظة على حياة انتزعت في سبيل المحافظة على أرواحهم. وظلوا هناك ولم يتخلّ عن الجثة أحد اطّلاباً لنجاته أو خوفاً من دنوّ العدوّ بل أقاموا محرقةً جنائزية. وبعد أن أجروا ما يجب إجراؤه على الجثمان حملوه إلى المحرقة واصطفوا كأنهم في عرض عسكري، وهم بكامل سلاحهم وكانوا يتزاحمون على شرف حمل النعش ورفعه. وألقى بعضهم بنفسه أمام الجسد وأخذ يلثم الجرح، وأمسك آخرون بيديه وركع البعيدون منهم على الأرض ساجدين له، كمظهر من مظاهر التجِلّة والاحترام. وكان ثمّ بعض من قتل نفسه بعد إشعاله المحرقة، ولم يكونوا خاصّة له أو مدينين له بفضل خاص أو اعتبار شخصيّ له أو يخشوا على أنفسهم من المنتصر لأمرٍ ما. إن ذلك ليثبت بصورة واضحة أنه ما من ملك شرعي أو غير شرعي شُيّع بمثل هذه العواطف الصادقة الجيّاشة التي أظهرها هؤلاء الجنود لأوتو فأطاعوه حتى في الساعات الأخيرة، ولم يمت حبهم له بموته وظل يبدو جلياً في البغض المميت الذي حفظوه لخلفه كما سيأتي تفصيله.

ووضعوا بقايا أوتو في جدثٍ وأقاموا فوقها نصباً لايثير أي تساول أو عداء أو حسدٍ بحجمه أو فخامته أو بالكتابة التي نُقشت عليه. وأنا نفسي شاهدته في بركسيليوم. كان بناءً عادياً نُقشت عليه العبارة التالية:

«إلى ذكرى ماركوس أوتو».

مات وهو في الثامنة والثلاثين بعد أن حكم ثلاثة أشهر تقريباً. وحَسُنت ذكرى موته أكثر مما ساء ذكرُ حكمه. فمع أنه لم يكن أفضل سلوكاً وعيشاً من نيرون إلاّ أنه مات بصورة أنبل من موته.

حنق الجنود على پولليو Pollio، وهو واحد من قائديهم إذ ذاك، لأنه أراد منهم أن يقسموا في الحال يمين الإخلاص لڤيتيلليوس. ولم يحاولوا اعتراض سبيل الشيوخ الذين كانوا قد تخلّفوا عن البقية حتى تلك الساعة. إلاّ أنهم أورثوا ڤرجينيوس رفوس قلقاً وانزعاجاً حين ألحّوا عليه بتولّي السلطة وقصدوا منزله بمجموعهم وهم مدجّجون بالسلاح وابتدأوا بالالتماس والرجاء ثم انقلبوا يلحفون ويشدّدون عليه النكير بقبول المنصب الإمبراطوري، أو بأن يكون وسيطاً بينهم وبين ڤيتيلليوس وجنده. ولكنه - وهو الذي رفض أن يكون قائداً لهم إبّان انتصارهم - وجد من الحمق أن يقبل بذلك بعد أن غُلبوا على أمرهم، كما أنه كان يكره أن يُرسَل وسيطاً لهم إلى الجرمان الذين لقوا منه في الماضي ما لا يحبون. فتسلل خفيةً من بابٍ سرّي وأفلت فلم يسعهم إلاّ إعلان ولائهم لڤيتيلليوس فعفا عنهم. وانضمّوا إلى وحدات كايچينيا.

الفهارس

١ ـ فهرس الأعلام

٢ ـ فهرس البلدان والأماكن والمواضع

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ط)

(غ)

(ف)

(م)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس البلدان والأماكن والمواضع

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ط)

(ل)

(م)

(ن)

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث